

د. كمال ديب

تاريخ المشرق المعاصر



مركز المشرق
للأبحاث والدراسات
Levant Center for Research and Studies

تاريخ المشرق المعاصر

الكتاب: تاريخ المشرق المعاصر.
المؤلف: د. كمال ديب
الموضوع: تاريخ
عدد الصفحات: 668
القياس: 17 x 24
تدقيق لغوي: هاني الحلبي

الطبعة الأولى، 2019

© جميع حقوق النشر والترجمة محفوظة
مركز المشرق للأبحاث والدراسات
بيت المشرق ، ساحل علما - جونيه، لبنان
رقم الهاتف: 00961 9 636400
00961 81 835109

البريد الإلكتروني: levant.research.center@gmail.com

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن من مركز المشرق للأبحاث والدراسات.

د. كمال ديب

تاريخ المشرق المعاصر



مركز المشرق
للأبحاث والدراسات

Levant Center for Research and Studies

قائمة المحتويات

- 7.....مقدّمة
- 11.....1. ماهية المشرق
- 27.....2. ولادة الجمهوريّة السوريّة 1920 - 1946
- 45.....3. ولادة الجمهوريّة اللبنانيّة 1920 - 1946
- 63.....4. مملكة العراق: من الانتداب البريطانيّ حتى ثورة 1958
- 75.....5. الأحزاب في المشرق
- 87.....6. فلسطين والأردن: من الانتداب البريطانيّ إلى نكسة 1947
- 107.....7. الصراع الدوليّ على سورية
- 137.....8. إجهاض الحركة الوطنيّة في الأردن
- 155.....9. لبنان ساحة التناقضات
- 167.....10. العراق: سنوات الثورة والفضوى
- 183.....11. لبنان يرتدّ على الإصلاح اليتيم
- 193.....12. سورية أمام زلازل الستينيّات
- 205.....13. المشرق في ظلّ البعث
- 221.....14. الحرب المشرقيّة - الإسرائيليّة 1967
- 243.....15. لبنان ومؤشّرات التدهور
- 251.....16. الحرب الأهليّة في الأردن
- 268.....17. سورية والعراق: الأخوة الأعداء
- 301.....18. الحرب المشرقيّة - الإسرائيليّة 1973
- 327.....19. الحرب اللبنانيّة
- 355.....20. لماذا لم يتّحد العراق وسورية؟
- 375.....21. تفجير سورية من الداخل
- 391.....22. الحرب المشرقيّة - الإسرائيليّة 1982
- 423.....23. الأردن ومشروع المملكة المتّحدة
- 433.....24. المشرق وحرب العراق - إيران
- 441.....25. تفتّت الدولة اللبنانيّة
- 457.....26. العراق يغزو الكويت
- 467.....27. وحدة المسارات؟ سورية ولبنان والأردن ومنظمة التحرير

28. حكم الترويكا: لبنان وصاية سورية - سعودية.....477
29. حزب الله وتحرير جنوب لبنان.....505
30. مأساة العراق وتراجع دولة البعث.....515
31. صفحة جديدة في سورية.....539
32. أميركا تحتل العراق وتحاصر سورية.....553
33. لبنان في نفق الاغتيالات والفضوى.....563
34. الحرب المشرقية - الإسرائيلية 2006.....571
35. فلسطين تقاوم الحرب والحصار.....585
36. المقاومة والتحرير في العراق.....597
37. الحرب الكونية على سورية.....625
- خاتمة صمود المشرق.....663

مقدمة

أولاً، هذا كتاب جديد في أطروحته ومضمونه. يبتعد عن الكتب التقليدية في طرقة باب تاريخ المشرق المعاصر، فلن نقدّم هنا معالجة عادية لكل كيانٍ سياسيٍّ كحالة منفصلة. بل ننظر إلى المشرق كمنطقة متواصلة جغرافياً وديمغرافياً بحيث تكون المعالجة الصحيحة هي دراسة كيفية تفاعل الكيانات بينها وكيف تؤثر في بعضها البعض في سياق متواصل ومشوّق. فلا يُنظر إلى أحداث كل بلد وكأنها شأن منعزل لا علاقة له بأحداث البلدان الأخرى، سواءً تركت أحداث هذا البلد أثراً على الكيانات الأخرى أو أنّ أحداث تلك الكيانات هي التي تؤثر في هذا البلد. وبهذا يستفيد القارئ أضعافاً مضاعفة مقارنة بكتب تقدّم عرضاً جافاً لبيانات عن كل بلد.

ثانياً، إنّ الفترة الزمنية التي يغطيها هذا الكتاب تبدأ عام 1918 أي منذ انحسار السلطنة العثمانية وقدم الاستعمار الغربيّ إلى هذه الديار تحت زيف شرعية الانتداب الذي فرضته عصبة الأمم. ولا ريب في أنّ أحداث القرن الذي تلا الحرب العالمية الأولى يمكن اختصاره على أنّه تبعات اتفاقية سايكس بيكو عام 1916. قد يقول البعض إنّ مصطلح "الشرق الأوسط" هو الأفضل لأي تحليل جيوبوليتيكي (الجغرافية السياسية)، على أساس أنّ مسرح الأحداث يمتد فعلاً من أفغانستان إلى شمال أفريقيا ومن جبال القفقاس إلى القرن الأفريقيّ. ولكن ليس في هذا القول أيّ أساس علمي بل هو تركيبة من التراكم التي حفل بها القاموس الاستعماريّ الغربيّ وهو ما سنفتنه في الكتاب. فمصطلح الجيوبوليتيك بات فضاءً اليوم ويحمل عدداً من المعاني، يدخل في عرض وتحليل التنافس بين قوى جبّارة في العالم وتأثيرها على مساحات جغرافية شاسعة وعلى الشعوب التي تعيش فوق هذه الأراضي. وهذه القوى الجبّارة لا تقتصر فقط على الدول بل أيضاً على حركات سياسية وتنظيمات مسلحة - تعمل جميعاً على السيطرة على رقع جغرافية كبرى وصغرى. فيصبح من الضروريّ تكبير رسم البيكار إلى أبعد من حدود كيانات سياسية وربط الأحداث في أكثر من دولة ومنطقة لفهم أفضل. وهذا ما فعلته الدول الاستعمارية الأوروبية في ميادين الحروب وخاصة في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية¹.

وما نستفيد منه هنا هو أنّ الجيوبوليتيك إنّما يجعل من الأوطان ساحات حروب وأزمات ويفصلها على مقاس مصالحه السياسية والاقتصادية والعسكرية. فثمة خريطة لجيوبوليتيك الطاقة من نفط وغاز تختلف عن تلك المخصصة لجيوبوليتيك توزّع الأديان والأعراق، أو جيوبوليتيك التجارة وطريق الحرير، الخ. فلا تجعلنا مصالح وأطماع الأمم ننسى مصير الأوطان الصغيرة وتراثها وحضارتها. وما اتفاق سايكس بيكو على تجزئة المشرق سوى تفصيل في مشروع أكبر هو هيمنة القوى الغربية على الكرة الأرضية اقتصادياً وعسكرياً وثقافياً.

وطبعاً لا يغفل المرء أنّ تاريخ المشرق يعود إلى آلاف السنين يبدو معها ابتداء القصة منذ العام 1918 عشوائياً، الا أنّ ثمة أسباباً حقيقية تجعل الانطلاق من العام 1918 محورياً. فهو عام سقوط سلطنة حكمت بلدان المشرق لفترة أربعة قرون وظهور كيانات جديدة هي التي نعرفها اليوم. وليس فقط أنّ ولايات السلطنة - حلب ودمشق وبغداد - وسنحقياتها ومتصرفية جبل لبنان قد زالت، وظهرت دول لبنان والعراق وسورية،

¹ Yves Lacoste, *Géopolitique, la long histoire d'aujourd'hui*, Paris, Larousse, 2006, p. 8.

بل إنَّ كيانين ظهرَا في جنوب المشرق، الأول هو إمارة شرق الأردن والثاني كيان "إسرائيلي" الذي نفَّذ المشروع الصهيونيّ في المنطقة. ما يعني أنّ عوامل وحقائق وأنظمة قد ظهرت وهي التي طبعت المئة عام التالية.

هذا الكتاب إذاً هو نتيجة أبحاثي الجزئية الطويلة منذ أكثر من عشر سنوات، حتى تبين لي التالي:

- أنّ سورية والعراق لعبا دوراً أساسياً في حرب لبنان 1975 - 1990 وأنّ المنظمات الفلسطينية المتعددة كانت عنصراً مهماً في تلك الحرب.
- أنّ الحروب المتتالية مع "إسرائيل" - 1948 و1967 و1973 و1982 و2006 و2008 و2014 - كانت في حقيقتها صراعاً بين الحركة الصهيونية التي يدعمها الغرب وبعض الدول العربية من جهة وكيانات المشرق وخاصة في بر الشام من جهة.
- أنّ حزب البعث حكم سورية والعراق لعقود طويلة وهو حزب تأسس في دمشق. وأنّ ما حصل في أي من البلدين انعكس مباشرة على البلد الآخر.
- أنّ الحرب الأهلية في الأردن 1969 - 1971 شملت ليس فلسطيني الأردن والأراضي المحتلة وحسب، بل جذبت سورية والعراق.
- أنّ تقطيع أوصال المشرق بموجب اتفاقيات سايكس بيكو والتجزئة المبعضية التي مارستها بريطانيا وفرنسا أضعف دوله وأوقف التبادل الاقتصاديّ والبشريّ بين حلب والموصل وبين دمشق وبيروت ودمشق وبغداد، وبت الإسكندرون وكيليكيا عن الوطن الأم وأخرج فلسطين من الدورة الاقتصادية الاجتماعية للمشرق.
- والمحصلة أنّ المشرق رغم التجزئة لا يزال يعيش تواملاً اجتماعياً وثقافياً تشعّ عليه نخب بيروت ودمشق وبغداد الثقافية ويعرف سكانه أنّ وثاقهم الحضاريّ هو أبقى وأقوى من التجزئة. ابن الموصل يعرف صلته بحلب، وابن بيروت يعرف صلته بدمشق وابن القدس يحنّ إلى عمّان والشام وصيدا وطرابلس.
- على سبيل المقارنة، لا يبدو أنّ الدول العربية المجاورة للمشرق جزعة بما فيه الكفاية على مصيره. وباستثناء مصر الناصرية وبعض الدعم الماليّ من دول الجزيرة العربية، كانت سياسات الدول العربية المجاورة للمشرق مناهضة لنهضته وتحرّره.

كمال ديب

كندا

1 تموز 2019

1. ماهية المشرق

أصول التسمية

المشرق هو التسمية التي أطلقت في ما مضى على تلك السبحة من المدن التي احترفت التجارة وتغلغل عبرها الرحالة الأوروبيون إلى الشرق. من اسطنبول إلى الاسكندرية، مروراً بأزمير وأضنه وبيروت، كانت هذه المدن مراكز انصهار ثقافيّ تجاوزت اللغات والعادات والديانات. ولكن العوالم المتجدرة التي سبقت التاريخ عادت في مطلع القرن العشرين لتصبح هذه المدن ببطء وتصميم، وصولاً إلى تدميرها².

وثمة تحديدان للمشرق الأول جغرافيّ وينحصر بشرق المتوسط أو ما يُسمّى تاريخياً "بلاد الشام"، والثاني حضاريّ يضم إضافة إلى بلاد الشام، بلاد ما بين النهرين وذلك بسبب التواصل الثقافيّ والعمرائيّ الذي امتد من ساحل شرق المتوسط غرباً مروراً بحلب شمالاً ثم إلى الموصل شرقاً ونزولاً في حوضي دجلة والفرات. وما أبناء الحضارات الكنعانيّة والبابليّة والآشوريّة والآراميّة الا تشعبت نواة أصليّة، باستثناء الحضارة السومريّة جنوبيّ بلاد ما بين النهرين التي اعتبرت من الحضارات الهندو - أوروبيّة بلغة غير ساميّة. ونقدّم هنا بعض التفاصيل:

لقد حظيت منطقة شرق المتوسط عبر التاريخ بتسميات مختلفة أطلقتها الشعوب التي مرّت أو أقامت على الساحل وفي عمقه الجغرافيّ. فكان اسم Levante الذي أطلقه البيادقة (أي تجار دولة البندقية في إيطاليا) مباشرة بعد الحملات الصليبيّة في القرن الثاني عشر، وكانت تسمية "بلاد الشام" أو "المشرق" التي أطلقها أهل الجزيرة العربيّة³. كما أسماها المؤرّخون "سورية الجغرافيّة"، واستعمل الفرنجة "الصليبيون" عبارة Outremer "عبر البحار"، فيما استعمل الفرنسيون في القرنين الماضيين عبارة Proche - Orient أي الشرق الأدنى أو الأقرب، أو ببساطة، كلمة Le Levant أي اتجاه شروق الشمس.

وعبارة المشرق بمدلولها الإيطاليّ والفرنسيّ هي الكلمة المناسبة لغاية هذا الكتاب. ليس لأنها مرتبطة بالموقع الجغرافيّ الدال على شرق المتوسط فحسب، بل لأنها تحمل مضموناً حضاريّاً عن المجتمع الخلاق والموزاييك الثقافيّ الذي نما في المنطقة وشمل الموصل والنصف الشماليّ من العراق. كما أن كلمة المشرق تذكّر بالتغلغل التجاريّ الأوروبيّ الذي قاده الطليان والفرنسيّون، ففاق هذا التغلغل في نفوذه ووقعه، تأثير جيوش الإمبراطوريات.

يمتد المشرق طولاً على مسافة 600 كيلومتر من الاسكندرون في تركيا إلى غزة جنوباً، على امتداد ساحل المتوسط، وعرضاً لمسافة 1400 كيلومتر في العمق الجغرافيّ الممتد من البحر المتوسط إلى البصرة. ويقيم في المشرق حسب تقديرات الأمم المتّحدة ما يقارب 80 مليون نسمة⁴. وتُزِن المنطقة الساحليّة مدن تاريخيّة أبرزها الاسكندرون واللاذقيّة وطرطوس وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا وغزة. وأدت هذه المدن ولا تزال دوراً هاماً كمرافئ ومراكز تجاريّة لمدن الداخل الأسطوريّة مثال أنطاكيا وحلب وحماة وحمص

² Amine Maalouf, *Les Échelles du Levant*, Paris, Livre de Poche, 1998, p.3.

³ ويُقال "الشام" أي الشمال، مقارنة باليمن، أي اليمن، قياساً إلى موقع مكة الجغرافيّ في الجزيرة العربيّة.

⁴ هذا يشمل لواء الإسكندرون في تركيا والجمهورية العربيّة السوريّة والجمهورية اللبنانيّة والمملكة الهاشميّة الأردنيّة وكيان "إسرائيل" والضفة الغربيّة وغزة.

وبعلبك ودمشق والقدس وعمّان⁵. والمشرق هو وليد هجين لتأثيرات تاريخية قديمة من الشرق والغرب، كما أن شعوب المنطقة كانت تنتقل وتهاجر باستمرار عبر المشرق وآسيا الصغرى، ومن الشام إلى بلاد ما بين النهرين، وإلى وادي النيل والجزيرة العربية وبلاد الفرس.

ويُعتبر المشرق في أسفار التوراة نطاقاً جغرافياً سكانياً مفتوحاً ومسرح أحداث مقدّسة جرت في العراق وفلسطين ولبنان وسورية وغيرها، في تواصل حضاريّ وجغرافيّ، يسافر فيه الناس للتجارة والسكن والتعارف. وهذا يشرح المودّة الحضارية القديمة بين سكان الجزيرة العربية مثلاً والمشرق ووادي النيل، ثم بدرجة أقل، بين بلاد الإغريق والمشرق. وهنا لا يجب التقليل من شأن النفوذ الإغريقيّ على المشرق، إذ كانت بلاد اليونان وآسيا الصغرى أكثر التصاقاً بالمشرق من شعوب أوروبا الأخرى. وكذلك العكس حيث تعلّم الإغريق من المشرق الحروف الأبجدية والصناعة والبناء والتجارة، وكانت هذه من عوامل ولادة الإمبراطورية الهيلينية على يدي الإسكندر المقدونيّ عام 333 قبل الميلاد.

وإلى الجنوب من المشرق ثمة جسم جغرافيّ ضخم هو شبه الجزيرة العربية. وباستثناء الجنوب العربيّ (اليمن) وحاضراته، كانت الجزيرة العربية مجتمع قبليّ بسيط، خضع لفترات زمنية طويلة للنفوذ المصريّ والرومانيّ والحبشيّ (احتلّ الحبشيّون اليمن وأغاروا على الحجاز مراراً، وكانت آخر غزوة حبشيّة على مكة عام 570 ميلادياً، قادها أبرها). وفي القرن السابع جهّز سكان العربية قوّة بشرية بقيادة النبيّ محمد وبإلهام رسالة الدين الإسلاميّ، وغزت هذه القوة المناطق الجغرافية المجاورة ثم انطلقت لتغزو بلاد الشام والعراق شمالاً. ولم يقتصر الزحف الإسلاميّ على الجزيرة العربية والمشرق فحسب، بل شمل مساحات شاسعة من شمال أفريقيا وإسبانيا وجنوب فرنسا غرباً ثم بلاد فارس حتى وسط آسيا وحدود الصين شرقاً. وهكذا خلال السنوات العشر بعد وفاة النبيّ محمد، استطاع العرب قهر إمبراطوريتيّ ذلك العصر: البيزنطيين في معركة اليرموك جنوب دمشق، والفرس في معركة القادسية جنوب العراق.

اعتمد نظام الحكم العربيّ مبادئ الدين الحنيف وروحية مجتمع البادية، مقلّداً نهج الخلفاء الأربعة الراشدين - أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب. وسهّلت استيعاب المشرق ضمن الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة عوامل عدة منها المشاعر الأخوية التي أبداها سكان المشرق المسيحيّون نحو الجيش العربيّ الزاحف من الجزيرة، وغلبة اللغات السامية - من عربية وسريانية وأرامية على ألسنة سكان المشرق، وهي لغات مشتركة بين الهلال الخصيب والجزيرة. أضف إلى ذلك نقمة أهالي بلاد الشام على المحاولات الإغريقية المتكررة لهلينة سكان المشرق وصبغه بلغة وثقافة اليونان.

ورغم انحسار دور الجزيرة العربية، استمرّ انتشار اللغة العربية في المشرق وأصبح الإسلام ديانة لأعداد متزايدة من السكان بعدما كانت المسيحية هي الغالبة في بلاد الشام والعراق ومصر واليمن. وهكذا حقّق عرب الجزيرة ما عجز عنه الإغريق، الذين كانوا يحاولون هلينة شعوب المشرق وتلقين لغتهم. ففي ظلّ

⁵ Philip Hitti, *History of Syria including Lebanon and Palestine*, New Your, MacMillan, 1951.

كان الرومان أول من استعمل عبارة "سورية الجغرافية" في القرون المسيحية الأولى للدلالة على جزء من إمبراطوريتهم المطل على الساحل الشرقي للبحر المتوسط. وقبل ذلك كان المشرق مجموعة دويلات مدنية أقامها الفينيقيّون على امتداد الساحل من رأس شمرا شمال اللاذقية وحتى عكا.

الحكم العربي، اعتنق الكثيرون من المشرقين الإسلام فيما حافظت مناطق كثيرة على ديانتها المسيحية وخاصة في جبال سورية ولبنان. كما أن معظم سكان المشرق باتوا يتكلمون العربية إلى جانب السريانية الأم التي سبقت الغزو العربي. وإذ لم يكن ثمة خط جغرافي فاصل أو مناطق ثقافية مغلقة بين الجزيرة والمشرق قبل الفتح الإسلامي، كان عدد من قبائل المشرق هم عرب من المسيحيين ولغتهم الأم هي العربية (مثل الغساسنة والمناذرة). واستعمل المسيحيون العرب في المشرق قبل الإسلام اللغة العربية في صلواتهم وطقوسهم وفي دراسة اللاهوت. وكذلك كان عدد من قبائل الجزيرة العربية ينطق باللغة السريانية التي انتشرت جنوباً وشرقاً ولم تكن مقتصرة على أهل المشرق.

وباستثناء الفترة الصليبية (1099 - 1291) والغارات الصليبية المتقطعة في ما بعد، يمكن اعتبار المشرق منطقة جغرافية داخل الدولة الإسلامية منذ القرن السابع وحتى العام 1919، أي حتى هزيمة الإمبراطورية العثمانية، أي لمدة 1300 سنة. كما حكم المصريون المشرق لمدة 250 عاماً بعد رحيل الصليبيين من العام 1260 تقريباً حتى العام 1516 أي عندما انحدر الترك العثمانيون من جبال آسيا الصغرى إلى بلاد الشام وهزموا الجيش المصري في مرج دابق قرب حلب، وأعلنوا سلطنة إسلامية باسم آل عثمان في اسطنبول بدلاً من المماليك في القاهرة والخلافة العباسية في بغداد.

وامتدت الإمبراطورية العثمانية في أوجها من أبواب فيينا في وسط أوروبا، شاملة أجزاء من جنوب وشرق أوروبا، وحتى حدود بلاد فارس شرقاً وشمال أفريقيا غرباً، شاملة معظم الجزيرة العربية. وبسبب العلاقات التي توارثها المشرق من الصليبيين بعد قرنين من وجودهم فيه، ولتعددية سكان الإمبراطورية العثمانية الإثنية والدينية، بدأ النفوذ الأوروبي التجاري والثقافي يتغلغل في المشرق بشكل غير مسبوق ابتداء من القرن السادس عشر. ومما هذا النفوذ خلال القرون اللاحقة مستفيداً من التراجع البطيء للحكم العثماني.

وإذا كان المشرق هو وليد هجين لتزاوج الثقافتين العربية الإسلامية والمسيحية الأوروبية، فليس بالأمر السهل تحديد أي من الثقافتين كانت الأكثر حضوراً وتأثيراً في كيانات المشرق الحديثة. بل يتوقف ذلك عن أي مناطق جغرافية وجماعات إثنية ودينية نتكلم، وكيف تأثرت الجماعات - وبمستويات مختلفة - بالنفوذ العربي والأوروبي.

ورغم استمرار العلاقات التجارية بين المشرق وأوروبا والتي لم تنقطع منذ الحملات الصليبية، فإن النفوذ الأوروبي بمظهره العسكري والديبلوماسي والاقتصادي في المشرق لم يبرز بشكل لافت الا منذ القرن السابع عشر، مع عصر النهضة الأوروبية (انطلاقاً من مدينة فلورنسا في إيطاليا) ونهوض الدول المتطورة والمجهزة عسكرياً في القارة الأوروبية (فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا والدويلات الإيطالية).

في القرن الرابع عشر ورغم زوال الممالك الصليبية في المشرق، فإن أثرها بقي. ذلك أن سكان المشرق اعتادوا خلال قرنين على التعايش والاختلاط مع الفرنجة، وخاصة أولئك الذين أتوا من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا. حتى أن أجيالاً من الفرنجة أنفسهم ولدوا وعاشوا واختلطوا مع سكان المنطقة، يأكلون ويلبسون ويعيشون الثقافة المحلية بعاداتها وسلوكها. وبعد اندحار آخر الممالك الصليبية بقي الوجود الفرنجي في البلاد وأصبحوا

مسيحيين شرقيين أو اعتنقوا الإسلام ومع مرور الزمن أصبحوا جزءاً من المجتمع المشرقي. ويعكس التنوع الإثني لسكان لبنان وسورية اليوم ملامح وجوه الأفراد المتعددة ولون بشرتهم وأحياناً ضمن العائلة الواحدة. خاف الحكام المسلمون (الأيوبيون ومن بعدهم المماليك) أن يعود الصليبيون بحراً ويرسوا بسفنهم في مرافئ المشرق. ولذلك تم إقفال المرافئ وتخريبها وطمرها بالحجارة والتراب وأبعد المسيحيون والشيعية عن الساحل وشُجع استيطان المسلمين السنة من التركمان والأكراد لمناطق الساحل والدفاع عنها ضد الغارات الصليبية. وهكذا انحدرت مدن المشرق لمدة متتي عام حتى وصول الأتراك العثمانيين إلى الشرق الأوسط في مطلع القرن السادس عشر وافتتاحهم المنطقة للتجارة الأوروبية. ويعتبر الصدر الأعظم سنان باشا، إحدى أهم الشخصيات العثمانية التي عملت في الانفتاح على أوروبا، حيث قدّم نموذجاً في تشديد العثمانيين على أهمية التجارة مع أوروبا وضرورة احترام التجار، وذلك في كتابه عن وصايا إلى أمراء بني عثمان.

ومنذ احتل الأتراك العثمانيون المشرق عام 1516 بدأ التخلخل التجاري الأوروبي مستنداً إلى سلسلة اتفاقات مع السلطنة. لقد منح العثمانيون امتيازات مفصلة لفرنسا وبريطانيا وروسيا والإمارات الإيطالية، ما مهد للغزو الثقافي والاقتصادي والعسكري في ما بعد. وكان لمعظم هذه الدول علاقات مبكرة مع المشرق منذ الفترة الصليبية (الفرنسيين والإمارات الإيطالية كالبندقية وجنوى وبيزا)⁶. ولذلك عندما فتح العثمانيون المنطقة للتجارة كان الطليان والفرنسيون الأكثر استعداداً.

ومع مطلع القرن السابع عشر، اختفى المشرق القديم الذي كان نقطة صراع بين البيزنطيين والفرس والصليبيين والمسلمين، ليصبح نقطة لقاء تجاري ومصالح مشتركة بين الشرق الأدنى وأوروبا.

المشرق في حقبة الماركنتيلية

وجدت عبارة "المشرق" بمعناها الماركنتيلي الضيق أولى استعمالاتها عام 1413 عندما أسس تجار البندقية شركة كبرى للتعامل مع مرافئ المشرق وأسواقه تدعى la Compagnia del Levante أي "شركة المشرق". في البدء كان لقب "مشرقي" باللغات الأوروبية Levantine يُطلق على موظفي هذه الشركة وأصحابها من الطليان. فكان أهل البندقية الذين يزورون المشرق هم أول من حمل لقب مشرقي "ليفنتي" باللغة الإيطالية. ومع مرور الوقت أصبح هذا الاسم يُطلق على كل تاجر أوروبي في بيروت وحلب وطرابلس والموصل طالما اعتقد الناس أنه يعمل مع الشركة الإيطالية. وفي القرن السابع عشر، تطوّر معنى هذه العبارة وأصبح يطلق فقط على التاجر الأوروبي الذي يُقيم بصفة دائمة في المشرق أو على المشرقي المتحدّر من الصليبيين وليس على التاجر الزائر فحسب. ثم ظهرت في أحياء المدن الساحلية فئة من التجار الأوروبيين المرتبطين مع التجار المسيحيين المحليين فكان الإثنين يمثلان نموذجاً ثقافياً جديداً "ليفنتياً"، فلا هو أوروبياً خالصاً وليس محلياً صافياً.

⁶ Jan Morris, *The Venetian Empire*, London, Penguin Books, 1990.

وظهرت فئة التجار المحليّة من المسيحيّين العرب واليهود العرب في لبنان وفلسطين وسورية، إضافة إلى الأرمن والجاليات الإيطاليّة واليونانيّة وأقليات أوروبية أخرى احتكرت التجارة مع أوروبا. وأصبح تعبير "ليفنتي" يُطلق على كلّ هذه المجموعات الإثنية الأوروبيّة والمحليّة غير المسلمة التي ارتبطت بثقافة وتجارة مع أوروبا. وفي نهاية القرن التاسع عشر أصبحت للقب ليفنتي دلالة على الشطارة في التجارة والمهارة في إدارة الأعمال ومعرفة اللغات المحليّة (العربيّة والأرمنيّة والتركية والكرديّة) واللغات الأوروبيّة الرئيسيّة. فكانت سائر المدن الرئيسيّة المشرقيّة التي قطنتها أقليات مسيحيّة وأوروبية كبيرة جزءاً مما عُرف بالشرق في اللغات الأوروبيّة.

وكانت الإمارات الإيطاليّة (جنوى والبندقية وبيزا وتوسكانا (فلورنسا) الأكثر نشاطاً في التجارة مع مناطق السلطنة، أثبتت أحياناً حياديّتها حتى في تجارة السلاح ونقل السكان من مكان إلى آخر في أزمنة الحرب. وكان لإمارة توسكانا تأثير واضح في العمران المدنيّ في سورية ولبنان في القرن السابع عشر، من طرق وأبنية، في فترة شهدت توسكانا تقدماً فذاً بريادتها للنهضة الأوروبيّة.

ولأسباب متعدّدة، كان المسيحيّون، ومنهم متمولون أصبحوا تجاراً، ينتقلون من جبل لبنان ومن العمق السوريّ إلى بيروت التي زاد عدد سكانها على خمسة آلاف نسمة عام 1635 (وهو رقم أصغر بكثير مما كانته صيدا وطرابلس ودمشق وحلب والموصل في تلك الفترة). واتخذ النشاط التجاريّ طابعاً غير دينيّ حيث اختلط التجار من كلّ الطوائف في اتفاق ضمّنيّ هو مشروعية الربح. وازدهرت الصناعة إلى جانب التجارة والخدمات وخاصة صناعة الحرير وتجارته مع الإمارات الإيطاليّة ومع فرنسا.

لقد وقّعت السلطنة العثمانيّة ثماني اتفاقيّات مع فرنسا شملت عدداً كبيراً من الامتيازات الاقتصادية والاجتماعيّة وخاصة حول حق فرنسا في حماية رعايا السلطنة الكاثوليك. وعندما التحقت الكنيسة المارونيّة بروما عام 1736، حصلت فرنسا عام 1740 على امتياز حماية المواردية بعدما أصبحوا رسمياً تحت جناح روما وجزءاً من الحاضرة الكاثوليكيّة في العالم. كما حصلت روسيا على امتيازات أكبر من تلك التي حصلت عليها فرنسا في التجارة وحق حماية رعايا السلطنة من الروم الأرثوذكس وتنازل الباب العالي عن أراضٍ شاسعة لمصلحة روسيا في شرق أوروبا بعد سلسلة الهزائم التي مُنيت بها السلطنة هناك. ولاحظ الفرنسيّون ازدهار بيروت ووجهها الليفنتي الأوروبيّ فسّمّوها Petite Paris، وهو اسم حملته بيروت حتى سبعينيّات القرن العشرين كـ"باريس الشرق". وعيّن الفرنسيّون المارونيّ نوفل الخازن من جبل لبنان عام 1655 قنصلاً لرعاية مصالحهم في بيروت فتوارث آل الخازن هذا المنصب لمدة مئة عام، حتى احتلّ هذا المنصب موارد آخرون عام 1757.

بيروت وحلب

وفي القرن الثامن عشر ازدهر مرفأ بيروت وأصبح اختلاط المدينة بالجبل واضحاً، حيث انضمّ إلى سكان المدينة الأصليين من الروم الأرثوذكس والسنة، أعداداً من المواردية والدروز، عدا السكان المحليين. انتعشت في بيروت

جاليات أوروبية كثيرة منها اليونانيون والطياليان والفرنسيون، يعملون جميعاً مع السكان المحليين والأرمن والترک والكرد في التجارة والحياة الاجتماعية، ويتخذون لأنفسهم ولأفراد عائلاتهم منازل دائمة. ومن بيروت انطلق الأوروبيون إلى العمق السوري وخاصة إلى حلب، ليطوروا استثماراتهم وخطوط تجارتهم وحظوظهم من أسواق الاستهلاك. وطالما أن خطوط المواصلات هي مفتاح التجارة، كانت الطرق تمتد في كل اتجاه على الساحل ومع الداخل لتسهيل نقل البضائع وسفر التجار.

طال الازدهار شبكة المواصلات، حيث أنهى مستثمرون فرنسيون بناء طريق بيروت دمشق لعربات الخيل عام 1857، في حين تولى رجال أعمال مسيحيون من بيروت بالشراكة مع فرنسيين بناء مرفأ جديد في بيروت مكان الحوض القديم بات جاهزاً للعمل عام 1892، كما دشنت سكة الحديد من بيروت إلى دمشق والعمق السوري عام 1895.⁷ واعترفت الحكومة العثمانية بأهمية بيروت فجعلتها عام 1888 عاصمة لولاية كبرى هي ولاية بيروت، امتدت على مساحة 30 ألف و500 كلم مربع من اللاذقية إلى عكا، وضمت مدن طرابلس وصيدا وصور وعكا، بعدد سكان ناهز الـ900 ألف نسمة. وتُلاحظ غرابة حدود هذه الولاية التي كانت عبارة عن شريط ساحلي رفيع للغاية محافظة من الحكومة العثمانية على تعهداتها للنظام الخاص بجبل لبنان الذي وقّعه الدول الكبرى عام 1863 ومهد للمتصرفية. فازداد عدد سكان مدينة بيروت من 80 ألفاً عام 1865 إلى 136 ألفاً عام 1908.

وبدا تجار بيروت وحلب منهمكين في السعي وراء جني المال وإنجاز الصفقات المربحة بصرف النظر عن الجنسية أو الإثنية أو الدين للطرف الذي يتعاملون معه. وأصبح التاجر نموذج الشخص الذي يُجيد لغات عدة: العربية والفرنسية والإنكليزية والإسبانية والإيطالية والتركية والأرمنية والروسية واليونانية. حقاً لم يكن معقولاً أن يكون تاجراً مشرقياً ناجحاً بدون معرفة ثلاثٍ من هذه اللغات على الأقل. وقد يُعجب المرء بكيفية إتقان تجار ونخب المشرق هذا العدد من اللغات والخبرات في عالم التجارة. وهذا ليس لغزاً. فاللغة العربية هي اللسان الأم لسكان المشرق، في حين كان قسم من السكان المحليين ينطق الأرمنية واليونانية والتركية كلغة أم بصفتهن أيضاً رعايا السلطنة. وسمح انتشار مدارس ومعاهد الإرساليات الفرنسية والإنكليزية والمسكوبية في تعلم اللغات الفرنسية والإنكليزية والروسية. أما بالنسبة للغة الإيطالية، فثمة سببان لانتشارها وشعبيتها في المشرق. الأول هو قدم التجارة الإيطالية مع المنطقة منذ قرون وإقامة التجار الطليان في المدن الرئيسية خاصة في بيروت وحلب بشكل دائم. والسبب الثاني هو العلاقة الخاصة بين الإمارات الإيطالية وساحل المشرق وانتشار اللغة الإيطالية.

من الناحية التجارية، لم تنتم الفلسفة المشرقية الماركنتيلية في القرن التاسع عشر إلى عرق أو قومية أو دين، بل مثلت الرأسمالية المتوحشة بوصفها الكلاسيكي في كتاب "ثروة الأمم" لآدم سميث، بأن السوق لا يعرف أي عوائق أو حدود جغرافية أو قانونية أو عوارض من أي نوع، والعميل الاقتصادي (التاجر أو الصناعي) يسعى دوماً إلى المزيد من الثروة والتوسع. فكان التاجر اليوناني أو الإيطالي يشعر أنه في بيته وبين أهله في بيروت أو حلب، وكذلك التاجر المشرقي الذي يزور البندقية أو فلورنسا أو ليون بهدف الربح والتجارة.

⁷ كمال حمدان، الأزمة اللبنانية، بيروت، دار الفارابي، 1998، ص. 80.

وكانت ترتسم الفئة التجارية المأليّة في بيروت المرتبطة برؤوس الأموال الأوروبّيّة في خليط من بيوتات الأثرياء الوافدين من العمق السوريّ والأسر الأرستقراطية البيروتية. فكان جُلّ أثرياء بيروت من الروم الأرثوذكس بالدرجة الأولى إلى جانب الموازنة والروم الكاثوليك والسنة.

مفهوم "الشرق الأوسط"

استخدام المفاهيم المغلوطة هو أمر خطير يُصيب الهويّات ويغسل الأدمغة. وفي استخدامنا الموثق لمفهوم "المشرق" نحذّر من استخدام مفهوم "الشرق الأوسط" المملوم والمغرض. فمصطلح "الشرق الأوسط" بات سائداً حتى في كلام عامة الناس دون فهم لماذا سُمّي "الشرق" ولماذا "الأوسط"، حتى باتت عبارات مثل "أنا شرق أوسطي" - "طعام شرق أوسطي" - "موسيقى شرق أوسطية" تتكرّر على السنة الناس وفي الإعلام دون تفكير. وهذا المصطلح يعود إلى بدايات القرن العشرين في الوثائق الرسمية للاستعمار البريطانيّ ثمّ الأميركيّ للدلالة على منطقة جغرافيّة تضم إضافة إلى المشرق العربيّ تركيا و"إسرائيل" وإيران وغيرها من الدول. وكلمة "الشرق" بالنسبة للمستعمر تعني "شرق العالم الغربيّ" أي إلى الشرق من أوروبا. أما "الأوسط" فلأن المنطقة هي في وسط هذا الشرق الذي يمتد من الصين والهند في أقصى الشرق إلى شمال أفريقيا غرباً، فاعتمد تحديد أوسط كنقطة بين الحديين. وهكذا لمفهوم "الشرق الأوسط" هو مصطلح استعماريّ أوروبيّ حيث أوروبا هي "مركز العالم". وعندما تغلغت الحركة الصهيونيّة في فلسطين أخذت تستخدم مصطلح الشرق الأوسط لأنه فضفاض يسمح بصمّ اسم "إسرائيل" إلى المنطقة ويمسح هويّة سكانها. لقد دعا تيودور هرتزل صاحب كتاب "الدولة اليهوديّة" إلى ضرورة قيام "كومونولث شرق أوسطي" يكون فيه للدولة اليهوديّة شأن فاعل ودور اقتصاديّ قائد. كما أنّ الصهيونيّة في أميركا وبريطانيا رُوّجت لفكرة "الشرق أوسطية" في الأوساط السياسيّة والشعبية في الغرب. وظهر هذا المصطلح في الوثيقة التي أصدرتها الوكالة اليهوديّة ودعت فيها إلى ضمّ فلسطين إلى اتحاد "شرق أوسطي" واسع يتمّ تأسيسه. أمّا عبارة "الشرق الأوسط الكبير" فهو مصطلح ابتدعه اليمين الأميركيّ المحافظ في أميركا لوضع خريطة جغرافيّة سياسيّة تبتلع المنطقة العربيّة وتعمل على طمس المقوّمات الثقافيّة والحضاريّة وتذويب كيانات المنطقة في منطقة جغرافيّة أوسع تمتد من حدود الصين إلى المغرب. وفي العام 1994 نشر رئيس حكومة "إسرائيل" السابق شيمون بيريز كتابه "الشرق الأوسط الجديد" وأخذ رؤساء أميركا يتداولون مصطلح "الشرق الأوسط الكبير" ضمن كلامهم عن إصلاح سياسيّ واقتصاديّ للدول العربيّة والإسلاميّة، ما جرّ إلى المأسي التي نشهدها في بلاد المشرق وبلاد العرب عامة منذ العام 2000.

مفهوم "المشرق العربي"

ثمة مفهوم آخر أقل خبثاً هو المشرق العربي، وهو تعريف جغرافي حيث يُقسم العالم العربيّ إلى قسمين، شرق وغرب. فتلك الدول إلى الغرب من مصر، أي ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا، هي "المغرب العربيّ". أما باقي الدول إلى الشرق ومن ضمنها مصر فهي "المشرق العربيّ". وهذا المفهوم وإن كان أكثر براءة من مفهوم "الشرق الأوسط وشمال أفريقيا" التفكيكي، إلا أنه يعاني من نقيصتين: الأولى أنه لا يعكس انتشار اللغة العربيّة، التي لا تقتصر على المشرق والمغرب بل تشمل مناطق ناطقة جزئياً بالعربيّة محاذية للدول العربيّة، كدول "الساحل" الأفريقيّ (في الصحراء الكبرى) مثل تشاد ومالي والنيجر، ودول القرن الأفريقيّ (الصومال ودجيبوتي وإريتريا) وجنوب غرب إيران وجنوب تركيا. والنقيصة الثانية أنه غير مفيد كأداة تحليلية اقتصادية واجتماعية، ويستحسن دوماً المفهوم الأكثر تداولاً وهو "العالم العربيّ" الذي يلتقي على اللغة والثقافة والتاريخ بأشكالها الأوسع.

الطائفية

ضمن مفهوم المشرق، يجدر التحذير من استعمال التحليل الطائفيّ في فهم تطور المشرق، بل يجب الارتكاز إلى مبادئ موضوعية في الاقتصاد والثقافة والتاريخ. فرغم أنّ المذاهب والأعراق قد سبقت كيانات المشرق المعاصرة التي تطلبت مواطنة موحدة لكل منها، فإنّ هذه الأسبقية لا تتضمن محرّكاً يجعل الشعب يعيش الوعي والسلوك الطائفيّ والعرقّي في البلاد. بل لا يمكن للوعي والسلوك الطائفيين أن يتحرّكا الا ضمن الشبكة المصلحية الاقتصادية والسياسية في البلاد، فهما لا يتحرّكان مستقلّين. والدليل على ذلك أنّ أسبقية وجود الطوائف هي دائمة ومستمرّة، بينما السلوك والوعي الطائفيان غير ثابتين ولم يسبقا الدولة العصرية. فتصبح أسبقية الطوائف مسألة اعتيادية وحقيقة تاريخية لا تتحرّك نعرتها الا بوجود عوامل اقتصادية وسياسية سلبية معينة.

ولقد تعايش عامل التنوع الدينيّ في لبنان وسورية والعراق مع عامل الحدائث السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأصبح جزءاً من واقع البلاد ونسيجها. وعلى هذا الأساس فإنّ تحديد الهوية بين "السابق" (أي المذهب) و"العصريّ" (أي المواطنة) في ذهنية الأفراد والجماعات يتوقّف على تفسيرهم لما هو أفضل لخدمة مصالحهم الشخصية ضمن واقع اجتماعيّ معين. فيطغى الأول - أي الطائفيّ - إذا شعر المرء بأنّه يتعرّض للتمييز بسبب مذهبه، ويطغى الثاني عندما يشعر أنّ الدولة أو النظام السياسيّ القائم يوفّر الرعاية بشكل عادل نسبياً. وعلى هذا الأساس أيضاً تصبح عوامل الحاجات الاقتصادية ومساائل الاستقرار والأمن وسياسة

⁸ Elisabeth Longuenesse, "The Class nature of the State in Syria. Contribution to an Analysis", in *MERIP Reports*, vol. 4, May

1979, no. 77, pp. 3 - 11.

Elisabeth Longuenesse, "The Syrian Working Class Today", in *MERIP Reports*, vol. 15, July - August 1985, no. 134, pp. 17 - 24.

الدولة الإقليمية والدولية خاضعة لمصالح طبقية ومدارس فكر اقتصادي وسياسي وحسابات ربح وخسارة، وليس إلى منطلق مذهبي تبسيطي. فتمظهر الطبقات في مصالح تجارية ورسمية وعسكرية قد تجمع أطياف المذاهب كلها وليس في مصالح طائفة بعينها. كما أن السياسات العليا للدولة تخضع لحسابات مؤسسية معقدة لا تشبه قرارات شخصية في تعيين محافظ هنا أو عسكري هناك.

ومن الطبيعي أن تلعب الولاءات الطائفية والمناطقية والقبلية/العشائرية دوراً كبيراً في البلاد عبر إقامة شبكات زبائنية في أنحاء المشرق كما هي الحال في معظم دول العالم وحتى في أميركا نفسها، ناهيك عن الدول العربية. ويقي الفارق في عمق هذه الشبكة وامتداد جذورها ودرجات الفساد في مسالكها. ولم يكن ممكناً تدعيم شرعية الدولة في سورية والعراق مثلاً بالاستناد إلى المنظمات الشعبية واعتراف الأحزاب الأخرى، بل احتاج الأمر إلى بناء ولاء طبقية وشبكة زبائنية تعيش من النظام ومعه، وما يعني ذلك من ظهور فوارق اجتماعية مؤلمة وعدم مساواة وغياب العدالة الاجتماعية وبروز ملامح طائفية من حين لآخر. وكان لبناء هذه القاعدة الطبقية والشبكة الزبائنية ثمن اقتصادي باهظ تحمله النظام لعقود عدة.

هذا الأسلوب الأخير والمعروف بـ"منهج الاقتصاد - السياسي" أطلقه منذ الخمسينيات الباحث الماركسي الفلسطيني حنا بطاطو، الأستاذ في الجامعة الأميركية في بيروت. فقد وضع بطاطو عدداً كبيراً من المؤلفات عن سورية والعراق، أصبحت منذ الثمانينيات أساساً لمؤلفات جادة عن سورية والعراق في الغرب. حتى أن البروفسور ريموند هنيبوش رأس مركز أبحاث يستند إلى منهج الاقتصاد - السياسي في جامعة سانت أندروز في سكوتلندا ووضع كتباً عن سورية. وكذلك البروفسور الألماني فولكر برتيس، الذي كان أستاذاً في الجامعة الأميركية في بيروت، وضع أيضاً كتاباً بات محورياً عام 1997 بعنوان "الاقتصاد السياسي في سورية في حقبة الأسد"، مؤكداً أن لا بحثاً سياسياً سيكون كاملاً عن سورية بدون تحليل الخلفية الاقتصادية - الاجتماعية. كما أن البروفسور ريموند هنيبوش ذهب أبعد من ذلك بأنه يرى أعمال وسياسات السلطة في سورية إنما نابعة من مصالح الدولة العليا وليس من مصالح أفراد في كتابه عن النظام السلطوي في سورية¹⁰.

محورية اتفاقية سايكس بيكو

بعد الحرب العالمية الأولى عام 1918، سقطت الولايات العربية في السلطنة العثمانية بأيدي دول الحلفاء¹¹، فكان ما أصبح في ما بعد دولتي لبنان وسورية من نصيب فرنسا، وما أصبح في ما بعد العراق وفلسطين بما

⁹ Volker Perthes, *The Political Economy of Syria under Asad*, London, I.B. Tauris, 1997.

¹⁰ Raymond Hunnebusch, *Authoritarian Power*, p. 324.

¹¹ Zeine N. Zeine, *The Struggle for Arab Independence: Western Diplomacy and the Rise and fall of Faisal's Kingdom in Syria*,¹¹

Beirut, Khayat's, 1966, 2nd Edition.

فيها شرق نهر الأردن من نصيب بريطانيا وذلك بموجب اتفاقية سايكس - بيكو التي وقعتها فرنسا وبريطانيا عام 1916¹².

جاء الانتدابان الفرنسيّ والبريطانيّ على المشرق وفي نيتهما تجزئة حصتهما على أساس طائفيّ وعرقيّ إلى دويلات عدّة، وذلك ضد مشاعر سكان البلاد الذين عبّروا بنسبة عالية عن رغبتهم بقيام دولة مستقلة وغير مجزأة. وعلى سبيل المثال رفض المؤتمر الوطنيّ السوريّ في تموز 1919 في مقرّراته مخطط سايكس بيكو ورسالة (وعد) بلفور البريطانيّة التي وعدت بإنشاء وطن قوميّ لليهود في فلسطين. وطالب المؤتمر بـ"دولة سوريّة" تضم سورية الحالية ولبنان وفلسطين، وقدمّ عرائض ومطالب أمام بعثة كينغ - كرين الأميركيّة التي زارت مدناً وقرى في بلاد الشام وتسلمت مذكرات فاق عددها ألفي مذكرة¹³. كما نشبت ثورة شعبية كبرى في العراق عام 1920 ضد الاحتلال الإنكليزيّ.

ولكن مشاعر الأهلين نحو وطنهم لم تكن ذات قيمة عندما وضع الحلفاء - عبر عصبة الأمم - المنطقة تحت انتداب فرنسيّ¹⁴ وبريطانيّ عام 1920. كما أنّ نسبة هامة من السكان فضّلت كيانات مستقلة وخاصة في جبل لبنان، حيث عملت نخب وطيّة ومنذ أواخر القرن التاسع عشر على قيام دولة لبنان الكبير. بعكس ما تذكره كتب التاريخ عن اتفاقية سايكس بيكو عام 1916 فإنّ خرائطها لم تكن وليدة الحرب العالميّة الأولى وتوافق دول الحلفاء، بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا على تقاسم ولايات الدولة العثمانيّة بعد هزيمتها. كما لم تقتصر الخرائط على المنطقة الجغرافيّة المعروفة بالهلال الخصيب. بل إنّ ثمة مرحلة استعماريّة طويلة امتدّت منذ القرن الثامن عشر، شهدت زحفاً أوروبياً متواصلاً على أراضي الدولة العثمانيّة من سائر الجهات (فرنسا عبر شمال أفريقيا وبريطانيا عبر مصر والجزيرة العربيّة وروسيا عبر شبه جزيرة البلقان وجبال القفقاس)، وعلى اقتصاد السلطنة ومرافقها ومؤسساتها.

كما أنّ خرائط سايكس - بيكو شملت المنطقة العربيّة الممتدة من شمال سورية والعراق ثم جنوباً شرقاً إلى الخليج العربيّ. وكانت بريطانيا قد حرّضت الشريف حسين الهاشميّ حاكم الحجاز على الثورة ضد الأتراك عند اندلاع الحرب العالميّة الأولى، ووعدته بأنّها ستدعم وحدة العرب في دولة تشمل الهلال الخصيب والجزيرة العربيّة بقيادة الهاشميين، أي الشريف وأبنائه. فاشتعل ما عُرف بـ"الثورة العربيّة الكبرى" ضد الأتراك عام 1915 استقطبت عناصر وطيّة مهمّة في العراق وسورية وفلسطين ولبنان، في حين كانت عناصر وطيّة أخرى تعمل للإصلاح ضمن الدولة العثمانيّة، وثالثة تعمل من أجل قيام كيان سوريّ يضم سورية ولبنان وفلسطين، وكذلك عناصر وطيّة رابعة تعمل من أجل قيام دولة لبنان.

كانت فرنسا - وحتى قبل حملة نابليون على مصر عام 1798 - تدرس المنطقة العربيّة عبر جواسيسها وقناصلها وتقارير الرخّالة والتجّار. وكانت بريطانيا تقوم بجهد مماثل، بواسطة وجودها التجاريّ والدبلوماسيّ

¹² اثناء الحرب العالميّة الأولى وبعد دخول تركيا الحرب إلى جانب المانيا، توصلت بريطانيا وفرنسا إلى اتفاق لتقاسم أراضي الإمبراطورية العثمانيّة بينها. وفي نيسان 1916 وقّع مارك سايكس ممثلاً بريطانيا وجورج بيكو ممثلاً فرنسا على نص اتفاقية عُرفت باسميها. وفي أيار 1916 وقّعت عليها أيضاً إيطاليا وروسيا.

¹³ Harry N. Howard, *An American inquiry in the Middle East: The King - Crane Commission*, Beirut, Khayat's, 1963.

¹⁴ Edmond Rabbath, *L'évolution politique de la Syrie sous Mandat*, Paris, Marcel Rivière, 1928.

والاستخباري في أنحاء السلطنة وخاصة في القاهرة وبيروت وحلب والقدس ودمشق وبغداد والموصل واسطنبول.

فتجمّع لدى البلدين الاستعماريين - فرنسا وبريطانيا - كمّ هائل من المعلومات والتقارير والخرائط عن بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية ومصر وشمال أفريقيا، ما ساهم في وضع خرائط متقنة ظهرت في تقسيمات البلاد في اتفاقية سايكس - بيكو. وتبيّن النظرة المتفحّصة لخرائط الاتفاقية أنّها قسّمت البلاد العربية بموجب معلومات تراكمت لدى فرنسا وبريطانيا على أساس الثروات الاقتصادية والطبيعية أولاً، ومن ثمّ على أساس التركيبة السكانية دينياً وإثنيّاً بشكل تبرز مناطق صرفة فيها أقليات دينية كالدروز والموارنة أو عرقية كالأكراد والأرمن. كما تبرز مناطق شاسعة بعيدة عن ساحل المتوسط جعلتها الخرائط تضمّ العرب السنّة كما تفصلهم عن الأتراك بكيانات تقطنها أقليات تخلق حاجزاً بين ما تبقى من السلطنة العثمانية والعرب السنّة في العراق وسورية.

وعلى هذا الأساس الاستخباري - العسكري - الاستراتيجي، كان الاتفاق على تجزئة الولايات العربية المحتلة إلى 15 كياناً ضمن منطقتي نفوذ فرنسي (أزرق) وبريطاني (أحمر) ومنطقة A (سلطة فرنسية مباشرة) ومنطقة B (سلطة بريطانية مباشرة):

أولاً - الساحل الشرقي للبحر المتوسط

(المنطقة الزرقاء - سلطة فرنسية مباشرة):

- تنشأ دولة للأرمن في كيليكيا وتطلّ على البحر وتكون ضمنها مدينة أضنة.
- يُعتبر سنجق الإسكندرون حيث تقيم أقليات تركية وعربية علوية منطقة خاصة.
- تُقام دولة علوية في جبال العلويين وساحل اللاذقية تمتدّ من الإسكندرون إلى النهر الكبير (حدود لبنان الشماليّة).
- تُقام دولة تضمّ معظم كاثوليكيي المشرق باسم لبنان الكبير.
- تُقام دولة درزية جنوب دمشق لتفصل سنّة دمشق عن العمق العربيّ السنيّ في شبه الجزيرة العربية.

ثانياً- حدود تركيا الجنوبيّة:

- تمتدّ الدولة الأرمنيّة الموعودة بموجب المنطقة الزرقاء (نفوذ فرنسي) حتى نقطة تقع شمال الموصل.
- تعتبر منطقة الجزيرة السوريّة (على نهري الفرات والخابور)، وهي بأغلبية كردية وبدوية عربية وبإمكاناتها الزراعية والنفطية، منطقة نفوذ فرنسي خاص وتُعرف بالمنطقة A.

ثالثاً- فلسطين والعراق:

- تمتد منطقة نفوذ بريطاني B من حدود فلسطين مع سيناء غرباً إلى حدود إيران شرقاً مروراً ببادية الشام، مشكلةً حاجزاً عريضاً بين بلاد الشام والجزيرة العربية (ما يشرح تواصل حدود مملكة شرق الأردن في ما بعد مع مملكة العراق مرسومة بالمسطرة)¹⁵.
 - تُعتبر أراضي العراق ابتداءً من بغداد وحتى الفاو منطقة إدارية بريطانية مباشرة.
 - تُعتبر الكويت منطقة إدارية بريطانية مباشرة.
 - يعتبر ساحل الخليج جنوب الكويت وحتى مضيق هرمز منطقة إدارية بريطانية مباشرة (وهو الساحل الذي سيضم المنطقة الشرقية من السعودية والبحرين وقطر والإمارات العربية).
- و بموجب الخرائط المتقنة والدقيقة كان المخطط هو هيمنة فرنسية بريطانية على المناطق الساحلية لبلاد الشام وشرق الجزيرة العربية وإبعاد السنة العرب إلى مناطق داخلية صحراوية الطبيعة إجمالاً، وتزوير ما تبقى من السلطنة العثمانية بكيانات أقلوية. أما ما خضع للسلطة الانتدابية المباشرة فقد كان في الحقيقة أرض واعدة بالثروة الاقتصادية وهي غنيمة طمعت بها بريطانيا وفرنسا. وإذ خرجت روسيا من الحرب العالمية الأولى بعد ثورتها الشيوعية عام 1917، قام أحد قادتها - ليون تروتسكي - بكشف وثائق عُثر عليها في خزانة القيصر في قصر الكرملين في موسكو، ومن ضمنها اتفاقية سايكس بيكو. فغضب الشريف حسين من الإنكليز عندما انتشرت الوثائق وعلم بمخططهم السري لتقسيم البلاد العربية. ولكنهم خدعوه وأقنعوه بالتزامهم باستقلال العرب ووحدة بلادهم ورجوه عدم الإصغاء للدعاوى الشيوعية من موسكو، وضرورة مواصلة عسيانه ضد الدولة العثمانية. وتزامن هذا النفي البريطاني الماكر لوجود اتفاقية سايكس بيكو مع إصدار حكومة لندن وثيقة في العام نفسه هي "وعد بلفور" وموجهة إلى الحركة الصهيونية في بريطانيا، تعد بإقامة دولة تجمع يهود العالم في فلسطين تنفيذاً للمشروع الصهيوني¹⁶.

تجزئة المشرق

في البداية ظهرت عراقيل على الأرض أمام تنفيذ مشروع سايكس - بيكو. إذ إن الجحافل العربية القادمة من الحجاز عبر فلسطين دخلت دمشق إلى جانب الجيش البريطاني على أساس أنها المحرر الأصيل والإنكليز هم الرديف.

¹⁵ كان من المفترض أن تكون فلسطين تحت احتلال فرنسي - بريطاني مشترك، ولكنها انتهت عملياً إلى احتلال بريطاني فقط عام 1918 لتقام دولة لليهود بموجب وعد بلفور (الذي أعلنه بريطانيا عام 1917) برعاية بريطانيا وتصبح القدس منطقة خاصة تمهيداً لوضعها تحت إشراف دولي.

¹⁶ Abdul-Latif Tibawi, *Anglo - Arab Relations and the Question of Palestine 1914-1921*, London, Luzac, 1977.

وفي دمشق أعلن الأمير فيصل بن الشريف حسين مملكة عربية في سورية ولبنان، ومنفصلة عن تركيا بموجب تعهّدات الإنكليز¹⁷. ولكن بريطانيا وفرنسا كانتا على موجة أخرى. فبعد اكتمال احتلالهما الولايات العربية وهزيمة السلطنة العثمانية، حصلتا على شرعية الاحتلال من مؤتمر مجلس الحلفاء الأعلى الذي انعقد في نيسان 1920 في سان ريمو في إيطاليا. فأقامت بريطانيا مملكتين اسميتين في العراق وشرق الأردن تحت سيطرتها تلبية لوعودها للشريف حسين¹⁸، واحتفظت بساحل الخليج (الذي سيصبح كيانات هي الكويت والبحرين والإمارات وقطر) لما تتمتع به هذه المنطقة من ثروات نفطية ومن تسهيلات تجارية مع إيران. ومنح البند 2 من وثيقة عصبة الأمم الشرعية للاحتلال الفرنسي والبريطاني على أنه انتداب، تحت غطاء تحضير الأراضي التي غنمها الحلفاء من تركيا للاستقلال ولبناء مؤسساتها لأن شعوب المناطق المحتلة قاصرة عن الوقوف على أرجلها في دول مستقلة. فكانت قرارات عصبة الأمم جراحة تجميلية لما كان أمراً معتاداً في ذلك العصر؛ أن تحتل دول كبرى بلاداً ضعيفة وتستولي على أراضيها وتبتلع ثرواتها. فكان الانتداب غطاءً وهمياً لنظام احتلال عسكري استعماري بخطط قديمة تبغي الهيمنة على المنطقة وثرواتها عبر تفتيتها إثنيًا ودينيًا وإلحاقها بالمتروبول الأوروبي¹⁹.

نجاح الإنكليز في اختراق قبائل الجزيرة العربية وتحالفهم مع الشريف حسين حاكم مكة والحجاز لقلب الحكم العثماني وتحقيق استقلال المحافظات العربية، كان في صلبه ضربة استراتيجية محكمة لتركيا. وإذ استفادت بريطانيا من هذا الاختراق إلا أن وعودها للعرب انقلبت أكاذيب عندما التقى ممثلو بريطانيا وفرنسا وروسيا على تقسيم المحافظات العثمانية، التي يحتلها الحلفاء، فيما بينهم. فيما جرأت تفاهات اتفاقية سايكس - بيكو²⁰ الولايات العربية العثمانية سابقاً إلى مقاطعات نفوذ غنيمة حرب للحلفاء، نجح البريطانيون في إقناع الشريف حسين وأبنائه بأن الوثائق التي عرضتها روسيا مزيفة ولا يجب الوثوق بالشيوعيين الملحدين. ولكن بعد انتصار بريطانيا وفرنسا في الحرب ثبت صدق الوثائق الروسية. إذ تقاسم المنتصرون الولايات العربية كما اتفقوا، وتقاسموا المشرق في ما بينهم بإخضاع سورية ولبنان لانتداب فرنسي، والعراق وفلسطين لانتداب بريطاني. ورسم واضعو خريطة سايكس بيكو معبراً أرضياً بين العراق وفلسطين لمنح بريطانيا استمرارية جغرافية "كوريدور" في المناطق الخاضعة لسيطرتها، ما خلق فاصلاً جغرافياً بين سورية والجزيرة العربية. وتدرجياً تعاضم الوجود اليهودي في فلسطين التي وعدهم الإنكليز بدولة فيها، فخلق الإنكليز دولة ثالثة بين فلسطين والعراق على الضفة الشرقية لنهر الأردن هي "إمارة شرق

Raymond, *La Syrie d'aujourd'hui*, Paris, Raymond, « La Syrie du royaume arabe à l'indépendance 1914 - 1946 », in A. A¹⁷ 1980.

Elie Kedourie, *England and the Middle East: the destruction of the Ottoman Empire, 1914 - 1921*, London, 1987.¹⁸

Elie Kedourie, *In the Anglo Arab Labyrinth: the McMahon - Husayn Correspondence and its Interpretation 1914 - 1939*, London, 1976.

J.Nevakivi, *Britain and France and the Arab Middle East 1914 - 1920*, London, 1969.¹⁹

²⁰ مارك سايكس وجورج بيكو اسما الدبلوماسيين البريطاني والفرنسي اللذين وقعا الاتفاقية عام 1916.

الأردن"، التي أصبحت في ما بعد المملكة الأردنية الهاشمية، فيما جعل الإنكليز العراق أيضاً مملكة هاشمية على رأسها الأمير فيصل بن الشريف حسين.

ولاكتمال الصورة، سيطرت بريطانيا على معظم الجزيرة العربية ومصر والسودان باستثناء المملكة العربية السعودية التي تبعت أميركا في ما بعد. كما سيطرت فرنسا على بقية الولايات العثمانية التي وقعت في أيدي الحلفاء وخلقت دولتي سورية ولبنان وتنازلت لتركيا عن لواء الإسكندرون السوري ومنطقة كيليكيا ومدينة أنطاكية التاريخية في شمال سورية.

وفيما فضل قسم من المسيحيين وخاصة الأرثوذكس إقامة مشرق فدرالي يضم سورية ولبنان تلعب فيه بيروت دوراً مركزياً، رأى آخرون أن يقوم كيان لبناني موسّع يضم الجبل والساحل والبقاع. وفي العقود التي سبقت إعلان دولة لبنان الكبير، قدّمت شخصيات لبنانية وسورية عدة مذكرات إلى الحكومة الفرنسية منها رجل الأعمال السوري جورج سمّنة الذي دعا إلى كيان سوريّ موحد مع وضع خاص لجبل لبنان، في حين كانت أغلبية المذكرات الأخرى تدعو إلى كيان لبنانيّ مستقل وموسّع عاصمته بيروت. وفي 2 نيسان 1947 أعلنت بريطانيا عن عدم استطاعتها أيضاً إدارة الوضع في فلسطين، فصوّت الأمم المتحدة في أيار 1947 لصالح قيام دولة يهودية هناك²¹. أما مناطق سورية التي كانت فرنسا تنوي جعلها دويلات منفصلة فقد قاومت وأصرّت على البقاء ضمن كيان سوريّ أوسع.

²¹ كامل مروّة، قل كلمتك وامش، دار الحياة للطباعة والنشر، بيروت، 1988، المجلد الخامس، ص.ص. 21-24.

2. ولادة الجمهوريّة السوريّة 1920 - 1946

تعتبر الدولة السوريّة المعاصرة نواة المشرق، حيث أثبت تاريخ كيانها خلال القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين أهميّة القرار الوطنيّ على التحديات كافة. ويرى الباحث الألماني فولكر برتس أنّ استقلاليّة سورية في قراراتها الاقتصاديّة والحقوق الأخرى كانت إحدى صفات هذا الكيان الأساسيّة²². ولذلك ننطلق من هذه النواة الأساسيّة كجوابة لبحث تاريخ المشرق.

محاولات تقسيم سورية

يميّز السوريّون في تاريخهم بين سورية التاريخيّة/الجغرافيّة التي عُرفت ببلاد الشام وبين الدولة التي وُلدت عام 1946 والتي أصبح اسمها منذ العام 1961 "الجمهورية العربيّة السوريّة". إذ إنّ سورية القديمة تتجدّد في ذهن كلّ طفل سوري مع حليب الأم وفي كتب المدرسة حتى اليوم. فلا ينسى أمرين: معاهدة سايكس بيكو بين فرنسا وبريطانيا عام 1916 التي جرّأت بلاد الشام إلى دول عدّة، ووعده بلفور عام 1917 الذي منح الحركة الصهيونيّة "جنوب سورية" فلسطين على طبق من فضّة. وستكون لهذين العاملين آثار في غاية الأهميّة على مدى القرن العشرين في تطوّر دول المشرق الاقتصاديّ والسياسيّ والاجتماعيّ وفي تعاطي كياناته مع بعضها البعض ومع دولة "إسرائيل" الاستيطانيّة.

عمدت فرنسا إلى إزالة الحكومة الفيصليّة في دمشق في تموز 1920 لتقييم إدارة استعماريّة تقليديّة مباشرة في لبنان وسورية²³. وفرضت نظام حماية يرعاه مفوض سام فرنسيّ²⁴. كما خضع العراق وفلسطين لانتداب بريطانيّ، فأقام الإنكليز حدوداً مع المنطقة الفرنسيّة تُضعف روابط العراق وفلسطين بسورية ولبنان. ثم عملت فرنسا على خلق "دولة لبنان الكبير" فضمّت مدن طرابلس وبيروت وصيدا وصور ومناطق وادي البقاع وجبل عامل وسهل عكار إلى جبل لبنان. وهكذا ظهرت دولة بأغليّة كاثوليكيّة ضئيلة (مارونيّة خاصة) في أيلول 1920. كما سلخت فرنسا أجزاءً من ولاية حلب في الشمال ومنحتها لتركيا في تشرين الأول 1921، ما جعل الحدود التركيّة تقترب إلى مسافة 50 كلم من مدينة حلب. ثم منحت فرنسا امتيازات خاصة لتركيا في منطقة أنطاكية - الإسكندرون الواقعة في ولاية حلب ما قلّص مجدداً من مساحة سورية. إلى أن تنازلت فرنسا نهائياً عن لواء الإسكندرون وأنطاكية لتركيا عام 1939.

لقد شرعت فرنسا في العام 1920 بتقسيم ما تبقى من سورية إلى أربعة كيانات مذهبيّة؛ دولة بأغليّة سنيّة عاصمتها دمشق ودولة بأغليّة سنيّة عاصمتها حلب، ودولة ثالثة علويّة ورابعة درزيّة وكيان خامس خاص في منطقة الجزيرة. فأعلنت في آذار 1922 جبال العلويّين وجبل العرب الذي سلخته عن ولاية دمشق، دولتين "مستقلّتين" الأولى للعلويّين والثانية للدروز²⁵. أمّا منطقة الجزيرة في الشمال الشرقيّ ذات الطابع القبليّ

²² Volker Perthes, *The Political Economy of Syria under Asad*, London, I.B. Tauris, 1995, p. 7

²³ K.Husri, "King Faisal I and Arab Unity 1923 - 1933", in *Journal of Contemporary History*, vol. X, no. 2, pp. 323-340, 1975.

²⁴ Général Catroux, *Deux Missions en Moyen-Orient: 1919 - 1922*, Paris, Librairie Plon, 1958.

²⁵ Général Andréa, *La révolte Druze et l'insurrection de Damas 1925 - 26*, Paris, Payot, 1937.

وحيث تقيم أقليات كردية وآشورية ومسيحية فقد أبقاها الفرنسيون تحت سيطرتهم المباشرة وشجّعوا النوازع الانفصالية عن سورية في أوساط سكانها²⁶.

ورغم سعة اطلاع فرنسا على أوضاع المشرق، إلا أن الإدارة الانتدابية اقتصرت على أصحاب الخبرة الاستعمارية الفرنسية وخاصة القادمين من الجزائر التي كانت تزح تحت احتلال فرنسيّ طويل منذ العام 1830. فقد عمد هؤلاء الإداريون في السنوات الأولى إلى "جزارة" سورية بفرض اللغة الفرنسية وجعلها رسمية على قدم المساواة إلى جانب العربية، وقولبة المنهج التربوي لإزالة أولويات الثقافة والحضارة العربية واستبدالها بالثقافة والحضارة الفرنسية، وبجغرافية وتاريخ فرنسا وملوكها وعظمتها كأمة عريقة. فكان أطفال المدارس في سورية ولبنان يحيون العلم الفرنسي كل يوم وينشدون "المارسيانز". وحتى أيام العطل الرسمية في سورية أصبحت تلك المتبعة في فرنسا.

وإذ فشل مشروع الدولة الدرزية والدولة العلوية وانتهى الأمر بمنطقة الجزيرة لأن تصبح جزءاً من سورية، فإن سورية لم تستطع أن تستعيد المناطق المسلوخة عنها وكانت أضعف من أن تُعيق ولادة دولة لبنان الكبير ذلك لأنّ كيان لبنان حظي بدعم نسبة كبيرة من اللبنانيين.

وعشية اكتمال جلاء الجيش الفرنسي عن سورية في نيسان 1946، كانت مساحة سورية قد تقلّصت من 300 ألف كلم مربع إلى 185 ألفاً تقريباً. فرفضت سورية المستقلة الاعتراف بالتجزئة الاستعمارية ونظرت إلى نشوء دولة لبنان كأمر واقع status quo تتعايش معه ولا تقبله كأمر نهائيّ. كما أنّ الشعب السوري لم يشف من صدمة الجراحة التي مارسها مبضع الاستعمار في تمزيق جسد سورية. وبقي الشعور الحيّ - أنّ سورية اليوم هي أصغر بكثير مما يجب أن تكون - يثير الأوجاع كلّما ذُكر²⁷.

التعددية الدينية والإثنية

ضمّت سورية في الحدود التي انتهت إليها عام 1946 جماعات دينية وإثنية ولغوية متعددة. فبلغ عدد المذاهب 16 طائفة، مثل السنّة زهاء 75 في المئة من السكان يليهم العلويون بنسبة 12 - 15 في المئة، ثم الروم الأرثوذكس بنسبة 5 في المئة فالدروز 3 في المئة، ثم بقية الطوائف المسيحية من موارنة وروم كاثوليك ولاتين وبروتستانت وسريان، إضافة إلى الإسماعيليين في جبل السلمية إلى شرق جبال العلويين، وأقلية صغيرة جداً من الشيعة الإثنا عشرية واليزيديين وعدد ضئيل من اليهود. حيث بلغ مجموع المسيحيين في سورية نسبة 12 في المئة من السكان.

وبلغ عدد الإثنيات خمساً: عرب وأكراد وأرمن وتركماني وسريان/آشوريين وشركس. وإذ توزّع الناطقون باللغة العربية في أنحاء سورية، تركّز الأكراد في شمال شرق البلاد وبعض أحياء دمشق وحلب ليشكّلوا 8 في المئة

Louis Dillemann, « Les Français en Haute-Djézireh, 1919 - 1939 », Paris, *Revue Française d'Histoire d'Outre-Mer*, vol. 66, no. 26
1-2 (1979), p. 37-58.

Albert Hourani, *Syria and Lebanon, a Political Essay*, Oxford, 1946.²⁷

من عدد السكان، فيما شكّل الأرمن 3 في المئة من السكان وتركّزوا خاصة في حلب. وكان التركمان والسريان والآشوريون والشركس أقليات صغيرة بأعداد قليلة، فبلغ عدد الشركس مئة ألف معظمهم أقام في الجولان (حتى 1967) حيث كانت مدينة القنيطرة أكبر بلداتهم. وأقام معظم أرمن سورية في حلب وجوارها، والآشوريون في وادي الفرات إلى جوار أقرابهم في شمال العراق الذين باتت الحدود تفصلهم. وعلى الصعيد اللغوي فإنّ اللغة العربيّة كانت اللغة الأم لتسعين في المئة من السكان فيما تكلمت أقليات اللغتين الكرديّة والأرمنيّة وبدرجات أقل السريانيّة والشركسيّة والتركمانيّة، إلى جانب معرفة هذه الأقليات اللغة العربيّة كلغة ثانية أمّ.

ورغم فشل فرنسا في إقامة دويلات طائفية، وخاصة بعد إصرار الدروز على وحدة بلاد الشام ومحاربتهم الانتداب الفرنسي في العشرينيات، فإنّ الأمر لم يخلُ من رغبات علوية في أن تبقى منطقتهم تحت إدارة فرنسيّة أو أن يكونوا جزءاً من دولة لبنان. في حين كانت مواقف علويين آخرين تصبّ في صالح الالتحاق بالوطن السوريّ الأم وبالقوى الاستقلاليّة والوطنية في دمشق²⁸.

كان العلويون أقلية إسلامية في سورية تعرّضت للاضطهاد في العهود الإسلاميّة التي تلت الحملات الصليبيّة (1099 - 1283) فلجأوا إلى جبال اللاذقية وقاوموا المماليك. وظلوا طائفة مضطهدة في ظل السلطنة العثمانيّة يسكنون الأرياف والجبال وعلى هامش المجتمع السوريّ، في حين تبوأ السنّة مناصب الدولة الرفيعة في عهديّ المماليك والعثمانيين (1283 - 1918)، لأنّ المذهب السنيّ كان ديانة الدولة الرسميّة، ومثّل السنة الطبقة الوسطى السوريّة في المدن والإقطاع وملأ الأراض في الأرياف. وإلى هنا ينتهي تشابه التجربة العلوية في ظل الحكم العثمانيّ مع تجربة الموارنة والشيعة في لبنان. ولكن التشابه كان أكبر بين صعود العلويين في سورية وصعود الموارنة في لبنان في ظل الانتداب الفرنسيّ.

لجأ العلويون كغيرهم من الأقليات إلى المرتفعات حيث الحياة صعبة وخشنة، وانتظموا في عشائر وعائلات لا تختلف في بنيتها وعاداتها عن تلك المنتشرة في لبنان وخاصة في مناطق الشمالية (الهرمل وبشري). فكانت ثمة أربعة أفخاذ علوية كبرى هي الحدادين والمطاورة والخيّاطين والكلبيّة، دون أي تمييز جغرافيّ لانتشار واختلاط هذه الأفخاذ، إضافة إلى أفخاذ صغيرة عدّة. كما انتشر علويون في مدن الساحل حيث ضعف ارتباطهم العشائريّ²⁹ (تراجعت العشائريّة كثيراً في مناطق العلويين ومناطق سورية الأخرى، مقارنة باستمراريتها في لبنان، وذلك بفضل الدولة السوريّة الحديثة التي ضغطت لصالح هويّة سوريّة جامعة).

وحتى القرن العشرين كان العلويون يُعرفون باسم "النصيريين" وجبالهم باسم "جبال النصيريّة"، نسبة إلى رجل دين من القرن التاسع الميلادي، غامض الأصول يُدعى محمد بن نصير. ومع قدوم الانتداب الفرنسيّ وإطلاق الفرنسيين لقب "علويين" alaouites على أتباع هذا المذهب، ومفرده "علوي" نسبة إلى الإمام عليّ، انتشرت هذه العبارة في الكتب الفرنسيّة وصحف فرنسا وتقاريرها الرسميّة وابتأوا يُعرفون بالعلويين. وقد

S.H. Longrigg, *Syria and Lebanon under the French Mandate*, London, 1958.²⁸

Patrick Seale, *Asad: The Struggle for the Middle East*, p. 8-9.²⁹

مرّ شيعة لبنان بالتجربة نفسها، حيث سقط ومنذ الانتداب لقب "متاولة" (وكانت تُستعمل عبارة "شقفة متوالي" للتحقير) في زمن العثمانيين واستبدل باسم الشيعة الإثنا عشرية أو الشيعة الجعفرية. ولم يكن أبناء المذاهب الأقلية على وئام في ما بينهم رغم معاناتهم من اضطهاد الأثرية السنية في الدول العباسية والمملوكية والعثمانية. زمنيّاً سبق المذهب العلويّ المذاهب الأقلية الأخرى في بلاد الشام، ولكن انطلاق مذهب الدرّوز وموضوعهم في جنوب لبنان والبقاع الغربيّ في القرن الحادي عشر جذب المبشرين العلويين لإقناع أبناء الدرّوز بالانضمام إلى المذهب العلويّ، ما أدى إلى عداوة تاريخية. وكما ذكرنا في مؤلّفنا "أمراء الحرب وتجار الهيكل"³⁰، فلا جبال العلويين ولا جبال لبنان ولا جبال الدرّوز شكّلت ملجأً منيعاً وحصيناً ضد من شاء اقتحامها من جيوش غازية أو من سلطات الدولة الحاكمة. بل كان فقر تلك المناطق وشظف العيش وقلة الأهمية الاقتصادية وضآلة السكان السبب في امتناع دول وجيوش تلك الأيام عن اقتحامها. ولكن لدى توفّر السبب الوجيه، الاقتصاديّ أو الاستراتيجي، لم توفّر الدول ذخراً في احتلال هذه الجبال. وهذا ما حدث مثلاً عام 1098 عندما اقتحمت الجيوش الصليبية القادمة من غرب أوروبا جبال العلويين وبنّت سلسلة من القلاع لصّد هجمات الجيوش الإسلامية من حلب ودمشق. فانتشرت قواعد عسكرية صليبية في طول جبال العلويين وجبال لبنان من الشمال وحتى هضاب فلسطين جنوباً. وكانت مناطق وسط وشمال سورية ملجأً للأقلية الإسماعيلية أيضاً التي كان لها عصرها الذهبي في ممالك ظهرت في سورية والعراق وإيران³¹. وكانت بلدة السلمية على السفح الشرقيّ لجبل العلويين من مراكزهم الهامة. ولذلك استغلّ الإسماعيليون ضعف العلويين أمام الحملات الصليبية وشنّوا هجمات على مناطقهم انطلاقاً من السلمية في بداية القرن الثاني عشر، واحتلّوا مناطق وأقاموا قرى وقلاعاً بقيت إلى اليوم. وحتى أواسط القرن العشرين بقيت المساكنة الصعبة هي السائدة بين أبناء الأقليتين العلوية والإسماعيلية. وإذ انتهى الحكم العثمانيّ الطويل عام 1918 وأصبحت البلاد تحت السيطرة الفرنسية منذ 1919، بدأت مرحلة جديدة بالنسبة للعلويين أفضل نسبياً مما سبقها من قرون ظالمة ومظلمة. إذ إنّ الفرنسيين شرعوا في إضفاء اعتراف رسميّ بوجود العلويين كمذهب وكيان سياسيّ. وبدأ الفرنسيون بإدراج تسمية "علويين" على السكان وبتاتوا يتحدثون عن دولة لهم بعدد سكان ضئيل لم يتجاوز في العشرينيات عن 300 ألف نسمة. وربّ ضارة نافعة، حيث أخرج الانتداب الفرنسيّ الأجنبيّ العلويين من عزلة وثبات داماً قرناً عدّة ووضعهم مجدداً على الخريطة السورية ووعدّهم بالحكم الذاتيّ. حتى باتت فرنسا تشكّل لهم "أمماً حنوناً" كما كانت للموارنة في لبنان. إذ إنّ فرنسا سعت لتأسيس دولة علوية في سورية في تلك المنطقة المهملة والنائية من الإمبراطورية العثمانية البائدة، وأنزلتهم من الجبل إلى مدينة اللاذقية وقالت لهم هذه "عاصمتكم" وهذه "دولتكم".

قدّمت فرنسا نفسها كحامية للأقلّيات في المشرق، وهو ما أثبتته تاريخياً عندما هرعت عام 1860 لنجدة المسيحيين وخاصة المذاهب الكاثوليكية من خطر الحرب الأهلية في جبل لبنان ودمشق. ولذلك كان العلويون

³⁰ كمال ديب، أمراء الحرب وتجار الهيكل، بيروت، ص. 32.

³¹ Norman Lewis, "The Ismailis of Syria Today", in *Royal Central Asian Society Journal*, vol. 39, no. 1, January 1952, pp. 69 - 77.

على لائحة الرعاية الفرنسيّة كما كان الموارنة من قبل. وإذ وضع المسؤولون الفرنسيّون في باريس خريطة سورية على الطاولة قبل الحرب العالميّة الأولى وأثناءها وكانوا يعلمون أنّ السنّة يقيمون في السهول الداخليّة وعلى الساحل فيما تقيم الأقليات - مسيحيّة وعلويّة وإسماعيليّة - في المرتفعات التي تحاذي الساحل، هرباً من قرون من الاضطهاد، من مدينة صور جنوباً وحتى الإسكندرون شمالاً. ولذلك فإنّ مشروع فرنسا إقامة دويلات طائفية شرق المتوسط اقتضى إبعاد نفوذ السنّة عن السواحل.

في 6 تشرين الثاني 1918، وصلت قوّة فرنسيّة صغيرة إلى مرفأ اللاذقيّة ولم يكن قد مضى على انسحاب الجيش التركي من المدينة شهر واحد. وعندما شرع العسكر الفرنسيّون في تسلّق التلال الساحليّة شرق اللاذقيّة، شاهدتهم العلويّون من علٍ وحاولوا ردع المهاجمين بالكلام والممانعة المدنيّة. وبدأت مقاومة بالسلاح الفرديّ انتشرت من قرية إلى أخرى ضد الفرنسيّين بقيادة شاب يُدعى الشيخ صالح العليّ، قوامها السيف والترس وبعض البنادق القديمة، ومن معاونيه علي سليمان الأسد (والد حافظ الأسد) الذي كان يركب الخيل أثناء مهاجمته الفرنسيّين. وبهذه المقاومة العفويّة والبسيطة، تمكّن العلويّون من صدّ الجيش الفرنسيّ ومنعه من احتلال جبال العلويّين لمُدّة عامين.

عيل صبر الفرنسيّين فأرسلوا ثلاثة فيالق في أيّار 1921، هاجمت الجبل وجردت الناس من السلاح على بساطته. وخلال خمسة أشهر أصبح كامل جبال العلويّين تحت الاحتلال وانتهت مقاومة العلويّين التي استمرّت عاماً كاملاً حتى بعد سقوط دمشق بأيدي الفرنسيّين. واعتقل الفرنسيّون صالح العليّ وقادة المقاومة وأسروهم في سجن جزيرة أرواد. وتلا العمليّات العسكريّة دخول الشرطة والإدارة، ففرض الفرنسيّون الأمن وأوقفوا حال الفوضى وكفّوا يد قطاع الطرق والصوصيّة وقلّصوا سلطان زعماء العشائر على مصائر الناس، وبدأت تنتشر مخافر فرنسيّة ومراكز جيشهم. ثمّ قامت إدارة الانتداب بإحصاء السكان وفرض نظام البطاقة الشخصيّة.

وبعدما أطلق الفرنسيّون اسم "منطقة الحكم الذاتيّ العلويّ" على المنطقة عام 1920، غيّر اسمها إلى "الدولة العلويّة" عام 1922، مرتبطة عضويّاً بـ"الاتحاد السوريّ" الذي أقامته فرنسا تحت انتدابها³². ولكن ما أن ركنت فرنسا إلى استقرار احتلالها حتى عادت عن فكرة ترابط الدويلات السوريّة باتحاد فدراليّ وأعلنت كياناً علويّاً مستقلاً بطوابع بريديّة وعلم وطنيّ هو شمس مشرقة بخلفية بيضاء³³. هذه الخطوات وغيرها جعلت للعلويّين قيمة واحتراماً ذاتياً مفقودين منذ قرون ما أزعج سنّة المدن الذين حتى 1918 كانوا أصحاب اليد العليا في السلطنة العثمانيّة. أمّا المسيحيّون فقد أصابهم الغيرة من التحسّن المستجدّ لوضع العلويّين خاصة أنّ المسيحيّين توقّعوا من فرنسا أن تخصّهم هم لا العلويّين بالمعاملة الخاصة وبالامتيازات، كما فعلت مع موارنة لبنان.

Laurent Chabry et Annie Chabry, *Politique et minorités au Proche-Orient*, Paris, Maisonneuve & Larose, 1984 (chapitres sur les alaouites en Syrie).

Jacques Weulersse, « Un peuple minoritaire d'Orient, les Alaouites », *La France Méditerranéenne et Africaine*, vol. 1, no. 2, 1938, pp. 41 - 61; Jacques Weulersse, *Le pays des Alaouites*, Tours, Institut Français de Damas, 1940, 2 volumes.

ثم انتقل المشروع الفرنسي في المنطقة العلوية إلى محاولة تنصير السكان. إذ بدأت أوساط فرنسية بالتبشير المسيحي في جبال العلويين عبر المدارس والبعثات، ظناً أن معتقدات العلويين هي خرافات قديمة يمكن استبدالها بديانة عصريّة وديناميكية كالكاثوليكية. وفي الحال فإنّ العلويين قد استفادوا من الانتداب في تحسين ظروفهم³⁴.

وكما في لبنان، سبقت النفوذ الفرنسي بالانتداب عقود في الإمبراطورية العثمانية في سورية. إذ إنّ تجارة زراعة التبغ الحيويّة في القرن التاسع عشر في جبال العلويين اعتمدت على مرفأ اللاذقية كمنفذ لها إلى العالم. وأصبحت اللاذقية نقطة مركزية لاقتصاد المنطقة. ورويداً تمكّنت فرنسا من السيطرة على قطاع التبغ الهام وفرض احتكار عبر شركة حصر التبغ Regie التي جعلت مكاتبها في مبنى سرايا حكوميّة في شرق مدينة اللاذقية في بداية القرن العشرين، وعام 1920، جعل حاكم اللاذقية الفرنسي من هذه السرايا مركزاً له، وأصبح الريجي المحتكر الرئيس لاقتصاد الجبل، في المحاصيل وفي التمويل وكسبت سياسة الانتداب إلى جانبها عدداً كبيراً من زعماء العشائر العلوية وكبار عائلاتها.

لكن الفرنسيين لم يُسهّموا في تطوير البنية التحتية للمناطق العلوية التي بقيت بدون طرق معبّدة. كما أنّ السلطة الانتدابية سخّرت شباناً علويين لشق طريق اللاذقية - حلب بدون راتب، فلم يختلف تصرفها تجاه المنطقة عن استبداد الأتراك. حتى أنّ طرفاً - ولو تريبية - لم تُشَق في الجبل في زمن الانتداب، فبقيت قرى وبلدات منعزلة لا سبيل إليها الأ على الدواب والأقدام وبشَق الروح. فيما كان الفقر هو الغالب في كلّ مكان، ولم تصل الوسائل العصريّة الأ إلى قلة من العائلات. وسجّل جنديّ بريطانيّ خدم في سورية لمُدّة ثلاث سنوات أثناء الحرب العالمية الثانية مشاهداته في كتاب عن المشرق وذكر سكان قرية علوية في حالة بائسة، "وفي فقر مدقع وواقع إهمال ونسيان تامّ، يستسلمون لمصيرهم الأسود، فاقدى الأمل، وأرواحهم محطّمة. وأنّ المرء قد يتوقّع هذا المشهد في أدغال أفريقيا وليس في بلد صغير خضع لانتداب أوروبيّ لمُدّة 22 سنة. الوضع في غاية السوء أينما نظرت في هذه القرية. كما لم يمض أسبوع أثناء تجوالي في الريف السوريّ دون أن أرى سكان القرى يعانون من الحمى والمرض والعذاب والجوع والفقر"³⁵.

بقي الفقر والحرمان سمة من سمات جبال العلويين واضطر العلويون بسبب الضرائب التي فرضها الانتداب إلى بيع ما يملكون من مواشٍ وأراضٍ وتشغيل بناتهم في منازل المدن. وحتى المناطق اللبنانية شهدت قدوماً ملحوظاً لفتيات علويات للعمل كخادما في البيوت. وهذا المستقبل الأسود للفتيات العلويات شهدته بيوت اللاذقية ودمشق، حتى بلغ عدد العلويات القاصرات في دمشق وحدها عشرة آلاف في العام 1950³⁶.

إضافة إلى الإدارة والاقتصاد، أعلن الفرنسيون افتتاح مكاتب "قوات الشرق الخاصة" التي التحق بها الشباب العلويّ وشباب الأقليات كالدروز والإسماعيليين والأرمن والأكراد بنسبة كبيرة، حتى بات عديدها جاهزاً عام 1921. وانتسب العلويون إلى هذه القوات لأنها وفّرت عملاً وراتباً في ظل نسبة بطالة عالية في الجبال، كما

Alasdair Drysdale, "The Alawis of Syria", in *World Minorities*, ed. Georgina Ashworth, London, Qaurtermaine House, 1978, ³⁴ p. 1-5.

Richard Pearce, *Three Years in the Levant*, London, 1949, pp. 149-150.³⁵

Patrick Seale, *ASAD*, p. 23.³⁶

أن فرنسا روجت لهذه القوات خضياً في الأوساط العلوية رغبة منها أن تكون نسبة هؤلاء مرتفعة في القوات الخاصة. ولعل الانخراط في قوات الشرق كان العامل الرئيسي ويكاد يكون فريداً في انفتاح العلويين. إذ إن الشباب العلوي بات يحصل على راتب ويعرف النظام والانضباط ويتعامل مع إدارة دولة حديثة هي فرنسا، ويتدرّب ويتعلّم ويسمع أفكاراً جديدة ويكتسب اللغة الفرنسية. أما السنّة من أرسطراطيي المدن وطبقتها المتوسطة فقد رفضوا الانتداب وابتعدوا عن الانخراط في الجندية تحت استعمار أجنبي³⁷. وفي ظل الانتداب الفرنسي كان أبناء العائلات العلوية البارزة يكتسبون خبرات في الإدارة العامة وبعضهم أكمل تعليمه الثانوي والجامعي، ما خلق نواة سياسية حديثة في الجبل وعلاقات اجتماعية مختلفة عن السابق.

كان حجم القوات الخاصة يتزايد باستمرار، إذ بلغ 7000 جندي عام 1924 و15 ألفاً عام 1936. وظهرت الغاية من بناء هذه القوات حيث استعملتها سلطات الانتداب كقوة ضاربة محلية لقمع أي تحرّك ضد الانتداب في أنحاء سورية ولقمع المسيرات التي نظمتها النخب السنّة في المدن ضد الاحتلال الفرنسي وفي ضرب التحركات العمالية. ومع الوقت تصاعد نفوذ الضباط العلويين في القوات الخاصة وتمت التجربة العسكرية في أوساط شباب الطائفة. ولقد لحظ زعماء السنّة والقادة الوطنيون ارتباط القوات الخاصة التي ذاقوا منها الأمرين بالانتداب، فدعوا إلى حلّها بعد جلاء الفرنسيين عام 1946. إلى أن رجحت كفة من رأى أنّها تصلح كنواة للجيش السوري الحديث بعد التأكّد من وطنيّة ضباطها. وورثت القوات الخاصة انضباط وتقاليد الجيش الفرنسي وعززت الكليّة العسكرية في حمص بعد الاستقلال قدرات الجيش وفتحت الباب لأبناء الأرياف.

بعد استتباب الأمر لفرنسا وأصبحت البلاد خاضعة للانتداب، رفض معظم السوريّين هذا الواقع ونشبت انتفاضات عدّة في العشرينيات تتوجت بالثورة السورية الكبرى عام 1925 بقيادة الزعيم سلطان باشا الأطرش. فردّ الفرنسيون بعنف واستعملوا القوة العسكرية ضد الثوّار. ولكن الثورة السورية³⁸ في المدن الرئيسيّة وجنوب البلاد في الأعوام 1925 إلى 1927 حققت انتصارات ووصلت معاركها إلى غوطة دمشق، وعمد عدد من زعماء العشائر العلوية منذ بدء الانتداب إلى مناوأة الحكم الفرنسي والوقوف إلى جانب القوى القومية والوطنية المناهضة للفرنسيين والمطالبة باستقلال سورية.

ترافق اشتعال الثورة مع ولادة أحزاب وطنية، حيث كانت سلطات الانتداب تمهّد لتطوير مؤسسات سياسية محلية من برلمان ودستور وما شابه، كما كانت تفعل في لبنان، وسمحت عام 1925 بتأسيس الأحزاب. فالتقى وزيران سابقان من حكومة الأمير فيصل هما المحامي فارس الخوري (بروتستانتّي لبنانيّ من قرية الكفير الجنوبية) والدكتور عبدالرحمن شهبندر (سنّي) وأسّسا "حزب الشعب". والتحق بهما عدد كبير من وجهاء دمشق وموظفو بلديتها ومؤيدو الحكومة الفيصليّة السابقة. وإذ واصلت فرنسا مسعاها لإقامة كيانات مذهبية، أعلن المنضوون في حزب الشعب أنّ أيّ سوريّ لن يجد هويته الوطنية في بلاد مجزأة بإرادة الاستعمار وأنّ السعي إلى الحرية والاستقلال يجب أن يكون يداً بيد مع السعي إلى وحدة سورية الجغرافية

Hanna Batatu, "Some observations on the social roots of Syria's ruling military group and the causes of its dominance",³⁷

Middle East Journal, vol. 35, no. 3, summer 1981, pp. 331- 344.

Edmond Rabbath, L'insurrection syrienne de 1925 -27, revie Historique, vol. 267, no. 2, avril - juin 1982, pp. 405 - 447.³⁸

بما فيها لبنان وفلسطين. وكان لبنان في غير وادٍ قد اجتاز شوطاً كبيراً في بناء كيانه المستقل، في حين كانت فلسطين تهاوى تدريجياً ضحية المشروع الصهيوني في ظل الانتداب البريطاني الذي سهّل لهجرة يهودية واسعة من أوروبا تمهيداً لقيام دولة "إسرائيل"، أما الضفة الشرقية لنهر الأردن فصلها الإنكليز عن فلسطين لتصبح دولة مستقلة يحكمها الأمير عبدالله شقيق الأمير فيصل الهاشمي، حيث كانت شعرت لندن بالذنب تجاه أسرة الحسين شريف مكة بسبب عدم تنفيذ وعودها للعرب، فردّت الاعتبار لعبدالله بن الشريف كملك على شرق الأردن ولقيصل كملك على العراق.

لم يقتصر نشاط حزب الشعب على قضايا الاستقلال والسيادة والوحدة الجغرافية لسورية، بل تضمّن مسائل حماية الصناعة الوطنية وتنمية الاقتصاد وتحديث القوانين لتواكب العصر والتعليم الإجباري للأطفال، حيث أصابت الأمية أكثر من 90 في المئة من السكان. وكانت هذه المسائل تعكس مصالح طبقة بورجوازية دمشقية وحلبيّة في تطلعاتها نحو تطوير البلاد ونزع السلطة من الفرنسيين. وفي هذا الإطار شارك زعماء دمشق وحلب في الثورة الكبرى ابتداء من تموز 1925، فأصبحت الثورة أكثر تمثيلاً للسوريين. ومن جبل الدروز أعلن الشهبندر حكومة سورية انتقالية وسلطان باشا الأطرش رئيساً للجمهورية تحت لواء العلم العربي الذي كانت قد اعتمدته الحكومة الفيصلية قبل دخول الفرنسيين³⁹. ودعت الحكومة الانتقالية السوريين "للنضال من أجل الاستقلال التام لسورية العربية".

امتدت الثورة في مناطق سورية ووصلت إلى جنوب لبنان وجبال الشوف، وتلقّت مساعدات هامة من مناصريها في لبنان وفلسطين وشرق الأردن، حيث كانت مشاعر المواطنة المشتركة التي سبقت الانتداب لا تزال حيّة. وأقام الثوار قواعد أمنة في لبنان وفلسطين يشنون منها هجمات على الجيش الفرنسي ويتنقلون بسهولة من بيروت إلى دمشق وحلب وعمّان والقدس. وردّ الفرنسيون بعنف على نجاحات الثورة وقصفوا دمشق وخاصة أحياءها المدنية، ما أحدث خسائر فادحة في الأرواح ودمرت أبنية كثيرة.

استمرت الثورة السورية حتى 1927 واستطاعت قيادتها أن تضيف بعداً وطنياً غير مذهبي لكل السوريين بمواجهة الاحتلال الأوروبي، ورغم أن فرنسا استطاعت قمع الثورة، إلا أنّ أثرها في سيكولوجية الشعب استمرّ وميّز سورية تدريجياً عن لبنان الذي بدت طبقته الحاكمة متعاونة جداً مع الانتداب، فقد تسيّس سكان المدن السورية في القضايا الوطنية والقومية بشكل غير مسبوق، وتطوّر شعور ينادي بوحدة المشرق، سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن والعراق، وظهرت بذورها الأولى في سورية التي اعتبرت لاحقاً أنّ قضية فلسطين هي مسؤولية سورية مباشرة تختلف عن، وتفوق، مسؤولية أي دولة عربية أخرى، كما أنّ الثورة السورية جعلت فرنسا تعيد حساباتها في محاولتها التطبيق الحرفي لمشروع سايكس بيكو، وأنه لا يمكن تطويع سورية بقوة السلاح، وبضرورة التزام فرنسا بمسؤوليتها كدولة منتدبة لإقامة حياة دستورية في طريق ولادة الدولة المستقلة.

Safuddin Joarder, "The Syrian nationalist uprising 1925 - 1927 and Henri de Jouvenel", *Muslim World*, vol. 67, no. 3, 1977,³⁹ p. 185 - 204.

ولذلك يمكن القول إنّ الثورة السوريّة الكبرى قد حقّقت أهدافها ولم تفشل. ذلك أنّ أجواء البلاد انتقلت من حال الفوضى والعنف إلى فرض مبدأ التفاوض على الفرنسيّين حول وضع دستور لسورية، والتوصّل بعد سنوات قليلة إلى معاهدة تلغي الانتداب، كما ضربت الثورة وتيرة المشروع الفرنسيّ المتصاعدة في تجزئة سورية إلى دويلات وفق مخطط سايكس بيكو.

ورغم أنّ فرنسا منحت العلويّين والأقليّات معاملة خاصة، فإنّ عدوّها الأكبر وخصمها العنيد في سورية، كما في لبنان، كان السنّة وخاصة من أبناء المدن الكبرى الذين كانوا الخاسر الأكبر من زوال الدولة العثمانيّة. ولقد رفض قادة السنّة الانتداب في البلدين ونادوا بالاستقلال عن فرنسا وبوحدة البلدين في مؤتمرات عدّة استمرّت حتى نهاية الثلاثينيّات، إلى أن غلب الشعور المصلحيّ المحليّ بعد مفاوضات مع فرنسا أدّت إلى وعد بدولة سورية مستقلة، كما أنّ سنّة لبنان وصلوا إلى قناعة مشابهة أيضاً في الثلاثينيّات أنّ من الأفضل أن يكونوا أصحاب درجة أولى في حكم لبنان بدلاً من أن يكونوا في الدرجة الثانية تابعين لزعماء سنّة دمشق.

في العام 1928 جرت انتخابات نيابيّة في سورية بإشراف سلطة الانتداب أسفرت عن فوز أشخاص ترضى عنهم فرنسا، وتكرّر الانتخاب عام 1932 وأدّى إلى النتيجة ذاتها، ولكن حتى الشخصيّات المرصّي عنها فرنسيّاً ميّزت نفسها وأثبتت أنّها وطنيّة ومخلصة لبلادها، فكانت اجتماعات البرلمان ومداولاته تتركز على كيفية انتقال الحكم إلى الوطنيّين، وتخفيض حدّة السيطرة الفرنسيّة على سورية، ورغم غياب قادة حزب الشعب عن سدّة الحكم في تلك الفترة، إلا أنّ أعضاء البرلمان من مؤيدي الحكومة الفيصليّة سابقاً انتظموا في تحالف باسم "الكتلة الوطنيّة". وكان نواب هذه الكتلة منتمين إلى، أو مدعومين من أصحاب المهن الرفيعة والمثقفين والعائلات العريقة والإقطاعيّة وتجار المدن الكبرى، وهذه كانت أيضاً قاعدة دعم حزب الشعب، ولذلك كلّما ضرب الفرنسيّون حركة سياسيّة، كانت النخبة المدنيّة الدمشقيّة والحلبيّة تعود بطاقم جديد يمثّل مصالحها، وكان من زعماء الكتلة إبراهيم هنانو من حلب وهاشم الأتاسيّ الذي كان رئيس الوزراء في مرحلة الأمير فيصل⁴⁰.

كانت أوّل مواجهة بين الوطنيّين في البرلمان والمفوض السامي هنري بونسو Henri Ponsot هي حول الدستور. ذلك أنّ بونسو رفض مسودّة دستور وافق عليها البرلمان السوريّ، لأنّها لم تتضمّن موادّ تذكر فرنسا وتعترف بسلطة الانتداب الفرنسيّ من جهة، ولأنّها تضمّ بنوداً تؤكّد وحدة "سورية الجغرافيّة" من جهة أخرى، ولئن رفض البرلمان مناقشة اعتراضات بونسو، قام هذا الأخير بتعليق البرلمان عام 1930 وعدّل من جانب واحد فقرات كان البرلمان السوريّ قد صدّقها، مضيّاً بنوداً تعكس رغبات فرنسا. وفرض بونسو العمل بموجب الدستور المعدّل، وحدّد الدستور النظام السياسيّ بمجلس نواب ورئيس جمهوريّة مسلم ينتخبه البرلمان لا يخضع لمساءلة برلمانيّة، ورئيس حكومة ومجلس وزراء يسمّيهم رئيس الجمهوريّة يخضعون

Moshe Ma'oz, "Society and state in modern Syria", in *Society and political structure in the Arab world*, edited by Menahem⁴⁰

91.-Milson, New York, Humanities Press, 1973, pp. 21

للمساءلة، أما التمثيل النيابي فاعتمد على التوزيع المناطقي والمذهبي كما هو معمول به في لبنان للحفاظ على حقوق الأقليات.

المواجهة الثانية بين البرلمان والمفوض السامي كانت حول المطالبة بإنهاء الانتداب واستقلال سورية، فقد وعد المفوض السامي أن المفاوضات حول هذا الموضوع يمكن أن تبدأ عام 1932 بعد انتخابات برلمانية وحكومة جديدة، ولكن عندما بدأ التفاوض اتضح للسوريين أن سلطة الانتداب لا تأخذ الأمر على محمل الجد وأن الاجتماعات لا تناقش أموراً جوهرية، واعتراضاً على هذا الواقع استقال وزراء الكتلة الوطنية من الحكومة، ولم يبال المفوض السامي الكونت دميان دي مارتل بالاستقالات بل تابع النقاش مع الذين اعتبرهم من "المعتدلين"، ثم خرج بنص معاهدة لا يختلف مضمونها كثيراً عن بنود الانتداب. وكانت ردة الفعل السورية هي الرفض الشعبي والسياسي للنص الذي لم يغير شيئاً ولم يحقق طموحات سورية، فما كان من دي مارتل سوى أن استعمل سلطته وعلق البرلمان مجدداً ودخلت البلاد في نفق قطيعة بين الطبقة السياسية والسلطة الانتدابية.

أصبحت أجواء الوطنيين في حال تصعيدية ضد الانتداب، إذ في ذكرى أربعين إبراهيم هنانو الذي توفي في تشرين الثاني 1935، أعلنت الكتلة الوطنية ميثاقاً يفصل مطالب سورية بالحرية والاستقلال. وتلت ذلك تظاهرات شعبية طالبت بتطبيق هذا الميثاق. وإذ فتحت الشرطة النار على المتظاهرين، أعلن الوطنيون إضراباً عاماً شل البلاد لمدة خمسين يوماً. وكانت هذه الحركة الشعبية انتفاضة غير مسبوقه في تاريخ سورية، كما انطلقت تظاهرة ضخمة في دمشق فرضت نمطها على تظاهرات المدن الأخرى. وعطل الإضراب الحياة الاقتصادية في سورية وأغلق المدارس والمعاهد والأسواق وإدارات الدولة والمحاكم. وكان قادة الإضراب والتظاهرات من نخبه المجتمع المدني ولم تكن حركة عشوائية قصيرة الأمد. إذ عندما ردت سلطات الاحتلال على الانتفاضة بالقمع وإطلاق الرصاص على المواطنين واجتياح الأحياء واقتياد المئات إلى الاعتقال، لم تخمد حدة الإضراب والتظاهرات، فلجأ الفرنسيون إلى منع التجوال تلاه إعلان حال الطوارئ العسكرية، واستمر هذا الوضع حتى أواخر شباط 1936 دون تراجع من الجانب السوري ما اضطر فرنسا إلى القبول بالتفاوض حول مستقبل سورية.

في العام 1936 بدأ وفد سوري التفاوض على معاهدة مع فرنسا تمهد لاستقلال البلاد. وكانت المفاوضات هذه المرة جدية، ساعد في نجاحها وصول "الجبهة الشعبية" اليسارية الأقل تشدداً تجاه المستعمرات إلى الحكم في فرنسا، وكان مصير الدويلتين الدرزية والعلوية في صلب المفاوضات، وسط إصرار فرنسا على أن المنطقتين تمتعتا بوضع خاص وبتركيبة سكانية مختلفة عن باقي سورية ما يفرض مسؤولية على فرنسا كدولة منتدبة أن توفر لهما الحماية. أما الجانب السوري فقد كان حازماً في مطالبه مستفيداً من التجربة العراقية حيث كان السوريون يراقبون عن كثب وضع العراق⁴¹ الرازح تحت الحكم البريطاني، وكيف اضطرت بريطانيا أن توقع معاهدة تعترف باستقلال العراق عام 1930. ولم يشأ السوريون أن تكون معاهدتهم أقل شأناً من المعاهدة التي حصل عليها إخوانهم العراقيون.

⁴¹ Geoffrey Warner, *Iraq and Syria 1941*, London, Davis - Poynter, 1974, pp. 122-158.

بعد ستة أشهر من المفاوضات وقّع الجانبان على مشروع معاهدة في 9 أيلول 1936، اعترفت باستقلال سورية والتزمت بالسعي لعضويتها في "عصبة الأمم" (المنظمة التي سبقت الأمم المتحدة) مع الحفاظ على روابط وثيقة وعلاقات مميزة مع فرنسا تحفظ حقوق الأخيرة العسكرية والاقتصادية والسياسية في سورية، وأسقطت المعاهدة اسم "حكومة اللاذقية" لتصبح "محافظة اللاذقية".

وفي هذه الأجواء الأكثر تفاعلاً في سورية، جرت انتخابات في تشرين الثاني 1936، أسفرت عن نجاح كبير للكتلة الوطنية وانتخب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية وتشكّلت حكومة تقودها الكتلة، وما أن صدّق البرلمان المنتخب المعاهدة حتى باشر الفرنسيون في تحويل السلطة إلى السوريين وتسليم الإدارات العامة للحكومة الوطنية.

استغلّت "الكتلة الوطنية" تسلمها بعض السلطات من الفرنسيين فاستعملتها للجم المدّ الانفصالي في البلاد. ولكن أداء الحكومة كان ضعيفاً إزاء الوضع الاقتصادي والاجتماعي الذي كان في حال من التدهور، ولذلك كانت تجربة أول حكومة وطنية باستقلال جزئيّ بعد قرون من الحكم العثمانيّ وعقدين من الحكم الفرنسيّ، مرّة على الناس الذين رأوا قادة البلد لا يميّزون بين مصالحهم الشخصية وما هو في مصلحة البلاد، وكان لا بدّ أن تظهر قوى جديدة أكثر تمثيلاً لرغبات الشعب واستجابة لحاجياته المادية. وحتى الطبقة السياسية التي كانت تخوض تجربة الحكم العصريّ بأسلوب أوروبيّ للمرّة الأولى، أدركت أنّ ثمة أكثر بكثير لإدارة البلاد من مجرد نيل الاستقلال.⁴²

في تلك الأثناء اندلعت ثورة في فلسطين ضد الانتداب البريطانيّ، زادت من حدّة الغضب الشعبيّ السوريّ على الكتلة الوطنية التي لم تقم بواجبها لعون الفلسطينيين. وما زاد في الطين بلّة أنّ حكومة فرنسا لم ترسل المعاهدة التي وقّعها مع الحكومة السوريّة إلى البرلمان الفرنسيّ ليصوّت عليها، فبقيت مشروع قانون. وهكذا لاحظ الفرنسيّون انحسار شعبية الكتلة الوطنية واغتنموا الفرصة للتصّل من المعاهدة. وتدهورت الأمور أكثر عندما تنازلت فرنسا وبدون اكتراث لرأي حكومة سورية وشعبها عن لواء الإسكندرون لتركيا عام 1939 حتى لا تقف الأخيرة إلى جانب ألمانيا النازية في الحرب العالمية الثانية، ثم عملت فرنسا على إحياء الحكم الذاتيّ في الدويلة العلوية ومنحت اللاذقية حكماً ذاتياً عام 1939، وجاء ردّ الحكومة السوريّة على الخطوات الفرنسيّة التي قوّضت سنوات من النضال باهتاً لا يتناسب مع فقدان قطع غالية من أرض الوطن ولا مع اشتعال الحسّ الانفصاليّ.

كانت سورية ومنذ الثلاثينيات ميدان صراع ملوك العرب، فقد شرعت الأسرة السعوديّة منذ 1934 في منافسة الأسرة الهاشميّة في شرق الأردن والعراق لوضع اليد على سورية.⁴³ وتدخلّ الملوك مباشرة في قضايا سورية الداخليّة وتحولّ تدخلهم إلى صراع مفتوح بين الأسترتين الهاشميّة والسعوديّة، حيث دعمت أميركا السعوديّة ووالى الهاشميون ربيبتهم بريطانيا. وانضم الملك المصريّ إلى هذا الصراع ولكن إلى جانب السعوديّة، ما فتح عليه عدم رضى بريطانيا. حتى أصبحت الحياة السياسة السوريّة الداخليّة ميداناً للملوك الأربعة. فدعم

⁴² Albert Hourani, *Syria and Lebanon, A Political Essay*, London, Oxford University Press, 1968.

⁴³ عندما رفض الشريف حسين الموافقة على وعد بلفور الذي يمنح اليهود دولة في فلسطين وعلى تنازلات أخرى تخلى عنه الإنكليز، فسقطت الحجاز بأيدي قوات آل سعود النجديّة عام 1924. وترك الشريف مكّة ثم أقام في قبرص حتى توفي هناك عام 1931.

عبدالله ملك الأردن الدكتور شهبندر الذي كان هاشميّ الهوى وزعيم المعارضة السوريّة، ودعم الملك عبدالعزيز بن سعود الكتلة الوطنيّة وخاصة شكري القوّتليّ الذي أصبح في ما بعد رئيساً للجمهورية، ودعم ملك العراق زعماء حلب، فأثارت التدخّلات العربيّة توتراً وتمزّقاً في سورية أضعفت وحدتها الداخليّة تجاه الانتداب وخلقت عداوات بين الفئات والأحزاب والشخصيات.

وشهد عام 1939 انهيار الحكومة التي قادتها الكتلة الوطنيّة. فقد عزمت فرنسا على التفلّت من معاهدتها ورفضت تجديد التنازلات التي كان بنك سورية ولبنان قد قدّمها مؤقتاً للحكومة السوريّة، وأخذت موقفاً في مسألة قطاع النفط لصالح شركة البترول العراقيّ البريطانيّة التي تملك فيها فرنسا حصّة هامّة، ضدّ مصلحة سورية، وإذ بلغ الرأي العام السوريّ أنّ الحكومة لا تتحرّك لحماية حقوق سورية في هذه الملفّات، تصاعدت المعارضة الشعبيّة ووقع انشقاق في صفوف الكتلة الوطنيّة. وعملت المخابرات الفرنسيّة على إفشال مفاعيل المعاهدة في المناطق السوريّة لمنع الحكومة المركزيّة من فرض سلطتها وهيبتها في أنحاء البلاد، فكان الفرنسيّون يجولون في مناطق الدروز والعلويّين والبدو ويحرّضون السكان والزعماء المحليّين على رفض السلطة المركزيّة والعمل على الانفصال الذي وعدتهم به فرنسا في بداية الانتداب.

وكانت الدعاوى الفرنسيّة أكثر قبولاً في لواء الإسكندرون، حيث شكّلت الأقلّيّة التركيّة نسبة 39 في المئة من سكانه مقابل 61 في المئة من العرب والأرمن، وتدرجياً استطاعت فرنسا منح تركيا السيادة على اللواء أمام فشل حكومة سورية في منع ذلك، وأمام خسارة الإسكندرون وإحكام فرنسا قبضتها على سورية وتزكية النعرات الانفصاليّة، انقسمت الحكومة السوريّة على نفسها وفقدت سلطتها على البلاد وانطلقت تظاهرات في المدن واجهها العسكر الفرنسيّ بالقمع وقوّة السلاح وباعتقالات جماعيّة للمواطنين، فخاف المفوض الفرنسيّ غبريال بيو أن يفلت زمام الأمور فعلق الدستور مجدّداً وحلّ البرلمان وعيّن مجلس مدراء مكان الحكومة، ومع اندلاع الحرب العالميّة الثانية أصبحت سورية على مفترق طرق.

الاقتصاد الانتدابيّ

كانت الفترة الانتدابيّة الفرنسيّة اقتصاديّة أيضاً عمّقت الرباط الاستعماريّ لسورية ولبنان وجعلتهما جزءاً من الاقتصاد الفرنسيّ. وسيطر "بنك سورية ولبنان" الفرنسيّ على نقد البلاد ما جعله يفرض أجواءً نقديّة لمصلحة رجال الأعمال في فرنسا. وطغت البضائع الفرنسيّة على أسواق لبنان وسورية وفُرض على قطاعاتها المنتجة وخاصة الزراعة، التخصّص في منتجات تحتاجها مصانع فرنسا.

أصبح اقتصاد سورية مسخاً تبعياً فلم تبّن فرنسا بنية تحتيّة حديثة بموجب شروط الانتداب، وخرّبت دورة سورية الطبيعيّة التي تكوّنت عبر قرون، وأضعفت مدنها التي كانت مراكز إقليميّة هامة تشكّل نواة علاقات تجاريّة بين مناطقها من جهة وبينها وبين الدول الأخرى.

وعلى سبيل المثال كانت حلب تُعتبر أعظم مدينة في المشرق إلى أن جاء الانتداب الفرنسيّ فسدّ عليها سبل التجارة والعلاقات مع شمال العراق وخاصة مع الموصل ومناطق سورية أصبحت اليوم في جنوب تركيا،

وخرب إطلالة حلب البحرية على العالم الخارجي بسلب لواء الإسكندرون الذي كان مرفأ حلب الطبيعي، فتحوّلت حلب إلى مدينة كبيرة محلية فقدت أهميتها، وأضعفت التجزئة الاستعمارية التي خلقها الانتداب التواصل الاقتصادي، وفقدت دمشق أيضاً إطلالتها الطبيعية على المتوسط عبر مرفأ بيروت لتصبح مدينة داخلية، وأقيمت حدود بين المنطقتين البريطانية والفرنسية، وفقدت سورية تواصلها مع فلسطين وشرق الأردن ومع العراق. وبغياب أسواق خارجية ارتدّت الصناعات والمنتجات السورية إلى أسواقها الداخلية، ولكن ذلك كان حلاً جزئياً، إذ إنّ فرنسا أغرقت أسواق سورية الداخلية بالبضائع الفرنسية التي تمتعت بحسوم جمركية ومعاملة تفضيلية.

مقارنة بازدهار البنية التحتية والتطور الاقتصادي في لبنان من 1920 إلى 1943، كان نمو سورية في الفترة الانتدابية ضعيفاً، ولكن ذلك لم يمنع انتشار مظاهر الحداثة فيها تدريجياً، كازدياد عدد السيارات وتراجع استعمال الدواب للنقل، وخاصة بعد شق الطرق المعبّدة في المدن الرئيسية⁴⁴. كما ظهرت خدمات عصرية عديدة كالبريد والبرق والهاتف ومحطات إنتاج وتوزيع الطاقة الكهربائية التي أسستها شركات فرنسية وبلجيكية. فأثيرت المدن الرئيسية ومُدّت المصانع بالكهرباء لتشغيل ماكينات الإنتاج، ولتعزير القطاع الصناعي السوري أزيلت الرسوم الجمركية عن استيراد الآليات والمحروقات، ورفعت نسبتها على استيراد النسيج لحماية الإنتاج الوطني، وساهمت تحويلات المغتربين السوريين واستثماراتهم المباشرة في ازدهار حركة تأسيس المصانع وخاصة منذ الثلاثينيات. ففي العام 1932، بلغ عدد المصانع 148، وعام 1934 بنت شركة البترول العراقي خط أنابيب نفط من كركوك إلى طرابلس في شمال لبنان عبر الأراضي السورية، ما خلق خمسة آلاف فرصة عمل في سورية.

في الفترة الانتدابية أقام معظم سكان سورية في الأرياف حيث هيمن الإقطاع وكبار الملاكين، وتفشّى الظلم والاستبداد، وقد تصرّفت إدارة الانتداب في مسألة ملكية الأراضي بما يتلاءم مع مصالح فرنسا، فسببت تفاقم مشاكل الزراعة، وعمّقت إفقار سكان الأرياف، إذ ما كان ملكاً للسلطنة العثمانية اعتبرته سلطة الانتداب أراضي أميرية وبيع إلى كبار الملاكين، وما كان مشاعاً في منطقة الجزيرة شمال سورية مُنح لشيوخ القبائل حيث باتت الأراضي ملكهم الخاص، كما اعترفت فرنسا بأحقية عائلات كبرى فيما ادّعت هذه العائلات من أملاك ولو استند هذا الادعاء إلى أوراق مزيفة أو إلى شهود زور.

وهكذا خلق الانتداب شريحة واسعة من كبار الملاكين وإقطاع الريف وزعماء قبائل، أصبحوا جميعاً من مؤيدي فرنسا، ما عزّز ثروتهم بإشراف سلطة فرنسية، وباتوا يملكون مساحات شاسعة من أراضي زراعية لم يروها أو يزوروا سابقاً ولا لاحقاً، فيما رزحت أغلبية سكان الريف في الفقر والحرمان والتخلف، وعمل الفلاحون أجراً لدى كبار الملاكين؛ أما في جبل الدروز وجبال العلويين وحوارن فقد كان الوضع استثنائياً حيث قبل الاحتلال الفرنسي طابع الملكيات الصغرى والمتوسطة المساحة. ولكن هذه المناطق كانت فقيرة لأن الكثافة السكانية ضغطت على الأراضي المزروعة وأدّت إلى نزوح الناس إلى المدن الكبرى.

⁴⁴ Sa'id Himadeh, *Economic organization of Syria*, New York, AMS, 1973.

لقد وعدت السلطة الانتدابية في العشرينيات أنها ستوزع الأراضي على صغار الملاكين في سورية، ولم يحدث ذلك، ولكن على الأقل أسس الفرنسيون إدارة عقارية لتسجيل الأراضي، وفرضوا إثبات الملكية الشخصية عبر صكوك وشهادات وفق خطة عشرية بدأت عام 1923 وانتهت في 1933. ولم تنجح الخطة في تحقيق أهدافها بسبب الإجراءات المعقدة الجديدة على السوريين وبسبب العدد الكبير للملاكين. فقررت فرنسا إطالة أمد هذه الخطة لعشر سنوات أخرى تنتهي في 1943. ولكن حتى بعد انتهاء الفترة الثانية، بينت سجلات العام 1942 أن نسبة تسجيل الأراضي لم تتجاوز 50 في المئة من مجموع الملكيات الخاصة في سورية. ثم جاء الاستقلال ولم تكتمل مسألة تسجيل الأراضي، ما أحدث أزمات مزمنة لعقود عدة.

استقلال سورية

أتت الخطوات الخطيرة التي أقدمت عليها سلطات الانتداب الفرنسي والبريطاني في سورية وفلسطين في وقت كانت أوروبا تسير نحو حرب عالمية ثانية في أيلول 1939 استمرت حتى العام 1945. وقبل نهاية الحرب، كان الحلفاء يراجعون سياساتهم تجاه البلدان التي خضعت لسيطرتهم وضرورة استبدال الهيمنة العسكرية المباشرة عليها بعلاقات نفوذ واتفاقات. وتفاوتت وجهات النظر بين فرنسا وبريطانيا وأميركا حول المستعمرات، فضغطت لندن نحو استقلال لبنان وسورية.

وعام 1941 غزت بريطانيا بمساعدة قوات "الفرنسيين الأحرار" سورية ولبنان وخلال شهر، استطاعت احتلال لبنان وسورية، ولضمان دعم الشعبين لهذا الغزو، وعد الجنرال كاترو، المرابط في مصر، وباسم الجنرال ديغول رئيس حكومة فرنسا الحرة من لندن، أن فرنسا ستمنح لبنان وسورية استقلالاً غير مشروط، ولكن بعدما وصل الحليفان إلى هدفهما وبات لبنان وسورية مجدداً تحت الاحتلال، تبين أن وعودهما كانت لأهداف بروباغندا حتى لا يقاوم أبناء البلاد دخول الجيوش الغازية. وصرح ديغول أن استقلال البلدين لن يتم قبل توقيعهما معاهدات تحفظ مصالح فرنسا، وحتى ذلك الحين، تبقى وثيقة عصبة الأمم الانتدابية هي النافذة. ثم عين ديغول الجنرال كاترو "مندوباً عاماً" للبلدين ومنحه صلاحيات المفوض السامي كما في السابق. أما الإنكليز فلم يلتزموا بضمانياتهم واستمر اعتراف بريطانيا بحق فرنسا في الانتداب على سورية ولبنان، إلا أنها نظرت إلى مصلحتها أن لا يستتب وضع فرنسا في مستعمراتها بعد الحرب، ولذلك عملت ما بوسعها لـ"خريطة" الوضع لغير مصلحة فرنسا وأخذ مندوبها في بيروت، الجنرال سيرز، يعد اللبنايين والسوريين بأن بريطانيا ستلتزم بضمانيها لاستقلال البلدين⁴⁵.

في ذلك الوقت لم تكن فرنسا في وضع يسمح لها بمناهضة بريطانيا ورغباتها، إذ رغم مواصلة الفرنسيين تعطيل الدستور في لبنان وسورية، فإن بريطانيا ضغطت على فرنسا لعودة الدستورين. حتى تراجعت فرنسا

⁴⁵ Stephen Hemsley Longrigg, *Syria and Lebanon under French Mandate*, London, Oxford University Press, 1958, last chapter on the transfer of power in 1946.

وسمحت للسوريين بإجراء انتخابات برلمانية في تموز 1943 فازت جرائها الكتلة الوطنية بأغلبية ساحقة وانتُخب زعيمها شكري القوتلي رئيساً للجمهورية. وتشجعت سورية وعدل برلمانها الدستور كما فعل لبنان. وافقت فرنسا على مطالب البلدين وعلى انسحاب الجيش الفرنسي وتسليم المصالح والإدارات العامة للحكومة الوطنية، ولكن كان ثمة مصالح كثيرة بأيدي الفرنسيين في كلا البلدين. فاتفقت حكومتا البلدين أن تنتقل هذه المصالح المشتركة من أيدي فرنسية إلى أيدي وطنية. وسرعان ما قامت السعودية والعراق ومصر بالاعتراف بسورية ولبنان، وبذلك حصل لبنان على اعتراف العرب بأنّ الأفضية التي احتسبتها فرنسا عام 1920 ضمن حدود دولة لبنان الكبير هي لبنانية. ولم تستغ سورية الاعتراف العربي بلبنان لأنه أكد التقسيم الاستعماري، ورفضت طلب لبنان إقامة علاقات دبلوماسية وتبادل سفراء لأنها اعتبرت لبنان بلداً انفصل عنها وجزعت أن يصل الأمر إلى طلاق اقتصادي بين البلدين.

في الأشهر التالية اعترف الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة باستقلال وسيادة البلدين، وفيما المفاوضات جارية لتأسيس منظمة دولية جديدة تحل مكان عصبة الأمم، وتقتصر عضويتها على دول الحلفاء التي خاضت الحرب العالمية الثانية ضد المانيا، قام لبنان وسورية بإعلان الحرب على المانيا في شباط 1945، فاستحقا الدعوة إلى مؤتمر تأسيس منظمة الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو. كما شارك البلدان في اجتماعات تحضيرية لتأسيس منظمة مشابهة تجمع الدول العربية.

ولكن قبل جلاء جيشها، أصرت باريس على سورية أن توقع اتفاقاً يضمن استعمال اللغة الفرنسية في المناهج التعليمية ويضمن مصالح فرنسا الاقتصادية ويسمح بتمركز قواعد عسكرية فرنسية على الأراضي السورية، وأعلنت فرنسا أنّها لن تسلّم "القوات الخاصة" للحكومة السورية ولن تنسحب قبل توقيع مثل هذه الاتفاقية، ولتوكيد جديتها في الموضوع، وصلت قوات فرنسية إلى سورية ولبنان عبر مرفأ بيروت، فاندلعت التظاهرات في سورية ووقعت مواجهات. فقام الجيش الفرنسي بقصف دمشق بالطيران لمدة ثلاثة أيام، فتدخل الإنكليز مجدداً وضغطوا على الفرنسيين لإعادة جنودهم إلى الثكنات، فيما رفضت حكومتا سورية ولبنان الإذعان لأي مطلب يمنح دولة أجنبية امتيازات خاصة أو يساوم على سيادتهما، ودعمت الدول العربية إصرار البلدين على الجلاء التام للجيش الفرنسي. وفيما رضخ الفرنسيون في تسليم "القوات الخاصة" التي تضمّ جنوداً وضباطاً سوريين ولبنانيين، رفضوا إجلاء جيشهم، وتواصل تعنتهم في سلسلة مفاوضات مع البلدين حول الجلاء، فما كان من بيروت ودمشق سوى تقديم شكوى إلى مجلس الأمن الدولي، وعندها أصدر مجلس الأمن بدعم من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة أمراً لفرنسا بإخراج جيشها من سورية ولبنان، جلت فرنسا عن سورية أولاً في 17 نيسان 1946، ثم تباطأت في الجلاء عن لبنان لشهور عدة، حتى خرج آخر جندي في 31 كانون الأول من العام نفسه⁴⁶. ثم أعلنت سورية استقلالها في 25 نيسان 1946. ولكن لن تمضي سنوات قبل إعلان الطلاق الاقتصادي مع لبنان في العام 1950.

وبعد الاستقلال، وصلت إلى الحكم في سورية نخبة سنية معتدلة من دمشق وحلب وأحزاب شبيهة بأحزاب لبنان التقليدية، ووصلت إلى الحكم في لبنان نخبة سنية ومارونية معتدلة لتصبح أساس ميثاق الحكم في

George Haddad, *Fifty Years of Modern Syria and Lebanon*, Beirut, Dar al-Hayat, 1950, pp. 242-264.⁴⁶

بيروت، ولكن مقارنة ببلبنان حيث لم تطغ عددياً أي طائفة، ففي سورية ساهم التفوق العددي الهائل للسنة (75 في المئة من السكان) في أن معظم المناصب من حقهم دون أن يترجم ذلك إلى مسؤولية نحو الأقليات أو السعي إلى دولة رعاية مدنية، فقد عانى العلويون من اضطهاد طائفي بعد مغادرة فرنسا، ذلك أن ضالة حجمهم الديمغرافي وفقدهم وتخلّف مناطقهم لم تسمح لهم بالحصول على ضمانات أو "حقوق جماعة" كالتي حصل عليها الموارنة في لبنان عام 1943. إذ إن مغادرة فرنسا سورية أعادت البيئة السابقة من النعوت القديمة للعلويين بأنهم هراطقة وليسوا مسلمين وعاد لقب "نصيري"⁴⁷، والتعامل الفوقي معهم، وانتشرت دعاوى في سورية، خاصة في الأوساط السنّة، أن العلويين عملاء فرنسا خدموا في قوات الشرق الخاصة وتحمّسوا للانفصال عن الوطن الأم، وأنهم انعزاليون ليسوا مخلصين للوحدة السوريّة وللعروبة.

ولم يمنع ذلك سورية أن تمضي في بناء دولة الاستقلال، فتمتعت بنظام ديمقراطي معتدل واقتصاد حرّ لبضع سنوات، وسعت نخبها إلى مشاركة الأقليات، إذ كما في بيروت، حيث سعت النخبة المدنيّة السنّة بقيادة رياض الصلح إلى مشاركة الموارنة بقيادة بشارة الخوري إلى قيام دولة ديمقراطية برلمانية، عملت النخبة السنّة في سورية نحو نظام ديمقراطي يحقق الاستقرار السياسي مع تعدّد حزبيّ تقليديّ يخلق توازناً بين العائلات التقليديّة السنّة في دمشق وحلب ويسمح بتمثيل الأقليات المذهبيّة والعرقية، فسمح ذلك ب بروز زعامات تقليديّة، كما هو الحال في لبنان، تستطيع أن تخلق تحالفات عابرة للطوائف.

بقي الفارق الجوهرّي بين البلدين أن الديمغرافيا اللبنانيّة سمحت بظهور طائفتين رئيسيتين هما السنّة والموارنة فطمأن السنّة الموارنة إلى وضعهم في الدولة اللبنانيّة ما سهّل تخلي الموارنة عن فرنسا، أمّا في سورية، فكان السنّة هم طائفة واحدة كبرى إلى جانب طوائف عدّة صغرى كما ذكرنا، فاستند تطوير النظام في سورية إلى مواهب وطموحات زعماء السنّة وفعاليتهم السياسيّة والاقتصاديّة وعلى أحزاب وحركات عربيّة وإسلاميّة تقليديّة يقودها السنّة، في وقت كانت الأقليات تنظّم صفوفها في أحزاب وعقائد على الطراز الغربيّ وتخرّج أجيالاً جديدة من العلويين والدروز والمسيحيين مسلّحين بالعلم والخبرة وبدون شعور النقص الأقلويّ الذي صبغ حياة آبائهم⁴⁸، وهذا ما سيصغ الحياة السياسيّة في سورية في العقود التالية.

Abd-Allah, *Islamic Struggle in Syria*, Mizan Press,⁴⁷

Philip K. Hitti, *Syria: A Short History*, London, McMillan, 1959, last two chapters.⁴⁸

3. ولادة الكيان اللبنانيّ 1920 - 1946 |

في حين كان الكيان السوريّ يشهد حيوية سياسيّة واجتماعيّة سريعة، بقيت الطبقة الحاكمة في لبنان - سياسيّة واقتصاديّة - بعقليّات قليّة، تنضح بتجمّع عائلات وائتلاف زعامات فردية هي في الحقيقة حكّام مناطق تحظى باستقلال شبه ذاتيّ في زمن السلم وشبه كامل في زمن الحرب، وهكذا بعدما كانت هذه الرقعة هي الأكثر تشابهاً في المشرق - أخذت مناطقها تتمايز بعدما أصبحت كيّانين منفصلين حتى باتت دولتا سورية ولبنان الأكثر تنافراً في القرن العشرين.

إنّ تجذّر العقلية التجاريّة في لبنان هو تقليد قديم يعود إلى النشاط الماركنتيليّ الذي ضمّ تجار دمشق وحلب منذ القرن الخامس عشر، وقوي منذ القرن التاسع عشر مع بيروت المشرقيّة اللبنيّة Levantine. وهذا التراث التجاريّ المشرقيّ استمرّ في لبنان دون غيره من دول المنطقة، ولكنّه تحوّل قالباً جامداً وغير مثير يستعيد ما يظنّه كثيرون أنه نجاحات الماضي، ولكنه حجة ليلتقي أصحاب النفوذ الاقتصاديّ والسياسيّ حول تبادل الخدمات والمنافع والبضائع بدون حوافز نهضة اقتصاديّة حقيقيّة.

قبل ولادة دولة لبنان المعاصر عام 1920، اقتصر كيان لبنان على دويلة في جبل مغلق لا يطلّ على البحر، تمتعت بحكم ذاتيّ محدود داخل الإمبراطوريّة العثمانيّة. وهذا الجبل الصغير والجبل ترابع بعظمة على ساحل المشرق، ممتداً مسافة مئة كيلومتر ومرتفعاً 11 ألف قدم إلى السماء⁴⁹. دُعِيَ هذا الجبل "جبله" Gebla باللغة الفينيقيّة الكنعانيّة، وهي لغة ساميّة شقيقة للعربيّة وجبله هو اسم ورثته مدينة "جبله" كما احتفظت بهذا الاسم مدينة "جبله" على الساحل السوريّ الذي كان جزءاً من فينيقيّا في ذلك الزمان، أما في التوراة فقد كان اسم المنطقة "أرض الصيدونيّين" نسبة إلى صيدا، المدينة الفينيقيّة الأهم أو ليبانوس Libanus بلغة الرومان اللاتينيّة، أو "جبل لبنان" باللغة العربيّة. ومهما كانت طريقة لفظ "لبنان" فهو اسم مشتق من جذر سامي مشترك يعني "لبان" أو "لبن" أي اللون الأبيض باللغات العربيّة والآراميّة والسريانيّة والعبرانيّة، إشارة إلى الثلج الأبيض الذي يكلله في فصول البرد، وهو منظر نادر في المشرق خاصة للوافدين من الجزيرة العربيّة ووادي النيل.

وتجدر الملاحظة أنّ عبارة "جبل لبنان" خضعت بدورها لتطوّر تاريخيّ. فقد اقتصرحت حتى نهاية القرن السادس عشر على المناطق الشماليّة من الجبل - جبيل والبترون وبشري - التي سكنتها أغلبية مارونيّة. في حين كانت لبقية المناطق تسميات مستقلة عن جبل لبنان: بلاد كسروان وبلاد الشوف وبلاد الشقيف وبلاد جبل عامل وبلاد بشارة إلى الجنوب، ثم بلاد عكار وبعلبك والهامل وسهل البقاع، وكان جبل الشوف يُعرّف بتسمية كانت أكثر استعمالاً هي "جبل الدروز"، وأميره ب"أمير الدروز"، فيما أصبحت تسمية "إمارة جبل لبنان" متداولة محليّاً في العقد الثاني من القرن السابع عشر وأصبح أميرها "أمير جبل لبنان"، لم يغيّر هذا الواقع شيئاً بنظر السلطنة العثمانيّة التي استمرّت حتى نهاية عهد الإمارة عام 1842 في إصدار فرمانات بتعيين "أمير الدروز" على "جبل الدروز". ذلك أنّ هذا التعيين قد ابتدأ عام 1516 عندما أطلق السلطان

⁴⁹ تنتمي جبال لبنان إلى سلسلة من المرتفعات التي تمتد من جنوبي جبال طوروس في تركيا مروراً بجبل العلويين في سورية، وصولاً إلى جبل عامل وتندرج لتصبح تلالاً في الجليل والقدس.

سليم العثمانيّ هذا اللقب على فخر الدين المعني الأول، وبقي اسم "أمير الدرّوز" لقباً رسمياً حتى عندما أصبح أمير جبل لبنان مارونياً كما كانت الحال مع الأمراء الشهابيين ابتداءً من العام 1770⁵⁰. في ظل الانتداب الفرنسيّ أُطلق الأب اليسوعيّ البروفسور هنري لامنس مفهوم لبنان الوطن - المملجأ، foyer national، بأن "لبنان يُدين بوجوده ككيان لدوره كملجأ للأقليات المضطهدة في المشرق"⁵¹. وكان هذا المفهوم أطروحة الانتداب الفرنسيّ لمنح بُعدٍ أيديولوجي لدولة لبنان الكبير، إذ بعد الحرب الأهليّة عام 1860، بات تحقيق آمال المسيحيّين الموارنة عنصراً طارئاً ومهماً في تأسيس كيان لبنانيّ حديث ومستقل عام 1920، حيث أصابت مجازر 1860 و1861 المسيحيّين في الصميم ولحقت بهم الأذى أكثر مما لحقت الجماعات الأخرى، وكان سكان دمشق المسيحيّون هدفاً مباشراً لمجازر من جيرانهم المسلمين رغم أنهم لم يشاركوا في حرب لبنان بين الدرّوز والموارنة، ولذلك ظهرت الحاجة إلى تأسيس وطن يشعر فيه المسيحيّون بالأمان ويتمتعون بقدر نسبيّ من الحرية والسيادة، ولكن جبال المشرق لم تكن منيعة ضد الغزوات العسكريّة عبر التاريخ، وعلى سبيل المثال، جاء في كتاب الخوري بولس قرألي: "وعلم الأمير فخر الدين أن في جبال العلويّين قبيلة امتنعت في هضابها الوعرة وتحصّنت في قلاعها الصليبيّة وعصت، فلا تقبل حاكماً غريباً ولا تدفع ضريبة، فقصد إليها بنفسه في السنة 1630 مع طول المسافة ومشقة الطريق وتسلق قممها وتسلم قلاعها، فجاء مقدّموها صاغرين طائعين، كما شهد الديوهي والقنصل التوسكاني"⁵².

تطوّر في القرن العشرين مفهوم "الفكرة اللبنانيّة" بمعونة فرنسا، وهي فكرة سعت إلى خلق إطار ثقافيّ اجتماعيّ تاريخيّ مستقل للكيان اللبنانيّ، ويتأرجح هذا المفهوم بين المغالاة في فصل لبنان عن محيطه تماماً في التاريخ والمجتمع، والاعتدال في الطرح يقول به على سبيل المثال الأب يواكيم مبارك حول "بلورة الفكرة اللبنانيّة" وتأطير نشأة لبنان منذ إمارة الجبل في القرن السابع عشر. واعتبر بعض المؤرخين اللبنانيّين، كوجيه كوثراني وأحمد بيضون⁵³، أنّ إمارة الجبل لم تكن كياناً مستقلاً وغير كافية كحجة تاريخيّة لنشأة لبنان، ويقولون إنّ تمدّد وتقلّص الإقطاعات الجغرافيّة كان يحدث مراراً في ظل السلطنة العثمانيّة، لا في الجبل فحسب بل في المشرق مجمله.

أدى اندلاع الحرب العالميّة الأولى في أوروبا وانضمام الإمبراطوريّة العثمانيّة إلى هذه الحرب إلى جانب المانيا عام 1914 إلى نهاية دويلة جبل لبنان بمصرفٍ مسيحيّ حيث رابط في لبنان الجيش العثمانيّ بقيادة أحمد جمال باشا وعيّن متصرفين مسلمين، وفي فترة الحرب عانى سكان لبنان ويلات استمرّت حتى 1917 وهلك عشرات آلاف المواطنين من المرض والجوع. ومن هذه الويلات غزو الجراد وحصار بحريّ بريطانيّ وحكم عسكريّ مباشر فرضه أحمد جمال الذي لقبه الشعب بـ"السفاح"، ومصادرة الجيش العثمانيّ للمواد الغذائيّة والعملات المعدنيّة وفرضه العملة الورقيّة، ولم يصمد الجبل المغلق أمام هذه المصاعب وخاصة إقفال البحر

⁵⁰ ذكره وجهه كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، من المتصرفيّة العثمانيّة إلى دولة لبنان الكبير، بيروت، منشورات بحسون الثقافية، طبعة جديدة، ص. 11، ومرجهه كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، بيروت، دار النهار، 1969، ص. 12.

⁵¹ Henri Lammens, *La Syrie, Volumes I and II*, Beirut, Imprimerie Catholique, 1921.

⁵² الخوري بولس قرألي، فخر الدين المعني الثاني حاكم لبنان، بيروت، دار لحد خاطر، 1992، ص. 32.

⁵³ أحمد بيضون، الصراع على تاريخ لبنان أو الهوية والزمن في أعمال مؤرخينا المعاصرين، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانيّة، قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية، دراسة رقم 19، 1989، ص. 385.

في وجه الاستيراد وعدم إمكانية زرع ما يكفي من الحبوب والمواد الغذائية، ورغم أن الزراعة وإنتاج الحرير كانا نشاط سكان جبل لبنان الرئيسي إلا أن كمية الغذاء المنتجة محلياً لم تلَب حاجة أكثر من ثلث السكان في حين وقع الآخرون في الفقر والمجاعة، وكان أمراء الحرب يعيشون حياة وفيرة تأمينهم شر الولايات، فيما ساهمت كميات الحبوب من حوران في نجدة بعض اللبنانيين من الجوع.

وبعد الحرب العالمية الأولى ووقوع المشرق تحت النفوذ الفرنسي والبريطاني، قام الانتداب الفرنسي بتوسيع كيان جبل لبنان فجعل بيروت وساحلها عاصمة له. فارتفعت أهمية بيروت واستطاعت نخبها استعمال نفوذها السياسي والاقتصادي للهيمنة على كل لبنان، وخلال خمسين عاماً أصبحت بيروت تضم نصف سكان لبنان ومجالاً حيويّاً لمُعظم نشاط الجمهورية الاقتصادية والثقافية، كما ضم الفرنسيون مناطق متاخمة للجبل شرقاً وجنوباً وشمالاً، ما نجم عن ولادة دولة لبنان الكبير، ويرى المؤرخ روجر أوين أن اقتطاع الفرنسيين لبنان الكبير عن محيطه الداخلي الطبيعي عزز هيمنة مدينة بيروت المالية والتجارية على الجبل وأطلق اليد العليا لنشاط اقتصادي سوف تخضع فيه الزراعة والصناعة اطراداً للمال والتجارة⁵⁴.

رحب الموارنة بالانتداب الفرنسي على لبنان واستقبلوا القوات الفرنسية "كمحررة من قرون الاستعباد التركي". أما الدروز والمسلمين، سنة وشيعة، والروم الأرثوذكس فلقد أعلنوا ولاءهم للحكومة العربية في دمشق بقيادة الأمير فيصل بن الحسين شريف مكة. وحتى بعض الشخصيات المارونية، ومنها حبيب باشا السعد، أعلنت الولاء أيضاً للحكومة الفيصلية وأعلن الاستعداد للعمل معها.

وبدعم الفرنسيين، سعت شخصيات مارونية وأرثوذكسية إلى توسيع كيان الجبل "Le Petit Liban"، لخلق دولة قادرة على الحياة، ولم يرض زعماء وتجار بيروت، يدعمهم البطريرك الماروني الياس الحويك، الانفصال عن الحكومة العربية في دمشق، بل أصرّوا على لبنان كبير منفصل بمساحة أكبر وواجهة بحرية، ودفعت عائلات بيروت المسيحية، بسترس وسرسق وتويني وشيحا وفرعون وغيرها، إلى خلق دولة لبنانية تضم بيروت، وكانت ثمة عائلات تأسست في بيروت باتت تتمتع بقدرات اقتصادية، معظمها مسيحي وتضم بعض المسلمين، ومن هذه العائلات بسول وفرعون وحلو وطراد ونقاش وتابت وصباغ وبيهم وفياض ولحوود⁵⁵. وهذه العائلات وغيرها وقعت عرائض قدمتها إلى الحكومة الفرنسية للمساعدة في إنجاز هدف تكبير لبنان. استجاب الفرنسيون ووسّعوا الجبل ليضمّ مساحات من ولاية بيروت وولاية دمشق. وأسفر التعاون الفرنسي مع مسيحيي لبنان عن ولادة دولة لبنان الكبير « Le Grand Liban » الذي تمتع بمزايا جمّة، منها تضاعف عدد سكانه من 300 ألف نسمة إلى 600 ألف، وضم مدناً تاريخية هامة (بيروت وصيدا وطرابلس وصور) ومساحات زراعية خصبة (البقاع وعكار وبلاد بشارة)، واستبدلت العملة العثمانية بعملة جديدة في سورية ولبنان تعتمد قيمتها على الفرنك الفرنسي في حين بات اقتصاد الكيان الجديد أكثر ارتباطاً باقتصاد المتروبول الفرنسي.

Roger Owen, *Essays on the Crisis in Lebanon*, p. 24, mentioned in Traboulsi p. 133.⁵⁴

⁵⁵ كمال حمدان، الأزمة اللبنانية، بيروت، دار الفارابي، 1998، ص. 80-84.

لم يقبل الدروز بالانتداب الفرنسي، فهم رُحبوا بتحرير البلاد من الحكم التركي، ولكنهم لم يثقوا بطغيان الموارنة في الكيان الجديد بمساعدة أصدقائهم الفرنسيين، فأعلنوا المقاومة المسلحة ضد ما اعتبروه احتلالاً فرنسياً للبلاد. وكان رأس المعارضة الأكبر للانتداب الفرنسي هم زعماء السنة في المدن الساحلية، خاصة في بيروت وطرابلس وصيدا، الذين وحتى قيام دولة لبنان الكبير كانوا يتمتعون بالاستقرار والثروة والمناصب الرسمية في ظل السلطنة العثمانية.

فقد الموارنة تفوقهم السكاني الهائل الذي ساد في دولة جبل لبنان عندما أصبحوا في دولة لبنان الكبير، حيث تقطن أعداد كبيرة من المسلمين في المناطق التي ضُمت إلى لبنان عام 1920 وأصبح من الضروري كسب ودهم، كما أصبح الروم الأرثوذكس أكثر عدداً أيضاً حيث أضيف أرثوذكس المناطق المضمومة إلى الجبل، وكان الموارنة الطائفة الوحيدة التي انتشر أتباعها في الأراضي اللبنانية كافة بدون استثناء، إذ أنهم ومنذ القرن السابع عشر هاجروا جنوباً إلى الشوف الدرزي واستقروا بكثرة بين الشيعة في مناطق بعلبك وجبل عامل وبين السنة في البقاع وعكار ومعظم مدن الساحل، وبين الروم الأرثوذكس في الكورة وبيروت، إضافة إلى مناطق قطنوها سابقاً في شمال لبنان وكسروان.

وكان المسلمون السنة والروم الأرثوذكس يمثلون الطائفتين الإمبراطوريتين⁵⁶، استقروا في مراحل تاريخية قديمة في المناطق الأكثر صلاحية للسكن والتجارة. فيما تمتع الجبل بمناظر طبيعية خلابة ومياه متدفقة، كانت الحياة عليه قاسية لا توفر لسكانه المستوى الاقتصادي الذي وسم أهل المدن الساحلية أو تلك في الداخل السوري حيث يقطن المسلمون السنة، وهذا ما يشرح سبب غياب السنة بنسبة مهمة في جبل لبنان طيلة القرون السابقة وما جعل انضمام مناطق بأغلبية مسلمة كانت سابقاً جزءاً من ولاية دمشق وولاية بيروت إلى دولة لبنان الكبير عام 1920 سابقة أحدثت تغييراً ديمغرافياً مهماً.

ولم يكن تكبير لبنان عام 1920 هو السبب الوحيد لانخفاض نسبة المسيحيين وخاصة الموارنة في الكيان الجديد، ذلك أن الحرب العالمية الأولى قد أدت إلى كوارث ديمغرافية عميقة قتلت ثلث سكان لبنان (حوالي 100 الف)، فكان في بلدة البترون قبل الحرب 5000 نسمة بقي منهم 2000 وفي عبدلي كانوا ألفي نسمة فأصبح سكانها لا يزيدون عن 150 نسمة بعد الحرب⁵⁷. لقد استمرت الكوارث منذ إعلان الحرب وحتى العام 1917، حيث توقفت فوراً المساعدات المالية والعينية من المهجر وتراجع عرض المواد الغذائية، وفرض الأتراك عملة ورقية وصادروا الشبان للعمل في السخرة وجرت إعدامات كثيرة بحق الوطنيين عامي 1915 و1916، وصادر الجيش التركي مؤن الأهالي ومواشيهم، فتناثرت جثث اللبنانيين في كل مكان وانتشر التيفوئيد والتيفوس والطاعون والملاريا واجتاح الجراد لبنان في نيسان 1915 وبقي يجوب الجبل لشهور عدّة فترك البلاد بلقاعاً، أقفلت طريق البحر واحتجز الإنكليز سفينة محملة بالأطعمة والملابس فتلف ما حملته. وأخيراً

⁵⁶ يكتى الأرثوذكس بالملكيتين نسبة إلى الإمبراطورية البيزنطية التي كانت على هذا المذهب في حين كان سلاطين الأتراك والخلفاء العباسيين والمماليك على مذهب السنة. وفي أواخر القرن السابع عشر قام المطران يوثيموس الصيفي (من حلب) بحركة انفصال عن الكنيسة الأرثوذكسية والتحق بكنيسة روما فتبعه كبار التجار من مواطنيه ورعيته. واضطهد الروم الأرثوذكس أعضاء الروم الكاثوليك في حلب وأنهاه سورية فاضطر الكثيرون إلى اللجوء إلى لبنان وتمركزوا في شرق صيدا وزحلة (كمال الصليبي، تاريخ لبنان الجديد ص. 169).

⁵⁷ مسعود ضاهر، تاريخ لبنان الاجتماعي، ص. 20.

رفع الأتراك الحظر وسمحوا بدخول القمح إلى لبنان من سورية عام 1917⁵⁸، وبقي من سكان المتصرفية في نهاية الحرب 400 ألف نسمة في مساحة 5000 كلم مربع منها أقل من 4 في المئة فقط صالحة للزراعة، وعام 1920 عندما وسَّع الفرنسيون الكيان أضيف حوالي 350 ألف نسمة، معظمهم يقيم في طرابلس وصيدا وبيروت⁵⁹ وأراضٍ شاسعة صالحة للزراعة، وكان عدد سكان بيروت عام 1908 136 ألف نسمة انخفضوا إلى أقل من مئة ألف بعد الحرب العالمية الأولى.

عندما أعلن الجنرال غورو⁶⁰ في أيلول 1920 دولة لبنان الكبير في قصر الصنوبر في بيروت بحضور البطريرك الماروني ومفتي السنة مصطفى النجا وشخصيات، ذكر حدودها ما يعني أن مساحتها ستكون حوالي 11 ألف أو 12 ألف كلم مربع، ولكن كما فعلت فرنسا في سورية ومنحت الإسكندرون لتركيا، اتَّفَق الفرنسيون والإنكليز في ما بعد على اقتطاع منطقة وادي الحولة اللبنانية الغنية بالمجاري المائية⁶¹، ومنحها إلى الانتداب البريطاني في فلسطين لتصبح جزءاً من "إسرائيل" بعد إعلانها. ما يفسر الجيب الذي يمتد داخل الأراضي اللبنانية عند مرجعيون، وهكذا تقلص كيان لبنان الجديد إلى 10400 كلم مربع⁶².

قدَّر الإحصاء عدد سكان الكيان الجديد (جبلًا وساحلاً وأطرافاً) من المقيمين 580 ألف نسمة ومن المهاجرين 131 ألفاً⁶³، ما مجموعه 711 ألفاً. وبين الإحصاء الفرنسي للمقيمين عام 1921 أن نسبة الطوائف المسيحية قد انخفضت من 80 في المئة تقريباً في دولة جبل لبنان إلى 52 في المئة في دولة لبنان الكبير، أو أقل من ثلاثمئة ألف مسيحي مقابل 265 ألف مسلم، ولكن عدم تجانس المجموعات المسيحية أو المجموعات المسلمة ضمناً عنى أن الكيان الجديد أصبح متنوعاً لا ثقل لأي طائفة بمفردها ما اقتضى تقارب الموارد والسنة لخلق كتلة سكانية كبرى تدعم الاستقرار، فقد مثل الموارد والسنة الطائفتين الأكثر عدداً في لبنان الكبير، حيث بلغ عددهما معاً 301 ألف عام 1925 أي أغلبية 50,3 في المئة من مجموع السكان.

ولكن بعدما أجرت سلطات الانتداب إحصاء عام 1932، ظهر أن الأغلبية المسيحية باتت باهتة عند 51 في المئة مقابل 48,7 في المئة للمسلمين ولكن بقيت نسبة السنة والموارنة معاً 51,4 في المئة (وكان توزيع الطوائف الكبرى كالتالي: الموارنة 29 في المئة والسنة 22,4 في المئة والشيعية 19,6 في المئة والأرثوذكس 10 في المئة)⁶⁴. وكان متوقعاً أن ينقلب الأمر لصالح أغلبية مسلمة في إحصاء جديد كان من المفترض أن يجري عام 1942، إلا أن أصحاب الأمر في كيان لبنان - وحتى اليوم - رفضوا إجراء إحصاء للسكان وبات إحصاء 1932 هو الأخير.

⁵⁸ لبيب عبد الساتر، التاريخ المعاصر، بيروت، دار المشرق، 1986، ص. 11-12.

⁵⁹ مسعود ضاهر، المصدر نفسه، ص. 41.

⁶⁰ "باسم الحكومة الفرنسية أحييه في عظمته وقوته من النهر الكبير إلى أبواب فلسطين وقمم لبنان الشرقي، ذلك هو لبنان، بجبله... بسهل البقاع الخصيب... بمدينة بيروت المرفأ العظيم للدولة الجديدة ومقر حكومتها، مدينتي صيدا وصور صاحبتني الماضي الشهر..."، إعلان الجنرال غورو، بشارة الخوري، حقائق لبنانية، 1960، ص. 286-287.

⁶¹ يُشار إلى أن تلك المنطقة وحتى بحيرة طبريا وصفد كانت دائماً جزءاً من الإمارة اللبنانية منذ عهد الأمير فخر الدين الثاني.

⁶² مسعود ضاهر، المصدر نفسه، ص. 45-46.

⁶³ مسعود ضاهر، المصدر نفسه، ص. 52.

⁶⁴ سعيد مراد، الحركة الوحدوية في لبنان، بيروت، مركز الدراسات العربية، 1986، ص. 210.

لعب المسيحيون غير الموازنة دوراً في دولة لبنان الكبير وفي النشاط الاقتصادي، وبقي الشيعة بدون راعٍ خارجي وبقاعدة اقتصادية لا شأن لها، رغم أن حجمهم الديمغرافي لم يتعد كثيراً عن حجم السنة. ولذلك كان من الطبيعي أن يكون السنة والموارنة المصدر الرئيسي للشرعية الشعبية للنظام السياسي الذي انبثق عن الانتداب، وأن يلعب الدور دوراً أكبر من حجمهم الديمغرافي (وخاصة بسبب تولي آل أرسلان بقيادة المير مجيد وآل جنبلاط بقيادة الست نظيرة لواء مصالحهم). رغم أن إحصاء 1932 أظهر تضاًؤل عددهم إلى أقل من 7 في المئة من السكان.

لبنان الانتدابي

أصبح الأرثوذكس في الكيان الجديد الطائفة الكبرى الرابعة بعد الموازنة والسنة والشيعة، فيما ارتبط الموازنة بالقرى والمناطق الجبلية والريفية، كان الأرثوذكس أكثر التصاقاً بالمدن، حيث أقاموا في المدن العثمانية الكبرى إلى جانب المسلمين السنة، وإذ كان الأرثوذكس أقلية مسيحية صغرى في جبل لبنان حيث كان الموازنة الأغلبية، فهم فاقوا الموازنة عدداً في سائر المشرق وخاصة في سورية، وتعود أصول الروم الأرثوذكس المنتشرين في أنحاء لبنان إما إلى منطقة الكورة قديماً أو إلى الداخل السوري من حوران ودمشق وحلب وغيرها حيث اختلطوا بعفوية وسهولة مع سنة المدن وخاصة في التجارة والإدارة ولم يكن لهم كانتونات في الجبل كالدروز والشيعة والموارنة، ولم يعانوا من سيكولوجية الأقلية المضطهدة التي دفعت غيرهم إلى المرتفعات، فكان موقفهم من الكيان الجديد مقارباً لموقف السنة.

وفي القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين، انتعشت وازدهرت جماعات كبرى من الروم الأرثوذكس في سائر مدن المشرق، حيث شكّلوا أحياناً ثلث عدد السكان في دمشق وحلب، ونسبة مئوية هامة في بيروت والقدس وغيرها من المدن، وفي طبيعة الحال كان وضع الروم الأرثوذكس الاقتصادي متيناً، منهم الأغنياء وأصحاب المعارف والمهن الرفيعة، وظهرت عائلات أرستقراطية أرثوذكسية عديدة في بيروت كما أن مناطق يسكنها أبناء هذا المذهب أصبحت جزءاً من دويلة جبل لبنان عام 1864 (الكورة وإقليم الخروب).

كان إعلان دولة لبنان الكبير عام 1920 مناسبة سعيدة للموارنة، ولكنه كان يوماً مشؤوماً للمسلمين وخاصة السنة الذين رأوا مركزهم ينحدر من أغلبية مطلقة في المنطقة إلى أقلية في دولة ذات أغلبية مسيحية، منفصلة عن إخوانهم في الدين في العمق السوري، فكان استيلاء فرنسا وبريطانيا العسكري على المشرق عام 1918 كارثة على السنة، ومنذ البدء أهان أفراد الجيوش البريطانية والفرنسية المسلمين في مناسبات عدة، كوقوف الإنكليز على قبر صلاح الدين الأيوبي في دمشق وتهكمهم بالقول "لقد عدنا يا صلاح الدين" (إشارة إلى الهزيمة المذلّة لملك إنكلترا ريكاردوس قلب الأسد علي يد صلاح الدين عام 1190)، فيما كان رجال فرنسا في لبنان يطلقون تصريحات عشوائية مؤذية، كالمسؤول العسكري الفرنسي روبر كوران الذي أغضب المسلمين

عندما قال إن "فرنسا جاءت إلى لبنان لتتخذ أصدقاءها الموارنة"⁶⁵، أو قول الجنرال كاترو للبطريرك الماروني إن "فرنسا أنشأت لبنان خدمة للموارنة"⁶⁶، ما أعطى دخول الحلفاء إلى المشرق مذاقاً صليبيّاً لدى المسلمين. وحتى قبل ظهور معارضة السنّة للكيان الجديد، كان الفرنسيون والموارنة يدركون هذا التحدي الديمغرافي، لأنّ السنّة كانوا الخاسر الأكبر في دولة لبنان الكبير يليهم الأرثوذكس، ولذلك كانت همة جهود كبيرة بذلها الانتداب والموارنة لمحاكاة السنّة ليتعاطفوا مع الجمهوريّة الجديدة، حيث كانت مسألة الحصول على اعتراف السنّة بلبنان مرتبطة بقبول العالم العربيّ الأوسع وجلّه من السنّة، لدولة بأغليبيّة مسيحيّة في وسطه، واستغرقت هذه الجهود سنوات عدّة فيما أخذ الفرنسيون والموارنة يتحاشون القيام بأعمال أو إطلاق تصريحات تظهر وكأنّ هذا الكيان خلق للموارنة، فامتنع أيّ مارونيّ على مستوى رأس السلطة قبل الثلاثينيّات من القرن العشرين احتراماً لمشاعر المسلمين، إلى أن استقرّ الفرنسيون والموارنة على التعاون مع زعماء صيدا وبيروت وطرابلس على ترتيب البيت الجديد والتشارك في حكومة لبنانيّة.

من 1928 إلى 1939، شارك آل الصلح من صيدا في الإدارة العامة وآل كرامي والأحدب والجسر من طرابلس في السلطة السياسيّة، حيث انتقلوا إلى بيروت وتسلّموا مناصب رفيعة، وسمحت سنوات الانتداب العشر الأولى في تبلور الشراكة بين زعماء الموارنة والسنّة ما مهّد الطريق لتدعيم شرعيّة الكيان، ولم يعن ذلك وحدة الصف المارونيّ، فقد دار صراع سياسيّ مارونيّ داخليّ بين معسكرين الأول يقوده المحامي إميل إدّه الفرنكوفيلي ابن جبيل شمال بيروت، والثاني يقوده بشارة الخوري الأكثر انفتاحاً، وهو من الشوف.

كان إدّه مناضلاً استقلالياً ضد الحكم التركي، صدر ضده حكم بالإعدام فلجأ إلى مصر ثم فرنسا في زمن الحرب وشارك في نشاطات سياسيّة عدّة مع لبنانيين آخرين وعاد إلى لبنان على متن بارجة حربيّة فرنسيّة عام 1919، فعينته فرنسا مستشاراً للمفوض السامي الفرنسيّ في بيروت. وفيما تمتع إدّه بشعبيّة في أوساط موارنة كسروان والشمال، كان موارنة الوسط (الشوف وعاليه والمتن) يفضلون بشارة الخوري المتحدّر من آل الخوري، صالح أمراء حرب جرد الشوف، وقريب حبيب السعد الخوري.

وفي المرحلة الانتقالية من دولة جبل لبنان المرتبطة بحكومة دمشق العربيّة وحتى إعلان دولة لبنان الكبير، عمل بشارة الخوري مساعداً لقريبه حبيب السعد الذي عينته الحكومة الفيصلية حاكماً على جبل لبنان. أمّا إميل إدّه فكان في صف فرنسا. وقد ذكر بشارة الخوري عن ولاء إدّه لفرنسا في مذكراته بهذه الكلمات: "قد يكون خطأ في العقيدة، ذلك أنّ إدّه كان ضيق الإيمان بالاستقلال التام الناجز وبديمومة الميثاق الوطنيّ. ضعيف الثقة بدنيا العرب، ولو انقادت إليه مقاليد الأمور وأصبح في مقدوره تحويل مجرى الحادّثات لأنشأ لبناناً أصغر من الكبير، وأكبر من الصغير، يضمّ بيروت قاعدة له والبقاع الغربيّ مدى حيويّاً، ولأحاطه بسياج من الوصاية الفرنسيّة"⁶⁷.

أصبح إميل إدّه وبشارة الخوري عضوين في مجلس إدارة عينه الفرنسيون. واستمرّ المجلس المعين لغاية 1926، حيث انتهى العمل لتحضير دستور للبنان وفقاً لبنود مذكّرة الانتداب التي أصدرتها عصبة الأمم

⁶⁵ كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص. 207.

⁶⁶ لييب عبد الساتر، التاريخ الحديث، ص. 246.

⁶⁷ بشارة الخوري، حقائق لبنانيّة، الجزء الثاني، ص. 83-84.

لتحويل لبنان إلى دولة، ورأس لجنة صياغة الدستور الأرثوذكسيّ شارل دبّاس، الذي كان وزير العدل في الإدارة، ومعه ميشال شيحا وبترو طراد في أمانة سر لجنة الدستور الذي اقتبست معظم مواده من الدستور الفرنسيّ، وبعدهما تأسس البرلمان أعلن في 23 أيّار 1926 بدء العمل بالدستور الجديد، وبدأ البحث عن رئيس يجمع قيادات كلّ الطوائف، فأخذت الفئة المتموّلة، التي ضمّت مسيحيّين ومسلمين، على عاتقها مهمة إقناع القيادة الإسلاميّة السنية والأرثوذكسيّة المعارضة للوجود الفرنسيّ ولاحتمال الهيمنة المارونيّة أن تلتف حول الدستور والبرلمان.

وكان الأرثوذكس قد خسروا حمايتهم الدوليّة روسياً القيصريّة، عندما قامت الثورة البلشفيّة عام 1917، وخافوا من هيمنة الموارنة والدعم الفرنسيّ الواضح للموارنة والكاثوليك بشكل عام، ففضلوا الوحدة مع سورية حيث أكثرية بني طائفهم، ولذلك عندما بدأ العمل بالدستور، رشّح الفرنسيّون شارل دبّاس الذي أشرف على صياغة الدستور رئيساً لدولة لبنان الكبير، ورغم أنّ دبّاس كان فرنكوفيلياً تخرّج من باريس وزوجته فرنسيّة ومقرّب من فرنسا، إلا أنّ الموارنة وبعض الفرنسيّين لم يكونوا مرتاحين جداً لهذا الاختيار لأنّ دبّاس شارك في المؤتمر العربيّ في باريس عام 1913 والذي هاجمه الموارنة بشدّة، كما اعترض البطريك المارونيّ على ترشيح دبّاس لأنه كان راعياً في مرشح مارونيّ، إلا أنّ السلطات الفرنسيّة وعدت البطريك أن يكون خليفة دبّاس مارونيّاً⁶⁸، وهكذا ساهم انتخاب دبّاس بالتخفيف من غلواء المسلمين والأرثوذكس ضد الموارنة. وتقديراً لموافقة الموارنة على وصول أرثوذكسيّ للرئاسة الأولى، قام دبّاس بتعيين المارونيّ أوغست أديب رئيساً للوزارة اللبنانيّة الأولى، وكان همّ الحكومة الأول تهدئة مناطق الدروز والشيعية المشتعلة بالثورة ضد احتلال فرنسا ضمن الثورة السوريّة الكبرى، وكان أوغست أديب مستشاراً للمفوض السامي في بيروت، وبعد أوغست أديب عين دبّاس عام 1927 ثلاثة موارنة على التوالي، هم حبيب السعد وبشارة الخوري وإميل إدّه مداورة في هذا المنصب حتى 1930، وكان بشارة الخوري عضواً في المجلس التمثيلي الفرنسيّ ثم وزيراً في حكومة أوغست أديب عام 1926، ثم رئيساً للحكومة بين 1927 و1929، ولذلك صعد السلم أسرع من خصمه إميل إدّه. وكان بشارة الخوري مدعوماً من أصحاب المال ميشال شيحا وآل فرعون. أمّا إدّه الذي كان أيضاً عضواً في المجلس الانتدائيّ منذ العام 1922 فقد تسلّم رئاسة الوزارة عام 1929، وحظي بدعم الموارنة المتشدّدين الذين رأى بعضهم لبنان وطناً للمسيحيّين مرتبطاً بفرنسا، كما دعمته بيوتات بيروت المسيحيّة بعد أن فاق نفوذه في البيئة الأرستقراطيّة البيروتية المارونيّة جورج ثابت.

وكان الفرنسيّون يعلمون أنّ موارنة الشوف وعاليه والمتن مرتاحون في التعامل مع المسلمين في لبنان والمحيط العربيّ وأكثر ليبراليّة من إدّه وحلفائه في كسروان وشمال لبنان، فكان إدّه رجل فرنسا الرئيسيّ، يتكلّم عن "أخطار العرب على مسيحيّ لبنان"⁶⁹ بأسلوب خلا من الدبلوماسية وينقّر المسلمين، فيما كان بشارة الخوري يتقرّب من مسلمي لبنان ويمدّ يد الصداقة للعرب، فقد التقى زعماء الموارنة من الشوف وعاليه والمتن مع

⁶⁸ لبيب عبد الساتر، التاريخ المعاصر، ص. 205.

⁶⁹ كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص. 217.

أصحاب المال والتجارة، وأكد أن لبنان يحتاج الدول العربية كشركاء في الأعمال وأن المنطقة العربية ستشكّل أهم مصادر النمو والازدهار للاقتصاد اللبناني.

وبقيت مشكلة أساسية في استيعاب مسلمي وأرثوذكس المناطق المضمومة بعد استمالة سنة طرابلس وبيروت وصيدا. ذلك أن مواقف المسلمين السلبية في الجنوب والبقاع وعكار من الكيان اللبناني أدت إلى زرع بذور الشك في نفوس الفرنسيين وبعض القادة المسيحيين في إمكانية النجاح في ضمّ البقاع وطرابلس إلى لبنان. وتوصل كبير ممثلي فرنسا في لبنان دوكيه عام 1928 إلى قناعة بأن أغلبية المسلمين لا تزال بعيدة عن أن تدين بالولاء للكيان الجديد. واقترح ضمّ شمال لبنان والبقاع إلى سورية وقمع جنوب لبنان بالقوة العسكرية. فخاف تجار بيروت أن يؤدي ضم طرابلس إلى سورية إلى تقوية مدينة طرابلس ومرفئها على حساب مدينة بيروت ومرفئها. وبعد صدور إحصاء 1932 خاف إميل إدّه وقدم باسم عدد من حلفائه مذكرة إلى الخارجية الفرنسية توضح أن عدد سكان لبنان الكبير هو 840 ألفاً منهم 405 آلاف مسلم، أي أن الأغلبية المسيحية لم تعد راجحة، واقترح أن تصبح طرابلس مدينة مفتوحة يُمنح سكانها المسيحيون الجنسية اللبنانية وسكانها المسلمين الجنسية السورية، فيحذف 55 ألفاً من سته طرابلس عن تعداد السكان، وأن يُمنح جنوب لبنان حكماً ذاتياً فيحذف 140 ألفاً من مسلمي جنوب لبنان من التعداد حتى لو خسر لبنان مسيحيي الجنوب، وهكذا تقتصر دولة لبنان على الجبل والبقاع وما تبقى من الساحل فتعود نسبة المسيحيين في لبنان الكبير إلى 80 في المئة من السكان كما كانت المتصرفية، ولكن لم تلق أفكار إعادة تقسيم لبنان دعماً، إذ عارضها مسيحيون كثيرون كانوا واثقين أن التنوع الطائفي مسألة يمكن التعاطي معها.

وسينصرف إدّه عن هذه الأفكار لاحقاً للبحث عن وسائل إيجابية لاستمالة المسلمين إلى معسكره، ذلك أن إميل إدّه، وليس بشارة الخوري، أيّد زعيماً سنياً من طرابلس ليصبح رئيساً للجمهورية مكان دبّاس، إذ أخذ زعماء السنة يشاركون في الحكم بعد سنوات من الإقناع وبعد فشلهم في الغاء مفاعيل الانتداب. وكان دبّاس قد دعم الشيخ محمد الجسر، زعيم طرابلس السني ونائبها في البرلمان لكي يصبح رئيساً لمجلس النواب، بسبب خبرة هذا الأخير الطويلة كنائب في البرلمان العثماني عام 1912 وكرئيس لبرلمان ولاية بيروت عام 1915⁷⁰. وعندما انتهى عهد دبّاس عام 1932، خاف إدّه من أن غريمه بشارة الخوري يتمتع بنسبة عالية من النجاح وسيأخذ مكان دبّاس بسبب شعبيته لدى نصف النواب الموارنة وأغلبية النواب المسلمين والأرثوذكس داخل البرلمان، ولذلك أعلن إدّه دعمه لمحمد الجسر ليصبح رئيساً مسلماً للجمهورية، فوافق الجسر وأعلن النواب المسلمون والأرثوذكس تأييدهم له، وحتى البطريرك الماروني أنطوان عريضة أيّد الجسر، لأنه لم يرغب في رؤية الخوري رئيساً، وهكذا اختلف الموارنة حول اقتناص أول فرصة ليصلوا إلى السدة الأولى في لبنان، وصُعق الفرنسيون الذين صنعوا لبنان ليكون وطناً بأغلبية مسيحية، أن خلافات الموارنة دفعت البرلمان لانتخاب رئيس مسلم.

فتدخل المفوض الفرنسي وجدّد ولاية الرئيس دبّاس لمدة سنة وعطل الدستور وألغى البرلمان، ثم عين حبيب السعد رئيساً لمدة سنتين ما أرضى البطريركية المارونية لتعيين ماروني رئيساً.

⁷⁰ أحمد أبوسعد، معجم أسماء الأسر والأشخاص وملحات من تاريخ العائلات، بيروت، دار العلم للملايين، 1997، ص. 192.

ثم خافت سلطة الانتداب من معسكر الخوري الذي كان يسعى إلى إنهاء سيطرة فرنسا على لبنان واقتصاده وتحقيق الاستقلال واستنجاهه بالإنكليز لتحقيق هذا الهدف، فقررت دعم إده، وهكذا تمّ انتخاب إميل إده رئيساً للجمهورية بأغلبية برلمانية ضئيلة عام 1936. ومن توجهات إده كرئيس للجمهورية تشجيعه للإرساليات الأوروبية وفكرة "القومية الفينيقية" حيث أطلقت الحفريات الأثرية الفرنسية في لبنان أبحاثاً عدّة عن الفينيقيين في لبنان وأوروبا وخاصة في الأوساط الأكاديمية في فرنسا وألمانيا وإيطاليا. ولكنّ إده اكتشف همرارة أنّ وصوله إلى الرئاسة جعله أسير المفوضية الفرنسية التي كان تدخلها في شؤون لبنان سافراً، أمّا معسكر الخوري فقد ردّ على تدخل الفرنسيين ونجاح إده بتأسيس "الكتلة الدستورية" للمطالبة بعودة الدستور وقاد حملة متواصلة لتحقيق سيادة لبنان. فأصبح بشارة الخوري زعيماً للمعارضة في البرلمان وكذلك زعيماً وطنياً يضغط من أجل الاستقلال، في تلك الفترة كانت صحيفة Orient المؤيِّدة لإده تهاجم معسكر "الكتلة الدستورية" على أنّهم "جماعة من المتمولّين يريدون السيطرة على لبنان وإدارته لمصالحهم الخاصة". وبالمواجهة كانت صحيفة Le Jour المؤيِّدة للخوري تردّ بعنف متهمه إده وأنصاره ("الكتلة الوطنية") بأنهم "أبناح الفرنسيين يؤمنون بأفكار بالية"⁷¹ (وكان يشرف على اللوجور شارل الحلو وكان متخرّجاً من الجامعة اليسوعية وهو ابن شقيقة ميشال شبحاً⁷²).

شراكة سنّية مارونيّة نحو الاستقلال

في تلك الفترة كاد مسلمو لبنان يفقدون صبرهم من مناورات سلطة الانتداب وخلافات الموارنة ويعودون إلى شكوكهم حول الكيان الجديد، كما أنّ إده عيّن عام 1936 البروتستانتّي أيوب ثابت، الذي اعتبره المسلمون متزمتاً، في أمانة سرّ الدولة محل السنّي عبدالله بيهم. وعند تعليق الدستور، عقد الزعماء السنة في لبنان وسورية مؤتمراً مشتركاً عام 1933 برئاسة الزعيم البيروتي سليم سلام أسموه "مؤتمر الساحل الأول" وطالبوا فيه بضم المناطق ذات الأغلبية الإسلامية إلى سورية، وبعد اضطرابات ضد الانتداب في سورية امتدت إلى بيروت وطرابلس وصيدا في بداية العام 1936، بدأ الفرنسيون مفاوضات مع السوريين، وتشجع سنة لبنان فدعا سليم سلام إلى "مؤتمر الساحل الثاني" في آذار، ولكن انقسم المسيحيون حول المؤتمر الثاني الذي سعى إلى إزالة الانتداب وتوحيد سورية ولبنان، ففيما أرسل الروم الأرثوذكس مبعوثين للمشاركة فضّل الموارنة المقاطعة، رغم أنّ البطريرك المارونيّ انطون عريضة كان يتقرّب من زعماء دمشق الوجوديين ويشنّ حملة ضد سياسة فرنسا الاقتصادية المضرة بلبنان وخاصة احتكارها لزراعة التبغ على حساب اللبنانيين عام 1935. وكان وقع مؤتمر 1936 شديداً بمقررات غير مساومة، إذ حركّ مشاعر المسلمين للعصيان ضد الانتداب أكثر من المؤتمر الأول ما أقلق الفئات الموالية لفرنسا.

⁷¹ ذكرها كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص. 225 نقلاً عن صحيفتي اللوريان واللوجور.

⁷² مذكرات شارل الحلو تقرأ وكأنها سيرة رجل دولة فرنسيّ متقاعد، شارل حلو، حياة في ذكريات، بيروت، دار النهار، 1995.

وفي الثلاثينيات والأربعينيات تأسست أحزاب عدّة صبّت في إطار الحركات القومية المتعدّدة في لبنان وسورية، فتبنّت الأحزاب التي أسّسها أو أدلج لها مثقفون من الروم الأرثوذكس أفكاراً أوروبية حول القومية والعلمنة، منهم ميشال عفلق الذي نظر لأمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة تمتدّ من المغرب إلى العراق، وأنطون سعاده الذي نادى بأمة سورية على أساس جغرافي لا طائفيّ تغطي المنطقة التقليديّة التي كان يسعى لوحدها سنة الساحل والأرثوذكسيّون، فأسس الحزب السوري القومي عام 1932 وأخذ منحى علمانياً جذب المثقفين. وشارك هذا الحزب في مؤتمر الساحل عام 1936 وكان مندوبوه أكثر تشدّداً من الزعماء السنّة مطالبتهم بضم المناطق اللبنانيّة كافة إلى سورية وليس فقط المناطق الإسلاميّة، حيث اعتبروا مطلب السنّة ذا مضمون طائفيّ لأنه ركّز على المناطق الإسلاميّة.

كما تأسس حزب الكتائب (قوميّ لبنانيّ) عام 1936 بقيادة المارونيّ بيار الجميل الذي وجد شعبيّة في الأوساط المسيحيّة ولعب دوراً حاسماً في حياة الجمهوريّة اللبنانيّة. وكذلك برز حزب النجادة الذي تأسس عام 1937 كردّاً إسلاميًّا على حزب الكتائب، بقيادة عدنان الحكيم، فاستمدّ قوّته من الأحياء الإسلاميّة في المدن وخاصة في أوساط السنّة واتخذ لنفسه شعار "بلاد العرب للعرب" وساهم في إسقاط أيوب ثابت الذي أراد إنقاص حصة المسلمين في البرلمان عام 1943. ومن الأحزاب الأخرى التي تأسست في تلك الفترة "منظمة الغسانة" الأرثوذكسية إشارة إلى عروبة الأرثوذكس (حيث كان بنو غسان من القبائل المسيحيّة العربيّة)، كما أسّس هنري فرعون "حزب الاستقلال". وخارج إطار الأحزاب القوميّة النزعة والأحزاب الطائفيّة برز الحزب الشيوعيّ في لبنان وسورية الذي تأسس عام 1925 وارتبط بروسيا البلشفيّة، أما "حزب الترقّي" الذي أسّسه بشارة الخوري مع بداية الانتداب فقد ابتلعت المصالح الضيقة وأهمله أعضاؤه بعد وصولهم إلى الوظائف في سلطة الانتداب.

في العام 1936 ضغط الإنكليز على الفرنسيّين ليمنحوا سورية ولبنان الاستقلال، فتجاوب الفرنسيّون مع مطالب معسكر الخوري والمسلمين وزعماء دمشق وأعلنوا قبولهم مبدأ استقلال لبنان وسورية ووقّعوا اتفاقيّات وضعت فترة زمنية لتحقيق هذا الهدف مدّتها ثلاث سنوات تنتهي عام 1939. وحدّدت المعاهدة مع سورية حدود الكيان السوريّ الذي ضمت إليه جبال العلويّين وجبل الدروز، ولكن توقيع المعاهدة بين لبنان وفرنسا في باريس في أيلول 1936 والإعلان عن عرضها على البرلمان لإبرامها، أشعل المشاعر الإسلاميّة بأنّ هذه المعاهدة ستكرّس نهائياً الانفصال عن سورية، فقامت تظاهرات في بيروت وطرابلس ووقعت صدامات طائفيّة، وفي تشرين الثاني تعارك متحمسون موارد ومسلمون بالعصي والسكاكين في حيّ الجميزة في بيروت وتدخل أفراد من الحزب السوريّ القوميّ إلى جانب المسلمين، فوقع قتلى وجرحى من الطرفين، ولكن البرلمان اللبنانيّ أبرم المعاهدة بموافقة أعضائه المسلمين والمسيحيّين وعادت الحياة الدستوريّة كاملة إلى لبنان في كانون الثاني 1937.

فتحت أواخر الثلاثينيات عيني إميل إدّه، فأصبح غير إدّه العشرينيات، وجعلته التجربة أكثر تواضعاً في التعاطي مع مبدأ الشراكة مع المسلمين في لبنان، يرى صوابيّة بشارة الخوري أنّه من الضروريّ كسب ودّ المسلمين وثقتهم للمحافظة على كيان لبنانيّ منفصل عن سورية، ولذلك قام إدّه بتعيين أول رئيس وزراء

سني عام 1937 هو خيرالدين الأحدب. وأعطى هذا الاختيار ثماره إذ عندما أخذت على الأحدب مشاركته في حكم يرأسه ماروني متشدد مثل إميل إده يأتمر بمشيئة المفوض السامي الفرنسي، ردّ الأحدب بالقول: "إذا أراد العرب أن يتحدوا، فوجودي في سرايا لبنان لن يمنعهم من تحقيقها"⁷³. وخلق تعيين الأحدب تقليداً في لبنان بأن يكون منصب رئيس الجمهورية للموارنة ومنصب رئيس الوزراء للسنة، ذلك أن الواقع الديمغرافي والاقتصادي هو الذي أنتج وصول الموارنة والسنة إلى المركزين الأولين في الدولة، ولمراضة معسكر الخوري قام الأحدب بتعديل عضوية وزارته خمس مرات خلال عامين، كما أن أفراداً بارزين من معسكر الخوري كميخال زكور وخالد شهاب (من سنة حاصبيا موطن الأمراء الشهابيين الأصليين) وكميل شمعون قد اشتركوا أيضاً في وزارات في ولاية إده.

ولقد أثار فضول الجنرال سيرز الذي التقى الزعماء السنة في تلك الفترة، قبولهم بالكيان اللبناني وكفهم عن المطالبة بالاتحاد مع سورية. فاستنتج أنهم عندما رأوا ما هو معروض عليهم من مناصب ونفوذ في الكيان اللبناني، مقابل دور ثانوي محتمل تحت قيادة دمشق، فضلوا دعم استقلال لبنان. ومن ناحية أخرى ومنذ بداية الانتداب الفرنسي على سورية، كان لتجار دمشق وعائلاتها النافذة موقف سلبى من الأعمال المناهضة للفرنسيين عام 1925، بأن "مقاومة الفرنسيين ضرب من الجنون وبالتالي يجب الرضوخ لقرارات مؤتمر السلام"⁷⁴، في حين كانت ردة فعل زعماء دمشق باردة إزاء التحركات الشعبية في لبنان المطالبة بالوحدة مع سورية عام 1936، فلم يدعوا إلى تظاهرات مماثلة في سورية.

ولم يقتصر انفتاح الموارنة على زعماء السنة، بل فهموا أهمية حجم الشيعة رغم ضعف هؤلاء الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في الكيان، وكان الشيعة يعيشون بشكل كثيف في جبل عامل جنوباً وفي البقاع ويعانون من التخلف والحرمان ومن فقدان أبسط مقومات الحياة العصرية، ومن نسبة أمية مرتفعة وطغيان الإقطاع القديم. ولقد أيد الشيعة الوحدة مع سورية في بداية الانتداب وشاركوا الدروز في مقاومة الفرنسيين عامي 1919 و1920، وفي الثورة الكبرى عام 1925 حيث ثار الدروز في الشوف وحاولوا اغتيال المفوض السامي وأميرال الأسطول الفرنسي اللذين كانا يزوران المنطقة.

ولكن لم يكن موقف الشيعة من مطلب الوحدة مع سورية حاسماً كموقف السنة حيث لم يكن هناك ما يخسرهم الشيعة عندما تفتتت الإمبراطورية العثمانية، كما أن بعضهم لم يرغب بالوحدة مع سورية ورأى حسنات في دولة لبنان الكبير مشابهة لتلك التي رآها الموارنة. فهناك ذكرى مؤلمة عن قرون الاضطهاد العثماني والتمييز السنّي للشيعة في مراحل سابقة وخاصة عدم اعتراف الأتراك بالشيعة ووضع أحوالهم الشخصية في تصرف قضاة الشرع السنة، ومن هنا حرص الفرنسيون على تشجيع شيعة لبنان كما شجعوا العلويين بمنحهم صوتاً مستقلاً عن السنة عام 1926 بجعلهم واحدة من العائلات الروحية اللبنانية، ولم تكن هذه البادرة الفرنسية نحو الشيعة لتقلل من معارضة السنة للانفصال عن سورية⁷⁵، لا بل فإن زعماء السنة كانوا

⁷³ كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص. 230.

⁷⁴ مسعود ضاهر، تاريخ لبنان الاجتماعي، ص. 36.

⁷⁵ Leila M. Meo, *Lebanon – Improbable Nation A Study in Political Development*, Westport, Connecticut, Greenwood Press, Publishers (Indiana University Press), 1965, p. 51.

يتحدثون باسم جميع المسلمين بسبب غياب أصوات شيعية قوية، ولقد أحدث الفرنسيون تعديلاً في نظام الملل العثماني حيث فرضوا على الطوائف الإسلامية أن يكون لها قيادة روحية تنطق باسمها إسوة بالمسيحيين، وحيث لا كنيسة في الإسلام، سُمي الفرنسيون مفتياً السنة "مفتي الجمهورية" وللدروز "شيخاً للعقل" وللشيعية "مفتياً جعفرياً". وعلى هذا الأساس لم يكن في الأمر غرابة قبول مفتي طرابلس عبدالحميد كرامي أن يكون زعيماً سياسياً ورئيساً للوزارة، فأصبحت الزعامات الروحية بمثابة برلمان ظل للطبقة السياسية الجديدة.

وبسبب وضع الشيعة التعيس في المرحلة السابقة أيقن صانعو السياسة الفرنسية أن الشيعة سيكونون مواطنين سعداء في الكيان الجديد⁷⁶، وسيستعملون الاعتراف بهم كجماعة روحية لتحسين وضعهم الاجتماعي قياساً إلى الطوائف الأخرى. ولكي لا يبقى الشيعة ذخيرة في مسعى السنة لمناوأة الانتداب والانفصال، دأب الفرنسيون والشخصيات المارونية على جذبهم للعب دور أكبر في الحياة السياسية وجني فوائد للمناطق الشيعية. واقتصر تركيز الموارد والانتداب على زعماء إقطاعيين شيعة تعاملوا بسهولة مع قوى الأمر الواقع، وأهملوا المثقفين من الشيعة أو المنادين باستقلال البلاد، فقد كان واضحاً أن أغلبية السكان الشيعة كانت شديدة الولاء للإقطاع ولذلك كان استرضاء زعمائهم ضرورياً لاستمالتهم.

سوى أن المناصب والاعتراف بالحقوق الطائفية لم يكونا كافيين لإبعاد الشيعة عن القضايا الكبرى، حيث دعموا بحماس واشتركوا في ثورة 1936 في سورية ولبنان وشاركوا في مؤتمر الساحل الثاني، ذلك أن دعاء الوحدة مع سورية كان الأقوى في نفوس الشيعة.

وفي الثلاثينيات برز آل أرسلان وآل جنبلاط في صفوف الدروز بعد سنوات من المقاومة، ولعبت الست نظيرة جنبلاط دوراً كبيراً في عودة الدروز إلى مسرح الأحداث يعاونها صهرها حكمت جنبلاط الذي أصبح نائباً في البرلمان عام 1934 ووزيراً أكثر من مرة؛ وعندما توفي عام 1943 برز ابن نظيرة الشاب كمال جنبلاط كزعيم ناري لم يعتد عليه لبنان من قبل، طبع الحياة العامة حتى مصرعه عام 1977.

كما برز آل أرسلان وكانوا أساساً من أمراء الجبل، ففاقوا في النصف الأول من القرن العشرين آل جنبلاط في تمثيلهم للدروز ليس في لبنان، فحسب بل على المستوى الإقليمي، فكان منهم توفيق أرسلان قائم مقام الشوف، ونسيب أرسلان من زعماء الحركة العربية، ساهم في صحف عربية عدّة وأصدر دواوين الشعر، والمفكر العربي شكيب أرسلان، وسامي أرسلان مترجم المتصرفية وعضو مجلس إدارة جبل لبنان ونائباً في البرلمان، وأصبح الأمير الدرزي مجيد أرسلان رمزاً لبنانياً كبيراً عندما تصدّى للجيش الفرنسي دفاعاً عن الاستقلال فخلدت تلك المرحلة صورة له مزترراً بالسلاح والرصاص ويطحق قبلة على العلم اللبناني الجديد في قرية بشامون.

لم يكن في نية الفرنسيين التخلي عن إمبراطوريتهم في المشرق، ولذلك عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية عام 1939، استغل الفرنسيون الفرصة لصرف النظر عن وعد الاستقلال وفرضوا حكماً عسكرياً مباشراً على

Leila Meo, Ibid., p. 60.⁷⁶

لبنان، وأغضبت هذه الخطوة إميل إدّه الذي أصبح الآن في وادي الوطنيين الذين يطالبون باستقلال لبنان عن فرنسا، فترك الرئاسة وذهب إلى منزله بعدما لاحظ أن الفرنسيين لا يتعاملون معه باحترام كرئيس دولة، ثم تجاهل دعوات المفوض السامي الفرنسي المتكررة للاجتماع معه واستقال من منصبه عام 1941، فعين الفرنسيون الماروني الفرد نقاش رئيساً للدولة، والسني أحمد الداوق رئيساً للوزراء، وإذ استقال الداوق بعد عام، عينوا مكانه زعيماً سنياً من صيدا هو سامي الصلح.

لم يقف الإنكليز جانباً إزاء السياسة الفرنسية في لبنان، فسجلوا اعتراضهم على عدم إنهاء فرنسا انتدابها عام 1942، وقامت الحكومة البريطانية بالاعتراف باستقلال de facto للبنان وسمّوا الجنرال إدوارد سيريز وزيراً مفوضاً في بيروت، فانقسم اللبنانيون بين أنصار بريطانيا ومطالبتها باستقلال لبنان، وعلى رأس هؤلاء بشارة الخوري ومساعدته المحامي الماروني والنائب كميل شمعون، وأنصار فرنسا ومطالبتهم بحفظ العلاقة مع فرنسا وعلى رأس هؤلاء إميل إدّه وكتلته الوطنية، واستطاع معسكر الخوري بالتعاون مع الزعماء السنة ومنهم الأخوان كاظم الصلح وتقي الدين الصلح ونسيبهما رياض الصلح في التوصل إلى صيغة أن لبنان هو جزء من الأمة العربية ولكن مع خصائص تستدعي استقلاله التام، لقاء تعهدات بضمانات للموازنة.

وفي نيسان 1942 شجّع سيريز الحكومة اللبنانية على الدعوة لانتخابات برلمانية، فسمحت بذلك السلطات الفرنسية عام 1943 بعدما أقالته الفرد نقاش وسامي الصلح من منصبيهما وعيّنت أيوب ثابت رئيساً للجمهورية وللوزارة لتشكيل حكومة تشرف على الانتخابات. ولكن ثابت بدأ بإهانة المسلمين بأن قلّص حصتهم في البرلمان وزاد حصّة المسيحيين، مانحاً المسلمين 22 مقعداً، مقابل 32 مقعداً للمسيحيين، فغضب المسلمون وتنادوا إلى مؤتمر في بيروت كاد يؤدي إلى فتنة، وقاد "حزب النجادة" الحملة ضد ثابت، فجاء الفرنسيون بالأرثوذكسي بترو طراد في تموز الذي أعاد التوزيع إلى 30 مقعداً للمسيحيين و25 للمسلمين (أي نسبة ستة إلى خمسة، والتي استمرت إلى العام 1989 عندما أصبحت المقاعد مناصفة).

جرت انتخابات رئاسية في أيلول 1943 تحت مراقبة فريق بريطاني. فدمع الفرنسيون إدّه في حين دعم الإنكليز معسكر بشارة الخوري. وفاز بشارة الخوري في 21 أيلول بأغلبية 44 صوتاً، وأصبح رياض الصلح رئيساً للوزراء، ثم قدّمت الحكومة مشروعاً للبرلمان بتعديل الدستور وإعلان الاستقلال فوافق عليه، وردّ المفوض السامي الفرنسي على هذا التصرف باعتقال أعضاء الحكومة اللبنانية في منازلهم، وتولّت فرقة من 50 جندياً فرنسياً اقتحام منزل رئيس الجمهورية حيث يقيم هو وأسرته، وساقوه مخفوراً إلى راشيا، وكذلك اعتقل صديقه عبد الحميد كرامي نائب طرابلس الذي علم الفرنسيون أنه سيثير الشغب، وبقي طليقاً من أعضاء الحكومة الوزراء حبيب أبو شهلا والمير مجيد أرسلان ورئيس مجلس النواب صبري حمادة.

ثم قام المفوض السامي الفرنسي بمصالحة إميل إدّه وعيّنه رئيساً في 11 تشرين الثاني 1943، ولكن أخطأ هذا الأخير بقبوله التعيين، إذ خرج المواطنون إلى الشوارع وأقفلت المؤسسات التجارية وأخذوا يتصدون لسيارات الفرنسيين ويحرقونها ولقاطرات التراموي ويحطّمونها، فدفح الفرنسيون بدباباتهم وسياراتهم المصفحة لمواجهة أعمال الشغب، وأطلق العسكر السنغالي الرصاص على المدنيين فسقط القتلى والجرحى وأعلن حظر التجول في العاصمة. وأمام هذا الواقع، حصل اتفاق بين الكتائب والنجادة وأحزاب أخرى على تنظيم

التظاهرات ومساعدة الحكومة. فردّ الانتداب باعتقال بيار الجميل، فيما قادت زلفا شمعون زوجة الوزير المعتقل كميل شمعون تظاهرة نسائية انتهت في بكركي حيث اتخذ البطريك عريضة موقفاً ضد الانتداب أجفل الفرنسيين معتبراً أنّ "ليس في لبنان رجل واحد وأنا في طليعتهم يرضى عن أعمال الفرنسيين"⁷⁷. وانعقد مؤتمر وطني ضمّ شخصيات من مختلف الطوائف فتألفت لجان سياسية ومالية وإعلامية⁷⁸، فيما استمرت التظاهرات رغم الحظر وخرج طلاب المدارس إلى الشوارع فتصدى لهم الجنود وقتلوا منهم ثلاثة وجرحوا آخرين، وعبر الشعب عن غضبه على ممارسات الانتداب ورمى القنابل وأطلق الرصاص على منشآت الفرنسيين في لبنان.

أمّا في بشامون، فقد حشد المير مجيد بصفته وزيراً للدفاع 400 مسلّح، فقام الفرنسيون بهجوم على بشامون في 15 و16 تشرين الثاني صدّه المقاومون، وما إن ذاع هذا النبأ على إذاعة الإنكليز في فلسطين حتى كسب لبنان عطفاً عربياً وعالمياً، وبدأت التحركات الدبلوماسية وعلى رأسها الجنرال سبيرز الذي طالب الفرنسيين بإطلاق المعتقلين وأخذ يستقبل الوفود اللبنانية، فيما استنكرت بريطانيا والولايات المتحدة وروسيا سلوك فرنسا في لبنان، وحاول مبعوثو الجنرال ديغول معالجة الوضع لمصلحة فرنسا ولكن جاء إنذار إنكليزي حاسم إلى ديغول يوم 21 تشرين الثاني قلب الطاولة على الفرنسيين: "أنّه إذا لم يلبّ مطلب الحكومة البريطانية قبل نهار الإثنين 22 تشرين الثاني، فسيعلن إخضاع البلاد لسيطرة القائد العام للقوى البريطانية في الشرق الأدنى، وإذا لم يطلق رئيس الجمهورية والوزراء اللبنانيون قبل الساعة العاشرة من صباح الإثنين في 22 تشرين الثاني فإن القوات البريطانية تتولى تحريرهم"⁷⁹، ووقع في يد الفرنسيين في بيروت فأطلقوا سراح أفراد الحكومة في 22 تشرين الثاني وعاد الخوري والصلح إلى بيروت، وكانت أولى خطوات الخوري تعيين فؤاد شهاب قائداً لجيش لبناني جديد للتسريع برحيل الجيش الفرنسي، وفي كانون الأول 1946 انسحبت القوات الفرنسية والبريطانية من لبنان.

كان في عمق التفاهم اللبناني على الاستقلال عام 1943، اتفاق بين رئيس الجمهورية الماروني ورئيس الوزراء السنّي بتخلي المسلمين عن مطلب الوحدة مع سورية وتخلي المسيحيين عن الحماية الفرنسية⁸⁰، وفيما أصبح الاستقلال ناجزاً لم يرقم الذين سعوا إلى تحقيقه بتحسين ظروف مناطق الأطراف التي ضمت إلى الجمهورية اللبنانية ولا معالجة أحوال المواطنين العاديين بشكل عام، بل انصرفوا إلى زيادة ثروتهم المادية ونفوذهم السياسي، يحيط بهم أعوانهم وحلفاؤهم، كعصابات مافيا وفساد وقد وقع بلد بأكمله في شركها. هذا كان حال لبنان وسورية مع فرنسا خلال 25 عاماً من الانتداب، فما هو حال مناطق المشرق الأخرى التي خضعت للانتداب البريطاني؟

⁷⁷ لبيب عبد الساتر، التاريخ الحديث، ص. 235-236.

⁷⁸ لبيب عبد الساتر، التاريخ المعاصر، ص. 224-225.

⁷⁹ لبيب عبد الساتر، التاريخ المعاصر، ص. 236-237.

⁸⁰ كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص. 28.

4. مملكة العراق 1920 حتى 1958

بموجب اتفاقية سايكس بيكو وقعت بلاد ما بين النهرين تحت الانتداب البريطاني الطامع بثرواتها والساعي إلى الهيمنة عليها بالحديد والنار. فبلاد ما بين النهرين حيث قام العراق المعاصر هي مهد الحضارات باعتراف المؤرخين الغربيين منذ القرن التاسع عشر⁸¹، ولذلك لم يكن كيان العراق وليد الاستعمار كما توحى بذلك بعض المراجع الغربية الحديثة أو كما قبله أولياء الأمر من خبراء ورسميين في العالم العربي بدون مناقشة⁸²، وليس صحيحاً الادعاء أن بريطانيا خلقت العراق الحديث عندما أصبحت دولة انتدابية على بلاد ما بين النهرين بعد الحرب العالمية الأولى⁸³.

والتركيبة العراقية ليست فريدة من نوعها، لأن المطّلع على ديموغرافية المشرق - لبنان وسورية مثلاً - سيلحظ التنوع الديني والعرقي، ففي لبنان عشرون طائفة دينية وعرب وأكراد وأرمن وإثنيات أخرى، وكذلك في سورية، وعلى درجات أقل في الأردن وفلسطين.

شكل العراق نواة الحضارة العربية الإسلامية على مدى قرون، ما أدى إلى اصطباغه إلى الأبد باللغة والثقافة العربية حتى لو تنوع إثنياً ودينياً. وحتى أكراد العراق نجدهم ضليعين باللغة العربية قولاً وكتابةً⁸⁴، والفريد في المسألة العراقية - مقارنة بسورية ولبنان - هو أن اتساع مساحة العراق وتعدّد سكانه خلقت تعقيدات جدية من الصعب معالجتها⁸⁵.

لقد توضحت جغرافية العراق المعاصر منذ القرن التاسع عشر جراء ارتباطه بالاقتصاد العالمي والتغلغل الأوروبي في مناطق الإمبراطورية العثمانية⁸⁶، ولقد مزّت دول المشرق بتجارب مماثلة عبر نشر بنية تحتية في مناطق الإنتاج في المدن الرئيسية المطلّة على مرفأئ بحرية، وخلال فترة زمنية مختصرة في بداية القرن العشرين، انتقل العراق من نمط إنتاج بدائي زراعي إلى إنتاج بضائع صالحة للتصدير إلى الهند البريطانية وأوروبا. أما الدولة العراقية الحديثة فقد ظهرت بعد انهيار الدولة العثمانية وانهزام تركيا في الحرب العالمية الأولى، إذ سعت بريطانيا إلى دمج ثلاث ولايات عثمانية هي الموصل وبغداد والبصرة في دولة واحدة⁸⁷، ولم يكن سبب هذا الدمج هو توحيد أو ديمغرافي، بل هدف الإنكليز إلى تسهيل الربط الإداري لمناطق بلاد الرافدين بالخليج والشبكة التجارية للإمبراطورية البريطانية، ذلك أن العراق كان دولة - فعلياً - منذ القرن السابع الميلادي واستمر كبقعة جغرافية موحدة تحكمها بغداد حتى قامت الدولة العثمانية في بداية القرن العشرين بتقسيمه إلى ولايات تسهل إدارتها، وعبر القرون لم يضعف دور مدينة بغداد كنقطة الثقل والسلطة في أرض الرافدين.

قبل العام 1920 كان العراق جزءاً من الإمبراطورية العثمانية التي شاركت في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا ودول المحور وضد بريطانيا ودول الحلفاء. بدأت الحرب عام 1914 وسرعان ما رُسمت الجبهات في

⁸¹ Samuel M. Karmer, *Cradle of Civilization*, New York, Time-Life Books, 1978, p. 157.

⁸² Thabit Abdullah, *Dictatorship, Imperialism, and Chaos: Iraq Since 1989*, Zed Books, London, 2006, pp. 5-7.

⁸³ عبد الوهاب رشيد، العراق المعاصر، المدى للثقافة والنشر والتوزيع، 2002.

⁸⁴ سليم مطر، جدل الهويات وصراع الانتماءات في العراق والشرق الأوسط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2003.

⁸⁵ وهذا حدث في لبنان بدرجة أقل عام 1975، حيث أدى تشرذم الدولة وطغيان الامتيازات إلى تشدّد المواطنين في مسألة الولاء الطائفي، فانقسم لبنان إلى كاتنونات أمر واقع (راجع جورج قرقم، تعدّد الأديان وأنظمة الحكم، دار النهار، 1992).

⁸⁶ Samir Amine, *The Arab Nation*, Zed Books, 1982.

⁸⁷ Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, p.p. 1-7.

أوروبا والشرق الأوسط وباتت الإمبراطورية العثمانية هدفاً لهجمات بريطانية فرنسية روسية مشتركة. فبريطانيا هاجمت الدولة العثمانية انطلاقاً من مصر وكذلك نجحت في خرق الولاء العربي للسلطنة في الجزيرة العربية. وفي نهاية 1916 خُصّصت بريطانيا قوات ومعدات كبيرة وأرسلت ضباطاً أكثر مهارة لغزو العراق. وقاد الجنرال "ستانلي مود" الغزو في كانون الأول 1916 وفي خطته أن يتجه إلى بغداد ولا يتوقف عند مدن الجنوب ولا يحاول احتلالها تماماً، ولكنه أقام خطوط دعم لوجستي متينة حتى تتأمن خطوطه الخلفية، واستغرقت حملة "مود" أربعة أشهر استطاع خلالها تطويق بغداد واحتلالها في 11 آذار 1917. في وقت كانت فيها جيوش السلطنة العثمانية تتوضع عند جبهات عدّة وخاصة على جبهة قناة السويس وعلى الجبهة الروسية وجبهات البلقان⁸⁸.

لقد بدأ الغزو البريطاني للعراق بـ 92 ألف جندي ولكن مع نهاية الحرب العالمية الأولى وصل ما نشرته بريطانيا من قوات إلى 410 آلاف جندي في بلاد الرافدين، وفي 11 تشرين الثاني 1920 وقع العراق تحت الانتداب الذي منحه عصبة الأمم لبريطانيا لتصبح سلطة شرعية دولياً وأصبح يُعرف باسم "دولة العراق".

العهد الملكي

لقد وعدت بريطانيا الأمير حسين الهاشمي شريف مكة بخلق مملكة عربية كبرى تضم الجزيرة العربية والولايات العثمانية السابقة في الهلال الخصيب بعد سقوط السلطنة العثمانية، ولكن بعد الحرب خضعت التقسيمات الجغرافية لمشيئة ومصالح الدولتين الاستعماريّتين كما سبق وذلك لتسهيل إدارة هذه الوحدات السياسية وربطها باقتصاد المتروبول.

فمثلاً سهّل خلق دولة العراق التي تمتد من مدينة زاخو شمالاً إلى أم قصر جنوباً شحن نفط الموصل إلى الخليج عبر منطقتي بغداد والبصرة، وكما فعلت في الجزيرة العربية، قامت بريطانيا بإغراء مشايخ القبائل في الأرياف والبوادي العراقية بالمال والمناصب لخلق بيئة موالية لحكمها. كما استندت في المدن إلى الزعامات المحلية في الأحياء وإلى التجار وموظفي الإدارة العثمانية البائدة وضباط الجيش العثماني من أصول عربية وكردية في العراق من الذين وقفوا إلى جانب الإنكليز أثناء الحرب العالمية الأولى. وهكذا كما يفعل كل محتل، استعانت بريطانيا بنخب محلية، ركيزة الحكم التركي السابق، لإدارة البلاد. وكانت هذه النخبة من السنة العرب الذين شكّلوا آنذاك 20 في المئة من السكان. فاستمرت اللامساواة التي خلقها الأتراك بين السنة والشبيعة لتترك أسوأ الأثر على العراق حتى نهاية القرن العشرين، ومن آثار هذه اللامساواة أنّ السلك الدبلوماسي العراقي لم يضم أي شيعي حتى 1956.

⁸⁸ انقلب المزاج في الولايات العربية ضد السلطنة العثمانية لأسباب عدّة أثناء الحرب العالمية الأولى أهمها حركة القومية التركية التي أطلقها قادة الجيش وعلى رأسهم أحمد جمال وأنور باشا. فخلقت حساسيات تجاه رعايا السلطنة من العرب واليونان والبلغار والأكراد والأرمن. وكانت مظاهر ضعف الولاء للباب العالي متفاوتة، فأقدم عرب الحجاز على التعاون العسكري مع الإنكليز ضد جيش السلطنة في حين اكتفت فعاليات سورية ولبنان بالنضال السياسي. ولدى انهزام القائد أحمد جمال في جبهة السويس، انكفأ إلى الساحل اللبناني السوري ونكّل بالقادة الوطنيين، فعلق المشانق في بيروت ودمشق عام 1916 ولُقب بالسفاح. تمكّن فدائيون أرمن من اغتيال أحمد جمال في تفليس عاصمة جورجيا قبل نهاية الحرب العالمية الأولى (راجع مذكرات يوسف الحكيم في أربعة أجزاء، دار النهار، بيروت).

وإذ دخلت وحدات عربيّة بقيادة الأمير فيصل بن الحسين دمشق عام 1918. وكان الأمير فيصل يحاول حكم سورية ولبنان ويصبح ملكاً عليهما بعد خروج الأتراك عام 1919 ولكن الجيش الفرنسي طرده من دمشق بعد معركة ميسلون⁸⁹، ولتحافظ بريطانيا على كلمتها تجاه الهاشميين، نصّبت الأمير فيصل ملكاً على العراق وعيّنت مفوضاً سامياً على العراق يدعى أرنولد ولسون، وفي آب 1920 أعلن قيام الدولة العراقيّة بضم ولايتي بغداد والبصرة، وفي 1926 ضُمَّت ولاية الموصل في الشمال والتي تنتمي ثقافياً وتاريخياً إلى بلاد الشام. لم يرضَ الشعب العراقيّ عن تصرفات بريطانيا، فأعلن العراقيّون ثورة شعبيّة ضد الحكم البريطانيّ عام 1920⁹⁰، وبدأت الثورة في جنوب العراق ذي الأغليبيّة الشيعيّة (كما بدأت الثورة السوريّة في جبل الدروز عام 1925)، وسرعان ما انضمّ السُنّة من خارج النخبة الحاكمة والأكراد بقيادة محمود البرزنجي إلى الثورة. وهكذا اتّحد الشعب العراقيّ من سنة وشيعة وأكراد على مقاومة الحكم الإنكليزيّ منذ بدء الانتداب، وتمكّن الثوار من قتل 500 جنديّ بريطانيّ وجرح 1500 آخرين في معارك عدّة، فخاف الإنكليز من تضعف حكمهم وزوال نفوذهم، ولجأوا إلى أساليب وحشيّة في قمع الثورة واستعملوا الطائرات وقنابل الغاز السام ضد المدنيّين، بأمر من ونستون تشرشل الذي أصبح رئيساً لوزراء بريطانيا في ما بعد. فكان الإنكليز أول من افتتح استعمال الأسلحة البيولوجية والكيميائية ضد شعب العراق، بعدما شاع استعمالها في معارك الخنادق في أوروبا أثناء الحرب العالميّة الأولى⁹¹.

بعد إخمداد ثورة العراق عقد البريطانيّون مؤتمراً في القاهرة بحضور ونستون تشرشل الذي كان وزير المستعمرات البريطانيّ آنذاك، للنظر في وضع العراق. وهكذا أجبرت ثورة العشرين بريطانيا على تغيير سياستها وتخلت عن أسلوب ممارسة إدارة استعماريّة مباشرة ووافقت على قيام حكومة إدارة وطنيّة عراقية على أن تخضع للانتداب. ولم يكن ممكناً غير هذا الحل بعد تكبّد القوات البريطانيّة في العراق خسائر فادحة جراء الثورة، وفي الوقت نفسه أعلنت بريطانيا عن رغبتها في إقامة نظام ملكيّ في العراق، ورُشح في هذا المؤتمر فيصل بن الحسين ليكون ملكاً للعراق ولقد دفعت ثورة العراق الاحتلال البريطانيّ إلى منح النخبة السنيّة الحاكمة مزيداً من المناصب والصلاحيّات على أساس "فرق تسد"، كما اشترى الإنكليز ولاء بعض عشائر الشيعة عبر منح مشايخهم أراضي لإبعادهم عن عامة الشعب، وعينوا ضباطاً عرب سابقين في الجيش التركي في مناصب مرموقة، كما وظّفوا آشوريّين وأشخاصاً من أقليات أخرى في الإدارة العامة، ومنحوا امتيازات لليهود العراقيّين.

الاحتلال البريطانيّ البغيض الذي باركته عصبة الأمم باسم الانتداب لتدريب الشعوب على حكم ذاتها، صدمت وحشيتها الشعب العراقيّ الذي كان قمعه واستبداده أكبر مما حدث من قبل في العهد العثمانيّ. كما غضب أكراد العراق من الإنكليز لأنّ مؤتمر الصلح في باريس وعدهم ضمن اتفريقيّة "سيفر" بالحصول على الاستقلال، فقلّل الإنكليز من أهميّة هذا الوعد حتى أنّهم أنكروا أنّ للأكراد أي حقوق كجماعة⁹².

⁸⁹ أمين الريحاني، قلب العراق وفيصل الأول، 1988، دار الجليل.

⁹⁰ Thabit Abdullallah, *Dictatorship, Imperialism, and Chaos: Iraq Since 1989*, Zed Books, London, 2006, pp. 12-13.

⁹¹ هادي حسن عليوي، فيصل بن الحسين مؤسس الحكم العربيّ في سورية والعراق 1883-1933، رياض الرئيس للكتب والنشر، 2003، بيروت.

⁹² جعفر الخياط، العراق في رسائل المس بيل، الدار العربيّة للموسوعات، 2003.

تشكل مجلس تأسيسيّ من بعض زعماء العراق وشخصياته السياسيّة منها نوري السعيد ورشيد عالي الكيلانيّ وجعفر العسكريّ وياسين الهاشميّ وعبد الوهاب النعميّ، وانتخب المجلس نقيب أشراف بغداد عبد الرحمن الكيلانيّ رئيساً لوزراء العراق، فنادى الكيلانيّ بالأمر فيصل الأول ملكاً على عرش العراق، وفي 23 حزيران 1921 حضر فيصل إلى ميناء البصرة على متن باخرة بريطانيّة، فاستقبله العراقيّون استقبالا رسمياً حافلاً، وبعدها قام بجولة تعارف في الحلة والكوفة والنجف وكربلاء، ولدى وصوله إلى بغداد كان ثمّة دلالة في أن من استقبله هو بيرسي كوكس المندوب السامي البريطانيّ والجنرال هولدن قائد القوات البريطانيّة في العراق إضافة إلى رئيس الوزراء العراقيّ عبد الرحمن النقيب، وفي 16 تموز يوليو 1921 أذاع بيرسي كوكس قرار مجلس الوزراء العراقيّ بمناداة فيصل ملكاً على العراق في ظل حكومة دستوريّة، وصوّت البرلمان بأغليّة ليكون فيصل ملكاً على العراق باسم "الملك فيصل الأول" وتم تتويجه في 23 آب 1921 في ساحة "ساعة القشلة" ببغداد. وهكذا عيّن الإنكليز فيصل⁹³ ملكاً على العراق ولم يكن قد وطأ أرض الرافدين من قبل، فبات يحكم باسم الإنكليز بإشراف مفوض سامي بريطانيّ يتمتع بصلاحيّات واسعة.

أدرك فيصل منذ البداية أنّ الإنكليز يعاملونه كسلعة في أيديهم وهو الذي خاض معهم محادثات طويلة في السنوات السابقة ويعرفهم جيداً، فعمل على خلق إرادة شعبيّة لبناء دولة في العراق، وتقرب من الشيعة ليعترف بحقوقهم، وبنى جيشاً وطنياً يضمّ فئات الشعب رغم ممانعة الإنكليز، فالتحق بجيش فيصل عرب سنة من منطقة تكريت، التي تحدّر منها معظم حكام العراق في الربع الأخير من القرن العشرين.

وكان الانتداب البريطانيّ يعمل على إضعاف سلطة حكومة العراق المركزيّة باستمرار، فأقام علاقات خاصة مع زعماء القبائل لإضعاف الملك وخلق قوّة أمنيّة من المسيحيّين لحماية مصالحه وأبار النفط، وفتح خطوط اتصال مع زعماء الأكراد لمنع تقاربهم مع الملك، وتقرب الإنكليز كذلك من يهود العراق بإصرارهم على أن يكون وزير ماليّة العراق يهودياً، فتكسب بريطانيا سمعة حسنة في أوساط اليهود، ولم يسعّ الإنكليز مطلقاً إلى خلق ديمقراطيّة في العراق كما قضت شروط الانتداب بل أرادوا استعماراً طويلاً الأمد. ومقابل ذلك غصوا النظر عن أساليب القمع والقتل التي مارستها الحكومة العراقيّة ضد المعارضين، فلجأ الأكراد إلى السلاح للمطالبة بحقوقهم، فيما لجأ الشيعة إلى طلب المساعدة من إيران لمحاربة نفوذ الحكومة المركزيّة في مناطقهم.

في العام 1926، توصلت بريطانيا إلى رسم حدود أوسع للعراق بعد مفاوضات مع فرنسا، فجعلت محافظة الموصل الغنيّة بالبترول تحت الانتداب البريطانيّ، بعدما كانت خرائط سايكس - بيكو الأولى قد وضعتها تحت الانتداب الفرنسيّ. وهكذا بدلاً أن تكون منطقة الموصل جزءاً من سورية باتت جزءاً من العراق، ذلك أن الإنكليز الذين لم تحتو استراتيجيتهم الإقليميّة أكثر من تأمين مصالح إمبراطوريتهم باتوا بعد فوزهم بالحرب مصرّين على السيطرة على نفط شمال العراق.

⁹³ الملك فيصل الأول هو الابن الثالث لحسين بن علي من آل هاشم وهو شريف مكة. ولد في 20 أيار 1883 وتوفي في 8 أيلول 1933. وأصبح ملكاً أول على سورية (1918 - 1920) بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، ثم ملكاً على العراق (1921-1933). وأصبح شقيقه علي ملكاً على الحجاز في ما بعد، وعبدالله ملكاً على شرق الأردن في ما بعد. واستمر عهد فيصل حتى وفاته عام 1933 فأصبح ابنه الفتى غازي ملكاً من بعده حتى مصرعه عام 1939.

وفي عام 1930 عقد فيصل معاهدة مع بريطانيا تعترف باستقلال العراق عن التاج البريطاني، وبإنهاء حالة الانتداب وضمنت الاتفاقية تسهيلات لبريطانيا بمرور القوات البريطانية في أوقات العمليات الحربية والتعاون في المجالات الاقتصادية. وفي العام 1932 استجاب الإنكليز للملك فيصل ومنحوا العراق استقلالاً اسمياً، ولكنهم حافظوا على قواعد عسكرية في البلاد وحق التدخل العسكري إذا تهدد الحكم الهاشمي، فاستمر نفوذهم في بلاط فيصل وفي الحكومة العراقية⁹⁴، وأصاب المرض الملك فيصل ففي أيلول 1933 سافر إلى سويسرا لإجراء فحوص دورية، وفجأة أعلن عن وفاته في 8 سبتمبر 1933 إثر أزمة قلبية المّت به وأدّت إلى تصلّب في الشرايين، فدفن في المقبرة الملكية في منطقة الأعظمية في بغداد⁹⁵.

منذ استعان الحاكم البريطاني برسي كوكس بقيادات السنة العرب لقمع ثورة العشرين، تكرّس تعاون وثيق بين الانتداب البريطاني والسنة العرب لحكم العراق، وخاصة أنّ بريطانيا كانت تقوّي ساعد شيوخ القبائل والشخصيات التقليدية في حين قمعت شخصيات وقوى عربية سنية كانت تؤمن بالقومية العربية وبالنضال ضد الاستعمار الغربي وبوحدة الشعب العراقي، وعلى سبيل المثال، لتقوية نفوذ زعماء القبائل أصدرت سلطات الانتداب قانوناً يسمح لهم بتسجيل أراضٍ مشاع باسمهم شخصياً، وقانوناً آخر شرّع لشيوخ القبائل صلاحية التصرف كقضاة على أبناء عشيرتهم دون العودة لسلطة القانون وللدولة العراقية. وإذ اعترض المواطنون وخاصة من المزارعين على الغبن المزدوج، واصلوا الانتفاض ضد الإنكليز وضد الحكم القمعي لسنوات عدّة حتى تراجعت المحاصيل بفعل هذه الاحتجاجات وانخفضت مداخيل رجال الإقطاع، وعندها صدر قانون آخر عام 1933 يمنع الفلاحين من إهمال الأراضي الزراعية أو مغادرتها ما لم يسدّدوا ديونهم والتزاماتهم تجاه رجال الإقطاع وشيوخ القبائل.

بعدها استتبّ الوضع لصالح الإنكليز، تمّ التوقيع على اتفاق كونسرتيوم دولي حول نفط العراق في تموز 1928 تحت اسم "شركة نفط العراق" التي سيطرت على إدارتها عملياً بريطانيا الدولة الانتدابية، وحصلت هذه الشركة على امتياز لاستثمار نفط العراق مدّته 75 عاماً ينتهي عام 2000.

ولم يستغلّ العراق ثروته النفطية باكراً، فاستمرّ شعبه يقبع في الفقر والتخلّف، وأدى تدهور أسعار القمح والشعير، وهي صادرات العراق الرئيسية في الأسواق العالمية في بداية الثلاثينيات، إلى أزمة اجتماعية وثورة أخرى ضد الإنكليز، ولكن حتى رغم إنهاء الانتداب رسمياً عام 1932، استمرت السيطرة البريطانية كاملة على العراق وخاصة أن الطبقة الحاكمة يتقدّمها الهاشميون ومعها الطبقة الوسطى العراقية خضعت لرأس المال الدولي الذي مثلته المصالح البريطانية⁹⁶، فكان الإنكليز مطمئنين لحكم فيصل الذي أخلص لهم وتعاون معهم وتسامح مع احتكارهم قطاع النفط عبر مؤسستهم، شركة البترول العراقي (آي بي سي)، وأعطاهم وجهاً عربياً لرأس السلطة في العراق، كما زيّف الإنكليز الانتخابات الشكلية في العراق ليبقى أزماتهم في السلطة.

Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, p. 15.⁹⁴

⁹⁵ الملك فيصل الأول، تاليف د. عبد المجيد كامل- دار الشؤون الثقافية العامة 1991.

Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 30-35.⁹⁶

وفاق امتصاصهم خيرات العراق الحدود في استغلالهم سذاجة سكان البلاد وحكامها. وقد وعد الإنكليز الملك فيصل بمنح حكومة العراق حصة 20 في المئة من استثمار البترول، ولكن هذا الأمر لم يدخل أبداً حيز التنفيذ، كما كان احتكار الإنكليز لتجارة العراق الخارجية كاملاً.

خَلَفَ فيصل ابنه غازي البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة والذي كان قليل الحكمة والدراية بشؤون السلطة، فاستعمل الجيش أداة للقمع والتفرقة وخاصة ضد الآشوريين حيث قتلهم واجتاح مناطقهم ما دفعهم للهجرة⁹⁷. واستمرت الأقلية الآشورية بلعب دور فاعل في المجتمع العراقي وفي حركته الوطنية رغم الاضطهاد، إذ في العام 1934 أسس شابان آشوريان هما يوسف سلمان يوسف (فهد) وبيتر باسيل وآخرون الحزب الشيوعي العراقي، فساهم هذا الحزب في انفتاح الآشوريين على الفئات الإثنية المكوّنة للعراق، كما كان للحزب الشيوعي دور لافت في نهضة العراق الوطنية بعد ثورة 1958، واستمر في استقطاب الشباب الآشوري والكردّي والشيوعي⁹⁸.

رغم سيئات الملك غازي، الا أنه بخلاف والده فيصل المخضرم في الشؤون الدولية ومؤتمرات السلم، نشأ في العراق وكان أكثر عراقية، إذ رأى غازي مساوي الإنكليز ووعودهم الجوفاء لجده الأمير حسين الهاشمي شريف مكة، وكيف كذبوا مراراً على العرب. فدرج على كرههم، وكان بالسليقة وبدون تخطيط مسبق يعرقل عمل الحكومة العراقية الموالية للإنكليز ويرفض التعاون المطلق مع شركات النفط الأجنبية ويتكلم بلهجة عراقية ويتصرّف بأسلوب الناس العاديين في بغداد والبصرة وليس بأسلوب والده فيصل الوافد من الحجاز والذي تعاون مع الإنكليز.

ورغم أن خطوات غازي كانت ضئيلة وضعيفة في وجه الهيمنة المطلقة للإنكليز الا أن إعلانه المتكرّر عن ضرورة قيام حكومة وطنية تخدم الشعب العراقي أولاً أعطاه شعبية في الشارع العراقي، أما الإنكليز فقد أهتموا الملك غازي ومطالبه على أنه شاب غير متمرس واتفقوا على النخب العراقية الحاكمة وعلى الأمراء الهاشميين الآخرين المتعاونين معهم، مثل ابن عم غازي الأمير عبد الإله، فكان غازي والجيش وعامة الشعب في ناحية، والإنكليز والحكومة والتجار والنخبة الحاكمة في ناحية أخرى. وتوطّأ غازي في العمل السياسي فاتفق مع ضابط من الجيش هو بكر صدقي لقلب الحكومة العراقية عام 1936، فكان غازي أول من افتتح باب الانقلابات في العالم العربي. وهكذا بعدما سحق الجيش الآشوريين ومارس القمع الداخلي وقام بانقلاب، بات طرفاً في البلاد مثل كافة العناصر المكوّنة للعراق الحديث وليس مؤسسة عسكرية توحيدية يلتف حولها الشعب كما رغب الملك فيصل، وسرعان ما عاد أصدقاء الإنكليز إلى الحكم بعدما اغتيل بكر صدقي عام 1937 وفشل الانقلاب، ولم يسأل أحد عن ظروف اغتيال صدقي أو يطالب بفتح تحقيق، فأضيفت ظاهرة الاغتيال السياسي غير المسؤول إلى تاريخ البلاد.

أسس الملك غازي إذاعة في قصره أطلقت عليها عامة الناس اسم "راديو قصر الزهور"، وكان يتولّى بنفسه إذاعة الأخبار والتعليقات بالتعاون مع كبار الضباط العراقيين، فزادت شعبيته في الدول العربية المجاورة،

⁹⁷ صدر قانون عام 1970 بإعادة الجنسية العراقية إلى الذين شاركوا في اضطرابات 1933 وعائلاتهم.

⁹⁸ رشيد الضيوني، الأديان والمذاهب بالعراق، منشورات الجمل، 2003.

وخاصة في سورية والأردن والكويت وفلسطين، إلى درجة أن المجلس التشريعي الكويتي وافق بأغلبية عشرة نواب من 14 نائباً للوحدة مع العراق تحت حكم غازي، وأزعجت هذه الإذاعة الإنكليزية خاصة في تبنيها قضية فلسطين ونداءاتها المتواصلة لطرد المستوطنين الصهاينة من فلسطين، والدعوة إلى مقاومة الهيمنة البريطانية على المشرق. فأخذ المسؤولون الإنكليز يتحدثون عن إزاحته⁹⁹. كما كان أتباع الإنكليز من العراقيين أكثر مغلاة في عداوتهم لغازي من الإنكليز، فأخذ بعضهم يطالب بإسقاطه فيما طالب نجل نوري السعيد الذي كان رئيس الوزراء آنذاك بقتل الملك، ثم اقترح نوري السعيد مجلساً استشارياً يأخذ مكان الملك، في حين اقترح آخرون أن يتسلم الكرسي الأمير زيد عم الملك، ولكن الإنكليز فضلوا الأمير عبد الإله الأكثر ولاءً وتبعية لهم من بين هاشميين العراق الذي وصلت تبعيته للإنكليز حدّاً استعداده للمساهمة في اغتيال ابن عمه الملك غازي. ففي نيسان 1939، تعرّض غازي واثنان من مرافقيه لحادث وتوفي في اليوم التالي متأثراً بجرح في رأسه، ورأى الطبيب الشرعي أنّ جرح الملك لم يكن له علاقة بحادث سير ورفض توقيع شهادة الوفاة، ولم يتمّ التحقيق في هذه الجريمة ثم خلفه ابنه القاصر فيصل الثاني¹⁰⁰، فقام ابن عمه الأمير عبد الإله بدور الوصي حتى يبلغ فيصل الثاني سنّاً يسمح له بتسلم الملك¹⁰¹.

الاقتصاد والنفط

شهدت فترة الثلاثينيات بداية صعود الاقتصاد العراقي، وكان الأساس هو قطاع النفط، حيث تمّ بناء المنشآت الاستخراجية ومدّ أنابيب النفط من شمال العراق إلى البحر المتوسط: خط أول إلى طرابلس لبنان وخط ثانٍ إلى حيفا في فلسطين، وبدأت عمليات تصدير النفط العراقي إلى الأسواق الخارجية عام 1938، فبلغ الإنتاج حوالي 80 ألف برميل يومياً، ولم يزد هذا القطاع طويلاً إذ اندلعت الحرب العالمية الثانية في أوروبا عام 1939. وأدّت العمليات العسكرية في البحر المتوسط إلى إقفال مرافئ النفط في طرابلس وحيفا، وحتى بعد انتهاء الحرب، فقد أقفل خط حيفا إلى الأبد وصُرف النظر عن إقامة خط ثانٍ إلى فلسطين بسبب قيام دولة "إسرائيل" عام 1948 واحتلالها مدينة حيفا.

ساعد تطوّر القطاع النفطي والانتشار النسبي للتعليم في العراق في نمو قوى اجتماعية جديدة وغير تقليدية، تزامنت مع بناء سكة الحديد والمرافئ والمصانع والمؤسسات التجارية الجديدة. كما أن أراضي الدولة الجديدة الواسعة الأطراف احتاجت إلى إدارة عامّة كبيرة، فخلقت هذه الظروف فئة اجتماعية متعلّمة ومستقرّة مادياً، وهذه الفئة المتعلّمة بالذات والتي كانت وليدة الاستعمار البريطاني أطلقت بذرة رفض الاستعمار وحقدت على الفئات المحلية التي تخدم الاحتلال.

⁹⁹ في آذار/مارس 2003، دمر الأمريكّيون هذا القصر في بداية اجتياحهم للعراق، وأفرد وزير الإعلام محمد سعيد الصحاف جزءاً من مؤتمره الصحافي للتحديث عن أهمية القصر في تاريخ العراق الحديث.

¹⁰⁰ 15-18. Thabit Abdullallah, *Dictatorship, Imperialism, and Chaos: Iraq Since 1989*, Zed Books, London, 2006, pp.

¹⁰¹ لويد دولوبران، العراق من الانتداب إلى الاستقلال، 2002، الدار العربية للموسوعات.

هذا الخليط من حدائث أبناء المدن وتخلّف القيادات التقليديّة الموالية للإنكليز، أوصل العراق إلى ثورة شبيهة بما حصل في سورية وفلسطين عام 1936، استمرّت خمس سنوات تخلّلتها ثورات القبائل وأعمال عسكرية، ولم يرق جوّ الثورة والفضوى في العراق للإنكليز الذين أحكموا قبضتهم على البلاد وأعادوا السلطة الأجنبيةّة المباشرة.

ورغم أن التجار وحلفاء الإنكليز من العراقيّين استفادوا من ازدياد الطلب على بضائعهم وخدماتهم، إلا أن غالبية الشعب العراقيّ شكت من الفقر والحرمان، فحالة منطقة البصرة مثلاً تحت حكم الإنكليز كانت أسوأ بكثير من وضعها تحت حكم الأتراك. فاستمرّت الثورات والتحركات ضد الإنكليز، الذين كانوا يردّون همزيد من القمع والاضطهاد، ووُلدت تجمّعات سياسيّة معارضة للإنكليز والحكم الهاشميّ.

وعام 1947 وصلت إلى السلطة حكومة وطنيّة يرأسها شيوعيّ لأول مرّة في تاريخ العراق هو صالح جابر. وكان أول عمل للحكومة هو إعادة فتح معاهدة 1930 مع الإنكليز للتفاوض على اتفاقية أفضل، ولكن الإنكليز المشهورين بمراوغتهم في أساليب التفاوض أوصلوا حكومة صالح إلى توقيع اتفاقية جديدة لم تختلف كثيراً عن الأولى. أفاضت الاتفاقية في الكلام عن سلطة العراق الوطنيّة وعن حقوق الشعب، إلا أنها نصّت على إبقاء قاعدتين لبريطانيا في الحبانية وسن الثعبان، ولم تغب عن القوى الشعبيّة حقيقة هذا الأمر، فخرجت إلى الشارع في موجة تظاهرات وأعمال شغب استمرّت أسابيع، سقط جراءها بضعة قتلى ومئات الجرحى وأدّت في النهاية إلى استقالة الحكومة وإلغاء الاتفاقية الجديدة.

وبدأ الشعب العراقيّ ينظر إلى أي حكومة كذّنبٍ للإنكليز. وزاد الطينُ بلة أن مشاركة الجيش العراقيّ في حرب فلسطين عام 1948 كانت غير مشرّفة، فاتهمت المعارضة العراقيّة الحكم ليس فقط بمساعدة الإنكليز في السيطرة على العراق بل بالضلوع في مؤامرة مع الإنكليز لتسهيل هيمنة الصهيونيّة التي تدعّمها بريطانيا على فلسطين. وهذا الوضع أدّى إلى ثورة شعبيّة جديدة فخرج الشعب إلى الشارع معترضاً على الهيمنة البريطانيّة واستمرّت التظاهرات أسابيع، ومع بداية الخمسينيات بدأ وضع الحكم الموالي للإنكليز بالتقهقر. في تلك الفترة ارتفع إنتاج حقول النفط العراقيّة في مطلع الخمسينيات إلى أكثر من 400 ألف برميل يومياً وبُنيت أنابيب نفط جديدة، امتدّت هذه المرّة جنوباً إلى الفاو وشرقاً عبر سورية إلى بانياس. وخطت الحكومة العراقيّة أول خطوة ولو رمزية لتملّك وسائل الإنتاج عبر شراء مصفاة نفط صغيرة في كركوك من الشركة الأجنبيةّة والتعاقد مع شركة أميركيّة لبناء مصفاة وطنيّة ثانية قرب بغداد. كما طبّق العراق ضريبة تصاعديّة حتى 50 في المئة على الأرباح التي تجنيها الشركات النفطية الأجنبيةّة، وهو أمر أصبح مشروعاً بعدما طبّقته المملكة السعوديّة في فترة سابقة، وسمحت عائدات البترول بإطلاق مرحلة ازدهار محدودة في البلاد، وكان سبب الازدهار حاجة الدول الصناعيّة الكبرى للبترول في فترة ما بعد الحرب العالميّة الثانية لبناء اقتصادياتها، وبالتالي ارتفع سعر الخام العراقيّ.

ورافقت تحسّن الظروف المعيشية عوامل أخرى محليّة وإقليميّة أدّت إلى ولادة حركة وطنيّة عراقية واسعة، ومن هذه العوامل اتساع العمل النقابيّ في العراق يظّله حزب شيوعيّ قويّ، وأزمة تأمين النفط الإيرانيّ بقيادة رئيس حكومتها محمد مصدّق، وارتفاع حدّة المطالب الوطنيّة ضد الهيمنة الأجنبيةّة في البلدان النفطية

الأخرى. هذه الأجواء كانت مسيئة جداً لمصالح شركات النفط الأجنبية التي وجدت حلاً يقضي بـ "مشاركة" النخب العربية المحلية بحصة من أرباح البترول.

حتى العام 1952، كان البترول العراقيّ تحت سيطرة أجنبية كاملة، تديره "شركة النفط العراقيّ" المؤلفة من كونسرتيوم غربيّ تهيمن عليه بريطانيا. ولكن في ذلك العام أجبرت الشركة على تقديم تنازل لمصلحة الحكومة العراقية ورفعت حصة العراق من \$1.75 للطن الواحد إلى \$5.5 للطن. كما أدّى تنازل آخر في مستوى الإنتاج إلى تحسين مدخول العراق. فلقد وافقت الشركة على رفع الإنتاج وبالتالي زيادة مدخول العراق من البترول من 19 مليون دولار عام 1950 إلى 144 مليون دولار عام 1953، وإلى 244 مليون دولار عام 1958. أدّى مقتل الملك غازي عام 1939 إلى تدعيم وضع الإنكليز، فعاد أصدقاؤهم بكثرة إلى السلطة. وفي المسيرة التي انطلقت لوداع جثمان غازي، اتهم المتظاهرون نوري السعيد بعمليّة اغتيال غازي. ويقول المؤرخ حنا بطاطو إنّ مقتل غازي أنهى عملياً أي مصداقية للحكم الملكيّ في العراق، لأنه أثبت أن الإنكليز لن يتورّعوا عن شيء في سبيل تعيين ملكٍ تابعٍ لهم مئة في المئة. أمّا القوى الوطنيّة فقد أرادت ملكاً قوياً يمثل الشعب العراقيّ ويوحده، ويطرّد الاستعمار، والنتيجة أن عبد الإله كان مكروهاً من الشعب ومن القوى المسلّحة التي أسّسها فيصل، فسارت البلاد إلى الفوضى وإلى انقلاب عسكريّ عام 1941، وهدف انقلاب 1941 بقيادة الضابط رشيد عالي الكيلانيّ إلى العودة لسياسة غازي المناهضة للإنكليز وأعاونهم العراقيين، ففرّ عبد الإله ومعه عدد من الساسة العراقيين الموالين للإنكليز. ولكن قادة الانقلاب اعتمدوا خطأً بدا مؤيداً لألمانيا النازية ومناهضاً للحلفاء.

طيلة الفترة الانتدابيّة لم يتردّد الإنكليز في استعمال القوة العسكريّة الغاشمة في قمع الشعب العراقيّ وصولاً حتى إلى معاودة غزو العراق عسكرياً لقمع حركة رشيد عالي الكيلاني¹⁰². ففي نيسان 1941 قام رشيد عالي الكيلانيّ بانقلاب على عبد الإله، فردّ الإنكليز بغزو العراق في 2 أيار يعاونهم الجيش الأردنيّ، حيث كان الأردن أيضاً تحت حكم هاشميّ وعلى رأسه الأمير عبدالله شقيق فيصل الأول. ونجح الإنكليز في ضرب حركة الكيلانيّ وفرضوا على العراق توقيع هدنة بشروط مثّلة في 31 أيار، حيث عاد الاحتلال العسكريّ المباشر لفترة ستّة أعوام وعاد معه الحكم الملكيّ تحت عبد الإله يساعده رئيس الوزراء المستبدّ نوري السعيد. بقي الجيش الإنكليزيّ في العراق حتى العام 1946، ولكن الإنكليز فرضوا حكماً عسكرياً ظالماً استمرّ ثماني سنوات، هذه الفترة الممتدة من مقتل غازي وحتى إزاحة عالي الكيلانيّ أثرت كثيراً في نفوس العراقيين ودفعت شباناً إلى رغبة في الانتقام من الوصي عبد الإله ومن الإنكليز وأعاونهم، وظهرت مشاعر الكراهية إلى العلن إلى درجة أن نوري السعيد بات يحمل مسدساً ليحمي نفسه من الاغتيال¹⁰³.

وبإشراف الإنكليز بدأت "حملة تطهير" أدّت إلى إعدام بعض قادة الانقلاب وتسريح 324 ضابطاً من الجيش العراقيّ. ومرة ثانية أثبتت الانقلابات في العراق أن الحكم الملكيّ كان مديناً للخارج الاستعماريّ في استمراره

¹⁰² حنا بطاطو، العراق الكتاب الأول الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، مؤسسة الأبحاث العربية، 1995.
¹⁰³ Khadduri, Majid, *Independent Iraq 1932-1958*, London: Oxford University Press, 1970.

وأنه صنعة الاحتلال البريطاني حتى لو عمد هذا الاستعمار إلى قتل ملك وتنصيب آخر. واستمرّ عبد الإله ونوري السعيد في السلطة حتى 1958. فكانت حركة الكيلانيّ البذرة الأولى نحو ثورة 1958.

5. الأحزاب في المشرق

تأسست في بلدان المشرق باكراً في العشرينيات والثلاثينيات أحزاب سياسية تقليدية افتقرت إلى برنامج عمل ومضمون فكري، فأصاب الفشل تلك التي وصلت إلى السلطة. ورافقت تلك المرحلة موجة تأسيس وانتشار أحزاب متأثرة بتلك الرائجة في أوروبا، كالاشتراكية والشيوعية والقومية، اقتبست منظماتها المحلية في سورية ولبنان مظاهر أوروبية كارتداء لباس رسمي خاص، وإثبات الحضور عبر مسيرات في الشوارع والاشتباك مع الأخصام من الأحزاب والتنظيمات الأخرى. فكانت هذه الأحزاب تصبّ في إطار الحركات القومية المتعددة التي ولدت من رحم النهضة الثقافية في المشرق ومصر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وسيطرت الأحزاب الجديدة التي أسسها أو أدلج لها مثقفون، منهم عدد كبير من المسيحيين، بأفكار أوروبية قومية وعلمانية. كما ظهرت في تلك الفترة تنظيمات دينية دان بعضها لعقيدة "الإخوان المسلمين" (عام 1928).

الحزب الشيوعي

كان الشيوعيون أول من أسس حزباً حديثاً على الطراز الأوروبي في المشرق، هو الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي ظهر عامي 1923 و1924. ثم الحزب الشيوعي في سورية ولبنان الذي وُلد في ضاحية بيروت الجنوبية في تشرين الأول 1924. وأعلن هذا الحزب هيئته التنظيمية وهيكلته عام 1929 وأصبح خالد بكداش زعيماً له عام 1930 (بقي زعيمه حتى وفاته عام 1994)¹⁰⁴. ولئن كان شعار الاشتراكية والعدالة الاجتماعية منتشرًا في أوساط الحركات الاجتماعية في لبنان وسورية فقد ارتفعت شعبية الحزب الشيوعي، خاصة بسبب مشاركته في النضال ضد الاستعمار الفرنسي والفتن الرجعية. كما أنّ سلطة الانتداب كانت دوماً تتهم الشيوعيين بأنهم كانوا وراء أي تحرك عمالي أو مطلب في الشارع وأنهم يدبجون العرائض والبيانات العمالية بلغة قانونية بإيحاءات يسارية أوروبية.

ثم امتدّت الشيوعية إلى العراق حيث تأسس الحزب الشيوعي العراقي عام 1934 على أيدي شبّان آشوريين، ليصبح في ما بعد أبرز حركة سياسية في أرض الرافدين.

في الفترة الحاسمة من 1936 إلى 1939، أصبح الحزب الشيوعي في سورية ولبنان قوّة بارزة في الحياة السياسية في البلدين. ولكن طبيعة الحزب الشيوعي وارتباطاته الدولية وعقيدته الغربية طغت في مراحل عدّة وكانت مذبذبة. إذ إنّ تشدّده المبدئي تجاه الانتداب الفرنسي تراجع عندما شارك الحزب الشيوعي الفرنسي في الحكومة الفرنسية. ثم اتخذ الحزب موقفاً غامضاً من قضية فلسطين عام 1948 لأنّ الاتحاد السوفياتي - قائد الكومنترن - صوّت في الأمم المتحدة إلى جانب قيام دولة "إسرائيل". ثم تغيّر موقف الحزب الشيوعي نحو العداء لـ "إسرائيل" عندما اتّضح له أنّ وجهة "إسرائيل" رأسمالية غربية وليست اشتراكية. وبعدها تغيّر

¹⁰⁴ خالد بكداش، الحزب الشيوعي في النضال لأجل الاستقلال والسيادة الوطنية، بيروت، 1944.

حكم ستالين في موسكو الذي كان ينظر إلى الدول العربية على أساس أنها صنيعه الاستعمار الغربي وخاصة البريطاني ومعادية لموسكو.

الحزب السوري القومي

من الأحزاب الجديدة على الساحة كان الحزب السوري القومي الذي أسسه أنطون سعادة عام 1932، مشعباً بالخلاصات الإيديولوجية والتنظيمية التي كانت رائجة في أوروبا، مع تطوير وتأصيل ضمن قالب قومي سوري محليّ يريد أن ينهض ببلاد الشام. وأنطون سعادة هو لبنانيّ أرثوذكسيّ من ظهور الشوير في منطقة المتن اللبناني، اغترب في البرازيل. وفيما جذب حزبه الشباب الصاعد في المجتمع جراء انتشار التعليم، لم يحدث اختراقاً هاماً في الطبقة العاملة التي نشط الشيوعيون في أوساطها، ولا حتى في صفوف الفلاحين المحافظين بطبيعتهم.

استوحى أنطون سعادة عقيدته من الأفكار القومية والعلمانية التي تلقّنها في تربيته ونشأته ومن الجو العام في البلاد. فلم يقف عند ما أنتجه بطرس البستاني وآخرون في القرن التاسع عشر حول الوطن السوري، بل درس الفكر الأوروبي بلغاته الأصلية (الألمانية والفرنسية والإنكليزية) واستنبط أفكاراً مستوحاة من تاريخ المشرق لتأسيس فكرة قومية تعود إلى ما قبل التاريخ الجليّ، أي قبل المسيحية وقبل الإسلام، نحو رابطة قومية عابرة للطوائف والأعراق وتستند إلى الجغرافيا أولاً وعوامل أخرى تراثية¹⁰⁵. ولعبت الجامعة الأميركية في بيروت دوراً في رقد فكر سعادة القومي السوري إذ إن فلسفة الجامعة وسياستها كانت موجّهة كمؤسسة بروتستانتية إلى سائر المشرق، ولم تكن جزءاً من المشروع الفرنسي الكاثوليكيّ للبنان. فاستقطبت الجامعة الأميركية مسيحيين لبنانيين وسوريين وفلسطينيين، ومعظمهم من الأرثوذكس وبعضهم من الذين اعتنقوا البروتستانتية. فعمل هؤلاء على تطوير فكر قوميّ جمع اللغة إلى التاريخ والجغرافيا وذهب كثيرون منهم مذهب أمة عربية ووعي قوميّ عربيّ أوسع.

أنطون سعادة لم يبتكر فكرة الوطن السوري التي كانت قائمة أساساً، بل كانت مساهمته في مسألتين: الأولى في وضع برنامج إصلاحيّ سياسيّ - اجتماعيّ يقضي بفصل الدين عن الدولة وإزالة الحواجز بين الطوائف وإقامة دولة مركزية وجيش قويّ، الخ. والثانية في وضعه الفكرة السورية في قالب حزب سياسيّ يجسدها كأمة، أمّا طرحه الاقتصاديّ فكان غامضاً وجزئياً ومقتضباً، وقد يعود ذلك إلى قلّة الملمه بالاقتصاد وتركيزه على الجانب السوسولوجيّ في عقيدته (وهو سلوك سيتبعه ميشال عفلق وصلاح البيطار في وضع عقيدة حزب البعث في ما بعد).

L.Z.Yamak, *The Syrian Nationalist Party, an Ideological Analysis*, Cambridge Mass., 1966.¹⁰⁵

لاقى برنامج الحزب السوري القومي الإصلاحي استحسان الأقليات الدينية والإثنية وأوساط الطلاب والبورجوازية الصغرى، خاصة في محافظات حمص واللاذقية وجبل الدروز وجبل لبنان. كما حقق نتائج باهرة عندما طوّر سعادته الفكرة السورية من حيز أدبي ثقافي إلى قالب قومي أُسس عليه حزباً سياسياً، فنأدى سعادته بأمة سورية تغطّي المنطقة الجغرافية التقليدية التي كان يسعى سنّة الساحل والأرثوذكسيون إلى وحدتها. وأخذ حزبه منحى علمانياً جذب المثقفين من الأرثوذكس والبروتستانت وبعض الشيعة والدروز والعائلات السنّة البيروتية التي اعتادت على الاختلاط مع الأرثوذكسيين وأعجبت بشخصية سعادته الشاب الذي أقام في حيّ رأس بيروت.

ولم يكن سعادته منغلِقاً بل كان يطوّر عقيدته استناداً إلى أبحاثه، حيث تغبّر مفهوم جغرافية الأمة لديه ليشمل الهلال الخصيب وجزيرة قبرص (أي الدولة السورية بحدود 1946 زائد لبنان وفلسطين والعراق وشرق الأردن وقبرص ولواء الاسكندرونه وكيليكيا والأحواز والكويت وشبه جزيرة سيناء). فقد دلّته قراءاته المتعمّقة خاصة بعد وضعه دراسة نشأة الأمم أنّ حضارة بلاد الشام امتدّت في الشمال الشرقي وأنّ الحقبات البابلية والآشورية والأكادية ما هي الا توسّع للأراميين والكنعانيين وغيرهم من الساميين في بلاد الشام، وصولاً حتى إلى جنوب العراق. وهكذا استندت جغرافيته الموسّعة إلى حقائق موثّقة.

ولأنّه حقق نجاحاً في الثلاثينيات، سرعان ما اصطدم سعادته بسلطات الانتداب الفرنسي التي اعتقلت قيادته في بيروت وحظرتة عام 1935. وشارك الحزب في مؤتمر الساحل السوري عام 1936 فكان مندوبوه أكثر تشدّداً من زعماء السنّة التقليديين في مطالبتهم بوحدة لبنان وسورية، وليس فقط مطلب ضمّ المناطق الإسلامية في لبنان إلى سورية، حيث اعتبر القوميون هذا المطلب ذا مضمون طائفيّ.

في الفترة من 1936 وحتى 1955، أصبح الحزب القومي أكبر الأحزاب وأقواها في التنظيم والقدرات الفكرية والكادرات المثقفة في سورية ولبنان، فانتشر في حمص وحماة وعلى الساحل السوريّ واتّسع نفوذه في جبال العلويين خاصة بفضل نشاط أعضاء الحزب المتعلّمين الذين وصلوا إلى وظائف في الإدارة الانتدابية وفي مكتب حصر التبغ والتبناك في اللاذقية. فكان موظفو الريجي من القوميّين السوريّين يزورون قرى الجبال بحكم عملهم ويطبقون العلاقات مع العائلات ويسهلون أمورهم مع الفرنسيّين. وشدّت رسالة الحزب العصريّة واحتمال الوصول إلى وظيفة في المدينة الشباب وسط معارضة ذويهم وكبار السن في القرى الذين رأوا في الحزب القوميّ منظمة مُلحده تسعى لخراب العقول بأفكارها وبزعيمها المسيحيّ - الغربيّ التعليم - الآتي من جبل لبنان.

لقد جذب الحزب السوري القوميّ الأقليات في لبنان وسورية وكان معادياً للإقطاع والطبقة السياسيّة الفاسدة، الا أنّ عداؤه للعروبة والشيوعيّة أيضاً قلّص من شعبيّته ومن مساحة انتشاره، فبات خصمه الأكبر هو خالد بكداش زعيم الحزب الشيوعيّ ثم حزب البعث، كما أنّ عداؤه للأحزاب التقليدية والطائفية - كحزب الكتائب في لبنان مثلاً - جعل منها خصماً خطراً عبر العقود.

ورغم ذلك، ترك حزب سعادته أثراً كبيراً في كلّ الأحزاب العقائدية التي ظهرت بعد تأسيسه الثاني عام 1936 سواءً في لبنان أو في سورية. فكانت كلّ الأحزاب تقلّد الحزب السوري القوميّ في التنظيم والإدارة وفي اللغة

العقائدية ومفرداتها. ولعب الحزب دوراً هاماً في الحياة السياسية في سورية في صفوف قواتها المسلحة حتى العام 1955 وفي لبنان حتى 1961¹⁰⁶.

عصبة العمل القومي

إضافة إلى الحزبين الشيوعي والسوري القومي، ظهرت في سورية في الفترة نفسها عصبة العمل القومي التي أسسها زكي الأرسوزي وهو علوي من أنطاكية في لواء الإسكندرون، وصبري العسلي وهو محام أصبح رئيساً للوزراء في ما بعد، وآخرون.

تميّزت عروبة الأرسوزي بطابع محلي، إذ إن نضاله الأكبر كان في لواء الإسكندرون التي كانت تتعرض لحملة تريك كبيرة بمباركة فرنسية. وكان الإسكندرون ساحة صراع بين العرب والأترك على هوية المنطقة وانتمائها السوري، في وقت لم ترد فيه نسبة الترك من السكان عن 39 في المئة. فكان هم الأرسوزي إعلاء شأن العربية لغة وثقافة وانتماء في أذهان مواطنيه، وكانت فرنسا قد وافقت على طلب تركيا وضع الإسكندرون في خانة خاصة بعيداً عن سورية منذ 1921، ما اعتبره الأرسوزي وسكان اللواء من عرب وكرد وأرمن خيانة فرنسية¹⁰⁷. فقاد الأرسوزي حركة تحمي عروبة اللواء وسوريته وقاد تظاهرات في الشارع واجهها شبان أترك، فجرى عراك انتهى برمي الأرسوزي في السجن. ولكن الأمور تدهورت في 15 تموز 1938. إذ بعدما وقّعت فرنسا معاهدة صداقة مع تركيا، فوجئ أهالي اللواء بدخول الجيش التركي إلى الإسكندرون وانسحاب الجيش الفرنسي¹⁰⁸. وفبركت فرنسا استفتاءً أظهر رغبة الأهالي بالانضمام إلى تركيا. وعلى هذا الأساس سلخ اللواء عن سورية ومُنح إلى تركيا في حزيران 1939 ليصبح محافظة "هاتاي" HATAY. وكانت خطوة فرنسا في إعطاء اللواء لتركيا مخالفة صريحة لصك الانتداب الذي نصّت مادته الرابعة على الزام الدولة المنتدبة باحترام وحدة البلاد الموكلة اليها والحفاظ على سلامة أراضيها¹⁰⁹. وإذ شرعت تركيا بتريك أسماء المدن والقرى والمناطق الجغرافية في اللواء وخلق ظروف تُجبر غير الأترك على الهجرة إلى داخل سورية، لجأ الآلاف إلى مناطق سورية أخرى، ومنهم الأرسوزي الذي حطّ في دمشق حيث سبقته شهرته وشعبيته كزعيم وطني وقومي عربي.

وجد الأرسوزي في دمشق بيئة حاضنة وتحلقّ حوله الشباب المتعلّم تشدّهم اليه هالته القومية وأفكاره الفرنسية عن ضرورة "نهضة وبعث" renaissance العرب وتحرّركهم، وتأثّرت حركة الأرسوزي بالأحزاب العقائدية الأوروبية، القومية منها خاصة، ولكنها تميّزت عن حزب أنطون سعاده باعتناقها عروبة عكّست

¹⁰⁶ حافظ الأسد تساهل مع نشاط هذا الحزب منذ سبعينيات القرن العشرين.

¹⁰⁷ Arnold Toynbee, "The session to Turkey of the Sanjaq of Alexandretta", *Survey of International Affairs* 1938, London, Oxford University Press, 1941, pp. 479-492.

¹⁰⁸ Robert Satloff, "Prelude to conflict: communal interdependence in the Sanjak of Alexandretta, 1920 - 36", *Middle Eastern Studies*, vol. 22, no. 2, April 1986, pp. 147-180.

¹⁰⁹ Elizabeth Picard, "Retour du Sanjak", *Maghreb-Machrek*, no. 99, janvier - mars 1983, pp. 47 - 64.

نظرة الأرسوزي الخاصة إلى العرب كعنصر مميّز عن الأتراك (كنظرة عرب الأحواز إلى هويّتهم ضمن إيران). وكانت العصبة أكثر عداءً للشيوعية من الحزب السوري القومي ما أضعف شعبيّتها أيضاً¹¹⁰. كما أنّ انضمام زعيم العصبة صبري العسلي إلى "الكتلة الوطنية" اليمينية في انتخابات 1936 لم يهضمه الرأي العام المناهض للانتداب.

ولكن بصرف النظر عن تحالف العسلي مع الكتلة الوطنية، فإنّ عصبة العمل القومي كانت رأس حربة في النضال ضد الانتداب الفرنسي. كما اعتُبر الأرسوزي من آباء حزب البعث الذي بدأ يظهر على الساحة. ذلك أنّ معظم الشباب المثقّف في دمشق وغيرها كان يستمع للأرسوزي ويتلقّن على يديه ومن هؤلاء وهيب الغانم (علويّ) الذي رافقه في أنطاكيا وبقي معه في دمشق، وحتى في دير الزور البعيدة نشط قوميون عرب بمجهودهم الذاتي وأبرزهم في تلك الفترة جلال السيّد. ثم تراجع نشاط العصبة في العام 1940.

حزب البعث

أهمّ ظاهرة حزبية ظهرت في سورية في القرن العشرين كانت ولادة حزب البعث. لقد وضع سعاده والأرسوزي نواة عقائدية وتنظيمية في البلاد بنى عليها أستاذاً مدرسة هما ميشال عفلق وصلاح البيطار أسساً لحركة جديدة.

تخرّج عفلق والبيطار من جامعة السوربون في باريس وعادا إلى دمشق عام 1934، حيث عملا في "ثانوية التجهيز" التي كانت أفضل مدرسة في سورية في ذلك الوقت، الأوّل أستاذ في التاريخ والثاني في الرياضيات والفيزياء. وكانت المدرسة تضمّ 1500 تلميذ من أبناء أسر دمشق والمحافظات وتُعتبر مركزاً مهماً للمناضلين الوطنيين أساتذة وطلاباً، ولم يخُل الأمر من تعرّض الطلاب والأساتذة للتوقيف ومضية فترة في السجن كما أنّ الشرطة الفرنسية لم تكن تتردّد في إطلاق الرصاص على الأطفال¹¹¹.

وُلد عفلق في دمشق عام 1910 من عائلة أرثوذكسية وُولد البيطار أيضاً في دمشق عام 1912 من أسرة سنية. ورغم أنّ عفلق كان من تلامذة الأرسوزي في شبابه الأوّل¹¹²، إلا أنّه طوّر أفكاره متأثراً بالمدرسة المثاليّة الفرنسية. وظهر عفلق بشخصية البروفسور الجامعي والمفكّر الهادئ وهي شخصية لازمتها حتى وفاته وشدّت الناس إلى حديثه المتماسك¹¹³. ومع حلول العام 1940، جذب عفلق والبيطار حولهما دائرة من الأصدقاء والمريدين وحلقات نقاش فكري في مقاهي دمشق وصالوناتهما. وظهر أوّل طرح فكري لهما في نشرة أصدرها عام 1941. وما أن انتهى العام الدراسي صيف 1942 حتى قدّما استقالتهما من المدرسة وانصرفا إلى العمل السياسيّ لتأسيس حركة تطبّق أفكارهما. فكانا على رأس التظاهرات الطلابية يقودانها ويلقنانها الشعارات

¹¹⁰ نشطت العصبة في مناهضة الشيوعيين واكتفى الحزب القومي بموقف محايد هو عدم مساندة الشيوعية.

¹¹¹ Patrick Seale, *ASAD*, p. 3.

¹¹² هذا الجانب من تاريخ البعث حول أولوية الأرسوزي على عفلق في جذور الحزب أطلقه بعثيون ينتمون إلى المذهب العلوي وخاصة منذ 1966.

¹¹³ Majid Khadduri, *Arab Contemporaries: the role of personalities in politics*, chapter on Michel Aflaq, London, Johns Hopkins

University Press, 1973, pp. 211 – 225.

والهتافات، حتى أصبحا معروفين لدى الصحافيين والرأي العام¹¹⁴. ومضى عفلق والبيطار في عملهما التأسيسي خلال الفترة 1941 - 1947 وهي فترة شهدت تغيّرات محلية وعربية وعالمية، منها الحرب العالمية الثانية ونهاية الانتداب الفرنسي واستقلال سورية ولبنان وحرب فلسطين الأولى وولادة دولة "إسرائيل". فكان المشرق يغلي في الأربعينيات والجيل الفتى يشارك في السياسة وينخرط في الأحزاب بأعداد غير مسبوقة¹¹⁵.

حركة الإخوان المسلمين

إلى جانب الأحزاب العلمانية الطابع، ظهر في سورية أيضاً تنظيم "الأخوان المسلمين" الذي لم يُعلن تأسيسه في تاريخ معيّن بل كان نتيجة تراكمات استغرقت 15 عاماً من أواخر العشرينيات وحتى 1947¹¹⁶. ورغم أنّه ظهر في لبنان أيضاً إلا أنّ وجوده هناك كان باهتاً.

في مطلع القرن العشرين كانت عائلات بعينها في المدن الكبرى في سورية تختصّ بشؤون الدين وخرج منها علماء، فظهرت في دمشق عائلات القوّتليّ والأيوبيّ ومردم والأتاسيّ والجابريّ والعظم. وبرز منها رجال دين قادوا الجمعيات الإسلامية التي تعاطت الشأن السياسيّ وخاصة في ظل الانتداب الفرنسي¹¹⁷.

في 1928 انطلقت في مصر حركة الإخوان المسلمين ودعت إلى وحدة "الأمة الإسلامية"، حيث شكّل المسلمون أغلبية السكان في أكثر من 50 دولة تجمعهم عقيدة دينية واحدة. فكان نطاق الإخوان الجغرافيّ أبعد بكثير من الحزب السوريّ القوميّ (وحدة بلاد الشام) وعصبة العمل القوميّ (وحدة الأمة العربية). وكان عدد كبير من الشباب السوريّ يتابع دراسته في مصر في الثلاثينيات، فتأثر بزعماء مصريّين في الدراسة ينتمون إلى الإخوان المسلمين. وعاد إلى سورية لتأسيس فروعٍ للأخوان في دمشق وحلب ومدن سوريةّ أخرى. وكان من هؤلاء مصطفى السباعيّ من حمص.

نشط إسلاميون من خلفيات متعددة في الثورة السوريّة عام 1936 ضد الانتداب الفرنسيّ. وبعد الثورة، سعت سلطة الانتداب إلى وضع مناهج تربويّة لسورية، طالب الإسلاميون بمضمون دينيّ وتقدّموا بمذكرات تحت أسماء تنظيمات عدّة. فوافقت السلطة الفرنسيّة على مناقشة المناهج معهم، ولكنها أصرت أن يأتي الإسلاميون إلى الاجتماع بها في وفد موحدٍ يقدم لائحة موحّدة. ما أعطى تلك الجماعات حافزاً للاتحاد عام 1938. وبعد عودة السباعيّ إلى سورية وتأسيسه لشباب محمّد عمل على ربطهم بحركة الإخوان المسلمين

¹¹⁴ Patrick Seale, *ASAD*, p. 3.

¹¹⁵ Nabil Kaylani, "The rise of the Syrian Ba'ath, 1940 - 1958: political success, party failure", *International Journal of Middle*

Eastern Studies, vol. 3, no. 1, January 1972, pp. 3 - 23.

¹¹⁶ O. Carré et G. Michaud, *Les Frères Musulmans 1928 - 1982*, Paris, 1983.

¹¹⁷ 90. Umar Abd-Allah, *Islamic Struggle in Syria*, Mizan Press, p.

المصريّة¹¹⁸. ولكن السلطات الفرنسيّة اعتقلته وسجنته لمُدّة عامين ونصف مع الأشغال الشاقة، وعندما خرج من السجن عام 1943، قام بتوحيد التيار الدينيّ في دمشق لإطلاق حركة الإخوان في سورية التي ضمّت "شباب محمد" إلى الجماعات الموجودة على الساحة. ثمّ انتُخب السباعيّ مراقباً عاماً للإخوان في سورية وفاز بمقعد في البرلمان عن دمشق¹¹⁹. وبقي السباعيّ في منصبه رغم مرضه المزمن وإصابته بشلل نصفي عام 1957. وأمضى فترات طويلة في المستشفى حتى توفي عن سن 49 عاماً عام 1964.

بعد قمع أخوان مصر في عهد الرئيس جمال عبدالناصر انتقل الثقل إلى أخوان سورية الذين أصبحوا الممثل الأبرز للحالة الإسلاميّة في العالم وليصبح السباعيّ أبرز شخصيّة أخوانيّة. وتميّزت حركة الإخوان السوريّة عن شقيقتها المصريّة في أنّ انتشارها اقتصر على مدن سورية ولبنان الرئيّسيّة، مؤسّسة على رواج الجمعيات الإسلاميّة والأسر العريقة في الدين في تلك المدن. ولكنها لم تحقّق نجاحاً في الأرياف ولا في صفوف البدو رغم المحاولات. فكان معظم أعضاء الإخوان السوريّين من أبناء الطبقة الوسطى يقيمون إجمالاً في أحياء المدن وبعضهم من عائلات اشتهرت بإنجاب علماء الدين، مارسوا مهن التجارة والمحاماة والطب والهندسة والوظيفة العامّة¹²⁰.

كما أنّ اختراق الإخوان في سورية للقوات المسلّحة كان طفيفاً. وتقول أوساطهم إنّ تكوين نفوذ لهم داخل الجيش لم يكن في خطتهم، في حين يذكر مؤرخون غربيون أنّ ثمة نفوراً من الالتحاق بالجيش حكم منطق سنّة المدن الذين وجدوا فيه مهنة للأقليّات الدينيّة والإثنية في سورية. وأنّهم دفعوا ثمن ذلك في ما بعد، إذ أصبح كبار ضباط الجيش ينتمون إلى هذه الأقليّات ولعبوا دوراً سياسياً متعاظماً في سورية منذ 1949. في انتخابات سورية عام 1947 فاز الإخوان بقيادة السباعيّ بعدد أصوات أكبر مما نالته أحزاب الشيوعيّ والبعث والسوريّ القوميّ بسبب نشاط الإخوان المتنامي في الأسواق والمساجد والساحات والأماكن العامّة في المدن. لقد قدّمت الحركة بديلاً إسلامياً لجمهورها بمضمون سوريّ محليّ عنوانه "الحل الإسلاميّ" يقضي بوقف التبعية للأجنبيّ ووضع حدّ لتحالف الإقطاع الريفيّ والبورجوازية المدنيّة وتحرير العمال من الجهل والظلم وذلّ الفقر، ووضع قوانين تحدّد ملكيّات الأراضي وعدم حرمان العمال والفلاحين من ثمره عملهم وإفساح المجال للعنصر الشاب لدخول الجامعات ومعاهد التعليم العالي لتحسين مستوى المعيشة وخلق الوعي للحقيقة المعاشة¹²¹.

Mustafa al-Sibai, "The establishment of Islam as the state religion of Syria", R. Bayly Winder, "Islam as a state religion: a

Muslim Brotherhood view in Syria", *Muslim World*, vol. 44, no. 3-4, July/October 1954, pp. 215 - 226.

Umar Abd-Allah, *Islamic Struggle in Syria*, Mizan Press, p. 91.

Johannes Reissner, *Ideologie und Politik der Muslimbrüder Syriens: von den Wahlen 1947 zum Verbot unter Adib as-sisaki*¹²⁰ pp. 111 - 117, 389-91, 396-1952, *Islamkundliche Uneruchungen*, vol. 55, Freiburg im Breisgau, Klaus Schwarz Verlag, 1980

يوهانس رايسنر، عقيدة وسياسة حركة الإخوان المسلمين في سورية من انتخابات 1947 إلى الحظر تحت أديب الشيشكلي عام 1952.¹²¹ pp. 307-08, 202 Reissner, pp.

الحزب الاشتراكي العربي

حتى الأربعينيات كان سهل حماة في وسط سورية المثل الصاعق لهيمنة الإقطاع على الأراضي الزراعية وظلم الفلاحين. إذ إنّ أربع عائلات إقطاعية - البرازي والعظم والكيلاني وطيפור - سيطرت على معظم أراضي محافظة حماة، وكان تعاملها الظالم مع الفلاحين هو الأسوأ في كلّ سورية. إذ من أصل 113 قرية وبلدة في المحافظة، امتلكت هذه العائلات أراضي 91 قرية وبلدة. كما أنّ مدينة حماة كانت منغلقة على نفسها تسكنها عائلات إقطاعية وتجارية، شديدة في محافظتها ورجعيّتها وتزمتها الدينيّ، وفي ربيتها بأي زائر أو غريب عنها أو عن المنطقة.

حتى وجد الناس بطلهم في مواجهة الإقطاع في الشاب أكرم الحورانيّ (سنيّ) الذي أحدث تغييراً ثورياً في حماة. وكان الحورانيّ قد انتسب إلى الحزب السوري القوميّ عند تأسيسه عام 1936، وحاز على شهادة المحاماة عام 1937. ثم انسحب من الحزب وجمع شباناً وأسّس "حزب الشباب" بقياداته. ثم تحوّل تجمّعه الصغير إلى حزب وطنيّ انتشر في مدن سورية وأوساط الشباب المتعلّم، انتقد خاصة الأساليب والسياسات الرجعية التي اعتمدها حكومات الكتلة الوطنية في دمشق. وكان الحورانيّ واسع الاطلاع على الأوضاع الوطنية السورية والإقليمية العربية وصاحب مواقف ضد الاستعمار في الدول العربية وقاد مجموعة من الشباب والضباط السوريّين إلى العراق لمساعدة ثورة الكيلانيّ ضد الحكم البريطانيّ هناك عام 1941.

وفي العام 1943 فاجأ الحورانيّ الطبقة السياسية التقليدية في سورية بفوزه بمقعد حماة باسم حزبه الصغير في الانتخابات البرلمانية. واستغلّ كرسيه في البرلمان ليحمل لواء الفلاحين وهمومهم، وطالب بإلغاء قوانين الانتخاب الملتوية التي يسيطر عليها الإقطاعيون. كما طالب عام 1944 باستصلاح مستنقعات منطقة الغاب على ضفاف نهر العاصي ومنح الأراضي للفلاحين لكي يزرعوها. وفيما تحقّق مطلبه الأول في انتخابات 1947، تعرّض للسخرية عندما عرض مشروع الغاب (ولكنّ الحكومة عادت وطبقت هذا المشروع في الفترة الاستقلالية في ما بعد، وكان من أنجح المشاريع الزراعية في سورية).

وفي العام 1948 أعلن 30 نائباً في البرلمان عزمهم على التطوُّع للقتال في فلسطين ضدّ العصابات الصهيونية، ولكن في نهاية الأمر لم يذهب سوى أكرم الحورانيّ ونائب من الرقّة هو عبدالسلام العجيلي. وواصل الحورانيّ نشاطه الضاغط لعملية التنمية في سورية، فأصرّ على إعداد دراسة حول مقومات الاقتصاد السوريّ وموارده وشروط نجاحه كانت أساساً للتنمية. وهكذا صعد الحورانيّ كوطنيّ وخبير في شؤون سورية الزراعية وقضايا الأرياف، فزادت شعبيّته في صفوف المتعلّمين ولم تقتصر على الفلاحين، ما شجّعه على أن يحوّل حركته الشبابية إلى حزب سياسيّ يعكس طموحاته وأفكاره. ففي العام 1945 أسّس الحزب العربيّ الاشتراكيّ.

وإشارة إلى شعبيّته المتصاعدة، صوّت له سكان محافظة حماة بنسبة أعلى في انتخابات 1947 النيابية. وما أنّ حلّ العام 1950، حتى أعلن في كانون الثاني عن تأسيس فروع في كلّ سورية ببرنامج يتضمّن إنهاء الإقطاع وتوزيع الأراضي وإصلاح الزراعة ومحاربة الطائفية والمذهبية وتحرير المرأة وتعميم التربية والتعليم الابتدائيّ

والثانوي وتأسيس مدارس وكلّيات تقنية ومهنية، أمّا في الشؤون السياسيّة فقد التزم الحزب سياسة مستقلة لسورية لا تخضع لأي نفوذ أجنبيّ ونظام برلمانيّ يرفع لواءي الاشتراكية والوحدة العربيّة. جذب برنامج حزب الحورانيّ وأفكاره ضباط الجيش السوريّ وجنوده. وكان لافتاً موقفه لصالح الجيش عندما تصدّى لنيّة حكومة الكتلة الوطنيّة في حلّ "قوات الشرق الخاصة" وإصراره أنّ ضباط هذه القوّات هم وطنيون سوريون، وأخذ على عاتقه فتح حوار مع الضباط في العامين 1944 و1945 لإقناعهم أن يكون ولاؤهم للدولة السوريّة وبيتعدوا عن أي ولاء لفرنسا. وعندما حاولت فرنسا التملّص من التزاماتها بالجملاء وتسليم المصالح العامّة، أقنع الحورانيّ بعض الضباط في حماة أن يشاركوه في حملة عصيان ضد الجيش الفرنسيّ في أيار 1945، فهاجموا قلعة حماة وانتزعوها من الفرنسيّين. وشارك الحورانيّ في هذه الحملة العسكريّان أديب الشيشكليّ وصلاح الشيشكليّ، وهما قوميّان سوريان من أصدقاء طفولته وشبابه ومرحلة انتمائه إلى حزب أنطون سعاده. وكان الحورانيّ والهالة التي جسّدها في سورية مصدر إعجاب واعتزاز لصغار الضباط ومتخرّجي الكليّة وطلابها.

حزب الشعب والحزب الوطنيّ

عندما دنت انتخابات 1947، ولّدت النقمة الشعبيّة على حكومة الكتلة الوطنيّة ضغطاً كبيراً لجعل انتخاب النواب بخطوة واحدة من الشعب وليس على مرحلتين ولإنهاء أسلوب التمثيل، حسب حجم الطوائف كما كان معمولاً به في لبنان، قاد أكرم الحورانيّ الحملة لتعديل قانون الانتخاب بدعم من البعثيين وآخرين ما دفع الحكومة إلى تعديل الدستور لتسهيل الانتخاب بمرحلة واحدة، في حين فشل السعي لإلغاء التمثيل الطائفيّ للنواب.

وإذ فشلت الكتلة الوطنيّة في الحصول على أغليّة برلمانيّة كما في المرات السابقة، بدأت بالتشقق مباشرة بعد الانتخابات فغادرها كثيرون. ثم انعقد مؤتمر للمنشقين في مدينة بعلبك في لبنان عام 1948 أسفر عن انتظام هؤلاء في حزبين هما "حزب الشعب" و"الحزب الوطنيّ". وكان من أقطاب الحزب الوطنيّ شكري القوّليّ وجميل مردم بك وشخصيّات دمشقيّة، وانضمّ اليهم صبري العسليّ، فيما قام جناح آخر في حلب وحمص مناهض للقوّليّ ومعارض لهيمنة الجيل القديم، بتأسيس حزب الشعب، ومن قاداته شخصيّات عريقة في السياسة منها ناظم القدسي ورشدي كيخيا وأسرة الأتاسي العريقة التي ملكت أراضي شاسعة في حمص، ومعروف الدواليبيّ من حلب المقرب من الإسلاميين. فمثّل هذا الحزب مصالح الجزء الشماليّ من سورية الذي وجد امتداده الاجتماعيّ والاقتصاديّ والتجاريّ الطبيعيّ من حمص وحلب إلى وادي الفرات والجزيرة، وصولاً إلى العمق العراقيّ. ولذلك سعى هذا الحزب إلى نوع من الرابطة الاقتصاديّة بين سورية والعراق تزيل الحدود والحواجز الجمركيّة بين البلدين، ولكنها تحترم نظام سورية الجمهوريّ ودستورها.

من ناحيته مثل الحزب الوطنيّ مصالح دمشق والجزء الجنوبيّ من سورية ومال إلى المحور السعوديّ - المصريّ، مع محافظته على قاعدة شعبيّة في حلب مثلتها الأقلّيّة المسيحيّة. ولكن صبري العسلي كان على علاقات مع شخصيّات عراقية وميل إلى العراق.

وعدا سياسة المحاور العربيّة لم يختلف الحزبان في سياستهما الداخليّة التي قضت بتمثيل مصالح التجار في المدن والحفاظ على العلاقات مع الإقطاع الزراعيّ لجذب أصوات الناخبين في الأرياف. وهذا المضمون التقليديّ للحزبين وغياب برنامج عقائديّ وإصلاحيّ انعكس بتنافس داخليّ قوامه الأشخاص والعائلات. وفيما ظنّ الحزب الوطنيّ بأنّه سيرث الكتلة الوطنيّة في البرلمان، فاجأ حزب الشعب التوقعات وفاز بـ20 مقعداً مقابل 24 مقعداً للحزب الوطنيّ. وفي غياب أحزاب حقيقيّة تختلف عن تلك التقليديّة التي تتكتل فيها العائلات، لم يكن غريباً أن تذهب أغليّة المقاعد إلى مستقلين يمثلون عائلات وقبائل وأقلّيّات إثنية ومذهبيّة. وكان ثمة استثناءات في الطبقة التقليديّة كالحلبي رشيد كيخيا والدمشقي خالد العظم الذي أصبح شخصيّة وطنيّة كبرى. وكان خالد العظم مثقفاً ومنفتحاً درس في أوروبا وسافر إلى بلدان عدّة. عمل من موقعه كوزير للاقتصاد بجهد ليدفع مشروع قانون العمل عام 1946. كما أيّد ممثلو حركة الإخوان المسلمين في دمشق وحلب يدعمهم معروف الدواليبيّ، المناحي الإصلاحيّة آنذاك. وإذ أعيد انتخاب أكرم الحورانيّ نائباً، لم يفز أي من الوجوه الشابّة والتقدميّة. ورشّح الحزب الشيعويّ ثلاثة أعضاء فاز منهم بصعوبة رئيسه خالد بكداش. وفشل مرشّحو حزب البعث في الحصول على أي مقعد، رغم أنّ ميشال عفلق نفسه كان مرشّحاً في دمشق.

6. فلسطين والأردن 1920 - 1948 |

في وقتٍ كانت كيانات العراق ولبنان وسورية تبني قدراتها الوطنية وتسعى للتخلص من الانتداب ونيل الاستقلال، لم يغب عن أنظار زعماء المشرق وأحزابه ما يجري في فلسطين، حيث اختلف نمط الانتداب البريطاني جذرياً عن مثيله الفرنسي لأنه كان يعمل على تطبيق مشروع استيطاني تنفذه الوكالة اليهودية والتنظيمات والمليشيات الصهيونية. ما يعني تفرغ فلسطين من أهلها واستبدالها بكيان عنصري سيبقى لعقود طويلة شوكة سرطانية في خاصرة المشرق والعالم العربي.

لقد اختلف الوضع في فلسطين عن كيانات المشرق الأخرى. فهنا أرض معمورة منذ آلاف السنين وشعب مسالم وحضاري يتطلع ليصبح بلداً شديد الشبه بلبنان. ولكن الانتداب البريطاني المجرم فتح الباب لطرد هذا الشعب من وطنه بالقوة العسكرية الغاشمة التي جلبتها الحركة الصهيونية.

ولادة إمارة شرق الأردن

في العام 1921 سمح الإنكليز بتأسيس إمارة شرق الأردن (أو "إمارة عبر الأردن" Transjordan أي للقادم من القدس) كحمية بريطانية على الضفة الشرقية لنهر الأردن في فلسطين وجعلوا عليها الأمير عبدالله بن الشريف حسين حاكماً¹²². وكان هذا ممكناً بعد زوال السلطنة العثمانية وتقسيماتها الإدارية حيث تبع شرق الأردن إدارياً لولاية دمشق.

كما فعلت كيانات المشرق الأخرى، خلق الأردن شرعيته التراثية بأنه وليد مدينة البتراء والمملكة النبطية قديماً، و"الثورة العربية الكبرى" التي انطلقت من الحجاز في 5 حزيران عام 1915. وكان هدف الثورة هو استقلال بلاد العرب من الحكم العثماني بمساعدة بريطانيا. وكان الهاشميون قد تفاهموا مع الإنكليز أن عبارة "بلاد العرب" في ذلك الوقت هي المساحة التي تشمل المشرق (بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام) والجزيرة العربية. فبعد إعلان الشريف حسين الثورة العربية عام 1915 جرت مراسلات بين الشريف والمفوض البريطاني في القاهرة هنري مكماهون عُرفت باسم "مراسلات الحسين - مكماهون"، في الفترة ما بين تموز 1915 إلى آذار 1916، التزم فيها الإنكليز بالاعتراف بمملكة مستقلة تمتد من حلب شمالاً إلى عدن جنوباً يحكمها الشريف حسين وأبناؤه.

عقيدة الهاشميين العربوية:

كان قائد تلك الثورة الأمير حسين بن هاشم، شريف مكة وحاكم الحجاز، وأبناؤه الثلاثة: فيصل وعبدالله وعلي. وهي أسرة تقول إنها متحدرة من النبي العربي ولقبها "هاشم"، أي من أسرة محمد، وسلالتها هاشمية.

¹²² عبد الله ابن حسين بن علي الهاشمي وُلد في شباط 1882 في مكة في الحجاز ومات اغتيالاً في 20 تموز 1951 في القدس. هو مؤسس المملكة الأردنية الهاشمية بعد الثورة العربية الكبرى التي قادها والده الشريف حسين ضد الدولة العثمانية عام 1915. وقدم إلى الشام عام 1920 لمحاربة الفرنسيين في سورية الذين طردوا أخاه فيصل، ولكنه أوقف من قبل المملكة المتحدة في منطقة فلسطين. وكان له من العمر 38 عاماً. ووصل إلى معان التابعة للحجاز عام 1920 حيث لقي ترحاباً. و قام بتأسيس إمارة شرق الأردن عام 1921 وتشكّلت هيئة إدارية للشورى بمثابة حكومة في 11 نيسان 1921 برئاسة رشيد طليح.

وبقيادة الإنكليز وعون القبائل العربية جنوب الأردن، تمكّنت قوَّات الشريف من اقتحام أراضي الأردن عبر وادي رمّ جنوب البلاد وطرد الجيش التركي في معركة العقبة في 6 تموز 1917. ومن هناك تواصل الزحف مع الجيش البريطانيّ فدخلت قوافل الهاشميين دمشق في تشرين الأول 1918 أعلن الأمير فيصل بن الحسين قيام مملكة عربية في عموم سورية بموجب اتفاقات الهاشميين مع الحلفاء أن تكون سورية الموحدّة تحت حكم عربيّ. أي أنّها تشمل سورية الحالية ولبنان وشرق الأردن. ولكن حكومة فيصل استثنت فلسطين بسبب تفاهمات فيصل مع الإنكليز بأنّه سيكون لها وضع خاص.

ولكن بعد 18 شهراً، قام الجيش الفرنسيّ بطرد الأمير فيصل وحكومته وذلك في معركة ميسلون على أبواب دمشق في 20 تموز 1920. ذلك أنّ سورية ولبنان كانا من حصّة فرنسا بموجب اتفاق سايكس بيكو، فلا يحق لبريطانيا أن تجعل فيصل ملكاً عليهما. وعوضاً عن قيام مملكة سورية، أنشأت فرنسا ستة كيانات منفصلة ثم رضخت بعد الثورة السوريّة الكبرى، وانتهى الأمر بقيام دولتي سورية ولبنان.

ولا يتوقف التراث المؤسس للأردن المعاصر على رموز محلية بل هو يتعدى ذلك إلى شبه عقيدة قوميّة عربيّة مشابهة لعقيدة البعث والقوميين العرب والناصرية؛ فقد كانت قنعة البيت الشريفيّ أنّه يتحدّر مباشرة من صلب النبيّ محمد بن عبدالله من بني هاشم، عبر ابنته فاطمة وزوجها علي بن أبي طالب وهو ابن عم الرسول، وابنيتها الحسن والحسين وهما حفيدا النبيّ العربيّ. وأنّ البيت الشريفيّ أشرف على الأراضي المقدسة في الحجاز، مكة والمدينة لأكثر من ألف عام، وأنّهم أحق بالخلافة العربيّة بعدما تاهت في العصر العباسيّ إلى أيدي الفرس والترك، ثم الترك والشركس والبلاقنة في عهود المماليك، ثم في أيدي الأتراك العثمانيين. ولذلك كان منطلق آل هاشم الأكبر، من هو أحق بولاية بلاد العرب من أسرة محمد في مدينة مكّة التي انطلق منها الإسلام والقرآن واللغة العربيّة؟ ففي العام 1915 كان الشريف حسين وأبناؤه فيصل وعبدالله وعلي يؤمنون بتحدّهم من جدّهم علي بن أبي طالب، في حين أنّ مصر كانت تحت حكم أسرة الخديويّ الألبانية التي كانت استمراراً للعهود التركية. وساهم في هذا التفكير في مطلع القرن العشرين أنّ عروبة مصر وهي تحت الحكم البريطانيّ لم تكن مُعلنة كفاية (كما صارت في عهد جمال عبدالناصر العربيّ الهوى) وأنّ بلاد المغرب العربيّ بعيدة ووضعتها صعب تحت استعمار فرنسيّ مديد¹²³، فوفق هذه العقيدة إذًا، كان بنو هاشم في مكّة هم القادة الطبيعيّون للعرب بعد زوال 400 عام من عصور الظلام التركي، وليس القاهرة أو أي عاصمة عربيّة أخرى¹²⁴.

كما أنّ دستور عام 1928 لإمارة شرق الأردن الذي أشرف عليه الأمير عبدالله بن الحسين قد حدّد الشريف حسين بأنّه الأب المؤسس (فهو والد فيصل الذي أصبح ملك العراق ووالد عبدالله الذي أصبح ملك الأردن). ما يعني أنّه في حال تعرّض أي من العرشين للخطر تعود الشرعيّة للأسرة للعرض الآخر. وقد سار عبدالله بهذا المنهج فلم يتخلّ عن المطالبة بعرش مملكة سورية بما فيها لبنان وفلسطين بل أصبح مشروعه الأهمّ بناء مملكة سورية الكبرى يحكمها هو ثم تلتحق بمملكة العراق الهاشميّة. دون أن يعني ذلك التخلّي عن الحجاز

Uriel Dann, *King Hussein and the Challenge of Arab Radicalism: Jordan 1955-1957*, New York, Oxford University Press, ¹²³

1989, p. 3.

¹²⁴ زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، بيروت، دار النهار، الطبعة الرابعة، 1986.

أرض الهاشميين المقدّسة، خاصة أنّ عبدالله استطاع ضم منطقتي معان والعقبة الواقعتين في شمال الحجاز إلى إمارة شرق الأردن عام 1925. وحتى مصرعه عام 1952 كان عبدالله شديد الاقتناع بأنه سيستعيد الحجاز وأنّ حكم آل سعود في مكة لن يطول¹²⁵. أما الملك حسين فقد كان أكثر واقعيّة منذ أصبح ملكاً عام 1952. فقلب صفحة التوسّع الجغرافيّ العلنيّ للأسرة الهاشميّة واكتفى بما ورثه دون أن يتخلّى عن إرث العائلة وحقّها الشرعيّ في حكم بلاد العرب، حتى لو كان هو ملكاً على بلد صغير ولو أنّ حكم الأسرة الهاشميّة في الحجاز والعراق قد انتهى.

ولادة إمارة شرق الأردن:

كانت بريطانيا قد وضعت يدها على العراق وفلسطين التي شملت شرق الأردن بموجب اتفاقها مع فرنسا وقرارات عصبة الأمم. فمنعت جعل فلسطين جزءاً من المملكة العربيّة الكبرى التي وعدت بها حلفاءها الهاشميين. لأنّها وعدت اليهود بدولة لهم على أرضها بموجب وعد بلفور الذي منحه لندن في 2 تشرين الثاني 1917.

لقد اعتبر الهاشميون أنّ منع امتداد السلطنة العربيّة على سورية وفلسطين هو خيانة من الإنكليز ونكث بوعودهم الكثيرة بدعم استقلال "بلاد العرب". وبعد طرد الأمير فيصل من دمشق، غضب الهاشميون، وأخذ الإنكليز يعملون على مرضاتهم. فقاموا بتسمية فيصل ملكاً على العراق. ولكن بعد أربعة شهور بالضبط من معركة ميسلون وصل شقيق فيصل الأكبر الأمير عبدالله إلى شرق الأردن في 21 تشرين الثاني 1921، بالقطار عبر خط السكة الذي بناه الأتراك سابقاً لربط دمشق بمكة. وكان عبدالله يرمي إلى شنّ حرب عصابات على الجيش الفرنسيّ في سورية.

بعكس فلسطين وسورية ولبنان، كان الأردن في ذلك الوقت مساحة جغرافيّة لا كيان لها باستثناء البلدات والقرى المتاخمة لفلسطين وسورية. فكسب عبدالله ولاء البدو وشيوخ القبائل طالباً منهم منحه الدعم لخلق إدارة تخدمهم جميعاً عوضاً عن مناطق قبليّة متفرّقة. وكان عبدالله يؤمن أنّ سورية التي تشمل لبنان وفلسطين هي جزء من بلاد العرب وطمح إلى تحريرها من الإنكليز والفرنسيين.

حتى ذلك الحين لم يكن ثمة كيان أو أرض محدّدة الملامح إلى الشرق من فلسطين وإلى الجنوب من دمشق. بل كان ثمة مشاع صحراويّ وبادية وبضع واحات، إلى جانب القرى والبلدات المتاخمة لنهر الأردن، وكلّها امتداد جغرافيّ طبيعيّ في الجنوب السوريّ، وحتى الغساسنة ومملكتهم فكان مواطنهم حوران ومنها امتدّ نفوذهم جنوباً. وحتى في ظل السلطنة العثمانيّة كانت حدود ولاية سورية الجغرافيّة تنتهي في خليج العقبة على البحر الأحمر جنوباً¹²⁶.

Ibid., p. 173, notes 2 and 3.¹²⁵

Philip Hitti, Charles Issawi, *Jordan Country Study Survey*, New Haven, Human Relations Files, 1957, p. 12-13.¹²⁶

لمرضاة عبدالله، صمت الإنكليز عن وجوده شرق النهر وخاصة أنه كان ضماناً ضد غزوات البدو وخاصة من الحركة الوهابية على القدس ودمشق، فنجح في نيل الثقة وتشجع لجعل قيادته في عمان ثم أعلن نفسه أميراً على إمارة شرق الأردن في 11 نيسان 1921 دون أن يتخلى عن حلمه في إقامة مملكة سورية. وكان الانتداب البريطاني يغطي فلسطين والعراق شاملاً الأراضي الصحراوية وشبه الصحراوية التي تفصل بينهما. لقد حصل الأمير عبدالله على شرعية بدعم بريطانيا عندما اعترفت به عصبة الأمم (الهيئة الأممية السابقة للأمم المتحدة) في أيلول 1922. ولكي يصحح الإنكليز وضعه القانوني كمنطقة مميزة عن فلسطين، قاموا بتعديل نص "الانتداب البريطاني على فلسطين"، مذكّرة جعلته "الانتداب البريطاني على فلسطين وشرق الأردن". وكان طريفاً أن حدود شرق الأردن مع فلسطين قد تحدت كتحصيل حاصل للمدى الذي سمحت به مذكرة الانتداب للاستيطان اليهودي أن يقتصر على أراضي فلسطين غرب النهر فقط، زائد خط شبه مستقيم يتبع الشق الأفريقي من جنوب البحر الميت حتى خليج العقبة.

وفي 22 تشرين الأول 1922، أي بعد صدور المذكرة بشهر، جعلت بريطانيا لهذه الإمارة قوة عسكرية دعته "العصبة العربية" قوامها 250 عنصرًا، وجعلت عليها قائداً إنكليزياً. واعترفت بها بريطانيا كمنطقة حكم ذاتي تحت سلطة الانتداب. وفي العام 1928، تم توقيع معاهدة بين الجانبين أنهت الانتداب ومنحت الإمارة المزيد من الاستقلال ما فسخ المجال لوضع دستور أردني.

كان الكيان الوليد مهدداً منذ البدء، حيث ثار السكان المحليون على الأمير عبدالله عامي 1921 و1923 على أساس انتمائهم إلى بلاد الشام. فنجح عبدالله بقمعهم بعون الإنكليز. في حين شنت عصابات مسلحة وهابية قادمة من نجد هجمات على جنوب الإمارة بغية ضمها إلى أراضي الأسرة السعودية في الفترة 1922 - 1924. فاهتز ولاء القبائل وتهددت شرعية الأمير. وتدخل الإنكليز مجدداً وأوقفوا الزحف الوهابي، ثم ابتنوا قاعدة دائمة في عمان تضم قوى عسكرية بريطانية وطائرات حربية.

وكانت الضربة الكبرى عام 1924 عندما نجحت الحركة الوهابية بقيادة آل سعود في السيطرة على الحجاز ودخول مكة والمدينة، وقام قائدهم عبدالعزيز بن سعود بطرد الشريف حسين وأسرته من هناك عام 1924. ثم ضم الحجاز إلى نجد. وبات التهديد السعودي الدائم يطرق أبواب شرق الأردن باستمرار، فورث الأمير عبدالله العداوة التاريخية المستأصلة بين آل سعود وآل هاشم وبات هذا أيضاً حال حفيده الحسين بن طلال في العقود التالية. وكي لا تنكشف عمان والبلقاء وجرش وعجلون وإربد للزحف السعودي، قام عبدالله طيلة عام 1925 بتحسين دفاعات الجنوب ونجح في السيطرة على منطقتي العقبة ومعان، وهي أصلاً كانت تابعة للحجاز، فمُنح آل سعود من ضمهما أيضاً. وفي ذلك العام صمت عبدالعزيز عن خطوة عبدالله طالما أنه تحت حماية الإنكليز، ولكنه لم يكف في ما بعد عن المطالبة بهاتين المنطقتين.

وكان عبدالله مطمئناً أن شقيقه الأصغر فيصل قد أصبح ملكاً على العراق ويستطيع أن يدعّمه بوحدة من الجيش العراقي عبر حدودهما المشتركة. ولئن حكم الهاشميون البلدين باتت علاقات الأردن والعراق ممتازة طيلة عقود حتى سقط حكم الهاشميين في بغداد بعد ثورة 14 تموز 1958. وكان عبدالله ينظر إلى الحجاز العريق إمارة أبيه قبل سقوطها وإلى العراق العظيم مملكة شقيقه ثم ينظر إلى وضعه في بقعة صغيرة

مجهولة شرق فلسطين، ويرسم الخطط لكي يكون ملكاً على سورية ويطرد الفرنسيين¹²⁷. وبعد مداوات مع زوار من دمشق وفلسطين، اقترح أن للبنان وضعية خاصة وهو سيرضى أن تشمل مملكته شرق الأردن وسورية وشرق لبنان وشماله حتى مدينة طرابلس شمالاً. وأن يكون اسم المملكة "سوريا الكبرى". وهكذا انطلقت هذه الفكرة وأصبحت متداولة على أنها "مشروع سورية الكبرى" بينما هي سياسة أردنية محلية أساسها طموح الأسرة الهاشمية وخاصة الأمير عبدالله الذي بعد أن استتب له الأمر في الأردن أخذ يسعى ليمد إمارته حتى تشمل سورية ولبنان، وفي الواقع لم يكن مشروعه "سوريا الكبرى" نهاية المطاف بل خطوة نحو تحقيق حلم أبيه الشريف حسين نحو إنشاء دولة عربية وحدوية من شمال سورية إلى اليمن وما بينهما¹²⁸.

في العام 1934 وقّع الإنكليز مذكرة إضافية سمحت للإمارة بتأسيس مجلس للوزراء بدل الهيئة الإدارية لحكم البلاد بإشراف الأمير عبدالله. وكانت المفارقة أن الأمير عبدالله كان مسaireاً للحركة الصهيونية في فلسطين، وهي المكان الأعز على سكان مملكته الوليدة، ما جعله يفقد الشعبوية التي أسسها آل هاشم أثناء الحرب العالمية الأولى والثورة العربية الكبرى في المشرق والعالم العربي الأوسع. وحتى مصر الملكية تحت الهمينة البريطانية كانت أكثر عداءً نسبياً من العاهل الأردني عندما نشبت حرب فلسطين عام 1947. وهكذا بانتداب فرنسي حليف في لبنان وسورية، وأمير هاشمي شرق الأردن، وملك هاشمي في العراق ووصاية مباشرة على مصر، انصرف الإنكليز إلى تطبيق خططهم الرامية لإقامة دولة يهودية على أرض فلسطين، ستيين أن اعتراض العرب ورفضهم لم يقتربا بتجهيز القوة المناسبة لإنقاذ فلسطين..

أكاذيب الحركة الصهيونية

بنت الصهيونية عقيدتها على سلسلة من الأكاذيب. منها أن "فلسطين كانت أرضاً بلا شعب أعطاها الإنكليز لشعب بلا أرض"، والمقصود بشعب بلا أرض هم كل يهود العالم، وجاء في دعاوى الصهيونية: «أن فلسطين والبلدان المحيطة بها من سهول حوران ووادي الأردن وبلاد جلعاد وسهل البقاع هي أراضٍ مهمة ويمكن أن نعيد لها ازدهارها مثل أيام الملك سليمان والملك داود، فينمو عدد اليهود بسرعة لتصبح من أكثر مناطق العالم ثروة وإنتاجاً للغذاء». والحقيقة أن سورية ولبنان وفلسطين والعراق كانت بلداناً مأهولة بملايين السكان ممدنها العامرة عام 1900 ولكن صورتها دعاوى الصهيونية على أنها كانت جاهزة أرضاً للاستيطان اليهودي، وفلسطين كانت بلداً مثل لبنان وسورية والعراق، فيها مئات القرى وعشرات المدن المزدهرة، وهذه حقيقة دامغة تؤيدها آلاف الصور الفوتوغرافية وبالآدلة وبالوثائق، ولم تكن صحراءً بل كانت مزروعة بالكامل حتى كان من الصعب العثور على قطعة أرض غير مزروعة في فلسطين. ويمكن اختصار أكاذيب الصهيونية الرئيسية في خمس نقاط:

¹²⁷ Philip Hitti, Charles Issawi, *Jordan Country Study Survey*, p. 15.

¹²⁸ في ذلك الوقت كانت العروبة بالنسبة للهاشميين مقصورة على الجزء الآسيوي من العالم العربي ولم تشمل بعد الدول العربية في أفريقيا أي مصر والسودان والمغرب العربي والقرن الأفريقي.

1. أكذوبة اضطهاد اليهود في العالم العربي:

دأبت الآلة الإعلامية الصهيونية على الترويج الكاذب عن اضطهاد اليهود في الدول العربية قبل قيام "إسرائيل" عام 1948، والحقيقة أن اليهود لم يتعرّضوا لأي سوء في الدول العربية منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، الا أنهم ذاقوا الاضطهاد في أوروبا، ليس فقط بسبب النازية في القرن العشرين، بل منذ أن أعلن البابا من الفاتيكان ضرورة عزلهم في غيتوات عام 1555.

أما في بلاد العرب، فقد ازدهر اليهود وكانت لهم مراكز مهمة منذ الدولة العباسية وزمن هارون الرشيد وابنيه الأمين والمأمون، مروراً بالأندلس (إسبانيا) حتى سقوطها نهائياً في القرن الخامس عشر. وعندما أقفلت أوروبا في وجه يهود الأندلس عام 1492، لجأوا إلى المنطقة العربية. وعندما غزا جيش نابوليون فلسطين عام 1798، قاومه أحمد باشا الجزائر وكان معاونه الأساسيان في ولاية عكا يهوديين فلسطينيين هما شاوول فرحي وابنه حاييم اللذان تمكنا من حشد حريفي القدس لتدعيم تحصينات قلعة عكا. وفي عام 1843، كتب قناصل إنكلترا عن يهود دمشق أنهم من الأثرياء ومنازلهم كالقصور، وأن من كبار تجار دمشق في تلك الفترة عائلة نسيم، ومنها مراد وفرحي ورافائيل نسيم، حيث بلغ مدخول كل منهم مليوناً وخمسمئة ألف ليرة عصرية ذهباً سنوياً. ولقد تعجّب قناصل أوروبا في دمشق كيف أن مستوى عيش تجار دمشق اليهود أفضل من مستوى ملك إنكلترا.

أما سبب نجاح التلفيقات الصهيونية في غسل دماغ الناس في العالم الغربي أن اليهود مضطهدين في الدول العربية، فذلك لأن شعوب أوروبا وأميركا الشمالية اعتادت السماع عن اضطهاد اليهود في أوروبا ومشاهدة الأفلام وقراءة الكتب عنهم، وباتت جاهزة للتصديق أنهم مضطهدون أيضاً في البلدان العربية وأن العرب سيمونهم في البحر.

2. أكذوبة أرض الميعاد:

دأبت الآلة الإعلامية الصهيونية على الترويج لفكرة «العودة» - أي عودة اليهود إلى فلسطين - وأن ذلك مكتوب في العهد القديم من الكتاب المقدس. وقد نجحت هذه التلفيقة، وخصوصاً في البلدان التي تتبع المذهب البروتستانتي - أي أميركا وبريطانيا خاصة، حيث العهد القديم من الكتاب المقدس يتخذ أهمية حيوية في طقوس العبادة. فبات دعم "إسرائيل" ينبع أساساً من عقيدة الناس الدينية في الغرب. لقد بدأت دعاوى أرض الميعاد في كتابات صهيونية مبكرة في القرن التاسع عشر، لكنها كانت مبنية على خيال خصب وعلى معلومات خاطئة لدى من كتبها ومعرفة جزئية بالتوراة. فالإشارة إلى «العودة» جاءت فعلاً في الكتاب المقدس، لكنها كُتبت في مرحلة السبي البابلي أي عندما طرد «طيطس» الحاكم الروماني في فلسطين اليهود إلى العراق عام 70 ق.م. ولكن في تلك الفترة، لم يشكّل يهود فلسطين سوى 15 في المئة من يهود العالم المنتشرين في غرب آسيا وأوروبا وشمال أفريقيا.

حتى أن الفرس سمحوا لليهود المسيبيين في بابل «بالعودة» إلى فلسطين. ما يعني أن «العودة» التوراتية لليهود فلسطين قد حصلت فعلاً، ولكن في ذلك الزمن السحيق وليس لها علاقة بفلسطين اليوم أو بيهود أوروبا في القرن العشرين الذين لم يكن أجدادهم أصلاً في فلسطين أيام السيد المسيح.

أما أساس الدعاوى الصهيونية فهو كلام شاعري وخيالي نُشر عام 1840 في صحيفة Der Orient اليهودية الألمانية، وفيها خريطة المشرق العربي وعليها جزء مظلّل يمتد من نهر الفرات إلى نهر النيل – شاملاً لبنان وفلسطين ومعظم سورية وحتى الضفة نهر النيل في مصر شرق القاهرة. أي أن هذه الأرض ستكون أرض الميعاد كما جاء في ذلك المقال الكاذب. وهذه الخريطة نشرتها الصحيفة الألمانية قبل 56 عاماً من المؤتمر التأسيسي للحركة الصهيونية الذي انعقد في مدينة بازل في سويسرا عام 1897.

أما الحقيقة التاريخية، التي قدّمها الباحثون وعلماء الآثار في الغرب، فهي أن يهود فلسطين وشرق الأردن قبل 2500 سنة كانوا 12 قبيلة عاشت في منطقة جبلية محدودة من الضفة الغربية والجليل ولفترة تاريخية معينة. ثم أن عشرًا من هذه القبائل انقرضت وذهب نسلها بقيت قبيلتان على جزء صغير من الضفة الغربية، وأن أبناء هاتين القبيلتين هم الذين نفاهم طيطس الروماني إلى بابل، ثم سمح لهم الفرس بالعودة في ما بعد. أما يهود القرن العشرين في «إسرائيل»، فهم مزيج إثني كبير ومركب من أوروبيين وآسيويين وأفارقة وعرب وأصول أخرى وليسوا أحفاد قبيلة يهوذا ولا ينطبق عليهم منطلق أنهم أحفاد سلالة أو عرق واحد.

3. أكذوبة الحركة الصهيونية المسالمة:

بناءً على ما تقدم أعلاه، فقد دأبت البروباغندا الصهيونية على الترويج لكذبة أن الشعب اليهودي إنما عاد إلى أرضه التاريخية فلسطين. والحقيقة أن المنظمة الصهيونية التي وقفت وراء هذا الترويج هي حركة استعمارية استيطانية أوروبية شرسة سعدت في أعوام 1897 - 1900 في أوج حقبة الاستعمار الأوروبي حول العالم. فجاء اليهود الأوروبيون البيض لاستيطان فلسطين، كما فعل الإنكليز في استيطان جنوب أفريقيا وأستراليا ونيوزيلندا ومناطق أخرى في العالم على حساب شعوب تلك البلدان الأصلية. والفارق أن الكيان الصهيوني مثل النموذج الأسود من كل النشاط الاستيطاني الاستعماري في العالم. ذلك أن القوى الأوروبية (فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا وإسبانيا والبرتغال) قد قهرت فعلاً شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا واحتلت أوطانها، لكنها تركتها وشأنها وزال الاستعمار لاحقاً. أما الحركة الصهيونية، فقد قهرت الشعب الفلسطيني وعملت دوماً على طرده من بلده وسلبه أملاكه ليسكن مكانه أناس آخرون. وهذا يعني أنه خلال مئتي عام من الاستعمار الأوروبي في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، لا يوجد أي نموذج يضاها ما فعلته المنظمة الصهيونية بفلسطين وشعبها.

4. أكذوبة أنّ الصهيونيّة مثّلت يهود العالم:

في عام 1917، لم يزد عدد أفراد المنظمة الصهيونيّة العالميّة عن 250 ألفاً – وهي نسبة ضئيلة جداً قياساً بعدد اليهود في العالم آنذاك (12 مليوناً) والذين كانوا راضين بمعيشتهم حيث هم في أوطانهم، سواء كانوا في أوروبا أو في أي مكان آخر. ولم تكن فكرة مغادرة أوطانهم والذهاب إلى فلسطين تسيطر على خواطرهم. وفي حزيران 1918، التقى حاييم وايزمان، زعيم الحركة الصهيونيّة، الأمير فيصل بن الشريف حسين في لندن ووعدّه بأنّ الاستثمارات اليهوديّة في فلسطين ستكون مفيدة جداً "للعرب" وأنّ اليهود سيدعمون العرب في قضاياهم. لكن في اليوم نفسه، القى وايزمان هذا كلمة في لندن أمام جمهور إنكليزيّ قال فيها: «نريد أن نجعل فلسطين يهوديّة كما هي إنكلترا إنكليزيّة». ثم أخذ يردّد في كلّ مكان أنّ «لليهود حقاً شرعيّاً في امتلاك كلّ فلسطين»، حتى أصبح كلامه كأنّه مُنزّل في أذهان الرأي العام الإنكليزيّ والأوروبيّ عامة من دون مساءلة أو تفكير.

5. أكذوبة عدم أدّيّة الشعب الفلسطينيّ:

أنكرت الحركة الصهيونيّة وداعموها في أوروبا وجود شعب فلسطينيّ أصيل على الأرض، فقد بلغ ضغط اللوبي الصهيونيّ في إنكلترا أنّ قرار عصبة الأمم بعد الحرب العالميّة الأولى، الذي منح بريطانيا سلطة انتداب على فلسطين جاءت فيه كلمتا «يهود» و«صهيونيّة» 12 مرّة من دون الإشارة ولا مرّة واحدة إلى الشعب الفلسطينيّ الذي كان يشكّل عام 1920 أكثر من 93 في المئة من سكان فلسطين. وحتى في عام 1917 عندما كانت الخطة الصهيونيّة واضحة بأنّها تسعى بالضبط لاحتلال فلسطين وطرد شعبها، كانت حكومات أوروبا تتظاهر بالجهل وكأنّها لا تعلم أنّ ما يفعلونه لدعم الصهيونيّة ومنها إصدار وعد بلفور المشؤوم، سوف يجزّء المشرق العربيّ إلى مئة عام من الحروب والويلات وأنّ الجنتّة الزراعيّة الموعودة لليهود في فلسطين ستكون مغسولة بدماء الشعب الفلسطينيّ البريء. وفي 29 تشرين الثاني 1947 مرّرت الجمعية العامة للأمم المتّحدة مشروع تقسيم فلسطين، رغم تصويت دول آسيا وأفريقيا المستقلة ضد التقسيم، أي أنّ كيان "إسرائيل" فُرض بالقوة على عشرات الدول المجاورة وعلى شعب فلسطين الأصليّ الذي وجد نفسه خلال جيل واحد خارج أرضه لاجئاً حول العالم.

الانتداب البريطانيّ على فلسطين

أقلقت سياسة الانتداب البريطانيّ الشعب الفلسطينيّ وقيادته لأنّها كانت تتحرّك ضد مصالح الفلسطينيّين وتدعم الاستيطان اليهوديّ والمليشيات الصهيونيّة. فبريطانيا نكثت بوعدها منح الحكم الذاتيّ للفلسطينيّين كما نصّت قرارات عصبة الأمم، ورفضت الاستجابة لمطالبهم بوقف الهجرة اليهوديّة، ثم فتحت الباب ومنذ 1933 لهجرة يهوديّة واسعة من أوروبا، كما سمحت للمنظّمات الصهيونيّة بالتسلّح، في حين منعت ذلك عن

الفلسطينيين، ولذلك وصل الفلسطينيون إلى وضع لا يطاق في أواسط الثلاثينيات، وقد تبين أن بلادهم على وشك أن تضيع من أيديهم، فانطلقوا في ثورة ضد الاحتلال البريطاني¹²⁹ في نيسان 1936 استمرت إلى خريف 1939. وكان المطلب الأول هو تنفيذ البند الثاني من وثيقة عصبة الأمم حول الانتداب البريطاني، والقاضي بخلق حكومة وطنية فلسطينية وتقديم الدعم لقيام مؤسسات دولة فلسطين. وكان مطلب الثورة الثاني وقف الهجرة اليهودية وإبطال نشاط الانتداب في نقل ملكية الأراضي إلى المهاجرين اليهود.

مسّ الوضع الفلسطينيّ شعب المشرق في الصميم في فترة لم تكن فيها فكرة المواطنة السوريّة والعراقية واللبنانية مقتصرة على حدود الانتداب، بل كانت مشاعر أهل المشرق نحو فلسطين أنها جزء من الوطن يتعرّض لاغتصاب منظم على أيدي الإنكليز والحركة الصهيونية، وأنّ سعي أبناء فلسطين للحرية والاستقلال هو جزء من ثورة مشرقية عامة ضد الاستعمار الغربيّ.

ولذا، كان طبيعياً أن يتدفق آلاف المتطوعين من سورية ولبنان والعراق للمساهمة في الثورة الفلسطينية في الثلاثينيات وأن يتعاون سوريون وفلسطينيون ولبنانيون لتأسيس "لجنة الجهاد المركزيّة" في دمشق، لجمع المال والحاجيات والأسلحة والمواد التمويّية ودعم المناضلين ضد الاحتلال البريطانيّ والعصابات المسلّحة اليهودية وفتح مستوصفات تُعنى بالجرحى.

وخلقت الأجواء المتعاطفة مع الثورة الفلسطينية تحركاً بشرياً من سورية وشرق الأردن ولبنان لدعم صمود الداخل الفلسطينيّ رغم الحدود التي وضعتها السلطات الانتدابية الفرنسيّة والبريطانيّة. ما أحيأ ذاكرة الناس أنّ الحال الاجتماعيّة والبشريّة في بلاد الشام كانت واحدة قبل الاستعمار الغربيّ. ولكن سلطات الانتداب قلقت من زوال الحدود بين فلسطين وسورية ولبنان، فأنفقت السلطات البريطانيّة من موازنة فلسطين على بناء أسلاك شائكة بين فلسطين وسورية ولبنان، موظفة لهذه الغاية عمالاً يهوداً، وعملت على تعديل الحدود بين لبنان وفلسطين بسلخ مساحة ألف كلم مربع (هو إصبع الجليل ووادي الحولة) وضمّه إلى الانتداب البريطانيّ ليصبح في ما بعد جزءاً من دولة لليهود.

وإذ التقت القوى الاستقلاليّة في سورية ولبنان وشرق الأردن وفلسطين على مركزيّة القضية الفلسطينية، استفاد ملوك العراق والأردن ومصر والجزيرة العربيّة من موجة العروبة فركبها بدعم بريطانيّ. وكانت بريطانيا تشعر بأنها مدينة لليهود بموجب وعد بلفور، ومدينة لشريف مكة لوقوفه إلى جانب الإنكليز ضد الدولة العثمانيّة أثناء الحرب العالميّة الأولى. فلم تجد تعارضاً بين دعم الحركة الصهيونية في فلسطين من جهة وتعيين الأمير عبدالله بن الشريف حسين ملكاً على شرق الأردن من جهة أخرى، وكذلك تعويض الأمير فيصل بن الشريف حسين فقدانه عرش سورية بتعيينه ملكاً على العراق. كما دعمت بريطانيا مشاريع جماعيّة عربيّة كجامعة الدولة العربيّة، ولكن تحت إشرافها لتقف حاجزاً رجعيّاً أمام الحركات التقدميّة.

في تلك الفترة تأسست المملكة العربيّة السعوديّة عام 1932 بتوحيد نجد والحجاز ومناطق أخرى من الجزيرة العربيّة بعضها كان لليمن تحت لواء آل سعود، ما قلّص نفوذ بريطانيا وأنهى مملكة الحجاز الهاشميّة حتى

Philip S. Khoury, "Divided loyalties? Syria and the question of Palestine, 1919 -39", *Middle Eastern Studies*, vol. 21, no. 3, ¹²⁹

July 1985, pp. 324-48.

اقتصر حكم الهاشميين على شرق الأردن والعراق. ثم أصبح الأمير فاروق ملكاً على مصر. فالتقى الملوك في البلدان الأربعة - مصر والسعودية وشرق الأردن والعراق - ليس لمحاربة الاستعمار والنضال ضد الإنكليز وإنقاذ فلسطين كما كانت القوى الشعبوية في المشرق تأمل، بل للتنافس في ما بينهم والسيطرة على سورية وفلسطين. كما التقت أولويات هؤلاء الملوك على إخماد ثورة فلسطين خوفاً من امتدادها إلى ممالكهم وطلبوا من بريطانيا أن تقدّم بعض التنازلات للفلسطينيين ليصمتوا.

أحدثت سياسة هؤلاء الملوك الزائفة خرقاً في ديمومة الثورة المشتعلة في فلسطين. إذ ما إن قدّمت لندن مشروعاً لفلسطين باسم "الورقة البيضاء" حتى أوعز الملوك العرب لأتباعهم أن الغاية من الثورة تحققت، وبدأت الثورة تتلاشى في ما تحسّن موقع الملوك تجاه شعوبهم أنهم عملوا شيئاً لفلسطين، ولكن بريطانيا لم تُقرن القول بالفعل، فلم تقدّم عملياً أيّ تنازل يذكر، بل استغلّت لحظة ضعف الثورة الفلسطينية لقمعها وإزاحة القيادة الوطنية الفلسطينية كعامل مؤثّر في مجرى أحداث المنطقة.

وهكذا خرج الأمر من يد الفلسطينيين أنفسهم لتصبح قضية بلادهم منذ ذلك الحين رهن تجاذبات الأنظمة العربية والنيات البريطانية ثم الأميركية، وأخذ الملوك العرب الذين أبقوا على العلاقة الحميمة مع بريطانيا يدعون أنهم يحملون لواء النضال لإنقاذ فلسطين. ما أدى إلى إزالة الفلسطينيين كقوة على الأرض وفسح المجال للحركة الصهيونية للسيطرة على فلسطين:

- فأمريكا كانت تعمل على وراثة بريطانيا وخاصة في العراق ومصر، وعلى تعزيز مكانة المملكة العربية السعودية الموالية لواشنطن ونقل النفط السعودي عبر سورية إلى ضفاف البحر المتوسط.
 - والاتحاد السوفياتي دخل في حرب باردة مع الولايات المتحدة، وافتتح سفارة في دمشق حيث كان ينعم بشعبوية جراء دعم السوفيات لاستقلال سورية، في زمن كانت الأفكار الاشتراكية والنضال ضد الإمبريالية مزدهرة في البلدان العربية.
 - أما فرنسا فقد حاولت الإبقاء على نفوذها في المنطقة العربية، خاصة في شمال أفريقيا، رغم انسحابها العسكري من المشرق. الا أنّ مصلحتها تقطعت مع مصالح بريطانيا ولم تتعاطف مع الشعب الفلسطيني.
- ورغم التنافس الدولي على المنطقة العربية، فقد اتفقت القوى الغربية على أولوية مقاومة المدّ السوفياتي في المنطقة ما يقتضي دعم "إسرائيل" وزعزعة استقرار الدول العربية التي تجهر بمناهضة الغرب وتُصادق السوفيات، وضرب الدول العربية التي تسعى إلى وحدة بينها، ولبناء جبهة عربية ضد المدّ السوفياتي، دعمت بريطانيا والولايات المتحدة تحالفاً من العرب المواليين للغرب؛ وحتى في التنافس العربي - العربي، دعمت أميركا زعامة السعودية وبات تدخلها في مصر أكثر وضوحاً بعد 1952، ودعمت بريطانيا الأسرة الهاشمية في العراق والأردن.

ولادة الجامعة العربيّة

واصل الملوك والرؤساء العرب تنافسهم على الزعامة وبرز خاصة تنافس بين آل هاشم وآل سعود.

- إذ دفع ملك الأردن، عبدالله بن الحسين بمشروع "سوريا الكبرى" ليكون هو ملكاً عليه وتكون الجمهوريّة السوريّة جوهره التاج ويضم فلسطين ولبنان وشرق الأردن.
 - ودخل العراق الذي حكمه الملك فيصل بن الحسين، شقيق عبدالله، بمشروع منافس قدّمه رئيس الحكومة العراقيّة نوري السعيد وهو "مشروع الهلال الخصيب" بقيادة العراق ويضمّ "سوريا الكبرى" (أي بلاد الشام) والعراق.
 - وعارض الملك فاروق هذه المشاريع الهاشميّة ورأى أنّ زعامة العرب تقليدياً هي لمصر منذ أيام جدّه محمد علي باشا ولا بد أن تشمل الزعامة وادي النيل وبلاد الشام وأرض الحجاز.
 - فيما احتجّت السعوديّة على كلّ هذه الطروحات التي لا تتناسب مع زعامتها الطبيعيّة للعرب ومركزيّة المقدسات الإسلاميّة في مكة والمدينة لكل مسلمي العالم.
- وتدخلت لندن التي لم ترد أن يُضعف تنافس ملوك العرب دولهم لأنّها موالية لها. فدعمت مشروع جامعة الدول العربيّة الذي قدّمته مصر وتمثّلت فيه الدول العربيّة المستقلّة كافة دون أن تكون قرارات الجامعة ملزمة لأي دولة عضو حتى لا يصبح لهذه المنظمة شأن جدّي في توحيد الصف العربيّ، فتأسست هذه الجامعة في آذار 1945 وأصبحت أداة للسياسة المصريّة في المنطقة وللدول المحافظة الموالية للغرب، ودأبت مصر على استعمال نفوذها في الجامعة لمنع الهاشميين من ابتلاع سورية في مشاريعهم، وامتد هذا العرف المصريّ في فرض أمر واقع على المشرق حتى عندما منع الرئيس جمال عبدالناصر العراق من ضم الكويت عام 1961، وبدلاً من أن تكون فلسطين ملتقى العرب لعمل مشترك نحو التحرير والنهوض، أصبحت ساحة للصراع العربيّ - العربيّ، فكان هذا الصراع سبباً رئيساً في ضياعها.

قرار التقسيم

في آب 1946 أعلنت الوكالة اليهوديّة مشروعاً حول مستقبل فلسطين حيث يقتطع 75% من مساحتها لإقامة دولة يهوديّة دون الإشارة إلى دولة فلسطينيّة. وردّت الدول العربيّة مجتمعة في أيلول 1946 بمشروع يقضي بإقامة دولة فلسطينيّة على كامل تراب فلسطين وتمنح هذه الدولة الجنسيّة فقط لليهود المقيمين على أراضيها ويتمتعون بجميع حقوق المواطنة وتوقّف الهجرة الاستيطانيّة، ولكن الرئيس الأميركيّ هاري ترومان أيد المشروع الصهيونيّ دون أن يشير إلى أي مشروع عربيّ. أمّا بريطانيا فقد اتخذت موقفاً مجافياً للمصالح العربيّة بأن سحبت يدها من الموضوع وهي التي جهدت طيلة ربع قرن لتثبيت أقدام الاستيطان اليهوديّ في فلسطين.

ولم تشأ الدول العربية المرتهنة للغرب إغضاب الولايات المتحدة وبريطانيا، لأن ذلك يعكّر العلاقات مع هاتين الدولتين العظميين، فلم يدافع العرب عن مشروعهم. في حين ذهب الملك الأردنيّ عبدالله بن الحسين بعيداً في تأييده مشروعاً يقضي بتقسيم فلسطين بين اليهود والفلسطينيين، لأن ذلك سيسمح له (بالاتفاق مع الحركة الصهيونية) بضمّ أراضي فلسطين التي لا تشملها الدولة اليهودية¹³⁰. وهكذا فتح عقم العرب عن التحرك الدبلوماسيّ الطريق لتقسيم فلسطين أولاً ولضياعها في ما بعد.

في 27 تشرين الأول 1947، صوّت الجمعية العامة للأمم المتحدة، استجابة لضغط أميركيّ غير مسبوق وشبه يومي، إلى جانب مشروع قرار يقضي بتقسيم فلسطين دولتين، وأعطى القرار المستوطنين اليهود أكثر من 50 في المئة من مساحة فلسطين، رغم أنّهم لم يملكوا آنذاك أكثر من 7 في المئة من الأراضي وكان عددهم ضئيلاً نسبة إلى الفلسطينيين. وقد انتشرت دعاوى صهيونية كاذبة وكثيرة بأنّ "الفلسطينيين باعوا وطنهم لليهود". وهذا افتراء لا يروّجه الإعلام الغربيّ فقط بل بعض العرب العنصريين أيضاً وخاصة في لبنان زمن الحرب، فالجريمة التاريخية بحق فلسطين كانت أنّ اليهود عشية التقسيم عام 1947 لم يملكوا أكثر من 6 في المئة من مساحة فلسطين - وهذا مسجّل في أرشيفات الإدارة الانتدابية البريطانية - ونسبتهم لم تزد عن 33 في المئة من عدد السكان بعد هجرتهم الكثيفة من أوروبا والتي سهّلتها سلطة الانتداب. إلا أنّ خريطة التقسيم عام 1947 منحت اليهود 54 في المئة من كلّ فلسطين. أمّا الشعب الفلسطينيّ صاحب الأرض فلم تمنحه أكثر من 46 في المئة.

خرجت تظاهرات حاشدة في دول المشرق ومعظم الدول العربية الأخرى تعترض على قرار التقسيم. وعندما ظهرت مشاعر شعبية صادقة وعفوية تجاه فلسطين واحتمال ضياعها، أُجبرت جامعة الدول العربية على الدعوة للتطوُّع لنجدة فلسطين.

حرب فلسطين الأولى

في كانون الثاني 1948، بعد أسابيع من قرار التقسيم، كان المتطوِّعون السوريون أوّل من دخل فلسطين وعلى رأسهم أكرم الحورانيّ وصديقه أديب الشيشكليّ والبعثيّ وهيب الغانم وعبد السلام العجيليّ، ليشكّلوا مع متطوِّعين فلسطينيين نواة جيش تحرير صغير. ثم التحقت بهم في ما بعد مجموعات من لبنان والعراق. ومن جانبهم لم يرصّ اليهود عن قرار التقسيم الذي لم يحقّق كلّ مطالبهم في فلسطين وسمح لنصف مليون فلسطينيّ بالبقاء على الأرض التي ستصبح دولة "إسرائيل"، ولئن كانت نيات الحركة الصهيونية تريد قضم جزء أكبر بكثير من فلسطين من أراضي المشرق، فقد رفضت قرار التقسيم. وبدأت الحركة الصهيونية بابتلاع الأراضي الأميركية في فلسطين والأراضي التي امتلكها الفلسطينيون أيضاً ولم يسجّلوها لدى دوائر الانتداب بعد. وهاجمت التنظيمات اليهودية واحتلت بقوة السلاح - وبارتكاب المجازر - مدناً فلسطينية كبرى وأراضي شاسعة وطردت سكانها الفلسطينيين.

Avi Shlaim, *Lion of Jordan*, pp. 26-28.¹³⁰

منذ أول نيسان 1948 شنّ اليهود أعمال عصابات وتعديات على قرى ومدن الفلسطينيين دون اكتراث للحدود التي رسمها قرار التقسيم، وذلك بهدف طرد السكان والتطهير العرقيّ، سواء كانت تلك القرى والمدن ضمن الأراضي التي ستصبح دولة يهودية أو في الجزء الذي سيصبح دولة فلسطينية. وفي 9 نيسان، نفّذ اليهود مجزرة في قرية دير ياسين أدت إلى مصرع 250 فلسطينياً. وما إن انتشر الخبر حتى بدأ آلاف الفلسطينيين بالفرار من قراهم مخافة أن تطالهم المجازر، وخلال أسابيع قليلة وصل إلى سورية 85 ألف لاجئ وإلى لبنان 104 آلاف لاجئ بحالة مزرية وظروف مأسوية، ما أثار الهيجان الشعبيّ العام في أكثر من بلد عربيّ، وعزّى الحكومات العربية التي أُجبرت على التحرك السريع. ولذلك، اتخذت جامعة الدول العربية قراراً بالإجماع بإرسال جيوش عربية إلى فلسطين.

كان لواء سوري من 1876 جندياً، أوّل الداخلين إلى فلسطين، فاشتبك على الفور مع التنظيمات الصهيونية. ورغم انعدام خبرته ونقص تسلّحه وعتاده وشخّ الرصاص، فقد فاق اللواء السوريّ في إقدامه وقتاله الجيوش العربية الأخرى التي دخلت فلسطين، ولكن ميزان القوّة لم يكن في مصلحة العرب. ففيما كان عدد جنود كلّ الجيوش العربية التي دخلت فلسطين لا يزيد عن 15 ألفاً استطاع اليهود حشد 70 ألف جنديّ، وكان اللواء السوريّ هو الوحيد الذي اخترق التحصينات اليهودية واحتلّ مساحة امتدّت من بركة الحولة إلى بحيرة طبرية.

كما دخل الجيش اللبنانيّ منطقة الجليل المخصّصة للدولة الفلسطينية واشتبك مع اليهود واحتلّ بضع قرى حدودية، أمّا الجيش الأردنيّ الذي يديره ضباط إنكليز فقد أصدر الملك عبدالله أوامر صريحة بعدم دخول الأراضي التي خصّصت لقيام دولة يهودية. وأصدر العراق الأوامر نفسها إلى جيشه لأنّه كان أيضاً تحت النفوذ البريطانيّ، فبقيت القوات العراقية في جوار القدس دون حراك مهم. أمّا الجيش المصريّ فقد دخل فلسطين من أماكن عدّة أبرزها الطريق الساحليّ في المنطقة الفلسطينية من غزّة باتجاه تل أبيب وعبر بئر السبع في المنطقة الفلسطينية نحو القدس.

كانت القوات اليهودية أكثر تنظيماً ودقّة وتسلّحاً وأكبر عدداً من العرب، فكانت معظم أعمالها العسكرية هجومية. إذ من أصل 13 هجوماً كبيراً شنته الميليشيات اليهودية، كانت ثمانية منها هي هجمات ضد المدن الفلسطينية داخل الأراضي المخصّصة لدولة فلسطينية. أمّا ما حُكي عن انتصارات عربية، فاقصر ذلك على دخول العرب مناطق مخصّصة للفلسطينيين على أي حال، وحيث لا وجود عسكرياً لليهود.

وعندما أعلن اليهود دولتهم في 15 أيار 1948، احتدم القتال ثم توقّف في 11 حزيران لمُدّة شهر، فاستغلّت "إسرائيل" الهدوء النسبيّ لجلب المزيد من السلاح من أوروبا، وأقام اليهود جسراً جويّاً مع تشكوسلوفاكيا (رغم أنّها كانت دولة شيوعية في فلك السوفيات)، في حين تدفّق آلاف المتطوعين اليهود من أوروبا وأمريكا الشمالية، ما أعطى الجانب الإسرائيليّ تفوقاً حاسماً في المعارك التي استؤنفت في 8 تموز 1948. إذ إنّ القوات اليهودية تابعت حملة طرد الفلسطينيين من مدنها وقراهم، فكان هؤلاء يهربون إلى مناطق تحتلّها الجيوش العربية، ما أربك هذه الجيوش التي وجدت صعوبة في مواصلة القتال ضد الإسرائيليين وعلى يدها كارثة بشرية تتطلب معالجة تدفّق النازحين فوراً.

في تلك الأثناء علمت مصر أنَّ عبدالله ملك الأردن يريد أن ينشر جيشه في الأراضي التي اعتبرها القرار الدولي ضمن دولة فلسطينية بهدف ضمها إلى مملكته، وكان عبدالله قد حصل على موافقة اليهود بعد سلسلة لقاءات مع مبعوثيهم ومن هؤلاء غولدا مئير، فأغضب تصرف الأردن مصر التي قلّصت أعمالها الحربية ثم لجأت إلى المنطق نفسه بضم الأراضي الفلسطينية التي دخلها جيشها جنوب فلسطين. وكانت القيادة الصهيونية تعلم أن ملوك العرب لن يسعوا إلى بناء دولة فلسطينية بل هم يتنافسون على افتراس أراضي الدولة الفلسطينية العتيدة. فشارك اليهود أيضاً في التهام ما أمكن من أراضي المنطقة المخصصة لدولة فلسطينية، وبتاتوا لا يحترمون الهدنات المتتالية وضربوا عرض الحائط عدداً من قرارات مجلس الأمن خلال العام 1948، حتى باتت المساحة الأكبر من فلسطين تحت سيطرتهم¹³¹.

حول الحرب العربية الإسرائيلية الأولى التي بات اسمها "النكبة" في تاريخ فلسطين، دأبت الدعاوى الصهيونية على نشر أكاذيب أن «الجيش العربية» هاجمت "إسرائيل" الوليدة في 15 أيار 1948 للقضاء عليها، فصدّق الإعلام الغربي هذا الأذعاء، وحتى اليوم لا يحدد أي مقال أو تعليق أو كتاب يظهر في دول الغرب عن هذه الأكذوبة، ولكن الحقيقة أن الحركة الصهيونية كانت تملك جيشاً منظماً ومسلياً وإدارة عامة وحكومة أمر واقع تنتظر خروج الإنكليز. وقد أعلن قائد الجيش البريطاني في فلسطين الجنرال دارسي عام 1946 أن اليهود باتوا من القوة بحيث سيحتلون كل فلسطين خلال 24 ساعة إذا انسحبت بريطانيا. والحقيقة أيضاً أن الجيش الصهيوني غزا المناطق الفلسطينية ضارباً بعرض الحائط قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة، وذلك قبل أربعة أشهر من دخول الجيوش العربية. ونكتفي هنا بمذكرات الإرهابي مناحيم بيغن (الذي أصبح رئيس حكومة "إسرائيل" عام 1977) حيث يقول:

«قبل أشهر من الحرب، قمنا بغارات متتالية على المناطق العربية عام 1947 وكنا نقول لضباطنا إن أي غارات نقوم بها لا تكفي للسيطرة على الأراضي، ولذلك وفي اجتماع قيادة الإرعون في كانون الثاني 1948، وضعنا أهدافنا الاستراتيجية: القدس - يافا - قطاع اللد الرملة - ومنطقة المثلث نابلس جنين طولكرم، ما يعني كل الأراضي الصالحة للزراعة والسكن من فلسطين».

وكان الإنكليز قد شككوا عام 1947 بمقدرة التنظيمات الصهيونية على ضبط الوضع إذا حاول اليهود ابتلاع أراضي ومدن كبرى تسكنها أغلبية فلسطينية، فطمأنهم قائد عسكري "إسرائيلي": «لا تقلقوا! سنقوم ببعض المجازر المحسوبة بدقّة ونتخلص منهم قريباً». وكان هذا الكلام قبل خمسة أشهر من دخول الجيوش العربية. وعلى سبيل المثال قامت منظمة «الهاغانا» (جيش "إسرائيل" الرسمي في ما بعد) بهجوم على القدس في مطلع نيسان 1948، واحتلت حي القطمون العريق، وذلك قبل شهرين من دخول أي قوة عربية. يعني أن أي قوة عربية لم تدخل فلسطين قبل 19 أيار 1948، ولكن بعد فوات الأوان وبعد مرور أربعة أشهر على بدء الغزو الصهيوني، فقد دخلت قوة أردنية للدفاع عن القدس الشرقية ودخلت قوة عراقية للدفاع عن

¹³¹ George Tomeh, *United Nations Resolutions on Palestine and the Arab - Israeli Conflict 1947 - 1974*, Beirut, Institute for

Palestine Studies, 1975.

المثلث وأوقفت الصهاينة في جنين. ولكن لم يحدث قط أن هاجمت قوّة عربيّة مناطق محسوبة للكيان اليهودي في قرار التقسيم الأمميّ.

من أكاذيب الصهيونيّة حول حرب فلسطين التي لاقت رواجاً وقبولاً في الغرب أنّ «اليهود كانوا عام 1948 مثل داوود الفقير والضعيف يواجهه جوليات الفلسطينيين العملاق والجبار»، وأنّ "مليون إسرائيليّ في فلسطين هزموا مئة مليون عربيّ" - وهذا كلام مهزلة يجعل مجموع سكان العالم العربيّ من المغرب إلى البحرين من أطفال ونساء وكهول يتكون بيوتهم وبلدانهم ويزحفون إلى فلسطين. وفي الحقيقة أنّ اليهود امتلكوا حكومة جاهزة وأجهزة أمن وشرطة وجيشاً مسلحاً ومدرباً وعملوا ضمن خطة، وأنّ عديد جيشهم عام 1948 كان 70 ألفاً (الهاغانا 55 ألف جنديّ، البالماخ 3500 جنديّ، الإرعون 4000 جنديّ، ومجموعات مختلفة 7500 جنديّ). كما أنّ الصهاينة حضّوا مستوطناتهم وأنشأوا خطوطاً عسكريّة داخل فلسطين ولغمّوا الطرق الرئيسيّة وأقاموا حواجز ودشم بلوكات إسمنتية وأكياس الرمل.

وبالمقابل كان عديد الجيوش العربيّة أقل من 20 ألفاً (مصر 10 آلاف جنديّ والأردن 4500 جنديّ والعراق 3000 جنديّ وسورية 2000 جنديّ)، أي أنّ القوات الإسرائيليّة كانت أربعة أضعاف تقريباً حجم القوات العربيّة التي جاءت من مسافات تبعد مئات الكيلومترات ودخلت فلسطين بشكل عشوائيّ ومن دون أيّ تقنيّات حديثة أو تنسيق. وكذلك فإنّ أيّ مواجهات عسكريّة وقعت، كانت على أراضٍ منحها قرار الأمم المتّحدة للكيان الفلسطينيّ وهاجمتها المنظمات الصهيونيّة لاحتلالها. فكانت الجيوش العربيّة قليلة العدد والتجهيز وتدافع عن مدن فلسطينيّة ولم تهاجم أيّ منطقة ضمن المساحة التي صنّفها القرار الأمميّ للدولة اليهوديّة. أما الشعب الفلسطينيّ فكان أعزل السلاح، اعتمد على أسلحة فردية ولم تكن لديه حكومة ولا أيّ جهاز دولة.

كما دأبت الدعاوى الصهيونيّة على نشر الأكاذيب أنّ الفلسطينيين تركوا بلادهم من تلقاء أنفسهم وعام 1948 كرّرت وسائل الإعلام الغربيّة هذا الكلام، والحقيقة أنّ عصابات «الإرعون» هاجمت قرية دير ياسين غرب القدس بقرار من الهاغانا في نيسان 1948، وارتكبت مجزرة أفنت سكانها من أطفال ونساء وشيوخ (250 شهيداً) رغم أنّ دير ياسين اشتهرت كنموذج لحسن الجوار مع جيرانها المستوطنين اليهود. وبعد أسبوع هاجمت الهاغانا أحياء مدينة حيفا فأخذ الفلسطينيون يفرّون بالآلاف ويصرخون «دير ياسين.. دير ياسين». وفي 25 نيسان 1948، أي قبل شهر من دخول الجيوش العربيّة، هاجمت الإرعون مدينة يافا الفلسطينيّة والمحسوبة ضمن الكيان الفلسطينيّ بحسب التقسيم، وطردت سكانها ولم يُسمح لهم بالعودة، واحتلّ الصهاينة الجليل المجاور للبنان والذي كان بدون دفاع، ودخلت الهاغانا مدينتي اللد والرملة وأمرت السكان بالتجمّع خارج بيوتهم خلال نصف ساعة ثم أمرتهم بالمغادرة فوراً على الأقدام، وصادرت أملاكهم وكل وسائل النقل.

وعندما انتهت الحرب العربيّة - الإسرائيليّة الأولى، كانت «إسرائيل» قد احتلت أكثر من نصف الكيان الفلسطينيّ الذي لم يُسمح له أن يولد، أي 25 في المئة من مساحة فلسطين، وضمت ما نهبتة إلى مساحة

الـ54 في المئة التي منحها إياها قرار التقسيم. فأصبحت "إسرائيل" تستولي على 79 في المئة من أراضي فلسطين عام 1949. وبقي 21 في المئة من فلسطين خارج الاحتلال الإسرائيلي وتشرد 700 ألف فلسطيني خارج ديارهم. ولم تكتفِ "إسرائيل" بما ابتلعت بل شنت الحرب تلو الحرب فاحتلت الضفة وغزة عام 1967 وشنتت الفلسطينيين من جديد حتى أصبحت كامل فلسطين تحت سيطرتها. ومنذ 1993 وطيلة 20 سنة من المفاوضات، فاوضت القيادة الفلسطينية "إسرائيل" لإقامة دولة فلسطينية وإنهاء الصراع، فلم تتنازل "إسرائيل" مطلقاً حتى عن 10 في المئة من فلسطين، بل كثفت استيطان الضفة التي نما عدد المستوطنين اليهود فيها من 50 ألفاً عام 1993، إلى 600 ألف عام 2012. ولم تغب عن ذهن الصهاينة أفكار تهويد كل فلسطين وطرد من صمد من الفلسطينيين من وطنهم أو على الأقل سجن الشعب الفلسطيني في مجمعات سكنية لا مخرج منها سوى الهجرة القسرية.

لعقود عدّة كانت فلسطين تحتلّ الصدارة شعبياً ورسمياً في العراق وسورية ولبنان والأردن. وكان الصراع مع "إسرائيل" يتخذ وجهاً مصرياً لأنه على الأرض نفسها، في حين كان بعيداً عن الهموم اليومية للناس في شمال أفريقيا باستثناء مصر التي كانت منذ 1948 ولغاية 1973 في قلب الصراع العربي الإسرائيلي، أما دول الخليج فقد تراوح موقفها بين دعم دول المواجهة والمنظمات الفلسطينية مالياً أو حال الخصام مع سورية والعراق والابتعاد عن نصره فلسطين.

لقد كانت فلسطين قضية مركزية في عقيدة البعث في سورية والعراق. كما أنّ فلسطين كانت تتواصل مع بلاد الشام اجتماعياً واقتصادياً وحضارياً بدون عائق لمئات السنين وخاصة مع لبنان المجاور لفلسطين، حيث يمكن وصف العلاقة بين الكيانين بأنها وحدة حال تاريخياً. أمّا الأردن فهي كانت أساساً جزءاً من فلسطين الانتدابية ومعظم سكانها بات فلسطينياً. ومع ذلك، كانت الجمهورية السورية أكثر التصاقاً بفلسطين من الكيانات الأخرى واحتضن الشعب السوريّ مسألة فلسطين منذ أيام الانتداب الفرنسي، واستقبلت سورية 100 ألف لاجئ فلسطيني عام 1948، اعتبروا مواطنين سوريين يتمتعون بكامل حقوق المواطنة - حق العمل في الإدارات الرسمية والمراكز الحكومية وحق الالتحاق ببنقابات العمال السورية ودخول المدارس والجامعات طلاباً وأساتذة، وكذلك في القوات المسلحة السورية وفي ميليشيات حزب البعث.

عقيدة "إسرائيل" الكبرى

كانت فلسطين في وجدان الناس في بلدان المشرق وسائر العرب قضية شعب شقيق أخرجته من أرضه جماعة جاءت من أوروبا تحمل عقيدة صهيونية عنصرية. وكانت دولة "إسرائيل" التي نشأت على أرض فلسطين تحمل عقيدة توسعية شريفة تطمح إلى جعل فلسطين قاعدة تنطلق منها لبناء "إسرائيل" الكبرى من الفرات إلى النيل.

لقد حملت المنظمة الصهيونية التي جسدت طموحات أتباعها من يهود أوروبا ومن يناصرها من شخصيات سياسية في بريطانيا وفرنسا ودول أوروبية أخرى، خريطة إلى مؤتمر الصلح في باريس في 3 شباط 1919 تبين حدود دولتها المزمعة من نقطة جنوب صيدا في لبنان شاملة كل فلسطين وأجزاء من الأردن وجنوب سورية بما فيها نهري اليرموك وبنياس، وحوضي نهر الليطاني في لبنان ونهر الأردن، مع تأكيد أن "جبل الشيخ هو مصدر المياه الحقيقي لفلسطين".

وفي 16 شباط 1920 بعث لويس برانديس ممثل اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة ومؤسس جامعة برانديس رسالة إلى حاييم وايزمن يؤكد فيها أن تطوير اقتصاد الدولة اليهودية في فلسطين متوقف على ضم مصادر نهر الليطاني وجبل الشيخ على أن يشمل ذلك سهل الجولان وسهول حوران. واستمر هذا المنطق عقداً بعد عقد مع كل رئيس حكومة إسرائيلي، وصولاً إلى بنيامين نتنياهو، إعادة تأكيد أن الجولان هو أرض يهودية قبل أن يكون سورياً. فـ "إسرائيل" لم تعلن حدوداً جغرافية بل كانت مهمتها الأولى جمع كل يهود العالم على رقعة تتمدد لتصبح حدودها نهر الفرات شمالاً إلى شرق القاهرة جنوباً. و"إسرائيل" ومنذ نشوئها عام 1948، خاضت حروباً ضد سورية والأردن ولبنان ومصر واحتلت أراضي تلك الدول ثم أخذت تستوطنها. ولم يخف زعماء "إسرائيل" حتى بعد عشرين عاماً من حرب 1948، نياتهم إنشاء "إسرائيل الكبرى، فكانت طموحاتهم تكبر بعد كل انتصار على العرب لتصبح قريبة من شعار "دولتك يا "إسرائيل" من الفرات إلى النيل". وكانت "إسرائيل" كلما احتلت أرضاً عربية جديدة تقوم ببناء المستوطنات وتحصنها وكأنها أرضها. وانطبق هذا عام 1967 على الجولان السوري وشبه جزيرة سيناء المصرية والضفة الغربية التي سماها الإسرائيليون "اليهودية والسامرة"، وكذلك على قطاع غزة.

ولقد أوضح المحامي الإسرائيلي شاحك، أن الحركة الصهيونية تعتبر أن أرض "إسرائيل" الجغرافية تمتد من الفرات إلى النيل لتشمل فلسطين والأردن وسيناء وصولاً إلى أراضي مصرية تطل على النيل شرق القاهرة، وتمتد شمالاً لتشمل لبنان وسورية وجزءاً من العراق على نهر الفرات، وأن دولة "إسرائيل" تخطط منذ 1950 لاحتلال ما تبقى من فلسطين وأجزاء من الأردن وسورية ولبنان وقسم من شمال السعودية وتسعى إلى تجزئة الدول العربية إلى كيانات طائفية وعرقية متناحرة تسهل السيطرة عليها.

وكشف شاحك عن مذكرة كتبها ديفيد بن غوريون أول رئيس وزراء لـ "إسرائيل" جاء فيها أن حدود دولة "إسرائيل" يجب أن تضم كامل فلسطين ومحافظة حوران في سورية ومحافظة الكرك في الأردن وجزءاً من محافظة دمشق ومنطقة القنيطرة، إضافة إلى مساحة من لبنان تبدأ في عنجر في وسط البقاع وتنتهي في حاصبيا، شاملة كامل مجرى نهر الليطاني. فأكد بن غوريون في مذكرته ما جاء في مذكرة المنظمة الصهيونية عام 1919¹³².

وليس ثمّة لغز لاستمرار الحروب بين العرب و"إسرائيل" وعدم تجاوب الأخيرة مع الحقوق الفلسطينية، ذلك أن ضمانة الغرب، وخاصة الولايات المتحدة، لتفوق "إسرائيل" العسكري الدائم على الدول العربية مجتمعة،

¹³² Israel Shahak, *Jewish History, Jewish Religion, The Weight of Three Thousand Years*, London, Pluto Press, 1994.

وَلَد قناعة لدى "إسرائيل" أنها منيعة لا تُهزم وستكسب كل حروبها وستتوسّع باستمرار، وبدا هذا الفارق الكبير في القوّة جلياً بعد سلسلة هزائم لحقت بالعرب في 1948 و1956 و1967. فلم يكن أمام الدول العربيّة لتغطية فشلها سوى التهديد اللفظي لـ "إسرائيل".

وإذ تبين للشعب الفلسطينيّ بعد عقدين من التشرّد أنّ الدول العربيّة لا يُعوّل عليها في مهمة التحرير، وُلدت حركة مقاومة فلسطينيّة عام 1965 في وقت كانت تعمل فيه "إسرائيل" على تحويل مجرى نهر الأردن بدون أي رادع عربيّ، ولا حتى من مصر عبدالناصر، وفيما قلقت الدول العربيّة، وخاصة تلك المتضرّرة مباشرة من تحويل النهر كسورية والأردن ولبنان، طالبت بعمل عربيّ مشترك لمواجهة التوسّع المتواصل لـ "إسرائيل".

من إمارة إلى مملكة

خضع الأردن للانتداب البريطانيّ بقائد جيش إنكليزيّ هو غلوب باشا ثم منحته لندن استقلاله النسبيّ بموجب مذكرة موقّعة في 22 آذار 1946 إسوة باستقلال لبنان وسورية عن فرنسا والذي دفع نحوه الإنكليز. وبموجب هذه المذكرة أيضاً جرت ترقية الأردن من إمارة إلى مملكة وأصبح يُعرّف باسم مملكة شرق الأردن الهاشميّة وأصبح الأمير عبدالله يحمل اسم الملك عبدالله الأول. وفي 25 أيار 1946 أعلن الملك عبدالله استقلال الأردن بجيش عديده 8000 جنديّ يرأسه الجنرال الإنكليزيّ جون غلوب باشا. ولذلك صدر دستور جديد مكان دستور 1928. وفي 15 أيار 1948 شارك الأردن في حرب فلسطين ودخل جيشه الضفة الغربيّة التي جعلها قرار الأمم المتّحدة جزءاً من كيان فلسطينيّ يلد في ما بعد. وبعد إعلان الهدنة، وقد سيطر الأردن على الضفة الغربيّة بما فيها القدس الشرقيّة، بطل استعمال تعبير "شرق الأردن". وبعد توقيع اتفاقية هدنة مع "إسرائيل" في 23 نيسان 1949 حول الخطوط التي ترابط بها الجيشان، ما سمح للأردن ضم أراضي الضفة، فأصبح الاسم الجديد في 26 نيسان "المملكة الأردنيّة الهاشميّة". ووسّع الملك مجلس الوزراء فضمّ 3 وزراء من الضفة، ونشر الإدارة الرسميّة والسلطة الأردنيّة على قرى ومدن الضفة الغربيّة كافة، ثم جرت انتخابات تشريعيّة واحدة يحصل بموجبها سكان الضفة على عدد مساوٍ من النواب الذي يحصل عليه سكان شرق الأردن. وكانت خطوة البرلمان التصويت على الوحدة، هكذا اكتمل توحيد جانبي النهر تحت سلطة واحدة في 24 نيسان 1950.¹³³

في حرب حزيران 1967، خسر الأردن الضفة الغربيّة بالكامل والتي كانت تشكّل نصف سكان المملكة. وفي الثمانينيّات حاول ملك الأردن ترتيب الأوضاع مع منظمة التحرير الفلسطينيّة لقيام "مملكة متحدة" تضم ضفتي النهر، ففشل. ولذلك في العام 1988، أعلن الأردن تنازله عن السيادة على الضفة الغربيّة ضمناً لتصبح جزءاً من دولة فلسطينيّة مستقبلية، وفي العام 1994 وقّع الملك حسين مع اسحاق رابين رئيس حكومة "إسرائيل" على اتفاق وادي عربة في جنوب الأردن ممهداً لسلام أردنيّ - إسرائيليّ.

. 14 Philip Hitti, Charles Issawi, *Jordan Country Study Survey*, p. 133

7. الصراع الدوليّ على سورية |

تبين أن بريطانيا التي ضغطت على فرنسا لمنح سورية ولبنان استقلالهما كانت أشدّ خطراً من فرنسا على المشرق لأنها زرعت الأسرة الهاشمية في العراق والأردن. فقد خلقت إمارة شرق الأردن منفصلة عن فلسطين، لمراضاة الأمير عبدالله الإبن الثاني للشريف حسين وعملت بدون كلل لتنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين، كما أن لبنان بدأ غربي الهوى بين النفوذيين البريطاني والفرنسي ويتجه نحو الابتعاد عن سورية. ولذلك كان توجه سورية الوطني والقومي بعد نيل سورية استقلالها عام 1946، سبب عزلتها مع جوارها الطبيعي الذي أخذ معدادتها وسرعان ما طوّقتها الأطماع.

الخطر الأردني

تعامل الملك عبدالله في الأردن مع سورية بالعقلية نفسها التي تعامل بها مع فلسطين. فهو ضمّ نصف فلسطين ومدنها إلى مملكته لتُشبع مشروعه "سورية الكبرى"، ثم استمرّ في سياسته التوسعية بتنافس مع أسرة شقيقه في العراق، ما أثار مخاوف السوريين وزاد من حذرهم وعدائهم للمملكة الأردنية. فبالنسبة لهم، سورية هي الوطن الأم والأردن هو بقعة من جنوب سورية قليلة السكان وقد أصبحت دولة برعاية وتمويل وإدارة جيش بريطانيا وتحصيل حاصل من مخطط الصهيونية لمستقبل فلسطين.

غذى الملك الأردني سياسيين سوريين بالمال ودعم زعماء أقليّات عرقية ودينية من دروز وبدو وأكراد وعلويين. وزاد من تعقيد الوضع أن مناطق تلك الأقليّات كانت متاخمة لحدود سورية مع جيرانها: الدروز والبدو على حدود الأردن والأكراد والبدو على حدود العراق، والعلويون والأكراد على حدود تركيا، في وقت كانت الدول الثلاث - الأردن والعراق وتركيا - تطمع بضم سورية. وإذ سلك الهاشميون في الأردن والعراق سياسة واحدة ومتعادية تجاه سورية، وقّعوا مجموعة تحالفات عامي 1946 و1947. فشعرت سورية بضيق الخناق عليها. وكانت الحكومة السوريّة تقف عاجزة عن مقاومة الحركات الانفصاليّة التي كان يغذيها الأردن والعراق، فما بالك في تحمّل مسؤوليّة التعامل مع قضيتي سلخ الاسكندرون ونكبة فلسطين والعلاقات المتدهورة مع لبنان التي كانت تتجه نحو طلاق نهائيّ.

ثم أن الحكومة السوريّة لم تكن في وضع أخلاقيّ سليم لمواجهة التحديّات الانفصاليّة، بل غلبت الغرضية على سياساتها. فقد كان هم الطبقة الحاكمة التي نالت الاستقلال باسم سورية أن تتسلم الامتيازات والمناصب الرسميّة التي احتلها الفرنسيون سابقاً. كما طغت المظاهر الماديّة والرجسيّة على تصرفات الطبقة الحاكمة، كالاستقبالات والتوديعات والسيارات الفخمة والقصور والمنازل الضخمة. وأصبح فساد رئيس الجمهوريّة شكري القوتلي رمزاً لتلك الفترة، شُبّه عهده بأنه استمرار للزمن التركي، وكأنّه وال لا يعطي أي اعتبار لأي كان ولا يهيمه أي محاسبة على تصرفاته مهما كانت شائنة.

صعود العسكريتاريا

لم يكن ثمة جيش وطني في سورية عشية جلاء الفرنسيين، باستثناء بضع مئات من العسكرين من "قوات الشرق" كانوا موضع شك حول ولائهم الوطني لتعاونهم مع الفرنسيين. وخفف من هذه الشكوك وقوف هؤلاء إلى صف الوطنيين في مواجهة الاحتلال الفرنسي في أيامه الأخيرة. وعندما جلا الفرنسيون عن سورية، قرّرت الحكومة فتح الكلية العسكرية في حمص لجميع أبناء سورية دون تمييز عائلي أو مذهبي أو مناطقي أو طبقي وبدون رسوم تسجيل، وجذبت الكلية أبناء الأقليات الفقراء الذين وجدوا في الجيش ملاذاً لبناء مستقبل في غياب إمكانيات تمويل دراسة جامعية أو الالتحاق بالمهن المحترمة أو المباشرة بمشروع تجاري لغياب التمويل. حتى الأحزاب العقائدية استثمرت في الجيش فشجعت الشبان من أعضائها على الالتحاق بالخدمة العسكرية والعمل على ترقيات كي يصبحوا ضباطاً يتكلمون عليهم في العمل السياسي في ما بعد.

وعندما دعت الحكومة السورية الشباب للتطوع في صفوف الجيش لبي النداء أبناء الأرياف في المحافظات المختلفة، من دروز وعلويين واسماعيليين وبدو وأكراد وأرمن، وليس أبناء المدن الذين كانت تتوفّر أمامهم فرص العمل والعلم والتجارة والمهن الحرة خاصة في الأوساط السنّية¹³⁴. وهكذا عكست عناصر الجيش منذ الاستقلال صورة جديدة لبلاد كانت لا تزال مجموعة مناطق جغرافية لكلّ منها عاداتها وتقاليدها وطوائفها. وحتى فرض الخدمة العسكرية الإجبارية عام 1950، لم يجذب أبناء المدن من السنّة الذين كانوا يخدمون المدة الإجبارية ثمّ يعودون إلى الحياة المدنية وأعمال التجارة والمهن، فيما بقي زملاؤهم الريفيين وأبناء الأقليات في الجيش كمهنة عسكرية مدى الحياة. وكانت هذه غلطة تاريخية ارتكبتها العائلات السنّية المدنية والتجارية وعائلات الملاكين السنة في الأرياف، لأنّ تعاليهم عن الخدمة في الجيش واحتقارهم للمهنة العسكرية جعلاً أعداءهم الطبقيين أصحاب نفوذ وسلطة في القوات المسلّحة، استعملوها في ما بعد لتسلّم مقاليد الحكم في سورية¹³⁵. إذ خلال فترة قصيرة بعد الاستقلال شكّلت الأقليات المذهبية والعرقية نواة كبيرة في جيش سورية، كما أنّ انتشار العقائد والتيارات السياسية في هذه الفترة المبكرة جعل من الجيش السوري الحاضن الأساسي لتفريخ الثورات والانقلابات المسلّحة.

لقد تعرّضت سورية لعشرين انقلاباً ومحاولة انقلابية¹³⁶ من 1949 إلى 1970. ففي العام 1949 كان الوضع في سورية على فوهة بركان، حيث ارتفع منسوب التجاذب الداخلي بين العسكر والسياسيين وتبادل الاتهامات حول المسؤولية عن كارثة فلسطين والفساد وسرقة الأموال العامة، في وقت كانت الفوضى تعمّ الشارع. فقد أصابت هزيمة فلسطين الناس بالصميم، وساد مزيج من الغضب والشعور بالذلل في المشرق. وظهرت فضيحة في سورية أنّ مسؤولين حكوميين وسياسيين اختلسوا أموالاً مخصّصة لدعم صمود الفلسطينيين، ما أطلق السخط الشعبي على أداء الحكومة، ومطالب بمواصلة القتال ضد الصهاينة.

Alasadair Drysdale, "The Syrian armed forces in national politics: the role of the geographic and ethnic periphery", in ¹³⁴ *Soldiers, Peasants and Bureaucrats*, ed. Roman Kolkowicz & Andrzej Korbonski, London, Allen and Unwin, 1982, pp. 52 - 76.

Patrick Seale, *ASAD*, p. 39.¹³⁵

George Haddad, *Revolutions and military rule in the Middle East: the Arab States*, New York, Robert Speller, 1971, pages ¹³⁶

181 - 290, 291 - 388.

وكانت سورية ومنذ 1947 تشعر بوطأة الحرب الباردة بين الجبارين الجديدين - الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. وبدأت واشنطن الاتصال بزعماء الدول الذين كان معظمهم يتبع الإنكليز: الملك فاروق في مصر ونوري السعيد في العراق وشكري القوتلي في سورية وبشارة الخوري في لبنان، وبدأت أميركا في سورية لأنها تقع على حدود تركيا ولأن وضعها الداخلي كان أكثر هشاشة من مصر والعراق. فجرت اجتماعات عدة بين الأميركيين والرئيس القوتلي ومعاونه حيث استنتج الأميركيون أن الوضع في دمشق يتراوح بين ثورة دموية يسلمها السوفيات أو انقلاب عسكري ضد القوتلي.

انقلاب حسني الزعيم

في 29 تشرين الثاني 1948، الذكرى الأولى لقرار الأمم المتحدة تقسيم فلسطين، تحوّل إضراب طلابي في سورية إلى انتفاضة فأجبرت الحكومة على تقديم استقالتها. ولكن الانتفاضة تواصلت لأسابيع ما أجبر الجيش على التدخل لقمعها. وبعد تدخل الجيش في الشارع، شكّل الزعيم الدمشقي خالد العظم حكومة سعت إلى التهدئة. ولكن الحكومة كانت عاجزة عن معالجة القضايا المطروحة بدءاً من تداعيات حرب فلسطين إلى غليان الشارع. فكانت الظروف مؤاتية لحركة عسكرية، حيث وقع انقلاب قام به رئيس أركان الجيش حسني الزعيم في 29 آذار 1949.

عزل حسني الزعيم الرئيس القوتلي ونفاه من البلاد ثم حلّ البرلمان وأعلن حكماً عسكرياً عكّر تجربة سورية الفتية في الحياة الديمقراطية¹³⁷. ودعمت الولايات المتحدة الأميركية هذا الانقلاب¹³⁸، فقد كانت الحكومة السورية السابقة قد رفضت توقيع اتفاقية الهدنة مع "إسرائيل" ثم ترددت في توقيع اتفاقية خطوط التابلاين لصالح شركة أرامكو السعودية الأميركية. فجاء حسني الزعيم ووقع الاتفاقيتين. وشاركت شخصيات عسكرية وسياسية حسني الزعيم في تنفيذ الانقلاب منها العقيد أديب الشيشكلي وضباط موالون لأكرم الحوراني، شرط أن يلتزم تحقيق إصلاحات اجتماعية و"محاربة الصهيونية حتى النهاية". ولكن حسني الزعيم كان قد وعد الأميركيين أنه "سيقوم بحركة إيجابية تجاه" إسرائيل "إذا نجح الانقلاب"¹³⁹. وهكذا رغم وعده لزعماء سورية، سرعان ما تخلّى عن مطلب سورية في أن يمرّ خط وقف إطلاق النار مع "إسرائيل" وسط بحيرة طبرية ونهر الأردن. والأغرب أنه وافق على انسحاب الجيش السوري من الأراضي التي سيطر عليها في فلسطين. فخرج نص اتفاق الهدنة السورية - الإسرائيلية في تموز 1949 مخزياً يلزم سورية أن تكون هذه الأراضي منزوعة السلاح (ما سهل لـ"إسرائيل" أن تبتلعها تدريجياً في ما بعد). كما سعى حسني الزعيم إلى لقاء رئيس حكومة "إسرائيل" دايفيد بن غوريون بغية التوصل إلى اتفاق للسلام الا أنّ بن غوريون رفض لقاءه¹⁴⁰.

Alford Carleton, "The Syrian Coup d'état of 1949", *Middle East Journal*, vol. 4, no. 1, January 1950, pp. 1 - 11.¹³⁷

Copeland, Miles, *Game of Nations*, London, 1969, pp. 37-44.¹³⁸

Copeland Miles, *Game of Nations*, p. 42.¹³⁹

Avi Shlaim, *Lion of Jordan*, p. 48.¹⁴⁰

لم تُدخل خطوات حسني الزعيم نحو "إسرائيل" بذور الشك في نفوس أنصار الانقلاب. وحتى الأحزاب العقائدية مستهتا النشوة، حيث اعتبر حزب البعث انقلاب الزعيم بأنه ولادة "عصر جديد" في سورية كما سعى ميشال عفلق ليكون مستشاراً لحسني الزعيم¹⁴¹. وللاحتفاظ بدعم هؤلاء، قام حسني الزعيم ببعض الإصلاحات فمنح المرأة حق المشاركة في الحياة السياسية تصويماً وترشيحاً، وألغى التمثيل الطائفي من الدستور ووضع قانوناً مدنياً عصرياً كما هو معمول به في مصر وحد من صلاحيات المحاكم الشرعية ورجال الدين في مسائل الزواج والطلاق والإرث وحضانة الأطفال. وأزال عقبة في وجه الإصلاح الزراعي بإلغاء الوقف العائلي الإقطاعي وقدم مشروعاً لتحديد الملكيات الكبرى وتوزيع الأراضي الأميرية على من لا يملك أرضاً من الفلاحين وأسس لجنة للنظر في مسألة توزيع الأراضي¹⁴².

ولكن شهر العسل الذي رافق انقلاب حسني الزعيم انتهى سريعاً. وسرعان ما ظهر وجه حسني الزعيم الحقيقي في ولائه وأميركا وتقريبه من تركيا و"إسرائيل" ما أغضب الرأي العام. إذ بعدما وقّع الزعيم على اتفاقية تسمح بإكمال خط أنابيب النفط التابع لشركة آرامكو، أعلن دعمه لمشروع عسكري أميركي يضم عدداً من دول الشرق الأوسط. وظهر الزعيم كعدو لدود للشيوعية وبادر إلى حل الحزب الشيوعي السوري. وعندما لم ير أي رد فعل على قمعه للشيوعيين، استسهل الأمر وحل أحزاباً أخرى، ووضع قيوداً على النشاط السياسي المعارض وقمّع الصحف.

صدمة الحزب القومي في سورية ولبنان

في تلك الأثناء كان الوضع متشججاً في لبنان لعوامل عدّة أهمها الانقسام حول التجديد لرئيس الجمهورية بشارة الخوري، وحرب فلسطين الخاسرة والأزمة الناشئة بين الحزب السوري القومي والسلطة. إذ بعد فشل الجيوش العربية ومنها جيش لبنان في منع قيام دولة "إسرائيل" عام 1948، انشغل الرئيس اللبناني بشارة الخوري في التجديد لولايته، ولكن بثمن باهظ وترّ أوضاع لبنان لأعوام عدّة. وبدأت في الفترة نفسها أزمة دموية بين الحزب القومي والسلطة اللبنانية خرجت إلى العلن في ربيع 1949.

وكان مؤسس الحزب القومي أنطون سعادة قد عاد من الاغتراب في أميركا اللاتينية عام 1947 وأخذ يقارع الدولة وفسادها في الصحف والمهرجانات الشعبية. فرأى بشارة الخوري ورئيس الحكومة رياض الصلح وآخرون في تحدي سعادة وحزبه تهديداً للكيان اللبناني وتركيبته الطائفية التقليدية، حيث كان سعادة يدعو إلى نظام علماني وتغيير جذري في السياسة والمجتمع. فوقعت مواجهات متقطعة بين أعضاء الحزب وقوى الأمن خلال العامين 1947 و1948 ثم تفاقمت في 1949.

¹⁴¹ رأى كثيرون أنّ عفلق فضل دائماً أن يلعب دور الاستاذ الجامعي وأن يكون مرشداً عقلياً للزعما لأنه لم يحمل بذور شخصية قيادية ولا كريمة. وهو دور سعى إليه مع عبدالناصر أيضاً في دولة الوحدة.

¹⁴² S. Yin'am, "Crisis in Syria", *Middle Eastern Affairs*, vol. 1, no. 11, November 1950, pp. 311 - 315.

ففي 10 حزيران 1949 اعتدت عناصر من حزب الكتائب على مكاتب جريدة الجيل الجديد التي يصدرها الحزب القومي في حي الجميزة في بيروت وأحرقوها واعتدوا على العاملين فيها. فتدخلت السلطة وطاردت أعضاء الحزب القومي وقيادته بتهمة "التآمر على النظام العام"، وصدر قرار بسحب رخصة الحزب واعتقال أعضائه وقيادته. فلجأ سعادته مع عائلته إلى دمشق في 12 حزيران طالباً المساعدة من حسني الزعيم¹⁴³، الذي رحّب به وتظاهر بصداقته، كيف لا وسعادته قائد حزب شعاره وحدة سورية الطبيعية؟ وكان حسني الزعيم يريد أن يعلن نفسه رئيساً على سورية يعاونه مستشاره محسن البرازي، وهو كردي مثله وإقطاعي كبير من حماة وعلى علاقة قري برياض الصلح عبر مصاهرتهم لآل الجابري. فكان البرازي ينقل معلومات إلى الصلح عن تحركات القوميين وزعيمهم في سورية.

مهّدت هذه الاتصالات إلى مصالحة بين حسني الزعيم والخوري والصلح في شتورة في 24 حزيران. فدعمت حكومة لبنان مسعى حسني الزعيم لرئاسة سورية (قال الخوري والصلح لحسني الزعيم: "أنت لست من الخامة التي يريدونها أنطون سعادته فهو سيذبحك ويأخذ مكانك"). واستطاع حسني الزعيم عبر استفتاء شعبيّ مُفبرك يسمح أن يصل إلى هذا المنصب في 25 حزيران وعيّن محسن البرازي رئيساً للحكومة ما أفرغ مسعاه الإصلاحية من المضمون. فابتعد عنه أكرم الحوراني والقوى الداعية للإصلاح في سورية. كما اتضح أن حسني الزعيم يفضل العناصر الكردية والشركسية في الجيش، في وقت كانت الحياة السياسية البرلمانية والحزبية في سورية تتدهور بمفعول انقلابه. وكان على حسني الزعيم أن يسدّد للحكومة اللبنانية ثمن دعمها. فغيّر أسلوب تعامله مع أنطون سعادته الذي كان حزبه منتشرًا في سورية، ما ضاعف النفور الشعبيّ من حسني الزعيم. وعندما أصبح حسني الزعيم رئيساً في 26 حزيران، طلب أنطون سعادته من مكتبه موعداً لتهنئته، فلم يُستجب للطلب. ولم يشكّ سعادته بالأمر وظنّ أنه يتعلّق بجدول مواعيد حسني الزعيم. وعلى هذا الأساس فضّل أن يبقى في دمشق ويتابع الوضع في لبنان دون أن يعلم أنّ حياته الشخصية باتت في خطر.

وفي أول تمّوز 1949 أعلن سعادته "الثورة القومية الاجتماعية" في لبنان ودعا إلى عصيان مدني، ما أدى إلى اشتباكات مسلحة بين عناصر الحزب وقوى الأمن في مختلف المناطق اللبنانية. ولم يدرك سعادته تماماً خلفية حسني الزعيم وصلاته بالأميركيين واتصالاته بـ"إسرائيل" وتقربّه من حكومة لبنان. كما لم يدرك ظروف الحكم في سورية في ذلك الوقت. إذ إنّ حسني الزعيم قد وعده خيراً لدى لجوئه إلى دمشق وأهداه مسدسه الشخصيّ عربون الصداقة، فخلد سعادته إلى الاطمئنان.

وفي مطلع تمّوز كانت الحكومة اللبنانية تنتظر من دمشق تسليم سعادته. وعندها ضرب حسني الزعيم ضربته فحدّد له موعداً للقاءه ولكنه غدر به لدى وصوله إذ أمر باعتقاله وتسليمه للبنان في 6 تمّوز. وأحضر سعادته مخفوراً إلى بيروت وأعدم بعد محاكمة صورية سريعة في الثامن من تمّوز بعد 24 ساعة من تسلّمه بتهمة السعي لقلب النظام اللبناني. كما أعدم أيضاً ستة من أعضاء حزبه.

¹⁴³ حول قضية الحزب القومي في عهد حسني الزعيم راجع كتاب المؤلف أمراء الحرب وتجار الهيكل، الفصل السادس.

تصرفُ حسني الزعيم تجاه سعادته الذي وثق به، اعتبره الرأي العام السوريّ خيانة غير أخلاقية تكشف مرواغة وخداعاً، ما أشعل الغضب الشعبيّ. إذ تلت إعدام سعادته تدايعات كثيرة في المشرق: ففي سورية، حيث نسبة كبيرة من العسكريين والضباط هم أعضاء في الحزب القومي، وقع انقلاب ضد حسني الزعيم بعد 36 يوماً من إعدام سعادته.

- في سورية قام عسكريون مقرّبون من هذا الحزب في 14 آب 1949 بقتل حسني الزعيم في منزله كما قتلوا رئيس وزرائه محسن البرازي. وظهر سامي الحناوي قائداً للانقلاب مدعوماً من العقيد أديب الشيشكليّ العضو في الحزب القوميّ. وانتخب البرلمان السوريّ هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية وتسلّم العسكر السلطة. ولكن بعد أربعة شهور (كانون الأول 1949) قام الشيشكليّ بانقلاب ضد الحناوي وأعوانه ثم دبر اغتيال الحناوي الذي لجأ إلى لبنان.
- في لبنان، واصل أعضاء الحزب القوميّ الثأر، فحاولوا اغتيال رياض الصلح في 9 آذار 1950، ثم قاموا بمحاولة ثانية في 17 تموز 1951 أدت إلى مقتله أثناء زيارته إلى عمان في الأردن.
- في الأردن، بعد ثلاثة أيام من اغتيال الصلح، اغتيل الملك عبدالله بن الحسين في القدس وكان معه حفيده الأمير حسين الذي نجا بأعجوبة. فأخذ مكان عبدالله ابنه طلال في 20 تموز 1951 وحكم لمدة عام.
- وفي سورية في تشرين الثاني 1951، وقع انقلاب رابع في سورية قاده الشيشكليّ واعتقل رجال الدولة الرئيسيين، فاستقال الأتاسي. وخلق الشيشكليّ نظاماً عسكرياً مباشراً بتحالف مع الحزب القومي، وحقق استقراراً سياسياً سمح بإصلاحات أساسية وأصدر 257 قانوناً لتطوير البلاد. ثم دبر انتخابات نيابية سمحت بفوز أعوانه ومن ثم بانتخابه رئيساً للجمهورية عام 1953.

انقلاب سامي الحناوي

جاء مقتل أنطون سعادته شرارة لعناصر قومية سورية في الجيش السوريّ وضباط دروز كانوا قد دعموا حسني الزعيم في انقلابه، للتخطيط للقيام بانقلاب لإزاحته من السلطة. وجاء الغيث لهؤلاء من بغداد. إذ إن حسني الزعيم الذي بدأ بالتودّد للعراق الهاشمي، تحوّل، بعد نصح أميركي، إلى تمّتين علاقة سورية بالسعودية ومصر الملكية. ولم يلاقِ هذا التحوّل قبولا في بغداد، فرتّب العراق انقلاباً ضد الزعيم. ووقع هذا الانقلاب في 14 آب 1949 بقيادة العقيد سامي الحناوي، وكان عمله الأول هو إعدام حسني الزعيم. وسمّى الحناوي هاشم الأتاسي رئيساً للحكومة وعادت الحياة المدنية إلى سورية ومُنع الجيش من التداخل في شؤون السياسة وسمح لكافة الأحزاب بالعودة إلى العمل - باستثناء الحزب الشيوعي. واستمرت موجة التفاؤل بإعلان انتخابات نيابية جديدة وإزالة كافة العراقيل أمام مشاركة المرأة وحُفّض سنّ الاقتراع إلى 18 سنة. وأسفرت الانتخابات التي جرت في 15 تشرين الثاني عن حصول حزب الشعب على أغلبية المقاعد في البرلمان، وحصل الحزب القوميّ وحزب البعث والأخوان المسلمون على مقاعد. كما انتخب البرلمان هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية وعملت لجان البرلمان على وضع مسودة دستور جديد.

في تلك الفترة، طغى ملف علاقات سورية والعراق على أي ملف آخر. إذ إنَّ الحناوي أعاد سورية إلى المظلة الهاشمية وبحث خطوات وحدوية بين سورية والعراق. ولكن الجيش السوري عارض الوحدة وبدأ نقاش بين كبار الضباط للقيام بانقلاب. وقدم بعض الضباط مذكرة إلى أكرم الحوراني عن نيتهم قلب النظام وحل البرلمان الذي كان يقترب من التصويت لصالح الوحدة. فلم يوافقهم الحوراني.

انقلاب الشيشكلي الأول

بعدها اكتملت خطوات الوحدة بين سورية والعراق وتقرر توقيع معاهدة في كانون الأول 1949، وقع انقلاب ثالث بقيادة العقيد أديب الشيشكلي، صديق الحوراني، أعاد سورية إلى المحور السعودي - المصري. وفي بلاغ الانقلاب، قال الشيشكلي إنَّه يقوم بحركة تصحيحية لمنع الحناوي من إلحاق سورية بالعراق، وإنَّه لن يتعرض للحياة الدستورية في البلاد. ولكن سورية وقعت بين مطرقة المحور الهاشمي (العراق والأردن) وسندان المحور السعودي - المصري، فأخذ المحوران يضخان المال لجهات سياسية في سورية وتدفقت ملايين الريالات والدنانير على الصحف السورية ورجال السياسة ما زاد في البلبلة وانتشار الفساد.

حافظ الشيشكلي على وعده بعدم التدخل في الحياة الدستورية وامتنع الجيش السوري عن التدخل في السياسة الا لماماً. ولكن الصراعات لم تتوقف بين الحكومة والبرلمان وبين أنصار الإصلاح الزراعي وتوزيع الأراضي من جهة والإقطاع من جهة أخرى، وبين الأحزاب السياسية المتنوعة، في وقت كانت الضغوط تزداد على سورية للانخراط في أحلاف عسكرية غربية.

في تلك الأثناء تداول البرلمان السوري مسودة دستور عصري والذي أعلن عام 1950 وخلا من عبارة "الإسلام هو دين الدولة" لأنَّ سورية هي وطن متعدّد الديانات وبطاقات الهوية للمواطنين لم تعد تذكر المذهب أو الدين¹⁴⁴. وباتت سورية تتمتع بنظام ديمقراطي معتدل واقتصاد حرّ كل هذا كان مؤشراً حسناً لمستقبل واعد في سورية¹⁴⁵.

ثورة الفلاحين

بلغ عدد سكان سورية عام 1951م. 3.5 ملايين نسمة. ولكن اقتصادها كان زراعياً بامتياز حيث شكّل الفلاحون نسبة 58 في المئة من السكان يعيشون في 5500 قرية بحياة أقل ما يقال فيها إنَّها بدائية حيث كانت معظم المنازل من الطين وبعض الأحجار وبدون خدمات ماء وكهرباء وصرف صحي ولا طرق معبّدة أو نصف معبّدة. وكحال القرى في بضع مناطق من دول المشرق، فإنَّ هذه الظروف المزرية أدّت إلى تدهور

J. Anderson, "The Syrian law of personal status", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, vol. 17, no. 1, 1955, ¹⁴⁴ pp. 34 - 49.

"President Shishekli and the shaping of Syrian policy", *The World Today*, vol. 9, no. 12, December 1953, pp. 521 - 529.¹⁴⁵

الصحة العامة وانتشار أمراض الفقر كالمalaria والسل والكوليرا والإسهال وغيرها. وهذا الوضع الصحي كان يؤدي إلى نسبة وفيات مرتفعة ما دفع الفلاحين إلى الإكثار من الإنجاب. ولم يكن هذا الوضع غائباً عن ذهن الحكومة السورية، إذ إن تقارير رسمية أظهرت أن نسبة 36 في المئة من الفتيان كانت أطفالاً من الفئة العمرية دون الخمس سنوات. وخارج حلب ودمشق، كانت الكهرباء معدومة تقريباً، فلم يتمتع بالطاقة الكهربائية أكثر من ربع سكان سورية. واقتصرت الملاحة البحرية على مرفأ واحد هو اللاذقية، والنقل البري على ثلاثة خطوط سكة قصيرة، يعود إنشاؤها إلى أيام العثمانيين¹⁴⁶.

ورغم مركزية الزراعة وأهميتها فإن الحكومات السورية المتعاقبة منذ أيام الانتداب وحتى 1950 لم تجعل الريف وقضية الفلاحين من أولوياتها، بل استمرّ عيش هؤلاء تحت رحمة الإقطاعي وبطشه. حتى أن العالم الاجتماعي جاك ويلرس توقع في الأربعينيات "أن مشكلة الفلاحين ستضغط عاماً بعد عام، وكيفية حلها ستقرر شكل وهيكلية الدولة ومستقبل المشرق وحضارته التي تريد أن تنهض"¹⁴⁷.

قبل الاستقلال، كانت محافظة حماة قلعة الإقطاع وعاصمة الاستبداد. ومع التطورات المتسارعة بعد 1949 نشأ وعي في صفوف الفلاحين حول حقوقهم. فاندلعت حركة اعتراضية فلاحية بلغت ذروتها عامي 1950 - 1951 في أنحاء البلاد، حيث رفض الفلاحون خدمة رجال الإقطاع وتوقفوا عن تسديد أي مبالغ كان الإقطاعيون يفرضونها على المواسم. وبلغ تحرك الفلاحين الذروة في مؤتمر شعبي في حلب دعا إليه الحزب العربي الاشتراكي - الذي تزعمه أكرم الحوراني - في أيلول 1951 حضره آلاف المندوبين. وخارج حماة وخاصة في جبال العلويين، وجد كثيرون في الحوراني وندائه ضد نير الإقطاع فرصة للتخلص من جور العائلات الكبرى. وتواصلت ثورة الفلاحين وأقيمت مهرجانات خطابية هدّدت بالقضاء على الإقطاعيين وقطع دابرهم. وعمد الثوار إلى حرق أراضي زراعية تخص الإقطاعيين وإطلاق الرصاص على منازلهم وقطع الطرق والتجمّع في ساحات القرى.

هذه الثورة على الإقطاع هدّدت نفوذ واستقرار العائلات الكبرى في حماة وحمص واللاذقية. فالتقت عائلات إقطاعية في مدينتي اللاذقية وجبلة مع أعيان الجبال العلوية في حلف انتخابي لمواجهة الحوراني. ولكن كان القطار قد فات هؤلاء. إذ إن الرأي العام رأى حزب الحوراني يساعد الشباب في التعلّم والحصول على عمل ودخول الكلية العسكرية في حمص، في حين لم يُقدّم الإقطاع شيئاً يرفع من شأن الفلاحين. فكانت الناس تنتخب مرشحي الحوراني. وعلى سبيل المقارنة، فيما فاز الحوراني بمفرده في انتخابات 1949 وفاز مرشحو الإقطاع بستة مقاعد في محافظة حماة، في العام 1954 فاز الحوراني بستة مقاعد ولم يبق للإقطاع سوى مقعد واحد.

Patrick Seale, ASAD, p. 44.¹⁴⁶

Jacques Weulersse, *Paysans de Syrie et du Proche Orient*, Paris, 1946, p. 314, in Seale, ASAD, 44.¹⁴⁷

انقلاب الشيشكليّ الثاني

في تلك الأثناء استمرّ الصراع بين الشيشكليّ وحزب الشعب الذي امتلك أغلبية برلمانية والذي واصل نشاطه لتحقيق الوحدة مع العراق. ولكن الوضع تغيّر مع نجاح الحورانيّ وحزبه في تأليب الفلاحين ضد الإقطاع، ما ألقى حزب الشعب والقوى اليمينية. فانتقد المحافظون الشيشكليّ بأنّه متضامن مع الحورانيّ والفلاحين وأنّه لم يستخدم قوى الدرك في مواجهة الفلاحين.

في خريف 1951، أدّى الضغط الأميركيّ على سورية كي تلتحق بحلف عسكريّ أميركيّ في المنطقة إلى نزاع داخل مجلس الوزراء ثم إلى أزمة حكوميّة. وإذ عمل معروف الدواليبيّ زعيم حزب الشعب على تأليف حكومة جديدة، تجاهل طلبات الشيشكليّ حول تركيبة مجلس الوزراء، فشعر الشيشكليّ أنّ نفوذه قد ضعف، ما دفعه إلى تنفيذ انقلاب آخر في 19 تشرين الثاني 1951. وقام بإبعاد الرئيس الأتاسي وعدد من السياسيين عن مراكزهم، كما حلّ البرلمان، وخصّ الشيشكليّ العقيد فوزي السلو¹⁴⁸، وهو كرديّ ومستشاره الخاص بكافة الصلاحيّات التشريعيّة والتنفيذيّة في سورية، ليصبح السلو "رأس الدولة". فبقي الشيشكليّ صاحب النفوذ الحقيقيّ، ثم ألحق هذه الإجراءات بخطوات أكثر راديكاليّة، بدءاً بحظر الأحزاب السياسيّة. ولم يستثن منها حليفه، حزب البعث والحزب العربيّ الاشتراكيّ. ثم قمع الصحف ومنع الطلاب والمعلمين والعمال وموظفي القطاع العام من النشاط السياسيّ وألغى مجلس القضاء الأعلى وفرض أجواء بوليسيّة على البلاد كتحت الأنفاس وأطبقت على الحريّات.

مقابل هذه الإجراءات الدكتاتوريّة، استطاع الشيشكليّ تنفيذ سلسلة إصلاحات احتاجت إلى قرارات فوق العادة. وعلى سبيل المثال، أراد الشيشكليّ بناء سورية موحدة داخليّاً وقويّة خارجيّاً تتخلّص من النفوذ الأجنبيّ وتلغي الطائفية والتمييز العرقيّ والطائفيّ والقبليّ. فألغى امتيازات شيوخ القبائل حتى يصبح أبناء القبائل مواطنين في دولة عصريّة وليس رعايا يتحكّم بمصائرهم شيخ القبيلة. وأطلق إجراءات لدمج الأقليات كالأرمن والأكراد والدروز وغيرهم في المجتمع السوريّ. ولتطوير التربية والتعليم، أجبرت المدارس الخاصة والإرساليات على اتباع حدّ أدنى من منهجيّة تعليميّة وطنيّة، والالتزام بمقاييس صحيّة وعصريّة في نوعية الأبنية والتجهيزات، وفرضت امتحانات رسميّة عند كلّ مرحلة دراسيّة.

ولكن بإلغائه الحياة البرلمانيّة وقمعه الصحافة وإهماله قضية العمال والفلاحين، كسب الشيشكليّ عداوة صديقه القديم أكرم الحورانيّ. فتحالف الحورانيّ مع حزب البعث لإشعال حملة ضده وطالب بعودة الحياة البرلمانيّة والحريات السياسيّة. وردّ الشيشكليّ في كانون الأول 1952 بحملة اعتقالات طالت الحورانيّ وعفلق والبيطار وأعضاء من الحزب العربيّ الاشتراكيّ والحزب الشيوعيّ وحزب البعث وبعض ضباط الجيش، فهرب الحورانيّ وعفلق والبيطار إلى لبنان وختل الساحة السوريّة من أي مؤشّر ديمقراطيّ.

¹⁴⁸ ولد فوزي السلو في 1905 وتوفّي في 1972، وعاش سيرة عسكرية وسياسية. درس في الكلية الحربية في حمص والتحق بالقوات الخاصة الفرنسية Troupe Speciales والتي أنشئت عندما فرضت فرنسا انتدابها على سورية تموز 1920.

ثم رغب الشيشكلي في منح نظامه شرعيةً دستوريةً صوريةً. فعرض مشروع دستور جديد للاستفتاء الشعبي في 10 تموز 1953، وفي نفس اليوم "انتُخب" رئيساً للجمهورية بتصويت مباشر من الشعب بدلاً من فوزي السلو. وجعل دستور الشيشكلي نظام سورية رئاسياً، وأُعلن عن انتخابات نيابية في 9 تشرين الأول. فُرع الحظر عن الأحزاب - باستثناء الحزب الشيوعي. ولكن الأحزاب قاطعت ولم يشارك سوى حزب الشيشكلي "حركة التحرر العربي"، وحزبين هما حزب التعاون الاشتراكي والحزب السوري القومي. ففاز الشيشكلي بـ72 مقعداً من أصل 82، وفاز السوري القومي بمقعد واحد وذهبت المقاعد المتبقية إلى مستقلين.

لم تضيّع الأحزاب التي قاطعت الانتخابات الوقت. فقد كانت قد باشرت حتى قبل استفتاء تموز وانتخاب الشيشكلي رئيساً، بتجميع صفوفها وتوجيه نداء وقّعت مئة شخصية سورية لإنهاء نظام الحكم الفردي وعودة الحريات. كما أنّ ممثلي أحزاب رئيسية في سورية وشخصيات وطنية التقوا في مؤتمر وطني في حمص واتفقوا على تحالف ضد الشيشكلي. وأمام هذا التحالف غير المسبوق، تراجع الشيشكلي وأعلن العفو عن السجناء السياسيين وسمح بعودة الحوراني وعفلق والبيطار وغضّ النظر عن نشاطات الأحزاب المعارضة. واستطاعت المعارضة اكتساب دعم ضباط الجيش وحصل بعض السياسيين ومنهم صبري العسلي، على دعم مالي من الحكومة العراقية لتمويل انقلاب ضد الشيشكلي.

ضمن هذه الاصطفافات السياسية في العام 1953، حصل تطوّر سيظهر أثره العميق في حياة سورية في العقود التالية وهو اندماج حزب البعث والحزب العربي الاشتراكي في حزب واحد.

حزب البعث

بعد جلاء الجيش الفرنسي عام 1946 منحت الحكومة السورية عفلق والبيطار رخصة تأسيس حزب. فالتقى أنصار عفلق والبيطار والأرسوزي لوضع نص دستور للحزب. ثم انعقد مؤتمر تأسيس في 5 - 7 نيسان 1947، حضره شبان من سورية ولبنان والأردن في دمشق. فأقرّ دستوره وانتخبت هيئة تنفيذية رباعية ضمّت عفلق "عميداً" للحزب وصلاح البيطار أميناً عاماً ووهيب الغانم وجلال السيد عضوين. وافتتح الأخيران فرعين للحزب الأول في عيادة الغانم الطبية في اللاذقية والثاني في دير الزور¹⁴⁹. وأُعلن حزب البعث رسمياً كحزب قومي عربي يعتبر البلدان العربية أقطاراً لأمة واحدة وعزم الحزب على تأسيس فروع في الدول العربية والعمل على الوحدة العربية¹⁵⁰.

ويبنت شعبية الحزب وسرعة انتشاره في سورية أنّ أفكاره ومبادئه كانت أكثر اقتراباً من الحسّ الشعبي خاصة في مناطق الأقيال. إذ خلال عامين من التأسيس لم يصبح حزب البعث المنافس الرئيسي للحزبين العريقيين - الشيوعي والسوري القومي - فحسب، بل بزّهما في انتشاره وفي عدد المنتسبين إليه وفي عدد

¹⁴⁹ محمد دندشلي، حزب البعث العربي الاشتراكي 1940 - 1963: مساهمة في نقد الحركة السياسية في الوطن العربي، صيدا لبنان، 1979.

Olivier Carré, « Le mouvement idéologique Ba'athiste », in *La Syrie d'aujourd'hui*, André Raymond, Paris, Éditions du CNRS, ¹⁵⁰ 1980, pp. 184 - 216.

الفروع. وتمكّن حزب البعث في دمشق وحلب من مواجهة احتكار الأخوان المسلمين للشارع. وإسوة بعقيدة أنطون سعاده القومية السورية، اعتبر حزب البعث الأمة العربية بأنها تعود "إلى ما قبل التاريخ الجلي" موجودة منذ أقدم الأزمنة. ولكن عفلق افترق عن سعاده بإضافة مسحة روحانية لتعريف الأمة على أنها ليست جماعة ذات بعد تاريخي اقتصادي اجتماعي في بقعة جغرافية ذا شخصية مادية - روحية مشتركة كما يقول سعاده¹⁵¹، بل الأمة هي حقيقة روحية عليا تتخطى العوامل المادية الاقتصادية والاجتماعية وتتخذ مواهبها أشكالاً مختلفة من ديانات وثقافات وفلسفات وحضارة، وأن دين الإسلام هو إحدى مساهمات الأمة العربية التي كانت موجودة بقيمتها ولغتها وحضارتها وأعطت الإسلام للبشرية¹⁵². ومنذ ذلك الحين أخذ البعث ينغمس في السياسة السورية ويعمل للوصول إلى السلطة.

الانقلاب ضد الشيشكليّ

في 25 شباط 1954، بدأ عصيان عسكريّ في حلب قاده مصطفى حمدون، العضو في حزب الحورانيّ، فانضمّ إلى العصيان رئيس أركان الجيش شوكت شقير ودعمته كُنكات الجيش. فغادر الشيشكليّ سورية لاجئاً إلى لبنان بعدما حصل على ضمانات بعدم التعرّض له بسوء¹⁵³. وحمل الانقلاب هذه المرة نكهة شعبية، إذ جاء بعد انتفاضة شعبية تلقّفها الجيش، ولم يقتصر على تحرك نخبة ضباط كما في الانقلابات السابقة. وكان الشعار الذي التقى عليه الجميع هو: "لا دكتاتورية بعد اليوم".

ولكن العودة إلى الكُنكات لم تحجب حقيقة أنّ الجيش بات ميسّساً. فبقي جناح يميني كبير برز فيه تكتمل ضباط موالين للعراق وقد قويت شوكتهم بعد عودة الذين أبعدهم الشيشكليّ، ومنهم ضباط قوميوّن سوريّون سمحوا بوضع شارة الزوبعة على أكتاف الجنود داخل الكُنكات.

رفض حزب البعث بعد استعادة دستور 1950 وإزالة دستور الشيشكليّ، المشاركة في الحكومة الائتلافية التي تلت الانقلاب والتي ضمّت أحزاباً يمينية أبرزها حزب الشعب والحزب الوطنيّ. ذلك لأنّ الحكومة والبرلمان في ذلك الوقت لم يعكسا حجم القوى السياسيّة في الساحة. متكلّماً هذه المرة باسم البعث، حذّر الحورانيّ البرلمان من المماطلة في تحقيق الإصلاح الاجتماعيّ وإلا اضطر حزبه لتحريك العمال والفلاحين. ولكن أولوية الفئات المحافظة في البرلمان والحكومة كانت ردّ الجميل للعراق لدعمه العمل الانقلابيّ ضد الشيشكليّ. فتحدث رئيس الوزراء صبري العسلي أنّ سورية ستتنضم إلى حلف بغداد العسكريّ. ما أثار غضب البعثيين وحلفائهم الذين وقفوا في وجه العسلي وأجبروه أن يتعهد بالألّ يلزم سورية بعضويّة أي حلف أجنبيّ قبل انتخابات عامة تُظهر حقيقة توزيع القوى. وهكذا تمّ تحديد موعد الانتخابات النيابيّة في أيلول 1954.

¹⁵¹ أنظر كتاب نشوء الأمم لأنطون سعاده.

¹⁵² Tarif Khalidi, "A critical study of the political ideas of Michel Aflak", Middle East Forum, vol. 42, no. 2, 1966, pp. 55 - 68.

¹⁵³ "Syrian counter-coups", Middle East Journal, vol. 8, no. 2, spring 1954, pp. 184 - 186.

أمل الرأي العام في أن تُحدث الانتخابات تغييرات حقيقية في البلاد، إلا أن الأحزاب والشخصيات التي التقت على مواجهة الشيشكلي وإسقاطه كانت خلافاتها جوهرية. ثم أن عودة الرئيس السابق شكري القوتلي من مصر كانت حدثاً محدثاً بذاته، لأن القوتلي ارتبط في أذهان الناس بمرحلة سابقة أكثر فساداً ورجعية. ولكن البعض استقبله استقبال الأبطال. فساهمت عودته في تعزيز الانقسام السياسي في سورية، خاصة بعد إعلانه الترشح للرئاسة عام 1955.

ورغم أن نسبة المشاركة الشعبية في الانتخابات بلغت 40 في المئة، إلا أنها كانت أنزه انتخابات برلمانية عرفتها سورية حتى ذلك العام. وأثبتت نتائجها أن موازين القوى قد تغيرت في سورية، حيث أسفرت الانتخابات عن تراجع الحزب الوطني وحزب الشعب في حين برزت أحزاب يسارية وتقدمية. فحصل البعث 16 مقعداً بفضل لوائح الحوراني، كما فاز وهيب الغانم في اللاذقية وصلاح البيطار في دمشق ضد مرشحي الحزب السوري القومي، وفاز حزب الشيشكلي بقيادة الكزبري بـ10 مقاعد والحزب القومي بمقعد. ولكن المفاجأة الكبرى التي أحدثت تغييراً سياسياً في سورية كانت فوز لائحة خالد العظم بـ38 مقعداً، لتصبح أكبر كتلة في البرلمان الجديد. وكاد الحزب الشيوعي يحصد 5 مقاعد لولا تدخل السلطة، فنجح بمقعد واحد رغم حصوله على نسبة الأصوات نفسها التي حصل عليها البعث على مستوى البلاد، وأصبح خالد بكداش الشيوعي الثاني الذي يدخل البرلمان في المشرق أو أي بلد عربي بعد الشيوعي عبد القادر إسماعيل عام 1937 في العراق.

التجربة الناجحة في تطبيق الديمقراطية وضعت سورية في طريق صحي وكان لها أثر كبير في الدول العربية الأخرى. كما أن إجماع الناخبين السوريين على رفض الأحلاف الغربية والتدخلات العسكرية الأجنبية ووجود الكيان الإسرائيلي منح البرلمان شرعية كبيرة وأخرج الدول العربية الأخرى - وخاصة مصر والعراق. فأدى صعود برلمان شديد الوطنية إلى وضع سورية تحت مجهر الغرب، وأصبحت التجربة السورية عام 1954 درساً للغرب وخاصة لأمريكا مفاده أن دعم الانتخابات الحرة في الدول العربية قد يُوصل حكومات معادية لـ"إسرائيل" ولداعميها في أوروبا وأمريكا.

الصراع على سورية

في الأربعينيات اقتصر الصراع على سورية بين الهاشميين، ملك العراق وملك الأردن. إلا أن مرحلة جديدة كبرى مرت على المشرق وعُرفت بـ"الصراع الدولي" على سورية"، فأصبحت سورية فريسة جيرانها وفريسة الدول الكبرى وعانت جراء ذلك من صراعات داخلية غدتها التدخلات الخارجية. ففي الخمسينيات كان القلق الأمريكي يتزايد بسبب المشاعر المعادية للغرب في سورية وبسبب حركة التأميمات. في حين كان الرأي العام السوري غاضباً من الدعم الأمريكي والبريطاني لـ"إسرائيل" وضغطهما على الدول العربية للاعتراف بـ"إسرائيل" وإقامة علاقات معها. وأخذ الغضب السوري منحىً تطبيقياً بانتخاب برلمان وطني وإعلان الحكومة قراراً بالخروج من برنامج المساعدات الأمريكية الذي خصصته واشنطن لدول المنطقة. كما دعم أكرم

الحواريّ بصفته وزيراً للدفاع الدعوة للتقرّب من موسكو وأعلن وزير الاقتصاد معروف الدواليبيّ بأنّ العرب يفضلون أن يصبحوا "جمهوريةً سوفيّاتية" على أن يرضخوا للتهديدات الإسرائيليّة والغربيّة. وعمل هذا الوزير على تطوير العلاقات الاقتصاديّة مع الاتحاد السوفيّاتيّ وتعزيز التبادل التجاريّ¹⁵⁴. كما أعلن حزب البعث التخلّي عن المشاريع الوحديّة مع المحور الهاشميّ - العراق والأردن - بسبب سياسة هذين البلدين الموالية للغرب¹⁵⁵. وحتى الساسة السوريّين المعروفين بولائهم للغرب أصروا على أولوية فلسطين كشرط مسبق لأيّ تقرّب سوريّ من الغرب.

وكانت واشنطن تسعى لتكوين أحلاف عسكريّة تدور في فلكها في المشرق والعالم العربيّ ووسط آسيا. فشهدت فترة الخمسينيّات زيارات لا تحصى، قام بها مسؤولون أميركيّون وبريطانيّون إلى الدول العربيّة، واجهها الشارع السوريّ بتظاهرات. ولكن كانت جبهة سورية الداخليّة ضعيفة تسمح بتسلّل مخابرات الدول العربيّة والغربيّة لتخريب المسار التغييريّ. ورغم أنّ الحرس القديم من إقطاعيّين ومحافظين قد تمّ استبداله تقريباً في معظم المواقع الحساسة في الدولة، إلا أنّ القوى الجديدة في البرلمان والشارع والحكومة لم تكن بصوت واحد، بل شاب علاقاتها التناحر والصراع على النفوذ، وأحزاب سورية في معظمها صغيرة حيث لم يبرز حزب كبير يحظى بأغليّة برلمانيّة ويحقّق الاستقرار. ولئن فازت لائحة خالد العظم بالعدد الأكبر من المقاعد، استحق أن يؤلّف حكومة تمثّل القوى الجديدة في المجتمع. عمليّة تأليف الحكومة كشفت أنّ نفوذ المحافظين لا يزال كبيراً على الساحة السياسيّة فظهرت عراقيل أمام خالد العظم أجبرته على الوقوف جانباً. فأصبح السياسيّ المخضرم فارس الخوري رئيساً للحكومة الذي استطاع جمع ائتلاف حكوميّ من نواب محافظين وكانت لحزب الشعب حصّة الأسد، ما حرم القوى التحديثيّة من حظ الوصول إلى السلطة التنفيذية.

وفي أواخر 1954، لم تكن العلاقة بين سورية ومصر على ما يُرام. فقد وقع انقلاب في مصر في تموز 1952 أنهى الحكم الملكيّ وجاء بحكومة ثوريّة برز منها جمال عبدالناصر. وكان عبد الناصر يسعى للحصول على أسلحة ومعدّات ومساعدات من الغرب ويحاول إقامة تحالف عسكريّ عربيّ باسم "معاهدة الأمن العربيّ المشترك". ولذلك كان هواه الغربيّ محل انتقاد قيادات سورية في وقت كانت الحملات الإعلاميّة متواصلة بين مصر وسورية منذ الانقلاب ضد الشيشكليّ صديق مصر¹⁵⁶. كما أنّ الأخوان في مصر بعد قمعهم عام 1954 نقلوا مركز قيادتهم إلى سورية، وهناك واصلوا حملتهم ضد عبدالناصر، ما سبّب المزيد من تدهور العلاقات¹⁵⁷.

في تلك الأثناء واصلت سورية سياسة متشدّدة ضد "إسرائيل" والغرب وأكّدت حكومة فارس الخوري مناهضتها للمحاور الغربيّة. في حين سار العراق الهاشميّ الذي ترعاه بريطانيا بالاتجاه الآخر، موقّعاً معاهدة دفاعية مع تركيا. واعتبرت مصر الخطوة العراقيّة عملاً معادياً لها. ووقفت السعوديّة، خصم الهاشميين

Patrick Seale, *The struggle for Syria: A study of post-war Arab politics, 1945 - 1958*, London, Oxford University Press, 1965.¹⁵⁴

R.Simon, "The Hashemite Conspiracy: Hashemite Unity Attempts 1921 - 1958", in *International Journal of Middle East Studies*, vol. V, pp. 314 - 327, 1974.

Albert Hourani, *The Emergence of the Modern Middle East*, London, 1981.¹⁵⁶

Umar Abd-Allah, *Islamic Struggle in Syria*, Mizan Press, p 100-101.¹⁵⁷

اللدود، ضد الحلف الذي يربط العراق بتركيا، فتقرّبت من مصر. وصّب عبدالناصر انتقاده على العراق وبريطانيا التي تقف خلف هاشميين العراق، وتولّت السعودية الحملة الإعلامية المصرية ضد بغداد، كما ضخّت أموالاً في سورية ولبنان والأردن للحث على معارضة حلف بغداد. وردّ العراق بحملة مضادة شملت تمويل سياسيين وكتّاب سوريين ولبنانيين ضد الحملة السعودية ومحاولته إقناع واشنطن بالتدخل لدى الرياض لإيقاف الحملة. ثم قدّم العراق نفسه كدولة تخدم المشاريع الأميركية حيث حاولت حكومة بغداد برئاسة نوري السعيد إشعال انقلاب في سورية.

وهكذا بلغت التشنجات حدّاً هدّد سورية الصغيرة نسبياً وجعل سياستها في رفض الأحلاف غير قابلة للتطبيق على أرض الواقع. ثم سقطت حكومة فارس الخوري وتشكّلت حكومة جديدة في شباط 1955 كانت أكثر تمثيلاً للتنوع الحزبي في البرلمان. فاجتمع البعثيون والشيوعيون وكتلة العظم مع جناح من الحزب الوطني مناهض للعراق، واختاروا صبري العسلي رئيساً للوزراء. وأصبح خالد العظم وزيراً للخارجية ووزيراً للدفاع بالوكالة. فكان العظم والحدادين المحرّكين الأساسيين للحكومة. واستطاعت الحكومة الجديدة أن تحسّن العلاقات مع مصر وتوقف الحملات الإعلامية بين البلدين. وأوفد عبدالناصر محمود رياض سفيراً لمصر إلى دمشق يرافقه صلاح سالم في شباط 1955 للحوار مع سورية. وكانت سورية آنذاك تتعرّض لتهديدات وتحذيرات من العراق وتركيا إذا هي وقّعت معاهدة دفاع مع مصر.¹⁵⁸

في 28 شباط 1955، وقع هجوم إسرائيلي على الجيش المصري في قطاع غزة سجّل تعاطفاً شعبياً في سورية حيث الأولوية هي إنقاذ فلسطين والعداء لـ"إسرائيل". فافتتح العظم والعسلي بالسير مع مصر بحذر¹⁵⁹. وبطريقة موازية كانت سورية تسير في تطوير علاقاتها مع موسكو منذ قُلب نظام الشيشكلي، والنجاح الباهر الذي حقّقه معرض دمشق الدولي في أيلول 1954 بحضور ومشاركة فعالة من دول الكتلة الاشتراكية. فتطوّرت تجارة سورية مع الاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية والصين الشعبية. وفي كانون الأول 1954 اشترت سورية أسلحة من ألمانيا الشرقية. وفي آذار 1955، طلب خالد العظم من الاتحاد السوفياتي مساعدة عسكرية. وإزاء الحشد العسكري العراقي والتركي على حدود البلدين مع سورية، أثمرت الجهود في حزيران 1955 عندما أبلغ مولوتوف العظم أنّ موسكو قد وافقت على تقديم الدعم العسكري لسورية. وفي تموز قام وفد برلماني سوري بزيارة الاتحاد السوفياتي لتدعيم ما أنجز من اتفاقات وتفاهات ولطلب دعم اقتصادي.

Avedis Sanjian, "The Sanjak of Alexandretta (Hatay): its impact on Turkish - Syrian relations 1939 - 1956", *Middle East*¹⁵⁸ *Journal*, vol. 10, no. 4, Fall 1956, pp. 379 - 394.

"Egyptian - Syrian defense pact", *Middle Eastern Affairs*, vol. 6, no. 11, November 1955, pp. 347 - 348.¹⁵⁹

اغتيال عدنان المالكي وضرب الحزب القومي

لم يمض الصراع الإقليمي على ماض بالنسبة للوضع داخل سورية. إذ تعرّض عدنان المالكي العقيد في الجيش للاغتيال. ففي تلك الفترة استقرّ التنافس داخل الجيش السوري على حزبين رئيسيين هما حزب البعث والحزب السوري القومي.

وليس أنّ حزب أنطون سعادته قد سبق البعث بعشر سنوات على الأقل في التأسيس والعمل في الأرياف والمدن وبناء قواعد شعبية كثيفة، بل إنّ إعدام سعادته عام 1949 بمؤامرة حسني الزعيم أكسب القوميين تعاطفاً في سورية وفتح الطريق لنمو غير مسبوق لحزبهم ولتسلّم القوميين مناصب رفيعة في سورية. ولكن كان ثمة علامات استفهام حول ارتباط اسم الحزب القومي من 1949 إلى 1954 بحكم الشيشكلي القمعي وباليمين المحافظ وبالمحور الهاشمي وبالرئيس كميل شمعون في لبنان، وهي أمور ركّز عليها البعثيون وخصوم القوميين إجمالاً.

في 22 نيسان 1955، كان عدنان المالكي معاون رئيس الأركان في الجيش يرفع مباراة لكرة القدم في دمشق فتعرّض للاغتيال، واعتبر حزب البعث الاغتيال ضربة له، لأنّ المالكي ساهم في تقوية نفوذ البعث في الجيش وعلم أنّ منفذي الاغتيال هم أعضاء في الحزب السوري القومي. ولأنّ الحزب القومي سعى لدمج سورية بالعراق الهاشمي وإلحاق سورية بحلف بغداد اعتبر الاغتيال جزءاً من محاولة عراقية لقلب نظام الحكم في سورية. كما أثبتت التحقيقات أنّ وراء الاغتيال هو جورج عبد المسيح رئيس الحزب القومي، اللبناني الجنسية والمقيم في دمشق. وكان القوميون قد اتهموا المالكي بأنه حارب نفوذ حزبهم في الجيش وكان على خلاف مع ضباط قوميين وأقدم على تسريح غسان جديد، أبرز ضباط قوميّ سوري في الجيش. ومع هذه الخلفية للاغتيال، حُمّل غسان جديد والحزب القومي مسؤولية اغتيال المالكي ولوحق أعضاء الحزب وسُجنوا وتمّت تصفية بعضهم وصدرت أحكام بحق مئة قوميّ سوري، منهم جوليات المير زوجة أنطون سعادته التي سُجنت لمدة 13 سنة. ولوحق غسان جديد إلى بيروت حيث اغتيل (وهو شقيق صلاح جديد الذي سيُصبح رجل سورية الأول في ما بعد).

كان حظ الحزب القومي سيئاً جداً إذ إنّ هذه الحادثة أتت في فترة انحدار شعبيته في سورية كما التهب الغضب الشعبي ضده ووُلدت مشاعر دعم عارم للبعثيين. فتشجّعت السلطة وحظرت الحزب القومي وفرّ قوميون كثيرون مع أفراد عائلاتهم خارج سورية. وواصلت السلطة حملتها في صفوف القوات المسلحة والإدارة العامة، ففصلت الكثيرين ما فتح باب الترقيات أمام عناصر حزب البعث. كما دعم الحزب الشيوعي الحملة ضد الحزب القومي.

يقول باتريك سيل للمؤلف عام 2010 إنّ اغتيال المالكي كان حدثاً وحيداً شكّل نقطة تحوّل كبرى في تاريخ سورية لأنّه أقصى الحزب القومي المنافس الأكبر والوحيد لحزب البعث من الساحة، وإنّه منذ إقصاء الحزب القومي أصبح البعث ليس أكبر حركة سياسيّة في سورية فحسب بل الأوسع والأعظم نفوذاً في صفوف القوات

المسلّحة¹⁶⁰. وإنّ تصفية القوميّين كانت سلاحاً ذا حدّين لأنّها فسحت المجال أيضاً ليصبح الأخوان المسلمون التنظيم الثاني في سورية في وجه البعث. وهكذا كانت مساهمة الحزب الشيوعيّ في ضرب الحزب القوميّ ضد مصلحته لأنّ الشيوعيّ كان الضحيّة التالية.

سورية نحو المعسكر الاشتراكيّ

منذ أواسط الخمسينيّات بات الرأي العام يعتبر أكرم الحورانيّ وخالد العظم من سياسيّي سورية الأكثر كفاءة. وارتبطت النضال ضد الأحلاف الغربيّة بمطالب العدالة الاجتماعيّة والإصلاح وتزايد عدد الصحف والمجلات اليساريّة في سورية. ولم تكن سورية تشكّل أي تهديد لأحد، الا أنّ سياستها المستقلّة أزعجت كثيرين، إذ رغم أنّ الطبقة السياسيّة التقليديّة قد سيطرت على البرلمان السوريّ، ورغم أنّ أقصى ما كان اليسار يطلبه في الإصلاح الاجتماعيّ كان معتدلاً ومشروعاً بمقاييس الغرب، فإنّ التقارب مع الاتحاد السوفيّاتيّ ومشاركة الحزب الشيوعيّ في الحياة السياسيّة السوريّة أقلقّت العراق الهاشميّ ودوائر الغرب وخاصة أميركا.

هذه الأجواء الإقليميّة جعلت من الانتخابات الرئاسيّة في سورية عام 1955 وكأنّها استحقاق عربيّ ودوليّ هام. وكان خالد العظم أبرز المرشّحين، مدعوماً من البعث والشيوعيّين، بمواجهة شكري القوتليّ مرشّح الحزب الوطنيّ. وهاجم الإعلام الغربيّ العظم على أنّه شخص وصولي تحركه غريزة مصلحة شخصيّة ليصبح رئيساً للجمهوريّة حتى لو أصبحت سورية في الفلك السوفيّاتيّ.

وفي الانتخابات الرئاسيّة دعمت السعوديّة ومصر شكري القوتليّ ضد العظم، وكان القوتليّ قد أقام سنوات عدّة في مصر بعد انقلاب حسني الزعيم وعلى علاقة ممتازة بعبد الناصر، ففاز في الانتخابات بفضل الأموال السعوديّة. وأمام هذا التدخّل السافر باتت الديمقراطيّة السوريّة مهزلة بأيدي مصر والسعوديّة، وشكّل القوتليّ حكومة بأغليبيّة محافظة انفتحت على الرئيس كميل شمعون في لبنان.

في تلك الأثناء قرّر عبدالناصر عقد صفقة أسلحة مع تشكوسلوفاكيا الشيوعيّة عام 1955، فكان يُنذر ببدء تحوّل جذري في السياسة المصريّة ليصبح عبدالناصر بعدها بطلاً قومياً عربياً، فقد اعتبر الغرب هذه الصفقة خطوة غير صديقة. واستجابت سورية للرأي العام السوريّ الذي بات أكثر قبولاً لعبدالناصر فوقعت على معاهدة الأمن العربيّ مع مصر، ما سهّل توقيع اتفاق مماثل بين مصر والسعوديّة بعد أسبوع. وسُرت السعوديّة من سلوك سورية فخففت الإجراءات على دخول البضائع السوريّة إلى أراضيها وتساهلت في تسديد ديون سورية وقدمت قروضاً جديدة.

ولكن سورية لم تبتعد عن الاتحاد السوفيّاتيّ. لا بل إنّ تهديدات "إسرائيل" شبه اليوميّة دفعتها إلى اتفاقيّات عسكريّة مع موسكو، بعد هجوم إسرائيليّ كبير على مواقع عسكريّة سورية على بحيرة طبريا في كانون الأول 1955. فقد عمدت "إسرائيل" إلى امتحان قيمة المعاهدة الدفاعيّة بين سورية ومصر لتحذّر البلدين من

Patrick Seale, ASAD, p. 50.¹⁶⁰

القيام بأي خطوات وحدوية. والأهم أن "إسرائيل" كانت متشوقة لرّد سورّي يمنحها الحجّة لتجتاح أراضي داخل سورية نفسها. وشعرت سورية نفسها عارية أمام التهديد الإسرائيلي وتفتقر إلى امكانات لخوض معركة جدية. فجعلت من التسلّح أولوية في موازنتها وسعت لشراء أسلحة من تشكوسلوفاكيا أيضاً. وفي 1956، سقطت الحكومة السوريّة لتظهر حكومة ائتلافية برئاسة صبري العسلي ضمّت الحزب الوطني وخصمه حزب الشعب والتكتّل الديمقراطي (خالد العظم) والكتلة الدستورية وحزب البعث. ففاز البعث بحصّة جيّدة في الحكومة الجديدة وتحوّلت سياسة سورية الخارجية أكثر نحو السوفيات حيث كانت أول خطوة الترحيب بزيارة وزير الخارجية السوفياتي شيبيلوف والاعتراف بالصين الشعبية.

العدوان الثلاثي

تطورات الساحة السوريّة - التقارب مع مصر وتراجع أسهم وحدة سورية والعراق وصعود نفوذ البعث والشيوعيين - أثارت قلق رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد الذي ادّعى أن سورية تحبك مؤامرة شيوعيّة ضد العراق. فطلب من أميركا وبريطانيا إطلاق يد العراق للتخلّص من "حكم الشيوعيين" في سورية، وطلب ضمان عدم تدخّل "إسرائيل" في سورية إذا اجتاز الجيش العراقي الحدود إلى سورية. ثم بدأت بغداد تنفيذ خطة لقلب نظام الحكم في سورية، فحرّكت عناصر موالية لها داخل سورية مثل حزب الشعب والكتلة الدستورية والحزب الوطني والحزب السوري القومي، إضافة إلى ضباط عسكريين منفين. وفي تلك الأثناء كان عبدالناصر يخوض معركة ضد النفوذ البريطاني في مصر ويسعى إلى مصادر تمويل خارجي للمشاريع الاقتصادية. وعندما سُدّت في وجهه السبل، لجأ في 26 تموز 1956 إلى إعلان تأميم قناة السويس وسط تهديدات دولية بأنّ هذا القرار ينذر بردّ عسكري من بريطانيا وفرنسا. حركة عبد الناصر الماهرة أشعلت المشاعر في العالم العربيّ وتداعت الجماهير للدفاع عن مصر. وحذّر أكرم الحوراني أنّ سورية ستوقف تصدير النفط إلى الغرب عبر أراضيها في حال تعرّضت مصر لأي اعتداء. وانضم السوريون بأعداد كبيرة إلى قوى "المقاومة الشعبية" للدفاع عن مصر. وفي أيلول 1956، التقى الرئيسان عبدالناصر والقوّتلّي والملك سعود لوضع المعاهدة الدفاعية التي وقّعها قيد التنفيذ، وجدّدا العرض الماليّ والمساعدات على الملك الحسين للتوصل إلى قيادة عسكريّة مشتركة ضد "إسرائيل". وكان الأردن يتعرّض في تلك الأثناء لغارات إسرائيلية مؤذية فوافق الحسين على العرض العربيّ.

وقدّمت سورية والأردن اقتراحاً بأنّه في حال تعرّضت مصر لعدوان ثلاثي من بريطانيا وفرنسا و"إسرائيل" سيشنّ الجيشان السوريّ والأردنيّ هجوماً مشتركاً يفصل جنوب "إسرائيل" عن شمالها، ورفض عبدالحكيم عامر - قائد الجيش المصريّ - هذا الاقتراح لأنّه يفتح الباب لأن يشمل العدوان الثلاثي سورية أيضاً، التي لم تكن في وضع عسكريّ يتيح لها التصدي لبريطانيا وفرنسا. واقترح أن يدخل لواء سورّي الأردن لتدعيم دفاعاته ضد "إسرائيل". ثم قطعت سورية علاقاتها مع فرنسا وبريطانيا وعمد عسكريون وعمال سوريون من تلقاء أنفسهم إلى نسف أنابيب شركة النفط العراقيّ. وسافر القوّتلّي إلى موسكو حيث لقي دعماً سوفيائياً مزيّد

من الاتفاقات التجارية والثقافية وتبادل الزيارات الرسمية مع دول الكتلة الاشتراكية. وكان عبد الناصر غاضباً من واشنطن لأنها رفضت منح قروض لمصر لتمويل السدّ العالي في أسوان، فكان رفض أميركا التمويل من الأسباب المباشرة لتأميم قناة السويس.

لم يتأخر العدوان الثلاثي على مصر، ففي 29 تشرين الأول 1956، شنت "إسرائيل" حرباً خاطفة في سيناء تلاها هجوم بريطاني - فرنسي على منطقة قناة السويس. فترجع الجيش المصري عن سيناء ثم شنّ عمليات خاطفة على الغزاة وخاض الحرب ضد العدوان الثلاثي دون الحاجة لإشعال الجبهة المشرقية من سورية والأردن. وهكذا مجرد أن صمدت مصر فشل العدوان. فمصر لم تتراجع عن القناة كما طلبت بريطانيا وفرنسا، بل أعلن عبد الناصر حرب تحرير شعبية في مدينتي بور سعيد والسويس ضد الغزاة وأجبر الضغط الأميركيّ الدول المعتدية على سحب قواتها. فانسحبت فرنسا وبريطانيا من القناة في 23 كانون الأول وانسحبت "إسرائيل" من سيناء وغزة في مطلع 1957. وأعلن عبد الناصر النصر ما سجّل ارتفاعاً في شعبيته العربية.

رافق ظروف العدوان الثلاثي على مصر اكتشاف مخبرات الجيش السوريّ خيوط مؤامرة عراقية بدعم أميركيّ لقلب نظام الحكم في دمشق. وضُبطت كميات أسلحة عراقية كانت تُهرَّب من الأردن. فبدأت حملة اعتقالات واسعة في صفوف المتآمرين الذين كانوا يكشفون أسماءً إضافية. وفي 22 كانون الأول 1956، صدرت مطالعة اتهامية بحق 47 شخصاً بينهم أديب الشيشكليّ وغسان جديد وقيادات من الحزب الوطنيّ. وصدّرت أحكام بحق المتهمين، كسرت ظهر الحزب الوطنيّ وأضعفت القوى التقليدية.

أذّر حجم المؤامرة العراقية البعث وحلفاءه الذين هابوا عواقب نجاحها. فلجأ البعث مع خالد العظم وكتلته إلى تأسيس تحالف باسم "الجبهة الوطنية" دعا إلى موقف صارم تجاه الإمبريالية الغربية و"العمل على تحرير الدول العربية التي لا تزال تحت نير الاستعمار وخاصة مساعدة الشعب العراقيّ في نضاله ضد الإمبريالية" ودعم الشعب الجزائريّ ضد الاحتلال الفرنسيّ. وقدمت الجبهة برنامج عمل إصلاحياً دعا إلى التنمية وإزالة التخلف والحرمان وتطوير النظام الضريبيّ وتشريعات لحماية العمال والفلاحين، ووقّع على برنامج الجبهة 65 نائباً من أصل 142. وهذا العمل الديمقراطيّ عبر أجهزة البرلمان أكسب "الجبهة الوطنية" مصداقية في البلاد ودعمًا من العسكريين، ومتمّ الوضع الداخليّ. فاستطاعت الجبهة من خلاله إحداث تغيير عميق في السياسة السورية في السنوات التالية.

سورية تواجه مشروع آيزنهاور

عمدت الحكومة السورية التي باتت الآن تضم ممثلين للجبهة الوطنية وحركة التحرير العربيّ (مأمون الكزبري) ومستقلين، إلى التنديد بمشروع آيزنهاور الذي أعلنته واشنطن باكراً ذلك العام. فكانت سورية أوّل دولة عربية تأخذ موقفاً صريحاً منه وترفض هذا المشروع رسمياً. فقد تضمّن مشروع آيزنهاور الأميركيّ تقديم "العون والحماية" لأيّ دولة في المنطقة تتعرّض لتهديد أو عدوان من "الشيوعية الدولية". ولكن في 10 كانون

الثاني 1957، صدر بيان عن الحكومة السورية نفى وجود "تهديد شيوعي" للمنطقة، ورفض أي تدخل أجنبي وأكد أن التهديد الرئيسي للعرب هو من الصهيونية والاستعمار "الشركاء في الاعتداء على مصر وقناة السويس" ("إسرائيل" وبريطانيا وفرنسا).

وجاء بيان سورية في وقت اشتدت فيه الحملة الغربية ضد سورية أنها سقطت تحت النفوذ السوفياتي. ولكن صحيفة نيويورك تايمز فضحت أن عدداً من الصحافيين الأجانب في فندق فينسيا والسان جورج في بيروت الذين لم يزوروا سورية قط، يرسلون تقارير كاذبة ومضخمة إلى صحفهم وإلى محطات التلفزة عما يدور في سورية¹⁶¹.

وإضافة إلى الحملة الدعائية، خصّصت الإدارة الأميركية أموالاً لإنفاقها على زعزعة نظام سورية وعزلها¹⁶². وانكشف موقف عدد من الدول العربية بأنّ ولاءها لأمريكا كان أقوى من رباح التعاون العربي. ففي اجتماع في القاهرة في كانون الثاني 1957 ضمّ عبد الناصر والملك سعود والملك حسين والرئيس القوّطي، أجمع القادة على التنديد بمشروع إيزنهاور. ولكن ما إن عاد الملك حسين إلى عمان حتى حذر من "الخطر الشيوعي". وكذلك سافر الملك سعود إلى واشنطن ليعلن دعمه لمشروع إيزنهاور وللسياسة الأميركية في المنطقة. أما الرئيس القوّطي فقد كان مقرباً من سعود ومن عبد الناصر في وقت واحد. ففي حين تواصل القوّطي مع الملك سعود عبر السورّي فوزي سلو الذي أصبح مستشاراً للملك، كان أيضاً يزور القاهرة ويستشير عبد الناصر دورياً. وفي لقاء قمة عربية في القاهرة في شباط 1957 طلب الملك سعود إصدار بيان مشترك ينّد بـ"النشاطات التخريبية" في المنطقة، ما يصب في سياق الحملة الأميركية ضد الشيوعية وضد سورية¹⁶³. ولكن خالد العظم اعتبر أنّ بياناً كهذا يستهدف سورية أيضاً، فعارضه باسم سورية وأكد أنه لا توجد "نشاطات تخريبية" تهدد استقرار المنطقة. فغضب سعود من موقف العظم وذهب إلى القوّطي مباشرة متهماً ضباطاً سوريين بفتح الباب للتغلغل السوفياتي في المنطقة العربية. واستجاب القوّطي للملك السعودي فأصدر قراراً بعزل 120 ضابطاً معروفين بانتماءاتهم الحزبية والوطنية. ولكن هؤلاء الضباط رفضوا تنفيذ القرار كما امتنع خالد العظم عن التوقيع عليه. فاشتعلت أزمة بين القوّطي والوزير العظم تدخل فيها عبد الناصر والمشير عامر لإقناع قائد الأركان السورّي نظام الدين بإلغاء قرار التنقلات وإنهاء الخلاف، إذ لو نجح القوّطي في تحقيق رغبة الملك سعود لأمكن قلب النظام في دمشق بعد تصفية الضباط الموالين للقوى اليسارية والتقدمية.

لم يشأ عبد الناصر الوقوف بوجه السعودية التي كانت سياستها العربية معقدة ومتشعبة، تخدم مصالح مصر أحياناً ولكنها تخدم السياسة الأميركية دوماً. وكان هذا صحيحاً. ففيما استمرت المساعي السعودية لإقناع العراق وسورية ولبنان بفوائد الانضمام لمشروع إيزنهاور، ساهمت في أيار 1957 بتطبيع الأجواء بين

¹⁶¹ Kennet Love, *Suez the Twice-Fought War*, New York, 1969, p. 653.

¹⁶² John Donovan, *U.S. and Soviet policy in the Middle East 1957 - 66*, New York, Facts on File, 1974.

¹⁶³ Douglas Little, "Cold War and Covert Action, the United States and Syria, 1945 - 1958", *Middle East Journal*, Vol. 44, 1990,

pp. 51 - 75.

مصر والعراق، وأدّت هذه المساعي إلى تبديل رئيس الوزراء العراقيّ نوري السعيد، المعروف بعداؤه لمصر، بالمعتدل علي جودت الأيوبيّ.

ولكن سورية حافظت على موقفها فتحركت أميركا لمعاقتها على عنادها وأوعزت للعراق وتركيا حشد جيشيهما على حدود سورية ووقف الحركة التجارية عبر الحدود. كما كانت سورية تصدّر قمحها إلى اليونان وإيطاليا بحراً، فقامت أميركا بإغراق سوق هذين البلدين بقمح أميركيّ رخيص للتضييق على سورية. ثم رفضت أميركا تزويد سورية بقطع غيار لطائراتها المدنيّة. ولكن هذا الحصار الاقتصاديّ الأميركيّ لم يزعج مواقف "الجبهة الوطنيّة" التي أصبحت القوّة السياسيّة الرئيسيّة في سورية. وكانت فعاليات جديدة طالبيه وعماليّة ونسائيّة تظهر في سورية وتعضّد من قوّة اليسار. ولكن صمود سورية زاد من عداة واشنطن، إلى حدّ أن الوزير خالد العظم صرّح في حزيران 1957 أنّ الملك سعود والملك حسين باتا "أدوات في يد أميركا"، محدثاً الملك السعوديّ من التّدخل في شؤون سورية الداخليّة. ما أثار غضب السعوديّة التي قامت بتجميد أموال سورية في المملكة وهذّدت بقطع العلاقات بين البلدين، فتدخّلت مصر لدى دمشق وأوفد عبد الناصر المشير عامر إلى الرياض لإقناع السعوديّة بتبريد اندفاعها ضد سورية. وبالمقابل تكفّلت مصر بوضع حدّ للشيوعيين في دمشق. فأوقفت هذه المساعي التهديدات السعوديّة.

وفي أواخر تموز 1957 زار خالد العظم موسكو حيث عقد محادثات منح بموجبها الاتحاد السوفياتيّ سورية مساعدات تقنيّة واقتصاديّة وقروض بشروط مسهّلة بهدف بناء سدود ومحطات كهرباء ومصانع سجاد زراعيّ وأدوات تنقيب عن النفط والمعادن، وتوقيع مشروع بناء سكّة حديد يربط اللاذقيّة بمنطقة الجزيرة. فكانت هذه الاتفاقيّات إنجازاً كبيراً لسورية ألهمت الحماس الشعبيّ لأنها كانت خطوة على طريق تطوير البنية التحتيّة وتحقيق أحلام الشعب السوريّ بالتقدّم والازدهار. ولكن الدعاوى الأميركيّة والغربيّة كانت قد فعلت فعلها في الدول العربيّة التي بدأت تقتنع أنّ سورية تشكّل فعلاً تهديداً شيوعياً لدول المنطقة. وكان حزب البعث قد فتح قناة تواصل مع مصر خاصة بعدما عبّر عبد الناصر عن عدم رضاه عن الاتفاقات الاقتصاديّة السوريّة مع موسكو وعن "النفوذ الشيوعيّ المتعاضم" في سورية. وإذ لم تكن عقيدة عفلق والبيطار يساريّة في العمق، بل مدنيّة رأسماليّة باستثناء بعض الأمور، بدأ البعث شقاً مع شريكه في الجبهة الوطنيّة، الحزب الشيوعيّ وخالد العظم. وأحيطت واشنطن علماً بموقف عبد الناصر هذا فباركت توجهه. ثم بدأ البعث الذي كان قد وافق على المساعدات السوفياتيّة، حملة صامتة ضد "النيات السوفياتيّة" وأشاع أنّ هدف العون الروسيّ هو تحويل سورية إلى جمهوريّة سوفيّاتيّة ملقياً اللوم في ذلك على الحزب الشيوعيّ والعظم.

انكفاء اليسار السوريّ

بعد أسبوع من توقيع الاتفاقات في موسكو، كشفت الحكومة السوريّة عن خطة أميركيّة جديدة لقلب نظام الحكم، فطردت ثلاثة دبلوماسيين أميركيين. وكتب باتريك سيل: "لقد اتّصل مسؤولون أميركيون سرّاً

بشخصيات سورية وعناصر من الجيش السوري بهدف تنظيم حركة لقلب الحكومة... ولكن كان نصف الضباط الذين يتصل بهم الأميركيون سراً يكتبون تقارير بالأمر ويقدمونه إلى السلطات السورية. ولذلك كانت خطة أميركا محكومة بالفشل¹⁶⁴. وعندما انكشفت المؤامرة الأميركية، طالب قادة الجيش السوري - البزري ونافوري والسراج - من قائد الأركان نظام الدين تسريح الضباط المتهمين بالضلوع في المؤامرة الأميركية. لكنه رفض وأيده القوتلي في هذا الموقف. وعندما أصر قادة الجيش، قدّم نظام الدين استقالته¹⁶⁵ فأصبح البزري رئيساً للأركان.

لم يكن البزري مسيساً ولكن الإعلام الغربي صوّر ما حصل وصولاً إلى تعيين البزري بأنه "انقلاب شيوعي". فأخذ ساسة الغرب يتحدثون عن انقلاب شيوعي وكأنه حقيقة واقعة. واتخذت تركيا من الإشاعة حجة لحشد 50 ألف جندي على الحدود. كما أرسلت الولايات المتحدة الأسطول السادس إلى الساحل السوري، ونقلت أميركا شحنات أسلحة إلى تركيا والأردن والعراق "لحماية هذه الدول من هجوم سوري محتمل". خافت القيادة السورية من هذه التطورات، خاصة أن التحرشات التركية أخذت تتصاعد، وبلغ حجم الحشد التركي ثمانية أضعاف قوى سورية المسلحة. فذهب البزري والسراج إلى القاهرة لبحثا ما يمكن أن تقدم القيادة العربية العسكرية المشتركة في حال تعرض سورية لعدوان ثنائي من "إسرائيل و تركيا". ووافق عبد الناصر على طلب البزري فأرسل قطع مدفعية وعناصر دفاع جوي إلى سورية في تشرين الأول 1957. وكانت موسكو تراقب الوضع فوجهت تحذيراً إلى تركيا بأن أي عمل عدائي ضد سورية "لن يبقى محلياً". ودعمت موسكو إنذارها بإيفاد مدمرتين إلى مرفأ اللاذقية. فخفف الدعم المصري والسوفياتي من مخاوف سورية. كما أن عداء أميركا نحو سورية بات سافراً وأحرج الدول العربية السائرة في الفلك الأميركي، فأى دولة في المنطقة لم تجد دليلاً يثبت أن سورية تمثل خطراً عليها أو أن الشيوعية قد أصبحت نافذة في سورية. وكان الرأي العام العربي داخل الدول السائرة في فلك أميركا يتعاطف مع سورية ويستاء من تعاون حكوماته مع الولايات المتحدة ريبية "إسرائيل ضد سورية البلد الشقيق"¹⁶⁶.

وإذ قلقت سورية أن تؤدي هذه الأزمة المصطنعة إلى تحرك عسكري ضدها، قبلت أن يتوسط الملك سعود لدى الولايات المتحدة لخفض حدّة التوتر. ثم "قبلت" أميركا وساطة الملك سعود شرط فكفكة تحالف الجبهة الوطنية الذي كان الأقوى على الساحة السورية وإعادة الاعتبار لضباط في الجيش وقوى الأمن الضالعين في المؤامرة الأميركية. وفي تلك الأثناء واصل البعث ابتعاده عن الشيوعيين، واستغل الملك سعود موقف البعث لتظهير الأمر بأنه خلاف داخل الجبهة الوطنية. فبدأ مبادرته لترطيب الأجواء بين واشنطن ودمشق. ثم حضر إلى دمشق وشرح للقوتلي أن الأجواء مع أميركا يمكن أن تتحسن إذا رُفع الضغط عن الضباط في قوى الأمن والجيش الذين لا يوالون اليسار. وخطت أميركا لدعم التعهد السعودي، فأعلن وزير الخارجية جون فوستر

¹⁶⁴ *The Struggle for Syria*, London, 1965, pp. 293-294. Patrick Seale,

¹⁶⁵ Gordon Torrey, *Syrian politics and the military 1945 - 1958*, Columbus, Ohio, Ohio State University Press, 1964.

¹⁶⁶ Richard Nyrop, *Syria: A Country Study*, American University Foreign Area Studies, Area Handbook Series, Washington

D.C., The American University, 1979.

دالاس أنه مستعد للقاء وزير الخارجية السوري صلاح البيطار. وعلى هامش اجتماعات الأمم المتحدة، التقى البيطار في 7 تشرين الثاني بسفير أميركا لدى المنظمة الدولية هنري كابوت لودج ومساعد وزير الخارجية الأميركية وليم راوندتري. وعاد سفير أميركا إلى دمشق.

ولكن لم يكن فرط عقد الجبهة الوطنية النتيجة الوحيدة لتطورات سورية، بل إن موقف حزب البعث الرجعي جذب إليه كافة القوى المناهضة للشيوعيين. وكانت الجبهة الوطنية تعمل على إجراء الانتخابات البلدية في موعدها، فسحب البعث مرشحيه في كل المناطق بتنسيق مع حزب الشعب وجهات اليمين السوري، ما ألغى عملياً حصول هذه الانتخابات. وعملت السعودية على تمهيع الشكوى السورية لدى مجلس الأمن ضد الحشود التركية ومارست ضغطاً على الوفد السوري، فتأجل النقاش في الشكوى السورية مرّات إلى أن وضع مجلس الأمن الشكوى على الرف. ثم تراجعت القوات التركية في نهاية تشرين الثاني 1957 وانتهى الأمر عند هذا الحد¹⁶⁷.

الجمهورية العربية المتحدة

كان سعود خالد العظم كنائب لرئيس الوزراء وكوزير للدفاع وللمالية مصدر قلق للبعث حيث خاف البعثيون من احتمال تبوء العظم الذي يدعمه الشيوعيون رئاسة الحكومة. ثم عمق هذا الخوف أن العظم كان يؤسس حزباً جديداً مدعوماً من الحزب الشيوعي، فيصبح خصماً لا يقهر في الانتخابات. ولم يمكن تعطيل سعود العظم سوى بالوحدة مع مصر. فقد هرعت قوى سياسية داخل سورية إلى الوحدة مع مصر لوقف النفوذ المتزايد للشيوعيين في سورية وقفز البعثيون إلى الوحدة من منطلق مصلحي أنهم سيكونون القوة الرئيسية وراء عبدالناصر. وفي 12 كانون الثاني 1958، قام وفد عسكري سوري برئاسة رئيس الأركان عفيف البزري ومعه صلاح البيطار بزيارة إلى القاهرة تحت عنوان توحيد القيادة العسكرية. ولكن الوفد دفع باتجاه وحدة سياسية بدون إذن الحكومة السورية. وكان عبدالناصر يسعى إلى تضامن عربي لمواجهة التحديات وأدرك أن وحدة كهذه ستقوي مصر وتمكنه من ضبط مواقف سورية. فأبلغ الوفد السوري قبوله الوحدة شرط أن تكون اندماجية وأن تحل الأحزاب في سورية ويمنع النشاط السياسي داخل القوات المسلحة السورية. كانت قضية فلسطين محرّك سورية لتلبية نداء الوحدة مع مصر. فقد اشتعلت مشاعر السوريين بأن وحدة سورية ومصر هي الطريق لتحرير فلسطين لأنها تجمع الطاقات العربية، وهو هدف لا يمكن لسورية أن تحقّقه منفردة¹⁶⁸.

وأثناء محادثات الوحدة، أقنعت الوفود المصرية الجانب السوري بتخفيف اللهجة تجاه الولايات المتحدة وتجاه الدول العربية، وضغطت مصر لإبعاد الشيوعيين عن المراكز الحساسة في سورية. عارض خالد العظم هذه الوحدة وأن على مجلس الوزراء استشارة البرلمان والحصول على موافقته واستشارة الأحزاب الرئيسية

¹⁶⁷ "Syro - Turkish tensions", *Middle Eastern Affairs*, vol. 8, no. 12, December 1957, pp. 414 - 419. (documents to U.N. from Syria).

¹⁶⁸ Fayez Sayegh, *Arab Unity: Hope and Fulfillment*, New York, Devin-Adair, 1958.

في البلاد حول شروط عبدالناصر، وأن يُدرس موضوع الوحدة بعمق قبل الموافقة¹⁶⁹. أما قيادة البعث فقد تجاهلت مقترحات العظم المنطقية وتجنبت استشارة أعضاء البعث وفروعه حول حلّ الحزب. كما أهملت قيادة البعث قوانين الحزب وقراراته التي توافق على اتحاد فدرالي مع مصر فقط تحتفظ سورية بموجبه بمظاهر الدولة. أما عبدالناصر فقد كانت روايته حول الإسراع في الوحدة بأن السوريين قد دفعوه إليها (وهذا ما يؤكد مؤرخو تلك المرحلة)¹⁷⁰.

وبعد ضغوط ومناقشات وافقت الحكومة السورية على كلّ شروط مصر وسرعان ما أعلن الرئيس جمال عبدالناصر وشكري القوّتلي ولادة الجمهورية العربية المتحدة في 1 شباط 1958. وبعد خمسة أيام أقر برلمانا البلدين الوحدة. وفي 21 شباط، وافق استفتاء شعبي في البلدين على الوحدة وعلى عبدالناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة بنسبة 99.9 في المئة. وهكذا في الأعوام 1958 - 1961 أصبحت سورية إقليماً في دولة واحدة بقيادة جمال عبدالناصر. وأصبح محمود رياض سفير مصر في دمشق من أكثر الشخصيات تأثيراً في العاصمة السورية.

كان الموقف السوفياتي سلبياً من هذه الوحدة السريعة وغاضباً من انهيار الجبهة الوطنية التي كان يدعمها في سورية. ولكن لا موسكو ولا الحزب الشيوعي السوري عارضاً علناً الوحدة بسبب الدعم الشعبي العربي العام لعبد الناصر وللجمهورية العربية المتحدة. مع أنّ الشيوعيين السوريين وخالد العظم أعلنوا تفضيلهم لاتحاد فدرالي وليس وحدة اندماجية¹⁷¹. ووظف عبد الناصر الوحدة مع سورية في تحقيق مكاسب إقليمية ودولية. فعلى الصعيد الدولي استطاع أن يحظى برضى الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وحصل على مساعدات قيمة. فساهم السوفيات في بناء السدّ العالي في أسوان وساعدوا مصر على تطوير صناعاتها، كما منحت الولايات المتحدة مصر صفة معاملة تفضيلية حتى أصبحت البلد الذي يتلقّى أكبر قدر من المعونات الأميركية.

في دمشق، أقسم عبدالناصر بأنه سيعمل على تحقيق الوحدة العربية الشاملة، فأطلق قسّمه هذا عاصفة من المشاعر في البلدان العربية وكان مدّاً كاسحاً قد انطلق ولن ينتهي قبل توحيد العالم العربي تحت راية الجمهورية العربية المتحدة. لقد كان العام 1957 عام الوحدة العربية بامتياز، أقلق الملوك والرؤساء العرب على دولهم من كاريزما عبدالناصر الجارفة. وبلغ الخوف أقصاه في لبنان والأردن، الدولتين الصغيرتين الواقعتين بين مصر وسورية، يليهما العراق الهاشمي الذي اعتبر وحدة مصر وسورية موجّهة ضده. وشعر الزعماء العرب بالخوف على أنظمتهم الوراثية، فهرع الإمام أحمد في اليمن إلى ربط بلده بمشروع الوحدة لتجنّب عاصفة عبدالناصر فتصبح اليمن عضوة في "اتحاد الدول العربية" بزعامة عبدالناصر. ولم يطل الأمر قبل أن تتدهور علاقات الجمهورية العربية المتحدة مع السعودية أيضاً عندما كشف عبد الحميد السراج، مسؤول

¹⁶⁹ بدرالدين السباعي، المرحلة الانتقالية في سورية: عهد الوحدة: 1958 - 1961، بيروت، دار ابن خلدون، 1975.

¹⁷⁰ Patrick Seale, ASAD, p. 54.

¹⁷¹ Harry Howard, "The Soviet Union in Lebanon, Syria and Jordan", *The Soviet Union in the Middle East, the post World War*

II era, edited by Ivo Ledere and Wayne Vucinich, Stanford, California, Hoover Institution Press, 1974, pp. 134 - 156.

الأمن في الإقليم السوري، عن مخطّط سعودي لاغتيال عبدالناصر. فشّن عبد الناصر نقداً لاذعاً للملك سعود أحدث رعباً في الرياض. إذ في تلك الفترة بلغت سطوة عبد الناصر حدّاً أنّ الزعماء العرب خافوا من إغضابه ومن الظهور أمام شعوبهم أنّهم ليسوا مع العروبة والوحدة العربية.

هيكلية دولة الوحدة

بلغت نشوة الوحدة أقصاها في سورية نفسها وكأنّها - أي الوحدة - كانت الهدف الأول والأخير¹⁷². أمّا في مصر، فباستثناء عبدالناصر وقلّة من حوله، كان معظم أفراد القيادة المصرية ومعظم الشعب المصري ينظرون إلى الأمر بسطحية، وكانّ سورية لا تختلف عن مصر بشيء.

وكانت الديمقراطية السورية أولى ضحايا الوحدة. إذ إنّ الدستور المصري بات هو دستور الجمهورية العربية المتحدة يطبّق على سورية كما يطبّق على مصر. وقام عبدالناصر بحكم صلاحياته الواسعة في الدستور بتسمية وزراء الحكومة المركزية والمجالس التنفيذية للحكومتين الإقليميتين في مصر وفي سورية، وعيّن كافة أعضاء مجلس الأمة ومركزه القاهرة وضمّ 400 مصري و200 سوري. وخلال أشهر أُفرغت دمشق من أي نفوذ ذي قيمة في دولة الوحدة. وكانت الصفعة الأولى للسوريين هي في تشكيلة الحكومة المركزية حيث ذهب المناصب الهامة للمصريين وبقيت ثلاثة مناصب للسوريين. فسُمّي أكرم الحوراني وصبري العسلي نائبين لرئيس الجمهورية وصالح البيطار وزيراً بدون حقيبة. وفي الحالات الثلاث لم تحدّد لهم أي صلاحيات ذات أهمية. ورغم ذلك، كان حزب البعث مرتاحاً لهذه التعيينات التي منحتها إثنين من ثلاثة مقاعد هي حصّة سورية في الحكومة المركزية.

وكان عبد الناصر يعتقد أنّ الحوراني الذي كان فاتراً تجاه الوحدة، هو أهم شخصيّة في البعث. فأراد تشجيعه لقبول الوحدة بتعيينه رئيساً للمجلس التنفيذي لإقليم سورية. ومنح عبد الناصر البعث حقائب الاقتصاد والزراعة والعمل والشؤون الاجتماعية في مجلس سورية. وأوحى المجلس التنفيذي لإقليم سورية وكأنّه يتمتّع بحدّ من الإدارة الذاتية ولكن في الواقع كانت سلطة عبدالناصر مطلقة في سورية كما في مصر. إذ عكست عضوية المجلس التنفيذي في سورية المؤلفة من أشخاص تقنيين وإداريين وضباط جيش حقيقة هزال الحكم الذاتي السوري والسلطة الطاغية للجانب المصري، حيث إنّ أيّ قرار مهم يجب أن يصدر من القاهرة. وكان أبرز مركز تولّاه سوري في جمهورية الوحدة في حقل الاستخبارات. إذ عُيّن عبد الحميد السراج المحسوب على البعث مسؤولاً عن جهاز الأمن في سورية كجزء من وزارة الداخلية في الجمهورية العربية المتحدة. وأُسند إليه منصب وزارة الداخلية في المجلس التنفيذي السوري. فأصبح من موقعه الأمني أكثر المقرّبين السوريين من الرئيس المصري.

Simon Jargy, « La Syrie, province de la république arabe unie », *Orient*, Paris, vol. 2, 1958, pp. 17 - 32.¹⁷²

وأصبح جيش سورية يُعرف باسم "الجيش الأول" وأغرقه عبدالناصر بضباط مصريين كما أغرق الدوائر والمؤسسات العامة السورية بموظفين مصريين ورجال مخابرات مصريين تسلّموا أعلى المناصب. وكانت الانتقادات تتصاعد في سورية، أنّ مصر تحت شعار الوحدة تنفذ عملية احتلال عسكري واقتصادي لسورية ولو سلمياً. وإذ تراكم النقد لأخطاء المصريين وسلبياتهم في سورية لم يتوقف عبدالناصر ويراجع الأخطاء ويصححها، ما قد يقوّي مناخ الوحدة. بل تصرّف بفوقية كما اعتاد ملوك مصر عندما حكموا سورية عبر التاريخ. أضف أنّ عبد الناصر استعمل الأجهزة الأمنية لقمع المعارضين في مصر وسورية وعالج الانتقادات بحلول قسريّة بوليسية.

لقد اعتقد قادة البعث أنّ الوحدة مع مصر ستعبد الطريق لتنفيذ أهداف البعث، لأنّ عبدالناصر سيحقق ومن فوق مرسوم جمهوري ما سيستغرق الحزب 25 عاماً من النضال اليومي لتحقيقه¹⁷³. وأنّ التوأمة بين شخصيّة عبدالناصر القائد وفكر البعث وقواعده القوميّة ستكون قوّة لا تُقهر. ولكن المناقشات داخل البعث أظهرت ثغرات عدّة: أنّ مصر تعيش خصوصيّة مصريّة وأنّ الحسّ القومي الموجود في سورية على المستوى الشعبي غير موجود في وجدان الشعب المصري. ولكن عبدالناصر كان مؤمناً بصدق وقوة بالقوميّة العربيّة رغم أنّ تفكيره اقتصر على مثاليّة أنّ العرب هم أمة واحدة ولغتهم واحدة ودينهم الإسلام، دون أن يكلف الباحثين في دراسة المسائل العلمانيّة الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة لخلق برامج ومؤسسات ولتوفير ظروف أفضل لنجاح الوحدة المصريّة السوريّة.

ظنّ البعثيون أنّهم سيكونون الفئة المفضّلة لدى عبدالناصر وسيكونون عوناً له داخل القوى المسلحة، فرفع مصطفى حمدون قائمة كاملة ومفضّلة بأسماء الضباط البعثيين في الجيش السوري مع عناوينهم إلى عبدالناصر. ولكن عبدالناصر كان حاكماً فرداً وقائداً عسكرياً لا يقبل أن يشاركه أحد السلطة، فأبعد عفيف البزري عن قيادة الجيش الأول، رغم أنّ البزري كان المساهم الأهم في عملية الوحدة، وعيّن مكانه ضابطاً لا يتمتع بأي صفات قيادية يتصرّف كموظف مطيع. وطهر عبد الناصر الجيش من الضباط الشيوعيين أولاً، ثم استعمل لائحة حمدون وطهر الجيش من الضباط البعثيين أيضاً. وصدر أمر من القاهرة في أول آب 1958 بنقل عشرات الضباط البعثيين دفعة واحدة إلى مصر ونقل القسم الأكبر من ذوي الرتب العالية إلى السلك الدبلوماسي أو لوظائف في دولة الوحدة بدون مسؤوليات أو مهام في مصر، لإبعادهم عن سورية، في جو أوحى وكأنّ كلّ هؤلاء لم يكونوا موضع ثقة لدى عبد الناصر¹⁷⁴.

Patrick Seale, ASAD, p. 65.¹⁷³

Simon Jargy, "Le declin d'un parti", *Orient*, Paris, vol. 2, 1959, pp. 21 - 39.¹⁷⁴

حلّ حزب البعث

جرت عملية حلّ الأحزاب السوريّة باستثناء الحزب الشيوعيّ الذي غادر أمينه العام خالد بكداش سورية قبل تصويت البرلمان على الوحدة. وحافظ البعث على قناعته أنّ مرسوم حل الأحزاب ينطبق على الأحزاب الأخرى فقط وظنّ قاداته أنّه سيستمرّ في العمل. ولكن لم تستجب القاعدة البعثيّة لقرار القيادة حل الحزب، بل استمر العمل في تنظيّمات الحزب وكوادره تحت الرادار. وكان البعث واثقاً من أنّه سيهيمن على دولة الوحدة بفضل عقيدته وتنظيمه وأنّ عبدالناصر بضالته الفكرية سيصبح تلميذاً لعفلق. وهذا ما لم يحصل. وعندما سأل الكاتب البريطانيّ مايكل آدمز قادة البعث لماذا أسرعوا في تسليم استقلال سورية وسيادتها على نفسها لمصر على طبق من ذهب، أجابوا: "لا تقلق! خلال عام سندير نحن الجمهوريّة العربيّة المتّحدة"¹⁷⁵. لم تسر الأمور على ما يرام بين البعث وعبدالناصر. فقد دخل البعث الوحدة بحماس، ولكن سرعان ما بدأ الخلاف. فقد اقترح البعث على عبدالناصر حكماً جماعياً لدولة الوحدة مؤلف من ثلاثة مصريّين وثلاثة سوريّين بعثيين (عفلق والبيطار والهورانيّ)، فرفض عبدالناصر. ثم أنّ عبدالناصر ضاق ذرعاً بالقيادة البعثيّة التي كانت تروّج أنّ الناصريّة لا أساس فكرياً لها، وأنّ البعث يمدّ الزعيم المصريّ بفلسفة وعقيدة القوميّة العربيّة. وكانت الأجهزة المصريّة تعلم أنّ حزب البعث قد فقد شعبيّته ووجهه في الشارع السوريّ بسبب تفریطه بالجبهة الوطنيّة وسعيه إلى مكتسبات ومناصب في دولة الوحدة وفي إدارة الإقليم السوريّ وفي ابتعاده عن حلفائه من شيوعيين ويساريّين وشخصيّات تقدميّة. ومن ناحية أخرى أضعفت مصر رباط البعث باليمين السوريّ. فقد بدأ محمود رياض، الذي أصبح مستشار عبدالناصر للشؤون السوريّة، سلسلة لقاءات مع شخصيّات سورية تقليديّة ورجال أعمال وقدم لهم الدعم المعنويّ والماديّ لتنظيم صفوفهم ضد البعث. كشف المؤتمر القوميّ الرابع لحزب البعث المنعقد في بيروت في آب 1959، عن الدرك الذي وصله الحزب. وكانت مجموعات تريد أن يستمرّ الحزب بأشكال مختلفة داخل سورية وتعتزّ على تفرّد قيادة عفلق - البيطار. كما ظهر تنظيم "اللجنة العسكريّة" من منفاه في القاهرة، ورفض فرع دير الزور حلّ نفسه فُعرف بتنظيم "القطريّين". وبعدما هاجم كثيرون قيادة الحزب وطالبوا بضرورة استمرار القواعد الحزبيّة، أقرّ المؤتمر حل الحزب في سورية فقط لترضية المعارضين. ولكن حتى هذا القرار القوي الذي حلّ الحزب في سورية لم يحظ بالإجماع أيضاً. إذ ظهر في المؤتمر جناح موالٍ لعبدالناصر ذهب أبعد من حل الحزب في سورية وطالب بحل البعث في كلّ الدول العربيّة لصالح الناصريّة. فصدر قرار في المؤتمر بطرد هؤلاء من الحزب، وخرجوا متوعّدين بأنّهم سيستمرّون كـ"بعثيين ناصريّين" من خارج الحزب¹⁷⁶. ثم هيمن على بقية المؤتمر نزاع الهورانيّ وعفلق والبيطار حول الوحدة مع مصر والسياسة الخارجيّة المطلوبة. فقد حافظ أكرم الهورانيّ في السنة الأولى للوحدة على خطّ يساريّ متشدّد وأخذ يطالب عبدالناصر بتبني سياسة أكثر راديكاليّة نحو "إسرائيل"

¹⁷⁵ Manchester Guardian, 28 September 1961.

¹⁷⁶ Bichara Khader et Philippe Rondot, *Le Parti Ba'ath*, Louvain-la-Neuve, Belgique, Université Catholique de Louvain, Centre

d'Études et de Recherche sur le Monde Arabe Contemporaine, 1980, Cahier 5.

وفي العلاقات مع الغرب، واستبدال الوحدة الاندماجية مع سورية بدولة اتحادية. وكان عبدالناصر يرفض مطالب الحوراني، إلى أن ضاق به ذرعاً وعزله وأتى به إلى القاهرة كوزير للعدل في الحكومة المركزية. ولكن الحوراني لم يرتدع، بل قاطع اجتماعات مجلس الوزراء في القاهرة ثم خرج بموقفه إلى العلن في نهاية 1959. وإذ انعقد المؤتمر القومي لحزب البعث في صيف 1960، كان من مقرراته إبطال حلّ الحزب. وحتى لا يبدو القرار أنه موجه ضد عبدالناصر، خفّض المؤتمرون حدّة النقد العلنيّ لنظام الحكم ودعوا للعمل ضمن دولة الوحدة لتعزيز الديمقراطية. حيث كانت القناعة أنه مهما كانت معاناة حزب البعث، فإنّ الجمهورية العربية المتحدة هي أعظم إنجاز للبعث وهي رمز لحلم وحدة الأمة العربية وتجب المحافظة عليها وإصلاحها من الداخل وليس هدمها. وعمل عفلق على استمرارية فروع الحزب خارج سورية ما ستكون له مكاسب إيجابية طويلة الأمد. فسعى عام 1960 إلى انتشار الحزب في الدول العربية الأخرى عبر مركز قيادة في بيروت بمساعدة فؤاد الركابي في العراق وعبدالله الريماوي في الأردن وعلي جابر في لبنان. وبدا تأثر فروع الحزب بواقعها المحليّ ظاهراً منذ تلك الفترة. فقد رأى البعثيون العراقيون مثلاً أنّ الأولوية لهم هي حماية تنظيمهم داخل العراق وحاجتهم لدعم القيادة القوميّة ضد نظام عبد الكريم قاسم وأنّه ليس من مصلحة حزب البعث إضعاف عبدالناصر الذي يعاديه قاسم. وهذا كان لسان حال قيادة الفرع في الأردن حيث ذهب الريماوي أبعد من البعثيين العراقيين بأنّ عبدالناصر على حق وأنّ حزب البعث لم يرتقِ إلى مستوى التحديّ الذي جاءت به الوحدة بين سورية ومصر. وأعلن الريماوي انسحابه من الحزب، فاتحاً الباب أمام موالاة بعثيي الأردن لعبد الناصر.

ولم يخلُ المؤتمر من خلايا بعثية اتجهت نحو الماركسيّة، كما لم يتردّد الحزب في فصل قيادات بارزة لأسباب قد تبدو متناقضة أحياناً¹⁷⁷. وهكذا ظهرت انشقاقات خطيرة بين فروع داخل سورية وغيرها وبين كوادر تدين بأفكار مختلفة داخل صفوف البعث. وهذا الشقاق البعثي سيترك أثراً كبيراً على مستقبل سورية والعراق.

إضعاف الجيش السوريّ

قامت مصر بخطوات لكسر مراكز القوى في صفوف الجيش السوريّ أيضاً وشنت في آذار 1958 حملة تطهير طالت الضباط الشيوعيين، تلتها حملة ضد الضباط اليساريين والتقدميين، فثالثة ضد الموالين للحوراني وعفلق. وعندما خلا لمصر الأمر في الجيش السوريّ باتوا يطاردون أي عنصر حتى لو كان في مرتبة دنيا، ويزيحون كلّ من يعارض تمصير قيادة الجيش السوريّ. وكانت القيادة المصرية تتخذ هذه القرارات دون استشارة القيادة السوريّة.

¹⁷⁷ فصل فؤاد الركابي أمين سرّ الحزب في العراق في مؤتمر الحزب الرابع في آب 1961، أيضاً لتعاطفه الزائد مع عبدالناصر. كما فصل في مؤتمر الحزب السابع علي صالح السعدي أمين سرّ الحزب في العراق وحمود الشوفي أمين سرّ الحزب في سورية وجماعتهما هذه المرة بسبب تصلّبهما القطري ومواقفهما السلبية من عبدالناصر. وسيتنظر فصل الحوراني مؤتمر الحزب الخامس في أيار 1962، أيضاً لمواقفه المتشددة من عبدالناصر.

في تشرين الأول 1959، عين عبد الناصر المشير عبدالحكيم عامر حاكماً على سورية بكامل صلاحيات رئيس الجمهورية ومقيماً دائماً في دمشق، ما كشف أن سائر مظاهر الدولة والمؤسسات التي كان من المفترض أنها تقود الجمهورية العربية المتحدة قد أفلست لتسقط ورقة التوت عن نظام استبداد فردي. كما أن عامر لم يكن بحجم المسؤولية ولم يأخذ منصبه في إدارة سورية على محمل الجد. بل شوهد مراراً وأحياناً بشكل يومي في جلسات سهر وسمر في المقاهي والمطاعم وأماكن اللهو في دمشق وكان صاحب علاقات نسائية متعدّدة وعلنيّة. ثم بدأ ينافس عبدالحميد السراج في ممارسة الصلاحيات والتعيينات الأمنيّة. فزاد عامر في الإجراءات البوليسيّة والقمعيّة في سورية.

وحصلت في تلك الفترة مواجهات عنف في جامعة دمشق بين طلاب البعث وطلاب ناصريين، واستقال ثلاثة وزراء سوريين بساريين من الحكومة المركزيّة. وكان نفوذ البعث يضعف في صفوف القوات المسلّحة بسبب عمليّات التطهير وتراجع شعبيّة البعث نفسه، حتى أن أبرز أنصار البعثيين، عبد الحميد السراج، ابتعد عنهم مفضلاً مصالحه الشخصية. وكان عبدالناصر يعتقد أن إضعاف البعث وإخراجه من مراكز السلطة سيخفّف التوتر بين مصر وسورية. ولكن تصرفات القمع في سورية دفعت وزراء البعث في الحكومة المركزيّة إلى أن يقدّموا استقالتهم أيضاً. كما عمد المشير عامر إلى تطهير الجيش السوري من ضباط فلسطينيين ما أثار حفيظة رئيس الأركان عفيف البزري. وإذ اعترض البزري على هذا الإجراء، عزله عامر من منصب رئيس للأركان. وواصل عامر تسريح ونقل المزيد من الضباط.

وكانت أسوأ الإجراءات المصريّة في الجيش السوري بحق الشيوعيين، أن الإدارة المصريّة لم تكتفِ بإقوائهم من مناصبهم بل اعتقلتهم بعد خروجهم من الجيش ورمتهم في السجون وكأنّها تقدّم خدمة مجانيّة لأميركا. مقارنة بالضباط البعثيين الذين أزيحوا من مناصبهم وعوّضوا عن ذلك بتعيينهم في بعثات دبلوماسية في الخارج أو نقلوا إلى الإدارة العامّة في مصر. فكانت عمليّة تطهير الجيش من أكبر المصائب التي حلّت بالجيش السوري لأنّها طالت كادرات ضباط كفاءة وملتزمة وكان إبعادها مثير للغرابة في بلد يحتاج إلى كفاءة كلّ مواطن. فقد طال التطهير 4800 ضابط، أي نصف ضباط الجيش السوري. وعوّض عبدالناصر عن هذه الخسارة الفادحة في طاقة الجيش السوري بتحويل 2300 ضابط مصري إلى سورية. فزادت هذه الخطوة في إضعاف الجيش السوري. وشكا السوريون أن "الضباط المصريين الذين نُقلوا إلى سورية جاؤوا ليهيمنوا على الجيش السوري بعقلية الشرطة العسكريّة وعدم الثقة بالسوريين، سُغلهم التجسّس على زملائهم الضباط السوريين".

8. إجهاض الحركة الوطنيّة في الأردن

فيما كان الصراع الإقليمي والدولي يعصف على سورية، كان الأردن عند مفترق طرق سيجعله أكثر التصاقاً بالمحاور الغربية والمعسكر العربي المحافظ. ففي 24 نيسان 1950 وقد بدا أي حل سلمي لنكبة فلسطين بعيداً، أعلن الأردن السيادة على الأراضي التي احتلتها في فلسطين، وسط اعتراض سورية ودول عربية أخرى ومطالبة بطرده من الجامعة العربية. ولم تطرد الجامعة العربية الأردن من عضويتها، ولكنها أصدرت قراراً أن ضم الضفة الغربية هو إجراء أردني مؤقت، وهو مفيد عملياً يقوم الأردن أثناءه بإدارة الضفة ومساعدة أهلها إلى حين التوصل إلى حل نهائي للقضية الفلسطينية.

اغتيال الملك عبدالله

ولكن المعارضة استمرت إذ لم يكف تدخل الجامعة العربية، وخاصة أن نسبة الفلسطينيين في سكان الأردن بعد الضم بلغت 80 في المئة. ولم يساعد الوضع أن الملك عبدالله كان لا يزال بريطاني الهوى ومنفتحاً على "إسرائيل"، وعدواً شرساً للحركات القومية والثورية التي كانت تشتعل في العالم العربي وخاصة في دول المشرق ومصر. وفي العام 1951، انتشر خبر أن الملك عبدالله مزعم على عقد معاهدة صلح مع "إسرائيل" ليخرج من الصراع العربي الإسرائيلي ويرتبط بالكيان الصهيوني اقتصادياً. كما أنه وقّع قبل شهر "اتفاقية النقطة الرابعة" مع الولايات المتحدة يقبل بموجبها العون الأميركي لمجابهة الشيوعية وينضوي تحت ظل واشنطن. وكانت كل الدول العربية قد رفضت هذه الاتفاقية. فأثار سعيه للصلح مع "إسرائيل" وانضمامه للنقطة الرابعة هياجاً شعبياً في الدول العربية.

يوم الخميس 19 تموز 1951 غادر الملك ومعه حفيده الحسين عمان إلى القدس، حيث قضيا الليل في منزل آل النشاشيبي في ضاحية الشيخ جراح في القدس. ثم ذهبا باكر يوم الجمعة 20 يوليو إلى نابلس، حيث قضيا بعض الوقت وأفطرا مع سليمان طوقان رئيس البلدية. وعادا إلى منزل النشاشيبي للتحضير لصلاة الجمعة في المسجد الأقصى. ولدى وصولهما درجات الحرم القدسي، أطلق مصطفى عشي، وهو خياط من القدس، الرصاص من مسدسه على الملك فأرداه قتيلاً. كما أطلق العشي رصاصة على الحسين، ولكنها اصطدمت بميدالية على صدره أنقذت حياته. واتهم عشرة أشخاص بالتخطيط للاغتيال وحوكموا في عمان، بينهم العقيد عبد الله التل حاكم القدس العسكري والدكتور موسى عبد الله الحسيني، وأن التل كان على اتصال مباشر مع المفتي أمين الحسيني وأتباعه في القدس.

الملك طلال: فترة إصلاح قصيرة

تبوأ العرش بعد عبدالله ابنه ولي العهد الأمير طلال وله من العمر 42 عاماً. وكان طلال يعارض سياسات وأفكار عبدالله الرجعية وخاصة عداؤه للدول العربية. ورغم أن دستور العام 1946 اعتبر الأردن ذا نظام

ملكيّ برلمانيّ، فإنّ الملك كان يتمتع بصلاحيّات شبه مطلقة بيديه السلطة التنفيذية وهو القائد العام للقوات المسلّحة ويشترك البرلمان في السلطة التشريعيّة وخاصة أنّ له وحده صلاحية تسمية كلّ أعضاء مجلس الأعيان، وهو تسمية الوزراء في الحكومة أو عزلهم، وتعيين رئيس الحكومة وإزاحته، وكذلك صلاحية دعوة البرلمان إلى الانعقاد وتأجيل جلساته الدوريّة وصولاً إلى حق إقفاله وحلّه. وللملك سلطة تشريعيّة تعادل قوتها قوّة سلطة البرلمان، فيسنّ القوانين الملكيّة من خارج جلسات البرلمان. ولقد منحت المادة 125 من الدستور سلطات استثنائية للملك تعادل إعلان حال الطوارئ والحكم العسكريّ ("طوارئ إداريّة") "تعطّل أحكام أي قانون آخر". فعمل على تطوير البلاد بدءاً بوضع دستور عصريّ عام 1951 يقلّص من صلاحيّات الملك الاستبداديّة وتفرض عليه المزيد من المسؤوليّات ويمنح البرلمان والحكومة المزيد من السلطات¹⁷⁸.

178

كما جعل التعليم إلزاميّاً في المراحل الأولى ومجانياً في المدارس الرسميّة. وأسّس ديوان المحاسبة من ضمن مؤسسات دستوريّة مهمتها الرقابة الإداريّة والماليّة للدولة وذلك في 31 آذار 1952. وسعى طلال لتحسين العلاقات مع الدول العربيّة وخاصة مصر ووقّع اتفاقية الأمن العربيّ التي كان والده يرفض تماماً توقيعها وأمر بمنح كافة الحقوق المدنيّة للفلسطينيين حتى الذين لجأوا من أراضي 1948، وتمسّك بالقدس رافضاً تدويلها كما كانت تسعى الأمم المتّحدة. إلا أنّ طلال اعتزل عن العرش بسبب المرض في 11 آب 1952 وانتقل ليعيش في اسطنبول حتى وفاته عام 1972. وكان ابنه الحسين صغير السن في السادسة عشرة وتسعة شهور من عمره (وُلد عام 1935)، فأعلن ملكاً في اليوم التالي ولكن أصبح الأمير نايف وصياً على العرش حتى وصل الحسين سن الثامنة عشرة وتوجّج في 2 أيار 1953.

كانت فترة تسلّم الحسين الملك أسوأ مرحلة في حياة المملكة الفتية، جاءت عقب حرب فلسطين الخاسرة وفي خضم بركان يهزّ العالم العربيّ بثورات وانقلابات وحركات تحرّر وتيارات يساريّة وشيوعيّة في كلّ مكان. فكانت الأفكار القوميّة منتشرة في كلّ مكان يعضدها من القاهرة قائد أسطوريّ فدّ هو جمال عبدالناصر. وحاول الحسين الاستجابة لمتطلبات المرحلة التي تهدّد شرعيّة المملكة وسار في النهج الجديد الذي رسمه والده طلال. فعمّق العلاقة مع مصر ووقع اتفاقية ماليّة واقتصاديّة مع سورية، واتفاقيّة لإقامة سد مشترك على نهر اليرموك في شباط 1953. وسعت الحكومة إلى اعتراف دوليّ بالأردن وفي 14 كانون الأول 1955 أصبح الأردن عضواً في منظمة الأمم المتّحدة.

صعود الأحزاب اليساريّة في الأردن

عدا عن شؤون المنطقة وضغوطها على المملكة الصغيرة، كان الوضع الداخليّ يغلي. إذ خلال العقدين الأولين من الإمارة كان سكان الأردن قد رضخوا لحكم الملك عبدالله الدكتاتوريّ خلال العقدين الأولين من قيام

Uriel Dann, *King Hussein and the Challenge of Arab Radicalism*, p. 5. ¹⁷⁸

الإمارة بعدما قمع عبدالله بقوة أي معارضة داخلية أو صوت مناهض لسياسته. وكانت إدارات الدولة بإشراف سوريين وفلسطينيين وشركس ومن سكان شرق الأردن العرب. ولكن بعد 1950 أصبح نصف السكان من الفلسطينيين بقيادة فلسطينية لم تكن راضية عن الملك حسين.

إلا أن استقلال الأردن عام 1946 وحرب فلسطين عام 1948 بدّلا الأمور كثيراً وخاصة انضمام سكان الضفة الغربية إلى المملكة بموجب دستور 1951 وتقسيم المقاعد النيابية ودخول الأحزاب المنتشرة في فلسطين وخاصة اليسارية بقوة إلى الحياة الأردنية. وكان أهل الضفة قد خسروا فلسطين لتوهم وشهدوا قيام دولة استيطان عنصري على أرضهم. وما جعل الوضع أكثر مرارة أن مئات الألوف قد أقاموا في مخيمات النزوح وباتوا يعدّون السنّة وراء السنة لكي يعودوا إلى قراهم وبيوتهم وينتظرون عملاً عربياً من أجلهم بدون جدوى¹⁷⁹. كما أن اندماج الفلسطينيين، سواء من النازحين أو من سكان الضفة الذين لم يغادروا بيوتهم، في المجتمع الأردني جرّ تعاطفاً عارماً من السكان دفع البلد بأسره ليكون أكثر عداءً لـ"إسرائيل" من أي حقبة سابقة.

وضمن النهج نفسه خرج قانون عصري لتأسيس الأحزاب وترخيصها في 30 كانون الأول 1953 مطابق لتوجهات الدستور "أن مبادئ أي حزب يسعى للترخيص يجب أن لا تناقض مفهوم الوحدة العربية وأن تبعد عن التفرقة الطائفية والعرقية"، فلا تسبب انقساماً بين مكونات المجتمع. وأن واجب وزير الداخلية أن يوافق على ترخيص أي حزب خلال مدة أقصاها ستة شهور، أو يرفض مع تعليل وشروط. وستكون لهذا القانون نتائج مهمة على البلاد خلال سنوات قليلة¹⁸⁰. ويشبه هذا الوضع ما حصل في نهاية الستينيات عندما رخص كمال جنبلاط بصفته وزير الداخلية في لبنان للأحزاب اليسارية عام 1969 ومنها أحزاب يسارية وقومية وشيوعية لم تكن قد حصلت على رخصة سابقاً.

وفي تلك الفترة تصاعد نفوذ القوى الوطنية واليسارية في الأردن وباتت صاحبة نفوذ متزايد¹⁸¹. وإذ لم يكن في إمارة شرق الأردن سابقاً أي وجود شيوعي يذكر، فإن ضم الضفة الغربية التي باتت تشكل نصف سكان المملكة الموسعة، أدخل الحزب الشيوعي النشط في فلسطين بقوة إلى الساحة. في البداية تضمّن الحزب الشيوعي الفلسطيني يهوداً وعرباً وكان مقرّباً من موسكو التي حكمها جوزف ستالين الذي كان يعتقد أن الصهيونية حركة اشتراكية تقدمية والدول العربية رجعية عميلة الاستعمار الغربي الذي صنعها. ولكن بعد حل الكومنترن الدولي عام 1943، انفصل الفلسطينيون العرب وأسسوا تنظيمًا خاصاً بهم وأصدروا صحيفة الاتحاد التي لاقت انتشاراً واسعاً¹⁸². ولكن توجهات الكرملين بالقبول بتقسيم فلسطين وقيام دولة لليهود وضمناً الاعتراف بـ"إسرائيل"، قلّص من شعبية الحزب. وبعد ضم الضفة الغربية، قوي ساعد الشيوعيين في

Hitti and Issawi, *Jordan*, p. 67. ¹⁷⁹

¹⁸⁰ لقد تم تقييد هذا الهامش من الحرية بقانون الطوارئ 21 آب 1954 الذي منح مجلس الوزراء حق رفض طلب ترخيص أي حزب وكذلك إعادة النظر وإلغاء الترخيص وحتى حظر أحزاب إذا كان ذلك "يخدم المصلحة العامة" وهي عبارة عامة وفضفاضة يمكن إساءة استعمالها. راجع كتاب حتي وعيساوي نفسه المذكور في المصدر السابق صفحة 69. كما أن الملك استعمل مراراً قوانين الطوارئ العسكرية للعام 1939 والتي وضعتها سلطات الانتداب البريطاني بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية. وإجراءات الطوارئ هذه لم يتم إلغاؤها.

¹⁸¹ Uriel Dann, *King Hussein and the Challenge of Arab Radicalism*, p. 16.

¹⁸² *New York Times*, November 27, 1953.

الأردن ضد الملك عبدالله، وعام 1950، قاطعوا الانتخابات ووقفوا ضد إنشاء "الحرس الوطني" كأداة بيد الملك من خارج الجيش وقوى الأمن تقمع المعارضة بحجة الاستقرار، وتحالف الشيوعيون مع خصوم الملك عبدالله داخل الأردن وخاصة المناهضة لسياساته المرتهنة للغرب والمساومة على مستقبل فلسطين والتعاون مع "إسرائيل" التي اعتبرها أقل خطراً من سورية. أما الملك فقد حارب الشيوعية واستصدر مرسوماً خاصاً يأمر بحظر تنظيمهم وقمع نشاطاتهم، فذهبوا إلى العمل السري.

رأس الحزب الشيوعي في الأردن فؤاد نصار وهو أرثوذكسي من الناصرة، وفي حزيران 1951 عقد الحزب مؤتمره الثاني وجعل اسمه الحزب الشيوعي الأردني. وكانت سياسة موسكو قد تبدلت، فسحب المؤتمر اعتراف الحزب بالتقسيم وعارض أي اتفاق سلام مع "إسرائيل". واستفاد الشيوعيون من الهدوء النسبي الذي خيم على الأردن بعد صدمة اغتيال الملك عبدالله، فشاركوا في انتخابات الأردن في آب 1951 بمرشحين عديدين، أربعة منهم كانوا يعيشون منفيتين في القاهرة (عبدالرحيم بدر ورشدي شاهين وأحمد علي عريقات وعيسى المدانات) وآخرون في الداخل (عبدالمجيد أبو حجة ومحمود المطلق). وكانت عناصر المخابرات الأردنية قد تغلغلت في صفوف الحزب واستطاعت اكتشاف مكان فؤاد نصار، فاعتقلته في كانون الأول 1951 وصدر حكم قضائي عليه بالسجن عشر سنوات. فأصبح رضوان الحلو رئيساً للحزب، وهو من الشيوعيين الأوائل في الحزب الشيوعي الفلسطيني.

ثم بدأت حملة شرسة ضد الشيوعيين في الأردن طيلة عام 1952 تضمنت إجراءات قمعية قاسية طالت حتى الذين يتبرعون للحزب أو يوزعون منشوراته أو يبيعون صحيفته، واتهم كثيرون بـ"التآمر" و"التحريض" لأبسط الأسباب. فكانت النتيجة اعتقال المئات من أعضاء الحزب ومناصريه. إلا أن الحزب واصل النشاط في 1953 و1954 وركز بشكل خاص على المخيمات الفلسطينية حيث الغضب في أوجه وعلى الطبقة العاملة، فكان عديده يزداد باستمرار. وكان يقود الحملة ضد الشيوعيين ضابط إنكليزي في جهاز الأمن الأردني فرع مكافحة الجرائم، أمر بإحصائهم وتوزعهم الجغرافي في تسع مناطق إدارية ووعد بالقبض عليهم في يوم واحد. ففي القدس كان ثمة عشر خلايا شيوعية معظمها يضم أطباء ومحامين وأصحاب مهن رفيعة منهم الدكتور يعقوب زيادين رئيس مستشفى أوغسطا فكتوريا الأكبر في القدس وكانت الأكبر في كل الأردن. وكان زيادين أرثوذكسياً أيضاً وأصبح أميناً عاماً للحزب الشيوعي الأردني. وفي انتخابات 1954 نظم الشيوعيون اثتلافاً جديداً باسم الجبهة الوطنية، وتارة أضافوا كلمة اشتراكية أو ديمقراطية وفق الحملات الانتخابية ولم ينالوا اعترافاً رسمياً. ومن الأحزاب أيضاً الحزب العربي وهو حزب فلسطيني قديم رعاه الحاج حسين الحسيني مفتي القدس الذي حامته حوله شبهات أنه أمر بقتل الملك عبدالله عام 1951¹⁸³. لقد فاز هذا الحزب المعادي للصهيونية بمقعدين أحدهما للدكتور داود الحسيني ابن عم المفتي. وكان هذا الحزب في طليعة التظاهرات المناهضة لسياسة الملك حسين في الانضمام لحلف بغداد عام 1955، فنظم جمال الحسيني ابن عم المفتي حملة

¹⁸³ تعود عداوة المفتي وآل الحسيني في القدس للهاشميين وخاصة للملك عبدالله إلى فترة الانتداب البريطاني فقد دعم عبدالله ومول أخصام آل الحسيني للسيطرة على الحركة السياسية في فلسطين في الثلاثينيات والأربعينيات. حتى أن آل الحسيني تقربوا من آل سعود، العدو التقليدي للهاشميين. حيث كان جمال الحسيني، ابن عم المفتي مقرباً من السعوديين وعينه الملك سعود في الخمسينيات مستشاره الخاص.

شعبية واسعة بدعم وتمويل من السعودية استطاعت إسقاط حكومتين في أسبوع واحد في كانون الأول 1955. وكان أهل الضفة الغربية في مقدمة التظاهرات الأكثر صخباً¹⁸⁴.

توفيق أبو الهدى والحزب الدستوري

كما نشط الحزب الدستوري بقيادة توفيق أبو الهدى ورياض المفلح، وممثل الإقطاع والأعيان في شرق الأردن، ولم يكن لديه مبادئ أو برامج عمل واعتمد على شعبية زعيمه توفيق أبو الهدى وشعبية مرشحيه من الشخصيات التقليدية بسياسة معتدلة تجاه الغرب. ومع ذلك فقد كان هذا الحزب يميل للقومية العربية التي كانت الشعور الجارف لدى أحزاب الأردن والناخبين. ذلك أن أبو الهدى كان صاحب موهبة سياسية ودهاء أصبح لولب السياسة المحلية في الأردن لأعوام عدة. وكان تفكيره أوسع من السياسة المحلية بسبب تجربته في بلدان المشرق: فهو فلسطيني الأصل من عرب 1948، وُلد في مدينة عكا عام 1894 من أسرة أصولها من مدينة الرملة شرق يافا. وأكمل دراسته الثانوية في بيروت، ثم درس الحقوق لمدة ثلاث سنوات، وعمل أثناء الحرب العالمية الأولى محاسباً في العراق وحلب. وعندما انسحبت القوات العثمانية من سورية في تشرين الأول 1918 عمل في مدرسة الحقوق في دمشق حتى 1922. يعني أنه طيلة 26 سنة من حياته لم يكن في الأردن وعاش في بلاد الشام والعراق. وفي العام 1922 انتقل من دمشق إلى عمان فعيّنته إدارة الأمير عبدالله مديراً في المالية. والطريف أن الأمير عبدالله أعجب بأبو الهدى فمنحه رتبة الباشوية التي كانت درجة في أيام العثمانيين ليصبح أبو الهدى من الشخصيات البارزة في مجلس الأعيان الأردني¹⁸⁵، واستطاع أن يتدرج بسرعة في الإدارة العامة إلى مدير المحاسبة العامة ثم مدير الدائرة العقارية، حتى أصبح عام 1928 عضواً في المجلس التنفيذي (مماثلة مجلس الوزراء) ثم سكرتيراً عاماً لهذا المجلس عام 1929. وفي أيلول 1938 أصبح رئيساً للمجلس التنفيذي (أي الحكومة) ثم تولى منصب رئاسة الوزراء 12 مرة حتى 1954 تحت ثلاثة عهود ملكية: عبدالله وطلال والحسين.

¹⁸⁴Hitti and Issawi, *Jordan*, p. 72.

¹⁸⁵ مجلس الأعيان: بعد إعلان استقلال المملكة الأردنية في 25 أيار عام 1946، صدر دستور جديد نصّ على أن السلطة التشريعية تناط بمجلس الأمة ويتألف من مجلسين هما مجلس شيوخ ومجلس نواب. ويكون اسم مجلس الشيوخ "مجلس أعيان". ويتألف مجلس الأعيان من عدد لا يتجاوز نصف عدد مجلس النواب، ويعين الملك أعضائه مباشرة. واشترط في عضو مجلس الأعيان أن يكون قد أتم الأربعين سنة ويكون من إحدى الفئات التالية: رؤساء الوزراء والوزراء الحاليون والسابقون، ومن عمل سابقاً في مناصب السفراء، والوزراء المفوضين، ورؤساء مجلس النواب، ورؤساء وقضاة محكمة التمييز ومحاكم الاستئناف النظامية والشرعية والضباط المتقاعدين من رتبة أمير لواء فصاعداً، والنواب السابقين الذين انتخبوا للنيابة ليس أقل من مرتين، ومن مائل هؤلاء الشخصيات الحائزين على ثقة الشعب واعتماداً بأعمالهم وخدماتهم للأمة العربية والوطن الأردني.

طرد الإنكليز

كان نفوذ بريطانيا في الأردن العقبة الرئيسيّة أمام سياسة وطنيّة مواكبة للتيار العروبيّ. فبريطانيا منحت الأردن استقلالاً اسمياً عام 1946 على أساس اتفاقية مدّتها 25 سنة تمنح بريطانيا امتيازات تفضليّة. وهذه الاتفاقية - بسبب ما حملت من إجراءات - ساومت على سيادة الأردن وضربت شعبيّة الملك عبدالله في الداخل. ولذلك في 15 آذار 1948، تمّ توقيع اتفاقية جديدة مدتها 25 عاماً هي نسخة معدّلة عن اتفاقية عام 1935 وقلّصت نفوذ بريطانيا الذي مع ذلك بقي قوياً وعميقاً.

فقد قدّمت لندن للملك عبدالله منحة ماليّة سنويّة وحصلت على شرعيّة قاعدتين عسكريّتين في عمّان والمفرق وعلى مجلس عسكريّ مشترك للتعاون في الخطط العسكريّة وشؤون التدريب، وعلى حق تجهيز الجيش الأردنيّ بمعدات بريطانيّة حصراً، وفي حال قيام حرب أو أزمة تهدّد بريطانيا يحق لبريطانيا استعمال كافة خطوط الاتصال والطرق والأجواء في الأردن وكذلك مرابطة قوات بريطانيّة على الأراضي الأردنيّة. ومقابل كلّ هذه التنازلات الفاضحة من الجانب الأردنيّ، تقدّم بريطانيا مكافأة ماليّة للأردن ومعدات عسكريّة للعصبة العربيّة وهي جيش الأردن في ذلك الوقت.

كانت المساعدات العسكريّة البريطانيّة مسألة حساسة للأردن، لأنّها شكّلت نصف موازنة الحكومة السنويّة. وعلى سبيل المثال، كانت ميزانيّة الحكومة الأردنيّة للسنة الماليّة 1955 - 1956 18 مليون دينار، فجاء منها 9 ملايين معونة بريطانيّة لتمويل العصبة العربيّة، إضافة إلى منحة تسهيلات لمشاريع تنمويّة ولكن لا تزيد قيمتها عن 1.6 جنيه استرليني في العام نفسه¹⁸⁶. وهنا كمنّت المعضلة. إذ إنّ الأردن كان فعلاً بحاجة للمساعدات البريطانيّة، في حين كانت أغلبيّة الشعب الأردنيّ تشعر بالإهانة على هذه التبعيّة.

وكان من رواسب حرب فلسطين أنّ الشعب الأردنيّ كان ناقماً على الإنكليز لأنهم كانوا سبب قيام "إسرائيل". وصبّ الأردنيّون غضبهم على العصبة العربيّة وعلى قائدها جون غلوب باشا الإنكليزيّ وعلى ضباطها الإنكليز رمز الاستعمار المقيت. وكان غلوب ممقوتاً لدى عامة الناس متهماً بالتواطؤ مع الإسرائيليين في حرب 1948 وفي هجماتهم على أهداف داخل الأردن. وفي حادثة دالة، في 14 - 15 تشرين الأول 1953، قاد آرييل شارون حملة عسكريّة من 890 جندياً ارتكبت مجزرة في قرية قبية الفلسطينيّة في الضفة الغربيّة والتي تبعد 11 كلم عن مدينة اللد. فقتل المهاجمون الإسرائيليّون 69 فلسطينياً معظمهم من النساء والأطفال ودّمروا 56 منزلاً إضافة إلى مدرستين ومسجد. واتهمت الحركة الوطنيّة الأردنيّة غلوب باشا بالتواطؤ مع "إسرائيل" وتسهيل الهجوم والتأخير المتعمّد في إرسال جنود العصبة العربيّة لمنع المجزرة¹⁸⁷.

ولم يكن الملك حسين بعيداً عن هذه الأجواء المعادية للإنكليز. إذ إنّه عام 1954 تأثر بحصول مصر بقيادة عبدالناصر على اتفاق مع الإنكليز لصالح مصر وضغط لكي يحصل الأردن أيضاً على معاملة مماثلة من الإنكليز وأن تُراجَع اتفاقية 1948. إلا أنّ الإنكليز طلبوا أن يؤجّل هذا الطلب ريثما يرسموا استراتيجيتهم

Hitti and Issawi, *Jordan*, p. 75.¹⁸⁶
Mid East Mirror, October 24, 1953.¹⁸⁷

العسكرية الجديدة، ووعدوا بزيادة المعونة العسكرية السنوية بقيمة 350 ألف جنيه استرليني وذلك لدعم الحرس الوطني الذي كان يُستعمل لردع الفدائيين عن مهاجمة "إسرائيل". ولكن لندن سلّمت المبلغ للضباط الإنكليز في العصابة العربية وليس للحكومة الأردنية. ولم تشك حكومة الأردن على هذه الإهانات لأنه لم يكن أمامها بديل مالي. ما أدى إلى تصاعد الغضب الشعبي ضد بريطانيا وخاصة في الضفة الغربية، بتشجيع من مصر والسعودية. ووصل الغضب مداه في كانون الأول 1955 عندما طلبت بريطانيا من الملك حسين إلحاق الأردن بحلف بغداد مقابل مساعدات مالية تفوق 9 ملايين جنيه استرليني سنوياً.

ومع أن الملك حسين فطن لرياح القومية والتحرير في دنيا العرب، فقد كانت تتنازع رباح غربية أيضاً ويسير في نهج بريطانيا العظمى ويتأثر بأسرة شقيق جدّه فيصل في المملكة العراقية. فهو ذهب إلى المدرسة نفسها مع فيصل الثاني، وعندما أصبح ملكاً على الأردن أخذ يتبادل الزيارات مع هاشميين العراق. ثم وافق أن ينضمّ الأردن إلى حلف بغداد عام 1955 والذي يجعل الدول الموقعة رديفاً لتركيا وحلف الناتو. وكان الملك حسين يعتقد أنّ الاتفاقية التي سيوقعها مع بريطانيا بعد التحاقه بحلف بغداد ستكون أفضل بكثير من شروط اتفاقية آذار 1948 وخاصة أنّ العراق وُقِع في نيسان 1954 اتفاقية خاصة مع بريطانيا بدت جيدة بنظر الحسين. ولكن رئيس الحكومة الأردنية سعيد المفتي وهو شركسي، رفض توقيع اتفاقية جديدة مع الإنكليز أو الانضمام إلى حلف بغداد. فقدّم استقالته في 14 كانون الأول 1955.

وكان الحسين مصمماً على السير قدماً فاختار هزاع المجاليّ الذي وافق على توقيع الاتفاقات مع الإنكليز لتشكيل حكومة جديدة. وانفجر الغضب الشعبي في وجه المجاليّ ما أجبره على الاعتذار والتّخّي بعد خمسة أيام من تكليفه. ولذلك اشترط من جاء بعده في رئاسة الحكومة - أي إبراهيم هاشم وسمير الرفاعي - أن لا ينضمّ الأردن إلى معاهدة بغداد.

وهنا طبّق الحسين المثل المأثور "إن أردت أن تطاع فأطلب المستطاع" أو "إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون". فترجع عن الانضمام إلى حلف بغداد وعن توقيع اتفاقية جديدة مع لندن واستجاب لضغط الشارع وللضغوط السعودية والمصرية التي خلقت أمامه وضعاً داخلياً رافضاً من الصعب تجاهله. ولذلك في 2 آذار 1956، وافق على بعض مطالب المعارضة وأمر غلوب باشا بالتنحي عن قيادة العصابة العربية وبدأت حملة تعريب قيادة الجيش فطرد كافة الضباط الإنكليز قبل انتصاف شهر آذار كتعبير عن إزالة النفوذ الاستعماري.

ولكن الحسين طلب أن يستمر دعم لندن المالي رغم تسلّمه عروضاً من مصر والسعودية وسورية بتعويض أي حاجيات مالية إذا تخلى عن اتفاقية 1948 مع بريطانيا، ولمدّة عشر سنوات وليس لخمس سنوات كما وعدت بريطانيا. ثم ساهمت الولايات المتّحدة في تمويل الأردن منذ 1957.

لقد كان الأردن بلداً فقيراً منذ نشأته كإمارة في العشرينيات، وكانت إضافة الأراضي الفلسطينية إلى المملكة عبئاً إضافياً إذ إنّ نصف الفلسطينيين الذين أصبحوا مواطنين في الأردن كانوا من اللاجئين. فكان الاتكال على الدعم المالي الغربي ركناً أساسياً، سواءً من الولايات المتّحدة بموجب النقطة الرابعة تحت غطاء "تنموي" أو من الأونروا، هيئة اللاجئين الفلسطينيين التابعة للأمم المتّحدة. وهذه المساعدات هي التي كانت تساعد في

ضح الموازنة السنوية للحكومة وتبعدها عن العجز الهائل كما سبقت الإشارة. فلم يربط الملك بين ما تلقاه الأردن من مساعدات عربية وبين المساعدات الأميركية والبريطانية أو أن الأولى تستبدل الثانية. ولكن في حين كان الملك السابق عبدالله يتصرف بعقده نقص ويعبر عن امتنانه للدعم البريطاني في كل مناسبة، اختلف الوضع مع الملك حسين الذي أيقن - خاصة بعد ثورة العراق عام 1958 - أن على الغرب مدمم مملكته بالمال والدعم العسكري ولا داعي للاستجداء الشفهي. كما أن تحسن الوضع الاقتصادي نسبياً وخاصة في قطاع السياحة في الستينيات ساهم في تخفيف التبعية وإن بقي الاقتصاد الأردني مرتهاً.

زلزال انتخابات 1956

مهّدت حملة تعريب الجيش وطرد الإنكليز باكراً عام 1956 للانتخابات النيابية. ففي الانتخابات النيابية في الأردن في 21 تشرين الأول 1956، تنافس 144 مرشحاً بينهم 76 من المستقلين وكانت أنزه انتخابات في تاريخ الأردن وأكثرها ديمقراطية رغم الجو المشحون. فقد اهتاج الشعب في الأردن للدعم العاري الذي وفّره أميركا والدول الغربية ضد العرب ولجؤوا إلى الأحزاب المناهضة للغرب. وكان الملك حسين قد تلقى النصح من حاشيته وخاصة من مدير الديوان الملكي بهجت التلهوني وبهجت طيارة مستشار جده عبدالله ومدير الأمن العام، أن يعطل الدستور ويلغي الانتخابات. ولكنه فضّل المضي في الانتخابات عملاً بمنطقه إفساح المجال لاستيعاب القوى الوطنية في البلاد.¹⁸⁸

وإزاء العدد الكبير من المستقلين، أكثر من النصف، شاركت في الانتخابات 7 أحزاب، ثلاثة منها فقط مرخصة: الحزب الاشتراكي العربي وحزب البعث العربي والحزب الدستوري العربي. والأحزاب الأربعة الأخرى كانت محظورة، ومع ذلك كانت نشطة ومشاركة في الانتخابات ولم تتعرض لها السلطات. ومن الأحزاب المحظورة، الجبهة الوطنية التي كانت واجهة للشيوعيين وذكرناها سابقاً، والحزب العربي ومنظمات إسلامية. ومن التنظيمات حركة القوميين العرب التي تأسست في فلسطين عام 1949 ونادت بالعروبة ووحدة البلدان العربية بمنطق سبق ظهور جمال عبدالناصر في مصر وقبل أن تصبح القاهرة ركيزة القومية العربية. ولكن بعد 1952 سرعان ما أعلنت ولاءها للرئيس المصري ورفدت نفوذه بمد جماهيري واسع وخاصة في سورية ولبنان والأردن.

أما أهم حزب أردني كان الأكثر تعبيراً عن الحياة الحزبية، فهو الحزب الوطني الاشتراكي الذي تأسس عام 1954. فقد امتدت جذور الحزب وشعبيته فكان من أولوياته الحفاظ على الأردن، وكان من أعضائه وقادته أبناء العائلات البارزة شرق الأردن ومنطقة نابلس في الضفة الغربية، خاصة من طبقة أصحاب الأعمال وملأك الأراضي. وكانت جذور أعضاء هذا الحزب تتضمن السعي لاستقلال الأردن وذهاب الاستعمار البريطاني وتوفير فرص العمل والنجاح المهني لأبناء البلاد والارتباط بالعالم العربي الأوسع. كما أن هذا الحزب رفض الاعتراف

Joseph A. Massad, *Colonial Effects: The Making of National Identity in Jordan*, New York, Columbia University Press, 2001, ¹⁸⁸

.1p. 19

بالحدود الوهمية مع سورية التي خلقها الانتداب الفرنسي بوجه أي وحدة عربية. وفي القاهرة هُلل عبدالناصر لولادة هذا الحزب كحركة عروبية تقدمية، وأعلن أنّ زعيم الحزب سليمان النابلسي في عمّان هو "رمز لنهوض العرب"¹⁸⁹. ولكن عدا عن إرث وطني لم يكن بين أعضاء الحزب وقيادته مفكرون وأصحاب آراء إيديولوجية حول المجتمع والتاريخ والثقافة. كما أنّ اهتمام الحزب بمسألة التقدّم الاجتماعي لم يكن جدياً ولا خطابه التطوري مقنعاً للمتعلّمين ومَن يميزون بين خطط العمل الصحيحة للأحزاب والكلام المرسل. ولذلك فمعارضة هذا الحزب لحكم الملك كانت ضعيفة لم تستند إلى خطاب تحويري قوي، بل كان همُّ الأعضاء والقادة تحصيل فوائد شخصية وتحسين وجودهم في البلاد كما هي بدون الذهاب بعيداً في مطلبيّة ثورية قد تتطلّب التضحيات الشخصية. ومع ذلك بقي هذا الحزب ضمن تصنيف الأحزاب التقدمية والقومية والأوفر حظاً في الوصول إلى السلطة من أحزاب أكثر راديكالية.

لقد فازت القوى القومية المناهضة للغرب و"إسرائيل" سواءً من مرشحي الضفة أم من شرق الأردن فوزاً ساحقاً. ففي القدس مثلاً فاز ثلاثة يساريين بينهم شيوعي وفي نابلس فاز أيضاً شيوعي ويساريان إثنان، وكذلك في الخليل التي تعرّضت لغارات إسرائيلية قاتلة في السنوات السابقة. فمن الشيوعيين فاز يعقوب زيادين في القدس وعبدالقادر الصالح في نابلس وفائق وزّاد في رام الله. وفاز مرشحون يساريون وقوميون¹⁹⁰. وبرز في البرلمان كتّلت يساريّ ضخم ضم 21 نائباً إضافة إلى 3 نواب مستقلين لا ينتمون للأحزاب ولكنهم من اليسار القومي. وفاز تنظيم الأخوان المسلمين المحظور بأربعة مقاعد منها مقعد لحزب التحرير الإسلامي المنبثق عن الأخوان.

أصيب الحزب الدستوريّ بصدمة في هذه الانتخابات. فبعدما كان يفوز بأغلبية المقاعد في الانتخابات السابقة تقلّصت حصّته هذه المرة إلى 8 مقاعد معظمهم من شرق الأردن. وحصل الحزب الوطنيّ الاشتراكيّ على أكبر عدد من المقاعد وهو 14 نائباً. فاستدعى الملك حسين رئيسه سليمان النابلسي وكلفه تشكيل حكومة كانت أكثر حكومة يسارية وقومية في تاريخ الأردن. فقد كان النابلسي من بلدة السلط غرب عمّان القريبة من نهر الأردن، وأقام سنوات عدّة في بيروت حيث تابع تحصيله الجامعي في جامعتها الأميركية التي كانت قلعة العربيين في تلك الفترة ومنها انطلق جورج حبش وحشد من قادة المقاومة الفلسطينية والأحزاب القومية. وأصبح سفير الأردن في لندن، وقبل ترؤسه الحكومة كان رأس حربة بمواجهة السياسات الغربية وخاصة حلف بغداد.

كان النابلسي قد بلغ من العمر 48 عاماً عندما خاض الانتخابات عام 1956. فقبل التكليف وتحالف مع حزب البعث الاشتراكيّ ومع شيوعيي الجبهة الوطنية ليكونوا معاً في حكومة واحدة معاً. وكان النابلسي يؤمن أنّ خلاص الأردن يقع في صف سورية خاصة ولكن مع مصر أيضاً وفي إنهاء المعاهدة مع بريطانيا التي أبقت الأردن تحت الاستعمار، وفي الانتماء إلى مجموعة دول عدم الانحياز التي تأسست في باندونغ في إندونيسيا عام 1954 بقيادة جمال عبدالناصر وجوزف تيتو رئيس يوغسلافيا وشو إن لاي رئيس حكومة الصين وجواهر

¹⁸⁹ Christian Science Monitor, October 22, 1952.
¹⁹⁰ New York Times, 23 October, 1956.

لال نهرو رئيس حكومة الهند وأحمد سوكارنو رئيس إندونيسيا. أما سياسة حزبه الداخلية فلم يكن الحزب الوطني الاشتراكي اشتراكياً فعلاً بل كان كحزب كمال جنبلاط التقدمي الاشتراكي في لبنان، اشتراكياً بالاسم وليس ماركسيّاً، بل يسعى إلى سياسات معتدلة في العدالة الاجتماعية والبرامج الصحية والتربوية والبنية التحتية ومحو الأمية والفقر. وهي أهداف أي حزب معتدل في أوروبا الغربية.

اعتبر الإعلام الغربي حكومة النابلسي الأكثر يسارية في تاريخ العرب المعاصر. فهي ضمت عبد الحميد نمر وأور الخطيب ونعيم عبدالهادي وشفيق ارشيدات وصالح معشر وصالح المجالي وسمعان داود وعبد القادر صالح وعبدالله الريماوي وصلاح طوقان.

عمدت حكومة النابلسي فوراً إلى تنسيق سياسات الأردن الخارجية مع مصر وسورية ووضعت الجيش الأردني بتصرف القيادة العربية المشتركة في القاهرة. وبدا أنها تسير في رياح القومة العربية الجارفة من دمشق والقاهرة، وتسعى لتقارب مصري مع البلدين. كيف لا وحليفا الحزب الوطني الاشتراكي هما حزب البعث، وهو فرع قطري تديره القيادة البعثية في دمشق ويسعى إلى وحدة عربية واشتراكية عربية، والجهة الوطنية التي تسعى للتقرب من الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية وعقيدتها هي الماركسية. لقد كان البعث في الأردن أكثر الأحزاب متانة وتنظيماً، جلّه من المثقفين والطلاب، يرأسه عبدالله الريماوي وهو من رام الله في الضفة الغربية التي أصبحت جزءاً من الأردن في ذلك الوقت. وقد فاز الريماوي بمقعد رام الله في البرلمان الأردني عام 1956.

لقد أسفرت انتخابات 1956 عن سيطرة أغلبية معادية لبريطانيا، وتطالب بإلغاء اتفاقية 1948 وترفض استغلال لندن لقواعدها في الأردن للاعتداء على العرب كما حصل في العدوان الثلاثي على مصر في العام نفسه. وأن على الأردن أن يستند إلى دعم أخوانه العرب وخاصة على مصر والسعودية وسورية في تمويل قواته العسكرية. وهكذا عشية الذكرى التاسعة لقرار تقسيم فلسطين، أعلن رئيس الحكومة سليمان النابلسي أن "الأردن مستعد لإلغاء معاهدة التحالف والصدقة مع بريطانيا بمجرد أن تطبق مصر والسعودية وسورية العرض بتعويض العون البريطاني وقيمته 12 مليون جنيه استرليني سنوياً"¹⁹¹. وبعث النابلسي وفوداً إلى البلدان العربية الثلاثة لبحث تفاصيل العون العربي. فقدّمت الدول الثلاثة دعماً مالياً وأعطت سورية الأردن أسلحة كثيرة ومصر طائرات حربية.

الملك حسين يقلب الطاولة

اعتقد الملك أنه بعد تعريب الجيش وطرده الإنكليز قد أدى واجبه تجاه القوى الوطنية في الأردن. وبعد الانتخابات توقع أن تكف لسانها وتقبل بالتعايش السلمي داخل المملكة كمعارضة موالية للنظام الملكي إسهوة بنظام الحكم في بريطانيا loyal opposition. ولكن القوى الوطنية كانت ماضية في تنفيذ أفكارها

¹⁹¹New York Times, November 29, 1956.

وأمالها في أن يصبح الأردن في خضم الصراع العربي الإسرائيلي وكذلك في دائرة عدم الانحياز ومناهضة الولايات المتحدة والغرب.

بعد العدوان الثلاثي على مصر، طالب البرلمان الأردني بشطب المعاهدة مع بريطانيا التي ارتكبت مع "إسرائيل" وفرنسا عدواناً سافراً ضد مصر الشقيقة. ثم وقّعت الحكومة على اتفاقية التضامن العربي مع مصر وسورية والسعودية التي تتضمن دعم هذه الدول للأردن ولمّحت ضمناً إلى إلغاء المعاهدة مع بريطانيا. ثم مضت أشهر حكومة النابلسي على خير، ولكن في 8 آذار 1957، وفي الذكرى السنوية الأولى لتعريب الجيش وإزاحة غلوب باشا، ألقى الحسين خطاباً وأعرب عن سعادته "بتحرير وتعريب الجيش... وها قد مضى عام وأصبح جيشنا عربياً كما رغبته أممتنا العربية أن يكون"¹⁹². وهكذا يكون الملك على الموجة نفسها مع القوى الوطنية. إلا أن رئيس الحكومة النابلسي ذهب بعيداً في خطابه في المناسبة مهاجماً بريطانيا وأن الجيش الأردني قد أصبح "جيش الشعب.. جيش فلسطين جيش القومية العربية التحريرية.. جيش الأمة العربية الواحدة"¹⁹³. وفي الشهر نفسه تم إلغاء المعاهدة مع بريطانيا بعد مفاوضات استمرت شهراً (أربعة أسابيع)، فوافقت بريطانيا على سحب ما تبقى من قواتها في الأردن ومنها 1500 جندي في العقبه جنوباً، شريطة أن تعوّد الحكومة الأردنية عن الأبنية والعقارات التي أخلتها هذه القوات والمعدات التي تركتها.

أمام السيل الجارف داخل البلاد الذي وصل إلى البرلمان والحكومة، زاد قلق وخوف الملك وحاشيته والقوى الموالية للعرش. فالحسين شارك الحركة الوطنية مشاعر العروبة ولكنه لم يكن معادياً للغرب ولا يريد أن ينجرّف مع هذا التوجّه. وقلق الملك أن قبوله بالديمقراطية سيجرّه إلى تنازلات تنتهي بجعل المملكة جمهورية ناصرية تتلقى تعليماتها من القاهرة. أما حاشية الملك وأنصاره فقد تخوّفوا من البعث في سورية والعراق والناصرية في مصر، وأنهم عاجلاً أم آجلاً سيخسرون سلطتهم ونفوذهم وربما ستنتهي الملكية في الأردن. كما أن غزو بريطانيا لمصر في العدوان الثلاثي لم يترك المجال للجماعات الموالية للملك أن تطلب النجدة من لندن على أساس أنها صديقة العرب. وما عكّر على الملكية الأردنية أن الولايات المتحدة دخلت الساحة العربية إلى جانب مصر ما آذن بخروج الإنكليز من المنطقة إلى الأبد.

هذه الأشهر الحاسمة من العام 1957 رسمت مصير الأردن ليس فقط في تلك المرحلة بل لعقود مقبلة. إذ إن الولايات المتحدة أعلنت سياستها للحرب الباردة ضد الاتحاد السوفياتي في خطاب الرئيس الأميركي دوايت آيزنهاور في 5 كانون الثاني 1957، ووافقت عليها السعودية فوراً خوفاً من المد العربي والجمهوي. أما الملك حسين فقد تنازعت رغبة في قبول العرض الأميركي الذي عرف بمشروع آيزنهاور، وتسلّم مساعدات بموجب النقطة الرابعة منه، والتيار الشعبي والرسمي القوي المعادي للغرب في عمان. ثم حسم الملك أمره وقبل الانخراط في المشروع الأميركي أمام رفض قاطع من الحكومة الأردنية. كان أمام الحكومة الأردنية والبرلمان إما مواصلة النضال ضد الاستعمار الغربي وربط الأردن بالتضامن والنهوض العربيين وإما التخلي عن كل ذلك

Joseph A. Massad, *Colonial Effects: The Making of National Identity in Jordan*, New York, Columbia University Press, 2001, ¹⁹²

p. 190.

¹⁹³ خطاب سليمان النابلسي، صحيفة الميثاق، 7 آذار 1957، أعادت نشره مجلة الأردن الجديد، العدد السابع، ربيع 1986، ص.ص. 209-210.

وقبول الخضوع مجدداً لتبعية أسوأ من السابقة. فاخترت حكومة النابلسي المواجهة والتحدّي مستندة إلى التفويض الشعبي في الانتخابات ودعم البرلمان والعناصر القومية والوطنية داخل قيادة الجيش. كان الملك حسين يسير في خطى حثيثة لربط المملكة بمشروع إيزنهاور. إلا أن وجود حكومة وطنية في عمان كان عثرة أمامه. ولذلك عمل على إقالة الحكومة العروبية النزعة لتسهيل سياسته، ما شكّل ضربة لقوى التغيير في الأردن.

وخرج الصراع الداخلي إلى العلن عندما شرعت حكومة النابلسي في وضع المزيد من توجهاتها قيد التنفيذ. فهي ليست فقط تصدّت لمشروع آيزنهاور بل أرادت الانفتاح على المعسكر الشرقيّ إسوة بسورية ومصر. إذ حتى 1956 لم يكن الأردن قد أقام علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي والصين. وإذ بدأ رئيس الحكومة خطوات لإقامة علاقات مع البلدين الشيوعيين، اعترض الملك وأبلغه أن هذا خط أحمر. لتبدأ أزمة جدية بين الملك والحكومة. فكانت خطوات الملك تخلق هوة فادحة مع ضباط الجيش الأردنيّ المحسوبين على القوى الوطنية. فعجل الملك بعزل الضباط واستبدلهم بأخرين أكثر ولاءً. وما حصل أن الملك استدعى الضابط محمد المعاينة وعينه في مكتبه ليساعده في تصفية الضباط الأحرار بعد إزاحة رئيس الأركان اللواء الركن علي أبو نوار من قيادة الجيش والذي اعتبره الملك رأس خلية سرية للضباط الأحرار¹⁹⁴. وكان أبو نوار من مدينة السلط في محافظة البلقاء شمال البلاد وقاد حملة تعريب الجيش وإزاحة غلوب باشا في أول آذار قبل عام؛ وهو أفصح عن قيادته للضباط الأحرار مباشرة للملك في ذلك الوقت وأعجب به الملك وعينه رئيساً للأركان في 24 أيار 1956 بعد ترقيته من رتبة مقدم إلى رتبة لواء، فأصبح مقرباً من الملك وهو الذي نصحه الملك بعدم تجميد الدستور وإلغاء الانتخابات في تشرين الأول 1956، بعكس نصيحة التلهوني وطبارة. لقد قام التلهوني وطبارة وآخرون بالوشاية على الضباط الأحرار وأوهموا الملك أن لديهم نيات بالانقلاب عليه. وعلم الضباط الأحرار بالأكيدة ضدّهم وقرروا مطالبة الملك بعزل المجموعة المناهضة للحكومة والمدعومة من السعودية والعراق وهي التي تعمل لإزاحة حكومة النابلسي. فالتقت لجنة من هؤلاء الضباط وضعت لائحة بأسماء شخصيات يجب عزلها، منهم بهجت طبارة والشريف ناصر وسمير الرفاعي (رئيس وزراء سابق)، وصادق الشرع وراضي العبدالله وطلب فهد. ثم التقت اللجنة في الزرقاء مع كبار الضباط وقدمت اللائحة لأبو نوار الذي نقلها بدوره إلى رئيس الحكومة سليمان النابلسي. ثم نقل أبو نوار اللائحة إلى الملك الذي ردّ باتهام أبو نوار والضباط الأحرار بتدبير مؤامرة لاغتياله وقلب النظام. فنفى أبو نوار ذلك واستنكر بشدة التهمة، ثم طالب بإزاحة أصحاب الأسماء التي تتضمنها اللائحة من مناصبهم. وخرج أبو نوار ثائراً من لقائه مع الملك وقدم اللائحة والتفاصيل التي تكوّنت لديه إلى جلسة للحكومة في 7 نيسان 1957.

¹⁹⁴ أعضاء تنظيم الضباط الأحرار: شاهر أبو شحوت، قاسم الناصر، محمود المعاينة، علي أبو نوار، سعيد السبع، أحمد الحيارى، نواف جبر العمود، خليل البورنو، تركي الهنداوي، عبد الله مياس، مشهور حديثة الجازي، أديب لطفي، نذير رشيد، خالد مسمار، علي الحيارى، الشريف زيد بن شاكر، أحمد زعور، إحسان الحلواني، عبد الله قاعد، أحمد الدويري، جعفر الشامي، سلامة عتيق، علي كراسنة، عزمي مهيار، عبد الرحمن العرموطي، مروان صدقي الجندي، عبد المجيد القاسم، كريم عقلة، نواف جرادات، عبد الحميد الدويك، هلال عاشور، عبد الرحيم الشحاربه، عبد القادر شومان، عصمت رمزي، موسى محمود، خالد الطراونة، نايف الحديد، ضيف الله الهنّاندة، توفيق الحيارى، سليم أبو الحسنات التل، أكرم نواس، عدنان القاسم، ياسين السالمي، ساري الرضي، احمد خريس، موسى محمود، فتحي الغلاييني، سلامة الطراونة، أديب أبو نوار، عطا طلالعه، وغيرهم.

وأخذت الحكومة بلائحة الضباط وأنهت جلستها بقرار إزاحة 22 شخصية من مناصبها في الدولة. وهنا رفض الملك عزل بعض الأسماء ومنهم عمه الشريف ناصر ورئيس الديوان الملكي بهجت التلهوني ورئيس المخابرات بهجت طيارة. ثم تنازل وضحى بطيارة ولكنه استبدله بمحمد المعايطة.

وإذ ظن الضباط الأحرار أنهم نجحوا في عزل الجماعات الرجعية، واصل رئيس الحكومة النابلسي خطواته للتقرب من مصر وسورية ودول الكتلة الشرقية. ولكن في تلك الأثناء أثارت مناورات يقيهما الجيش يومي 8 و9 نيسان في عمان شبهة الملك وعاد القلق حول احتمال انقلاب عسكري. فقد خاف أبو نوار أن يكون زميله أحمد العياري يقود انقلاباً خاصة أن العياري مقرب من رئيس الحكومة النابلسي وقد يختاره هذا الأخير قائد أركان مكانه. فذهب أبو نوار إلى الملك وطلب منه إلغاء المناورات. وتدخلت واشنطن لدى الملك لتعبر عن قلقها من تعاضم نفوذ القوى الوطنية والقومية في الدولة والجيش. وهنا حسم الملك أمره وبدلاً من أن يواصل تعامله مع الحركة الوطنية التي اعتبرته من صفوفها، مال إلى منطلق الجماعات المحافظة في حاشيته المقربة من القصر وقرّر ضرب القوى الوطنية "سأصمد وأقاتل مهما كانت العواقب... لقد حان وقت التصرف"، قال الحسين في مذكراته التي نشرها عام 1962¹⁹⁵. فبدأ بإلغاء المناورات ثم طلب من رئيس الحكومة النابلسي شرحاً مكتوباً لماذا أمرت الحكومة بإجراء المناورات.

وإذ لم تجب الحكومة لا بل أصدرت قراراً إضافياً يوم 9 نيسان يعزل المزيد من الشخصيات المحافظة ومنها بهجت التلهوني رئيس الديوان الملكي. وعندها أعلن الحسين يوم 10 نيسان 1957، إقالة النابلسي وحكومته أي بعد أقل من عشرة شهور على ولادتها. فاستقال النابلسي وخرجت تظاهرات شعبية مطالبة بعودته. ولم يتزحزح الملك بل عين مكانه الفلسطيني حسين فخري الخالدي رئيساً للحكومة. ولكن الخالدي قدّم استقالته في اليوم التالي. وإذ بدا أن شوكة القوى الوطنية أخذت تتعاضم، طلب الملك من سعيد المفتي، وهو شركسي ويثق به، تشكيل الحكومة. فحذّر قادة الجيش من مغبة تكليف المفتي وضرورة أن يكون رئيس الحكومة ممثلاً للقوى الوطنية وإلا هبّ الشارع وقلت الأمن وهم لن يطلقوا الرصاص على المتظاهرين. واقترحوا اسم عبدالحليم النمر لرئاسة الحكومة ولم يستجب الملك.

ويوم 14 نيسان، وهو يوم المحاولة الانقلابية المزعومة، خرجت شائعة أن الملك حسين قد قُتل، خرج عسكريون إلى شوارع الزرقا يحرقون السيارات ويهتفون للملك ويسيروا الشغب، وجرت معركة بين جنود موالين لقائد الأركان علي أبو نوار وجنود موالين للملك من البدو ومن الأخوان المسلمين. فسقط 27 عسكرياً بين قتيل وجريح. فانتفض البدو على ضباطهم في صفوف الجيش في كل مكان وخاصة في اللواء المدرع الأول. فعجّل الملك ملباس عسكريّة ميدانيّة بزيارة الزرقا حتى يرى الجنود أنه حيّ يرزق. وكان يرافقه علي أبو نوار الذي طالب الجنود بقتله. فعاد أبو نوار فوراً إلى عمان. وفي نفس الليلة استدعاها الملك وسلّمه لائحة بأسماء ضباط يريد عزلهم. فرفض أبو نوار على أساس أنهم لم يرتكبوا أي خطأ. فاستدعى الحسين علي

King Hussein, *Uneasy Lies the Head: The Autobiography of His Majesty King Hussein I of the Hashemite Kingdom of Jordan*,¹⁹⁵ ernard Geis Associates, 1962, p. 162.

الحياري وسلمه اللاتحة ونفذ الأخير الطلب فوراً. وهنا استنتج أبو نوار أن الملك لم يعد بحاجة إليه، فانهارت أعصابه.

وخرج من القصر ثم هرب إلى دمشق في طريقه إلى بيروت، وهناك أبلغته السلطات السورية أن حملة اعتقالات واسعة تجري في صفوف الجيش الأردني وأن ضباطاً كثيراً قد سبقوه إلى دمشق ومنهم نذير رشيد، وهو سوري الأصل من السلط. في 15 نيسان أعلن راديو عمان إحباط انقلاب ترعاه القاهرة على النظام الملكي، وأن رئيس الأركان علي أبو نوار قد فرّ إلى سورية بعد فشل الانقلاب. كما كشف الملك أن مجموعة الضباط الأحرار تلقت أموالاً من مصر والاتحاد السوفياتي أثناء زيارتهم المتكررة إلى بيروت ودمشق وأن بهجت التلهوني أبلغه أن بعضهم حمل معه 300 ألف دولار لرشوة ضباط آخرين بغية القيام بالانقلاب. وأن هؤلاء الضباط هم خونة. وفرّ من الضباط من استطاع ذلك واعتقل آخرون.

أما في الجيش فقد أصيب من بقي طليقاً من تنظيم الضباط الأحرار ومنهم قائد التنظيم شاهر أبو شاحوت بصدمة. ولم يكن أمامهم الوقت الكافي للتحرك، إذ أبلغهم علي الحياري في 16 نيسان أن الملك عينه قائداً للجيش وهو بحاجة لدعمهم. وفي اليوم نفسه كانت كتيبة مدرّعة يقودها ضابط بدوي ومعهم 200 من مشايخ القبائل البدوية تحضر إلى القصر الملكي في عمان وتهتف بحياة الملك. ولقد ذكرت وكالات الأنباء أن طائرة سعودية حطت في مطار عمان تحمل شحنة من العملة الذهبية للتوزيع على مشايخ القبائل الذي يعلنون ولاءهم للملك¹⁹⁶. ولكن في اليوم التالي عاد الحياري وأبلغ الضباط الأحرار أنه تلقى أوامر ملكية بضرورة طردهم خارج الجيش. فتم استدعاؤهم في اليوم التالي وأبلغوا أنهم تحت الإقامة الجبرية وأن تحقيقاً يجري حول هوية الانقلابيين.

ورغم أن خطوات الملك ضد القوى الوطنية كانت معادية لسورية، لأن الأردن كلبنان هو أيضاً الخاصة الرخوة لدمشق، فإنّ اللواء السوري المرابط في الأردن منذ العدوان الثلاثي على مصر لم يتحرك لدعم حكومة سليمان النابلسي. في حين تحرك اللواء السعودي المرابط في الأردن لدعم الحسين وأخذ يتحرش بعناصر اللواء السوري. عندها اتجه العقيد عفيف البزري ومعه ضابط أردني عالي الرتبة ممن يؤيدون الحكومة الوطنية في الأردن إلى القاهرة للتشاور مع عبدالناصر والمشير عامر حول ظروف اللواء السوري المرابط في الأردن وما هي السياسة المناسبة.

وكان القلق يساور القيادة السورية من أن سورية باتت مستهدفة، وأن تحولات الأردن تزيد الخطر على دمشق. وحاول البزري إقناع عبدالناصر بأن أفضل وسيلة للدفاع في الأردن هي الهجوم، أي القضاء على النظام الملكي وربط الأردن بسورية ومصر. وأن عناصر وطنية في الجيش الأردني بمساعدة اللواء السوري ستمكّن بدون شك من إعادة الحكومة الوطنية المنتخبة شرعياً إلى مكانها وتجبر الملك على صرف النظر عن مشروع إيزنهاور، دون أن يصل الأمر إلى عمل انقلابي.

¹⁹⁶ *New York Times*, April 17, 1957, cited in Naseer Aruri, *Jordan: A Study in Political Development 1921-1965*, The Hague, 196
Marinus Nijhoff, 1972, pp. 143-144.

في تلك الأثناء وإزاء تواصل الضربات على القوى الوطنية والضباط الأحرار، علم قائد الجيش علي الحيارى أن الموسى قد وصل ذقنه، فادعى أن عليه الذهاب إلى سورية للتفاوض مع قيادة الجيش السوري حول وحدته المرابطة داخل الأردن. ولكنه في 19 نيسان ذهب إلى دمشق وبقي هناك منشقاً عن الأردن. وعقد مؤتمراً صحافياً معلناً أن البلاط قد قام بانقلاب على حكومة النابلسي الشرعية وأن السفارات الغربية قد شاركت في ضرب القوى الوطنية في الأردن وخاصة الولايات المتحدة. فعين الملك حسين فوراً قائداً إغريبياً للجيش هو المشير حبيس المجالي وأصله من عشائر معان في جنوب الأردن. فأقام محكمة عسكرية وبدأت محاكمة كل الضباط الأحرار الذين بقوا في الأردن وعددهم 22 بتهمة التآمر، وصدرت أحكام سجن بحق 15 من كبار الضبط بعضها 10 سنوات وبعضها الآخر 15 سنة. وتم توزيع بيان باسم الضباط الأحرار اتهم فيه سفارة الولايات المتحدة وحاشية القصر وجماعة حلف بغداد بتدبير الانقلاب في الأردن لضرب القوى الوطنية في الدولة والجيش وإزاحة حكومة النابلسي الشرعية. ولم تكن تصفية الضباط الأحرار آخر المطاف إذ استمر العزل والإقالة والتقاعد والمنفى بحق ضباط آخرين مهما كانت خلفياتهم، وأعيد إلى الجيش ضباط بدو كان أبو نوار قد أبعدهم، كما تمت فكفكة ألوية ووطنية ومنها لواء المشاة الرابع وهو بأغلبية فلسطينية، حتى عاد وضع الجيش الأردني في منتصف 1957 إلى ما كان عليه أيام غلوب باشا من ضعف وتبعية ورجعية. في اليوم نفسه الذي نجحت عملية تصفية الجيش، أي في 16 نيسان، نجح الحسين في إقناع حسين فخري الخالدي أن يشكّل الحكومة بعضوية وزراء من حكومة النابلسي السابقة ترضية للرأي العام وحتى أنه منح سليمان النابلسي نفسه حقيبة وزارية. ولكن الحكومة لم تعمر طويلاً أمام التصفيات الجماعية في الجيش وحظر الأحزاب وتطبيقات مختلفة لقوانين الطوارئ، إذ بعد تسعة أيام استقال الخالدي أمام تظاهرات شعبية كبرى تحتج على انقلاب البلاط ضد القوى الوطنية. فقام الملك بتكليف إبراهيم هاشم وهو فلسطيني يثق به وأعلن الحكم العسكري على البلاد ليلة 24 نيسان، فطبق نظام حظر التجول في عمان والمدن الرئيسية وجمّد الدستور وأقفل البرلمان وحظر الأحزاب وتم حل النقابات والجمعيات وجرى اعتقال سياسيين معارضين أو من القوى الوطنية، ووضع سليمان النابلسي وآخرون تحت الإقامة الجبرية لسنوات طويلة. فهرب سياسيون إلى خارج البلاد للنجاة بأنفسهم من الاعتقال والقمع. ومن بين الخطوات الخطيرة كان إلغاء الفصل بين قوى الأمن والشرطة وقوى الجيش، فوضعت الشرطة مجدداً بتصرف قيادة الجيش كما كانت أيام غلوب باشا.

كما أقفلت خمس صحف وجرى قمع غير مسبوق للحريات. وفي الأسابيع التالية بدأ تطهير كبير لإدارات الدولة والقطاع العام من أي عناصر تعتبرها أجهزة الأمن مشاغبة أو متعاطفة مع القوى الوطنية. وكان الملك حسين قد أبلغ واشنطن عزمه على فرض الحكم العسكري في البلاد يوم 24 نيسان وأنه بحاجة إلى تدخل أميركي في حال تدخلت سورية أو مصر. فلقى تشجيعاً من الولايات المتحدة وصدر بيان أميركي أن "الولايات المتحدة تقف إلى جانب سيادة الأردن وحرمة أراضيه" وأن "الأردن هو بلد حيوي للمصالح الأميركية". وأوفدت واشنطن الأسطول السادس للمرابطة أمام سواحل لبنان ليكون جاهزاً للتدخل في الأردن إذا دعت الحاجة، وكذلك في لبنان إذا طلب ذلك الرئيس اللبناني كميل شمعون (وهو ما سنعود إليه في

الفصل التالي). وفي أيار 1957، قدّمت واشنطن للأردن مساعدات عسكرية بقيمة 10 ملايين دولار تلا ذلك توقيع اتفاقية للتعاون بين الأردن والولايات المتحدة في حزيران.

وكان عبدالناصر يترئّث في أي مواجهة مع أميركا، ويعلم أنّ التدخّل في الأردن ليس لعبة سهلة. لأنّ عملاً كهذا يمكن أن يقنّع أميركا بالتدخّل مباشرة ضد سورية بتهمة السعي لقلب نظام حليف للغرب. وعلى هذا الأساس صدر أمر بسحب اللواء السوريّ من الأردن حتى لا يقع ضحية التحولات. وإذا اختارت مصر وسورية عدم مواجهة ما يجري في الأردن، طوت أحداث 1957 في عمّان صفحة نضال مناهض للاستعمار وقضت على حركة وطنية أردنية قومية وحدوية واعدة دامت خمس سنوات. وهذا الأمر سيتكرّر في لبنان عام 1975.

وعادت الأردن إلى الوراثة بعد مكتسبات على كافة الصعد ليشبه نظامها ما كان سائداً سابقاً تحت الملك عبدالله وغلوب باشا برموزه التي شاخت وأحاطت بالملك حسين وفرضت هوية أردنية قد تكون عربية، ولكنها من النوع البدوي المعادي للقوى التقدمية العربية وليس للاستعمار و"إسرائيل".

في العام 1958، شعر الملك وحاشيته أنّ إجراءات حكم الطوارئ قد نجحت في إجهاد الحركة الوطنية، فبدأ تخفيف الإجراءات وأعيد الفصل بين الشرطة والجيش. ولكن الأردن تهدّد مجدداً حيث أصبح بلداً صغيراً تحيطه الجمهورية العربية المتحدة الوليدة، بإقليم سوري شمالاً وإقليم مصري جنوباً. فهرع الملك حسين إلى إعلان "الاتحاد العربي" مع العراق في شباط 1958 الذي يحكمه أبناء عمه الهاشميين إلا أنّ هذا الاتحاد لم يدم سوى ستة شهور حيث وقعت ثورة 14 تموز في العراق قضت على الملكية الهاشمية في بغداد، وتناغمت مع الموجة الثورية والاستقلالية في العالم العربي. ما هدّد حكم الملك حسين في الأردن والرئيس كميل شمعون في لبنان.

9. لبنان ساحة التناقضات |

فيما كان الأردن يسير في منحدر خطير وسورية تتعرض لأحداث جسام في الداخل ومن الخارج وتمرّ بتجربة قاسية في الوحدة مع مصر ضمن الجمهورية العربية المتحدة، وفيما العراق يعاني من استبداد بريطاني - هاشمي مزدوج، كانت الأجواء في لبنان نحو المزيد من الفساد السياسي والولاء للغرب وصراع تحت الرماد بين أفراد الطبقة الحاكمة.

بدأ الفساد يعثث في جسد الطبقة الحاكمة في لبنان مباشرة بعد الاستقلال، خاصة سيطرة مصالح الزعماء وقاعدتهم المذهبية، ورجال الأعمال وعلاقاتهم المحلية والإقليمية والغربية. وكان الفساد واضحاً في عهد الرئيس بشارة الخوري وخاصة المتاجرة بالنفوذ وتنفيص صلات القربى والعلاقات الواسعة بين رئيس الجمهورية وقصره وكبار رجال الأعمال، وتراجع الخدمات العامة. ولقد تسلّم محاسيب الخوري أفضل الوظائف وأكثر المشاريع ربحاً، في حين استفاد أعوانه وأفراد عائلته من نفوذهم للتأثير في الإدارة الرسمية لمصلحتهم. واغتنى شقيقه سليم الخوري الذي أصبح نائباً، حيث لقّب بـ"السلطان سليم" تذكيراً بالعهد التركي لشدة فساد، فيما حققت زوجة الرئيس لور شيحا، ثروات كبيرة.

وأغضب هذا الفساد ليس المعارضة فحسب بل عدداً من مناصري الخوري ومنهم ميشال شيحا والوزيران هنري فرعون وكميل شمعون. وجرت في أيار 1947 انتخابات برلمانية كانت الأولى في لبنان بعد جلاء الفرنسيين، فكانت فضيحة حيث مارست السلطات التزوير على نطاق واسع للمجيء بمجلس لتعديل الدستور والسماح للخوري بتجديد ولايته المنتهية في 1949، فنال مئة في المئة من الأصوات. وعارضت شخصيات مارونية تعديل الدستور لصالح بشارة الخوري ما يمنعها من الوصول إلى الرئاسة، وعلى رأس المعارضين كان كميل شمعون. وكانت هذه التجاذبات الداخلية تحصل في ظروف إقليمية ودولية صعبة. كان لبنان منذ 1950 يشعر بوطأة الحرب الباردة بين الجبارين الجديدين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي. فكان الروس يسعون إلى تصدير الشيوعية ومدّ نفوذهم في حين أخذ الأميركيون مواقع الإنكليز والفرنسيين في المنطقة. وكان لنجاح بشارة الخوري في تجديد ولايته ثمن باهظ هزّ الاستقرار السياسي لأعوام عدة. كما بدأت أزمة دموية بين الحزب القومي والسلطة عام 1949.

لقد سبقت الإشارة إلى تعاون حسني الزعيم مع السلطات اللبنانية لتسليم أنطون سعاده ثم إعدام هذا الأخير في 8 تموز 1949. وتلا إعدام سعاده قيام السلطات اللبنانية بحلّ حزبه وكذلك حلّ حزبي الكتائب والنجادة لفرض الأمن في البلاد. ولم ينته الأمر عند هذا الحدّ، إذ اعتبر أعضاء الحزب القومي وأنصاره أنّ سرعة إعدام سعاده هي دليل على الوجه الدموي لنظام الحكم في لبنان وأنّ رياض الصلح لم يفسح في المجال لمحاكمة قانونية عادلة ضد شخصية فكرية من طراز أنطون سعاده كان من الممكن أن تستفيد منها البلاد. وأثناء ولاية الخوري الثانية، سعى أعضاء الحزب للثأر، فقتلوا رياض الصلح في 17 تموز 1951 في الأردن.

رافق هذه الأحداث بروز نجم كميل شمعون الذي كان يسطع في الأوساط المارونية في الأربعينيات والذي بات منافساً جدياً لبشارة الخوري واميل إذّه على رئاسة الجمهورية حتى في العام 1943. فكاد الإنكليز يحدّونه لولا حاجتهم لمراضة بشارة الخوري. وكان شمعون يدير حملات معسكر بشارة الخوري الانتخابية فاكسب خبرة وأصبح شاهداً على مناورات الزعماء في استغلال نظام اللوائح لتفصيلها على مقاسهم واختيار

من يشاؤون من المرشحين، وكانوا وراء انتخاب برلمان 1947 الذي جدّد للخوري وسدّ الطموح في وجه شمعون، حتى بات عداء هذا الأخير للإقطاع السياسي من طبيعته.

لقد عارض شمعون الذي كان وزيراً في حكومة رياض الصلح التجديد لبشارة الخوري لأنه كان ضد سابقة اللعب بدستور البلاد من أجل مصلحة فرد. فاستقال في 19 أيار 1947 وطالب في رسالة استقالته بالإصلاح ومنها تغيير قانون الانتخاب الذي سمح للإقطاع بالهيمنة على مناطق كبرى عبر تركيب اللوائح. وتحالف شمعون مع الزعيم الدرزيّ كمال جنبلاط الذي برز على الساحة نائباً في البرلمان. فقاد كميل وكمال المعارضة ضد بشارة الخوري وطالبا في جلسات البرلمان باستقالته وفتح تحقيق عن فساد. ثم أسس جنبلاط الحزب التقدمي الاشتراكيّ عام 1949 ونادى بالإصلاح ونذّر بسيطرة أصحاب المصالح الاقتصادية الكبرى على مقدرات البلاد.¹⁹⁷

وبهذه النوعية من المعارضين، جرت انتخابات برلمانية في نيسان 1951، وفاز كميل وكمال ولكنهما وجدا في القانون الانتخابي الذي اعتمد عام 1951 نواقص سمحت مرة أخرى بسيطرة الإقطاع. وخلال سنة نمت معارضة انضمّت إليها معظم القوى النافذة في البلاد وباتت تشكّل ضغطاً هائلاً على رئيس الجمهورية. وفي 16 أيلول 1952، دعا المعارضون إلى إضراب عام مطالبين باستقالة الخوري. وطلب هذا الأخير من قائد الجيش فؤاد شهاب أن يتدخل لضرب المعارضة، فرفض شهاب وأصبح موقفه قاعدة غير مكتوبة في لبنان أن لا يتدخل الجيش في صراعات الزعماء مخافة انقسامه. فاضطر الخوري إلى الاستقالة بعد يومين ما فتح الباب لانتخابات رئاسية مبكرة وكان أبرز المرشحين كميل شمعون وحميد فرنجية، ففاز شمعون.

يمكن اعتبار عهد كميل شمعون من أفضل العهود الرئاسية في لبنان لولا الظروف الدولية الضاغطة وخلافات الزعماء. إذ واصل شمعون جهده في إصلاح قانون الانتخاب وحصلت الحكومة على صلاحيات استثنائية فأقرت القضاء دائرة انتخابية وقلّصت عدد المقاعد إلى 44، ومنحت لأول مرة حق المرأة في الانتخاب. فجرت انتخابات برلمانية جديدة في تموز 1953 أسفرت نتائجها عن تقلص مقدرة الإقطاع المناطقي في الهيمنة على لوائح كبرى. كما شهد عهد شمعون فترة نمو اقتصادي غير مسبوق، واعتبر عقد الخمسينيات مرحلة ازدهار استثنائي حيث دخلت الاستثمارات الأجنبية وانتعشت بيروت. وساهم في هذا الازدهار الوضع المتفجر في الشرق الأوسط، واستفادة لبنان من دخول الرساميل بعد نكبة فلسطين عام 1948 وانقلابات سورية المتكررة ومن تدفق النفط في الجزيرة العربية والعراق واتخاذ شركات النفط الأميركية والشركات التي تخدمها من لبنان قاعدة لها في المنطقة.

وأصبحت بيروت مركزاً مالياً عالمياً وموقعاً متقدماً للمصالح الاقتصادية الغربية، فكان أي اهتزاز لاستقرار بيروت يحظى بصدى دولي. وإضافة إلى الاستثمار والأموال الوافدة من الدول العربية، بدأ أغنياء الكويت والسعودية يمارسون السياحة والاصطياف في لبنان ويدخرون أموالهم في مصارفه. فكان لهذه التحولات أثرها في جذب المزيد من المستثمرين وممثلي الشركات الأجنبية. وأصبحت الولايات المتحدة المستثمر الأكبر في المنطقة العربية، فبنت أنابيب شركة النفط العربية الأميركية (آرامكو) من الخليج إلى الزهراني جنوب صيدا

¹⁹⁷ كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص.ص. 241-242.

"Trans - Arabian Pipeline"، أو خط التابلاين). واستعدّ اللبنانيون لهذه الاستثمارات والتغييرات الإقليمية عبر توفيرهم بنية تحتية متطورة. فكان الأجانب يجدون في بيروت خدمات لا يجدونها في بلادهم من مصارف تقدّم تسهيلات بأعداد أكبر من تلك التي في نيويورك وصحف أكثر من تلك الصادرة في لندن وبلغات عدّة. وكان نصف تجارة الذهب في العالم يمرّ في بيروت¹⁹⁸.

ولكن هذا الازدهار لم يكن بلا ثمن، ذلك أنّ فترة الاستفادة من الوضع الإقليمي لم تستمرّ أكثر من بضعة سنوات ثم بات هذا الوضع العامل الأكثر تخريباً وإرباكاً حتى اليوم مانعاً لبنان من الوصول إلى أي استقرار دائم. فقد كان لبنان ومنذ بداية الخمسينيات في خضم الصراع العربي الإسرائيلي وطرفاً في الحرب الباردة موالياً للغرب وخاصة أنّ معظم الطبقة الحاكمة حبّذت علاقات أكثر وثاقاً مع أميركا. ومغادرة الخوري ورياض الصلح وصعود كميل شمعون كرئيس قويّ ودخول الاستثمارات الغربية والانفتاح على أميركا بشكل لم يشهده لبنان من قبل، لم يعد لبنان منيعاً عن تأثيرات المبارزة بين القوى العظمى ولا عن رياح التغيير المقبلة من القاهرة ودمشق. وكان الأميركيون يسعون إلى عقد أحلاف عسكرية إقليمية تضم بلداناً منها العراق والأردن وتركيا وإيران ولبنان ضد التغلغل الشيوعي.

وأصبحت بيروت نقطة ساخنة في سعي مصر لمدّ نفوذها في المشرق فعزم كميل شمعون وحلفاؤه على منعها من ذلك. وكان شمعون مختلفاً عن بشارة الخوري، حيث استعمل صلاحيّاته الرئاسية كما جاءت في الدستور، في حين فضّل الخوري إفساح المجال للتعاون مع رياض الصلح والمسلمين. فظهر في الخمسينيات وجه آخر للنظام الرئاسي اللبناني لم يرق للمسلمين اعتبروه "امتيازات الموارنة" في رئاسة الجمهورية وقيادة الجيش ومناصب أخرى. وإضافة إلى صلاحيّاته الدستورية كان شمعون صاحب خبرة طويلة وعلاقات عربية ودولية واسعة من عمله الدبلوماسي. وكان يتعامل نذراً لنّد مع شاه إيران وملك اليونان وزعماء تركيا وملوك العرب، خاصة من الهاشميين والسعوديين. ولكنه كان أيضاً معارضاً لأي مشروع وحدويّ عربيّ يقضي على استقلال لبنان. كما أن رصيده السياسيّ شمل محاربة الفساد والتحالف في جبهة اشتراكية مع كمال جنبلاط وتكوين علاقات مباشرة مع زعماء لبنانيين من كلّ الطوائف بقوا مخلصين له تحت أصعب الظروف.

بدأت تباشير أزمة وطنية في لبنان أثناء مؤتمر القمة العربية في بيروت عام 1956 الذي استضافه لبنان لبحث عمل مشترك لوقف العدوان الثلاثي على مصر. وكان رئيس الوزراء عبدالله اليافي قد أبلغ القادة العرب أنّ لبنان سيقطع العلاقات مع بريطانيا وفرنسا تضامناً مع مصر. ولكن ما أن ندّت القمة بالعدوان وأصدرت بياناً مشتركاً حتى اعتبر شمعون أنّ هذا كافٍ للتعبير عن تضامن لبنان مع مصر ولا حاجة لقطع العلاقات مع فرنسا وبريطانيا. وهنا أصرّ اليافي وحليفه الوزير صائب سلام على ضرورة استدعاء سفيري لبنان من باريس ولندن على الأقلّ إذا لم يرغب شمعون في قطع العلاقات مع بريطانيا وفرنسا. فرفض شمعون. واحرج الزعيمين المسلمين في مسألة عربية مبدئية تتعلّق بالتضامن مع مصر في محنتها فاستقالا من منصبيهما التزاماً بموقفهما ولحفظ قاعدتهما الشعبية. ولكن شمعون أصرّ على عدم قطع العلاقات لأن ذلك سيلحق الضرر

¹⁹⁸ صدرت في بيروت نشرات خاصة لا يمكن الحصول عليها الا عبر اشتراك مرتفع الكلفة لأنها كانت تعطي معلومات قيمة وأحياناً سرية عن الاقتصاد والأوضاع السياسية وفرص الاستثمار لا تنشرها الصحف اليومية ولا يتداولها الناس أو رجال السياسة. هذا النوع من المنشورات موجود اليوم بكثرة في أوروبا والولايات المتحدة واليابان.

بمصالح لبنان الحيويّة كما أنّ عبدالناصر لم يطلب منه هذه التضحية¹⁹⁹. كان المطلوب أن يكون لبنان أكثر عروبة من الآخرين حيث اختارت معظم الدول العربيّة الحفاظ على مصالحها الاقتصاديّة والسياسيّة، في حين لم يقطع العلاقات مع بريطانيا وفرنسا تضامناً مع مصر سوى سورية والسعوديّة، واكتفى العراق والأردن بقطع العلاقات مع فرنسا لارتباط البلدين ببريطانيا التي تدعم الأسرة الهاشميّة الحاكمة. ولكنّ معارضي شمعون استغلوا أنّ العراق ألدّ أعداء العرب لعبدالناصر قد قطع العلاقات مع فرنسا فما بال لبنان.

وفي خطوة طبعت أسلوبه الفوقيّ، قبل شمعون استقالة اليافي وصائب سلام، وكلف سامي الصلح ابن عم رياض الصلح، بتشكيل الوزارة. فاختر هذا الأخير الأرثوذكسيّ والأميريّ الهوى شارل مالك وزيراً للخارجيّة، واختار فؤاد شهاب، الذي كان قائداً للجيش، وزيراً للدفاع، ومجيد ارسلان ونصري المعلوف اللذين كانا من أنصار شمعون. وفي الأشهر التالية أخذ شارل مالك يتلقى سهام المعارضة بعدما وجّه سياسة لبنان الخارجيّة لتكون أكثر ولاءً للغرب وخاصة للولايات المتّحدة. إذ في كانون الثاني 1957 أعلنت أميركا مبدأ أيزنهاور الذي عرض مساعدات اقتصاديّة وعسكريّة على بلدان الشرق الأوسط مقابل إسهامها في وقف المد الشيوعيّ. وفيما رفضت الدول العربيّة الانضمام إلى مبدأ أيزنهاور، رحّب به رئيس الحكومة المخلص لشمعون سامي الصلح في 24 كانون الأول. وأصبح لبنان البلد العربيّ الوحيد الذي أصدر بلاغاً مشتركاً مع أميركا عن موافقته على مبدأ أيزنهاور وذلك في 16 آذار 1957، في حين كانت الدول العربيّة كافة تتجه إلى سياسة عدم الانحياز بين الجبارين.

ثم تحوّل الخلاف في لبنان إلى انقسام ذي طبيعة مذهبيّة. ففي حين عبّر شمعون عن ميل مسيحيّ صوب الغرب وأولوية سيادة لبنان، كان حماس القادة المسلمين لنداء الوحدة العربيّة مع سورية ودعم عبدالناصر أقوى من حماسهم للبنان وحرصهم على استمراريّته كدولة مستقلة. وهكذا أخذ لبنان يسير عام 1957 نحو الفوضى والانقسام في حين كانت الأعمال المخلّة بالأمن تزداد رغم حالة الطوارئ المعلنة في لبنان منذ العدوان الثلاثيّ على مصر. وشعر اليافي وسلام بمرارة من فقدان منصبيّهما، فعملا ما بوسعهما لمعارضة شمعون وطلبا أن يشاركهما وبقية المعارضة في قرارات الدولة. ولكن بدلاً من الاستجابة لبعض طلبات المعارضة التي كانت تتمتع بشعبيّة كبيرة، قامت حكومة سامي الصلح بإذكاء النار بتصديق البيان مع أميركا حول مبدأ أيزنهاور، ما زاد من قوّة المعارضة وتحديّها للحكم. كما أثارت مواقف شمعون امتعاض مصر التي رأت في سياسته تقسيماً للصف وإضعافاً للموقف العربيّ حول قضية فلسطين واتجهاً غير صديق نحو مصر.

وكان للصراع بين شمعون وخصومه جانب داخليّ أيضاً. فقد دعم شمعون وأنصاره مشروع قانون يقضي بإعادة رسم الدوائر الانتخابيّة وزيادة عدد المقاعد من 44 إلى 66. في حين فضلت المعارضة مجلساً من 88 مقعداً ورسماً للدوائر يحفظ الحصص لأنّ مجلساً من 66 مقعداً سيسمح لشمعون بالسيطرة عليه. وطالبت المعارضة الحكومة بالغاء حال الطوارئ وعدم تقييد الصحافة في مناقشة القانون الانتخابيّ. فردّ سامي الصلح أنّه لن يلغي حالة الطوارئ نظراً لتدهور الحالة الأمنيّة في البلاد.

¹⁹⁹ Leila Meo, *Lebanon – Improbable Nation*, Westport, Connecticut, Greenwood Press, 1965, pp. 98-99.

وصوّت البرلمان على قبول مشروع الـ66 نائباً في 3 نيسان 1957، فما كان من نواب المعارضة (رشيد كرامي وحמיד فرنجية وعبدالله اليافي وكامل الأسعد وأحمد الأسعد وصبري حمادة وعبدالله الحاج) الا أن قدّموا استقالاتهم في 7 نيسان وأرفقوا الاستقالة بإعلان "جبهة الاتحاد الوطني" لإسقاط شمعون وسعوا لضم كافة الشخصيات الدينية والسياسية والشعبية التي توافقهم الرأي. وكان معظم قادة هذه الجبهة من الشخصيات الإسلامية بقاعدة شعبية أغلبيتها مسلمة، وضمت شخصيات مسيحية مثل حميد فرنجية وفيليب تقلا. ولكن سمح غياب النواب المستقلين لشمعون بتمرير تعديل الدوائر الانتخابية في جلسة برلمانية أخرى عقدت في 16 نيسان.

بدأت جبهة المعارضة نشاطها بتوجيه مذكرة تحذيرية إلى شمعون تضمنت تكليف حكومة مؤقتة لرعاية الانتخابات النيابية والامتناع عن التوقيع أو العمل بأي اتفاق خارجي بانتظار نتائج الانتخابات. ولتدارك الوضع المتفجّر قامت حكومة الصلح بخطوات ايجابية فرفعت حال الطوارئ في 7 أيار وأكدت أولوية الميثاق الوطني وميثاق الجامعة العربية وعلى عدم توقيع أي معاهدات أجنبية.

واستعداداً للانتخابات البرلمانية كان لعبدالله اليافي وصائب سلام قاعدتهما التقليديّة في بيروت وكذلك بالنسبة لرشيد كرامي في طرابلس وصبري حمادة في الهرمل، وآل الأسعد في الجنوب وآل أرسلان وآل جنبلاط في الشوف وآل فرنجية في زغرتا. وفيما كانت المعركة الانتخابية مستمرة، دعت المعارضة إلى إغلاق المدن والتظاهر لإسقاط الحكومة. فوقعت معارك دامية بين قوى الأمن والمتظاهرين كانت حصيلتها عدداً من القتلى والجرحى ومئات المعتقلين. فتسلم الجيش مسؤولية حفظ الأمن. وفي 30 أيار انطلقت في بيروت تظاهرات ضخمة للمعارضة اصطدمت مع رجال الأمن ووقعت اشتباكات بالأسلحة امتدت في كافة المناطق فسقط عشرات القتلى والجرحى، ومن الجرحى صائب سلام ونسيم مجدلاي.

وفيما اتهمت الحكومة اللبنانية سورية بهذه الأحداث، احتج المفتي والبطيرك الماروني على تعامل قوى الأمن مع المتظاهرين وانتقدا أداء الحكومة. واستمرت أعمال العنف أكثر من عشرين يوماً كان أبرزها وقوع 26 قتيلاً و50 جريحاً في معركة في كنيسة مزيارة في زغرتا بين آل فرنجية وآل معوض من جهة وآل الدويهي وآل كرم المؤيدين لشمعون من جهة أخرى²⁰⁰. ولاحقت قوى الأمن سليمان فرنجية (شقيق حميد) ورينيه معوض و35 من أنصارهما. ففرّوا إلى سورية، في حين اتهم حميد فرنجية الرئيس شمعون بأنه وراء المجزرة لإنهائه كمنافس على رئاسة الجمهورية.

وجرت انتخابات في بيروت والجبل في حزيران 1957 أدت إلى نتائج غير مرضية لأقطاب المعارضة. فخسر اليافي وسلام بسبب تقسيم بيروت إلى دائرتين وحرمان سلام واليافي من عدد من ناخبيهما وفاز سامي الصلح. وخسر كمال جنبلاط أمام لائحة الموالات التي قادها نعيم المغنّب بسبب إعادة رسم الدوائر. كما خسر أحمد الأسعد في الجنوب بسبب تقسيم الدوائر حيث اضطر إلى ترك معقله التقليدي في مرجعيون لإبنه كامل وترشّح في صور ضد كاظم الخليل، حليف شمعون، الذي فاز. وكان من مظاهر التدخل الدولي السافر

²⁰⁰ كامل مروّة، قل كلمتك وامش، المجلد الخامس، ص. 58.

في الانتخابات، قيام سفارات مصر والولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا والاتحاد السوفياتي بتوزيع مساعدات مالية لدعم مرشحيها. وكان عملاء هذه الدول يذرعون شوارع بيروت والمناطق فأصبح لبنان مركزاً للاستخبارات على مستوى دولي حيث اتخذه الجواسيس منطلقاً لعملهم²⁰¹.

وبعكس نتائج بيروت، نجحت لوائح المعارضة في أماكن عدّة ففاز صبري حمادة وأعضاء لائحته وحميد فرنجية ومعه رينيه معوض الفار في سورية، ورشيد كرامي ومعه أفراد لائحته. أما في صيدا ذات الأغلبية الإسلامية حيث غلب التيار الناصري فقد فاز معروف سعد ضد منافسيه. ولكن نتائج الانتخابات الكاملة رجحت كفة أنصار شمعون ما دفع أقطاب المعارضة إلى اتهام السلطة بتزوير الانتخابات وتشويه سمعة المعارضة بتسميتهم "مرشحي عبدالناصر". وبعد الانتخابات تعمق الانقسام الشعبي حيث خاف المسيحيون من ولع المسلمين بشخص عبد الناصر وتعلقوا بشمعون كخشب خلاص في التصدي لمحاولات ابتلاع لبنان. واتهم قادة المعارضة شمعون بحرمانهم من حصتهم في الكراسي البرلمانية والوزارية. وحذروا من أن يستعمل شمعون الأغلبية البرلمانية ليجدد لنفسه فيطيل أمد ابتعادهم عن السلطة. واتهموا شمعون بالفساد والخروج عن الميثاقية والتخطيط للتجديد.

ثم أعاد شمعون تكليف سامي الصلح بتشكيل الوزارة وقدمت الحكومة بيانها في آب 1957 فكان معتدلاً وعد بالإصلاح والتعاون مع الدول العربية والتقليل من أهمية البيان حول مشروع أيزنهاور. ولكن جلسة الثقة أظهرت أن الهوة كانت عميقة إلى درجة أن بضعة نواب حيايين أو متعاطفين مع شمعون سابقاً بدأوا يغيرون مواقفهم في حين كانت أعمال الشعب والعنف تزداد في أنحاء البلاد.

حرب لبنان 1958

كان لإعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة بزعامة مصر وعضوية سورية في شباط 1958 وقعاً عارماً في لبنان والعالم العربي حرك الجماهير ودغدغ مشاعر التائقين إلى إمبراطورية عربية. وكانت وسائل إعلام مصر تتحدث عن بلدان عربية جديدة ستتنضم إلى الوحدة وتسمي لبنان إضافة إلى العراق والأردن، وهذه الدول الثلاث مقربة من الغرب، فتتحد مصر مع المشرق.

خرجت تظاهرات كبرى في المدن اللبنانية وخاصة في أوساط المسلمين واتجهت الوفود الشعبية إلى دمشق لتهنئة جمال عبدالناصر وإعلان الوفاء لسورية. حتى وصل الاتجاه الوحدوي في لبنان إلى أوجه واتخذته المعارضة رداءً لها في ذخيرة مواجهاتها مع شمعون. وفي ربيع 1958 وصلت أزمة لبنان إلى حائط مسدود لأن مضي المسلمين في الدفع الوحدوي أخاف المسيحيين.

واستمر التصعيد الأمني، حيث وقعت اشتباكات في مدينة صور بين الدرك ومتظاهرين يحتفلون بالوحدة بين مصر وسورية أسفرت عن سقوط قتلى وجرحى، في حين كانت المواجهات بين قوى الأمن وعصابات

²⁰¹ Miles Copeland, *The Game of Nations*, London, Weidenfeld and Nicholson, 1969, pp. 192-200, and Said Abu-Rish, *Beirut*

Spy - The Story of the ST Georges Hotel, London, Bloomsbury, 1990.

مسلحة محلية أو متسللة من سورية تتزايد في المناطق. وفي 15 نيسان 1957 حذر معروف سعد الحكومة من انتفاضة شعبية ودعا إلى حل البرلمان وانتخابات جديدة. وكانت المواجهة العسكرية بين مسلحي شمعون ومسلحي المعارضة قد بدأت متقطعة قبل شهور ولكنها كانت تتجهز لحرب شاملة. وتحوّل الدعم الماليّ الخارجيّ الذي استعمل سابقاً لتمويل الانتخابات إلى دعم للتسليح وأعمال العنف. وفيما كان شمعون محصناً بقوى الشرعيّة من جيش وأمن داخليّ ودرك، حصلت قوى المعارضة على كميات كبيرة من السلاح عن طريق سورية وأصبحت لها ميليشيات ومقاومة شعبية.

انفجر العنف الشامل بين أطراف النزاع عشية اغتيال الصحافي نسيب المنتني صاحب جريدة "التلغراف" في بيروت يوم 7 أيار 1958. فحملت المعارضة السلطة مسؤوليّة الاغتيال. وانعقد البرلمان صباح 8 أيار لمناقشة الاغتيال في حين أغلقت طرابلس واحتل شوارعها الغوغاء، وطغت أعمال الشغب في عكار حيث هاجمت قبائل الجعافرة الدرك وسقط عدد كبير من القتلى والجرحى في حين وقعت اشتباكات بين أهل زغرتا والدرك أيضاً. وفُضّ البرلمان الجلسة عندما نصح النواب الحكومة بالتحرك سريعاً لمواجهة الوضع الأمنيّ المتفجّر. ثم دعا قادة المعارضة من منزل صائب سلام إلى إقفال المؤسسات التجاريّة والإضراب حتى استقالة شمعون. أفاقت بيروت على المظاهر المسلحة فتوقّف النشاط الاقتصاديّ وأغلقت المدينة، حيث أقيمت المتاريس بين الأحياء، وخاصة بين البسطة ذات الأغلبية المسلمة وموقع قصر صائب سلام، والأشرفية ذات الأغلبية المسيحيّة حيث برز بيار الجميل رئيس الكتائب كقوة على الأرض.

صمد شمعون في بعبدا وكان واثقاً من قوة أنصاره ومن الدعم الغربيّ ومن شرعيته كرئيس للبلاد. ورفض الوساطات مع أخصامه لئلا يقدم لهم تنازلاً مجانياً، واتهم الجمهوريّة العربيّة المتّحدة بالتدخل السافر في شؤون لبنان عبر تمويل وتسليح عملائها لقلب النظام الديمقراطيّ والقضاء على استقلال لبنان. ولئن رفض قائد الجيش فؤاد شهاب طلب شمعون التدخل لضرب قوى المعارضة وفتح الطرقات، استعاض موالو شمعون عن الجيش بالتسلّح والاستناد إلى قوى الأمن التابعة لوزارة الداخلية. فقد نظر شهاب إلى الأمر على أنّه خلاف داخليّ حول التجديد الرئاسيّ وليس محاولات خارجية لضرب استقلال لبنان. ولذلك لم يهاجم الجيش قوى المعارضة بل اكتفى بحماية الأبنية والمصالح العامة وإبقاء الطرق الرئيسيّة مفتوحة وسيّر دوريات في بيروت.

ورغم غلبة زعماء السنّة في صفوف قادة المعارضة، فإنّ زعماء موارنة كانوا أيضاً ضد شمعون ما أعطى المعارضة على مستوى القيادة على الأقلّ وجهاً وطنياً يمثل كلّ الطوائف وإن بقاعدة شعبية إسلامية طاغية. ولم ينقضّ اليوم الثالث من المعارك حتى انقسم لبنان إلى كانتونات وزالت سلطة الدولة المركزيّة. ولم يكن التدخل السوريّ رسمياً حيث لم تشترك وحدات عسكريّة نظامية في أزمة لبنان الا أنّ سورية عملت على تأمين إمدادات السلاح والمال والرجال عبر الحدود إلى المناطق التي سيطرت عليها المعارضة في البقاع والشمال. وكان شمعون على علاقة جيدة برئيس سورية السابق أديب الشيشكلي، ولكن بعد عودة الحدوديّ شكري القوتليّ من القاهرة عام 1954 ونجاحه في ضم سورية إلى مصر، تدهورت علاقات شمعون مع سورية.

أيد المعارضة من خلف الستار بشارة الخوري ووجه مذكرات إلى الرئيس أيزنهاور وداغ همرشولد أمين عام الأمم المتحدة تندد بإنزال المارينز في بيروت في تموز 1958. وتعتبر هذا الإنزال تحدياً سافراً للسيادة اللبنانية²⁰². كما أيد المعارضة معظم الرؤساء الروحانيين في البلاد من سنة وشيعة ودروز والبطريك الماروني. وكان موقف البطريك بولس المعوشي مناهضاً لشمعون حيث صرح في 20 نيسان 1958 أن البلاد بحاجة إلى رجال جدد في الحكم لحل الخلافات وأنه لا يمكن إنقاذ الوطن بتقسيم أبنائه وأن شمعون قد فشل. وكان شمعون قد اتخذ موقفاً سلبياً من البطريك المعوشي عندما عارض اختياره خلفاً للبطريك أنطون عريضة الذي توفي عام 1955 على أساس أن المعوشي تعاطف سابقاً مع بشارة الخوري. وبينما كان المعوشي ينطلق من حرصه على إضفاء وجه مسيحي للمعارضة التي أيدتها أغلبية المسلمين في مسعى منه لمنع انزلاق البلاد إلى مواجهات طائفية بشعة، استغل قادة المعارضة تصريحاته وتشددوا في مطالبهم ضد شمعون، في حين كان وقع تصريحات البطريك سلبياً في الأوساط الشعبية المسيحية. ولم يفتقر شمعون إلى حلفاء فكان خصماً صعباً للمعارضة، أيدته الأغلبية الساحقة من المسيحيين كما أيدته عدد من الزعماء وأمرء الحرب المسلمين. غطت المعارك معظم المناطق اللبنانية وسيطرت قوى المعارضة على البقاع والشمال والجنوب وعلى المدن الرئيسية باستثناء بيروت.

وفي 30 أيار عقد البطريك المعوشي مؤتمراً صحافياً حضره الإعلام الأجنبي هاجم فيه شمعون وأكد أن الأزمة اللبنانية هي مسألة داخلية ولا داعي لتدويلها وأن عبدالناصر قدم ضمانات حول سيادة لبنان وأن حل الأزمة يبدأ بأن يقوم شمعون برحلة إلى الخارج. وأثار تصريح البطريك المعوشي المسيحيين ولقي ثناء قادة المعارضة. وبالمقابل ثابروا الرؤساء الروحانيين السنة والشيعة والدروز منذ بداية الأحداث على إطلاق التصريحات المناهضة لشمعون وعلى دور السلطة في تسليح أنصاره وأرسلوا مذكرات إلى الأمين العام للأمم المتحدة وإلى الرئيس الأميركي وأعضاء الكونغرس الأميركي ينددون فيها بسعي شمعون إلى تدويل الأزمة ويؤكدون طبيعة الأزمة المحلي. وفي 6 حزيران اجتمع 28 شخصاً من المفتين وعلماء الدين المسلمين وأصدروا فتوى تنهم سامي الصلح بممارسة السلطة ضد إرادة الشعب وتأجيج المشاعر الطائفية ونقض مصالح المسلمين في لبنان، وتدعوه إلى الاستقالة للتعجيل في إنهاء الأزمة لأنه كان الزعيم السنّي الوحيد الذي يتعاون مع شمعون. وجاء في البيان: "ندعو الشعب إلى رذله ومقاطعته، لأنه تخلى عن مبادئ الإسلام واتبع سلوكاً مخالفاً للصراط المستقيم"²⁰³ (ما يعادل الحرمان الكنسي عند المسيحيين). ولكن الحكومة اللبنانية قدمت شكوى إلى مجلس الأمن ضد الجمهورية العربية المتحدة في 11 حزيران ثم فوّضت شمعون في 16 منه للاستنجا بـ"القوى الصديقة" إشارة إلى طلب المساعدة العسكرية الأميركية. وأمام فشل الجامعة العربية والأمم المتحدة في وقف حرب لبنان وتواصل تهريب السلاح، تطوّر الوضع في بداية تموز عندما حققت قوات كمال جنبلاط تقدماً على الأرض فباتت تطلّ على سوق الغرب وبعيدا موقع قصر رئاسة الجمهورية.

Leila Meo, *op. cit.*, p. 171. ²⁰²

Leila Meo, *op. cit.*, p. 172. ²⁰³

في 14 تموز، وقع انقلاب دموي في العراق خلط الأوراق في لبنان. إذ إنَّ هذا الانقلاب أطاح العائلة الهاشمية الموالية للغرب، فهل لها إعلام الجمهورية العربية المتحدة بأنه بعد سقوط نوري السعيد والهاشميين عملاء الإنكليز في بغداد "جاء دور شمعون والحسين ملك الأردن". وفيما جدد هذا التطور زخم المعارضة، خاف شمعون من سقوط البلاد بأيدي خصومه وطلب من الولايات المتحدة مساعدة عسكرية فورية، زاعماً أنَّ لبنان يتعرّض لمؤامرة شيوعية دولية يحركها عبد الناصر. فصدر الأمر للمارينز للتدخل في لبنان، حيث كان الأسطول الأميركيّ مرابطاً في شرق المتوسط واستغرق وصوله إلى بيروت 24 ساعة. وعندما نزل عشرة آلاف جنديّ من المارينز عند الشاطئ تصوّروا أنَّهم سيواجهون جيش عبد الناصر الذي يريد اختطاف لبنان بالقوة ونقله خارج النفوذ الأميركيّ. ولكنهم وجدوا بلاجات يرتادها الناس بالمتات. وخلال أيام انتشر الأميركيّون في العاصمة التي بدت شديدة الهدوء في حين اختفى المسلحون من الشوارع بسرعة فائقة. وفي الشهرين التاليين خيّم على لبنان هدوء شامل نسبياً وبات جميع الأفرقاء مستعدّين للحوار، ونجحت الوساطة في العثور على حلّ يرضي الأميركيّين وعبد الناصر ويُنهي الأزمة في لبنان، حيث اتفق الجانبان على فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية. فاجتمع البرلمان في 31 تموز 1958 وانتخب شهاب وكلف هذا الأخير رشيد كرامي، زعيم المعارضة في طرابلس، رئيساً للحكومة. وغادر المارينز لبنان "بدون طلقة رصاص"، كما تبجّح السفير الأميركيّ. أكثر من 4000 شخص لاقوا حتفهم في حرب لبنان عام 1958، في حين غادرت لبنان كميات كبيرة من الأموال الأجنبية والوطنية وتضاءلت الاستثمارات وظهرت الصعوبات الاقتصادية. واستغلّ من تبقى من الأميركيّين هدوء الوضع في خريف 1958 وبداية 1959 ليحزموا حقائبهم ويغلقوا 120 فرع شركات أميركية. ولكن مع مرور الوقت وعودة الاستقرار الأمني اطمان الأجانب وبدأوا يعودون إلى بيروت كواحة غربية ليبرالية مقارنة بأمّاكن أخرى في الشرق الأوسط المتفجّر. إذ كانت بيروت مستقرّة نسبة إلى المجازر في بغداد والانقلابات التي لا تنتهي في سورية والمدّ الثوريّ الاشتراكيّ العسكريّ في العالم العربيّ. وأخذ أثرياء العرب وأصحاب الرساميل يأتون إلى بيروت. والى الاستقرار السياسيّ كان لبنان يتمتع بأقوى نظام مصرفيّ في المنطقة ويقدم خدمات ماليّة ولوجستية وإدارية وغيرها، بمستوى لم تستطع تقديمه عواصم العرب ولا حتى تركيا واليونان وقبرص.

لم يعن خروج شمعون ومجيء فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية أنَّ حسابات حرب لبنان قد انتهت. فرغم أنَّ فؤاد شهاب قد أصدر في أول عهده عام 1958 مرسوماً بالعفو الشامل عن كلّ الجرائم وخاصة تلك التي انطوت على طابع سياسيّ (وفي مقدمها مجزرة مزيارة)، إلا أنَّ العنف السياسيّ استمرّ. فقد تصالح الزعماء في أواسط 1959 وحصل "تبويس اللحى" وأعلن صائب سلام خاتمة سعيدة لحرب 1958 "لا غالب ولا مغلوب" و"لبنان واحد لا لبنانان". الكل ربح أو هكذا كان التصوّر. فقد اطمان الموارنة إلى التحرك الغربيّ بقيادة أميركا في حين اطمان السنة وحلفاؤهم أن مصر وسورية لم تتخلّيا عنهم. لقد زال خوف الموارنة والسنة ومن يحالفهم واطمانوا إلى أوضاعهم.

ولكن برزت في لبنان الخمسينيات قوى اقتصادية وماليّة واجتماعية خلقت مطالب جديدة من طوائف خارج إطار الشراكة المارونية السنية، وخاصة في صفوف الشيعة والدروز. وكان تعامي الطبقة الحاكمة عن

حقائق القوى الاجتماعية الجديدة واضحاً في حشد القوة التقليدية ضد الرئيس الإصلاحيّ فؤاد شهاب في الستينيات الذي سعى لتقليص قوّة هؤلاء. وسيطغى على الساحة في السنوات التالية صعود الطوائف المهمّشة كالشيعة والدروز والأرثوذكس ومناطق الأطراف، ضد زعماء الطوائف الطاغية في المركز الجغرافي، مدعومة من عوامل إقليمية عدّة. وهذا الصراع ضحّ دماً جديداً في أزمة لبنان أوصله إلى انفجار العام 1975.

10. العراق في سنوات الثورة والفوضى

ذكرنا في الفصل السابق أن ثورة 14 تموز في العراق وإنهاء الأسرة الهاشمية في بغداد قد أنهيا حرب لبنان فوراً وعجلاً بنزول قوى أميركية وبريطانية إلى لبنان والأردن لمنع سقوط البلدين المواليين للغرب. كان العراق في منتصف الخمسينيات يعيش تحولات اجتماعية خلقت هوة شاسعة بين النظام الملكي الخاضع للهيمنة البريطانية وبين القوى الجديدة على الساحة. فقد أصبح شأناً طبيعياً في تلك الفترة النظر إلى الملك والحكومة على أنهما خونة للعراق وعملاء للإنكليز، يحرمون الشعب من التمتع بثروات بلاده ويخدمون مصالح الاستعمار. ومنذ العام 1955 جرت محاولات لقلب نظام الحكم، وفي 14 تموز 1958 وقعت ثورة في العراق بدأها الجيش بقيادة عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف قلبت نظام الحكم وخلعت الوصي عبد الإله.

الجيش الذي أسسه الملك فيصل لتوحيد العراق وتثبيت قدم الأسرة الهاشمية في العراق، كان في العام 1958 الفئة الوحيدة القادرة على وضع نهاية للحكم الملكي، حيث لم تتحرك كتيبة واحدة في الجيش عام 1958 للدفاع عن الحكم الملكي²⁰⁴. وحتى يتأكد العسكريون أن الإنكليز لن يعيدوا الحكم الهاشمي إلى العراق، اقتحموا قصر الرحاب وقتلوا أفراد الأسرة المالكة ومنهم الملك فيصل الثاني نجل الملك غازي وله من العمر 23 عاماً. ولم ينج من القتل سوى زوجة الأمير عبد الإله. وفي ما بعد تم دفن فيصل الثاني باحترام تقديراً لأبيه الملك غازي. أما جثة عبد الإله فقد سلمها العسكريون إلى غوغاء الشارع الذين جرّوها في طرقات بغداد لعرضها على الناس ثم قاموا بتقطيعها وعلقوا ما بقي منها على باب وزارة الدفاع. وكان هذا تذكيراً بما فعله عبد الإله عندما أعدم قادة انقلاب رشيد الكيلاني عام 1941 وعلق جثثهم بطريقة مقرّزة على باب وزارة الدفاع. أما رئيس الوزراء نوري السعيد فقد استطاع الفرار، ولكن بعد يومين عثر عليه الغوغاء متنكراً في زي امرأة، فحاول ردهم بمسدسه ولكنهم قتلوه وسحلوه تحت السيارة ثم دفنوه. ثم عادوا وأخرجوا الجثة وقطعوا إرباً ووزعوا أصابعه وأعضاء جسمه جوائز للثوار²⁰⁵.

بعد ساعة من إعلان راديو بغداد عن سقوط الحكم الملكي، خرج إلى الشارع مليون عراقي للتعبير عن فرحتهم. ولكن مظاهر الاحتجاج اختلطت بالنهب والتخريب والاعتداءات والقتل، وهذه مظاهر لم يعتد عليها العالم العربي من قبل²⁰⁶. وهاجمت عصابات مسلحة الأحياء الغنية والراقية في بغداد والبصرة والموصل وكركوك ومدن وبلدات أخرى. وخلال هذه المواجهة من العنف والنهب وقع آلاف الضحايا وقامت السلطة الانقلابية باعتقال آلاف العسكريين والمدنيين المعروفين بولائهم للحكم الملكي²⁰⁷.

ورغم أن معظم هذه الجرائم البشعة كان عفوية، إلا أن زعيمة الانقلاب عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف لم يتحركا لوضع حد للجرائم. بل كان أول عمل للقيادة الجديدة هو الإعلان عن "محكمة الشعب" لمحكمة "أعداء الشعب". لقد وقعت انقلابات عسكرية في مصر وسورية في الفترة نفسها، ولكن لا شيء عادل

Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, p. 47-49.²⁰⁴

Gallman, Waldemar, *Iraq Under General Nuri*, Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1964.²⁰⁵

Thabit Abdullallah, *Dictatorship, Imperialism, and Chaos: Iraq Since 1989*, Zed Books, London, 2006, pp. 19.²⁰⁶

²⁰⁷ ماريون فاروق سلوغلت، بيتر سلوغلت، من الثورة إلى الدكتاتورية: العراق منذ 1958، منشورات الجمل، 2003.

مستوى العنف الذي حلّ على العراق عام 1958. ففي مصر عام 1952 خلع الانقلابيون حكم الملك فاروق ولكنهم سمحوا له بمغادرة مصر ولم تُطلق رصاصة واحدة.

لم يكن ما حدث في العراق مجرد انقلاب بل كان ثورة شاملة غيرت البلاد وقضت على كلّ ما قبلها وتحوّلت إلى عراق جديد. فمن نتائج الثورة أن العراق أصبح في قبضة عسكريين يحملون فكراً يسارياً يقضي بتوزيع الأراضي وتحقيق العدالة الاجتماعية. كما أحدثت الثورة هزة عميقة في المشرق، وضعت حداً لحلف بغداد الموالي للغرب وأصبحت حكومة العراق في أجواء معادية لشاه إيران وهددت الحكم الهاشمي في الأردن بقيادة الملك حسين²⁰⁸ الذي وجد نفسه مطوّقاً بمعمعة ثورية تمتدّ من سورية شمالاً والعراق شرقاً ومصر الناصرية جنوباً وثورة مشتعلة في لبنان ضد حكم الرئيس كميل شمعون. كما أصبح العراق في عداد الدول العربية الأكثر مناهضة لـ"إسرائيل".

أطلق الفريق الذي قام بانقلاب 1958 اسم حركة "الضباط الأحرار" على نفسه، تيمناً بمجموعة الرئيس جمال عبد الناصر. وكان من أسباب ثورة العراق غليان المشرق ضد الاستعمار في تلك الفترة - خاصة ضياع فلسطين واعتداءات "إسرائيل" والعدوان الثلاثي على مصر عام 1956 الذي شاركت فيه بريطانيا، ربيبة الهاشميين في بغداد، وغضبُ الوطنيين العراقيين على الدور الذي لعبه النظام الملكي في العراق ضد سورية ومصر. حتى أنّ التظاهرات العفوية التي خرجت في شوارع بغداد هتفت لعبد الناصر والوحدة مع سورية ومصر ولم تهتف للانقلابيين المجهولين. كما أيّد حزب البعث الصغير في العراق آنذاك القادة الجدد على أساس أنهم سيّجّهون نحو وحدة مع الجمهورية العربية المتحدة كما كانت حال سورية آنذاك. ولكن عبد الكريم قاسم كشف في ما بعد أنّه ليس على نهج عبد الناصر ولا يحبذ المشاريع الوحدوية مع سورية²⁰⁹.

أدت ثورة العراق إلى خوف أميركا والغرب من دولة تضمّ مصر والعراق وسورية بقيادة عبد الناصر، دولة كبيرة وغنية من النيل إلى الفرات تستطيع إبتلاع لبنان والأردن وتهذد مصالح أميركا وأوروبا في السعودية ودول الخليج وتقف نداءً متكافئاً بوجه "إسرائيل" وإيران الشاه وتركيا. وكرّدة فعل، تحركت أميركا ومعها بريطانيا لمنع الثورة من الامتداد. فنزل جيش المارينز في بيروت والجيش البريطاني في الأردن لدعم البلدين ضد السقوط لقمة سائغة بيد الجمهورية العربية المتحدة²¹⁰، ومن ثمّ التحضير للزحف على بغداد كما حصل عام 1941. ولكن عبد الناصر حدّر من مغبة عدوان غربي على العراق شبيه بالعدوان الثلاثي على مصر قبل عامين. وأكد أنّ أيّ اعتداء على العراق هو اعتداء على الجمهورية العربية المتحدة ستصدى له مصر وسورية. وتحرك عبد الناصر فوراً في 14 تموز فزار موسكو للتشاور مع الرئيس السوفياتي خروتشيف. وكان يريد أن يزور العراق في طريق العودة ليلتقي قاسم وقيادته. ولكن هذا الأخير أمر بعدم السماح لطائرة عبد الناصر من الهبوط في مطار بغداد. وهكذا نفذ قاسم التزامه للغرب بحيادية ثورة العراق عن التيار العربي ومنع ناصر من زيارة بغداد. لقد تخوّف قاسم ورفاقه من أنّ نزول عبد الناصر إلى الشارع في بغداد ولقاءه بالقيادة العراقية سيؤدّي إلى توقيع ميثاق انضمام العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة كما كانت ترغب ملايين

²⁰⁸ عبدالله هو شقيق فيصل الأول الهاشمي ملك العراق.

²⁰⁹ لم يزد أعضاء حزب البعث في العراق عن 300 عضو عام 1955، في حين لم يتجاوز عددهم 50 عام 1951.

²¹⁰ دولة الوحدة التي ضمت مصر وسورية آنذاك.

العراقيين آنذاك. ولم يكن منع زيارة عبدالناصر الإشارة السلبية الوحيدة تجاه الجمهورية العربية المتحدة، إذ واصل قاسم سياسته المناهضة للوحدة في الفترة التالية فكسب رضى بريطانيا النسبي، ولكنه كسب أيضاً عداوة الوجوديين في العراق ومنهم حزب البعث والناصريون.

لم تكن القوى الوجودية في العراق تعلم بنيات قاسم فوراً. فهو عين في البداية ناصرين وبعثيين في حكومته، ومنهم فؤاد الركابي رئيس البعث العراقي في ذلك الوقت. وكان عبد السلام عارف الرجل الثاني في النظام لا يعلم أن عبدالكريم قاسم كان ضد عبد الناصر. وإذ بدأ عارف السعي إلى الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة، ظنّ المراقبون أنه ينسق مع قاسم ولم يكن هذا صحيحاً. وفي حين كان البعث العراقي يعتقد أن الوحدة العربية هي هدف ثورة 14 تموز وعلى رأس أولويات الانقلابيين، اكتشف في ما بعد أن قاسم كان شاخصاً في مشاريعه نحو "العراق أولاً". وبسبب عدم بدء حوار وطني حول قضايا الوحدة مع سورية ومصر ومصالح العراق كما يراها قاسم، بدأت التناقضات تظهر في الأشهر التي تلت الانقلاب مباشرة بين الحلفاء. فاتجه قاسم للاتكال على الحزب الشيوعي العراقي وبعض الضباط المستقلين وكشف أنه ضد الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ولم يعر انتباهاً لرغبات البعثيين والناصريين. فاستقال الركابي من رئاسة الحكومة احتجاجاً في شباط 1959 وافترق عارف عن شريكه بعدما أعفاه قاسم من منصبه. ثم غادر عارف العراق مؤقتاً وعاد ليحاول القيام بعمل انقلابي ضد قاسم. فاعتقله هذا الأخير وسجنه وحكم عليه بالاعدام ثم أعفى عنه²¹¹.

وهكذا خلال أشهر من قيام الثورة العراقية انفرط عقد المتحالفين، وبدأت حرب عصابات بين نظام قاسم ومعارضيه استمرت حتى العام 1963. إذ خارج نطاق شرعية الدولة والمؤسسات ظهرت ميليشيات مسلحة في العراق. فأسس حزب البعث جماعة مسلحة، في حين سمح قاسم لظهور ميليشيات عدّة منها "المقاومة الشعبية" التابعة للحزب الشيوعي وشعارها "ماكو زعيم إلا كريم"، لتكون قوة دعم للنظام خارج الأمن الداخلي والجيش²¹². وبتصريح من حكومة قاسم، بدأت "المقاومة الشعبية" تتخذ ملامح قوى نظامية، فأقامت الحواجز في بغداد ودققت في بطاقات الناس، وبدأت تفتش السيارات وتضايق المواطنين. ثم كانت تدهم المنازل وتفتشها بدون أي حق قانوني. ومن ناحيتهم أطلق البعثيون حملات دعائية ضد قاسم، فوزعوا منشورات مناهضة واعتدوا على عناصر المقاومة الشعبية بالضرب وأحياناً بالطعن بهدف القتل. ولكن هذه الأعمال لم تعط أي نتيجة، ذلك أن عضوية حزب البعث لم تتجاوز بضع مئات في ذلك الوقت ولم تشكل تحدياً للشيوعيين.

Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 51-²¹¹

52.

²¹² ولعل نزعة الحكام لتأسيس ميليشيات خاصة كان مألوفاً في الشرق، فلقد استعمله الرئيس اللبناني كميل شمعون عام 1958، وأسس ميليشيا خاصة به (النمور) بعدما رفض قائد الجيش اللبناني فؤاد شهاب الاستجابة لطلبه ضرب قوى المعارضة المسلحة في بيروت والجبل.

انتفاضة الموصل

في آذار 1959، أقام "أنصار السلم"، وهو تنظيم شيوعي آخر رعاه قاسم، مؤتمراً شعبياً في الموصل حضره مئات الألوف من الشيوعيين ومناصرهم الذين جاؤوا من كل أنحاء العراق. واستغل قائد الكتبية المحلية في مدينة الموصل الضابط عبد الوهاب الشواف الفرصة للانتفاض ضد قاسم. فأمر جنوده بالتدخل لإخراج المسؤول الشيوعي كامل القازمجي من الموصل. ودخلت على الخط قوات متنوعة مناوئة للنظام وتحول الهرج والمرج إلى انتفاضة اتخذت منحى لا يمكن السيطرة عليه²¹³. إذ بعدما دبت الفوضى في المدينة، عمّتها موجة عنف عرقي وطائفي لمدة أربعة أيام.

ويقول حنا بطاطو إن "الأكراد والأيزيديين في الموصل وقفوا ضد العرب، ووقف المسيحيون من آشوريين وأراميين ضد العرب المسلمين، ووقفت قبيلة أبو المطيوت العربية ضد قبيلة شمر، وقبيلة غرغريه الكردية ضد قبيلة أبو المطيوت، وفلاحو ريف الموصل ضد ملاكي الأراضي، وجنود اللواء الخامس ضد ضباطهم، وسكان ضواحي الموصل ضد أحياء المدينة، وفقراء أحياء المكاوي ووادي حجار ضد الأغنياء في حي الدواسة، وعائلة رجبو ضد عائلة الأغوات، الخ..."²¹⁴.

في تلك الأثناء كان بعثيو سورية التي كانت جزءاً من الجمهورية العربية المتحدة يحاولون إقناع عبد الكريم قاسم بأن يلتحق بالوحدة المصرية - السورية كي يشكل العراق وسورية ثقلاً جغرافياً وسكانياً بوجه طموحات عبدالناصر. وإذ رفض قاسم هذا العرض غضب البعثيون السوريون ثم أقنعوا عبدالناصر بضرورة زعزعة حكم قاسم وتقوية يد القوى الوجودية في بغداد. وكانت مخبرات الجمهورية العربية المتحدة عام 1959 قد وعدت قائد انتفاضة الموصل بدعمه بالطيران وقوات إسناد. ولكن عندما وقعت الانتفاضة لم تصل أي مساعدة. وأسفرت الانتفاضة عن سقوط عدد كبير من القتلى والجرحى جاوز بضعة آلاف منهم قادة ومسؤولون في البعث والقوى الناصرية وضباط وجنود من الوحدات النظامية، في حين لم يتضرر الشيوعيون ولا نظام قاسم. وإلى جانب القتل المجاني، عمّت أعمال السرقة والنهب والاعتداءات واقتحام المنازل. وفي نهاية الأمر تمكّن النظام من إخماد الانتفاضة.

جاء ردّ القوى الوجودية في العراق في نيسان 1959، بمحاولة خطط لها حزب البعث بأمر من فؤاد الركابي لاغتيال قاسم. وقدمت الجمهورية العربية المتحدة التدريب والدعم اللوجستي لمجموعة الاغتيال. ولكن بسبب غياب التنسيق بين قوى المعارضة، تأجلت العملية بعد فشل انتفاضة جديدة ضد قاسم في كركوك تمّ قمعها بسرعة. ثم عادت عملية اغتيال قاسم إلى طور التنفيذ في 7 تشرين الأول 1959. وشارك في المحاولة صدام حسين في شارع الرشيد في بغداد. وتمكّن المهاجمون من إصابة قاسم بجراح بليغة وقتل سائقه²¹⁵. وأصيب صدام برصاصة ففرّ إلى سورية حيث أقيم ثلاثة أشهر التقى أثناءها ميمشال عفلق الذي منحه عضوية

Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 66-213

69.

²¹⁴ لعرض مفصل لانتفاضة الموصل يرجى مراجعة كتاب حنا بطاطو، العراق الكتاب الثالث الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار، مؤسسة الأبحاث العربية، 1999.

Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 72-3.²¹⁵

الحزب وقرّبه منه. ومن سورية غادر صدام إلى مصر مع 500 بعثي عراقي، حيث تابع عدد منهم دراسته. وبقي صدام في مصر طالباً وعاملاً في الأمور الحزبية حتى 1961، حيث ولدت في نفسه رباطاً عاطفياً مع مصر²¹⁶.

بعد إحباط محاولات العصيان وإفشال اغتيال قاسم عام 1959، اقتصر قاسم من معارضيه داخل العراق، وكانوا من زملاء ثورة 1958. فعقدت محكمة الشعب برئاسة ابن عم قاسم، الكولونيل فاضل عباس المهداوي، عُرفت في ما بعد في العالم العربيّ باسم "محكمة المهداوي" وأصبحت مثلاً يُضرب به في البطش السياسيّ. وتوالى على المنصة 57 متهماً تكلموا بجدارة مقنعة ضد نظام قاسم الذي "خان أهداف الثورة وهدف الوحدة العربيّة". ولكن المهداوي لم يهتز بقوة المنطق الذي جاء به المتهمون ومحاموهم، فأصدر أحكام إعدام بالجملة ضد 17 وأحكام سجن ضد الباقين. وصدمت هذه القرارات العالم العربيّ الذي كان يتابع تفاصيل المحاكمات من راديو بغداد. وخاصة دفاع صغار الضباط البعثيين الشجاع الذين رأوا أنّ ما فعلوه ضد قاسم كان لخدمة قضية الوحدة وأعلنوا أنّهم لا يهابون الموت من أجل هذه القضية. وهاجموا المهداوي ومحكمته التي اعتبروها واجهة لأحكام صدرت مسبقاً. وحاز البعثيون المفوّهون عطفاً شعبياً أفاد أحزابهم في انقلاب 1963 في ما بعد²¹⁷.

انقلابات عام 1963

دعم الاتحاد السوفياتيّ حكم قاسم، لأنّه منح حرية العمل للحزب الشيوعيّ العراقيّ. ولكن بريطانيا دعمت قاسم أيضاً بسبب عداته لعبد الناصر وابتعاده عن الوحدة العربيّة. أمّا الولايات المتّحدة فقد كانت تعتبر دائماً أنّ الشيوعيّة هي الخطر الأكبر. ولذلك وقفت ضد قاسم فوجد بعثيو العراق أنفسهم في الجهة نفسها مع الموقف الأميركيّ. وأخذ رئيس وكالة المخابرات الأميركيّة يصرّح أنّ "العراق تحت حكم قاسم هو أخطر بلد في العالم". وبدأت أميركا تتعاون مع أي جهة مستعدة لخلع قاسم أو مناهضة له ومنهم البعث العراقيّ وخاصة الأعضاء المقيمين في القاهرة ومنهم صدام حسين.

كان قاسم مناهضاً لعبد الناصر، ولكنه كان وطنياً محبباً للعراق ولم يكن تابعاً للإنكليز²¹⁸. ولقد ابتدأ خلافه مع لندن في حزيران 1961 عندما بدأت بريطانيا خطوات لمنح الكويت استقلالها. فأعلن قاسم أنّ الكويت "محافظة عراقية يجب أن تعود إلى الوطن الأم". وكان موقف قاسم هذا تكراراً لما قاله الملك غازي عندما كان هذا الرأي مقبولاً حتى لدى الكويتيين في الثلاثينيات²¹⁹. وأتبع قاسم هذه الخطوة بقرار تاريخيّ سيغيّر تاريخ العراق، وهو القانون 80 القاضي بحق الدولة العراقية استثمار وتملك أي أرض عراقية غير مشمولة

²¹⁶ ترجمه لدى وصوله إلى السلطة فيما بعد باستقباله ملايين العمال المصريين ابتداءً من السبعينيات وخاصة بعد ابتداء الحرب مع إيران والحاجة إلى اليد العاملة المدنية.

²¹⁷ Samira Haj, *The Making of Iraq: 1900-1963*, New York, State University of New York, 1997, pp. 111-142.

²¹⁸ Dann, Uriel, *Iraq Under Qassem 1958-1963*, New York: Praeger Books, 1969.

²¹⁹ مثلما كان عدد كبير من اللبنانيين يحبذ القول أنّ سورية ولبنان بلد واحد في الفترة التاريخية نفسها.

بامتياز "شركة النفط العراقي" الأجنبية التي تسيطر عليها بريطانيا، والتي تملك امتيازات استخراج النفط وبيعه وتسويقه وتسعيه لمدة 70 عاماً.

كان موقف عبدالناصر من موضوع الكويت سياسياً بحثاً لا علاقة له بعقليته القومية العربية التي أجازت له ضمّ سورية ولكنه لم يُجز للعراق ضمّ الكويت. فالتقى موقف مصر مع موقف بريطانيا وشنّ عبد الناصر حملة ضد سعي قاسم لضمّ الكويت وأرسل قوة عسكرية مصرية للدفاع عن الإمارة ضد أي عمل عراقي. وتزامنت هذه الأحداث مع تصاعد كلام في سورية عن الانفصال عن مصر، وأيدت هذا الكلام قيادة البعث السوري. فبدأت السلطات المصرية تشكك بالبعثيين وتراقب نشاطاتهم في القاهرة وتعمق هيمنتها على سورية. ومن ناحيتها بدأت المخابرات الأميركية خطوات للتعاون مع البعث لقلب حكومة العراق لتخوفها من أنّ العراق سيقع بيد الشيوعيين. فحدثت اتصالات واسعة مع البعثيين العراقيين في أماكن انتشارهم داخل العراق وفي القاهرة ودمشق وبيروت.

ولم يكن قاسم بدون أصدقاء، إذ أبلغه جوزيف تيتو رئيس يوغسلافيا بالخطط الأميركيّة ضدّ العراق. كما أنّ قاسم علم بتفاصيل عن التحضير لانقلاب ضده من بعض القادة البعثيين في كانون الثاني 1963، ومنهم صالح مهدي عمّاش وعلي صالح السعدي، اللذين اعتقلتهما السلطات العراقية في ذلك الوقت. وهكذا اكتملت الصورة لدى قاسم عن مؤامرة لإسقاطه بدعم من المخابرات الأميركية وضمّت البعثيين في المنفى وبعثيين في الجيش العراقي والمخابرات المصرية ومعارضين عراقيين وحدويين وآخرين من الطبقة التقليدية.

ولكن العلم المسبق لم يسمح لقاسم بوأد المؤامرة، فيما واصل البعثيون تحركهم بقيادة أحمد حسن البكر الذي كان قد اعتقل بعد انتفاضة الموصل عام 1959. ولكنه انتسب إلى حزب البعث في السجن وأصبح في ما بعد رئيس الجناح العسكري في الحزب. وفي 8 شباط 1963 تحرك البكر مع ضباط آخرين معظمهم من تكريت وبقوة ضئيلة من الجيش العراقي وثمانى دبابات ضد مكتب قاسم في مبنى وزارة الدفاع. وإذ قاوم المدافعون عن قاسم، تلقى البكر ورفاقه دعماً من أربع طائرات عسكرية بأمر من نذير الوندائي، قامت بقصف المبنى. وعندما رأى قاسم مئات الجنود والمواطنين يموتون استبسالاً في الدفاع عنه، قرّر التنحي في العاشر من شباط.

وبعد ثلاثة أسابيع، قام حزب البعث في سورية بانقلاب مماثل في دمشق، فسّر ميشال عفلق أنّ الحزب الذي أسسه سيحكم الآن بلدين عربيين محورين في غاية الأهمية²²⁰.

لدى مواجهته فرقة الإعدام رفض عبدالكريم قاسم وضع العصاب على عينيه. وكانت آخر كلمة نطقها: "عاش شعب العراق". وكان قاسم متواضعاً وشهماً ينام حتى آخر يوم من حكمه على سرير عسكري غير مريح ولم يكن يملك أي ثروة. وكان هو أوّل من أشرك الشيعة في حكومة العراق. ورغم دعم مئات الألوف من الشيوعيين ومن عراقيين آخرين أوفياء، لم يسلح أي ميليشيا ولم يسمح بتداول السلاح بين أيدي أنصاره. في حين استغلّ البعثيون وخصوم النظام كلّ فرصة لتهريب السلاح لبناء قوتهم العسكرية. وعندما طوّقه الانقلابيون في مبنى وزارة الدفاع، هرع آلاف الشيوعيين والموالين لنجدته، ولكن السلاح كان ينقصهم. كما

Thabit Abdullallah, *Dictatorship, Imperialism, and Chaos: Iraq Since 1989*, Zed Books, London, 2006, pp. 21-22.²²⁰

أنَّ العراقيين يتذكَّرونه لأنَّه اهتمَّ بالفقراء واعترف بحقوق الأكراد في أول خطاب له بعد ثورة 1958، وكان أسلوب حياته الشخصية شبيهاً بعبد الناصر في ابتعاده عن مغريات المال وحياة القصور وتفضيله العيش البسيط. كما أنَّ قاسم كان أول من عين امرأة في منصب وزير في العالم العربي، هي الدكتورة نزيهة الدليمي العضوة في الحزب الشيوعي. واعتمد قانوناً مدنياً للأحوال الشخصية وضع حدّاً لنظم المرأة في المحاكم المذهبية على أنواعها²²¹، فمنحها حقوقاً في الميراث وفي الزواج والطلاق والوصاية على الأولاد.

بعد انقلاب 1963 قام النظام الجديد بأبشع عملية تصفية وإبادة عرفها العالم العربي حتى ذلك الحين. إذ قرَّرت الحكومة البعثية الانتقام لما حلَّ بالقوى القومية عام 1959 على أيدي الشيوعيين ونظام قاسم، فأمرت بالقضاء على الشيوعيين والاشتراكيين وأنصار السلم ومناصري قاسم. ولم تكن هذه الفئات قادرة على الدفاع عن نفسها لأنَّ عبد الكريم قاسم منع تسليحها في فترة حكمه، في حين حافظ المسلحون من بعثيين وغيرهم على أسلحتهم بعد نجاح انقلاب 1958، وأصبحوا قوَّة عسكرية على الأرض.

وكان حزب البعث العراقي قد استوعب في تحليلاته لتاريخ سورية والعراق في القرن العشرين أنَّ الجيش سيكون دائماً مصدر انقلابات. فأقام قوَّة بديلة موازية وأسَّخ على مسلَّحيه صفة شبه رسمية وأطلق عليهم اسم "الحرس القومي". فقامت عناصر "الحرس القومي" بجرائم قتل ونهب وصبَّت غضبها على عناصر "المقاومة الشعبية" ذات الأغلبية الشيوعية الموالية لقاسم. ولئن احتكرت عناصر "الحرس القومي" ممارسة القتل الصوريَّ الفالت من أي قانون جذبت آلاف الشبان ممن حُرِّموا من السلطة والنفوذ ويهوون أخذ القانون بأيديهم. فزاد عديد "الحرس القومي" من 5000 في آذار 1963 إلى عشرين ألفاً في آب. وبأمر منذر الوندواوي المتعطش للدماء والذي حصل على لقب "حامي الثورة" بعد قيادته القصف الجوي لوزارة الدفاع عشية الانقلاب، قامت ميليشيا "الحرس القومي" بقتل "أعداء الانقلاب" وتراوح عدد ضحايا التصفيات بين 10 آلاف إلى 35 ألفاً.

ولم تكن هذه التصفيات بدون ثمن للعراق ولمستقبله الاقتصادي والاجتماعي. فجنون القتل أعمى النظام الجديد وزبانيته لأنَّ الضحايا كانوا يشكلون العمود الفقري لثروة العراق البشرية آنذاك، وكان معظم القتلى من الكوادر العالية من محامين ومهندسين وأطباء وأساتذة جامعيين وطلبة، إضافة إلى عمال ونساء وأطفال. وأشرف صدام حسين العائد من المنفى على عدد من هذه التصفيات العنيفة ضد الشيوعيين الذين جمعهم الحرس القومي في مخيمات أو اعتقالهم في "قصر النهاية"، المركز السابق لوصي العهد الأمير عبد الإله²²². وكان الحرس القومي يستعمل لوائح أعضاء الحزب الشيوعي العراقي التي جمعتها مكاتب المخابرات الأميركية في عواصم الشرق الأوسط وقدمتها للانقلابيين. فأدَّى ذلك إلى سقوط آلاف الأبرياء الذين أوشت بهم هذه اللوائح غير المؤكدة والتي لا تستند إلى أي دليل. وعلى سبيل المثال، من أصل 800 قتيل وصلت أسماؤهم إلى وسائل الإعلام الأجنبية، كان من بينهم 7 من أصل 13 عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي وعشرات الحزبيين والمناصرين لعبد الكريم قاسم. ولكن المئات كانوا من غير الحزبيين. إذ كانت

²²¹ رأى علماء الشيعة في العراق أنَّ المحاكم الشرعية لا تنظم المرأة وطالبت بإلغاء القانون المدني.
²²² علي كريم سعيد، عراق 8 شباط 1963 من حوار المفاهيم إلى حوار الدم، دار الكنوز الأدبية، 1999.

اللائحة الأميركية قديمة حوت أسماء شخاص لا علاقة لهم بالحزب الشيوعي ومصادرهما كانت من مسؤولين أمنيين من النظام الملكي السابق ومن مقيمين في بيروت ومن بعثيين لبنانيين وعراقيين في القاهرة²²³. كان الحزب الشيوعي العراقي إذاً أكبر ضحية لانقلاب 1963، مع أن الشيوعيين كانوا يملكون كامل القدرة للسيطرة على الحكم في عهد قاسم. ذلك أن 500 ضابط في الجيش العراقي كانوا أعضاء في الحزب الشيوعي في حين لم يزد عدد الضباط البعثيين عن العشرة. ولكن توصيات الاتحاد السوفياتي الدائمة بضرورة التعاون مع قاسم دفعت الشيوعيين إلى صرف النظر عن الوصول إلى السلطة، ما ترك المجال مفتوحاً للأقلية البعثية لقلب الحكم وارتكاب المجازر. ولقد قام الضباط الشيوعيون بانتفاضة في 3 تموز 1963 رداً على المجازر بحقهم فرداً عليها النظام الجديد بمزيد من القتل.

اتضح موقف واشنطن من النظام الجديد في 8 شباط 1963، بعد ساعات من الانقلاب، حيث قامت المخابرات الأميركية بالاتصال بالبعثيين لطمأنتهم ووعدهم باعتراف أميركي سريع. فتحسنت علاقات أميركا مع العراق حتى أن المسؤول البعثي علي صالح السعدي الذي أصبح وزيراً للداخلية ونائب رئيس الوزراء صرح بالقول: "لقد جئنا إلى السلطة على متن قطار السي آي إيه". كما أن الملك حسين أشار إلى أن الانقلاب جاء مدعوماً من المخابرات الأميركية. وكرّد للجميل، قام البعثيون بتسليم أسلحة سوفياتية إلى المخابرات الأميركية ومنها طائرات ميغ 21 ودبابات من طراز "تي 54" وصواريخ سام كي تتمكن الولايات المتحدة من دراسة جدواها. وكان الأكراد، وبدعم من المخابرات الأميركية، قد بدأوا عام 1961 انتفاضة ضد الحكومة المركزية التي يقودها قاسم. ولكن بعد الانقلاب البعثي، تغير الموقف الأميركي تجاه الكرد. إذ قام الأميركيون بشحن أسلحة من إيران وتركيا إلى كركوك لتمكين الجيش العراقي من قمع الأكراد بدون هوادة في نيسان 1963 طالما أن كل العراق بات مع أميركا. وطلب الأميركيون علانية من جلال الطالباني، زعيم الاتحاد الوطني الكردستاني وقف الانتفاضة، بعد أن كانوا قد طلبوا منه في بداية العام 1963 دعم الانقلاب البعثي ضد قاسم.

وتناول تحسن العلاقات مع الولايات المتحدة الشأن الاقتصادي أيضاً. إذ منحت الحكومة العراقية امتيازات لشركات أميركية منها بكتل وموبيل وبارسونز وغيرها. وأصبحت "السي آي إيه" شريكة مباشرة للبعثيين في تنظيم الاستثمارات والمشاريع الأميركية في العراق. وكان عبد الناصر قد حذر قيادة البعث في العراق وخاصة علي صالح السعدي، من التورط أكثر في العلاقة مع المخابرات الأميركية بعدما علم عن تزايد الوجود الرسمي الملحوظ للأميركيين في بغداد كواجهة للعلاقات التجارية²²⁴.

لم يثق البعثيون بقدرتهم على إدارة البلاد. إذ رغم أن أحمد حسن البكر قاد الانقلاب فهو سلم الرئاسة إلى عبد السلام عارف، شريك قاسم في ثورة 1958، الذي كان يتمتع بشعبية في صفوف الجيش. لقد أدرك البعث الذي لم يتجاوز عدد أعضائه في ذلك الحين ثلاثة آلاف أنه لن يقدر أن يحكم العراق مفرداً. وعين عارف أحمد حسن البكر رئيساً للوزراء وصدام حسين عضواً في مكتب رئاسة الجمهورية. وشكل التحالف الانقلابي

Said Abu Rish, pp. 58-61. ²²³

Said Abu Rish, pp. 60. ²²⁴

هيئة باسم "مجلس قيادة الثورة" ضمت البعثيين وحلفاءهم. ولعب صدام دوراً أمنياً، حيث دعم الجناح العسكري اليميني في حزب البعث وحارب الجناح المدني اليساري، وهذا الموقف كان يعكس رغبات ميشال عفلق مؤسس حزب البعث والمقيم حتى ذلك التاريخ في دمشق، ويعكس أيضاً تطّعات ضباط الجيش من البعثيين. ودلالة على مسعى صدام أنه أثناء اجتماع قيادة الحزب بعد الانقلاب عام 1963، دخل مع مجموعة مسلّحين إلى قاعة الاجتماع وأخرج السعودي وقاده إلى المطار ومن هناك إلى المنفى في إسبانيا²²⁵.

التكتيكات الساذجة التي سعت إلى تقوية يد العسكر وإقصاء المجموعات المنظمة حزبياً والمثقفة في المجتمع أوصلت إلى نتيجة معاكسة. إذ إنها أضعفت البعثيين وحرمتهم من قاعدة شعبية واسعة ومنحت الفرصة للرئيس عارف ليقوّي مركزه. ففي 18 تشرين الثاني 1963، أي بعد أقل من عشرة أشهر على الانقلاب ضد قاسم، قام عارف بانقلاب على الانقلاب ضد حلفائه البعثيين وأصبح رجل العراق القوي. ففي البداية تساهل عارف مع حزب البعث لأنّ البعث كان رأس الحرية التي أطاحت بقاسم ولذلك عين البكر نائباً للرئيس. ولكن بعدما استقرّ في الحكم لجأت إليه الجماعات التي شكت من تعسّف البعث، فبدأ حملة لتصفية البعثيين من السلطة وعزل البكر وأمر باعتقاله واعتقال عدد من ضباط الجيش التكريتيين وأصدر مذكرة جلب بحق صدام الذي فرّ إلى دمشق.

وجد عارف دعماً جماهيرياً واسعاً عندما قام بحلّ "الحرس القومي" البغيض وأصدر ملفاً شاملاً عن جرائم هذه الميليشيا ودور البعث في المجازر. ولكن هذا الملف لم يذكر أيّ دور لعارف شريك البعثيين في الحكم، وهو رئيس للجمهورية طيلة فترة هذه التصفيات الدموية²²⁶. لقد أصبح عارف محنكاً في تكتيكات المحافظة على السلطة، بعدما تعلّم من أخطاء البعثيين. فقام بإقصاء بعض الحلفاء ثم أسّس الفرقة 20 في الجيش أطلق عليها اسم "الحرس الجمهوري" وخصّها بتدريبات مميّزة وأسلحة متفوّقة.

ويبدو أنّ عارف كان أبعد من الأميركيين مقارنة بالبعثيين. إذ بعد خروج البعثيين من السلطة واستتباب الأمر لعارف، عاد الأكراد إلى الانتفاض في نهاية عام 1963. فكان ردّ عارف انتقامياً، حيث أثبت أنه ألدّ عدو للأكراد في تاريخ العراق حتى ذلك العام، حيث استعمل الطائرات لقصفهم بالنابالم الحارق والقنابل الكيماوية. وإذ لم يساهم هذا القمع العسكري في التوصل إلى حل للمسألة الكردية، قرّرت حكومة جديدة يرأسها عبد الرحمن البزاز مفاوضتهم عام 1966 ورفضت أي نوع من الحكم الذاتي للأكراد، ضمن سياسة الحكومات العراقية المتعاقبة منذ 1930 التي خافت أنه متى أخذ الأكراد حكماً ذاتياً فسينتهون باستقلال تامّ ودولة تسيطر على نفط شمال العراق.

وعام 1964 عاد صدام من دمشق بعدما عينته القيادة القومية للبعث رئيساً للقيادة القطرية في العراق بدعم من ميشال عفلق. فأحاط صدام نفسه بمئات البعثيين والمناصرين وبدأ العمل ضد عارف. ثم أخذ صدام وأحمد حسن البكر وخال صدام خيرالله طلفاح بالتخطيط لمحاربة عارف. فدبروا عملية اغتيال عارف

²²⁵ كمال ديب، تاريخ سورية المعاصر، بيروت، دار النهار للنشر، ص. 255.

²²⁶ Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 85.

يشارك فيها صدام وعبد الكريم شيخلي. لكن الشرطة علمت بالأمر مسبقاً واعتقلت الإثنيين²²⁷، ودخل صدام السجن. وكانت معاملة عبد السلام عارف لخصومه أفضل من معاملة البعثيين لخصومهم عندما وصلوا إلى السلطة عام 1963. إذ سمحت السلطة لصدام باستقبال الزوار في سجنه وتسلم رسائل من البكر وآخرين وحتى متابعة أعمال التنظيم الحزبي، إلى درجة أن عفلق عينه نائب الأمين العام للحزب وهو في السجن. وفي العام 1966، حصلت تطورات غير متوقعة غيرت مسار العراق. إذ قضى عبد السلام عارف في حادث تحطم هليكوبتر، فاختر شقيقه عبد الرحمن عارف رئيساً مكانه. أمّا في دمشق، فقد قام يسار البعث بحركة انقلابية جديدة في 23 شباط وأزاح ميشال عفلق وصلاح البيطار عن القيادة القومية. وفي تموز استطاع صدام الفرار من السجن حيث أمضى حوالي العامين. وقام الرئيس الجديد عبد الرحمن عارف بمحاولات لرأب الصدع مع البعثيين على أساس الشراكة في المشاريع التقدمية لمصلحة العراق وتناسي هموم السياسة الخارجية. ولكنهم رفضوا لأنّ شوكة البعث العراقي الإقليمية كانت قد قويت وبات جاهزاً لعمل كبير. ففي أيلول 1966، بعد تطورات داخل البعث السوري، قرّرت القيادة القومية اليسارية الجديدة للبعث في دمشق طرد صدام حسين وحسن البكر من منصبيهما في القيادة القطرية للعراق. فرفض الأخيران القرار وأعلنا قيادة قومية ثانية في العراق، تتكلم أيضاً باسم كل البعثيين في العالم العربي وتحظى برضى عفلق والبيطار. وهكذا أصبح حزب البعث حزبين. ثم بدأ البعث داخل العراق حملة اتصالات وتحالفات مع قوى مناهضة لعبد الرحمن عارف ومع ضباط داخل الجيش وفي الحرس الجمهوري بهدف الانقلاب²²⁸.

معركة النفط والاقتصاد

شهد العراق تحولات اقتصادية منذ ثورة 1958 وحتى منتصف الستينيات²²⁹. ورغم أن البعثيين والشيوعيين كانوا يقدمون مشاريع راديكالية لتأمين رفاهية الشعب، إلا أن الجميع كان متفقاً على أهمية سيطرة العراق على قطاع النفط ونزعه من أيدي الاستعمار.

ثورة 1958 تركت بصمات هامة على البلاد. بالإضافة إلى إنهاء الحكم الملكي وبدء الصراع للسيطرة على النفط، قامت الثورة بالإصلاح الزراعي الشامل، بدفع قوي من الحزب الشيوعي. وأدّت سياسات الثورة إلى تحطيم القوة السياسية والاقتصادية للطبقة الإقطاعية في الأرياف وتقوية شوكة القوى المدنية والعسكرية، وعشية ثورة 1958، كان النفط بالذات هو المسألة التي حرّكت وجدان العراقيين. فهو طاقة بلادهم الهائلة التي تستطيع أن تؤمن دخلاً محترماً لأجيال. وفي الستينيات امتلك العراق احتياط نفط هائلاً يفوق 300 مليار برميل، وما عُرف منه لم يتجاوز 100 مليار برميل والباقي احتاج إلى استكشاف وتطوير. وكان ممكناً

²²⁷ أمير اسكندر، صدام حسين مناضلاً ومفكراً وإنساناً، دار هاشيت (صدر بالعربية والفرنسية لكاتب مصري) وفؤاد مطر، صدام حسين، الرجل، القضية والمستقبل.

²²⁸ Khadduri, Majid, *Republican Iraq*, London: Oxford University Press, 1969.

²²⁹ Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 76.

أن يضاعف العراق إنتاجه إلى عشرة ملايين برميل يومياً ويضمن دخلاً وطنياً ثابتاً لو استُعمل بأمانة ولمصلحة الشعب وتطوره وازدهاره. ولكن هذا احتاج إلى قرار وطني مفقود.

كان دور شركة النفط العراقيّ الأجنبيّة Iraqi Petroleum Company IPC باحتكار هذا القطاع وتقنين الاستخراج والإنتاج مضرّاً ومُذلاً للشعب العراقيّ. وعام 1960، عبّر عبد الكريم قاسم عن هذا الشعور بقوله: "نحن لا نحارب شركات النفط لنحصل على سبعة ملايين دينار في السنة. هذه مسألة ثانوية. إننا نناضل من أجل تصنيع جمهوريتنا وإنهاء الاتّكال على مبيعات النفط الخام. والمكاسب الماليّة من تنويع قاعدتنا الاقتصاديّة ستساعدنا على تحسين وضع الفقراء بدون تهديد مستوى معيشة الأغنياء". وفتح قاسم معركة تحرير النفط العراقيّ فدعا الدول المصدّرة للنفط إلى اجتماع في بغداد في أيلول 1960، وهذا أمر لم يجرؤ عليه أي بلد آخر. وأسفر الاجتماع عن تأسيس منظمة الدول المصدّرة للبتروك أوبك²³⁰. وجاءت الخطوة الثانية عام 1961، عندما قرّر قاسم قبول نصيحة الخبراء بضرّب الاحتكار الأجنبيّ واعتبار أراضي العراق التي لا تستثمرها شركة النفط العراقيّ الأجنبيّة ملكاً للدولة العراقيّة. وهذه كانت "ضربة معلّم" لأن الشركة الأجنبيّة تعمدت عدم التنقيب عن النفط في باقي أراضي العراق. كما قصدت الشركات إبقاء الكميات المُنتجة قليلة وضد مصلحة الشعب العراقيّ الفقير الذي كان بحاجة إلى رساميل تنعش الاقتصاد الوطنيّ، حيث كان النظام الملكيّ السابق يتنعم بالمال لإنفاقه على البلاط والحاشية ويغضّ النظر عن السياسة الإمبرياليّة. وهكذا تحدّدت مساحة احتكار الشركة الأجنبيّة بنسبة 0.5 في المئة من مساحة العراق وأصبحت الحكومة العراقيّة تسيطر بموجب القانون على 99.5 في المئة.

وفي العام 1964 أسس الرئيس عبد السلام عارف "شركة النفط الوطنيّة العراقيّة" (قانون رقم 80) لبيع البترول القليل الذي تستخرجه الحكومة عبر هذه المؤسسة الوطنيّة. ولكن الإنكليز كانوا بالمرصاد لأن الخطوة العراقيّة هدّدت شركات النفط الأجنبيّة، في وقت كان الإنكليز يسيطرون بالكامل على نفط الكويت ونفط إيران. ثم قام الإنكليز بتحذير الشركات الأجنبيّة الأخرى العاملة في الكونسرتيوم من مغبة مساعدة حكومة العراق في التنقيب والإنتاج كما هددوا الدول المستهلكة للبتروك من مغبة شراء نفط حكومة العراق بأنها ستتلقي عقوبات وتُحرم من شراء النفط بكميات تجاريّة من الشركات البريطانيّة والغربيّة.

استمرّ الصراع بين بريطانيا والعراق عامين حتى قررت الحكومة العراقيّة عام 1966 اللجوء إلى خبرات فرنسيّة وروسية لبناء صناعة نفط وطنيّة حديثة. فتعاقدت مع شركة إيراب الفرنسيّة وأعطت حقوقاً لشركة سوفيائيّة للتنقيب في حقل الرميلة العملاق على الحدود الكويتية. وكان الرئيس عارف يرغب فعلاً في التعاون مع فرنسا ومنحها حقوقاً في شمال العراق أيضاً.

كان انقلاب 1963 الذي قام به عبد السلام عارف وحزب البعث بداية مرحلة جديدة من التغيير في العراق. إذ بدأ الحكام الجدد عمليّة صياغة جديدة لدور دولة الرعاية كأب للجميع على النمط الاشتراكيّ العربيّ؛ إدارة عامة ضخمة، تعليم إجباريّ مجانيّ، دور عميق للعسكر في السلطة، الالتحام بالقضايا القوميّة وعلى رأسها قضية فلسطين، بناء دولة تكون كلّ شيء للمواطن، الخ.

وتعايشت هذه الدولة مع طبقة وسطى عراقية نشأت في المدن وسعت إلى اقتصاد سوق حرّ وإلى تحجيم دور الدولة ليقصر على تطوير البنى التحتية وتقديم الخدمات العامة، وكل ما هو نقيض للدولة الاشتراكية. ولكن كما في سورية، أخذت الطبقة الوسطى تنحدر في ظل الدولة الاشتراكية وبدأ دورها يضمحلّ وهاجر أبناؤها إلى لبنان وبلدان أخرى. ومن بقي في العراق من هذه الطبقة الوسطى لم يكن قليلاً. إذ إنّ كوادر مثقفة ومتعلّمة من هذه الطبقة بقوا في البلاد وحصل كثيرون منهم على مستويات تعليمية عالية في الغرب وفي جامعات بيروت. وشكّلت هذه الكوادر نواة وزارة النفط العراقية والشركة الوطنية للنفط العراقي عام 1964²³¹.

الأكراد والشيعة

على صعيد الوحدة الداخليّة، لم يلتفت قادة العراق إلى مسألة مشاركة الأكراد والشيعة الذين شكّلوا في الستينيات أكثر من 70 في المئة من الشعب العراقيّ. بل بقيت قاعدة النظام ضيقة في تمثيلها. وعندما سقط قاسم عام 1963، ظنّ الأكراد أنّ النظام القوميّ العربيّ والبعثيّ سيكون أفضل من سابقه. ولكن الوضع كان أقسى وطأة بسبب إيديولوجيّة البعث التي لم تتهاود مع طموحات الأقليّات. وما زاد الوضع سوءاً هو أنّ سورية أيضاً أقفلت في وجه المناضلين الأكراد لأنّ البعث سيطر على مقاليد الحكم في دمشق أيضاً في الفترة نفسها²³².

في تموز 1968، بعد عشر سنوات على ثورة قاسم، قام حزب البعث بانقلاب غير دمويّ على الحكم بمساعدة ضباط يمينيين، فكان الأكراد في حال غليان يريدون إمّا الحصول على حقوقهم ضمن عراق موحد، أو الانفصال لإقامة دولة كردية مستقلة. وكان الأكراد قد انشقوا في ما بينهم عام 1966، بين قيادة عشائريّة للملا مصطفى البرزاني زعيم "الحزب الديمقراطيّ الكردستاني" وقيادة أكثر عصريّة بأمره جلال الطالبانيّ زعيم "الاتحاد الوطنيّ الكردستاني". وكان تنظيم البرزانيّ الأقوى والأكثر عدداً وشعبية ولكن لم تكن قيادة البرزانيّ دائماً حكيمة، إذ تحالفت مراراً مع دول أجنبيّة متناقضة كإيران وأميركا والاتحاد السوفياتيّ، وخاصة مع عدوة العرب "إسرائيل".

أما الشيعة، فقد كانت أعداد كبيرة من شبابهم في صفوف الحزب الشيوعيّ العراقيّ. ولكن بعد انكسار قاسم عام 1963 نشأ في صفوف الشيعة وعي مذهبيّ بعد القمع الدمويّ للحزب الشيوعيّ وبعد فشل الدولة الوطنيّة في استيعابهم والاستجابة لمطالبهم ومعاملتهم بالمساواة. وكانت فعاليات الشيعة وخاصة الكوادر المثقفة قد نشطت في الأربعينيات والخمسينيات في تأسيس وتقوية الأحزاب اليساريّة في العراق. فكان الشيعة في عداد الأحزاب الشيوعيّة والقوميّة العربيّة كالبعث وفي الصف الأمامي في القوى الوطنيّة للمحافظة

Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 101-231

102.

Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Ibid.*, pp. 102-103.²³²

على وحدة العراق. ولكن وصول الأحزاب القوميّة والعلمانيّة والقوى الوطنيّة الأخرى إلى الحكم لم يؤد إلى منح الشيعة وجوداً رسمياً لا في السلطة ولا في الجيش، حيث استمرّ احتكار العرب السنّة للمناصب كما كان عليه الوضع في زمن تركيا. وحتى الأكراد كأقليّة مظلومة حصلوا على مناصب في الدولة والجيش أكثر من الشيعة نسبياً.

وأمام التصرف الطائفيّ الضيق لحكام العراق، ولو لم يكن مقصوداً، ترجمت فاعليات الشيعة غضبها وعدم رضاها بانخراط رجال الدين الشيعة في العمل السياسيّ والمطليبي²³³. واتجه شيعة العراق إلى "حزب الدعوة الإسلاميّة" الذي تأسس عام 1957، وقويت شوكة هذا الحزب بعدما أصدر علماء الشيعة فتاوى ضد العضويّة في الحزب الشيوعيّ عام 1960²³⁴. فكبر الدعوة في ظل قائده السيّد محمد باقر الصدر. وفي أواخر الستينيّات أيضاً ساعد بروز الشيعة معارضتهم للقانون المدنيّ للأحوال الشخصيّة الذي رأوه مناقضاً للشريعة الإسلاميّة. وطلب السيد محسن الحكيم نقض هذا القانون، فقام عبد السلام عارف وعبد الرحمن عارف، وهما من السنّة المتدينين، بتخفيف مفاعيل القانون أثناء فترة حكمهما (1963 إلى 1968) استجابة للحكيم. كما ساهم في صعود الشيعة لجوء آية الله الخمينيّ إلى العراق هارباً من ظلم الشاه ومقيماً وسط الشيعة في النجف في أوائل الستينيّات.

159

لم يأخذ زعماء العراق الهم الشيوعيّ مأخذ الجد، رغم أن هذه المشكلة كانت أخطر وأهمّ من قضية الأكراد. إذ لو سعى الشيعة إلى الانفصال لبطل وجود العراق كدولة. ولكن الأكراد حملوا السلاح واعتمدوا دائماً على دعم خارجي من دول عدّة. وحتى عندما لجأ حزب الدعوة الشيوعيّ إلى أعمال إرهابية في عهد صدام رداً على دموية النظام، لم يتحوّل الاتجاه العنفيّ إلى حالة شيوعيّة عامة.

²³³ كانت هذه النواة هي البذرة التي زُرعت في إيران لاحقاً لبناء "دولة الفقيه" الخمينية.

²³⁴ أفتى السيد محسن الحكيم عام 1960 بأنّ الانتماء إلى الحزب الشيوعي يتناقض مع الانتماء إلى الدين الاسلامي. فأفاد البعثيون من هذه الفتوة ولكنها أدت بالتالي إلى نمو حزب الدعوة المعارض في الوسط الشيوعي.

11 | لبنان يرتدّ على الإصلاح اليتيم

كانت ثورة 14 تموز 1958 في بغداد العامل الأهم الذي أوقف حرب لبنان وفتح الطريق لانتخابات رئاسية برعاية مصرية وأميركية أوصلت قائد الجيش فؤاد شهاب كما سبق ذكره. ويُعتبر عهد فؤاد شهاب (1958 إلى 1964) رمزاً يكاد يكون يتيماً، للإصلاح السياسي والاقتصادي في لبنان، عانى من عداء سافر من الطبقة التقليدية ووصل للفشل.

لقد كان شهاب اختياراً سعيداً لحل أزمة 1958 لأنه كان مارونياً غير مسيئس يتمتع كقائد للجيش بثقة المسلمين والمسيحيين. فحاض في عهده مواجهة صعبة عندما توحد في وجهه معظم الزعماء بعدما انقسموا بين مؤيد ومعارض في عهد كميل شمعون.

سعى شهاب إلى بناء دولة مؤسسات وتطوير الاقتصاد وتحسين الوضع الاجتماعي للمواطنين، وأصبحت قضية الإنهاء في عهده هاجساً رسمياً على أعلى المستويات. وكان الفكر الإصلاحي راسخاً في ذهنه وتحسس القضايا الاجتماعية حيث رأى أن "وراء النزاعات والمشاكل في لبنان تكمن المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والفروق الكبيرة بين الطبقات والفئات والمناطق. فالعجوبة اللبنانية والازدهار الظاهر في قسم من بيروت كانا يخفيان أوضاعاً اقتصادية واجتماعية خطيرة... وطغيان قطاع الخدمات على القطاعين الزراعي والصناعي أضعف الاقتصاد"²³⁵.

وكان شهاب بحكم خدمته في الجيش اللبناني في منطقة البقاع الريفية متفهماً لأهمية المطالب الاجتماعية ولمسألة الحرمان. وكادت قضية إنهاء المناطق تؤدي إلى صدام بين شهاب ورئيس الجمهورية كميل شمعون. ففي العام 1952 عندما كان شهاب قائداً للجيش زاره شمعون لاستطلاع موقفه من ترشيحه لرئاسة الجمهورية وكان مطلب شهاب الوحيد أن يُصدر شمعون إذا أصبح رئيساً للجمهورية عفواً خاصاً عن مطلوبي عشيرة الدنادشة في الهرمل شمال البقاع. وكان شهاب "مقتنعاً أن حرمان أبناء الهرمل من الحقوق التي تفرضا مواظنتهم على الدولة لا يجيز ملاحقتهم ومحاکمتهم، بل يجب على الدولة أن توفر لهم الحد الأدنى من أسباب العيش والحياة قبل أن تحاسبهم وتدينهم وتطاردهم... والحقيقة أن الرئيس شمعون لم يكن يولي القضية الاجتماعية وإهاء المناطق المحرومة الأولوية في اهتماماته"²³⁶. وكادت قضية الهرمل تؤدي بالعلاقة بين شهاب وشمعون، إذ تمنع شمعون عن إصدار العفو حتى بعد عامين من وصوله إلى الرئاسة واعتكف شهاب في منزله حتى تدخل أصدقاء مشتركين.

ولذلك عندما أصبح شهاب رئيساً للجمهورية عزم على مهام إصلاحية متعددة فصدرت عشرات المراسيم التشريعية والقوانين التي مهدت لقيام دولة مؤسسات. إلى درجة يمكن القول إنه إذا كان من مؤسسات رسمية استفاد منها المواطن اللبناني فيما تبقى من القرن العشرين، فإنها حتماً تلك التي أسسها شهاب. وبأثر شهاب عهده بدعوة مؤسسة إيرفد الفرنسية²³⁷ IRFED، لدراسة عوامل التنمية الاجتماعية في لبنان. وبدأت إيرفد عملها عام 1959 وأتمته خلال ثلاث سنوات وصدر تقريرها في سبعة مجلدات عام 1961 أصبح في

²³⁵ باسم الجسر، فؤاد شهاب، بيروت، مؤسسة فؤاد شهاب، 1998، ص.ص. 51-52.

²³⁶ باسم الجسر، المصدر نفسه، ص.ص. 21-22.

²³⁷ IRFED، Institut International de Recherche et de Formation Éducation du Développement - IRFED.

العقدين اللاحقين مرجعاً أساسياً يذكر دائماً بضرورة تنمية لبنان الطرقي ومعالجة سوء توزيع الدخل الوطني وتطوير النظام الضريبي وقوانين العمل وبرامج الخدمات الاجتماعيّة.

جاء في مقدمة التقرير بقلم الأب لوبريه رئيس البعثة: "فئة من اللبنانيين تعيش في مستوى المجتمع الأميركيّ الميسور وإلى جانبها في الأرياف والضواحي هناك لبنانيون يعيشون كما كان الناس في عهد النبيّ إبراهيم"²³⁸.

وحذّر تقرير إيرفد من فقدان التوازن الاجتماعيّ والمناطقّي في التنمية وقدم إحصاءات مقلقة حول توزيع الثروة الوطنيّة. فقد قامت البعثة بمسح شامل للأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة في لبنان شملت أوضاع الدخل والصحة والسكن وخدمات المرافق العامّة والتعليم والثقافة والخدمات الاجتماعيّة. وكان التباين الاقتصاديّ والاجتماعيّ كبيراً بين الريف (حيث أقام 60 في المئة من سكان لبنان آنذاك) والمدن بشكل عام. وبرز أيضاً أنّ لبنان كان متخلفاً في الأوضاع الاجتماعيّة والثقافيّة ويعاني نقصاً في التجهيزات الصحيّة. كما أظهرت إيرفد وادياً سحيقاً بين قمة الهرم في استقطاب الثروة والتي لا تشكل أكثر من 4 في المئة من السكان والقاعدة الفقيرة التي مثلت 49 في المئة من السكان. وبقي رقم فئة الـ4 في المئة التي تسيطر على الجزء الأكبر من الدخل الوطنيّ، تهمة متكررة في أدبيات معارضي السلطة ضد النخب الحاكمة والمهيمنة على الاقتصاد. ولقد قاد كمال جنبلاط بعد 15 عاماً من تقرير إيرفد جبهة سياسيّة واسعة ضد "عصابة الأربعة في المئة التي ابتلعت 40 في المئة من الدخل الوطني"²³⁹. وإذ اقتصر الثراء الفاحش على 4 في المئة من السكان، أو 80 ألف شخص في الستينيّات و150 ألفاً في الوقت الحاضر، كان هؤلاء سوفاً هاماً للبضائع والخدمات الكماليّة، قادراً على إقناع زوّار بيروت اليوم أنّ لبنان بلد متطوّر ومطاعمه مليئة. ويرى كثيرون أنّ الـ4 في المئة هم مجموعة العائلات التي برزت واستقرّت في السياسة والاقتصاد.

وقرّر شهاب أنّه سيقضي الفترة المتبقية من عهده لتنفيذ مقترحات إيرفد وكانت معظم توجيهاته محاولات لتنفيذ خطط ومشاريع تنمويّة. فظهرت قوانين جديدة ومجالس ومؤسسات رسميّة لتحسين المعادلة التنمويّة في البلاد، ومنها برامج تحسين العمل والخدمات ووزارة التصميم العام والتعليم العالي والمجلس الوطنيّ للسياحة ووزارة الإعلام والمجلس الوطنيّ للبحوث العلميّة والتنظيم المدنيّ وقانون النقد والتسليف وإنشاء مصرف لبنان المركزيّ وافتتاح بنائه (1964) ومديريّة الرياضة والشباب وتنظيم العمالة الأجنبيّة والمخطط التوجيهيّ لمدينة بيروت ومعهد المعلمين وتعاونيّة موظفي الدولة والضمانات الصحيّة والاجتماعيّة والأمومة والبطالة والشيخوخة²⁴⁰.

ومن المؤسسات التي ظهرت في العامين الأوّلين من عهد شهاب: مصلحة الإنعاش الاجتماعيّ ومكتب الفاكهة ومكتب القمح ومصالح المياه والتفتيش الماليّ وكلية الحقوق في الجامعة اللبنانيّة وديوان المحاسبة وجهاز رئاسة الجمهوريّة ومعرض طرابلس الدوليّ ومجلس تنفيذ المشاريع الكبرى ومجلس القضاء الأعلى ومجلس

²³⁸ باسم الجسر، فؤاد شهاب، ص. 52.

²³⁹ Kamal Joumlatt, *Pour Le Liban*, Paris, Stock, 1978.

²⁴⁰ استغرق العمل لإطلاق صندوق الضمان الاجتماعي حتى 1971 ولكنه أصبح من أهم مؤسسات الدولة لتحسين الوضع الاجتماعي حيث بلغ عدد المشتركين 340 ألفاً عام 1974، يعملون أجراً في قطاعات اقتصادية خارج نطاق الزراعة.

الشورى ومجلس الخدمة المدنية وهيئة التفتيش المركزي ومعهد الدروس القضائية والمحاكم الشرعية وقانون الإرث لغير المسلمين، ومجلس التخطيط والإئتماء الاقتصادي ومكتب الإئتماء الاجتماعي.

كما نفذت الحكومة في العامين الأولين من عهد شهاب مشاريع عمرانية كبناء الحوض الثالث لمرافأ بيروت ومرافأ جونيه وأنجزت أجزاءً كبيرة من الأوتوستراد الساحلي ومن خطة التنمية الشاملة لإنارة المناطق وإيصال المياه والكهرباء والطرق المعبدة إلى مناطق نائية ومحرومة وبناء عدد كبير من المدارس في الأرياف. وستأتي الرزمة الأكبر من الإصلاحات والمؤسسات في ما تبقى من عهده بعدما تسنى لشهاب درس الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في لبنان. فكانت إصلاحات ومشاريع شهاب مسألة صراع البقاء بالنسبة لعدد كبير من المواطنين أثناء الانهيار الاقتصادي أيام الحرب في الثمانينيات.

أصبح البقاع محطاً اهتمام الدولة في عهد فؤاد شهاب فظهرت مشاريع تنموية كالمشروع الأخضر ومشروع الليطاني. كما توسع الإنفاق على التربية والتعليم فزاد عدد الطلاب في المدارس الحكومية بشكل كبير. وحاول شهاب توجيه الإدارة العامة على أسس حديثة ضد الفساد وإخراج الوظائف العامة من الارتهان للزعماء السياسيين والطائفيين وإدخال العناصر الشابة والكفوءة إلى الإدارة وكسر احتكار بعض الطوائف لمراكز هامة في الدولة وإرساء المؤسسات والتخطيط الإئتمائي والعدالة الاجتماعية.

ورغم اعتبار الكثيرين لعهد شهاب بأنه مثل التدخل الأكبر والأهم للدولة اللبنانية في شؤون الاقتصاد، بدلالة ولادة عشرات المؤسسات الرسمية وزيادة النفقات في الموازنة العامة من 200 مليون ل.ل. عام 1959 إلى 520 مليون ل.ل. عام 1964²⁴¹، فإن الاتجاه التنموي لعهد شهاب لم يكن راديكالياً ولم يؤد إلى تدخل الدولة كثيراً في السوق كما حصل في سورية والعراق في الستينيات. بل اقتصرت منجزاته على تحديث البنى التحتية والمؤسسات العامة التي قدّمت الإطار المناسب لأداء فعال لاقتصاد رأس مالي²⁴². كما أشار توفيق كسبار إلى أنه بعكس النظريات الاقتصادية التي ظهرت في الخمسينيات من القرن العشرين بأنّ نظام السوق يرشح مع الوقت عن trickle down توزيعاً أكثر مساواة في الدخل والثروة، فإن أكثر من 84 في المئة من إجمالي الإيداع كان بيد 3 إلى 4 في المئة من الأسر حتى منتصف الستينيات. كما أنه في العام 1974 حصل 5 في المئة من المستفيدين على ثلثي القروض المصرفية التجارية، في حين لم تزد نسبة اللبنانيين الذين بإمكانهم فتح حساب مصرفي عن 14 في المئة من إجمالي الأسر في أحسن الأحوال.

وكما في الاقتصاد كذلك في السياسة حيث أظهر مسح أنه من أصل 359 نائباً تم انتخابهم خلال خمسين عاماً من الحياة البرلمانية كان أكثر من 300 نائب قد ورثوا مقاعدهم من ذويهم²⁴³. كما ظهرت في السبعينيات دراسات جديدة أكدت منحى الدولة الضعيف في لبنان ورسمت صورة قائمة للواقع الاجتماعي اللبناني قبل حرب 1975، إحداهما دراسة سليم نصر وكلود دوبار²⁴⁴.

²⁴¹ باسم الجسر، فؤاد شهاب، ص. 60.

²⁴² توفيق كسبار، اقتصاد لبنان السياسي، ص. 77.

²⁴³ توفيق كسبار، اقتصاد لبنان السياسي، ص. 98-99 و ص 75.

²⁴⁴ سليم نصر وكلود دوبار، الطبقات الاجتماعية في لبنان.

ولكن لو سمحت الظروف لشهاب لإكمال مساره الإصلاحِيّ وبناء مؤسسات الدولة الاجتماعيّة وانتخابه رئيساً مرة ثانية لكان لبنان في غير وادٍ. إذ إنّ النهج الشهابيّ فقد وجهه الإصلاحِيّ بعدما وقفت في وجهه طبقة الزعماء ورجال الأعمال. وربما كان شهاب ساذجاً في السياسة مقارنة بشمعون إذ إنّّه تساهل عام 1960 بقانون انتخابيّ جديد رفع عدد مقاعد البرلمان من 66 إلى 99 ومهد الطريق لانتخابات نجمت عن عودة كافة الزعماء التقليديّين أعداء الإصلاح إلى البرلمان وعاد معهم طغيان الإقطاع المذهبيّ والمناطقِيّ. وعندما هاجم الزعماء وأصحاب المال فؤاد شهاب، كان ردّه كلامياً فقط لم يعد يخيف الطبقة النافذة فابتعدت عنه المصالح الاقتصاديّة والسياسيّة المسيطرة بعدما أصبح مصدر إزعاج - وليس تهديداً - لها. وهذه كانت عثرة الإصلاح الشهابيّ الذي بات بدون أنياب²⁴⁵.

مؤسرات الانهيار

قبل حرب 1967 بين العرب و"إسرائيل" عملت الدوائر الغربيّة على إضعاف سوق بيروت الماليّ وضرب أكبر مؤسسة مصرفية عربيّة في ذلك الوقت، بنك إنترا. وبعد الحرب استسهلت "إسرائيل" استهداف لبنان جواً وبحراً وبراً وخاصة بعد تصاعد حركات المقاومة الفلسطينيّة واتخاذها من جنوب لبنان قاعدة لانطلاق عمليّاتها.

لقد انتهى عهد شهاب عام 1964، واختير شارل حلو خلفاً له. فرضي البرلمان ذو الأغلبية الشهابيّة بهذا الاختيار رغم الإصرار على التجديد لشهاب. وطالما أنّ حلو كان خيار شهاب الشخصيّ فقد اطمأنت جماعة النهج الشهابيّ إلى الأمر. ولكنهم جفلوا من الخيار لأنّ حلو لم يكن شهابياً متحمساً وكانت عقيدته السياسيّة وثقافته الفرنكوفيلية أقرب إلى البيئة الرجعيّة. إذ كان حلو شهابياً متردداً قبل أن يصبح رئيساً للجمهورية حيث كان جزء كبير من عقليته مرتبطاً بنشأته الجزويتية وارتباطاته مع الأسر التقليديّة. وهذه الخلفية جعلت حلو أكثر انفتاحاً على القوى التقليديّة، وبدلاً أن يستمر في الإصلاح بات حلو موقفاً صلباً فيه صراعات الزعماء ضد الشهابيين الذين استمروا في مؤسسات الدولة.

في 1966 وقعت أزمة مصرفية كبرى أدّت بسمعة وقوّة أكثر القطاعات اللبنانيّة حيوية وأهميّة، عُرفت باسم "أزمة إنترا" إشارة إلى بنك إنترا أكبر مصرف تجاريّ في لبنان والمنطقة في تلك الفترة. يوسف بيدس، رئيس بنك إنترا كان فلسطينياً من القدس من عائلة أرثوذكسيّة. ويقول إدوارد سعيد في مذكراته إنّ قريبه يوسف بيدس مارس نفوذاً قوياً في لبنان قبل انهيار إمبراطوريّته الماليّة وإنّّه توفي بداء السرطان في لوسرن، سويسرا²⁴⁶. قبل 1966 كان بنك إنترا قد زاد رسملته ثلاث مرات وأصبحت له فروع ليس فقط في أنحاء لبنان بل في عدد كبير من الدول. كما افتتح مؤسسات مصرفية وشركات استثمار في لبنان والخارج. وفي بداية 1966، كان بنك إنترا ومتفرعاته في أوج النجاح، وجاءته الودائع من كلّ مكان: من مواطنين يدخرون أموالهم إلى أصحاب

²⁴⁵ باسم الجسر، فؤاد شهاب، ص. 48.

²⁴⁶ Edward Said, *Out of Place*, New York, Alfred Knopf, 1999, p. 113.

أعمال ومستثمرين عرب وأجانب ومغتربين. كما تضمنت نشاطات البنك مشاريع في قطاعات متنوّعة من الاقتصاد اللبنانيّ وخاصة في السياحة والعقارات والصناعة.

كشفت أزمة انترا والتحقيق الذي تلاها أساليب العمل والسلوك الهابط ليس في أوساط أصحاب المصارف والتجّار في ذلك الوقت فحسب، بل على مستوى قادة البلاد. وكان حجم بنك انترا كأكبر مؤسسة مصرفية هو ما جعل مجلس إدارته في رأس قائمة المتهمين بإحداث الأزمة، فتعاملت الدولة بشدة مع انترا فيما اعتبر كثيرون أنّ بنك انترا كان ضحية الزعماء الذين رفضوا مصرفاً أسسه رأس المال الفلسطينيّ. فرأوا أن يفلس وينهار رغم أنّه كان تاج الاقتصاد اللبنانيّ، وكان بالإمكان تلافي الأزمة وإنقاذ البنك لو شاء هؤلاء التدخل.²⁴⁷ فكانت للأزمة تداعيات تركت أثراً عميقاً في الاقتصاد اللبنانيّ حتى اندلاع الحرب عام 1975.

وتذكر "النهار" دراسة نُشرت عام 1978 أنّ مصرف لبنان يتحمّل "مسؤولية وضع عراقيل أمام إنقاذ انترا بحيث عمد أوغورليان إلى معارضة كلّ اقتراح تمّ التقدم به إلى البنك المركزيّ، مانعاً تسليفه أي مبلغ من المبالغ التي فوّض المصرف المركزيّ تسليفها للبنوك الأخرى، مع أنّه كان يعلم جيّداً عمق ارتباط الاقتصاد اللبنانيّ بانترا²⁴⁸.

بعد 15 تشرين الأول 1966، تنقّل بيدس من بلد إلى آخر وحطّ في البرازيل وهو مقتنع بأنّه ضحية مؤامرة سياسيّة اقتصاديّة. فبعد أن طالبت الحكومة اللبنانيّة بتسليمه من حكومة البرازيل جيء به أمام القضاء البرازيلي، ومما قاله: "لقد أيقنت أنّ الرئيس حلو كان عازماً على تصفيتي كرجل أعمال". ولكن حلو نفى أن انهيار إنترا كان مؤامرة، وكتب في مذكرات عن حسن نيّة الدولة تجاه المصرف وأنّ "انهيار انترا كان لأسباب عديدة في مقدمها السبب الرئيس لانهايار كلّ إمبراطوريّة ماليّة الا وهو اتساعها وتحديداً سرعة هذا الاتساع مع ما يرافقه من مغامرات ناجحة في بعض الأحيان وفاشلة في بعضها الآخر وخطرة في كلّ الأحيان"²⁴⁹.

وغادر بيدس البرازيل ليستقرّ في سويسرا حيث توفي في لوسرن أول كانون الأول 1968، عن عمر يناهز 56 سنة. وفي "رسالة إلى الشعب اللبنانيّ" نشرتها جريدة النهار بعد وفاته بأربعة شهور، أوضح بيدس أنّ منطلق نشاطه كان وطنياً لبنانياً، متهماً البورجوازية الماليّة اللبنانيّة بمحاربة بنك إنترا لأنه "وجّه نشاطاته لتكون فعلاً لمصلحة لبنان وكل اللبنانيين وليس كالكثير من المشاريع الأخرى التي هي لبنانيّة بالاسم فقط ولكنها أصابع للمصالح الغربيّة ولبعض الشخصيات اللبنانيّة". وأضاف: "لقد سعينا إلى تحقيق الاستقلال السياسيّ للبنان، واكتشفنا أنّ هذا الهدف أمامه عقبات إذ كنّا نتحدّى ليس فقط المصالح الغربيّة الجبّارة بل حاربتنا مجموعة من اللبنانيين الذين اعتمدوا في معيشتهم منذ أيام الانتداب على خدمة مشاريع في لبنان يسيطر عليها الأجانب"²⁵⁰.

Abdul Amir Badruddin, *The Bank of Lebanon: General Banking in a Financial Centre and a Financial Entrepot*, London,²⁴⁷

Pinter, 1984.

²⁴⁸ هالة حمصي، ملحق النهار، 17 تشرين الثاني 2003.

²⁴⁹ شارل حلو، حياة في ذكريات، بيروت، دار النهار، 1995.

²⁵⁰ النهار، 4 نيسان 1969.

وبسبب حجم إنترا وسيطرته على نصف النشاط المصرفي في لبنان، كان انهياره حكماً بالإعدام على نهضة قطاع وطني لبناني اعتبر حتى ذلك اليوم مركزاً عالمياً هاماً للخدمات المالية. لقد وضعت الحكومة اللبنانية يدها على إنترا لتصفية أصوله ودفع المستحقات خاصة لأصحاب الودائع. فتأسست لجنة وصاية لإدارة إنترا وتسيير أعماله برئاسة أربعة أشخاص: بشارة فرنسيس وشوكت المنلا (قاض متقاعد) والياس سركيس وبيار داغر. وكانت مهمة هؤلاء تتضمن تعيين مجلس جديد للإدارة وتخمين وبيع كل الأصول العائدة لإنترا وتكليف شركة استشارة مالية للقيام بهذه المهمة.

باسم القانون فقد الأصحاب الشرعيون ومؤسسو إنترا كل ممتلكاتهم وأسهمهم في إنترا وأودع بعضهم في السجن بتهم مختلفة، وتم تعيين مجلس إدارة جديد لتمثيل المساهمين الجدد، أصحاب الودائع السابقين. وخلال فترة زمنية استرجع صغار المودعين أموالهم ومع ذلك بقيت مبالغ كبيرة لدى البنك بعد تسديد كافة متوجبات إنترا فاحتفظ بها المساهمون الجدد كأرباح. أما ما تبقى من الأصول فقد توزعت إلى نشاطات مصرفية محضة تحت اسم "بنك المشرق" (والذي كان عبارة عن كونسرتيوم مشترك بين ممولين لبنانيين وشركة مورغان غارانتى ترست نيويورك). وإلى نشاطات استثمارية محضة تحت اسم شركة إنترا للاستثمار. واحتفظت الدولة بـ45 في المئة كحصّة في الكيان الجديد لإنترا وكانت حصّة الكويت 25 في المئة وقطر 10 في المئة.

أسفرت أزمة إنترا عام 1966 عن جملة تداعيات في غاية الأهمية، منها إنهاء دور القطاع المصرفي اللبناني الهويّة وخضوعه للهيمنة الأجنبية وصعود مصرف لبنان كقوة فاعلة في السوق وتقلص إجمالي الودائع إلى درك خطير بعدما تحوّلت إلى المصارف الأجنبية في لبنان وخارجه. وكشفت أزمة 1966 عجز مصرف لبنان عن معالجة جذور الأزمات قبل وقوعها وافتقاره إلى الصفة القيادية في تطبيق قانون النقد والتسليف. وبعد ثلاث سنوات من الأزمة المصرفية، هبط عدد المصارف اللبنانية من 55 إلى 38 بسبب التعثّر والدمج أو لوقوعها تحت سيطرة مصارف أجنبية. لقد أظهر تقرير قدّمه سليم الحص أنّ نسبة عدد المصارف، حيث أغلبية الأسهم تعود إلى لبنانيين انخفضت من 60 في المئة في تشرين الأول 1966 إلى 45 في المئة فقط عام 1968. كما أدى قرار الحكومة منع تأسيس مصارف لبنانية إلى ارتفاع عدد المصارف الأجنبية حيث سجلت الفترة من 1968 إلى 1974 أنّ عدد المصارف الغربية لا سيما الأميركية ارتفع بشكل ملحوظ وبات يمارس نفوذاً طاغياً على القطاع المصرفي في لبنان. فانقلبت النسبة وأصبحت المصارف الأجنبية تسيطر على أكثر من ثلثي النشاط المصرفي في لبنان، والرأس المال العربي على 20 في المئة، فيما لم تعد السيطرة اللبنانية تتجاوز 15 إلى 20 في المئة من السوق²⁵¹. وأصبحت المصارف الرئيسية في لبنان أميركية الهوية، بنك أوف أميركا، تشايس مانهاتن، وسيتي بنك.

انتهت المواجهة بين الإصلاح والرجعية في آخر عهد شارل حلو إلى انتصار التكتل التقليدي عام 1970 الذي سعى إلى تطهير مؤسسات الدولة من الجماعة الشهابية تحت شعار محاربة سيطرة المكتب الثاني. ولكن

²⁵¹ توفيق أسعد، وزير الصناعة والنفط، تقرير عن مدى الهيمنة الأجنبية على القطاع المصرفي حتى نهاية 1972، قدّم إلى مجلس الوزراء في كانون الثاني 1974، نشرته ملخصاً مجلة أراب إيكونومست وذكرته تاييتا بتران، ص. 390.

القوى الاجتماعية الجديدة التي خلقها الإصلاح الشهابي كانت تتحوّل يساراً وتتأثر بالتيارات الإقليمية. وإذ تمكّن تحالف الزعماء وحيثان المال من إنهاء الاتجاه الإصلاحية الشهابي إلا أنّ الطريق باتت مفتوحة في بداية السبعينيات أمام أزمة سياسية اجتماعية اقتصادية خانقة امتزجت مع عوامل إقليمية جبارة فولدت حرباً مدمرة في السبعينيات. لقد كانت مصالح الزعماء وحيثان المال تأخذ المكانة الأولى والأولية قبل أي انتباه إلى آمال الأجيال المستقبلية. إذ مهما كانت محاولات تجميل الحديقة اللبنانية من تطوير للاقتصاد وبناء دولة الأمن والقانون، يبدو أنّ الأعشاب الضارة القديمة كانت تعود دائماً إلى هذه الحديقة لتخفق براعم الزهر.

12 | سورية أمام زلازل الستينيّات

مقارنة بلبنان حيث تأخى النظام السياسي الطائفي وعقيدة النظام الرأسمالي الحر، كانت فترة الستينيات في سورية كما في العراق ثورية واشتراكية وقومية ترافقها نضالات إقليمية، كان أبرز وجوهها صعود حزب البعث إلى الحكم في البلدين. ولقد استفاد لبنان من عدم استقرار الجوار باستقطاب رؤوس الأموال ونهوض بيروت. وسنعود إلى الوضع اللبناني بعد استكمال صورة المشرق في الستينيات والحديث عن تطورات سورية.

الانفصال

في العام 1961 كانت سورية إقليمياً في الجمهورية العربية المتحدة كما سبق ذكره. ولكنها خاضت مرحلة انفصال صعبة في نهاية العام.

حرصت سلطات الجمهورية العربية المتحدة على تطهير الجيش والقوى المسلحة في سورية من الحزبيين واليساريين، ولكن الخطر أتى من عناصر يمينية لم يمسها النظام، تسللت عبرها دول عربية مناهضة لعبدالناصر لزعة دولة الوحدة²⁵². وكان من هذه العناصر بعض الضباط الذين لم تطلهم عملية التطهير وكانوا يحتلون مناصب إدارية حساسة. أحدهم عبدالكريم النحلاوي مدير إدارة شؤون الضباط وفايز الرفاعي قائد مدرعات في القابون، ومهيب الهندي قائد اللواء الأول مشاة في قطنة، وحيدر الكزبري أمر لواء قوى البادية (الهجانة السورية) ومحمد منصور أمر المنطقة الساحلية، وغيرهم من الضباط. هؤلاء قاموا بانقلاب عسكري انتهى بانفصال مصر عن سورية. ومن المفارقات أن مأمون الكزبري الذي كان من أكبر الفائزين في انتخابات الاتحاد القومي التي رتبها عبدالناصر أصبح من أبرز قادة الانفصال وأول رئيس حكومة انفصالية.

في فجر 28 أيلول 1961، تحركت مجموعة الضباط هذه بقيادة النحلاوي، مدعومة من الأردن والسعودية للسيطرة على دمشق²⁵³. وأعلنت المجموعة أن هدف تحركها هو "تحقيق الحكم الذاتي لسورية ضمن الجمهورية العربية المتحدة". فلم يرضخ عبدالناصر ونظر إلى الأمر على أنه عصيان عسكري محلي يجب قمعه. ولكنه أساء تقدير حجم التحرك الذي تطورت مفاعيله خلال ساعات. إذ صبيحة اليوم الأول قام النحلاوي بمفاوضة المشير عامر في مركز قيادة الجيش في دمشق حول مطالب التحرك بحضور قائد "الجيش الأول" (السوري) والوزراء السوريين في الحكومة المركزية. وأسفر الاجتماع عن نتيجة جيدة حيث خفف الانقلابيون سقفهم وهو منح سورية الحكم الذاتي ضمن دولة الوحدة لقاء تحسين أوضاع الضباط الحياتية. فوافق عامر ووضع الطرفان نص اتفاق وواعد عامر التوقيع على نص الاتفاق بعد موافقة عبدالناصر.

ولكن عبدالناصر الذي كان يستشيط غضباً من التمرد رفض أي طلب، وأصدر أمراً للجيش بالزحف على دمشق وقمع العصاة. وهنا أخطأ عبدالناصر في تقدير الظروف إذ إن أحداً لم يلب أمره بالزحف على دمشق ولم يحصل أي عمل من أنصاره بوجه الانقلابيين. لا بل أعلنت وحدات عسكرية في حلب واللاذقية دعمها للانقلاب. ثم نزلت أول دفعة من حملة مصرية لقمع الانقلاب فوجدت نفسها مطوقة من أفراد الجيش

Maclolm Kerr, *The Arab Cold War*, pp. 27-41.²⁵²

Patrick Seale, "The break-up of the United Arab Republic", *World Today*, vol. 17, no. 11, November 1961, pp. 471 - 479.²⁵³

السوريّ. وكان عدم تجاوب الجيش لأمره بالزحف على دمشق ونبأ القبض على تابشير القوة المصريّة المنقولة بحراً كافيين ليدرك عبد الناصر الذي حجم الكارثة. فأمر القوة المنقولة بحراً بالعودة إلى مصر، وأعلن أنّه لن يستعمل القوّة العسكريّة²⁵⁴.

أصدر الانفصاليّون بلاغات بعضها تبريريّ كالبلاغ 9 الذي أعلن تفاصيل الاتفاق مع عامر والذي رفضه عبدالناصر، والبلاغ رقم 12 الذي أعلن ترحيل عامر وجمال فيصل (قائد الجيش الأول وهو سوريّ) وكبار المسؤولين من مصريّين وسوريّين من الذين أبقوا على ولائهم لدولة الوحدة. وخلال 24 ساعة من الانقلاب غادر المشير عامر ومعه عدد من المسؤولين دمشق على متن طائرة إلى القاهرة. كما حصلت حركة معاكسة حيث أخذ الموظفون والعسكريّون ورجال الأعمال السوريّون يعودون من مصر إلى سورية.

ثم أعلنت مجموعة النحلاوي إنهاء الوحدة مع مصر واتخذت اسم "الجمهورية العربيّة السوريّة". وكانت خلفيّة مجموعة النحلاوي مينيّة لا هم إصلاحيّ لديها، ومدعومة خاصة من رجال أعمال غاضبين من قرارات التأميم التي اتخذها عبدالناصر قبل شهرين (في تموز 1961)²⁵⁵. وبدأت القاهرة حرباً إعلاميّة تدعو السوريّين إلى الانتفاض ضد الحركة العسكريّة التي "قام بها رجعيّون عملاء للاستعمار ضد العروبة والاشتراكيّة". وأنّ "مصر لن تسمح لأقليّة من الإقطاعيين والرجعيين الذين قاموا بحركتهم ضد إرادة الشعب السوريّ وضد الثورة العربيّة ومبادئ الاشتراكيّة بالنجاح". ولكن الحملة الإعلاميّة المصريّة أهملت أسباب الانفصال وأهمّها أنّ الشعب السوريّ قد ضاق ذرعاً بالنظام الدكتاتوريّ الذي حكم سورية بالحديد. كما أخفى الإعلام المصريّ أنّ الناس في سورية تلقّت نبأ الانفصال بالترحاب بعد سنوات من دولة بولييسيّة زرعتهما دكتاتوريّة الجمهوريّة العربيّة المتّحدة خنقت الحريّات وأحصت الأنفاس. وأنّ هالة عبدالناصر ومقامها في نفوس السوريّين لم تمنع أن يكون الانفصال لحظة حريّة، كمن تخلّص من كابوس²⁵⁶.

لسنوات بعد الانفصال كان عبدالناصر يرفض الاعتراف بسورية كدولة مستقلة وأنّه لن يقبل بالانفصال الا عندما يقول الشعب السوريّ كلمته "عبر انتخابات حرّة". ولكن حتى بعدما قال الشعب السوريّ في انتخابات حرّة كلمته أنّه يريد استقلال سورية، لم يغيّر عبدالناصر موقفه بل واصل حربه الباردة ضد سورية، لأنّها باتت بنظره إقليمياً انفصالياً عاصياً على الدولة العربيّة المركزيّة وموذجاً أمام الأعين لما آلت إليه أوّل وأهم خطوة وحدويّة عربيّة²⁵⁷. وفي هذا كان محقاً لأنّه بعد فرط الجمهوريّة العربيّة المتّحدة تدهور الحس الوحدويّ في كلّ مكان حتى اليوم.

خلفت هيكلية دولة الوحدة بعد انهيارها آلاف العملاء والمخبرين والجواسيس، مصريّين وسوريّين، داخل سورية، انتشروا في الجيش السوريّ وقوى الأمن ودوائر الدولة والنقابات العماليّة وكافة الجماعات

"Syria breaks from the United Arab Republic", *Middle Eastern Affairs*, vol. 12, no. 9, November 1961, pp. 269 - 278. ²⁵⁴

Includes Nasser's statement in September 1961.

.67 Patrick Seale, *Asad of Syria: The Struggle for the Middle East*, 1988, p. ²⁵⁵

Monte Palmer, "The United Arab Republic: assessment of its failure", *Middle East Journal*, vol. 20, no. 1, Winter 1966, pp. ²⁵⁶

50 - 67.

Richard Gott, "The break-up of the United Arab Republic, its effect on inter-Arab relations, 1961 - 1962", *Survey of* ²⁵⁷

International Affairs, 1962, London, Oxford University Press, 1970, pp. 465-481.

والمؤسسات في سورية، يدعمهم مواطنون سوريون آمنوا بزعامة عبد الناصر وحنزوا عندما وقع الانفصال. واستطاعت هذه الشبكة المعقدة والمالية لمصر أن تستمرّ طويلاً في سورية بفضل إمدادات المال والسلاح والعناصر الجديدة من مصر عبر الحدود اللبنانية. ما أبقى الضغط على الحكومة السورية وصرفها عن جهود إعادة إعمار البلاد وتثبيت دعائم الدولة.

كان قول عبدالناصر إنّ بعض المشاركين في الانقلاب قد ارتبطوا بأنظمة معادية للجمهورية العربية المتحدة صحيحاً. ذلك أنّ النحلاوي وحيدر الكزبري (ابن عم مأمون الكزبري) كانا مدعومين من الأردن والسعودية اللتين سهّلتا العملية الانقلابية. أضف إلى ذلك أنّ الانقلابيين سمحوا لعناصر يمينية في سورية بتسلّم مناصب في السلطة. ولكن يُلام في ذلك نظام عبدالناصر الذي لم يكن تقديمياً كفاية فلم يُبعد الرجعيين لمراضة الدول الرجعية العربية. لا بل هو شجّع التقليديين والإقطاعيين وقمّع اليساريين والتقدميين وعطل الحياة البرلمانية. ولذلك انبثق الانقلابيون من القوى الرجعية الموجودة في الساحة السورية والتي أنعشها نظام عبدالناصر بعدما اخفت في الخمسينيات. كما أنّ عمليات التطهير المصرية في سورية كانت سيفاً بحدّين إذ أضعفت قوى التغيير الداعمة للوحدة. فكان بروز الفئات الرجعية والتقليدية في النظام الجديد من صنع مصر، وتلك الفئات هي التي أوصلت سورية إلى الانفصال. كما أنّ اضمحلال التيار اليساري والعلماني في سورية أدّى إلى نمو نفوذ الأخوان المسلمين وازدادت شعبيّتهم في سورية، في وقت كانت فيه الطبقة المثقفة في حالة إعياء شديد بعد سنوات القمع. وحتى الشخصيات المحسوبة على قوى التغيير مشّت مع الانقلاب كرهاً بعبدالناصر لاحقاً بالانقلابيين. إذ بعد الانقلاب التقت شخصيات وقيادات سياسيّة سورية ووقّعت بياناً يدعم الانقلاب، وكان من بينها صلاح البيطار وأكرم الحوراني.

عودة البرلمان والحكومة

بعد الانفصال، قام مأمون الكزبري بتشكيل حكومة محافظة من حزب الشعب والحزب الوطني ومن رجال أعمال ومحامين مستقلين. ووعدت هذه الحكومة بإنهاء حال الطوارئ في البلاد وإطلاق حرية الصحافة وضمان حقوق العمال والفلاحين. ثم توارت مجموعة النحلاوي وادّعت أنّها لن تتدخّل في شؤون الحكم. إلا أنّ النحلاوي أسّس مجلساً للأمن القومي من رئيس يعاونه قائد الجيش وخمسة من وزراء الحكومة وأصبح هذا المجلس الحاكم الفعلي لسورية. ووعد هذا المجلس بأنّ الإصلاحات الاشتراكية ستستمر ولكنه أبقى قانون الطوارئ. فاستمرّ حظر الأحزاب السياسيّة وقمع العمال والإعلام والحرريات العامة. ثم رفض هذا المجلس إعادة الاعتبار لآلاف الموظفين والعسكريين الذين طالهم التطهير في سنوات الوحدة.

بعد أشهر من الانقلاب أعلنت المجموعة العسكرية عن انتخابات في تشرين الثاني 1961 ليقوم برلمان سوري جديد بانتخاب رئيس للجمهورية ويضع دستوراً جديداً غير دستور الجمهورية العربية المتحدة. فجرت الانتخابات ولكن في ظل حكم الطوارئ ما جعل ادّعاء مجموعة النحلاوي احترامها للديمقراطية مهزلة. ولكن جاءت نسبة التصويت مرتفعة عند 60 في المئة ونسبة الموافقة على الانفصال عن الجمهورية العربية المتحدة

97 في المئة. وكان مؤشراً هاماً أن خالد العظم الذي وقف بوجه الوحدة منذ 1957 وطالب بالديمقراطية الكاملة طيلة سنوات الوحدة، قد حظي بأعلى نسبة أصوات من الشعب. كما حقق أكرم الحوراني، الذي كان على قطيعة مع القيادة البعثية، نجاحاً باهراً مع جماعته وفازت لائحته بأكملها، ليشكل كتلة برلمانية مع حلفائه من 15 مقعداً. وكان حزب البعث قد عاد إلى العمل وشارك في الانتخابات أيضاً، ولكنه فشل في الفوز بأي مقاعد. وحصل حزب الشعب على 33 مقعداً وكان أكبر كتلة في البرلمان، يليه الحزب الوطني بـ21 مقعداً والأخوان المسلمون بـ10 مقاعد. وذهب 62 مقعداً إلى مستقلين.

ومع برلمان بصيغة تقليدية، حصل اليمين على المناصب المهمة في الدولة. ففاز مأمون الكزبري بمنصب رئيس مجلس النواب بأغلبية 114 صوتاً مقابل 47 صوتاً ذهبت للبعثي السابق جلال السيد. وفاز معروف الدواليبي بمنصب رئيس الحكومة وناظم القدسي بمنصب رئيس الجمهورية. وهما زعيما حزب الشعب اللذان رفضا اندماج سورية بمصر.

أفاقت سورية على كارثة بنوية بعد الانفصال. فهيكلية الدولة مهترئة والطبقة السياسية ملجومة وغائبة عن الساحة، واقتصاد سورية ضعيف وثقة الناس بالبلاد ومستقبلها مهترزة. فكان على الحكومة الجديدة أن تلتفت إلى كافة الأمور وأن تعيد أجواء الثقة والتفاؤل بسرعة. ولكن الحرب الباردة التي شنتها مصر على سورية في السنوات التالية لم تترك أي مجال لتهتم سورية بشؤونها الداخلية. بل رأى الحكام الجدد أن الحكمة تطلبت أن تستمر أحكام الطوارئ وأن تُضبط الأمور قدر المستطاع لمواجهة تداعيات الانفصال. كما أدت الحرب الباردة المصرية على سورية إلى ذوبان ثقة المستثمرين السوريين الفارين والعرب والأجانب.

ولكن رويداً أخذت سورية تفك نير الحكم المصري في شؤون الاقتصاد وتستعيد علاقاتها التجارية الطبيعية مع الدول المجاورة، وخاصة مع العراق في ظل عبدالكريم قاسم المناهض لعبدالناصر. إذ أسهمت الحملة الإعلامية التي شنتها القاهرة على العراق وسورية معاً في تقارب البلدين بشكل غير مسبوق. فتكاثرت الوفود السياسية والاقتصادية والعسكرية العراقية في دمشق لبحث سبل التعاون. وأثبت رئيس الجمهورية ناظم القدسي أنه جدير بمنصبه ومنع أي كلام ينتقد مصر داخل البرلمان السوري. وتوجّ القدسي التقرب مع العراق بلقاء جمعه مع عبدالكريم قاسم في بلدة الرطبة على الحدود بين البلدين في آذار 1962، فكان خطوة نحو حلف سوري - عراقي. وكان هذا التطور هو أكثر ما تخشاه مصر في تلك الفترة، وأصبح منعه أولوية في سياستها. وليس ممة لوم على سورية في التوجه نحو العراق لأن مصر باتت تتعامل مع سورية كدولة عدوة وترفض تسليمها أسلحة سورية كانت في عهدة مصر. كما أن "إسرائيل" اغتنمت فرصة الانفصال لشنّ غارات عسكرية جديدة على سورية. فبرزت ثغرة أمنية في الجدار الدفاعي المشرقي بسبب انهيار الجمهورية العربية المتحدة وحرمان سورية من الغطاء المصري بوجه "إسرائيل".

في مواجهة تسلط العسكريين لقد فتح النائبان أكرم الحوراني وخالد العظم معركة ضد قوانين الطوارئ والرقابة وضوابط الحريات المدنية، وخاصة ضد حكم العسكر. ولقيت حملة الحوراني والعظم دعم الأغلبية

البرلمانية التي كانت متشوّقة لإنهاء هيمنة الجيش على السياسة²⁵⁸. ثم تراكم الضغط الشعبي إلى درجة أن رئيس الحكومة الدواليبيّ سمح بإدراج مسألة الحريات الديمقراطيّة في الدورة البرلمانيّة في آذار 1962. فناقش البرلمان الموضوع وخلص إلى لائحة مطالب على رأسها استقالة الحكومة لفسح المجال لقيام حكومة وحدة وطنيّة تتعهد بإلغاء الطوارئ. فاستجاب الدواليبيّ للمطالب وقدم استقالته. ولم يرقّ هذا التطوّر لمجموعة النحلوي التي رأت فيها إضعافاً للعسكر وإنهاءً لدورها في السياسة. ففي اليوم الثالث بعد استقالة الدواليبيّ - أي في 28 آذار 1962 - قامت مجموعة النحلوي بانقلاب جديد لمنع عودة الديمقراطيّة. وادّعى الانقلابيون أنّهم يريدون إصلاح ما أفسده التقليديّون بسياساتهم الرجعيّة، وأنهم، أي العسكر، سيعملون على إعادة الاعتبار للإصلاح الزراعيّ والتأميمات وكذلك العودة للوحدة مع مصر. ثم قام الانقلابيون باعتقال النواب والوزراء وضغطوا على الرئيس القدسي لحلّ البرلمان. إلا أنّ الأخير رفض، فوضعه قيد الاعتقال أيضاً. ما أوصلهم في 30 آذار إلى طريق مسدود. إذ لم يكن في الإمكان إحداث تغييرات جوهرية لتحقيق ما وعدوا به بدون سلطة سياسيّة، أي برلمان وحكومة عاملة. فأنكشف إلى العلن ما هدفوا إليه وهو تعطيل الديمقراطيّة والحياة السياسيّة في البلاد لمصالحهم الشخصية. ولم يستطع الانقلابيون منع التظاهرات الشعبيّة والمطالبة بعودة الحكومة المدنيّة وإطلاق سراح القدسي والسياسيين المعتقلين ما شكّل تحديّاً سافراً للحكم العسكريّ. وما هي إلا بضعة أيام حتى تبيّن للنحلوي وجماعته عجزهم عن تشكيل حكومة وباتوا يواجهون احتمال انتفاضة شعبيّة لا قدرة لهم على وقفها. فانهارت سيطرتهم على السلطة.

اللجنة العسكريّة

نعود إلى يوم 2 تشرين الأوّل 1961، عندما وقّع صلاح البيطار وأكرم الحورانيّ على عريضة أصدرتها 18 شخصيّة سورية دعماً للانفصال عن مصر وتنديداً بعبدالناصر وشكرهم للجيش "لخلاصه المبارك". وكان توقيع الحورانيّ والبيطار على هذه الوثيقة نذير شوّم لهما في ما بعد. إذ إنّ القيادة القوميّة لحزب البعث هاجمت الانفصال ونددت بموقعي الوثيقة، فلحظّ البيطار خطأه وسحب توقيعته مؤكداً إخلاصه للوحدة. وكانت خلايا البعث التي نشطت في سنوات الوحدة تؤيّد الوحدة ضد الانفصال، ولكنها كانت في حال انتفاض على علق القيادة القوميّة التي قبلت بحلّ الحزب استجابة لعبدالناصر. وضمن الحراك الحزبيّ، كانت ثمّة مجموعة بعثيّة عسكريّة تأسست في مصر اثناء سنوات الوحدة، حيث كان عدد الضباط السوريين المنقولين إلى مصر خلال سنوات الوحدة حوالي الألف. وثمّة فئة منهم كانت تنتمي للأحزاب اليساريّة السوريّة ومسيّسة إلى درجة كبيرة ولم تنسجم مع منفاها المصريّ. ومنها ضباط بعثيون شكّلوا خليّة سرّيّة في القاهرة عام 1960، عُرفت باسم "اللجنة العسكريّة". وضمت هذه اللجنة خمسة ضباط: ثلاثة علويين هم محمد عمران وصلاح جديد وحافظ الأسد، واثنان من الإسماعيليين هما عبدالكريم

Martin Seymour, "The Dynamics of power in Syria since the break with Egypt", Middle East Studies, vol. 6, no. 1, January²⁵⁸

1970, pp. 35 - 47.

الجنديّ وأحمد المير. وانضمّ اليهم في ما بعد ضابط درزيّ هو حمّد عُبيد. وأخذ محمد عمران وصلاح جديد يسافران إلى سورية سرّاً ويلتقيان بخلايا بعثيّة هناك، وبدأت رويداً عملية بناء شبكة للجنة داخل سورية نواتها أربعون ضابطاً.

وعندما وقع الانفصال في أيلول 1961، كان أعضاء اللجنة العسكريّة الخمسة لا يزالون في مصر، فعادوا إلى سورية ولم يلقوا الترحاب في الجيش السوريّ بعدما أصبح بقيادة عبدالكريم زهرالدين الذي نظر اليهم بريّةٍ وحذرٍ. وفوق ذلك صدرت قرارات من المجلس الانفصاليّ بحق 63 ضابطاً بعثياً تسريحاً أو نقلاً إلى وظيفة حكوميّة. كما لم تتسامح الحكومة الانفصاليّة مع الشيوعيين. فأبقتهم في المعتقلات لشهور عدّة ولم يُسمح لخالد بكداش بالعودة إلى سورية. وحتى عندما حاول الشيوعيّون خارج السجن أن يعيشوا حياة عادية كمواطنين، وجدوا الأبواب موصدة في وجوههم. أمّا الناصريّون من السوريّين فرغم قلّة عددهم فقد استمرّ نفوذهم بفضل المناصب الهامة التي كانوا يحتلونها عشية الانفصال والتي شغلوها في الجيش والإدارة العامة وأجهزة الأمن والنقابات. ورغم أنّ حركة تطهير بدأت ضد العناصر الموالية لعبدالناصر، إلا أنّ عدد الذين طالهم التطهير كان محدوداً.

اختارت اللجنة العسكريّة أن تحافظ على استقلاليّة عملها بعيداً عن قيادات البعث في سورية. وردّاً على حملة النحلاوي التطهيريّة في الجيش ضد العسكريّين الحزبيين، بدأ أعضاء اللجنة العسكريّة التخطيط لقلب النظام مع إدراكهم أنّ قوّتهم الذاتيّة لا تكفي فاتصلوا بالضباط الناصريّين للتعاون.

انقلابات 1962

عندما قام النحلاوي ورفاقه بانقلابهم الثاني في 28 آذار 1962، كانت "اللجنة العسكريّة" ومعها ضباط ناصريّون وآخرون تعمل على التحضير لعمل انقلابيّ. فبادروا إلى التحرك في ليل 31 آذار، حيث قام ضباط بعثيون وناصريون وشيوعيّون ومن خلفيات سياسيّة متعدّدة، بانقلاب مضاد في مدينة حمص²⁵⁹ وتمدّد إلى حلب حيث هاجموا موقع قلعة حلب العسكريّ وقتلوا قائده واحتلّوا محطة الإذاعة في المدينة. ثم انتشر تحرك هؤلاء كبقعة زيت في ثكنات الجيش في مدن سورية الرئيسيّة. إذ بعد حمص وحلب، أعلنت قيادات اللاذقيّة ودير الزور العصيان أيضاً بإيعاز من الضباط البعثيين والناصريين المسرّحين. ولكن سرعان ما ظهر التباين بين الضباط الناصريّين وضباط البعث. فقد هدف البعثيون، تقوّدهم "اللجنة العسكريّة"، للعودة إلى مناصبهم في الجيش ثم التفاوض مع مصر بشروط البعث ومن موقع قويّ لاختيار توقيت عودة الوحدة وبنودها. أمّا الضباط الناصريّين فقد هدفوا إلى تسلّم قيادة الجيش وإنهاء الانفصال والعودة إلى الجمهوريّة

Marcel Colombe, « La République Arabe Syrienne à la lumière du coup d'état du 28 mars 1962 », *Orient*, Paris, vol. 6, no. 259

21, 1962, pp. 11 - 17.

العربية المتحدة فوراً كأن شيئاً لم يحدث. فأدى هذا التباين إلى سحب "اللجنة العسكرية" يدها من الانقلاب الذي أصبح ناصرياً صرفاً، ما أدى إلى فشله²⁶⁰. وكان ضباط الجيش وخاصة مجموعة النحلاوي يدعون أنهم لن يتدخلوا في السياسة. ولكن حقيقة الأمر أن الجيش لم يسمح للقدسي بممارسة مهامه كرئيس للجمهورية الا بعد تخليه عن مطلب عودة البرلمان الجمهوري. وأمام الضغط الشعبي ضد حكم العسكر عام 1962 سمحوا له بمغادرة سجن المزة والعودة إلى قصر الرئاسة.

عودة حزب البعث

في تلك الأثناء، كانت القيادة المدنية لحزب البعث قد اشتاقت للحياة السياسية، فدعا عفلق إلى المؤتمر القومي الخامس للحزب في أيار 1962 في حمص. ولكن عفلق لم يدع الحوراني ولا البعثيين الذين أعلنوا ولاءهم للناصرية ولا الذين خالفوا أوامره وأبقوا على فروع الحزب حية خلال سنوات الوحدة. وأدت هذه الاستثناءات إلى المزيد من الانشقاقات. أما "اللجنة العسكرية" التي لم تفتح على عفلق فقد كلفت محمد عمران ليشترك في المؤتمر ويراقب ما يجري.

في هذا المؤتمر حاول عفلق ومن معه التقليل من شأن الخلافات بين القيادة القومية والقيادة القطرية داخل سورية على أنها ستجد طريقها للحل. ولكن القيادة القطرية في سورية طالبت بانتخابات قيادة قومية جديدة تشارك فيها القاعدة الحزبية. فرفضت القيادة القومية، تدعمها الوفود القطرية من الدول العربية وخاصة من العراق. وهكذا استعاد عفلق اعتباره كقائد للحزب.

وجه المؤتمر نداءً إلى عبدالناصر لدولة وحدوية جديدة "بعيدة عن حكم الرجل الواحد وعن النظام البوليسي"²⁶¹. ثم باشرت القيادة القومية للبعث لمفاوضات لعمل انقلابي مشترك مع هاني الهندي رئيس حركة القوميّين العرب ومع جماعات ناصرية ووحديّة بدعم مصري لإسقاط مجموعة النحلاوي. وفي 27 تموز 1962 أطلق عبدالناصر الضوء الأخضر لانقلاب في سورية. ولكن ما أن بدأ العمل في ليل 28 - 29 تموز لقلب النظام، حتى استطاع المجلس العسكري تعطيل الانقلاب بعدما حصلت السلطات على تسجيلات هاتفية ووثائق تدين المتآمرين. ثم تحركت الحكومة السورية فشكت مصر إلى جامعة الدول العربية وأتهمتها أنها لا تكف عن التآمر على سورية ومحاولة قلب نظام الحكم فيها وتتدخل دائماً في شؤون سورية الداخلية. فعقد اجتماع عاصف لجامعة الدول العربية في آب 1962، هذه المرة في شتورة لبنان وليس في القاهرة، للاستماع إلى الشكوى السورية. وقدم الوفد السوري صناديق مليئة بالوثائق التي تدين مصر وتثبت حيثيات الشكوى السورية. وتضمنت الوثائق تعليمات من السفارة المصرية في بيروت إلى المتآمرين واعترافات مكتوبة

²⁶⁰ المحاولات الانقلابية المتتالية التي دعمتها مصر كانت تسيء إلى شعبية عبدالناصر في سورية وتصدع من عداء الرأي العام للناصرين وللوحدة مع مصر وإلى رفض شعبي لأي حكم عسكري والإصرار على عودة الديمقراطية.

²⁶¹ Devlin, *The Ba'ath Party*, p. 200.

من قادة التحرك. فأصدر اجتماع شتورا قراراً غامضاً قضى بتجميد النظر في الشكوى السوريّة في ظل عدم حضور الوفد المصريّ لجلسات الاجتماع²⁶².

عودة الديمقراطية

شكل اجتماع شتورة حدّاً فاصلاً في العلاقات بين مصر وسورية، إذ أنه أتى بعد عام من الانفصال وأكد أن لا رجعة لسورية إلى الوحدة، وقد بلغ العداء لعبدالنصر ونظامه أوجه بعدما حشدت الحكومة السوريّة كافة طاقتها وجرأتها للتصدي للقاهرة.

وانعكست ثقة الحكومة بنفسها إيجاباً داخل سورية على القوى الديمقراطية التي نشطت في المدارس والجامعات والمؤتمرات. فيما نقلت أجهزة التلفزة والإذاعة حوارات حيّة مع مسؤولين وسياسيين وتربويين عن الحاجة إلى إحياء المؤسسات الديمقراطية والتعددية الحزبية. ثم تكثرت جهود عودة البرلمان بالنجاح، حيث عُقدت في 14 أيلول 1962 جلسة تشريعية عدلت الدستور كما اتفق عليه مسبقاً، ومنحت الثقة لحكومة خالد العظم الذي لاقى قبولاً لدى كل الجهات السياسيّة. وبعد ذلك أصدر رئيس الجمهورية ناظم القدسي قراراً بحل البرلمان. فاستطاع العظم تشكيل حكومة وفاقية تمثل فيها معظم القوى السياسيّة باستثناء الشيوعيين والناصريين. ورفض حزب البعث المشاركة في الحكومة. فولدت حكومة العظم ضعيفة ولذلك تعرّضت لضغوط من وزراء ينتمون للأخوان المسلمين والإقطاع الزراعيّ ورجال الأعمال لمنعها من القيام بالإصلاحات وتنفيذ بيانها الوزاري. كما كانت سلطة الحكومة على أجهزة الأمن جزئية أو معدومة، في حين لم تستطع وقف تدخّل الجيش في السياسة أو منع الضباط من الانشغال بالتأمّر الدائم لقلب الدولة. وخاصة أن مصر لم تكف حملتها الإعلامية وتدخلاتها في شؤون سورية.

ورغم الصعوبات، استطاعت حكومة العظم تحقيق إنجازات خلال فترة قصيرة وكانت من أنجح الحكومات. فقد عملت على إلغاء قوانين الطوارئ وإحياء المؤسسات الديمقراطية وإجراء انتخابات برلمانية جديدة ورفع مستوى معيشة العمال والفلاحين وتشجيع الرساميل على العودة إلى سورية ومحو رسوم تسجيل الأراضي الموزعة وتخفيض أسعار الأراضي المزمع توزيعها إلى النصف. فنشط الإصلاح الزراعيّ وتوزيع أراضٍ على الفلاحين بمساحات فاقت كثيراً مجهود 36 شهراً في ظل دولة الوحدة.

وكانت قيادة الجيش تحاول تعطيل مسعى الحكومة لإلغاء حال الطوارئ بدعم بعض القوى المحافظة. الا أن الحكومة استطاعت إنهاء حال الطوارئ في 22 كانون الأول 1962. فبدأت الطبقة السياسيّة بإعادة بناء أحزاب محظورة وتأسيس أحزاب جديدة. حتى أحسّ الطامحون إلى السلطة من ضباط حاليين وسابقين أن الأمر يفلت من أيديهم خاصة أن العظم كان من أشد المناهضين لتدخّل الجيش في السياسة.

Tawfiq Hasou, *The struggle for the Arab World: Egypt's Nasser and the Arab League*, London, Kegan Paul International, 262
1985, pp. 112 - 135.

ولكن إلغاء قانون الطوارئ وإعادة الحريات السياسيّة كانا سيفاً ذا حدين سمح بعودة سياسيّين وعسكريّين منفيين إلى سورية في مطلع 1963. وشرع هؤلاء بالاتصال بأنصارهم، ثم وجّهوا سلسلة مطالب للحكومة بإعادة الاعتبار للنحلاوي وزملائه في الجيش وإعادة الحظر على النشاط الشيوعيّ في سورية وإعادة هيكلة قيادة الجيش وإجراء استفتاء فوري للعودة إلى الوحدة مع مصر. ورافق هذا التطور أعمال شغب قام بها أخوان مسلمون وناصريون في دمشق وحواران تهاجم الحكومة وترفع شعارات مناهضة للشيوعيّة. فتحرّكت الحكومة واعتقلت النحلاوي وجماعته وأشخاصاً آخرين وفتهم من البلاد مجدداً.

وكان في الأمر تنسيقاً إقليمياً إذ إنّ أعمال الشغب التي اندلعت في سورية، جرى مثلها في الأردن والعراق، في الوقت الذي كانت فيه وسائل إعلام مصرية تتنبأ بأن أنظمة دمشق وبغداد وعمّان والرياض على وشك السقوط أمام "رياح ثورة القوميّة العربيّة". فعكّرت هذه الأجواء الوضع داخل سورية وأصاب البعض بالإرباك. ثم دبّ خلاف داخل قيادة الجيش السوريّ حول لائحة أسماء ضباط صدرت بحقهم قرارات تعيين وترقية وتسريح ونقل. كما اشتدّ الخلاف داخل مجلس الوزراء بين الأخوان المسلمين والاشتراكيّين، فاستقال عدد من الوزراء. وكانت مصر تستعمل لبنان كقاعدة لإطلاق أعمال تخريب في سورية ما أزم أيضاً علاقات سورية مع لبنان. فقد اعتقل حرس الحدود السوريّ مجموعات تنقل الأسلحة عبر الحدود اللبنانيّة. وكانت توقّعات عبدالناصر حول زعزعة سورية والعراق والأردن في مكانها. إذ أطاح في 8 شباط 1963 انقلاب بعثي - ناصريّ دموي عنيف في العراق بنظام عبدالكريم قاسم في بغداد (كما سبقت الإشارة)، أزال من الميدان أهم حليف لسورية. وجاء الحدث العراقيّ في أسوأ توقيت ممكن لسورية، إذ إنّ الحكومة السوريّة كانت في مرحلة ضعف بسبب مرض رئيسها خالد العظم واستقالة ستّة وزراء. وحاول بعض السياسيّين التودّد للنظام الجديد في بغداد، فرفض أصحاب الانقلاب العراقيّ التجاوب معهم وأبقوا الباب موصداً بوجه سورية. وزاد الطين بلّة أنّ قادة الانقلاب في العراق ذهبوا إلى القاهرة يوم 22 شباط 1963 للمشاركة في ذكرى الوحدة المصريّة - السوريّة وأصدروا إعلاناً مع عبدالناصر يتوقع قرب نهاية النظام السوريّ. فتلقّف السوريّون هذا التهديد، واتفقت القوى الوطنيّة والأحزاب السياسيّة المختلفة على تأسيس "تجمّع وطني". ولكن الحورانيّ رفض العودة إلى الحكومة.

وكانت هذه التطورات إيذاناً بنهاية مرحلة من تاريخ سورية وبداية مرحلة جديدة عُرفت بثورة البعث.

13. المشرق في ظل البعث

شهدت الستينيات وصول حزب البعث إلى أكبر كيانات في المشرق هما العراق وسورية، يمثلان 80 في المئة من عدد سكانه ومساحته. ففي 8 شباط 1963، قام حزب البعث في العراق بانقلاب دموي وتسلم الحكم، كما سبق الذكر. ما شجّع "اللجنة العسكرية" البعثية في سورية وشركاءها من الضباط على القيام بانقلاب بعد أربعة أسابيع، أي في 8 آذار 1963. وهكذا بات كل من سورية والعراق تحت نظام حكم يدين بالاشتراكية وبالقومية العربية. وفي شباط 1966، قامت "اللجنة العسكرية" البعثية بانقلاب على انقلاب آذار 1963 فتسلّمت السلطة²⁶³. وكانت هذه اللجنة العسكرية على يسار البعث فأعلنت حكومة ثورية أكدت التحالف مع المعسكر التقدمي وفي طليعته الاتحاد السوفياتي ووعدت بالنضال ضد "إسرائيل" والإمبريالية الأميركية.

8 آذار 1963 في سورية

في شباط 1963 وصلت أنباء إلى دمشق أنّ قوّة بعثية عسكرية من ألفي رجل في العراق يقودها علي صالح السعدي ومدعومة من ضباط ناصريين في الجيش العراقيّ والنقابات المهنية تمكّنت من إسقاط نظام قاسم في بغداد الذي ظنّ المراقبون أنّه لا يُفهر. إذ بعد إضراب طلابيّ ضد الحكومة العراقية، احتلّ البعثيون قاعدة الرشيد العسكرية في بغداد في ليل 8 شباط، وقتلوا قائد سلاح الجو. ثم قصفوا وزارة الدفاع حيث ينام قاسم بالطائرات واعتقلوه واقتادوه إلى مبنى الإذاعة وأعدموه²⁶⁴. وكان الحدث العراقيّ مهماً ليس في سرعته، بل لأنّ قاسم كان منعزلاً على الساحة العربية. فجاء الانقلاب نذيراً للدول العربية أنّ العراق قد عاد إلى الساحة العربية وأنّ حزب البعث الذي ظنّه عبدالناصر قد حُلّ في الجمهورية العربية المتحدة يتهياً لحكم أكبر دولتين في المشرق ويتعامل بنديّة مع مصر. وكان بعثيو العراق قد تهيّبوا من النجاح ومن سرعة وسهولة تسلّمهم الحكم الذي لم يتهيّبوا له. فاستدعوا البعثيين منيف الرزاز من الأردن وعبدالله عبدالدايم من سورية لصياغة وثيقة تُداع على الرأي العام حول هويّة الانقلاب وسياسته العامة وماذا سيسعى لتحقيقه.

أما في دمشق، فقد كانت اللجنة العسكرية قد أعدت خطتها الانقلابية. ولكن ظروفها الميدانية كانت أصعب من ظروف رفاقها العراقيّين، فلم يكن ثمة ميليشيا بعثية في سورية كما في العراق بعدما قضت سنوات الوحدة مع مصر على أي نشاط للحزب، ولا دعم قويّ في صفوف الجيش ولا احتضان من الرأي العام، ولا حتى مباركة من علق نفسه الذي عندما علم بنشاط المجموعة حدّر من مغامرة مجهولة العواقب. ولذلك أدركت اللجنة أنّ عملها يجب أن يكون نخبويّاً يقتصر على قوّة صغيرة للسيطرة على معسكريّ كسوة وقلطنة عند مداخل دمشق الجنوبية، وعلى دعم اللواء 70 المدرع، مع ضرورة منع قيادة حمص العسكرية من التدخل لأنّ حمص هي مفتاح الطرق من شمال ووسط البلاد إلى دمشق والجنوب. وأنّ أوّل خطوة في الانقلاب يجب أن تكون احتلال إذاعة دمشق فوراً لإذاعة البلاغ الانقلابيّ.

²⁶³ - Donald Betz, *Conflicts of principle and policy: a case study of the Arab Socialist Ba'ath Party in power in Syria*, 8 March 1963

23 february 1966, Denver, University of Denver, 1973 (thesis).

²⁶⁴ راجع كمال ديب، زلزال في أرض الشقاق: العراق 1915 - 2015، بيروت، دار الفارابي، 2004، ص.ص. 103-75.

في ليل 7 - 8 آذار 1963 تحركت مجموعات دبابات ومشاة في دمشق: من الجنوب تحرك لواء من جبهة الجولان، فيما حرك ضباط بعثيون لواء السويداء وتمكن اللواءان من تطويق اللواء المدرع 70 في كسوة، فسلم قائده عبدالكريم عبيد القيادة لمحمد عمران. وفتح الطريق لدخول دمشق وإقامة الحواجز. وفي تلك الأثناء، قام سليم حاطوم باحتلال دار الإذاعة. وتم احتلال وزارة الدفاع واعتقال رئيس الجمهورية القدسي وقائد الجيش زهرالدين وأكرم الحوراني وعدد من السياسيين. وتنازلت البلاغات الإذاعية صباح الانقلاب، فأعاد أحدها الاعتبار لـ35 ضابطاً منهم أعضاء "اللجنة العسكرية" الخمسة، عمران وجديد والأسد والمير والجندي. وساعد في تسهيل الانقلاب الذي أطاح حكومة خالد العظم بدون طلقة رصاص تقريباً، الارتباك الذي أحدثته هوية الانقلابيين، حيث لم يتأكد قادة الجيش والأجهزة الأمنية فوراً إذا ما كان قادة الانقلاب مع عبدالناصر أو ضد عبدالناصر ليحسموا كيفية التعاطي معهم. أضاف إلى ذلك أن رئيس الجمهورية ناظم القدسي ورؤساء ثلاث حكومات خلال 18 شهراً من الانفصال كانوا مغرقيين في مدنيّتهم وأضعف من أن يواجهوا انقلاباً عسكرياً. ثم لم يحرك الرأي العام السوري المبرمج على الانقلابات ساكناً تجاه هذا الانقلاب ظناً أنه كسابقاته. ولكن لم يكن يخطر ببال أحد أن هذا الانقلاب كان بداية مرحلة مفصلية من تاريخ سورية وأن سورية دخلت مرحلة ثورية جديدة غير مسبوقة ستكتمل صورتها تدريجياً في السنوات السبع التالية.

أسس الانقلابيون مجلساً لقيادة الثورة يتمتع بالسلطات التنفيذية والتشريعية كافة في البلاد. ومنح قادة الانقلاب لأنفسهم مناصب رفيعة. أما "اللجنة العسكرية" وقد توسعت وابتت تضم عشرة أعضاء فقد احتفظت لنفسها بمناصب هامة: عمران قائداً للواء الخامس في حمص (ثم قائداً للواء 70 المدرع) وصلاح جديد مسؤولاً عن مكتب شؤون الضباط وأحمد سويداني رئيس المخابرات العسكرية ومزید هنيدي رئيساً للشرطة العسكرية وحافظ الأسد قائداً لقاعدة الضمير الجوية بعد ترقيته. وسيطر الضباط البعثيون على الوضع فلم يستفد الضباط الناصريون من مشاركتهم في الانقلاب بشكل فعال وخسروا الساحة مقارنة بشركائهم البعثيين الذين تحركوا بسرعة وفي الجهات كافة. فتحوّلت اللجنة العسكرية من أصغر شريك في الانقلاب إلى سيّدة سورية.

ولكن احتاج وضع اليد على السلطة ثلاث سنوات، إذ كان على اللجنة تدبير شؤون البيت أولاً داخل حزب البعث لأنها احتاجت إلى نصح القيادة الحزبية لجهلها متاهات السياسة السورية ولافتقارها إلى قاعدة حزبية وتنظيم بعثي خارج الجيش. وأيضاً لحاجتها الملحة لفتح خطوط اتصال مع القيادة القطرية للبعث في العراق التي أخلصت لقيادة عفلق - البيطار. ولذلك تواصلت اللجنة العسكرية بقيادة الحزب وطلبت منها أن تكون هي واجهة الانقلاب. ولدرء أي انتقاد، أضاف المجلس الثوري ستة مدنيين إلى عضويّته: ثلاثة من البعث (عفلق والبيطار ومنصور الأطرش)، وثلاثة من قادة التجمعات الناصرية في سورية. فمنحت القيادة القومية رضاها عن اللجنة وخلافاً لقوانين الحزب التنظيمية التي تمنع العضوية عن العسكريين، وافقت القيادة على الاعتراف بأعضاء اللجنة العسكرية رفاقاً ودمجت اللجنة في هيكلية الحزب لتصبح هي المنظمة العسكرية لحزب البعث. وسُمح للجنة العسكرية الاحتفاظ بكيانها المميز وبحريّتها في التحرك. فأكدت هذه الهيكلية

الناشئة ضعف القيادة المدنيّة للحزب وخضوعها لمشيئة العسكر حتى أصبح قادة البعث المدنيون أعضاءً في مجلس قيادة الثورة الذي تمّتجّ بسلطات فوق العادة.

وكلف المجلس الثوريّ عضوه صلاح البيطار، الذي كان قد فشل في انتخابات كانون الأول 1961، بتشكيل حكومة جديدة. وكما في مجلس قيادة الثورة، كذلك في مجلس الوزراء، ضمت الحكومة وزراءً للبعث ولشركاء الانقلاب من عسكريين وناصرين وقوميين عرب. وذهب منصب رئاسة مجلس قيادة الثورة ومنصب قائد الجيش إلى لؤي الأتاسي، صهر المسؤول الناصريّ جاسم علوان. وأصبح زياد الحريريّ المقرب من الحورانيّ رئيساً للأركان. وبعد قمع الناصريين وإزاحة المستقلين، خلا الجو تماماً للبعث في سورية. وعجلوا بتدعيم مراكزهم في الجيش. فاستعمل صلاح جديد صلاحيته في مكتب شؤون الضباط لتعيين وترقية أكبر عددٍ ممكنٍ من الأصدقاء والحلفاء واستدعاء احتياطيين وتسليمهم مهام ومناصب وتسريح الخصوم المحتملين. كما أنّ الكلية العسكريّة في حمص أصبحت بعهدة الضباط البعثيين ففتحت أبوابها بعد شهرين من الانقلاب لمئات الطلاب البعثيين. وكان معظم هؤلاء من أصول ريفيّة مغمورة، عبروا موادّ دراسية وتدريبية ثم عُينوا في مناصب كانت قد شغرت في القوى المسلّحة بعد تسريح ضباطها من أبناء العائلات الميسورة²⁶⁵.

ولكن مع كلّ مناصبهم في الدولة الجديدة، لم يشعر أعضاء "اللجنة العسكريّة" بالأمان والثقة بمقدرتهم على حكم البلاد. وكان انعدام الثقة سببه صفتهم السابقة كضباط صغار من الأقليات وغياب أي قاعدة شعبيّة عريضة. فاحتاجوا إلى واجهة سنّية إضافة إلى لؤي الأتاسي الذي كان شخصيّة مغمورة، ووجدوا ضالّتهم في أمين الحافظ. وكان أمين الحافظ سنّياً من حلب وملحقاً عسكرياً في السفارة السوريّة في بوينس آيرس عندما استدعاه الانقلابيون في آذار 1963، ورفّوه إلى فريق وعيّنوه وزيراً للداخلية، ففرح بالمنصب وبالترقية²⁶⁶. ولكن العالم الخارجيّ ظنّ أنّ أمين الحافظ هو رجل سورية القويّ. إذ إضافة إلى مناصبه المتعدّدة، أصبح رئيس مجلس قيادة الثورة بدل لؤي الأتاسي، ونائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية والحاكم العسكريّ بالوكالة ورئيس الأركان ووزير دفاع بالوكالة وعضواً في "اللجنة العسكريّة" بصفته قائداً للجيش. وباتت اللجنة العسكريّة تتكوّن من أمين الحافظ ومحمد عمران وصلاح جديد وحافظ الأسد وموسى الزعبي وحمد عبید وسليم حاطوم وتوفيق بركات وعبدالكريم الجندي ومصطفى الحاج علي وحسين ملحم وأحمد المير وأحمد سويدانيّ.

انضمّ أمين الحافظ إلى البعث إعجاباً بأكرم الحورانيّ وليس بميشال عفلق. واسندت إليه "اللجنة العسكريّة" مناصب رفيعة ظنّاً أنّه سيكون سهل الانقياد. ولكنّ كثرة المناصب دخلت رأسه وبات مقتنعاً بأنّه فعلاً شخصيّة محوريّة في سورية. إذ حرص على إجراء مصالحة مع كلّ العناصر الوطنيّة في سورية، بمن فيهم جماعة الحورانيّ والشيوعيّين. وحاز على احترام وثقة الرأي العام السوريّ، وبات لقبه - "أبو عبدو" - هو المفضّل لدى الناس ولدى البعثيين في سورية والعراق.

Robert Olson, "The Ba'th in Syria 1947 - 1978: an interpretative historical essay, *Oriente Moderno*, vol. 58, no. 12, 1979, pp. 265

645 - 681.

Patrick Seale, *ASAD*, p. 80.²⁶⁶

هزيمة البعث في العراق

استمرّ التجاذب الإقليمي في صيف وخريف 1963، وخاف البعثيون في سورية والعراق من غضب مصر بعد القطيعة الدموية مع عبدالناصر، فباشروا التحضير للوحدة بين بلديهما.

وكان طموح القيادة القومية في البعث أن وحدة سورية والعراق ستفرض وحدة المشرق على الأقل ولن يصعب ضم الأشقاء الصغار - لبنان والأردن والفلسطينيين. وأنّ مفاعيل الوحدة ستخلق دولة إقليمية كبرى تبرز مصر ثم تنشر نفوذها في الجزيرة العربية وصولاً إلى اليمن حيث للبعث وجود عبر عبدالله الأسنج رئيس النقابات في عدن. وكذلك عبر شمال أفريقيا عبر خلايا بعثية في مصر والسودان وليبيا، وصولاً إلى المغرب حيث تحالف البعث مع الزعيم مهدي بن بركة. ولم يكن البعثيون وحدهم في هذه القناعات، إذ إن العالم الغربي ظن أن البعث، لا عبدالناصر، هو من سيحقق الوحدة العربية عاجلاً أم آجلاً، وأنّ عفلق لا شك حقق حلمه وبات من الآن "يتربّع ملكاً على عرش الأمة العربية".

ظهرت نتائج التقارب السوري - العراقي سريعاً بعد انتصارات البعث بإعلان وحدة اقتصادية في آب 1963 ووحدة عسكرية في تشرين الأول. وجاءت توقيت الوحدة العسكرية مع سورية مناسباً للعراق، إذ بموجبها دخل لواء قوامه 5000 جندي سوري العراق لمساعدة الجيش العراقي في الحرب ضد الأكراد. فاستفاد العراق من الوحدة العسكرية لقمع الانفصال الكردي بقيادة الملا مصطفى البرزاني ومطاردة فلول الشيوعيين الذين لجأوا إلى شمال العراق بعد انقلاب البعث على قاسم.

ولكن حكومة البعث في بغداد عملت بدون تخطيط أو تحضير بإطلاقها حملة عسكرية في مناطق الأكراد في حزيران 1963، أدت إلى سيطرة سهلة على مدن وبلدات وطرق رئيسية. ثم بسبب انعدام خبرة الجيش تبخر الانتصار أمام حرب عصابات مضادة من الأكراد والشيوعيين. فردّ الجيش بمعاكبة عشوائية للمدنيين، وحرقت بعض القرى وقتل مدنيين. وكان حظ الجيش السوري أسوأ من الجيش العراقي، لأنّ السوريين جهلوا تضاريس شمال العراق وتعرضوا لهجمات ذهب ضحيتها عدد كبير من الجنود السوريين.

وأدى الارتجال شمالاً إلى تملل في صفوف الجيش العراقي ووقعت انتفاضة في ثكنة الرشيد في بغداد قُمت بعنف وأسفرت عن مقتل عشرات الجنود الذين رفضوا الخدمة في الشمال. ولم تمض الأمور على ما يُرام لأنّ تملل العسكريين وانتفاضة ثكنة الرشيد فتحا هوة سلبية في العلاقة بين البعث وقيادة الجيش العراقي المحترفة التي لم توال البعث كما هو الحال في سورية. وبرز شقاق بين عبدالسلام عارف الناصري الهوى بمواجهة البعثي علي صالح السعدي الذي كان يقود ميليشيا الحزب (الحرس القومي) التي كانت تثير الذعر بأسلحتها الفردية الظاهرة وتتحرش حتى بكبار ضباط الجيش، وبعضهم برتبة فريق. وكان السعدي يمثل التيار اليساري ومن أبطال الانقلاب ضد قاسم ويتردّد على سورية كثيراً حيث له مريدون داخل التيار البعثي الجديد. فكان تطرفه في فرض نهجه العقائدي على البعث العراقي والدولة سبباً لاندلاع ما عُرف بأحداث الحرس القومي وتأمير خصمه في الحزب الأمين العام القطري حازم جواد.

في 11 تشرين الأول 1963، قام بعض الضباط الغاضبين في العراق، بالتعاون مع وزير الخارجية البعثي طالب شبيب وحازم جواد وبعثيين من المدنيين في القيادة القطرية، بحركة تصحيحية داخل الحزب لوضع حدّ للسعدي. فخطفوه ووضعوه على متن طائرة إلى مدريد. وما إن وصل الخبر إلى "الحرس القومي" حتى هبّ أعضاؤه انتقاماً لقائدهم. فانقسم بعثيو العراق بين مؤيد للسعدي ومؤيد لأخصامه. وسارع ميشال عفلق إلى بغداد برفقة أعضاء من القيادة القومية لمعالجة الوضع المشتعل وحاولوا طمأنة رجال السعدي بدون إغضاب ضباط الجيش بهدف التوصل إلى حلّ. ثم قام عفلق بحلّ القيادة القطرية العراقية وطلب من طالب شبيب وجماعته أن يغادروا العراق إلى بيروت، ولكنه لم يستدع السعدي من إسبانيا. فارتكب عفلق خطأ فظيلاً حيث أفرغ الساحة العراقية من قياداته البعثية من جهتها. واستدراكاً لخطواته الخاطئة، أعلن عفلق أنّه من تلك اللحظة وحتى يصار إلى انتخاب قيادة قطرية عراقية جديدة، سيقوم هو شخصياً، بالتعاون القيادة القومية، بإدارة أمور الحكم في العراق.

قرارات عفلق لم ترق للبعثيين العراقيين كما أغضبت ضباط الجيش العراقي غير المعقدن في تلك الأيام. وكان لافتاً موقف الضباط السلبى ورفضهم تدخّل عفلق في شؤون العراق ونظرتهم له كـ"مسيحي" و"سوري" واعتبارهم حتى حضوره إلى بغداد كمواطن غير عراقيّ مساً بكرامة الجيش وتحديداً لشرف الوطن العراقيّ. فكيف به يدّعي أنّه حاكم على العراق؟ وتطوّر الأمر في صفوف الضباط غير البعثيين من نزعة وطنية عراقية إلى مشاعر دينية إسلامية وشوفينية ضد عفلق²⁶⁷. فاستغلّ عارف هذه الأجواء المشحونة والانقسام داخل البعث واستولى مع مجموعة من الضباط على السلطة في 18 تشرين الأول 1963.

فهرب عفلق ومن معه من قادة بعث سوريين وعراقيين قبل أن يُبطش بهم، فيما واصل "صوت العرب" من القاهرة صبّ الزيت على النار وتأجيج مشاعر العراقيين ضد حزب البعث بشكل عام و ضد الحكم في سورية خاصة. وكان مديح "صوت العرب" أحمد سعيد يتكلّم وكأنّه يوجّه المعركة فينصح "بإلمسك بعفلق وجماعته وذبحهم قبل أن يغادروا بغداد". أو يشير إلى ضرورة "ضرب ما تبقى من خلايا السعدي"، في وقت استفحل القتال في شارع الرشيد في بغداد بين ميليشيا "الحرس القومي" والجيش العراقيّ.

وأدّى السقوط المؤقت للبعث في بغداد إلى رفع غطاء الشرعية عن الوجود العسكريّ السوريّ في العراق. وكانت أخبار المعارك تؤثّر سلباً على معنويات الجيش في سورية، ما أخاف قيادته البعثية ودفعتها إلى شدّ اليد على مقاليد السلطة. وأمام هذه القلاقل في الجيش والصدمة التي أحدثها الانقلاب العراقيّ، ظلّ حمود الشوفي، من التيار اليساريّ في البعث السوريّ، وبعض أتباعه وعدد من الشيوعيين السابقين بسذاجة أنّ قوتهم داخل حزب البعث قد وصلت حدّاً يستطيعون معه التخلّص من "اللجنة العسكرية" التي كانت قد وقفت إلى جانبهم وكانت وراء دخولهم السلطة. فبدأوا حملة ضد "النظام العسكريّ اليميني" في سورية وعزّابه ميشال عفلق. وكانت "اللجنة العسكرية" قلقة من المنحى اليساريّ المتطرّف لزملائها في القيادة

Michael Hudson, "The Islamic factor in Syrian and Iraqi politics", in *Islam in the political process*, edited by James Piscatori, ²⁶⁷

London, Cambridge University Press, 1983, pp. 73 -97.

القطريّة. فخافت أن يرتكبوا أعمالاً متهورّة مشابهة للسعدي في العراق الذي كان يعتبره التيار الجديد في سورية مثلاً.

وهكذا كانت ردّة الفعل على أزمة العراق احتدام الأزمة من جديد داخل البعث في سورية، حيث اعتبر التيار اليساريّ فشل البعث في العراق دليلاً على عجز عقيدة عفلق وشعاراته وعلى فشله الشخصيّ. في حين اعتبر عفلق أنّ مسؤوليّة الفشل في العراق تقع على التيار الجديد في بغداد الذي ضم شيوعيين متخفين أمثال السعدي. وإذ كشف يساريّو البعث أوراقتهم كاملة في العداء للعسكر وللقيادة التقليديّة البعثيّة، كان ردّ الفعل الطبيعيّ قيام تحالف مؤقّت لرض الصفوف، جمّع القيادة القوميّة و"اللجنة العسكريّة"، استطاع إزاحة اليساريّين من القيادة القطريّة وطردهم من الحزب. فقد عُقد مؤتمر قوميّ وقطري طارئ في شباط 1964 لمراجعة أسباب تراجع البعث في العراق وأصدرت القيادة القوميّة قراراً بفصل السعدي من عضويّة الحزب بعد تحميله مسؤوليّة أحداث العراق (ما أراح عفلق الذي كان يحمل قسطاً كبيراً من تلك المسؤوليّة). وطرد المؤتمر حمود الشوفي ومؤيديه من الحزب. ولكن لم تكن هذه الضربة قاضية على التيار اليساريّ في الحزب كما حصل في العراق. إذ إنّ الأطباء الثلاثة وأتباعهم ميّزوا أنفسهم ولم ينجروا في مغامرة الشوفي ولم يُظهروا أي تحدّ للجنة العسكريّة كما فعل الشوفي. بل استمرّ تعاونهم مع اللجنة العسكريّة لتنفيذ مقررات المؤتمر السادس وكانّ شيئاً لم يحدث.

وعين المؤتمر الطارئ صدام حسين ليعيد بناء هيكلية الحزب داخل العراق، وانتخب المؤتمر قيادة قطرية جديدة في سورية بعد فصل جماعة الشوفي. وهذه المرة اشترطت "اللجنة العسكريّة" أن يكون لها 7 من أصل 15 مقعداً في القيادة القطريّة وأصبح أمين الحافظ عضواً في القيادة القطريّة إضافة إلى عضويته في القيادة القوميّة. كما استوعبت القيادة القوميّة أحد دروس هزيمة البعث في العراق أنّ القيادة القطريّة العراقيّة كانت مكبّلة في خياراتها بسبب هرمية الحزب واحتكار القيادة القوميّة للقرارات المهمة. فخافت القيادة القوميّة أن تتكرّر التجربة العراقيّة في سورية والأردن ولبنان، وأجازت للقيادة القطريّة في سورية سلطات واسعة في تسمية مسؤولي الحزب في المناطق وتطهير من لا تراه مناسباً. فاستغلّت القيادة القطريّة في سورية سلطتها المستجدة وتخلّصت من أنصار التيار التقليديّ في فروع المناطق وعيّنت مكانهم أشخاصاً محسوبين على التيار الجديد.

وهكذا ضمنت القيادة القطريّة موقعاً قوياً في التنظيم الحزبيّ على الأرض. وأمام تآكل نفوذ القيادة القوميّة وتحديات القيادة القطريّة للقيادة القوميّة، رفض عفلق التنازل عن المزيد من الصلاحيّات.

في تلك الأثناء كانت الحكومة السوريّة تركّز اهتمامها على التهديدات المستجدة من عبدالسلام عارف في بغداد الذي ظهر في خاصرتها الشريفة حليفاً لعبدالناصر بعدما أخرج البعث العراقيّ وبات يشكلّ تهديداً على سورية لا يقل عن تهديد مصر. فقد أعلن عارف أنّ العراق ما زال ملتزماً شرعاً بالوحدة مع مصر. وكان الحدث العراقيّ قد أوقع سورية في لحظة ضعف شجّعت خصوم البعث من يمين ويسار لرفع رؤوسهم من جديد وتحديّ السلطة، دون أن يخلو الأمر من حوادث طائفية الطابع، شبيهة بتلك التي كانت تقع مراراً في لبنان. فتحول حلم البعث من سلسلة انتصارات في سورية والعراق بدأ أنّها تقوده قبل أشهر لتوحيد المشرق

وتحجيم عبدالناصر، إلى كابوس مخيف في ربيع 1964 كاد يطيح بالحزب في دمشق نفسها. فقد وقعت مواجهات مسلحة بين سنة وعلويين في بانياس، اتخذت طابعاً دموياً واحتاجت إلى تدخل الجيش لوقف امتدادها. كما اندلعت أعمال شغب في حمص وهاجم غوغاء مركز الشرطة في حلب.

كل هذا وسط هجوم إعلامي بلا هوادة من إذاعات القاهرة وبغداد. فكانت القاهرة تندد "بالبعث الكافر" في دمشق وتنعت قاداته بأنهم "ليسوا عرباً وليسوا مسلمين" (إشارة إلى أنهم علويون ومسيحيون ودروز)، ولا تتوانى عن استعمال صفات عنصرية وطائفية²⁶⁸. ثم جاء دور حلب بعد بانياس وحمص، حيث اشتعلت أحداث شغب وتظاهرات أخذت طابعاً عنيفاً ضد الحكومة. فتدخل رئيس الحكومة أمين الحافظ شخصياً وزار المدينة حتى هدأ الوضع. ولكن ما أن غادر أمين الحافظ حلب حتى تجدد العنف الطائفي وظهر السلاح في الأحياء ودارت معارك مع قوى الأمن. ولئن كان الوضع الاقتصادي صعباً كما سبقت الإشارة، فإن أعمال الشغب انتشرت في أنحاء سورية وركب قاطرة الدومينو معظم معارضي نظام البعث: في المدن الرئيسية خرج أصحاب المتاجر ضد الحكومة وانضم اليهم الطلاب والمعلمون والمهندسون والعمال والمحامون والموظفون، ببدء لإطلاق الحريات العامة وسراح المعتقلين السياسيين وإنهاء حال الطوارئ وعودة الحياة الديمقراطية عبر انتخابات حرة ونزيهة. فاستيقظت سورية يوم 20 نيسان 1964 وقد شملت الانتفاضة مدنها ومحافظاتها كافة. وتحول ما بدا مؤامرة تحركها القاهرة وبغداد إلى انتفاضة شعبية بمطالب مشروعة. ولكن نقص الانتفاضة التنسيق والتنظيم، فلم تصمد كثيراً أمام قدرات النظام. فقد برز تنظيم مسلح في دمشق باسم "ميليشيا العمال" يقودها خالد الجندي تسلحها الحكومة عملت على قمع الانتفاضة بقوة السلاح وخاصة ضد الأخوان المسلمين.

أعطت الانتفاضة دليلاً أن البعث كان في "عزلة سياسية رهيبية" في البلاد، وشجعت بغداد والقاهرة على مدّ المنتفضين بالمال والسلاح والدعم الإعلامي لإسقاط الحكومة السوريّة.

صراعات داخل الحزب

لم تمر أحداث ربيع 1964 مرور الكرام على الحكومة، إذ إنّها سلّطت الضوء السلبي على أمين الحافظ الذي حملته الرأي العام المسؤولية بسبب اعتماده العنف لضبط الشارع. فتنازل عن رئاسة الحكومة وتسلمها صلاح البيطار. فأصدر البيطار بياناً وعد بحماية الحريات وإعداد دستور مؤقت وتحقيق مطالب الناس. وألغت الحكومة مراسيم عزل الأفراد وأصدرت عفواً عن مسببي انتفاضة نيسان، كما أفرجت عن المجموعة التي قامت بالمحاولة الانقلابية في تموز 1963.

ولكن موقف عفلق من الأحداث اختلف عن البيطار الذي لم ينتقد الإجراءات. فقد كان عفلق غاضباً من استعمال العنف ضد التظاهرات وأعلن عدم رضاه عن الأسلوب الهمجى في ممارسة السلطة وقد أصبحت

²⁶⁸ A.R. Kelidar, « Religion and State in Syria », *Asian Affairs*, vol. 6, no. 1, 1974, pp. 16 - 22.

في يدي البعث. فغادر البلاد في حزيران 1964 إلى ألمانيا الغربية بعدما استنتج أنه لم يبقَ لمَدنيي الحزب أي تأثير في مجرى الأحداث.

ثم عمل الشقاق عمله داخل الحزب، حيث فسّر تيار اليسار في القيادة القطرية أحداث الشغب والعنف أنها دليل على حاجة الحزب لتوجّه اشتراكيّ يلبي حاجيات الناس. فيما اتهم محمد عمران أكرم الحورانيّ بأنه وراء أعمال العنف الطائفية في حماة. وهال هذا الاتهام أمين الحافظ الذي يكن للحورانيّ الاحترام والتقدير، فأمر صحف الحزب والدولة أن تنشر تكذيباً لهذا الاتهام. وأصدر الحافظ بياناً يحيي فيه الحورانيّ على أنه "رجل شريف وفوق الشبهات". فكان الخلاف حول الحورانيّ بداية صراع بين الحافظ وعمران كشف أنّ الأمر كان أعمق من خلاف شخصي. فقد كان الحافظ يعتقد أنّ أحداث نيسان أكّدت أنّ البعث لن يصمد كثيراً في السلطة لأنه منعزل عن كافة القوى والتيارات السياسية في سورية ويريد أن يحكم بالقوة. ورأى الحافظ أنّ دوره هو فتح حوار مع المعارضين للنظام ومع مصر. ولم يقتصر الأمر على خلاف بين عمران والحافظ بل أنّ عمران اختلف أيضاً مع زملائه في "اللجنة العسكرية" بعدائه لليسار الماركسيّ الملحد في صفوف الحزب. فقد كان يسعى لبناء تكتل علويّ من ضباط في الجيش ويتقرّب من الناصريّين ما بدا وكأنه يبني منصّة لنفسه. أضف إلى ذلك أنّ عمران كان قريباً من القيادة القومية للحزب، بخلاف الموقف المناهض للقيادة القومية داخل اللجنة العسكرية.

برز إذناً الخلاف داخل "اللجنة العسكرية" التي كانت تدير أمور البلاد من وراء الكواليس حول أسلوب التعاطي مع الشارع. فوقف عمران ضد أسلوب العنف في أحداث حماة ورأى أنه كان باستطاعة السلطة استمالة الناس في منطقة حماة التي نشأ في جوارها، وإيجاد حلّ بالحوار معهم وليس بقصفهم بالمدافع. ثم عاد عمران إلى طرح التعاون مع الناصريّين فلا يبقى البعث وحيداً بدون حلفاء على الأرض، وتذمّر من صعود نجم وصلاحيّات أمين الحافظ، خاصة أنّ عمران يعتبر نفسه القائد الفعلي للجنة العسكرية. ومن هناك تعمّق الخلاف في اللجنة حول كيفية حكم سورية وسعي اليسار إلى النهج الاشتراكيّ. وأمام تراكم الملفات الخلافية، بات عمران في وادٍ ورفاقه في اللجنة في واد. وردّ صلاح جديد على عمران أنه لم يكن ثمّة مفر من استعمال القوة في أحداث نيسان 1964 أمام خطر داهم وصريح يهدّد أمن البلاد. وحول النهج الاشتراكيّ، أصرّ صلاح جديد على أنّ التغيير الثوريّ الذي تعاهدوا عليه يتضمّن القضاء على البورجوازيين والإقطاعيين وهذا لا يتم فقط بالكلام والنقاش بل يحتاج إلى استعمال القوة. وانتقد جديد شكوى عمران من صلاحيّات أمين الحافظ لأنّ هذا النقاش يظهر أنّ اللجنة غير راضية عن أمين الحافظ وهو واجهة النظام. فيتعرّض الحافظ وتضعف هبة الدولة ومقولات الثورة.

كان الوضع السياسي في سورية في صيف وخريف 1964 يتّجه لمصلحة التيار اليساريّ في البعث. وبدأت كرة الثلج في آب 1964 تتدحرج عندما انتقد الحورانيّ سياسة الحكومة حول النفط ومشروع سدّ الفرات. فترك هذا النداء وقعاً حسناً في صفوف الحزب واستياءً لدى السلطة التي رأت فيه تحدياً لمسيرتها وعودة إلى أجواء العصيان، وأمرت بوضع الحورانيّ وأعوانه في الإقامة الجبرية. فغضب أمين الحافظ الذي كان يغضّ النظر لفترة عن تصرف السلطة تجاه الحورانيّ. فتدخّل هذه المرّة وأمر بإطلاق سراح الحورانيّ ورفاقه. وكان الشيوعيون

قد فطنوا أنّ نفوذ الحورانيّ قد تراجع في الدولة وباتوا بحاجة إلى حليف بديل. فكانوا يتابعون لفترة صعود اليسار الجديد في "حزب البعث" واستخدامه مفردات من القاموس الماركسيّ. كما استحسنوا سياسة أمين الحافظ التوافقية، واستنتجوا أنّ مئة تناقضات داخل صفوف البعث يمكن استغلالها كتكتيك جدلي. فسعوا إلى حوار مع أمين الحافظ اليميني ومع التيار البعثيّ اليساريّ في الوقت نفسه.

وهكذا في تشرين الأول 1964، ضمّ أمين الحافظ جهوده إلى التيار الجديد في الحزب للضغط على حكومة صلاح البيطار لتستقيل. ثم ضغطوا على صلاح البيطار ومنصور الأطرش ليستقيل من مجلس الرئاسة. فتسلّم الحافظ منصب رئاسة الوزراء مجدداً، وشكّل حكومة معظم أعضائها من القيادة القطريّة ومن اليسار الحزبيّ، فيما احتل صلاح جديد ويوسف الزعبيّ المنصبين الشاغرين في مجلس الرئاسة. ولكن عمران لم يُبقِ خلافه مع صلاح جديد طي الكتمان بل استنجد بكبار السنّ في الحزب من القيادة القوميّة ليدعموا موقفه. حتى وصل خبر انفتاحه على القيادة القوميّة لميشال عفلق المقيم في المانيا الغربيّة. كما أنّ القيادة القوميّة استشاطت غضباً لمسلسل قصّ أجنتها داخل الحكومة ومجلس الرئاسة واستدعت ميشال عفلق على وجه السرعة من المانيا لمواجهة هذا العمل الانقلابيّ داخل السلطة ضد الحرس القديم. فشجع نداء القيادة القوميّة ومواقف عمران ميشال عفلق ليعود إلى دمشق في تشرين الثاني 1964، آملاً أن تكون الفرصة مؤاتية لقب الطاولة على هيمنة "اللجنة العسكريّة" والمتمركسين في الحزب وفي الدولة.

ولكن عمران في ذلك الوقت كان قد اندفع كثيراً في ثقته بالقيادة القوميّة وكسر قسّم السريّة الذي حمى "اللجنة العسكريّة" منذ تأسيسها. فقد اجتمع مع عفلق وقيادته وأفشى لهم كافة أسرار اللجنة بأنّها الحاكم الفعلي لسورية شارحاً نشأتها ومَن فيها، وكيف خطّطت وعملت للسيطرة على الحزب والدولة والجيش، الخ. فكانت مكاشفة عمران بالنسبة لعفلق تأكيداً على بعض ما كان يعرفه ويشكّ به. أمّا بالنسبة لأعضاء القيادة القوميّة الآخرين وخاصة من غير السوريين، فقد كان حديث عمران صدمة²⁶⁹. ووصل خبر تعاون عمران مع قيادة عفلق إلى أعضاء "اللجنة العسكريّة"، وأدهشهم تصرفه ورأوا في الخطوة خيانة. فاتخذت القيادة القطريّة قراراً بتجريد عمران من كافة مناصبه الحزبيّة والحكوميّة وإرساله سفيراً لسورية في مدريد بعدما أصبح محسوباً على القيادة القوميّة. وكان عمران قائداً لقوة عسكريّة استحدثتها اللجنة باكراً ذلك العام، فسلمت لواءها لشقيق حافظ الأسد الأصغر رفعت (تمّت هذه القوة لتصبح "سرايا الدفاع").

حزن عفلق عندما شاهد دوره في الحزب ينهار إلى هذا الدرك، وخاصة بعد عزل عمران ونفيه بمجرد أنّه صارحه كأب للحزب عمّا يشكو منه نظام البعث في سورية. واعتبر أسلوب التعامل مع عمران إهانة شخصيّة له. كما أنّ هوة عقائديّة طغت على علاقات الأجنحة داخل الحزب. إذ كان في جذور عقيدة عفلق والبيطار مبادئ الديمقراطية الغربيّة وأنّ الوصول إلى السلطة يجب أن يحتكم إلى الشعب عبر صندوق الاقتراع. فكانا عام 1964 في غير وادي الماركسيّة - اللينينية التي رفضت الديمقراطية لأنّها حيلة بورجوازية تسمح لأصحاب المال والقوة بالوصول إلى السلطة. ونبذ عفلق والبيطار "العنف الثوريّ" الذي روج له الشيوعيون. ورغم

Patrick Seale, ASAD, p. 96-98.²⁶⁹

وصول البعث إلى السلطة، إلا أن عفلق والبيطار كانا ضد أن يكون حزبهما الحاكم الوحيد وضد هيمنة العسكر.

ولكن رغم أن تهمة هيمنة العسكر على الحزب كانت صحيحة، إلا أن حملة عفلق ضد عسكرة الحزب كانت ملتبسة ذلك أنه وافق على وضع يده بيدهم منذ البدء. ولولا جهود الضباط البعثيين بين 1960 و1963 لما عاد الحزب إلى الساحة ولم عادت إلى القيادة القومية مكانتها التي اعتمد سلطانها على القوة العسكرية الخاصة بالحزب، ولما تسلّم الحزب السلطة في سورية والعراق.

في نهاية 1964 أرادت قيادة عفلق وضع حدّ لهيمنة "اللجنة العسكرية" واليسار البعثي الجديد على الدولة والحزب. فاستعمل عفلق صلاحيته كأمين عام وطلب من القيادة القومية أن تحلّ القيادة القطرية في سورية التي يسيطر عليها أعضاء "اللجنة العسكرية" واليسار البعثي، وإخراج أعضاء القيادة القطرية من الحكومة وفصلهم عن الحزب. ولكن هذا المسعى واجه مقاومة جديّة فوجدت القيادة القومية نفسها أمام اعتراض حاسم من المجالس القطرية لـ "حزب البعث" في الدول العربية الأخرى ومن فروع الحزب في أنحاء سورية. ففشل مسعى عفلق وبقي هؤلاء في مواقعهم بعدما أثبتوا مدى قوّتهم ونفوذهم. لقد وجدت "اللجنة العسكرية" حلفاء لها في التيار اليساري وفي القيادة القطرية التي تمّتعَت بشعبية عارمة في المحافظات.

انقلاب 23 شباط 1966

لسنوات عدة هيمنت على الساحة مواجهة بين القيادة القومية والقيادة القطرية. فلم يتأخّر ردّ "اللجنة العسكرية" على سلسلة القرارات التي اتخذتها القيادة القومية بحق القيادة القطرية وأنصارها وكانت نتيجة المواجهة أعنف انقلاب في سورية وأكثرها دموية.

في 21 شباط 1966، أراد محمد عُمران أن يستعمل صلاحيّاته كوزير للدفاع في الحكومة. فأصدر قرارات بنقل ثلاثة ضباط محسوبين على صلاح جديد من مراكزهم. وهم أحمد سويداني مسؤول مكتب شؤون الضباط، وعزت جديد من سلاح الدبابات وسليم حاطوم الذي يقود حرس أبنية رسمية في دمشق بينها الراديو والتلفزيون. وفي اليوم التالي كان عُمران وأمين الحافظ خارج دمشق لمعالجة خلاف استجدّ بين عسكريين في الجولان. وعندما عادا في فجر يوم 23 شباط كانت مدافع الانقلاب قد بدأت عملها. إذ هاجم حاطوم يدعمه رفعت الأسد بمجموعته وعزت جديد بمجموعة دبابات منزل أمين الحافظ. فقاوم الحافظ بسلاحه الفردي، ومعه حراسه. واستمرّت المعركة ساعات عدّة فقتل عدد من مرافقي الحافظ وسقط ابنه وابنتاه جرحى ونفذت الذخيرة، فاستسلم الحافظ.

اسفرت المعركة الصباحية عن مصرع 50 عسكرياً واحتلّ الانقلابيون الإذاعة ووزارة الدفاع ومراكز قيادات الحزب يقودهم، إلى حاطوم وعزت جديد ورفعت الأسد، حمد عبيد وطلال أبو عسلي (درزيان) وعبدالكريم الجندي (إسماعيلي) وآخرون من ضباط الأقليّات. ورمى حافظ الأسد بثقله مع الحركة الانقلابية وهاتف ضباط المناطق ليقنعهم بالانضمام إلى الحركة. ووقعت معارك أصغر في المدن الأخرى، حيث أبدت وحدات

موالية للقيادة القومية مقاومة في حماة وحلب واللاذقية ودير الزور. ومع منتصف النهار حُسم الأمر لصالح صلاح جديد، واقتيد أمين الحافظ مع عُمران وبعض أعضاء القيادة القومية إلى سجن المزة، وبدأت حملة اعتقالات واسعة في صفوف الجيش طالت 400 ضابط نُقلوا جميعاً إلى المزة. فاعتُقل حوالي ثلاثين عضواً في القيادة أو من شخصيات الحزب الرفيعة، كمنصور الأطرش وشبلي العيسمي وأعضاء قيادة قومية من لبنانيين وسعوديين وأردنيين.

بقي عفلق في منزله إلى حين، ولم يتعرض للاعتقال ثم ذهب إلى بيروت ولم يعلم يومها أنه لن يرى سورية مرة ثانية. أما منيف الرزاز، فلم تسمح له صحته الفرار عبر الجبل إلى لبنان فاختبأ في منزل في دمشق²⁷⁰. برز قادة الانقلاب عملهم بأنه كان باسم الشرعية لأن القيادة القومية خالفت قوانين الحزب عندما أصدرت قراراً بحل القيادة القطرية دون العودة إلى مؤتمر قومي. وعطل قادة الانقلاب دستور سورية ووضعوا حداً للهيكليّة المعقّدة التي خلقت مراكز قوى متحاربة داخل الحزب وفي مؤسسات الدولة والتنظيم الحزبي. فأصبحت كافة سلطات الحزب والدولة في سورية بيد القيادة القطرية التي باتت من صلاحيّاتها تسمية أو عزل رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء. وأباحت القيادة القطرية لرئيسي الجمهورية والحكومة أن يمارسا السلطات التنفيذية والتشريعية في إدارة الدولة.

وأنشأت القيادة القطرية في ما بعد قيادة قومية جديدة أصدرت قراراً بطرد عفلق والبيطار من الحزب على أنهما "عملاء للإمبريالية وخونة". وحوكما غيابياً في ما بعد وصدرت بحقهما أحكام إعدام. كما عومل الرزاز كما عومل عفلق والآخرين، بطرده من الحزب.

ومنذ وقوع هذا الانقلاب، أصبح البعث عملياً حزبين مستقلين، الأول في دمشق يقوده التيار اليساري واللجنة العسكرية، والثاني استمر خارج سورية تحت القيادة القومية المحافظة لعفلق والبيطار. ومع مرور الوقت استطاع انقلابيو 23 شباط 1966 بناء حزب بعثي بقيادة قومية وقيادات قطرية في سورية وعدد من الدول العربية. أما عفلق والبيطار فقد اتخذوا من بيروت مركزاً لهما، وواصلوا العمل مع الذين بقوا إلى جانبهما في سورية والعراق والدول العربية الأخرى، ليصبح جناحهما بدوره حزباً كاملاً. وبعد نجاح البعث العراقي في العودة إلى السلطة في بغداد في تموز 1968، كان أبطاله من الموالين للقيادة القومية (أحمد حسن البكر وصادق حسين). فجعل عفلق من بغداد مركزاً لقيادته²⁷¹.

عهد صلاح جديد

بعد هذا الانقلاب أصبح صلاح جديد رجل سورية القوي²⁷². ولكنه هاب أن يستلم منصب رئيس الجمهورية أو رئاسة الحكومة، وهما منصبان مخصصان للسنة. وفضل أن يدير الأمور من خلف الكواليس عبر منصبه

²⁷⁰ منيف الرزاز، التجربة المزة: الأعمال الفكرية والسياسية، عمان، 1986.

John Devlin, *The Ba'ath Party: a history from its origins to 1966*, Stanford, California, Hoover Institute Press, 1976.²⁷¹

Patrick Seale, *ASAD*, p. 105-106.²⁷²

كأمين عام مساعد للقيادة القطرية حيث حشد أتباعه في هذه القيادة وفي مجلس الوزراء. وعكس اختيار صلاح جديد لأفراد في المناصب العليا يسارته الراديكالية بعيداً عن تهم الطائفية. فاختر الأطباء الشبان الثلاثة ليصبحوا واجهة النظام المدنية: نورالدين الأتاسي رئيساً للجمهورية ويوسف زعين رئيساً للحكومة وإبراهيم ماخوس نائباً لرئيس الوزراء وزيراً للخارجية. وكان الثلاثة قد تطوعوا كأطباء في حرب التحرير الجزائرية ضد الإستعمار الفرنسي وباتوا يؤمنون أن حرباً شعبية كفيلة بتحرير فلسطين لأن الإسرائيليين كالفرنسيين سيرضخون في النهاية وينسحبون.

كفاءات الحكام الجدد الإدارية ومقدرتهم على الحكم كادت أن تكون معدومة لولا أن مبادئهم الثورية واندفاعهم لفعل الخير لبلدهم مكناهم من تحقيق الإصلاح الزراعي وسلسلة تأمينات وخطط خمسية ومشاريع عمرانية ضخمة من طرق وسدود ومرافق عامة. كما بان ملامح الحكام الجدد التقشفية في تخفيض رواتب رئيس الجمهورية والوزراء وكبار الضباط والإداريين الرسميين، واستبدال أسطول سيارات المرسيدس الفخمة التي اقتناها الحكام السابقون بسيارات متواضعة: فولكسفاك وبيجو 404.

ضرب نظام صلاح جديد الفساد بيد من حديد، ولكن النيات الحسنة لم تكف لنجاح الحملة ضد الفساد المعقد والمتعدّد الوجوه. فقد كان للفساد مراكز قوى متنوعة وفي عهد صلاح جديد أدت محاباة الحزبيين والأقليات في المناصب والتعيينات وممارسات الحرب الطبقيّة حتى في أصغر الأمور، إلى خسارات بشرية وماليّة فادحة. فقد تعرّضت إدارات الدولة لحمولات تطهير ضدّ أبناء العائلات العريقة أو الغنيّة لحقد طبقيّ، كما تعرّضت تلك المرتبطة بخط أو حزب سياسي غير البعث للأمر نفسه. إلى درجة أن تطهير وزارة الخارجية مثلاً حرّمها من طاقمها الكفوء من الدبلوماسيين، وأصبح عدد السفراء ذوي الخبرة محدوداً. كما خاف كثيرون أن يفتح النظام عينيه على أملاكهم إذا كانوا يملكون أكثر من منزل، فاضطروا إلى بيع عقاراتهم ما أدى إلى تدهور في الأسعار. وواصل أصحاب الرساميل فرارهم من البلاد. ولذلك فمكافحة الفساد احتاجت إلى حدّ أدنى من الخبرة في الأمر، وعلى الأقلّ تعريف الفساد وليس كلّ شخص غني أو مرموق فاسداً. اختلف انقلاب 1966 عن كلّ ما سبقه بأنه أحدث تغييراً عميقاً غير مسبوق في التركيبة السياسيّة والاجتماعيّة السوريّة وبأنّه كان ثورة بروحية لينينية - ماركسيّة تسعى إلى هندسة المجتمع من جديد وخلق طبقات اجتماعيّة ثوريّة جديدة قوامها العمّال والفلاحون والجنود والطلاب والنساء، تواجه "الطبقات العدوّة" من إقطاعيين ورجعيين وبورجوازية مدنيّة.

إذ لأول مرة باتت تحكم سورية عناصر من أقلّيات دينية ومتحدّرة من أصول ريفية وخلفية ثقافيّة متواضعة وليس من الأغلبية السنيّة وخلفيتها البورجوازية والتجاريّة والثقافيّة المدنيّة. وهذا كان السبب الأكبر في شرح خط الحكام الجدد اليساريّ المتشدّد تجاه المدن الرئيسيّة وأسرّها السنيّة العريقة وتجارها الذين سيطروا لعقود على اقتصاد سورية الضعيف. وتشجّع أبناء الأرياف من سياسة الحكومة التي رأوا بأنّها دولة المحرومين والمعدومين والريفيين، فبدأت هجرة كبرى إلى المدن ساهمت في تغيير طابعها ومجتمعها²⁷³.

Marcel Colombe, « Remarque sur le Ba'ith et les institutions politiques de la Syrie d'aujourd'hui », *Orient*, Paris, vol. 37, ²⁷³ 1966, p.p. 57 - 62.

نشأة الحكام الجدد الريفية لم تكن رثة ومعدمة، بل كان معظمهم أبناء عائلات، بمن فيهم كل أعضاء اللجنة العسكرية، من الطبقة المتوسطة التي أرسلت أبناءها إلى المدارس والجامعات، وأحياناً من عائلات ريفية ثرية وملاكي أراضٍ. فكان عزمهم على إضعاف البورجوازية المدينية تقابله معاشتهم السلمية للبورجوازية الريفية وكبار ملاكي الأراضي. وقد اتضحت بعض هذه الأمور عندما تابعت الحكومة ملف الإصلاح الزراعي المزمع في سورية بمفعول معاكس للمنطق التقدمي. فأخطأت بإلغائها تطبيق الإصلاح الزراعي على الأراضي المزروعة التي استفادت من مشاريع الري الرسمية ما شجّع أصحاب الأراضي من الأغنياء على شراء المزيد من الأراضي وخاصة في الجزيرة واللاذقية وعلى نحو الزراعات التجارية المكثفة والرأسمال الخاص. ولم يرق جفن الحكومة الثورية أن وضع الفلاحين لا يتحسن، في حين ازداد الملاكون جاهماً ومالاً. حتى أن بعثيي منطقة دير الزور شرق البلاد كانوا أنفسهم من الملاكين. ولكن عبدالكريم الجندي تميّز في الحكومة كوزير للإصلاح الزراعي ومعها طاقم من أصول فلاحية بالشكوى من السياسة الجديدة وطالب بتطبيق إصلاح زراعي فعال وإحداث مزارع قطاع عام وتشجيع الملكية الجماعية ما يسمح بخفض كلفة الزراعة على صغار الملاكين.

رأى النظام أن التعاون مع الشيوعيين أفضل من التعاون مع الناصريين، نظراً للتجارب السلبية مع هؤلاء. ما أعطى موسكو إشارة طيبة وفتح الباب لمساعدات سوفياتية لسورية. ولذلك، عيّنت الحكومة لأول مرة في تاريخ سورية وزيراً شيوعياً (سميح عطية) كوزير للإعلام، ووزيرين آخرين مقرّبين من الحزب الشيوعي. وعبر صلاح جديد والأطباء الثلاثة وكبار رموز النظام عن إيمانهم ببعض أفكار "الاشتراكية العلمية" دون التخلي عن بعثيتهم. وخلال ثمانية أسابيع من تشكيلها حصلت حكومة زعين على التزام سوفياتي بالتعاون والمساعدة. عندها قرّر خالد بكداش العودة إلى سورية بعد ثماني سنوات في المنفى. فقبل النظام ذلك على مضض وغض النظر عن توزيع صحيفة الحزب الشيوعي المحظورة ولكنه اشترط على بكداش ألا يعقد اجتماعات حزبية ولا ينظم صفوف الحزب ولا يلقي خطابات عامة. وبقي التعاون بين النظام والشيوعيين محدوداً، فلم يتعامل معهم كحزب بل كأفراد لا يمثلون حزباً، واستمرّ النظام في اعتقال وتعذيب الشيوعيين من وقت لآخر، وفي هذا لم يختلف عن الأنظمة السابقة في سورية. كما أن موسكو لم تحصل على امتيازات ملموسة داخل سورية جزاء خدماتها الكثيرة لنظام صلاح جديد. ذلك أن اشتراكية النظام كانت شأنًا داخلياً سورياً لم تترجم لتبعية لروسيا.

وعملت الحكومة على إنهاء عزلة سورية العربية والدولية. فأعلن زعين أن "الدعم السوفياتي هو حاجة ملحة لسورية". وتجاوبت موسكو معتبرة أن حكام سورية الجدد "مصممون على تطبيق الاشتراكية في الصناعة والزراعة"، ودعت زعين لزيارتها. وأثناء هذه الزيارة، وافق السوفيات على بناء سدّ الفرات، كما وافقوا على سلّة مساعدات في قطاعات عدّة، بعضها وُضع على سكة التطبيق السريعة. وتوجت موسكو علاقتها المستجدة مع دمشق بإطلاق تحذير أن الاتحاد السوفياتي لن يسمح لأي قوة خارجية بقلب نظام الحكم في سورية. وهذا الموقف السوفياتي عزز موقع سورية الإقليمي والدولي.

وشجّعت موسكو المصالحة بين مصر وسورية وباتت تعتبر البلدين جزءاً من سياستها في الشرق الأوسط. فأنهى صلاح جديد العداء لعبدالناصر وبدأ سعياً حثيثاً لتحسين العلاقات بدءاً بمعاودة للتبادل التجاري.

وعمل رئيس الوزراء السوفياتي الكسي كوسيجن أثناء زيارته إلى القاهرة في أيار 1966، على إقناع عبدالناصر بمدّ اليد إلى سورية والتعاون مع دمشق كخطوة أولى "لإنشاء جبهة موحدة من الدول العربية التقدمية". فأثمر هذا التوجه عن إعادة العلاقات الدبلوماسية واعتراف مصري بسورية كدولة مستقلة لأول مرة منذ الانفصال عام 1961. وساهمت في ذلك الإعلانات المتلاحقة من البعث الجديد في دمشق عن سياسته العربية الداعية إلى تقارب الدول العربية التقدمية، وأن أولويات البعث هي "النضال لبناء الاشتراكية داخل كل بلد والنضال الثوري ضد الإمبريالية والرجعية في كل المنطقة العربية".

قبل عودة البعث إلى الحكم في العراق عام 1968، كانت سورية منشغلة بالأخطار الداخلية ما جعلها تهمل ليس فقط مسائل الاقتصاد والمجتمع، بل أن تتقاعس عن التحضير للخطر الفعلي الذي كان في مكان آخر: فقد كانت النيران أقرب مما اعتقدت الدولة السورية في جبهة الجولان مع "إسرائيل" في جنوب البلاد عام 1967.

14 | حرب حزيران 1967

كانت "إسرائيل" قد وقّعت عام 1949 على معاهدة هدنة مع سورية في زمن حسني الزعيم والتي لم تكن لصالح سورية بل أوجدت منطقة عازلة بينهما لا يدخلها أحد. فدخلت "إسرائيل" هذه المنطقة وأقامت تحصينات عسكريّة ومراكز شرطة ومنعت الفلسطينيين والسوريين من العودة إلى قراهم فيها وصادرت أراضيهم. ورغم أنّ الحدود الرسميّة بين الانتداب الفرنسيّ والانتداب الإنكليزيّ مرّت في وسط بحيرة طبريا الا أنّ "إسرائيل" وسّعت مساحة أراضي مستوطناتها المزروعة على حساب الحقوق السوريّة وعلى الجانب السوريّ من البحيرة لخلق أمر واقع.

ثم ومنذ 1951 أوقفت "إسرائيل" مشاركتها في اجتماعات الهدنة مع سورية برعاية مراقبي الأمم المتّحدة وشرعت في استغلال المناطق المحتلة لتحوّل مجرى نهر الأردن. حتى أنّ زعماءها صرّحوا علناً أنّ الهدف من تحويل مجرى النهر هو تعزيز قدرات "إسرائيل" لتوطين المزيد من المهاجرين اليهود ما يخلق حقائق ديمغرافيّة على الأرض تمنع عودة الفلسطينيين إلى الأبد. هذا رغم أنّ القوانين الدوليّة تحرّم مثل هذه الأعمال لأنّ نهر الأردن كان نهراً دولياً يقع حوضه بين أربع دول هي سورية ولبنان وفلسطين والأردن. فقد كانت نسبة 77 في المئة من مصادر النهر تنبع في لبنان وسورية (الحاصباني والبايناس واليرموك) في حين كانت نسبة 23 في المئة تنبع في فلسطين. فكانت "إسرائيل" عملياً تسرق النهر لأغراضها دون أي اعتبار لمصالح الدول المجاورة. ووافق هذه الإجراءات مشروع إسرائيليّ لتجفيف مستنقعات الحولة لاستصلاح أراضيها، فقاوم الفلسطينيون محاولة "إسرائيل" ابتلاع أراضيهم في تلك المنطقة، وقمعهم الجيش الإسرائيليّ.

وهنا تقدّمت سورية بشكوى إلى الأمم المتّحدة وطلب مجلس الأمن من "إسرائيل" تجميد نشاطها الاستيطانيّ في تلك المنطقة ريثما يُنظر في الأمر. ثم غصّ المجلس النظر ولم يقدّم أي خطوة لردع "إسرائيل"، فواصلت الأخيرة عملها حتى ابتلعت منطقة الحولة بأكملها.

وفي 2 أيلول 1953، بدأت "إسرائيل" شق قناة عند جسر بنات يعقوب في المنطقة المعزولة السلاح مع سورية. فأصدر مجلس الأمن قراراً يأمر فيه "إسرائيل" بالكف عن عملها لأنّه يهدّد السلم. ثم حاولت أميركا إقناع العرب و"إسرائيل" بالتعاون على توزيع الثروة المائية. فرفضت "إسرائيل" القرار الأممي واعتضت على المشروع الأميركيّ (مشروع جونستون) لأنّه يضيّع عليها فرصة الهيمنة على الجزء الأكبر من مياه الأردن ومصادره، في حين رأت الدول العربيّة أنّ المشروع الأميركيّ ساوم على حقوق الشعب الفلسطينيّ في أرضه ومياهه ولا يحترم حقوق اللاجئين الفلسطينيين الثابت في العودة إلى بيوتهم وقراهم²⁷⁴.

رفضت سورية والأردن المشروع الأميركيّ الا أنّ مصر دعمته رغم أنّها لم تكن معنية به لبعدها الجغرافي. بل كان سبب اهتمامها هو أنّ جزءاً من المشروع يتعلّق بوعد مساعدة مصر مالياً لجبّ مياه النيل لريّ سيناء. وكانت مصر في تلك الأثناء تسيطر على قطاع غزّة. فانتفض سكان غزّة ضد قبول مصر بمشروع جونستون، وقمعهم الجيش المصريّ بقسوة. ثم استعملت القاهرة نفوذها لإقناع الدول العربيّة بقبول مشروع جونستون. وهكذا التقى مندوبو الدول العربيّة بجونستون في حزيران 1954 واتفقوا على خطوات لتنمية حوض الأردن. ولكن "إسرائيل" رفضت مشروع جونستون الذي يحدّ من طموحاتها المائية ويخضعها لرقابة

²⁷⁴ حق العودة أكّده الأمم المتحدة سنوياً منذ 1948 حتى اليوم.

قانونية دولية ويوزع المياه بعدالة على الدول المطلّة على حوض الأردن. فوضعت شروطاً تعجيزية أحدها اعتبار نهر الليطاني جزءاً من حوض الأردن ووجوب أن يدخل في المفاوضات، رغم أنّ الليطاني ينبع ويصب كلياً في لبنان ولا يرتبط بمصادر حوض الأردن. فهُدّد جونستون في مطلع 1955 بأنه سيوقف المفاوضات ويُصدر بياناً يلوم فيه "إسرائيل" على فشل المشروع الأميركي. وفي 17 شباط 1955، أعلن دايفيد بن غوريون، وقد أصبح وزيراً للدفاع (بعدها كان رئيساً للوزراء) أنّ "إسرائيل" لن تدخل شريكاً في أي مشروع لتقاسم المياه مع العرب. وأتبع بن غوريون سياسته المتشدّدة بغارة على قطاع غزّة ضد الجيش المصري وبحملات عسكرية ضد مصر، وهجوم كبير على سورية في كانون الأول 1955. ما قضى عملياً على مهمة جونستون فخلا الجو لـ "إسرائيل".

وليس أنّ اميركا كانت محايدة في موضوع المياه وتسعى للقيام بعمل خيري، بل إنّ وزير خارجيتها جون فوستر دولاس ساهم في إفشال مهمة جونستون وتعزيز موقف "إسرائيل" عندما ربط مشروع التعاون المائي مع موافقة الدول العربية على توطين اللاجئين الفلسطينيين في الدول العربية. ما أثار غضب سورية التي دعت إلى اجتماع عربي حضره رؤساء حكومات سورية ولبنان والأردن في دمشق في تشرين الأول 1955 وقرروا رفض المشروع الأميركي. الا أنّ مصر تدخلت مجدداً وأوحت للجامعة العربية في القاهرة بإهمال ما قرره اجتماع دمشق.

في 1956، نقلت "إسرائيل" موقع قناة تحويل المجري من بنات يعقوب إلى العنق الشمالي لبحيرة طبريا، حيث تلتقي مجاري مصادر الحوض، وبوشر العمل أمام أعين الجيش السوري. وإذ أصبحت سورية الإقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة عام 1957، طالب السوريون من عبدالناصر العمل لوقف الاعتداء الإسرائيلي على نهر الأردن. فكان رأي عبدالناصر أنّه لا يمكن عمل شيء. ووجدت سورية موقف عبدالناصر صعب القبول خاصة أنّ "إسرائيل" سخرت من وحدة مصر وسورية وجعلت من سورية ومنذ بداية 1957 الهدف الرئيسي لاعتداءاتها المتعاطمة. فقد توغّلت "إسرائيل" في المنطقة المنزوعة السلاح واحتلتها، ما أدى ما جرّ عبدالناصر هذه المرة إلى حشد الجيش على الجبهتين السورية والمصرية والتنديد بالدعم الغربي لـ "إسرائيل" وتحذيره باللجوء إلى حظر نفطي عربي.

واستغلّ بن غوريون التحرك المصري، فقام بجولة على العواصم الغربية مدّعياً ضعف "إسرائيل" أمام تهديدات العرب، ساعياً إلى صفقات سلاح جديدة. وشهدت تلك الفترة موجة مزايدات لفظية من بغداد والقاهرة وعمّان حول من يعمل أكثر لقضية فلسطين ومن يبرز رفاقه أكثر في عدائه لـ "إسرائيل". فتلقّفت "إسرائيل" الحرب الكلامية العربية كمادة لإقناع الغرب بضرورة تقديم المزيد من الأسلحة لها طالما أنّ العرب يتنافسون على أذيتها.

وبعد الانفصال عن الجمهورية العربية المتحدة عام 1961، زاد قلق سورية من مضاعفات المشروع الإسرائيلي وطالبت الدول العربية بعمل مشترك لوقفه. إذ في آذار 1962، قامت "إسرائيل" بهجوم كبير على القرى السورية شرق بحيرة طبريا بغية تهجير سكانها ثم شنت غارات جوية على مواقع داخل سورية. واكتفى

مجلس الأمن والولايات المتحدة بانتقاد العمل الإسرائيلي. وفي تلك الأثناء انتهت "إسرائيل" من بناء القناة التي منحت "إسرائيل" نسبة كبيرة من مياه حوض الأردن على حساب الأردن وسورية ولبنان. وإذ لم تتحرك مصر بسبب عداؤها لسورية بشكل خاص، بدأ تحرك سوري - عراقي مشترك عام 1963 بعد وصول البعث إلى السلطة في البلدين. فقد أعلن المؤتمر القومي لحزب البعث "وجوب منع" إسرائيل "من تحقيق مشروعها بالقوة". وضغطت سورية من أجل عمل عربي مشترك، فالتقى قادة الجيوش العربية في دمشق في كانون الأول 1963 بعدما هدأت الأمور مؤقتاً بين عبدالناصر ودمشق للنظر في ما يمكن عمله أمام الخطر الإسرائيلي²⁷⁵.

ولادة القمم العربية

وحدها سورية أصرت على ضرورة ردع "إسرائيل" عسكرياً لوقف مشروعها واسترداد الحقوق، ما أخرج عبدالناصر في أوج حربه الباردة مع السعودية ودول عربية أخرى. فرأى أن يُحوّل الأمر إلى مسؤولية عربية جماعية. ولأجل ذلك دعا إلى إنهاء الخصومات العربية - العربية، داعياً الزعماء العرب إلى التشاور المباشر. فلبى القادة العرب دعوة عبدالناصر لحضور مؤتمر قمة في القاهرة في كانون الثاني 1964، لتوحيد العمل العربي تجاه فلسطين مع الاتفاق الضمني أن العرب غير مستعدين حالياً على خوض حرب غير متكافئة مع "إسرائيل".

وتردّدت سورية في المشاركة في هذا المؤتمر، إلا أنها شاركت كـ "واجب قومي" وسعت مع الجزائر (التي نالت استقلالها من فرنسا عام 1962) إلى موقف عربي لحرب تحرير شعبية في فلسطين. ولكن تجاوب القادة العرب مع اقتراح الجزائر كان فاتراً واثمهم بعضهم سورية بالمغامرة وانتقد مواقفها المتشدّدة تجاه "إسرائيل". فاتجهت القمة نحو مواقف خجولة لمواجهة التحدي الإسرائيلي وسخرت سورية من نتائج القمة، ما أدى إلى تعرية المؤتمر وأثبت فشله. فقد تبين أن هدف القمة كان امتصاص نقمة الشارع العربي وغضبه عبر إيهامه أن عملاً مشتركاً هو قيد التحضير. في حين أن تركيبة القمة وعدم إلزامية قرارات الجامعة العربية تعني أن النتيجة ستكون دائماً عدم عمل شيء. فخرج العرب بمقررات حفظ ماء الوجه: (1) السعي لخلق كيان فلسطيني و(2) إقامة مشروع عربي لتحويل نهر الأردن. واتفق الزعماء العرب أن تشكّل قيادة عربية عسكرية موحّدة لحماية ورشة عمل تحويل المجرى. ولكن بعد القمة طاف بعض وزراء الخارجية العرب في عواصم الغرب وطمانوها أن نيات العرب سلمية وأن مشروعهم المائي محدود الأهداف. ما أبطل وهج القمة التي كان مجرد انعقادها لأول مرة مصدر قلق لـ "إسرائيل" وللغرب.

Fred Khouri, "Friction and conflict on the Israeli - Syrian front", *Middle East Journal*, vol. 17, no. 1-2, winter spring 1963, ²⁷⁵

وكانت الدول الغربية على تواصل شبه يومي مع "إسرائيل"، فنقلت فوراً الموقف العربي الحقيقي بأن العرب خائفون ولا داعي للقلق "إسرائيل". ورغم أن "إسرائيل" قد علمت أن المجهود العربي لن يمنعها عن مواصلة مشروعها، فقد استغلّت حملات العرب الإعلامية ضدها وتظاهر إعلامها أن مقررات القمة العربية هي "عدوان عليها ويستحق ردّاً عسكرياً". فشارك زعماء "إسرائيل" في كورس موحد ضد العرب: فهذّدت غولدا مئير بـ"أن المشروع العربي لتحويل مجرى الأردن يشكّل خطراً وجودياً على "إسرائيل"، وأيدها إيغال الون بوصفه المشروع العربي أنه "عمل عدواني". وضاع الموضوع الأساس للأزمة الناشئة وهو أن "إسرائيل" هي المعتدية لقيامها بتحويل مجرى حوض الأردن وسلب الشعب الفلسطيني من حقوقه المشروعة. واصبح موضوع المشروع العربي المتواضع هو كلّ القصة. وكانت العواصم الغربية تعلم خلفيات الأمور، ولكنها غضّت النظر عمّا تقوم به "إسرائيل" ضد جيرانها العرب. وواصل الغرب مدّ "إسرائيل" بمختلف أنواع الأسلحة المتطورة ليضمن تفوقها العسكري الهجومي.

في تلك الأثناء كان القادة العرب يعملون على تنفيذ قرارات القمة. وعُقد مؤتمر وطني فلسطيني في أيار 1964 نجم عنه تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية وجيش التحرير الفلسطيني. ولكن المؤسستين كانتا أداتين بأيدي الحكام العرب للسيطرة على الفلسطينيين ولجم نفاذ صبرهم. وتأكّد هذا الرأي السلبي عندما عُيّن المحامي أحمد الشقيري المحسوب على مصر والموظف في الجامعة العربية في القاهرة رئيساً للمنظمة. واختيرت غزّة الخاضعة لمصر مركزاً لمنظمة التحرير.

ولكنّ الفلسطينيين الذين خاب أملهم مراراً من عجز العرب عن القيام بشيء فعال ضد "إسرائيل"، اغتنموا الفرصة وامتلطوا ركاب المنظمة الجديدة ليستعملوها في التعبير عن قضيتهم وتقديم مطالبهم. حتى أصبحت هذه المنظمة قوّة سياسيّة بحد ذاتها خلال سنوات.

ومثل العام 1964 نقطة انطلاق ليس فقط لمنظمة التحرير الفلسطينية وجيشها بل لعدد من التنظيمات الفدائيّة الفلسطينية في مخيّمات اللجوء في لبنان وسورية والأردن. فظهر على الساحة ياسر عرفات مؤسس حركة فتح وجورج حبش مؤسس حركة القوميين العرب. وأخذ العمل السياسي الفلسطيني المستقل ينمو على الساحة العربيّة.

ثم انعقد مؤتمر قمة عربيّة ثانٍ في أيلول من العام نفسه في الاسكندرية بعدما أنجزت "إسرائيل" مشروع تحويل نهر الأردن، فيما تأخّر المشروع العربيّ لأنّ الدول العربيّة هابت التهديدات الإسرائيليّة. وقرّرت قمة الاسكندرية بدء العمل في المشروع العربيّ بخطوة مأمونة العواقب هي إنشاء سد على نهر اليرموك يقع كليّاً داخل الأراضي السوريّة فلا تُعطى "إسرائيل" ذريعة لمهاجمة سورية. وإذ دلّت خطوات العرب الخجولة على جبن وخوف، تمادت تهديدات "إسرائيل" على لسان موشيه دايان مثلاً الذي هدّد بالحرب على سورية، كما شعرت دول أوروبا أنّها مهما فعلت لدعم "إسرائيل" فالعرب لن يفعلوا شيئاً. ولذلك أعلنت ألمانيا الغربية إقامة علاقات دبلوماسية مع "إسرائيل". وزاد في شق الصف العربيّ مطالبة الرئيس التونسي حبيب بورقيبة بالتفاوض مع "إسرائيل" لحل سلمي على أساس قرارات مجلس الأمن، متجاهلاً أن "إسرائيل" رفضت كلّ هذه القرارات بدون استثناء منذ 1948. فكان عرضه تنازلاً مجانياً.

أما حول موضوع القيادة العسكرية العربية الموحدة، فقد امتنع الزعماء العرب عن المشاركة في ارسال وحدات من جيوشهم لحماية مشروع المياه في سورية، في حين لم تعلن أي دولة مواجهة لـ"إسرائيل" عن استعدادها لقبول مثل هذه القوة العسكرية على أراضيها. ولم تولد قوة عربية مشتركة في سورية والأردن لحماية المشروع مخافة مشاركة جيش مصري يربط في البلدين ويسمح بتدخل مصر في شؤون سورية والأردن. وإذ قلق الزعماء العرب من تهديدات "إسرائيل" وتسليحها ومن التضامن العربي معها، زادت خيبة الأمل في الشارع العربي وتوصل عبدالناصر إلى النتيجة التي كان يتوقعها: أن العرب سيفشلون دائماً في عمل شيء مشترك لفلسطين. فأعلن في 31 أيار 1965 أن المشروع العربي لنهر الأردن لا يمكن تنفيذه، وأن العرب لن يخوضوا حرباً في المستقبل المنظور.

في تلك الأثناء كان عبدالناصر غارقاً في حرب مكلفة في اليمن دعماً للجمهوريين هناك ضد جهات تدعمها السعودية. فقد أرسلت مصر قوات عسكرية إلى اليمن عام 1962 لدعم الثورة التي أطاحت بالنظام الإمامي. ولكن المواجهة طالت بعدما دعمت السعودية القبائل المؤيدة للإمام البدر بما فيها شحنات أسلحة تولت تسليمها طائرات إسرائيلية²⁷⁶. ووقع عبدالناصر في فخ استنزاف موارد مصر القليلة وإلهائها عن مواجهة "إسرائيل"، في وقت كانت زعامته للعرب مهددة. وأزاء تراكم الخسائر في حرب اليمن يأس عبدالناصر عام 1966 من محاولات إقناع الملك فيصل الكف عن دعم الإماميين وهذده أنه ما لم يكف عن التدخل في اليمن فإن الجيش المصري سيغزو السعودية نفسها. ما أشعل أجراس الخطر في واشنطن التي تعتبر نفسها حامية استقرار السعودية بسبب الثروة النفطية.

وكان عبدالناصر يتقرب طيلة الفترة السابقة من موسكو، ودعا في أيار 1966 ثوار الفيتكونغ في فيتنام إلى فتح مكتب في القاهرة. وكانت هذه الخطوة القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لواشنطن التي كانت تخوض حرباً ضد الشيوعيين في فيتنام وشبه جزيرة الهند - الصينية. ولذلك اعتبرت واشنطن نفسها أنها غير ملزمة بعد اليوم في كبح جماح "إسرائيل" ضد مصر بعدما رأت أن عبدالناصر بات يبادلها العداء وأنه يتبع السوفيات ويثير الشغب (troublemaker)، ويجب تأديبه²⁷⁷. وحاول عبدالناصر رأب الصدع العربي فتفاوض مع السعودية لوقف إطلاق النار في اليمن، ما اعتبرته سورية تنازلاً غير مبرر أمام الرجعية العربية، وهاجم البعث عبدالناصر.

"إسرائيل" تستهدف سورية

عندما بدأت سورية تنفيذ مشروع تحويل نهر البانياس، أغارت عليه طائرات "إسرائيل" في آذار وأيار وآب 1965 ودمرت المنشآت والمعدات. ثم تبين في قمة الدار البيضاء في نهاية 1965 أن القيادة العربية الموحدة بحاجة إلى 250 مليون دولار لشراء أسلحة ومعدات لحماية مشروع التحويل العربي وإلى أربع سنوات

Clive Jones, *Britain and the Yemen Civil War*, and pp. 23-25 from the unpublished, unclassified US government study, on²⁷⁶

Angry Arab Website.

Patrick Seale, *ASAD*, p. 123.²⁷⁷

لاستكمال التحضيرات والتحصينات. ولكن على الأقل خرج العرب بميثاق شرف للتضامن العربيّ يقضي بعدم تدخل الدول العربيّة في شؤون بعضها البعض ووقف الحملات الإعلامية. إلا أنّ غياب أي دعوة لمعالجة الحرب الباردة العربيّة العربيّة عن ميثاق الشرف وعدم خلق آلية لمصالحة الدول العربيّة، كتشكيل لجنة تطوف العواصم وسكرتاريا متابعة، جعله نصّاً سطحياً لا يلامس الواقع. إذ إنّ الهدنة السعوديّة - المصريّة في اليمن انهارت وتجدّد القتال. ثم حشد الملك فيصل الدول العربيّة والإسلاميّة الموالية للغرب تحت "ميثاق إسلامي" حتى لو أضعف الحس العربيّ والجامعة العربيّة، يدعمه الملك حسين، لمواجهة عبدالناصر والدول التقدميّة العربيّة. فشنّ عبدالناصر هجوماً على الميثاق الإسلاميّ بأنّه "حلف بغداد جديد". وتردّد صدى موقف عبدالناصر ضد الرجعيّة العربيّة في دمشق الثوريّة، حيث استنكر قادة سورية البعثيون ميثاق الشرف العربيّ "لأنّه وضع التقدميين والرجعيين في خندق واحد"، ونادت سورية على "الدول العربيّة التقدميّة وفي مقدمتها مصر أن تقف في جبهة واحدة ضد الاستعمار والرجعيّة". وأيدت موسكو المنحى السوريّ.

ولكن كانت سورية تشكّ بطبيعتها في نيّات عبدالناصر تجاهها بعد تراكم الأحداث منذ الانفصال والتي سعى فيها عبدالناصر إلى قلب الحكومة السوريّة. كما استنتج النظام الثوريّ في دمشق أنّ عبدالناصر رغم نيّاته الحسنة فهو يتبع سياسة انهزامية في قضية فلسطين ويعتبر أيّ تصدّ بمثابة مغامرة ومخاطرة. وأنّه خلق منظمة التحرير كغطاء لهذه السياسة: أم يحاول عبدالناصر منذ وصوله إلى السلطة عام 1952 أن يُبقي على سياسة حميمة مع واشنطن؟ أم يحتفظ بمسافة آمنة من أي صراع محتمل مع "إسرائيل"؟ أم يقف متفرّجاً على انشغال سورية اليوميّ بالمواجهات مع "إسرائيل"؟ ورغم ذلك كان رأي القيادة السوريّة أنّه لا بد من التعاون مع مصر في وجه "إسرائيل" وأي تحليل استراتيجي سيجد أن أمن سورية من أمن مصر. فسعت إلى إقناع عبد الناصر بالتخلي عن سياسة القمم واستبدالها بقمّة تقتصر على الدول التقدميّة. واستجاب عبدالناصر في تموز 1966 فأنهى سياسة القمم العربيّة واقترب أكثر من الخط السوريّ - السوفيّاتيّ.

وإذ لم تثمر مساعي السعوديّة في إنشاء محور "ميثاق إسلامي"، فشل عبدالناصر وسورية أيضاً في إقامة "جبهة عربيّة تقدّمية" من دول تشبه مصر وسورية. بل أدّت هذه المساعي إلى انقسام العرب إلى معسكرين معادين، الأول ثوريّ بزعامة عبدالناصر والثاني موالٍ للغرب ينزعمه الملك فيصل²⁷⁸. وركّز المحور الثاني هجموه بشكل خاص على شخص عبدالناصر لإلحاق الضرر بسمعته العربيّة بأنّه لا يفعل شيئاً للقضية الفلسطينيّة، وعُرفت الحملة في حينها بـ"سياسة المزایدات". إذ إنّ المحور المحافظ لم يكن ناشطاً في عدائه لـ"إسرائيل" ولا في نصرّة فلسطين، بل دأب على دفع دول المواجهة العربيّة إلى حرب مع "إسرائيل" يعرف سلفاً أنّها فاشلة وأنّ "إسرائيل" ستربح دون أن يساهم في أي مجهود حربيّ.

²⁷⁸ رسالة للملك فيصل إلى الرئيس الأميركي ليندون جونسون، تحمل تاريخ 27 كانون الأول 1966، رقم وثيقة 342 من وثائق مجلس الوزراء السعودي تكشف حجم الهوة التي فصلت السعوديّة عن مصر، وفيها يطلب الملك السعودي من الرئيس الأميركي ومن "إسرائيل" ضرب مصر وسورية. كما جاء في هذه الرسالة: إنّ مصر هي العدو الأكبر لنا جميعاً، وأقترح أن تقوم أميركا بدعم "إسرائيل" بهجوم خاطف على مصر، تستولي به على أهم الأماكن الحيويّة فيها، لتضطرها بذلك، لا إلى سحب جيشها صاغرة من اليمن فقط، بل لإشغال مصر بـ"إسرائيل" عنّا مدة طويلة". كما طالبت الرسالة بضرب سورية: "إن سورية هي الثانية التي يجب ألا تسلم من هذا الهجوم، مع اقتطاع جزء من أراضيها، كيلا تفرّغ هي الأخرى، فتندفع لسد الفراغ بعد سقوط مصر". (جمال حمدان، عقود من الغيبات، بيروت، دار بيسان، 1995، ص.ص. 489 - 491).

ورغم ضعف العرب وانشقاقهم، لم تكف "إسرائيل" عن قرع طبول الحرب، لأنّ استراتيجيتها العسكريين رأوا أنّ حربيّ 1948 و1956 لم تحقّقا كلّ أهداف "إسرائيل" التوسعية. فقد سعت "إسرائيل" وفشلت عام 1948 في السيطرة على كامل فلسطين. وأعلن بن غوريون أثناء العدوان الثلاثيّ على مصر عام 1956 عزم "إسرائيل" على البقاء في غزّة وشبه جزيرة سيناء وخاصة في شرم الشيخ. ثم أجبره الموقف الأميركيّ على الانسحاب. ولذلك دأب قادة "إسرائيل" على خلق حجج وتحيين فرص لشنّ حروب جديدة وسلخ أراضٍ جديدة من الدول العربيّة المجاورة. ثم وجدت "إسرائيل" في ولادة حركات مقاومة فلسطينيّة جديدة حجّة جديدة للعدوان. وكانت حركة فتح والجهبة الشعبيّة لتحرير فلسطين أولى تلك الحركات. فقد جمع جورج حبش العناصر الفلسطينيّة من حركة القوميّين العرب في منظمة جديدة هي الجهة الشعبيّة لتحرير فلسطين التي نفّذت أول عمليّة داخل "إسرائيل" في تشرين الأول 1964. أمّا حركة فتح فقد وُلدت في مخيّمات اللاجئين وفي أوساط الطلاب في قطاع غزّة عشية حرب 1956، كحركة احتجاج وعصيان، الّا أنّ انتقالها إلى العمل الفدائيّ ضد "إسرائيل" انتظر عشر سنوات ليبدأ في أول كانون الثاني 1965. وكانت الجزائر أول دولة عربيّة تعترف بحركة فتح وتمّدها بالسلاح. ورغم أنّ العمليّات الفدائيّة كانت صغيرة ومحدودة النتائج الا أنّها شكّلت تحديّاً معنويّاً لـ "إسرائيل" التي لطالما نفت وجود شعب فلسطينيّ وتباهت بتفوقها الأسطوريّ على الدول العربيّة. ولذلك فهي تجاوزت هويّة أبطال العمليّات الفلسطينيّة واهتمت الدول العربيّة مباشرة، وسورية خاصة، بأنّها وراءها.

وباستثناء سورية التي أطلقت يدًا حرّة للمقاومة الفلسطينيّة الوليدة وأذاعت بياناتها العسكريّة على راديو دمشق ووفّرت لها المال والسلاح، كانت دول المواجهة الأخرى، الأردن ولبنان ومصر، تقمع النشاط الفدائيّ على أراضيها وتوقف وتسجن أي عناصر فلسطينيّة مسلّحة، فيما وصل تشدّد الأردن إلى حدّ إعدام هؤلاء العناصر. ولكن كانت المفارقة أيضاً أنّ سورية منعت انطلاق العمليّات مباشرة من أراضيها. فكان الفلسطينيون يتسلّلون إلى الأراضي الفلسطينيّة المحتلة عبر الحدود اللبنانيّة والأردنيّة.

اشتدّت العين الإسرائيليّة الحمراء على سورية للغتها الراديكاليّة تجاه "إسرائيل" وإعلان سورية أنّها لن تمنع الفدائيّين من ممارسة حقهم في تحرير أرضهم ولن تكون "حرس حدود" لحماية "إسرائيل". وخاصة بعد صعود البعث الجديد في دمشق في شباط 1966 بزعامة جيل شاب لا يشوبه تردّد وتخاذل القيادات السابقة التي خاضت تجربة مريّة فاشلة مع "إسرائيل". لقد دعت دولة البعث في دمشق الفلسطينيّين إلى "حرب تحرير شعبيّة" ودعت الجماهير العربيّة إلى تخليص "الوطن العربيّ من الرجعيّة والاستعمار". واتخذت سورية صفة رائدة في القضية الفلسطينيّة أنّها قضيتها هي أولاً، أكان في دعم المقاومة بشتّى الوسائل أو بالحملة الإعلاميّة المناهضة لـ "إسرائيل" بدون هوادة. وحدّدت وثيقة أساسيّة لحزب البعث عام 1965 دعم النضال الفلسطينيّ حتى تحرير فلسطين وعودة الشعب العربيّ الفلسطينيّ إلى أرضه، ولو أدّى ذلك إلى دمار سورية. ولم يكتف الحزب بذلك بل أكّد أنّ أولوية تحرير فلسطين تعلو على أي أولوية أخرى وأنّ دعوات التركيز على الإصلاح والتنمية الاقتصاديّة داخل سورية هي مراوغة وغير منطقية وجبّانة، لأنّها تؤجل التحرير إلى مستقبل غير محدّد. إذ ما نفع المشاريع إذا سقطت البلاد تحت الاحتلال؟

أفادت السياسة السوريّة الفلسطينيّين كثيراً. ذلك أنّ دعوة سورية إلى حرب شعبيّة ومساعدتها للمقاومة قد نجحت في إيقاظ شعور وطني فلسطيني ضد الطبيعة الكولونيالية لـ"إسرائيل" وفتح أعين الرأي العام العالمي على قضية شعب تحت الاحتلال. وهذا ما كان باستطاعة سورية فعله في غياب التضامن العربي. فلا هي قادرة على خوض حرب غير متكافئة مع "إسرائيل" ولا على تمويل وتسليح حرب داخل فلسطين يحتاج نجاحها سنوات طويلة، ما قد يجلب الخراب على سورية في الوقت نفسه.

كانت المصيبة أنّ "إسرائيل" فشرت التطرف السوريّ أنّه تحرّش من يسعى إلى مواجهة عسكريّة. وحتى عندما اقتربت حرب حزيران 1967، استمرّت لغة المزایدات والتهويل من دمشق، فتحدّى رئيس الجمهوريّة نورالدين الأتاسي أميركا في 7 نيسان 1967 قائلاً: "سنجعل من الأسطول السادس طعاماً للأسماك". وفيما كان عبدالناصر يؤكّد حتى نهاية أيار 1967 أنّه "لا يمكننا الدخول في معركة مع "إسرائيل" قبل عشر سنوات"، كان ردايو دمشق يدعو إلى "حرب تحرير شعبيّة" وأنّ "دمشق ليست أقلّ بطولة من هانوي". وكان من مؤيدي هذا المنطق في ذلك الوقت مصطفى طلاس، إذ أعلن في حمص أمام ثلاثة آلاف شخص أنّ الفرصة مناسبة لتحديّ "إسرائيل" لأنّها غير مستعدة للقتال، وكان ذلك في بداية حزيران 1967.

لغة دمشق التصعيدية هي بالضبط ما استعمله غلاة التوسّع الجغرافيّ في "إسرائيل" كحجّة للانقضاض على سورية وقضم ما أمكن من أراضيها. كما أنّ الولايات المتّحدة وأوروبا الغربيّة رأّت في التطرف الكلامي السوريّ بعد انقلاب شباط 1966 ومواقف دمشق الراديكاليّة ضد الإمبرياليّة وضد الأنظمة الموالية للغرب في المنطقة، إضافة إلى تقربها المقلق من موسكو، إشارات إلى درجة العداء السوريّ للغرب. فتوجّهت الدول الغربيّة نحو تفهم وقبول ما يمكن أن ترتكبه "إسرائيل" ضد سورية.

ولم تمض أسابيع على الانقلاب السوريّ، حتى باشرت "إسرائيل" في نيسان 1966 حملة منظّمة من التهديدات شبه اليومية ضد دمشق، وهاجمت مسعى سورية لبناء سدّ البانياس رغم أنّ هذا السدّ لا يؤثّر على ما تريده "إسرائيل" لنفسها من مياه حوض الأردن، واتهمت سورية بأنّها وراء العمل الفدائيّ المستجدّ. ثمّ شنّت "إسرائيل" سلسلة غارات وعمليات عسكريّة، بدءاً بغارة كبيرة يوم 14 تموز على منشآت البانياس وتحرّشات على الجبهة جنوباً تحوّلت مواجهة عنيفة في آب 1966.

ومنذ صيف 1966، أعلنت "إسرائيل" أنّها من الآن فصاعداً ستخترق الأجواء السوريّة ساعة تشاء، كما صرح رئيس وزراء "إسرائيل" ليفي إشكول، إسوة بسياسة "تعقّب العدو" التي طبّقتها أميركا في حرب فيتنام (لقد ردت سورية هذه الاستباحة منذ حرب تشرين 1973 ولكن "إسرائيل" ما زالت تستبيح سماء لبنان حتى كتابة هذه السطور).

الأردن يعاون "إسرائيل"

وكأنّ العمل الإسرائيليّ لم يكن كافياً، فقد سعى الملك حسين من ناحيته للتخريب على الحكومة السوريّة بغية إسقاطها. فبعد معركة طبريا بين سورية و"إسرائيل" في آب 1966، دعم الحسين حركة سليم حاطوم

للقيام بمحاولة انقلابية في سورية وحشد جيشه على الحدود السورية. في حين بدأت إذاعة جديدة باسم "صوت سورية الحرة" تبث من عمان لشحن نفوس السوريين وحثهم على قلب النظام. واختار إسحاق رابين هذا الخلاف بين الأردن وسورية بالذات ليعلن أن "المعارك التي تخوضها" إسرائيل "ضد سورية هي لإسقاط النظام". وهدد إشكول بأنه سيحمل سورية مسؤولية أي عمل تخريبي أو تسلل للإرهابيين إلى "إسرائيل" بصرف النظر عن البلد الذي أتوا منه. ودخل الملك حسين في جوقة التهديدات بأنه "سيستعمل القوة ضد سورية في حال ظهور مؤشر لتدخل سوفيائيّ فيها".

وهكذا خلال صيف وخريف 1966، تواصل العدوان الإسرائيليّ على سورية ولم يحرك مجلس الأمن الدوليّ ساكناً. فلم يكن أمام سورية سوى الإسراع بتوقيع معاهدة دفاع مشترك مع مصر في 7 تشرين الثاني 1966. وأمل عبدالناصر أنه من خلال المعاهدة التي توّحد موقف البلدين من "إسرائيل" سيكبح حماس الحكومة السورية ويضع حداً لتهوّر قادتها. وتبادلت مصر وسورية السفراء لأول مرة منذ الانفصال عام 1961 واتفقتا على قيادة عسكريّة موحّدة. ولكن شكوك عبدالناصر استمرت في أن دمشق ستجرّبه إلى حرب وتودّ أن تراه مهزوماً أمام "إسرائيل". كما لم يتغيّر موقف القيادة السوريّة من عبدالناصر بأنه لا يزال يسعى لقلب حكومتها.

ولعلّ حكمة عبدالناصر قد أفلحت مع حكومة دمشق، أو أن "إسرائيل" فضّلت التريث المؤقت ضد سورية. فقد هدأ وضع الجولان وانخفضت الهجمات الفدائية على "إسرائيل" بشكل ملحوظ بعد التقارب السوريّ المصريّ. فاغتنم أعداء سورية الداخليّون، لا سيّما الإخوان المسلمون الفرصة لاتهام حكومة دمشق بالتخاذل وبحجب الدعم عن المقاومة الفلسطينيّة استجابة لضغط السوفيّات الملحدّين ولعبدالناصر عدو الإخوان. وسخروا من شعار "حرب التحرير الشعبيّة" التي رفعتها سورية.

"إسرائيل" تستعدّ للحرب

لم يكن ليفي أشكول، رئيس حكومة "إسرائيل"، يريد إشعال حرب عام 1967، خاصة أنه يعرف أن العرب لن يشكّلوا أي خطر قبل 1970 على الأقل. ولكن القادة العسكريّين والصقور في "إسرائيل" سعوا إلى الحرب وتحرّشوا بسورية والأردن كلما سنحت الفرصة وفي ذهنهم الانقضاض على مصر، لأنّ عبدالناصر حوّل العدوان الثلاثيّ عام 1956 إلى نصير عربيّ وبات يجسد استقلال العرب ووحدتهم. ولذلك وجب تلقينه درساً. واصلت "إسرائيل" سياسة التحرّش بسورية، فأعلنت في أول نيسان 1967 أنها ستستغلّ كل أراضي المنطقة المنزوعة السلاح بين الطرفين وستقوم بزراعتها وبناء مستوطنات. وفي 7 نيسان أرسلت جراراً مدرّعاً لحراثة بقعة من الأرض في تلك المنطقة، مقتنعة أنّ سورية لن تقبل هذا التحرّش. وعندما أطلق السوريّون النار على الجرار، عمّ الفرع الجانب الإسرائيليّ الذي اغتنم الفرصة وفتح النيران على كامل خطوط الجبهة واستعمل أسلحة المدفعية والطيران ضد القرى والمنشآت السوريّة. وإذ وصلت طائرات سورية أجواء المعركة، أسقطت

“إسرائيل” ست طائرات ميغ دفعة واحدة. فأثبتت “إسرائيل” تفوقها وأخرجت عبدالناصر الذي لم يقم بشيء لنجدة أشقائه السوريين.

أيقظ هذا الحادث سورية على حجم التحدي الإسرائيلي وضعف إمكانياتها، فأعلنت الاستنفار العام. ولكن في ذلك الوقت لم يزد حجم الجيش السوري عن 50 ألف جندي بتدريب وتجهيز غير كافيين وفئة ضباط ضئيلة جراء سنين من التطهير السياسي. وكان بحوزة سورية 500 دبابة سوفياتية الصنع وضعيفة الأداء، نصفها لا يعمل، و100 طائرة من طراز ميغ 17. كما كانت سورية تفتقر إلى غطاء صواريخ أرض جو وبدون سلاح بحرية²⁷⁹. كما أن عدداً من كبار الضباط تصرف من عندياته فأدى تعدد الرؤوس إلى صدور أوامر من هنا وهناك بدون استراتيجية عسكرية موحدة.

عندما تأكدت القيادة السورية من وقوع الحرب في مطلع حزيران، أبلغ رئيس الوزراء يوسف زعين رئيس الأركان أحمد سويداني بتحضير الجبهة وإبلاغ ضباطها. ولكن عندما عقد سويداني اجتماعاً على الجبهة سألته العقيد ميشال خوري: "كيف سنحارب بدون صف ضباط؟ ليس عندنا ما يكفي من الضباط لإدارة المعركة". أجاب سويداني: "رقي ما عندكم من تلامذة ضباط"²⁸⁰.

على خلفية الوضع المزري للجيش السوري، كانت “إسرائيل” مجهزة بأحدث الأسلحة والمعدات، بمدركات وسلاح دبابات يجتاز مسافات طويلة بسرعة، وقوى مجوقلة وأسطول طائرات حربية فرنسية وهليكوبتر للإنزال خلف الخطوط السورية. وقد بنت “إسرائيل” نظاماً عسكرياً سمح باستدعاء نصف مليون جندي على عجل ونقلهم خلال ساعة إلى الجولان وخلال ثلاث ساعات إلى سيناء. إضافة إلى هذه القوة، كانت “إسرائيل” قد حضرت لاستراتيجية شاملة هي إشعال الحرب مع العرب كل بضع سنوات لهدفين: الأول هو التوسع الدائم على الأرض، والثاني هو إبقاء جيرانها منقسمين ومنهكين وضعفاء.

وبعكس سورية، كان على رأس الجيش الإسرائيلي عدد كبير من الضباط الكفوئين وأصحاب تجربة طويلة في القتال بعضها يعود إلى الحرب العالمية الثانية، كرئيس الأركان إسحاق رابين ونائبه حاييم بارليف وقائد العمليات عازر وايزمن وقائد سلاح الجو موردخاي هود. كما كان في مراكز عليا في الدولة الجنرال موشيه دايان، ورئيس المخابرات العسكرية آهارون ياريف ورئيس الموساد مئير عميت.

وإذ عانت سورية مدة عشرين عاماً من الفوضى والانقلابات والتهديد من كل صوب، كانت “إسرائيل” منذ قيامها عام 1948 مستقرة تزداد قوة وشأناً كل عام وتبني علاقات مع الدول المهمة في العالم. لقد رسخ شمعون بيريز علاقات مميزة مع شارل ديغول رئيس فرنسا طيلة فترة الخمسينيات وأوائل الستينيات، حصلت بموجبها “إسرائيل” على أسلحة ومعدات فرنسية متفوقة تكنولوجياً. واشتغل بعد ذلك إسحاق رابين على تطوير علاقات أكثر عمقاً مع الولايات المتحدة منذ نهاية الستينيات، التي كانت أباً معطاءً وكرماً لدولة قائمة على العدوان والتوسع. أما سورية فقد حصلت بصعوبة على أسلحة روسية غير متطورة وبقيت علاقاتها مع موسكو مضطربة.

Patrick Seale, ASAD, p. 117.²⁷⁹

Patrick Seale, ASAD, p. 137.²⁸⁰

هكذا كان الوضع عندما تسلّم حافظ الأسد منصب وزارة الدفاع في شباط 1966، فكانت متابعة الجبهة مع "إسرائيل" همّاً يومياً له، حيث تواصلت المواجهات والقصف المتبادل طيلة ما تبقى من 1966 والأشهر الأولى من 1967. واكتشفت سورية بألم كبير أنّ اللجوء إلى مجلس الأمن والتوسّل إلى الدول الكبرى لا يؤدّيان إلى نتيجة ولا يمنعان العدوان. كما استغلّ أحصام النظام الداخليّون الضعف السوريّ في معركة نيسان 1967 مع "إسرائيل"، فقويت لهجتهم ضد النظام واشتعلت الحملة من إذاعات عدّة موجّهة من الأردن. فوَقعت أحداث شغب داخلية تمكّنت الحكومة من ضبطها بصعوبة.

ولم تتوقّف "إسرائيل" عن التحرّش أثناء أزمة سورية الداخليّة، بل عمدت منذ الأسبوع الأخير من نيسان إلى حشد دباباتها ومدرّعاتها ومدفّعيّتها بشكل كثيف على جبهة الجولان. وإذ تواصل الحشد الإسرائيليّ في أيار، حدّر المراقبون الدوليّون من أنّ الحشود الإسرائيليّة قد خرقت نقاطاً عدّة في المنطقة العازلة وأنّ ما تقوم به "إسرائيل" لم يعد مناورات بل هو تحرّش لبدء حرب. ووصلت هذه التقارير الحكومة السوريّة التي أخذتها على محمل الجد وأوددت مندوبين إلى القاهرة في 8 أيار لتحذير عبدالناصر أنّ "إسرائيل" قد تبدأ حرباً على الجبهة السوريّة. ورافقت الحشود الإسرائيليّة تهديدات غير مسبوقّة ضد سورية على لسان إشكول وقائد الجيش اسحاق رابين وغيرهما من قادة "إسرائيل". كما صرّح ناطق عسكريّ إسرائيليّ في 12 أيار أنّ "جيش الدفاع سيحتلّ دمشق". وهذد اشكول في 13 أيار أنّ "إسرائيل" ستلقن سورية درساً قاسياً. وحدّر رابين في 14 أيار أنّه إذ لم تتمّ إزاحة أولئك "الثوريّين الهائجين في دمشق، فإنّ أحداً لن يشعر بالأمان في الشرق الأوسط". وكان عسكريّو "إسرائيل" مع ضباط سابقين في الجيش الإسرائيليّ قد أقاموا حلفاً سياسياً باسم "رافي" يلتقي على ضمان التفوّق الإسرائيليّ وألويّة سياسة التوسّع والحرب الاستباقية. وكان أبرز أعضاء "حلف رافي" رابين ودايان وحاييم هرتسوغ واسحاق نافون وشمعون بيريز. واعتبروا أنّ أيّ تحرّك مصريّ لصالح سورية سيكون فرصة تاريخية لشن حربٍ على مصر وابتلاع أراضٍ كبيرة.

ورغم أنّ رئيس الحكومة اشكول كان مدنيّاً إلا أنّه كان محاطاً بدايان رئيس الأركان وشمعون بيريز مدير عام وزارة الدفاع. فقامت جماعة رافي بانقلاب تسلّلي على اشكول، بدأ بالضغط عليه أثناء اجتماعه بمجموعة من كبار الضباط وعلى رأسهم عازر وايزمان وآهارون ياريف يوم 28 أيار 1967. وفي اليوم التالي نزع وايزمان رتبته العسكريّة ووضعها أمام اشكول مهدداً أنّ "التاريخ اليهوديّ لن يسامح اشكول إذا لم يصدر أمراً بالذهاب إلى الحرب". حتى رضخ اشكول أخيراً للضغوط اليومية وقبّل الحرب شرط الحصول على ضوء أخضر أميركيّ. ثم شكّل حكومة ائتلافية تسلّم فيها دايان حقيبة الدفاع. أمّا التنازل الأكبر الذي قدّمه اشكول فكان إعطائه حقيبة لليمين المتطرّف الذي مثله مناحيم بيغن زعيم منظمة حيروت.

كانت منظمة حيروت عصابة إرهابية مارست اغتيلات ضد الإنكليز وارتكبت مجازر ضد المدنيّين الفلسطينيّين وبنّت عقيدتها على أفكار جابوتنسكي الذي رأى أنّ قيام دولة "إسرائيل" يجب أن يحقق أهدافاً أكبر من أهداف الحركة الصهيونيّة. فالحركة التوراتية يجب أن تخلق دولة كبرى ليس فقط على ضفتي نهر الأردن، عاصمتها القدس كاملة وشاملة كامل فلسطين، بل أراضي من الدول المجاورة، وأن تفرض مشيئتها على جيرانها العرب.

لم تكن الجبهة المصريّة بأفضل حال من سورية. إذ إنّ عبدالناصر كان يعاني من عداء غربي سافر له ومن تحدّ في العالم العربيّ تمثّل بدولتين كبيرتين للبعث في سورية والعراق وبالأنظمة المحافظة كالسعودية، وبحركات يساريّة تحداه بالكلام الثوريّ الكبير، كحركة القوميّين العرب التي انقلبت عليه، والتنظيمات الفلسطينيّة المسلّحة واليسار اللبنانيّ. إذ إنّ الشارع العربيّ كان يتوقّع أنه لا يكفي أن تتصدّى مصر لـ"إسرائيل"، بل يجب على مصر أن تخوض ضدّ "إسرائيل" معركة عربيّة فاصلة حان موعدها. فكان حمل عبدالناصر الثقيل أن يثبت لكل هؤلاء أنّه فعلاً زعيم العرب وبطل فلسطين، وأن يسعى في الوقت عينه إلى ضبط جماهم. وكما رأينا فإنّ سياسة عبدالناصر في المراوغة نفعت بين 1963 و1966، ولكنها فشلت عام 1967. إذ خرجت جهات شعبيّة ودول عربيّة تقول إنّ عبدالناصر لم يضع خطة لتحديّ "إسرائيل" وإنّه لن يفعلها، وصولاً إلى مهاجمته شخصياً بأنّه مجرد دكتاتور عربيّ وعميل أمريكيّ. فكان تخليّ حركة القوميّين العرب عنه ضربة كبيرة لمعنوياته، بعدما كانت التنظيم الوحيد المنتشر في الدول العربيّة الذي يرفع لواء الناصريّة. إذ بعدما كان قادة حركة القوميّين العرب يعلنون استعدادهم للموت من أجل عبدالناصر وسيتبعونه حتى لو أخذهم إلى آخر الدنيا، باتوا يرفضون زعامته ويتجهون إلى أقصى اليسار والماركسيّة²⁸¹. كما أنّ عدم نجدة عبدالناصر لسورية في الهجوم الإسرائيليّ يوم 7 نيسان 1967، استغلته السعودية لتسخر منه إذاعاتها بأنّه لم ولن يضرب "إسرائيل" وأنّ "أي عربيّ ينتظر من مصر أنّها سترفع إصبعاً في وجه "إسرائيل" دفاعاً عن سورية سيتنظر طويلاً"، حسب نشرة أخبار إذاعة جدّة²⁸².

كانت خطة "إسرائيل" التصعيدية ضد سورية مرسومة لإجبار عبدالناصر على التدخل. فقد وصلت الزعيم المصريّ معلومات سوفيّاتية وسوريّة وتقارير المباحث المصريّة أنّ هجوماً إسرائيلياً شاملاً على سورية بات وشيكاً. وكانت استراتيجيّة عبدالناصر تقضي أنّ مصلحة مصر هي في دعم سورية. لأنّ هزيمة سورية تعني أنّ "إسرائيل" ستنفرد بمصر وتقضي عليها. وأنّ سقوط سورية سيلحق أذىً بليغاً ليس فقط بمعنويات العرب بل بالأمن القوميّ العربيّ وبالقوميّة العربيّة وبحركة التحرّر بأكملها. ولقد رأى محمد حسنين هيكل، مستشار عبدالناصر في تلك الفترة، بأنّ "مصر وإن لم يعجبها نظام سورية، فحقيقة الأمر أنّ تحالف مصر وسورية ضد "إسرائيل" هو استراتيجيّة مصر الطبيعيّة"²⁸³، وأنّ على مصر أن تأخذ المسألة بيدها حتى لا يوصل الخوف سورية إلى ردّات فعل لا تُحمد عقباه تجاه "إسرائيل".

في هذه الأجواء المشحونة، وبعد تهديد رابين في 14 أيّار 1967، استجابت مصر لنداء الاستغاثة السوريّة وأمر عبدالناصر بنقل وحدات عسكريّة إلى سيناء لتخفيف الضغط على الجولان. ومنذ تلك اللحظة أصبحت سورية استعراضاً جانبياً لـ"إسرائيل" التي فركت يديها بحماس بعد تحرك عبدالناصر. إذ رأت في سيناء الغنيمة الأكبر. وسرى نبا التحرك المصريّ كالكهرباء في السلك في الدول العربيّة، وخاصة في الشارع الذي التهب حماساً لخطوة عبدالناصر الذي بنظره قرّر أخيراً أن يضع حدّاً لـ"إسرائيل". أما "إسرائيل" فقد سرّت بالخطوة المصريّة الباهتة لأنّ حجم القوات التي أرسلها عبدالناصر إلى سيناء لم يكن كافياً لشنّ هجوم، بل حتى أنّها خطوة لا

²⁸¹ أنظر تفاصيل حركة القوميّين العرب في كتاب فؤاد مطر، حكيم الثورة جورج حبش، بيروت، دار النهار، 2009.

²⁸² Patrick Seale, ASAD, p. 129.

²⁸³ Robert Stephens, Nasser, London, Penguin Books, 1971, p. 506.

تكفي لتأخذها "إسرائيل" ذريعة للعدوان. ولكن عبدالناصر ألحقها بخطوات إضافية. فطلب يومي 16 و18 أيار إلى الأمم المتحدة سحب قواتها من سيناء. وفي 21 أيار اتخذ الجيش المصري مواقع في شرم الشيخ وأعلن عبدالناصر في اليوم التالي إقفال مضائق تيران التي تفصل خليج العقبة عن البحر الأحمر أمام الملاحة الإسرائيلية ومرفأ إيلات. ولم يكن إغلاق مضائق تيران يؤذي "إسرائيل" اقتصادياً باعتبار أنها لم تكن تشحن عبرها أكثر من 5 في المئة من تجارتها الخارجية. ولكنها اعتبرت ذلك بمثابة إعلان حرب. فجعلت إغلاق المضائق حجتها الرئيسية للحرب. وهكذا أصبحت احتمالات حرب مصرية - إسرائيلية هي الخبر الرئيس في الصحف العالمية وغابت سورية تقريباً عن الواجهة.

نعم لقد استعاد عبدالناصر شعبيته الكاسحة التي افتقدها منذ 1961 في العالم العربي، وبات ملايين البشر يصدقون باسم جمال البطل القومي العربي. ولكن عبدالناصر طمأن يوثانت أمين عام الأمم المتحدة الذي هرع إلى القاهرة يوم 23 أيار أن مصر لا تريد الحرب، وكذلك أبلغ الموقف نفسه إلى كل من واشنطن وموسكو. وكزره يوم 26 أيار، مضيفاً أن الجيش المصري يتخذ مواقع دفاعية وحسب، حتى أنه وافق يوم 31 أيار على إرسال نائبه زكريا محيي الدين إلى واشنطن للتوصل إلى مخرج سلمي وإعادة فتح مضائق تيران أمام "إسرائيل".

الأردن ينقلب

حماس الشارع العربي وارتفاع أسهم عبدالناصر دفعا الملك حسين لأن يطير إلى القاهرة يوم 30 أيار لعقد مصالحة مثيرة بسرعتها وعفويتها، وازعاً الجيش الأردني تحت أمرة القيادة المصرية. ولكن سورية رفضت مدّ اليد للملك الذي اعتبرته عميلاً أميركياً.

وكان الملك حسين يشعر أن مملكته على وشك الانهيار بسبب الهجمات الإسرائيلية المتكررة ضد الأردن ونيّاتها لابتلاع الضفة وما أمكنها من أراضي غور الأردن، وترك ما تبقى من المملكة لإقامة دولة فلسطينية شرق النهر.

وأكد مخاوف حسين هجوم إسرائيلي كبير على قرية سموع في 13 تشرين الثاني 1966، رغم أن جيشه دأب منذ 1965 على قمع الفلسطينيين ووقف العمليات الفدائية، ورغم أنه هو شخصياً التقى شخصيات إسرائيلية مراراً للوصول إلى تفاهات ضمنية ما شوّه سمعته في الشارع العربي. وكان حسين ينتقد موقف مصر وأن عبدالناصر "يختبئ وراء قوة الأمم المتحدة في سيناء" في حين كان الأردن يتعرّض للغارات شبه اليومية. ولكن عندما حصل التقارب السوري - المصري قلق حسين لأن وقوع حرب عربية إسرائيلية قد يعني خسارة الضفة ووقوع انقلاب في عمان ينهي نظامه الهاشمي. خاصة أن الشارع الأردني كان يغلي بطبول الحرب، تشعل مشاعره دعاوى التنظيمات الفلسطينية النشطة في الأردن. فحزم الملك أمره ووقع المعاهدة نفسها مع مصر التي وقعتها سورية ليضمن عرشه ويتضامن مع أشقائه العرب، وإن كان يعلم أن "إسرائيل" تفوقهم قوة مجتمعين. وكان يأمل أن "إسرائيل" ستكون عاقلة وتراجع عن الحرب عندما ترى وحدة الصف العربي. ولكن

الدول الثلاث - مصر وسورية والأردن - وإن وقّعت على قيادة عسكريّة مشتركة، فهي لم تحضّر أي خطّة عسكريّة في حال اشتعال الحرب. بل كانت ستدير الحرب لو اندلعت كيفما اتفق.

وهكذا في مطلع حزيران كان عبدالناصر محضناً خلف وحدة الجيوش العربيّة الثلاثة - مصر وسورية والأردن - ومرتاحاً إلى طمأنة قائد الجيش المصريّ المشير عبدالحكيم عامر إلى أنّ مصر وحدها كفيلة بردع أي عمل تقوم به "إسرائيل". ولكن المخابرات الفرنسيّة كانت على إدراك تام أنّ "إسرائيل"، بفضل التسليح الفرنسيّ، قد بلغت حدّاً من القوّة لن تقدر على مواجهته كلّ الدول العربيّة مجتمعة وليس فقط مصر وسورية والأردن. وانعكست هذه المعلومات الاستخباريّة على موقف ديغول من "إسرائيل". إذ أثناء جولة إلى باريس ولندن وواشنطن قام بها وزير الخارجيّة الإسرائيليّ آبا إيبان لحشد الدعم الغربيّ لـ "إسرائيل" "المحصرة"، حدّره ديغول من عواقب أن تكون "إسرائيل" هي البادئة بالحرب وأنها إذا فعلت ذلك فستخسر صداقة فرنسا. فديغول لم يكن يطيق المراوغة والكذب بأنّ "إسرائيل" مهدّدة. ولكن الإسرائيليّين لم يكونوا يباليون كثيراً بموقف ديغول. ذلك أنّهم كانوا قد بدأوا في ذلك العام الابتعاد عن السلاح الفرنسيّ تدريجياً واستبداله بالسلاح الأميركيّ. كما لاقى آبا إيبان أذناً صاغية ومؤيدة في لندن وواشنطن أغنته عن دعم فرنسا.

في واشنطن ادّعى إيبان أنّ "إسرائيل" تواجه خطراً وجودياً وطلب أن يشارك الأسطول الأميركيّ في البحر المتوسط في الحرب ضد مصر وسورية. فأمر الرئيس الأميركيّ ليندون جونسون مخبراته أن تتأكّد من حجم الخطر العربيّ على "إسرائيل". وبعد بحثٍ مضى ليل 25 - 26 أيار 1967 وصله تقرير السي آي إيه أنّ مصر ليست في أي حال من الأحوال في وضع يسمح لها بمهاجمة "إسرائيل"، وأنّ "إسرائيل" تستطيع خلال أيام حرق الجيوش العربيّة الثلاثة حتى لو كانت مصر هي البادئة بالحرب²⁸⁴. فعمل جونسون بموجب هذا النصح ولم يدلّ بدعم واضح وعلني، ولكنّه ألمح إلى تقديم الدعم عبر قنوات خاصة. وهكذا زار مثير عاميت رئيس الموساد واشنطن يوم 30 أيار والتقى مدير السي آي إيه، ريتشارد هلم، الذي أبلغه أنّ لا أحد في أميركا سيعترض إذا خاضت "إسرائيل" الحرب وربحتها. في وقت كانت شحنات الأسلحة الأميركيّة في طريقها إلى "إسرائيل".

اندلاع الحرب

في الخامس من حزيران 1967، بدأت "إسرائيل" حرباً خاطفة على مصر وسورية²⁸⁵. ولم تكن سورية مستعدّة للحرب إذ لم تكن قدراتها تسمح بالوقوف في وجه "إسرائيل". وورّط الأردن نفسه عندما فتحت القوات الأردنيّة النار على المواقع الإسرائيليّة رغم تحذير "إسرائيل" للأردن من مغبة دخول الحرب.

Patrick Seale, ASAD, p. 134.²⁸⁴

Michael Howard, Robert Hunter, *Israel and the Arab World: The Crisis of 1967*, London, Institute for Strategic Studies, ²⁸⁵

1967, Adelphi Papers no. 41.

استطاعت "إسرائيل" قبل ظهرهرة اليوم تدمير ثلثي سلاح الجو السوري. ثم شنت في 8 حزيران غارات جوية كثيفة على أهداف داخل سورية، في وقت كانت تدمر القوة الجوية المصرية وتقتضي على منشآت الجيش المصري في سيناء. وفي 9 حزيران وافقت سورية على نداء من الأمم المتحدة لوقف إطلاق النار، إلا أن "إسرائيل" كانت لا تزال في بداية تنفيذ خططها العسكرية. فأهملت النداء. إذ إن موشيه دايان أمر ببدأ هجوم أرضي على سورية بعدما فرغت مهام لواءين إسرائيليين على الجبهة المصرية وتم نقلهما إلى جبهة الجولان. فاحتلت "إسرائيل" أراضي تضم مصادر مياه حوض الأردن في الجولان، في حين رفض الرئيس الأميركي جونسون الضغط على "إسرائيل" لقبول وقف إطلاق النار إلى حين تبلغه معلومات أن "إسرائيل" قد حققت أهدافها التوسعية على الجبهات المصرية والسورية والأردنية.

بعد فقدان غطائها الجوي وطائراتها، لم يكن منطقياً لسورية أن تدفع إلى الجبهة ألوية أرضية ستعرض حتماً لمجزرة. فكان الأفضل اتخاذ مواقع دفاعية على خطوط الجبهة. وهكذا حارب الجيش السوري بشجاعة رغم الفرق الشاسع في مستوى الأسلحة والمعدات، ولكن في غياب غطاء جوي وأسلحة أرض جو، كانت أرض الجولان مكشوفة تماماً. وكانت "إسرائيل" تزداد شراحتها لاغتصاب أرض سورية. فهي أعلنت موافقتها على وقف إطلاق النار ثم واصلت هجومها على مدينة القنيطرة. وهناك اصطدمت بمقاومة الجنود السوريين الذين استبسوا في الدفاع عن مواقعهم بشراسة ودمروا 160 دبابة إسرائيلية مقابل خسارة 86 دبابة فقط على الجانب السوري. إذ رغم التفوق الإسرائيلي الباهر في السلاح ونوعيته، فإن الجنود السوريين لم يخرجوا من ساحة المعركة، بل قاتلوا في ظروف صعبة للغاية تحت سماء تسيطر عليها "إسرائيل" تماماً وقصف متواصل بقنابل النابالم الحارق وصواريخ الطائرات ومدافع الميدان ورشق المدفعية الأرضية.

لقد سقط 600 جندي سوري وهم يقاتلون بدون أن يتزحزحوا قيد أملة عن مواقعهم وكانت نتيجة صمودهم أنهم أجبروا "إسرائيل" إلى مراجعة خططها الطموحة على الجبهة السورية وأن توقف الحرب. في تلك الأثناء وقعت الفوضى بسبب سوء أجهزة الاتصالات بين قيادة الجيش والميدان. ذلك أن القائد الميداني أحمد المير أبلغ رئيس الأركان سويداني في ليل 8 - 9 حزيران "احتمال أن يطوق الإسرائيليون القوات السورية إذا استمرت مقاومتنا في نقاط محددة على محور القنيطرة"، وهو ما يشكل خطراً على الدفاعات الأرضية. فأمر سويداني بانسحاب تكتيكي إلى الشمال من مدينة القنيطرة، وهناك تستعيد لحمة الجبهة مع دفاعات الجيش جنوب دمشق. ولكن المشكلة أن النقطة التي كان على المير الانسحاب إليها كانت تعني أن تصبح مدينة القنيطرة التي لم تكن مهددة وراءه. وبدأ الجيش السوري انسحاباً منظماً من محور القنيطرة رغم تواصل الغارات الجوية الإسرائيلية. وفجأة، في الساعة 8:45 صباح العاشر من حزيران، أذاع راديو دمشق بياناً من وزارة الدفاع أن القنيطرة قد سقطت رغم أنها كانت لا تزال بأيدي سورية. فتدخل وزير الدفاع حافظ الأسد شخصياً لمعرفة مصدر التقرير ويستوعب ظروف أرض المعركة ثم أمر بإصدار بيان ثان الساعة 10:45 يصحح المعلومات بأن المدينة لم تسقط. ولكن ثمن النبا الإذاعي الأول كان فادحاً. ذلك أن التأخر في تصحيحه لمدة ساعتين أدى إلى انتشار الخبر في صفوف العسكر. وتحول الانسحاب التكتيكي إلى انسحاب فوضوي.

فدُعر جنود الخطوط الأمامية فتركوا مواقعهم بدل أن يصمدوا ويحموا ظهور المنسحبين أولاً وأمرهم القادة الميدانيون أن ينسحبوا فردياً.

وعندما شاهد الإسرائيليون ما يحدث في الخطوط السورية، استغلوا ما صدر عن الإذاعة السورية رغم قرارهم وقف الحرب، وتقدّموا في التاسعة والنصف إلى ساحات مدينة القنيطرة. لقد ظلّ الجنود السوريون في القنيطرة وأماكن أخرى أنهم محاصرون فعلاً، فكانوا يفرّون باتجاه دمشق. وعندما تبلّغت القيادة الإسرائيلية سقوط القنيطرة، اكتفت بتوسّعها وأوقفت إطلاق النار على كامل الجبهة السورية في السادسة والنصف من مساء العاشر من حزيران. ورغم ذلك وفي ظل وقف إطلاق النار، هاجمت "إسرائيل" مجدداً يوم 12 حزيران واحتلّت قمة جبل الشيخ.

أما على الجبهة المصرية، فقد كان الإسرائيليون على اطلاع تام على ضعف القدرات المصرية وكانوا ينتصتون على أجهزة الاتصال المصرية التي فضحت شح المواد التمويّنية والوقود وفقدان المياه وقلة التنظيم وضياح كتائب مصرية بأكملها في الصحراء. وأنّ القوات المصرية في سيناء لم تكن مدربة على القتال فقد كان ثلث الجيش المصري في اليمن. وهكذا بعدما دمرت "إسرائيل" سلاح الجو المصري بالكامل صبيحة 5 حزيران، عملت خلال خمسة أيام على قتل عشرة آلاف جندي مصري في مجزرة بدون مواجهات ميدانية تقريباً وأسرت 13 الفأ، ودمرت ترسانة مصر العسكرية من مئات الدبابات وقطع مدفعية. وفي العاشر من حزيران كانت قوة الجيش المصري في سيناء قد أزيلت.

سقوط الضفة الغربية

كان الجيش الأردني الأفضل تدريباً وضباطه الأكثر خبرة مقارنة بمصر وسورية، ولكنه كان يفتقر إلى السلاح الحديث وللغطاء الجوي. ولم تكن القيادة الأردنية على علم بالكارثة التي لحقت بالجبهة المصرية صباح 5 حزيران. وكان الجيش الأردني بقيادة الفريق المصري عبدالمنعم رياض. وقد افتتح الأردن جبهته بأسلحة خفيفة ومدفعية قصيرة المدى على المواقع الإسرائيلية ثم قامت طائرات هوكرنتر أردنية قليلة العدد بقصف مواقع إسرائيلية.

ولكن ما إن عادت الطائرات الأردنية إلى قواعدهما للتزوّد بالوقود والذخيرة حتى انقضت عليها الطائرات الإسرائيلية عند الظهر ودمرتها. وأمام هذا التطور تدخلت سورية بعد 15 دقيقة، وأرسلت سرب طائرات حربية للتصدي للطائرات الإسرائيلية فوق الأردن. فوقع مواجهة بين الطائرات السورية يعاونها سرب عراقي والطائرات الإسرائيلية. وكانت النتيجة خسارة سورية معظم مقاتلاتها في هذه المعركة.

وكان عبد المنعم رياض قد تسلّم برقية من المشير عامر يقول فيها إنّ الجيش المصري يقاتل في سيناء وهو يشق طريقه إلى صحراء النقب ليصل الضفة. ولكن في اليوم الثالث تحولت المواجهات المدفعية على الجبهة الأردنية إلى معارك برية بين الجيشين الأردني والإسرائيلي، وبدل تكثيف الدفاعات الأردنية المنطقي، استند

عبدالمعمر رياض إلى برقية عامر وأصدر أوامره إلى لواءي الجيش الأردنيّ المدرّعين للتوجّه جنوباً وملاقاة الجيش المصريّ القادم وخلق جبهة واحدة بوجه "إسرائيل".

وكان هذا خطأً استراتيجياً فادحاً ارتكبه رياض بحق الأردن. ذلك أنّه لم يكن قد تسلّم منصبه هناك سوى قبل بضعة أيام من نشوب الحرب. ولم يكن يعلم أنّ هذين اللوامين كانا في وضعية ممتازة للدفاع عن طول جبهة الضفة الغربيّة ومدنها. فكانت أوامره للجيش الأردنيّ بترك تحصيناته وتجهيزاته الأرضية التي احتاجت إلى شهور وسنوات للتمركز فيها، ثم الخروج إلى العراق لمواكبة هجوم مصري مزعوم على جنوب "إسرائيل"، سبّب الكارثة التي وقعت على الأردن.

لقد رفض الأردنيون أوامر رياض وناقشوه في جدواها وشرحوا له أنّها تعني التخلي عن التحصينات وترك القدس ومدن الضفة عارية أمام أي هجوم إسرائيليّ. ولكنّه أصرّ على موقفه وطمأنهم أنّه يُحسن التصرف وينسق مع القيادة السوريّة والمشير عامر. ثم لطمأنة الأردنيين طلب من سورية إيفاد لواء إلى الأردن يحل مكان اللوامين الأردنيين ويغطّي ما انكشف من جبهة الضفة الغربيّة.

ولكن تحرك "إسرائيل" كان أسرع. ففي 7 حزيران اجتاحت "إسرائيل" خطوط الجبهة الأردنيّة واحتلت القدس الشرقيّة ثم كامل الضفة الغربيّة. وتبيّن أنّ الجيش المصريّ لم يصل إلى النقب بل كان الجيش الإسرائيليّ هو الذي وصل إلى ممرات سيناء القريبة من قناة السويس واحتل شرم الشيخ. ومع ذلك نكّدت سورية الطلب ووصل اللواء السوريّ إلى الجبهة الأردنيّة في 8 حزيران، ولكن بعدما كانت الضفة قد سقطت. فغضبت سورية من أداء رياض، وعبر عن غضبها وزير الدفاع حافظ الأسد في حديث هاتفه مع رياض الذي يبعث جهود الجبهة الشرقيّة. وعندما انتفت الحاجة إلى اللواء السوريّ في الأردن، أمرته سورية بالعودة بعد أيام. ثم تابعت "إسرائيل" هجومها على مصر وبلغت الجانب الشرقيّ من قناة السويس يوم 9 حزيران رغم إعلان مصر قبولها وقف إطلاق النار أيضاً.

خسائر سورية

سقط في حرب 1967 أكثر من ألف جنديّ سوري ووقع 361 في الأسر وجرح المئات. إذ استعمل الجيش الإسرائيليّ قنابل النابالم المحرّمة دولياً ضد القرى السوريّة والدشم العسكريّة. وبعدها أكملت "إسرائيل" احتلالها للجولان، نهب جيشها مدينة القنيطرة وعملت دباباته وجراراته العسكريّة على هدم المنازل والأبنية في قرى الجولان المحتلة وتسويتها بالأرض. وكان يقطن في الجولان قبل الحرب 140 ألف مواطن سوري، فرّ منهم أثناء القتال 35 ألفاً. وتهجّر سكان مدينة القنيطرة وعددهم 17 ألفاً، منهم ستّة آلاف من السوريين الشركس.

لقد أراد الاحتلال الإسرائيليّ أرضاً من دون شعب. فعمد في الأشهر الستة التالية إلى وسائل عدّة لتهجير الذين لم يغادروا. فدمّر البيوت وقطع أنابيب الماء وأشرطة الكهرباء ومنع دخول البضائع التموينيّة والمواد الغذائيّة، وهدّد السكان بالموت، واعتقل الشبان وعدّ بهم، وصولاً إلى إعدامات ميدانيّة وفي المعتقلات. ثم بدأت تصدر

أوامر لعائلات سورية بأكملها لمغادرة الجولان، فكانت هذه العائلات تترك وراءها كل ما تملكه. ولفترة أقام هؤلاء وقد أصبحوا لاجئين في وطنهم. فعادر الجولان 90 ألف مواطن نُقلوا إلى مخيمات في درعا ودمشق. ولم يبق في الجولان من سكانه الأصليين تحت الاحتلال سوى 8000 شخص، أي 5 في المئة فقط، معظمهم من الدروز. كما لم تسمح "إسرائيل" بعودة السكان باستثناء 400 من الدروز. ثم بدأت "إسرائيل" تنفيذ خطة جاهزة لتوطين هذه المنطقة الخصبة وذلك بإطلاق دعوة لليهود من أي مكان في العالم للمجيء والإقامة في الجولان، وبناء 12 مركز استيطان. وباتت "إسرائيل" توفر ربح استهلاكها من المياه العذبة من الجولان²⁸⁶. ورغم أن مصيبة سورية وخسارتها في الأرض والبشر والعتاد كانت أهون من تلك التي لحقت بمصر والأردن (خسر الأردن الضفة الغربية وخسرت مصر شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة)، إلا أن الصدمة النفسية والإحباط والشعور بالذل نتيجة الهزيمة كان وقعه شديداً في سورية بسبب هاجس الصراع "إسرائيل" الذي يعيشه السوريون في الصميم. إذ رغم أن مساحة الجولان (1860 كلم مربع) صغيرة قياساً إلى مساحة سورية فإن ثروته المائية²⁸⁷ وخصوبة تربته وارتفاع الهضبة (700 متر) وقممها (1200 متر) وأهميته الاستراتيجية بإطلالته (من جبل الشيخ) على فلسطين والأردن ولبنان والساحل الشرقي للبحر المتوسط ومناطق شاسعة من سورية، جعلت الجولان مسألة وطنية لا تراجع عنها بالنسبة لأجيال السوريين²⁸⁸.

الهزيمة

في العالم العربي، طغى شعور عارم بالهزيمة، سيكون له أثر عميق في الثقافة والمجتمع وعلى المستويات كافة، فأصبح 1967 ولعقود عدّة "عام النكسة"²⁸⁹. وكاد عبدالناصر ينهار نفسياً وعصبياً من الإجهاد الجسدي والروحي وعظمة الكارثة، وانتحر المشير عامر رقيق عبدالناصر. أمّا في الأردن، فقد تعارك الضباط المصريون والأردنيون كلامياً حول مسؤوليّة ما حصل وغرق الملك حسين في أم شديد بعدما فقد نصف مملكته خلال أيام.

كان الهمّ الأول لدى دمشق هو استيعاب مفاعيل النكسة والتخفيف من آثارها عبر خطوات غير مساومة. فقبل حرب حزيران 1967 كانت سورية قد قطعت العلاقات مع الولايات المتحدة وبريطانيا وأوقفت ضخ النفط عبر أراضيها. وبعد الحرب، دعت إلى حظر نفطي عربي ضد الدول الغربية التي ساعدت "إسرائيل" في الحرب - الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الغربية، وإلى مقاطعة هذه الدول.

²⁸⁶ William Harris, *Taking Root: Israeli settlement in the West bank, the Golan, and Gaza - Sinai*, New York, John Wiley, 1980.

²⁸⁷ هضبة الجولان هي خزان مائي رئيسي في المنطقة غني بالينابيع والمياه الجوفية، التي تزود أنهاراً عدّة كالبنائيس والغراف والحاصباني والبرموك وينابيع الحمّة.

²⁸⁸ Muhammed Muslih, "The Golan: Israel, Syria, and Strategic Calculations", *Middle East Journal*, vol. 47, 1993, pp. 611 - 632.

²⁸⁹ صادق جلال العظم، النقد الذاتي بعد الهزيمة، بيروت، 1968.

وكانت سورية الدولة العربية الوحيدة التي أوفدت رئيسها، نورالدين الأتاسي، لحضور الاجتماع الطارئ للجمعية العامة للأمم المتحدة للنظر في الحرب. ولكن خاب أملها من قرار مجلس الأمن رقم 242 الذي رفضته لأنه دعا "إسرائيل" إلى الانسحاب من "أراضٍ محتلة" (وليس كل الأراضي المحتلة) مقابل اعتراف العرب بـ"إسرائيل". وعبر رئيس الوزراء يوسف زعين عن موقف سورية أن قبول القرار 242 يعني التخلي عن قرارات الأمم المتحدة السابقة حول حق الشعب الفلسطيني في أرضه ووطنه.

وكان حضور سورية قوياً في الاجتماعات العربية كافة التي عُقدت في صيف 1967، وكانت سورية وراء دعوات عدة لتفعيل الحظر النفطي وإجراءات اقتصادية أخرى. ورفضت سورية دعوة عبدالناصر إلى جبهة عربية موحدة ضد "إسرائيل"، لأن سورية لن تكون في خندق واحد مع "الرجعية العربية" التي أيدت "إسرائيل". ولكن تشدد سورية تجاه شروط التعاون العربي، أدى إلى عدم حضور قمة الخرطوم وبذلك خسرت الدعم المالي الذي قدمته السعودية والكويت وليبيا لدول المواجهة. فاقترنت المساعدة على مصر والأردن التي حصل كل منهما على مبلغ 250 مليون دولار سنوياً. كما كانت قمة الخرطوم لاثقة بطموحات سورية لأنها أصدرت اللات الثلاث (لا صلح، لا تفاوض، لا اعتراف). ومع ذلك سخرت سورية من مصداقية القمم العربية. وصح الموقف السوري في ما بعد أن العرب لا يتحملون مسؤولية ما يقررونه. إذ رغم أن قمة الخرطوم حدت تاريخ ومكان انعقاد القمة الخامسة في المغرب في كانون الثاني 1968 لمواصلة العمل العربي المشترك، إلا أن الموعد تأجل إلى إشعار آخر بسبب اشتعال الخلافات العربية.

في تلك الأثناء، عمقت سورية علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية ودول عدم الانحياز. وفي أوروبا فسح موقف فرنسا بقيادة شارل ديغول المجال لتحسين العلاقات مع سورية لأن ديغول عارض عمل "إسرائيل" وعرف أنه عدوان وفرض عليها حظراً للأسلحة. وكانت سورية تنظر بريبة إلى موقف موسكو قبل الحرب وبعدها في عدم تقديم السوفيات الدعم الكافي لمصر وسورية وفي حث موسكو للعرب على قبول حل سلمي غير مشرف بعد هزيمتهم. لا بل هاجم السوفيات سورية لعدم قبولها القرار 242 الصادر في 22 تشرين الثاني 1967 والذي كرّس مبدأ الأرض مقابل السلام. وانتقدت الصحف السوفياتية "المنحى المغامر وغير المسؤول لدى بعض العرب من أصحاب الرؤوس اليابسة".

ولكن سورية ثابرت على رفضها نتائج العدوان الذي كشف بما لا يرقى إليه الشك نيات "إسرائيل" التوسعية وتصفية الحقوق الفلسطينية. وسعت سورية لدى الدول العربية التقدمية لتأسيس جبهة مشتركة. فدفع صمود سورية موسكو لإعادة النظر في موقفها أن ما كانت تراه "تعتناً سورياً" هو في الواقع يعكس إرادة شعب يجب أخذها بعين الاعتبار. ولذلك، عوّضت موسكو خسائر سورية وحضر إلى سورية خبراء عسكريون سوفيات وقدمت مساعدات اقتصادية منوعة وكبيرة، وبدأ الحزب الشيوعي السوفياتي حواراً مع حزب البعث.

صعود المقاومة الفلسطينية

كان للموقف السوري المتشدّد أسبابه. فقد كانت عقيدة البعث صارمة حول القضية الفلسطينية والاشتراكية والوحدة العربية والعداء للرجعية والاستعمار. وكانت سورية تجهد لرفع لواء المقاومة الفلسطينية لجذب التنظيمات الفلسطينية الصاعدة في تلك السنوات كحليف لها ضد "إسرائيل" وضد أخصامها العرب. ثم أنّ الخيبة التي أصابت الشعب السوري جراء سوء أداء حكومته في الحرب، دفعت الحكومة إلى تبني أكثر المواقف العربية تطرفاً تجاه "إسرائيل" للتعبير عن الرفض الشعبي داخل سورية لأثار النكسة. وإذ اقترحت قيادة الجيش السوري على حزب البعث أسلوباً أكثر اعتدالاً، أصرت قيادة الحزب على رفض "المواقف المتخاذلة والاستسلامية". وعلى الصعيد الفلسطيني، واصلت سورية دعم حركة فتح والتنظيمات الفدائية الفلسطينية الأخرى، وأسّس البعث منظمة الصاعقة كحركة مقاومة من عناصر فلسطينية من مخيمات اللاجئين في سورية ولبنان والأردن. ولكن الدولة السورية رفضت مدّ اليد للقوى الحيّة في المجتمع السوري التي كانت أكثر حماسة في مواجهة "إسرائيل". ولم يستثمر الغضب الشعبي لاستنفار طاقات البلاد أمام الخطر الداهم. بل بقي النظام الأمني وبقيت حالة الطوارئ. ورفض نظام البعث مبادرات الحركات التقدمية في سورية للتعاون²⁹⁰.

²⁹⁰ ياسين الحافظ، الهزيمة والإيديولوجيا المهزومة، بيروت، 1979.

15. لبنان ومؤسّرات التدهور

كانت آثار حرب 1967 المباشرة على لبنان طفيفة، ولكن الهزيمة تحوّلت من كرة ثلج صغيرة ستصل جبل جليد إلى لبنان في ما بعد. وباستثناء الأزمات السياسيّة والخضّات المؤقّتة والحرب القصيرة عام 1958 وأزمة انترا عام 1966، عاش لبنان منذ الخمسينيات وحتى 1974 عصراً ذهبياً شهد نمواً مضطرباً كما وصلت بيروت أوجها في الانتعاش والتطوّر.

ساهمت الأزمة البترولية العالميّة في السبعينيات وارتفاع أسعار برميل البترول أربعة أضعاف خلال أشهر قليلة في دخول كميات كبيرة من المال إلى لبنان. ولعب ريع النفط العربيّ دوراً كبيراً في توكيد الطابع الخدمي للاقتصاد اللبناني، إذ كان مطلب العرب الرئيس من لبنان ذا طابع استهلاكي: تأمين الخدمات السياحيّة والمصرفيّة والترفيه والتسوّق وشراء العقارات، الخ. فلم يكن مفهوم الدول العربيّة النفطية للاقتصاد أفضل من العقلية الماركنتيلية الريعيّة في لبنان. لقد ارتفعت أسعار العقارات في بيروت بشكل مذهل في أوائل السبعينيات وبدأت ناطحات السحاب تظهر لأول مرّة (برج المرّ، برج رزق، جفینور، هوليداي إن، الخ)، حتى أصبحت قطعة صغيرة من الأرض في شارع الحمرا مثلاً أعلى سعراً من قطعة مماثلة على جادة الشانزليزيه في باريس. وفي تلك الفترة لم يكن ممكناً تفسير الغزو السياحيّ والريعيّ العربيّ والغربيّ لبيروت ومناطق الاضطياف والتزلج سوى أنّه يعد لبنان بمزيد من الثروة والحبوحة.

ومن مظاهر القوّة الاقتصاديّة لتلك الفترة كان استقرار العملة الوطنيّة وتقدّمها على العملات الأجنبيّة. حيث هبط سعر صرف الدور الأميركيّ في سوق بيروت من ثلاث ليرات ونيّف في أواخر الستينيات إلى 2.61 ل.ل. عام 1973 و2.33 ل.ل. عام 1974 وصولاً إلى 2.20 ل.ل. في أوائل عام 1975²⁹¹. وأدّت قوّة الليرة إلى قبولها كعملة صعبة ووسيلة مدفوعات دوليّة. فأصبحت بيروت مركزاً مالياً عالمياً وتنافست المصارف الغربيّة على افتتاح الفروع وإصدار ديون للشركات العالميّة والدول بالعملة اللبنانيّة.

والحقيقة أنّ الانفلاش الاقتصاديّ حصدت أرباحه الأقلية الممسكة بالنظام السياسيّ الاقتصاديّ اللبنانيّ ولم يتوزّع بحبوحة على السكان عبر ضرائب عادلة وبرامج اجتماعيّة. كما لم يفكر أحد بأنه يجب تطوير المحافظات وتنويع القاعدة الاقتصاديّة. وحتى المستثمر الأجنبيّ لم يتجّه أو لم يوجّه أحد من رجال الأعمال المحليّين نحو استثمارات زراعيّة أو صناعيّة، كالاستثمار في زراعات استراتيجيّة في البقاع يمكن أن تحقّق وثبات كبيرة في هذا القطاع.

وحتى عندما فصلت لبنان أشهر قليلة فقط عن حرب أهليّة مفتوحة عام 1975 فشل المراقبون المحليّون والأجانب في استشراف الأحداث وقراءة معاني التفجيرات وأحداث العنف المنعزلة منذ 1968 وحتى 1974 فكانت بالنسبة لهم "سحابات صيف عابرة" وأنّ أعمال العنف والإرهاب لن تستمرّ طويلاً. وكأنّ الحرب الكبرى التي استغرقت 15 عاماً قد أخذت البلاد على حين غرّة بعد حفل ساهر صاحب بالمتع الكماليّة الباهظة الكلفة. ولكن لم يكن ثمة مفاجأة في الأمر. إذ إنّ التحذيرات من الانفجار الكبير تواصلت في السنوات

السابقة في التقارير الأمنية والاقتصادية والسياسية وحتى رجوعاً إلى حرب 1958 وبعثة إيرفد ومحاولات الإصلاح العائر والصدمات مع المقاومة الفلسطينية وبروز التنظيمات اللبنانية المسلحة. وعندما وقعت اشتباكات في لبنان بين الجيش اللبناني والمنظمات الفلسطينية في تشرين الأول 1969، وقفت سورية إلى جانب الفلسطينيين. وفي 22 تشرين الأول أقفلت سورية الحدود مع لبنان احتجاجاً ما أدى إلى خسائر للاقتصاد اللبناني. وكان لبنان يخوض في حينها محادثات مع المقاومة الفلسطينية حول ضرورة ضبط نشاطاتها على الأراضي اللبنانية بإشراف عبدالناصر. فساهم الضغط المصري والسوري على لبنان لقبول باتفاقية القاهرة التي أوقفت الصدام بين الجيش والمقاومة الفلسطينية مؤقتاً. فمنحت اتفاقية القاهرة امتيازات للعمل الفدائي داخل لبنان وخاصة في جنوبه، ما أدى في ما بعد إلى عواقب كانت من عوامل اندلاع الحرب عام 1975.

عندما بدأت المشاريع الإنمائية في عهد فؤاد شهاب عام 1963 وجدت الدولة أن من أصل 452 قرية وبلدة في الجنوب يقطنها 400 ألف نسمة، كانت 250 منها (بـ250 ألف نسمة) بدون مياه للاستعمال المنزلي ولا مياه شفة. وأن سبعاً من هذه القرى والبلدات فقط تصلها الكهرباء والبقية (445) من دون كهرباء، وأن نصف الأطفال في سن المدرسة (6 - 10 سنوات) من دون مدارس، وأن المدارس الثانوية شبه معدومة وأن نسبة الأمية مرتفعة جداً في أوساط السكان. كما كانت 85 قرية من دون طرق معبّدة ولا يمكن الوصول إليها بالسيارة، وثلث الأراضي الزراعية أصبحت أرضاً بوراً مقارنة بفترة قبل الاستقلال. كما أن حصة جنوب لبنان الذي يضم 20 في المئة من سكان البلاد لم تزد عن أقل من واحد في المئة من إجمالي الإنفاق العام. وساهم الحرمان والقهر والفقر في توجيه الجيل الشيعي الجديد للانتساب إلى الأحزاب اليسارية خاصة منذ عهد فؤاد شهاب الذي افتتح المدارس، وازداد نشاط "الحزب الشيوعي" وأحزاب علمانية أخرى في الجنوب. وجلب عهد شهاب طرقاً وكهرباء ومياهاً وخدمة هاتف وبريداً ومدارس ابتدائية وبعض المدارس الثانوية إلى الجنوب. ولكن كل هذا لم يكن كافياً لتنمية الجنوب، إذ إن قلة المدارس العليا وانعدام الاستثمار وخلق فرص العمل أدت إلى هجرة الجيل الجديد لمتابعة التعليم أو للبحث عن الوظيفة في المدينة وترك الأرض والقرية. فيما سمحت الطرق المعبّدة بالانتقال السهل إلى بيروت وضواحيها. حيث الخدمات ومستوى المعيشة أفضل بكثير من الجنوب. فحدثت هجرة كثيفة إلى بيروت وضواحيها الجنوبية والشمالية، حتى وصل عدد الشيعة في بيروت 315 ألفاً (أي ثلث سكان بيروت الكبرى) عام 1975.

وتجاوز الشيعة في حزام البؤس مع المخيمات الفلسطينية حتى أصبح الحزام مستنقعاً نشطاً لتجنيد النشء الجديد من الشيعة في صفوف الأحزاب الشيوعية والراديكالية والتنظيمات الفلسطينية، ما أقلق البورجوازيات المدنية، لا سيما السنّة والموارنة، التي نجحت في قطاعات اقتصادية متعددة خاصة في قطاعات المصارف والتجارة والخدمات وأسواق السلع الاستهلاكية. وأمام الطموح والشعور بالحرمان استيقظت روح الثورة وانتسب عدد كبير من شباب الشيعة إلى الأحزاب اليسارية رافضين الزعامات التقليدية وأحياناً عازفين عن فكرة الانتماء الطائفي بما هو حظيرة أو معقل، مفضلين الانتماء إلى مجتمع علماني ديمقراطي يضمن المزيد من المساواة والعدالة لكل المواطنين وليس للشيعة فحسب. كما دخل عدد كبير من الشيعة في أعمال

واختصاصات فكرية وثقافية تحتاج إلى مستوى تأهيل عالٍ، فأصبحوا محامين ومفكرين سياسيين وكتاباً وصحافيين وناشرين وأساتذة مدارس وجامعات ومنتجي أفلام. حتى وصف الباحث سليم نصر هذه الفئة من الشيعة بأنهم "إنتلجنسيا طموحة وراдикаلية"²⁹².

لم يكن حزام البؤس حول بيروت هو المهيد الوحيد لانتشار الحركات اليسارية في أوساط الشيعة. إذ إنَّ الحزب الشيوعي كان موجوداً في جنوب لبنان منذ الأربعينيات، فيما نشط "حزب البعث" في صفوف الشيعة وانضم الطلاب الشيعة ومثقفوهم إلى "حركة القوميين العرب" بأعداد مهمة في أواخر الستينيات حتى أصبحوا الأغلبية في "منظمة العمل الشيوعي" بقيادة محسن إبراهيم و"حزب العمل الاشتراكي العربي". فساعد في سرعة انتشار اليسار في حزام البؤس أنَّ بعض الجنوبيين الذين جاؤوا إلى بيروت كانوا أعضاء في هذه الأحزاب التي شكّلوا فيها في أوائل السبعينيات أغلبية الأعضاء وأهم منظرها وقادتها.

وانضم الشيعة وخاصة من الطلبة إلى صفوف التنظيمات الفلسطينية، في وقت أصبح العمل الفدائيّ قمة العطاء الوطنيّ. فسقط لبنانيون شهداء وتنازع الفلسطينيون واللبنانيون على "ملكيتة" هذا الشهيد أو ذاك. كما أنَّ الأحزاب اليسارية قامت بتدريب أعضائها من أبناء القرى الحدودية ليكونوا سنداً للمقاومة الفلسطينية ضد الاعتداءات الإسرائيلية. إذ بدون دعم الناس كان مستحيلاً على المقاومة الفلسطينية أن تقوم بعمليات ضد "إسرائيل" رغم أنف الجيش اللبنانيّ.

لم يحقّق صعود الإمام موسى الصدر اختراقاً هاماً في صفوف الشيعة طيلة السنوات العشر التي سبقت غيابه (1968 - 1978) ولم يكن يمثل ظاهرة تقديمية في أوساط الشيعة. ولكن بعد مصرع كمال جنبلاط شعر شباب الشيعة في الأحزاب اليسارية كالأيتام، كما أنَّ الحكومة التي ظهرت بعد حرب الستين لم تكن على موجة الإصلاح الاجتماعيّ والسياسيّ الذي طالب به اليسار، بل ركّزت على استتباب الأمن وإعادة الإعمار، في حين انضمَّ رئيس الجمهورية الياس سركيس إلى صف الميليشيا الانعزالية وحارب رئيس الحكومة سليم الحص. أمّا في الجنوب، فقد كانت القرى تتعرض لحرب يومية وغارات إسرائيلية متكررة. وإذ ارتكبت الميليشيا الانعزالية جريمة تهجير السكان الشيعة في المناطق الشرقية وخاصة من النبعة وبرج حمود، لجأ هؤلاء إلى الضاحية الجنوبية عام 1976 فانضموا إلى مَنْ سبقهم إلى الضاحية من مهجّري الجنوب ضحايا الحرب الإسرائيلية. وبعد 1977 أصبح الشيعة من مهجّري النبعة وشرق بيروت والجنوب، تحت رحمة "منظمة التحرير الفلسطينية" والمليشيات المختلفة فيما استمرّت قضايا الحرمان والتخلّف والفقر ماثلة وكأن لا حرب وقعت ولا وعود قطعت.

Salim Nasr, La Transition des chiite vers Beyrouth – mutation sociale et mobilisation communautaire à la veille de 1975, ²⁹²

CERMOOC, *Mouvements communautaires au Machreq*, Paris, Sindbad, 1985, p. 95.

Salim Nasr, *Roots of Shi'i Movement*, MERIP Reports, no. 133, June 1985.

عهد سليمان فرنجية

انتهى عهد شارل حلو عام 1970 بخلفية تطورات خطيرة، منها صعود المنظمات المسلحة الفلسطينية وأحزاب اليسار اللبناني، يدعمها ويتبناها كمال جنبلاط، والمطالب الاجتماعية الضاغطة وتداعيات هزيمة 1967. وفيما خسر مرشح الشهابيين الياس سركيس بفارق صوت لصالح سليمان فرنجية، اعتُبر ذلك انتصاراً للطبقة التقليدية وهزيمة للشهابيين ونهجمهم. وأذنت هذه النتيجة بأقول تدريجي لنفوذ الشهابية حتى أن فؤاد شهاب (توفي عام 1973) أعلن في مناسبة عزوفه عن ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية عام 1970 بأن الإصلاح الجذري في لبنان مستحيل في ظل عقلية الشعب والممارسات السياسية التقليدية²⁹³.

كلّف الرئيس فرنجية صائب سلام في تشرين الأول 1970 ليقود "حكومة شباب"، بدأت عملها بحملة تطهير أجهزة الدولة من العناصر الشهابية. وكان أعضاء الحكومة، باستثناء رئيسها صائب سلام، من خارج مجلس النواب والزعامات التقليدية، على أساس أن الكفاءات يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار. واستمرت هذه الحكومة حتى انتخابات 1972 واستقالت في 10 أيلول. فقد شنّ التقليديون هجوماً على حكومة الشباب بأنها من "التكنوقراط" و"الموظفين" وأن أعضاء الحكومة لا يفقهون العمل السياسي. واستجاب فرنجية لضغوط الزعماء فكلّف صائب سلام مجدداً ليرئس وزارة من التقليديين (صبري حمادة ومجيد أرسلان وجوزف سكاف وادوار حنين وميشال ساسين وبيار حلو). وكان لبنان في هذه الفترة قد تحول برميل بارود، فجاءت عودة الفئات التقليدية بقوة تحدياً لظروف البلاد، اعتبرها الرأي العام محاولة لشراء الوقت. وهكذا وضعت قضية الإصلاح مجدداً في الأدرج، وبات أمام لبنان أقل من عامين من السلم الأهلي فحسب. وكان هذا يعني نقل المواجهة من البرلمان والحكومة إلى الشارع، إذ إن القوى المعارضة قويت شوكتها واختلفت عدة وعدداً عن الستينيات ولم يعد مقبولاً لديها أن يستمرّ تجاهل الإصلاح وكأنّ شيئاً لم يحصل.

كان على فرنجية وحكومة التقليديين أن يواجهوا القوى الضاغطة التي تمّتعت بدعم كمال جنبلاط الذي أصبح في السبعينيات رأس حربة المعارضة للنظام بأقوى مما كان ضد بشارة الخوري عام 1952 وضد كميل شمعون عام 1958.

شكّلت حوادث أيار 1973 بين الجيش والمقاومة الفلسطينية نموذجاً لما ستكون عليه الحرب في ما بعد. فبعد سنوات من الاشتباكات المتقطعة بين الطرفين، انفتح الوضع الأمني على مصراعيه بين 3 و18 أيار 1973 ما عطّل السياحة العربية والأجنبية وأدّى إلى خسائر فادحة في قطاعات الخدمات. وانتشرت المعارك التي بدأت حول المخيمات إلى أحياء مدينة لبنانية وسقطت قذائف على مطار بيروت. وعندما استعمل الجيش اللبناني الطائرات الحربية في المعارك بدا لبنان على أبواب حرب أهلية. ذلك أن أطرافاً لبنانية عديدة متعاطفة مع الفلسطينيين اعتبرت عمل الجيش مؤامرة ضد القضية الفلسطينية. كما رغب بعض اللبنانيين في القتال إلى جانب المقاومة الفلسطينية، وخرج مسلحون إلى شوارع طرابلس وصيدا في تحدّ سافر للسلطة. وأقفلت سورية الحدود مع لبنان احتجاجاً على المعارك متهمه السلطات اللبنانية بالتآمر على الشعب الفلسطيني.

²⁹³ باسم الجسر، فؤاد شهاب، ص. 137.

وبلغت كلفة هذا الإغلاق 150 مليون ل.ل.. كما أنّ السفن المحمّلة بالبضائع إلى الدول العربيّة أفرغت حمولتها في مرفأ بيروت وبقية البضائع في المستودعات بسبب إغلاق الحدود مع سورية. وبقى الكثير من العمال السوريّين في أماكن إقامتهم في سورية فتعطّلت حركة البناء والنشاطات الزراعيّة. كانت أجواء لبنان عام 1974 شديدة التشابك: نمو اقتصاديّ عشوائيّ وغير مدروس ومظاهر بحبوحة خادعة، ولا مبالاة رسميّة تجاه المحافظات الطرقيّة، ونقمة اجتماعيّة خطيرة ضد الاستقطاب الطبقيّ، وانقسام طائفيّ حاد، ومعارك متزايدة بين الجيش والفلسطينيّين. وفي تلك الفترة كانت الصحف تنشر أخبار مواجهات باتت شبه يوميّة أو أسبوعيّة بين المقاومة الفلسطينيّة و”إسرائيل” في جنوب لبنان. فكان هذا الوضع المتفجّر يُقابل بهز كتف من المسؤولين بأن كلّ شيء سيكون على ما يرام. وحتى عند بداية الحرب اللبنانيّة واندلاع المعارك في نيسان 1975 ولغاية أيلول كانت قيادة البلاد السياسيّة والاقتصاديّة تتصرّف وكأنّ كلّ هذه الصعوبات هي مسائل مؤقتة. والحقيقة المؤلمة كانت أنّ تراكمات الوضع كانت بحاجة إلى شرارة لتشعل برميل البارود المحتقن.

16 | الحرب الأهليّة في الأردن

بعد خسارة الضفة الغربية أصبح الأردن عرضة للاعتداءات الإسرائيلية في العمق، وخاصة بعد اشتداد العمليات الفدائية في الأراضي المحتلة عبر حدوده. وفي الفترة الممتدة من 1967 إلى 1973، وقعت حرب الاستنزاف بين دول المواجهة و"إسرائيل"، وكان الأردن إحدى هذه الدول. فكانت "إسرائيل" تردّ بغارات وهجومات على أراضيه. وفي موقعة لافته اتحد الجيش الأردني مع المقاومة الفلسطينية في جبهة واحدة ضد الهجوم الإسرائيلي في معركة الكرامة عام 1968. فكانت المرة الأولى التي تخوض فيها المقاومة معركة مواجهة وتثبت مكانها مقارنة بعمليات كزّ وفرّ في السابق. ولذلك ارتفع صيت المقاومة لدى العرب وأصبح الفدائيّ رمزاً وطنياً وقومياً كبيراً.

وزاد الدعم للمقاومة على المستويين الشعبي والرسمي داخل الأردن وفي العالم العربي. ثم جرت أعمال مماثلة عبر الحدود اللبنانية وتوغلات إسرائيلية داخل لبنان تصدّى لها الجيش اللبناني والمقاومة الفلسطينية. إلا أنّ صعود المقاومة وشنها العمليات والغزوات والغارات الإسرائيلية كان لها وقع شديد السلبية على استقرار لبنان والأردن وأمنهما. فتصاعد الأمر إلى حرب أهلية في الأردن بدأت في أيلول 1970 في سلسلة أحداث خطيرة أطلق عليها الإعلام اسم "أيلول الأسود".

تحوّلات الأردن نحو الأسوأ

كان وضع الأردن حرجاً في منتصف الستينيات بشكل غير مسبوق. إذ ليس أنّه خسر نصف المملكة بعد حرب 1967، بل إنّ انطلاق المقاومة الفلسطينية وقياداتها المختلفة كانت على أراضيه مع عودة قوّة للقوى السياسيّة التي تلهج بالفكر القوميّ والعداء لـ"إسرائيل" والغرب. في حين أراد الملك هدوءاً واستقراراً يبعدان مملكته عن السياسات الإقليميّة التي يمكنها أن تزيل المملكة من الخريطة، بعكس سورية أو العراق مثلاً. لقد انقسم الأردن عام 1969 بين شمال وجنوب. شمال يتضمّن محافظات إربد الكثيفة السكان والمجاورة لدرعا في سورية، وعجلون والجرش، وجنوب يتضمّن العقبة ومعان ومناطق أخرى. فكانت محافظات الشمال سوريّة الهوى لم يتراجع حس انتماؤها للشام وتطلّعها نحو دمشق. وجنوب لا ينفكّ يحنّ إلى أيام الحجاز والأسرة الهاشميّة. كما أنّ الجزء الجنوبيّ من الضفة الغربيّة ويضمّ مدينتي بيت لحم والخليل كان أكثر سلاسة تجاه حكم الهاشميين من شمال الضفة وخاصة منطقتي رام الله ونابلس المشاغبة دائماً. فكانت رياح اليسار والثورة تلتفح من درعا ونابلس معادية للحكم الهاشميّ.

وإضافة إلى الشرح الجغرافيّ هناك شرح ديمغرافيّ، إذ بات الأردن في الستينيات بنسبة 70 في المئة أو أكثر من الفلسطينيين الذين لطالما اعتبروا أنفسهم أكثر ثقافة ووعياً وتجربة سياسيّة من سكان شرق الأردن الأصليين سواءً من البدو أو الحضريين. فقد كان سكان شرق الأردن العمود الفقري للمملكة منذ ولادتها يقيمون عام 1948 في 300 قرية و12 بلدة متفاوتة الحجم. وهذه القرى والبلدات ضمتّ سكاناً من البدو ونازحين من الضفة الغربية وحوران وجبل الدروز وكذلك مصريّين استوطنوا هناك بعد مغادرة الجيش المصريّ لبلاد الشام عام 1840. فكان العنصر السوريّ كثيفاً ومهماً في منطقة إربد التي باتت موجتها على أحداث دمشق، وكان

العنصر الفلسطينيّ كثيفاً في السلط ومنطقتها والعنصر الإعرابي في الجنوب حول الكرك ومعان القريب من الحجاز وعاداته البدوية²⁹⁴. ومع ذلك لم يكن الشرخ بين الشمال والجنوب حاسماً. ومن الأمثلة أن عائلة التل في إربد ظهر منها عبدالله التل الذي كان مناهضاً للملك عبدالله ومعادٍ للإنكليز، وضع أولوية تحرير فلسطين قبل أي اعتبار، فدبروا له تهمة تدبير مؤامرة لقلب الحكم. وهرب إلى مصر التي عاش فيها لاجئاً لسنوات.²⁹⁵ ولكن من العائلة نفس أيضاً وصفي التل الذي يُعتبر أهم شخصيّة سياسيّة في تاريخ الأردن والذي أدار الأزمة مع المقاومة الفلسطينيّة حتى اغتالته منظمة أيلول الأسود المنبثقة عن فتح في 8 تشرين الثاني 1971.²⁹⁶ وضمن البلدات لم تكن ثمة مدينة ذات حجم يُذكر يمكن مقارنتها بمدن فلسطين ولبنان الصغرى سوى أربعة: عمّان والسلط والكرك وإربد.

لقد مرّت عشر سنوات على ضرب الحركة الوطنيّة الأردنيّة عام 1957، وخسر الأردن عام 1967 الضفة الغربيّة ومدنها التاريخيّة الهامة التي منحت المملكة ثقلاً معنوياً وسياسياً واقتصادياً من 1948 إلى 1967. فقد كانت القدس جوهره المملكة بسبب قيمتها التاريخيّة والدينيّة وعراقتها الحضاريّة وأهميتها العربيّة والعالميّة، حتى بهتت العاصمة عمّان أمام وهج القدس الطاعني. فكان الملك عبدالله في غاية السعادة عندما سيطر الجيش بقيادة عبدالله التل على القدس القديمة ووقع بغرام المدينة واستمر احتفاله بضمّها إلى مملكته شهوراً عدّة، إلا أنّه لم ينقل عاصمته إليها ولم يمنحها التمويل الكافي لجعلها فعلاً جوهره المملكة. بل أخذ ينقل مؤسساتها وبعض معالمها وأصحاب الخبرات فيها إلى عمّان إلى أنّ قتله فلسطينيّ في المسجد الأقصى عام 1951. وفي عهد الملك حسين بين 1952 و1967 تصاعدت الدعوات إلى جعل القدس عاصمة الأردن وإذا لم يكن ذلك ممكناً فعلى الأقل أن تكون العاصمة الصيفيّة أو العاصمة الثانية. وإذا لم يكن ذلك ممكناً فعلى الأقل نقل بعض الوزارات والإدارات العامة من عمّان إلى القدس وعقد جلسات البرلمان الأردنيّ فيها مناصفة مع عمّان. ويمكن اعتبار إهمال العرش لوضع القدس جزءاً من خسارتها عام 1967 أمام الزحف الإسرائيليّ. وحتى الملك حسين بعدما رأى جدّه يسقط بالرصاص أمام المسجد الأقصى عام 1951 لم يزر القدس إلا نادراً. وحتى عندما أراد أن يعزّز وضع القدس أمر ببناء قصر له في ضاحية القدس الشماليّة. ولكن حتى الحجر الأساس لم يتم وضعه قبل العام 1963 ولم يكن البناء مكتملاً عندما سقطت المدينة عام 1967.²⁹⁷

²⁹⁴ Uriel Dann, *King Hussein and the Challenge of Arab Radicalism*, p. 8.

²⁹⁵ عبد الله التل من مدينة إربد، قائد جبهة القدس في الجيش الأردني عام 1948، رفض قيام "إسرائيل". تولى مناصب رسمية في وزارات الخارجية والداخلية والشؤون الإسلامية، وعين عضواً لمجلس الأعيان الأردني. كان التل عروبي الهوى على الطريقة الشامية. إذ في حرب 1948، وكان في الثلاثين من عمره. قاد أفراد الكتبية السادسة بالجيش الأردني، وتوجه لأفرداها بالقول "إن مصير العرب يتوقف على ثباتكم وشجاعتكم وصبركم.. إنكم ولا شك ستحافظون على سمعة الجندي العربي الذي إذا هاجم لا يهاب الموت، وإذا دافع لا يتراجع حتى النهاية، هيا لتبييض أعراض العرب بالدماء، والله ينصركم". منذ عام 1949 أخذ التل يطالب بإنهاء السيطرة البريطانيّة على الجيش الأردني، لكنّه دفع ثمن هذا الموقف، حيث اتهمته سلطة الملك عبدالله بتدبير "مؤامرة ضد الحكومة الأردنيّة". وكان الإنكليز وراء التهمة. ونُقل كملحق عسكري في السفارة الأردنيّة في لندن، فاستقال وانتقل إلى القاهرة وعاش فيها ثمانية أعوام حتى أعفى عنه الملك الحسين في نيسان 1956 فعاد إلى الأردن. فُشغل مناصب رسميّة منها سفير في الخارج. وعيّنه الملك عضواً في مجلس الأعيان عام 1971 تقديراً لجهاده.

²⁹⁶ وصفي التل (1919 - 28 شباط 1971) سياسي ووزير أردني. شكّل حكومته الأولى في 28 كانون الثاني 1962 خلفاً لحكومة بهجت التلهوني، وحكومته الثانية عام 1965. أمّا حكومته الثالثة فقد جاءت لإدارة الأزمة مع الفدائيين في 28 تشرين الأول 1970 حتى اغتاله عناصر من منظمة أيلول الأسود منبثقة عن حركة فتح في 8 تشرين الثاني 1971. وأطلق عليه لقب "شهيد الأمة" لشعبيته.

²⁹⁷ Naim Sofer, "The Political Status of Jerusalem in the Hashemite Kingdom of Jordan, 1948- 1967", *Middle East Studies*, no.

12, January 1976, 73-94.

مع صعود حركات المقاومة، كثرت ضغوط الموالاة على العرش بضرورة وضع حدٍّ للمشاغبين والثوريين. وكان القمع الذي سمح به الملك حسين لا يتجاوز الحظر والمحاكمة العسكرية وأحكام سجن طويلة ونفي إلى معسكرات في الصحراء من دون محاكمة و"تشجيع" البعض على مغادرة الأردن طوعاً، ولم تصل الأمور إلى إعدامات بحق معارضين سياسيين باستثناء الذين ثبتت عمالتهم لـ"إسرائيل" أو قاموا بجرائم فادحة كحادثة تفجير هزاع المجالي وآخرين. وهزاع هو من عشيرة المجالي البدوية الأصل من الكرك والتي تشكل سنداً قوياً للعرش. وفوق ذلك، عوّض الحكم الملكي عن قمعه للمعارضات بحسنات منها أن إدارات الدولة لم تكن فاسدة أو غير فعّالة مثل دول عربية أخرى ولم تكن مستبدة بشكل عشوائي مريض. ولم تهمل الدولة مسألة دمج الفلسطينيين سواء في البرلمان أو الحكومة أو الإدارة العامة. وحتى الأخوان المسلمون جنحوا إلى مهادنة الملك بعد قمعهم في سورية ومصر في الخمسينيات والستينيات. فقد بقي أخوان الأردن على ولائهم للمرشد العام في القاهرة ما منحهم أهمية غربية في تاريخ الأردن، وغرايتها أن تأثيرهم في الأحداث حتى اليوم لا يزال طفيفاً وكان حراكهم خفراً قياساً للهزات الكبرى التي قادها الأخوان في "الربيع العربي" عام 2011. فالأخوان بغضوا الأسرة الهاشمية الحاكمة في الأردن في الخمسينيات والستينيات بسبب جذورها الغربية وأسساها البريطانية وأسلوب حياتها العصري البعيد بنظرهم عن الصراط المستقيم، ولكن بغضهم وعداءهم للرئيس المصري كان أكبر وأكثر صرامة من انتقاداتهم للملك حسين وعائلته. فكان موقعهم ليس مع المعارضة الأردنية التي كانت تهتف لعبدالنصر والناصريّة في عمان. وفوق ذلك أبقى الملك حسين لغة الانتماء للعروبة وأنه متحدّر من الرسول العربيّ وشديد الإيمان بالإسلام.

تطوّرات المشرق عام 1969

في شباط 1969، توفي ليفي اشكول رئيس وزراء "إسرائيل"، فخلفته في الحكم غولدا مثير وهي من صفوف حزب العمل، وعيّنت اسحاق رابين المحسوب على الأميركيين مستشارها الأول. وهذا التحوّل سيكون نذير شؤم استراتيجياً للعرب في ما بعد. إذ إن الولايات المتحدة وحتى 1967، كانت لا تزال تلعب دوراً أقرب إلى الحياد في الصراع العربي - الإسرائيلي، مع صداقة كبيرة لـ"إسرائيل". ثم بدأ التحوّل الكبير لتصبح أميركا حليف "إسرائيل" الأول في المنطقة بعد 1967. فقد كان رابين سفيراً لـ"إسرائيل" في واشنطن وعمل على تعزيز العلاقات وعلى إقناع أميركا بأن تكون المصدر الرئيس للسلاح لـ"إسرائيل" بدلاً من فرنسا التي كانت تتحوّل بقيادة ديغول نحو مزيد من التعاون مع العرب، وقد أصبحت حرب الجزائر وراءها. أما التطور الآخر الذي لم يكن لصالح العرب فهو ظهور هنري كيسنجر في أميركا. فقد بدأ عهد الرئيس ريتشارد نيكسون في كانون الثاني 1969، وكان يرغب كأسلافه في مواصلة سياسة "معاملة الأقران بالتساوي" في الشرق الأوسط - evenhandedness - الأ أنه عيّن كيسنجر مستشاراً للأمن القومي (ثمّ وزيراً للخارجية). وكان كيسنجر يهودياً يؤمن بالصهيونية بشدّة وسيكون لدوره السلبيّ ضد العرب أعمق الأثر في المنطقة ومستقبلها منذ تقسيمها بعد الحرب العالمية الأولى.

وشهد شهر شباط 1969 صعود ياسر عرفات من قائد لحركة فتح إلى رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية التي حولها من أداة بيد الأنظمة تُصدر البيانات وتعدّد المؤتمرات إلى تنظيم عسكري، ما هَدَد استقرار الدول العربيّة المواجهه لـ"إسرائيل" وخاصة الأردن وسورية ولبنان. وكانت المناوشات قد بدأت فعلاً بين الجيش الأردنيّ والمنظمات الفلسطينية وبين الجيش اللبنانيّ وهذه المنظمات منذ نيسان 1969، بعدما تصاعدت العمليّات الفدائيّة ضدّ "إسرائيل" وتفاقمّت ردّات الفعل الإسرائيليّة القاتلة على البلدين.

كما أنّ مصر استعادت المبادرة العسكريّة فبدأت منذ آذار 1969 حرب استنزاف ناجحة ضدّ "إسرائيل"، وتتوّجت عام 1973 (رغم وفاة عبدالناصر) بعبور الجيش المصريّ قناة السويس وتحرير ضفّتها الشريقيّة. أما في سورية، فأزاء هذه التطورات، استمرّت الإزدواجية بين سياسة تقضي بلجم المقاومة وإعلاء شأن التعاون العربيّ في القضيّة الفلسطينيّة، وسياسة ثوريّة تقضي بدعم حركات المقاومة الفلسطينيّة وإطلاق يدها. فسورية كانت تراقب بقلق ما يحدث في الأردن ولبنان من مواجهات بين المقاومة الفلسطينيّة والجيشين الأردنيّ واللبنانيّ. ذلك أنّ سورية كانت تلملم جراح حرب 1967 وتُعيد بناء قوّاتها المسلّحة وتعتني باللاجئين السوريين والفلسطينيين. وكانت تصل تقارير عن صعود المقاومة الفلسطينيّة حتى بات ضبّتها أمراً صعباً بعد ازدياد قوّتها بفضل الدعم الماليّ وتطوّر آلاف الشبان الفلسطينيين والعرب في صفوفها وافتتاح مكاتب لها في دول عدّة وحصولها على السلاح. وحتى في سورية نفسها تمّعت المقاومة بشعبية بعد بروزها كبديل ثوريّ للأنظمة التي خسرت حرب 1967.

ورغم أنّ سياسة صلاح جديد ورفاقه كانت مع المقاومة والحرب الشعبيّة وتغذية منظمة الصاعقة التي أنشأتها سورية، فقد أصدر وزير الدفاع حافظ الأسد في أيّار 1969 تعميماً عسكرياً يقيدّ تحركات المقاومة الفلسطينيّة داخل سورية. وشرعت سورية في العمل على بناء جبهة مشريقيّة وفق مقررات المؤتمر القطريّ الذي انعقد في آذار 1969، فاستقبلت جبهة الجولان ستة آلاف جنديّ عراقيّ، وأرسلت سورية وحدات مدفعية إلى الأردن. وتبلورت الجبهة المشريقيّة بتعيين ضابط عراقيّ رئيساً لها يتخذ جنوب سورية مركزاً له، وترتبط مع الجبهة الجنوبيّة (المصريّة) في قيادة عسكريّة عربيّة موحّدة يرأسها ضابط مصري هو محمد فوزي. ولكن الخطوات السريعة في بناء الجبهة المشريقيّة لم تُبنّ على أسس متينة بل أبقّت على تراكمات السنين من شكوك وعداوات واتهامات بين بغداد ودمشق وعمّان.

وظهرت أول تجربة لهذه الجبهة في صيف 1970، بعد أحداث الحرب الأردنيّة. إذ انسحب الجيش العراقيّ من سورية وعادت القوات السوريّة من الأردن.

ولكن سورية سجّلت تقدماً في ملفات عدّة أخرى. ذلك أنّ انفتاح سورية العربيّ المستجدّ أكسبها صداقة الكويت التي منحت دمشق سلسلة من القروض والمنح لأغراض تنمويّة. كما أنّ خصام سورية مع اليمن الجنوبيّ الحليف لعبدالناصر وحيث لحركة القوميّين العرب نفوذ، انتهى ما سمح لدمشق وعدن بتبادل السفراء. وحتى الموقف السوريّ المتشدّد في دعم المنظمات الفلسطينيّة لحقه الاعتدال. إذ إنّ الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين قامت بخطف طائرة أميركيّة (TWA) إلى دمشق في آب 1969، فتعاملت السلطات السوريّة مع ركّاب الطائرة باحترام وتمّ إطلاقهم بمن فيهم راكبان إسرائيليّان لقاء إطلاق "إسرائيل" سراح ثلاثة عشر

أسيراً سورياً. وانفتحت سورية على الاستثمارات الخارجية وخاصة من الدول العربية النفطية، مانحة ضمانات وحوافز للقطاع الخاص وتنشيط السياحة تضمّنت رفع العراقيل عن السياح من الغرب. وفي تشرين الأول 1969، انتُخبت سورية لعضوية مجلس الأمن الدوليّ لمُدّة عامين.

كما سارت الحكومة السورية في نهج انفتاحي على الدول العربية ووافقت لأول مرة منذ سنوات على حضور مؤتمر قمة في الرباط في كانون الأول 1969. ولكنها خفّضت مستوى التمثيل إلى وزير. وإذ فشل الوفد السوري في الحصول على مساعدات وفشلت القمة في حشد الطاقات العربية وراء مصر وسورية، أيقنت دول المواجهة (مصر وسورية والأردن) أنّها تتحمّل دون باقي الدول العربية العبء الأكبر في الصراع مع "إسرائيل". وانضم إلى موقف دول المواجهة ليبيا والسودان حيث وقع انقلابان مؤيّدان لعبدالنصر خلال فترة وجيزة. ولدى انتهاء القمة، اتّجه عبدالنصر إلى طرابلس الغرب في ليبيا، حيث التقى بزعيم ليبيا الجديد معمر القذافي وزعيم السودان الجديد جعفر النميري. وأسفرت القمة الثلاثية عن إعلان سريع لـ"اتفاق طرابلس" لإقامة "جبهة ثورية" عربية تتعاون في مسائل الدفاع والسياسة الخارجية وشؤون التنمية الاقتصادية. ولكن لم يتجاوب عبدالنصر مع رغبات ليبيا والسودان في اتحاد الدول الثلاث المتجاورة جغرافياً، ونصح في زيارة إلى الخرطوم في أيار 1970 السودان بعدم التسرّع في وحدة مع مصر.

هذا التردّد المصري لم يرقّ للقذافي الذي اعتبر نفسه "أميناً على القومية العربية". فبدأ حملة يدعو فيها إلى وحدة عربية اندماجية على المستويات كافة، لأنّ وحدة كهذه في رأيه كفيلة بتحرير الأمة العربية من الصهيونية والاستعمار والشيوعية. وبدأ القذافي جولة عربية للترويج لفكرته، قادته إلى دمشق في حزيران 1970، حيث أفسح له المجال ليتحدّث من راديو دمشق. وانتقد القذافي من راديو دمشق استراتيجية حرب التحرير الشعبوية التي يتبنّاها صلاح جديد وزملاؤه لأنّ المواجهة الصحيحة هي بين جيشين في ساحة القتال: فلا يُعقل "أن يخوض 100 مليون مواطن عربيّ حرباً شعبية ضد مليوني إسرائيليّ".

فشلّ قمة الرباط في القيام بعمل عربيّ مشترك طمأن "إسرائيل" أنّ العرب ضعفاء. فتشجّعت وقامت باعتداءات جديدة ضد سورية ولبنان. ولم تفد محاولات عبدالنصر قيام جبهة دول مواجهة، إذ عندما التقى قادة هذه الدول في القاهرة في شباط 1970، كانت الجبهة السورية مشتتة حيث دارت معارك جوية ومدفعية في الجولان تواصلت لشهور عدّة. وفي أيار 1970، خاض الجيش السوري معركة بالدبابات والطائرات والمدفعية في الجولان، في وقت كانت "إسرائيل" تشنّ هجوماً واسعاً على جنوب لبنان وخاصة في منطقة العرقوب الحدودية التي جعلتها حركة فتح قاعدة لانطلاق عمليات المقاومة الفلسطينية²⁹⁸. كلّ هذه التطورات على الجبهات المختلفة تقرّمت أمام الحدث الأردنيّ.

²⁹⁸ حول الاعتداءات الإسرائيلية على جنوب لبنان، انظر كمال ديب، أمراء الحرب وتجار الهيكل، صفحات 469-472.

أيلول الأسود في عمّان

كان الوجود الفلسطيني في الأردن شديد التعقيد: بين سكان المدن الذي اندمجوا تماماً في المجتمع والدولة، والنازحين من فلسطين 1967 و1948 الذين عاشوا في مخيمات. وكانت أحوالهم مزرية اقتصادياً واجتماعياً ونفسياً مقارنة بالفلسطينيين المستقرين في المملكة الذين لم يعد ممكناً تمييزهم عن سائر السكان. ولم يكن الحكم الملكي يثق باللاجئين. فكان الجيش الأردني يطوّق المخيمات سواءً تلك التي اتخذت مظهر المخيم بإشراف الأونروا أو تلك التي تحوّلت إلى بلدات ومدن كمخيم اليرموك جنوب دمشق، مثل مخيمات عقبة جابر والزرقا وتلك المجاورة لعمّان. حتى أنها باتت بركاناً على وشك الانفجار بعد حرب 1967 الخاسرة. كما اخترقت قوى الشرطة والمخابرات المخيمات وراقبت تفاصيل التنظيمات والحركات السياسية والعسكرية. لقد عمد الحكم الملكي إلى مفاضلة سكان شرق الأردن إلى حد استعمال أموال الأونروا المخصصة للاجئين الفلسطينيين لصالح تنمية مناطق شرق الأردن. حتى أن مشروع قناة الأغوار لتوفير مياه نهر الأردن للسكان في فصول الجفاف، اقتصر على بناء قناة شرق الأغوار ولم يتم بناء قناة غرب الأغوار على الضفة الغربية بل تمّ التلاعب بأموال الأونروا لدعم القناة الشرقية.

خلال سنوات طويلة كان الأردن يشجّع سكان الضفة الغربية على الانتقال شرقاً مع ما يحمل هذا الانتقال من تأثير ديمغرافي على مستقبل البلاد. ذلك أن معظم النازحين أو المنتقلين شرقاً استقروا في عمّان وضواحيها إضافة إلى المخيمات المحيطة بعمّان. ذلك أن سكان القرى والبلدات الصغرى حول البلاد لم يتقبلوا قدوم "غرباء" بينهم. في حين كانت عمّان الكبرى تفتح ذراعيها بالترحاب. حتى استيقظت المدينة وقد أصبحت "بأغلبية فلسطينية" سواءً من سكانها القدماء أم من الوافدين بين 1967 و1970، مع أنها كانت الركيزة الكبرى للحكم الهاشمي وأصبحت جوهرة التاج بعد احتلال القدس الشرقية عام 1967. فكان الحكم الملكي ليس فقط لا يثق بجحافل اللاجئين لا بل هو خائف منهم وهو المحافظ بطبيعته والقائم على صلاحيات وسلطات تقيم استقراراً دقيقاً في منطقة متفجرة²⁹⁹.

خلال 1970 كان الصراع في الأردن بين الملك حسين والدولة الأردنية من جهة والمقاومة الفلسطينية وحلفائها من جهة أخرى قد تحوّل إلى حرب أهلية مفتوحة، حيث دارت معارك دامية في شباط وحزيران. ما شكّل عاملاً إضافياً للولايات المتحدة للتدخل حتى لا يسقط النظام الأردني بأيدي الثوار الفلسطينيين وتنحدر المنطقة إلى الفوضى. فيما كان جناح قوي داخل "إسرائيل" يفضّل سقوط الملك والنظام الهاشمي حتى تقوم دولة فلسطينية في الأردن.

Uriel Dann, *King Hussein and the Challenge of Arqab Radicalism*, p. 15.²⁹⁹

من ناحيته كان الملك حسين يسعى لكبح جماح المقاومة الفلسطينية التي كانت تسيطر على نقاط استراتيجية عدة داخل الأردن، تدعمها فعاليات سياسية وعسكرية وشعبية أردنية، حيث شكّل الفلسطينيون أغلبية سكان الأردن. في وقت كانت المقاومة تلقى مناصرة عارمة في الشارع العربي³⁰⁰.

أمام تداعيات حرب 1967 وفشل مشاريع الوحدة العربية واشتعال الحرب الأهلية في الأردن، أخذ عبدالناصر ينظر بجديّة إلى المبادرة الأميركية لإطلاق مفاوضات سلمية مع "إسرائيل"، وعُرفت في حينها بمبادرة روجرز نسبة إلى وزير الخارجية الأميركية. وشارك الحسين عبدالناصر هذه النظرة. فتبلور الموقف المصري أكثر عندما تحدّث عبدالناصر في 25 حزيران 1970 عن انسحاب "إسرائيل" ضمن اتفاق سلام من سيناء والضفة الغربية ولكنه ذكّر أيضاً أنّ مصر لن توفّق صلحاً منفرداً مع "إسرائيل" على حساب سورية. وفي دمشق عُقد مؤتمر استثنائي لحزب البعث على المستويين القطري والقومي في تموز 1970 أكد رفض سورية قرار مجلس الأمن 242 ودخّص أوامهم بعض العرب أنّ الوسيط الأميركي سيكون عادلاً لتحقيق ما سمّاه البعث "سلام القبور"³⁰¹. في 23 تموز 1970، عيد الثورة المصرية، نضج الموقف المصري وأعلن عبدالناصر قبوله مبادرة روجرز، ما أدّى إلى خفض وتيرة حرب الاستنزاف بين مصر و"إسرائيل" على امتداد جبهة السويس، وفتح الباب لتوقيع اتفاق لوقف إطلاق النار بين الجانبين في 7 آب. هذا التطور الدراماتيكي والسريع ظهر لسورية وكأنّ مفاوضات السلام قد اقتربت وأنّ ساعة القرار قد دنت. وكانت سورية قلقة من اندفاع مصر والأردن إلى قبول مبادرة روجرز ما يعني أنّ سورية والفلسطينيين سيصبحان وحيدين في مواجهة "إسرائيل" ويجب على سورية لجم القاهرة وعمّان عن توقيع سلام غير مشرف والحفاظ على وحدة الصف. وكانت سورية - بعكس بعض الدول العربية الغارقة في المزايدات - متعاطفة مع عبدالناصر الذي كان يخوض حرب استنزاف قاسية. فأوفدت مصطفى طلاس للمشاركة في مؤتمر في طرابلس الغرب في آب 1970 للتباحث في تفاصيل المبادرة الأميركية، رغم الموقف السوري الرسمي الراض للمبادرة.

كانت النظرة في دمشق تجاه المنظمات الفلسطينية تتبدّل من كونها أدوات حرب تحرير إلى عاهة للجهد العربي المنظم وأن "إسرائيل" تستغلّ نشاط التنظيمات للإغارة على أهداف في سورية ومصر والأردن ولبنان ساعة تشاء. وخاصة أنّ الجيش الإسرائيلي بعد 1967 بات على أبواب دمشق والمسألة باتت تتجاوز شعارات الثورة، وتتعلّق بأمن البلاد. فكيف يمكن لدولة تحترم نفسها كلبنان والأردن ومصيرها مهدّد كسورية، أن تسمح لمجموعة من المسلّحين بحريّة كاملة لخوض حرب تحرير شعبية من أراضيها وأن تسمح لهؤلاء بالتصرّف كما يشاؤون وأن يتدخّلوا في شؤونها الداخلية؟ وكيف يمكن لسورية أن تكون لها استراتيجية عسكرية إذا كانت المنظمات الفلسطينية تتصرّف باستقلالية عن الدولة وتنفّذ استراتيجيتها هي؟

كان قلق سورية في محله. إذ إنّ منظمة الصاعقة التي حظيت برعاية الدولة كحركة بعثية فلسطينية في حرب التحرير، بلغت من القوّة حدّاً باتت معه عنصر شغب. فبلغ عديدها خمسة آلاف. وفي هذا الاتجاه،

Alan Dowty, "The U.S. and Syria - Jordan confrontation 1970", *The Jerusalem Journal of International Relations*, vol. 3, no. ³⁰⁰

2 - 3, 1978, pp. 172 - 196.

Patrick Seale, *ASAD*, p. 155.³⁰¹

واصل وزير الدفاع السوري حافظ الأسد ما بدأه. فأضعف منظمة الصاعقة واعتقل ثلاثة من زعمائها البارزين وقصص من عديدها وموئيلها. ثم وضعها تحت إشراف الجيش السوري مباشرة. لقد شاهد الأسد من خلال التجربة خطر الصاعقة على استقرار سورية أثناء حرب الأردن. إذ في حمأة القتال في أيلول 1970، توصلت منظمات المقاومة الفلسطينية إلى وحدة البندقية في ساحة القتال وتخلت عن خلافاتها لمواجهة عدو مشترك هو الملك حسين³⁰². فتبنت منظمة الصاعقة هذا الطرح وأخذت تدفعه داخل سورية أيضاً وتطالب بعلاقات مميزة مع حركة فتح التي لا تخضع لدمشق. ولذلك تحرك الأسد ضد الصاعقة واعتقل مسؤوليها الذين قادوا هذا التوجه، لأنه لن يسمح لا الآن (ولا في ما بعد في حرب لبنان) بحركة مقاومة فلسطينية مستقلة عن الدولة السورية.

وكان حافظ الأسد قد زار عمان قبل عام وشهد بنفسه تصرفات المنظمات الفلسطينية تجاه الدولة ورموزها في الأردن. وهاله ما شاهد من ملصقات فلسطينية ملأت شوارع عمان تطفح بالشعارات وأحدها يقول "كل السلطة للمقاومة"، في حين كان الفدائيون الفلسطينيون يسرون علناً في شوارع عمان ملبسهم العسكرية بدون رادع ويتحرشون بعناصر الجيش الأردني. وسمع الأسد من المسؤولين الأردنيين أن الفدائيين أوقفوا ضباطاً أردنيين على حواجزهم وصادروا أحذيتهم وأطلقوهم حفاة الأقدام. ولئن كان الأسد يعشق الانضباط العسكري ويحترم مهنية الجيش ويفهم أهمية أمن الدولة في السياسة والاقتصاد، غضب من هذا الفلتان³⁰³. وقال إنه كان دائماً ضد الفوضى لأنها تؤدي إلى الخراب وكان يتمنى لو حافظت المقاومة الفلسطينية على طهارة السلاح دون أن تتدخل في شؤون البلدان العربية، وخاصة في لبنان وسورية والأردن، مع إيمانه بحق المقاومة في قاعدة مناسبة للتحرك.

كان الملك حسين يطرح الأسئلة نفسها التي أثارها الأسد والتي أفضت مضاجع الدولة اللبنانية أيضاً ويرى الفدائيين عائقاً أمام أي جهد سلمي في المنطقة. فشجعت المبادرة الأميركية للسلام على التحرك لسحقهم بالقوة. وهكذا تصاعدت أعمال العنف والمواجهات العسكرية المتقطعة في الأردن منذ حزيران 1970، ووصلت منحدرًا خطيراً جداً. ففي 7 و9 أيلول قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش بخطف أربع طائرات ركاب مدنية على متنها مئات الركاب بينهم أميركيون وإسرائيليون. ما أعطى الحجة للملك بشن هجوم كبير وشامل على كافة المواقع الفلسطينية العسكرية والمدنية في الأردن. فأعلن حكومة عسكرية في 15 أيلول وبدأ معركة كبرى في عمان استعمل فيها الجيش الأردني كافة الأسلحة من مدفعية وطائرات ودبابات لمدة اسبوع كامل، ما أدى إلى مصرع عدد كبير من المدنيين وإلى تدمير منشآت وأبنية في العاصمة الأردنية وفي المخيمات الفلسطينية.

وأمام الصمت العربي على ما يجري في الأردن، لم تستطع القيادة العسكرية في سورية أن تقف مكتوفة اليدين حتى لو أدى تدخلها إلى تهديد مبادرة روجرز. لقد كان صحيحاً أن سورية تقبل ضبط المقاومة الفلسطينية في الأردن ولكنها لم تكن مع ارتكاب مجزرة بحقها.

³⁰² هذا تكرر في لبنان في الثمانينات أثناء حرب المخيمات بين "حركة أمل" اللبنانية والتنظيمات الفلسطينية عندما ذابت خلافات الفلسطينيين أمام الخطر المشترك.

³⁰³ 7 Patrick Seale, ASAD, p. 15

وفي 17 أيلول 1970، رجت القيادات الفلسطينية سورية أن تسعفها، فأرسلت دمشق أسلحة فردية. ثم تَكَرَّرت نداءات الاستغاثة بعدما تبين حجم حملة الجيش الأردني، فأرسلت سورية المزيد من الأسلحة، أخذ الأسد بعضها من حرس وزارته لعدم توفرها في المخازن. وسهَّلت سورية دخول متطوعين فلسطينيين وسوريين إلى الأردن. وحاول الأسد أن يحشد الدعم للمقاومة فطلب إلى العراق أن يستعمل قواته المرابطة في الأردن منذ حرب 1967 والبالغ عددها 15 ألفاً لتخفيف الضغط عن الفلسطينيين ودفع الملك إلى التفاوض. واتصل الأسد بوزير الدفاع العراقي حردان التكريتي فلم يلق أذناً صاغية. في حين كان الضباط العراقيون على الأرض داخل الأردن يردون على توصلات الفلسطينيين بالقول "ماكو أوامر" (لا أوامر لنا بالتدخل).

عندئذٍ قرَّرت سورية التدخل لنجدة الفلسطينيين بعدما اتضح أنَّ ما تفعله السلطات الأردنية قد تجاوز التأديب والردع وتحول مجزرة يجب وقفها، على أن لا يهدد التدخل السوري استقرار الأردن، بل أن يبقى في حدود فتح باب التفاوض لحفظ رأس المقاومة. فوضعت خطة للتدخل بإرسال وحدات عسكرية مدرَّعة أدارها الأسد شخصياً من مركز قيادة انتقل إليه في مدينة درعا على الحدود الأردنية يوم 18 أيلول. فاحتلت هذه القوة مدينة إربد الأردنية صباح 19 أيلول.

ولكن "إسرائيل" كانت تراقب ما يجري ساعة بساعة. ولقد أشرنا أعلاه إلى ظهور حكومة جديدة أكثر تطرفاً عسكرياً من أشكول في تل أبيب وصعود نجم اسحاق رابين كمستشار رئيسة الحكومة غولدا مثير وسفيرها في واشنطن، وصعود هنري كيسنجر. فأذنت الحرب الأردنية لأميركا و"إسرائيل" بامكانية ولادة وضع إقليمي جديد. إذ إنَّ كيسنجر فسَّر التدخل السوري - وإن كان محدوداً - بأنه "مؤامرة سوفياتية" تنفذها سورية ومنظمة التحرير الفلسطينية للقضاء على النظام الأردني الموالي للولايات المتحدة وجعل الأردن تحت نفوذ موسكو. فأقنع كيسنجر نيكسون أنَّ على أميركا أن تتصرَّف لنجدة الحسين المخلص للغرب. وكان كيسنجر حريصاً على أمن "إسرائيل" كلما وقع أي تحرُّك عربي. فإذا قام عبدالناصر بحرب استنزاف على قناة السويس، نصح كيسنجر بمضاعفة مد "إسرائيل" بالأسلحة الأميركية وإذا تدخلت سورية لنجدة الفلسطينيين في الأردن، سعى أيضاً لتدخل أميركي.

في اليوم التالي لسقوط إربد اتصل الملك حسين بالأميركيين وطلب منهم العون. وكان يعاني الإحباط ويشعر أنَّ الجيش السوري الذي دخل شمال البلاد يهدد عرشه. وكان الحسين شديد القلق إلى درجة أنه قال للجانب الأميركي إنه في حال عدم تدخل أميركا عسكرياً فإنه مستعد لقبول تدخل إسرائيلي ضد سورية يحفظ عرشه من السقوط.³⁰⁴ وفي 21 أيلول تجاوب كيسنجر مع الحسين واتفق مع رابين في واشنطن على خطة تقضي بإغارة الطائرات الإسرائيلية على القوة السورية المهاجمة وأن تفتح "إسرائيل" مدافعها على المواقع السورية في الجولان ابتداءً من صباح اليوم التالي 22 أيلول، وصولاً إلى غزو بري إسرائيلي للأردن لصد السوريين.

³⁰⁴ Henry Kissinger, *White House Years*, New York, Little Brown and Company, 1979, p. 618.

William Quandt, *Decade of Decisions: American Policy Toward the Arab-Israeli Conflict, 1967-1976*, university of California Press, 1978, pp. 115-118;

Yitzhak Rabin, *The Rabin Memoirs, Expanded Edition with Recent Speeches, New Photographs, and an Afterword*, University of California Press, 1996, p. 148.

وموافقة الحسين على خطة كيسنجر، وافق نيسكون مبدئياً أيضاً "طالما القاضي راضي". ولكن نيكسون جمع مستشاريه الذين وافقوا على تحليل كيسنجر أن التدخل السوري في الأردن يشي بمؤامرة سوفياتية، وهذا يعني أميركا بالدرجة الأولى. فترجع نيكسون عن قبوله بمشاركة "إسرائيل" لأن مستشاريه حذروا من أن أي تدخل إسرائيلي واضح في الأردن قد يشعل حرباً إقليميّة تورط الدول الكبرى. وتعددت الأمور أن "إسرائيل" بدأت تحشد جيشها على الحدود الأردنيّة، في نفس الوقت الذي كانت واشنطن تحرك قطع الأسطول السادس في المتوسط وتصدر أوامر بوضع سلاحها الجوي على درجة استعداد. أما الحسين فقد ارتاح لخطة تدخل "إسرائيل" دون أن يعلم أن واشنطن عدلت الخطة وتتولى معالجة الأزمة مباشرة. فأمر اللواء المدّرع 40 يوم 22 أيلول أن يتصدّى للقوات السوريّة بمساعدة الطيران الأردني. وبسبب غياب التواصل بين عمّان ودمشق، كان سوء التفاهم هو سيّد الموقف. إذ إن تحركات الأردن بُنيت على أساس أن نظام الملك مهدّد، في حين كان كلّ ما تريده سورية هو خلق ملاذٍ آمنٍ للفلسطينيين في شمال الأردن يفاوضون منه الملك احسين. فلم يكن الأمر يحتاج إلى التحركات الدوليّة التي يقوم بها العاهل الأردني. كما أن الأسد لم يكن يرغب في أن يتحوّل التدخل السوري إلى حرب بين الدولتين الشقيقتين. ولكن قرعة السلاح كانت أعلى من الديبلوماسية. إذ إن الولايات المتّحدة قرّرت التدخل وحذرت في اليوم نفسه من أنها لن تسمح باستمرار التوغّل السوري.

كل هذه المعطيات - خطر التدخل الإسرائيلي والتحريك الأميركي وإقحام الملك جيشه في مواجهة السوريين، زائد رغبة سورية في حقن دماء الطرفين - دفعت سورية إلى إصدار أوامر بالانسحاب وعدم استعمال سلاح الجو السوري كي لا تتدهور الأمور أكثر من ذلك. ولكن القوّات الأردنيّة لم تقرأ النيات السوريّة الحسنة جيّداً بل اغتنمت الفرصة ونفّذت هجوماً أوقع خسائر فادحة في الأرواح والعتاد في القوات السوريّة المنسحبة. أما المقاومة الفلسطينيّة فقد تصدّت للجيش الأردني في الشمال وانشق جنود وضباط أردنيون عن قيادتهم وانضموا إلى الفلسطينيين. فوضعت المقاومة حدّاً لاندفاع الجيش الأردني وأنقذت أعداداً كبيرة من الفدائيين كادت تلاقي حتفها.

جلب تدخل سورية عاصفة دوليّة من التنديد والضغوط حتى من الاتحاد السوفياتي ومن مصر اللذين وجدا في التدخل السوري حجّة لأمركا و"إسرائيل" لدخول المعركة. وبين تعزيز سمعة سورية في أوساط الشعب العربي لنجدها الفلسطينيين والتنديد الرسمي العربي والدولي بالتدخل السوري، رجحت كفة الاستجابة للشارع العربي في قرارات سورية وبقيت النقطة الوازنة لصالح التدخل. إذ إن المقاومة الفلسطينيّة، وخلفها الرأي العام الفلسطيني والعربي، شكرت الحكومة السوريّة لأنها كانت الوحيدة التي نصرت القضية الفلسطينيّة من بين كلّ العرب. وبذلك انتعشت شعبيّة البعث على المستوى الشعبي العربي المنزعج من المواقف الغامضة والمقلقة للحكومات العربيّة تجاه المقاومة الفلسطينيّة. كما أن الحكومات العربيّة أخذت طرف "الحياد" بين النظام الأردني والفلسطينيين، فساوت بين طرفي الحرب.

كانت الصورة من واشنطن مختلفة. إذ إن توسّل الأردن مساعدة أميركيّة - إسرائيليّة يوم 20 أيلول وتأهّب "إسرائيل" للتدخل يوم 22 أيلول رأته واشنطن من منظار الحرب الباردة مع موسكو. واعتبرت أن تهديد "إسرائيل" بالمشاركة العسكريّة قد سجّل انتصاراً للعالم الحرّ ضد المدّ الشيوعي في المنطقة. ولذلك اعتبرت

أميركا أن "إسرائيل" هي سند هام لسياسة واشنطن العالمية وعنصر في الأمن الإقليمي للدفاع عن حلفاء أميركا من العرب. وهذه كانت الخطوة الأولى لتصبح "إسرائيل" الحليف الاستراتيجي الأول لأميركا في المنطقة بعدما كان شاه إيران هو الأول.

في الأيام التي تلت معركة 22 أيلول في شمال الأردن، سيطر الملك على الوضع. فتأكدت واشنطن من صوابية سياستها وأهمية الدور الإسرائيلي وعمت الفرحة أوساط الإدارة الأميركية. وفي 25 أيلول هنا كيسنجر راين وطلب منه نقل رسالة شخصية من نيكسون إلى مثير جاء فيها "أن الرئيس الأميركي لن ينسى دور "إسرائيل" في وقف تدهور الوضع في الأردن ومنع إسقاط النظام، وأن الولايات المتحدة تعتبر نفسها محظوظة بحليف كـ"إسرائيل" في الشرق الأوسط. وأنها ستأخذ بعين الإعتبار ما جرى في الأردن في كل التطورات المستقبلية"³⁰⁵. وكانت سعادة "إسرائيل" عارمة من هذا التطور الاستراتيجي في العلاقة مع أميركا، ومن نيكسون الذي أكد راين في مذكراته أن كلامه كان غير مسبوق على لسان رئيس أميركي. وفي الأسبوع الأخير من أيلول 1970، وفي وقت كانت أميركا و"إسرائيل" في شهر عسل، دعا عبد الناصر إلى قمة طارئة في القاهرة لحل عربي يوقف الحرب الأردنية. فتوصل القادة العرب إلى اتفاق أوقف الحرب يوم 27 أيلول. وكان هذا آخر ما قام به عبدالناصر إذ إنه توفي فجر 28 أيلول 1970.

ولكن لم يرض الاتفاق الشارع العربي الذي استشاط غضباً أن اتفاق القمة أتى بعد مجازر كبرى بحق الفلسطينيين وأن الأردن لم يوافق على الوساطة المصرية ويوقف الحرب الا بعدما فرض شروط مدلة على المقاومة. كما رفضت سورية هذا الاتفاق ورأت أن القادة العرب قد "باعوا القضية". نعم، لقد وجدت قمة القاهرة حلاً عربياً ولكن الأذى كان قد وقع، ليس في تقاتل عربي - عربي وسقوط ضحايا فحسب، بل في تغير جيوسياسي خطير لصالح "إسرائيل"، عندما أخذت واشنطن تعتبر أزمة الشرق الأوسط جزءاً من حربها الباردة غافلة آمال وآلام العرب وخاصة عذابات الشعب الفلسطيني وقضيته وإحباط الشعوب العربية بعد هزيمة 1967. كما أن موقف واشنطن المستجد بانحيازها السافر لـ"إسرائيل" قد أضعف معسكر الاعتدال داخل "إسرائيل" وأعطى ضوءاً أخضر للفقور لضرب أي مبادرة سلام وتوكيد عقيدة صهيونية متطرفة سمحت باعتماد منطق القوة العسكرية مع جيرانها العرب لعقود طويلة في ما بعد.

والحقيقة التاريخية هي أن الإدارة الأميركية لم تتأكد فعلاً إذا ما كانت حرب الأردن مسرحاً لاختبار إرادي الجبارين في الحرب الباردة سوى ما نقله كيسنجر لنيكسون على أنها كذلك. فموسكو وقد رأت أداء العرب الضعيف في حرب 1967 لم تكن تريد حرباً جديدة في المنطقة، وموقفها في حرب الأردن كان واضحاً قضى بلجم أي تدخل عربي وخاصة من سورية. أما التدخل السوري فقد كان دافعه عقيدة الحكومة السورية القومية وكطرف في الثالوث الإقليمي، "إسرائيل - المقاومة - الدول العربية، دون أي اعتبار للحرب الباردة الدولية.

لقد ظن قادة المقاومة الفلسطينية وخاصة الراديكاليون منهم أن باستطاعتهم قلب النظام الأردني وجعل المملكة قاعدة لتحرير فلسطين. ولكنهم جلبوا الخراب على رؤوسهم والبلاء لقضيتهم ودفنوا دولة عربية

Rabin, *Memoirs*, p. 148.³⁰⁵

هي الأردن إلى قبول حماية "إسرائيل" والولايات المتحدة، ما كسر مبدأً عربياً مقدساً في عدم التعاون مع العدو ضد الشقيق. حتى ربط الأردن نفسه لعقود عدة بسياسة إقليمية مرتنة.

ولم تنجُ سورية نفسها من المغامرة الفلسطينية. إذ أثناء حرب الأردن وكلما كان الدعم السوري العسكري والتمويني شبه اليومي دون المطلوب كان قادة فلسطينيون يهاجمون سورية. أما سورية فقد رأت أن جهدها لصالح المقاومة في الأردن ذهب هباءً ولم يعد على سورية بشيء ولا حتى أنقذ رقبة المقاومة. كما أصبح الأسد على خصومة مع ياسر عرفات وتأذت علاقته مع الملك حسين بشكل غير مسبوق بعدما أصبح رئيساً لسورية. ففي السابق كان الأردن وسورية يتقاربان ويتباعدان ويخوضان حروباً باردة إعلامية ومخابراتية، ولكن دوماً ضمن الأسلوب العربي المعتاد الذي ينهي الأزمات بالتعاقب والعودة إلى مظلة الأسرة العربية الواحدة. ولكن أن يصل الأمر إلى حد لجوء الأردن لحماية "إسرائيل" لمواجهة سورية، فهذا ما أقلق سورية وسَمَّ علاقاتها مع الأردن. ثم تراوحت العلاقة في ما بعد بين رغبتها في معاقبة الحسين على تقريه من "إسرائيل" ورغبتها في جلبه إلى جبهة مشرقية لمواجهة "إسرائيل".

لقد استغلّت "إسرائيل" التدخل السوري في الأردن وحققت انتصارين كبيرين: الأول هو أخذ الأردن تحت جناح حمايتها من شقيق عربي. والثاني أنها أصبحت شريكاً لا غنى عنه للولايات المتحدة في المنطقة. وما حصل في الأردن تكرر على نطاق أوسع بكثير في لبنان ابتداءً من العام 1971. كما أن "أيلول الأسود" الأردني صبغ الأجواء التي سبقت التغيير في سورية وتسلم حافظ الأسد السلطة كاملة في دمشق في خريف 1970.

في صيف 1971 قرّر الملك حسين تصفية ما تبقى من المقاومة الفلسطينية في الأردن، الآن وقد أصبحت ضعيفة بعد "أيلول الأسود" 1970. لقد كانت الجولة الثانية من أحداث الأردن امتحاناً صعباً للأسد بين له أن انفتاح سورية على الدول العربية المحافظة لم يكن بدون عواقب. فقد وضع الانفتاح العربي سورية أمام خيار بين مبادئها القومية أو غض النظر عنها لكسب صداقة معسكر العرب المحافظين.

في ربيع 1971، كانت سورية على علم مسبق بقرار الحسين شنّ الهجوم على ما تبقى من المقاومة في حزيران، ولكنها لم تحرك ساكناً انسجاماً مع سياستها العربية الجديدة. وعندما بلغت الحملة الأردنية شمال الأردن وهاجمت مناطق متاخمة للحدود السورية، أخرجت سورية ونددت وسائل الإعلام السورية بتصفية الفلسطينيين وما يجري في الأردن، ومع ذلك تمتنع سورية عن التدخل عسكرياً كما حصل قبل عام، واقتصر الأمر على اتصال بين مصطفى طلاس رئيس الأركان ورئيس الأركان الأردني، وإرسال وفد سوري إلى عمان للتوسط. فرفض الأردنيون الوساطة، وعاد الوفد إلى دمشق وغضبت الحكومة السورية من رفض الوساطة وأمامها تقارير المجازر الدموية بحق الفلسطينيين، ما وضع سياستها المعتدلة على المحك.

لقد تلقنت سورية درساً أن العرب المحافظين لن يتراجعوا عن سياساتهم المستهجنة حتى لو ساومت سورية على مبادئها ووضعت يدها بيدهم، ما جعل الأمر يبدو أنها هي التي تتخلى عن مواقفها القومية. واستجابة للضغوط الشعبية الغاضبة في سورية وفي الدول العربية وللقاعدة الحزبية والجيش السوري، استقبلت سورية الفدائيين الفارين من الأردن وقدمت لهم المساعدات ليعيدوا تنظيم صفوفهم. وفي الشهر الثالث من الحرب

المستجدة في الأردن، اندلعت اشتباكات حدودية بين سورية والأردن وقطعت دمشق علاقاتها الدبلوماسية مع عمان وأقفلت الحدود البرية ومجالها الجوي أمام الطيران الأردني. فأدى هذا التدهور إلى خسائر اقتصادية للبلدين.

هذا الوضع يختلف عن وضع وقوع حرب أهلية في الأردن يكون عاملها الرئيسي المواجهة بين المنظمات الفدائية الفلسطينية و"إسرائيل"، كالوضع الذي نشأ في جنوب لبنان دون أن يؤدي إلى حرب أهلية في لبنان، ولكن العامل الفلسطيني كان من أهم عوامل اشتعال حرب لبنان عام 1975.

أدت الحرب الأهلية في الأردن ليس فقط إلى انتكاسة خطيرة في المقاومة الفلسطينية، بل إلى هجرة متواصلة للأقليات الدينية وخاصة في صفوف المسيحيين. إذ كانت تعيش في الأردن أقليات مسيحية مهمة إضافة إلى أقليات أرمنية وكردية وشركسية وشيشانية. وعندما كان المسيحيون يشكلون 20 في المئة من سكان الأردن عام 1932، هبطت النسبة تدريجياً إلى 4 في المئة أو إلى 300 ألف شخص اليوم، منهم 250 ألفاً من الأرثوذكس و50 ألفاً من طوائف مسيحية أخرى شرقية وغربية. ولقد ساعدت بعض الإجراءات في استعادة ثقتهم حيث باتت هناك كوتا مسيحية في البرلمان، 9 مقاعد من أصل 130 نائباً، وفي الوزارة، حيث يحصل مسيحيون على حقيبتين وزاريتين، وأحياناً يكون منصب نائب رئيس الحكومة لمسيحي (رجا المعشر). وكذلك تشكل أقليات دينية أخرى كالدروز 3 في المئة.

لبنان والمقاومة الفلسطينية

رغم التأثير الكبير للتنظيمات الفلسطينية في الأردن ومركز قيادة منظمة التحرير في عمان، فإن لبنان وليس الأردن كان الاستهداف الرئيسي للعدوان الاسرائيلي. فمنذ 1968 إلى 1974، شنت "إسرائيل" 6200 اعتداءً على لبنان منها 4000 غارة جوية وعملية قصف مدفعي معظمها استهدفت الجنوب وسكانه. كما أقدمت "إسرائيل" على تنفيذ 352 عملية كبيرة منها عمليات غزو محدودة داخل الأراضي اللبنانية.

كانت السياسة الإسرائيلية تقضي بالانتقام من سكان جنوب لبنان بعد كل عملية عسكرية فلسطينية لخلق هوة بين الشعب اللبناني ودولته وبين الفلسطينيين وخاصة في الجنوب حيث أغلبية السكان من المسلمين الشيعة. ولقد نجحت السياسة الإسرائيلية في الجانب النفسي، حيث بات الشيعة في أواخر السبعينيات على غير موجة المقاومة الفلسطينية وعملها الفدائي. وهنا بعض الأمثلة عن عمليات الغزو الإسرائيلي:

- في 12 أيار 1970 غزت "إسرائيل" قضاء مرجعيون بقوة قوامها 5000 جندي وطائرات حربية ودبابات ومدفعية ميدانية. وعكس توقعات الإسرائيليين، تصدّت المقاومة الفلسطينية للهجوم الأكبر من نوعه

منذ 1948 وتصدى الجيش اللبناني للهجوم الإسرائيلي الذي استمر 35 ساعة فسقط 6 جنود لبنانيين وجرح 15 جندياً وقُتل مدنيان³⁰⁶.

● في شباط 1972 قامت "إسرائيل" باجتياح قضاءي بنت جبيل ومرجعيون دام أربعة أيام. وأغارت الطائرات الإسرائيلية على مواقع قرب طرابلس في أيلول من العام نفسه فقتلت 59 شخصاً. ثم قامت "إسرائيل" باجتياح آخر بعد أسبوع شاركت فيه 55 طائرة حربية. وتصدى الجيش اللبناني للإسرائيليين في هذه المعركة وخسر 15 جندياً و46 جريحاً فيما أسفر العدوان عن مقتل 80 مدنياً لبنانياً. وتمكن الجيش اللبناني من قتل 18 جندياً إسرائيلياً.

● خلال يوم واحد (16 أيار 1974) أغارت "إسرائيل" على ست قرى لبنانية وعلى مخيم عين الحلوة ومخيم النبطية وقتلت أكثر من 300 مدني وجرحت الآلاف وأحدثت خراباً مهولاً في الممتلكات.

لقد أصبحت الغارات والاجتياحات البرية نشاطاً يومياً للجيش الإسرائيلي في لبنان. ولكن كانت هذه البداية فقط والأسوأ كان على الطريق. إذ منذ أول تشرين الأول 1974 أعلنت "إسرائيل" سياسة الأرض المحروقة في جنوب لبنان، وأنها من الآن فصاعداً ستقوم بغارات وهجمات وقائية ولن تنتظر العمليات الفدائية للرد. وأنها ستقوم بدوريات وتقييم حواجز طائرة داخل الأراضي اللبنانية "بحثاً عن المخربين". فتواصلت الغارات الإسرائيلية بشكل شبه يومي وإلا كانت اجتياحات برية. وبالمقابل لم تقم الدولة اللبنانية بأي استعدادات لحماية الجنوب وطمأنة السكان، ما بقي علقماً مرّاً في نفوس سكان الجنوب ونقمة على الدولة طيلة الستينيات والسبعينيات³⁰⁷.

كان الوضع مأساوياً يوحي أن الدولة لا تريد الدفاع عن أرضها، رغم أن المشاريع الدفاعية غير المكلفة كانت تجد طريقها إلى اللجان البرلمانية³⁰⁸. كما انعدمت مقومات الصمود تماماً، رغم أن الدولة أوجدت "صندوق مجلس الجنوب" إلا أن الفساد كان سيّد الموقف ولم يقدّم الصندوق بأعماله في تعويض ومساعدة المتضررين حتى أسماه الرأي العام "مجلس الجيوب". وكانت ظروف معيشة مهجّري الجنوب الذين تركوا قراهم ولجأوا إلى بيروت أسوأ من تلك التي كان يعانيها الفلسطينيون في المخيمات.

ولم يستمر الصمود والتضامن بين سكان الجنوب والفلسطينيين، إذ إن غضب الناس على المقاومة الفلسطينية في السبعينيات كان يتصاعد وكان بعض المقاتلين الفلسطينيين يحمل السلاح علناً في قرى وبلدات الجنوب، يتحرّش بالناس. وأصبح عدد رجال المقاومة الفلسطينية يستفزّ الناس بعد قدوم آلاف المقاتلين من الأردن وسورية، اتخذوا من الأماكن الأهلة مرابض مدفعية. وبعدها اقتصر الوجود المسلح للميليشيات جنوباً على "حركة فتح" وفي مواضع جغرافية مضبوطة في الفترة 1969 - 1972، تكاثف وجود الميليشيات اليسارية والفلسطينية في الجنوب حتى أصبح عددها عام 1976 يزيد عن 15 تنظيمياً منها 9 تنظيمات فلسطينية.

³⁰⁶ محمود سويد، الجنوب في مواجهة "إسرائيل"، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1999، ص. 8.

³⁰⁷ 1.6 Tabitha Petran, *Struggle Over Lebanon*, p. 1

³⁰⁸ النهار 29 كانون الثاني 1975.

فكانت هذه التنظيمات تتعارك في ما بينها ما أدى إلى سقوط ضحايا مدنيين وتدمير ممتلكات وتعطيل التجارة.

وفي مذكرة قدّمتها الحكومة اللبنانية إلى مؤتمر وزراء الخارجية العرب في كانون الثاني 1980، بيّنت جرائم “إسرائيل” في جنوب لبنان من 1968 وحتى 1980: قتل بضعة آلاف من المدنيين وتهجير 250 ألف مواطن وتدمير 10 آلاف منزل ومبنى، وتصديق أو تدمير جزئيّ لـ 25 ألف منزل والقضاء على مصدر رزق 3000 عائلة لبنانية، وتيتيم 11 ألف طفل وحرمان 36 ألف طفل من مدارسهم بعد تدميرها وإحراق الخراب الواسع ببلدات ومدن صور والنبطية وحاصبيا وبننت جبيل وتبنين، وتدمير كامل لعشر قرى³⁰⁹.

³⁰⁹ كمال ديب، فن الدم والدمار - التعويضات المستحقة للبنان جراء الاعتداءات الإسرائيلية، بيروت، شركة المطبوعات، 2001.

17 | سورية والعراق: الأخوة الأعداء

في الأعوام التي تلت حرب 1967 انشغل كل من سورية والعراق في أمور داخلية وفي تقوية أسس سلطة البعث في البلدين.

انشغلت سورية من 1967 إلى 1970 بأزمة حكم بين القيادة المدنية التي يقف وراءها صلاح جديد والقيادة العسكرية التي يقف وراءها حافظ الأسد. وقد بدأ الشرخ صراعاً بين الأسد وجديد على أنه بين عسكري ومدني. وكان الأسد وزيراً للدفاع وقائداً ل سلاح الجو، وصلاح جديد الأمين العام المساعد للقيادة القطرية، يسيطر عبر منصبه على أجهزة الحزب وجناحه العسكري ويحتفظ بأوراق عسكرية عدّة. كما كان الأسد مسؤولاً سياسياً في الحزب. والمسألة كانت في غاية التعقيد، بدءاً من استراتيجية الصراع ضد "إسرائيل" وصولاً إلى مسائل التنمية الاقتصادية والإدارة والحياة السياسية والعلاقات الخارجية³¹⁰. أما في العراق فقد كانت أسهم البعث إلى صعود بعد تسلّمه السلطة بمفرده لأول مرة عام 1968.

الصراع على السلطة

في 17 تموز 1968 وقع انقلاب في بغداد أعاد البعث إلى السلطة بعد أعوام من لجوئه إلى العمل السري. أما في دمشق فلم يفرح صلاح جديد وزملاؤه بالحدث العراقي لأن البعث العراقي كان موالياً للقيادة القومية التي أبعدت عن سورية في شباط 1966. ولذلك، اكتفت صحيفة البعث في دمشق بنشر خبر مقتضب محايد عنونته "راديو بغداد يعلن عن انقلاب عسكري". ولكن سوريين آخرين داخل سورية وخارجها، من معارضي نظام صلاح جديد من يساريين وبعثيين، أفرحهم الانقلاب العراقي، فلبّوا إلى بغداد.

وكان حافظ الأسد في وادٍ غير وادي صلاح جديد، يؤمن أنّ الصراع مع "إسرائيل" يحتاج إلى إقامة جبهة مشرقية يكون عمقها العراق. فرأى ضرورة فتح الباب مع العراق، وخاصة بعدما أصبح بأيدي بعثية ولو كانت موالية لجناح عفلق. ولقد انتقل عفلق بعد تردّد والرئيس السوري السابق أمين الحافظ إلى بغداد، ما أفتح صلاح جديد ورفاقه أنّ النظام العراقي الجديد سيسعى للتآمر ضدهم. ولذلك غضب فريق صلاح جديد من مقترحات الأسد حول معالجة الخلافات مع عفلق، واحتجوا بأنّ منطقه يعيد سورية إلى ما قبل 23 شباط 1966 ويتنكر لأسس البعث الجديد.

ولكن مقترحات الأسد جاءت ضمن سياق استراتيجي يؤدي إلى إنهاء عزلة سورية وتقوية جيشها. كما اقترح الأسد إعادة الاعتبار لمعظم الضباط الذين طالهم التطهير وهذا ضروري لكادرات الجيش. ولئن كان معظم الضباط الذين طالهم التطهير من الناصريين والبعث التقليدي، اتهمت القيادة السياسية الأسد، الذي كان يفتقر إلى مركز قوّة داخل الحزب، أنّه ولمصلحة شخصية يريد عودة "العناصر اليمينية" إلى الجيش ليقوّ نفوذه. ثم أكّدت القيادة السياسية مواقفها في أيلول 1968 عندما رفض المؤتمر القطري الرابع مقترحات

³¹⁰ in *La Syrie d'aujourd'hui*, redacteur André Raymond, Paris, Éditions de CNRS, " Elizabeth Picard, « La Syrie de 1946 - 1979 »

1980, pp. 143 - 184.

الأسد. ولئن كان الأسد وزيراً للدفاع وأقرب إلى قيادة الجيش، شرعَ في إبعاد رجال صلاح جديد من مواقع النفوذ وصولاً إلى إزاحة أحمد سويداني رئيس الأركان، وتسمية مصطفى طلاس مكانه في شباط 1968. وكان تعليقه أن أداء سويداني في حرب 1967 لم يكن بمستوى المسؤولية. وتلت ترقية طلاس ضربة مباشرة لصلاح جديد بإزاحة قريبه عزت جديد عن قيادة اللواء 70 المدرع، وهو أقوى لواء في سورية. وكذلك أبعَد الأسد من الجيش أحمد المير الذي قاد جبهة الجولان، فردّت القيادة السياسيّة بتسمية المير عضواً في القيادة القطريّة لأنّه عضو مؤسس في "اللجنة العسكريّة". ولكن الأسد نجح في إبعاده أيضاً عن الساحة بتعيينه في سفارة سورية في مدريد.

وكان صلاح جديد، إلى جانب سلطاته الأمنيّة، صاحب نفوذ في الحزب مارسه في مؤتمري الحزب - القطري والقومي - في أيلول وتشرين الأول 1968 اللذين رفضا معظم طروحات الأسد. ما جعل وضع الأسد في القيادة الحزبيّة مزعزجاً لأنّ المزاج بات معادياً لتدخّل العسكر في شؤون الحزب. وساهمت المواقف في المؤتمرين في تأجيج الصراع بين القيادات السياسيّة المدنيّة التي والت جديد والقيادات العسكريّة التي والت الأسد.

استيقظ جديد على وضع يشابه من سبقه من المدنيّين الذين أزاحهم العسكر في سورية كعفلق وأمين الحافظ. فلم يستطع عبر سيطرته على قيادة الحزب والدولة في فرض سيطرته على الجيش أيضاً. وكان الأسد قد أخرج "الجيش الشعبيّ" من تحت سيطرة الحزب ليصبح بأمرة قيادة الجيش أيضاً. ولم ينتظر قرارات الحزب بل أعاد، على مسؤوليته، ضباطاً طالهم التطهير وخاصة من الطيارين والتقنيّين والمهندسين. ثم أصدر قراراً يحظر النشاطات الحزبيّة في صفوف الجيش. وفي نهاية 1968 كان الأسد ومعها القيادة العسكريّة في موقع أفضل في السلطة، وكانت حصيلة الصراع ترجيحاً لكفّة الأسد داخل القوات المسلّحة. ولذلك حبل العام 1969 باحتمالات أكبر للتغيير في سورية.

في شباط 1969 تحرّك الأسد وأمر دبابات باحتلال نقاط استراتيجيّة داخل العاصمة، وعزل رجال جديد من مسؤوليّة الصحف الرسميّة والحزبيّة (البعث والثورة) وعيّن فيها أشخاصاً محسوبين عليه. واحتلّ مباني إذاعتي دمشق وحلب وأطلق سراح معتقلين سياسيّين من ناصريين ومن جماعة الحورانيّ وقادة بعثيّين سابقين وطرد رجال صلاح جديد من مكاتب الحزب والدولة في اللاذقيّة وطرطوس. واستمرّ تحرّك الأسد حتى 28 شباط. فكانت فرصة لشقيقه رفعت لضرب الأجهزة الأمنيّة التي يقودها عبد الكريم الجندبيّ حليف صلاح جديد. فأقدم الجندبيّ على الانتحار. ولكن رغم نجاح حافظ الأسد في السيطرة على العاصمة، كان يدرك أنّ السيطرة العسكريّة على دمشق لا تكفي بل هي بحاجة لدعم سياسيّ وشعبيّ داخل الحزب وفي الشارع. ذلك أنّ القيادة السياسيّة ردّت على حركته ببيان ندد بـ "عصيان الجيش على الحزب" داعياً الأسد للعودة عن إجراءاته، مع وعد بعقد مؤتمر قطري طارئ ينظر في المعضلة الحزبيّة. وكذلك لقي موقف القيادة السياسيّة دعم الشارع. إذ إنّ المنظمات الشعبيّة ومعظم كادرات الحزب هرعت لدعم موقفها ضد الانقلابيّين وسارت تظاهرات ووقعت إضرابات ضد تدخّل الجيش في السياسة. كما أنّ مصر والجزائر تدخلتا بين جديد والأسد وحضر إلى دمشق مبعوثون من عبدالناصر وحضر رئيس الجزائر هواري بومدين، كما حضر حتى وفد من البعث العراقيّ لمصالحة الطرفين.

ولم يبق من "اللجنة العسكرية" التي تأسست في مصر سوى صلاح جديد وحافظ الأسد، حتى بدا الوضع عجباً في سورية حيث احتفظت القيادة العسكرية بزعامة حافظ الأسد بما حققته على الأرض، وواصلت القيادة السياسية بزعامة صلاح جديد سيطرتها على أجهزة البعث والقيادة القطرية. وفي العام والنصف الذي تلى حركة شباط 1969، لم يخطئ الأسد أي خطوة حاسمة جديدة، بل اكتفى بتثبيت نفوذه وتدعيم مصادر قوته في الحزب والدولة. ففي المؤتمر القطري الذي انعقد في آذار 1969، بدا منطلق الأسد ومعه العسكريون حاضراً بقوة. فخرجت مقررات تلمي مطالبه كلها تقريباً، تدعو إلى بذل الجهد لقيام جبهة مشرقية مع العراق والأردن، وطويت صفحة كانت سورية تصنف أثناءها الدول العربية بين رجعية وعميلة للاستعمار أو تقدمية وثورية. ووافق المؤتمر على فتح الباب أمام تحالفات مع الأحزاب التقدمية في سورية وخفض الحرب الطبقيّة ضد الأغنياء. وأسفرت انتخابات مجلس القيادة القطرية في المؤتمر عن تمثيل الجانبين.

أما التطور الأهم الذي قوى يد الأسد فكان تأسيس مكتب سياسي حزبي مؤلف من تسعة أشخاص من القيادة القومية والقطرية للبعث، ليصبح السلطة العليا في سورية. وإذ نجح الأسد وطلاس ونور الدين الأتاسي في الحصول على مقاعد في المكتب السياسي، فشل صلاح جديد في الحصول على مقعد. وتلا ذلك اعتماد دستور مرحلي جديد لسورية وتشكيل حكومة في أيار 1969، ضمت إلى الوزراء البعثيين، شيوعيين وممثلين عن الحركة الوحدوية الاشتراكية والاتحاد الاشتراكي العربي (ناصرى) والحزب العربي الاشتراكي.

تضمن برنامج الأسد سياسة معتدلة في الخارج - مع السعودية ودول الخليج مثلاً ومع الداخل مثل عفلق والبيطار وتخفيف الإجراءات الاقتصادية الصارمة التي فرضها نظام صلاح جديد، ما أكسب الأسد أصدقاء جدداً في المدن.

انقلاب تشرين الثاني 1970

في تشرين الأول 1970، كانت الأزمة الحزبية في دمشق تراوح مكانها، وقد بات الأسد عملياً صاحب اليد العليا في البلاد في حين كان صلاح جديد لا يزال يحتفظ بمراكز قوى عديدة، وكادت الاتصالات أن تصبح معدومة بين الطرفين.

هذا الوضع اضطر نورالدين الأتاسي إلى الاستقالة من منصب رئيس الوزراء في 18 تشرين الأول³¹¹. واستدعى الأمر دعوة مؤتمر قوميّ عاشر في 30 تشرين الأول - 12 تشرين الثاني 1970 وهو الهيئة الحزبية التي تمتع

³¹¹ نور الدين الأتاسي (1929 - 2 كانون الأول 1992) رئيس سورية 25 شباط 1966 - 18 تشرين الثاني 1970. من حمص، انتمى إلى البعث وكان على رأس تنظيم الحزب في جامعة دمشق خلال الخمسينيات، قاد العديد من التحركات الطلابية والمظاهرات خلال فترة الانقلابات. دخل إلى السجن في 1952 أثناء حكم الشيشكليّ عاماً كاملاً وتعرض للتعذيب. تخرّج في الطب من جامعة دمشق عام 1955 وشارك كمتطوّع في الثورة الجزائرية عام 1958 على رأس مجموعة من الأطباء السوريين. وعين وزيراً للداخلية في آذار 1963، ونائباً لرئيس الوزراء عام 1964، ثم عضواً في مجلس رئاسة الدولة عام 1965. وأصبح رئيساً للدولة وانتخب أميناً عاماً للبعث بعد انقلاب شباط 1966 الذي أطاح بأمين الحافظ. تبوأ منصب رئيس الوزراء في العام 1968 إلى جانب مناصبي الأمين العام للحزب ورئيس الدولة. ثم أمضى 22 عاماً في السجن وأطلق سراحه عام 1992. وتوفى في 2 كانون الأول 1992 ودفن في حمص. متزوج من سلمى الحسيني وله ولدان آية الأتاسي والكاتب محمد علي الأتاسي.

فيها جديد وحلفاؤه بنفوذ واسع. وعشيّة المؤتمر أُجرى الأسد تنقّلات طالّت ضباطاً محسوبين على القيادة السياسيّة ما جعل هذا الموضوع دون غيره يطغى على الجلسة الافتتاحية حيث ألحّت القيادة السياسيّة على الأسد أن يلغي هذه التنقّلات. فرفض الأسد في قاعة بدا فيها هو وطلاس في عزلة تامة. وعندها شنت القيادة السياسيّة سلسلة اتهامات ضد الأسد وزملائه: أنّه خلق "ثنائية سلطنة" في سورية وخرّق نظام الحزب وعرقّل تنفيذ قرارات الحزب واعتقل بعض أعضائه وراقب البريد الحزبيّ. وهذه الاتهامات التي في معظمها إداريّة وحزبية - على أهميتها - بهتت أمام اتهامهم للأسد أنّه يروّج "لخط انهزامي ورجعي في الصراع مع إسرائيل"، ما شكّل جريمة لا تغتفر في قاموس البعث.

وإذ انفضّ المؤتمر مساء 12 تشرين الثاني دون التوصل إلى اتفاق، أمر الأسد فجر 13 تشرين الثاني وحدات من الجيش باحتلال مكاتب الحزب والمنظمات الشعبيّة واعتقال عدد من الضباط وكبار القادة السياسيّين. وشمل هذا التحرك كافة المدن السوريّة.

وشرح الأسد في ما بعد أنّ ما قام به كان إجراءات داخل الحزب. وفي الحقيقة لم يكن ثمة إهراق للدم أو إطلاق نار، ولم يلحظ أحد أي تحرك عسكريّ علني، فيما كانت الأسواق تعمل يوم 13 تشرين الثاني والطرق مزدحمة ولم تغلق الحدود مع لبنان. وحتى أعضاء القيادة القوميّة الذين فرّوا إلى لبنان يومها عادوا إلى سورية بعد فترة. ثم عرّض الأسد على صلاح جديد ومَن معه مناصب في سفارات سورية في الخارج، ولكنّ جديد رفض وقال للأسد إنّهُ "عندما يستعيد السلطة سيسحله في شوارع دمشق حتى يموت". فاقتيد جديد إلى السجن وبقي هناك 23 سنة حتى وفاته في 19 آب 1993. وعمد الأسد إلى اتصالات حزبية وسلسلة تلميحات انتهت إلى تأليف قيادة قطرية انتقالية جديدة. وبعد تردّد صدر بيان مساء 16 تشرين الثاني يعلن تسلّم الأسد للسلطة.

بعث العراق

قبل حركة الأسد التصحيحيّة في دمشق كان العراق الذي يحكمه جناح البعث المرتبط بقيادة عفلق - البيطار يشجّع حافظ الأسد على تسلّم السلطة، بعكس رغبات البعثيين السوريين المقيمين في بغداد الذين رأوا ضرورة التخلّص من كلّ أعضاء "اللجنة العسكريّة" بمن فيهم الأسد حتى يمكن قيادة عفلق - البيطار العودة إلى دمشق وتسلّم الحكم.

وإذ لم يكن الأسد في حال خصام شخصيّ مع عفلق، أصدرت القيادة القوميّة في بغداد بياناً رحّبت بتسلّمه السلطة في 16 تشرين الثاني واعتبرت إبعاده لصلاح جديد وجماعته ردّاً اعتبار لها. ودعت منظمات الحزب في سورية والحزبيين للتعاون مع الأسد. ثم أفتتح عفلق الحكومة العراقيّة بإرسال وفد إلى دمشق لتهنئة الأسد. وهكذا في يوم وصول القذافي نفسه، جاء عبدالكريم شيخلي وزير الخارجية العراقيّ، حاملاً لتهنئة حكومته وتهنئة قيادة حزب البعث المقيمة في بغداد. وعاد بعثيون كثيرون ممن يُحسبون على قيادة عفلق إلى صفوف الحزب في سورية. فكافأ الأسد بعضهم بمناصب قياديّة في الدولة، وأصبحوا يدينون بما وصلوا اليه للنظام

الجديد. ولكن المعضلة أن ولاءهم المستجد للأسد قلص بعد شهور من نفوذ قيادة عفلق عليهم وأفقدوها أمل العودة من بغداد إلى دمشق.

وكان صلاح البيطار بعد انقلاب 1966 يأمل بهزيمة اليسار الحزبي و"اللجنة العسكرية" بمساعدة مجموعة سليم حاطوم و"المكتب العسكري" الذي قاده فهد الشاعر ومن وراء المجموعتين كان منيف الرزاز الذي بقي في دمشق. ولكن فشل هؤلاء أفقد البيطار أيضاً الأمل بالعودة إلى السلطة من خلال البعث. فغادر سورية إلى لبنان ليجتمع مناصريه والعمل على حركة جديدة لم تر النور. أما رفيقه عفلق فبعد تسلّم البعث الحكم في العراق وأبدى ولاءه للقيادة القومية عام 1968 قد جاء إلى بغداد واستعاد قيمته كقائد مؤسس ورحب به البعث في العراق وجاء معه قياديون آخرون. واستدعى العراق صلاح البيطار ليأتي هو أيضاً ويقوم في بغداد ويمارس دوراً في الحزب. ولكنه اعتذر. ويعتقد البعض أن البيطار قد أخطأ في رفضه المجيء إلى بغداد لأنه كان أكثر قبولاً لدى الشعب العراقي والقيادة العراقية كسني عربي، مقارنة بعفلق الذي نُظر إليه دوماً من موقع ديني كمتسحي واسمه الأول والأخير ذي الرثة غير العربية. إذ بعكس البعث في سورية، فقد كانت أغلبية البعثيين في العراق من السنة، ارتاحوا أكثر لبيطار وربما كانوا جعلوه رئيساً للجمهورية.

لقد برز خلاف عقائدي أيضاً بين عفلق والبعث العراقي. إذ لم يرق لعفلق نهج البعثيين العراقيين القطري في تحاشيهم لقاء بعثيي سورية على عمل مشترك يوحد البلدين. فهو كان يرى عزلة بعثيي العراق مناقضة لعقيدة البعث ولا شيء يمنع وحدة سورية والعراق بعد وصول الحزب للسلطة في البلدين. وكان عفلق أيضاً مستعجلاً للعودة إلى سورية لأنه يعتبر دمشق أساس العمل القومي. ولم تُخف القيادة القطرية العراقية نياتها في مؤتمرها السابع عام 1968 عن عدم عجلتها في الوحدة مع سورية، أنها تفضل التريث بضع سنوات لتكون اليد العليا في الوحدة للعراق. وبين هذا وذاك، فات العراقيين أن البيطار لم يختلف عن عفلق في موقفه كوطني سوري من طموحات العراق، خاصة إذا كانت طموحات بعث العراق تسعى إلى ضم سورية للعراق، فقال: "بعث العراق لا يريد وحدة أو اتحاداً متكافئاً. بل يريد سورية هدية مقدّمة على طبق من ذهب. ويريد العراقيون ضم سورية للعراق لأهداف سلطوية وإشباع غرور البكر وصدّام وتفريغاً لحقدهما على نظام دمشق. نحن لن نكون الجسر ليعبر علينا هؤلاء"³¹².

وإذ فشلت دعوة العراقيين للبيطار ليأتي إلى بغداد وبعدما فصله عفلق عن الحزب، وجد البعث العراقي بديلاً عن البيطار هو السنّي الأردني منيف الرزاز³¹³. وكان الرزاز معروفاً لدى البعث العراقي منذ الانقلاب الأول عام 1963 وخلال لقاءات حزبية كثيرة ثم في موقعه كأمين عام للحزب منذ 1965. وكان العراق بعد وصول البعث إلى الحكم عام 1968، قد أطلق "حركة التحرير الفلسطينية" كتنظيم مسلح للعمل الفدائي

³¹² عبدو الديري، الجزء الثاني، ص. 210.

³¹³ منيف الرزاز ولد في دمشق عام 1919 وهاجرت أسرته إلى عمان عام 1925، ثم تخرج طبيباً في جامعة القاهرة وعاد إلى عمان. انضم إلى فرع حزب البعث العربي الاشتراكي في الأردن عام 1950. ونُفي إلى سورية عام 1952. ثم اعتقل في الأردن مع مجموعة من السياسيين الأردنيين والضباط الأردنيين الأحرار عام 1957 في معتقل الجفر في معان، واعتقل للمرة الثانية عام 1963 على إثر محادثات الوحدة بين مصر وسورية والعراق. أطلق سراحه سنة 1964 ووضع تحت الإقامة الجبرية. انتخب أميناً عاماً لحزب البعث العربي الاشتراكي سنة 1965 فانتقل إلى دمشق. ثم عاد إلى الأردن سنة 1967 وشارك الهيئات القيادية للمقاومة الفلسطينية. انتخب سنة 1977 أميناً عاماً مساعداً لحزب البعث فانتقل من عمان إلى بغداد. نُفي عن هذا المنصب عام 1979 وفرضت عليه الإقامة الجبرية مع زوجته لمة بسيسو وابنته زينة. وتوفي وهو قيد الإقامة الجبرية في بغداد في عام 1984، وبناءً على وصيته الوحيدة دفن في الأردن.

ضد "إسرائيل" (كالصاعقة في سورية) في أوج ازدهار وانتشار المقاومة الفلسطينية. فافتتحت هذه الحركة مكاتب لها في الأردن وساهم الرزاز فيها كموجهٍ للمقاتلين، ما فتح له باب بناء علاقة جيدة مع القيادة العراقية. ثم أخذ الرزاز يتردد على بغداد لحضور اجتماعات "مكتب فلسطين" في القيادة القومية لحزب البعث. وكان هذا المكتب برئاسة بعثي أردني آخر محسوب على الرزاز هو يوسف شاهر.

ظهور الرزاز في بغداد وبناءه علاقة متينة مع النظام هناك أقلق عفلق وجماعته المقيمين في العراق. وكان قلقهم في محله، إذ ما هي الامدة قصيرة حتى جمع الرزاز أعوانه ومريديه وأصبح له شبه تنظيم، ثم انخرط في بعث العراق ووصل إلى منصب "الأمين العام القومي المساعد للحزب" مع احتمال إعداده ليأخذ مكان عفلق كأمين عام للحزب³¹⁴.

في العام 1970 أفسح الأسد المجال لعودة البيطار إلى سورية بعدما كان قد حوكم غيابياً بالإعدام عام 1969 في ظل نظام صلاح جديد. ولكن البيطار اختار البقاء خارج سورية سنوات ثم عاد في كانون الثاني 1978 بدعوة من الأسد الذي كان مستعداً أن يسند إليه مهام رسمية. واشترط البيطار بقاءه في دمشق أن يُسمح بعودة أتباعه لبيني قاعدة له وأن يكون شريكاً في قيادة قومية جديدة. وهي شروط لم يرض بها الأسد. ولذلك ترك البيطار سورية مجدداً ليقوم في باريس ويصدر صحيفة الإحياء العربي. ثم أخذ يتقرب من جهات معارضة سورية ومنهم جماعات إسلامية في أوج حرب سورية ضد الإسلاميين داخل البلاد وينشر مقالات بعضها نقد سافر للأسد تهمه بالطائفية والهيمنة العلوية (اغتيال البيطار في باريس في 21 تموز 1980).

أما ميشال عفلق، فقد قلده صدام حسين منصباً شرفياً في حزب البعث العراقي تقديراً لوجود عفلق في بغداد الذي منح البعثيين العراقيين شرعية حزبية أمام العرب. ولكن ثبت هزال نفوذ عفلق في العراق عندما تجاهل البعث العراقي اعتراضاته وآراءه. فعاش سنوات بعيداً عن أضواء السياسة العراقية وعن دمشق حتى توفي عام 1989، فأقامت الحكومة العراقية تأبيناً مهيباً له ودُفن في بغداد في قبر مزخرف تحت قبة زرقاء في حديقة مقر القيادة القومية لحزب البعث.

لم تكن تجربة منيف الرزاز في بغداد أفضل بكثير من عفلق. ففي 1979، أعلن في بغداد عن مؤامرة ضد صدام وتم القبض على عدد كبير من أعضاء القيادة العراقية مدنيين وعسكريين، ومنهم الرزاز الذي اتهم بأنه متورط في المؤامرة. ووضع تحت الإقامة الجبرية في منزله. ورغم أن أي قرار لم يتخذ بحقه كما صدر بحق آخرين تم إعدامهم، فلم يُطلق سراحه وبقي أسير منزله حتى توفي عام 1986.

أما محمد عمران، مؤسس "اللجنة العسكرية"، فقد لجأ إلى لبنان بعد إطلاق سراحه من سجن المزنة أثناء حرب 1967 وبقي على معارضته لجديد ثم للأسد، وطامحاً للسلطة³¹⁵. فأبقى صلته بالبيطار وزملاء ضباط في الجيش السوري أملاً بعونهم له ضد الأسد. وكان عمران يقيم في طرابلس لبنان حيث طائفة علوية لبنانية كبيرة تربطها علاقات وثيقة مع العلويين في سورية، ما وفر له وسيلة تواصل مع الداخل السوري. فجمع عمران أنصاره البعثيين وكوّن مجموعة تعمل لعودته إلى دمشق وظن أن فرص نجاحه متوفرة عندما نقل

³¹⁴ عبدو الديري، الجزء الثاني، ص. 215.

³¹⁵ محمد عمران، تجربتي مع الثورة، بيروت، 1970.

اليه البعض من الداخل أنهم سيدعمونه. ولذلك أرسل عمران إلى السلطات السورية يُعلمها عن نيّته العودة إلى سورية. ولكن قبل أن يعود، تعرّض للاغتيال في 4 آذار 1972 على أيدي شخصين فلسطينيين اقتحموا شقته في طرابلس³¹⁶.

عام التغيير في سورية

كانت سورية عام 1970 مستعدة للتغيير، بعد الانقلابات المتعاقبة منذ 1949 وبعد انهيار الطبقة الوسطى التقليدية والبورجوازية السنية في المدن. وعودة نظام الحكم الليبرالي الذي خلفه الانتداب الفرنسي لم يكن ممكناً، كما أنّ قوّة الشيوعيين وحضورهم قد تقلصا، وكذلك تضاعف حجم الحزب السوري القومي. وحتى داخل حزب البعث تراجع دور المدنيين من مؤسسين ومنظرين وكاد يختفي، وبات للجيش دور متعاظم في صفوف الحزب وقيادته³¹⁷ كما أنّ الساحة خلت تماماً عند وصول الأسد إلى السلطة.

وبدأت ملامح تغيير تظهر بعد حركة الأسد. فخُفضت أسعار الأغذية الأساسية وتراجع حضور الأجهزة الأمنية في المجتمع وأوقف الاعتقال العشوائي. ومُنعت أجهزة الدولة من مصادرة الأملاك وتُثبت احترام الملكية الخاصة، وتسلمت الشرطة المدنية الكثير من الملفات الجنائية التي كانت تتولاها أجهزة الجيش، ورفّع الحظر عن السفر والتبضع في لبنان بما في ذلك التبادل التجاري. وقُدّمت ضمانات للقطاع الخاص وشجّع السوريون الذين غادروا البلاد على العودة وخاصة أصحاب الرساميل والخبرات³¹⁸.

كان الأسد علمانياً وعقائدياً ابتعد عن الطائفية منذ صغره، ولكنه من الطائفة العلوية وقد قضى العرف أن يتولى منصب رئيس الجمهورية مسلم سنيّ ولم يجرؤ أي علويّ على اعتلائه³¹⁹. وكان صلاح جديد قد ألغى منصب "رئيس جمهورية" واستبدله بمجلس رئاسة مع "رأس دولة". فأعاد الأسد منصب رئيس الجمهورية. واحتراماً للحساسية الشعبية وتقاليد الحكم، تولى منصب رئيس الجمهورية سنيّ هو أحمد الخطيب واتخذ الأسد لنفسه منصب رئيس الحكومة. ثم وضع الأسد عرفاً أن يذهب منصب رئاسة الوزارة لسنيّ (كما في لبنان). واعتاد الأسد أن يختار رئيس وزراء سورية من دمشق فاحتلّ المنصب أولاً اللواء عبدالرحمن خليفاوي

³¹⁶ ذكر باتريك سيل أنّ زريه زريير مسؤول المخابرات في محافظة حمص هو من أرسل فلسطينيين لاغتيال عمران بايعاز من ناجي جميل، رئيس شعبة أمن الدولة في البعث وأن رفعت الأسد هو من أوحى لجميل دون علم حافظ الأسد. وأن جميل وعمران كانا خصمين لدودين. ولكن زريير، الذي أصبح فيما بعد رئيس المخابرات العامة، نفى ضلوعه في الاغتيال كما أنّ عائلة عمران نفت اي علاقة لسورية باغتيال عمران واستقبل الرئيس الأسد بعد فترة ابن عمران، ناجح (باتريك سيل، ص. 184).

³¹⁷ Moshe Ma'oz, "The Emergence of moder Syria", in *Syria under Assad: domestic constraints and regional risks*, edited by

Moshe Ma'oz and Avner Yaniv, London, Croom Helm, 1986, pp. 9 – 35.

³¹⁸ صفوان قنسي، البطل والتاريخ: قراءة في فكر حافظ الأسد السياسي، دمشق، مطبعة طلاس، 1984.

³¹⁹ كان صلاح جديد يخشى أن يظهر كعلوي رئيساً للجمهورية فجعل من السنيّ نورالدين الأتاسي رئيساً وبقي هو في الظل. ولكن تبين أنّ الشعب السوري كان متوّراً أكثر مما ظنّ جديد عندما أصبح الأسد رئيساً للجمهورية.

ثم محمود الأيوبي، وبعدهما عبدالرؤوف الكسم (1980 - 1987)، ومحمد علي الحلبي ومصطفى ميرو.. ولكن احتكار دمشق للمنصب وُضع جانباً عام 1987 عندما سُمّي الأسد محمود الزعبي (من حوران). وكان الأسد يمقت الطائفية فحرص أن يعين كل من يحيط به من كبار المسؤولين من الطوائف الأخرى، ويعمل على فتح باب الإدارات والمؤسسات العامة لكل الطوائف، إلا أن القاعدة الأمنية للنظام بقيت بأيدي علوية إلى حد كبير³²⁰. وكان أقرب ثلاثة أشخاص إليه من السنة مصطفى طلاس وعبدالحليم خدام وعبدالله الأحمر. ومعظم الذين عينهم الأسد من السنة كانوا أصدقاءه وزملاءه في الجيش أو في الحزب قبل سنوات من تسلّمه السلطة³²¹. ومن رجال الأسد السنة أيضاً حكمت الشهابي رئيس أركان الجيش وزهير المشاركة نائب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء محمود الزعبي. وفي العام 1984 رُقّي الأسد خدام إلى منصب نائب رئيس الجمهورية وكمسؤول عن ملف لبنان. وسُمّي مكانه سنياً آخر هو فاروق الشرع وزيراً للخارجية (كان خيار تعيين وزير سني للخارجية مناسباً لأنه يختلط بسهولة أكبر مع وزراء الخارجية العرب والعالم العربي، كما أن للسنة السوريين تاريخاً في التعاطي العربي والدولي أكثر من العلويين).

أدرك الأسد باكراً أن عوامل عدة اقتضت نظاماً صارماً لحكم سورية. منها خطر الأخوان المسلمين الذين تمّتّعوا بجاذبية وشعبية في صفوف الشعب، ونزوة السوريين نحو الحزبية والانقسام وسعي الجيران العرب لوضع اليد على سورية. فتميّز عن زعماء سورية السابقين أنه جعل بناء المؤسسات في رأس سَلَم أولوياته³²². واخترت عملية البناء أعمدة البلاد كافة من جيش واقتصاد وتربية وتعليم³²³.

وفي 22 شباط، اتخذ الأسد سلطات رئاسية ما احتاج إلى صيغة دستورية فكان أول عمل لمجلس الشعب المعين تزكية حافظ الأسد لمنصب رئيس الجمهورية. ثم جرى استفتاء شعبي في 12 آذار 1971 صوّت للأسد بنسبة 99.2 في المئة ليصبح رئيساً للجمهورية لفترة 7 سنوات.

وفي عامه الأول مدّ الأسد اليد لأنصار صلاح جديد في الحزب ولقيادة عفلق للمشاركة في بناء الحزب والبلاد. فاستجاب أكثر من ألفين من الكادرات الحزبية. ولكنّ الأسد أغلق الباب على أي نفوذ لميشال عفلق أو لأمين الحافظ خاصة أنهما مقيمان في بغداد منذ 1968. وللتأكد من أن عفلق لن يشكل خطراً على النظام، فقد حوكم غيابياً عام 1971 وصدرت أحكام بحقه وبحق مئة من أنصاره الفارين بتهم الخيانة العظمى ومحاولة قلب النظام بدعم مالي وعسكري عراقيين، منها حكم إعدام على أربعة أحدهم عفلق، وأحكام سجن على تسعة وتسعين آخرين. وبعد أشهر ألغى الأسد أحكام الإعدام ثم أطلق سراح محكومين.

ازدهر البعث في عهد الأسد حتى بلغ عدد أعضائه في أوائل السبعينيات 65 ألفاً، ثم تضاعف العدد ست مرّات إلى 374 ألفاً عام 1981 ووصل إلى مليون عام 1992 و1.4 مليون عام 2000. وضم الحزب 27 فرعاً

Patrick Seale, ASAD, p. 177.³²⁰

Patrick Seale, ASAD, p. 182.³²¹

Adeed Dawisha, "Syria under Asad, 1970 - 1978: the centre of power", *Government and Opposition*, vol. 13, no. 3, 1978, pp. 322

341 - 354.

Majid Khadduri, *Arab personalities in politics*, Washington D.C., The Middle East Institute, 1981, chapters on the rise of³²³

Hafez Assad.

داخل سورية و212 مكتباً مناطقياً و1656 نادياً. وكان همة تدرج في عضوية الحزب تبدأ برتبة مناصر وتصل إلى عضوية كاملة مع كافة الحقوق والواجبات الحزبية. وإذ حمل 30 في المئة من هؤلاء رتبة العضوية الكاملة ساعد ذلك في انضباط الحزبيين وخلق نواة برهنت عن ولائها وفهمها وديناميتها في خدمة الحزب. وبات للمرأة دور كبير في البعث حيث وصلت النساء إلى مراتب عليا في الحزب وإدارة الدولة.

الجبهة الوطنية التقدمية

جعل الأسد من أولوياته توسيع قاعدة التمثيل الشعبي بشكل يعيد الوحدة الوطنية، ولكن مع تثبيت دعائم الدولة كي لا تهتد كالسابق كل فترة³²⁴. فحاول أن يستفيد من تجارب الماضي، ورأى أن نموذج الانتداب الذي استمر في لبنان فقط لم يحقق الوحدة الوطنية بل تحول أداة للقتال الطائفي، وتجربة الفوضى الديمقراطية في الخمسينيات بعد حكم الشيشكلي مسحت سورية من الخريطة وجعلتها إقليمياً مصرئاً. وهكذا لتكون سورية موحدة داخلياً حتى تواجه التحديات التنموية والقومية، اعتمد أسلوب الجبهة الوطنية التقدمية التي نجحت في أيام خالد العظم وأكرم الحوراني في الخمسينيات تحت اسم جبهة وطنية تضم قوى وأحزاباً وجهات يسارية وهذه الجبهة تعمل عبر مجلس الشعب. وهكذا ضمت أول حكومة ممثلين لأحزاب من خارج البعث.

أما بالنسبة لمجلس الشعب، فإن القيادة القطرية الانتقالية قامت بتسمية كامل أعضائه الـ173 وأعلن في 17 شباط 1971. ولكن الفارق كان أن المجلس ضم هذه المرة ممثلين لكافة الأحزاب المعترف بها في الجبهة التقدمية والمنظمات الشعبية. وكان على هذا المجلس المعين أن يقرّ دستوراً جديداً لسورية ويمهد للمجلس المقبل الذي وعد الأسد أنه سيكون منتخباً. ثم تمّ انتخاب مجلس جديد من الشعب مباشرة عام 1973. وما أن أعلن الأسد برنامجه وعزمه على إقامة جبهة تقدمية توسع قاعدة النظام وتضم الشيوعيين، حتى غير الشيوعيون السوريون موقفهم منه. ولتشجيع قيام هذه الجبهة صدر قرار إعادة الضباط الذين طالتهم عمليات التطهير السياسي، وكان هدف الأسد أن تشعر أحزاب الجبهة التقدمية بالاطمئنان إلى أن العمل الجبهوي هو في الجيش أيضاً كما في السياسة. واستمرّ التفاوض على حيثيات الجبهة ودورها في البلاد من أيار 1971 إلى آذار 1972 إلى أن توصلت الأحزاب إلى صيغة للجبهة بأن تكون "تحالف أحزاب" وليست كياناً واحداً يذوب فيه الجميع. ووافق البعث على هذا الطرح فأصبحت الجبهة تضم أحزاب سورية ويوافق الجميع على نص دستوري يكون فيه البعث هو "الحزب الطليعي في سورية، قائداً للدولة والشعب". وكانت هذه الشراكة على ضعفها أفضل بالنسبة للأحزاب من الأنظمة السابقة التي حظرتها في سورية. وأعلن تأسيس

Malcolm Kerr, 'hafiz al-Asad and the changing patterns of Syrian politics', in *International Journal, Canadian Institute of*³²⁴

International Affairs, XXVIII, no. 4, pp. 689 – 706, 1973.

الجبهة في 7 أيار 1972 بعضوية البعث والحزب الشيوعي والاتحاد الاشتراكي العربي والحركة الاشتراكية العربية (منشقة عن الحوراني) ومنظمة الوندويين الاشتراكيين (من بعثيين سابقين)³²⁵.
 وإذ لم توافق قيادات بعض الأحزاب على الانضمام إلى الجبهة التقدمية تعرضت هذه الأحزاب للانشقاق. فقد شارك خالد بكداش أمين عام الحزب الشيوعي في الجبهة (حتى توفي عام 1995)³²⁶ ولكن انشق عنه رياض الترك ليؤسس حزب الشعب الديمقراطي السوري، كما انشق فريق من الاتحاد الاشتراكي العربي وتبرأت جماعة الحوراني من انضمام الحركة الاشتراكية.
 وحتى لو لم يُترجم دور مجلس الشعب والجبهة التقدمية إلى مزيد من المشاركة في الحكم، فإنهما على الأقل ساهما في توسيع قاعدة النظام. كما ساهم مشروع الإدارة المحلية - وإن كان يهدف إلى الأعمال التنموية في القرى والمحافظات - إلى حد بعيد في مشاركة شعبية أوسع في صناعة القرار بعيداً عن هيمنة البعث³²⁷. ذلك أن عضوية المجالس المحلية في 14 محافظة تمت عن طريق الانتخاب في 3 آذار 1972. وفتح باب الترشح لأحزاب الجبهة التقدمية وللمستقلين. فحصل المستقلون على أغلبية كبرى في دمشق وحمص وعلى نسب عالية في المحافظات الأخرى، ما سمح بمشاركة الفئات المحافظة في المجتمع والتي غابت لفترات طويلة عن الساحة. ومع الوقت تمتعت اللجنة ومعها المجلس في كل محافظة بنفوذ محلي متزايد مقارنة بالسابق عندما كانت سورية مثل لبنان دولة شديدة المركزية³²⁸. ورغم أن التخطيط المركزي اتخذ أهمية غير مسبوقة في عهد الأسد، إلا أن تنفيذ تفاصيل هذه الخطط بات من صلاحية الإدارات المحلية التي أجاز لها القانون أيضاً تشريع ضرائب محلية بهدف تنفيذ مشاريع من خارج الخطط المركزية.

التصالح مع سنة المدن

توجه الأسد نحو تعزيز دور المدن وكسب ود الطبقة الوسطى المدينية. فحرص على رد الاعتبار لسكان المدن حيث الأغلبية السنية. ثم تناغم مع تركيبة سورية الإثنية والدينية والاجتماعية الفريدة، فلم يفرض مثالية البعث العلمانية إلى أقصاها كما رغب صلاح جديد، بل ساير سنة المدن والإسلام التقليدي وتقرّب منهم، ما جعل سياسته الداخلية عاملاً من عوامل الاستقرار.
 ولذلك عندما شن الأسد حربه ضد الإخوان المسلمين وقطع دابرهم في أوائل الثمانينيات، لم يهتّب سنة المدن وخاصة في دمشق لدعم الإسلاميين. لقد رأى سنة المدن ومعظمهم من الطبقة الوسطى المتمدّنة، وبعضهم

³²⁵ يوسف مرعش، الجبهة الوطنية التقدمية والتعددية في القطر العربي السوري، دمشق، دار النعامة، 1993.

³²⁶ خالد بكداش، التقرير السياسي للمؤتمر السادس للحزب الشيوعي السوري أواسط تموز 1986.

³²⁷ Raymond Hinnebusch, "Syria: the role of ideology and party organization in local development", *Local politics and development in the Middle East*, edited by Louis Cantori, Iliya Harik, London, Westview Press, 1984, pp. 99 – 124.

³²⁸ ما زال مجلس الوزراء اللبناني حتى اليوم يعالج أكثر من 50 ملفاً كل أسبوع بعضها يتعلق بنقل موظف أو معالجة شؤون بلدية.

من المثقفين العلمانيين، أن مصلحتهم كانت مع استقرار النظام وعلمانية البعث وليس مع مغامرة الأخوان المسلمين. كما أن سنة الأرياف قد استفادوا كثيراً من الإصلاح الزراعي الذي أنجزه البعث ضد الإقطاع السنّي وأصبحوا من داعمي النظام.

في الأعوام الأولى لم تُقابل علوية الأسد بمعارضة حقيقية. إلا أن مؤشرات مذهبية ودينية أُطلت برأسها في نهاية العام 1973. ففي 31 كانون الأول نُشر الدستور السوري الجديد ولم يحدّد ديانة رئيس الجمهورية وخلا من أي إشارة إلى الإسلام. ولتن أكّدت دساتير سورية منذ الثلاثينيات أن على رئيس الجمهورية أن يكون مسلماً اشتعل الشارع بالتظاهرات والاستنكار. فأدرك الأسد حدود المدى الذي يستطيع المضي فيه بتطبيق العلمانية. وعدّل مجلس الشعب المادة محدّداً ديانة رئيس الجمهورية كما في السابق. وهنا أثار الأخوان المسلمون وغلاة التديّن مسألة المذهب العلويّ الذي ينتمي إليه الرئيس الأسد بأنّه ليس من المذاهب الإسلاميّة. فأصدر الإمام موسى الصدر رئيس المجلس الإسلاميّ الشيعيّ الأعلى في لبنان فتوى تؤكّد "أنّ العلويّين هم جماعة من الإسلام الشيعة". فأصبح منصب الأسد الرئاسيّ منسجماً مع المادة الدستوريّة.

كما لم يرض بعض المعارضين عن عدم احتواء الدستور بنداً عن الدين وطالبوا بجعل الإسلام دين الدولة إسوة بالدول العربيّة. ولئن لم يكن هذا جزءاً من دساتير سورية الصادرة في 1930 و1953 و1964، تجاهل الأسد هذا الطلب. وحصل الدستور على نسبة عالية جداً من الدعم الشعبيّ في استفتاء جرى في 12 آذار 1973. شرّع دستور 1973 لمجلس نواب تمثيليّ ينتخب رئيس الجمهورية³²⁹. فانتخب هذا المجلس وأعاد انتخاب حافظ الأسد رئيساً للجمهورية خمس مرات من 1970 وحتى وفاته عام 2000. وصادق البرلمان على قرارات السلطة التنفيذية ومراسيم رئيس الجمهورية. وهكذا فالرئيس قاد الحزب والحزب قاد الجبهة التقدميّة والجبهة التقدميّة حظت بأغليّة في مجلس الشعب، فيما ذهب ثلث المقاعد إلى غير حزبيين³³⁰.

وكان من نتائج تقرب الأسد من الإسلام في سورية أن النظام بدأ رحلة طويلة مغلوبة في ارتداء عباءة الإسلام وتخفيف العلمانية، ما سيكون نقطة ضعف مؤسفة دفعت سورية ثمنها في ما بعد. لقد قام حافظ الأسد بالحج إلى مكة عام 1974 ورفع رواتب رجال الدين المسلمين لتحسّن أحوالهم المعيشية. ودأبت صحف سورية على نشر صور الأسد في الصفحات الأولى وهو يؤدي الصلاة في المساجد في المناسبات الدينيّة والأعياد. كما أن أئمة المساجد مدحوا به في خطب الجمعة. ثم ازداد التراجع عن النهج العلمانيّ بالتسامح في ارتداء الحجاب وازدهار بناء المساجد والمدارس الدينيّة بشكل غير مسبوق، فيما دأبت الصحف والمجلات على نشر المقالات والدراسات التي تروّج للدين، عكس ما كان عليه الوضع في الستينيات وحتى منذ ولادة سورية. استقرار النظام حافظ على التعدديّة الدينيّة والعرقية في سورية منذ 1970، ولم ينضج خطاب الدولة الوطنيّ

Peter Heller, "The permanent Syrian Constitution of March 13, 1973", *Middle East Journal*, vol. 28, no. 1, Winter 1974, pp. 329

53 - 66.

Elizabeth Picard, "Syria returns to democracy: the May 1973 legislative elections", in *Elections without choice*, edited by Guy³³⁰

Hermet, Richard Rose, Alain Rouquié, London, Macmillan, 1978, pp. 129 - 144.

وتوجَّهها الإعلامِي والتربوي بمفاضلة بين سنَّة وعلويين أو مسلمين ومسيحيين. فكان السكوت عن مراضة المتدينين ثمناً يدفعه الذين يؤيدون منحى العلمنة ويريدون دولة قوية مستقرة.

صعود سورية الجديدة

اهتمَّت الدولة بإحياء التراث السوريِّ والتاريخ القوميِّ لتعزيز الفخر الوطنيِّ في صفوف الجيل الجديد، كإبراز مساهمات السوريِّين في حقول العلوم والرياضيات والبناء والفنون والآداب وأنَّ الأُمَّة قد بدأت تهض من غفوتها التي استمرت قرناً تحت الحكم الأجنبيِّ ونير الاستعمار الخارجيِّ. ومن النشاطات في هذا الاتجاه كان مؤتمر في مدينة الثورة في نيسان 1985 عن "تاريخ العلوم عند العرب" برعاية وزيرة الثقافة نجاح العطار حضرته مئات الشخصيات من أكاديميين ومثقفين وأدباء وشعراء وعلماء ومحافظين وكبار مسؤولي الحزب. وأكَّد المؤتمر الماضي العلميِّ للعرب كمصدر إلهام لنهضة علمية اليوم. ومن النشاطات أيضاً إطلاق حركة كبيرة غير مسبوقة في التنقيب عن الآثار. إذ في عقدين من عهد الأسد، اكتشف ورُمِّم أكبر عدد من الآثار والمواقع الأثرية في حلب وإبلا وماري في وادي الفرات وفي وادي العاصي وفي دمشق وأنحائها وفي جنوب سورية، حتى تمكَّنت مديرية الآثار من تحديد 3500 موقع أثري وبناء 30 متحفاً في المدن السوريَّة كافة. وكانت هذه الآثار جزءاً هاماً من سمعة سورية كدولة عريقة ومهمة وقوة إقليمية، وأنَّ دمشق كانت وستبقى مركز ثقل المشرق العربيِّ.

ونجحت سورية في السبعينيَّات إلى حدِّ بعيد في تحرير المرأة السوريَّة عملياً وعدم الاكتفاء بالشعارات التي طبعت فترة الستينيَّات. إذ خلال أعوام بسيطة، بات عدد النساء في مجلس الشعب ملحوظاً وانتُخبت المرأة بأعداد كبيرة في المجالس المحليَّة في المحافظات وفي النقابات المهنية والعماليَّة ووصلت كثرات إلى مناصب رفيعة في القضاء وفي التعليم العالي وإلى منصب وزير كالدكتورة نجاح العطار كوزيرة للثقافة عام 1976. كما ساعد إنشاء مراكز حضانة في أنحاء البلاد المرأة السوريَّة الكفوءة والتي كانت تضطر إلى البقاء في المنزل لحضانة أطفالها الصغار أن تخرج إلى سوق العمل. حتى أصبحت سورية من بين أفضل الدول في خدمات الحضانة، في برنامج عصريِّ قوامه أسطول من الباصات التي تجمع الأطفال في نقاط معينة وتنقلهم إلى الحضانة وتعيدهم في وقت محدَّد مساءً. وامتدَّت هذه الخدمة حتى سن الطفولة المتقدِّمة إذ إنَّ منظمة طلائع البعث خصَّصت برامج للفتيات الصغيرات السن، تضمَّنت نشاطات تعليمية وترفيهية ومخيَّمات صيفية أصبحت مختلطة منذ 1983، حيث يرتدي الأطفال بزات الأشبال.

وأصبحت سورية في السبعينيَّات دولة يُحسب لها الحساب وذات وزن عربيِّ ودوليِّ، تحقَّق المزيد من الاستقرار الداخليِّ والانسجام الاجتماعيِّ. ولكن حلم البعث في تحقيق المجتمع الاشتراكيِّ كان لا يزال بعيداً في حين بقي الفساد متفشياً في النخب الجديدة المستفيدة من نفوذها في النظام³³¹.

³³¹ Economist Intelligence Unit, *Country Report: Syria*, London, Economist Intelligence Unit, 1986.

ردّ الأسد الاعتبار لسكان المدن حيث تقيم الطبقة الوسطى والبورجوازية التي عانت من التأميم والاشتراكية وحملات التطهير في الجيش والمؤسسات الاقتصادية والقطاع العام، عبر سلسلة من الإجراءات هدفت إلى كسب ودّ هؤلاء. وخفّت العراقيل على التجارة الخارجية وسُمح باستيراد البضائع مباشرة من الخارج، ما سهّل للأفراد والشركات والمصانع الخاصة استيراد المواد الأولية وقطع الغيار والمعدات الصناعية والزراعية وحتى السلع الكمالية كالعطور والألبسة الأوروبية ومعظم الأجهزة الكهربائية المنزلية والكاميرات ومواد التجميل، بعدما كانت مؤسسة رسمية للتصدير والاستيراد تتولّى نسبة 75 في المئة من حجم التجارة الخارجية. وخفّت الدولة القيود على تحرك العملات لتشجيع المغتربين السوريين على تحويل أموالهم إلى سورية واهتمت خاصة برجال الأعمال الذين تركوا البلاد وهربوا رساميلهم بعد التأميمات والانقلابات، فدعتهم للعودة ووعدتهم بتقديم تسهيلات استثمارية وتجهيزات وفرص جديدة في قطاعات البناء والمواصلات والسياحة. فاستجاب الآلاف من المهاجرين وأصحاب الأعمال للانفتاح المحدود. وسارت سورية بنهج خاص بها، وهو مزيج من الاقتصاد الحر والاقتصاد الموجّه، حيث استُعملت الدولة ومؤسساتها وأجهزتها للتدخل في القطاع الخاص ومشاركته³³². فلم يكن ثمة فصل في دور الدولة بين تنظيم القطاعات وإصدار المراسيم والقوانين من جهة، ودولة يأتي إليها الناس في مكاتبها لمتابعة أشغالهم من جهة أخرى. لا بل إنّ هذه الدولة ذهبت إلى الناشطين اقتصادياً وشاركتهم في أشغالهم.

ومنذ العام 1970 حصل الملايين من السوريين على وظائف وخدمات وأموال لم تكن في متناولهم لو لم يوقرهما النظام: أولاً فتح النظام الباب أمام أبناء الفقراء وخاصة من الأرياف ليلتحقوا بالمدارس ويصعدوا السلم الاجتماعي والمهني. فاستفاد طبعاً آلاف العلويين، ولكن استفاد غيرهم أيضاً. وثانياً، إنّ طبيعة النظام الاشتراكي والاقتصاد الموجّه اقتضت بناء مؤسسات رسمية كبرى تستوعب مئات الألوف من الموظفين والمهنيين والجنود والمعلمين. وهكذا ارتبطت معيشة ملايين السوريين بوجود هذه الدولة وباستمراريتها. وثالثاً، استفاد سنّة المدن من البيئة التي وفرتها الدولة فانتعش تجار وصناعيو دمشق وحلب والمدن الرئيسية الأخرى، ودعموا النظام وقبلوا مشاركته بأنشطتهم الاقتصادية³³³.

حقق الأسد الكثير على الصعيد الاقتصادي في السنوات الأولى، فبدأ وكأنّ معجزة اقتصادية واجتماعية تحصل في سورية³³⁴. وقبل حرب 1973، كانت الدول الاشتراكية هي مصدر الدعم المالي الخارجي، ولكن هذا الدعم لم يزد عن 50 مليون دولار سنوياً. ولكن في العام 1974، وقد أثبتت سورية وجودها الإقليمي والدولي وتحسّنت سمعتها وزادت الثقة الدولية بحكومتها، دخلت سورية مساعدات من مصادر لا تعدّ ولا تحصى أهمها من الدول النفطية العربية تليها قروض ومعونات من برامج الأمم المتحدة والبنك الدولي وبدرجة أقل

Rodney Wilson, *The economies of the Middle East*, London, Macmillan, 1979, pp. 101 – 118. ³³²

Michael van Dusen, "Syria: downfall of a traditional elite", *Political elites and political development in the Middle East*, ed. ³³³

Frank Tachau, Cambridge, Massachusetts, Schenkman, 1975, pp. 115 – 156.

Michel Chatelus, « La croissance économique, mutation des structures et dynamisme du déséquilibre », *La Syrie* ³³⁴

d'aujourd'hui, André Raymond, Paris, Éditions du CNRS, 1980, pp. 225 – 272.

من ألمانيا الغربية وفرنسا والولايات المتحدة. وأسفر سلاح الحظر النفطّي الذي استعمله العرب في حرب 1973، عن ارتفاع سعر البرميل أربعة أضعاف، فذهب عشرات آلاف السوريين للعمل في تلك الدول وحوّلوا إلى سورية مليار دولار سنوياً.

وكانت النتيجة أنّ الاقتصاد السوريّ حقق درجات غير مسبوقة من النمو بلغت 8.2 في المئة سنوياً خلال 1970 - 1975 و6.8 في المئة سنوياً خلال 1977 - 1980، فضلاً عن التصنيع في القطاع العام ونهوض الصناعات الخفيفة والبناء في القطاع الخاص³³⁵.

وحصلت ثورة في التجارة الخارجية السوريّة³³⁶، إذ بعدما كان القطن يتصدّر قائمة الصادرات، قفزت قيمة صادرات النفط بفضل ارتفاع الأسعار وتحسّن وسائل الإنتاج من 70 مليون دولار عام 1973 إلى 700 مليون عام 1974.

وكانت موازنة الدولة تتضاعف كلّ بضع سنوات وتصب استثماراتها في مشاريع عمرانيّة وبنية تحتية ضخمة³³⁷. وبفضل العمران والنهوض وتحسّن الشروط الصحيّة، تضاعف عدد السكان، حيث بلغ 8 ملايين نسمة في أواخر السبعينيّات.

بنت سورية جيشاً قوياً يتمتع بثقة الشعب بلغ عديده 225 ألفاً. وشعرت سورية بالمجد والقوّة بعد 1974، ولكن أيضاً بالثروة وبوعد الأيام المقبلة بالبحبوحة والازدهار. وأبدى المجتمع السوريّ ديناميّة في التجارة والعمران وفي الثقافة والتربية والفنون، مقارنة بأيام الفقر والتفوق وظل "الأخ الأكبر" قبل 1970. ورفع أبناء الأقليّات وسكان المناطق والأحياء المسحوقة والأرياف رؤوسهم من نير الفقر والحرمان، وباتوا يشهدون أنّ بلدهم سورية بدأت تشق طريقها في العالم العصريّ³³⁸. إذ بفضل الرساميل المتدفقة ومشاريع التنمية والبنية التحتية والقيادة السياسيّة والاستقرار الدائم، صعدت الطبقات المهملة، ومنها العلويّون ما عزّز شرعيّة النظام والشعور العام أنّ سورية جديدة قويّة غير التي كانت ضحيّة الصراعات الإقليميّة والدوليّة بدأت تطلّ³³⁹.

في السبعينيّات تحوّلت سورية من "دولة - ساحة" للأطماع الإقليميّة والغربيّة وشعب خاضع للاستغلال والتخلّف والحرمان والعزلة، إلى قوّة إقليميّة يُحسب لها حساب تُنافس الآخرين في الشرق الأوسط وتحقّق قفزات في الحدادّة والتطوّر العمرانيّ والاقتصاديّ³⁴⁰. حتى أنّ زائر سورية في نهاية السبعينيّات سواء كان

Raymond Hinnebusch, *The State and the Political Economy of Reform in Syria*, Fife, Scotland, St Andrews Centre for Syrian Studies, 2009, p. 16.

David Carr, "Capital flows and development in Syria", *Middle East Journal*, vol. 34, fall 1980, pp. 455 - 67.

Susannah Tarbush, "Syria: a MEED report", *Middle East Economic Digest*, vol. 22, March 1980. (five-year plans).

رزق الله هيلان، *الثقافة والتنمية الاقتصادية في سورية والبلدان المتخلفة*، دمشق، دار ميسلون، 1981.

Kais Firro, "The Syrian economy under the Assad regime", *Syria under Assad: domestic constraints and regional risks*, edited by Moshe Ma'oz and Avner Yaniv, London, Croom Helm, 1986, pp. 36 - 68.

راجع منير الحماش، *تطور الاقتصاد السوري الحديث*، دمشق، دار الجليل، 1983.

منير الحماش، *الاستثمار في سورية: أسئلة وأجوبة*، دمشق، دار الأهالي، 1992.

مغترباً سورياً أو سائحاً أو صاحب أعمال كان يعجز عن التعرف على المعالم العمرانية والجغرافية من عام إلى عام إذ شُقت طرق جديدة وخطوط سكة وسدود وجسور وظهرت أحياء بأبنية سكنية عصرية وشوارع مستقيمة. كما تحسّن مستوى المعيشة لمعظم السوريين فباتوا يتمتعون بالأدوات الكهربائية ولسع الاستهلاك، وخاصة في الأرياف وفي الأوساط الفقيرة³⁴¹. فكان عقد السبعينيات فترة نهوض اعترافها بعض الصعوبات والأخطاء الا أنها كانت بشكل عام فترة إيجابية ناجحة³⁴². وحصلت دمشق على الحصّة الكبرى من موارد الدولة في عهد الأسد كعاصمة للبلاذ ومركز للحكم. فكان مردود هذا الاهتمام الولاء والدعم الشعبي لرئيس أقليمي، حيث تحصّنت دمشق من تداعيات المواجهة بين النظام والإسلاميين التي وقعت بين 1977 و1982، وكانت جوهرية إنجازات ثورة البعث بعد عقود من نضال الحزب. حتى بات الأسد رمزاً للمدينة وأصبح الإعلام الغربي يطلق عليه لقب "أسد الشام" (Lion of Damascus).

لقد أدرك الأسد ومستشاروه باكراً سلبات غزو الأرياف لدمشق ووصول أبناء الأقليات إلى مناصب الدولة الرفيعة مدنية وعسكرية. فعملت الدولة على رأب الصدع الاجتماعي والتقرّب من سكان المدينة ونخبها ومعظم هؤلاء من السنّة ومعهم مسيحيو دمشق، وخلق الصلات بين الوافدين الريفيين والبورجوازية المدنية والطبقة التجارية³⁴³. فأنفقت الدولة بسخاء على عمران المدينة وبنيتها التحتية وأبدى الأسد احتراماً وتقديراً لعائلاتها وشخصياتها الاجتماعية والروحية. لقد نمّت دمشق من مدينة متوسطة الحجم بـ300 ألف نسمة عشية الجلاء الفرنسي عام 1946، إلى مدينة كبيرة بـ800 ألف نسمة عندما تتبّوأ الأسد السلطة عام 1970، بزيادة 500 ألف خلال 25 عاماً. ولكن انفجاراً سكانياً وقع خلال عقدين من عهد الأسد، إذ قفزت إلى أكثر من ثلاثة ملايين نسمة عام 1990 لتصبح على لائحة أكبر عواصم العالم.

بهذه الخطوات والمشاريع الجبارة استطاعت الحكومة مواكبة نمو دمشق التي حافظت على نظافة شوارعها وتنظيمها المدني الحديث وقلة الاكتظاظ وانتشار السكان في المدينة العملاقة³⁴⁴. وحتى الأحياء العشوائية التي ظهرت جنوب المدينة وغربها لم تصل إلى درك الفقر والبؤس في أفريقيا وأميركا اللاتينية. إذ بعد شمول خدمات التنظيم المدني كافة الأحياء العشوائية عام 1982، باتت الخدمات البلدية تشمل 67 حيّاً. كما أنّ المرافق الخدمية عملت بكفاءة لاقت رضى المواطنين.

³⁴¹ Yusif Sayegh, *The economies of the Arab World since 1945*, London, Croom Helm, 1978, pp. 229 – 280.

³⁴² Economist Intelligence Unit, *A study of the Middle East economies: their structure and outlook in the 1980s*, London, Syria pp. 219 – 243, 323 – 325, Economist Intelligence Unit, 1977,

³⁴³ الحزب الشيوعي السوري، حول بعض التطورات والتدابير الاقتصادية في سورية، كانون الأول، 1988.

³⁴⁴ صفوح خير، سورية: دراسة في البناء الحضاري والكيان الاقتصادي، دمشق، وزارة الثقافة، 1985.

تحسّن أوضاع العلويين

من ملامح التغيّر الاجتماعيّ الكبير في سورية خلال الـ25 سنة الأولى من حكم البعث كان انتقال أبناء الطائفة العلوية من الحرمان والقهر والامية والعزلة إلى طائفة مشاركة في الوطن قدّمت زعماء للبلاد (مثل صلاح جديد وحافظ الأسد) وعدداً كبيراً من رجالات سورية في السياسة والعسكر والاقتصاد. كما أنّ تحسّناً كبيراً طرأ على جبال العلويين من بيئة العزلة والفقر والمرض والهجرة في عهد الانتداب الفرنسيّ إلى بيئة التقدّم والعمران وازدهار السياحة والتجارة. ليس أنّ نظام الأسد أخذ بيد العلويين وجعلهم "طائفة ملكة" لسورية (كما كان دور الموارنة في لبنان قبل 1975). بل إنّ أبناء هذه الطائفة الذين شكّلوا 12 في المئة من السكان، قد استفادوا من التحولات داخل سورية قبل وصول حافظ الأسد إلى السلطة.

لا بل إنّ أيّ قراءة موضوعيّة ستجد أنّ الأسد نفسه شكّل وجهاً من وجوه صعود العلويين في الجيش وفي حزب البعث وفي الحركة السياسيّة في سورية. ولكن ومنذ أوائل السبعينيات ارتبط مصير العلويين والإنجازات التي حقّقوها بنظام الأسد. أي أنّ انهيار أو سقوط نظام البعث قد يشكّل أدية غير محدودة لوضع هذه الطائفة والأقليات الأخرى في البلاد. وليس ثمة نعمة علوية فرضت نفسها على الحكم في سورية كما هو الوضع الطائفيّ في لبنان. إذ لم يستغلّ العلويون يدهم العليا في الدولة لفرض هيمنتهم، بل هم ساعدوا أفراد عائلاتهم أو أبناء طائفاتهم في الحصول على الوظيفة أو الخدمات.

كما أنّ معظم العلويين في مناصب الدولة الرفيعة كانوا أعضاء في حزب البعث أو قوميّين عرب أو قوميّين سوريين، ولا دوراً أساسياً لمذهبيّتهم في شغلهم العام. فكانت النخبة العلوية في سورية تنحى منحى اليسار والعلمانيّة والوطنية كبدائل موضوعيّة عن النظام التقليديّ العربيّ السائد والذي قادته نخب السنّة في العراق والأردن والسعودية ومصر. ولذلك كان الأفضل للعلويين أن يكونوا مواطنين متساوي الحقوق والواجبات في دولة حزب البعث على أن يكونوا مواطنين من الدرجة الثانية في دولة عربيّة تقليديّة.

لقد ظهر العلويون كأفراد في قيادة الجيش والقوى المسلّحة والأجهزة الأمنيّة وإدارات الدولة وشركات القطاع الخاص والمهن الرفيعة كأطباء ومهندسين ومحامين وأساتذة جامعات. وعلى هؤلاء اتكّل مئات الألوف من أفراد عائلاتهم وخاصتهم في معيشتهم ومستوى حياتهم. ويمكن القول إنّ العلويين في ظل نظام الأسد باتوا أقلّ "علوية" مقارنة بعزلتهم في النصف الأول من القرن العشرين. فهم باتوا يرتبطون بإسلام mainstream وينخرطون في الحياة العامة، فيما اعتبر الأسد وعائلته أنفسهم مسلمين يمارسون شعائر الإسلام³⁴⁵.

ولكن لم يكن صعود العلويين في سورية في ظل البعث وخاصة في عهد حافظ الأسد بدون عوائق في دولة متعدّدة الديانات كسورية. إذ إنّ السوريين الآخرين، وخاصة السنّة، وجدوا في صعود العلويين امتيازاً مذهبياً. فبين قلّة من السوريين السنّة وكثرة من الجماعات الإسلاميّة نمت نظرة عصبية وطائفيّة إلى العلويين وتقاليدهم. لقد اعتبر الأخوان المسلمون وجماعات إسلاميّة متشدّدة أنّ العلويين ليسوا مسلمين بل هرطقة

Mahmud Faksh, "The Alawi community of Syria: a new dominant political force", *Middle Eastern Studies*, vol. 20, no. 2,³⁴⁵

April 1984, pp. 133 – 153.

ونعتوهم بأكثر النعوت سلبية. أما البيئة السنيّة بشكل عام فقد اقتصرَت نظرتها السلبية على غيرة طبقيّة من نهضة جبال العلويّين ومحافظة اللاذقيّة وعلى نهضة أبناء طائفة كانت سابقاً دونهم في الثروة والجاه والعلم والمنصب. وهذه غيرة معقولة يمكن تفهّمها كتنافس اجتماعيّ تجب معالجتها بالمزيد من البرامج الحكوميّة لتحقيق العدالة الاجتماعيّة.

ومع ذلك فالمرآب العابر لا بد أن يعتبر صعود العلويّين أنه جراء امتيازات ويقارن ذلك بوضع الأغليّة السنيّة في البلاد التي لم تتمتع بنفوذ يوزاي عددها. كما كانت ثمّة حدود لعلمانيّة النخبة العلويّة في سورية حيث ظهر وعي علويّ ذاتي ودروس تعلّموها من لبنان، أن أي توزيع عادل للسلطة والثروة في سورية كما هو معمول في مفهوم "الديمقراطيّة التوافقية" في لبنان لا بد أن ينظر إلى العلويّين في سورية من الزاوية الديمغرافيّة العددية وبأنهم حصلوا على حصّة تفوق حصّة السنّة الذين يفوقونهم عدداً خمسة أضعاف. ولذلك لم تظهر في سورية أي معارضة علويّة ملحوظة منذ 1970، في حين كان معارضو دولة البعث من السنّة إجمالاً، أكانوا عبر تنظيم الأخوان المسلمين أو عبر ليراليّين وسنّة الأسر الدمشقية والمدن الكبرى.

تحسّن أوضاع المحافظات

لعقود عدّة وصولاً إلى الجلاء عام 1946 وحتى صعود الأسد عام 1970، كانت الحياة السياسيّة والاجتماعيّة في سورية تقتصر على خط دمشق - حلب العمودي من الشمال إلى الجنوب مروراً بمدن حمص وحماة. ولم يُخف هذا الأمر على مستشاري حافظ الأسد الذين وجدوا في العامل الجغرافيّ علّة منعت وحدة البلاد. وهكذا تحوّل مشروع النهوض بالبلاد نحو استبدال مركزيّة الخط العمودي بخط أفقيّ من الغرب إلى الشرق. وبدأ في السبعينيّات تنفيذ شبكات طرق كبرى وسكّة حديد وهاتف وخطوط طيران لربط شرق وشمال - شرق سورية الخصب والغني والضئيل السكان في الجزيرة وضياف الفرات ودير الزور، بالغرب السوريّ حيث الكثافة السكانيّة ومدن سورية الكبرى وحيث أسواق الاستهلاك وموانئ التصدير إلى الخارج ومراكزه. وكانت نتيجة هذا العمل الجبار ظهور خريطة سورية جديدة برزت فيها مدنُ الشرق النامية كالحسكة والقامشلي والرقة والطبقة ودير الزور، ومدن الساحل المهتمّة سابقاً كاللاذقيّة وطرطوس وبانياس وجبلة. كما أن الدولة وضعت حدّاً لمركزيّة خط دمشق - حلب بإطلاق لامركزيّة تنمويّة موسّعة لتعمّ الفائدة كلّ سورية بشكل متوازن ما يدعم أيضاً اسراتيجية الأمن القوميّ في عدم خلق بؤرة نمو اقتصاديّ وعمرانيّ واحدة يسهل لـ"إسرائيل" ضربها³⁴⁶.

ولقيت حلب اهتماماً مباشراً أيضاً بعدما خسرت دورها كمدينة أولى في سورية بعد الحرب العالميّة الثانية. ذلك أن حلب خسرت مرفأها البحري في الاسكندرون وأقفلت الحدود العديدة مع تركيا والعراق في المرحلة

³⁴⁶ إبراهيم علي، العلاقة المتبادلة بين توزيع السكان والتنمية في القطر العربي السوري، الندوة الدولية حول السكان والتنمية وأهميّة الرقم الإحصائي، حمص، 25 - 27 تشرين الأول 1983.

الاستقلالية. ثم تراجع دور حلب السياسيّ كثيراً بعد ثورة البعث عام 1963. إذ كانت حلب ترفد إلى دمشق عدداً كبيراً من زعماء الأحزاب والسياسيين والوزراء والنواب من الفئات التقليدية وتؤثّر في قرارات الحكومات والموازنات. فخرست دورها السياسيّ وأهميتها الاقتصادية.

ولكن مع الطفرة الماليّة في السبعينيات، نالت حلب الكثير من الاهتمام ومن ضخ الاستثمارات. وإذ بنت مؤسسة الإسكان العسكرية مجموعة من المصانع لإنتاج مواد البناء في حلب، شكّل ذلك حافزاً مهماً لنهضة المدينة في الثمانينيات. ومما استيعاب جامعتها من 5000 طالب عام 1980 إلى 35 ألفاً عام 1985 في 14 كليّة تضمّ 860 أستاذاً جامعياً و800 طالب دراسات عليا يتابعون دراساتهم في الخارج وثلاثة معاهد للتخصّص في الطب والجراحة. كما عمدت الدولة إلى تنظيف وترميم أحياء حلب القديمة وأسواقها ومعالمها التاريخية ومساجدها وقلاعها وحمّاماتها التركية ما جعلها تحفة أكثر جمالاً من دمشق نفسها. ذلك أنّ الهجوم العقاريّ على وسط دمشق وجنون الأسعار قضى على 80 في المئة من أبنية دمشق القديمة ومعالمها التراثية، في حين حافظت حلب على معظم أحيائها القديمة.

ونالت اللاذقية حظها من التنمية. ففي العام 1970، كانت أنابيب مياه الشفة تصل إلى 10 في المئة من منازل محافظة اللاذقية، ارتفعت إلى 85 في المئة عام 1990، فيما وصلت الطرق المعبّدة إلى كلّ القرى تقريباً واستصلح 50 ألف هكتار من الأراضي للزراعة. حتى أنّ الأبنية الحديثة والفخمة انتشرت في قرى جبال اللاذقية بشكل غير مسبوق، مرفقة بكافة مظاهر الحياة العصريّة من طرق ومدارس ومستشفيات وملاهي وحدائق. وأصبح من النادر مشاهدة الناس باللباس الجبليّ التقليديّ وقد انتشرت الألبسة العصريّة والأوروبية وخاصة في أوساط الجيل الجديد. وشابهت قرى العلويين مناطق في أوروبا، في وقت كان لبنان يشهد تراجعاً انطوائياً وسط انتشار واسع للحجاب في أوساط السنّة والشيعة منذ الثمانينيات. ومن الجبل، هبط العلويون وانتشروا في مدن الساحل السوريّ وفي المساحات الخصبة في وادي الغاب. واشتروا أراضي وبنوا منازل وباشروا مشاريع تجاريّة وصناعيّة وزراعيّة فأصبحوا أكبر الناشطين اقتصادياً في اللاذقية وطرطوس وجبلة وبنابياس. كما التحق 50 ألف شخص بمصانع القطاع العام وتصنيع المنتجات الغذائية والألمنيوم والإسمنت والنسيج والسجاد. فنمت مدينة اللاذقية مثلاً من 36 ألف شخص عام 1943 إلى 250 ألفاً عام 1990 ثم إلى 665 ألفاً عام 2009، وتمّ توسيع وتطوير مرفئها وافتتاح جامعة تشرين فيها التي وصل عدد طلابها 15 ألفاً عام 1985، ما ساهم في ولادة فئة مثقفة ومتعلّمة وبيئة حاضنة للحدّات والحياة العصريّة.

دولة البعث في العراق

استقطب البعث في العراق العرب من السنّة في المحافظات المجاورة لسورية والذين تضرّروا من التقسيم الاستعماريّ لديار العرب، كما استقطب العرب الشيعة الذين تمثّلوا باكراً في الحزب بشخصيات وطنية مثل فؤاد الركابي وعلي صالح السعدي.

كالسوريين، نظر العراقيون إلى حزب البعث - وليد الأفكار الأوروبية الرومنطيقية وعروبة الحزب الاشتراكي العربي - مناسباً لبلادهم³⁴⁷. ولكن رغم علمانية الحزب ورغبة قادته في تطوير العراق في اتجاه مدني، إلا أن تاريخ العراق المعاصر يُظهر أن البعث العراقي لم يتوسّع كثيراً خارج نطاق العرب السنة، في حين انصرف الأكراد والشيعة بعد ضرب الأحزاب الشيوعية والناصرية والقومية إلى أحزابهم الكبرى الخاصة في نطاق مذهبي وإثني³⁴⁸. ويمكن تفسير ظاهرة نمو عضوية البعث بأنها كانت طريق الكثرين إلى تحقيق المصالح الشخصية كما في سورية وليس الاقتناع العقائدي³⁴⁹.

ومقارنة بتجربة الحزب في سورية حيث سعد بواسطة الأقليات ضمن سياق تاريخي منطقي، فقد أدت ظروف تاريخية أيضاً إلى سيطرة شخصيات وكوادر سنية من قرى ومناطق عراقية معينة على حزب البعث في العراق. ذلك أن العديد من ضباط وعناصر الجيش وأجهزة المخابرات جاؤوا من هذه القرى والمناطق شمال وغرب بغداد. وحتى في وقت مبكر، كانت عناصر الشرطة والجيش وقوى الأمن في العراق تبدي عطفاً على البعثيين بعد إخراجهم من السلطة عام 1963 متى علموا أن هؤلاء هم أبناء مناطقهم أو قراهم. أما البعثيون الآخرون وخاصة إذا كانوا من الشيعة فقد كانوا يتلقون عقوبات أشد وفترات سجن أطول³⁵⁰. وهذه المشاعر الطائفية كانت من الأسباب التي أدت إلى تقهقر الالتزام العقائدي والولاء الحزبي وانحدار البعث إلى روابط قبلية وعائلية ومناطقية ما أفقده الدعم الشعبي الواسع.

وساعد في إضعاف الحزب - أو الحزبين - في البلدين، سعي قياداته إلى استقطاب صغار الضباط إلى صفوفه وهؤلاء دأبوا على الإثراء غير المشروع وإزعاج الناس والتضييق على المواطنين. ما جعل الشعب يكره ظاهرة الانقلابات وعسكرة السلطة والمخابرات التي تثير الذعر في النفوس بدل نشر هيبة الدولة واحترامها. وأصبحت مسألة استقطاب كوادر مدنية خلافة أكثر صعوبة في ما بعد إذ إن أصحاب الإبداع الحر لم يستسيغوا فكرة الإلحاق القسري بصفوف البعث، وكثيرون فضلوا المنفى³⁵¹.

وكانت القيادة المدنية في البعث العراقي مبدئياً تحت إشراف صدام حسين بتوصية من أمين عام الحزب ميشال عفلق. ولكن طغيان اللجنة العسكرية داخل الحزب في سورية في العامين 1965 و1966 أدى إلى إقصاء القيادة المدنية للحزب وعلى رأسها ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار. ففرت القيادة المدنية إلى بيروت واتخذتها مركزاً لإدارة الفروع الأخرى للحزب ومن ضمنها الفرع العراقي. واستمر هذا الوضع الشاذ

³⁴⁷ وميض جمال وعمر نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق، مركز دراسات الوحدة العربية، 1986.

³⁴⁸ في حين شجّع عفلق صدام على ضرب حزب الدعوة الشيعي في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، كان حزب البعث بجناحه معادياً للإثنيات غير العربية في العراق والتي تنشط لإحياء شعور قومي كردي على سبيل المثال. وحتى 1963 كانت المادة الحادية عشرة من دستور البعث تدعو صراحة إلى أن "يُجلى عن الوطن العربي" كل داعٍ إلى تكثّل عنصري يناهض العرب. ولقد استعملت هذه الفكرة ضد الأكراد.

³⁴⁹ Devlin, John, *The Baath Party A History from Its Origins to 1966*. Stafford, Hoover Institution Press, 1984.

³⁵⁰ عطف عناصر قوى الأمن على أبناء جلدتهم في الاعتقال شأن بديهي عند العرب نراه في مذكرات زعماء انقلاب الحزب السوري القومي الاجتماعي في لبنان عام 1962، جاء فيها أن الضباط وحراس السجون تعاطفوا مع القوميين من أبناء قراهم أو مذهبهم وقاموا بخدمتهم. فالروابط العائلية والقبلية في الشرق تذهب عميقاً.

³⁵¹ Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 108.

حتى قام البعثيون بانقلاب في العراق في تموز 1968، فانتقل معظم القادة المدينين للحزب من بيروت إلى بغداد واستدعي ميشال عفلق من منفاه في البرازيل ليقود حزب البعث من بغداد ضد الجناح اليساري المسيطر في دمشق.

ومنذ ذلك الوقت أصبح لكل من سورية والعراق قيادة قطرية وقيادة قومية وفروع مستقلة "سورية" و"عراقية" في البلدان العربية الأخرى كاليمن ولبنان والأردن. فيقال في لبنان مثلاً "حزب البعث السوري" و"حزب البعث العراقي"³⁵². ومن آثار وصول البعث إلى الحكم في كل من سورية والعراق العمل باتجاه "قطري"، حسب تعبير البعثيين. فعمل بعثو دمشق على الانفصال عن مصر والخروج من الجمهورية العربية المتحدة، فيما انصرف بعثو بغداد إلى شؤون العراق الداخلية ولم يكن الاتحاد مع أي بلد عربي من أولوياتهم حتى لو كانت سورية. إذ عندما اتفق قادة سورية والعراق على الوحدة عام 1979 لمواجهة استحقاق السلام المصري الإسرائيلي³⁵³، سعى بعث العراق إلى القضاء على الفكرة في مهدها حتى ضد رغبات الرئيسين أحمد حسن البكر وحافظ الأسد³⁵⁴.

منذ العام 1970، تحول الانشقاق الذي بدأ عقائدياً بين البعثين إلى صراع شخصي بين صدام حسين وحافظ الأسد، حتى أن انقسام الحزب وافتراق البعثيين لم يعد لأسباب عقائدية رغم أن معظم المراجع تقول إن هناك جانباً عقائدياً للشرخ حيث مثل البعث في سورية الجناح اليساري، فيما مثل بعثو العراق الجناح اليميني الذي أصبح صدام حسين أقوى رموزه.

ومع كل هذا، فإن بناء الدولة المركزية في الفترة منذ 1968 إلى 1978 على أيدي بعثية بقيادة أحمد حسن البكر وصدام حسين، كان لها الأثر التاريخي الكبير على تاريخ العراق الحديث. ومهما قيل سلباً في هذه الحقبة، فليس هناك شك في أن هذه المرحلة أعطت الشعب العراقي الكثير من الخدمات والتقدميات وأوصلت العراق إلى مراحل متقدمة في الصناعة والثروة والعلم والبنى التحتية.

عهد أحمد حسن البكر

أصبح أحمد حسن البكر رئيساً للعراق بعد انقلاب 1968 وهو من منطقة تكريت، ابتدأ في الجيش العراقي باكراً حتى وصل إلى مراتب عليا، فشارك في ثورة 1958 والحركات الانقلابية بعد ذلك. وعام 1968 قبل نصيحة خيرالله طلفاح وعين صدام حسين المسؤول الأول بعده، على أساس أن "الدم أثنى من العقيدة" (أي أن قربي صدام للبكر من ناحية الأم أفضل من ولاء القادة البعثيين الآخرين). لقد توسط خال صدام، خيرالله طلفاح لدى البكر وقال له: "صدام هو ابنك، اعتمد عليه. إنك تحتاج إلى العائلة لتحميمك وليس إلى الجيش.

³⁵² هما في لبنان حزب بعث "سوري" بقيادة السيد عاصم قانصو من منطقة بعلبك وحزب بعث "عراقي" بقيادة الدكتور عبد المجيد الرفاعي من طرابلس.

³⁵³ اتفاق كامب دافيد بين الرئيس المصري أنور السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن في مقرّ الرئيس الأميركي الصيفي في كامب دافيد قرب واشنطن.

³⁵⁴ كما امتدت المشاعر إلى الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات. ففيما اتفق البكر والأسد على كره عرفات إلى الأبد كان صدام منسجماً معه.

الأحزاب والجيوش تغيّر مواقفها في هذا البلد والدم أثنى من الماء". وقال صدام للبكر: "أعطني القوة والسلطة أعطك جهازاً يحكم البلد".

سرعان ما شرع الضباط التكريتيون في تسلّم مقاليد الحكم والمناصب الحسّاسة في الدولة. وكان يسيّرهم حقدهم على الإنكليز قبل 1958 ثم على النخبة السنيّة الحاكمة بعد ذلك. ولكن البكر لم يكن في موقع يسمح له بالحلّ والربط إذ كان منذ البداية رئيساً ضعيفاً وكبيراً في السن من جيل نشطاء الخمسينيات (مولود عام 1914) فبقي "ساكن القصر" وبدون قوة فعلية حتى أخرجه صدام الذي أصبح الحاكم الفعلي للعراق في ما بعد.

وُلد صدام في 28 نيسان عام 1937 وحصل ما يكفي من العلم على الأقل في المرحلة الثانوية والبدائيات الجامعية. وفي العام 1969، لعب دوراً كبيراً في بناء أجهزة السلطة التي أوصلت إلى مناخ الاستقرار الذي شهده العراق في العقد التالي. فأصبح رئيس جهاز المخابرات ونائب أمين عام حزب البعث العربي الاشتراكي ونائب رئيس الجمهورية.

ولم يكن البكر حملاً وديعاً بل الشاهد الأكبر على كل العنف والقتل الذي مارسته دولة البعث. بل كان مشجعاً ومعجباً بالأعمال، تاركاً كامل الحرية للأجهزة في حكم البلاد، مستريحاً إلى لقبه الفارغ من السلطة كرئيس للجمهورية. فعندما أمر صدام بسجن رجل شريف كرئيس الحكومة السابق عبد الرحمن البراز لمدة 15 عاماً، لم يعترض البكر³⁵⁵. بل إن البكر فاق صدام في الاتكال على العائلة والعشيرة. فتأكد أن سائقه الخاص وطباخه وبوابه وحراسه ومرافقيه وخدمه كلهم من تكريت. حتى جعل معظم العراقيين يأسفون أنهم ليسوا من تكريت. ولم يكن البكر عقائدياً أو أي شيء من هذا القبيل، فهو لم يعط مسألة الوحدة مع عبد الناصر اهتماماً رغم كل الشعارات والخطابات الطنانة التي شرعن النظام وجوده من خلالها (الوحدة العربية وتحرير فلسطين ومناهضة الاستعمار، الخ). حتى أن سياسة بعث العراق في قمع القوى العروبية واليسارية داخل الجيش والحكومة وفي الشارع لاقت استحسان أعداء العرب في "إسرائيل" والغرب وأراحتهم من كابوس صعود محتمل لعراق راديكالي يتوحد مع سورية ضد "إسرائيل" والاستعمار.

ولم ينقض العام الأول من حكم البعث حتى بدت هشاشة شعارات البكر. فهو زايد على وطنية جمال عبد الناصر في أيلول 1969 وهاجمه لقبوله مبادرة السلام الأميركية (روجرز) مع "إسرائيل"، ولكنه تعاون مع الأردن لتسهيل عمل الجيش الأردني في قمع المقاومة الفلسطينية في الشهر نفسه، وفوق ذلك أمام أعين الجنود العراقيين المرابطين في الأردن. إذ في الحرب الأهلية في الأردن كانت نداءات القيادة الفلسطينية تتواصل لمدة أسبوعين إلى الجيش العراقي في الأردن التدخل إلى جانبها، ولكن رئيس أركان الجيش العراقي، حردان التكريتي، كان قد تعهد للملك حسين بعدم التدخل لئتمكّن الجيش الأردني من السيطرة على الوضع. فبقيت قصة "حياد" الجيش العراقي في الحرب الأهلية في الأردن نقطة سوداء في سجل بعث العراق. وما هي إلا شهور حتى سحب العراق وحداته العسكرية من الأردن ومن سورية بحجة تكاليفها الباهظة ولحاجته إليها في الحرب ضد الأكراد.

Charles Tripp, *A History of Iraq*, Cambridge, Cambridge University Press, 2002, p. 193.³⁵⁵

ارتبط البكر وصدّام حسين وضباط آخرون بمنطقة تكريت والمثلث السني الممتد إلى الموصل، حتى أصبح جهاز الدولة بأكمله تقريباً من العرب السنّة من تكريت وجوارها (دورة وسامراء وعانة، ثم بدرجة أقلّ الموصل). وترافق ذلك مع رفض مشاركة شيعة، رغم مساكنة التكاثر لفقراء الشيعة في منطقة الكرخ البغدادية. واختلفت مطالب شيعة العراق عن سنّة العراق أن استثناء الشيعة من السلطة كان قراراً نظامياً لا علاقة له بخلفيتهم الطبقيّة الاجتماعية كوضع فقراء السنّة. ولذلك كان وصول صدّام ورفاقه من الثائرين السنّة إهانة مزدوجة للنخب الشيعة التي رأت أن استمرار استثنائهم من مقاليد الحكم هو إمعان في ظلم يسمح لأنصاف الأميين من السنّة بتسلّم المناصب. بينما يرتع وجهاء الشيعة ومثقفوهم في القمع والتهميش. وهذا الشرح الطائفي كان عاملاً في انهيار دولة العراق.

استغلّ صدّام مناصبه المتنوعة لتحسين قوّته وعزل البكر، حتى أصبح رجل العراق القوي³⁵⁶. وأخذ قراراً في السبعينيات بتعيين نفسه جنرالاً في الجيش ثم قائداً أعلى للقوات المسلّحة عام 1979. وكان البكر طيلة فترة رئاسته يوقّع أي ورقة تصل إلى مكتبه من "نائبه" صدّام. وحتى 1976، كان البكر لا يزال في وضع يسمح له بوضع حد لطموح صدّام. ولكنه لم يعمل شيئاً، ليس لعدم رغبة منه بل لأنّه كان مرتاحاً لسير الأمور في البلاد وأداء قريبه صدّام. وبعض المؤامرات التي نُسبت إلى صدّام، كإزاحة رئيس الوزراء عبد الرزاق النايف، عام 1969، كانت فعلاً يطلب من البكر ونفّذها صدّام³⁵⁷.

دأب بعث العراق على إهانة المنظمات والجماعات عبر إخافتها من التجمهر ضده بأساليب شتى. فأعلنت السلطة أن الرئيس السابق عبد السلام عارف كان عميلاً للمخابرات الأميركية وحكمت على رئيس الوزراء السابق عبد الرحمن البزاز بسجن طويل الأمد بتهمة العمالة لـ"إسرائيل". وبعدما خلا الجو من عناصر المعارضة الجديّة، انقلب الوضع في السنوات التالية وتوجّه اهتمام السلطة نحو قمع أبنائها داخل البعث. وهكذا قبل نهاية السبعينيات تمّت تصفية جميع قادة انقلاب 1968 باستثناء حسن البكر وقريبه صدّام حسين. وأصبح الرجلان صاحبي الحلّ والربط بسيطرتهم على مجلس قيادة الثورة وباختيارهما للأعضاء. حتى هبط عدد الأعضاء إلى ستة.

بدأ صدّام حملة للسيطرة على الجيش العراقيّ فأمر في بداية 1970 باعتقال 29 ضابطاً وعدداً من المدنيين بتهمة "السعي إلى قلب النظام"، وأعدمهم. ثم اتهم مجموعة أخرى بالتآمر على العراق مع شاه إيران، وتلت ذلك سلسلة اعتقالات وإعدامات. وتبيّن في ما بعد أن إثنين من صغار الضباط الذين اعترفوا بـ"المؤامرة" كانوا من أزلام صدّام. وتشكّلت محكمة خاصة أصدرت أحكاماً بإعدام 42 شخصاً بتهمة التآمر مع شاه إيران ضد العراق³⁵⁸. وفي تشرين الأول من العام نفسه أزاح صدّام الجنرال حردان التكريتيّ من قيادة الجيش، ثم أرسل صدام من يقتل الجنرال مهدي صالح السامرائي المنفي في بيروت. وجاء دور فؤاد الركابي الذي كان أميناً عاماً

³⁵⁶ راجع مجلة "المستقبل" التي أصدرها نبيل خوري في باريس، عدد 13 تموز/يوليو 1979 عن وصول صدّام إلى سدة الرئاسة وكأنّه عنصر "جديد" ظهر فجأة على الساحة.

³⁵⁷ جواد هاشم، مذكرات وزير عراقي مع البكر وصدّام ذكريات في السياسة العراقية 1967-2000، دار الساقى، 2003.

³⁵⁸ 134-134 Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 134-136.

لحزب البعث. هذا المسكين لم يكن يشكل أي مصدر للخطر فهو ترك حزب البعث واختار طريق الناصرية. ولكنه سُجن فور نجاح انقلاب 1968. وعندما طالب قداماء الحزب بإطلاق سراحه لأنه لم يرتكب أي مخالفة، طعنه أحدهم في السجن عام 1970 فقتله.

خلا الجو لصدام للقضاء على بقية منافسيه. فبضربة واحدة يوم 28 أيلول 1971، أحدث تغييراً حكومياً بموافقة البكر أدى إلى إقصاء الجنرال صالح مهدي عماش، نائب رئيس الجمهورية ووزير الداخلية، وعبد الكريم الشخيلي وزير الخارجية. فأقال الأول من مناصبه أثناء غيابه عن العراق. وكان البديل عند صدام هو جيش تابع لحزب البعث. وفي وقفة نادرة عارض البكر أذية عماش فوافق صدام وعيّن عماش سفيراً في أوروبا حتى وفاته عام 1975. أما الشخيلي، زميل صدام "التوأم" حسب تعبيره، فقد أُزيح من منصبه كوزير للخارجية وعيّن سفيراً في الأمم المتحدة. وكان سبب إزاحة الشخيلي أنه تحدث عن ضرورة رأب الصدع مع سورية وأنه لا يجوز لصدام أن يضع يده على كل الوزارات ومراكز السلطة. وعندما تقاعد الشخيلي من منصبه وعاد إلى بغداد، قتله أحدهم عام 1982.

ولم يقتصر القمع على المستقلين الذين من الممكن أن يقيموا اتصالات مع الغرب، ولكن البعث خاف من الشيوعيين أيضاً لأنه يعرف قوتهم على الأرض. إذ في أواخر 1968 دعت القيادة المركزية للحزب الشيوعي إلى إسقاط النظام، فهاجم مسلحون شيوعيون مكاتب حكومية وأطلقوا الرصاص على منزل صدام. وردّ النظام بحملة تنكيل بالشيوعيين عام 1969. وفي 1974 اعتقل النظام 200 شخص من أصحاب المهن وأبناء الطبقة الوسطى من مثقفي المدن وجلهم من المتقاعدين المتقدمين في السن، بتهمة الانتساب إلى الحركة الماسونية. وبعد تطهير البلد من القوميين العرب والناصريين والمستقلين والشيوعيين ومن سُمّاهم النظام "عملاء الصهيونية والسي آي إيه"، اتجه صدام نحو تصفية منافسيه المحتملين داخل الحزب وفي الجيش والإدارات العامة.

يقول المؤرخ الفلسطيني حنا بطاطو إن فترة السبعينيات ابتدأت بأشخاص لخدمة حزب البعث وانتهت بحزب يخدم الأشخاص، أو على الأقل لخدمة شخص أو شخصين: صدام حسين بالدرجة الأولى وقريبه حسن البكر. ومنذ أواسط العقد، كان مجلس قيادة الثورة أداة طوعية بيد صدام. ويضيف بطاطو أن صدام وأقرباءه التكريتيين حكموا العراق من خلال الحزب. والتصفيات داخل الحزب كانت العامل الأهم في تفرّد صدام في الحكم في ما بعد، وبالتالي رفضه وحدة مع سورية كانت ستؤدي إلى قيادة حزبية جماعية من البلدين عام 1979. ولتحسين صورته مع الاتحاد السوفياتي والدول الغربية، قبل نظام البعث العراقي عام 1973 بإقامة "الجبهة الوطنية التقدمية" التي ضمت الحزب الشيوعي العراقي وقوى وطنية أخرى³⁵⁹. وحجزت السلطة مقاعد في الجبهة للحزب الديمقراطي الكردي ولكن الأخير لم يشارك. وإقناع الشيوعيين أنهم شركاء في السلطة، وقّع أحمد حسن البكر ميثاق العمل الوطني مع الزعيم الشيوعي عزيز محمد،

Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 151-359

153, 156-157.

فساعد هذا الميثاق دولة البعث على الادعاء أنه يحمل طابعاً ديمقراطياً وعلى تقوية شوكته ضد القوى التي واصلت معارضتها.

فأبدى الاتحاد السوفياتي رضاه عن هذه الخطوات وطلب إلى الملا البرزاني تخفيف نشاطاته ضد النظام. ولكن البرزاني ترك موسكو واتجه نحو "إسرائيل" والشاه. وكان الشاه قد بدأ تسليح ومساعدة الأكراد عام 1973 بطلب من كيسنجر وبالتعاون مع السي آي إيه بهدف مضايقة العراق لتحالفه مع الاتحاد السوفياتي. وتضاعفت حركة الأكراد بسرعة وخلال العامين الأولين بلغ عدد القتلى من مدنيين وعسكريين 65 ألف شخص وعجز الجيش العراقي عن إخضاع الأكراد في الجبال.

كانت "الجبهة التقدمية" غطاء لمشروع أوسع خطط له البعث وهو تمثين الجبهة الداخلية بهدف توسيع الحرب على الأكراد في الشمال التي بدأها عام 1974، وإلى توقيع اتفاقية الجزائر مع شاه إيران عام 1975 لحل أزمة شط العرب ووقف الدعم المادي الإيراني للأكراد³⁶⁰. فكان من نتائج اتفاقية الجزائر وتخلي الشاه وأميركا عن الأكراد، أن البرزاني عض على الجرح لخيانة أميركا لقضيته³⁶¹.

ولم يحصل الشيوعيون على مقعد في مجلس قيادة الثورة مع أنهم تولوا مقاعد وزارية ثانوية في الحكومة. فعادوا إلى مزاولة نشر كتبهم وصحفهم بعد سنوات من العمل السري، حتى باتت صحيفتهم الرئيسية تطبع ستة ملايين نسخة عام 1976³⁶². وبعد الانتهاء المؤقت من المشكلة الكردية، انقلب النظام على الشيوعيين مجدداً عام 1976 فطاردتهم وسجنهم وأعدم عدداً منهم عام 1977.

وفي تموز 1978 أعلن الحزب الحاكم القانون رقم 200 الذي قضى بالعقوبة الشديدة ضد أي عمل سياسي لأي حزب داخل القوى المسلحة باستثناء حزب البعث الذي يملك احتكار العمل السياسي. فشنت السلطة حملات قمعية متتالية بحق الشيوعيين وكانت الحجة أن أجهزة المخابرات اكتشفت أن الحزب الشيوعي يحاول تأسيس خلايا شيوعية داخل الجيش، وهو أمر احتكره حزب البعث. رغم أن هذه الخلايا كانت موجودة أساساً داخل الجيش وأن عدداً من العسكريين كانوا أعضاء في الحزب الشيوعي قبل صدور القانون 200، إلا أن الدولة جعلت مفعوله رجعيًا بشكل يطال الشيوعيين مهما كان تاريخ انتمائهم إلى حزبهم. وانتهت سلسلة الإجراءات إلى اعتقال آلاف الشيوعيين وعودة حزبهم إلى العمل السري عام 1979.

وهكذا بطلت الحاجة إلى "جبهة تقدمية" واستغنى البعث عن أي شركاء في الحكم. ولم يحتج الاتحاد السوفياتي على هذه التصرفات الشيوعية التي قام بها البعث بسبب روابطه الاستراتيجية بالعراق وضرورة المحافظة على علاقات طيبة مع دولة مهمة في الشرق الأوسط.

ورغم أن الثلاثي المعارض، الشيعة والشيوعيين والأكراد، لم يكن بالخصم السهل، إلا أن قوة هؤلاء لم تعد تشكل خطراً حاسماً على حكومة البعث. لا بل فإن جميع المراقبين أكدوا أن فترة السبعينيات كانت أكثر

Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, pp. 164-170.³⁶⁰

³⁶¹ هاجر البرزاني إلى أميركا رغم تخليها عن قضيته، حيث توفي عام 1979، ليرثه أبنائه وخاصة مسعود البرزاني في قيادة الحزب.

Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 140.³⁶²

العقود استقراراً في العراق. ولقد زيد عدد أعضاء مجلس القيادة إلى 22 شخصاً في أيلول 1977، إلا أن ذلك جاء في وقت أصبح صدام حسين فيه الشخص الأبرز.

نهضة العراق في السبعينيات

خلال الستينيات كانت سياسة بريطانيا وأميركا تقضي بمنع الحكومة العراقية من تعزيز دور الشركة الوطنية للنفط العراقي التي أسسها عبد السلام عارف عام 1964. واستمرت محاولات استقدام مستثمرين جدد للتنقيب عن النفط في الأراضي التي تقع خارج نطاق الشركة الأجنبية. وتابع عبد الرحمن عارف سياسة شقيقه، فوضع خططاً لمنح فرنسا والاتحاد السوفياتي حقوق التنقيب والاستخراج. فمنحت الشركة الوطنية امتيازاً لكونسرتيوم "إيراب" الفرنسي عام 1966 ودعت الحكومة العراقية شركات القطاع العام السوفياتي إلى تنمية واستثمار حقل الرميلة العملاق المحاذي للكويت. ورغم أن الكميات المستخرجة كانت ضئيلة إلا أن موسكو وباريس كانتا مقتنعين بأنها بداية لعلاقة هامة ستجعلهما شريكتين رئيسيتين في نفط الشرق الأوسط.³⁶³ ولكن الدول الغربية لم تكن في وارد منح السوفيات موطأ قدم وعمدت إلى تخريب محاولات العراق زيادة إنتاجه كي تحافظ على احتكارها للسوق العالمي وتمنع العراق من أن يصبح نموذجاً وطنياً لدول أخرى.

وطُبعت فترة نهاية الستينيات بضعف الإنكليز عن مواجهة النشاط العراقي المتصاعد لاستعادة السيادة الوطنية. فسعت بريطانيا إلى تأديب الحكومة العراقية عبر الكونسرتيوم الأجنبي الذي لجأ إلى تخفيض سعر النفط ومعدلات الإنتاج مستغلاً سيطرته المطلقة على حقل كركوك الضخم، إضافة إلى السيطرة الكاملة على الاستخراج والتوزيع والتسويق.³⁶⁴ وحاولت الشركة الأجنبية ابتزاز الحكومة العراقية بأنها ستراجع عن السياسة التضييقية إذا وافق العراق على السماح لها بالاستثمار في الأراضي المؤممة. ثم اعترفت الشركة الأجنبية ضمناً بالأضرار التي ألحقتها سياساتها بالاقتصاد العراقي، فدفعت تعويضات للعراق مقدارها 350 مليون دولار.³⁶⁵

في تلك الأثناء أرسلت الولايات المتحدة مبعوثين إلى العراق لبحث أوجه التعاون حول قطاع النفط، ومنهم المصرفي بول باركر ورجل الأعمال كارل لودفيغ³⁶⁶ وروبرت أندرسون. كما أجرت اتصالات سرية مع البعثيين، ومنهم أحمد حسن البكر، للمساعدة في قلب نظام عارف مقابل شروط معينة لمصلحة أميركا. وغني عن

³⁶³ مدحت القرشي، الحماية والنمو الصناعي في العراق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

³⁶⁴ Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 145-148.

148.

³⁶⁵ Steven Hurst, *The United States and Iraq Since 1979: Hegemony, Oil and War*, 2010.

³⁶⁶ راجع كتاب المؤلف أمراء الحرب وتجار الهيكل، عن دور هذين الشخصين في أزمة بنك إنترا في لبنان في الفترة نفسها.

القول إن الولايات المتحدة رحبت بالانقلاب البعثي في تموز 1968، ولكن القيادة البعثية لم تجرؤ على تلبية طلبات واشنطن دفعة واحدة في ظل غضب عربي واسع على أميركا بعد هزيمة حرب 1967. في العام 1971، بدأت الحكومة العراقية وقد أصبحت تحت سلطة البعث مفاوضات مع كونسرتيوم الشركات المنضوية في "شركة النفط العراقي" الأجنبية ومن ضمنها شركة بريطانية أخرى تعمل في جنوب العراق هي "شركة نفط البصرة". وباعتراف الكثيرين، فإن دور صدام حسين كان إيجابياً وحيوياً في المفاوضات التي أوصلت العراق إلى استعادة سيادته الوطنية على أهم مصدر رزق اقتصادي. وأنشأت لجنة فرعية في مجلس قيادة الثورة هي لجنة الشؤون النفطية وتطور دورها وأصبحت في أيلول 1971، لجنة المتابعة للشؤون النفطية وتطبيق الاتفاقيات. وعلمت الدولة أن زيادة إنتاج البترول العراقي لن تؤثر على الأسعار الدولية لأن السوق آنذاك كان من مصلحة العرض وليس الطلب. فكانت هذه النقطة في لب الموضوع الذي أراد العراق مناقشته³⁶⁷.

وكان العراق مستعداً لشئى الاحتمالات أن لا تأخذ الشركات الأجنبية عرض بغداد على محمل الجد. ولذلك قضت الخطة العراقية البحث عن أصدقاء دوليين كتغطية سياسية. فاتجه صدام إلى موسكو في شباط 1972 لتطوير العلاقات بين البلدين. ورد ألكسي كوسيجن، رئيس وزراء السوفييات زيارة صدام بزيارة إلى العراق في نيسان 1972، ليشهد على تدفق البترول في الرميطة. وفي الزيارة نفسها وقّع البلدان اتفاقية صداقة وتعاون مدتها 50 عاماً. وفي 13 أيار 1972 وجه العراق إنذاراً إلى السيد ستوكول رئيس مجلس إدارة كونسرتيوم شركة النفط العراقي الأجنبية بضرورة قبول الشركة بمقترحات العراق خلال 18 يوماً. فسخر ستوكول وأهمل الإنذار. ولذلك في الأول من حزيران أصدرت الحكومة العراقية القرار 69 القاضي بتأميم شركة النفط العراقي الأجنبية، مستثنية شركة نفط البصرة البريطانية، حتى لا يتعطل قطاع النفط بالكامل إذا تدهورت الأمور إلى الأسوأ. ودعمت الدول العربية المصدرة للنفط الموقف العراقي لأن حكومة العراق استشارتها مسبقاً. ففي 31 أيار 1972، حضر صدام إلى مقر الشركة الوطنية وأبلغ طاقم الشركة أن الحكومة العراقية قد قرّرت تأميم الشركة الأجنبية. ثم أمر باحتلال مكاتب الشركة وتحديد المواقع التي سيديرها العراقيون وكيفية إبلاغ الموظفين والخبراء الأجانب عن التأميم. وهكذا تمّ التأميم وقبض العراق على كامل القرار النفطي³⁶⁸.

ووسط غضب الشركات العضوة في كونسرتيوم الشركة المؤممة، اختار صدام التعاون مع فرنسا. وسرعان ما وقّعت فرنسا خلال أسابيع اتفاقيات نفطية وعسكرية مع العراق عندما زارها صدام بعد أسبوعين والتقى الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو. فالعراق منح الشركات الفرنسية إمتيازات مماثلة لتلك التي منحها للاتحاد السوفيياتي في السابق، كما اشترى أسلحة فرنسية دلالة على ارتباطه بفرنسا أيضاً في التسلح والتدريب وقطع الغيار الحربي. وهكذا سعى العراق إلى صداقة موسكو وباريس للتوازن مع لندن وواشنطن³⁶⁹.

Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 123-³⁶⁷

125.

William Polk, *Understanding Iraq*, New York, HarperCollins, 2005, p. 126-128.³⁶⁸

Charles Tripp, *A History of Iraq*, Cambridge, Cambridge University Press, 2002, p. 214-223.³⁶⁹

لقد نجحت موسكو في تطوير حقل الرميلة الذي بدأ الإنتاج عام 1972 بـ 80 ألف برميل يومياً، كما عثرت فرنسا على كميات كبيرة جنوب العراق وبدأت الإنتاج عام 1976. وأدت المساهمات الفرنسية والسوفياتية إلى دفع حكومة العراق لإعادة تنظيم شاملة للقطاع النفطي الذي أصبح كنزاً لا ينضب. وتشجعت حكومات أخرى في المنطقة من الخطوة العراقية فأُمتت سورية منشآت الشركة الأجنبية في أراضيها في اليوم التالي، كما أمم لبنان المنشآت في أراضيه دون أن يعوّض للأجانب.³⁷⁰

نهضة اجتماعية

استطاع حكم البعث في سنوات قليلة تحقيق ما عجزت عنه الحكومات العراقية المتعاقبة على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي³⁷¹، إذ بعد تأميم شركة النفط العراقي الأجنبية، قام البعث ببعض التقديرات الاجتماعية التي حققت له شعبية بين المواطنين. ثم بدأت مرحلة جديدة في تكبير القطاع العام وتوظيف عشرة آلاف شخص من الذين سرّحتهم الحكومات السابقة بسبب نقص الموارد المالية وضغوط شركة النفط العراقي الأجنبية³⁷².

وقام البعث بإنجاز برامج الإصلاح الزراعي الذي انتظره الناس منذ بداية الستينيات، فحصل الفلاحون والزراعيون على امتيازات وحقوق جديدة. ورغم أن العمل النقابي كان حكرًا على البعث، إلا أن النقابات والاتحادات العمالية القائمة حسنت من الأجور ومن أحوال العمال. وفي مجال الضمانات الصحية والاجتماعية، حصل العراقيون لأول مرة على أنظمة ضمان وخدمات صحية. واهتمت الدولة بشؤون المرأة العراقية وخاصة في حقول العمل والدراسة، ورغم أن دولة البعث تبنت الكثير من القرارات والمشاريع ذات الطابع الاشتراكي، إلا أن قيادتها كانت دائماً تأخذ العادات والقيم العربية بالاعتبار وخاصة تقاليد العشائر والعائلات. فكان صدام يزور الناس في منازلهم ويزور أماكن العمل في المصانع والشركات والدوائر الحكومية ويرتدي ملابس ريف تكريت³⁷³.

خلقت السيطرة على النفط أجواءً نفسية إيجابية في البلاد وامكانيات للبحوحة الاقتصادية³⁷⁴. فارتفع مستوى المعيشة وحيث نوع من الوحدة الوطنية والكبرياء العراقي على البلد³⁷⁵. وكانت هذه البداية فقط، إذ كان العالم عام 1974 على شفير صدمة نفطية عندما تضاعفت الأسعار مرات عدّة جراء الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة في تشرين الأول 1973. وأصبح التأميم نصراً تاريخياً عراقياً غير مسبوق، حقق أرباحاً

³⁷⁰ عدنان الشهبال في الحياة 23 أيار/مايو 2003.

³⁷¹ Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 137-139.

³⁷² Khadduri, Majid, *Socialist Iraq: A study in Iraqi Politics since 1968*. Washington D.C.: Middle East Institute, 1978.

³⁷³ منها "زبابة والملك".

³⁷⁴ Thabit Abdullallah, *Dictatorship, Imperialism, and Chaos: Iraq Since 1989*, Zed Books, London, 2006, pp. 25-26.

³⁷⁵ Kelidar, Abbas, *The Integration of Modern Iraq*, New York, St. Martin's Press, 1979.

طائلة. ففيما كانت الحكومة العراقية تزايد على الدول العربية الأخرى بخطاب العداء لـ "إسرائيل" وتتهم مصر بالتخاذل لأنها أوقفت الحرب، وسورية بعدم الثقة لأنها لم تشارك بغداد في خطط الحرب مع "إسرائيل"، كان العراق يخرق الحظر العربي ويضخ كميات هائلة إلى السوق الدولية العطشى.

ودلالة على هذا التحول في حظوظ العراق المالية هو ارتفاع دخل العراق عشرة أضعاف خلال عامين: من 575 مليون دولار عام 1972، إلى 6 مليارات دولار تقريباً عام 1974. كما أن عائد النفط ارتفع من 32 مليون دولار عام 1951 أو 3 في المئة من الناتج المحلي القائم إلى 26 مليار دولار أو 50 في المئة من الناتج المحلي عام 1980³⁷⁶. فخلقت أموال النفط مجالات ضخمة للعراق شبيهة بتلك التي حولت السعودية والإمارات في الفترة نفسها إلى اقتصاديات مزدهرة. فبدأت سلسلة مشاريع وخطط جبارة ونادرة في دول العالم الثالث. وقفز حجم القطاع الخاص نسبة إلى الإنتاج الكلي من 10 في المئة عام 1970 إلى 25 في المئة عام 1977. وبدأ العراق سلسلة مشاريع لنهضة صناعية وطنية بصناعة تحويل المعادن وصناعة الكيماويات والمخضبات الزراعية بكلفة قدرت بـ45 مليار دولار. وتم بناء شبكة أنابيب نفط ضخمة ومنتطورة تسمح بشحن النفط بالاتجاهين وتصل إلى الساحل السوري وتركيا والبصرة. فلا يعود العراق يتكلم على منفذ واحد عند وقوع الأزمات. ومدت وزارة النفط أنابيب عبر تركيا إلى البحر المتوسط عام 1977. وأنفق العراق خلال عقد واحد (1977 إلى 1987) 3 مليارات دولار على مشاريع البنية التحتية النفطية، وياشر التخطيط لـ19 مشروعاً جديداً بقيمة 2.75 مليار دولار. فساعدت هذه المنشآت والاستثمارات في زيادة الإنتاج إلى 3.5 مليون برميل يومياً في أواخر الثمانينيات.

خلقت الدولة بيئة رخاء للشعب العراقي عبر توسيع رقعة الخدمات الصحية والاجتماعية وإطلاق برامج التربية والتعليم على أوسع نطاق إضافة إلى مشاريع الإسكان والحّد من الهجرة الريفية إلى المدن والسيطرة على مواسم الفيضانات في نهري دجلة والفرات التي هددت الأراضي الزراعية سابقاً. وخففت تقديرات الدولة من مشاعر الحرمان والظلم في صفوف الشيعة والأكراد، حتى أن لسان حال الجميع كان أن الأوضاع المعيشية تحسّنت إلى درجة انخفض معها كره النظام من منطلق شيعي أو كردي إلى درجة كبيرة. ذلك أن الثروة وسبل الإنفاق العام ساعدت على تحسين الانسجام بين فئات الشعب³⁷⁷. ومع الوقت أصبحت مسألة الديمقراطية ثانوية مقارنة بالتنمية الاقتصادية وملء البطون. ولم يعد العالم الخارجي يسمع إلا عن مستويات المعيشة في العراق ودول النفط العربية وليس عن حقوق المواطنين السياسية. فقد راق للغرب قمع صدام للشيوخيين ولأنصار الخميني عدو الشاه.

كما حسّن اتجاه العراق نحو اقتصاديات السوق صورته في الغرب وساعد هذا الاتجاه في نمو طبقة اقتصادية وطنية. حيث ارتفع حجم الطبقة الوسطى الميسورة في العراق من 28 في المئة عام 1970 إلى 58 في المئة عام 1978. واختفى من المجتمع نقيض الفقر المدقع والثراء الشديد. ويقول ديبلوماسيون أجنب أن الفساد الإداري لم يكن موجوداً في العراق في السبعينيات. أمّا الأمية فقد انخفضت إلى مستوى تاريخي يقل عن 30

³⁷⁶ عباس النصاروي، الاقتصاد العراقي، دار الكونز الأدبية، 1995.

³⁷⁷ Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 227.

في المئة عام 1980، بعدما فاقت الستين في المئة عام 1970. ووصلت الكهرباء إلى آلاف القرى لأول مرة. ومنع البعث رجال الدين من التدخل في شؤون السياسة ولكن من ناحية أخرى أنفق 200 مليون دولار لبناء وترميم المساجد.

وعَدَّ الاحتياط النفطي العراقيّ الثاني في العالم بعد العربيّة السعوديّة، بمستقبل زاهر وسنوات أفضل تحت حكم البعث. وجلب المال الوفير الاعتدال في خطاب الدولة كما فعل في سائر الدول النفطية، فبدأ صدام يتكلّم بلهجة يمينيّة غير معهودة من نظام ثوريّ عربيّ، حيث قلّل في لقاء مع وفد من الكونغرس الأميركيّ من أهميّة عداة العراق لـ"إسرائيل" وقال لعضو الكونغرس الأميركيّ ستيفن سولارز: "لم يعد أيّ زعيم عربيّ يتكلّم هذه الأيام عن تدمير "إسرائيل" وإزالتها من الوجود".

الأموال الهائلة التي جناها العراق من النفط فاقت كثيراً حاجات اقتصاده المدنيّ، فسعى إلى إنفاق أسطوريّ على بناء أجهزة الأمن والتسلّح الكثيف وإلى تطوير صناعة عسكريّة. وإضافة إلى استقدام العمالة العربيّة، سعى العراق إلى تطوير كفاءات الأجيال العراقيّة، فبدأ مشروع شجاع عام 1973 لبناء آلاف المدارس الثانوية في أنحاء البلاد بمعدّل مدرسة في كلّ بلدة عراقية. ذلك أنّ الكثير من أبناء العراق كانوا يصلون إلى باب المرحلة الثانوية ويتوقفون عن العلم لعدم وجود مدرسة قريبة. فحقّق العراق زيادة هامة في عدد الطلاب وخاصة الفتيات في المدارس. وبسبب التعليم الإجباريّ، تحسّن وضع المرأة الاجتماعيّ والاقتصاديّ. ففي 1970، كانت نسبة الفتيات في المراحل التعليمية ما قبل الجامعية 34 في المئة. فارتفعت النسبة إلى 95 في المئة من كلّ الفتيات في أعمار المدرسة عام 1980. وحتى في المهن التي كانت مقفلة أمام النساء قبل العام 1968، أصبحت نسبة النساء مرتفعة تفوق عدد الرجال أحياناً. وعلى سبيل المثال، بلغ عدد المعلمات في أواخر السبعينيّات 46 في المئة من كلّ المعلمين، ونسبة الطبيبات 29 في المئة، والاختصاصيات في الصيدلة 70 في المئة وطبيبات الأسنان 46 في المئة. وانتسبت النساء إلى القوى المسلّحة بأعداد كبيرة، وبعضهن وصلنا إلى مناصب إداريّة وقيادية وعلميّة هامة. كما انخرطت النساء في الكلية الحربيّة وبعضهن أصبحن طيارات في سلاح الجو. حت قيل إنّ نساء العراق يتذكّرن السبعينيّات كعصر العراق الذهبي³⁷⁸.

وظالما أنّ الشعاع كان إيجاد شعب عراقيّ متعلّم، فهذا كان يعني أيضاً تعليم البالغين الأميين الذين لم تسنح لهم فرصة الذهاب إلى المدرسة في طفولتهم. فركّزت الدولة على محو الأميّة في الأرياف وفي الأحياء الشعبيّة والفقيرة كي لا تبقى القراءة والكتابة حكراً على المحظوظين في المجتمع والأغنياء. وأعلن في العام 1977 "يوم المعرفة" لإطلاق قانون البرنامج الوطنيّ الشامل والإجباريّ لمحو الأميّة، حيث أُجبر كلّ رجل وامرأة في سن الخامسة عشرة إلى الخامسة والأربعين أن يلتحقوا بصفوف تعلّم القراءة والكتابة. ومَن لا يلتحق يكون مصيره السجن. خلال عامين التحق مليون عراقيّ بمعاهد محو الأميّة وخصّصت الحكومة ستين ألف معلّم ومعلّمة يعاونهم مئات الاختصاصيين من الدول العربيّة. وبحلول العام 1982، خرّجت معاهد محو الأميّة في العراق مليوني مواطن أصبحوا قادرين على القراءة والكتابة. واعتبرت منظمة الأونيسكو أن برنامج محو

Berberoglu, Berch, *Power and Stability in the Middle East*, London, Zed Books, 1989.³⁷⁸

الأمية العراقيّ هو الأكبر والأكثر طموحاً في العالم ومنحت العراق جائزة الأمم المتّحدة. كما أن تجربة العراق في محو الأميّة دوّنتها الأونيسكو في وثائق ومراجع وكتب لتنقلها إلى دول أخرى.

كما بنت الدولة المستشفيات والعيادات الطبيّة، وشجّعت الولادات مع هدية 2500 دولار لكل إنجاب، فازداد عدد السكان إلى 25 مليون خلال 25 سنة. وبنت أسواقاً تجاريّة حديثة فُرض عليها قوانين للاهتمام بالنوعيّة والكلفة للمواطن. ووصلت الكهرباء خلال فترة قياسيّة إلى 4000 قرية لم تحصل عليها من قبل. وعجّلت الدولة بشراء ملايين الثلاجات وأجهزة التلفزيون ووزعتها مجاناً على المواطنين في كلّ العراق، وأمر صدام أن يبدأ التوزيع في مناطق الشيعة في جنوب العراق قبل غيرها، في محاولة لخطب ودّهم. ويرى مراقبون أنّ البعث نجح في السبعينيّات في كسب جولة مع الشيعة بهذه المبادرات وبعتراف قادة من حزب الدعوة لأن أحوال الناس تحسّنت رغم أن مطلب الشيعة بمشاركة أوسع في الحكم لم يتحقّق³⁷⁹. كما خصّصت مناطق الأكراد بمبلغ 3 مليارات دولار.

ولم تقتصر جهود دولة البعث داخل العراق، بل أسّست الصندوق الوطنيّ للتنمية الخارجيّة، أسوة بصندوق الكويت، لمساعدة الدول العربيّة الفقيرة، بميزانيّة 800 مليون دولار سنوياً. وأعطى العراق منحاً ماليّة متواصلة لليمن والصومال وهدية 50 ألف دولار لكل رئيس دولة أفريقيّة فقيرة يزور بغداد. وعمل العراق على منافسة السعوديّة في بناء المساجد في آسيا وأفريقيا.

ولأن الثروة تُفسد العقول، فقد جلبت كثرة المال للعراق للفساد والوساطة والمحسوبيّات وشراء الضمائر. فحاولت الدولة قمع هذا المنحى بإصدار القانونين 8 و52 في أواسط السبعينيّات قضيًا بعقوبة الإعدام لتهم الرشوة والفساد. وبما أنّ الدولة أظهرت جدية في إعدام من يخالفه، حيث أُعدم نائبا وزير لأنهما قبلتا رشوى. وأعطى القانونان نتيجة جيدة وخفّ الفساد.

Said K. Aburish, *Saddam Hussein: The Politics of Revenge*, London, Bloomsbury, 2001, p. 110.³⁷⁹

18 | الحرب المشرقية الإسرائيلية 1973

في أوائل السبعينيات بدأ الرئيس حافظ الأسد يناقش الرئيس المصري أنور السادات والملك فيصل والقادة العرب أن "إسرائيل" نجحت في حرب 67 لأنها التقطت العرب في لحظة غيبوبة وعدم استعداد، ولكن هذا لا يعني أن "إسرائيل" دولة لا تُقهر إذا استعدّ العرب جيداً لمواجهةها. وطالما لم تُعالج مسألة التوازن العسكري مع "إسرائيل" فإن من غير مصلحة العرب الدخول في حل سلمي، لأن قوتها وصلت حدّاً جعل قادتها واثقين من عدم اضطرابهم للانسحاب من الأراضي العربيّة لقاء معاهدات سلام. لا بل زادت ثقة "إسرائيل" بقدرتها على هضم الأراضي واستيطانها³⁸⁰.

محور سورية - مصر - السعودية

في كانون الأول 1970، بعد شهر من وصوله إلى السلطة، جدّد حافظ الأسد رفض سورية لقرار مجلس الأمن 242 الذي أهمل القضية الفلسطينية، مؤكداً أن ساحة الحرب هي جيش بوجه جيش، وقرارات الأمم المتحدة لا تعيد الحق العربي. ثم دخلت العلاقات السوريّة - اللبنانيّة في شهر عسل، خاصة في عهد الرئيس سليمان فرنجيّة المقرب من آل الأسد. فازدهرت التجارة بين البلدين وزاد عدد الزوّار السوريّين إلى لبنان. وكبادرة حسنة، أنهى الأسد الدعم السوريّ لثورة الفلاحين في قضاء عكار (شمال لبنان) التي كان يغذيها صلاح جديد³⁸¹ وأعدت سورية العلاقات مع تونس في 16 شباط 1971 والمغرب في 2 آذار ثم انفتحت على الأردن بعد زيارة ولي العهد الأمير الحسن لدمشق. وسعى الأسد إلى مناقشة الوحدة مع العراق، فزار عبدالحليم خدام بغداد وقدم مقترحات وحدويّة³⁸²، وردّ رئيس العراق أحمد حسن البكر برسالة تضمّنت مقترحات لم تقبلها سورية (بعضها يتعلّق بحزب البعث وإعادة الاعتبار للقيادة القوميّة التي رأسها ميشال عفلق). ورغم أن الاتحاد السوفياتي لم ينظر بعين الرضا إلى انقلاب الأسد، إلا أن الرئيس السوريّ ذهب إلى موسكو في شباط 1971 يريد أسلحة لتعزيز جبهة الجولان مستنداً إلى عمق الصداقة السوريّة - الروسية التي تعود إلى 1956، وإلى علاقاته الشخصية في موسكو التي زارها مراراً كوزير للدفاع عام 1966 وخاصة بعد حرب 1967، وكان قد بنى علاقة صداقة مع وزير الدفاع السوفياتي المارشال غريشكو وزار مصانع الأسلحة التشيكية³⁸³. كان التطوّر الأهم لسورية هو تعاون الأسد مع السادات والملك فيصل للاستعداد لخوض حرب ضد "إسرائيل". وكان الأسد يدرك أن أي عمل سوريّ منفرد في الجولان هو غير محمود العواقب ولا بدّ من عمل عربيّ مشترك يكون لمصر الدور الرئيس فيه. ولذلك وبعد عشرة أيام من تسلّمه السلطة في تشرين الثاني 1970، طار إلى القاهرة للقاء السادات. وكان السادات قد خلف عبدالنصر في 15 تشرين الأول 1970، أي قبل صعود الأسد بشهر واحد، ويبلغ من العمر 52 عاماً (فكان يكبر الأسد باثنتي عشرة سنة). وكان الأسد

³⁸⁰ John Bulloch, *The making of a war: The Middle East from 1967 to 1973*, London, Longman, 1974.

³⁸¹ Petran, *Syria*, p. 252.

³⁸² S.Turqué, "le projet d'union entre la Syrie et l'Irak", in *Le Monde Diplomatique*, avril, 1973.

³⁸³ Galia Golan, "Syria and the Soviet Union since the Yom Kippur War", *Orbis*, vol. 21, winter 1978, pp. 777 - 801.

مدرکاً أنّ مزاج القاهرة منذ صيف 1970 كان يتّجه نحو قبول مفاوضات سلام وأنّ السادات وإن حافظ على مظهر قوميّ عربيّ، فهو يحمل نكهة انعزاليّة قوميّة مصريّة وإسلام محافظ. ولذلك أراد الأسد من لقاء السادات إبراز نقاط اللقاء العملائيّة بين مصر وسورية في مواجهة الاحتلال الإسرائيليّ وليس إثارة مواضيع خلافيّة.

وعدا عن التعاون مع مصر التي تمثّل حجر الزاوية لسورية في صراعها مع "إسرائيل"، كان التغيّر الأهم في سياسة سورية هو في تعزيز العلاقات مع السعوديّة. فقد كانت سياسة السعوديّة تجاه سورية تتلخّص بسعي الرياض لكسب ودّ دمشق وإقامة علاقات طيّبة ومستقرّة معها، وفي حال تعدّر ذلك، كانت الرياض تسعى لمنع سورية من التحالف مع دول عربيّة مناهضة للسعوديّة³⁸⁴.

ثم أيد الأسد مشروع الملك فيصل لإقامة دولة الإمارات العربيّة في الخليج عام 1971 والذي كان صلاح جديد يحاربه على أساس أنّه مخطّط بريطانيّ استعماريّ. وكان منطق الأسد أنّ عقيدة البعث لا يجب أن تقف ضد أي حركة عربيّة وحدويّة وهذا ينطبق على الإمارات. وأنّ السعوديّة نفسها تستحق التحيّة لأنها تأسست على وحدة نجد والحجاز. والتحصّن المضطرد في العلاقات السعوديّة - السوريّة ساهم في تسريع التفاهم بين مصر والسعوديّة بعدما شهدت علاقاتهما انحداراً رهيباً في حرب اليمن في النصف الأول من الستينيّات وعداً سافراً بين البلدين في عهد عبدالناصر. فجرى تفاهم بين السادات والملك فيصل على أمور عدّة منها اقتراح الأسد إنهاء التمييز بين دول عربيّة تقدّمية وأخرى رجعيّة، وأنّ الأولوية يجب أن تذهب إلى وحدة الصف العربيّ والقضيّة الفلسطينيّة. فكان الأسد وراء هذا الأسلوب الجديد في العمل العربيّ.

التحوّل في سياسة سورية العربيّة والفلسطينيّة كان مليئاً بالألغام. فالتقرب مع مصر والسعوديّة لم يترجم إلى استيعاب الأردن وسياسته المعادية للمقاومة. فقد عملت سورية مع مصر والسعوديّة للتوسّط بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينيّة، وأسفرت الوساطات عن اتفاق صبّ في اتجاه احترام المقاومة لسيادة البلدان التي تنشط فيها. ورغم هذا الاتفاق بقي الأسد وحسين على طرفي نقيض، حيث كانت قناعة الأسد أنّ ملك الأردن لن يكون شريكاً في حرب ضد "إسرائيل" وأنّه سيعارض أي عمل عربيّ مشترك ضد "إسرائيل" لأنّ ذلك سيشكّل خطراً على نظامه بسبب حاجته لـ "إسرائيل". ولذلك في الأعوام التاليّة اعتبر الأسد ملك الأردن خصماً لا يمكنه الوثوق به.

دخول هنري كيسنجر

بعد شهرين من حرب 1967، أعلنت الحكومة الإسرائيليّة أنّها لن تعيد إلى مصر وسورية كامل أراضيها حتى لو جرت مفاوضات ووفّعا معاهدات سلام. أمّا بالنسبة للصفة الغربيّة فقد عزمت "إسرائيل" على عدم الانسحاب منها مطلقاً، بل على اسيطانها بالمهاجرين اليهود. واحتاجت "إسرائيل" إلى دعم أميركيّ بالسلاح

³⁸⁴ Patrick Seale, ASAD, p. 294 ("Keep an eye on Syria").

والقروض وإلى معركة دبلوماسية دولية لضم الأراضي. ولذلك عيّنت اسحاق رابين أبرز قادتها العسكريين سفيراً إلى واشنطن ليكون قريباً من مركز القرار الأمريكي فيمارس الضغط اليومي لتحقيق أهداف "إسرائيل" التوسعية. ومن شباط 1968 إلى آذار 1973 نجح رابين في هندسة علاقة استراتيجية بين "إسرائيل" وأميركا صمدت وامت لعقود عدّة. وعندما أصبحت غولدا مئير رئيسة للوزراء في آذار 1969، صبّت جهدها في اتجاه توثيق العلاقة مع أميركا أيضاً. وفي العام نفسه دخل هنري كيسنجر على المسرح، فعمل الثلاثي رابين - مئير - كيسنجر على تطوير العلاقات الثنائية ووضع سلسلة اتفاقات.

وكان كيسنجر لاجئاً يهودياً ألمانياً في أميركا، لا يخفي تعاطفه مع "إسرائيل" وحرصه على مصلحتها. فعمل على إقناع نيكسون والإدارة الأمريكية أن "إسرائيل" هي حاجة استراتيجية في الصراع ضد الاتحاد السوفياتي، معتبراً أن احتلال "إسرائيل" لأراضي العرب والإبقاء على تفوقها العسكري في المنطقة هما مصلحة أمريكية لأن ذلك سيضمن منع موسكو من نشر نفوذها في الشرق الأوسط. وهذا ما زرعه في ذهنية الإدارة الأمريكية منذ تبوّئه منصب مستشار الأمن القومي الذي ضمّ إليه منصب وزير الخارجية في ما بعد. وتبلور التوجّه الأمريكي بقروض وهبات وتسليح ودعم اقتصادي وعسكري وديبلوماسي واسع لـ "إسرائيل".

وتثبت الأرقام علاقة وجود كيسنجر في الإدارة الأمريكية بالانحياز الأمريكي السافر لجانب "إسرائيل". ففيما قدّمت واشنطن لـ "إسرائيل" 30 مليون دولار سنوياً حتى 1969، تضاعف هذا المبلغ عشرين ضعفاً إلى 545 مليوناً عام 1971. ثم مولّت أميركا عام 1972 بنسبة 28 في المئة من ميزانية "إسرائيل" العسكرية، ثم 42 في المئة عام 1973³⁸⁵. وأثناء حرب تشرين 1973، تقدّم كيسنجر بمشروع دعم لـ "إسرائيل" بمبلغ 3 مليارات دولار سنوياً، فوافقت الإدارة الأمريكية على 2.2 مليار وأقامت جسراً جويّاً لـ "إسرائيل" بين 15 تشرين الأول و15 تشرين الثاني 1973 نقل 33 ألف طن من المعدات العسكرية.

وتوالى المذكرات والوثائق بين واشنطن وتل أبيب، منها رسالة نيكسون إلى مئير في 23 تموز 1970 تتبنّى فيها واشنطن التفسير الإسرائيلي لتطبيق القرار 242 (انسحاب جزئي ولا شيء للفلسطينيين) ومذكرة تفاهم في 1 تشرين الثاني 1971 توافق فيها واشنطن على مساعدة "إسرائيل" في صناعة طائرة كفير (وهي نموذج لطائرة الميراج الذي سرقه الإسرائيليون من فرنسا)، وتعهد أمريكي أن واشنطن لن تطلق أي مبادرة جديدة للسلام في المنطقة بدون تفاهم مسبق مع "إسرائيل"، ما أدى إلى هيمنة مصلحة "إسرائيل" على السياسة الأمريكية في المنطقة.

هذه التفاهمات وغيرها ألزمت أميركا بمواقف معادية للعرب لم تخرج عنها أي إدارة أمريكية بعد ذلك. وجعل كيسنجر سياسة "إسرائيل" هي سياسة أميركا أيضاً، فأصبح ضمان تفوق "إسرائيل" العسكري على الدول العربية مجتمعة حتى تلك البعيدة ولا تشكل أي خطر ولا تبدي أي عدا لـ "إسرائيل"، سياسة أمريكية. وأصبح رفض أي سعي عربي لتحرير الأرض ولو عن طريق المفاوضات قاعدة في السياسة الأمريكية. وإن هم خالفوا ذلك فأمركا ستحارب إلى جانب "إسرائيل" ضدهم.

Patrick Seale, ASAD, p. 217.³⁸⁵

وأصبح أقصى ما تقبله أميركا هو مسارات جزئية بين "إسرائيل" وكل دولة عربية على حدة بغية شق الصف العربي وإضعاف عمله المشترك. وفوق ذلك أدخل كيسنجر في قاموس السياسة الأميركية مقولة أن منظمة التحرير الفلسطينية هي منظمة إرهابية لا يمكن التفاوض معها أو اعتبارها شريكاً في السلام، ساخرًا من احتمال قيام دولة فلسطينية على أنه مطلب غير عقلائي. وأقنع كيسنجر "إسرائيل" باتباع أسلوب المماطلة في أي مفاوضات تخوضها مع العرب وجعلها تمتد لفترة زمنية طويلة، لأن ذلك يفقد العرب الأمل في استرداد أرضهم ويُسرعهم بالإحباط، وبالتالي يُجبرهم على القبول بأي حل.

وما كان يسميه العرب ومنهم عبدالناصر والأسد "حال اللاحرب واللاسلم" كان مرغوباً كسياسة أميركية دبرها عقل كيسنجر وسمّاها "الجمود الطويل" ("prolonged stalemate") وهو موقف في الشطرنج يتعذر فيه الإتيان بأي حركة). فكانت واشنطن تردّ على تذرّم الزعماء العرب وشكواهم من "إسرائيل" أن عليهم هم أن يكونوا أكثر اعتدالاً وأن مطالباتهم "إسرائيل" بالانسحاب مستحيل التحقيق ويحتاجوا للتخلي بالواقعية. وأن أميركا فقط وليس غيرها من يستطيع مساعدتهم للوصول إلى حلّ مع "إسرائيل" وما يعكّر عملها هو صداقة بعض العرب مع الاتحاد السوفياتي الذي يجب إخراجه من المنطقة.

بعد سنوات من نشاط كيسنجر في المنطقة وفشل العرب، عجزت استخبارات وسفارات الدول العربية عن كشف أبسط قواعد التفاهات الضمنية الاستراتيجية والسياسية بين أميركا و"إسرائيل". ورغم عشرات الاجتماعات بين الزعماء والمسؤولين العرب مع كيسنجر والانكشاف التدريجي للنتائج الكوارثية لسياسته التي سعت لتحطيم آمالهم، بقي الجانب العربي بطيئاً في فهم نيّاته. فلم يعلموا أنه أمر وزارة الخارجية الأميركية بإبطال سياسة واشنطن الثابتة التي تقبل بالقرار 242 "الأرض مقابل السلام"، وأنه أفهم مستشاريه وموظفيه أن ليس في سياسته أي إنصاف للفلسطينيين وعليهم تطبيق هذه السياسة.

وستمضي سنوات من خداع كيسنجر الذي كان واضحاً للدوائر الأميركية ولدول أوروبا الغربية ولم يكن واضحاً للعرب. حتى قرأ العرب عن هذا الخداع في مذكرات كيسنجر نفسه التي نشرها عامي 1979 و1982.³⁸⁶

وعلى سبيل المثال، وثق السادات بكيسنجر وأطلعه على أسرار مصر وسورية باستمرار منذ 1970. فهو وقع باكراً في خديعة كيسنجر عندما وعده هذا الأخير بالسعي إلى حلّ بين العرب و"إسرائيل" إذا ابتعدت مصر عن السوفيات. وطرده السادات السوفيات ليطيّب خاطر كيسنجر عام 1972، وأخذ يمدّ الأخير بالأسرار والمعلومات طيلة أيام حرب 1973، معرياً الجانب العربي في وطيس الحرب أمام كيسنجر أعظم مناصر لـ"إسرائيل" في تاريخ الصراع. إذ كان كيسنجر يستغلّ أي معلومة يقدمها السادات أثناء الحرب وينقلها إلى "إسرائيل" فوراً عبر سفيرها في واشنطن سيمحا دينيتز. وساعدت هذه المعلومات كيسنجر على استنباط استراتيجية لـ"إسرائيل". إذ ليس فقط أن "إسرائيل" ردت التقدّم السوري والمصري على الأرض في تشرين الأول 1973، بل إن كيسنجر شجّعها على خرق جيوب في جهتي الجولان وسيناء، لأن احتلال "إسرائيل" أراضي جديدة سيجدع أنف العرب بنظر كيسنجر ويعاقبهم على تجرؤهم شنّ حرب ضد "إسرائيل". وعمد كيسنجر ليس فقط إلى إقامة جسر جوي لنقل الأسلحة والمعدّات بل لإطالة أمد الحرب والمماطلة في وقف

Henry Kissinger, *Years of Upheaval*, 1979 and 1982.³⁸⁶

إطلاق النار لمنح "إسرائيل" الوقت الكافي لتسجيل انتصارات على الأرض. لقد فخر كيسنجر في مذكراته أنه استطاع المماثلة ثلاثة أيام في 21 تشرين الأول 1973 قبل الردّ على مبادرة موسكو لوقف إطلاق النار، ليمنح "إسرائيل" من إكمال أهدافها.

الاستعداد لحرب تشرين

بدأت سورية ومصر الاستعداد للحرب ضد "إسرائيل" في 1971. ولحسن حظ سورية فإنّ الرأي العام المصريّ كان منتعشاً جراء حرب الاستنزاف ضد "إسرائيل" من آذار 1969 إلى تموز 1970³⁸⁷ والتي ظهرت أثناءها نتائج إعادة بناء القوات المسلّحة المصريّة. وخلال أشهر توصل الأسد والسادات إلى خطة عسكريّة وتعيين محمد صادق قائداً للقيادة العسكريّة المشتركة. ثم انصرفا إلى شراء السلاح والأعتدة وتدريب الجيش بمساعدة الاتحاد السوفياتيّ.

ولم يغب عن ذهن السادات أنّ عبدالناصر قد قبل بمبادرة روجرز الأميركيّة قبل وفاته بشهرين. فأوفد في كانون الأول 1970 مبعوثاً شخصياً إلى واشنطن يجدد استعداد مصر للسلام. ثم عرض في 4 شباط 1971 فتح قناة السويس أمام الملاحه الإسرائيليّة مقابل انسحاب جزئيّ في سيناء تليه مباحثات سلام. فرفضت "إسرائيل" العروض المصريّة. ثم رجا السادات نيسكون أن يقنع "إسرائيل" ولكن دون جدوى. وعندها وقّع السادات معاهدة صداقة مع موسكو في 27 شباط 1971. وربما ندم على ذلك فعاجل إلى طمأنة واشنطن أنّ المعاهدة لا تقلّل أبداً من حرصه على التوصل إلى تسوية سلميّة مع "إسرائيل". ولكن خروج وليم روجرز أنهى مبادرته. فقد كان كيسنجر مستشار نيسكون للأمن القوميّ، وعندما غادر روجرز منصب وزير الخارجية في نهاية 1971، عين نيسكون كيسنجر مكانه وأصبح كيسنجر بمنصبين.

واعتقد السادات أنّ ذلك مجرد تغيير إداريّ في واشنطن، ففتح قناة مع كيسنجر عبر السعوديّة. وساهم رئيس المخابرات السعوديّ كمال أدهم صهر الملك فيصل (وهو سوري) بنقل رسائل بين السادات وكيسنجر. وردّ كيسنجر في أحدها أنّ واشنطن لن تحرك عمليّة السلام طالما بقي نفوذ سوفياتيّ في مصر. وفسّر السادات رسالة كيسنجر بأنّها تجاوبٌ مشروط. ولذلك خصّص الأشهر التالية لتعميق خصامه مع موسكو، حتى لجأ إلى خطوة دراماتيكية بطرد 7750 خبيراً سوفياتيّاً مع عائلاتهم من مصر في تموز 1972. وكان هؤلاء الخبراء يساعدون مصر في التدرّب على الأسلحة السوفياتيّة والاستعداد للقتال. ثم انتظر السادات ليحصد ما زرعه، ولكن كيسنجر لم يتجاوب. لا بل كان ثمّة استغراب أميركيّ وإسرائيليّ حول إقدام السادات على هذه الخطوة المجانية التي بقيت بدون مقابل من طرفهما. ومضت أشهر ولم يحصل أي شيء فأعاد السادات العلاقة مع السوفيات.

³⁸⁷ وقّعت مصر وقف إطلاق النار مع "إسرائيل" في آب 1970 بعد قبولها بمبادرة روجرز.

وحيث كان الأسد في موسكو في 8 تموز 1972 يسعى للحصول على أسلحة سوفياتية، كان السادات يعلن طرد الخبراء السوفيات في اليوم نفسه ما صدم موسكو. فزار بريجنيف الأسد في جناحه في الكرملين وطلب منه الأسد التوسط مع السادات الذي كان قراره مستغرباً جداً للقيادة السوفياتية³⁸⁸. وكان الأسد أكثر قلقاً من الروس حول خطوة السادات: إذ كيف يقوم السادات بهذا العمل الذي يمكن أن يهدّد علاقة سورية ومصر بموسكو في وقت يستعدّ البلدان للحرب؟ ولكن السادات لم يتراجع، بل طلب من الأسد أن يطرد هو أيضاً الخبراء السوفيات من سورية (3000 خبير). ورفض الأسد طبعاً اقتراح السادات وأكد في حديث إعلامي أنّ هؤلاء هم في سورية لمصلحة الشعب السوري. ثم ضغط على السادات لمصلحة السوفيات وأقنعه أن يوفد رئيس الوزراء عزيز صدقي في تشرين الأول 1972 لتصحيح العلاقة. حتى عادت الأمور إلى مجاريها. وتواصل تسليم الأسلحة بأسرع من السابق وبكميات غير مسبوقه. وإذ لم يستسخ الأسد فعلة السادات تجاه موسكو لم ير فيها إنذاراً مبكراً لنيّاته، فقد انهمك في التحضير للحرب ولم يشأ إثارة نقاط خلافة مع السادات وقد باتت الحرب على الأبواب. ولم يكن الأسد يعلم أنّ جزءاً من عودة السادات عن حدة عداوته للسوفيات مصدره عدم ملاقة كيسنجر لخطوته، وأنّ فقدان الأمل لدى السادات هو ما أعاده إلى السوفيات³⁸⁹.

فهم الأسد أنّ هدف الحرب هو تحرير الأرض العربية أو على الأقل تحرير بعض الأرض. أمّا السادات فجّل هدفه كان خضّة تُسرّع المفاوضات مع "إسرائيل" وأميركا. ولم يدر الأسد أنّ السادات أبقى على قناة سرية مع كيسنجر الذي كان يعامل السادات بجفاء واستعلاء. إذ إنّ السادات - كالعاشق الذي يُقال له لا - لم يفقد الأمل في دور أميركي. ففي حين كان السادات يستعدّ للحرب إلى جانب سورية، أوفد مستشاره للأمن القومي حافظ إسماعيل في شباط وأيار 1973 لمحادثات سرية مع كيسنجر وعد فيها السادات أنّ مصر ستلحق الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي المحتلة بتطبيع علاقات وتوقيع معاهدة سلام. وكان ردّ كيسنجر على المبادرة المصرية كرده على كلّ المبادرات بين 1970 و1973: المماثلة والإطالة ثم الرفض. إذ إنّ مواقف كيسنجر كانت إلى يمين الصقور الإسرائيليين، لا يكثرث لمشاعر العرب وإحباطاتهم ويتعاطف مع منطق التوسّع وقضم الأراضي الذي كان يتفوّه به قادة "إسرائيل"، ويطبّق سياسة إفقاد العرب أي أمل في استرداد أراضيهم. وساعتئذٍ تعطيهم "إسرائيل" ما تشاء وينتهي الأمر.

ولكن رغم ذكاء كيسنجر وحساباته الباردة فهو لم يستشرف أنّ العرب لا تنقصهم الشجاعة وأنهم يستعدّون فعلاً للحرب. إذ كان مقتنعاً أنّهم لن يخوضوا حرباً يعرفون سلفاً أنّها خاسرة، خاصة أنّ هزيمة 1967 ما زالت ماثلة في أذهانهم. ولذلك لم يقبل طلب مصر انسحاب "إسرائيل" مقابل السلام لأنّ مصر بنظره كانت عاجزة عن فرض الانسحاب بالقوة. كما فسّر طرد السادات للروس تأكيداً على دعر العرب الشديد من "إسرائيل" وسعيّاً لإرضائها بأي شكل.

³⁸⁸ Karen Dawisha, "Soviet policy in the Arab world: permanent interests and changing influence", *Arab Studies Quarterly*, vol. 2, no. 1, Winter 1980, pp. 19 - 37.

³⁸⁹ Robert Freedman, *Soviet Policy towards the Middle East since 1970*, New York, Praeger, 1978.

طيلة 1971 و1972 لم يعلم الأسد إلى أي درك وصل السادات والمملك حسين في توسلها أميركا لعمل شيء بلديهما. فكان السادات يردّد أمام القادة العسكريين المصريين أنه يريد حرباً محدودة لتحسين موقع مصر التفاوضي. في حين كان الأسد يخاطب قادة الجيش السوري أنّ هدف سورية هو تحرير الجولان وأنّ الجيش المصري سيحرّر سيناء. وحتى السوفييات ظنّوا أنّ مصر عازمة على عمليّة تحرير واسعة، وعلى هذا الأساس كانت إمدادات السلاح الكبيرة لمصر³⁹⁰. أمّا لماذا لم يبرز هذا التناقض الرهيب بين سورية ومصر خلال عامين من التحضير للحرب، فذلك لأنّ السادات كذب عمداً على الأسد ووقّع معه على خطة حربيّة ترضي سورية، وعمل مع قادته العسكريين على خطة ثانية لم يرها السوريون³⁹¹. لقد أكّد القائد العسكري المصري سعدالدين الشاذلي هدف مصر المحدود في مذكراته، وذكر أنّ أيّ تقدّم نحو ممرات متلا والجدي في سيناء لم يكن في الحسابات. بل ظنّ السادات أنّه يخدع الأسد كما خدع السوفييات حول هدف الحرب فباعه كلاماً عن عمل مشترك لتحرير الأرض ضمن شعارات القوميّة العربيّة وتحرير فلسطين، وهو خطاب كان الأسد يريد أن يسمعه منه.

وكان السادات ينتظر الأسد في الاسكندرية في نيسان 1973 ومعه وزير الدفاع المصري أحمد اسماعيل. فطلب السادات من إسماعيل أن يُحصّر الخطة التي أُعدّت خصيصاً لإرضاء الأسد وموسكو والتي تُظهِر وكأنّ الهدف هو التحرير. ويذكر سعدالدين الشاذلي في مذكراته أنّه تولى نقل هذه الخطة إلى مكان الاجتماع وأنّه حدّر من أنّ لا مقدرة لمصر على تنفيذها بتجهيزاتها الحالية. فطمأنه إسماعيل أنّ الخطة وهميّة وهي مناورة سياسيّة لإرضاء الوفد السوري. ويعلّق الشاذلي في مذكراته أنّه قرف من الحوار الذي كان يدور في أوساط القيادة المصريّة حول أفضل الطرق لخداع سورية قبل ساعات من وصول الأسد.

ولكن حافظ الأسد لم يُخدع بسهولة عندما عرض عليه السادات الخطة الطموحة بحضور حسني مبارك قائد سلاح الجو المصري. إذ كان الأسد خبيراً في الشؤون العسكريّة. فأخذ يسأل عن تحضيرات مصر وتجهيزاتها على الجبهة وفق الخطة التي يعرضونها عليه. حتى أدرك بخبرته أنّ الاستعدادات أصغر من الخطة التي تُعرض عليه. وهنا أصرّ على مساءلة تفصيلية لقادة مصر العسكريين بنفسه، وخصوصاً مسألة تحرير الممرات التي تبعد 50 كلم عن القناة. فحضر هؤلاء من القاهرة وتبيّن للأسد من كلامهم أن مصر لم تستعدّ كفاية للحرب التحريرية التي اتفق هو والسادات على شنتها. وانتهت الاجتماعات بتأجيل الحرب ستّة أشهر.

في أيار 1973 طار الأسد إلى موسكو للحصول على شبكة دفاع جويّ فتموّنت سورية بـ300 مقاتلة جوية و500 منصة صواريخ سام أرض - جو و400 مدفع مضاد للطائرات. وفي آب 1973، التقى المجلس الأعلى السوري - المصري للقوات المسلحة في قاعدة الاسكندرية البحرية، مثل فيه سورية وزير الدفاع مصطفى طلاس ورئيس الأركان يوسف شكور وقائد سلاح الجو ناجي جميل ورئيس العمليّات عبد الرزاق الدرديري وقائد سلاح البحرية فضل حسين. ووضع الجانبان الرتوش الأخيرة على خطة الحرب. وطار طلاس وحسني

Jon Glassman, *Arms for the Arabs, The Soviet Union and war in the Middle East*, Baltimore, Johns Hopkins University Press, ³⁹⁰

1975.

Patrick Seale, *ASAD*, p. 197.³⁹¹

مبارك إلى سورية لتقديم الخطة إلى الأسد والسادات المجتمعين في بلودان غرب دمشق. واتخذ قرار الحرب في اجتماع بين السادات والأسد في 12 أيلول وحددا موعداً في 6 تشرين الأول.

لم تكن الازدواجية المصرية هي آخر متاعب الأسد. ففي أيلول 1973، طار أشرف مروان، صهر عبدالناصر، سراً إلى لندن وقدم الخطة المصرية - السورية كاملة إلى الموساد الإسرائيلي لقاء مبلغ من المال. كما قام ضابط سوري برتبة لواء في أيلول 1973، كان عميلاً للاستخبارات الأردنية منذ 1971، بنقل نسخ كاملة من الخطط الحربية المصرية والسورية إلى الجهاز الأردني. فقدّمه الملك حسين باستعجال إلى كيسنجر وموشي دايان وشرح أن مصر وسورية ستشنان حرباً في تشرين الأول 1973. كما التقى الملك حسين غولدا مثير رئيسة حكومة "إسرائيل" بحضور رئيس الوزراء الأردني زيد الرفاعي وقادة عسكريين وأمنيين أردنيين وإسرائيليين في المركز الرئيسي للموساد في هرتسليا في 25 أيلول، حيث شرح الملك حسين ما دار معه في قمة مع السادات والأسد³⁹² (وكان السادات قد دعا الملك حسين إلى قمة مع الأسد في أيلول 1973).

ولكن كيسنجر الشديد الثقة بقدراته الذهنية وتقديره للأمور، لم يأخذ على محمل الجد معلومات الملك حسين بل ظن أنها جزء من حملات تخويف عربية لدفع "إسرائيل" إلى طاولة المفاوضات، رغم أن الحرب في ما بعد أثبتت دقة معلومات هذه الوثائق. ولكن إكراماً لتوسلات العاهل الأردني أطلق كيسنجر تصريحاً في اليوم التالي أنه "ربّما" (maybe) سيبدأ محادثات سلام تمهيدية بين العرب و"إسرائيل" بعد الانتخابات الإسرائيلية في 30 تشرين الأول 1973، ما سيسكت العرب على الأقل لبضعة أسابيع ثم يحل فصل الشتاء وتنام القصة إلى العام التالي.

كان الأسد الصغير السن نسبياً ضحية زعيمين عربيين - السادات و الملك حسين - المتمرسين في السياسة الإقليمية والمناورات العربية وفي عمليات الخداع. فقد كانت تجربة الملك حسين والسادات في السلطة تمتد إلى 1952، أي قبل عشرين عاماً عندما أصبح الأول ملكاً على الأردن والثاني شريكاً لعبدالناصر في ثورة يوليو. فكانت مثالية الأسد القومية غشاءً دفعه لنظرة متفائلة، مصدقاً نيات "الأشقاء العرب"، في حين كانت نظرة القاهرة وعمّان إلى الصراع مع "إسرائيل" مختلفة تماماً وتفضّل المساومة.

ولكن التاريخ أنصف سورية في هذه الحرب.

إنجازات ميدانية

كان السادس من تشرين الأول 1973 يوماً عظيماً للعرب، سجّل أكبر هجوم عسكري في تاريخهم وأثبت مقدرتهم على التخطيط والتنفيذ بأحدث الأسلحة والمعدات على عدوّ كان يظن الجميع أنه لا يُقهر.

لقد استعملت مصر وسورية أسلوب "إسرائيل"، فأخذتا مبادرة الهجوم ما جعل "إسرائيل" تفقد توازنها لأيام حساسة عدّة. إذ حتى ليل 5 - 6 تشرين الأول، كانت وكالة الاستخبارات الأميركية "سي أي إيه" تؤكّد في

Avi Shlaim, *Lion of Jordan: The Life of King Hussein*, London, Penguin Books, 2007, pp. 360-361.³⁹²

تقرير دوري أنه لا يوجد أي مؤشر لبدء حرب بين العرب و"إسرائيل" وجاء في التقرير: "إن أي مبادرة مصرية للهجوم غير منطقية كما أن إقدام الرئيس السوري على مغامرة عسكرية هو انتحار"³⁹³. وجاء توقيت الحرب في عيد الغفران اليهودي. واحتاج عنصر المباغته إلى السرية الكاملة. ففي سورية لم يعلم بساعة الصفر للحرب سوى الأسد وشكّور وثلاثة من كبار العسكريين. أما من المدنيين فلم يعلم بموعده المعركة سوى مستشار الأسد أسعد الياس لأنه كتب خطابات ورسائل الأسد حول الحرب يوم 3 تشرين الأول.

في الساعة الثانية بعد ظهر السبت، شنت الجيوش السورية والمصرية هجوماً صاعقاً ومباغتاً على المواقع الإسرائيلية المحصنة في سيناء والجولان، واستطاعت خلال 24 ساعة قلب المعادلة وتحقيق تقدّم استراتيجي على الأرض. فعلى الجبهة المصرية عبر مئة ألف جندي وأكثر من ألف دبابة قناة السويس محطّمين تحصينات خط بارليف، ما وصفه الأميركيون أنه "من أعظم عمليات العبور العسكرية لحاجز مائي في تاريخ الحروب". ثم واجه المصريون القوات الإسرائيلية على الأرض ودمروا 300 دبابة إسرائيلية خلال ساعات.

ولم تفق "إسرائيل" من الصدمة إلا في اليوم الثالث، أي 8 تشرين الأول، حيث قامت ثلاثة ألوية مدرعة إسرائيلية بهجوم مضاد لوضع حد للاندفاع المصري. فقط لتصاب "إسرائيل" بالخيبة وتخسر 260 دبابة إضافية بفضل المدفعية المصرية والصواريخ المصرية المحمولة على الأكتاف، ما اعتبره مراقبون عسكريون أميركيون "أسوأ هزيمة في معركة يخوضها الجيش الإسرائيلي"³⁹⁴.

على الجبهة السورية، لم تقلّ التحصينات الإسرائيلية إحكاماً، حيث حفر الإسرائيليون خندقاً على طول الجولان بطول 65 كلم وعمق أربعة أمتار وعرض خمسة أمتار، مزترراً على الجانبين بألغام أرضية مضادة للدروع، تليه مساقط أرضية عالية يطلّ منها الإسرائيليون من مواقعهم التي بلغت 112 قلعة محصنة ومدعومة بالإسمنت المسلح والسميك. وتلي تلك القلاع تجمّعات دبابات وآليات ومدفعية إسرائيلية ووحدات لواء "غولاني" الإسرائيلي. وأشرفت على هذا الحاجز تجهيزات مراقبة ومعدات إلكترونية في قاعدة عسكرية في قمة جبل الشيخ. ولم يكن السوريون على غفلة من هذه التفاصيل. إذ خلال الأشهر الماضية قام غبريال البيطار قائد مخابرات الجيش السوري بإرسال مجموعات عسكرية صوّرت المواقع الإسرائيلية، وجمعت المعلومات حتى توقّرت لدى البيطار خرائط مفصلة عن كلّ موقع على طول الجبهة. وأجريت تدريبات على اقتحام هذه المواقع بما فيها قاعدة قمة جبل الشيخ الإلكترونية.

وكانت سورية قد حشدت 60 ألف جندي مع معداتهم المؤلفة من 1300 دبابة و600 قطعة مدفعية و400 رشاش مضاد للطائرات و100 بطارية صواريخ سام أرض جو. وفي 6 تشرين الأول، تحرّكت الألوية الخامسة والسابع والتاسع، يدعمها في الطوق التالي اللواءان الأول والثالث. وخرق 35 ألف جندي و800 دبابة التحصينات الإسرائيلية، فيما هاجم سرب طائرات هليكوبتر موقع جبل الشيخ واحتله لحرمان "إسرائيل" من مراقبة القوات السورية المهاجمة. وخلال ساعات أطلّ السوريون على بحيرة طبريا ووادي الأردن وشمال

Patrick Seale, *ASAD*, p. 206.³⁹³

Colonel Trevor Dupuy, *Elusive Victory: The Arab-Israeli Wars: 1947-1974*, New York, Military Book Club, 1978, pp. 435.³⁹⁴

“إسرائيل”، رغم تكبدهم خسائر كبيرة في الدبابات التي سقطت في الخنادق، وخاصة في القطاعين الأوسط، بمواجهة القنيطرة حيث تركزت دفاعات “إسرائيل”، وفي القطاع الشمالي عند سهوب جبل الشيخ. حققت القوات السورية تقدماً ملحوظاً على هذين المحورين في حين كان التقدم السوري الكبير في القطاع الجنوبي حيث استطاع اللواء الخامس في ليل 6 تشرين الأول بقيادة علي أصلان أن يجتاز العوائق الإسرائيلية بسهولة ويضرب الخطوط الإسرائيلية ويمضي في ثلاثة طوابير لتحرير معظم القطاع الجنوبي والأوسط في الجولان.

وكاد التقدم السوري يصل حدود 1948 لولا تدخل قوى إسرائيلية مدزعة منعت إنهاء كامل الدفاعات الإسرائيلية صباح 7 تشرين الأول، أي بعد 18 ساعة من بدء المعارك. ولكن سورية كانت لا تزال تمسك بزمام المبادرة، إذ إن غرفة القيادة في دمشق (الرئيس الأسد ورئيس الأركان شكور ومعهما كبار القادة العسكريين) لحظت التقدم المثير للواء الخامس فأمرت اللواء الأول المدزعة باقتحام وجاهي في القطاع الأوسط حيث يقع مركز قائد جبهة الجولان الإسرائيلي خلف مدينة القنيطرة. وذلك لتستمر مساندة كتف اللواء الخامس. وهكذا في ليل 7 - 8 تشرين الأول، حقق هذان اللواءان السوريان تقدماً هاماً وباتا على مسافة قصيرة من بحيرة طبريا وجسر بنات يعقوب على نهر الأردن، وما هي إلا ساعات ويصبح تحرير الجولان الكامل بمتناول اليد.

في سيناء كما في الجولان، بدت “إسرائيل” الطرف الخاسر، تنكسر وتراجع وتخسر مئات الدبابات. وعلى وقع هذا الانتصار، اشتعلت مشاعر الشعوب العربية كما لم يحدث من قبل. إذ لأول مرة منذ 1948 تتحدى جيوشهم صعود “إسرائيل” الجبار وتفهم أسطورة تفوقها وتنهاي عار هزائم 1948 و1956 و1967. أن العرب قد استعادوا كرامتهم وضمّدوا جراح الماضي هي مسألة تحققت في اليوم الأول ولن تغيرها مجريات الحرب ونتائجها الميدانية في ما بعد³⁹⁵. فقد جلب العرب إلى أرض المعركة جيوشاً عصرية مسلحة ومدربة جيداً تختلف تماماً عن الجيوش الضعيفة والعارية التي حطمتها “إسرائيل” في حرب 1967. كما أن عنصر المفاجأة الذي استعملته “إسرائيل” في حرب 1967 استعمله العرب عام 1973 بفضل سنوات من التحضير والتخطيط الجيد. وقد تعلمت سورية ومصر من الأخطاء السابقة ومن تفوق “إسرائيل”، وسمحتا هذه المرة لأصحاب المعرفة والخبرة أن يتسلموا المناصب الهامة في الجيشين بعيداً عن المحسوبة السياسية. فأنها حافظ الأسد عصور الشقاق والفساد داخل الجيش السوري، وقام رئيس الأركان المصري سعد الدين الشاذلي وقائد العمليات عبدالغني الجمسي بتطوير الجيش المصري ورفع معنويات الجنود فأنها عصر المشير عامر المخزني وأعاد الاعتبار إلى المهنة العسكرية. كما تمتع الجيشان بمقدرة تسلح ممتازة ليس فقط في الطائرات والدبابات بل في الأسلحة الفردية كصواريخ ساغر وستريلا المضادة للدروع والتي دمّرت عدداً كبيراً من الدبابات الإسرائيلية، وصواريخ سام 6 التي كانت عاملاً أساسياً في انتصارات الأيام الأولى لأنها حرمت سلاح الجو الإسرائيلي من الدور الذي لعبه في الحروب السابقة. فعطلت هذه الأسلحة مدرعات “إسرائيل” وطائراتها

Edgar O'Ballance, *No victor no vanquished: The Yom Kippur War*, London, barrie & Jenkins, 1979, pp. 119 - 146 (Syrian³⁹⁵

offensive).

منذ اليوم الأول. كما أن الجانب العربي استعمل أجهزة اتصال لاسلكية متفوقة ومشفرة اشترتها سورية عام 1972 من شركة سويدية - سويسرية.

لم يقتصر المجهود العربي في حرب 1973 على مصر وسورية بل كان عملاً ثلاثياً السعودية هي عاموده الثالث بفضل تمويلها للتسلح وقيادتها في استعمال سلاح النفط ودعمها لمصر وسورية على الأضعدة كافة. وكذلك مشاركة هامة من العراق ومن الجزائر والمغرب ودول عربية أخرى.

جاء في بيان لوزارة الدفاع والطيران في السعودية ما يلي: "إن المملكة العربية السعودية تضع كافة إمكانياتها وطاقاتها لخدمة المعركة"³⁹⁶. وجاء في بيان الديوان الملكي السعودي: "قرّر وزراء البترول العرب، في مؤتمهم المنعقد في الكويت يوم أمس الأول، تخفيض الإنتاج شهرياً بنسبة لا تقل عن 5 في المئة. واستناداً للقرار المذكور، قرّرت حكومة صاحب الجلالة تخفيض إنتاجها فوراً ابتداء من هذا اليوم - الخميس - حتى نهاية شهر نوفمبر بنسبة 10 في المئة، ثم يستمر التخفيض بعد ذلك شهرياً بنسب تقرّر عندئذ طبقاً للقرار المذكور. وتبذل حكومة صاحب الجلالة الآن جهدها لكي تعدّل حكومة الولايات المتحدة الأميركية موقفها الحالي من الحرب الدائرة بين الأمة العربية و"إسرائيل"، ومساعداتها الحريّة لها، وإذا لم تسفر هذه المساعي سريعاً عن نتائج ملموسة فستوقف المملكة تصدير البترول إلى أميركا"³⁹⁷. ثم جاء في بيان الديوان الملكي السعودي حول وقف تصدير النفط إلى الولايات المتحدة الأميركية: "نظراً لازدياد الدعم العسكري الأميركي لـ"إسرائيل"، فإن المملكة العربية السعودية قررت إيقاف تصدير البترول للولايات المتحدة الأميركية لاتخاذها هذا الموقف".

أما لماذا لم يسر العرب نحو النصر رغم جهدهم المشترك الذي تحقّق أخيراً، فذلك لأن مصر بعد عبورها قناة السويس وتحرير مسافة عشرة كيلومترات، أمرت جيشها بالتوقف عن التقدّم نحو ممرات متلا والجدي الاستراتيجية في سيناء، واتخاذ مواقع دفاعية. وإذ نجح المصريون في صدّ هجوم إسرائيلي مضاد وتدمير دباباته يوم 8 تشرين الأول، توقّف العمل الحربي المصري مساء ذلك اليوم أي بعد 48 ساعة من بدء الحرب، فيما واصلت سورية القتال وحيدة، ولذلك في أسبوع حاسم من 7 إلى 14 تشرين الأول، استفادت "إسرائيل" من وقف مصر عملياتها الحربية ما أراح القسم الأكبر من طائرات ودبابات "إسرائيل" من معركة كانت محتملة في ممرات سيناء، واتجهت لوقف انهيار دفاعاتها على جبهة الجولان، فاستطاعت وقف التقدّم السوري. ثم أخذت "إسرائيل" المبادرة خلال أيام وشنت هجومات معاكسة على سورية أولاً ثم على مصر.

ألقى جمود الجبهة المصرية القادة السوفيات وسألوا القاهرة لماذا لا تبني القوات المصرية على ما حقّقه شرق القناة فتعزّز مواقعها وتقدّم إلى الممرات؟ وأجاب السادات أن أهدافه محدودة. فسأله الزعيم السوفياتي ليونيد بريجنيف: "ما هي حدود هذه الأهداف المحدودة؟"، ذلك أن من المنظار العسكري السوفياتي، كانت القوات المصرية مؤهلة للاستفادة من مفاجأة الساعات الأولى وأن تقوم خلال ساعات وقبل أي رد فعل إسرائيلي بتحرير الممرات على الأقل والتي لا تبعد أكثر من 50 كلم تجتازها الدبابات خلال ساعة،

³⁹⁶ الوثائق الفلسطينية العربية لعام 1973، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، مج 9، ط 1، ص. 366.

³⁹⁷ الوثائق الفلسطينية العربية لعام 1973، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، مج 9، ط 1، ص. 383.

ما يجعل كامل سيناء ساقطة استراتيجياً بالأيدي المصريّة. ولكن الجيش المصري لم يتحرّك بقرار مباشر من السادات وقادته العسكريّين. كما لم يقل المصريون لشريكهم السوري أنّ المعركة العسكريّة بالنسبة لهم قد انتهت عند هذا الحد.

في دمشق كان الأسد ومعاه القادة العسكريّون ينتظرون كلّ يوم نبأً من مصر أنّ جيوشها ستبدأ المرحلة الثانية بالتحرّك نحو الممرات حسب الخطة التي اتفق عليها البلدان. وظنّوا أنّ التأخير المصري له اعتبارات عسكريّة. ولكن بعد اشتداد الضغط الإسرائيليّ على الجبهة السوريّة ولم يتحرّك مصر، أدركت القيادة السوريّة أنّ في الأمر مشكلة وأنّ سورية عملياً باتت وحيدة في أرض المعركة.

وكانت "إسرائيل" قد علمت منذ اليوم الثالث للحرب أنّ مصر تتخذ مواقع دفاعية وأنّ الجيش المصري يحفر الخنادق وهو أبقى بطاريات صواريخ سام غرب القناة ولم يستقدمها إلى سيناء. وكانت الطامة الكبرى أنّ السادات نفسه يوم 7 تشرين الأول أفسد حتى استراتيجيته العسكريّة المحدودة بإرساله مبعوثاً إلى كيسنجر يُعلمه أنّ مصر "لا تنوي تعميق المواجهات ولا توسيع رقعة القتال في سيناء"، مكرراً استعداده للسلام. فكانت هذه أئمن معلومة تلقاها كيسنجر الذي لم يضيّع الوقت في نقلها فوراً إلى "إسرائيل" أنّ الجيش المصري لن يتحرّك من النقطة التي وصل إليها شرق القناة³⁹⁸، ما طمأن "إسرائيل". فقلبت رسالة السادات الموازين لصالح "إسرائيل" ضد سورية، مع أنّه كان بإمكانه مثلاً كتمان وقف الزحف عن كيسنجر حتى تبقى "إسرائيل" في خوف وترقب من خطوة مصر التالية. ولكن الآن وقد علمت "إسرائيل" السر، قرّر وزير الدفاع موشي دايان أنّ "لا حاجة لوضع ثقلنا العسكريّ في سيناء ويجب أن توجّه قوّة "إسرائيل" إلى سورية". فأمر سلاح الجو "بهجوم فوريّ ومتواصل ضد السوريّين لوقف تقدّمهم".

في ذلك الوقت كانت الدفاعات الإسرائيليّة في القطاع الجنوبيّ من جبهة الجولان تنهار فتصل القوات السوريّة إلى ضفة نهر الأردن. وعندها لن تستطيع أيّ قوّة إسرائيليّة زحزحتها من مكانها. ولذلك كان خوف دايان من الجبهة السوريّة يفوق خوفه من جبهتي مصر والأردن، حيث شرح "أنّ همة عدوّاً على الجبهة المصريّة ولكن لا وجود سكانياً إسرائيلياً في سيناء. ويوجد سكان يهود على جبهة الأردن ولكن الأردن ليس عدوّاً. أمّا على الجبهة السوريّة فثمة تجمعات سكانيّة إسرائيليّة ومدن يهوديّة كبرى وعدو قويّ هو سورية. فإذا وصل السوريّون إلى مستوطناتنا وقعنا في المصيبة الكبرى"³⁹⁹.

كما أنّ قائد سلاح الجو الإسرائيليّ بنيامين بيليد أكّد أنّه صباح 7 تشرين الأول ولفترة ثلاث ساعات من الخامسة والنصف وحتى العاشرة والنصف صباحاً كانت الدبابات السوريّة تشرف على بحيرة طبريا ولم يكن همة أيّ دبابات أو جنود إسرائيليين لوقفها لو شاءت التقدم إلى شاطئ البحيرة. وأنّ تدخّل سلاح الجو الحاسم قبل الحادية عشرة صباحاً هو الذي أوقف الزحف السوريّ. وهكذا في 7 و8 و9 تشرين الأول، ولمدّة 18 ساعة في اليوم، صبّت مئات الطائرات الإسرائيليّة قنابلها على القوات السوريّة فتحوّلت ساحة الحرب في

Patrick Seale, ASAD, p. 208.³⁹⁸
Moshe Dayan, Story of My Life, p. 474.³⁹⁹

الجولان كتلة نار كبيرة وسط خسائر سورية فادحة. حتى بلغت طلعات الطائرات الإسرائيلية في الجولان 600 طلعة يومياً، مقارنة بـ 50 طلعة إسرائيلية على الجبهة المصرية.

لم تكن الطائرات السورية نداءً للطائرات الإسرائيلية المتطورة، ولكن سورية استعملت أسلحة أرض - جو من صواريخ سام 6 ومضادات للطائرات أسقطت عدداً كبيراً من الطائرات الإسرائيلية. كما أن القوات السورية لم تخسر المبادرة. إذ استغلّت ظلام ليل 8 تشرين الأول واستعملت نواظير رؤية ليلية فتقدم اللواء السابع في القطاع الشمالي للجبهة وبات على مسافة قصيرة من الحدود. ولكن مقتل قائد اللواء عمر الأبرش في كمين إسرائيلي أخر التقدم. فطلع صباح 9 تشرين الأول لتصبّ الطائرات الإسرائيلية نيرانها على اللواء السوري ما أنقذ "إسرائيل" من كارثة مؤكدة.

في هذه الأيام المصرية في الحرب، ظهرت شجاعة الجندي السوري الفائقة التي أدهشت المراقبين العسكريين الأجانب. وعزا المراقبون حجم الخسائر السورية الكبيرة في الأرواح إلى هذه الشجاعة، حيث بلغ عناد السوريين حداً مدهشاً في عدم التراجع عن أي بوصة من الأرض المحرزة مهما بلغت وحشية وفداحة القصف الإسرائيلي الجوي والبري. ومهما يكن، فإن "إسرائيل" ومنذ التاسع من تشرين الأول حققت تفوقاً جويًا هائلاً على الجبهة السورية استطاعت تعطيل خطوط الإمداد السورية وتخريبها في حين كانت خطوط إمداد الجيش الإسرائيلي مرتاحة وآمنة. فتمكّن الإسرائيليون من وقف التقدم السوري واستعادوا بعض مواقعهم السابقة. ثم شرعت "إسرائيل" في شنّ غارات في العمق السوري على أهداف مدنية من بنى تحتية واقتصادية - مصفاة النفط في حمص ومرافق اللاذقية وطرطوس وبانياس ومحطات الكهرباء ومستودعات كبرى. فكانت خسائر سورية فادحة، إذ إضافة إلى 800 دبابة ومئات الآليات واستشهاد 6000 جندي، أحدثت الغارات الإسرائيلية الكثيفة خسائر في البنية التحتية المدنية السورية ومنشآت بقيمة 3.5 مليار دولار.

وفي 10 تشرين الأول أغارت طائرات إسرائيلية عبرت فوق لبنان على مبنى القيادة العسكرية وأبنية عدّة في دمشق. ولم تكن شجاعة سكان دمشق بأقل من الجنود السوريين على الجبهة. إذ خرج الدمشقيون إلى سطوح المنازل يشاهدون المعارك الجوية فوق العاصمة ويهللون للجيش السوري. وفي 11 تشرين الأول، حاولت وحدات برية إسرائيلية مدعومة بالطائرات اختراق الخط السوري فواجهتها الدفاعات السورية من شبكة فخاخ الدبابات وحقول ألغام وعائقات إسمنتية أرضية ومشاة مسلّحين بصواريخ مضادة للدروع، فدمرت عدداً كبيراً من الدبابات الإسرائيلية.

عندما انقلب الوضع على الجبهة السورية من هجوم إلى دفاع، كانت الاتصالات بين غرفة العمليات السورية وغرفة العمليات المصرية تتجه نحو اللهجة الغاضبة. فأخذ السوريون يذكرون زملاءهم المصريين بتعهداتهم وبالخطة المشتركة. وعندما شنت "إسرائيل" غارات في العمق السوري اتصل الأسد شخصياً بالسادات وطالبه بإرسال طائرات مصرية لضرب العمق الإسرائيلي، فلم يتجاوب معه السادات. فأوفد الأسد مسؤولاً عسكرياً رفيعاً إلى القاهرة لشرح الموقف في الجولان والضغط على الجانب المصري لاستئناف القتال، إذ لا يجوز أن تتلقّى سورية وحدها كامل الضغط الإسرائيلي.

في ليل 13 تشرين الأول حدث تطوّر خطير في الجولان تطلّب تصرفاً حاسماً. إذ إنّ القوات الإسرائيلية اخترقت الدفاعات السورية ووصلت إلى مشارف قرية سعسع على طريق دمشق. وكانت هذه الحادثة القشة التي قصمت ظهر البعير بين مصر وسورية. إذ غضب الأسد من خداع السادات، إذ لو علم أنّ مصر لن تتحرك قيد أنملة من الكيلومترات العشرة التي حرّرتها شرق القناة لكان هو أيضاً وضع أهدافاً أقلّ طموحاً. ورغم ذلك فقد أثبتت سورية أنها كانت نداءً جدياً لـ"إسرائيل" حتى من دون مصر. إذ إنّ "إسرائيل" خسرت أفضل طياراتها على الجبهة السورية لا المصرية، وقاتل الجيش السوري جيداً ومعنويات عالية، واستطاع إنهالك المهاجمين الإسرائيليين في الجيب الذي خرّقه في سعسع. حتى قرّر الإسرائيليون عدم تحدي الخط الدفاعي خاصة وأنّ سورية كانت لا تزال تتمتع بقوة عسكرية ضاربة في خط دفاعها الثاني المؤلف من ألوية عدّة وآلاف الدبابات ولن يكون التقدّم نحو دمشق نزهة للإسرائيليين.

فضح الهجوم الإسرائيلي على سعسع نيات السادات أمام الرأي العام العربي بأنّه كان يتفرّج في حين كان شقيقه السوري يتلقّى ضربات الآلة العسكرية الإسرائيلية بأكملها، ما فسّر الرأي العام على أنه خيانة. وبعد مناقشات في قيادته، أدرك السادات فداحة استراتيجيته: أولاً، أنّ لا مصلحة لمصر في تراجع الجبهة السورية لأنّ ذلك يُضعف موقف مصر في أي مفاوضات مستقبلية. وثانياً، أنّ أي فوز إسرائيلي في سعسع سيعني أنّ الجيش الإسرائيلي سيعود إلى الجبهة المصرية بانتقام فظيع على طول قناة السويس وستكون كارثة على مصر وسورية معاً إذا خسرت مصر ما حققته. وهذا ما قاله القادة العسكريون المصريون للسادات وعندها تُهزم مصر وتتكرّر كارثة 1967 ولا يعود هناك أي مفاوضات.

ولذلك قرّرت مصر تعديل خطتها المحدودة ومواصلة القتال في 14 تشرين الأول. وبدأ أخيراً الهجوم المصري المنتظر نحو ممرات متلا والجدي فهلّلت القيادة السورية. ولكن الهجوم المصري جاء متأخراً بعدما خسرت مصر زمام المباحثة وصممت أسبوعاً كاملاً. إذ إنّ "إسرائيل" كانت قد أكملت استدعاء الاحتياط وأنهت مهامها تقريباً على الجبهة السورية في ليل 13 تشرين الأول وباتت جاهزة لمواجهة الجيوش المصرية. ثم أنّ حجم التقدّم المصري على الأرض كان باهتاً. فأزاء 900 دبابة إسرائيلية في الممرات انطلقت مصر 400 دبابة. وبدلاً من التوجّه فوراً نحو تحرير الممرات بقوة ضاربة ومكثّفة بشكل حربة أو حربتين، انتشرت الدبابات على جبهة بطول 150 كلم فتبعثرت جهودها. إذ خلال ساعات انقضّ الإسرائيليون على الدبابات المصرية وردّوا المصريّين على أعقابهم إلى حيّز ضيق قرب القناة. وخسرت مصر في ذلك اليوم 250 دبابة وبدت "إسرائيل" صاحبة اليد العليا في سيناء.

أقلقت الهزيمة المصرية السريعة سورية لأنّ الإسرائيليين استغلوا التفهقر المصري لتنفيذ المزيد من الهجمات على الجبهة المصرية. وهذا ما حصل. إذ خلال ساعات وفي ليل 15 - 16 تشرين الأول، عبرت الدبابات الإسرائيلية إلى الجبهة الغربية لقناة السويس وطوّقت الجيش الثالث المصري عبر ثغرة في الخطوط المصرية عند عنق بحيرة التمساح المعروفة بـ"دفرسوار". ولم يعر السادات انتباهاً كافياً للثغرة رغم تحذير قادته، بل واصل الجهد الديبلوماسي مع كيسنجر الذي كان على اتصال يوميّ به. ثم دعا السادات كيسنجر إلى القاهرة يوم 15 تشرين الأول، بعد يوم من المعركة الفاشلة نحو الممرات. وكل هذا بدون أن يبلغ الأسد.

خلال أيام قليلة راكمت "إسرائيل" قوّة ضخمة غرب القناة واستطاعت تدمير بطاريات سام المصريّة وقطع خطوط الإمداد ونصب كمائن للقنابل العسكريّة المصريّة ومهاجمة مراكز ميدانيّة مصريّة. وإذ نصحت القيادة المصريّة السادات بسحب وحدات من شرق القناة إلى غربها لمواجهة الثغرة الإسرائيليّة، رفض وأصرّ على عدم سحب جنديّ واحد من شرق القناة. ذلك أنّ الوجود العسكريّ هناك كان ورقته الوحيدة في التفاوض منذ البداية. وساعد موقف السادات "إسرائيل" لتكمل تطويقها للجيش المصريّ الثالث فأصبح 45 ألف جنديّ مصريّ تحت رحمتها بدون إمدادات أو طعام أو ماء. وكل ذلك لينقذ السادات ما برأسه حول الحرب المحدودة.

كان الوضع على الجبهة السوريّة أفضل بكثير. إذ إنّ القيادة السوريّة بعدما تأكّدت من تحصينات خط الدفاع الثاني عن دمشق دفعت اللواء الثالث إلى معركة سعسع، في وقت كان السوفيّات قد أقاموا جسراً جويّاً لسدّ حاجيات سورية. كما كانت قوى عربيّة تصل سورية تبعاً: ففي العاشر من تشرين الأول وصل من العراق مئة طائرة حربيّة و300 دبابة و18 ألف جنديّ عراقيّ. فاشتبكت القوات العراقيّة مع الإسرائيليّين حالاً في 13 تشرين الأول. كما دخل لواء أردنيّ يوم 14 تشرين الأول ساعد سورية في تطويق الثغرة الإسرائيليّة عند سعسع ودحرها. وأرسلت السعوديّة 2000 جنديّ وأرسل الملك الحسن الثاني قوّة مغربيّة. ومع صبيحة 20 تشرين الثاني تحصّنت الخطوط السوريّة ووثق الأسد من مقدرة سورية ليس فقط في الدفاع عن نفسها بل في شنّ هجوم مضاد في الجولان.

عندما شاهد السادات صور سوفيّاتيّة حول تطويق الجيش الثالث وتقدم "إسرائيل"، تحطّمت معنوياته وأيقن أنّ الوضع يهدّد يانهيار الجبهة المصريّة. ولذلك في 19 تشرين الأول أبلغ السادات الأسد أنّه لا يقدر أن يحارب "إسرائيل" وأميركا معاً ولا يتحمّل أن يكون شاهداً على تدمير الجيش المصريّ مرّة ثانية. فشجّع الأسد - الذي كان غاضباً من سلوك ومناورة شريكه - أنّ الوضع ليس سيئاً إلى هذا الحد وأنّ مصر وسورية قادرتان على مواصلة القتال وأنّ الجيش المصريّ كفيل بالقضاء على الجيب الإسرائيليّ غرب القناة، كما استطاع الجيش السوريّ القضاء على جيب سعسع. ولكن السادات كان يسعى إلى وقف إطلاق النار ويستجدي كيسنجر تحقيق ذلك. أمّا كيسنجر فكان يخدعه ويفعل ما بوسعه لإطالة الحرب. فقد أشار كيسنجر في مذكراته أنّه قبل دعوة الاتحاد السوفيّاتيّ لمناقشة وقف إطلاق النار، ولكنّه بدل استعمال الهاتف ونقل الرسائل عبر السفراء، ترك الأمر حتى يحضر هو إلى موسكو شخصياً. ثمّ أحرّ سفره إلى موسكو كي تحقّق "إسرائيل" تقدّماً على الجبهة المصريّة. ثمّ حضر إلى موسكو في 22 تشرين الأول أي أضعاف 3 أيام وانفق مع ليونيد بريجنيف على وقف لإطلاق النار. فصدر قرار لمجلس الأمن رقم 338 دون أن يشير إلى أي انسحاب إسرائيليّ من الأراضي العربيّة أو إلى حل للقضية الفلسطينيّة.

اتفاقية سيناء 1 واتفاقية الجولان

في ذلك اليوم كانت سورية تعدّ هجوماً مضاداً وشعر الأسد أنّ القرار 338 مكيدة، وأنّ العرب يحاربون فيما الروس والأميركان يتفقون من وراء ظهورهم بشكل لا يضمن حقوقهم. فتريّت سورية في قبول وقف إطلاق النار، أمّا السادات فقبل فوراً. واستغلت "إسرائيل" موقف سورية الراض لوقف إطلاق النار فهاجمت قاعدة جبل الشيخ في ليل 22 - 23 تشرين الأول وانتزعتها مجدداً من السوريين بعد معركة عنيفة.

كانت سورية تدرس خياراتها بعدما رفضت القرار 338، وكان الخيار الأبرز هو حرب طويلة. فدعا خدام السفراء العرب المعتمدين في دمشق وسألهم مدى استعداد حكوماتهم في دعم سورية في حال رغبت في مواصلة القتال. كما قام الأسد بسلسلة اتصالات هاتفية مع كلّ الزعماء العرب، وأعلنوا جميعاً تضامنهم معه ولكنهم عبّروا عن قلقهم على سورية الآن وقد خرجت مصر رسمياً من المعركة. ثم جاء الردّ في المساء أنّ العرب لا يرغبون في أن تخوض سورية حرباً طويلة بل سيدعمون دفاعاتها ويشجّعونها على قبول وقف إطلاق النار. فاستشار الأسد أعضاء القيادة القطرية والقومية وعقد لقاءً مع قادة أحزاب الجبهة التقدمية في سورية. ثم دعا القادة العسكريين لجلسة اتخذت قرارات استراتيجية:

1. أنّ خطة الجبهتين - المشرقية والجنوبية - قد انتهت وأنّ على سورية ابتكار استراتيجية خاصة بها. وسنعود إلى هذه الاستراتيجية الجديدة.
2. لكي يكتب للاستراتيجية السورية النجاح عليها أن توقف الحرب الآن كي تستعدّ لتحارب "إسرائيل" يوماً آخر.
3. أنّ سورية ستقبل وقف إطلاق نار مشروط وفق نصّ تقدّمه القيادة السورية لمجلس الأمن الدوليّ ويتضمّن تفسير سوري للقرار 338 بأنه يعني انسحاباً إسرائيلياً كاملاً من الأراضي العربية عملاً بالقرار 242 وضمان الحقوق الفلسطينية.

أوقفت "إسرائيل" النار على الجبهة السورية وفق شروط دمشق، فجاء قبول سورية بوقف إطلاق النار من موقع قوة. أمّا قبول مصر بوقف إطلاق النار فقد كان مائعاً يستجدي، ما شجّع "إسرائيل" على المضي في أعمالها العسكرية على الجبهة المصرية لاستغلال نقاط الضعف التي فضحتها السادات نفسه. إذ قامت القوات الإسرائيلية في الأيام التالية بتضييق الحصار على الجيش المصري الثالث وإهانته. ثمّ فرضت طوقاً على مدينة السويس. حتى بدا الأمر أنّها لا تسعى إلى استسلام مصري كامل فحسب بل إلى إسقاط نظام السادات نفسه. ما دعا مجلس الأمن لأن يصدر قرارين إضافيين لوقف إطلاق النار، 339 و340. يوم 24 تشرين الأول. ففي ذلك اليوم وصلت الأمور إلى ذروتها بين الجبارين وسجّلت لحظة مفصلية في حرب 1973. حيث ثار بريجينيف على كينسجر الذي بدا شديد التسامح مع خرق "إسرائيل" المستمر لوقف إطلاق النار وقيامها بأعمال حربية دون إكتراث لقرار مجلس الأمن الذي قبلته موسكو. ولذلك أبلغت موسكو واشنطن أنّها ستفرض وقف إطلاق النار بالقوة بإرسال قوات سوفياتية إلى أرض المعركة. وخاف كينسجر من هذا التطور لأنّه يعني دخول قوى سوفياتية إلى الشرق الأوسط ما يعني أنّ موسكو ستضغط لحل سلميّ يجبر "إسرائيل"

على الانسحاب. أفكار كيسنجر الشيطانية جعلته ينقل الرسالة السوفياتية لنيكسون على أنها تهديد لا يمكن لأميركا أن تقبله. ثم أوعز للأساطيل الأميركية أن تستعدّ لحرب محتملة مع الاتحاد السوفياتي. كل هذا إرضاء لتحركات إسرائيلية شرق قناة السويس كانت غولدا تدفعه، فقد أرادت ليس أقل من رأس السادات ثمناً لتجرؤ مصر على شنّ الحرب. ولكن كيسنجر أقتنعها أنّ السادات هو ثروة لـ "إسرائيل" وهو الشخص الذي يمكن العمل معه، لأنّ إسقاطه وكسر مصر سيغضب الشعب المصريّ ومَن يأتي من بعده في القاهرة سيكون أكثر عدواة لـ "إسرائيل" وسيثأر لكرامة المصريّين. وكان السادات بسذاجته يؤمن أنّ تعاونه مع كيسنجر سيجلب ثماراً للعرب. ولكن خطة كيسنجر كانت أن يأخذ مصر كلّها غنيمة حرب ويقصّبها إلى الأبد عن الصراع العربيّ الإسرائيليّ.

لأيام عصيبة كاد الجيش المصريّ الثالث ينهار وقد انقطعت خطوط الإمدادات والتموين، وكانت مدينة السويس تشكو فقدان الماء والدواء والغذاء. فكانت "إسرائيل" تمسك الرئيس المصريّ من عنقه وتفرض عليه شروطاً تعجيزية، مع أنّ وزير الخارجية إسماعيل فهمي أكدّ أنه كان باستطاعة القيادة العسكرية أن تأمر بفتح النيران والقيام بهجوم يُنهى حصار الجيش الثالث⁴⁰⁰.

وعندما التقى السادات الأسد في أول تشرين الثاني 1973 لم يبلغه عن الوضع العسكريّ على الأرض وبأنّه قدّم تنازلات مذلة للإسرائيليين لقاء إنهاء حصار الجيش الثالث، حيث أطلقت مصر سراح الأسرى الإسرائيليين ورفعت الحظر عن عبور السفن الإسرائيلية في البحر الأحمر. ولكن رغم تنازلات مصر رفضت "إسرائيل" التراجع عن الثغرة حتى بعد أسابيع من وقف إطلاق النار. فجاء كيسنجر إلى القاهرة في 7 تشرين الثاني وبدأ اتصالات أثمرت عن لقاء عسكريّين مصريّين وإسرائيليين تحت خيمة عند الكيلومتر 101 على طريق السويس يوم 16 تشرين الثاني (محادثات الجمسي - ياريف). وبدلاً من تحديد خطوط وقف إطلاق النار فحسب، بدأ الجانبان مناقشة فكّ إشتباك (disengagement) أي إنهاء الحرب وعودة الجيوش إلى ثكناتها. وتوصل اجتماع الكيلومتر 101 إلى اتفاق حول انسحاب "إسرائيل" إلى شرق ممرّات سيناء مقابل سحب مصر دبابتها شرق القناة. وهنا غضب كيسنجر من العرض الإسرائيليّ الذي اعتبره سخياً ووبّخ الإسرائيليين في استعجالهم إرجاع أراضٍ لمصر. وضغط كيسنجر على ياريف لسحب العرض الإسرائيليّ. ثم جاء كيسنجر إلى القاهرة يوم 13 كانون الأول وأقنع السادات أنّ لا حاجة لخراطئ بل يكفي إعلان مبادئ بين الطرفين بضمانة أميركا. وليس فقط أنّ السادات وافق على اقتراح كيسنجر، بل إنّه وعده أنّه مستعد للذهاب إلى مؤتمر جنيف بدون الأسد. كما وافق على أن لا حاجة لدعوة الفلسطينيين لحضور مؤتمر السلام ولن يثير القضية الفلسطينية.

ولكي لا يثير شكوك الأسد، أوفد السادات إلى دمشق مستشاره أشرف مروان الذي نقل إلى الأسد أنّ السادات اتفق مع كيسنجر على فك الارتباط على الجبهتين وتحديد خطوط وقف النار التي سينسحب إليها الإسرائيليّون. وأنّ كيسنجر سيحضر إلى دمشق ليتفق معه الأسد على الأمور نفسها، وأنّ مؤتمر جنيف سيبدأ بعد أسبوع. فسّر الأسد مما سمعه ولم يفطن أنّه كان هراءً. وكان نفاق السادات على الأسد مساعدة لكيسنجر لمواصلة مناوئته. فقد كان كيسنجر يعتبر أنّ سورية هي عدو "إسرائيل" الأخطر وليس مصر. لأنّ سورية

Ismail Fahmy, *Negotiating Peace in the Middle East*, Cairo, AUC, 1983, pp. 27-28. ⁴⁰⁰

هي الأكثر تطرفاً في الصراع العربي - الإسرائيلي ويجب إبقاؤها خارج اللعبة وعزلها عن مصر بأيّ ثمن. وأنّ الأسد هو نذره الحقيقي وليس السادات المطيع. لقد التقى كيسنجر بالأسد وهو يحمل نيات سيئة نحو سورية وبدون عروض أو مقترحات. وكان لقاؤهما هو الأول بين شخصيتين رفيعتين سورية وأميركية منذ فترة طويلة. وكان الأسد يظنّ أنّ واشنطن قد عزمت أمرها لرعاية السلام وإعادة حقوق العرب. فوضع ثقته بكيسنجر الذي ذاع صيته في المنطقة كعبقريّ. كما بنى الأسد الآمال على ما سمعه من أشرف مروان، فأحضر إلى مكتبه خرائط مفصلة للجولان ليدرسها مع كيسنجر.

ووصل كيسنجر إلى دمشق، وكعادته في لقاء الزعماء العرب الذين سحرهم بشخصيته الحميمة، لم يكتفِ بشدّ يد الأسد بل حرضه مهلاً "لمرحلة جديدة من الصداقة بين سورية والولايات المتحدة الأميركية". ولكن الأسد لم يتأثر بهذه الحركات المسرحية، بل أجاب بجديّة: "لا يمكن أن تكون ثمّة صداقة في هذه اللحظة لأنكم تأخذون طرفاً في الصراع. ولكن يمكننا أن نعمل معاً لإزالة الخلافات". ولعلّ أسلوب الأسد الجديّ صبّ الماء البارد على كيسنجر الذي لم يعتد أن يقاوم الزعماء العرب جاذبيته وكلامه المعسول. ثم بدأت مبارزة كلامية استمرت ست ساعات ونصف الساعة، بدأها كيسنجر بمحاضرة استغرقت ساعة من الوقت. ورد الأسد بمحاضرة من عندياته استغرقت ساعة أيضاً، حدّد فيها مبادئ سورية ومنطلقات سياستها الخارجية ونظرتها القومية وتاريخ الصراع في المنطقة والملفات التي يودّ مناقشتها. فكان أسلوب التحوّل الطويل تكتيكاً اعتمده الأسد منذ نشأته بحيث يفرّغ كلّ ما عند محاوره من حجج ولا يترك ثغرة إلا ويستكشفها، ما ينهك محادثه في ساعات طويلة. وناقش الرجلان مؤتمر جنيف، فطرح كيسنجر أموراً إجرائية وإدارية حول الدعوات وعلل عدم دعوة الفلسطينيين. ولكن الأسد ذهب إلى العمق: هل تقبل أميركا مبدأ أنّ سورية لا تقدر أن تتخلى عن أي قطعة من أرضها؟ هل تقبل أميركا أنّه لن يكون هناك سلام في المنطقة بدون مشاركة الفلسطينيين؟ وهل سيعالج مؤتمر جنيف المسائل الجوهرية للصراع؟

وكان كيسنجر ضليعاً بالديالكتيكية الفلسفية و"أسطى" في "الضبابية البناءة" (constructive ambiguity)، إذ تخلّص بحنكة من الإجابة المباشرة وخلص إلى أنّ هذه الأمور ستنتجلي أثناء مؤتمر جنيف. كلام كيسنجر المبهم أزعج الأسد الذي كان هدفه من اللقاء استعادة الأرض وحماية القضية الفلسطينية. وعندها أخرج خرائط الجولان للحصول على توضيح من كيسنجر عن مدى الانسحابات الإسرائيلية، تطبيقاً لما نقله إليه أشرف مروان. ما وضع كيسنجر على المحكّ ودفعه للتخلي عن وجهه الديبلوماسي المبتسم ثم يرفض بشدّة بحث هذا الموضوع. فغضب الأسد ورمى قلمه على الطاولة بعدما اكتشف خداع السادات. وسأل ضيفه: ماذا اتفقت مع السادات إذن؟

كيسنجر: اتفقتنا فقط على عقد مؤتمر جنيف.

الأسد: أهذا كلّ شيء؟ لقد التقيت السادات قبل أيام وأكّد لي أنّه سيصل إلى اتفاق معك لفصل القوات قبل الذهاب إلى جنيف.

كيسنجر: لم يحصل شيء من هذا القبيل.

الأسد: ولكن منذ ساعتين جاءني هنا أشرف مروان وقال لي إنك والسادات اتفقتما على ذلك.

كيسنجر: لم نربط أي تقدّم في فك القوات بمؤتمر جنيف. الأسد: ولكن السادات أبلغني غير ذلك! لقد أصرّ أمامي أننا لن نذهب إلى جنيف إلا بعد الاتفاق على فصل القوات على الجبهتين.

كيسنجر: لم يحصل شيء من هذا القبيل!⁴⁰¹

صُدّم الأسد بعد اكتشافه أن السادات قال له شيئاً وكيسنجر يقول شيئاً آخر. فاستنتج أنّ ليس من مصلحة للعرب المشاركة في مؤتمر جنيف وهم مشتتّي الرأي. وقرّر في تلك اللحظة أنّ سورية لن تحضر مؤتمر جنيف، ظناً منه أن تغيب سورية سيقنع السادات ألا يذهب بمفرده. فبردت رغبة الأسد في الكلام تاركاً كيسنجر يستفيض بشرح تفاصيل المؤتمر والدعوات، إلى أن سأله كيسنجر عن اليوم الذي سيختاره الأسد للسفر إلى جنيف ومَن سيكون معه. فألقى الأسد القنبلة: "لا أحد سيذهب من سورية!".

كان ذلك خبراً مفجعاً لكيسنجر الذي كان يخطّط لاحتضان مصر وإبعاد سورية. فعاد إلى واشنطن ولخّص نيكسون نتائج جولته شارحاً بفرح أنّ عدم مشاركة سورية هو مريح لواشنطن و"يجب أن نترك الأسد يستوي في مرّقه ونتطّلع إلى فرصة إنجاز اتفاق فصل القوات في سيناء". ولكي لا تثير سورية المشاكل استحذّر واشنطن موسكو من تسليح سورية كي لا تُشعل حرباً جديدة.

في تل أبيب، كانت صدمة حرب 1973 أصعب من أن يهضمها قادة "إسرائيل" لأنّها أذت ثقة "إسرائيل" بنفسها كقوة إقليمية بعدما إقدام العرب على مهاجمتها. وزال غرور موشيه دايان الذي بدا متشائماً أمام ما دعاه "الزلزال" الذي لم تستطع "إسرائيل" أن توقفه إلا بجهد عظيم ومساعدة أميركا. واستطاع كيسنجر أن يقنع "إسرائيل" أنّ ضمانها الوحيد أنّ العرب لن يهاجموها ثانية يكمن في مرضاة مصر وإخماد جبهة سيناء إلى الأبد، فيخسر العرب جيشهم الأقوى.

بدأ كيسنجر حربته الدبلوماسية لنزع مصر كقوة عربيّة بمقابلة مع صحيفة الأهرام قال فيها إنّ موسكو يمكن أن تعطي العرب السلاح ولكن فقط أميركا يمكن أن تضمن حلاً عادلاً يعيد لهم الأرض. فصدّقت الدول العربيّة رغم أنّه هو الذي أنهى مبادرة روجرز وهو الذي تجاهل نداءات السادات المتكرّرة قبل الحرب وهو الذي دفع العلاقات الأميركيّة - الإسرائيليّة نحو حلف استراتيجي غير مسبوق. ثم بدأ كيسنجر جولات تتوجت بحل منفرد لفك الارتباط على جبهة سيناء مستثنياً سورية ومتجاهلاً القضية الفلسطينية. فقد بدأ عمله بمؤتمر مسرحي في جنيف في 21 كانون الأول 1973 برعاية كورت فالدهايم الأمين العام للأمم المتّحدة وحضور أندريه غروميكو وزير الخارجيّة السوفياتي ووزراء خارجية مصر (إسماعيل فهمي) والأردن (زيد الرفاعي) و"إسرائيل" (أبا إيبان) وغياب سورية والفلسطينيين. واقتصر المؤتمر على خطابات تدعو للسلام، ما أن انتهت حتى انتهى المؤتمر.

وبهذه الطريقة حصل كيسنجر على شرعيّة دولية لبدء رحلاته المكوكيّة لحل منفصل بين مصر و"إسرائيل"، وهو المسار الوحيد الذي عمل عليه بجدّ. فما أن مضى شهر على المؤتمر حتى أعلن عن اتفاقية سيناء الأولى لنزع القوات بشروط مهينة لمصر بعدما تخلى السادات مجاناً عن الدور السوفياتي المساعد وسبّب تصدّع

Patrick Seale, ASAD, pp. 233-234. ⁴⁰¹

الجبهة العربية وترك سورية التي كانت ستقوي الموقف المصري في المفاوضات. لقد ترك السادات نفسه فريسة سهلة لأنياب كيسنجر وحكومة غولدا مئير بقبوله اتفاقية سيناء الأولى، إذ تخلّى عن مطلب انسحاب "إسرائيل" إلى ما وراء ممرات سيناء واحتفاظ مصر بلوآين شرق القناة. وفرض الاتفاق على مصر إبعاد شبكة صواريخ سام والمدفعية البعيدة المدى إلى مسافة 30 كلم غرب القناة وقبول منطقة عازلة تراقبها الأمم المتحدة وطائرات استطلاع الكتروني أميركية تغطي المنطقة، وفتح قناة السويس وباب المنذب أمام الملاحه الإسرائيلية والالتزام بمنع المقاومة الفلسطينية من شن هجمات على "إسرائيل" من الأراضي المصرية. ولأول مرة في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي، وافقت مصر على وقف الإعلام المعادي لـ "إسرائيل".

ولقاء كل هذه التنازلات حصل السادات على حق تموين الجيش الثالث المحاصر وإبقاء 30 دبابة شرق القناة. فبكي الجمسي من هذه الشروط ثمناً بخساً لحرب مصر العظيمة. وإمعاناً في الإهانة، نهب الجيش الإسرائيلي مدينة السويس قبل انسحابه منها وفكفك وشحن إلى "إسرائيل" تجهيزات مصفاة النفط ومصنع السمد ومعدات مرفأ الأدبية. وما لم يكن بإمكانه فكفكته ونهبه قام الجيش الإسرائيلي بنسفه وتفجيره، وغمر أنابيب المياه والصرف الصحي بالركام والرمال والوحول، وجرف مئات الأبنية والمنشآت.

في 19 كانون الثاني 1974، وخلال تسع ساعات من المحادثات في صالة مطار دمشق، حاول الأسد إقناع السادات أن لا يوقع على اتفاقية سيناء التي تنهي الحرب على الجبهة المصرية وتسمح لـ "إسرائيل" بتحويل "كامل قوتها وكل بندقية ودبابة إلى الجبهة السورية". وشرح الأسد أن على الجيش المصري البقاء في المعركة وأن لا تترك مصر ساحة الصراع من أجل اتفاقية جزئية. ولكن السادات لم يرتدع بل وضع اتفاقية سيناء قيد التنفيذ في نيسان 1975.

كان وضع سورية متيناً وغير مهدد وتستطيع خوض حرب استنزاف طويلة. فكانت جبهة الجولان مشتعلة طيلة تلك الشهور في غياب اتفاق وقف اشتباك. كما أن سورية كانت تحتفظ بأسرى إسرائيليين وكان الحظر النفطي العربي فاعلاً في الضغط على الغرب، فيما كان العراق يدعم الجبهة السورية عسكرياً ومالياً. ولكن كيسنجر عمل، بمساعدة السادات، على إقناع الدول العربية النفطية بإنهاء حظر البترول وطلب من الأسد منحه لائحة أسماء الأسرى الإسرائيليين لدى سورية كبادرة حسن نية، فوافق الأسد شرط أن لا يقدمها كيسنجر للإسرائيليين قبل التوصل إلى تقدم على الجبهة السورية. ولكن ما أن قدمت سورية اللائحة حتى نقلها كيسنجر إلى غولدا مئير خلال ساعة. ثم عمل كيسنجر مع "إسرائيل" على إقناع شاه إيران بدفع أكراد شمال العراق لإشعال الجبهة ضد الجيش العراقي بأسلحة من "إسرائيل". وبهذا يتلأه العراق بحرب داخلية ويقلص مساعدته لسورية⁴⁰². وهكذا عبر سلسلة خطوات سرق كيسنجر من الأسد أوراقه ورقة ورقة.

ثم قام كيسنجر بجولة مكوكية بين دمشق وتل أبيب في شهر أيار 1974، وناقش الأسد لمدة 130 ساعة. ففي موضوعي الجولان والقضية الفلسطينية كان موقف الأسد عنيداً. فلم تحقق هذه المحادثات تقدماً لأن هدف كيسنجر كان إضاعة الوقت ريثما ينضج الملف المصري. وفي النهاية وصل الأسد إلى اتفاق جزئي مع كيسنجر

⁴⁰² استمرت حرب العراق مع الأكراد سنتين وانتهت بتوقيع اتفاق الجزائر عام 1975 الذي قدم فيه العراق تنازلات هامة للشاه لقاء وقف دعمه للأكراد. ولم تكن هذه المرة الأولى التي صحت فيها أميركا بالأكراد على مذبح مصالحها. وكانت اتفاقية الجزائر من أسباب اشتعال الحرب العراقية الإيرانية عام 1980.

دون أن يتنازل عن دعم المقاومة الفلسطينية كما التزم السادات⁴⁰³. فقد كان كيسنجر يُصرّ على وقف دعم سورية للعمليات الفلسطينية ويعود إلى هذا الأمر كل يوم، فوضع الأسد حداً له بتصريح في وسائل الإعلام "أنّ عمليات المقاومة الفلسطينية لن تكون أبداً جزءاً من أي اتفاقية على الجولان". ثم وقّعت سورية على اتفاق الجولان مع "إسرائيل" في جنيف في 23 أيار 1974 يتضمن انسحاب "إسرائيل" من الجيب الذي احتلته ومن مدينة القنيطرة وجوارها⁴⁰⁴. وقبل انسحابه من القنيطرة، كرّر الجيش الإسرائيلي ما فعله في مدينة السويس، فهدم مئات المباني وجرفها ودمّر البنية التحتية من خطوط ماء وكهرباء واتصالات. ورغم ضآلة الأرض المحرّرة إلا أنّ الأسد خرج من الحرب بطلاً قومياً رافع الرأس ولم يقدّم أي تنازلات لـ"إسرائيل" ولم يرتّم في أحضان أميركا ولم يتأثر بكلام كيسنجر المعسول، وحافظ على مواقفه المبدئية من أجل معركة أخرى في المستقبل.

لقد أقنع كيسنجر موشيه دايان بأنّ يبدو أمام المصريّين قاسياً معه في المفاوضات وأنّ يلعب معه لعبة لخداع أمام العرب ما يساعد أميركا أن تظهر كوسيط عادل يضغط على "إسرائيل". ثم يدّعي هو - أي كيسنجر - أنّ "إسرائيل" تتشدد ولا تقبل بالضغوط. وهي خدعة كيسنجرية سمجة لا تزال "إسرائيل" تطبقها مع كلّ إدارة أميركيّة إلى اليوم. وبعد اتفاقية سيناء الأولى، وقّعت واشنطن مع "إسرائيل" مذكرة تفاهم استراتيجية التزمت فيها أميركا أن تلبي بشكل متواصل وطويل الأمد حاجات "إسرائيل" العسكرية. كما استطاع كيسنجر في نيسان 1974 إقناع نيكسون أن يمحو مليار دولار من أصل قرض 2.2 مليار حصلت عليه "إسرائيل" قيمة أسلحة أميركيّة في حرب 1973. وفي تموز أقنعه أيضاً بشطب مبلغ 500 مليون دولار إضافي من هذا القرض. حتى وصف مراقبون أميركيون كيسنجر بأنّه "أهم شخصية سياسيّة إسرائيلية".

وكان الأسد يظنّ أنّ السلام آتٍ بعد تطبيق القرارين 242 و338 وبعدهما وقّعت اتفاقات فصل القوات على الجبهتين. ففي حزيران 1974 قام نيكسون الذي كان غارقاً في فضيحة ووترغيت، بجولة في الشرق الأوسط رافقتها عودة العلاقات بين سورية والولايات المتّحدة. وبعثت زيارته آمالاً لدى سورية أنّ سياسة أميركا بدأت تتحوّل. فخرج آلاف المواطنين لاستقباله في القاهرة ودمشق. وأخذ نيكسون يعد السادات بأنّه سيعيد إلى مصر كلّ أراضيها وأنّه سيدعو الفلسطينيين إلى طاولة المفاوضات. وفي دمشق أمضى نيكسون مع الأسد ساعات من النقاش. وكان الأسد في ذلك الوقت قد شكّك بديبلوماسية كيسنجر فدعى نيكسون إلى مكتبه وسأله أسئلة محدّدة عن نيّة أميركا في الضغط على "إسرائيل" لإرجاع الجولان وما ستكون حدود "إسرائيل" النهائية، الخ. فقدّم نيكسون أجوبة مشجّعة بأنّه سيسعى لإعادة الجولان إلى سورية ويعمل للسلام. وكان كيسنجر جالساً معهما فساوره القلق أنّ رئيسه وبدون قصد يهدّم في ساعات ما بناه هو في شهور. فتدخل

⁴⁰³ Stephen Oren, "Syria's options", *World Today*, vol. 30, no. 11, November 1974, pp. 472 - 78 (disengagement on the Golan).

⁴⁰⁴ Uri Davis, *The Golan Heights under Israeli occupation 1967 - 1981*, Durham, England, university of Durham, Centre for

Middle Eastern and Islamic Studies, 1983, Occasional Publications New Series, no. 18.

في الحديث وأخذ يضغط على نيكسون ليغادر مكتب الأسد بحجة أن الوقت يداهمهما والطائرة بانتظارهما. فأفشل كيسنجر محاولة الأسد تسجيل نقاط مع نيكسون والحصول على وعود منه. بعد ذلك تَوَقَّعت سورية بعد اتفاقيتي سيناء والجولان أن كيسنجر سينتقل إلى رعاية اتفاقية بخصوص الضفة الغربية على الجبهة الأردنية، ثم إلى معالجة شاملة للقضية الفلسطينية كما وعد العرب. ولكن مرّت الشهور وبدأ العرب يقلقون من جماد الحركة ويتساءلون لماذا لا يتحرك كيسنجر. لقد كانت فترة سذاجة عربية تثق ثقة عمياء بنيات أميركا التي كانت تسعى لتحقيق تفوق إسرائيلي ساحق. في 8 آب 1974، سقط نيكسون بفعل الفضائح وتنازل عن الرئاسة فأخذ مكانه مؤقتاً نائبه جيرالد فورد الذي نقصته الخبرة وترك الحرية لكيسنجر في السياسة الخارجية. وكان خطأ العرب الأكبر هو الوقوع بإغراء كيسنجر الذين دفعوا غالباً ثمن تعاملهم البريء معه⁴⁰⁵. فلم يقفوا للحظة ليروا أنه كان بطل التحالف الأميركي - الإسرائيلي وألقى بثقله إلى جانب عدوهم وسرق مصر منهم وأقام مثلثاً مصرية - إسرائيلياً - أميركياً سيقى كابوساً للعرب ولمصر خاصة لعقود عدة.

خيبة الأردن

كان الأسوأ قيد التحضير. فملك الأردن وحكومته شعرا أن سياسة كيسنجر قد تركت المملكة عارية. فالملك حسين صديق الغرب الدائم الذي شنّ حرباً ضد المقاومة الفلسطينية لإزالتها كخطر على "إسرائيل"، وجازف بعلاقاته العربية بسبب قنوات الاتصال السريّة مع "إسرائيل" ولم يخض أي حرب ضد "إسرائيل" منذ 1967 ونقل معلومات عن سورية ومصر أولاً بأول لـ "إسرائيل". فشعر أنه يستحق على الأقل استعادة بعض الأرض في الضفة وعلى اتفاقات مماثلة لسورية ومصر. فادّعى أمامه كيسنجر أنه توسّط لدى "إسرائيل" وأنّ راين يرفض أي انسحاب من وادي الأردن أو من الضفة الغربية. وكذلك في القضية الفلسطينية فقد تجاهل كيسنجر الفلسطينيين تماماً وأقفل أذنيه عن رسائلهم ونداءاتهم للحوار مع أميركا معتبراً منظمة التحرير عنصر تخريب لا يجب التعامل معها مطلقاً.

ورغم أنّ قمة الرباط العربيّة في 20 تشرين الأول 1974 قد اعترفت بمنظمة التحرير كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني ورغم نداء عرفات للسلام أمام الجمعية العامة للأمم المتّحدة في 13 تشرين الثاني 1974، لم يلقِ الملف الفلسطيني غير اللامبالاة من كيسنجر. وحتى راين نفسه كشف في نهاية 1974 أنّ هدف المفاوضات التي يجريها كيسنجر هو الوصول إلى اتفاق مع مصر فقط لعزل سورية. وإذ حذر الأسد السادات من أنّ أي اتفاق مصري ثانٍ مع "إسرائيل" سيُحرم سورية من تحرير الجولان ويضع القضية الفلسطينية في مأزق صعب، واصل السادات الكذب عليه أنّه لن يتنازل عن الحق العربي وأنّ أميركا ستضمن انسحاباً إسرائيلياً من الجولان والضفة الغربية والقدس أيضاً. ولكن فات الأوان بعدما بدا واضحاً للعرب في بداية

Patrick Seale, ASAD, p. 252.⁴⁰⁵

1975 أن كيسنجر لم يسعَ إلى حل سلميّ شامل بل إلى تفرقة العرب وشق صفوفهم وخدمة "إسرائيل" وإخراج مصر من الصراع. فحضر الملك فيصل إلى دمشق لدعم الموقف السوريّ وقدم مساعدة مالية قدرها 350 مليون دولار⁴⁰⁶.

اتفاقية سيناء 2

في صيف 1975 أصبحت اتفاقية سيناء 2 جاهزة ووقعتها واشنطن والقاهرة وتل أبيب في جنيف في أول أيلول 1975 ومهدت لاتفاقات كامب دايفيد عام 1978. فحصلت مصر على بعض الانسحابات الإسرائيلية وأقيمت مناطق عازلة بين الجانبين بمراقبة عسكرية أميركية مباشرة وإجراءات كاملة على الأرض أنهت عملياً دور مصر في الصراع العربيّ الإسرائيليّ. ووقّعت واشنطن مع تل أبيب ثلاثة اتفاقات سرية تضمنت تعهدات مالية بلغت قيمتها مليارات الدولارات سنوياً، وبنوداً عسكرية تحافظ على التفوق العسكريّ الإسرائيليّ في مطلق الظروف، وتعهداً أميركياً بعدم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية إلا بعد اعتراف هذه الأخيرة بـ "إسرائيل". فكبّل كيسنجر بهذه التفاهات يد أميركا في الشرق الأوسط لعقود بعد مغادرته منصبه الرسميّ، وبقيت أزمة المنطقة تدور في حلقة مفرغة حتى كتابة هذه السطور. حتى اعتبر كثيرون كيسنجر أعظم شخصيّة خدمت دولة "إسرائيل" بعد هرتسل وبن غوريون⁴⁰⁷.

حققت دبلوماسية كيسنجر الأمن والاستقرار لـ "إسرائيل" ولكنها أصدرت حكم إعدام على سورية والأردن وفلسطين. ولمواجهة الأمر تحوّلت استراتيجية سورية عن شراكة مع مصر إلى إقامة جبهة مشرقية بقيادة دمشق تشمل لبنان والأردن والفلسطينيين بعمق عراقيّ. وكان من نتائج اتفاقيات سيناء اشتعال حرب لبنان.

William Quandt, *Decade of decisions; American policy towards the Arab - Israeli conflict 1967 - 1976*, Berekley, University of California Press, 1977.

Saadia Touval, *The peace brokers: Mediators in the Arab - Israeli conflict 1949 - 1979*, Princeton, New Jersey, Princeton University Press, 1982. (chapter on Henry Kissinger).

19 | الحرب اللبنانيّة

علاقات لبنان وسورية

في كانون الثاني 1975 زار الرئيس حافظ الأسد لبنان والتقى رئيسه سليمان فرنجية في بلدة شتورة. وحظيت هذه الزيارة بتغطية إعلامية كبيرة: في لبنان بسبب ندرتها وأهميتها. وفي سورية كمؤشر للتحوّل الاستراتيجي السوري بالتقارب مع بيروت.

ولم تُطرح أسئلة كبرى من زاوية استراتيجية عن الزيارة لأنّ العلاقات بين البلدين كانت عميقة جداً على الأصعدة العائلية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية كافة. فإذا كانت شعوب الأردن وفلسطين ولبنان أكثر العرب قرباً وعلاقة بسورية، فإن لبنان كان البلد الأكثر شهاً بسورية من الناحية الديمغرافية والعادات والتقاليد واللهجة والمطبخ والتنوع الديني والعرقى والطبيعة الجغرافية. وكان ثمة تعاطف عارم خاصة في أوساط مسلمي لبنان مع سورية يعود إلى ما قبل الاستقلال وإلى بدايات الحقبة الانتدابية. كما أنّ صداقة بيت الأسد وبيت فرنجية تعود إلى عقود سابقة. فصبت الزيارة في تلك المرحلة المبكرة في سياق لقاء بين أخوة ولم يربطه أحد باستراتيجية سورية مستجدة.

تشابه لبنان وسورية على أكثر من صعيد، إذ جمعهما تاريخ مشترك يعود آلاف السنين ولغة وتراث وتقاليد وجغرافية واحدة، وإن كانت الحدود متقلّبة وفق التغيّرات الإقليمية. ولكن رغم التشابه النسبي في التكوين العرقى والطائفي، حافظ لبنان على انفتاحه الاقتصادي ونظامه الديمقراطي ما جعله أكثر عرضة للهزات السياسية والاجتماعية والأزمات الأهلية، فيما وقعت سورية ضحية انقلابات عسكرية وصراع إقليمي دولي وتحولات اشتراكية وصعود أحزاب قومية. فاستبدلت سورية الحريات السياسية والاقتصادية بديمقراطية شعبية واقتصاد موجه ما منع وقوع حروب أهلية كذلك التي شهدها لبنان. كما أنّ لبنان حقّق استقلاله بشكل منفصل عن سورية بإرادة شعبية أيضاً، وإن لم تكن عارمة، وليس بقرار فرنسي.

النظام الطائفي هو البذرة التي أدت إلى صعوبات جمّة في لبنان وإلى تذرّم المسلمين والمسيحيين من غير الموارد من اليد العليا للموارنة في النظام السياسي. ويكفي أن ننظر الأقليات في سورية إلى ما حصل في لبنان (منذ 1975) والعراق (منذ 1971) من تفتت طائفي وعرقى وحروب أهلية كي تجد حسناً في نظامها على نواقصه. والتنوع الديمغرافي كان أعمق في سورية منه في لبنان كما هو واضح من هذا الجدول.

التوزيع الديمغرافي: الأديان والإثنيات في لبنان وسورية عام 2000

(%)

لبنان	سورية	
30	70	مسلمون سنّة
30	0	مسلمون شيعة
33	13	مسيحيون
4	5	دروز
2	12	علويون
93	89	عرب
1	5	أكراد
5	6	أرمن

عندما زار حافظ الأسد لبنان كان كثير من الماء قد مرّ تحت الجسر بين البلدين بعامل الزمن، وافتراقاً إلى حد بعيد في نظامهما السياسي. فكانت عقيدة سورية تفترض أن اتفاقية سايكس بيكو جزأت سورية واقتطعت لبنان عنها وهذه عقدة لم تبارح السيكولوجيا السورية. فسورية في خطابها الرسمي ونظامها التربوي نظرت إلى دول المشرق كثمرة خبيثة استعمارية مرّقت وحدة سورية. فلبنان من منطلق التمزيق الكولونيالي لا يحقّ له أن يكون دولة منفصلة عن "الوطن السوري" الذي تعتقد دمشق أنها تمثله. فلم يكن ثمّة اعتراف بالجمهورية اللبنانية وحدودها ولا تبادل دبلوماسي (حتى 2009). لا بل إن سورية تدخلت في شؤون لبنان مراراً في مرحلة ما بعد الاستقلال وقبل 1975.

وتحت غشاء الأخوة والصدقة كان ثمّة شك وريبة عميقان في لبنان من نيات سورية. كما خلق الفارق في مستوى الدخل بين البلدين نوعاً من شعور التفوق الطبقي لدى اللبنانيين: فالعملة اللبنانية أقوى والسوري في لبنان نُظر إليه على أنه عامل أو فلاح. أضف إلى هذه الفوارق أن 25 عاماً من القطيعة قد خلقت جيلاً من اللبنانيين والسوريين على جانبي الحدود لا يعرف واحدهما الآخر. فنما جهل في لبنان بأحداث سورية وتطورها بعد الاستقلال، فيما بقي حنين قديم لدى كبار السن من اللبنانيين إلى دمشق وأسواقها والعلاقات بين العائلات وجذور قسم من اللبنانيين في حلب ومواطن أخرى داخل سورية. من ناحيتها كانت سورية ومنذ الخمسينيات ترتاب بنيات بعض اللبنانيين لا سيما الزعماء الموارنة أصحاب الروابط المتينة مع الغرب وأعداء كل تقارب عربيّ وفكرة وحدوية عربية. وكان منحى زعمائهم - أكانوا في السلطة أو في أحزاب - هو استعمال السلاح ضد المقاومة الفلسطينية. ولكن الواقع الجغرافي والسكاني والتاريخي فرض أن ما يحدث في هذا البلد يقلق البلد الثاني وبالعكس، واستقرار هذا ينعكس على استقرار

ذاك، وأنّ أمن الأوّل من أمن الثاني. وهذا ما عرفه حكّام البلدين. كما لم تكن جبال لبنان الشرقية أو النهر الكبير عائقاً حدودياً مهماً بين البلدين. إذ منذ الاستقلال كانت عمليّات تهريب البضائع والأشخاص تتمّ يومياً، كما أنّ بيروت كانت مأوى كلّ هارب من انقلاب أو تطهير في سورية، وملجأ كلّ أديب أو شاعر أو معارض سوري. وإذا وقع انقلاب في دمشق، كانت بيروت تعدّ اللحظات العصيبة وتعيش تكهنات عن هويّة الانقلابيين وسياستهم. وكانت دمشق تتدخّل دوماً في تركيبة الدولة اللبنانية للتأكد من عدم وصول أشخاص يبادلونها العداء أو يفتحون قناة مع "إسرائيل" أو ينادون بسلم مع "إسرائيل"، ابتداءً من شخص رئيس الجمهورية اللبنانية إلى رئيس الحكومة والوزراء، بأسمائهم وخلفياتهم وصولاً إلى قادة الأمن العام والمخابرات وكبار العسكريين اللبنانيين (وفي التسعينيات وصل التدخّل السوريّ حتى في اختيار أسماء كبار الموظفين الإداريين في لبنان).

وبعزيمة الانفتاح على لبنان في السبعينيّات نفسها، اتّجهت سورية نحو الفلسطينيّين والأردنيّين. فدعا الأسد خصمه عرفات إلى دمشق في اليوم الذي بدأ فيه كينسجر مباحثات سيناء 2 في آذار 1975. فحصل اتفاق سوري - فلسطيني لخلق قيادة موحدة سياسيّة وعسكريّة. ثم بعدما اتّضح مضمون اتفاق سيناء 2، قام الأسد بزيارة عمّان في 10 حزيران 1975 هي الأولى من نوعها لرئيس سوري منذ 1957، للاتفاق مع الملك حسين على قيادة موحدة شبيهة بتلك التي تمّت مع الفلسطينيّين، وسط ترحيب الأردن والقلق على مصيره بعد إبعاده عن مراحل السلام المصريّ الإسرائيليّ. وفي عمّان أعلن الأسد أنّ "سورية والأردن كيان واحد وبلد واحد"، فتحتّنت العلاقات.

خلال الأعوام 1971 - 1973، دعمت سورية المقاومة الفلسطينيّة وحصّنت مخيماتها في لبنان ووقّرت لمقاتليها السكن والمؤن والأسلحة. وإذا سيطرت المقاومة على منطقة العرقوب في جنوب لبنان، ووقّرت لها سورية خطوط إمداد. وعندما عجز الجيش اللبناني عن صدّ الغارات الإسرائيليّة على لبنان، نشرت سورية سرّاً شبكة مضادات أرض - جو في المخيمات الفلسطينيّة تديرها عناصر كوماندوس سورية. كما اعترضت طائرات سورية الغارات الإسرائيليّة ضدّ المواقع الفلسطينيّة في العرقوب في صيف 1973 في مواجهات خسرت فيها سورية 13 طائرة. وفي حوادث أيار 1973 بين الجيش اللبناني والمقاومة، أرسلت سورية المزيد من الكوماندوس السوريّ للقتال إلى جانب الفلسطينيّين وأقفلت الحدود مع لبنان وقادت حملة دبلوماسية ضدّ الدولة اللبنانية. وكانت سورية قلقة من تهوّر المقاومة وعمليّاتها الفدائيّة البسيطة داخل "إسرائيل" التي جلبت انتقامات إسرائيليّة كبيرة على لبنان وكادت تجرّ إلى حرب لم تستعد لها الدول العربيّة وتشوّه وجه القضية الفلسطينيّة أمام الرأي العام الدوليّ. ولكن هذه كانت الاستراتيجية الفلسطينيّة: مصالح حركة مقاومة بوجه مصالح دولة، وتشوّق المقاومة إلى المحافظة على استقلاليتها على حساب أمن وسيادة لبنان وسورية.

الحرب التي بدأت في لبنان عام 1975 كانت بين أحزاب "الحركة الوطنيّة" التي قادها كمال جنبلاط مدعومة من المقاومة الفلسطينيّة، بمواجهة زعماء الموارنة الذين دافعوا عن الدولة اللبنانية ومصالحها، يقودون جماعات مسلّحة تدعمها بعض فصائل الجيش اللبنانيّ وقوى الأمن الداخليّ وزعماء مسلمون كصائب سلام وكامل الأسعد.

ظهرت أثناء الحرب عشرات القوى المسلحة بأسماء متنوعة منها الميليشيات المسيحية، تكتل أحزاب الكتائب والأحرار والمجموعات التي حاربت معها، وميليشيات التحالف اللبناني الفلسطيني أي الأحزاب اللبنانية المنضوية في "الحركة الوطنية" التي قادها كمال جنبلاط والتنظيمات الفلسطينية. وكان ثمة فئة ثالثة في الحرب اللبنانية موالية لسورية قوامها "منظمة الصاعقة" الفلسطينية بقيادة زهير محسن وأحزاب لبنانية أطلقت على تجمعها اسم "الأحزاب الوطنية والقومية" و"جيش التحرير الفلسطيني" الموالي لسورية. وكان لدخول قوى هذه الفئة الثالثة والجيش السوري في ما بعد ضد ميليشيا التحالف اللبناني الفلسطيني العامل الرئيسي لإنهاك قوى اليسار وتشتيت "الحركة الوطنية". فغاب مشروعها الإصلاحية خاصة بعيد اغتيال كمال جنبلاط في آذار 1977.

التحالف اليساري - الفلسطيني

في العام 1974، فرض كمال جنبلاط الشخصية السنوية رشيد الصلح كمرشح له لرئاسة الحكومة. ووافق سليمان فرنجية إرضاءً لجنبلاط رغم اعتراض الزعماء السنة التقليديين أن فرنجية لم يختر زعيماً سنياً قوياً. فحقق جنبلاط انتصاراً هاماً، إذ إن هذه الحكومة كانت تصغي له وتدفع بمطالب التكتل اليساري الذي يقوده. ولكن حكومة رشيد الصلح جاءت متأخرة إذ إنَّها استقالت بعد شهر من بدء حرب لبنان، بعدما ألقى رشيد الصلح خطاباً نارياً في البرلمان، قيل أن جنبلاط وحلفاءه كتبوا نصه، اتهم فيه حزب الكتائب بتدهور الوضع وجدّد مطالب جنبلاط الإصلاحية.

ناضل كمال جنبلاط من أجل نظام لائتافي يكسر الشراكة المارونية السنوية التقليدية. وفي 1975، بدأ مغامرته الكبرى لإسقاط النظام، بدءاً بمحاولة حظر حزب الكتائب. وهو طلب مستحيل جرّ البلاد إلى جحيم مواجهة حامية استمرت 16 سنة. ففي نيسان 1975 وبسبب الاستعدادات للقتال لدى الطرفين، بدأت الحرب فوراً وارتسمت خطوط التماس بين المناطق. وابتداءً من ربيع 1976 باتت خطوط المواجهة العسكرية متاريس ثابتة بين بيروت غربية وبيروت شرقية. ولم تتغير هذه الخطوط حتى نهاية الحرب عام 1990. وأدّت الحرب إلى شلّ الاقتصاد وخراب جوهرته بيروت⁴⁰⁸ خلال فترة دامت 19 شهراً أصبح عنوانها "حرب السنتين". لقد بدأ الدمار الفعلي للاقتصاد اللبناني في قلب بيروت التجاري. إذ كان وسط المدينة نقطة وسطية بين مناطق ذات أغلبية مسيحية ومناطق ذات أغلبية إسلامية. وقُدّرت خسائر الوسط بمليار و500 مليون دولار أميركي⁴⁰⁹.

See for example: Halim Barakat, *Lebanon in Strife*, Texas, University of Texas Press, 1977; Farid El Khazen, *The Breakdown*⁴⁰⁸ of the State in Lebanon 1975 - 76, London, I. B. Tauris, 2000; Theodor Hanf, *Co-existence in Wartime Lebanon - Decline of a State and Rise of a Nation*, London, I. B. Tauris, 1993; Samir Makdisi, *Financial Policy and Economic Growth - The Lebanese Experience*, New York, Columbia University Press, 1979; Kamal Salibi, *Crossroad to Civil War - Lebanon 1958-1976*, Beirut, Caravan Books, 1976; الأزمة اللبنانية الطوائف الدينية الطبقات الاجتماعية والهوية الوطنية، بيروت، دار الفارابي، 1998.

Georges Corm, 'Militia hegemony and the reestablishment of the State'. In Deirdre Collings, editor, *Peace for Lebanon?*⁴⁰⁹ From War to Reconstruction, Boulder, Lynne Rienner, 1994, pp. 216-218.

المبادرة السورية

في الأشهر الستة الأولى لحرب لبنان تواصل الصراع بين الميليشيات اللبنانية. فشعت سورية بأن استمرار المعارك في بيروت سيهدد أمنها الإقليمي خاصة مع اشتداد احتمال تدخل المقاومة الفلسطينية في القتال، وهي حليفها بوجه "إسرائيل". ورأت سورية في استحالة وقف المعارك في بيروت أن في الأمر مسعى إسرائيلياً لتوجيه الأنظار عن سيناء 2 عبر إشعال لبنان وإلهاء سورية وإضعافها. كانت الساحة اللبنانية مشتعلة منذ 1969 بين التنظيمات الفلسطينية المختلفة ومناصريها اللبنانيين من جهة والدولة اللبنانية وميليشيات مسيحية من جهة أخرى. ولكنها انفجرت بشكل واسع في 13 نيسان 1975 واستمرت معارك الجولة الأولى حتى مطلع الصيف مخلّفة آلاف الضحايا وأكثر من مليار دولار خسائر مادية واقتصادية. فكانت إيذاناً ببدء انهيار الدولة اللبنانية وتقسيم البلاد إلى كانتونات طائفية مختلفة وهيمنة الميليشيات.

ضغطت سورية لوقف إطلاق النار في بيروت في صيف 1975 ونجحت ولكن القتال كان يشتعل ويشد كل مرة. فأوفدت سورية وزير الخارجية عبدالحليم خدام ورئيس الأركان حكمت الشهابي وقائد سلاح الطيران ناجي جميل للتوسط بين القادة اللبنانيين ما أصبح يُعرف بـ"المبادرة السورية". وقام الثلاثة بجولات مكوكية بين أفرقاء الصراع لحث اللبنانيين على التوافق والوصول إلى حل سلمي للأزمة ووقف القتال. وكان خدام الأكثر انغماساً في هذه المحادثات، فسلمه الأسد الملقب اللبناني (ولقبه بعض اللبنانيين بـ"والي لبنان"). وأصبحت دمشق منذ الأشهر الأخيرة من 1975 محبّة المسؤولين، لبنانيين وفلسطينيين. حتى أن الأسد التقى القيادة الفلسطينية 14 مرة خلال 1975.

كان الأسد يرى أن سبب فشل اتفاقيات وقف إطلاق النار العديدة في بيروت هو أن الأزمة اللبنانية كانت تُدار من الخارج وأن جهات خارجية كانت تنفخ في النار كل مرة يلوح فيها الحل كي تُبعد أنظار العرب عما يحصل بين مصر و"إسرائيل". وكان المسؤولون السوريون يقضون الساعات الطوال في محادثات مع الأطراف اللبنانية والفلسطينية ويتنقلون في ظروف خطيرة من منطقة لبنانية إلى أخرى لترتيب اتفاق لوقف النار، الذي ما أن يصلوا إليه ويبدو أنه نجح حتى يقع حادث أو حوادث كإطلاق رصاص من هنا وخطف من هناك وانفجار من هنالك. وكان طابوراً خامساً متجولاً يريد أن لا يهدأ الوضع في لبنان.

ليس فقط في أن السي أي إيه كانت ضالعة في الأحداث بنظر الأسد وأن كمال جنبلاط قد شرح عن إنفاق المخابرات الأميركية مبلغ 250 مليون دولار لإشعال لبنان، بل إن "إسرائيل" كانت قد خرقت الساحة اللبنانية بعملائها وبحلفها مع الزعماء الموارنة الذي خرج إلى العلن عام 1976.

ثم أثمرت المبادرة السورية عن وثيقة دستورية أعلنها الرئيس سليمان فرنجية في شباط 1976 وكان لسورية دور كبير في صياغتها⁴¹⁰. ولكن الأوان كان قد فات، إذ إن الجيش اللبناني انقسم على ذاته وتحول ميليشيات متصارعة، ودخلت المقاومة الفلسطينية عسكرياً إلى جانب القوى اليسارية. التي بدأت دحر الميليشيات

E. Azar, *The emergence of a new Lebanon: Fantasy or reality*, New York, Praeger, 1984.⁴¹⁰

المسيحية ومحاولة دخول جونية، فيما أعلن كمال جنبلاط عن معركة "شاملة لا رجعة عنها" ضد القوى اليمينية. ورفضت سورية ضغط جنبلاط على الرئيس فرنجية ليستقيل وشجعت فرنجية على الصمود في موقعه. وعندما رأت أن الوثيقة الدستورية لم تؤدِ غرضها، شجعت عملية انتخاب مبكر لرئيس جمهورية جديد لعل ذلك يسهم في إعادة الاستقرار ووقف الحرب.

الميليشيات اليمينية

لعقود طويلة اعتاد اللبنانيون على أن تكون المارونية السياسية هي ربان سفينة الدولة، وذلك لخبرتها السابقة في إمارة الجبل وفي الجمهورية اللبنانية منذ تأسيس دولة لبنان الكبير عام 1920 وحتى الحرب اللبنانية عام 1975. ولكن باستثناء صلاحيات رئاسة الجمهورية واليد العليا في قيادة الجيش، لم يكن المواردية فعلاً يفرضون ما يشاؤون ومتى يحلو لهم. أما من ناحية النفوذ الاقتصادي فلم يكن الثراء والنشاط الاقتصادي مقتصرين على المواردية دون غيرهم. لذلك لا يُعقل أن يكون المواردية سوى خارق القوة لكي يكونوا السبب في كل ما حصل في لبنان، وإن كان دورهم شديد الأهمية بحكم موقعهم في الدولة.

هزّت حرب 1958 الدولة اللبنانية وأثبتت هشاشتها المبنية أساساً على توافق الزعماء ولم يكن قد مضى على الاستقلال أكثر من 15 عاماً. وجاءت حرب 1975 لتُجهز على هذه الدولة بسبب القاعدة الديمغرافية المتقدمة إلى التناغم الاجتماعي والاقتصادي وبسبب الوضع المتفجر دوماً في الشرق الأوسط. لقد تدارك زعماء المواردية أوضاعهم المهذدة والتقوا مراراً في نهاية الستينيات لتدارس التحديات. ورافق الاحتكاك بين المقاومة الفلسطينية والجيش اللبناني انفجار الوضع في لبنان ساهمت في إضرامه المنظمات اليسارية اللبنانية. وبدأ الاستقرار يتراجع وموقع المواردية يتهدد. واستطاع كمال جنبلاط تأليب جبهة واسعة متعددة الطوائف ضد الدولة والتركيبة السياسية القائمة.

في الستينيات، كان رئيس الجمهورية السابق كميل شمعون وزعيم حزب الكتائب بيار الجميل أبرز شخصيتين في طاقم زعماء المواردية. وكانت ميليشيا شمعون معروفة بـ"النمور الأحرار" (نسبة إلى نم شمعون والد كميل) منتشرة في الشوف وخاصة في الدامور ودير القمر وفي مناطق أخرى متفرقة من لبنان. في حين أقام شمعون نفسه في قصر السعديات جنوب بيروت. وكان حزب الكتائب أكثر تنظيمياً ولكن أضعف تسليحاً من شمعون.

في نهاية 1975 عُقد "لقاء قمة" ماروني في القصر الجمهوري في بعبدا مهّد في ربيع 1976 لولادة تجمّع "جبهة الكفور" الذي أصبح اسمه "الجبهة اللبنانية" في أيلول 1976. وكانت "الجبهة" برئاسة كميل شمعون وعضوية بيار الجميل وبشير الجميل والأبائي شربل قسيس (والأبائي بولس نعمان لاحقاً) وادوار حنين وأستاذي جامعة هما فؤاد أفرام البستاني والأرثوذكسي الوحيد شارل مالك.

وفي 25 آذار 1976 قامت الجبهة اللبنانية بتجميع قادة الميليشيات في مجلس حربيّ تنفيذيّ باسم "القوات اللبنانية" مثل الجناح العسكريّ الموحد "الجبهة اللبنانية". وسُمّي بشير الجميل قائداً لهذا المجلس في 30

آب 1976. وقدّر حجم ميليشيا "القوّات اللبنانيّة" بـ16 ألف مقاتل، جمعت أربع قوى تمثّل كلّ منها بـعضوين في الهيئة التنفيذيّة والكثائب أكبرها⁴¹¹. وضمت "القوّات اللبنانيّة" ميليشيا "الكثائب" وميليشيا "النمور الأحرار" (التابعة لـ"حزب الوطنيّين الأحرار" يقودها داني شمعون)، و"حرّاس الأرز" بقيادة اتيان صقر، و"التنظيم المارونيّ" بقيادة جورج عدوان.

في 1976 انقسم الجيش اللبنانيّ إلى ثلاثة أجنحة، أحدها بقيادة الملازم أحمد الخطيب باسم "جيش لبنان العربيّ"، والثاني باسم "طلائع جيش لبنان العربيّ" في البقاع والذي وقف إلى جانب التدخل السوريّ. أمّا الجناح الثالث وهو الأكبر وتركز في بيروت وجبل لبنان، فبقي موالياً لرئيس الجمهوريّة وقريباً من القيادات المارونيّة حيث كانت غالبية الجنود من المسيحيّين. وإذ قام ضابط موالٍ لأحمد الخطيب بقصف قرى مارونيّة في عكّار، انشقت احتجاجاً فئة اسمت نفسها "جيش لبنان" تضم وحدات بقيادة الرائد أنطوان بركات وعدد أفرادها 3500 جنديّ، ووقفت إلى جانب الميليشيا اليمينيّة.

أمّا "جيش التحرير الزغرطاوي لواء المردة" بقيادة طوني فرنجيّة نجل الرئيس سليمان فرنجيّة فلم يكن في صف "الجهة اللبنانيّة" بل أصبح من أعدائها. كما أنّ جهات وشخصيات مارونيّة كانت إما حياديّة أو مناوئة لسياسة "الجهة اللبنانيّة"، ومنها رمون إذّه عميد "حزب الكتلة الوطنيّة" الذي كان قريباً من كمال جنبلاط والزعامات السنيّة، ولم يؤسس ميليشيا وإن كان شديد العداء لممارسات الفلسطيّين في لبنان ومناهضاً لتدخل سورية.

كانت الميليشيا اليمينيّة واثقة من نجاحها ليس فقط في الدفاع عن الدولة اللبنانيّة بل في إلحاق الهزيمة بتكتل جنبلاط وحلفائه الفلسطيّين. وبعكس الرأي الذي كان سائداً، لم يكن حزب الكثائب يرغب في تقسيم لبنان بل اعتقدت قيادته أنّ نصراً حاسماً وسريعاً ضد قوى اليسار الضئيلة ستحمي النظام وتُبقي الوضع على ما هو. فحققت ميليشيا الكثائب انتصارات محدودة على الأرض في السنة الأولى من الحرب، كما أنّ مناطق هامة غرب العاصمة كانت تحت سيطرة الكثائب. وحتى ميليشيا "النمور" حققت إنجازات عسكريّة في السنة الأولى. إذ إنّ رجال شمعون سيطروا على الاوتوستراد الساحليّ جنوب بيروت حتى الجيّة وعلى مناطق متعددة في جنوب لبنان كالعيشيّة ومرجعيون. ولكن بعد هزيمة ميليشيا "النمور" في الشوف وساحله ولجوء كميل شمعون إلى شرق بيروت، أصبح آل الجميل هم القادة البارزون في المعسكر المسيحيّ.

في السنة الثانية للحرب تغيّرت استراتيجيّة الميليشيا اليمينيّة من الهجوم إلى الدفاع. وسعى بشير الجميل إلى "توحيد البندقيّة المسيحيّة والمناطق المسيحيّة". فكانت تصفية المخيمات الفلسطيّية والأحياء الإسلاميّة شرق بيروت على بشاعتها ودمويّتها وما أسفرت عنه من قتلى وجرحى وكوارث إنسانيّة، جزءاً من المواجهة العسكريّة. ولكن بدأت ثقة الموارنة تتضعف في بداية عام 1976، بعدما اتضح أنّه لا يمكن استعمال أجهزة الدولة الأمنيّة والعسكريّة لصالحهم في الحرب من دون تعريض هذه الأجهزة للانهايار. ففيما كانت ميليشيا "الكثائب" قادرة على ردع التكتل اليساريّ دق ناقوس الخطر دخول الفلسطيّين أرض المعركة وانهايار الجيش اللبنانيّ.

Joseph, Chami, *Days of Tragedy – Lebanon 1975-76*, Beirut, Arab Printing Press, 1978, p. 387.⁴¹¹

لفترة قصيرة من الزمن بدا لكمال جنبلاط والتكتل اليساري الذي قاده بأنهم اقتربوا من بلوغ هدفهم. فخلال ثلاثة شهور (آذار إلى حزيران 1976) سيطروا على أكثر من 82 في المئة من الأراضي اللبنانية. وكان جنبلاط ينتظر في شهر أيار 1976 في منزله في حي المصيطبة ببيروت، القيادة المارونية لتزوره معلنة موافقتها على برنامج "الحركة الوطنية" للإصلاح. ولكن هذا الإنجاز انتهى بسرعة بعد تدخل سورية بدعم سعودي ودولي لحفظ النظام اللبناني وضرب التحالف اليساري اللبناني الفلسطيني.

وفي شباط وآذار 1976 أنهت قوى التحالف الوجود العسكري للميليشيا اليمينية في غرب بيروت، وباتت متحفزة للهجوم ضد المناطق المسيحية في جهات متعددة. وفي ربيع 1976، أعلنت ميليشيا التحالف عن سيطرتها على "82 في المئة من الأراضي اللبنانية". وبدأت بهجوم عسكري في الجبل للالتفاف على كسروان وعمق المناطق المارونية. ففتحت معارك في الجبل للوصول إلى بكفيا وبدأت تقصف جونيه، في حين صرح أبو أياد (صلاح خلف) أحد القادة الفلسطينيين "أن طريق فلسطين تمر في جونيه".

وأمام احتمال انهيار صمود القوى اليميني، قررت سورية في 31 أيار 1976، التدخل العسكري الواسع لدعم حكم رئيس الجمهورية سليمان فرنجية. وفي يوم واحد دخل لبنان 6000 جندي سوري انضموا إلى آلاف آخرين سبقوهم في الأشهر السابقة، وألفي جندي من لواء حطين الفلسطيني و7000 مقاتل من منظمة الصاعقة الفلسطينية الموالية لسورية وألف مسلح من التنظيمات اللبنانية الموالية لسورية. وكان التدخل السوري الواسع في لبنان نقطة تحول هامة في الحرب اللبنانية وضعت نهاية لانتصارات ميليشيا التحالف الفلسطيني - اللبناني المتتالية خلال فترة آذار إلى حزيران 1976، ورجحت كفة الميليشيا اليمينية التي استعادت المبادرة.

في 3 حزيران وصلت الدبابات السورية إلى مثلث خلدة جنوب بيروت، فارضة الحصار على المناطق الغربية التي تسيطر عليها القوات المشتركة، رغم أن اليوم السابق شهد لقاءً بين قائد الميليشيا اليمينية بشير الجميل وكمال جنبلاط في منزل الأخير غرب بيروت.

وأسفر التحرك السوري عن إحكام الطوق على الشطر الغربي من العاصمة: من الشرق بحكم خطوط المواجهة مع الميليشيا اليمينية، ومن جهة البحر حيث السفن الإسرائيلية المعادية، ومن جهة الجنوب حيث الجيش السوري.

التدخل السوري عسكرياً

بعد 13 شهراً من بداية الحرب اللبنانية وفي ليل 31 أيار 1976، بدأت سورية تدخلها العسكري الواسع في لبنان بإرسال فيالق مدعمة عدّة شمالاً من جهة عكار، ولكن خاصة شرقاً من جهة البقاع حيث تمكنت من لجم الميليشيات اللبنانية والتنظيمات الفلسطينية هناك.

كان السوريون يتجنبون إلحاق الأذى بقوى التحالف ويسعون للتخفيف قدر الإمكان من احتمال سقوط قتلى، ولكن لم يتبع جنبلاط وعرفات هذا الأسلوب بل قررا استعمال الحزم، ما أفسد التوغل النظيف. فقد

اشتبكت قوى التحالف مع الجيش السوري على طول خط بيروت - دمشق وتقهقرت من ظهر البيدر فصور فبحمدون، وكذلك في الطرق المؤدية إلى صيدا وعند سفح جبل الشيخ وفي منطقة العرقوب وفي طرابلس. تمكن الجيش السوري من قطع خطوط إمدادات قوى التحالف براً وبحراً وجواً ورفع الحصار عن زحلة وقرى مسيحية في البقاع ووقف حرب الجبل ومحاصرة المعقل الكبرى لقوى التحالف، حتى انقلب الوضع في لبنان. إذ خلال أسابيع بات الجيش السوري يسيطر على 66 في المئة من مساحة لبنان على حساب قوى التحالف. فاستعادت القوى اليمينية المبادرة وسيطرت على المتن والكورة وشدّت الحصار على مخيم تل الزعتر المعقل الأهم لجبهات الرفض الفلسطينية⁴¹². ومع سقوط تل الزعتر بلغ الحقد الفلسطيني على سورية مداه. فكان حزيران 1976 بداية أكثر من ثلاثين عاماً من وجع الرأس لسورية في الملف اللبناني.

لقد تحوّل التدخّل العسكري الذي أرادته دمشق هادئاً ومنظماً إلى مأسّ دامية لم يستسغها الرأي العام العربي، وبات تدخّل سورية عملاً مذموماً لأنه كان ضد المقاومة الفلسطينية واليسار اللبناني المؤمن بالقوميّة العربيّة، لصالح زعماء موارنة لا يؤمنون بالعروبة وفيهم من يتعامل مع "إسرائيل" عدوة العرب. ولم يقتصر الحنق على سورية على الشارع العربي، بل وصل إلى الحكومات فصّب العراق ومصر الزيت على النار ضد التدخّل السوري، واشتعلت الحرب الإعلاميّة داخل لبنان وخارجه ضد دمشق. وانقلب تدخّلها لنجدة المسيحيين العرب ووقف الحرب الأهليّة في لبنان وإعادة الرشد إلى المقاومة الفلسطينية، إلى جهد غير ممنونٍ ستكون له انعكاسات شديدة السلبية داخل سورية نفسها.

خفّف الغزو السوريّ الضغط عن الميليشيا المسيحيّة في بيروت. فبادرت هذه الأخيرة إلى اقتحام ما تبقى من مناطق إسلاميّة لبنانيّة وفلسطينيّة محصّنة في شرق بيروت وشمالها والتي أصبحت جزراً معزولة في محيط تسيطر عليه الميليشيات المسيحيّة تماماً (النبعة وتل الزعتر وجسر الباشا). أمّا مخيم تل الزعتر الذي كان محاصراً منذ كانون الأول، أي قبل 119 يوماً، فقد صمد لمدة 52 يوماً إضافياً أمام هجوم كبير استعملت فيه المدافع الكبيرة والدبابات بشكل كثيف، خاصة أنّ مساحته لم تتجاوز بضعة ملاعب كرة قدم. وبسقوط النبعة، فقد تل الزعتر سنده الأقوى شرق بيروت وبات المعقل الوحيد الذي صمد طويلاً أمام الميليشيا المسيحيّة. وبعد سبعة أسابيع من الحصار والقصف والمعارك وغياب الماء والكهرباء والطعام، بلغ عدد القتلى والجرحى داخل المخيم الآلاف، ولم يطل صمود تل الزعتر كثيراً إذ دخلته الميليشيا المسيحيّة في 12 آب. ثم أعلنت هدنة في بيروت سمحت لشاحنات "قوات الأمن العربيّة" (التي أقرتها جامعة الدول العربيّة) نقل من تبقى من سكان المخيم الذي تعرّض لكارثة بشرية ومجزرة قتلت 3000 مدني لبنانيّ وفلسطينيّ. وتحدّثت التقارير عن تهجير 5000 آلاف شخص ممن بقوا في تل الزعتر و30 ألفاً من النبعة. وبعد ذلك الصيف وقد اتخذت المجازر والمجازر المضادة منحى بشعاً، استمرّت الحرب اللبنانيّة 15 سنة.

ورغم هزيمة اليسار تلك فقد كانت حرب السنتين لحظة اعتراف بالنسبة للزعماء الموارنة إلى درجة أنّ فكرة الفدرالية أو الكونفدرالية وُضعت على طاولة البحث لفترة موازاة ضرورة تحصين الكانتون المسيحيّ.

A.J. Odeh, *Lebanon: Dynaics of conflict, a modern political history*, London, Zed Press, 1985.⁴¹²

ولمواجهة التحالف اليساري اللبناني - الفلسطيني، وافق قادة الجبهة اللبنانية على التحالف مع أي كان ليساعدهم على الصمود حتى لو كان حلفاً مع الشيطان⁴¹³، وحتى "إسرائيل". ويذكر جوزف أبو خليل أن العام 1976 شهد قيام "علاقة ولا أجمل بين المسيحيين اللبنانيين وسورية، هذا على رغم الجسور الممدودة بين هؤلاء و"إسرائيل" منذ ما يقارب الستة أشهر. والصحيح أن العلاقة مع الدولة اليهودية لم تكن بعد قد تخطت حدّ التزوّد بالذخيرة والسلاح، كما لم تكن بعد قد أخذت أي منحى سياسي⁴¹⁴.

في أول أيلول 1976، زار الرئيس اللبناني الياس سركيس دمشق والتقى الأسد ومما قاله له: "إنك تحمل حملاً ثقيلاً بسبب المسيحيين ولا سيما الموارنة. وآمل أن يقابلوا صنيعك بمزيد من الإيمان بالعروبة. إنني ماروني ومؤمن بعروبة لبنان ولكني ألاحظ أن الموارنة وهم أصحاب الحركة الأولى في العروبة خلال القرن التاسع عشر، بيتعدون عنها تدريجياً ويتحولون من مدافعين عنها إلى خائفين منها ومرتدين عنها. والسبب أن العروبة أصبحت مرادفة أكثر فأكثر للإسلام... ولكن بفضلك أنت حتى رجل كبير مثل بيار الجميل اكتشف أنه عربي... لقد صالحت بين المسيحيين والعروبة وهذه خدمة عظيمة تُسديها إلى المسيحيين والعروبة معاً... نحن نعي مدى الصعوبات التي تتحملها من جراء تحالفك مع الجبهة اللبنانية لدرجة أن بعض المشايخ المسلمين يردّون في الجوامع: قبلناك يا حافظ علويّاً في الحكم ولكن لن نقبلك مارونيّاً".

فضحك الأسد وقال: "شايف؟ الخبر وصل حتى ع لبنان. بسبب اللبنانيين ما عاد فينا نكتم سرّ في سورية"⁴¹⁵. وأطلع الأسد سركيس على أنه استدعى رجال الدين في سورية إلى اجتماع: "أوضحت لهم أن التدخل السوري في لبنان لا يرمي إلى تأييد الموارنة ضد السنّة بل لإفشال المؤامرة المدبّرة ضد الإسلام والمسيحية معاً، وضد سورية ولبنان أيضاً. وبيّنت لهم أن الخطر الذي يهدّد الإسلام يأتي من الشيوعيين المسيحيين وحلفائهم الذين يتاجرون بالإسلام كبقول الشاوي وجورج حاوي وإنعام رعد". وشرح الأسد لسركيس أنه في خطابه يوم 20 تموز 1976 شرح ظروف الدخول إلى لبنان وكّرر ما قاله إلا أن رجال الدين "ما زالوا يبدون بعض الملاحظات على موقفنا من المسلمين في لبنان بسبب الطابع الطائفي الحاد الذي اتخذته الاقتتال هناك"⁴¹⁶.

نهاية حرب السنتين

بعد زيارة سركيس وفي نهاية أيلول 1976 قام الجيش السوري بهجوم شامل فضعفت مواقع القوات المشتركة وحوصر معظمها في غرب بيروت. وكان الاقتتال السائد أن "إسرائيل" وأميركا قد سمحتا لسورية بالتوغّل في لبنان ولكن ليس في جنوبه. وفي أواخر 1976، قال الأسد لوفد من الجبهة اللبنانية ضم أمين الجميل وجورج سعادة وإدمون رزق وداني شمعون وكريم بقرادوني: "لا تهتموا بالخط الأحمر الذي يتحدّث عنه الأميركيون

⁴¹³ ذكر هذه الكلمات كميل شمعون عام 1976 للإشارة إلى طلب المساعدة من "إسرائيل". وكان في هذه العبارة يكرّر ما قاله ونستون تشرشل عندما كانت لندن تتعرّض للغارات الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية.

⁴¹⁴ جوزف أبو خليل، ص. 60.

⁴¹⁵ كريم بقرادوني، السلام المفقود، ص. 34.

⁴¹⁶ كريم بقرادوني، السلام المفقود، ص. 36.

والإسرائيليون.. في بدء العام 1976 حذرتني الولايات المتحدة ونصحني الاتحاد السوفياتي ألا أجتاز الحدود اللبنانية في المصنع. فالخط الأحمر كان في المصنع. اجتزنا المصنع فحدّثونا عن خط أحمر جديد في صوفر. ولما تجاوزنا صوفر حدّدوا لنا بيروت على أنّها الخط الأحمر الجديد. والآن بعد انتشارنا في بيروت يتكلّمون عن النبطية وعن الليطاني كخط أحمر⁴¹⁷.

بنت سورية على إخمادها الحرب في لبنان، فشارك الأسد في قمة عربية مصغرة في الرياض في تشرين الأول 1976 وحصل على تشريع عربي ودعم مالي لتكون سورية القوة الرئيسية في قوات ردع عربية تضمّ دولاً عدّة. فعادت قوى المقاومة الفلسطينية إلى المخيمات مؤقتاً وقمّعت ميليشيات اليسار اللبناني⁴¹⁸. وفي قمة موسعة في القاهرة في 25 تشرين الأول، بدا وكأنّ الأجواء قد هدأت بعد عام من اتفاقية سيناء 2 التي تكرّست بين مصر و"إسرائيل". فتصالح الأسد والسادات وأبدى السادات مرونة وتعاوناً مع سورية في الملف اللبناني بعدما كان يندّد بالتدخل السوري مرات عدّة في الأسبوع (بعبارة الشهيرة "إرفعوا أيديكم عن لبنان"). وفي 16 تشرين الثاني 1976، دخلت قوات الردع غرب بيروت واختفى المسلّحون عن الطرقات وأقفلت مكاتب الأحزاب وعادت الحركة التجاريّة والمدنيّة. فأسدل الستار على الرحلة الأولى من حرب لبنان المعروفة بـ"حرب الستين"⁴¹⁹.

حاول سركيس بعد ذلك التوسّط لكمال جنبلاط لدى الأسد في لقاءات ثنائية، ولكن الأسد كان شديداً في رفضه إعطاء دور لجنبلاط في لبنان. حتى أنّ خدام قال لفيّاض بطرس في 26 تشرين الثاني 1976: "لقد أهان جنبلاط الأسد وحاول قلب الحكم في سورية. إنّهُ قد هُزم ويجب أن يُعامل على هذا الأساس ولن نقبل أن نحبيه. وعندنا تجربة مماثلة مع أكرم الحورانيّ الذي رغم أنّه كان أنظف من جنبلاط وأكثر وطنيّة فهو انتهى مواطناً عادياً"⁴²⁰.

كان جنبلاط يدرك أنّ سورية لن ترضى عنه أبداً وأنّ الأسد كان يقول لزاثيره "إنّ كمال جنبلاط رجل متهوّر وخطير، أخطر من كميل شمعون وكل الآخرين وسيجرّنا إلى حرب مع "إسرائيل"⁴²¹. شرح جوزف أبو خليل، في عرضه لأسباب لجوء الميليشيا المسيحيّة إلى طلب السلاح والمساعدة من "إسرائيل"، نظرة الرئيس حافظ الأسد إلى كمال جنبلاط: "الحقيقة تقال إنّ خطاب الرئيس الأسد التموزي الشهير (20 تموز 1976) نزل على الأوساط المسيحيّة نزل قطرات الندى على تربة أرضها الجفاف. ولو قال الرئيس السوريّ ما قاله في الخطاب المذكور قبل أشهر قليلة وقرن القول ببعض الأفعال، لما كان هناك اتصال بين التنظيمات المسيحيّة و"إسرائيل". وبعدهما روى الأسد ما كان بينه وبين كمال جنبلاط من كلام عن الحسم

⁴¹⁷ كريم بقرادوني، السلام المفقود، ص. 84.

⁴¹⁸ Sam Younger, "The Syrian stake in Lebanon", *World Today*, vol. 32, no. 11, November 1976, pp. 399 - 406.

Sam Younger, "After the Cairo Summit", *World Today*, vol. 32, no. 12, December 1976, pp. 437 - 440.

Adeed Dawisha, *Syria and the Lebanese Crisis*, London, Macmillan, 1980.⁴¹⁹

⁴²⁰ كريم بقرادوني، السلام المفقود، ص. 76-77.

⁴²¹ 7 Kamal Joubblatt, *I speak For Lebanon*, London, Zed Books, 1982, p. 1

العسكريّ وكيف أن جنبلاط أصرّ على هذا الحسم وقال للأسد: "خلّونا نُؤدّبهم. لا بد من الحسم العسكريّ، فمئذ مئة وأربعين سنة يحكموننا، بدنا نتخلّص منهم". (ويضيف الأسد): ثم أن الحسم العسكريّ بهذه الطريقة سيفتح الأبواب على مصاريحها لكل تدخّل أجنبيّ وخاصة التدخّل الإسرائيليّ. ولنتصوّر جميعاً حجم المأساة التي يمكن أن تنتج إذا تدخّلت "إسرائيل" وأنقذت بعض العرب من بعض العرب الآخرين"⁴²².

حاولت سورية إزاحة ياسر عرفات عن قيادة منظمة التحرير واستبداله بخالد الفاهوم، رئيس المجلس الوطنيّ الفلسطينيّ (برلمان فلسطين في المنفى)، وهو مقيم دائم في دمشق. ولكن عرفات نجح في التهرّب من ضغط سورية وفي تعزيز علاقاته مع دول عربيّة أخرى فلم يتأذّ كثيراً. أمّا جنبلاط فقد اغتيل في طريق المختارة في 16 آذار 1977، والتفّ الدروز بصورة غير مسبوقة حول البيت الجنبلاطي الذي قاده ابنه وليد جنبلاط⁴²³. فزار وليد دمشق والتقى الأسد، وورث أيضاً رئاسة الحركة الوطنيّة اللبنانيّة التي ضعفت كثيراً وتلاشت. ولاحقاً شرح وليد مواقف والده بأنّه "تلقّى نصحاً خاطئاً في صيف 1976 أن انقلاباً هو قيد التحضير في دمشق، واعتقد أنّه مهاجمته "القيادة العلويّة" في سورية سيؤثّر في استقرار النظام. ولكن كل ما فعله هو توقيع اسمه على مذكرة قتله".

في منتصف 1976 نجحت سورية في الحفاظ على النظام الطائفيّ اللبنانيّ وأنقذت المسيحيّين وكفّت يد الفلسطينيّين وأنهت نفوذ اليسار اللبنانيّ. ولكن هدفها الأهم - أي منع "إسرائيل" من التدخّل في لبنان كما قال حافظ الأسد مراراً - لم يتحقّق. ذلك أن "إسرائيل" كانت قد تغلّغت في لبنان فعلاً وأصبحت لاعباً رئيسياً بارزاً بدعما لأحزاب "الجبهة اللبنانيّة". فدخلت الأسلحة والمعدات الإسرائيليّة عبر مرفأً جونية وأقامت "إسرائيل" "الجدار الطيب" في جنوب لبنان في تموز 1976 أي بعد خمسة أسابيع من دخول الجيش السوريّ لبنان، وفتحت بوابات حدودية عدّة للمدنيين أبرزها "بوابة فاطمة" في كفر كلا وسمحت لدورياتها بدخول المناطق الحدودية. ومع شرعنة الدول العربيّة للقوات السوريّة في تشرين الأول 1976، عمّقت "إسرائيل" نفوذها بموجب الخطوط الحمر وخلقت دويلة في جنوب لبنان بقيادة الرائد سعد حداد المنشق عن الجيش اللبنانيّ.

لقد ابتعد الموقف السعوديّ عن سورية منذ مقتل الملك فيصل الذي كان قريباً من الأسد عام 1975. فكان التدخّل العسكريّ السوريّ في لبنان في حزيران 1976 فرصة للرياض والعراق ومصر لتبتعد أكثر وتخفّف ارتباطاتها مع سورية. وللسعوديّة أن تقلّص دعمها الماليّ لسورية وتنصح الملك حسين أن لا يتقرّب كثيراً من سورية.

⁴²² جوزف أبو خليل، قصة المواجهة في الحرب، بيروت، شركة المطبوعات، الطبعة الثالثة، ص. 59.

⁴²³ "حرب لبنان"، عمر العيساوي، قناة الجزيرة، حلقة 3، 2000.

إدارة جيمي كارتر

كانت سورية تحتاج إلى اعتراف أمريكيّ بالدور الإقليميّ الذي سعت إليه مقابل أن تكون شريكاً لأميركا في السلام وعامل استقرار في المنطقة. ووافق دور سورية في إنهاء "حرب الستين" في لبنان لصالح الغرب والاعتدال العربيّ، فوز جيمي كارتر عن الحزب الديمقراطيّ في انتخابات الرئاسة الأميركيّة في تشرين الثاني 1976.

وأملت سورية أن تكون سياسة الرئيس الجديد أكثر توازناً من سياسة كيسنجر وبعث الأسد رسالة تهنئة إلى كارتر ذكر فيها استعداد سورية للسلام مقابل انسحاب "إسرائيل" إلى حدود 1967 وإنصاف القضية الفلسطينية. وكان كارتر في عامه الأول يريد أن يجد حلاً للصراع في المنطقة ويتعاطف مع معاناة الشعب الفلسطينيّ، ووزير خارجيته سايروس فانس من الرأي نفسه ويريد أيضاً أن يغيّر خط كيسنجر الذي جعل أميركا مكروهة في المنطقة العربيّة التي لم يكن أبه لمشاعر شعوبها وكأنّها أحجار على رقعة شطرنج يلعب عليها مع موسكو. فقد دفعت سياسة كيسنجر دولاً عدّة إلى أحضان السوفيات ومنها سورية. وعيّن كارتر أيضاً مستشاراً للأمن القوميّ هو زبغنيو بريجنسكي الذي حتّ عام 1977 على توازن العلاقة مع "إسرائيل" بتعاطف أكبر مع العرب.

وأعلن كارتر قضية الشرق الأوسط على رأس أولويات إدارته، وعزم على التوصل إلى حلّ عبر مؤتمر في جنيف يقوم على انسحاب "إسرائيل" إلى حدود 1967 مقابل السلام وخلق وطن للفلسطينيين. وهذه كانت المرّة الأولى التي يتحدّث فيها رئيس أمريكيّ عن دولة للفلسطينيين. وأمل كارتر أن تشرع واشنطن في حوار مع منظمة التحرير كما أنهى احتكار "إسرائيل" لصداقة أميركا والمعاملة الخاصة في شؤون التسلّح. وأحدثت مواقف كارتر صدمة في "إسرائيل" التي كانت تعيش أفضل العلاقات مع أميركا منذ عشر سنوات. فدقّت أجراس الخطر في تل أبيب بأنّ الإدارة الجديدة تسعى إلى سلام حقيقيّ في المنطقة ينزع الجولان والضفة الغربيّة وسيناء من يد "إسرائيل"، وإلغاء الاتفاقات والتعهدات الأميركيّة لـ "إسرائيل" وخلق دولة فلسطين. وفوق ذلك، القضاء على دبلوماسية كيسنجر التي سعت إلى سرقة مصر من العرب وضمّها إلى المحور الأميركيّ - الإسرائيليّ.

جاء كارتر إلى الحكم في مرحلة متقدمة من مشروع كيسنجر بين مصر و"إسرائيل". فكان ذلك كابوساً أقوى من أي تحدّ شكّله العرب ضدها منذ 1948، وعزم الإسرائيليّون على ترويض كارتر وتأديبه ليسير حسب مشيئتهم. وبدأت خطوتهم الأولى بزيارة رئيس الوزراء اسحاق رابين لواشنطن للقاءه. وكان رابين سفيراً لـ "إسرائيل" في واشنطن لمدة تسع سنوات ويُعتبر عراب التقارب بين "إسرائيل" والولايات المتّحدة، ولذلك كان غضبه من تصريحات كارتر شديداً، حيث نظر إليه كدخيل خطر على العلاقة الحميمة بين "إسرائيل" وأميركا ولا بد من فرك أنفه كي يكفّ عن مضايقة "إسرائيل".

وإذ رفض الأسد الحضور إلى واشنطن، أبدى كارتر تفهماً ووافق أن يلاقيه في جنيف، ما زاد غضب الإسرائيليين مما اعتبروه انقلاباً في تعامل أميركا مع سورية وتقرّبها من الأسد، بعدما كان كيسنجر قد عزل سورية. والتقى الأسد بكارتر في جنيف في 9 أيار 1977، وعقد حواراً مراثونياً استمرّ سبع ساعات، وقدّم الأسد شرحاً تفصيلياً إذ أنه كان يعتقد أنّ السياسيين الغربيين لا يملكون معلومات وافية وصحيحة عن الصراع وأنّ مستشاريهم وخاصة في أميركا يقدمون معلومات خاطئة ومنحازة لـ"إسرائيل" تشوّه الموقف العربي. وأعجب الأسد بصراحة وصدق الرئيس الأميركيّ وعلى ضرورة الانسحابات الإسرائيليّة. ثم طلب من كارتر أن يوضح ما يمكن أن يتوقّعه الفلسطينيون كحل نهائي، وهل من ضمانات لمنح الفلسطينيين الضفة وغزّة لإقامة دولتهم ولعودة مليون لاجئ إلى بيوتهم داخل "إسرائيل" نفسها. ولكن كارتر كان ملتزماً بالإطار الدبلوماسي الذي وضعه كيسنجر الذي يقضي باستشارة مسبقة لـ"إسرائيل" على أي خطوة نحو العرب، وأنّ على الفلسطينيين أن يعترفوا بـ"إسرائيل" وبالقرار 242 قبل أن توافق أميركا على الحوار معهم. ولذلك بدل أن يساعد كارتر الأسد كما كان الرئيس السوري يتوقع، أخذ هو يطلب من الأسد أن يساعده لإقناع عرفات بأن يعترف بـ"إسرائيل" وبهذا يسهّل على واشنطن فتح حوار مع الفلسطينيين. وانتهت محادثات الأسد - كارتر عند هذا الحدّ.

فاتضح لسورية أنّ شبح كيسنجر لا يزال نافذاً في الإدارة الأميركيّة. وفي الحقيقة لم يكن كارتر صادقاً بتدّعه بالتزام سياسة كيسنجر. إذ لم يكن ثمة مانع قانوني أو رادع أمام كارتر لكي يتجاوز سياسة كيسنجر، لو شاء ذلك، سوى ضغط اللوبي الصهيونيّ والمصالح الانتخابيّة. وحاول سايروس فانس في الأشهر التالية الحصول على اعتراف فلسطيني بـ"إسرائيل" دون أن يقدم أي تعهد أميركيّ بإعطائهم مقعداً في مؤتمر جنيف، ولم يشر فانس لا من قريب ولا من بعيد إلى دولة فلسطينيّة. وكانت منظمة التحرير طيلة 1976 تعمل للحصول على رضی أميركا وفتح حوار معها.

مشروع "إسرائيل" الكبرى

في عام كارتر الأول، كانت دول عربيّة عدّة تلتقي مع المواقف الإسرائيليّة: فمصر السادات لم ترغب في أن تفتتح أميركا على سورية لأنّ ذلك يعرقل مشروعها هي مع "إسرائيل". والأردن لم يرغب في أن تعترف واشنطن بمنظمة التحرير لأنّ حسين هو الذي يمثّل الضفة وليس عرفات. وبقي الأسد بعيداً ومجهولاً لدى النافذين في الإدارة الأميركيّة رغم لقائه اليتيم مع كارتر، بعد سنوات من انقطاع العلاقات (1967 - 1974) ومرحلة كيسنجر الصعبة (1974 - 1976). فلكيت أصوات الآخرين آذاناً صاغية في واشنطن أكثر من صوت سورية. أنّ الضغط الإسرائيليّ على إدارة كارتر سريعاً بعد لقاء الأسد - كارتر. إذ في أيار 1977، حصلت انتخابات إسرائيلية أدت إلى انقلاب خطير. ذلك أنّ حكومة حزب العمل الضعيفة التي يقودها رابين خسرت الانتخابات

لأول مرة منذ نشوء "إسرائيل" أمام تكتل ليكود اليميني الذي يقوده منحيم بيغن. وسابقاً كان بيغن وتنظيمه على هامش الحياة السياسية الإسرائيلية لتطوّر عقيدته المرعب في التوسّع العسكري والاستيطان.⁴²⁴ كان بيغن قد أسس حزب حيروت بعقيدة عنصريّة متشدّدة لإقامة "إسرائيل الكبرى"، فنّدت به شخصيات يهودية في "إسرائيل" وخارجها، كألبرت أينشتاين وحنّة أرندت التي اعتبرت "تنظيمه وأساليبه وفلسفته السياسيّة والعناصر التي يجذبها في المجتمع نسخة عن الأحزاب الفاشية والنازية في أوروبا"⁴²⁵. وعزلته الأحزاب الأخرى وأصبح منبوذاً في الحياة السياسيّة الإسرائيليّة. ولكن في 1965 نجح في تحالف مع أحزاب صغرى يمينيّة بالفوز بمقاعد في الكنيست. وافتتح علاقات مع جنرالات في الجيش يبادلونه عقيدته العنصريّة والتوسّعية ويرغبون في احتلال الضفة وغزّة، كموشيه دايان وديفيد بن البعازر. فقاموا بانقلاب ضمّني على إشكول في حزيران 1967، كما سبقت الإشارة وشكّل إشكول حكومة جديدة ضمّت هؤلاء العسكريين ومعهم بيغن وزيراً. وإذ احتل الجيش الإسرائيليّ الضفة الغربيّة وغزّة، نشط بيغن لجعل هذه الأراضي جزءاً من دولة "إسرائيل" واستيطانها وطردها سكانها الفلسطينيّين. ثم انسحب من الحكومة عام 1970 عندما وافقت غولدا مئير على مبادرة روجرز للسلام التي تضمّن احتمال انسحاب "إسرائيل" من الضفة، وبدأ يعمل مع الجنرال آرييل شارون، وهو من كبار الصقور العسكريين الذين يريدون قتال العرب واحتلال أراضيهم بدون هواده. وأسّس الاثنان تكتل ليكود عام 1973 الذي ضمّ أحزاباً يمينيّة متطرّفة بغية خوض الانتخابات والعمل السياسيّ.

في أيّار 1977، حقّق الليكود نصراً مبيّناً على حزب العمل الذي حكم "إسرائيل" منذ 1948، وأصبح بيغن رئيس الوزراء. وكان أول عمل قام به هو إزالة صورة بن غوريون من مكتب رئيس الوزراء وتعليق صورة جابوتنسكي مكانها. ثم وضع نصب عينيه تدمير مسعى كارتر للسلام الذي يهدّد بتقزيم "إسرائيل" إلى حدود 1967 وإقامة دولة فلسطينيّة إلى جانبها، بينما هو يريد التوسّع وهضم الأراضي ومهاجمة دول المشرق الثلاث: سورية والأردن ولبنان. وكان إلى جانبه موشيه دايان كوزير للخارجية الذي لا يقلّ عن بيغن عنصريّة وتطرّفاً. وبدأت حكومة ليكود حملتها ضد كارتر بإطلاق تصريحات نارية تتحدّى مشروعه وأفكاره، تساعدها

⁴²⁴ وُلد بيغن في بولندا عام 1913 وهناك انتسب إلى منظمة بيتار Betar التي أسّسها جابوتنسكي تشبهاً بالنازية من حيث اللباس والقمصان البنية والسلوك العسكري، ثم هاجر إلى فلسطين أثناء الحرب العالميّة الثانية عام 1942. وسرعان ما تولّى زعامة عصابة إرغون Irgun التي تتبنّى عقيدة جابوتنسكي عام 1943 وقاد عمليّات اغتيال ضباط إنكليز وعمليات قتل وسرقة ضد المدنيّين الفلسطينيّين. ففجّر مركز قيادة الجيش البريطانيّ في فندق الملك داود في القدس في حزيران 1946 وارتكب مجازر ضد الفلسطينيّين الأمنيين وإحداها مجزرة دير ياسين في نيسان 1948. وقاد بيغن إرغون ضد ميليشيا الهاغانا Hagana التابعة لحزب العمل بقيادة بن غوريون، فوقعت اشتباكات عدّة بين الجانبين انتصرت فيها الهاغانا وأصبحت جيش "إسرائيل" الرسميّ. فقام بن غوريون من منصبه كرئيس وزراء "إسرائيل" بتجريد سلاح إرغون ما جعله وحزبه أعداء بيغن إلى الأبد. وكان بيغن تلميذ المهاجر اليهودي الروسي فلاديمير جابوتنسكي (1880 - 1944) الذي وضع تفسيراً يمينيّاً متطرّفاً للعقيدة الصهيونيّة. وشابه تفسير جابوتنسكي في تفاصيله العقيدة النازية، اعتبر فلسطين وجوارها "فضاءً حيويّاً" لليهود، وقضى بتحفيظ الهجرة اليهودية من أوروبا إلى فلسطين ولو بالقوّة واستيطانها وطردها سكانها العرب بقوّة السلاح وإنشاء عصابات مسلّحة وارتكاب المجازر بحق المدنيّين الفلسطينيّين، وطرده العرب من فلسطين ومن الأردن واعتبار ضفتي النهر فضاءً حيويّاً لـ "إسرائيل" الكبرى. وأنّ أمن "إسرائيل" لن يكون عبر مساومات مع الدول العربيّة ولا بحلول سلميّة، بل عبر قوّتها الذاتية العسكريّة وعبر إقامة جدار حديدي، ولكنها لن تبقى خلف الجدار بل ستستعمل الحرب باستمرار سياسة قومية للتوسّع وغزو الآخرين وليس للدفاع وحسب.

أجهزة إعلامية أميركية وجماعات ناشطة داخل أميركا نفسها. ولم يخل الأمر من إهانات مباشرة لكارتر ورجاله وعبارات خالية من اللياقة الدبلوماسية. وكان هدف "إسرائيل" إعادة كارتر إلى بيت الطاعة الإسرائيلي ليُعترف بحقها في الفيتو على أي تحرّك أميركي سلمي.

عندما اجتمع كارتر ببيغن في تموز 1977 كان أسلوب الأخير جافاً وصلباً حيث نعت وجه الرئيس الأميركيّ بأنه (cream puff) منتفخ كقطيرة الكريمة). فكان كارتر يتكلّم عن احتمال مشاركة وفد فلسطيني في مؤتمر جنيف ليردّ بيغن بلوّم أنّه لا يريد أن يسمع هذا الكلام مرّة ثانية. وإذا تحدّث كارتر عن القرار 242 والانسحاب من الضفة الغربية، ردّ بيغن أنّ هذه أرض محرّزة للشعب اليهودي وأنّ اسمها هو "اليهودية والسامرة" وليس الضفة. وإذا طلب كارتر وقف النشاط الاستيطانيّ تمهيداً للمفاوضات، فاجأه بيغن بمشروع استيطان جديدة. ثم أخذ بيغن ودايان يطلبان بعناية ووقاحة من كارتر وفانس الالتزام بتعهدات كيسنجر وما وقّعه الجانبان من اتفاقات. وطلباً أنّ يكف الأميركيّون عن إطلاق تصريحات قبل أن يستشيروا "إسرائيل". عمل اللوبي اليهودي عمله أيضاً فكان يزجج البيت الأبيض ويضايق الإدارة الأميركية بشكل يومي ويُشعر الرئيس الأميركيّ وكأنّ ثمة حرباً تتفجّر تحت سريره. وأخيراً انكسرت شوكة كارتر وبدأ يتراجع عن مشاريعه السلمية ويرضخ لمطالب "إسرائيل". ولكنه كان يريد عقد مؤتمر للسلام على الأقل فأعدّ بياناً مشتركاً مع الاتحاد السوفياتيّ يعلن عزم الجبارين كرئيسي مؤتمر جنيف الأول على عقد مؤتمر ثانٍ. واحترمت واشنطن شرط كيسنجر ضرورة استشارة "إسرائيل" فشاركتها مسودة هذا الإعلان في 28 أيلول 1977، ما أعطى تل أبيب 48 ساعة لمحاربته. فقد أرسل دايان مسودة الإعلان إلى اللوبي اليهودي لبدء حملة شعواء ضد كارتر مع بيانات وفترات تلفزة وإذاعة ومقالات في الصحف الأميركية. وهكذا ما أن صدر البيان الأميركيّ - السوفياتيّ في 1 تشرين الأول 1977، حتى انطلق كورس غضب في أوساط أصدقاء "إسرائيل" في الولايات المتّحدة في الساعة نفسها وامتلاً الأثير وصفحات الجرائد بالمقالات والتصريحات من الكونغرس الأميركيّ واللوبي اليهودي ضد بيان الجبارين، ما أثار الذعر في الإدارة الأميركية التي فوجئت بهذه الحملة المنظمة والسريعة.

ثم حضر موشيه دايان إلى واشنطن وأمضى خمس ساعات من النقاش الحامي مع كارتر وفانس وبريجنسكي في آن واحد في مكاتب بعثة الولايات المتّحدة في الأمم المتّحدة في نيويورك ليل 4 - 5 تشرين الأول. وكان دايان خشناً جدّاً يصيح في وجههم أنّ "إسرائيل" لا تقبل بالبيان، مطالباً كارتر بأن يصرّح أمام الإعلام أنّه ملتزم بكل تعهدات أميركا لـ "إسرائيل" وإلا نشرت "إسرائيل" كافة مراسلات ومدكرات واتفاقات أميركا معها منذ 1967 إلى اليوم. كما طالب دايان كارتر أن يصرّح أنّه ضد قيام دولة فلسطينية.

وإذ تردّد كارتر في إجابته، هدّده دايان بأنّه سيتكلّم على التلفزيون الأميركيّ في الصباح ويقول إنّ طلب من كارتر ضمانات لـ "إسرائيل" فرفض. وكانت مواقف دايان المتعجرفة تنطلق من اطمئنانه من أنّ كارتر كان مرتعباً من اللوبي اليهودي وأصدقاء "إسرائيل" في واشنطن وسطوة هؤلاء في الرأي العام الأميركيّ. ورضخ كارتر وبدا مذعوراً، فساوم دايان أن يعده بلجم جماح اللوبي اليهودي ضدّه ومقابل ذلك سينفذ له ما يطلب. وهكذا تبخّر حماس كارتر لمشروع السلام. ثم وضع دايان وفانس ورقة مشتركة إسرائيلية - أميركية فرغت البيان الأميركيّ - السوفياتيّ من مضمونه وأوضحت أنّه ليس شرطاً مسبقاً لمؤتمر جنيف، وأنّ مؤتمر جنيف

سيقتصر على جلسة صورية وتكون المفاوضات بعد ذلك ثنائية بين كل دولة عربية و"إسرائيل" على حدة، مع إبقاء الحرم على مشاركة منظمة التحرير.

السادات في القدس

الورقة الإسرائيلية - الأميركية أقلت الطريق أمام مبادرة كارتر وعاد إلى الواجهة مشروع كيسنجر للصلح المنفرد بين مصر و"إسرائيل". وإذ اعترضت سورية على التوجه الأميركي المستجد الذي خرق البيان المشترك مع موسكو بعد أيام من صدوره، عبر كارتر، الذي تعلمّ الدرس جيداً من بيغن ودايان، عن ضيقه من سورية واعتبر مواقف الأسد "عقبة في وجه السلام" واتهم الأسد أنه لا يتعاون بما فيه الكفاية. ثم أخذ فانس ينتقد الموقف السوري. إذ إن كارتر بعد رضوخه لـ"إسرائيل" بات يريد صب الماء البارد على آمال العرب التي أحيها بيان 1 تشرين الأول 1977. فكتب رسالتين في 29 تشرين الأول 1977 إلى السادات بما معناه أنه لم يوفق في وضع صيغة ترضي الجميع (يقصد عدم تلبية شروط سورية) لعقد مؤتمر جنيف. وأن بالإمكان الطلب إلى الأمين العام للأمم المتحدة أن يدعو إلى عقد مؤتمر جنيف ويترك للسوفيات مهمة جلب سورية معهم.. إذا شاؤوا. وهكذا عندما تسلّم السادات رسالتي كارتر في تشرين الأول 1977، عجل في الهرب إلى الأمام من ضغط سورية وقرّر الذهاب إلى القدس للقاء بيغن.

في 9 تشرين الثاني 1977 وفي خطاب أمام مجلس الشعب المصري بحضور عرفات إلى جانبه، أعلن السادات عن عزمه الذهاب "حتى إلى القدس" لمخاطبة الكنيست من أجل السلام. وجاء السادات إلى دمشق ليل 16 - 17 تشرين الثاني لإقناع الأسد بصوابية ما سيفعله وأمضى الرئيسان سبع ساعات من النقاش الصعب. فقد طلب السادات من الأسد المباركة ودعا؛ إما أن يذهب معه أو على الأقل أن لا يندّد به. فإذا فشل السادات فسيعترف بذلك ويسلم قيادة مصر للأسد. وحاول الأسد إقناعه بالحفاظ على وحدة الصف العربي وخطورة خطوته وضرورة إبقاء مؤتمر جنيف حياً وعدم التسرع في قضايا الأمة المصرية التي لا تقاس بحياة الأشخاص. وعاد السادات إلى القاهرة ومن هناك طار إلى "إسرائيل" في 19 تشرين الثاني. وما أن وطأت قدماه أرض مطار بن غوريون حتى كانت كل فرص عقد مؤتمر جنيف قد تبخرت. إذ بعد ذلك انطلق مسار إسرائيلي - مصري سيتوجّج باتفاقات كامب دايفيد بعد 10 أشهر. وأمام فعلة السادات هذه تخلى كارتر عن مؤتمر جنيف ورمى ثقله في المسار المصري - الإسرائيلي.

في سورية أعلنت دمشق 19 تشرين الثاني يوم حداد وطني، وكان الأسد لا يزال يأمل أن يُصاب السادات بالخيبة ويعود إلى الصف العربي. ولكن السادات لم يترك المفاوضات مع "إسرائيل" مهما كانت الخيبات المتتالية التي أصابته جراء التعتت الإسرائيلي وإغلاق الباب مراراً في وجهه. وفي مطلع 1978 فقد الأسد الأمل واستعمل الإعلام السوري تعابير غير مسبوقه ضد الزعيم المصري: الخائن والمستسلم الذي يشبه كيزلنغ النروجي الذي ساهم في الغزو النازي لبلاده وبيتان الفرنسي الذي أقام حكومة موالية للنازيين بعد احتلالهم باريس.

كان العقل السوري يفكر في تداعيات كامب دايفيد استراتيجياً: ماذا لو شنت "إسرائيل" حرباً خاطفة على سورية وامتنتعت مصر عن دخول المعركة؟ ماذا لو اجتاحت "إسرائيل" لبنان وحاصرت دمشق من الغرب ومن الجولان؟

لقد جعلت سورية لنفسها أولويتين: الأولى هي الدفاع عن نفسها في وجه "إسرائيل" التي اتجهت الآن بثقلها الكامل نحو الجبهة المشرقية. والثانية عزل السادات عربياً حتى لا يتعمم نموذج في الصلح مع "إسرائيل" ليصبح كامب دايفيد انهيئاراً واستسلاماً عربياً شاملاً. وكان العراق يمثل العمق العربي الطبيعي لسورية، فرأت دمشق أن تضع الخلافات الحزبية مع بغداد جانباً.

ووجه الأسد نداءً إلى القيادة العراقية في 20 تشرين الثاني 1977، "لننكبّ المسؤوليات القوميّة معاً" في اليوم الذي كان فيه السادات يلقي خطاباً في الكنيست. وجاء نداء الأسد للعراق في أسوأ توقيت. إذ إن العلاقات بين البلدين كانت في الحضيض، من حرب إعلامية إلى تفجيرات وإغلاق حدود ومحاولات اغتيال. ورفضت بغداد مدّ اليد إلى دمشق بل أسعدها أنّ سورية قد وقعت في صعوبات، ثم واصلت حملتها ضد "نظام دمشق التسووي". فدعت سورية العرب إلى إقامة "جبهة الصمود والتصدي"، ولبت الدعوة ليبيا والجزائر واليمن ومنظمة التحرير الفلسطينية. وعقد الاجتماع في طرابلس الغرب في 5 كانون الأول 1977، اقتصر على العموميّات فلم يلاقِ مستوى الأخطار التي تتعرض لها سورية.

ولم يبقَ أمام سورية إذاً سوى الاتحاد السوفياتي. ولكن مزاج موسكو كان معكراً تجاه "أصدقائها" العرب: مصر التي رمت عقوداً من التحالف الاستراتيجي مع موسكو في سلّة المهملات وارتمت بأحضان أميركا. وسورية التي لم تأبه لعواقب تدخلها في لبنان ضد اليسار ومنظمة التحرير ولم تأخذ تمنيات السوفيات بالحسبان. وكانت موسكو قد أوقفت شحن الأسلحة إلى سورية منذ 1976 وتعاملت معها ببرود، ولذلك كانت العلاقة بحاجة إلى علاج. فطار عبدالحليم خدام إلى موسكو في 27 تشرين الثاني 1977، وبعده حكمت الشهباء رئيس الأركان في نهاية كانون الأول، ثم الأسد ووفد سوري في شباط 1978. ورويداً تجددت العلاقات مع موسكو بسبب الخطر المشترك وحصلت سورية على صفقات أسلحة هدفت إلى تدعيم قدراتها الدفاعية، وأعيد فتح مرفأ اللاذقية للاستعمال السوفياتي في حزيران 1978.

أما في لبنان فقد نبه الأسد وفداً كتابياً زار دمشق في 17 و18 كانون الثاني 1978 من الأخطار التي ستجرها مبادرة السادات على لبنان: "لا تفرحوا كثيراً بموقف السادات المضاد للفلسطينيين ولا تستعجلوا في تأييده... خطته ستؤدي إلى إبادة الفلسطينيين واللبنانيين على التوالي. ولبنان في خطر جراء مبادرة السادات.. لقد تفاهم كيسنجر مع بيغن على توطين الفلسطينيين حيث هم الآن.. توطينهم في سورية ليس مشكلة. أما في لبنان فإنه يُحدث مآسي.. إنه يهزّ بلادكم ويخلّ بتوازن صيغة التعايش".

ويقول بقرادوني إنّ الأسد تخوّف من انقلاب "الجبهة اللبنانية" المسيحية على سورية بعد زيارة السادات للقدس، وإنّ سركيس كان يعيش هاجس الأسد نفسه ويعتقد أنّ أميركا تريد حل القضية الفلسطينية على حساب لبنان. وبعد أسبوعين من زيارة الوفد الكتائبي دمشق، حصل ما خاف منه الأسد. إذ تشجعت الميليشيا المسيحية التي يقودها بشير الجميل بفعل زيارة السادات ولم تُعدّ تهاب الوجود السوري في لبنان.

فنشب اشتباك مفاجئ أمام ثكنة الفياضية بين الجيشين اللبناني والسوري في 7 شباط 1978، امتد إلى شرق بيروت، حيث اشتبكت الميليشيا المسيحية مع الجيش السوري أيضاً. وكانت الحصيلة سقوط 25 جندياً سورياً ما اعتبره الأسد مجزرة. ثم عمّت المعارك مناطق مسيحية عدّة ضد مواقع الجيش السوري.

1978: "إسرائيل" تغزو لبنان

أفرزت حرب الستين كانتوناً أقامته "إسرائيل" على الأراضي اللبنانية المتاخمة لحدودها بمساعدة ميليشيا محلية لبنانية هي "جيش لبنان الجنوبي". وتعود جذور هذا الكانتون إلى آذار 1976 عندما انتفضت وحدات من الجيش اللبناني بقيادة الرائد أحمد الخطيب واحتلت بضع ثكنات عسكرية. وكان أحمد الخطيب موالياً لكمال جنبلاط وحلفائه الفلسطينيين فكان جنوده يشتبكون مع جنود لبنانيين آخرين يفضلون الولاء لما تبقى من الدولة اللبنانية أو يؤيدون الميليشيا اليمينية. وعندما سيطر جنود أحمد الخطيب على بلدة مرجعيون ذات الأغلبية الأرثوذكسية، رفض زملاؤهم هذا الأمر وتحصّنوا في بلدة "القليعة" المجاورة ذات الأغلبية المارونية، يقودهم الرائد سعد حداد وهو أرثوذكسي من مرجعيون. وهكذا خلق هذا الوضع عملياً منطقتين في "الشريط الحدودي"⁴²⁶. وبتشجيع ودعم من الرئيس اللبناني السابق كميل شمعون، أقام حداد اتصالات مع "إسرائيل" فدعمته بالمال والسلاح والمعدات.

وكانت مخاوف سورية من تداعيات السلام المصري - الإسرائيلي تتحقّق تباعاً. إذ إنّ "إسرائيل" المطمئنة لهدوء الجبهة المصرية وزوال خوفها من جبهتي حرب، أرادت امتحان التزام السادات بسير المفاوضات، فاتجه جيشها شمالاً واجتاح لبنان في 16 آذار 1978. وكانت الذريعة عملية فلسطينية جنوب حيفا في 11 آذار. فاحتلت "إسرائيل" جنوب لبنان حتى نهر الليطاني وهي الحدود التي تطمح إليها عقيدة "إسرائيل" الكبرى حتى أنّها أطلقت اسم "عملية الليطاني" على هذا الغزو. وكان الغزو الإسرائيلي للبنان أكبر من أي غارات واقتحامات إسرائيلية سابقة، غاشماً وانتقامياً وفق عقيدة جابوتنسكي، لم يتورّع أثناءه الجيش الإسرائيلي عن استهداف المدنيين. فقتل 2000 مدني لبناني و600 فلسطيني وهجر 200 ألف مواطن لبناني و65 ألف فلسطيني في عملية عسكرية غير مسبوقة.

ورغم أنّ "إسرائيل" حققت الهدف من اجتياحها واحتلت مناطق لبنانية حتى نهر الليطاني، إلا أنّ الضغط الأميركي الذي مارسه كارتر وصدور قرار مجلس الأمن الدولي 425، أجبر "إسرائيل" على الانسحاب. فانسحبت جزئياً وأبقت على حزام أمني مساحته 500 كلم مربع يضم 61 قرية وبلدة في أفضية حاصبيا ومرجعيون وبنيت جبيل وصور، وتشرف عليه ميليشيا سعد حداد. وأرسل مجلس الأمن فريقاً من الأمم المتحدة ضمّ 6000 جندي من دول مختلفة لمراقبة تنفيذ القرار.

⁴²⁶ عبارة "الشريط الحدودي" مستوحاة من الشريط المعدني الشائك الذي أقامته "إسرائيل" على الحدود ومن القرى اللبنانية المحاذية تماماً للحدود مشكلة ما يشبه الشريط من مرجعيون إلى الناقورة.

في بداية 1979، حاولت الدولة إرسال وحدات من الجيش اللبناني إلى المنطقة الحدودية فتعرضت لقصف ميليشيا "الجنوبي" وتوقفت في قرية كوكبا، ثم أعلن سعد حداد عن "دولة لبنان الحر" في الشريط في 18 نيسان 1979. وبعد الغزو الإسرائيلي الكبير للبنان عام 1982 الذي أسفر عن مقتل 20 ألف شخص ودمار رهيب في الممتلكات بلغت قيمته مليار دولار⁴²⁷، قويت شوكة ميليشيا "الجنوبي" وتوسعت مساحة الشريط إلى 1100 كلم مربع ليضم 168 قرية وبلدة. وبوفاة سعد حداد من المرض تسلّم مكانه العقيد أنطوان لحد المنشق عن الجيش اللبناني أيضاً. وبعد انسحاب "إسرائيل" الجزئي عام 1985، تم تسليم منطقة جزين وأجزاء من إقليم التفاح وقرى شرق صيدا لأنطوان لحد.

نظر الأسد إلى "عملية الليطاني" على أنها نذير إسرائيلي لما هو آتٍ تحت قيادة بيغن المتطرفة وبعدها أمنت "إسرائيل" هدوء جبهتها مع مصر. ولم تكن قدرات سورية بمستوى يسمح لها بالتصدي للهجوم الإسرائيلي في لبنان واحتمال نشوب حرب إقليمية ستغيب عنها مصر. وكانت القوات السورية أثناء الغزو الإسرائيلي غارقة في حرب شوارع قاسية مع الميليشيا المسيحية شرق بيروت وفي مناطق لبنانية أخرى منذ شباط 1978، في وقت أصبحت تلك الميليشيات أقوى من السابق بفضل شحنات السلاح الإسرائيلي.

ولم يكن ممكناً نقل قوات سورية إضافية إلى لبنان للتصدي لـ"إسرائيل" أو فتح جبهة الجولان. فحتى في الجولان، كانت القوات السورية تفتقر إلى أسلحة بعدما استهلكت مخازنها في حرب 1973. وكان ثمة نقص فادح في المعدات بسبب سوء العلاقات مع موسكو، في حين كانت الدفاعات الأرضية ضد الطيران المعادي قليلة والطائرات المقاتلة أقل بكثير مما كانت عليه عام 1973. فكان أفضل ما يمكن أن تفعله سورية في وجه الغزو الإسرائيلي هو الدفاع عن مداخل دمشق في سهل البقاع ما جرّ انتقادات لبنانية وعربية لتخلي سورية عن واجب الدفاع عن لبنان. فقدت سورية المزيد من السمعة الإقليمية وكان سكوتها مذلاً يثبت تفوق "إسرائيل" في الساحة اللبنانية وعلى الجبهة المشرقية.

ومنذ نيسان 1978 عاد القتال بين الجيش السوري والقوات اللبنانية المسيحية شرق بيروت ومناطق أخرى واستخدم فيه القصف المدفعي فسقط 30 قتيلاً و250 جريحاً معظمهم من المدنيين اللبنانيين. وفي حزيران جرت معركة في إهدن بين ميليشيا الكتائب وميليشيا سليمان فرنجية، لتنفجر بعدها المواجهات بين القوات السورية والقوات اللبنانية في حمّوز وتتصاعد مطالبة قيادات مسيحية بالانسحاب السوري من لبنان. ثم جاء توقيع اتفاق كامب دايفيد بين مصر و"إسرائيل" في أيلول 1978. وانفجر الوضع بشكل غير مسبوق بين القوات السورية والقوات اللبنانية في كافة مناطق نفوذ الأخيرة، في وقت كانت سورية تفتح صفحة جديدة مع المقاومة الفلسطينية والمسلمين في لبنان.

⁴²⁷ كمال ديب، من الدم والدمار، بيروت، شركة المطبوعات، 2001.

مغامرة بشير الجميل الكبرى

عام 1980 وباكتمال انتصاره في المناطق المسيحية، أعلن بشير الجميل أن "القوات اللبنانية" الميليشيا ذات الغالبية المسيحية هي الوحيدة التي ستقود نضال المسيحيين في لبنان. لقد استطاع بشير خلال فترة قصيرة إرغام القوات السورية على الانسحاب من الكانتون المسيحي وقطع الطريق على الجيش اللبناني الانتشار في المناطق المسيحية ومنع أي سلاح في المناطق الشرقية إلا سلاح "القوات اللبنانية"، وانتزع موافقة المكتب السياسي لحزب الكتائب على التخلي لـ "القوات" عن كل مقاتليه تقريباً وتجريد "النمور الأحرار" ومهاجمة آل فرنجية في عقر دارهم. وبقي المتن الشمالي منطقة مسلحة كتابية تدين لشقيقه أمين الجميل.

في خريف 1980 وشتاء 1981، واصل بشير توسيع الكانتون المسيحي والتمدد في لبنان. فبدأ شق طريق بري من جبل صنين إلى بلدة زحلة في محافظة البقاع الواقعة ضمن النفوذ السوري. ووصف جوزف أبو خليل إشكال زحلة أنه "محاولة توريث الدولتين الإقليميتين العظميين (سورية و"إسرائيل")، حبَل به عقل مغامر (بشير) تعلّم كيف يكون توريث الكبار على أيدي الصغار"⁴²⁸.

اعتبرت سورية تحرك بشير نحو زحلة بأنه يهدّد دفاعاتها الاستراتيجية ضد "إسرائيل". وردّ عليه الجيش السوري بعنف وقوة، فحاصر رجال بشير في زحلة وهاجم مواقع "القوات اللبنانية" في صنين. ولكن عندما أدخلت سورية سلاحها الجوي في المعركة بإرسال طائرتي هليكوبتر لقصف مواقع "القوات"، تدخلت "إسرائيل" وأسقطت الهليكوبتر السورية. فرد الجيش السوري بحزم أكبر وأدخل صواريخ "سام" مضادة للطائرات إلى البقاع في نيسان 1981. وبعد 28 يوماً من حصار زحلة وقصف سوري عنيف للمدينة وعلى المناطق الشرقية من بيروت أيضاً، انتهى الإشكال بخروج "القوات اللبنانية" من زحلة وعودة الوضع إلى ما كان عليه.

بدأ بشير الخطوة الثالثة من مشروعه وهي الانفتاح على الكانتونات الأخرى والوصول إلى رئاسة الجمهورية. ولم يكن طموح بشير الرئاسي مستجداً، إذ سبق لكمال جنبلاط أن طرح عليه الفكرة عام 1976، عندما قال له: "ولماذا لا تكون أنت مرشحاً للرئاسة لا الياس سركيس؟"⁴²⁹. ولذلك كان عهد سركيس مرحلة مزاحمة قائد ميليشيا لشرعية الدولة ومحاولتها استعادة مؤسساتها. فصرف بشير وقته خلال 1981 وبداية 1982 يستعدّ للانتخابات الرئاسية في آب 1982.

كانت "إسرائيل" منذ 1981 تحيط بشير ومستشاريه علماً بخطط غزوها للبنان وضرورة تعاون "القوات اللبنانية" معها في هذا الأمر. وأطلع بشير والده بيار الجميل وكميل شمعون وقادة الموازنة على هذه الخطة. ومما قاله شارون: "يجب أن تكونوا على علم مسبق بما ستخلفه هذه العملية من دمار قد لا نتمكّن من اتقائه نظراً لتغلغل المنظمات الفلسطينية في المناطق السكنية ومركزها في المدن والقرى والأحياء الأهلة". وهال هذا الأمر بيار الجميل وقال لبشير: "هل ترى كم هي أحوال لبنان تعيسة ومستحيلة؟ ومع ذلك ما

⁴²⁸ جوزف أبو خليل، ص. 161.

⁴²⁹ جوزف أبو خليل، ص. 123.

زلت أفضلها ألف مرة على الأحوال التي قد تنجم عن العملية المطروحة". وكان بيار الجميل يخشى أن الغزو الإسرائيلي سينعكس سلباً على لبنان وعلى أوضاع المسيحيين خصوصاً.

بدأ الغزو الإسرائيلي في حزيران 1982، وتوقع شارون أن يتحرك بشير وقواته من الجهة الأخرى بهجوم مواز ضد غرب بيروت ومواقع الفلسطينيين، ولكن أياً من هذا لم يحصل. فقد كان توجه بشير الأساسي هو المغامرة إلى أقصاها بتوريط "إسرائيل" في حرب ضد الفلسطينيين، أعداء المسيحيين الداخليين، ومن ثم الوصول إلى السلطة. حتى أن شارون بدأ يُصاب بالجزع بعد أسبوعين من بدء المعارك، حيث صرح في 18 حزيران: "أن على اللبنانيين أنفسهم أن ينتهوا من منظمة التحرير الفلسطينية إذا كانوا يريدون دولة مستقلة". ولحقه مناحيم بيغن بتصريح أكثر وضوحاً في اليوم التالي: "أن إسرائيل لا تنوي دخول بيروت وعلى القيادة المسيحية في لبنان أن تعالج مشكلة القوات المسلحة التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية"⁴³⁰. ولكن في هذا الوقت كان بشير يبعث برقيات إلى العرب مؤكداً التجاوب مع مساعي السعودية "ورغبتنا المستمرة والثابتة في مواجهة المحنة يداً واحدة مع مسلمي لبنان شركائنا في المصير". وهكذا بدلاً من أن يظهر بشير في الصورة مع آريل شارون وأن تكون "القوات اللبنانية" في خندق واحد مع الجيش الإسرائيلي، بدأ بشير يظهر كمنقذ وكمرشح لرئاسة الجمهورية، رغم أن لقاءاته مع شارون والإسرائيليين لم تتوقف.

وتم لبشير ما أراد، إذ إن البرلمان انعقد في 23 آب 1982 وانتخبه رئيساً فيما "إسرائيل" تحتل نصف لبنان وتطوق بعهدا. فقيل "إن بشير أتى إلى الحكم على رأس الدبابات الإسرائيلية". وولدت هذه التطورات شعوراً بالقهر العسكري لدى مسلمي لبنان ومعهم الفلسطينيين والسوريون. ومن ناحية أخرى كانت "إسرائيل" تطالب بالثمن، وكان الثمن من بشير هو عقد معاهدة سلام بين البلدين حتى تبرر غزوها أمام شعبها. ولكن بشير الآن كان في عالم آخر بعد انتخابه رئيساً، إذ صرف النظر عن هذا الأمر وبدأ يقوم بامتصاص ردود الفعل السلبية على انتخابه وفتح الخطوط مع المسلمين في لبنان ومع الدول العربية. فأصر بيغن على لقائه وحدد موعداً في "نهاريا" شمال "إسرائيل" في 1 أيلول 1982. وبادر بيغن باللقاء بالحديث عن دور "إسرائيل" في وصول بشير وعن انتصارها في الحرب، وأصر أن معاهدة سلام مع لبنان هي حق مكتسب وأن على بشير تقديم موقف علني يؤكد فيه عزمه على تحقيق سلام مع "إسرائيل". ورد بشير أنه كرئيس للجمهورية لا يملك صلاحية عقد معاهدة سلام وأنه ينبغي تشكيل حكومة لبنانية والتباحث معها".

في 4 أيلول أذاعت وسائل الإعلام الإسرائيلية خبر اللقاء بين بيغن وبشير بكل تفاصيله، فنفى مكتب بشير حدوثه، واتبع بشير ذلك بتصريح أغضب الإسرائيليين: "أن معاهدة سلام حقيقية هي التي تعقدها حكومة تبني نفسها بنفسها وتمثل كل الشعب اللبناني"⁴³¹.

ثم قام شارون بزيارة بكفياً ولقاء بشير يوم 12 أيلول لمزيد من التشاور، وذلك قبل يومين من مصرع بشير ضحية انفجار كبير.

⁴³⁰ جوزف أبو خليل، ص. 186 و201.

⁴³¹ تصريح بشير الجميل 9 أيلول 1982، في جوزف أبو خليل، ص. 222.

لم تدم الفرحة كثيراً، إذ إنَّ بشير قضى اغتيالاً في انفجار في مركز حزب الكتائب في الأشرافية ذهب ضحيته أشخاص عديدون في 14 أيلول 1982. ووضع هذا الاغتيال نهاية للأحلام وشلَّ "القوات اللبنانية". خفف من وطأة مصرع بشير على الكانتون المسيحيّ حضور بيار الجميل والمكتب السياسيّ الكتائبي ووصول أمين الجميل شقيق بشير إلى موقع رئاسة الجمهورية. ولكن بيار الجميل توفي عام 1984. وسيطرت على "القوات اللبنانية" قيادات شابّة تعوزها الخبرة أزاحت كبار الحزب جانباً ولم تدعم أمين الجميل، أول كتائبي يصل إلى السدة الأولى في البلاد. لقد نظر معظم المسلمين إلى بشير الجميل كمجرم حرب وعميل إسرائيلي. ولكن بشير كان القائد والبطل بنظر عدد كبير من المسيحيين.

خسائر حرب لبنان

في سنوات الحرب الست عشرة (1975 إلى 1990) بلغت خسائر الحرب على مستوى لبنان 75 ملياراً إلى مئة مليار دولار أميركي⁴³²، في حين وصلت مداخيل الميليشيات إلى 40 مليار دولار⁴³³. وفي الواقع لا يمكن تصوّر أي جريمة في التاريخ لم ترتكبها الميليشيات في الحرب اللبنانية: قرصنة وقتل ولصوصية ونهب وعصابات سرقة وخطف وتزوير وتهريب واحتلال أملاك خاصة وعامة وتجارة مخدرات وشحن مواد سامّة، الخ. أكثر من ثلثي مداخيل الميليشيات، أي 27.5 مليار دولار جاء من تجارة المخدرات وتحويلات من الحكومات العربية والأجنبية ونشاطات مختلفة، منها نهب الأملاك الخاصة والرسمية وفرض الخوات على المؤسسات الخاصة كالمصارف والتي حققت 12 في المئة من دخل الميليشيات. يكون مجموع مداخيل الميليشيات من المصادر المختلفة، حسب جدول سمير المقدسي حوالي 30 إلى 35 مليار دولار. وجميع الأرقام المتداولة تُظهر أن مجموع ما جنته الميليشيات يفوق 30 مليار دولار على الأقل. ويشير المقدسي إلى دراسة جورج قرم⁴³⁴ التي قدّرت ما جنته الميليشيات بحوالي 15 مليار دولار عدا المساعدات من الخارج. ويشير إلى التقرير الذي نشرته صحيفة النهار ويقدر عائداً "الاقتصاد الأسود" للميليشيات بـ14.5 مليار دولار⁴³⁵. وذكر المقدسي أنّ ميزانية منظمة التحرير الفلسطينية كانت توازي ميزانية الدولة اللبنانية، وأنّ الميليشيات المختلفة كانت تملك ما يكفي من الموارد لتمويل نشاطها العسكري والمدنيّ في حين كان أمراء الحرب يراكمون ثرواتهم الخاصة. وحدّد المقدسي الكلفة الوسطية المباشرة للحرب بحوالي 13 مليارات دولار⁴³⁶.

⁴³² Rafik Hariri, *Statesmanship in Government*, Beriut, "Cost of War and Challenges of Peace", 1999.

⁴³³ Georges Corm, op. cit., and *Cahiers de l'Orient*, "Le Chantier Libanais", number 32-33, Paris, Centre d'Études et de

Réflexion sur le Proche Orient (CEROP), IV, 1993, and I, 1994.

⁴³⁴ Georges Corm, *ibid.*, pp. 216-218.

⁴³⁵ النهار، 15 تشرين الأول 1990، ص. 8.

⁴³⁶ سمير مقدسي، المصدر نفسه، ص. 76-77.

في الفترة من 1973 إلى 1990، استوردت الميليشيات المختلفة ما قيمته 16 مليار دولار من أسلحة ومعدات. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأسلحة كانت توجّه ضد أهداف في أماكن مكتظة بالسكان المدنيين وداخل المدن والقرى.

ولم تسبّب المواجهات الرئيسيّة بين الميليشيا المسيحيّة وميليشيا التحالف خسائر بشريّة كبيرة مثلما سبّبت الحروب الداخليّة التي دارت في الكانتونات في السنوات اللاحقة. إذ خلال حرب السنّتين لم يزد عدد القتلى عن 15 ألفاً والجرحى عن 13 ألفاً⁴³⁷، وأسفر الغزو الإسرائيليّ عن 20 ألف قتيل. وفيما بلغت نسبة الذين كانوا دون العشرين من مجموع القتلى خلال 16 عاماً من الحرب 60 في المئة، كان عدد الأطفال دون سنّ الخامسة عشرة الذين قتلوا في الحرب 40 ألفاً⁴³⁸. كما ذكرت منظمة الأونيسكو أن 90 في المئة من الأطفال الذين ماتوا في الحرب اللبنانيّة كانوا ضحايا القصف والغارات، في حين تعرّض 50 ألف طفل بقي حيّاً لتشويهاات دائمة وأصبحوا من المعوّقين⁴³⁹. وقُدّرت نسبة القتلى من أعضاء الميليشيات الذين شاركوا في القتال بـ5 إلى 10 في المئة من مجموع ضحايا الحرب، ما يعني أنّ الأغليبيّة الساحقة من ضحايا الحرب كانت من المدنيين.

غادر لبنان في السنوات الأولى للحرب حوالي 960 ألف مواطن بحثاً عن الأمان، منهم 400 ألف عام 1975 و300 ألف عام 1976 و260 ألفاً من 1977 إلى 1982. ولقد عاد نصف هؤلاء إلى لبنان ولكن الهجرة استمرّت في السنّين اللاحقة وحتى بعد انتهاء الحرب⁴⁴⁰. وأدّت الهجرة إلى إفراغ لبنان من قسم كبير من سكّانه وإلى خسارة كبرى في اليد العاملة الماهرة. وحتى 1990، كانت الخسارة الصافية للبنان من هجرة سكانه حوالي 900 ألف شخص.

ومن أهوال الحرب أيضاً "التطهير الطائفيّ" حيث قلّصت المعارك من الاختلاط الدينيّ في المناطق اللبنانيّة، وأوجدت كانتونات بهويّات مذهبيّة محدّدة. في السنوات السبع الأولى للحرب، تهجّر قسريّاً 600 ألف شخص أو 20 في المئة من السكان، وخاصة من مناطق حزام البؤس المحيط ببيروت والمخيمّات الفلسطينيّة شرق بيروت والدامور والكورة والمتمن وبعض مناطق الجبل والبقاع والجنوب.

وأدّى الغزو الإسرائيليّ عام 1978 إلى تهجير مئات الألوف من سكان جنوب لبنان والبقاع الغربيّ، في حين أدّت المعارك بين الميليشيا المسيحيّة والجيش السوريّ عام 1978 وقصف السوريينّ المناطق الشرقيّة في بيروت إلى تهجير عشرات ألوف المواطنين في الفترة من تموز إلى تشرين الثاني 1978. فكان عدد الذين هجّرتهم الحرب عام 1978 أكثر من أولئك الذين هُجّروا في حرب السنّتين. أمّا الغزو الإسرائيليّ عام 1982 فقد هجّر 250 ألف مواطن خلال ثلاثة أسابيع كانوا يصلون إلى مناطق غرب بيروت وضاحيتها الجنوبيّة بمعدّل 20 ألفاً

⁴³⁷ غسان العياش، أزمة المالية العامة في لبنان، ص. 37.

⁴³⁸ *Le Monde*, 4 April 1990.

UNESCO, International Peace Research Institute, *Conference on Peace and Development in Lebanon*, Paris, 11-13 April, ⁴³⁹

1990.

⁴⁴⁰ غسان العياش، أزمة المالية العامة في لبنان، ص. 39.

في اليوم⁴⁴¹. وثمة جريمة أخرى ارتكبت بحق المدنيين هي انتشار عمليات الخطف. فقد قُدر عدد ضحايا الخطف من لبنانيين وفلسطينيين، ربما قُضوا قتلاً على يد خاطفيهم، - بـ17 ألف شخص⁴⁴²..

⁴⁴¹ Tabitha Petran, *The Struggle Over Lebanon*, New York, Monthly Review Press, 1987, pp. 228-229.

⁴⁴² سمير المقدسي، العبرة من تجربة لبنان، ص. 68.

20. لماذا لم يتّحد العراق وسورية؟

ساهمت حرب لبنان إلى حدّ ما في استعمار النزاع بين العراق وسورية طيلة فترة السبعينيات. فبدل التقارب أمام المخاطر والكوارث، بدا أن بغداد ودمشق في صراع مرير. منذ 1968 وحتى 2003، ثمة سؤال شغل بال المراقبين: لماذا لم يتحد العراق وسورية وحزب البعث يحكم البلدين، لا سيّما أن وحدتهما منطقيّة من حيث الجغرافيا والتاريخ والتواصل السكانيّ أكثر مما كانت وحدة مصر وسورية؟ ولكن المسألة كانت أكثر تعقيداً من مجرد رغبات حزب في السلطة⁴⁴³. ذلك أنه حتى قبل أن يصبح البعث حزباً حاكماً في كلّ من سورية والعراق، لم يُكتب للعلاقات بين البلدين النجاح الا لفترات استثنائية. إذ إنّ العراق في حقبة المملكة الهاشمية حتى 1958 حاول ابتلاع سورية في "مشروع الهلال الخصيب" وحاك ضدها المؤامرات مرّة عبر حلف بغداد الغربيّ ومرّة بدعم أطراف محلية وترتيب اغتيلات وانقلابات. وعندما أصبحت سورية إقليمياً في الجمهوريّة العربيّة المتّحدة أخذ العراق بقيادة عبدالكريم قاسم ينافس عبدالناصر ويشاغب عليه. وبعد خروج قاسم، اتفق نظام عارف مع عبدالناصر ضد سورية. ثم بعدما اعتلى البعث السلطة في البلدين جرت محاولات عدّة للتقارب، غير أنّ العراق لم يرتض سعي سورية في عهد حافظ الأسد أن تكون قوّة إقليميّة بعدما كانت شقيقاً أصغر. فقد اعتبر أن السعي السوريّ سيكون على حسابه هو الدولة الأكبر والأكثر ثروة وسكاناً.

وتشعب الصراع بين البلدين من اختلاف في نظام الحكم قبل حكم البعث إلى خلاف بين أشخاص بعد 1968 أثناء حكم البعث، ثم إلى خلاف اقتصاديّ حول أنابيب النفط ومياه نهر الفرات، ومزايدة عراقية على سياسة سورية تجاه الصراع مع "إسرائيل"، ودعم كلّ من دمشق وبغداد لمعارضين نظام الآخر. ولم يكن للمعارضين السوريّين المقيمين في بغداد أي مصلحة في تقارب البلدين مخافة أن يصبحوا ضحية التقارب. وكان هذا حال المعارضين العراقيّين في دمشق. فبدا وكأنّ البعث في البلدين توأمٌ في خناق دائم. وكالتوأم أيضاً كان الخناق يختفي أحياناً ليجد الأخ نفسه في أخيه وينتهي الخلاف وكأنّ شيئاً لم يحدث⁴⁴⁴.

الصراع السوريّ - العراقيّ على لبنان

مع الطفرة النفطية وبعدهد سكانه الكبير نسبياً، سعى العراق خاصة في السبعينيات إلى زعامة العرب ومنافسة مصر وتوليّ إدارة دفة القضيّة الفلسطينيّة وفرض نفوذه على لبنان. أخذ العراق يستعمل موارده وثرواته في معارك نفوذه الإقليميّة التي كان للساحة اللبنانيّة أهميّة في بلورتها، ما وضعه وجهاً لوجه مع سورية. وكانت بيروت ساحة الصراع العراقيّ - السوريّ الذي استمرّ حتى 1990. فقد مرّ الصراع العراقيّ - السوريّ على لبنان بانشقاقات وصراعات من 1968 إلى 1975، ثم بمراحل دمويّة

⁴⁴³ E.Kienle, *The Conflict between the Baath Regimes of Syria and Iraq prior to their Consolidation: from regime survival to regional dominance*, Berlin, 1985.

⁴⁴⁴ Kienle, Eberhard, *Ba 'th v. Ba 'th: the conflict between Syria and Iraq*, London, 1987.

في الأعوام 1975 - 1978، تلا ذلك تقارب في 1978 - 1979 لمواجهة تداعيات كامب دايفيد والحاجة إلى بناء جبهة مشرقية، فاستقرت الأوضاع نسبياً في لبنان. ولكن العراق غاب عن الساحة اللبنانية منذ العام 1979 لانشغاله سنوات عدّة في الصراع مع إيران ثم عاد في صيف 1988 ودعم حركة ميشال عون ضد سورية.

بدأ الصراع بين سورية والعراق على الساحة اللبنانية في الستينيات منذ انشق حزب البعث بين جناح عراقي وآخر سوري. وأصبحت في لبنان قيادتان قطريتان إحداهما تابعة للقيادة القومية في دمشق والأخرى للقيادة القومية في بغداد. كما كانت فلسطين السبب الثاني للصراع. فقد تعاضم نفوذ المقاومة الفلسطينية وخاصة بعد الحرب الأهلية في الأردن (1969 و1970) وانتقال قيادة هذه المقاومة إلى لبنان. ولئن تبنى جناح البعث القضية الفلسطينية كان لا بد أن يسعى كلا الجناحين إلى نفوذ داخل التشكيلات الفلسطينية في لبنان⁴⁴⁵.

وتكثفت عوامل الخلاف السوري العراقي في لبنان حيث شهد عقد السبعينيات انشقاقات خطيرة على الساحة اللبنانية المتفجّرة بين منظمات وتيارات وأحزاب لبنانية وفلسطينية موالية أو صديقة للعراق وأخرى موالية لسورية. حتى أنّ ما نشأ عام 1973 تحت اسم "جبهة الأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية" بقيادة كمال جنبلاط كان مقرباً من العراق، قامت بمواجهته "حركة الأحزاب والقوى القومية" المقرّبة من سورية. ونشبت بين الجبهتين نزاعات دامية عقّدت الصراع في لبنان وتشابكت العوامل من نزاع لبناني - لبناني على الامتيازات السياسية والمطالب الاجتماعية إلى صراع على الوجود الفلسطيني إلى صراع سوري - عراقي⁴⁴⁶.

أدى خصام البعثين إلى تدهور العلاقات الاقتصادية بين سورية والعراق امتدّ إلى نزاع مزمن على تقاسم مياه نهر الفرات والحقوق النفطية. لقد استفادت سورية من رسوم ترانزيت نفط العراق ومن كميات اشتريتها منه بأسعار تفضيلية. ولكن بعد وصول الأسد إلى السلطة عام 1970 ببرامج تموينية احتاجت إلى مبالغ طائلة، طالبت دمشق بحصة أكبر من عائدات النفط العراقيّ وذلك برفع رسوم الترانزيت والشحن. ورفض العراق واتجهت المشكلة نحو الأسوأ عندما أعلن العراق في صيف 1973 عزمه على بناء خط أنابيب جديد من شمال العراق عبر تركيا إلى الإسكندرون على البحر المتوسط وليس عبر سورية. ما عمّق الخصام. إذ حرم القرار سورية من عائدات هامة خاصة وأنها كانت تستعدّ للحرب ضد "إسرائيل". وثانياً لم تجد دمشق في إعلان العراق هذا أي لياقة قومية خاصة أنّ الإسكندرون هي عاصمة اللواء السوريّ الذي سلّبه تركيا عام 1939⁴⁴⁷.

ثم تحسّنت العلاقات مؤقتاً على خلفية حرب تشرين 1973 ضد "إسرائيل" والتي شارك فيها الجيش العراقيّ إلى جانب سورية. ولكن قبول دمشق وقف إطلاق النار في أيار 1974 واستقبالها الرئيس نيكسون في حزيران أدياً إلى حملة مزايادات عراقية ضد سورية وعودة إلى أجواء الخصام. وفيما كانت سورية تعاني أزمة اقتصادية

⁴⁴⁵ بعض أحداث الصراع السوري العراقي في لبنان مستقاة من كتاب حازم صاغية "بعث العراق سلطة صدام قياماً وحطاماً"، دار الساقى، 2003.

⁴⁴⁶ في العام 1975 ضمّ تجمع كمال جنبلاط (الحركة الوطنية اللبنانية) الحزب التقدمي الاشتراكي والحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة العمل الشيوعي والحزب السوري القومي الاجتماعي والتنظيم الناصري والمرابطون وحزب البعث العربي الاشتراكي جناح العراق، وشخصيات مستقلة. ومن أبرز قادة الحركة كمال جنبلاط وجورج حاوي ومحسن إبراهيم وانعام رعد وعصام نعمان وأبدر منصور. وبالمقابل ضمت "حركة الأحزاب الوطنية والقومية" حزب البعث العربي الاشتراكي - الجناح السوري وحركة أمل واتحاد قوى الشعب العامل والتنظيم الناصري والحزب السوري القومي الاجتماعي. ومن قيادات التجمع الموالي لسورية عاصم قانصو وشخصيات تلتفت حول الإمام موسى الصدر والياس قنيزح وكمال شاتيل. أما في صفوف الفلسطينيين، فقد رعى العراق منظّمته "الخاصة الجبهة العربية لتحرير فلسطين" بقيادة أبو العباس في حين رعت سورية منظّمتها الخاصة "الصاعقة" بقيادة زهير محسن.

⁴⁴⁷ المرفأ الذي انتهى عنده أنبوب النفط العراقي على ساحل الإسكندرون كان في بلدة أرسوز التي انطلق منها زكي الأرسوزي. ولذلك بنظر السوريين كانت خطوة العراق خاتمة لمبادئ البعث (حازم صاغية "بعث العراق سلطة صدام قياماً وحطاماً"، دار الساقى، 2003).

مباشرة بعد الحرب تمّتّع العراق بعوائد نفطيّة غير مسبوقّة نجمت عن مضاعفة أسعار النفط عام 1974 بفضل الحرب. فراح يزايد في التطرّف بمواقفه من القضية الفلسطينية ويستعمل الطفرة النفطية لتمويل جبهات الرفض. وساهم سعي "منظمة التحرير" إلى الاستفادة من نافذة الحل السلمي في الشرق الأوسط وكلمة عرفات بهذا المضمون أمام الجمعية العامة للأمم المتّحدة في أيلول 1974 في انشقاق المقاومة الفلسطينية وولادة "جبهة القوى الرفضة للحلول الاستسلاميّة" بدعم عراقيّ، أعلنها من بغداد جورج حبش أمين عام الجبهة الشعبيّة الذي ندّد بسياسات حركة فتح وبخطوات دمشق الدبلوماسية.

تحوّلات 1973 و1974 الإقليميّة دفعت العراق وسورية إلى تعزيز نفوذهما في لبنان عبر تمويل ودعم التنظيمات الفلسطينية واللبنانيّة المختلفة وتمويل الصحف والمطبوعات. ومَن يُراجع الحرب الكلامية بين البلدين سيُصعقُ من العبارات والمصطلحات المستخدمة والتي ظهرت في مانشيتات عريضة حتى في صحف بيروت المحسوبة على البلدين. ولم يخلُ قاموس الخصام من أقسى عبارات التخوين والنعوت ("نظام عميل للامبرياليّة"، "خائن"، "باع القضية"، "الطغمة الحاكمة"، "العصابات الفاشية"، "اليمن المتآمر"، "ماذا يخطط النظام المجرم في بغداد؟"، "سقط القناع عن خيانة النظام الفاشي في دمشق"، الخ). كما أقيمت المكاتب وحُصصت الميزانيات لدعم معارضي النظامين. فكانت ثمة حركات وقيادات عراقية مناوئة لنظام العراق ومركزها دمشق، ومراكز تدريب للأكراد في سورية لمحاربة النظام العراقيّ في شمال العراق. وكانت بالمقابل شخصيات وحركات سورية مناهضة لنظام سورية تتخذ مركزها في بغداد.

شَنّ العراق حملة إعلامية ضد سورية جوهرها المزايمة في الصراع مع "إسرائيل": في أنّ الأسد لا يختلف عن السادات لأنّ سورية وقّعت اتفاقية الجولان كما وقّعت مصر اتفاقيتي سيناء. وأنّ الأسد خان القضية العربيّة كما فعل السادات، وأنّ الأسد استقبل كيسنجر وقبل بالقرار 242 التسويويّ وأعلن قبول سورية بمبدأ السلام مقابل الأرض.

لقد كان سهلاً الكلام المرسل من بغداد. ذلك أنّ العراق لم يكن دولة مواجهة ولم يخض حرباً مباشرة ضد "إسرائيل" ولم يخسر أيّ أرض. فكان الأسد يردّ على الحملة العراقيّة بأنّ مواقف بغداد "تعبّر عن رجال لم يحاربوا ولن يحاربوا"، بل وقّعوا اتفاقاً مع إيران في العام نفسه تخلّوا فيه عن سيادة شط العرب، وهو تواطأ مع الإمبرياليّة التي يمثّلها الشاه وتنازل عن أرض عربيّة وخيانة للأحواز - عربستان. وبلغت الحرب الإعلاميّة بين البلدين حدّاً سمّم الأجواء بينهما. ولم يقتصر الأمر على اتهامات الخيانة، بل تطوّر في نيسان 1975 إلى حرب كلامية اقتصادية حول تقاسم مياه الفرات التي كانت موضع أخذ وردّ منذ أوائل الستينيات دون أن تصل حدّ الأزمة.

ولم تمض شهور على انتقادات العراق لسورية حتى دخلت بغداد عام 1975 في اتفاق سلام مع شاه إيران أوصل العراق إلى ما أنكره على سورية: التنازل عن سيادة العراق على شط العرب وعن مطالب العراق التاريخيّة في الأحواز، ثم الذهاب في انفتاح اقتصادي على أميركا والغرب وتحسين العلاقات مع الدول العربيّة "الرجعيّة". وهو ما أنكره على سورية أيضاً.

تلبّدت الأجواء بين سورية والعراق إلى حدود التفجّر. ففي آذار 1975 شنت سورية حملة اعتقالات في صفوف الفئات الموالية للعراق في القوى المسلحة السوريّة وفي الأوساط المدنيّة بتهمة التآمر على النظام. وحشدَ البلدان جيشيهما على جانبي الحدود، وأدّى الدعم العسكريّ السوريّ للأكراد⁴⁴⁸ والدعم المنوع للمعارضات العراقيّة إلى سحب العراق سفيره من دمشق عام 1975، وأغلق كل بلد مؤسسات الآخر ومنها المكاتب التجاريّة والطيران والرحلات الجويّة⁴⁴⁹.

ومنذ بداية حرب لبنان، أخذ العراق وسورية يمدّان أصدقاءهما على الساحة اللبنانيّة بالسلاح والدعم الماديّ والمعنويّ. ولقد انقلبت المواقف مراراً. ففي "حرب الستين" حاربت سورية وأصداؤها قوى اليسار اللبنانيّ والحركة الوطنيّة وجهات الرفض الفلسطينيّة ما أكسبها رضى الجبهة اللبنانيّة المسيحيّة. وفي الثمانينيّات أصبحت الفئات المناهضة لسورية صديقة لسورية، في حين انفتحت القوى المسيحيّة على العراق الذي فتح ترسانته لتسليح القوات اللبنانيّة. إلا أنّ الجوار الجغرافيّ بين لبنان وسورية والروابط الاجتماعيّة لعبت دوراً رئيسياً دوماً في ترجيح الكفّة لسورية على حساب العراق.

في الأشهر الأولى للحرب اللبنانيّة، بدأ أنّ حلفاء العراق (جنبلاط وعرفات) سينتصرون. فدخل الجيش السوريّ وقلب الموازين وتحوّلت المخيمات الفلسطينيّة إلى بؤر محاصرة. ولم تكن قيادة عرفات ترغب في نجدة مخيم تل الزعتر لأنّه كان تحت سيطرة جهات الرفض التي يدعمها العراق، ولكن عرفات استجاب لضغوط كمال جنبلاط لمحاربة التوغّل السوريّ في الجبل، وأرسل العراق تعزيزات عسكريّة عراقية للوصول إلى تل الزعتر، وحشد الجيش العراقيّ قواته على حدود سورية. وهاجمت ميليشيات الحركة الوطنيّة وحلفاؤها الفلسطينيّون مقر الأحزاب الموالية لسورية وأقفلتها وصادرت محتوياتها، وجرّت معارك دامية مع منظمة الصاعقة.

وشهد صيف 1976 أسخن المعارك في حرب لبنان وسقط مخيم تل الزعتر بأيدي الميليشيات المسيحيّة وسقطت معه آمال العراق في السيطرة على الساحة اللبنانيّة والنفوذ على المقاومة الفلسطينيّة ومن ثقل بيروت العربيّ. وفي 26 أيلول 1976 وما بدا أنّه ردّ عراقيّ على سقوط تل الزعتر، أقدم مسلّحون على احتجاز رهائن في فندق سميراميس في دمشق وأعلنوا انتماءهم إلى "منظمة حزيران الأسود" (نسبة إلى تل الزعتر)⁴⁵⁰ وتبيّن أنّ المنظمة غطاء لتنظيم "مجلس فتح الثوريّ" الذي رأسه صبري البنا (أبو نضال) ومركزه بغداد أيضاً. ثم بدأت دوامة أعمال عنف وعنّف مضاد بين البلدين خلال 1976، من اغتيال بعثيين عراقيين وبعثيين سوريين إلى هجمات مسلّحة على السفارات السوريّة في العالم، ومحاولة اغتيال حافظ الأسد وخذام وتفجير عبوات في مطار بغداد.

⁴⁴⁸ دعمت سورية حركة جلال الطالباني المنشقة عن البرزاني والتي عرفت باسم "الاتحاد الوطني الكرديستاني". وكان الطالباني ممثلاً للحزب الديمقراطي الكرديستاني الذي رأسه الملا البرزاني.

⁴⁴⁹ لم يُعد العراق سفيره إلى دمشق حتى آخر العام 1977 بعد زيارة السادات إلى "إسرائيل".

⁴⁵⁰ إشارة إلى تاريخ سقوط معازل الرفض الفلسطيني الموالية للعراق في مخيم تل الزعتر في لبنان في حزيران 1976 والذي اتهم العراق الجيش السوري بالزلوع فيه.

عندما انتقم العراق من سورية وشحن النفط عبر تركيا وحرّم سورية من رسوم الترانزيت، فأغلقت سورية في 2 كانون الأول 1976 مرافئها وحدودها أمام حركة نقل البضائع والترانزيت مع العراق وإليه. فتضرّر العراق بتسرّعه غير المدروس. إذ زادت كلفة الشحن ونفقات المنشآت البديلة وطالت المسافة، فكان العائد على كميّة النفط نفسها أقل مما كان يحقّقه العراق بشحن النفط عبر سورية. واضطر العراق في تموز 1977 إلى زيادة ضخّه عبر تركيا ليحقّق العائد السابق نفسه. واستكملت سورية قطيعتها الاقتصادية بإقفال الحدود بين البلدين في 10 تشرين الثاني 1977. وبعد خمسة أيام تعرّض خدام لمحاولة اغتيال ثالثة وهو في دولة الإمارات.

وعندما دعمت الدول العربيّة في تشرين الأول 1976 التّدخل السوريّ في لبنان وشرّعت لقيام قوات ردع عربيّة معظمها سوريّ، احتج العراق على "هذه المباركة العربيّة للاحتلال السوريّ للبنان"، مطالباً بالانسحاب الفوريّ للقوات السوريّة. ولم ينفع الاستنكار العراقيّ إذ تصالح الأسد والسادات في تشرين الأول 1976. وهاجم العراق قمّة القاهرة على أنّها قمّة "الزاحفين إلى الاستسلام". كما افتتحت في بغداد في 26 تشرين الأول 1976 إذاعة "صوت سورية" ضد حكومة دمشق. فردّت سورية بمنح المعارضين العراقيين فقرات بثّ على إذاعة دمشق.

عندما دخلت القوات السوريّة بيروت في 15 تشرين الثاني 1976 عملت لإقصاء النفوذ العراقيّ وتصفية الأحزاب والجماعات الموالية للعراق ومنها الجناح اللبنانيّ للبعث العراقيّ، حيث تمّ اغتيال شخصيات فكرية وسياسيّة عدّة. ودُفع من بقي حيّاً من قيادات هذه الجماعات إلى المنفى⁴⁵¹. كما تمّ تفجير مكاتب صحف موالية للعراق في بيروت (جريدتي المحرّر وبيروت) ونسف مكاتب مجلة الحوادث والإجهاز على المراكز والتجمّعات المقربّة من العراق. وفي آذار 1977، تعرّض نفوذ العراق في لبنان للمزيد من التدهور بمقتل كمال جنبلاط، فتضعفت الحركة الوطنية. واشتبكت التنظيمات الفلسطينية في ما بينها داخل المخيمات في بيروت وشمال لبنان بين تنظيمات موالية لسورية كـ"الصاعقة" وأخرى موالية للعراق كـ"جبهة التحرير العربيّة".

واستمرّ الصراع العراقيّ - السوريّ بعد 1977. إذ اتهمّ العراق سورية بدعم الأكراد على أراضيها وبأنّها وراء أحداث عنف مذهبيّة في النجف وكربلاء. وشهدت سورية سلسلة أعمال تخريب وتفجيرات استمرت أشهراً عدّة عام 1978. فاتهمّ العراق بأنّه وراء الهجمات الإسلاميّة في دمشق وحلب وأنّ صدّام نفسه يُشرف على عقد اجتماعات وإعطاء تعليمات للإرهابيين قبل توجيههم في مهام تخريبية داخل سورية.

وامتدّ العنف ليشمل صراعاً بين المقاومة الفلسطينية والعراق بعيداً عن العامل السوريّ. إذ لم يقف أبو نضال ساكناً أثناء المواجهات بين سورية والعراق واعتبر أنّ مجلس فتح الثوريّ الذي يقوده هو أكثر صفاءً من التنظيمات الفلسطينية الأخرى ومن قيادة عرفات. وبدعم وتمويل عراقيين أقدم أبو نضال عام 1978 على اغتيال ممثلي منظمة التحرير في لندن والكويت وباريس وحاول اغتيال ممثلها في باكستان ورثب هجوماً على طائرة مصرية في نيقوسيا أسفر عن مصرع شخصيات مصرية منها يوسف السباعي. وأدّت أعمال أبو

⁴⁵¹ عاد رئيس الحزب عبد المجيد الرفاعيّ إلى لبنان في نيسان 2003.

نضال إلى صراع دام بين حركة فتح والعراق. وشهدت بيروت أعمال عنف وحشية في صفوف الفلسطينيين إحداهما نسف مبنى سكني ضخم إلى جوار المدينة الرياضية في بيروت في منتصف آب 1978. وكانت جماعة أبو نضال أيضاً وراء محاولة اغتيال سفير "إسرائيل" في لندن عام 1982 التي كانت حجة "إسرائيل" الرئيسية لغزو لبنان وقتل 20 ألفاً من أبنائه.

المعارضة الشيعية والكردية

فيما حاولت بغداد مدّ نفوذها في المشرق ومقارعة سورية، كان وضعها الداخلي بعيداً عن المثالية وخاصة صع ود معارضة كردية وشيعية. إذ عندما ابتدأ حكم البعث برزت أزمة حدودية مع إيران في شباط 1969 حيث طالب الشاه بالسيادة على الساحل الشرقي لشط العرب. وأدى ذلك إلى حشد جيشي البلدين على الحدود. فاستغلّ أكراد العراق الفرصة وقاموا بدعم من إيران بهجوم ناجح على مدينة كركوك شمال العراق في آذار 1969. وبسبب اتكّال الأكراد جزئياً على الاتحاد السوفياتيّ سافر صدام إلى موسكو وقابل الكسي كوسينغ وطلب الدعم العسكري. وأمام رفض موسكو حل عسكري للقضية الكردية، عاد صدام إلى بغداد وهو يتكلم عن حلّ سلمي، فقابل ممثلي الأطراف الكردية وأعرب عن رغبته في الوصول إلى اتفاق. ووصلت المفاوضات إلى مراحل متقدمة في نهاية عام 1970 وفعلاً وقّعت الحكومة اتفاقاً مع الأكراد في 11 آذار 1970، اعتبر الوثيقة الأساسية لحقوق أكراد العراق التي بقيت المرجع الرسمي الأساسي للعقود التالية⁴⁵²، وكانت أفضل ما حصل عليه الكرد في كلّ البلدان المجاورة للعراق حتى اليوم.

تضمنت الوثيقة مبدأ الحكم الذاتي للأكراد وانتخابات ديمقراطية في منطقة الحكم الذاتي، ومبدأ المشاركة في ثروة البلاد، واستعمال اللغة الكردية لغة رسمية، وإقامة قوى شرطة كردية. ومقابل ذلك قدّم الأكراد التزاماً بعدم اللجوء إلى الدعم الأجنبيّ ضد حكومة بلادهم المركزية. وفوق ذلك، منح صدام الأكراد خمسة مقاعد وزارية وخصّص مبلغاً شهرياً للملا مصطفى البرزاني يوزّعه على خاصته ويحفظ الولاءات القبليّة. واعترف الاتفاق بحقوق الأكراد ومنح الحزب الديمقراطيّ الكردستانيّ امتيازات في الحكومة وجعل العراق دولة مزدوجة القومية (دستور 1970). وبدأت الحكومة بتحسين أوضاع الأكراد وتنمية مناطقهم.

إلا أنّ تجاوب الأكراد كان جزئياً فهم خفّضوا استعدادهم العسكري فقط ولم يوقفوه ولم يقطعوا العلاقات مع شاه إيران. فقد وصلت قيادة البرزاني علاقاتها المريبة فابتعدت عن الاتحاد السوفياتيّ وتقرّبت من شاه إيران و"إسرائيل". وكانت بداية تحوّل الأكراد من خطاب "التقدمية واليسار" إلى خطاب "حقوق الإنسان والليبرالية" الذي اعتمده أميركا و"إسرائيل" والغرب. وكان صدام قد شكك بالبرزاني وجماعته رغم تأكيد الأخير رغبته في علاقات جيّدة مع البعثيين، وفصّل صدام التعاطي مع الطابانيّ الذي كان أكثر وضوحاً ومباشرةً في التفاوض⁴⁵³.

⁴⁵² عزيز الحاج، القضية الكردية في العراق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1994.

⁴⁵³ Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 126-131.

أما بالنسبة للشيعة، فقد اهتمّ البعث في بداية حكمه بمطالب المعارضة ذات القاعدة المذهبية. ولكن مطالب رجال الدين الشيعة كانت كثيرة ولم يلبّ البعث أكثرها، فتوقّفت قياداتهم الروحية عن استقبال ممثلي الحكومة، ولم يدخلوا في مفاوضات تفصيلية كما فعل الأكراد⁴⁵⁴. فهم طرحوا منذ البداية مطلبين على حكومة البعثيين: (1) إلغاء قانون الأحوال الشخصية بدون مراوغة، و(2) منح الشيعة تمثيلاً حقيقياً وكاملاً في السلطة المركزية. وعلى سبيل المثال سأل قادة الشيعة: كيف يلهج البعث بالعلمانية، ومع ذلك فإنّ ثلثي أعضاء مجلس قيادة الثورة هم من السنّة التكريتية في بلد أغلبية سكانه من الشيعة؟

ومع انهيار المفاوضات مع المعارضة الشيعية، تراجع البعث عن وعوده للشيعة وقامت الدولة بمنح المرأة العراقية حقوقاً إضافية ومنع الرجال من تعدّد الزوجات. وفي نيسان 1969 أصدرت السلطة قانوناً يحظر حزب الدعوة الشيعي. وبتشجيع من ميشال عفلق الذي رأى في شعبية الزعيم الشيعي محسن الحكيم المذهبية تهديداً لرؤية البعث، أخذت السلطات تعتقل أعضاء حزب الدعوة. وبدأ التنكيل بمحسن الحكيم وأفراد عائلته على أنّهم عملاء لإيران، فأعدم 17 فرداً من أولاده وأحفاده وتوفي الحكيم عام 1970. ففرّ من بقي من أسرته إلى لندن وطهران. ولم تمرّ هذه الإعدامات مرور الكرام، إذ أثارت غضباً شعبياً عارماً، واجهه النظام بيد من حديد وبمزيد من القمع. وأصبح محمد باقر الصدر الزعيم الشيعي الأبرز بعد مقتل الحكيم. وباتت الاشتباكات بين مسلّحين شيعة وقوى الأمن شأناً عادياً. كما أمر صدام بقتل خمسة رجال دين شيعة عام 1974 وسُجن الصدر أكثر من مرّة، فعاد هذا الأخير إلى العمل السياسي بالتعاون مع أبناء الحكيم. ثم قاد الصدر مظاهرات في النجف. ولم تسمح السلطة بهذا التحدي، ففتح الجنود نيران أسلحتهم وارتكبوا مجزرة بحق المتظاهرين. ووصل القمع إلى مستوى أعلى حيث سجنّت الدولة ألفي معارض شيعي واعتقلت ثمانية علماء من الشيعة وأعدمتهم. ثم زادت على ذلك بطرد مئتي ألف مواطن عراقي شيعي إلى إيران بحجة أن أصولهم إيرانية. ولم تكتف الدولة بنفي الشيعة من معارضها بل شرّعت هذا الطرد بتغيير قوانين الجنسية العراقية في وقت كان مواطنو أي دولة عربية يحصلون على الجنسية العراقية بمجرد طلبها. وفي شباط 1977، وقعت اضطرابات في النجف وكربلاء قام بها ناشطون شيعة، فأرسلت الحكومة الجيش الذي أطلق النار على المواطنين ما أدّى إلى خسائر بالأرواح. وللإمعان في القمع، عين مجلس قيادة الثورة الحاكم هيئة من خمسة أشخاص بقيادة عزت مصطفى محاكمة المتهمين بإثارة الشغب. وبعد محاكمات صورية سريعة، حكمت الهيئة بإعدام ثمانية أشخاص وبالحكم بالسجن المؤبد على خمسين آخرين. ثم أطلقت الحكومة على المعارضة الشيعية لقب "طابور خامس" مع ما تحمله هذه الصفة من خيانة للوطن. وحُكم بالسجن المؤبد على محمد باقر الحكيم نجل محسن ثم أطلق سراحه عام 1979. فغادر الحكيم إلى سورية ومنها إلى إيران عندما عاد إليها الخميني المطرود أيضاً من العراق.

ومن ناحية أخرى كانت دولة البعث تحاول تحسين صورتها لدى الشيعة بانفاق الأموال على مناطقهم والمشاريع التنموية وكذلك إنفاق 50 مليون دولار لترميم وتجديد المقامات الدينية الشيعية في كربلاء والنجف.

Charles Tripp, *A History of Iraq*, Cambridge, Cambridge University Press, 2002, p. 199.⁴⁵⁴

ميثاق العمل القومي بين سورية والعراق

رغم سياسته الداخلية حاز العراق على سمعة حسنة في الشارع العربي. فكان دائماً يُعدّ من الدول العربية الراديكالية في قوميتها وتبنيها القضية الفلسطينية وحليف للاتحاد السوفياتي في المنطقة العربية. فمن ملامح تاريخ العراق من 1960 وحتى 1980 كانت محاولات غزو الكويت وفرش السجادة الحمراء لخاطفي الطائرات اليساريين ومعاملته لقيادات المنظمات المسلحة الفلسطينية وغيرها وكأنها شخصيات دولية، وقيادته حملة طرد مصر من الجامعة العربية بعد توقيع أنور السادات على الصلح مع "إسرائيل" عام 1978. ولم تصدر أي صحيفة في بغداد إلا وفيها خبر أو مقال معادٍ للولايات المتحدة وعن ضرورة محو "إسرائيل"⁴⁵⁵. في كانون الأول 1977، عُقد مؤتمر قمة لإقامة جبهة عربية رافضة للخطوة المصرية (الجزائر وليبيا واليمن ومنظمة التحرير وسورية والعراق) في طرابلس ليبيا. ولكن المزايدة العراقية استمرت. إذ إن العراق اشترط لمشاركته في هذه الجبهة أن تخرج سورية من لبنان وتعلن مقاطعتها لعملية السلام وتوافق على خطة لتحرير فلسطين والأراضي العربية.. وبقي أن يخلع الأسد قميصه.

ولم توافق سورية على شروط العراق التعجيزية، فاقترنت الجبهة على سورية تساندها الجزائر وليبيا واليمن ومنظمة التحرير. ثم بدأ العراق بعد أسابيع من رفضه الانضمام لهذه الجبهة التي من المفترض أنها دون تطلعاته القومية، التقرب من الدول العربية المحافظة القريبة من أميركا ومن السادات. فكانت مواقفه المتطرفة في قمة طرابلس مجرد دخان إعلامي. وأثبتت الوقائع زور الكلام الخشبي العراقي، حيث أعادت بغداد العلاقات القنصلية والتجارية مع القاهرة في شباط 1978 ولم يمض أكثر من شهرين على زيارة السادات لـ"إسرائيل". وما هي الا أسابيع قليلة حتى أعاد العراق كامل علاقاته الدبلوماسية مع القاهرة⁴⁵⁶.

ثم انقلب الوضع بين العراق وسورية في نهاية صيف 1978. ذلك أن توقيع السادات على اتفاقات كامب دايفيد وانهيار الموقف العربي في أيلول 1978 دفع إلى تقارب أكثر جدية بين سورية والعراق. بعد أيام من توقيع السادات معاهدة كامب دايفيد مع مناحيم بيغن رئيس وزراء "إسرائيل" في 26 أيلول 1978، أعلن البكر في الأول من تشرين الأول في لحظة حماس كبير وبدون استشارة صدام أن العراق على استعداد لإرسال قواته المسلحة لتعزيز قدرات سورية الدفاعية في الجولان، وعلى الاندماج مع سورية لخلق دولة عربية واحدة. ولم يتأخر حافظ الأسد في الرد على التحية بأفضل منها. وبعد محادثات تمهيدية، زار الأسد بغداد في 26 تشرين الأول والتقى البكر بحضور صدام. وخرج الجميع من اللقاء بإعلان "ميثاق العمل القومي" الذي ندّد بالسادات ودعا إلى توحيد الجهود العربية لمواجهة "إسرائيل". وبعد عشرة أيام من توقيع الميثاق، خطا البلدان الخطوة الأولى لتنفيذه، فأسسوا "اللجنة السياسية العليا المشتركة" لتحقيق هدف بناء "بلد واحد، شعب واحد، حزب واحد".

⁴⁵⁵ Chesnot, Christian, et Georges Malbrunot, *Irak, Saddam Hussein, portrait total*, Paris, Édition n°1, 2003.

⁴⁵⁶ أصبح صدام حسين العامل الرئيس في قبول العالم العربي بعودة العلاقات مع مصر بدون تخليها عن معاهدة كامب دايفيد، وعلى عودة الجامعة العربية إلى القاهرة من تونس عام 1989.

فوقَّع الأسد والرئيس العراقي أحمد حسن البكر في 26 تشرين الأول 1978 على "ميثاق العمل القومي" لقيام وحدة الجبهة المشرقية⁴⁵⁷. وزار صدام حسين وكان نائب رئيس الجمهورية السورية في كانون الثاني 1979 وفُتحت الحدود وأعطى العراق مساعدات مالية لسورية وأعاد فتح أنابيب النفط والتبادل التجاري. ثم عُقدت قمة عربية في بغداد أعطت سورية صفة قيادية عربية غير مسبوقة وأعطت العراق دوراً عربياً مهماً كان يفتقده منذ توقيع اتفاقية الجزائر عام 1975. وهكذا وبعد عشر سنوات من الخلاف بين سورية والعراق، التقى البلدان لمجابهة كامب دايفيد وتوافق على الوحدة⁴⁵⁸.

خلال العام 1979 سعى البكر إلى إقامة دولة تضم العراق وسورية بقيادة حزب بعث موحد. وبارك هذا المسعى حتى أكثر البعثيين العراقيين عداوة لسورية ما أدى إلى تجريد صدام حسين من كل حججه ضد الاتحاد. فاضطر للسكوت فترة. وكانت البيئة السياسية في المشرق ملائمة لهذه الخطوة لأن توقيع السادات صلحاً مع "إسرائيل" أغلق الجبهة المصرية وأضعف الجبهة المشرقية التي تديرها سورية إلى درجة كبيرة. وكان الحل العربي المقبول عراقياً وسورياً وعلى المستويات الشعبية والرسمية والحزبية هو إقامة دولة ذات عمق استراتيجي وجغرافي تعوض عن خروج مصر من الصراع العربي الإسرائيلي. فلم يكن مشروع قومي من هذا المستوى ليسمح بطموحات شخصية لأي كان، سواء كان صدام أو غيره، أن يعرقه. كما كان الرأي العام العربي يتساءل منذ زمن: ماذا ينتظر البلدان اللذان يحكمهما الحزب القومي الوجودي نفسه ويتشابهان في السكان وترابطهما علاقات جغرافية وتاريخية تعود آلاف السنين، لكي يتحدًا ويحققا حلم الملايين؟

أراد البكر أن يترك إرثاً يذكر مساهمته في العمل القومي فعرض على الأسد الاندماج الفوري، وأن يكون هو، أي البكر، رئيساً للجمهورية في مرحلة انتقالية بسبب سنه ثم يتقاعد ليستمر الأسد رئيساً للجمهورية الوحيدة. ورغم أن الفكرة راقت للأسد، إلا أنه كان على علم بأن صدام كان صاحب السلطة الفعلية في بغداد. فلو قبل الأسد برئاسة البكر الآن فإن صدام لن يتردد في السيطرة على مقاليد الحكم في ما بعد إلى درجة تهيمش سورية في دولة الوحدة.

من ناحيته عرض الأسد خطة تقتضي بناء مؤسسات وحدة لا يمكن لأي شخص فكفكتها وذلك للوصول إلى وحدة كاملة خلال خمس سنوات تنتهي في العام 1984. فوافق البكر ولكنه فضل تقليص المراحل التي اقترحها الأسد إلى سنتين ويبقى كل منهما رئيساً في بلده. ثم زار البكر دمشق في كانون الثاني 1979، وعرض على الأسد أن تكون الخطوة الأولى في مشروع السنتين هي دمج حزب البعث، طالما أن البعث هو حزب واحد ومن السهل إعادة توحيد أجهزته. والجدير بالذكر أن العراقيين سواء في حزب البعث أو خارجه قلباً وقالباً كانوا مع خطوة البكر. وذلك لم يسمح حماس العراق للوحدة مع سورية لصدام حسين بالمناورة. كما أن حزب البعث العراقي لم يعد يكثر في تلك الفترة لمسألة صلاحيات صدام في دولة الوحدة المرجوة، حيث طغت الصورة الكبيرة للوحدة مع سورية وهي أمل قومي جارفي.

⁴⁵⁷ لمزيد من التفاصيل عن التقارب السوري العراقي عامي 1978 و1979 راجع الفصل السادس من كتاب المؤلف، زلزال في أرض الشقاق، دار الفارابي،
⁴⁵⁸ in Syria under Assad: domestic "Ideology and power politics in Syrian - Iraqi relations, 1968 - 84" Amazia Baram,

constraints and regional risks, edited by Moshe Ma'oz and Avner Yaniv, London, Croom Helm, 1986, pp. 125 - 139.

ظنّ الجميع أن صدام حسين - البعثيّ القيادي والقوميّ - لا شكّ في أنّه سيؤيّد الوحدة ويسعى إليها مثلهم. وهكذا فإنّ تروّي الأسد وتأجيل المراحل التي يطلبها أحمد حسن البكر ربما كان خطأً استراتيجياً نفع صدام. في العام نفسه اشتعلت الثورة الإيرانيّة وعاد الخمينيّ منتصراً إلى طهران في 12 شباط 1979. فأرسل البكر رسالة تهنئة قصيرة للخميني تتمنى السلم الإقليمي. ولكن ردّ الخمينيّ برسالة تهديد: "السلام فقط مع الذين اتّبَعوا الصراط المستقيم"، ما يستثني نظام العراق العلمانيّ "الكافر" بنظر الخمينيّ. وأرسل حافظ الأسد تهنئة فردّ الخمينيّ بإيجابية وحماس. وهنا برزت تناقضات بين العراق وسورية إذ رحّبت سورية بالثورة الإيرانيّة وهذه الثورة اعتبرها العراق خطراً عليه وتهديداً لأمنه. خاصة أنّ الخمينيّ الذي أقام سنوات طويلة في النجف وطرده صدام قبل عام من الثورة الإيرانيّة، كان مصمّماً على مساعدة شيعة العراق لقلب النظام. وهذه كانت فرصة صدام.

فبعدهما وصف صدام الخمينيّ بأنّه "شاه جديد" متنكر بالعمامة، عمد إلى إلغاء خطوات الوحدة مع سورية، ممهّداً بتطهير صفوف البعث والإدارات العامة والقوى المسلّحة من المتحمسين للوحدة والمؤيدين للبكر. وهكذا جرّت المخابرات العراقيّة المئات إلى السجون وطرّد الآلاف من وظائفهم. ثمّ وجّه صدام تحذيراً للرئيس السوريّ لحفظ ماء الوجه: "إقبل وحدة اندماجية فوراً أو نُلغي كلّ شيء" على أساس أنّ الجانب العراقيّ سيكون رئيس دولة الوحدة. وكان صدام يعرف جواب الأسد غير المستعجل ف ضرب عصفورين بحجر واحد: هو زايد على الرئيس السوريّ في الوحدة وفي الوقت نفسه ضرب الوحدة. هنا اختار الأسد حفظ مقامه، فلم يردّ على صدام. وما كان من هذا الأخير الا أن سحب العراقيّين من اللجان المشتركة. ثمّ عزم صدام على إزاحة البكر. وقبل التنفيذ، زار الأردن واستشار الملك حسين الذي سيصبح حليفه الأول عربياً. ثمّ أجرى اتصالات مع دول عربيّة موالية للغرب لتأمين جو إقليميّ يسمح له بتبوء سدّة الرئاسة الأولى. فحصل على دعم أميركيّ وسعودي وأردنيّ، وخاصة أنه كان يرفض وحدة سورية - عراقية التي لو قامت لظهر مارد مشرقّي لن يكون مريحاً لـ"إسرائيل" وأطراف عربيّة وغربية. فأدرك هؤلاء أنّ صعود صدام في بغداد هو لمصلحتهم لأنّه سيقضي على تقارب العراق وسورية.

وفي 12 تموز 1979 إعتقل صدام محيي الدين عبد الحسين أمين عام مجلس قيادة الثورة وعدّبه فوشى عبد الحسين على زملائه. وأعلن مجلس قيادة الثورة أن محيي الدين عبد الحسين كان على رأس مجموعة من كبار الضباط كانت تسعى إلى قلب النظام بالتعاون مع سورية. وخلال أيام تمّ اعتقال العشرات وتوجيه تهم التآمر والخيانة إليهم. وفي 16 تموز ذكرى الانقلاب، تنازل البكر عن رئاسة الجمهوريّة حيث أعلن تقاعده لأسباب شخصيّة وأنه سيتنحى لصالح صدام وأن يكون عزت إبراهيم الدورّي نائباً للرئيس. والحقيقة أنّه في ذلك اليوم كان صدام قد حاصر مكتب البكر بالدبابات والمخبرات وأمره أن يذهب إلى بيته تحت الإقامة الجبرية. فكان إعلان البكر عن تنحيه مخرجاً تلفزيونياً.

ولم يكتف صدام بالقضاء على الوحدة مع سورية وإخراج البكر، بل أعلن بعد عشرة أيام (في 28 تموز 1979) عن اكتشاف شبكة تدعمها سورية تسعى لقلب النظام. وكان يقصد موظفي الحكومة وقياديين الدولتين الذين عملوا بشكل شرعيّ ورسمي في لجان الوحدة وتشاؤروا مع زملائهم السوريّين. فبدأ تنكيل جديد داخل البعث

العراقيّ جرّ الكثيرين إلى "محاكم ثورية". ويوم السابع من آب 1979، قامت هيئة "محكمة ثورية" بإصدار سلسلة أحكام عشوائية ضد المتهمين: الإعدام لـ 22 شخصاً بينهم خمسة من مجلس قيادة الثورة والسجن لـ 33 شخصاً والعفو لـ 13 آخرين. وتمّت الاعدامات في اليوم التالي بحضور صدام حسين. فأراق هذا التطهير دماءً كثيرة ولوحق وسجن أعضاء في البعث والقوات المسلحة والنقابات والإدارة العامة. إذ إنّ البعثيين الذين طالهم التطهير الصدامي كانوا على يسار البعث ويرغبون بتطوير العلاقة مع سورية ومنتقدون مسعى صدام للإبتعاد عن دمشق واقتربه من دول الخليج والسعودية. فلذلك كانوا يساهمون بجدية في مسعى البكر للوحدة مع دمشق وتوحيد الصف العربيّ لمواجهة كامب دايفيد. كما تعرّض أكثر من 500 مسؤول بعثي لفترات سجن رغم عدم ضلوعهم في "المؤامرة السورية". وتبع صدام هذه الحملة بحملة ضد القيادة القومية للبعث العراقيّ، حتى قضى على الروح الإيديولوجية للحزب وبقي الاسم فقط لمن يوالي شخص صدام وأفراد أسرته وأنسبائه.

وللتخلص من أخصامه القدامى الذين لا حول لهم على أيّ حال، وعلى طريقة "عصفورين بحجر" استغل صدام حملة التطهير وتخلّص من بعثيين متقاعدتين ثم أخرج المعتقل اليساريّ عبد الخالق السامرائي من السجن وأعدمه بتهمة التعامل مع سورية. وامتد التطهير ليطلق مدناً عراقية أخرى معممًا أسلوب المحاكم الثورية. وعرض التلفزيون العراقيّ أرقام هاتف ليتصل المواطنين ويساعدوا السلطة في العثور على "الخونة وأعداء الثورة". فوقع عدد غير محدّد من الأبرياء.

اعتبر الأسد انقلاب صدام والأحداث التي تلت في بغداد مسألة عراقية داخلية لا يجب أن تحجب هدف الجبهة المشرقية. ولذلك أوفد خدام وحكمت الشهابي إلى بغداد لتهنئة صدام بالرئاسة. ولكن صدام لم يُحسن الضيافة واستقبل الوفد السوريّ بجفاء وأخذ يتكلّم عن ضلوع سورية في مؤامرة ضد العراق اخترعها هو لتصفية دعاة الوحدة من العراقيين. ثم لجأ إلى أسلوب المزايدة القومية المعتاد وهذّب بإلغاء مشروع الوحدة إذا لم يوافق الأسد على "وحدة اندماجية فورية". فاعترض خدام والشهابي على اتهامه سورية بضلوعها بأي حدث داخل العراق وطلبوا أن يقدم صدام دليلاً على ضلوع سوريين لتقوم سورية بمعاقتهم. فأخرج صدام ولم يقدم سوى تسجيل صوتي غير واضح لأحد المتهمين يتحدث بشكل عام عن سورية والعراق. وحول الوحدة ردّ خدام والشهابي أنّ سورية لا تمنع في تسريع المراحل.

أدت حملة التطهير إلى تقليص قاعدة الحكم وتكثيف القوة في يد صدام ودائرة من أتباعه وأفراد عائلته من منطقة تكريت. فعدنان خيرالله (ابن خال صدام وشقيق زوجته الأولى ساجدة، وهو أيضاً زوج هيفاء ابنة البكر) أصبح نائب قائد القوى المسلحة ثم قائداً للجيش، وسعدون شاكر رئيس المخابرات أصبح وزيراً للدخلية، فيما تولى برزان التكريتي، شقيق صدام، المخابرات، وشقيقه الآخر وطبان منصب حاكم محافظة تكريت الموسعة التي أصبح اسمها "محافظة صلاح الدين". ولم يكتف صدام وأقرباؤه بهذه الهيمنة، بل تمّ تأسيس "مديرية التوجيه السياسي" في الجيش لتراقب الولاءات السياسية في القوى المسلحة. وقام صدام

بتوسيع أجهزة الأمن التي كان يسيطر عليها منذ العام 1974. وضمت هذه الأجهزة المخابرات العامة والاستخبارات العسكرية وغيرها من الأجهزة⁴⁵⁹.

ولم ينقص صدام الدهاء، فقد استوعب ردات الفعل على أفعاله. فقام في 16 آب 1979 بعفو عام عن السجناء وأخرج المعتقلين الشيعة والأكراد، ولكنهم استمروا في معارضتهم للنظام وأبقوا على عدم ثقتهم بصدام. وفي 29 آب 1979 زاد صدام مرتبات عناصر القوى المسلحة وقوى الأمن وموظفي القطاع العام. وفي خطاب إلى الشعب في كانون الثاني 1980، تعهد صدام بأن "العراق سيدخل مرحلة الديمقراطية" بانتخابات عامة للمجلس الوطني. وحصلت انتخابات مفبركة في 20 حزيران 1980 شارك فيها حسب الإعلام الرسمي 840 مرشحاً لـ 250 مقعداً خضعوا للجنة خاصة تمتحن قوة إيمانهم "بثورة تموز 1968". وقمّعت الشيوعيون عن الترشح. حتى أسفرت الخطوة عن مجلس صوري يهتف باسم صدام ولا يملك أي صلاحيات. ولكن حسنة هذا المجلس أنه منح لأول مرة تمثيلاً ولو ضعيفاً للشيعة حيث حدّد نسبة الشيعة من المقاعد بأربعين في المئة، كما سمح بتمثيل مناطق وفئات مختلفة لم تذوق طعم المشاركة في العراق منذ 1921. ولكن أحداث العراق الداخلية لم تعد مهمة وخلافات سورية والعراق عام 1979 تقرّمت أمام الزلزال الكبير الذي سيحدث تغييراً عميقاً في المنطقة، وهو سقوط الشاه في إيران وتحولها جمهورية إسلامية.

افتراق سورية والعراق بعد ثورة إيران

منذ 1960 أقامت "إسرائيل" شراكة مع شاه إيران من نتائجها إشعال حرب أهلية في العراق عبر دعم الأكراد ضد الدولة العراقية. وكان هدف إشغال العراق بوضعه الداخلي هو عرقلة دعمه لسورية ضد "إسرائيل" وعن مواجهة إيران حول سيادته على شط العرب. وكان شط العرب منطقة عراقية بالكامل وهو نهر بطول مئتي كيلومتر يصب في الخليج ويتشكّل من اندماج نهري دجلة والفرات وتتمتع ضفتاه بخصوبة وثروة. ولكن كيسنجر التقى الشاه عام 1972 وطلب منه الاشتراك مع أميركا في زعزعة استقرار العراق ودعم الأكراد لاستنفاد إمكانيات العراق العسكرية.

ولذلك ومنذ الخمسينيات كانت للعلاقة مع إيران قيمة استراتيجية هائلة لـ "إسرائيل". فكان المسؤولون الإسرائيليون من بن غوريون إلى إشكول وغولدا مئير ورايين وبيغن يقومون بزيارات دائمة إلى طهران لكسب ودّ الشاه. وساهم في تدعيم العلاقات مئة ألف يهودي إيراني هاجروا إلى "إسرائيل" وبناتوا صلة وصل هامة بين طهران وتل أبيب، وصل كثير منهم إلى مناصب هامة في الدولة العبرية، وأبرزهم رئيس "إسرائيل" السابق موشيه كتساف (كساب) وقياديون عسكريون كشاؤول ومفاز ودان حالوتس.

لقد خبر الأسد سياسة الشاه الذي يدعم مخططات تقسيم العراق ويطمع بثروات دول الخليج ومياه شط العرب وينقذ مآرب أميركا ويتحالف مع "إسرائيل". إذ عندما كان العراق يدعم الجهد العسكري السوري في

Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 205-459

الجولان عام 1973، جاء كيسنجر إلى طهران وطلب من الشاه أن يحرك الأكراد ضد الجيش العراقي. فنفذ الشاه وأطلق الأكراد لإنهاء العراق ما دفعه إلى التنازل عن شط العرب عام 1975 مقابل أن يكف الشاه عن مساعدة الأكراد. ودفعت انتفاضة الأكراد العراق إلى مفاوضة الشاه لحل الخلافات الحدودية والتنازل عن السيادة على الضفة الشرقية لشط العرب ووقف المطالبة بحقوق العراق في محافظة الأحواز التي ضمّتها إيران، ووقف التسهيلات للمعارضين الإيرانيين وطرد الزعيم الديني الإيراني آية الله روح الله الخميني من العراق. ومقابل كل هذا سيوقف الشاه دعمه لأكراد العراق وتتخلى أميركا عن الأكراد. وفي اليوم الذي وُقعت فيه الاتفاقية في الجزائر وسحب الشاه قواته من الأراضي العراقية وأقفل الحدود في وجه الأكراد. شنّ الجيش العراقي هجوماً على الأكراد منهيًا ثلاث سنوات من القتال⁴⁶⁰.

وحاول الأسد أن يقنع الشاه مباشرة بتغيير سياسته، فزاره في طهران في كانون الأول 1975 ودعاه إلى تبني مواقف أكثر حياداً في الصراع العربي - الإسرائيلي، طالباً منه التوسط لدى أميركا لتتبع سياسة معتدلة تجاه القضية الفلسطينية. ولكن الشاه لم يتجاوب، بل أمعن في سياسة عدائية ضد العرب وواصل تعاونه مع "إسرائيل"، وعمل مع بيغن ودايان لتدبير زيارة السادات إلى القدس عام 1977 وتوقيع اتفاقات كامب دايفيد عام 1978.

ولم تكن سورية ضعيفة في وجه الشاه. إذ إنّ ثمة خيوطاً ربطت دمشق بقيادة الثورة الإسلامية قبل سنوات عدّة من انتصارها في طهران، بدءاً بعلاقات مع الإمام موسى الصدر الذي أصبح من زوّار دمشق الدائمين في السبعينيات وصديقاً شخصياً للأسد، أفتى عام 1973 أنّ العلويين هم من الشيعة، في حين كانت حركة أمل من المنظمات اللبنانية الموالية لسورية ومن رحم "أمل" وُلد حزب الله الذي أصبح ثمرة لبنانية لتحالف سوري - إيراني مديد. وإضافة إلى الصلات في لبنان، أيدت سورية المعارضة الإيرانية وأوتت في دمشق الخميني وبعض القيادات الإيرانية (كمصطفى شمران وصادق قطب زاده وإبراهيم يزدي) ومنحتهم جوازات سفر سورية. وعمل قطب زاده في باريس تحت غطاء مراسل صحيفة الثورة السورية.

وكان الخميني قد اتخذ من سورية مركزاً له بعدما طرده صدام من العراق عام 1978 فمكث في دمشق شهوراً عدّة ثم انتقل إلى منزل في جوار باريس ومن هناك قاد الثورة التي أعادته إلى طهران مظفراً في 11 شباط 1979. وبعد انتصار الثورة، بعث الأسد رسالة تهنئة حميمة للخميني وأوفد وزير الإعلام أحمد اسكندر أحمد إلى طهران ومعه مصحفاً مذهباً. فأخذ الخميني المصحف وقبله وشكر سورية على حسن ضيافتها واحتضانها له في منفاه مؤكداً على صداقة البلدين. ثم أخذت العلاقات تتطوّر وتتشعب حيث لعب المسؤول السوري محمد ناصيف دوراً في تنميتها. وزار صدام طهران في آب 1979 كاشفاً "أنّ سورية دعمت الثورة

⁴⁶⁰ حاول الملا مصطفى البرزاني طلب المساعدة من الولايات المتحدة فأرسل نداءات عاجلة إلى كيسنجر والرئيس فورد وإلى الاستخبارات الأميركية بدون جدوى. فأدرك عمق المؤامرة على الأكراد وأمر مقاتليه وقف إطلاق النار لتحاضي المجزرة. واضطر إلى الهرب واللجوء إلى الولايات المتحدة. وأسفر الهجوم الحكومي عن مقتل 7 آلاف كردي وتهجير 200 ألف مواطن، وإقامة منطقة أمنية عازلة خالية من الأكراد كما نصّت اتفاقية الجزائر على عمق 10 إلى 15 كيلومتراً من الحدود، فنقل النظام مئات الألوف من الأكراد لإسكانهم بجوار المدن وفي مناطق أخرى.

الإيرانية قبل وأثناء اشتعالها وستستمر بدعمها بعد انتصارها". وبعد خمسة شهور من الثورة، بدأ مئات الشبان الإيرانيين يحضرون إلى دمشق ويجتازون الحدود اللبنانية للقتال ضد "إسرائيل".

قلقت "إسرائيل" من التقارب العراقي السوري لأنها تدرك استراتيجيّة الأسد لبناء جبهة مشرقية تعوّض خسارة مصر. وعندما نجحت ثورة إيران في أول شباط 1979 وسقط نظام الشاه، كان ظهور الخميني في طهران بالنسبة لـ "إسرائيل" وأميركا أكبر من الزلزال الذي أحدثه ظهور عبدالناصر على الساحة العربيّة عام 1955. إذ إنّ مصالح أميركا و"إسرائيل" تأدّت كثيراً بانتصار ثورة إيران التي اعتبرت أميركا "الشیطان الأكبر" ورفضت وجود "إسرائيل" واعتبرتها "الشیطان الأصغر". وأعلن قادة إيران الجدد إلغاء كافة الاتفاقيّات التي وقّعها الشاه مع "إسرائيل" وقطعوا العلاقات وأقفلوا سفارة "إسرائيل" وجعلوها سفارة فلسطين وأعطوها لمنظمة التحرير. وحظرت إيران النفط عن "إسرائيل" وأثارت الرعب في قلوب الحكّام العرب وحكومات الغرب على السواء.

بدأت سورية خطوات نحو تحالف مع إيران للحصول على عمق استراتيجيّ يسمح ببناء قدراتها الدفاعية بوجه "إسرائيل". فقد رأى السوريون أنّ من مصلحة العرب مدّ اليد لإيران بعدما أنهت "تاج الطاووس" حليف "إسرائيل" وشرطيّ أميركا في المنطقة، وها قد أصبحت إيران في المعسكر المناوئ للصهيونيّة والإمبرياليّة. فإذا كانت "إسرائيل" تنظر إلى المشرق بكامله كرقعة استراتيجية واحدة لمصالحها وتحالفت مع شاه إيران ومع تركيا وإثيوبيا ضد العرب، فإنّ الأحرى بدول المشرق وسائر العرب أن يحذوا حذوها الآن ويأخذوا إيران إلى حضنهم ومعسكرهم بعد سقوط الشاه.

اختصرت سورية نظرتها بأنّ "إسرائيل" أخذت مصر ولكنها خسرت إيران.. وإيران الآن من حصّة سورية. وكان هذا التحليل صحيحاً إلى حدّ بعيد. إذ إنّ مسعى سورية مع العراق لتوحيد البلدين وتقارب سورية من ثورة إيران ألقا "إسرائيل" التي كانت تراقب مناورات سورية لبناء جبهة مشرقية. وكانت استراتيجية "إسرائيل" المعاكسة تقضي منع قيام جبهة مشرقية لتصبح هي - "إسرائيل" - سيّدة برّ الشام.

إذ قبل 1979 كان تحالف "إسرائيل" مع شاه إيران بوليصة تأمين للتعكير على العراق وشلّه عن دعم سورية. ورغم أنّ "إسرائيل" نظرت إلى تقرب سورية من طهران خطراً عليها، معظم الدول العربيّة كان في موقع آخر. إذ وقف الأردن ودول الخليج والسعوديّة ومصر موقف العراق - وليس موقف سورية - بأنّ ثورة إيران تشكّل خطراً على العرب، وتقرب سورية من إيران يناقض سمعتها كبطلّة قومية بعد خروج مصر، وهي تتخلّى عن مبدأ عبدالناصر أنّ "العرب لا يتحالفون إلاّ مع عرب". وحتى موقف إيران الإسلاميّة من "إسرائيل" لم تحسّن نظرة هؤلاء إليها. بل اعتبروا أنّ طهران الفائزة بانتصار الإسلام تريد تصدير ثورتها فتهدّد الكويت والعراق ودول الخليج والسعوديّة ومصر.

كان عداء صدام لإيران هو الأسوأ بين القادة العرب. إذ إنّه لم يستجبّ لنداء الاستغاثة الذي أطلقته سورية إلى أشقائها العرب بعد معاهدة كامب دايفيد، وأيد أعداءها في لبنان وعمل على إغراقها في صراعٍ دام مع "إسرائيل" على الأرض اللبنانيّة. وحاولت سورية تخفيف التوتر بين إيران والعراق ليكون العرب جميعاً أصدقاء إيران وأنّ أولوية الصراع يجب أن تكون فلسطين حيث عدو الجميع "إسرائيل". ولكن مواقف دمشق

وبغداد لم تكن منسجمة أبداً تجاه الثورة الإيرانية⁴⁶¹. إذ إنَّ معظم أسباب سورية حول تقربها من إيران تهاوت أمام فهم مختلف في العراق الذي يشارك إيران بحدود طويلة:

- حول تقييم سورية للخميني كنفيز للشاه وخاصة بالنسبة للصراع العربي الإسرائيلي وعدائه لـ"إسرائيل"، رأى العراق أنَّ الخميني لا يقل خطراً عن الشاه ولن يخدع العراق بإسلامه: فهو قومي فارسي يريد مصالح إيران أولاً. وإلا فعليه أن يكف عن تدخله في شؤون العراق وينسحب من منطقة الأحواز وجزر طنب الصغرى وطنب الكبرى ويعترف بسيادة العراق على شط العرب.
 - وعن أنَّ ثورة إيران تحمل مناقبية إقليمية ويمكن التفاهم مع قيادتها، ردَّ العراق أنَّ إيران تأتي بثورة شيعية مذهبية وتحرض شيعة العراق على الانتفاض ضد دولتهم وإقامة جمهورية إسلامية، وتهدد بنشر ثورتها في الدول العربية.
 - وحول أنَّ إيران هي عمق استراتيجي في الصراع مع "إسرائيل" بالنسبة لسورية، رأى العراق أنَّ هذه الرؤية هي فقط من دمشق. في حين أنَّ العراق يعتبر إيران الخطر الحقيقي على حدوده هو. وأنَّ إيران تتوعد نظامه وتهدد وجوده ولا تهدد سورية. وأنَّ من مصلحة سورية مساعدة العراق على التصدي للتهديد الإيراني حتى يتسنى للعراق أن يقوم بواجبه في جبهة الجولان.
- ولا يمكن أن يُلام العراق على موقفه من الثورة الإسلامية الشيعية الطابع. فقد كانت ظروفه مشابهة للبنان وسورية: بلد متعدّد الديانات والأعراق، وليد اتفاقية سايكس بيكو، ضحية انتفاضة كردية في الشمال غداها الشاه و"إسرائيل"، ويواجه الآن انتفاضة شيعية في الجنوب يغذيها الخميني. فيما العرب السنة ومنهم معظم قادة البعث وأسرّة صدام هم في الوسط (في بغداد والمحافظات المجاورة) بين مطرقة الأكراد وسندان الشيعة. ولم يكن العراق نذراً كفوءاً لإيران الثورية التي تمتعت بشعبية عارمة ليس فقط داخل إيران بل في بيوت العراقيين حيث أغلبية السكان من الشيعة وكذلك في لبنان وسورية. كما كسبت ثورة إيران إعجاباً عربياً واسعاً في مصر والجزيرة العربية.
- بعد انفكاك مشروع الوحدة بين سورية والعراق وتعمق الجفاء بين صدام والأسد، تحوّل الخلاف الهادئ إلى عداء سافر وكان الموقف من إيران من أسبابه الرئيسية. وكانت المشكلة أنَّ سورية شخصت أنظارها غرباً باتجاه الخطر الإسرائيلي، والعراق شخص أنظاره شرقاً باتجاه الخطر الإيراني. ولم يلتقيا على عدو مشترك. فلم يمض عام على تبوء صدام سدة الرئاسة حتى وصلت العلاقات مع سورية إلى الحضيض.
- ومع عودة الصراعات والمواجهات الدامية بين سورية والعراق، شهدت سورية أعمالاً تخريبية متصاعدة، فقتل إرهابيون 70 شخصية من كوادر الإدارة العامة ومن حزب البعث في دمشق عام 1979. وقام تنظيم أبو نضال باغتيال زهير محسن قائد منظمة الصاعقة في منتجع "كان" الفرنسي في 15 تموز 1979. وفي آذار 1980 انعقد في بغداد مؤتمر واسع ضم أطراف معارضة سورية، هاجم النظام السوري بشدة، وكان من

Yair Hirschfeld, "The odd couple: Ba'athist Syria and Khomeini's Iran", in *Syria under Assad: domestic constraints and regional risks*, edited by Moshe Ma'oz and Avner Yaniv, London, Croom Helm, 1986, pp. 105 - 124.

المشاركين صلاح الدين البيطار الذي طالما رفض أن يذهب إلى العراق. وبالمقابل، زادت سورية من دعمها للمعارضين العراقيين وخاصة الأكراد بجناحيهم (البرزاني والطالباني) والحزب الشيوعي العراقي. كما أقام حزب الدعوة العراقي المعارض مكاتب له في دمشق. وفي آب 1980، اجتاحت قوى الأمن العراقية السفارة السورية في بغداد وطردت معظم دبلوماسيّيها بتهمة مساعدتهم معارضين عراقيين في الداخل وتهريب أسلحة ومتفجرات للشيعة.

أما الخميني فقد سعى إلى "التخلص من النظام العراقي". ودأبت طهران على توجيه حملات دعائية شرسة تدعو العراقيين إلى "قلب نظام حزب البعث الملحد" وعلى تقديم الدعم المادي والأسلحة للقيام بعمليات عسكرية ضد النظام وتنظيم مسيرات وتظاهرات في المناطق الشيعية ومحاوله اغتيال شخصيات رسمية. فبدأت حملة اغتالات وتفجيرات في أنحاء العراق قامت بها جماعات عدة أبرزها "حزب الدعوة". وتحوّل نداء المعارضة من المطالبة بالمشاركة في الحكم إلى هتاف للخميني وقيام جمهورية إسلامية في العراق وفتوى علمائية بتحريم العضوية في حزب البعث. وردّ صدام بسجن الآلاف وإعدام المئات. ومن ناحيته شنّ العراق حرباً إعلامية ضد إيران طيلة 1979 وقام بأعمال قمعية غير مسبوقة للقضاء على انتفاضة الشيعة. ثم نفى عشرات الآلاف من العراقيين إلى إيران.

وفي أول نيسان 1980، حاول أعضاء من حزب الدعوة اغتيال الوزير طارق عزيز في جامعة المستنصرية في بغداد. فسقط عدد من القتلى والجرحى. وضرب حزب الدعوة مجدداً في 5 نيسان أثناء مسيرة تأبين لقتلى الجامعة. فكان ردّ صدام قاسياً حيث أعلن حزب الدعوة منظمة محظورة تُعاقب عضويتها بالإعدام. فاعتقل المئات ونُفذ فيهم حكم الإعدام.

كان الغضب الشعبي عارماً في جنوب العراق، وخرج عشرات الألوف ففتحت قوى الأمن النيران على المتظاهرين وأصابت منهم مقتلاً واعتقلت الألوف الذين أُعدم قسم منهم في ما بعد. ثم قامت السلطة بنفي 200 ألف شيعي عراقي بتهمة أنهم من أصول إيرانية وكان بينهم آلاف التجار والأثرياء، صودرت أملاكهم وأموالهم. وبلغ غضب الشيعة حدّاً خلال 1980 بدا فيه أنّ جنوب العراق بأكمله بما فيه مدن البصرة والنجف والكوفة سينسلك عن العراق وينضمّ إلى إيران⁴⁶²، في حين سجّلت الأشهر الثمانية الأولى من 1980 أكثر من مئتين تصادماً عسكرياً على الحدود مع إيران.

وحتى عندما أعلن العراق الحرب على إيران في أيلول 1980 لم تتراجع سورية عن علاقتها بطهران ووقفت وحيدة مع إيران دون معظم الدول العربية. وعندما اتهمت الدول العربية المؤيدة للعراق وهي بأغلبية سنية، سورية بأنها تقف مع إيران الشيعية من موقع علويّ مذهبيّ. ومنذ الثمانينيات أصبح تحالف سورية مع مجموعات مقاومة في لبنان وفلسطين ومع إيران في صلب الاستراتيجية السورية وركن أساسي في سياسة سورية الدفاعية. لقد اختارت سورية التقرب من إيران الإسلامية في 1979 - 1982 أثناء حربها ضد التنظيمات الإسلامية المسلحة في حلب وحماة، والمدعومة من الأنظمة العربية السنية التي لم ترفع إصبعاً ضد "إسرائيل" والتي تتعاون مع الولايات المتحدة ولا تدعم سورية كفاية، بل تبادل سورية العداء كما فعل صدام حسين

⁴⁶² لمزيد من التفاصيل ترحى مراجعة كتاب زلزال في أرض الشقاق: العراق 1915 - 2015، لكامل ديب.

الذي لم يكتفِ بعبء سورية بل دعم معارضين سوريين ومدّهم بالسلاح، وواصل المزايدات والشعارات القومية. وفي تشرين الأول 1980 قطع العراق العلاقات مع سورية واتهمها بأنها تمدّ إيران بالأسلحة. كما انعقد في سورية مؤتمر "جبهة القوى الثورية والإسلامية والقومية في العراق" في 12 تشرين الثاني 1980، وصدرت مطبوعات معارضة عراقية في دمشق.

وفي كانون الثاني 1982، أعلنت سورية إحباط محاولة انقلابية أبطالها عسكريون وإسلاميون، هدفت إلى ضرب مقرّ الرئيس الأسد في دمشق ومكاتب حزب البعث بالطائرات. واتهمت سورية العراق بالتخطيط للمحاولة وتمويلها. وبدون قصد أفصح العراق عن دليل ضلوعه بنشره في الجرائد الرسمية في بغداد تفاصيل المحاولة التي لم تظهر في أي مطبوعة سورية أو لبنانية. ولم يتردّد الأسد عن تحميل العراق مسؤولية هجومات الإسلاميين داخل سورية في خطاب له في 7 آذار 1982. وفي 11 آذار 1982 أعلن معارضون سوريون قيام "جبهة التحالف الوطني لتحرير سورية" ومقرّها بغداد⁴⁶³. وشهد نيسان 1982 إعادة إغلاق خط أنابيب كركوك بانياس.

أما على الساحة اللبنانية، فقد استمرت المواجهات السورية - العراقية، وإن على وتيرة أخفّ بسبب غياب العراق لانشغاله في حربه مع إيران. فقد تمّ تفجير السفارة العراقية في بيروت في كانون الأول 1981⁴⁶⁴ ووضعت عبوات ناسفة في التاسع عشر منه في مجلة الوطن العربي اللبنانية الموالية للعراق في باريس. كما انفجرت عبوة ثانية في المجلة نفسها في باريس في 22 نيسان 1982.

ومنذ أيار 1983، اندلعت معارك في طرابلس في شمال لبنان بين فئات موالية لسورية وفئات موالية للعراق كحزب البعث العراقيّ وجماعة التوحيد الإسلاميّ وقوى فلسطينية تابعة لياسر عرفات. فتجددت الحرب السورية - العراقية في لبنان. وكان عرفات هذه المرة متحالفاً مع العراق ضد سورية وفئات فلسطينية ولبنانية أخرى. وانتهت معركة طرابلس مرة أخرى بانتصار سوريّ. ورافق تراجع الجماعات الموالية للعراق في لبنان صعود المنظمات الموالية لإيران في صفوف شيعة لبنان، وخاصة بعد الغزو الإسرائيليّ عام 1982. فظهرت تنظيمات حزب الله وحركة المستضعفين في الأرض والجهاد الإسلاميّ، ودخلت لبنان قوات من الحرس الثوريّ الإيرانيّ للمساهمة في المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيليّ. وكان شيعة لبنان موزعين بين أحزاب شيوعية وقومية سورية وعربية وقلّة في حركة أمل. ولكن ثورة إيران وضرب سورية لأحزاب الحركة الوطنية ومقتل كمال جنبلاط واختفاء موسى الصدر، كلّها عوامل أدّت إلى صحوّة شيعة في لبنان وبداية "شيعة سياسية".

أصيب الأسد بصدمة عند اشتعال الحرب بين العراق وإيران. فبنظره كانت الحرب خاطئة لأنها ستتهك العرب وتلهيهم عن الصراع الأساسيّ ضدّ "إسرائيل". وإذ تموضعت سورية إلى جانب إيران، قطعت بغداد علاقاتها مع دمشق وسط اتهامات بالخيانة والعمالة. وبدأت وسائل الإعلام العراقية من صحف ومجلات وإذاعة وتلفزيون تنشر تصريحات لصدام أنّ الأسد سلّم القنيطرة للإسرائيليين بدون قتال في حرب 1967 وأنّه طلب وقف إطلاق النار بعد يوم من بدء حرب تشرين 1973 وأنّه غزا لبنان عام 1976 بالتواطؤ مع واشنطن وتل

⁴⁶³ أصبحت الجبهة في ما بعد "الجبهة الوطنية لإنقاذ سورية".

⁴⁶⁴ من ضحايا هذا التفجير بلقيس قباني زوجة الشاعر السوري نزار قباني.

أبيب، وأن دم الفلسطينيين على يدي الأسد في مجزرة تل الزعتر عام 1976. وأن الأسد خزب مساعي وحدة سورية والعراق قبل عام، الخ. وبديهي أن تردّ سورية على هذه الحملة بكلام مماثل عن صدام بأنه عميل أميركيّ شنّ حرباً على دولة صديقة للعرب هي إيران تريد أن تساهم معهم في تحرير فلسطين وأنه باع شط العرب للشاه عام 1975، وأنه يدعي أنه بعثي ولكنه يدعم أخطر حرب إرهابية أصولية طائفية على سورية، وأن صدام سحب القوّات العراقية من جبهة الجولان حيث مكانها الطبيعي، وأنه متعطش لسفك دماء العراقيين الأكراد والشيعة، وحتى دماء بعثيين مثله قتلهم بالعشرات عام 1979 بدم بارد. وكانت الحرب العراقية الإيرانية عام 1980 قد اشتعلت في أوج حرب سورية ضد الأخوان المسلمين في الداخل، وبعدها تراكمت الأدلة عن دعم العراق للإرهاب والتفجير داخل سورية. فامتدّ التعاون السوري - الإيراني إلى الشؤون العسكرية والاستخباريّة والأمنيّة من إمدادات السلاح إلى تبادل المعلومات الأمنيّة والحملة الإعلامية ودعم النشاطات المناهضة لنظام صدام داخل العراق. وتطوّرت العلاقات بين إيران وسورية على الصعيد الاقتصاديّ ففتحت خطوط جوية إلى مطار دمشق عام 1981، وتمّ توقيع اتفاقات في قطاعات النفط والسياحة والتبادل التجاريّ. وعوّضت إيران سورية خسارة النفط العراقيّ بمدها بالنفط الإيرانيّ بأسعار مخفضة ضمن اتفاقات تجاريّة واسعة بين البلدين. وبدأ تنفيذ الاتفاقات السياحيّة فأخذت الوفود السياحيّة الإيرانيّة تصل سورية ليفوق عددها المليون سائح خلال بضعة أعوام.

21 | تفجير سورية من الداخل

الاستحقاقات الإقليمية من اتفاق سيناء 2 واشتعال حرب لبنان عام 1975 واتفاقات كامب دايفيد وغزو "إسرائيل" للبنان في آذار 1978، إلى معاهدة كامب دايفيد في أيلول 1979، جاءت معها أزمة داخل سورية بدأتها الجماعات الإسلامية بوتيرة أخذت تستعر وتشتدّ كلما زادت التحديات الخارجية لسورية. وكادت الأزمة الداخلية تؤدّي إلى فتنة وحرب داخل سورية⁴⁶⁵.

لقد انعكست حرب لبنان سلباً على الداخل السوريّ كما سبقت الإشارة وخاصة بعد تدخل سورية في لبنان عام 1976 إلى جانب الرئيس سليمان فرنجية والجهة اللبنانية. وكان العامل الاقتصاديّ مهماً أيضاً بعدما خفّضت السعودية ودول الخليج مساعداتها الماليّة لسورية وتحملّ الخزينة السوريّة تكلفة القوات السوريّة في لبنان. كما تدفّق على دمشق والمدن الأخرى مئات ألوف اللبنانيين الهاربين من الحرب وعاد من لبنان عشرات آلاف العمّال والمزارعين السوريّين. وكل هذا شكّل عبئاً على مؤسسات الدولة وضغطاً سكانياً واقتصادياً سلبياً.

تحديّ الإخوان المسلمين

كان تحديّ الإخوان المسلمين قد انتقل إلى العلن في نهاية السبعينيّات. حيث أخذوا ومن موقع مذهبيّ يهاجمون نظام الحكم الذي يرأسه حافظ الأسد بأنّه "حكم علويّ" وأنّ ادّعاء النظام العلمنة ليس سوى جريمة أخرى تعكس هرطقة العلويّين وكفرهم⁴⁶⁶.

كلّما ضعفت الدولة السوريّة كانت حركة الإخوان تعود إلى الظهور وتقوى شوكتها، وكلّما قويت الدولة خبا بريق الحركة وعملت بالسرّ⁴⁶⁷. ولكنّ جماعة الإخوان وحتى أواخر السبعينيّات لم تكن لتبلغ من القوّة حدّاً يهدد النظام. بالمقابل كان حزب البعث يحقّق صعوداً غير مسبوقٍ وخاصة في أوساط السنّة منذ الخمسينيّات، ما أغضب الإخوان وصعد عداءهم للبعث.

لقد كانت المواجهة بين البعث العلمانيّ وحركة الإخوان المسلمين الدينيّة وكأنّها قدر لا يُردّ. إذ منذ خروج الحزب السوريّ القوميّ من الساحة عام 1955 وإضعاف الحزب الشيوعيّ منذ انقلاب البعث عام 1963، بقي الإخوان خصماً رئيسياً للبعث⁴⁶⁸. كما أنّ توجّه الدولة منذ 1963 نحو ملء الشواغر في المدارس الرسميّة

Elizabeth Picard, « Y a-t-il un problème communautaire en Syrie? », *Maghreb - Machrek*, no. 87, janvier - mars 1980, pp. 7⁴⁶⁵

- 21.

Alasdair Drysdale, Syria's troubled Ba'ithi regime, *Current History*, vol. 80, no. 462, 1981, pp. 32 - 38.⁴⁶⁶

Michael Hudson, "The Islamic factor in Syrian and Iraqi Politics", in J. Piscatori, *Islam in the Political Process*, Cambridge,⁴⁶⁷

1983.

Umar Abd-Allah, *The Islamic Struggle in Syria*, Berkley, California, Mizan Press, 1983, pp. 88 - 100.⁴⁶⁸

بمعلمين ومعلمات من حزب البعث استغلّه الأخوان للنشاط داخل المدارس ولتحريض الطلاب ضد البعث الكافر وخلق نعمة سنّية دينية⁴⁶⁹.

كانت الحكومة السوريّة في ربيع 1964 تركّز اهتمامها على التهديدات المستجدة من العراق بعد انقلاب عبدالسلام عارف الذي أطاح بالبعث هناك وبات يشكلّ تهديداً لسورية. فتشجّع خصوم البعث في سورية من يمين ويسار ورفعوا رأسهم في تحدّي السلطة دون أن يخلو الأمر من حوادث طائفية الطابع. فاندلعت أحداث نيسان، وسرعان ما تحوّلت إلى جهاد ديني مسلّح ضد السلطة لأنّ الأخوان اعتبروا حكم البعث الكافر إهانة للذات الإلهية والقضاء على البعث هو تكليف شرعي للمسلمين.

بدأت الأحداث بمواجهات مسلّحة بين سنة وعلويين في بانياس، اتخذت طابعاً خطراً واحتاجت إلى تدخل الجيش لوقف امتدادها. كما اندلعت أعمال شغب في حمص وهاجم غوغاء مراكز الشرطة في حلب. كلّ هذا وسط هجوم إعلامي ناري بلا هوادة من إذاعات القاهرة وبغداد، تصبّ الزيت على نار التحريض الطائفي. فكانت القاهرة تتدّد "بالبعث الكافر" وتنتعت قاداته بأنهم "ليسوا عرباً وليسوا مسلمين"، ولا تتوانى عن استعمال صفات عنصريّة وطائفية كان يجب أن يربأ بنظام عبدالناصر القومي العربيّ أن ينطق بها. فأشعل الإعلام المصريّ مشاعر السنّة في سورية وأوغر في صدورهم مشاعر سلبية ضد "حكم الأقليات" الذي جاء به البعث وعلمانيّته الملحده⁴⁷⁰. وكان الناصريّون والأخوان المسلمون في سورية يقطفون ثمرة هذه الحملات الطائفية بسبب انتشارهم الكثيف في أوساط سنّة المدن.

ثم جاء دور حماة التي كانت عاصمة القوى اليمينية المحافظة التي سلبتها ثورة أكرم الحورانيّ من أراضيها وحرّمها البعث من نفوذها السياسيّ. فكان دعم حماة للأخوان المسلمين لافتاً في عمق الحقد في أوساط سكانها على سلطة البعث. وكانت حركة الأخوان منتشرة في كلّ سورية، ولكنّها كانت قويّة خاصة في حماة. وفي نيسان 1964 اشتعلت أحداث شغب في حماة أخذت طابعاً عنيفاً رافقها تخزين السلاح. فتدخّل رئيس الحكومة أمين الحافظ شخصياً وزار المدينة حتى هدأ الوضع. ولكن ما أن غادر المدينة حتى صعد الشيخ محمود الحامد إلى مأذنة مسجد السلطان حاملاً راية الإسلام موجّهاً نداءات الجهاد: "الله أكبر! إما الإسلام أو البعث!". فتردّد صدى نداءه في أنحاء المدينة حيث كزّرت مكبرات الصوت عبارة "البعث أو الإسلام" طوال الليل. وتولّى الأخوان المسلمون ورجال الدين ورجال الإقطاع نقل السلاح وتوزيعه. وهرع مسلّحو الأخوان إلى إقامة الحواجز على الطرقات الرئيسيّة وفتحوا مخازن السلاح والمؤن. وهاجموا المتاجر التي تبيع الخمر واعتدوا على مراكز البعث. وقبل أن يفلت الأمر من يد حمّد عبّيد قائد "الحرس القوميّ" في حماة، تدخّل الجيش معزّزاً بالدبابات والمدفعية وقصف أزقة المدينة حيث احتشد المسلّحون. وجرى قتال في الشوارع، فأبدى الأخوان مقاومة استمرّت يومين ثم انسحبوا إلى "مسجد السلطان" الذي جعلوه مستودعاً لأسلحتهم،

Thomas Mayer, "The Islamic opposition in Syria, 1961 - 1982", *Orient*, vol. 24, 1983, pp. 589 - 609.⁴⁶⁹

Hans Guenter Lohmeyer, "Islamic Ideology and Secular Discourse, The Islamists of Syria", *Orient*, vol. 32, 1991, pp. 395 - 470

وواصلوا إطلاق النار على الجيش. حتى أمر أمين الحافظ بضرورة القضاء على المخربين فقصف المسجد وقضى عدد من المسلحين تحت أنقاضه.

سقط في معركة حماة 70 قتيلاً من مسلحي الإخوان المسلمين وجرح واعتقل عدد كبير. وشارك مروان حديد وجماعته في معركة مسجد السلطان فاعتقل ثم أطلق سراحه بعد أشهر. ولكنه لم يردع بل عاد إلى تنظيم خلايا سرية وتوزيع السلاح.⁴⁷¹

أحداث حماة أشعلت سورية وتلقفتها المعارضة الأخوانية - الناصرية بأنها أسطح دليل على عداء البعث للإسلام. كما أعطت الشرارة المطلوبة في القاهرة وبغداد لإشعال فتنة الحرب الأهلية في سورية بين سنة وعلوين. ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد، إذ خرجت تظاهرات وانطلقت أعمال شغب في أكثر من مدينة سورية، وتصاعد مطلب عودة الديمقراطية وإطلاق سجناء الرأي. ولئن كان الوضع الاقتصادي صعباً، فإن أعمال الشغب تشعبت في أنحاء سورية وركب قاطرة الدومينو معظم معارضي النظام: في المدن الرئيسية خرج أصحاب المتاجر الصغيرة والمتوسطة بمطالب محددة تناسب وضعهم، وانضم اليهم الطلاب والمعلمون والمهندسون والعمال والمحامون والموظفون. فكبرت لائحة المطالب لتضم نداءً لإطلاق الحريات العامة وسراح المعتقلين السياسيين وانهاء حال الطوارئ وعودة الحياة الديمقراطية عبر انتخابات حرة. فاستيقظت سورية يوم 20 نيسان 1964 وقد شملت الانتفاضة مدنها ومحافظاتها كافة. وتحول ما بدأ مؤامرة تحركها القاهرة وبغداد وتمولها سفارتاهما، إلى انتفاضة عفوية لفعاليات الشعب. وكان اشتراكيو الحوراني قد لعبوا دوراً هاماً في هذه الانتفاضة ولكنهم أُخرجوا في أن يكونوا جنباً إلى جنب مع الإخوان المسلمين والقوى الطائفية والرجعية، فقلصوا تعاونهم. وبرز تنظيم في دمشق هو "ميليشيا العمال" يقودها خالد الجندي (من الطائفة الإسماعيلية)، وتسليحها الحكومة. وعمل هذا التنظيم على قمع الانتفاضة، ما ساهم في إخمادها. وكان مروان حديد الذي سجن في أحداث حماة قد خرج وعمل على تأسيس جماعة مسلحة باسم كتائب محمد عام 1965. وفي أحداث دمشق في مطلع 1965 وقعت معركة مسلحة في وسط دمشق بين السلطة وجماعة مروان حديد الذي سيكون سبباً في اشتعال أحداث عام 1976.

وفي 25 نيسان 1967 أيضاً استغلّت الجهات الدينية والمحافظات في البلاد نشر مقال ينتقد التدين في مجلة للجيش، فخرجت تظاهرات ودعوات الإضراب وتصادمت قوى الأمن مع المعارضين في عدد من المدن. وخرجت تظاهرة في دمشق شارك فيها 20 ألف شخص. وأقفلت الأسواق فأثبت الإسلاميون عمق سيطرتهم على الشارع. ولجأت الحكومة إلى إعادة تسليح ميليشيا العمال لإنهاء إضراب تجار دمشق عبر كسر الأقفال ومصادرة المحتويات أحياناً، وتمكّنت السلطة من اعتقال مدبري أعمال الشغب ورؤوس التحريض وصادرت أملاكهم. واتهمت سورية الأردن والسعودية بأنهما وراء أعمال الشغب في سورية التي جاءت في أوج التهديدات الإسرائيلية، وطردت دبلوماسيين سعوديين نشطين في دمشق اتهمتهم بتمويل التحرك.

Patrick Seale, ASAD, p. 93.⁴⁷¹

الديري، عبدو، أيام مع القدر: صفحات من الذاكرة، حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية، واشنطن، منشورات سورية الحرة، 2007، ص.ص. 173-175.

صعود الإسلاميين 1967 - 1973

لم ينتبه مسؤولو الدولة إلى أن خطر الإسلاميين كان ناراً تحت الرماد. وكان الإسلاميون قد حصّنوا هيكلتهم التنظيمية ونشطوا في تكوين الخلايا وتخزين السلاح وخلق شبكة واسعة من العناصر التي استعملت أسماء حركية وتدرّب على استعمال السلاح وخوض المعارك. كما أصبحت علاقاتهم الخارجية ومصادر تمويلهم قوية ومتعددة⁴⁷². وبرز عدد من القادة على الساحة السورية منهم عصام العطار. وظهر شقاق بين العطار وقادة في الحركة خاصة أنه كان ينتمي إلى المدرسة السلفية الوهابية التي لا تعترف بالمذاهب الفقهية السنية الأربعة التي تتبعها مناصروه وأغلبية السوريين السنة. ما باعد بين الحركة ورجال الدين السنة في سورية. وهكذا أعطى العطار صبغة سلفية على جماعة الأخوان فتأزم الوضع داخل الحركة في نهاية 1969. وكان قد انعقد مؤتمر سرّي للأخوان في دمشق، فوقع الشرخ داخل المؤتمر بين قادة دمشق وقادة مدن الشمال (حلب وحمص وحماة واللاذقية) حيث أيد قادة الشمال الجهاد المسلح وطلبوا إزاحة العطار، تؤيدهم قاعدة شعبية مهمة في التنظيم. ولم يُحسم الأمر مع حلول العام 1970 فانشق الأخوان إلى جناحين، مع العطار وضده. ومع الوقت حصل قادة الشمال على اعتراف تنظيمات الأخوان في العالم باستثناء أخوان دمشق الذين بقوا على خط العطار. وذهب القادة الجدد في اتجاه الجهاد المسلح في السبعينيات يسمحون لمن يثقون به أن يودع سلاحاً في منزله بعد فترة تدريبية ومن ثم يكلفونه بمهام في الحي الذي يقطنه، كأن يراقب مسؤولي البعث والمباني الرسمية. وكانت تلي هذه المهام مرحلة ثقة أعلى بتكليف هؤلاء الشبان القيام بعمليات إرهابية كإطلاق الرصاص أو التفجير.

تصاعد صوت الإسلاميين داخل سورية بعد اشتعال حرب لبنان عام 1975 فكانوا يخرجون في مظاهرات علنية يتحدّون النظام ويطلقون الهتافات والشعارات المعادية للبعث. وبرز مروان حديد زعيم حركة كتائب محمّد من مسجد البارودية في حماة الذي جعله مركزاً له، ليطلق الخطب المعادية للبعث. ولم تكن جماعة حديد جزءاً من الإخوان، ولكنها كانت أكثر تطرفاً تستفز الدولة وتفضّل الصدام والعمل المسلح. والتقت القيادات الشماليّة بحديد ومجموعته على أهداف مشتركة وتصاعد نشاط حديد بالشغب ضد النظام عشية إصدار الدستور الجديد عام 1972 فوضع لائحة بأسماء بارزة في الحزب والدولة بهدف الإغتيال، وواصل بناء خلايا جهادية.

كانت السلطة تميّز بين النشاط السياسي السلمي للإسلاميين وبين النشاط الإرهابي. ولكن في العام 1975 أخرج حديد السلطة عندما أخذ يصرّح علناً بكلام قاس ضد النظام ويتوعّد بإسقاطه، ما خلق أرضية كافية للسلطة التي طوّقت مركزه في 29 أيار 1975 واعتقلته بعد معركة بالسلاح. فبدأ إضراباً عن الطعام في 1976 وتدهور وضعه الصحي فنقل إلى مستشفى حرسنا العسكري وتوفي في حزيران 1976. فخرجت التظاهرات خاصة في حماة وأعلنه الإسلاميون شهيداً وأقسموا على الانتقام له وعلى شنّ الحرب ضد البعث وضد العلويين، ذلك

Richard Mitchell, *The Society of Muslim Brothers*, London, Oxford University Press, 1969.⁴⁷²

أنَّ نسبة العلويين المرتفعة في البعث والجيش والقطاع العام جعلتهم هدفاً للإسلاميين. ليبدأ صراع مرير بين الدولة والتنظيمات المسلّحة الإسلاميّة. وبدأت المرحلة الأولى من المواجهة بين الدولة والأخوان⁴⁷³.

المرحلة الأولى 1976 – 1979:

كان شهر حزيران 1976 شرارة انطلاق حربٍ إسلاميّة ضد البعثيين ومكاتب الحزب ومراكز الشرطة والسيارات العسكريّة والثكنات العسكريّة والمصانع والخبراء الروس وأي هدف يمكن الإسلاميين الوصول اليه. وفي 1977 أخذ الإسلاميون زمام مبادرة، بعدما تحصّنوا في عمق الأحياء الشعبيّة التاريخيّة في المدن الكبرى وخاصة في حلب وحماة. وكانت أساليب عمليات الاغتيال التي يقومون بها تقزّز النفوس، تضمّنت اغتيال مسؤولين أثناء نومهم في بيوتهم⁴⁷⁴. وفي الفترة من 1976 إلى 1982، طالت الاغتيالات عناصر أمنيّة وكوادر بعثيّة معظمها من العلويين وطلاباً علويين وعدداً من رجال الدين السنّة الذين استنكروا الاغتيالات، وخبراء سوفيات. وكان المسلحون الإسلاميون يؤمنون بعقيدة دينيّة فولاذيّة لا تهاب الموت. إذ عندما كانت قوى الأمن تطوّق أحدهم بعد عمليّة ما، أو تعثر على مخبئهم، كانوا يقاتلون بشدّة، وفي حال تعذّر الفرار كانوا يهاجمون الشرطة وجاهياً وقد زُنّروا خواصرهم بأحزمة ناسفة.

المرحلة الثانية 1979 – 1980:

تركّزت المرحلة الثانية على مدينة حلب وبداية مرحلة جديدة أكثر عنفاً ومواجهة، حيث وقع هجوم إرهابي أدى إلى انطلاق حرب الدولة ضد الإرهاب الإسلاميّ. إذ أثناء حفلة تخرّج في مدرسة المدفعية في حلب في 16 حزيران 1979، قام عسكريّ يدعى إبراهيم يوسف بجمع الطلاب في قاعة الطعام ثم سمح لمسلحي الأخوان المسلمين بدخول المدرسة وفتح النيران على هؤلاء الطلاب. فقتلوا 32 طالباً وجرحوا 54 آخرين⁴⁷⁵. وعلى الأثر، دخلت القوى الأمنيّة الرسميّة المدينة بقوة وشنّت حملة مدامات واعتقالات، فهدأ الوضع لفترة ثلاثة شهور.

حتى 1979 كانت سورية تتهم العراق بتمويل وتسليح الإرهابيين الذين كانوا يقومون بالتفجيرات والاغتيالات. ثم طلب الأسد من بغداد أن يتعاون البلدان لمواجهة تداعيات السلم المصريّ الإسرائيليّ. ولكن استمرار الأعمال الإرهابية أقتنع أجهزة الأمن أنّ الخطر كانت له جذور داخلية عميقة وأنّ هذا الخطر أصبح يهدّد أمن الدولة واستقرار البلاد. وإذ أصبحت أعمال التخريب والقتل شبه يومية باتت الدولة تعلن أنّ من

⁴⁷³ Umar Abd-Allah, *The Islamic Struggle in Syria*, p. 109.

⁴⁷⁴ قتل الإسلاميون في حماة البعثي عبدالعزيز العدي في سريه أمام زوجته وأطفاله ورموا جثته إلى الشارع، وهاجموا منزل البعثي أحمد الأسعد مرات عدّة. كما طوّقوا منزل البعثي علي بدوي في حلب وقتلوا شقيقه.

⁴⁷⁵ Olivier Carré et Gérard Michaud, *Les Frères Musulmans 1928 - 1982*, Paris, 1983, p. 135.

يقوم بهذه الأعمال هم أعضاء حركة الأخوان المسلمين والتنظيمات الإسلامية المسلحة التي حملت أسماء مختلفة. وكانت هذه التنظيمات تتمتع بامتدادات في أوروبا وبعض الدول العربية ولكنها كانت رأس جبل الثلج لقاعدة شعبية عريضة تؤيدهم داخل سورية⁴⁷⁶. لقد أطلقت الخلايا السرية داخل سورية مجلة النذير في 31 آب 1979 والتي كانت أكثر عنفاً كلامياً ولهجة عدائية من أي مطبوعة إسلامية أخرى⁴⁷⁷، دأبت على نشر تفاصيل الوضع داخل سورية وخصّصت التقارير عن عمليّات الإسلاميين في كل مدينة ومنطقة وقسم بعنوان "أنباء السلطة الباغية"⁴⁷⁸.

اشتعلت دوامة العنف في حلب في تشرين الأول 1979 عندما اعتقلت الشرطة إمام الجامع الكبير الشيخ زين الدين خيرالله لنشاطه التحريضي في خطب الجمعة. وكان ابن شقيقة هذا الشيخ رجل يدعى حسني عبو، أمير المجاهدين في منطقة حلب ويقود جماعة باسم "الطليعة المقاتلة" التي ظهرت كأبرز تنظيم مسلح في سورية. إذ إنّ الإسلاميين ردّوا على اعتقال خيرالله بحملة تظاهرات صاخبة واغتيالات وتفجيرات. وأمر بيان للأخوان بمقاطعة الاحتفال بعيد الأضحى. وقامت الدولة بحملة لوقف تدهور الوضع الأمني، فجرت مدهامات واعتقالات حتى وقع عبو نفسه بيد الشرطة وحوكم عليه بالإعدام وأعدم. فخلفه في قيادة الطليعة المقاتلة مهندس من القنيطرة يُدعى عدنان عقلة، مخطّط هجوم المدرسة الحربية في حلب (قُتل هو أيضاً عام 1982).

وأصدر الإسلاميون بياناً في 2 تشرين الثاني 1979 باسم قيادة الثورة الإسلامية في سورية أعلنوا فيه أنّ "جهادهم قد دخل مرحلة تصميم جديدة إلى أن يسقط حافظ الأسد"⁴⁷⁹. وخلال عامين من الشغب والعنف في حلب سقط 300 شخص ضحية الإسلاميين كان بينهم 12 رجل دين من السنة نذدوا بأعمال الإرهاب. وبالمقابل قتل رجال الأمن الفين من الإسلاميين واعتقلوا الآلاف الذين خضعوا للتحقيق تحت الضرب. لقد بدت الدولة صامدة ومستمرّة في مواجهة النار بالنار.

وفي هذه الأجواء عُقد المؤتمر القطري التاسع لحزب البعث في كانون الأول فخرجت مؤشرات إلى تحوّل جذري في سياسة الدولة للتصدّي للتحديّ الأصولي بالقوة. إذ برز رفعت الأسد وألقى خطاباً أنّ المواجهة المقبلة هي الدفاع عن دولة البعث ومَن ليس مع النظام فهو عدو له وأنّ على سورية أن تكون مستعدّة للتضحيات. وطلب إطلاق يده لأنّ الإسلاميين اعتبروا رجال الدولة كفره وهم قرّروا قتل الكفرة. ولكن الرئيس الأسد بأسلوبه المتربّث كان لا يزال يحاول سلك طريق المؤسسات والإصلاح الاجتماعي والإداري. فعين عبدالرؤوف الكسم رئيساً للوزراء لمعالجة الأمور بالوسائل السلمية. فعمد الكسم وهو شخصية معتدلة إلى سلسلة إجراءات لتحسين الوضع الاقتصادي والاجتماعي، ورفع رواتب موظفي الدولة والقطاع العام وواصل

Yosef Olmert, "Syria", *Middle East Contemporary Survey*, Vol. VI, 1981 – 1982, edited by Colin Legum, new York, Holmes⁴⁷⁶ & Meier, 1984, pp. 845 – 878.

Thomas Mayer, "The Islamic opposition in Syria 1961 – 1982", *Orient*, vol. 24, no. 4, December 1983, pp. 580 – 609.⁴⁷⁷

Umar Abd-Allah, *The Islamic Struggle in Syria*, Berkeley, California, Mizan Press, 1983, pp. 83-84.⁴⁷⁸

Umar Abd-Allah, *The Islamic Struggle in Syria*, p. 110.⁴⁷⁹

الحملة ضد الفساد والمفسدين بمعاونة وسائل الإعلام. ولكن الإجراءات فشلت وكشفت تقارير أن الأجهزة الأمنية مخترقة من الإسلاميين، حيث دُق ناقوس الخطر عندما اكتُشف أن جهاز أمن الدولة الذي يقوده محمد الخولي المقرب من الأسد كان مخترقاً من عناصر إسلامية عملت لصالح الجماعات الدينية واستطاعت نقل معلومات خطيرة تضمّن أسماء كبار رجال الأمن والمخابرات في الدولة وأرقام لوحات سياراتهم. وكان الإسلاميون قد انتقلوا في مطلع 1980 إلى أعمال أكثر جرأة، ينشبون الحرائق في الأبنية الحكومية والحزبية ويأمرون الأسواق بالإقفال. ثم بدأوا مرحلة أكثر تحدياً في آذار 1980. إذ أخذوا يدعون إلى تظاهرات معادية للنظام بغية إشعال حركات عصيان شعبية في مدن عدة. فأقفل الإسلاميون وسط حلب التجاري لمدة أسبوعين. وانتقل العصيان إلى مدن حماة وحمص وإدلب ودير الزور ثم إلى مدينة الحسكة. ووُزعت منشائر في سوق الحميدية في وسط دمشق تدعو التجار إلى الإقفال. ولكن دمشق أثبتت ولاءها للدولة، حيث دعا بدر الدين الشلّاح رئيس اتحاد غرف التجارة في سورية كبار رجال الأعمال إلى اجتماع أعلن فيه أن تجار سورية لن يرضخوا للابتزاز. ففشل الإسلاميون في استقطاب دمشق، خاصة أن الأسد حرص منذ بداية عهده على كسب ود المدينة⁴⁸⁰.

كان الأسد لا يزال يحاول مواجهة الأزمة بمؤسسات الدولة والقانون ويلجأ اندفاعاً الأجهزة الأمنية ويمنع الاعتقال الاعباطي. ولكن بعد أربع سنوات من التفجيرات والاعتقالات، بدأ تحوّل سورية نحو النظام الأمني الذي سيتكرس في العقدين المقبلين. ذلك أن ما هدّد به شقيقه رفعت بات مطروحاً تنفيذه الآن. ويعتقد مراقبو سورية أن استعمال رفعت أسلوب القبضة الحديدية ضد الإسلاميين هو الذي أنقذ النظام من الانهيار. وربما كان هذا صحيحاً، ولكنه جعله دولة أمّنية.

عندما امتنعت أسواق دمشق عن مسيرة الإسلاميين، تشبّع الأسد واطمأن إلى أن ثمة رأياً عاماً يناهض الإسلاميين ولن يعترض إذا ضربتهم الدولة بقوة. فأخذت الدولة المبادرة، وخرجت وحدات عسكرية ووُزِع السلاح لأول مرة على عناصر الحزب وأنصاره للدفاع عن أنفسهم. وتكوّنت مجموعات مدنية مسلحة في تحوّل كشف أن الشارع السوري لم يعد محايداً بين إسلاميين وقوى أمن بل يميل إلى النظام الحاكم. لقد يئس الناس من الوضع بعد ثلاث سنوات من العنف والاعتقالات وإقفال الأسواق والمتفجرات في المدارس والمتاجر. وفي 8 آذار 1980، فيما اعتُبر إشارة من الدولة لتخليها عن القفاز المخملي وبدء الهجوم المضاد، ألقى الأسد كلمة بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لثورة البعث هاجم فيها زعماء الحركات الإسلامية بأنهم "تجار دين" وتوعدّ بأنه سيأخذهم بالشدة والقسوة: "نعم أنا أؤمن بالله وبرسالة الإسلام.. وكنْتُ ولا أزال وسأبقى مسلماً، كما ستبقى سورية قلعة فخورة برفعها علم الإسلام عالياً. ولكن أعداء الإسلام الذين يتاجرون بالدين سيتم سحقهم". وفي اليوم التالي، 9 آذار 1980، حضرت قوى أمن منقولة بطائرات هليكوبتر إلى مدينة جسر الشغور حيث كان إسلاميون يهاجمون ثكنات الجيش ومراكز الشرطة ومكاتب حزب البعث. وقامت قوى الأمن بعمليات مدهامة واعتقال واسعة فسقط مئتي قتيل واقتيد العشرات إلى محاكم ميدانية.

⁴⁸⁰ بدرالدين الشلّاح، التاريخ والذكرى قصة جهد وعمر، دمشق، طبعة المؤلف، 1990.

وفي 12 آذار 1980، أرسلت السلطة اللواء الثالث في الجيش إلى مدينة حلب، ضمّ عشرة آلاف جنديّ و250 دبابة وملاحة بقيادة اللواء شفيق فياض. وبعد محاولات عدّة للتفاوض مع المسلّحين وقياداتهم في المدينة ولم يستجب هؤلاء، انضمت إلى اللواء قوى عسكريّة من سرايا الدفاع التي يقودها رفعت الأسد ومن منظمات البعث. وفي أول نيسان 1980 فتحت الدبابات نيرانها باتجاه معازل الإسلاميين في حلب تلتها أعمال مدهامة أسفرت عن اعتقال المئات "لتخليص حلب من طاعون الأخوان المسلمين". وبين آذار وأيار 1980، شنت قوى الأمن هجمات عدّة في مناطق نفوذ الأخوان المسلمين وقتلت 200 شخص في جسر الشغور و42 شخصاً في سوق الأحد و83 شخصاً في حي هنانو في حلب و200 شخص في حي البستان في حماة⁴⁸¹.

في تلك الأثناء كان الرئيس الأسد يواصل حملاته الإعلاميّة ضد الإسلاميين، فبعد كلمته في 8 آذار 1980، بدأ سلسلة خطابات في عدد من المؤتمرات. وبدأ غاضباً يدعو إلى العنف الثوريّ المسلّح ضد العنف الرجعيّ للإسلاميين، بعكس كلامه الهادئ والتوفيقيّ في السنوات السابقة. فلاقت خطاباته تجاوباً وحماساً في صفوف الحاضرين. وكان الأسد مقتنعاً أنّ حربه ضد الإرهاب هي صراع ضد مؤامرة عريضة على سورية تشارك فيها دول عدّة بأجهزة مخابراتها ولم تكن مجرد معارضة داخلية عادية. ولاحظ أنّ "ساعد القتلة داخل سورية قد اشتدّ كثيراً بعد توقيع معاهدة كامب دايفيد في أيلول 1979". وأنّ سورية ضحيّة "تحالف بشع" من أعداء الداخل والخارج. واتهم الأسد المخابرات الأميركيّة بأنّها كانت تشجّع عمليات التخريب في سورية تمهيداً لإخضاع العالم العربيّ بأكمله للهيمنة الأميركيّة - الإسرائيليّة.

وكانت حركات معارضة أخرى قد اشتتّت من تصاعد تحرك الأخوان المسلمين منذ خريف 1979 أنّ النظام بدأ يضعف وقد ينهار، فنشطت في شباط وآذار 1980. حيث قامت نقابات الأطباء والمهندسين والصيادلة والمحامين بإضراب في 31 آذار 1980 ضد قمع حقوق الإنسان في سورية وضد خطابات الأسد حول عزمه على استعمال "العنف الثوريّ" الذي يُعطي قوى السلطة الحق بقتل المسلّحين في المواجهات والاقتحامات. فكان نصيب المضربين أن نقاباتهم أوقفت عن العمل ورُمي قادتها في السجن.

محاولة اغتيال الأسد

أصبح حافظ الأسد نفسه هدفاً للإسلاميين. ففي 26 حزيران 1980، جرت محاولة لإغتياله أمام قصر الضيافة في دمشق أثناء استقبال رئيس دولة أفريقيّة، حيث رمى مسلّحون عليه قنبلتين يدويتين وأطلقوا زخات من الرصاص. فنجا بعدما دفع القنبلة الأولى بعيداً عنه، ثم قام حارسه الشخصيّ الفلسطينيّ بحجب القنبلة الثانية بجسده فقتل الحارس على الفور.

أحدثت محاولة الاغتيال غضباً عارماً في أوساط قيادة الحزب وأركان الدولة مع دعوات إلى الانتقام. وجنّ جنون رفعت أن السيف قد وصل إلى رقبة أخيه. فبدأ ردّه على المحاولة خارج العاصمة. إذ في فجر اليوم

⁴⁸¹ صبحي حديدي، "مجزرة حماه والتجربة السورية في محاربة الإرهاب"، القدس العربي، 11 كانون الثاني 2002، ص. 19.

التالي 27 حزيران، نقلت مجموعة من سرايا الدفاع جواً، حطت في سجن تدمر حيث نفذت إعداماً بحق 500 سجين بالأسلحة الرشاشة والقنابل اليدوية معظمهم متهم بالانتماء إلى الأخوان المسلمين. وتلى مجزرة تدمر إصدار القانون رقم 49 في 7 تموز 1980 يحظر حركة الأخوان المسلمين في سورية ويفرض عقوبة الإعدام على أعضاء الحركة الحاليين والسابقين. ومنح القانون فترة سماح مدة شهر تبدأ في 8 تموز. فتجاوب بضع مئات ولكن القوة الأساسية القتالية والقيادية لم تتزحزح. وتواصلت حملة الدولة في الشهر التالي فوجهت ضربات صارمة رداً على أعمال إرهابية في حلب في آب 1980. واستمرت حملة اللواء الثالث في حلب عاماً كاملاً قبل القضاء على العصيان حيث انتشرت الدبابات في كل شارع رئيسي واتخذت ميليشيا البعث مكاتب لها في أنحاء المدينة. وحتى مع كل هذا الجهد في حلب، كاد الأمر يبدو مستحيلًا لو لم يتعب أهل المدينة من العنف المتواصل في أحيائهم ويتعاونوا مع السلطة ويرشدوا إلى منازل الإسلاميين ومخابثهم⁴⁸².

وبدلاً من أن تتراجع بعد ثلاثة أعوام من المواجهات، أعلنت الحركات المسلحة في بيان 10 تشرين الأول 1980 تأسيس الجبهة الإسلامية في سورية لإطاحة النظام وإقامة دولة تحت راية الإسلام. واستعمل بيان الجبهة كلاماً يرضي كافة أطراف المعارضة السورية بأن الجبهة الإسلامية تسعى إلى إقامة دولة تحترم حرية الرأي واستقلالية القضاء وإلى انتخابات حرة وإصلاح زراعي⁴⁸³. وقاد الجبهة الشيخ محمد أبو النصر البيانوني (من حلب) ومعه سعيد حوّا (من حماة) وعدنان سعد الدين (من حمص)⁴⁸⁴. وحظيت هذه الجبهة بالدعم من جهات في مصر والسعودية والأردن والعراق، وبدأت تجذب أذان رأي عام عربي وعالمي يصغي لطروحاتها وتتسابق الصحف ووسائل الإعلام لمقابلة زعمائها. والتقى أركانها على عقيدة الإسلام المناهضة لفكر البعث العلماني وجذوره الطائفية التي "حوّلت حقد العلويين إلى حقد مقابل عند أبناء السنة" لا سيما في الأوساط المتشددة، وأدت إلى انتقامات ثأرية من العلويين حتى لو كانت رداً على عمليات الجيش السوري في لبنان ضد أصوليين سنة⁴⁸⁵.

وإذ ركبت الموجة أحزاب وحركات أخرى غير دينية، كمناهضي الأسد من بعثيين سوريين وعراقيين في بغداد ومن شيوعيين ويساريين، أخذت تعزف على أوتار شديدة الحساسية للنظام. كأن تتهم الأسد بأنه حاد عن الخط القومي العربي وأنه لا يتخذ موقفاً من مشاريع أميركا السلمية وأنه تعاون مع كيسنجر لتوقيع اتفاقية فصل القوات في الجولان، وأعطى السادات حجة ليمضي في حلّ منفرد. وأنه يدعي احترام قدسية القضية الفلسطينية ثم يعمل على نحر المقاومة في لبنان عام 1976، وأنه تأمر مع "إسرائيل" لاحتلال لبنان وتقاسمه معها بموجب الخطوط الحمراء، وأنه مسؤول عن ابتعاد مصر عن الصف العربي وعن انهيار مفاوضات الوحدة مع العراق. وكانت المهزلة في هذه الاتهامات أن ما من مصيبة في سورية والمنطقة العربية إلا ورمى هؤلاء مسؤوليتها على الأسد.

Patrick Seale, *ASAD*, p. 328.⁴⁸²

Hanna Batatu, "Syria's Muslim Brethren", *MERIP Reports*, vol. 12, no. 9, November - December 1982, p. 12-20. The article⁴⁸³ analysis the 1980 program of the Syrian Muslim Brothers.

.113 Umar Abd-Allah, *The Islamic Struggle in Syria*, p. 484

⁴⁸⁵ عبدو الديري، الجزء الثاني، ص. 46-47.

المرحلة الثالثة 1981 - 1982: في 1981 بدأت حملة جديدة من التفجيرات والاغتيالات طالت كثيرين وبعضهم مقربون من الأسد⁴⁸⁶. وحصل توافق في مطلع 1981 بين قيادات الأخوان وعصام العطار ضمن إطار الجبهة الإسلامية لتنسيق التعاون داخل سورية. وفي 17 آذار 1981، داهم مسلحون منزل العطار في آخن ولم يجدوه فقتلوا زوجته بنان الطنطاوي⁴⁸⁷.

وفي العام 1981 انتقلت الحرب إلى داخل دمشق نفسها. ففي آب فجر الإسلاميون سيارة مفخخة أمام مكتب رئيس الوزراء وفي أيلول فجروا سيارة مماثلة أمام مركز قيادة سلاح الجو، وفي تشرين الأول قنبلة ثالثة أمام مركز للخبراء السوفيات. ثم كانت العملية الأكبر في دمشق في 29 تشرين الثاني 1981. إذ فجر الإسلاميون عبوات في حي الأزيكية في وسط المدينة حيث يقع مجمع الأجهزة الأمنية، فسقط مئات القتلى والجرحى (وذكرت مجلة النذير مقتل 500 شخص)⁴⁸⁸. وإذ أثبتت هذه التفجيرات فشل الأمن في حماية دمشق نفسها تحولت العاصمة إلى معسكر يعج بقوى الأمن وحواجزهم. وانتشرت دوريات الشرطة والأجهزة الأمنية بشكل غير مسبوق وأصبح تفتيش السيارات والأشخاص أمراً معتاداً. وبلغ الرعب مداه حتى بات الناس يخافون الخروج بعد غروب الشمس، فيما خاف الحزبيون الخروج على الأقدام حتى في النهار، وغاب كثيرون عن أماكن العمل. وإذ قام الإرهابيون بتفجير محلات السوبرماركت الرسمية، وجد بعض العائلات صعوبة في شراء الأغذية. وحتى الأسد نفسه لم يعد يظهر في احتفالات علنية.

معركة حماة

معركة مدينة حماة عام 1982 كانت المواجهة الحاسمة بين الطرفين. إذ إن حماة مثلت الرفض السني لدولة البعث منذ 1963. ولم تُستثنَ حماة من بعض أوجه حملة السلطة. إذ في نيسان 1981 اعتقلت قوى الأمن عشرات الذكور وأطلقت عليهم النار⁴⁸⁹.

في ليل 2 - 3 شباط 1982، وفيما كانت دورية جيش تقوم بجولة داخل حماة اكتشفت مخبأً للمسلحين صودف أنه مركز القيادة السرية لقائد الجماعات المسلحة في حماة وهو عمر جواد الملقب بـ"أبي بكر". فمن عمق الأحياء الشعبية القديمة كان هذا يدير شبكة خلايا مسلحة عبر جهاز اتصال. وكان يحرس المخبأ قناصة على سطحه. فأطلقوا الرصاص على عناصر الجيش التي كشفت المكان وأردوا عدداً من الجنود. وسرعان ما حضرت قوى إضافية من الجيش وحاصرت عمر جواد. فأعطى جواد الأوامر لرجاله بإشعال انتفاضة عامة في كل المدينة. ولبت الجماعات نداء جواد فأصيئت المآذن وانطلقت صيحات الجهاد من مكبرات الصوت وخرج مئات المسلحين وهاجموا منازل مسؤولي البعث وموظفي الدولة ورسميين آخرين. فقتلوا من عثروا عليه

⁴⁸⁶ من ضحايا الإرهاب الديني في كانون الأول 1980 صديقان للأسد: يوسف الصايغ وكان مختصاً في أمراض القلب، ودرويش الزوني، عضو الجبهة الوطنية التقدمية.

⁴⁸⁷ Umar Abd-Allah, *The Islamic Struggle in Syria*, p. 102.

⁴⁸⁸ Umar Abd-Allah, *The Islamic Struggle in Syria*, p. 189.

⁴⁸⁹ Patrick Seale, *ASAD*, p. 331.

ونهبوا ما وجدوه. وداهموا في الوقت عينه مراكز شرطة وثكنات وأماكن تجمع الجيش. وظهرت قوّة الميليشيات الإسلاميّة التي ملأت زوايا الشوارع بمئات المسلّحين.

وأشرق صباح 3 شباط 1982 على وضع شديد الخطورة في سورية، إذ ظهر مدى قوّة الإسلاميين في مدينة رئيسيّة وهالت السلطة سرعة سيطرتهم على حماة: خلال أربع ساعات تمكّن الإسلاميون من اغتيال سبعين شخصيّة بعثيّة وإعلان المدينة "محزرة". فكان هذا الحدث غير المسبوق نذير شوّم. ولوهلة سيطر الذعر في أوساط السلطة بعدما تبين أنّ جهد خمس سنوات من الحرب ضد الإسلاميين بدا خائباً. وبالمقابل نجح الإسلاميون في قتل مئات من أبرز الشخصيات العلويّة المتعلّمة والكفوءة في سورية وفي زعزعة شرعيّة النظام. فكانت خلاصة مداوات الحكومة في دمشق أنّ معركة حماة هي المفصل الذي سيحدّد مصير البلاد: إمّا أن تستمر سورية دولة مدنيّة بقيادة البعث وإمّا أن تصبح دولة إسلاميّة بأيدي الإرهابيين تهدّد مصير الأقليات الدينيّة وتزعزع كيان لبنان.

خلال أيام طوّقت السلطة حماة بـ12 ألف جنديّ ومسلّح، وجرت عمليّات إنزال بطائرات الهليكوبتر لتعزيز دفاعات ثكنة الجيش داخل المدينة. فبدأت معركة استمرّت أسبوعاً استطاعت السلطة إخضاع معظم ضواحي المدينة. فارتدّ المسلّحون إلى الأحياء الداخليّة وعمد الجيش إلى قصف الأحياء بالمدافع والدبابات وفجّر مهندسو الجيش بعض المنازل والأبنية لكشف المواقع. واستغرقت عمليّات التمشيط بضعة أسابيع، فسقط آلاف المدنيّين وسويّت أحياء تاريخيّة بالأرض جراء القصف ودخول الدبابات.

أسفرت معركة حماة عن مصرع الآلاف وذكّرت منظمة العفو الدوليّة أنّ الرقم يمكن أن يكون عشرة آلاف قتيل⁴⁹⁰ وبلغ عدد المفقودين 15 ألفاً، وتهجّر 100 ألف من سكان المدينة. كما سقط المئات من عناصر القوى النظاميّة ومنظّمات البعث في المواجهات الدامية ومُحيت أحياء بالكامل ولحق الدمار والنهب متحف قصر العظم و54 مسجداً و4 كنائس.

جاءت معركة حماة صادمة بوحشيّتها وباستعمال الدولة للقوّة الغاشمة. واعتبر باتريك سيل أنّ "وحشية العقاب في حماة قد أقفل مرحلة هامة من تاريخ سورية من مواجهة بين البعث والإسلام وبين العلويّين والسنة وبين الريف والمدينة"⁴⁹¹. وفي خطاب ألقاه الأسد في 7 آذار 1982، حدّر من "الموت ألف مرّة للأخوان المأجورين الذين ارتبطوا بأعداء الأمة والوطن وعملوا لدى الإمبرياليّة والصهيونيّة والقوى الرجعيّة"⁴⁹².

⁴⁹⁰ Patrick Seale, *Assad: The Struggle over the Middle East*, p. 333.

⁴⁹¹ Patrick Seale, *Assad: The Struggle over the Middle East*, p. 333.

⁴⁹² "Can the al-Assad Regime Make Peace with Israel?", J. Scott Carpenter, Tuesday 21 April 2009, *Policy Watch* #1508.

انكسار الإسلاميين

حطّ الإسلاميين في إسقاط النظام في سورية كان شبه معدوم منذ البداية، كما رأى محلّون⁴⁹³. إذ رغم إيمان قادتهم بقدرتهم على ذلك، فإنهم كانوا أقوياء في التخريب والاعتيال ولكن ضعفاء في الاستراتيجية وفي العمل السياسي، غاب عن عملهم برنامج عمل وآمنت بهم القوى اليمينية داخل سورية من متزمتين وإقطاعيين سابقين وبعض أبناء العائلات العريقة القديمة. فالرأي العام داخل سورية الذي نشأ خلال عقد كامل من حكم البعث كان مؤيداً للنظام وكان ضد الإسلاميين⁴⁹⁴. وحتى أوساط الإسلاميين اعترفت أنّ الجبهة الإسلامية افتقرت إلى التخطيط لإشعال ثورة في كل سورية واستمرت الانشقاقات في صفوفها وغاب الدعم الشامل في سورية لثورة كهذه، برز بوضوح عندما لم تكن أحداث دمشق بمستوى حماة وحلب⁴⁹⁵. وكان الافتقار إلى الدعم الشعبي الشامل والشعور بالفشل وصراع البقاء أسباباً في انضمام الجبهة إلى ائتلاف معارض أوسع بعد معركة حماة هو التحالف الوطني لتحرير سورية الذي أعلن في بيان "ميثاق التحالف الوطني" في 11 آذار 1982 وضمّ الإخوان المسلمين وبعثيين معارضين للنظام وناصرين واشتراكيي الحوراني وجماعات أمين الحافظ وحمود الشوفي وشخصيات مستقلة. ولكن أطرافاً في الجبهة الإسلامية انتقدت انضمام الإخوان إلى هذا التحالف غير الإسلامي لأنّ ذلك يعني ذوبان منطلقات الإخوان الفكرية في إطار أوسع علماني المنحى. وما أثار أعضاء الجبهة ضد التحالف كان مشاركة الفرع السوري لحزب البعث العراقي وإقدام عدنان سعدالدين على مديح البعث العراقي، حيث قال: "إنّ البعث العراقي مبني على ناس مؤمنين وصادقين.. وهو يختلف تماماً في تركيبته واتجاهاته عن البعث في سورية"⁴⁹⁶.

انتصار الدولة في معركة حماة جلب راحة البال للناس، واطمئنتانها أنّ الحرب التي أشعلها الإرهابيون داخل سورية قد خمدت أخيراً. وبدا أنّ تحوّل عميقاً قد ظهر. إذ إنّ الأسد وبعد غياب عن الأعين استمرّ شهوراً خرج إلى الشارع في دمشق في 7 آذار 1982 بمناسبة الذكرى التاسعة عشرة لثورة البعث، فحملته الجماهير الغفيرة على الأكتاف لمدة ساعتين من قصر الضيافة إلى مبنى البرلمان حيث ألقى كلمة⁴⁹⁷. لقد خرجت شخصية الأسد الحذر الذي ذاق اللوعة من أعداء الداخل والخارج ومن ألعاب الدول الكبرى و"إسرائيل" ومن الأشقاء العرب، واجتاز عشر سنوات من الحرب العسكرية والديبلوماسية مع "إسرائيل" وأمريكا. فكانت الحرب الداخلية ضد الإسلاميين امتداداً بنظره للصراع السوري - الإسرائيلي، وأنّ إشعال الأعداء لحرب داخلية

J.P. Péroncel - Hugoz, « Les Frères Musulmans sont autant affaiblis par leurs divisions que par la répression », in *Le Monde*,⁴⁹³ 16 septembre 1982.

Raymond Hinnebusch, "The Islamic movement in Syria: sectarian conflict and urban rebellion in an authoritarian -⁴⁹⁴ populist regime", in *Islamic resurgence in the Arab world*, edited by Ali Dessouki, New York, Praeger, 1982, pp. 138-69.

Umar Abd-Allah, *Islamic Struggle in Syria*, pp. 193 - 194.⁴⁹⁵

⁴⁹⁶ "مقابلة مع عدنان سعدالدين، الوطن العربي، باريس، 16 - 22 نيسان 1982.

⁴⁹⁷ "الموت الف مرة للإخوان المسلمين" مقتطفات من كلمة حافظ الأسد بمناسبة الذكرى التاسعة عشرة لثورة البعث 7 آذار 1982، من صفحة الويب

<http://www.presidentassad.org/speeches/SP/82-84/82/SP7-3-82.HTML>

في سورية كان جزءاً من مؤامرة كامب دايفيد، مؤامرة طويلة الأمد لإضعاف العرب أولاً وعقاباً لسورية لأنها لم تستسلم ثانياً.

وكان على سورية التنبه أنّ محاولة تفجيرها من الداخل كما حصل في لبنان كان في سياق إقليمي أوسع وأنّ معركة شباط في حماة سبقت معركة أكبر هي الغزو الإسرائيلي للبنان وتطويق سورية.

22 | الحرب المشرقية – الإسرائيلية 1982

التوازن الاستراتيجي

أمام خروج مصر واشتعال حرب لبنان وتضعف العالم العربي، كانت سورية تعمل لبناء الجبهة الشرقية وبدأ أنها بدأت تنجح، وخاصة بعدما وقّع السادات وبيغن وكارتر على اتفاقيات كامب دايفيد قرب واشنطن في أيلول 1978. وجاء الأسد إلى بغداد للمشاركة في قمة عربية من 2 إلى 5 تشرين الثاني 1978، حضرها كافة الزعماء العرب باستثناء السادات. وحذرت القمة مصر من مغبة الاستمرار في سلام منفرد مع "إسرائيل" وأن إجراءات عربية ستتخذ في حال توقيعها معاهدة سلام ومنها مقاطعة العرب لمصر وتجميد عضويتها في الجامعة العربية ونقل الجامعة إلى تونس. وقررت قمة بغداد دعم الجبهة الشرقية بمبلغ 1.8 مليار دولار لسورية سنوياً ولمدة عشر سنوات و1.2 مليار للأردن و150 مليون لمنظمة التحرير و100 مليون للبنان و150 مليون لدعم صمود الأراضي المحتلة. وأرسلت القمة وفداً برئاسة رئيس الحكومة اللبنانية سليم الحص إلى القاهرة ليعرض على مصر 5 مليارات دولار سنوياً لمدة عشر سنوات لتراجع عن اتفاقات كامب دايفيد. ولكن السادات رفض استقبال الوفد وشم الزعماء العرب بأنهم "أولاد".

نجحت قمة بغداد في توحيد الصف العربي وراء سورية وتحسين الموقف السعودي الذي كان متردداً حول التنديد باتفاقات كامب دايفيد كي لا تغضب واشنطن. وأصبح الأسد هو القائد الفعلي للعرب كما بدا من تفاصيل مؤتمر القمة.

وإذ تحدد يوم 26 آذار 1979 موعداً لتوقيع معاهدة كامب دايفيد، بدأت سلسلة تطورات في المنطقة. إذ إن السوفيات رموا بثقلهم إلى جانب سورية، فحضر غروميكو إلى دمشق في اليوم نفسه لتوقيع معاهدة كامب دايفيد وأكد التزام موسكو تسليح سورية وتحسين دفاعاتها. ونفذ العرب ما قرروه في بغداد، فقطعوا علاقاتهم الدبلوماسية مع القاهرة وطردت مصر من الجامعة العربية التي نقلت مركزها إلى تونس، وكذلك من المؤتمر الإسلامي، ولقبت الصحف العربية السادات بـ"المنبوذ". وفي أوائل نيسان 1979 زار سايروس فانس دمشق والتقى الأسد. وشرح الأسد لفانس أن إدارة كارتر لم تقدم لسورية شيئاً على الإطلاق وأن الأسد أصيب بخيبات أمل عديدة من السياسة الأميركية في المنطقة في السابق.

لقد بنى الأسد الآمال العظام لتحرير الأرض العربية من حرب 1973، وهو الهدف الذي خصص الجهد الأكبر من سنواته الأولى. فكانت النتيجة عام 1979 أن الضفة وغزة والجولان أصبحت مهددة بالابتلاع أكثر من أي وقت مضى بسبب استعجال السادات وصلحه المنفرد الذي جعل مصر شريكاً لـ"إسرائيل" وقضى على النظام العربي والأمن العربي المشترك. وهكذا ظهر في دمشق مفهوم "التوازن الاستراتيجي" (strategic parity) الذي أخذ يتطور بعد معاهدة كامب دايفيد وخروج مصر ليطمئن سياسة دفاعية وسياسة خارجية وسياسة اقتصادية⁴⁹⁸. أن الحرب هي التي تحرر الأرض كان منطقاً سورياً بامتياز ليس لأن سورية خاضت عقدين من الحروب وكانت على احتكاك دائم مع "إسرائيل"، فهذا انطبق على مصر أيضاً. بل لأن الصراع في بر الشام ضد المشروع الصهيوني هو وجودي بالنسبة لكيانات المشرق، وسورية ستقف له بالمرصاد. وأن أي تقدم

⁴⁹⁸ بشير الداوق، اشتراكية البعث ومنهجه الاقتصادي، بيروت، دار الطليعة، 1974.

لـ"إسرائيل" على جبهات الأردن وسورية ولبنان هو خسارة مصيريّة لهذه الكيانات تماماً كما كان بالنسبة لفلسطين.

وسورية محكومة بهذا الصراع الذي يهدّد وجودها كله وهي إذ تصمد في وجه "إسرائيل" تمثّل سداً للدفاع عن الأمة. ومن هذه النظرة تكتسب القضية الفلسطينية ويصبح للعداء لـ"إسرائيل" أهمية استثنائية في سورية وهي نظرة سورية قلّة من العرب شاركوها بها وهي: أنّ "إسرائيل" دولة صغيرة من بضعة ملايين نسمة زرعها الاستعمار وسط العرب وتريد أن تحتلّ أراضيهم باسم العقيدة الصهيونيّة وتفرض نفسها دولة إقليمية تحصي أنفاسهم وتجلب ملايين المستوطنين الغرباء وتتكلم على التمويل والتسليح والدعم غير المحدود من الغرب، ومن أميركا تحديداً. فلا ينفصل مصير سورية نفسها عن مصير فلسطين.

كما أنّ سورية هي دولة نهضويّة بامتياز تفرض أن يصبّ ما يقوم به حكّامها في الهدف القوميّ وهو نهضة العرب واستقلالهم. فالأمة العربيّة خضعت أربعة قرون للحكم التركي، ولكن ما إن خرج الأتراك عام 1918 حتى دخل الأوروييون ليمارسوا استعماراً لم تعرفه البلدان العربيّة من قبل وقاموا بتجزئتها واستغلالها اقتصادياً. ثم غادر الاستعمار ولكنّه زرع دولة "إسرائيل" التي لعبت الأمر نفسه إضافة إلى استيطانها السرطانيّ الذي طرد السكان العرب وحلّ مكانهم، والتي أرادت التوسّع بدون حساب طالما أنّ العرب ضعفاء.

وأنّ الغرب تعاون مع "إسرائيل" بهجوم ثلاثيّ على مصر عام 1956 شاركت فيه بريطانيا وفرنسا، ثم شنت "إسرائيل" حرباً ساحقة عام 1967 واحتلت أراضي عربيّة من سورية ومصر والأردن بمساعدة غربية وخاصة أميركيّة. ثم أخذت "إسرائيل" تفرض هيمنتها على المنطقة عبر إضعاف العرب وتجزئتهم وخلق المشاكل في أوساطهم، بمباركة ودعم غير مسبوق من الإدارات الأميركيّة المتعاقبة. فكانت "إسرائيل" وأميركا وراء إشعال حرب لبنان عام 1975 وإخراج مصر من الأسرة العربيّة، ووراء كافة الاضطرابات والإخفاقات التي واجهها ويواجهها العرب منذ 1948 حتى اليوم. فكيف يستطيع أي عربيّ عنده ذرة كرامة أن يقبل العيش في ظل هيمنة "إسرائيل"؟

بهذا التصوّر وصلت القيادة السوريّة إلى قناعة أنّ الاستعمار الجديد هو أكثر خطراً من الاستعمار القديم لأنّه يهدد العرب بوجودهم وكيانهم. وهو استعمار بالغ التعقيد والخطورة مقارنةً بمرحلة الاستقلال في الأربعينيّات من القرن العشرين.

لقد كان لتوقيع اتفاقية سيناء 2 في 2 أيلول 1975 تداعيات كبيرة على المنطقة العربيّة. وحتى بعد توقيعها، حضر كيسنجر بكل صلافة إلى دمشق يوم 3 أيلول للقاء الأسد الذي استقبله ببرود لأقل من ساعة وكان نادماً على ثقته بوعوده السابقة. وواجه الأسد كيسنجر بأنّ السلام الذي يدفع إليه ويعتقد أنه لمصلحة "إسرائيل" لن يكون سلاماً. فالسلام لا يكون بإغراق "إسرائيل" بالسلح الأميركيّ وتدعيم قوّتها، بل بإقناعها بالانسحاب من الأراضي العربيّة وبعادلة القضية الفلسطينية. وإلّا شعر العرب بالظلم وسيستعدّون لحروب جديدة. ولن تهناً "إسرائيل" أبداً. أبداً.

في اليوم نفسه لزيارة كيسنجر هذه (3 أيلول 1975) وأمام فداحة الوضع العربيّ حصل انقلاب في الموقف السوريّ. إذ صدرت بيانات من الأسد ومن القيادة القوميّة للبعث تدعو العرب إلى "حشد طاقتهم لمواجهة

العدو الصهيوني"، وتعبّر عن "القلق العظيم والانتكاس الجدي الذي أصاب العرب". فقد كان الأسد يحضّر سورية لمرحلة ما بعد اتفاقيات سيناء وحماية بلاده من تداعياتها التي كانت زلزلاً يهزّ استقرار المنطقة ويُفقد العرب صمّام أمانهم الذي مثّله مصر:

- التداعي الأول الذي طغى في دمشق هو: مَنْ سيدافع عن سورية والعرب بعد غياب مصر؟ ومَنْ سيكبح جماح "إسرائيل" في التوسّع والعدوان؟ ألم يكفِ أنّ العرب عاشوا ستّة أعوام بعد حرب 1967 في ظل الهزيمة والهيمنة الإسرائيليّة، بل أنّهم الآن قد خسروا مصر ولم يستردّوا أرضهم؟ لقد عادت حالة اللاسلم واللاحرب الممقوتة بأسوأ من السابق، لأنّ النظام العربيّ الذي قادته مصر منذ 1955 قد انهار ما يعني نهاية "مرحلة القومية العربيّة" داخل مصر والتي دامت 15 عاماً حتى مات عبدالناصر، وولادة مرحلة انعزاليّة مصر وانحسار دورها العربيّ. وحوّلت مصر السادات بوصولها من موسكو إلى واشنطن واختارت السلام مع "إسرائيل" وأصبحت إيران الشاه صديقة السادات الحميمية بدلاً من العرب.
- التداعي الثاني كان اغتيال الملك فيصل حليف الأسد في الأسبوع الذي خرجت فيه اتفاقية سيناء 2 إلى العلن، أي في 25 آذار 1975⁴⁹⁹. حيث اغتاله الأمير فيصل بن مساعد، ابن أخيه. فقد كان الملك فيصل مناهضاً للصهيونيّة، دعم سورية قبل حرب تشرين وأثناءها وبعدها واستعمل سلاح النفط، وكان أول قائد عربيّ يمدّ سورية بالمال لإعادة بناء اقتصادها وقواتها المسلّحة بعد حرب 1973، ما فتح الباب للبحبوحة والنهوض الاقتصاديّ. وكان فيصل قد تجاوب كغيره مع كيسنجر شرط أن تؤدّي جولاته إلى سلام شامل. ولكنّ فيصل فهم أخطارها فوقف موقف الأسد وشاركه الغضب ضد كيسنجر. ومنذ ذلك الوقت وحتى في الأسابيع التي سبقت اغتياله كان فيصل يواكب الموقف السوريّ ويردّد أمام كلّ زواره العرب: "سنصليّ العيد القادم في القدس بإذن الله". ففسّر البعض مقتل فيصل بأنّه مؤامرة ضد السعودية والعرب. ورأى البعض أنّ الوضع العربيّ في وجه "إسرائيل" كان أفضل لو بقي فيصل، حليف الأسد القوي، حياً. وتدعم نظرية المؤامرة في مقتل فيصل تقاريرٌ غربية ذكرت قدرته على شلّ الصناعة الأوروبية والأميريكيّة وضرب النقد الأوروبيّ، لو شاء ذلك. لقد واجه فيصل أميركا والغرب عموماً والاحتلال الإسرائيليّ للأراضي العربيّة بدعم سورية ومصر في حربهما ضد "إسرائيل" وأوقف تصدير النفط السعوديّ لأميركا. ولكن الملك خالد الذي خلف فيصل لم يواصل سياسة أخيه بل كان ليتنا مع واشنطن وضعيفاً في مسائل الصراع مع "إسرائيل".

- والتداعي الثالث الذي هو انهيار الصف العربيّ واشتعال أزمات عدّة دفعة واحدة. إذ احتدم الصراع بين مصر من جهة وسورية ومنظمة التحرير وليبيا من جهة أخرى، وبين سورية والعراق، وبين الأردن

⁴⁹⁹ الملك فيصل هو الابن الثالث للملك عبدالعزيز بعد تركي وسعود، وهو الملك الثالث في المملكة العربية السعودية. ببيع ملكاً في 2 تشرين الثاني 1964، بعد أن قررت الأسرة المالكة والعلماء خلع الملك سعود، واستمرت فترة حكمه أحد عشر عاماً. اكتسب شهرة عالمية، خاصة على المستوى العربي، وكان صاحب موقف ثابت حيال القضية الفلسطينية. في 25 آذار 1975، كان الملك فيصل يستقبل وزير النفط الكويتي الكاظمي ووزير النفط السعودي أحمد زكي يماني. ووصل في هذه الأثناء الأمير فيصل بن مساعد، ابن شقيق الملك فيصل، ودخل مع الوزيرين بداعي إلقاء السلام على عمّه، ثم أخرج مسدساً وأطلق ثلاث رصاصات أصابت الملك بمقتل في رأسه.

ومنظمة التحرير. وانشق الصف العربي إلى محاور عدّة فُولد محور دول "جبهة الصمود والتصدي" بقيادة سورية، وانفرط عقد منظمة التحرير الفلسطينية المؤلفة من تنظيمات عدّة، جزاء الصراعات العربيّة بين جبهة الرفض وجبهة الاعتدال، وانعكست معارك بالسلاح بين الفلسطينيين وخاصة في لبنان.

● وكان لبنان الضحيّة الأكبر لتداعيات اتفاقيّات سيناء، إذ أصبح ساحة لكافة الصراعات العربيّة - العربيّة وللصراع العربيّ - الإسرائيليّ. وانقسم اللبنانيون إلى ميليشيات لتبدأ حرباً طويلة استمرّت 15 سنة. كما دعم العراق، نكاية بسورية، جبهة الرفض الفلسطينية وأبرز عناصرها الجبهة الشعبيّة. وعملت التصفيات عملها على الساحة اللبنانيّة.

بعدما اتّحدت العوامل الإقليميّة ضدها ووجدت ظهرها إلى الحائط، حاولت سورية منذ خروج مصر العثور على بديل عربيّ يمنح صراعها مع "إسرائيل" عمقاً قومياً، وعلى حليف دوليّ يمنحها توازناً استراتيجياً. فبنت الآمال على العراق ولكن التقارب لم يستمرّ سوى بضعة أشهر ثم عادت سورية في أيلول 1979 إلى إحياء جبهة الصمود والتصديّ مع ليبيا واليمن والجزائر ومنظمة التحرير. كما تقرّبت سورية من الكتلة الاشتراكيّة واندفعت إلى أحضان موسكو بشكل غير مسبوق. ولأوّل مرّة منذ 1955، وقّعت معاهدة صداقة وتعاون مع الاتحاد السوفياتيّ في 8 تشرين الأول 1980 بعد أيام من اشتعال الحرب العراقية الإيرانية. وهكذا ومنذ 1980 خلصت سورية إلى أنّ أهميّة مصر والعراق في الصراع ضد "إسرائيل" قد انتهت. فكانت المرّة الأولى منذ 12 قرناً، أي منذ الخلافة الأموية، التي تعود فيها دمشق عاصمة عربيّة مركزيّة مهمة بنقلها السياسيّ. وقابل الغرب صعود سورية بالعداء لأنّه رأى سورية دولة صغيرة وفقيرة من دول العالم الثالث، فكيف تجرّو على التصرف من موقع سيادي وتدافع عن نفسها حتى لو جلبتها مواقفها إلى مواجهة الولايات المتّحدة نفسها؟

حول التداعي الأول - أي من سيدافع عن سورية والعرب ومن سيكبح جماح "إسرائيل" في التوسّع والعدوان - بدأت سورية بإعلان رفضها قبول الأمر الواقع الجديد الذي فرضته اتفاقية سيناء 2 في المنطقة والذي يريد أن يجعل سورية دولة ضعيفة مجاورة لـ "إسرائيل" كالأردن ولبنان، مهمّتها حماية أمن "إسرائيل" ومطاردة المقاومين. والأسوأ أنه يعيد سورية إلى دولة - ساحة كما كانت قبل 1970. وأنّ أفضل دفاع هو الهجوم. واستنبت الأسد مفهوم "الصمود والتصدي": من الآن فصاعداً سيكون دور سورية في المنطقة الدفاع عن العرب وكبح جماح "إسرائيل"، لأنّ الصراع قد انحصر الآن على الجبهة المشرقيّة، وبات برّ الشام ساحته، في مواجهة تاريخيّة إمّا تنتصر فيها "إسرائيل" الكبرى" وتفرض دولتها من الفرات إلى النيل وإما تنتصر "سورية الكبرى" ومركزها دمشق وأعضاها سورية ولبنان والأردن والفلسطينيين. خاصة بعدما غابت مصر وعاد العراق غريباً لسورية وابتعدت السعوديّة بعد اغتيال الملك فيصل.

لقد بات همّ الأسد الأكبر تحقيق التوازن الاستراتيجيّ مع "إسرائيل"، ليس لشنّ حرب مستحيلة بل لردع "إسرائيل" في حال اختارت الهجوم على سورية. وكانت خطوته الأولى تعزيز الصداقة والتحالف مع موسكو والكتلة الاشتراكيّة مباشرة بعد توقيع اتفاقية سيناء 2. وكان الروس غاضبين من سياسة أميركا التي أقصتهم عن الشرق الأوسط وخذعتهم في مؤتمر جنيف الشكليّ. فساعدوا سورية على بناء قوّتها الذاتيّة وتطوير بنيتها

التحتية في مشاريع استغرقت سنوات. وكان على سورية إغلاق الثغرات التي كانت تسمح لـ"إسرائيل" باختراق الجبهة المشرقية، وخاصة لبنان والأردن، ما جعل استراتيجيتها تتضمن حدود لبنان والأردن مع "إسرائيل" كامتداد لجبهة الجولان. وتحقيق هذه الجبهة لم يكن ممكناً إلا إذا امتد نفوذ سورية إلى بيروت وعمّان وإلى صفوف المقاومة الفلسطينية. ثم أنّ الصراع مع "إسرائيل" امتدّ على مساحة العالم العربيّ والشرق الأوسط. ولذلك سعت سورية إلى تحالفات في الخليج العربيّ وشمال أفريقيا وإيران. لتصبح دمشق مركز ثقل عسكريّ وسياسيّ وديبلوماسيّ في المشرق وسورية بوصلة الصراع.

أثبتت استراتيجية سورية أنّ فقط الدولة العربية القويّة ستدفع "إسرائيل" التي ستتردد كثيراً أمام أيّ قوّة عربيّة - مهما قلّ شأنها وتواضعت إمكاناتها - تقف بوجهها ولا تخاف. إذ بعد عام 1986 لم تعد "إسرائيل" تفكر مطلقاً في خوض حرب ضد سورية. لقد تعاملت سورية مع غزو "إسرائيل" للبنان عام 1982 وكأنه غزو لأراضي سورية نفسها وتصدّت بنجاح لمحاولات "إسرائيل" المتكرّرة خلال الثمانينيات اختراق ساحة بر الشام - الأردن ولبنان والفلسطينيين - التي اعتبرتها دمشق جزءاً من دفاعاتها، لأنّ أيّ نجاح إسرائيليّ في هذه الساحة سيُضعف سورية.

وضمن استراتيجيتها، اعتبرت سورية أنّ أيّ حل جزئيّ ومنفصل بين أيّ دولة عربيّة و"إسرائيل" يُضعف العرب ويقوّي يد "إسرائيل" ضدّهم. لكي يدافعوا عن أنفسهم على العرب أن يقفوا يداً واحدة ولا يقبلوا إلا بحلّ شامل. ولم يتغيّر موقف سورية المبدئيّ في رفض معاهدة كامب دايفيد عام 1979 ولا اتفاقية أوسلو بين "منظمة التحرير" و"إسرائيل" عام 1993 ومعاهدة وادي عربة بين الأردن و"إسرائيل" عام 1994. فبدون حل شامل، تبقى سورية على موقفها وتعارض أيّ معاهدات واتفاقات جزئية.

بهذه التعديلات في سياساتها الإقليمية والدولية، حاولت سورية بناء توازن استراتيجي حتى لو استغرق ذلك سنوات عدّة. ذلك أنّ الصبر كان من مزايا الأسد، ساعدته على ذلك نظرة تاريخانية للصراع من اتفاق سايكس بيكو ووعده بلفور مروراً بكافة مراحل الصراع والحروب التي أدّت العرب وانتصرت فيها "إسرائيل". القضية إذاً ابتدأت قبل 75 عاماً ولن يكون صعباً التحضير لمعركة مقبلة حتى لو استغرق ذلك عقداً أو عقدين من الزمن. وإذا كان تفوّق "إسرائيل" هو دائماً في التكنولوجيا، فالوقت هو لمصلحة العرب إلى أن يقتنوا هذه التكنولوجيا. فكان الأسد يدأب في نصح القادة العرب وخاصة السادات أن لا يستعجلوا الصلح مع "إسرائيل" وأن يصبروا ولا يوقّعوا على وثائق استسلام في لحظة ضعف، وأن أفضل دواء هو الصمود والصبر، وأنّه إذا لم يوحد العرب صفوفهم ويجمعوا قوتهم فإنّهم لن يكونوا أبداً ندّاً حقيقياً لـ"إسرائيل" ولن يحزروا أرضهم ولن يفاوضوا بشرف. ثمّ من قال إنّ حال اللاسلم واللاحرب تزعج سورية؟ هذه الحال هي أفضل المعقول في ظل فقدان التوازن وستكون فرصة لسورية لبناء قدراتها. وعلى هذا الأساس رفضت سورية المشاركة في قمة فاس في تشرين الثاني 1981 التي أعلن فيها ولي العهد السعوديّ الأمير فهد مشروع السلام. فقد جاء مشروعه قبل أوانه وفي زمن ضعف العرب.

المبدأ الأول في الاستراتيجية السورية الجديدة كان تحقيق التوازن الاستراتيجي. فقد اعتبرت سورية ما فعلته مصر في كامب دايفيد استسلاماً وليس سلاماً. وأنّ سيناء لم تتحرّر بل مصر نفسها هي التي وقعت تحت

هيمنة أميركية - إسرائيلية مشتركة. فعلى العرب ألا يدخلوا محادثات مع "إسرائيل" من موقع ضعف بل من موقع قوة. ولكي تحقق سورية توازناً مع "إسرائيل" يجب ألا يقتصر على التسلح بل أن يشمل التربية والتعليم والصناعة والزراعة والتجارة والتكنولوجيا والتطور الاجتماعي والتحالفات الإقليمية والدولية. فهذا هي "إسرائيل" توقع اتفاقية تعاون استراتيجي مع أميركا في أواخر عام 1981، فلماذا لا توقع سورية اتفاقية مماثلة مع الاتحاد السوفياتي ومع دول أخرى صديقة؟

والمبدأ الثاني هو الصمود والتصدي، ذلك أن "إسرائيل" لن تنتظر حتى تحقق سورية التوازن الاستراتيجي، بل هي ستهاجم وتحتل وتضرب وتترصد الدوائر بدمشق. ولذلك كان على سورية ربط هدفها الاستراتيجي الأول، البعيد المدى، بهدف تكتيكي قصير ومتوسط الأمد، وهو ضرورة تحصين دفاعاتها لصد العدوان. ومن هنا انطلق مبدأ التصدي. فسورية تسعى إلى أي مساعدة ممكنة من موسكو والدول العربية والصديقة، ولكنها يجب أن تعتمد على قدراتها الذاتية لأنها أصبحت الدرع العربي الأوحى في وجه "إسرائيل". وهذا يعني ضرورة الدفاع عن بز الشام (في عودة إلى الفكر القومي لأنطون سعاده)، ما يعني أخذ لبنان والأردن والفلسطينيين تحت جناحها كجبهة واحدة مشرقية. ذلك أن أي اختراق إسرائيلي للبنان أو الأردن سيضعف سورية ويحاصرهما وأن "إسرائيل" ستقوم بذلك عاجلاً أم آجلاً، إما عسكرياً أو عبر معاهدات سلام منفردة مع جيران سورية الصغار. وهذه كانت خطة "إسرائيل" بالضبط: اختراق الأردن ولبنان والفلسطينيين سلباً أو حرباً وفرض هيمنتها على المشرق ثم تركيع سورية. ومن هنا كان إصرار سورية على دفع أشقائها الثلاثة إلى وحدة مسار لأنها من وحدة المصير، وأن ينسق الأردن ولبنان ومنظمة التحرير مع دمشق لأن في الوحدة قوة.

كان المبدأ الثاني من الاستراتيجية السورية - الصمود والتصدي - دفاعياً بالدرجة الأولى لوضع حد للتوسع الإسرائيلي، وليس هجومياً كما كانت حرب تشرين. ومع ذلك كان أيضاً مسؤولية باهظة إذ باتت سورية تتنكب ليس هم الدفاع عن نفسها فحسب بل عن كامل الجبهة المشرقية لكي تحفظ أمنها وبالتالي الأمن العربي. وسيستغرق تطبيق هذا المبدأ معظم ما تبقى من عهد حافظ الأسد.

في حين كان المبدأ الأول، أي تحقيق توازن استراتيجي متكامل مع "إسرائيل"، يحتاج إلى فترة زمنية أطول. ومن منطلقات المبدأ الاستراتيجي الثاني أن سورية دخلت لبنان وتقربت من منظمة التحرير ومن الأردن وعندما دعا الملك حسين إلى قمة عربية في عمان للحصول على دعم عربي لمشروع المملكة المتحدة (اتحاد الأردن والضفة الغربية وغزة) عبر التفاوض مع "إسرائيل"، قاطعت سورية القمة وأرسلت جيشها إلى حدود الأردن، لأن منع مشروع "المملكة المتحدة" هو حق قومي لسورية. فلم تعد سورية تنظر إلى دورها في لبنان والأردن والساحة الفلسطينية تدخلاً في شؤون الآخرين، بل واجباً قومياً من مقتضيات الصراع. فالقضية الفلسطينية من الأهمية مكان أنه لا يجب تركها للتنظيمات الفلسطينية أو أن يكون الفلسطينيون وحدهم مسؤولين عنها. وهي أكثر من مسألة لاجئين وأراض محتلة بل هي حقوق الفلسطينيين والعرب في أن يعيشوا في دول حرة ومستقلة بعيداً عن الهيمنة والتفوق الذي تريد "إسرائيل" فرضه من خلال اتفاقات تكبل العرب

وتجعلهم عبيداً. وأن المطلوب هو التصدي للتوسع الإسرائيلي وضبط نزعتها نحو العدوان وتقليص طموحها في التفوق العسكري الدائم على الدول العربية مجتمعة.

الاستراتيجية الإسرائيلية

لم تتغير الاستراتيجية الإسرائيلية منذ قيامها عام 1948. فقد شملت التدخل وأحياناً بشكل سافر في عدد من الدول العربية بغية تفتيتها وتفجيرها من الداخل. فهي لم تكتف لما استفعله سورية بعدما أنهى خروج مصر من المعادلة أي تهديد فعلي يمكن أن يشكله العرب لـ "إسرائيل". كما لم تكتف للتنظيمات الفلسطينية الضعيفة التي اعتبرتها إرهابية.

وكانت "إسرائيل" تدرك أن من تعنتها يعني المزيد من الكراهية والحقد والإحباط في الجانب العربي. وهي بفضل الدعم الأمريكي وخروج مصر، خلقت لنفسها حدوداً يمكن أن تدافع عنها، ولكن ستبقى في نهج الصهيونية التوسعية وخاصة بعد صعود حكومات يمينية متطرقة على الساحة الإسرائيلية برز عدوانها خاصة في لبنان.

دعمت "إسرائيل" في الستينيات جنوب السودان للانفصال عن شماله العربي والمسلم حتى بلغت قوة ميليشيات الجنوب حداً باتت تهاجم معه مواقع شمالية ثم انقسم السودان دولتين. ودعمت "إسرائيل" قبائل اليمن عبر شاه إيران ضد الجيش المصري. وعقدت "إسرائيل" حلفاً استراتيجياً مع دولة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا ضد الدول الأفريقية التي تحالفت مع عبدالناصر. ودعمت "إسرائيل" أكراد العراق ضد وطنهم الأم بالتنسيق مع شاه إيران. ودعمت "إسرائيل" أحزاباً وشخصيات لبنانية في الانتخابات بالمال في الخمسينيات، ثم ومنذ أوائل السبعينيات بالسلح. كانت "إسرائيل" تشكل خطراً عسكرياً على سورية عبر لبنان والأردن وجعلت في خططها خلق نفوذ محلي لها معادٍ لسورية داخل لبنان والأردن وفي الأوساط الفلسطينية، بشكل يُغرق سورية في صراعات أهلية دامية مع أشقائها وتبقى يد "إسرائيل" هي العليا. والأسوأ أن الوضع الذي ساهمت "إسرائيل" في صنعه في لبنان دفع سورية إلى استعمال قوتها ضد أشقائها ففقد سمعتها العربية وصيتها كبطل للقومية العربية.

ولم تكتف "إسرائيل" بخروج مصر من الصراع كي تقتنع بما احتلته من أراضٍ وحققت من أهداف، فتكف شرها عن العرب. بل هي استغلّت تحقيق الأمن على الجبهة المصرية وسعت إلى فرض هيمنتها على بر الشام بشتى الطرق: بشن غارات شبه يومية على لبنان وصولاً إلى غزوه مرتين - في 1978 و1982 - وتدمير المفاعل الذري العراقي وضّم الجولان عام 1981. ولذلك كان المشرق يواجه عدواً غاشماً متعمداً للتوسع والغزو ومتجهاً دوماً نحو المزيد من التعنت والعنصرية.

بعد كامب دايفيد أصبح السلام مع "إسرائيل" وهماً بعيد المنال. وهي تريد إذلال العرب واستسلامهم الكامل لمشيئتها⁵⁰⁰. والاستراتيجية السورية الجديدة التي تبلورت تدريجياً استغلّتها "إسرائيل" والولايات المتحدة لهاجماً دمشق بأنها متعنتة وترفض السلام وتسعى إلى الحرب. كما سخرتنا من محاولات سورية تحقيق توازن استراتيجي التي اعتبرناها غير واقعية.

كمن يتحصّر لدخول حلبة ملاكمة، بدأت "إسرائيل" تنفّذ مشاريعها في باحة المشرق بعدما اطمأنت إلى زوال الجبهة الجنوبية.

بعدما ظنّ اللبنانيون أنّ حرب السنّتين قد انتهت إلى غير رجعة، كانت التّطوّرات الإقليمية تقف لهم بالمرصاد، وقد بدأت مخططات كيسنجر تجني ثمارها على المحور المصري - الإسرائيلي الذي تسارع بعد زيارة السادات إلى القدس في تشرين الثاني 1977 واتفاقات كامب دايفيد في آذار 1978. ولم تكن سورية في وضع يسمح لها بتحدّي "إسرائيل" والوقوف في وجهها عسكرياً. إذ إنّ "إسرائيل" اجتاحت لبنان في آذار 1978 ولم توقفها سورية في وقت كانت سورية تخوض معارك ضد الميليشيا المسيحية في لبنان وضد المسلّحين الإسلاميين داخل سورية. ثم أنّ علاقات سورية بالأردن كانت تتجّه نحو السلبية فيما الرأب مع القوى الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية لم يلتئم بعد. ولئن كانت جبهة الجولان تخضع لاتفاقية فصل القوات بين سورية و"إسرائيل"، والأردن أقفل على المقاومة الفلسطينية، أصبح لبنان المنفذ الوحيد لمواصلة الاشتباك المشرقيّ - الإسرائيليّ.

أمّا "إسرائيل" فقد كانت في وضع مرتاح وقويّ بسبب نجاح معاهدة السلام مع مصر في أيلول 1979 واشتعال الحرب العراقية الإيرانية في أيلول 1980 التي أضعفت إيران، كما ألهمت العراق وقلّصت من احتمالات دعمه لسورية ضد "إسرائيل". أضف إلى ذلك أنّ "إسرائيل" أبقت سيناء رهينة لمُدّة أربع سنوات إضافية فلم تتسحب منها حتى تطمئن إلى نيات مصر. هذه البيئة بالضبط أشعرت "إسرائيل" أنّ الجوّ قد خلا لها في برّ الشام لفرص هيمنتها على لبنان وهضم الجولان والضفة وغزّة. وتحيّنت الفرص لتحتل أجزاءً من لبنان. وكانت قد قامت في آذار 1978 بغزوها لجنوبه كما سبقت الإشارة.

أزمة الصواريخ وضمّ الجولان 1981

مع خروج جيمي كارتر عام 1981، جاء إلى البيت الأبيض رونالد ريغن الذي توافق مع بيغن على العداء المشترك للسوفيات وعلى محاربة "الإرهاب الدولي" اللذين اعتبراً أنّ أصابع موسكو وراءه. ومع حكومة بيغن تعرّبت الظروف التي رافقت "الخطوط الحمر" بين سورية و"إسرائيل" في لبنان عام 1976، وأصبحت

⁵⁰⁰ Jay Kent, "The Assad Factor", *The Middle East*, no. 135, January 1986, pp. 47 - 48. Elizabeth Picard, "les militaires syriens

devant les accords de camp David", *Défense Nationale*, vol. 37, août - septembre 1981, pp. 35 - 49.

Adeed Dawisha, « Syria and the Sadat initiative », *World Today*, vol. 34, no. 5, May 1978.

“إسرائيلي” مزاجية في احترام أو عدم احترام هذه الخطوط. وكانت الأمور قد بدأت تسير بعكس مصلحة سورية وحلفائها في لبنان. ففي وقت كانت سورية تواجه حرب الإسلاميين داخل أراضيها، وصلت “إسرائيل” عام 1981 إلى اتفاق مع واشنطن جعلها قيمة استراتيجية واحتياطاً عالمياً لأميركا في الصراع ضد الاتحاد السوفياتي. وكان وزير الخارجية الأميركي الكسندر هيغ الأكثر تطرفاً في إدارة ريغن، عمد بدون سبب إلى معاداة سورية. إذ أثناء قيامه بجولة في المنطقة في ربيع 1981 أهمل زيارة دمشق وهاجم الأسد واعتبره تابعاً لموسكو. وقلقت سورية أن هيغ أثناء جولته لم يعر النزاع العربي الإسرائيلي أي اهتمام، بل كان موضوعه الوحيد هو خلق إجماع استراتيجي بوجه الاتحاد السوفياتي قوامه “إسرائيل” والدول العربية الموالية للغرب. وكان بيغن قد قدّم تفسيراً للإدارة الأميركية أن إرجاع سيناء لمصر يعني أن “إسرائيل” قد نفذت القرار 242 حول “انسحاب من أراضٍ عربية”، ويحق لها أن تحتفظ بالضفة الغربية. وعين بيغن رفيقه شارون وزيراً للزراعة مهمته بناء عشرات المجتمعات الاستيطانية في الأراضي المحتلة في زمن قصير.

ولأن بيغن تمّص من أي تنازل لكارتير والسادات أثناء محادثات كامب دايفيد حول مستقبل الفلسطينيين فقد واصل العمل على مشروع “إسرائيل الكبرى” لجمع شتات اليهود من أنحاء العالم واستيطان “اليهودية والسامرة” والجولان، وربما جنوب لبنان أيضاً بعد احتلاله. إذ لم يكن في نيّة “إسرائيل” إعادة الجولان لسورية ولا السماح بقيام كيان فلسطيني ولا ترك لبنان مساحة نفوذ لسورية. فكان لا بد من وضع حدّ لسورية كي يخلو الجو لـ “إسرائيل” عبر مضايقتها من خاصرتها الرخوة في لبنان وتطويق دمشق من البقاع.

اعتبرت سورية وادي البقاع ضرورياً لاستراتيجيتها الدفاعية لأنه الطريق المنطقي لأي غزو إسرائيلي يستهدف دمشق. كما أن أي وجود سوري في لبنان، اقتصادي أو سياسي أو اجتماعي، لن يمرّ ويصبح حقيقة إلا عبر البقاع، الشريان الحيوي الهام الذي يربط سورية ولبنان. وبعد زيارة السادات لـ “إسرائيل”، اتجهت الأمور إلى الأسوأ بين سورية والقوات اليمنية في لبنان. فمند شباط 1978، جرت معارك طاحنة بين الجيش السوري والقوات اللبنانية في أكثر من مكان في لبنان، وبخاصة في شرق بيروت.

وكان بشير الجميل قد مدّ عضلاته شمالاً ضد آل فرنجية في زغرتا والكورة وأخرج السوريين من شرق بيروت ثم انقلب على ميليشيا النمر التابعة لكميل شمعون، وأصبح في وضع يسمح له بالتمدد إلى مناطق مسيحية أخرى. وإذ أقفلت سبل الشمال في وجهه بعد غارة إهدن ضد آل فرنجية وتعدّد التوسّع جنوباً، كان التوسّع شرقاً باتجاه مدينة زحلة عاصمة محافظة البقاع هو هدفه التالي في خريف 1980. وكان العداء بين دمشق والقوات اللبنانية قد بلغ ذروته، بعدما تأكّدت سورية أن بشير لن يتراجع عن الخيار الإسرائيلي. وكان بيغن قد وعد كميل شمعون رئيس الجبهة اللبنانية عام 1978 ثم جدّد وعده عام 1980 أن “إسرائيل” ستدخل إذا قامت سورية بضرب الميليشيات المسيحية. فكان قدوم مقاتلي قوات بشير إلى زحلة في كانون الثاني 1980، ثم إرسال جرافات لشق طريق يربط مناطق سيطرة القوات اللبنانية بزحلة في آذار 1981، بمثابة ناقوس خطر لسورية أن “إسرائيل” توّزع لجماعتها في لبنان بتهديد الشريان الحيوي السوري.

ردّ السوريون على التحدي بقصف زحلة وشرق بيروت وإرسال وحدات كوماندوس لاحتلال المناطق الجبلية المطلّة على زحلة. وكان بشير واثقاً من الدعم الإسرائيلي والأميركي. فقد كان بيغن وشارون يعتبران بشير

رجلها الأول في لبنان، أما هو فرأى "إسرائيل" مطية لطموحاته ومنها تبوء منصب رئاسة الجمهورية⁵⁰¹. فاتصل بشير بـ "إسرائيل" مذكراً بتعهدات بيغن لشمعون وشجّعه بيغن على الصمود وأمر الجيش الإسرائيلي بالتدخل ضد السوريين. ولذلك في 28 نيسان 1981 قامت طائرات حربية إسرائيلية بإسقاط طائرتي هليكوبتر سوريّتين تنقلان التموين. وردّت سورية في اليوم التالي بإدخال بطاريات صواريخ سام أرض - جو إلى البقاع. وكاد بيغن يهاجم شبكة الصواريخ السوريّة في البقاع لولا انهماكه بالانتخابات وتحضير ضربة ضد العراق. فقد شنت "إسرائيل" هجوماً على المفاعل الذري العراقي "أوزيراك" قرب بغداد نفّذته 14 طائرة حربية في 7 حزيران 1981. فجاء هذا الهجوم ضمن سعي "إسرائيل" لتأكيد تفوّقها.

ثم وافق بيغن على حلّ ديبلوماسي مع دمشق ترعاه واشنطن لإقناع سورية بسحب صواريخها من البقاع بهدوء وحفظ ماء الوجه. فأوفد الرئيس الأميركي ريغن مبعوثه الخاص فيليب حبيب. ولكن "إسرائيل" أشعلت جبهة جنوب لبنان في أيار وحزيران 1981 عبر سلسلة غارات وعمليات قصف على مواقع القوات المشتركة الفلسطينية - اللبنانية. وكانت المقاومة قد وقّعت تفاهماً مع سورية من بنوده أن لا تعطي "إسرائيل" أي ذريعة للهجوم على لبنان.

وبعد فوز الليكود بأغلبية كبيرة في الانتخابات صعّدت الحكومة الجديدة الوضع في لبنان، وقد أصبح شارون وزيراً للدفاع. وبدأت "إسرائيل" في 10 تموز مرحلة جديدة من القصف المتواصل على لبنان بأسلحة أكثر عنفاً. وإذ صبر الفلسطينيون خمسة أيام، لم يجدوا مفرّاً بعد ما أحدثته "إسرائيل" من دمار مادي ومن قتل للبشر من أن يفتحوا نيران مدفعيتهم المتواضعة على شمال "إسرائيل" في 16 تموز. وكانت تلك اللحظة التي انتظرها الإسرائيليون، إذ وفق خططهم العسكرية الجاهزة قام سرب طائرات يوم 17 تموز بغارة لأول مرّة على مدينة بيروت تركّزت على حي الفاكهاني الكثيف السكان ما أسفر عن سقوط ألف ضحية بين قتيل وجريح ودمار عدد كبير من الأبنية المدنية. وردّ الفلسطينيون بقصف أكثر حدّة سقط جراه 7 قتلى و59 جريحاً في شمال "إسرائيل".

وكان فيليب حبيب قد جاء إلى بيروت لمعالجة أزمة الصواريخ، ولكنه أصبح الآن يسعى إلى وقف لإطلاق النار في جنوب لبنان حتى لا ينحدر الوضع إلى حرب واسعة. واستطاع حبيب أن يصل إلى اتفاق في 24 تموز 1981 بين منظمة التحرير و"إسرائيل" وسورية بمساعدة السعودية. وكان في تفاصيل التفاهم أن سورية تضمن سلوك الفلسطينيين جنوباً. وكان التفاهم جرعة أمل لسورية بعد مقاطعة واشنطن لها وبعد سنوات من الأزمة الداخلية مع الإسلاميين، وبعدما تحوّل لبنان إلى رمال متحرّكة وساحة مواجهة مع "إسرائيل" وبعدما اشتعلت الحرب العراقية الإيرانية.

ساهمت أزمة الصواريخ في البقاع في إعادة العلاقات الدبلوماسية بين واشنطن ودمشق، واستطاعت سورية أن تُبقي على صواريخها في البقاع مع اعتراف إسرائيلي بنفوذ سورية في لبنان واحترام الخطوط الحمراء. ولكن الأسد لم يكن يعلم أن رغبة بيغن وحكومته في غزو لبنان واحتلاله كانت جدية وجاهزة في ربيع 1981 وأن "إسرائيل" كانت على قاب قوسين أو أدنى من هذا الغزو، وأن حبيب لم ينقل له مزاج "إسرائيل" الحقيقي

⁵⁰¹ راجع كتاب: هذا الجسر العتيق سقوط لبنان المسيحي، لكمال ديب، دار النهار للنشر.

الذي رآه أثناء اجتماعاته مع بيغن وشارون وإيتان وأنّ التفاهم أجل المعركة المقبلة بين سورية و"إسرائيل". في تشرين الثاني 1981 وقّعت واشنطن مذكرة تفاهم للتعاون الاستراتيجي مع "إسرائيل"، في وقت كان قادة "إسرائيل" الأكثر تشدداً وعسكريّة هم في أعلى مواقع السلطة: بيغن رئيساً للحكومة ورافايل إيتان رئيساً للأركان واسباق شامير وزيراً للخارجية وموشيه أرزنز سفيراً في واشنطن وأرييل شارون وزيراً للدفاع. وكان هؤلاء أكثر الإسرائيليين كرهاً للفلسطينيين والعرب والأكثر رغبة لاستعمال السلاح والقتل وإيماناً بالعميقة الصهيونية.

وإذا كان شارون قد اعتبر مذكرة التفاهم مع إدارة ريغن بمثابة كارت بلانش له ليفعل ما يشاء ضد سورية ولبنان والفلسطينيين، فإنّ بيغن كان أكثر دراماتيكية من شارون. إذ أعلن في 14 كانون الأول 1981 ضمّ الجولان، منتظراً رداً عسكرياً من سورية يسمح لـ"إسرائيل" بالانقضاء عليها⁵⁰². فلم تعترض واشنطن ولم تستطع سورية أن تفعل شيئاً. فقد كانت خطوة "إسرائيل" بمثابة إعلان حرب ولكن سورية لم تكن في وضع يمكنها من خوض حرب واكتفت باللجوء إلى مجلس الأمن والاتصال بالدول الكبرى. الوضع في الجولان ولبنان أطلق الأسد وأشعره أنّ سورية بدأت تضعف تدريجياً. فالويل لها إن هي ردت على التحرشات الإسرائيلية، والويل إذا صمتت. كما أنّ أمل سورية أن تغيّراً ما في سياسة واشنطن سيحصل، قد تبخر.

"إسرائيل" تغزو لبنان

- كانت خطة "إسرائيل" لغزو لبنان والتي سبقت الإشارة إليها تهدف إلى تحقيق ثلاثة أهداف في المشرق:
- ضرب المقاومة الفلسطينية وإسكانها كقوة عسكرية إلى الأبد. وبذلك تضمن سكينه وخوف سكان الضفة الغربية حتى يستوطنها اليهود بسلام.
 - وضرب الجيش السوري في لبنان وإخراجه منه لأنه حليف الفلسطينيين وعامل القوة للنفوذ السوري في لبنان. فتصاب دمشق بالذعر بعد هذه الحرب ولن تجرؤ على تحدي "إسرائيل".
 - وتغيير النظام السياسي في المنطقة: في لبنان عبر دعم بشير الجميل ليصبح رئيساً للجمهورية فيوئع صلحاً مع "إسرائيل" ويصبح لبنان محمية إسرائيلية. وفي الأردن الذي دأبت "إسرائيل" على اعتباره "الوطن البديل للفلسطينيين"، فيقلب نظام الملك حسين ويطرده الفلسطينيين من الضفة وينقذ عملية "تحويل" فلسطينيي الـ48 (الترانسفر) إلى الأردن.

⁵⁰² Ron McLaurin, "Golan in a Middle East settlement", *Oriente Moderno*, vol. 61, 1981, pp. 43 - 58.

بهذه الخطة، تقضي "إسرائيل" على المقاومة الفلسطينية وتهيمن على لبنان وتطرد فلسطينيي 1948 وفلسطينيي الضفة إلى الأردن وتضمن سكوت سورية إلى الأبد. وساعتئذٍ تتضح "إسرائيل الكبرى" في بر الشام من حدود مصر إلى تخوم دمشق وحتى وسط لبنان حسب النبوءة التوراتية.

ولكن هدف "إسرائيل" الثالث من الخطة، أي تغيير النظام السياسي في لبنان كان حسان طروادة الذي سيثبت سطحية "إسرائيل" في تعاطيها مع الوضع اللبناني، ما سيؤدي إلى فشل خطتها. والثغرة كانت أن مشروع "إسرائيل" قد بنى طموحات إقليمية كبرى تجنبها من غزو لبنان بدون تدابير استراتيجية تقتضي موافقة دول عدة. فاكتشفت سورية هذه الثغرة ووجدت أن كل ما عليها لإفساد المشروع الإسرائيلي هو فقط الصمود ومقاومة "إسرائيل" في لبنان.

وكانت "إسرائيل" قد عرضت على هيغ خطة غزو لبنان في تشرين الأول 1981 تتضمن إبعاد الفلسطينيين عن الحدود مسافة 40 كلم. وكان حبيب يعمل مستشاراً للرئيس ريغن الذي أوفده في كانون الأول 1981 ليعرض على الإسرائيليين فرصة توسيع اتفاق وقف النار مع منظمة التحرير إلى مفاوضات تصل إلى حل المشكلة الفلسطينية. وعندما قدّم حبيب الأفكار للحكومة الإسرائيلية انفجر شارون بين الضحك والغضب - كما شرح حبيب في مذكراته - وقال لحبيب: "أنت تريد حل مشكلة الفلسطينيين؟ سأريك كيف تُحل مشكلة الفلسطينيين!". ثم وضع شارون خريطة على الطاولة وأخذ يضرب يديه عليها هنا وهناك مثل الساطور، حيث يقع لبنان والأردن والضفة الغربية، أي كيف ستقضي "إسرائيل" على منظمة التحرير وكيف سيمسح الفلسطينيون من بيروت ومن كل لبنان⁵⁰³.

وكان هيغ قد جعل وزارته وكرماً صهيونياً يتبع سياسة مختلفة عن ريغن وحبيب، مطلعاً على خطة غزو لبنان. وزين هيغ لريغن حسنة العملية الإسرائيلية أنها ستعيد لبنان إلى حضن "العالم الحر" بعيداً عن سورية التابعة للسوفيات، وأن "إسرائيل" ستقضي على "أوكار الإرهاب الفلسطيني". ولذلك أخذ بيغن يطالب واشنطن بإعادة تفسير اتفاق وقف النار مع سورية ومنظمة التحرير ليشمل أي هجوم على أي هدف إسرائيلي أو يهودي في أي مكان في العالم كما اقترح هيغ، ما يكفي كذريعة لانطلاق الغزو.

وكانت "إسرائيل" قد حسمت أن غزو لبنان يجب أن يتم قبل انتخاب رئيس الجمهورية اللبنانية في آب 1982، لأن ظروف تحالفاتها داخل لبنان مؤاتية لترشيح حليفها بشير الجميل وإلا انتُخب رئيس موالٍ لسورية. ولتنفيذ ذلك، كان على جيشها أن يصل بيروت قبل موعد الانتخاب. ولكن الهدوء كان يعمّ جبهة الجنوب رغم أن "إسرائيل" قامت بحشد جيشها بهدف الغزو خمس مرات من تموز 1981 إلى أيار 1982. بل كانت تشنّ غارات عدة بدون سبب، استجداً لردّ فلسطيني ثم تضطر دائماً إلى الغاء الحشد لعدم توفّر ذريعة. ولكن في 3 حزيران 1982 قام مسلّحون تابعون لجماعة أبو نضال التي يغذيها العراق والمعادية لعرفات ومركزها بغداد، بمحاولة اغتيال سفير "إسرائيل" في بريطانيا. فدار نقاش في الحكومة الإسرائيلية في الليلة نفسها حول استغلال هذه المحاولة كذريعة وقال بعض الوزراء إن أبا عمّار لا علاقة له بمحاولة الاغتيال.

Patrick Seale, ASAD, p. 375.⁵⁰³

وحسم الجدل رئيس الأركان رفايل إيتان الذي تبين بعد تسلمه المنصب أنه كان أكثر حقداً على الفلسطينيين من شارون بعبارته الشهيرة: "أبو نِزال.. أبو شِمِدال.. لا يهمني.. يجب سحق منظمة التحرير!".
بدأ الغزو الإسرائيلي يوم 4 حزيران بسلسلة غارات على بيروت والجنوب تلاها فتح نيران كافة أنواع الأسلحة على المواقع الفلسطينية والمخيمات في كل لبنان. وبعد يومين من القصف الذي أحدث خسائر كبيرة في الأرواح ودماراً مادياً بالغاً، بدأ الغزو الأرضي يوم الأحد 6 حزيران بدخول 76 ألف جندي إسرائيلي (سيصبحون 120 ألفاً بعد شهر) و1250 دبابة و1500 مِللة مدرّعة مع دعم مئات الطائرات الحربية ومدفعية الميدان على خط طوله 50 كلم على حدود لبنان. ومواجهة كل هذه القوة كان ثمة 15 ألف مقاتل فلسطيني ينتمون إلى ثمانية فصائل مختلفة وبضع مئات من المقاتلين اللبنانيين. واتضح فوراً أن قوة الفلسطينيين في الجنوب كانت هزيلة. إذ مع صبيحة 8 حزيران، وفي أقل من يومين، كانت القوات الإسرائيلية قد تغلغت عميقاً في البقاع والجبل وعلى الساحل (باستثناء مخيمات صيدا وصور التي حاصرها الإسرائيليون وصمد الفلسطينيون فيها لفترة طويلة).

ولم يميّز الجيش الإسرائيلي بين مقاتلين ومدنيين في غياب فضائحي للإعلام الغربي عن ساحة الحرب، بل عملت الطائرات والدبابات الإسرائيلية والمدفعية البعيدة والبارجات على قصف مباشر وضخم للمخيمات الفلسطينية والمدن اللبنانية. وكان أسلوب الجيش الإسرائيلي لا يتغير عند كل قرية أو مدينة ويقضي بإخراج السكان المدنيين من منازلهم إلى ساحة كبيرة، وبعد ذلك اختيار الشبان وعصب أعينهم وتركهم ساعات طويلة وأحياناً أياماً في العراء وتحت الشمس بدون ماء أو طعام. يتعرّضون للضرب المبرح من الجنود الإسرائيليين، ثم يُنقلون إلى معسكرات اعتقال داخل "إسرائيل". وكان شارون وبيغن يبرزان هذه الجرائم أنه تجب معاقبة المدنيين في لبنان لأنهم يأوون المخربين⁵⁰⁴.

وكان استعداد سورية غير كافٍ لخوض حرب إقليمية غير متكافئة مع "إسرائيل"، في حين كانت قواتها في لبنان متواضعة⁵⁰⁵. فبعيداً عن الحدود كان ثمة 25 ألف جندي سوري في لبنان مجهزين بـ300 دبابة و300 ناقلة جند فقط. وكان الموقف السوري في اليوم الأول هو التزام تفاهم حبيب وعدم إعطاء "إسرائيل" ذريعة لتوسيع رقعة هجومها. لقد جاء توقيت الغزو في فترة تأزم علاقات دمشق مع منظمة التحرير، وتعرّث قيام قيادة موحدة سورية فلسطينية. إذ إن دمشق ضبّطت ردّ الفعل الفلسطيني على الغارات الإسرائيلية طيلة الشهور السابقة بموجب اتفاق حبيب، ولكن هذه المرة أقدم الفلسطينيون على قصف الجليل يوم 4 حزيران بعد عشر ساعات من الغارات الإسرائيلية الأولى دون أن يستشير عرفات سورية. بل إنّه وضعها أمام الأمر الواقع: أن حرباً إسرائيلية قد بدأت.

⁵⁰⁴ John Bulloch, *The war in Lebanon*, London, Century Publishing, 1983.

⁵⁰⁵ Yair Evron, *War and Intervention in Lebanon: The Israeli – Syrian Deterrence Dialogue*, London, Croom Helm, 1987.

معركة البقاع

علمت سورية عن خطة الهجوم الإسرائيلي منذ بداية العام عبر السوفيات ومن مصادر عربية عدّة وحتى من مصادر القوات اللبنانية نفسها التي حرصت على إبلاغ دمشق بنيتات "إسرائيل". وكانت سورية ومعها الفلسطينيون على اعتقاد أنّ العملية ستكرّر "عملية الليطاني" عام 1978 وتقتصر على الجنوب حتى صيدا كأقصى حد. وأنّ "إسرائيل" ستحترم الخطوط الحمر التي وضعها كيسنجر في ربيع 1976 والتي جدّدها تفاهم فيليب حبيب في صيف 1981.

في الأيام الثلاثة الأولى مارست "إسرائيل" الخداع. إذ أنّها طمأنت سورية عبر واشنطن يوم 5 حزيران أنّها لن تستهدف القوات السوريّة في لبنان طالما أنّها لا تفتح نيرانها على الجيش الإسرائيلي. كما كتب بيغن إلى الرئيس ريغن رسالة بالمضمون نفسه يوم 6 حزيران. ثم جاء فيليب حبيب إلى دمشق يوم 8 حزيران لطمأنتها أنّ قواتها في لبنان لن تُهاجم. وحقيقة الأمر أنّ "إسرائيل" هي التي احتاجت لطمأنة سورية بشكل يومي طالما أنّ الجيش الإسرائيلي لم يصل بعد مشارف بيروت. وسرعان ما انكشفت الخديعة الإسرائيليّة. إذ بعد حصول تقدّم إسرائيليّ كبير على الساحل، وفي 7 حزيران وبدون إنذار مسبق دمّرت الطائرات الإسرائيليّة الرادارات السوريّة في جبل الباروك في الشوف وفي قاعدة رياق الجويّة في البقاع. وفي 8 حزيران، في الوقت الذي كان بيغن يدعو سورية في خطاب أمام الكنيست أن لا يتعرّض جيشها في لبنان للجيش الإسرائيليّ، كانت وحدات الجيش الإسرائيليّ تنفّذ خطأً ميدانيّة لتطويق الجيش السوريّ في جزين ثم التوجّه شمالاً لقطع طريق بيروت - دمشق.

الخطر الأكبر على سورية كان يتجسّد في وادي البقاع وليس في الساحل والجبل. إذ إنّ القائد العسكريّ "أفيغدور بن غال" كان يقود جيشاً من 35 ألف جنديّ و800 دبابة في البقاع في هجوم أراذته "إسرائيل" ساحقاً ضد الجيش السوريّ فيحتلّ البقاع ويقطع الطريق الدوليّة بين بيروت ودمشق. وكانت القيادة العسكريّة في دمشق ومنذ 4 حزيران تناقش حجم الغزو: هل ضرب قوات منظمة التحرير في جنوب لبنان يحتاج إلى سبع فرق إسرائيليّة مدرّعة وعدد كبير من الوحدات الخاصة ومجموعة كبيرة من الدبابات ومئات الطائرات؟ واستنتجت سورية سريعاً أنّ طمأنات "إسرائيل" المتكررة لسورية هدفت إلى إبقاء سورية خارج المعركة بضعة أيام للخلاص من الفلسطينيين جنوباً ثم التفرّغ لسورية في باقي لبنان. وأنّ "إسرائيل" قد وضعت في حساباتها أنّه في حال تصدّت سورية للهجوم الإسرائيليّ فإنّها، أي "إسرائيل" ستهاجم سورية نفسها. هذا كان إذاً هدف دفع هذا الحجم من القوات: هزيمة سورية داخل لبنان وتوجيه ضربة مهينة لسورية نفسها.

لقد كانت "إسرائيل" تحتاج إلى 72 ساعة لتحديد القوات السوريّة، ولكن سورية لم تمنحها هذه الفرصة فلم يستمر خداع "إسرائيل" أكثر من 48 ساعة. وكان هذا الفارق الضئيل في الوقت حاسماً في تحديد وجهة الحرب. إذ إنّ سورية استوعبت الخطة الإسرائيليّة من خلال مراقبتها للتطورات الميدانيّة، وفي ليل 7 حزيران استعرض نائب رئيس الأركان السوريّ علي أصلان أمام الأسد والقيادة العسكريّة الوضع الميدانيّ في لبنان:

- أن "إسرائيل" قد احتلت مواقع فلسطينية في الجنوب وتلاحق الفلسطينيين إلى مناطق تسيطر عليها القوات السورية، ما يجعل احتكاك الجيش السوري بالجيش الإسرائيلي مسألة ساعات.
 - وأن دفاعات سورية في جزيين قد أصبحت جيباً يطوقه الإسرائيليون ويهاجمونه من ثلاثة مواقع.
 - والخطر الأهم في تقرير أصلان أن قوة إسرائيلية مدرعة قد وصلت إلى قرية لبنانية على مسافة عشرة كلم جنوب طريق الشام، ما يعني سقوط خاصرة سورية اللبنانية تماماً إذا وصل الإسرائيليون إلى خط شتورة - بر الياس - مجدل عنجر. فتمّ تطويق دمشق من الغرب ويحاصر الجيش السوري في لبنان وخاصة في بيروت.
- وهكذا وضعت سورية يوم 8 حزيران خطتها لمواجهة الغزو: فهي لن تخوض حرباً شاملة، ولكنها لن تترك لبنان كي يسيطر عليه الإسرائيليون، وستتصدى للتقدم الإسرائيلي في البقاع. ولكل ساعة يُحسب لها حساب، وأحضرت تعزيزات من جبهة الجولان وزيد عدد بطاريات صواريخ سام في البقاع كي تضع سورية حدّاً فورياً للتقدم الإسرائيلي في البقاع في يوم 9 حزيران الحاسم.
- وكانت واشنطن ترتقب بدايات الرد السوري وتستمر في المراوغة لخداع سورية. فقد أرسل بيغن عبر فيليب حبيب رسالة شفوية إلى الأسد أن "يزد الوضع" وأن "إسرائيل" لن تتوسع في غزوها إذا أخرجت سورية بطاريات الصواريخ وعملت على إبعاد الفلسطينيين مسافة أربعين كلم عن الحدود الجنوبية. ولكن فيما كان حبيب يتباحث مع خدام في دمشق في العرض الإسرائيلي وينتظر جواب الأسد، هاجمت الطائرات الإسرائيلية - قادمة من الغرب عن طريق البحر وجبل لبنان - على حين غرة قواعد الصواريخ السورية في البقاع، ضمن خطة متكاملة وجاهزة شاركت فيها عشرات الطائرات والأجهزة الإلكترونية الإسرائيلية والطائرات بدون طيار وطائرات التجسس والتنسيق الضخمة من طراز بوينغ 707.
- أما كيف أبطلت "إسرائيل" مفعول صواريخ سام، فكان ذلك بمساعدة مصرية. إذ كانت مصر قد سلمت للولايات المتحدة في خريف 1981 بطاريات سام 3 و6 كاملة "للدراية"، بعد طلب أميركي مباشر من السادات وافق عليه السادات فوراً، وشهد على ذلك وزير الخارجية المصري إسماعيل فهمي⁵⁰⁶. فأخضع الخبراء الإسرائيليون والأميركيون هذه المعدات لتجارب عدّة واستطاعوا أن يبتدعوا وسائل تعطيلها. وكانت هذه الهدية المصرية العامل الأكبر في تمكين "إسرائيل" في ضرب الصواريخ السورية في البقاع.
- وردت سورية بإطلاق طائراتها للتصدي للأسطول الجوي الإسرائيلي مع الفارق التكنولوجي الكبير بين طائرات الطرفين: 70 طائرة سورية سوفياتية الصنع ضد 100 طائرة إسرائيلية من أحدث ما أنتجته المصانع الأميركية. فكانت هذه المواجهة الجوية هي الأكبر في تاريخ الحروب، سقط جرها 29 طائرة ميغ سورية ولم تسقط لـ "إسرائيل" طائرة واحدة.

ورغم عدم تكافؤ القوى الجوية السافر منعت سورية "إسرائيل" من أن تحقق تفوقاً جويّاً في البقاع لليوم التالي على التوالي، إذ ما أن ظهرت الطائرات الإسرائيلية مجدداً في سماء البقاع صباح 10 حزيران حتى تحركت

Ismael Fahmi, *Peace in the Middle East*, American University in Cairo Press, p. 265.⁵⁰⁶

الطائرات السوريّة لمواجهتها فخرست سورية 35 طائرة في المعركة الثانية. ورغم فقدان شبكة صواريخ سام في البقاع، لم يضعف عزم سورية على التصديّ للتقدّم الإسرائيليّ. بل حافظ جيشها على خطّ دفاعي يمتدّ من بحيرة القرعون إلى بلدة راشيا رغم سيطرة "إسرائيل" الكاملة في سماء المعركة.

وكانت "إسرائيل" مصمّمة على الوصول إلى طريق الشام. فبعد سيطرتها على الجو أطلقت ثمانية طوابير في البقاع وفي سفوح جبل لبنان المطلّة على البقاع بغية محاصرة الجيش السوريّ هناك. وكانت هذه معركة وجودية بالنسبة لسورية، إذ إنّ نجاح "إسرائيل" في قطع طريق الشام سيسمح لها باحتلال كامل لبنان ويفتح الباب لتتجّه شرقاً عبر الممرات الجبلية وتهدّد دمشق مباشرة. فلم يكن ثمة بديل لسورية سوى خوض المعركة الأرضية التي اعتبرها العسكريون الغربيون أفضل ما قدّمه الجيش السوريّ منذ إنشائه عام 1946⁵⁰⁷. لقد كانت القوات السوريّة في البقاع مكشوفة تماماً للطيران الحربيّ الإسرائيليّ وتواجه على الأرض قوّة إسرائيليّة متفوّقة عدداً وعدة. ورغم ذلك استطاعت سورية التصديّ لهجوم الإسرائيليّ ودحره في البقاع في معركة استمرّت أربعة أيام.

اعتمد التكتيك السوريّ على مجموعات صغيرة من الدبابات لتفادي غارات جوية إسرائيليّة قاتلة، واعتمد على المشاة الذين يحملون صواريخ مضادة للدبابات وعلى مجموعات كوماندوس. فكان نظام القتال السوريّ هو دفع الإسرائيليين إلى التراجع وجعل القوات الإسرائيليّة تدفع ثمناً باهظاً لكل متر يحاولون احتلاله. ففي 10 حزيران واجه لواء سوري مدرّع قوامه دبابات T - 72 لواءً إسرائيليّاً مدرّعاً في راشيا فهزمه ودمر 33 دبابة وأخذ غنيمة بضع دبابات أميركية M - 60 جديدة. فانسحب ما تبقى من اللواء الإسرائيليّ بضعة كيلومترات باتجاه مزارع شبعاء. وفي القطاع الأوسط تمكّنت كتيبة دبابات سورية واحدة من وقف الزحف الإسرائيليّ عند بلدة عين زحلتا.

ثم وقعت معركة قرية السلطان يعقوب يومي 10 و11 حزيران التي كانت من أهمّ المعارك في حرب 1982 لأنها كانت فاصلة في وقف الزحف الإسرائيليّ نحو شتورة، خاضها لواء الدبابات السوريّ الأول وحسم الحرب في البقاع. في تلك الأثناء كانت المواجهة العسكريّة السوريّة الإسرائيليّة تدقّ نواقيس الخطر في واشنطن وموسكو والعواصم العربيّة والعالميّة من أنّ ثمة حرباً واسعة تشمل الشرق الأوسط تطلّ برأسها.

وطار الأسد إلى موسكو لتعويض خسائر سورية وتدعيم دفاعاتها لمواجهة احتمال الحرب الواسعة. فاتصل بريجنيف بريغن على الخط الساخن الذي يؤشّر إلى أزمة دولية، ما أقلق واشنطن. والتقى الأسد يوري أندربوف رئيس الـKGB، إذ إنّ بريجنيف كان لا يزال على فراش المرض. وكان هذا اللقاء ضربة حظ لسورية لأنّ أندربوف كان يفهم تفاصيل الشرق الأوسط ويدعم الجانب العربيّ ولا يخضع للحسابات المعقّدة مع واشنطن التي اتبعتها إدارة بريجنيف (أصبح أندربوف زعيم الاتحاد السوفياتيّ بعد وفاة بريجنيف). وتوصّل معه الأسد إلى اتفاق يؤدي إلى تعزيز قدرات سورية الدفاعية بشكل غير مسبوق⁵⁰⁸. فكان من نتائج استهداف "إسرائيل" للجيش السوريّ في لبنان أنّ سورية باتت في السنوات التالية أقوى من السابق بكثير.

⁵⁰⁷ "The ground battles of those days were the Syrian Army's finest hour", quoted in Patrick Seale, ASAD, p. 382.

⁵⁰⁸ قاسم محمد جعفر، سورية والاتحاد السوفياتي، لندن، رياض الرئيس للكتاب، 1987.

وإذ اتضح للرأي العام العالمي وللدول الكبرى خداع "إسرائيل" وعمق استهدافاتها في لبنان، بدأت الأطراف الدولية تضغط لوقف إطلاق النار. ولذلك أعدّ ريغن رسالتين إلى الأسد وبيغن لوقف القتال. وجاء في الأولى طمأنة الأسد أنّ الرئيس ريغن يصرّ على وقف النار ابتداءً من صباح 10 حزيران كما يصرّ على الانسحاب الإسرائيلي من لبنان. وفي الثانية لهجة توبيخ شديد للهجة لبيغن. وعندما أطلع هيغ على الرسالتين طلب من فيليب حبيب التريث في نقل رسالة ريغن إلى الأسد. ثم حاول إقناع ريغن أن لا يكون شديد الهجة مع بيغن وحذف فقرة أنّ واشنطن مصرة على انسحاب إسرائيلي فوري وغير مشروط.

ولكن حبيب لم يلبّ طلب هيغ الذي كان يعلم عن ولاءه لـ "إسرائيل"، بل أوصل رسالتي ريغن بدون تأخير أو تعديل. فسلم حبيب رسالة ريغن إلى بيغن فطلب منه بيغن وشارون الوقت للردّ. فـ "إسرائيل" لم تخطط لهذه الحرب وتغوضها كي تنسحب خضوعاً للضغط الأمريكي كما فعلت عام 1978. واستغل بيغن انتظار حبيب للردّ واتصل بهيغ هاتفياً حيث كانت لا تزال التاسعة مساءً في واشنطن وأقنعه أنّ وقف إطلاق النار ليس سهلاً ويحتاج إلى رعاية أميركية على الأرض. ثم التقى حبيب الأسد في دمشق في الساعة الثانية فجر 10 حزيران، وسلمه رسالة تحدّد وقف النار من الجانبين في السادسة صباحاً. فردّ الأسد فوراً بقبوله، شرط أن تبشر "إسرائيل" بالانسحاب من لبنان فور إعلان وقف إطلاق النار.

تظاهرت "إسرائيل" أنّها لا تعلم أنّ الأسد قد تسلّم رسالة الرئيس الأمريكي وأنّه قبل بوقف إطلاق النار. وأعطت شروطها لحبيب لينقلها إلى سورية لتبدو وكأنّها تتعاون من أجل وقف إطلاق النار دون أن تبدأ تنفيذه فعلاً. ومن ناحيته اعتبر الأسد رسالة ريغن ضماناً كافية، فشرع بسحب وحدات من الجيش السوري وإبعاد المقاتلين الفلسطينيين عن الحدود الجنوبية. ولكن الإسرائيليين استغلوا الأمر وأعلنوا أنّ وقف إطلاق النار يسري في البقاع فقط وهو بين الجيشين السوري والإسرائيلي، في حين ظنّت سورية وفق رسالة ريغن أنّه يشمل كلّ لبنان. ثم واصلت "إسرائيل" الحرب في الشوف وعلى مداخل بيروت لتطويق العاصمة اللبنانية⁵⁰⁹.

معركة بيروت

في 11 و12 حزيران بدأت "إسرائيل" هجوماً ساحقاً جواً وبراً وبحراً على بيروت وضواحيها واخترقت المواقع السورية والفلسطينية في التلال المطلّة على المدينة، حتى تمكّنت يوم 13 حزيران من التواصل مع قوات بشير الجميل عند بلدة الجمهور. فتمكّنت من دخول بيروت عبر شرقها لتصبح بيروت الغربية محاصرة تماماً وفي داخلها 14 ألف جندي سوري ومقاتل فلسطيني وبضع مئات من أفراد الميليشيات اليسارية اللبنانية.

وعندما وجدت "إسرائيل" أنّ مواصلتها الغزو لا تلاقي اعتراضاً أميركياً حقيقياً، خرقت وقف إطلاق النار شرقاً

Yair Evron, "Washington, Damascus and the Lebanese crisis", *Syria under Assad: domestic constraints and regional risks*,⁵⁰⁹

edited by Moshe Ma'oz and Avner Yaniv, London, Croom Helm, 1986, pp. 209 – 223.

وهاجمت المواقع السوريّة المرابطة في الجبل في 18 حزيران من عاليه إلى بحدودون وظهر البيدر، وأبعدت الجيش السوريّ عن الطريق الدوليّة يوم 22 حزيران. فتدخل الأميركيون وأجبروا "إسرائيل" على تثبيت وقف إطلاق النار مع سورية يوم 25 حزيران، كما جاء في رسالة ريغن إلى الأسد. فكانت نتيجة الأسبوع الثالث من حزيران أن سورية أبعدت تماماً عن معركة بيروت فتصدّرت المقاومة الفلسطينية مهمّة الدفاع فيها.

واستمرّ حصار غرب بيروت أسابيع عدّة دون أن تستطيع "إسرائيل" اقتحامها. فسبّب هذا الحصار إخراجاً كبيراً لسورية التي باتت مراقباً جانبياً لدمار عاصمة لبنان. ثم صبّت أضواء الإعلام العربيّ والعالميّ على ياسر عرفات الذي بدا قائداً ميدانياً وكأنّه يحارب في سايغون أو كجنرال روسي يذافع عن ستالينغراد. فأخذ عرفات يزعم أمام التلفزة أن "المقاومة الفلسطينية تقاتل وحيدة فريدة"، متجاهلاً تماماً تضحيات سورية الباهظة في الأرواح والأسلحة والمعدّات في المعارك التي خاضتها في أنحاء لبنان. لا بل كانت إدّعاءات تخرج في لبنان والدول العربيّة أن سورية لا تحارب. وهي تهمة ردّدها عرفات في ما بعد ولم يغفرها له الأسد.

لئن لم تتمكّن سورية من إرسال قوى إضافية إلى بيروت بسبب احتلال "إسرائيل" لمناطق الجبل، أمرت لواءها في بيروت بقيادة محمد هلال أن يشارك في الدفاع إلى جانب الفلسطينيين واللبنانيين "حتى الرمح الأخير". وكان الأسد يشعر - بعكس عرفات - أن سورية تخوض في لبنان "الحرب العربيّة - الإسرائيليّة الرابعة" بدون مشاركة الدول العربيّة الأخرى. ففي 1967 وخذت النكسة العرب وتسارعوا لنجدة سورية ومصر، وفي 1973 كانت الحرب خياراً سورياً - مصرياً رفعت كرامة العرب وحققت تضامناً عربياً باهراً. أما عام 1982، فسورية كانت تحارب بدون مصر التي عقدت صلحاً مع "إسرائيل" وسمحت لـ "إسرائيل" أن تضع كلّ طاقتها في جبهة واحدة ضد سورية. وذهبت نداءات الأسد إلى القادة العرب هباءً.

وعندما أغلقت "إسرائيل" الطرق كافة نحو بيروت، وجّه الأسد نداءً مؤثراً إلى الجنود السوريين المحاصرين يوم 2 آب كي يفرضوا على شارون أن يدخل بنفسه ويقاتلهم: "أيها الأحبة! أنا أعيش معكم نهاراً وليلاً.. عروبة بيروت هي أمانة بأيديكم. أسألكم أن تصمدوا حتى الشهادة أو النصر". فكانت مساهمة اللواء السوريّ في بيروت هي التي ساعدت منظمة التحرير على مواصلة المقاومة ورفض عروض إسرائيلية مذلّة كان ينقلها فيليب حبيب إلى عرفات ورئيس الحكومة اللبنانية شفيق الوزان. وبعد ذلك لم تسر الأمور لمصلحة "إسرائيل"، إذ إن بلوغها بيروت قد أوصلها إلى فخّ. فقد كان من المفترض أن تكون مشارف مدينة بيروت هي آخر مرحلة لغزوها على الساحل وجائزتها الكبرى، وفق الاتفاق مع قوات بشير الجميل على أن تكمل قواته الخطة بدخول المدينة وليس الجيش الإسرائيليّ. وكان بشير قد اتفق مع شارون وبيغن دخول المخيمات وغرب المدينة وتجريد الفلسطينيين من سلاحهم واعتقال مسؤوليهم وجرف المخيمات وطرد 200 ألف لاجئ فلسطيني من بيروت وضواحيها ليتمّ توزيعهم على الدول العربيّة في ما بعد.

وليس أن كلّ قوات بشير كانت غير كافية حتى لتنفيذ عشرة في المئة من هذه الخطة لبيروت، بل إن بشير بناءً على نصح من مستشاريه ومن الرئيس الياس سركيس والسفراء العرب، رفض الطلب الإسرائيليّ، ما هدّد التحالف الإسرائيليّ المارونيّ برمته. ذلك أن بشير كان "الحجرة التي سدت الخابية" - حسب التعبير اللبنانيّ

- بالنسبة للغزو الإسرائيلي، لأنه سيكون أساس المكاسب السياسية الكبرى التي وعد بيغن وشارون نفسيهما بها.

وهكذا بدأ الجيش الإسرائيلي وقد أصبح على مشارف بيروت يواجه ليس فقط المقاومة التي تدافع عن المدينة، بل ومعارضة متعاطمة من ضباط إسرائيليين على الأرض، ومن وزراء في الحكومة الإسرائيلية وفي الكنيست، ومن واشنطن والعواصم الكبرى. ليس فقط بأن "إسرائيل" فشلت في إخراج سورية من لبنان، بل هي الآن تفشل في القضاء على قوات منظمة التحرير الفلسطينية. فغضب شارون واستعاض عن عدم تحرك بشرى على الأرض بالقصف الشديد على بيروت وتشديد الحصار. إذ لعل عرفات وقيادته يستجيبون لطلباته. وبدأ قصف ميداني عنيف امتد من 13 إلى 25 حزيران، كما قطعت "إسرائيل" الماء والكهرباء ومنعت دخول التموين الغذائي عمّن بقي من سكان المدينة (حوالي 400 ألف).

وزاد من صعوبة الموقف الإسرائيلي أنّ ريغن طرد هيغ من منصب وزير الخارجية وعيّن مكانه جورج شولتز، بعدما ضاق ذرعاً بحماس هيغ لـ "إسرائيل" وتمسك هيغ بمقولة كيسنجر الفارغة أنّ "الحرب تفتح فرصاً للسلام" (وكررت كونداليزا رايس هذا المنطق أثناء حرب تموز 2006 عندما قالت إنّ "شرق أوسط جديداً يولد من رحم الحرب"). وكان الرئيس ريغن ضد فكرة أن يصبح لبنان غنيمته الإسرائيلية ودولة يحكمها بشرى الجميل تابعة لتل أبيب ويفضل خروج الجيوش الفلسطينية والسورية والإسرائيلية ليبقى لبنان موحداً تابعاً للغرب.

وإذ فشل القصف والحصار كما فشل إقناع بشرى بالدخول، سعت "إسرائيل" إلى وسيلة ثالثة، حيث طلب شارون وبيغن أن يفاوض فيليب حبيب منظمة التحرير لتغادر المدينة سلمياً. وإذ دخل حبيب مفاوضات مع عرفات وقيادته، واصل الجيش الإسرائيلي قصف بيروت للضغط على الفلسطينيين، والضغط على بشرى لدخول المخيمات. ثم توصل حبيب إلى اتفاق مبدئي مع الفلسطينيين وأعلن وقف إطلاق النار يوم 25 حزيران كما سبقت الإشارة. فتوقف القصف الإسرائيلي مؤقتاً ريثما يتم رسم التفاصيل. وكان حبيب يشجع بشرى على مقاومة ضغوط شارون ويشرح أنّ لا فائدة ميدانية من دخول القوات اللبنانية المعركة ولو جزئياً: "أنت تعلم يا بشرى أنني أفاوض لانسحاب الفلسطينيين، وأنت تريد أن تصبح رئيساً للجمهورية. ولكن ستلحقك اللعنة إذا أذعنت لطلب شارون وسيكون صعباً أن تكون رئيساً لكل لبنان، للمسيحيين والمسلمين". وأمام تعنت بشرى في قبول طلب "إسرائيل" وصمود عرفات في المفاوضات التي استمرت أسبوعين من دون جدوى، أدخلت "إسرائيل" سلاحها الجويّ بسلسلة غارات مكثفة على بيروت امتدت من 5 إلى 12 تموز، استعملت أثناءه قنابل عنقودية وفوسفورية وفراغية vacuum bombs استهدفت أبنية سكنية مدنية في ستة عشر حياً غرب بيروت. فكان يسعى كلّ مرة لاتفاقية وقف إطلاق نار جديد حتى بلغ عددها 12 اتفاقية. وإذ لم تغر الغارات شيئاً في المعادلة الميدانية في بيروت حيث تحصن الفلسطينيون والسوريون جيداً في مشارف المدينة وفي الضاحية الجنوبية والمخيمات وعلى محور المتحف، بدأت مرحلة جديدة أعنف وأشدّ وطأة من القصف الإسرائيليّ بشتّى الأسلحة جواً وبراً وبحراً، تواصل هذه المرة من 22 تموز وحتى 12 آب. حتى بلغ عدد الضحايا المدنيين 17 ألف قتيل و35 ألف جريح في أكبر مجزرة في تاريخ "إسرائيل".

ومن ناحية أخرى كانت سورية تساعد المقاومة الفلسطينية والأحزاب اليسارية في البقاع والجبل بمهاجمة الدبابات والمواقع الإسرائيلية. فردّت "إسرائيل" بفتح مدفعيتها على الخطوط السورية في البقاع يوم 22 تموز، وأغارت على المواقع السورية.

أدت المجزرة الإسرائيلية المتواصلة في بيروت إلى تحقيق غايتها: ذلك أن زعماء بيروت المسلمين ضغطوا على الفلسطينيين في 10 آب لقبول مقترحات حبيب رافة بسكان المدينة الذين يهلكون كل يوم. فوافق عرفات وخرج حبيب باتفاق يوم 12 آب وافقت عليه "إسرائيل" وقضى بمغادرة سلمية للقوات الفلسطينية واللواء السوري ودخول قوات أجنبية متعددة. وكعادته سابق شارون موعد وقف النار بقصف مجنون على بيروت كان الأعنف منذ 13 حزيران. وفي 19 آب استطاعت الولايات المتحدة وضع خطة وافقت عليها "إسرائيل" ومنظمة التحرير وشاركت في صنعها سورية والسعودية. فبدأ انسحاب 10800 مقاتل فلسطيني بحراً و3600 جندي سوري برّاً و644 امرأة وطفل فلسطيني، مهاجمة قوة متعددة الجنسيات من وحدات فرنسية وأمريكية وإيطالية. وفي 23 آب التأم مجلس النواب اللبناني في ثكنة الفياضية التي طوّقتها القوات الإسرائيلية، وانتخب بشير الجميل رئيساً للجمهورية.

في مطلع أيلول شعر قادة "إسرائيل" أنهم حقّقوا الجزء الأكبر من خطتهم بعد احتلال جنوب لبنان والوصول إلى بيروت وفرض رجلهم بشير رئيساً وإخراج قوات منظمة التحرير والجيش السوري من بيروت. والآن تستطيع "إسرائيل" بفضل حكومة "شرعية" يقودها بشير الجميل أن توقع معاهدة سلام وتُخرج الجيش السوري من البقاع. ولكن ماذا لو رفضت سورية الخروج من لبنان؟ لم تكن مسألة استمرار الوجود السوري في لبنان سوى بداية متاعب "إسرائيل". إذ بعدما اكتمل انسحاب الفلسطينيين والسوريين من بيروت في أول أيلول، استدعى بيغن بشير الجميل إلى نهاريا في اليوم نفسه وطالبه بتوقيع معاهدة سلام مع "إسرائيل". ولكن بشير رفض لأن الأمور تعثرت وبعدها أصبح رئيساً للجمهورية أصبح أي اتفاق مع "إسرائيل" يتطلب موافقة رئيس الوزراء المسلم الذي لم يعيّنه بعد. كما يتطلب أي اتفاق مع "إسرائيل" تصديق البرلمان اللبناني بعد مناقشته. وهكذا كان الوضع في أيلول 1982.

أسفرت الحرب الإسرائيلية على لبنان في صيف 1982 عن مقتل 20 ألف لبناني وفلسطيني وجرح 40 ألفاً. ولم يكن عدد القتلى والجرحى من العسكريين السوريين أقل ارتفاعاً، إذ وصل إلى 6000 ضابط وجندي، منهم 1200 قتيل (بينهم عدد باهظ لا يعوّض من الضباط الطيارين بلغ 60) و3000 جريح و696 أسيراً. وخسرت سورية 300 دبابة و140 ناقلة جند مدرّعة و80 مدفع ميدان و76 طائرة حربية و29 منصّة صواريخ سام و6 هليكوبترات. ولم تكن خسائر "إسرائيل" بقليلة: 2500 قتيل وجريح (منهم 350 قتيلًا) و12 طائرة حربية و3 هليكوبترات و200 دبابة.

بين موسكو وواشنطن

كانت حرب 82 درساً مؤملاً لسورية وامتحاناً لاستراتيجيتها. فالفلسطينيون أثبتوا عدم جدارتهم كقوة مواجهة عسكرية بفرارهم منذ اليوم الأول من الجنوب إلى بيروت التي تبعد مئة كلم. ومصر لم تتدخل مطلقاً بل كانت تهاجم سورية كلامياً منذ الأسبوع الأول أن هذه الحرب هي لتقاسم لبنان بين "إسرائيل" وسورية، مع أن العامل الأكبر الذي دفع "إسرائيل" لغزو لبنان هو صلحها مع مصر.

أما العراق قد اتهم سورية كعادته منذ 1968 بـ "التواطؤ مع" إسرائيل "وخيانة الأمة العربية". واتهم الملك حسين الرئيس الأسد أنه "يصفي القضية الفلسطينية" رغم تاريخ الأردن مع أيلول الأسود. وحتى القذافي كان يهاجم سورية كلما وافقت على وقف إطلاق النار أثناء الحرب بأن عليها أن تحارب. وكان من الدروس أيضاً أن إيران غير العربية كانت الدولة الوحيدة التي أرسلت مساعدات عسكرية واقتصادية ومقاتلين إلى جبهة البقاع.

خاب أمل سورية من المعاهدة مع الاتحاد السوفياتي ومن صمت موسكو المؤلم طيلة صيف 1982، في وقت كانت "إسرائيل" تدمر لبنان وتطحن بيروت وسكانها وتهدد مداخيل دمشق وتدمر ثلث سلاح الجو السوري ومعظم دفاعات سورية الأرضية داخل لبنان. لقد كان على موسكو أن تلتزم ببنود المعاهدة وتدافع عن سورية خاصة أن سورية عملت ما بوسعها لتفادي الحرب مع "إسرائيل" كي لا تورط حليفها الدولي. والآن وقد فرضت الحرب عليها من جانب "إسرائيل"، توقعت سورية أن موسكو ستواجه العدوان الإسرائيلي العاري وتقف إلى جانب سورية⁵¹⁰. ولكن السوفيات جزعوا من تفوق الأسلحة الأمريكية في هذه الحرب وخافوا أن تقع أسلحتهم المتطورة بأيدي الإسرائيليين إذا هم سلموها إلى سورية.

أما "إسرائيل" التي كانت تحسب حساباً للسوفيات أثناء غزوها للبنان فقد استغربت موقف موسكو الخفر والمتفرج على الحرب. لقد توجس ييغن شراً عندما أُبلغ أن برقية عاجلة قد وصلت من الحكومة السوفياتية، وكان ساعتئذٍ يرأس جلسة لحكومته. فاصفر لونه أن تكون البرقية إنذاراً سوفياتياً يطلب وقف إطلاق النار فوراً وإلا تدخل السوفيات بموجب معاهدة الصداقة مع سورية. ولكنه بعدما قرأ مضمون البرقية أطلق ضحكة ساخرة. إذ لم تكن تتضمن أي تحذير أو تهديد سوفياتي، بل إن موسكو كانت تطلب من "إسرائيل" أن ترعى حرمة سفارتها التي اقتحمها جنود إسرائيليون في شارع كورنيش المزرعة في غرب بيروت⁵¹¹.

أما الموقف الأمريكي فقد كان سافراً في انحيازه الكلي إلى جانب "إسرائيل" وكانت تصرفات هيغ وسياسته إلى يمين كيسنجر، وساهم فيليب حبيب في خداع سورية والمقاومة وسعى لطرده الفلسطيني بمساعدة مدافع وطائرات شارون، ومن ثم دعمت أميركا انتخاب بشير ودعمت خطط "إسرائيل" لتحطيم العرب وتركيعهم. وأثبتت حرب 82 رؤية سورية أن ضعفها لن يجلب السلام. ذلك أن عجز سورية عن وقف الحرب وسعيها إلى وقف إطلاق النار بعدما تخلى الاتحاد السوفياتي عنها كان سبباً لتقرر واشنطن ألا تسحب حساباً لسورية.

Volker Perthes, *The Political Economy of Syria under Asad*, London, I.B. Tauris, 1995, p. 5.⁵¹⁰

كريم بقرادوني، السلام المفقود، ص. 252.⁵¹¹

وعندما أعلن ريغن خطته للسلام في الشرق الأوسط في 1 أيلول 1982 أهمل تماماً الإشارة إلى سورية والجولان المحتل.

سورية والمقاومة تستعدّان للهجوم المضاد

أخذ بشير منذ انتخابه يدعو إلى خروج كلّ الجيوش الأجنبية من لبنان بما فيها سورية و"إسرائيل"، مساوياً سورية بـ"إسرائيل". ولكن قبل انقضاء أسبوعين من خروج القوات السوريّة والفلسطينيّة من بيروت، وقع انفجار ضخم في مركز حزب الكتائب في الأشرافية أسفر عن مصرع بشير و30 شخصاً من مستشاريه ورفاقه. وألقت القوات اللبنانيّة القبض على عنصر من رجالها هو حبيب طانيوس الشرتوني، اكتشفت أنه هو الذي زرع القنبلة في الطابق فوق قاعة الاجتماع وأنه عضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي الموالي لسورية. واتفق شارون مع إيلي حبيقة، مسؤول شعبة الأمن في القوّات على أن أفضل انتقام لبشير سيكون بتنفيذ الاتفاق المسبق بين القوات و"إسرائيل" بدخول المخيمات الفلسطينية وتصفية المخزّبين. وهكذا أعطى شارون أوامر لجيشه بدخول بيروت والمخيمات بعد ساعات من اغتيال بشير في يوم 15 أيلول. وكان دخولاً سهلاً بعد خروج عناصر المقاومة الفلسطينية منذ أول أيلول.

وفي 16 أيلول سمح المسؤول الإسرائيلي عمير دروري لقوات حبيقة بدخول مخيمي صبرا وشاتيلا، حيث عملت ولمدة يومين على قتل المدنيين الفلسطينيين وبعض اللبنانيين. وفاق عدد ضحايا المجزرة صبيحة 18 أيلول الألف قتيل (وقيل 1800)، رغم تعهدات أميركيّة بحماية المدنيين الفلسطينيين. ثم عاد الهدوء النسبي بعد انتخاب أمين الجميل، شقيق بشير، يوم 21 أيلول، وانسحبت "إسرائيل" من غرب بيروت والمخيمات تحت ضغط واشنطن يوم 29 أيلول.

في تلك الأثناء كانت سورية تستوعب آثار الحرب، وتحذّر من خسائرها لتنتقل إلى التصدي للواقع الذي سعت "إسرائيل" إلى فرضه، ومن ثم السعي إلى قلب هذا الواقع⁵¹². وكانت "إسرائيل" تعتقد أن سورية انتهت كقوة مقاتلة وأن الطريق بات ممهداً لمشاريعها. ولكن سورية بدأت فوراً بدعم مقاومة لبنانية ضد الإسرائيليين في كافة المناطق التي يحتلونها، لإدراكها خوف الأخيرة الشديد من تكبّد خسائر في صفوف عسكريّتها. وتكوّنت هذه المقاومة من عناصر يسارية لبنانية من شيوعيين وقوميين سوريين وناصريين وبعثيين في إطار جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية التي بدأها الحزب الشيوعي اللبناني والحزب السوري القومي الاجتماعي ومنظمة العمل الشيوعي. ثم دخلت إلى الساحة التنظيمات الإسلاميّة الشيعيّة وبعضها تدعمه إيران. فكانت العمليّات الانتحاريّة ضد الإسرائيليين ماركتهم المسجّلة. إذ في 11 تشرين الثاني 1982، وقعت عمليّة تفجير مقرّ القيادة العسكريّة الإسرائيليّة في صور بسيارة يقودها انتحاري قتلت 67 ضابطاً وجندياً

William Harris, "Syria in Lebanon", *MERIP Reports*, vol. 15, no. 6, July - August 1985, pp. 9 - 16.⁵¹²

إسرائيلياً. وفي الأشهر التالية بدأت عمليّات المقاومة تتصاعد ضد الإسرائيليين عبر القنص والألغام والمتفجرات والسيارات المفخّخة، كانت لها أبعاد الأثر في دفع الإسرائيليين إلى الانسحاب.

شرعت سورية في بناء قواها العسكريّة وعزّزت جبهة البقاع التي كانت تستوعب مئات المقاتلين الفلسطينيين الذين خرجوا من بيروت أو فرّوا من جنوب لبنان.

ورأت موسكو أنّ مصلحتها هي بالتأكيد مع سورية قويّة لمواجهة احتدام الحرب الباردة التي وصلت إلى درجة غير مسبوقّة مع إدارة ريغن التي وضعت نصب عينها إسقاط الاتحاد السوفياتي ومحاربه في كلّ مكان⁵¹³. لقد اعتبرت موسكو فألاً سيئاً هبوط المارينز في بيروت وقيام نظام أميريّ في المنطقة قوامه "إسرائيل" ومصر، يتخذ من بيروت وحكومتها قاعدة له. وساعد في تحوّل الموقف السوفياتي نحو سورية وفاة بريجنيف في اليوم نفسه لعمليّة صور الانتحارية، 11 تشرين الأول وصعود يوري أندروبوف صديق الأسد الشخصي، الذي وافق فوراً يوم 15 تشرين الثاني على إطلاق عهد جديد من التحالف السوريّ - السوفياتي وتزويد سورية بكميات غير مسبوقّة من الأسلحة وبنوعيّة متفوّقة عمّا قبل.

لقد كان بريجنيف أيضاً واقعاً تحت سحر كيسنجر فكان متردداً في علاقته مع سورية حرصاً على سياسة التهدئة التي بدأها مع واشنطن منذ 1972 برعاية كيسنجر واعتبرها بريجنيف من إنجازاته. فجاء أندروبوف بذهنيّة مختلفة ونشطة لعون سورية وأنب وزراءه المترددين: "أعطوا سورية كلّ ما تحتاجه حتى من مخازن الجيش الأحمر. لن أسمح لأيّ قوّة بالعالم بتهديد سورية بعد اليوم"⁵¹⁴. وأضاف أندروبوف التزاماً جدياً إلى معاهدة الصداقة أنّ موسكو ستساعد سورية إذا تعرّضت لهجوم وخاصة إذا هاجمتها "إسرائيل". ووضّح برنامج تسليح لأربع سنوات ارتفعت بموجبه القوات المسلّحة السوريّة من 225 ألفاً إلى 400 ألف عام 1986، والدبابات من 3200 إلى 4400 والطائرات المقاتلة من 440 إلى 650 وقطع المدفعية من 2600 إلى 4000 وقواعد صواريخ أرض جو من 100 إلى 180، منها صواريخ متطورة لم يسبق أن أعطتها موسكو لأيّ دولة خارج حلف وارسو. وارتفع عدد الخبراء السوفيات في سورية إلى 6000. فتحصّنت دفاعات سورية البحريّة والأرضيّة والجويّة ابتداءً من 1983. ثم وقفت موسكو إلى جانب سورية في المواجهات الديبلوماسية وردّت بعنف على احتجاجات "إسرائيل" على تسلّح سورية، حيث هدّد غروميكو بأنّ أيّ تحرّش إسرائيليّ بسورية سيشعل حرباً عالميّة.

وحصل تشاور بين موسكو ودمشق فوافقت موسكو على حق سورية في إنهاء آثار الحرب الإسرائيليّة عام 1982 واستعادة نفوذها في لبنان.

وفي وقت كانت "إسرائيل" تعمل على مفاوضة لبنان على صلح منفرد استغرق شهوراً عدّة، كانت سورية تعمل بهدوء لتدعيم قوّاتها العسكريّة والديبلوماسية. حتى أنّ سورية وافقت على مشروع السلام العربيّ في

Robert Freedman, "Moscow, Damascus and the Lebanese crisis", *Syria under Assad: domestic constraints and regional risks*,⁵¹³ edited by Moshe Ma'oz and Avner Yaniv, London, Croom Helm, 1986, pp. 224 - 250.

Patrick Seale, ASAD, p. 398.⁵¹⁴

قمة فاس في أيلول 1982 لمصلحة التضامن العربي ما حرم "إسرائيل" من استغلال خصومات سورية مع أشقائها، كما منع الأردن عن المضي في اتفاق شبيه بكامب دايفيد.

لقد استشار جورج شولتز فيليب حبيب فنصحه أن أفضل ما يخدم "إسرائيل" هو الإسراع في ترتيبات أمنية في جنوب لبنان بين "إسرائيل" وحكومة الجميل قبل نهاية 1982 والعودة إلى اتفاق الهدنة. ونصح حبيب شولتز أن لا يطمح لمعاهدة سلام لا قدرة للبنان على تحملها ولا على تطبيقها. وأنه بعد شهور ستتعافى سورية ويصبح من الصعب حتى تحقيق ترتيبات أمنية مع لبنان. وأصغى شولتز إلى نصح حبيب وفضل منطقته على الصهيوني كيسنجر، وطلب مساعدة حبيب لتنفيذ ترتيبات أمنية. ولكن حبيب كان يعاني من مرض القلب. فتأخر في السفر إلى لبنان حتى كانون الأول 1982. حتى إذا حضر، كان القطار قد غادر المحطة. إذ إنه اكتشف أن خطة ترتيبات أمنية تعيد الهدنة قد تجاوزها الرئيس الجميل الذي وافق مع "إسرائيل" على الذهاب إلى محادثات سلام مباشرة. فقد بدأ حبيب جولة مكوكية بين الجميل وبيغن وشارون لوضع إطار ترتيبات أمنية يمكنه حملها إلى دمشق والرياح للموافقة عليها. ولكنه فيما كان يشرح لبيغن وشارون أفكاره، قاطعه شارون وهو يلوح بيده أوراقاً: "توقّف لحظة! لا نحتاج إلى الشيء الذي تتكلم عنه. عندي هنا اتفاق وقّعه أمين الجميل نفسه!".

فنظر حبيب في الأوراق ثم أوقف الاجتماع فوراً بعد هذه الصدمة التي كشفت له أن الجميل كان يتفاوض مع الإسرائيليين من وراء ظهره ودون أن يُعلم واشنطن. وعاد حبيب إلى بعداً لمواجهة الجميل: "ماذا فعلت؟ لماذا لم تقل لي إنك تتفاوض الإسرائيليين؟".

لقد وصلت التزامات الجميل تجاه بيغن وشارون حد التفاوض للتوصل إلى معاهدة سلام دون علم حبيب. فأبلغ حبيب شولتز في واشنطن ما يجري. ولكن شولتز أعجب بخطوة الجميل واستحسن فكرة الذهاب إلى مفاوضات سلام مباشرة. إذ طالما أن الطرفين متفقان على ذلك فلماذا تزعل أميركا؟ ونسي ما قاله حبيب إن سورية تتعافى ولن تقبل السلام المنفصل.

ثم أعلن شولتز رعاية أميركية لمحادثات علنية بين لبنان و"إسرائيل"، افتتحت في 28 كانون الأول 1982 في مستوطنة كريات شمونة في "إسرائيل" وفي خلدة جنوب بيروت. ولكن الرياح لم تجرّ بما تشتهي السفن الأميركية والإسرائيلية إذ حصل ما توقّعه حبيب:

أولاً، على صعيد المفاوضات اللبنانية الإسرائيلية تبين أن الجميل لم يكن أنور سادات آخر. فقد كان "الشیطان يكمن في التفاصيل"، كما يُقال، وما بدا أنه سهل التحقيق امتد إلى مفاوضات تفصيلية استمرت أربعة أشهر وخرجت بنص لم تتحمس له "إسرائيل" ولم يرق إلى معاهدة سلام. بل كان فعلاً إجراءات أمنية. فأمين الجميل لم يكن بصدد توقيع معاهدة سلام وخاصة أنه يعلم مسبقاً استحالة تسويقها ليس مع مسلمي لبنان فحسب، بل مع سائر الدول العربية وفي طليعتها السعودية التي درج القادة المسيحيون على أخذ خاطرها، ومع سورية التي يُحسب لها ألف حساب.

وثانياً، تلقت واشنطن صفقة أمنية كبرى في بيروت. إذ اجتاحت شاحنة مفخخة السفارة الأميركية في 18 نيسان 1983 فدمرتها على من فيها وقتل 63 شخصاً منهم ستة عناصر من السي آي إيه ومسؤولهم روبرت

إهمز. ما ولد ضغينة في صدر شولتز ضد السوريين وشريكهم السوفياتي واعتبر الأمر برمته هزيمة له في الأشهر الأولى وزيراً. فقد وضع شولتز ثقله الشخصي لتعجيل الاتفاق بين "إسرائيل" ولبنان وقام بجولة مكوكية أسفرت عن وضع نص اتفاق يوم 4 أيار 1983 وبهذا يثبت نجاحه كوزير أمام فشل وزراء قبله.

أضاف الإسرائيليون إلى نص الاتفاق الذي توصلوا اليه مع حكومة لبنان رسالة سرية يتعهد فيها شولتز أن "إسرائيل" غير ملزمة بالاتفاق، إذا لم تنسحب القوات السورية والفلسطينية من لبنان. وهذا الشرط بالذات هو ما منح سورية حق الفيتو، إذ كان يكفي أن تبقى سورية قواتها في البقاع حتى يفشل الاتفاق. ثم ذهب شولتز إلى دمشق في 7 أيار ليعرض الاتفاق على الأسد، وأخذ يتصرف بعنجهية متأكد أن سورية لن تقف بوجه الاتفاق. وكان سفير واشنطن في دمشق قد حذر شولتز من أن الأسد غاضب جداً من السياسة الأميركية تجاه بلاده وتجاهلها للمصالح السورية والعربية خدمة لمصلحة "إسرائيل". ولكن شولتز كان يظن أن سورية قد أضعفتها "إسرائيل" وليس أمام الأسد سوى الموافقة على الاتفاق.

ولكن كانت ثمة مفاجأة بانتظار شولتز في دمشق، إذ إن الأسد أخضعه لجلسة الساعات الخمس الاعتيادية ليقص عليه تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية والوضع اللبناني وحقوق سورية في الجولان ومحاولات "إسرائيل" الهيمنة على المنطقة وموقف أميركا السافر إلى جانب "إسرائيل". إلى أن خلس الأسد إلى النص الذي يحمله شولتز، فوصفه أنه اتفاق إذعان يجعل لبنان محمية إسرائيلية ويبعده عن أشقائه العرب ويغير هويته الوطنية والقومية. ثم كيف يأتي شولتز إلى دمشق ليكافئ "إسرائيل" على عدوانها على حساب الأمن القومي العربي؟ وأنهى الأسد حديثه بأن سورية قد تفكر بالانسحاب من لبنان بالاتفاق مع الحكومة اللبنانية فقط وبعد انسحاب إسرائيلي كامل وغير مشروط من الأراضي اللبنانية. ونصح الأسد شولتز أن يضع الاتفاق جانباً ويذهب لتطبيق قرار مجلس الأمن 508 و509 اللذين أيدتهما واشنطن حول انسحاب إسرائيلي كامل وغير مشروط من لبنان.

كان اللقاء مع الأسد هو أسوأ ما واجهه شولتز في حياته المهنية الطويلة. فلم يكن معتاداً على كلام قاس كهذا. وأدرك أمرين فوراً: أن مصير الاتفاق الذي رعاه بين لبنان و"إسرائيل" هو الآن بيد سورية، وأن ما يطلبه الأسد منه هو فتح كافة ملفات الصراع العربي الإسرائيلي من قضية فلسطين إلى الجولان ولبنان والسلام الإقليمي، ما يستغرق سنوات لإنجازه. بينما هو، أي شولتز، في عجلة من أمره يريد أن ينهي موضوع الاتفاق بين لبنان و"إسرائيل" ويعود إلى واشنطن خلال يومين ويقدم إنجازاً وحيداً لرئيسه. ولذلك طار شولتز إلى الرياض ليقنع السعوديين بالضغط على سورية. ولكنه لم يفلح. فعاد إلى بيروت غاضباً يشعر بالإهانة. وزاد من غضب شولتز أن شفيق الوزان، رئيس الحكومة اللبنانية، كان يضحك عندما كان الوزير الأميركي يصر على المضي في الاتفاق الذي رآه الوزان غير جدير بأن ترعاه دولة كبرى كأميركا التي سبق ووعدت اللبنانيين بالمن والسوى. لقد كان الوزان يتكلم مع شولتز بحضور رسميين لبنانيين وأميركيين بتأنيب ضمني: هل هذا أقصى ما يمكن شولتز عمله للبنان؟ عندها غضب شولتز وقال للوزان والرسميين اللبنانيين إن عليهم كلبانين أن يقنعوا سورية بالخروج من بلدهم وليس دوره هو. ثم غادر شولتز بطائرته من مطار بيروت حيث كانت مواقع المارينز إلى جانب المطار تتعرض لقصف مدفعي من حلفاء سورية في الجبل القريب.

تسارعت الخطوات لإفشال مشروع "إسرائيل" في لبنان. ففي 13 أيار 1983 اجتمع حلفاء سورية بقيادة الرئيس السابق سليمان فرنجية وعضوية رئيس الحكومة السابق رشيد كرامي ووليد جنبلاط وإنعام رعد رئيس الحزب القومي وجورج حاوي أمين عام الحزب الشيوعي وعاصم قانصو رئيس حزب البعث في لبنان، للإعلان عن "جبهة الخلاص الوطني" التي التحق بها نبيه بري رئيس حركة أمل، بهدف محاربة الاتفاق وقلب نظام الجميل و"تحرير لبنان من الاحتلال الإسرائيلي وبناء لبنان جديد". واعتبرت سورية أن تلك الجبهة هي سلطة لبنان الشرعية بدلاً من حكومة الجميل.

في 17 أيار 1983 وقّعت حكومة الوزان على الاتفاق الذي ساوم على سيادة لبنان بمنح "إسرائيل" مكتب تمثيلي في ضبيه شمال بيروت وحققها في ممارسة سيادة أمنية في الجنوب وخلق ثماني مجموعات مشتركة لبنانية إسرائيلية "لملاحقة المخربين" وتكليف ميليشيا "جيش لبنان الجنوبي" بقيادة سعد حداد حراسة الجنوب حتى نهر الزهراني وحرمان الجيش اللبناني من نشر قواته شمال نهر الزهراني بأكثر من لواء بتسليح خفيف فقط، ومنع أجهزة رادار لبنانية وأي طيران فوق النصف الجنوبي من لبنان بدون موافقة مسبقة من "إسرائيل". وكذلك إنهاء حالة الحرب بين لبنان و"إسرائيل" ومنع أي نشاط إعلامي أو تربوي عدائي ضد "إسرائيل" في لبنان، ومنع نقل أي معدات أو أسلحة أو بضائع تعتبرها "إسرائيل" مضرّة بأمنها عبر لبنان إلى كل الدول العربية. وأن على لبنان أن يُنهي خلال عام أي اتفاقات أو تعهّذات رسمية مع أي جهة عربية أو دولية تُعتبر معادية لـ"إسرائيل".

وكانت سورية تستعدّ للمواجهة الثانية في لبنان وأصبح قصر الرئاسة في دمشق غرفة عمليات بشعبات ممتدة إلى كل زاوية وكل شأن في لبنان: في بيروت والبقاع وطرابلس والجبل كما في الجنوب، وفي شؤون السياسة والإعلام والمقاومة والاقتصاد. فما أن وُقِع الاتفاق في 17 أيار حتى انطلقت الحملة الإعلامية ضد "العلاء" الذين وقّعوه، مع تحذير بأن الحرب الأهلية قد تشتعل مجدداً وأن لبنان قد بات محمية إسرائيلية - كثنائية، وأعلن الأسد أن "عقد الإذعان قد وُلِدَ مَيّتاً".

انسحاب "إسرائيل"

اتضح لأميركا أن سلاماً بين "إسرائيل" ولبنان لن يحصل وأن الوضع العسكري يتدهور. فعاد شولتز إلى المنطقة وقد أدرك أنه لن يستطيع تجاهل مصلحة سورية في لبنان. وخضع للقاء خمس ساعات أخرى مع الأسد في 6 تموز 1983 لحثّه مرّة ثانية على دعم الاتفاق، ولكن الأسد كرّر المواقف السابقة نفسها. وفي 6 آب 1983 أوفد شولتز روبرت ماكفرلين إلى الأسد لسؤاله عن شروطه كي يسحب قواته من لبنان. فردّ الأسد: أن على واشنطن أن تفهم الفارق بين جيش "إسرائيل" الدولة العدوّة للبنان التي تحتلّ أراضيه وتقتل شعبه وتطمع في أرضه ومياهه، وبين جيش سورية الدولة الشقيقة التاريخية للبنان، ووجوده في لبنان محصن بشريعة لبنانية وعربية. مضيفاً أن "سورية ولبنان شعب واحد أمّة واحدة جغرافية واحدة". وقال الأسد لمكفرلين أيضاً: "مخطئ من يظن أو يعتقد أو يفكر أننا سنسحب من لبنان يوماً ونتركه لقمة سائغة يسهل على

“إسرائيل” ابتلاعها، لأنّ لبنان دولة عربيّة يربطنا بها مصير مشترك وتاريخ مشترك⁵¹⁵، وأنّ لسورية مصالح قوميّة لا يمكن إغفالها في لبنان وعلى أميركا أن تعترف بها.

ثم وافق الأسد مع ماكفرلين على إقامة لجنة عمل أميركيّة - سورية للتشاور حول لبنان، في وقت كانت إمكانيّات سورية العسكريّة واللوجستيّة في آخر آب 1983 قد نضجت لتبدأ هجومها المضاد. أما في “إسرائيل” فقد أعلن بيغن، الذي قاد الحرب، استقالته في 29 آب 1983 من رئاسة الحكومة. فأخذ مكانه إسحاق شامير وافتتح تحقيق رسميّ حول ضلوع “إسرائيل” في مجزرة صبرا وشاتيلا ودور شارون فيها.

بدأ الهجوم المضاد في 28 آب 1983 انطلاقاً من ضاحية بيروت الجنوبيّة عندما تحدّث حركة أمل بقيادة نبيه بريّ حكم الجميل وواجهت الجيش اللبنانيّ في مناوشات استمرّت حتى 2 أيلول 1983، خرج أثناءها الجيش من الضاحية. وفي اليوم التالي، 3 أيلول، وبعدما انسحبت “إسرائيل” من الشوف إلى نهر الأوليّ جنوب بيروت، بدأت معركة ثانية مدعومة من سورية. فشنت ميليشيا وليد جنبلاط هجوماً على مواقع القوات اللبنانيّة والقرى والبلدات المسيحيّة في الشوف وعاليه، بمساعدة ميليشيات لبنانيّة يساريّة وفلسطينيّة بلغ عددها ألفي مقاتل مدعومة بمدافع ودبابات سورية وخبراء روس. واستطاعت هذه القوة سحق القوات اللبنانيّة في الجبل، ولكنها أشعلت سلسلة من المجازر والمجازر المضادّة في عدد من القرى وأدّت إلى نزوح مئة ألف مسيحيّ من المنطقة إلى شرق بيروت وإلى تطويق بلدة دير القمر المارونيّة. واستطاعت القوة المهاجمة ربط صفوفها مع ميليشيا حركة أمل في ضاحية بيروت الجنوبيّة وشقّت طريقاً للسيارات عُرفت بـ“طريق الكرامة”. وهكذا عادت سورية إلى ضاحية بيروت يوم 15 أيلول 1983 وانحسر الوجود الإسرائيليّ تماماً عن الطريق الدوليّ من المصنع شرق لبنان وحتى مداخل بيروت الغربيّة. ورافق هذه المعارك وابل من القذائف المدفعيّة على بيروت والمناطق الشرقيّة والقصر الجمهوريّ، ما أثبت أنّ حلفاء سورية في لبنان باتوا الآن أقوى بكثير من حلفاء “إسرائيل”.

كان واضحاً للدول الأوروبيّة ولواشنطن أنّ دفع الحكومة اللبنانيّة إلى اتفاق غير متكافئ مع “إسرائيل” قد عزى أمين الجميل تماماً أمام معظم اللبنانيين والرأي العام العربيّ وفسّح المجال لعودة سورية. زد على ذلك أنّ “إسرائيل” قد ساهمت في إضعاف موقع الجميل عندما سحبت جيشها إلى نهر الأوليّ على مسافة 40 كلم جنوب بيروت وأنّ أميركا لم تفعل شيئاً للضغط على “إسرائيل” لتعديل مطالبها الاستفزازيّة من حكومة لبنانيّة ضعيفة، بل أصبحت واشنطن مسؤولة مباشرة عن دعم الرئيس الجميل ليستمر.

وكانت القوى المتعدّدة الجنسيّة (أميريكيّة وإيطاليّة وفرنسيّة) لا تزال ترابط في بيروت، فقام الأسطول الأميركيّ السادس في البحر بإرسال طائرات حربيّة لقصف مواقع المجموعات التي تدعمها سورية لتخفيف الضغط عن بعدها في 17 و19 أيلول 1983. كما أطلقت بارجات أميركيّة مرابطة أمام بيروت مدافعها الضخمة على الشوف يوم 21 أيلول. ولكن كلّ هذا لم يوقف الهجوم. ولذلك هرع مكفرلين إلى دمشق يوم 23 أيلول وأصرّ على الأسد أن يسعى لوقف إطلاق النار وقطع الإمدادات عن الدروز والفلسطينيين. ثم أنهى مكفرلين لقاءه بالأسد بتحذيره أنّ المدمّرة البحرية نيوجرزي ستصل إلى بيروت خلال 24 ساعة. وظنّ مكفرلين أنّ الأسد

Interview with *Los Angeles Times*, 14 August 1983, quoted in Patrick Seale, *ASAD*, p. 413.⁵¹⁵

سيخاف من التهديد وأنه لهذا السبب قد وافق على وقف إطلاق النار الذي أُعلن في 25 أيلول 1983. ولكن الأسد وافق على وقف إطلاق النار لأنه كان مكتفياً بما حققه حتى الآن وكان يفضل الانتظار والتعاون مع مبادرة سعودية حملها الأمير بندر بن سلطان إلى دمشق ومعه رجل الأعمال اللبناني - السعودي رفيع الحريري، واقتصرت على تفاهم بين لبنان وسورية فقط. فقدّم الأسد شروطه لأمين الجميل بأنّ على "إسرائيل" والقوات المتعددة أن تنسحب بدون شروط من لبنان. وعلى الجميل أن يسعى لتأليف حكومة وحدة وطنية يتمثل فيها أعضاء "جبهة الإنقاذ الوطني" وأن يشطب اتفاق 17 أيار. وطيلة هذه الأسابيع كان الوقت والمبادرة لصالح سورية وليس لصالح أميركا أو "إسرائيل". إذ تجددت متاعب هؤلاء في تشرين الأول 1983:

● في 16 تشرين الأول 1983 انفجر الوضع في جنوب لبنان. إذ أثناء ذكرى عاشوراء في النبطية وقد احتشد 150 ألف شخص حضروا من قرى المنطقة، جرى صدام بين جنود إسرائيليين ومواطنين لبنانيين يشاركون في الذكرى. ففتح الإسرائيليون نار أسلحتهم وأردوا عدداً من المدنيين. وسرعان ما انتشر الخبر لتبدأ انتفاضة ضد الاحتلال حصدت 40 جندياً إسرائيلياً.

● ثم انسحب انفجار الغضب الشعبي على ريبب "إسرائيل" الأميركي. إذ بعد أسبوع من حادثة النبطية، أي في 23 تشرين الأول 1983 هاجمت شاحنة مفخخة قاعدة المارينز قرب مطار بيروت وقتلت 241 جندياً أميركياً. وفجرت شاحنة أخرى مركز القوات الفرنسية في اليوم نفسه فقتل 58 جندياً فرنسياً. وكان هذا ردّاً على غارات فرنسية على بعلبك. فاشتدّ الضغط على الإسرائيليين والقوات المتعددة للانسحاب. وفي تلك الظروف الصعبة انعقد مؤتمر الوفاق الوطني اللبناني في جنيف من 31 تشرين الأول إلى 8 تشرين الثاني 1983 ضمّ زعماء لبنان الرئيسيين بحضور عبدالحليم خدام. فأكد المؤتمر "عروبة لبنان" وجعل الانسحاب الإسرائيلي أولوية وطنية في بيانه الختامي، ما مهدّ لزيارة أمين الجميل إلى دمشق للقاء الأسد. ولكن وفد الجبهة اللبنانية المسيحية اقتصر على كميل شمعون وبيار الجميل دون القوات اللبنانية التي عارضت الاتفاق وأبقت على صلاتها بـ"إسرائيل". في حين نقل خدام للأسد أن دايفيد كيمحي ممثل "إسرائيل" في المفاوضات السابقة مع لبنان كان في كواليس المؤتمر يقدم النصح للجبهة اللبنانية⁵¹⁶. وحددت سورية يوم 14 تشرين الأول موعداً لزيارة الجميل لدمشق ليعلن من هناك إلغاء اتفاق 17 أيار، إلا أنّ مرض الأسد المفاجئ والذي استمرّ أسابيع أجل اللقاء.

في تلك الأثناء انفجر الوضع العسكري في كلّ لبنان: تبادل قصف مدفعي في بيروت والجبل، غارات إسرائيلية وأميركية على المواقع السورية والفلسطينية واليسارية، معارك في طرابلس بين عرفات وأنصاره من أصوليين ضد القوى اليسارية المدعومة من الجيش السوري، وجولة قتل وتفجير وخطف في مناطق لبنانية عدّة. وعندما أوفدت واشنطن دونالد رمسفلد إلى دمشق لم يكن في جعبته أي مواقف جديدة تقبل بها سورية. ولذلك رافقت زيارة رمسفلد بأوامر للأسطول السادس وسفينة نيوجرزي بفتح المدافع ضد حلفاء سورية في لبنان طيلة شهري كانون الأول 1983 وكانون الثاني 1984، دون جدوى. لا بل كانت الهجومات الأميركية

Patrick Seale, ASAD, p. 422.⁵¹⁶

تتلقى الردّ. إذ إنّ القنّاصة في الضاحية الجنوبيّة فتحوا نيرانهم ضد المارينز في حين باتت مواقع القوات المتعدّدة هدفاً للقصف من الجبل. وفي 4 كانون الأول 1983، قُتل 8 من المارينز قرب المطار وأسقطت المقاومات الأرضية السوريّة طائرتين أميركيتين فوق البقاع وأسرت طياراً. ثم أخذت القوى المتعددة تعود إلى بلادها الواحدة تلو الأخرى في بداية 1984.

وإذ خسر الجميل الغطاء الأميركيّ واقتصر حكمه على بعبداء (بعد انتفاضة 6 شباط 1984 في غرب العاصمة) وبعدها انقلب عليه زعماء الميليشيا اليمينيّة، ذهب أخيراً إلى دمشق يوم 29 شباط 1984 والتقى الأسد الذي كان قد شفي من مرضه، ثم أعلن في 4 آذار إلغاء اتفاق 17 أيار. وهكذا دار الدوالب على أميركا و"إسرائيل" ولم يبقَ من نتائج الغزو الإسرائيليّ سوى جيب الاحتلال الإسرائيليّ جنوب نهر الأوبّي. ولم يكن الوضع على ما يُرام بالنسبة لـ"إسرائيل". فقد توفي سعد حداد في كانون الثاني 1984، وعيّنت "إسرائيل" مكانه العقيد أنطوان لحد، وواصلت انسحابها في 1984 حتى عادت إلى الشريط الحدودي الأساسيّ في 1985. في دمشق، تعجّب الأسد كثيراً من سرعة انسحاب أميركا من لبنان بعدما ظنّ طيلة 1983 أنّها ستكون العمود الأساسيّ لحكم أمين الجميل وأنّ سياستها الدوليّة تفرض عليها أن تبقى. لقد أدّت أعوام المواجهة في لبنان (1980 - 1984) صوابيّة استراتيجية سورية المشرقيّة أن صمود دولة صغيرة بدعم حلفاء لها، كفيل بالتصدّي لسياسات "إسرائيل" وأميركا⁵¹⁷.

Talcott Seelye, *U.S. Arab relations: the Syrian dimension*, Washington D.C., National Council on U.S. Arab relations, 1985, ⁵¹⁷

no. 4, pp. 1 - 29.

23 | الأردن ومشروع " المملكة المتحدة "

المسار الأردني

بسبب استراتيجيتها التي نظرت إلى المشرق كمسرح موحد لمواجهة "إسرائيل"، تعاملت سورية على جبهات عدة في آن واحد: إذ في أوج صراعها ضد "إسرائيل" والولايات المتحدة في لبنان وتداعيات اتفاق 17 أيار 1983، وصراعها مع عرفات، وانشغالها شرقاً بمسار الحرب العراقية - الإيرانية، تحركت الأمور مجدداً على المحور الأردني في أواخر 1983.

لقد بدأ الملك حسين يُطلق إشارات عن احتمال بدء محادثات سلام مع شمعون بيريز رئيس حكومة "إسرائيل"، ما يعني بنظر الأسد جبهة جديدة تُحدث ثغرة في استراتيجيته عليه إقفالها، وإلا أدت هي أيضاً إلى عزلة سورية في مواجهة "إسرائيل".

إذ بالنسبة لسورية كان وضع الأردن أكثر هشاشة من لبنان في وجه "إسرائيل". ففي لبنان ثمة فئات تقاوم وتنسّق مع سورية ما يسمح لسورية بأن تتدخل في الحكم اللبناني لإفشال أي اتفاق مع "إسرائيل". أما في الأردن فقد طردت المقاومة الفلسطينية ولا توجد حالة شعبية وتعددية حزبية أردنية وحالة قومية مهمة كما في لبنان. وفي حال توصل الأردن إلى معاهدة سلام مع "إسرائيل" فهو حتماً سيصبح ضمن منطقة النفوذ الإسرائيلي ويدفع ميزان القوة لصالح "إسرائيل".

لقد رأى الأسد الملك حسين ضعيفاً من ناحية العزّة القومية، ورأى في شمعون بيريز وريثاً لما بدأه مناحيم بيغن. ووراء الحسين وبيريز رأى الأسد جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكي الذي يريد أن ينتقم لهزيمة أميركا على يد سورية في لبنان وهزيمته الشخصية مع الأسد. غضب الأسد من اندفاع الملك حسين عام 1983 في ما اعتبره "مناورة إسرائيلية أميركية" في وقت كانت دمشق تحقق انتصاراً كاسحاً على "إسرائيل" في لبنان. وكان الأجدر بحسين أن يوحد جهوده مع جهود سورية الصاعدة لتحقيق مكاسب لصالح مملكته وحتى تزدهر المملكة ويصبح أمل استرجاع أراضيها ممكناً.

منذ 1967 إلى 1983، حكم عدم الاستقرار علاقة الأسد بالملك حسين، من فترات وئام وتفاهم إلى فترات خصام وعداء تحوّل أحياناً إلى العنف. فقد احتضن حسين معارضي الحكم في سورية ومنهم مأوى في عمان. ودارت معارك استخباريّة سورية - أردنيّة لفترات طويلة شملت عمليّات تفجير واغتيال وصولاً إلى مشاركة الجيش السوري في حرب الأردن عام 1970. كما أنّ الأسد ساءه إقامة حسين خطوط اتصال مباشر مع حكومة "إسرائيل" منذ 1958. ثم عادت اللحمة بين البلدين في أواسط السبعينيّات بعد اتفاق سورية والأردن أن مصالحهما تضررت من السلم المنفرد الذي سعت اليه مصر مع "إسرائيل". فقد قضت استراتيجية الأسد بتعويض خسارة مصر بالعمل مباشرة مع جيرانه الصغار - لبنان والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية. ولجأ حسين إلى الأسد عندما خدعه الأميركيون والإسرائيليون وتركوه خارج المحادثات المكثفة التي كانوا يخوضونها مع السادات. وهكذا تحسّنت العلاقات بين عمان ودمشق في الأعوام 1976 - 1978 حتى كثّر الحديث عن وحدة قريبة بين الأردن وسورية في دمشق. أما في عمان فعاد الكلام إلى مشروع "سوريا الكبرى" الذي سوّق له الملك عبدالله جدّ الملك حسين، والذي كان سياسة رسميّة للأردن لعقود عدة.

ثم برزت أزمة جديدة إلى الواجهة في 1978 و1979 بدأت صغيرة وكبرت ككرة الثلج. إذ إن معاهدة كامب دايفيد بين مصر و"إسرائيل" عام 1978 وعدت بحكم ذاتي للفلسطينيين ولكن بدون أي دور لمنظمة التحرير مع إشارة مبطنة إلى دور للأردن. ما دفع إلى تقارب بين عرفات والملك حسين ضمن ما عُرف بمشروع "المملكة المتحدة" يعود بموجبه الأردن إلى حكم الضفة الغربية في صيغة توافق عليها "إسرائيل". كما ظهرت في 1979 أدلة قاطعة عن دور أردني خطير في تمويل وتسليح الأخوان المسلمين الذين كانوا يشنون حرباً ضد الدولة السورية، ما دفع الأسد إلى التهديد بالدخول إلى الأردن عام 1980.

وزاد في الطين بلة أن اشتعال الحرب العراقية الإيرانية في أيلول 1980 دفع الأردن وسورية إلى موقفين متناقضين. إذ أخذت دمشق جانب طهران وأخذت عمان جانب بغداد وأصبح حسين لا يفارق صدام كأخوين. كما أن صعود إدارة ريغن بذهنية العداء الشديد لموسكو رسم خط عداء إضافي بين عمان ودمشق. فالأردن كان يعتمد على الدعم الأمريكي لحماية نظامه، في حين كانت سورية تعتمد على الاتحاد السوفياتي لأن أميركا دعمت "إسرائيل" بدون حساب.

ولكن فجوة الخلاف الأهم تبلورت عام 1978 عندما جهدت سورية لإقامة جبهة مشرقية بقيادةها هي وعضوية لبنان والأردن والفلسطينيين، ضد رغبة هؤلاء في المحافظة على استقلاليتهم عن سورية. فقد كان الملك حسين مصمماً على أن يبقى الأردن لاعباً حراً في النزاع العربي - الإسرائيلي، يحتفظ بقرار السلم أو الحرب ويكون له دور في مستقبل الأراضي الفلسطينية المحتلة. فكان حسين ينظر إلى الضفة الغربية كجزء عزيز محتل من مملكته، ولقد أغضبه اعتراف قمة الرباط العربية عام 1974 بمنظمة التحرير ك"ممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني". ثم قبل الملك قرار القمة على مضم. كما أخافه إبعاده عن محادثات مصر مع "إسرائيل"، إذ ظن أنه من "أهل البيت الأمريكي" وكان الأولي بكسينجر أن يشملته بجولاته. وإذ شكّل الدور المستجد لمنظمة التحرير في الفترة 1975 - 1978 تهديداً لمملكته ذات الأغلبية السكانية الفلسطينية، كانت خطوة الملك حسين التالية هي التقرب من ياسر عرفات لعمل مشترك بغية أخذ المنظمة تحت جناحه (رغم حربه ضدها في 1969 - 1971). هذه الخطوة بالضبط كانت عملاً مناهضاً لسورية التي هي أيضاً أرادت أخذ منظمة التحرير تحت جناحها ضمن استراتيجيتها.

ورغم الموقف السوري المتين، كان المشهد من عمان مختلفاً. فالأردن دولة صغيرة إلى جوار "إسرائيل" القوية، تستند إلى الدعم الغربي لحمايتها وتفضل الحياد في الصراع العربي - الإسرائيلي وخاصة بعد هزيمة 1967 وضياح الضفة. ولذلك فالأردن احترم تعايشاً ضمناً مع "إسرائيل" لكف شرها عنه، عبر توافق وصل إليه الملك بعد عشرات الزيارات إلى "إسرائيل" للتفاوض مع قياداتها. وكل هذا جعل الأردن المكشوف أمنياً نقيض سورية التي تمتلك مقومات بشرية وعسكرية وعقيدة قومية متشددة واستراتيجية تهدف إلى الضغط المستمر على "إسرائيل" للانسحاب من الأراضي المحتلة. ومن ضمن هذه الاستراتيجية دعمت سورية جماعات وتنظيمات مقاومة في لبنان والأردن وداخل فلسطين المحتلة.

ومن ناحية أخرى كان بإمكان سورية الانتظار سنوات عدّة حتى تجهز دفاعاتها وتستعدّ لحرب جديدة مع "إسرائيل"، ولكن الأردن كان في وضع هشّ وفي قلق دائم من تطورات الأحداث التي يمكن أن تهدّده، إن لم يكن ككيان، فعلى الأقلّ عبر زعزعة استقراره.

منذ 1967 وحتى 1982 إذاً كان الأردن يتعرّض لضغط أميركيّ - إسرائيليّ للقبول بحل للقضية الفلسطينية يقتضي تقاسم الضفة مع "إسرائيل" والاحتفاظ بسيادة الأردن على السكان دون الأرض، أي إدارة وخدمات رسمية على البشر فيما "إسرائيل" تستوطن كلّ شيء. ولكنّ الملك حسين خاف أن يُقدم على قبول مثل هذا الأمر، لأنّه أكبر منه ويحتاج إلى تفويض عربيّ شامل على مستوى قمة. كما أنّ قبوله بهذا الحل يجعله دولة تابعة لـ "إسرائيل" مهمتها حفظ أمن "إسرائيل". فأضى سنوات يدور الزوايا بين القليل الذي كانت "إسرائيل" مستعدة لتعطيه له والكثير الذي كان العرب يطلبونه منه. فالحّد الأدنى المقبول عربياً كان انسحاب "إسرائيل" إلى خطوط 4 حزيران 1967 وحقوق الفلسطينيين كشعب، وهو مطلب بعيد جداً عما يمكن أن توافق عليه "إسرائيل".

ثم وجد الأردن مخرجاً من معضلته بعد الاعتراف العربيّ بمنظمة التحرير عام 1974 بأن يشارك المنظمة في الحل الذي تسعى إليه عمان مع "إسرائيل"، فيحصل الأردن على شرعية فلسطينية قد تُرضي الدول العربية. وهكذا وُلد مشروع "المملكة المتحدة" الذي يضرب عصافير عدّة في وقت واحد: تقاسم السيادة على الأرض بين الأردن و"إسرائيل"، حماية الأردن ونظامه، تحقيق أمان الفلسطينيين وإعطاء "إسرائيل" ما تدّعيه أنّه حاجتها من الأمن.

ثم وجد الأردن نافذة لهذا المشروع في خريف 1982 عندما أطلق الرئيس الأميركيّ رونالد ريغن مبادرته التي تكلمت عن حكم ذاتي للفلسطينيين تشبه كثيراً ما يفكر به الملك الأردني. وبدأ حسين خلال 1983 يحاور عرفات ليحصل على شرعية تفاوض مع "إسرائيل" باسم الأردن ومنظمة التحرير في آنٍ معاً. ولكن يدي عرفات كانتا مقيدتين لأنّ قوّة منظمة التحرير ونفوذها في ذلك الوقت كانا موجودين أساساً في لبنان وسورية. فلم يستطع عرفات تقديم ردّ واضح وإيجابي على العرض الأردنيّ قبل فكفكة العقد مع سورية. فقد كانت التنظيمات وجهات الرفض الفلسطينية ضد أي تقارب مع النظام الأردنيّ وضد حل يربط الكيان الفلسطينيّ بالملك. ومن ناحية أخرى كانت سورية تضغط على حركة فتح في لبنان، وكان الأسد غاضباً شخصياً من مواقف عرفات وميوله نحو الأردن⁵¹⁸.

ولذلك نام مشروع الملك حسين فترة حتى مرض الأسد في نهاية 1983 وانشغلت سورية بوضعها الداخليّ طيلة 1984. فاغتنم حسين الفرصة وأحيا مشروعه وسط تشجيع إسرائيليّ. ودعا عرفات إلى عمان في كانون الأول 1983 في وقت كانت قوات تعرّض لهزيمة منكرة في طرابلس شمال لبنان، وبعدما كسر عرفات المقاطعة العربية التي تقودها سورية ضد النظام المصريّ بزيارته القاهرة بعد يومين من مغادرته طرابلس ومصالحته الرئيس المصريّ حسني مبارك. ولذلك وإن أفلت حسين مؤقتاً من الممانعة السوريّة بسبب مرض

⁵¹⁸ Moshe Ma'oz, "On a short leash: Syria and the PLO", in *Syria under Assad: domestic constraints and regional risks*, edited by

Moshe Ma'oz and Avner Yaniv, London, Croom Helm, 1986, pp. 191 - 208.

الأسد، إلا أنه التقى عرفات في وقت كان الأخير أضعف من أن يتحدّث باسم الفلسطينيين وفي أدنى نقطة من حياته كقائد.

وكان الأسد يتوقّع مناورات "إسرائيل" الدبلوماسية نحو الأردن، لأنها تريد محاصرة سورية بشتّى الطرق. كما كان غضبه على عرفات يتضاعف لأنّ زيارة عرفات للقاهرة فتحت ثغرة خطيرة تنفذ منها معاهدة كامب دايفيد في جدار الصمود العربيّ الذي حرصت سورية على بنائه. فيسقط الحرم العربيّ على مصالحة "إسرائيل" وتنال خيانة مصر الشرعية العربيّة. واتجهت شكوك سورية إلى أنّ عرفات سيكون الثاني في الاستسلام لـ "إسرائيل" بعد السادات، خاصة بعد الدعم الذي أبداه شمعون بيريز لـ "الخيار الأردني". فإذا تمكّن حسين من الوصول إلى اتفاق مرضٍ للفلسطينيين تقبل به "إسرائيل" فلن يكون صعباً على الملك الحصول على دعم دول عربيّة معتدلة وعلى تأييد واشنطن وإدخال مصر على خط دعمه ما يهدّد سورية بالعزلة.

وتصوّرت دمشق أنّ فريق حسين - عرفات - مبارك - بيريز - شولتز قد اتّحد ضدها⁵¹⁹. فاشتعلت حرب باردة بين الأردن وسورية من 1983 إلى 1985، بأدوات استخباريّة وعبر تنظيمات الرفض ومنها جماعة أبو نضال (صبري البنا) المناهض لعرفات والذي كان قد انتقل إلى دمشق بعد خلافه مع العراق. وخلال هذه الأزمة، استعمل أسلوب التفجيرات والاعتقالات داخل البلدين، وفي دمشق وعمّان وأحاء العالم طال شخصيات وسفارات ومكاتب طيران⁵²⁰. واعتبر الإعلام السوريّ "الخيار الأردني" نسخة من اتفاقيات كامب دايفيد وهدّد أنّ الخونة لن يفلتوا من العقاب.

مهّد الملك حسين لمفاوضات مع عرفات بإطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين من سجون الأردن ثم عقد سلسلة لقاءات مع عرفات عام 1984 وخلق لجاناً مشتركة فلسطينيّة - أردنيّة لشؤون الضفة، وأطلع واشنطن ولندن على سير هذه المفاوضات، فلقى دعماً دبلوماسياً. ثمّ توجّ الحسين حركته باتجاه أشعل شكوك سورية. إذ تصالح مع حسني مبارك في أيلول 1984 وأعاد العلاقات بين القاهرة وعمّان. ثم رعى الأردن اجتماع المجلس الوطنيّ الفلسطينيّ الذي انعقد في عمّان في تشرين الثاني 1984، وألقى الملك كلمة في هذا الاجتماع دعا فيها الفلسطينيين إلى ترك استراتيجيّة "كل شيء أو لا شيء" في نضالهم ومشاركتهم الأردن في مبادرة مفاوضات مع "إسرائيل" على أساس جديد هو "الأرض مقابل السلام".

وبعد أشهر من النقاش الصعب والأخذ والردّ وافقت منظمة التحرير في 11 شباط 1985 على منح الملك حسين التفويض الذي يطلبه. وردت سورية بإعلان في دمشق عن ولادة "الحركة الوطنيّة الأردنيّة" لإقامة جمهوريّة ديمقراطيّة في الأردن تصحّ توجيهها القوميّ العربيّ وتدعو صراحة لقلب النظام الهاشميّ في عمّان، وأعلن عن توحيد قيادتي جماعة أبو نضال و"فتح الانتفاضة" بقيادة أبو موسى لإجهاض اتفاق حسين - عرفات⁵²¹.

Samira Kwar, "Jordan's Puzzle", *The Middle East*, no. 135, January 1986, pp. 48-49. ⁵¹⁹

Patrick Seale, *ASAD*, p. 464-465. ⁵²⁰

Joseph Nevo, "Syria and Jordan: the politics of subversion", in *Syria under Assad: domestic constraints and regional risks*, ⁵²¹

edited by Moshe Ma'oz and Avner Yaniv, London, Croom Helm, 1986, pp. 140 - 156.

ولكن الملك حسين مضى في مشواره بحذر. فذهب إلى واشنطن للحصول على مباركتها على "الخيار الأردني"، ما احتاج إلى ضغط أميركي على "إسرائيل" وإلى أموال للفلسطينيين وأسلحة للأردن ليواجه أي تهديدات سورية. ولكن الملك هذه المرة تخلى عما اعتبرته سورية "محظورات قومية". إذ إن حسين كان يعلم أن أميركا لا تعطي أسلحة للعرب إلا التزاماً منها بـ "إسرائيل". ولذلك أخذ الملك يطلق تصريحات لطمأنة اللوبي اليهودي في أميركا عن رغبته العميقة بالسلام مع "إسرائيل" وأن حاجته إلى السلاح سببها مشكلته مع سورية، إلى حد أنه أوحى وكان سورية هي العدو المشترك للأردن و"إسرائيل"، مشيراً إلى أن حدوده مع "إسرائيل" هادئة وجاهزة للسلام بينما سورية التي تأوي جبهات الرفض الفلسطينية هي الخطر. وأن بإمكان الأردن و"إسرائيل" احتواء هذا الخطر معاً.

ولكن عاجلاً أم آجلاً اكتشف حسين أن من يعول عليهم لدعمه (الولايات المتحدة ومصر والسعودية) اكتفوا بالكلام ولم يترجموا دعمهم الكلامي إلى أعمال. فهم تركوه يتحمل عبء مواجهة سورية حول مشروعه. كما أن الكونغرس الأميركي صوت ضد منح الأردن صواريخ "ستنغر" أرض جو تجاوباً مع توجه اللوبي اليهودي في واشنطن الذي لم يقنعه تودّد العاهل الأردني. إلى أن تراجعت "إسرائيل" نفسها عن السير في المشروع. وأكدت تفريغ "الخيار الأردني" من مضمونه أحداث سبقت الصفعة الأميركية، إذ كان حسين قد اتفق في ربيع 1984 مع شمعون بيريز على أن يسيرا معاً بعد الانتخابات الإسرائيلية في تموز 1984 في تنفيذ الخيار الأردني للحل، إلا أن الانتخابات الإسرائيلية لم تكن حاسمة واضطر بيريز لدخول حكومة ائتلافية مع الليكود بقيادة اسحاق شامير. وكان من شروط شامير على بيريز أنه لا يريد أن يسمع عن الخيار الأردني وعن انسحابات من الضفة. وتبين أيضاً أن عرفات قد دفع بعض أعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير إلى الموافقة على تفويض الملك على سبيل التجربة "جربوا.. شو منحسر؟". ولكنه لم يحصل على دعم كل الأعضاء. ولذلك ما أن انعقد اجتماع اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير مرة ثانية حتى أجبره أعضاؤها على سحب التفويض، بعدما رأوا عجز الملك عن المضي في المشروع. كل العراقيل التي واجهها حسين أثبتت أنه كان يخوض حرباً باردة ضد سورية لأجل لا شيء. وبالمقابل لم يحصل على شيء من "إسرائيل" ومصر والولايات المتحدة. فحمد حماسه إلى أن توقّف مسعاه تماماً في حزيران 1985. وربما كان في الأمر أكثر من خمود. إذ إن الملك حسين، وقد تخلى عنه كل حلفائه المفترضين بعد عشر سنوات من المحاولات الخائبة لعقد صلح مع "إسرائيل" يحفظ من خلاله دولته ونظامه (1975 - 1985)، لم يجد أفضل من فتح صفحة جديدة مع سورية كما فعل بعد اتفاقية سيناء الثانية عام 1975.

وهكذا اتفق الأردن وسورية على إنهاء حربهما الباردة في صيف 1985. وفي أيلول التقى رئيسا الحكومتين، عبدالرؤوف الكسم وزيد الرفاعي في جدة ما أعاد المياه إلى مجاريها (خاصة أن آل الرفاعي في الأردن يُعتبرون من المقربين لسورية وأكثر قرباً لمفهوم بلاد الشام واحتاج إليهم الملك حسين مراراً في مناصب وزارية وفي رئاسة الوزارة كلما أراد تحسين العلاقات مع دمشق). كما أقدم حسين على خطوة إضافية لتحسين علاقته مع الأسد. إذ أقرّ في مذكرة إلى زيد الرفاعي في تشرين الثاني 1985 أن الأردن كان ضالعاً فعلاً في تمويل وتسليح الأخوان المسلمين في سورية أثناء حربهم على الدولة خلال 1980 - 1982. فما أن حصل الرفاعي على هذه

المذكّرة حتى زار دمشق والتقى الأسد. وصدر بيان رسمي مشترك أهمّ ما جاء فيه "أنّ سورية والأردن متفقان على رفض المفاوضات المباشرة مع "إسرائيل" ورفض الحلول الجزئية والمفردة". وفي الشهر التالي حضر الملك نفسه إلى دمشق، فكانت الزيارة الأولى منذ 1979. وتوالت التراجعات حيث أعلن الملك في شباط 1986 تخليه عن أي اتفاق مع عرفات، ثم زار الأسد عمان لأول مرة منذ 1977، توكيداً على نجاح الاستراتيجية السورية لمواجهة "إسرائيل" كجبهة مشرقية.

ولكن رغم تقربه من سورية، فإنّ معاناة حسين حول مستقبل بلده ونظامه استمرت. ولم يخبُ أمله تماماً في التوصل إلى حل سلمي مع "إسرائيل" إذا توقّرت الظروف في المستقبل فتزك الباب مفتوحاً. فقد أصبح بيريز رئيساً للحكومة من أيلول 1984 إلى أيلول 1986 بموجب الاتفاق مع الليكود وهو عاد إلى فتح ملف "الخيار الأردني" وإلى التودّد للملك حسين. ولكن القطار كان قد ترك المحطة وخطوات بيريز كانت ضئيلة وبطيئة، في وقت كان الملك حسين يتقرب أكثر من سورية. وهكذا بدأ صراع سوري - إسرائيلي على الأردن كنزاع رجلين على امرأة بعدما تراجعت حدّة صراعهما على لبنان. ذلك أنّ تمكين الملك من دخول مفاوضات سلام مع "إسرائيل" تطلّب هزيمة سورية ومعها منظمة التحرير في لبنان، وهو أمر أصبح مكلفاً وبعيد المتناول. ولذلك استبدلت "إسرائيل" العمل العسكري بإطلاق حملة إعلامية ضخمة لتشويه سمعة سورية ومنظمة التحرير أنّهما راعيتان للإرهاب وأنّ إرهابهما لا علاقة له بأراضٍ تحتلها "إسرائيل" ولا يدور حول قضية فلسطين.

كانت اعتبرت "إسرائيل" منذ أوائل السبعينيات أنّ الأسد هو هدف أهم وأخطر من عرفات والقذافي مثلاً. وفي خريف 1985 شدّت الحملات الإعلامية والديبلوماسية ضد سورية. ثم في 19 تشرين الثاني دخلت طائرات إسرائيلية المجال الجوي السوري وأسقطت طائرتي ميغ. فردّت سورية بنشر صواريخ سام في جبهة الجولان وفي البقاع كما حصل عام 1981، ما أُنذر بتصعيد خطير كاد يؤدي إلى حرب سورية - إسرائيلية. وفي 4 شباط 1986، أجبرت طائرات حربية إسرائيلية طائرة مدنية تقلّ مسؤولين سوريين أحدهم عبدالله الأحمر الأمين العام المساعد لحزب البعث إلى دمشق، على الهبوط في "إسرائيل" لساعات عدّة. وفي 13 آذار 1986، وقع انفجار ضخم وسط دمشق جزاء سيارة مفخّخة ليبدأ موسم تفجيرات وأعمال تخريبية داخل سورية بهدف زعزعة الاستقرار. وفي 16 نيسان 1986، في اليوم التالي للغارة الأميركية على ليبيا، حصلت سلسلة تفجيرات في أنحاء سورية قتلت 144 شخصاً وجرحت المئات.

وكانت العمليات الإرهابية داخل سورية والأجواء الإعلامية والديبلوماسية المعادية للمواكبة لها تبشّر بحرب إسرائيلية على سورية تنزع منها أوراق لبنان والأردن والفلسطينيين وتعيد الوضع إلى أيار 1983، مستغلة الرفض الأميركي لسعي الأسد إلى توازن استراتيجي مع "إسرائيل" ولعلاقاته الحميمة مع الاتحاد السوفياتي واقتناع واشنطن بوجهة نظر "إسرائيل" حول أولوية مكافحة الإرهاب. وكان موشيه أرئز قد بدأ وضع خطة حرب على سورية فأخذها إسحاق رابين الذي أصبح وزيراً للدفاع في حكومة بيريز وأكملها. ولذلك بات الجو في ربيع 1986 مهيباً لاندلاع حرب. وكانت سورية تدرك في ربيع 1986 أنّ ثمة تحضيرات إقليمية ودولية لهجوم إسرائيلي عليها لخدمة "الخيار الأردني" والعودة إلى فتح ملف لبنان واحتمال معاهدة سلام معه أيضاً.

وتدرك أيضاً أنّ أميركا أقامت جبهة مشتركة مع "إسرائيل" ضد "الإرهاب"، بالاشتراك مع دول أوروبية عدّة أبرزها بريطانيا في تحالف أنغلو - سكسوني ستكون له عواقب سلبية على العالم العربيّ في ما بعد. حتى أنّ مؤتمر قمة الدول الصناعيّة السبع الكبرى في طوكيو أصدر بياناً بضغط من ريغن ومرغريت تاتشر، رئيسة حكومة بريطانيا، في 5 أيار 1986 "يندّد بشدّة بالدول الراحية للإرهاب" وفي ذهن الموقّعين أنّ المقصود دول كسورية⁵²². ورافقت ذلك سلسلة تصريحات لبيريز ورايين عن "دور سورية المركزيّ في الإرهاب الدوليّ"، كما زارت تاتشر "إسرائيل" لدعمها وتأييد "الخيار الأردنيّ".

كل هذه الأخطار أثبتت صوابية منطق سورية حول تحصين دفاعاتها الذاتية، وأنّ الدفاعات التي تمتعت بها عام 1986 هي التي رددت خطط "إسرائيل". إذ فيما كانت "إسرائيل" تعدّ خطة الحرب، صدرت تقارير سرية إسرائيلية عن قدرات سورية العسكريّة بأنّ الحرب لن تكون نزهة سهلة. ذلك أنّ غزو "إسرائيل" السهل للبنان عام 1982 كان درساً قاسياً لسورية دفعها إلى الاستعداد بشكل جيّد هذه المرة. وأنّ سورية عام 1986 هي أقوى عشر مرات من ربيع 1982، بجيش بلغ عدده 500 ألف جنديّ وشبكة صواريخ أرض - جو نُصبت في أنحاء سورية وشبكة صواريخ جديدة أرض - أرض يحمل بعضها رؤوساً كيماوية يمكن أن تصل لأول مرّة في الصراع العربيّ الإسرائيليّ إلى العمق الإسرائيليّ وتهدّد بسقوط عدد كبير من المدنيين الإسرائيليّين، كما فعلت "إسرائيل" تجاه مدنيي لبنان عام 1982.

علمت سورية أنّ مشروع الحرب الإسرائيليّة عليها عام 1986 قد أُحبط. وفوق ذلك وفي يوم صدور "بيان طوكيو" كان الأسد في عمّان يكمل خطوات التقارب مع الأردن، ما أعاظ "إسرائيل" بشدّة. وزاد من قلق "إسرائيل" أنّ الرئيس السوفياتيّ الجديد ميخائيل غورباتشوف ردّ على تهديد "إسرائيل" لسورية يوم 28 أيار 1986 أن موسكو ملتزمة الدفاع عن سورية. فحصلت اتصالات أميركيّة - سوفيّاتيّة حول ضرورة لجم الاندفاع الإسرائيليّ. ولذلك كان ربيع 1986 المرّة الأخيرة التي فكّرت فيها "إسرائيل" بشنّ حرب على سورية.

وأمام عجز "إسرائيل" عن إضعاف سورية ومنظمة التحرير لتعبيد الطريق أمام "الخيار الأردنيّ"، استبعد بيريز العمل العسكريّ واكتفى بالعمل الدبلوماسيّ تجاه الأردن في 1985 و1986 لجذب الملك حسين إلى المفاوضات. فحصل بيريز على دعم أوروبيّ عريض وخاصة من بريطانيا صاحبة النفوذ على العاهل الأردنيّ والتي كانت وسائل إعلامها وحكومتها برئاسة مرغريت تاتشر شديدة العداء لسورية. كما وجّه بيريز رسالة إلى الأمم المتّحدة يدّعي فيها أنّه "يمكن تحقيق السلام خلال 30 يوماً". ولكنّه كان أكثر مكرماً من بيغن والليكوود، حيث سارع إلى تغليف دعوة السلام هذه بتفاصيل سلبية عدّة: ادعاؤه أنّ "إسرائيل" مستعدّة ولكن سورية "غير جاهزة للسلام"، وأنّ مشاركة منظمة التحرير "غير مقبولة تحت أي ظرف"، وأنّ الاتحاد السوفيّاتيّ لا تحق له المشاركة في المؤتمر الدوليّ ما لم يُعد العلاقات مع "إسرائيل". ما يعني أنّ كلام بيريز عن السلام كان مقتصرّاً على الأردن. وهنا احتار الحسين بين مبادرة بيريز وبين التوافق الذي أنجزه مع الأسد.

ثم أثمرت المساعي الأميركيّة والبريطانيّة "اتفاق لندن" في شباط 1987 بين بيريز والملك حسين، اعتبرت "إسرائيل" أنّه يرقى لزيارة السادات لـ "إسرائيل" قبل عشر سنوات بالنسبة للملك حسين. ولكن هذه الخطوة

⁵²² Margaret Thatcher, *The Downing Street Years*, New York, 1993, pp. 508-509.

لم تلحقها خطوات أخرى عملية. ذلك أنّ الملك حسين لم يستطع حلّ عقدة التمثيل الفلسطيني كما وعده عرفات الذي كان عاجزاً عن التنفيذ. في حين لقي بيريز معارضة داخل "إسرائيل" حول مستقبل الضفة الغربية في حال مشى في الخيار الأردني. وراوحت الدبلوماسية الأميركية مكانها بسبب انهماكها بفضيحة "إيران غيت"⁵²³. في تلك الأثناء أكدت سورية مواقفها المبدئية حول شروط السلام في أيار 1987 وأنها ستعمل لإحباط أي اتفاق منفرد إشارة إلى اتفاق لندن.

ودقّ انفجار الانتفاضة الفلسطينية الأولى في الأراضي المحتلة في أيلول 1987 المسمار في نعش اتفاق لندن. في كانون الأول 1987، انفجرت انتفاضة شعبية في الأراضي الفلسطينية المحتلة هي الأولى من نوعها منذ 1936، استمرت عام 1988 بزخم من دون أن تستطیع "إسرائيل" إخمادها. فتدخلت الولايات المتحدة وأوفدت شولتز للقيام بجولة في المنطقة، وتبلور ما عُرف بـ"مشروع شولتز" الذي يتضمن مؤتمراً دولياً ومحادثات ثنائية بين "إسرائيل" وجيرانها باستثناء منظمة التحرير وحكم ذاتي للفلسطينيين. واشتعلت الانتفاضة إلى أن انعقد مؤتمر قمة عربية طارئ في حزيران 1988 في الجزائر أصرّ على مشاركة منظمة التحرير في أي مفاوضات سلام مع "إسرائيل" وأكد حقوق الشعب الفلسطيني بما فيها حقّه في تقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشرقية. وفي الوقت نفسه خطت منظمة التحرير لتلبية شرط أميركا (الذي وضعه كيسنجر عام 1973) في قبول الحوار معها، واعترفت بوجود "إسرائيل". وانعقد المجلس الوطني الفلسطيني في تشرين الثاني 1988 وأعلن دولة فلسطينية على الورق على الأقل.

بقيت سورية العائق الرئيسي لمشاريع "إسرائيل" في الجبهة الشرقية التي كانت سورية تتصدى لها في كلّ مرحلة. لقد اطمأنت سورية إلى ثالث قوتها المستند إلى قواها العسكرية الذاتية ونفوذها في لبنان وعلاقتها مع الأردن الذي يمنع "إسرائيل" من تحقيق أهدافها الاستراتيجية. ولكن هذا الثالث بقي صحيحاً حتى 1993 على الأقل. إذ إنّ تداعيات المنطقة في السنوات التالية رسمت ملامح مرحلة جديدة فرضت على سورية التعامل معها: فضيحة "إيران غيت" وعلاقات سورية مع إيران، عودة العراق إلى الساحة اللبنانية وتجدد حرب لبنان، وحرب الكويت وصولاً إلى مؤتمر مدريد عام 1991.

⁵²³ شراء إيران أسلحة من أميركا و"إسرائيل" أثناء حربها مع العراق.

24 | المشرق وحرب العراق - إيران

في العام 1980 بدا وكأنّ العراق قد ضمن مستقبلاً واعداً، حيث تدفقت أموال النفط باستمرار وبدأت تظهر نتائج المشاريع العمرانيّة والاقتصاديّة والتعليمية والصحيّة على السكان. وبدا العراق سائراً في اتجاه مستويات الدول المتطوّرة. ولكن العراق ارتكب أكبر غلطة منذ قيام دولة "إسرائيل" عام 1948، بغزوه إيران وإغراقه الشرق الأوسط في سلسلة حروب لم ينته منها حتى اليوم⁵²⁴.

الهجوم العراقيّ والردّ الإيرانيّ

كانت إيران عام 1979 تغلي في فوضى الثورة الإسلاميّة الوليدة وتهدّد بابتلاع الدول النفطية الصغيرة في الخليج وباستقطاب الجماعات الموالية لها داخل العراق لقلب النظام⁵²⁵. وحدثت مناوشات حدودية في أيلول 1980، حيث قامت القوات العراقيّة بهجمات محدودة على مناطق إيرانية إلى شرق البصرة جنوب العراق.

وفي 17 أيلول أعلن صدام حسين إلغاء "اتفاق الجزائر" الموقع عام 1975 بين العراق وإيران والذي قضى بموافقة العراق على السيادة المشتركة لـ "شط العرب" مقابل تخليّ الشاه، وبالتالي أميركا، عن الأكراد في شمال العراق. وفي يوم 19 أيلول التقى مندوبو دول الخليج في بغداد بدعوة من صدام لدرس سبل احتواء الخميني وثورته الإسلاميّة. ووصل صدام إلى الاجتماع ورمى قبلته: "سأقول لكم ماذا أريد أن أفعل بالنسبة للخميني. لقد قرّنا شنّ حرب على إيران". يقول وزير خليجي حضر الجلسة: "قلنا لصدام لا تفعلها لديهم 42 مليون نسمة وأنتم 14 مليون. إنكم ستحتلون أرضاً إيرانية وتغرقون فيها وستخضعون للدول الأجنبية التي تمّكم بالسلاح. ولكن صدام كان مُصرّاً على قراره، وبأن العراق سيربح الحرب خلال أسابيع ويُنهى نظام الخميني"⁵²⁶.

بدأت الحرب بعد ثلاثة أيام من هذا الاجتماع عندما اقتحمت القوات العراقيّة جبهة طولها 1500 كلم ضد إيران. فاحتلّ العراقيّون بسرعة أرضاً مساحتها سبعمئة كيلومتر مربع. وكان التوقيت العراقيّ ممتازاً، إذ إن النظام الجديد في طهران قد فكفك كوادر عسكريّة إيرانية مهمة وقتل أو سجن أو فصل حوالي عشرة آلاف ضابط، بينما تعطلت مئات الطائرات العسكريّة الإيرانيّة والدبابات الأميركيّة الصنع لعدم توقّر قطع الغيار من الولايات المتّحدة. وكان صدام مطمئناً إلى أن الجيش العراقيّ هو الأقوى في المنطقة بعد "إسرائيل" وسيقوم بمهمته على ما يُرام ويأتي برأس الخمينيّ خلال شهر.

Thabit Abdullah, "Saddam's eight-year war", *Dictatorship, Imperialism, and Chaos: Iraq Since 1989*, Zed Books, London, ⁵²⁴ 2006, pp. 38-42.

⁵²⁵ محمد حسين هيكل، مدافع آيات الله قصة إيران والثورة، دار الشروق، 2002.

⁵²⁶ Abdulghani, Jasim, *Iraq and Iran: The years of Crisis*, Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1984.

خلال يومين قام العراق بغارات واسعة النطاق داخل إيران استهدفت مراكز اقتصادية وعسكرية. ولكن إيران ردّت بالمثل واستمرت المعارك بين البلدين لمدة سبعة شهور لحقتها هدنة غير معلنة. ثم عادت المعارك أعنف من سابقتها ثم تواصلت الحرب لمدة ثماني سنوات⁵²⁷.

وسرعان ما تبين أنها حرب مدمرة بدون حدود، حيث سُجلت الخسائر التالية خلال 7 شهور: عشرة آلاف قتيل عراقيّ وعشرون ألف قتيل إيراني وسبعون ألف جريح من الطرفين ومليون مهجّر من مناطق الحرب. وأعلنت إيران أن تكلفة المجهود الحربيّ في الأشهر السبعة الأولى بلغت خمسة مليارات دولار في حين خصص العراق 25 في المئة من ميزانيته لشراء أسلحة. ولكن كانت هذه البداية فقط. إذ تسارع عدد الضحايا في الارتفاع في الأشهر والسنوات التالية. وعلى سبيل المثال ذكر أحد التقارير الإخبارية عام 1983، أن الجيش الإيرانيّ تكبد عشرة آلاف إصابة خلال 24 ساعة فقط.

بعد عام من الحرب المرهقة، أصبح العراق يريد وقفها بأيّ وسيلة، ولكن إيران هي التي لم تقبل. فقد حاول العراق الوصول إلى وقف للحرب عندما اجتاحت "إسرائيل" لبنان في حزيران 1982، فأعلن انسحاباً كاملاً من الأراضي الإيرانية من جانب واحد وناشد إيران وقف القتال والاتجاه معاً لمواجهة الغزو الإسرائيليّ للبنان. ولكن إيران لم تستجب واستمرت الحرب ستة أعوام أخرى. وطيلة سنوات الحرب لم يحقق العراق أي هدف استراتيجي، بل اقتصرَت النتيجة في البداية على احتلال أراضٍ داخل محافظة خوزستان الإيرانية (الأحواز أو عربستان). بل بالعكس فقد اعتبر الإيرانيون بعد عام من الحرب أن دخولهم بغداد لم يعد بعيداً⁵²⁸. ولكن التدخل الأميركيّ الواسع لمصلحة العراق في أواسط الثمانينيات منع إيران من الانتصار. وزاد في الطين بلة أن أياً من الطرفين لم يرغب طيلة سنوات الحرب على التراجع واستنزف العراق فبات الحلقة الأضعف⁵²⁹. ورغم الخسائر الاقتصادية، لم تتزحزح إيران عن مواصلة الحرب، بل شنت الهجومات تلو الهجوم على العراق. وانتقلت الحرب لتدمير المنشآت البترولية وناقلات النفط من الطرفين، وقصف إيران ناقلات النفط الكويتي إذ كانت الكويت الحليف والممول الرئيسي للعراق.

في بداية الحرب مع إيران، تحدّث قادة العراق عن إسقاط نظام الخميني في طهران وبعد فترة قلّ الكلام عن هذا الهدف. ولكن قيادة الجيش العراقيّ استمرت في إصدار بيانات عن الانتصارات والتي بلغ عددها الألفي بيان تتحدّث عن قرب تدمير نظام الخميني وعن القادسيّة الجديدة حتى أصبحت البيانات فارغة من المضمون⁵³⁰.

إيران المتفوّقة بطاقتها البشريّة والسلاح والخبرات لم تكن لقمة سائغة. وحتى السلاح الجويّ الإيرانيّ كان متفوّقاً إلى حدّ بعيد على العراق، حيث أجاد الطيارون الإيرانيون استعمال طائرات إف 4 وإف 5 الأميركيّة الصنع بجدارة فيما لم يكن لسلاح الجو أي دور في الاستراتيجية العراقية. ولقد أغارت الطائرات العراقية على

Grummond, Stephen, *The Iran-Iraq War Islam Embattled*, New York: Praeger, 1982.⁵²⁷

Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 257-261.

261.

Cordesman, Anthony, *The Iran-Iraq War 1984-1986*, Rosslyn Virginia: Eaton Analytical Assessments Centre, 1986.⁵²⁹

Charles Tripp, *A History of Iraq*, Cambridge, Cambridge University Press, 2002, p. 223-233.⁵³⁰

مدينة عبادان الإيرانية ودمرت مراكز نفطية ولكن لم يكن لهذه الغارات أي أثر عسكري استراتيجي. وإذا قورن البلدان على الخريطة فستبدو إيران كقارة عملاقة إلى الشرق من العراق الصغير. وكانت الخطة العراقية تقضي بالتركيز على نقاط ضعف إيران في منطقة خوزستان بسكانها العرب ومنشأتها النفطية الضخمة. وحققت هذه الخطة هدفها في المرحلة الأولى واستطاع العراق احتلال أراضٍ إيرانية واختراق الدفاعات الإيرانية. كما أدى التخريب الاقتصادي إلى ضعفة القيادة الإيرانية ودفعها إلى مراجعة حساباتها. وجاء الجواب الإيراني في العام التالي عبر حملات عسكرية على المنشآت الاقتصادية العراقية، الأمر الذي لم يتحمّله العراق كما تحمّله إيران بقدراتها الأكبر. لم يكن العراق ندأً كفؤاً لإيران الثورية التي تمثّعت بشعبية عارمة ليس فقط داخل إيران بل في بيوت العراقيين، حيث أغلبية السكان من الشيعة، وكذلك في لبنان وسورية، وكسبت إعجاباً عربياً واسعاً في مصر والجزيرة العربية. كانت إيران تواجه مشاكل داخلية كثيرة، ولكنها تمكّنت من تحويل الهجوم العراقي نقطة استقطاب وطني سمحت بشرعة الثورة الإسلامية داخل إيران. أما سورية التي كانت ترغب في إزاحة صدام وفي تبوء قيادة البعث في سورية والعراق، فقد أوقفت ضخ النفط العراقي عبر أراضيها.

بقيت الدول الغربية على الحياد، ولكنها لم تكن تمنع في أن تستمرّ الحرب طالما أن احتواءها كان ممكناً، خاصة أن رحاها تدور بين بلدين غير مرضي عليهما تماماً في الغرب، والحرب ستشغلها عن إثارة المشاكل في العالم. وصرّح هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأميركية السابق: "المصلحة الأميركية العليا في الحرب هي أن يخسر الطرفان". في البداية منح الرئيس الأميركي رونالد ريغان إيران ثلاث سفن محمّلة بالأسلحة بعدما حصل على وعد سريّ منها بإطلاق سراح الرهائن أثناء الحملة الانتخابية ضد الرئيس الأميركي السابق جيمي كارتر. كما باع الاتحاد السوفياتي الأسلحة إلى إيران والعراق. ومثل أميركا كانت فرنسا مقتنعة أن إيران هي الدولة الأهم لمصالحها التجارية بسبب حجم إيران وثروتها وعدد سكانها. ولكن فرنسا انحازت أكثر إلى الجانب العراقي في أواخر الثمانينيات. كما أن أميركا لم تقبل أن ترى انتصاراً إيرانياً على العراق. ومواجهة الحظر الأميركي على تصدير السلاح إلى إيران، قامت ليبيا وكوريا الشمالية ودول في أوروبا الشرقية بمدّ إيران بالسلاح. كما أن "إسرائيل" قرّرت أن العراق يشكّل خطراً أكبر عليها في المدى الطويل مقارنة بإيران، فقامت تل أبيب بدعم طهران بالخبرات العسكرية وبشحنات الأسلحة الأميركية في السنوات الأولى للحرب.

في التاسع من شباط 1986، استطاع الإيرانيون مع خسائر بشرية فائقة اختراق الجبهة العراقية وعبور شط العرب وقطع الطريق الدولي بين البصرة والفاو. وأظهر هذا النصر الإيراني أن الحرب على الأهداف الاقتصادية الإيرانية التي شنّها العراق والتي أقتعت الدوائر الغربية أنها ستُركع إيران لم تؤد إلى نتيجة. وأصبح هاجس العراق هو إخراج القوات الإيرانية من أراضيه بأيّ ثمن وخاصة مدينة الفاو منفذه الوحيد على البحر. وبدأ الجيش العراقي باستعمال المدفعية بشكل كثيف إلى حدّ إطلاق 40 ألف قذيفة ضد المواقع الإيرانية داخل العراق من دون نتيجة. ما أقلق القيادة المركزية العراقية كثيراً ودفعها إلى الاتصال بالقيادات العسكرية المتقدمة مرات عدة في اليوم.

وقلق الأميركيون من أن دعمهم العسكري والاقتصادي للعراق لم يكفِ لوقف الزحف الإيراني، فباشروا عام 1987 دعماً أكثر مباشرة ليصبحوا حلفاء عسكريين مباشرين للعراق ضد إيران. ولم يكن هدف أميركا انتصار العراق بل عدم فوز إيران. فطلبوا من "إسرائيل" وقف شحنات السلاح الأميركي إلى طهران وقامت طائرات التجسس الأميركية بتصوير المواقع الإيرانية وإعطاء المعلومات للعراق. فيما دخلت البحرية الأميركية الحرب لمضايقة تحركات الإيرانيين في الخليج. ودعمت واشنطن قراراً قوياً من مجلس الأمن (رقم 598) يدعو إلى وقف فوري للعمليات العسكرية وإلى التفاوض على الأمور كافة بين العراق وإيران.

كان لدخول أميركا إلى جانب العراق الأثر المباشر على قرب نهاية الحرب. ففي بداية العام 1988، بدأت القوات الأميركية في الخليج مساعدة العراق على استعادة الفاو بقصفها مواقع إيرانية وشنها هجمات على قطع البحرية الإيرانية. فتمكّن العراقيون من استعادة المنطقة في 16 نيسان. وهنا تشجّع العراق من الدعم الأميركي فأطلق 150 صاروخاً بعيد المدى حمل بعضها رؤوساً كيميائية وجراثومية على المدن الإيرانية الرئيسية، فأدى ذلك إلى سقوط آلاف الضحايا المدنية وأحدث صدمة للقيادة الإيرانية. وفي أيار 1988 استعاد العراق كل أراضيه وبدأ الاستعداد لغزو الأراضي الإيرانية من جديد. عندئذ استطاعت القيادة العسكرية الإيرانية إقناع الخميني أن إيران أصبحت تواجه الولايات المتحدة وليس العراق فقط. وهكذا في 18 تموز 1988 وافق الخميني على القرار 598 وأنهى الحرب ووقف القتال ابتداء من صباح 22 تموز.

الحرب التي استمرت ثماني سنوات كانت الأطول في المنطقة والأكثر كلفة منذ الحرب العالمية الثانية، حيث تجاوز عدد القتلى المليون بكثير، وخاصة بين المدنيين. لقد لجأ الطرفان إلى قصف المدن المكتظة بالسكان. فاستعمل العراق صواريخ تحمل غاز الخردل وغاز الأعصاب ضد إيران وضد أكراده. ودفعت إيران بعشرات الآلاف من الأطفال عبر حقول الألغام العراقية لتفجيرها بأجسادهم فيما عُرف بالأمواج البشرية. وكان عدد ضحايا الحرب في العراق يرتفع باستمرار، ما أثار سلبياً على معنويات الشعب.

الآثار الاقتصادية للحرب

رغم الدعم الدولي للعراق، إلا أن ذلك لم يمنع السفن الغربية من التوقف في المرافئ الإيرانية لشحن النفط، ولم يدفع إيران إلى تنفيذ تهديدها بإغلاق مضيق هرمز الذي يربط الخليج ببحر العرب⁵³¹.

لقد محت الحرب كل المكتسبات التي حققها حكم البعث خلال السنوات العشر التي تلت انقلاب 1968. وعاد العراق بلداً فقيراً مديناً مضطرب الاستقرار، يُضاف إليه استمرار قمع الأجهزة الأمنية العديدة وسلطة أفراد وعائلاتهم على ما تبقى من مقدرات البلاد. كما أن الدعم الاقتصادي والسياسي العربي للعراق تبخّر بمجرد زوال الخطر الإيراني بعد 1988. وهكذا قضت الحرب على آمال الشعب العراقي بعقد ذهبي ثانٍ من البهجة والتقدم⁵³².

Charles Tripp, *A History of Iraq*, Cambridge, Cambridge University Press, 2002, p. 238.⁵³¹

Marion Farouk-Sluglett, Peter Sluglett, *Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship*, London, I.B. Tauris, 1990, pp. 265.⁵³²

وأُسفرت الحرب عن مليون ضحية من الطرفين منهم 360 ألف قتيل والباقي جرحى، وعن تكلفة مشتركة مقدارها 600 مليار دولار. أما عدد القتلى العراقيين في الحرب فكان مئة ألف والجرحى 300 ألف والأسرى 70 ألفاً، وذلك من أصل 15 مليوناً هم عدد سكان العراق في ذلك الوقت. كما بلغت نفقات الحرب للعراق 110 مليارات دولار منها 102 مليار للإنفاق الحربي. وبلغت قيمة ديون العراق للغرب والاتحاد السوفياتي 41 مليار دولار، كما بلغت قيمة المنح المالية والقروض والنفط المستخرج من المنطقة المحايدة التي قدّمها الكويت والسعودية للعراق 40 ملياراً. ويقدر الكاتب دليب هيرو أن الخسائر الاقتصادية التي نجمت عن الحرب لكافة دول المنطقة⁵³³ ومن ضمنها كلفة الحرب قد تناهز 1190 مليار دولار⁵³⁴. فيما قدّرها الكاتب اللبناني حازم صاغية بـ450 مليار دولار للعراق وألف مليار دولار لإيران، فيكون هذا أعلى تقدير⁵³⁵.

بسبب الحرب بدأ الاقتصاد العراقي يتدهور بشكل ملحوظ، فهبطت عائدات النفط من 40 مليار دولار عام 1980 إلى 17 ملياراً عام 1981، في حين استمر الاستيراد اللامحدود لجميع أنواع البضائع الاستهلاكية والعسكرية وغيرها بكلفة 33 مليار دولار وازداد الاتكال العراقي على الدعم المالي العربي. ولكن دول الخليج بدأت تعاني أيضاً من أزمات اقتصادية، إن لم تكن مباشرة من الحرب بين الجارين الكبيرين فمن هبوط أسعار النفط في السوق العالمية. وكان إنتاج العراق من النفط ينخفض باستمرار فهبط إلى النصف في العام الثاني للحرب مقارنة بالعام 1980، وإلى الثلث في العام الثالث، حيث لم يتجاوز المليون برميل يومياً عام 1982. ولذلك لم يستفد العراق في تلك السنة من عودة الأسعار في الأسواق العالمية إلى الارتفاع، وذلك بسبب ضالة قدرته على الإنتاج فهبطت عائداته إلى 40 في المئة مما كانت عليه عام 1980. وكان هبوط الإنتاج النفطي أعمق أثراً في بداية العام 1983، حيث تضاعل الإنتاج العراقي إلى 900 ألف برميل يومياً.

وأدت سياسات دول الخليج إلى مزيد من انخفاض الأسعار عندما عمدت إلى زيادة صادراتها النفطية ما جعل عنصر الطلب (الدول المستهلكة) يقرّر الأسعار ويخفضها مجدداً. ولم يعد الدعم المالي الخليجي للعراق إلى سابقه فانخفض بشكل ملحوظ خلال الأعوام 1984 - 1986. وعندما استطاع العراق استعادة بعض طاقته الإنتاجية عام 1986 إلى 1.7 مليون برميل عاكسته ظروف السوق، حيث استمرّ سعر البرميل في تراجع. فانخفضت عوائده مجدداً إلى 30 في المئة مما كانت عليه عام 1980.

وعندما انتهت الحرب في آب 1988، كان سعر برميل النفط 17 دولاراً، ولذلك انخفضت عائدات العراق من مبيع النفط إلى نصف مستوى 1980، رغم أن الإنتاج اليومي قد تحسّن إلى معدّلات تراوحت بين 3 و5 ملايين برميل يومياً بسبب المنشآت الضخمة التي تمّ بناؤها خلال الأعوام 1986 و1987 و1988. ولكن الزيادة الإنتاجية لم تُسَعِف العراق، لأن الكميات الكبيرة المنتجة حققت فقط 14 مليار دولار سنوياً عام 1988 في حين كانت كميات أقلّ من ذلك بكثير تحقّق 26 ملياراً عام 1980.

Thabit Abdullah, *Dictatorship, Imperialism, and Chaos: Iraq Since 1989*, Zed Books, London, 2006, pp. 43-47.⁵³³

Hiro, Dilip, *The Longest War: The Iran-Iraq Military Conflict*, New York, Routledge, 1991.⁵³⁴

حازم صاغية "قصة البعث في العراق" في الحياة 13 أيار/مايو 2003⁵³⁵

ونضب تماماً الاحتياطي المالي العراقي الكبير عشية الحرب (35 مليار دولار) وشعر العراق بالمصيبة وحاول إيجاد الحلول عبر تطوير المنشآت النفطية وزيادة الإنتاج والحصول على القروض. وموضوع زيادة الإنتاج الذي بدأ عتاباً بين العراق وجيرانه سيكون أكثر أهمية في غزو الكويت في ما بعد.

لقد خرج العراق عام 1988 بقوى مسلحة ناهزت المليون شخص واقتصاد منهار. ولم يكن هناك من غنائم أو مكاسب من الحرب الطويلة. فلا مؤسسات ولا مصانع مدنية تستوعب الجنود العائدين ولا بنية اقتصادية تعيد لملايين الشعب العراقي ما فقدته من حياة مستقرة ومزدهرة عاشتها حتى العام 1980. وحاولت الدولة بعد الحرب تعزيز المعنويات فوعدت الشعب بمستقبل أفضل وأن العراق في التسعينيات سيكون أفضل مما سبق. ومن وعود ما بعد الحرب أن الحكومة ستبشر سلسلة مشاريع عمرانية تطوّر البلاد، منها نظام مترو أنفاق عصري لمدينة بغداد وشبكة مواصلات متطورة للمحافظات. وأعلنت الدولة أن هذه المشاريع ستكلف 40 مليار دولار وتخلق مئات الآلاف من الوظائف للشعب، ولكن المال لم يكن متوفراً. بل كانت مصائب ما بعد الحرب أكبر من أن يعقلها النظام: التقدّم الذي تحقق قبل الحرب كان بفضل مال البترول وليس بسبب ذكاء النظام. فأنفق منها بشكل عشوائي في عقد السبعينيات. وعام 1988 ذهب المال واستعصت المشاكل.

25 | تفتت الدولة اللبنانيّة

في الفترة من 1981 إلى 1990، وقعت حروب في لبنان أكثر عنفاً وأوقع أثراً من سنوات الحرب الأولى. وأصاب وحش الغلاء معيشة المواطنين في العمق، حتى بات الناس يحتاجون إلى أكياس من النقد لشراء الغذاء واللباس وأصبح العيش في بيروت يساوي حياة الجحيم لسكانها وارتفع احتمال الموت قتلاً بالرصاص أو جراء القصف، وخيّمَت شريعة الغاب. ولم يكن ممكناً تصوّر أن يتمكن قسم كبير من الشعب اللبناني من الاستمرار في عيشه من دون تقديمات الدولة، حتى عندما أصبح وجود هذه الدولة مسألة نظرية في الثمانينيات أمام هيمنة قوى الأمر الواقع من ميليشيات وجيوش متعددة. ولكن قيمة تقديمات الدولة كانت تتضاءل باستمرار بعد العام 1983 مع تفاقم الوضع الأمني. فقد غرقت الدولة في الديون وعجزت عن الدفاع عن العملة الوطنية أو حتى عن إثبات وجودها خارج بعض المجمععات والأبنية الرسمية كالقصر الجمهوري ووزارة الداخلية ومصرف لبنان ومؤسسة كهرباء لبنان وبعض ثكنات الجيش.

وعندما انتهى عهد الرئيس الياس سركيس عام 1982، كانت البلاد بأسوأ حال بكثير مما كانت عليه عام 1976. وقد انقسمت إلى كانتونات ودخل الجيش الإسرائيلي بيروت، في حين سيطرت على بقية المناطق قوات سورية وفلسطينية وميليشيات لبنانية مختلفة.

وعندما وصل أمين الجميل إلى الرئاسة الأولى عام 1982، كانت الدولة قد تراجعت كثيراً، ووجد نفسه في بعدا في قصر تحاصره الدبابات الإسرائيلية.

بين حزيران 1982 وحزيران 1985 أحدث الغزو وثلاث سنوات من الاحتلال الإسرائيلي خسائر مادية في البنية الاقتصادية بقيمة ملياري دولار. ولم تساعد أميركا اقتصاد لبنان على النهوض بل كان تدخلها أمناً مصلحياً، حيث أرسلت قوات المارينز مع القوى المتعددة الجنسية التي سيطرت على بيروت الكبرى بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي من العاصمة وقدمت دعماً سياسياً وعسكرياً للرئيس الجميل في بداية عهده.

كان العام 1983 بداية بارقة أمل لنهاية الحروب في لبنان، حيث برز تفاؤل في التوصل إلى اتفاق بين القوى الإقليمية والعربية والدولية يسمح للبلاد بشق طريق السلام وإعادة الإعمار. وكان أمين الجميل يراهن أن الوضع الإقليمي والدولي سيساعده لينجح وأنه سيحصل على دعم أميركي وأوروبي غير محدود. فقام بزيارة الولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية بحثاً عن الدعم وتكلم مراراً عن سلة مساعدات غربية بقيمة مليار دولار. ووصل إيمان الجميل بالدعم الغربي - السياسي والعسكري والاقتصادي إلى درجة أنه استخف بنفوذ سورية في لبنان وبحلفائها اللبنانيين على الساحة المحلية. ذلك أنه ومن البيت الأبيض واقفاً إلى جوار الرئيس الأميركي رونالد ريغن، وجّه عبارات غير مستحبة ضد الرئيس السوري حافظ الأسد وأنه "سيرة القذائف إلى دمشق". في وقت كانت جهات لبنانية قوية وعديدة تستعد بمساعدة سورية، لمقاومة "إسرائيل" وطرد الميليشيا اليمينية من الجبل.

رهان الجميل على أميركا وممارسات الجيش اللبناني في غرب العاصمة وفي الضاحية الجنوبية ضد القوى المعارضة لم يخفها التوتر العام في البلاد. فبعد الاجتياح الإسرائيلي وهزيمة الفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين، تصرّفت الميليشيا اليمينية وكأنها المنتصرة في الحرب اللبنانية، فيما تعامل الجيش اللبناني مع سكان بيروت

وضاحتها الجنوبية من مسلمين وفلسطينيين بقسوة. فلم تغتنم الميليشيا اليمينية وقيادة الجيش الفرصة التاريخية لنيل ثقة المسلمين بعدما عانى لبنان ما عاناه من الغزو الإسرائيلي المدمر والقاتل، بل سيطر منطق فوز فئة على حساب الفئة الأخرى: بأن لبنان كان يحتله الفلسطينيون وها هو قد تحرر وأن سكان الأحياء الغربية مشكوك في أمرهم لعلاقتهم بالفلسطينيين حتى يثبتوا العكس. وكان هذا المنطق يتغافل أن لحرب لبنان أبعاداً لبنانية لبنانية. فبدلاً من التعاطف مع الناس وتضميد الجراح، كان الواقع على الأرض يؤكد أن حرب لبنان لم تنته بعد.

لقد توقع الرأي العام بعدما قتلت "إسرائيل" 20 ألف شخص وأحدثت خسائر مادية بقيمة ملياري دولار، أن الدولة ستستجيب لهذه الكارثة الوطنية بالتركيز على الحاجيات الإنسانية للمواطنين والمهجرين الذين تدفقوا إلى بيروت والمناطق الأكثر أمناً بمئات الألوف. ولكن السلطة اختارت مضايقة الناس في بيروت وصيدا وكأنها تريد معاقبتهم لوقوفهم إلى جانب الفلسطينيين في السنوات السابقة. وكان تركيز الجيش اللبناني على معاقبة وتوقيف الشبان الذكور في بيروت الغربية والضاحية لافتاً للنظر. فكانت الحواجز والدوريات وعمليات المداهمة قاسية في أسلوب تفتيشها واستجواباتها. كما شرع الجيش في تهديم أكواخ حي الأوزاعي حيث أقام مهجرو الحرب، وكأن هذه هي الأولوية الآن، في حين كان حاجز الاحتلال الإسرائيلي لا يبعد أكثر من كيلومتر واحد، عند مثلث خلدة. ورأى الناس أنه أمام سحق الإسرائيليين للسيادة ومسؤولية الجيش اللبناني في التصدي للعدوان، اختارت الدولة أن تستعمل الجيش لسياسات داخلية عديمة النظر تخدم الخارج وتتعلق بمصالح فتوية داخلية.

نظر المسلمون إلى أمين الجميل على أنه يمثل الميليشيا اليمينية، خصمهم في الحرب. كما أن تقارير ذكرت عن اختفاء أكثر من ألفي شخص من الذكور، أوقفوا على حواجز الجيش أو أثناء مدهاماته أو اختطفتهم الميليشيا اليمينية. وكانت هذه التطورات إنما تنبئ بالآتي الأعظم، حيث لاحظ المراقبون العرب والأجانب أن لبنان لا يبدو وكأنه يتجه إلى السلام والنقاهاة والإعمار، بل هو بلد منشغل جداً بالانتقام وتصفية حسابات دموية عن أحداث سابقة.

وأمام تعثر الحصول على مساعدات لبناء الجيش، استعملت الدولة أموالاً مودعة في مصرف لبنان، كانت البلاد بحاجة ماسة إليها لتنفيذ مشاريع مجلس الإئماء والإعمار وغوث الناس، لشراء أسلحة ومعدات. وهذه الاعتمادات الكبيرة للدفاع قُدرت بـ880 مليون دولار⁵³⁶ ألحقت ضرراً فادحاً في مالية الدولة ووضعية مصرف لبنان وأحدثت عجزاً في ميزان المدفوعات. فقد تعاقدت الدولة على مشتريات أسلحة وتعهّدت تسديد ثمنها نقداً من احتياطي مصرف لبنان. وكانت النتيجة أن الاحتياط هبط من 2.7 مليار دولار في نهاية 1982 إلى 650 مليوناً نهاية 1984⁵³⁷، ما لم يكن كافياً للدفاع عن الليرة في ذلك الوقت.

وكان الاعتقاد أن جيشاً قوياً سيحسم الصراع في البلاد لصالح الدولة، دون الالتفات إلى عبرة الأحداث التي سبقت في أن الجيش لا دور له في الداخل من دون وفاق وطني لبناني يمنحه التغطية، وإلا انهار وتشرذم.

⁵³⁶ وزارة المالية، نفقات الحكومة 1982 - 1985.

⁵³⁷ غسان العياش، المالية العامة، دار النهار، ص. 122.

ولكن ما حصل أن الجيش استعمل شحنات الأسلحة الأولى في قصف الضاحية الجنوبية ذات الأغلبية الشيعية في بداية 1984، فكانت هذه الفترة تمهيداً لانتفاضة ضد حكم أمين الجميل. لقد زال تفاؤل العام الأول لعهد أمين الجميل وتبخرت آمال السلام في لبنان، خاصة بعدما انطلقت ثلاث حروب مرة واحدة. الأولى حرب دموية بين الموارنة والدروز في الجبل (الشوف وعاليه) عام 1983 ومعظم عام 1984. والثانية في مدينة طرابلس بين ما تبقى من منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان بقيادة ياسر عرفات وحلفائه اللبنانيين من جهة، وجماعات فلسطينية انتفضت ضد عرفات بدعم سوري ومعها فئات لبنانية تؤيدها. والثالثة في بيروت ابتداء من 6 شباط 1984 عندما نجح تحالف الميليشيات الدرزية الشيعية في طرد القوى الموالية لرئيس الجمهورية وشق الجيش مرة ثانية بعدما كانت الدولة قد باشرت في إعادة بنائه وتأهيله.

هذه الحروب المستجدة قضت على أي أمل للدولة بمعجزة إنقاذ اقتصادي واجتماعي وانطلاق مشاريع الإعمار الموعودة. حتى أنّ جهات عربية ودولية حكومية وغير حكومية عدّة توقفت عن تقديم المساعدات. وقررت واشنطن عدم صرف بقية الـ250 مليون دولار للبنان فحوّلت ما تبقى لنشاط المارينز في أماكن ساخنة أخرى من العالم. وأبلغت الإدارة الأميركية لبنان أنّ اهتماماتها تغيرت وأن مبلغ 40 مليون دولار المخصص للبنان لن يدفع⁵³⁸.

انتفاضة 6 شباط 1984

كان سلوك الجيش اللبناني والمليشيا اليمينية في غرب بيروت وضاحيتها الجنوبية لا يعكس روح المسؤولية ولا يقدر عواقب التصرفات السلبية تجاه عدد كبير من المواطنين. كما أن الوضع الذي خلقه الغزو الإسرائيلي والاحتلال صعق الشيعة لعام على الأقل ما عطل تأثيرهم في الخريطة السياسية اللبنانية. سيكولوجية "الجماعة المظلومة" نمت في ظل الاضطهاد المتعددة: احتلال إسرائيلي شرس ومجرم في جنوب لبنان، ودولة لبنانية تحت نفوذ الميليشيا اليمينية يرأسها أمين الجميل وتجاهل عربي لمصير لبنان وكره غربي للشيعة مصدره موقف الولايات المتحدة من إيران.

هذه الأجواء ولدت غضباً شعبياً وفجرت طاقات مذهبية في صفوف الشيعة، وكذلك الدروز الذين خاضوا حرباً في الجبل مع الميليشيا اليمينية. فبعد مغادرة قوى "المتعددة" عام 1983 وبعد يومين من قصف الجيش اللبناني للضاحية في شباط 1984، هاجمت قوة مشتركة من "حركة أمل" و"الحزب التقدمي الاشتراكي" بيروت الغربية في 6 شباط في انتفاضة ضد حكم الرئيس الجميل، فانشق اللواء السادس في الجيش اللبناني ذو الأغلبية الشيعية عن قيادة الجيش. وهذا التحرك الميداني أضعف الدولة وقص من فرص توسيع رقعة سيطرتها وفق الرؤية الأميركية. وساهمت الميليشيا اليمينية في انتفاضة 6 شباط، فلم تسمح بانتشار الجيش اللبناني وقوى السلطة المركزية في مناطق نفوذها أيضاً.

⁵³⁸ تحوّل هذا المبلغ إلى جزيرة غرينادا التي غزاها رجال المارينز عام 1983.

كانت انتفاضة 6 شباط نقطة تحوّل تاريخي بالنسبة لحركة أمل بقيادة نبيه بري، حيث برزت كأقوى ميليشيا في الجهة المقابلة لليمين الانعزالي ليرتفع عدد أعضائها المحتمل من 800 عام 1976 إلى أكثر من عشرة آلاف، وأنصارها إلى مئات الألوف عام 1984. وبرز نبيه بري كأهم شخصية شيعية وكقائد متميز للحركة وخاصة بعدما أطلق "نداء الانتفاضة" من وسائل الإعلام الرسمية التي سيطرت عليها الحركة في غرب العاصمة. وعجّل دور بري في انتفاضة 6 شباط بأول تغيير لمصلحة "أمل" ومشاركتها للمرة الأولى في مجلس الوزراء. وفوق ذلك ظهرت "العقدة الشيعية"، ذلك أنّ بري لم يوافق على المشاركة كيفما اتفق، بل خاض مفاوضات قال فيها إنّ المعادلة قد تغيّرت وإنّ قوّة الشيعة وعددهم يفرضان منحهم وزارة لها وزن سياسي وقدره على الإنفاق. فولدت وزارة الجنوب وحصل بري على امتياز هو حق إضافة توقيعه على إذونات دفع مجلس الإنماء والإعمار.

أصبحت أمل مسؤولة عن أمن غرب العاصمة، ولكن أفلت الأمر من يدها وعمّ الخطف وجرائم الاغتيال والنهب والاعتداء على الناس وانعدام الأمن بسرعة جنونية. فلام الرأي العام الميليشيا الشيعية على هذا الوضع. واضطرت "أمل" لتتكب دور مستجدّ هو مساعدة الدولة على استعادة شرعيتها والدفع نحو حل وطني للحرب.

وبعد هزيمة الرئيس أمين الجميل في الداخل وانتفاضة 6 شباط 1984، ساهمت مؤتمرات حوار وطني في لوزان وجنيف في سويسرا وانسحاب "إسرائيل" الجزئي عام 1985 وسقوط توقيع معاهدة سلام بين لبنان و"إسرائيل" في ولادة حكومة وفاق وطني عام 1985. ولكن انشغال الرئيس الجميل بالانشقاقات الخطيرة في الصف المسيحي وخاصة داخل حزب الكتائب وميليشيا القوات وانهايار حكومة الوفاق في بداية العام 1986، لم يساعد في ترميم الوضع.

انحسار الدولة شرق بيروت

في شرق بيروت، كانت الأعوام 1982 - 1984 أكبر من أن يقوى المسيحيون على تحملها: مصرع بشير الجميل وما أعقبه من شعور بالإحباط، وهزيمة الميليشيا المسيحية في الجبل وسقوط بحمدون والدور الفاشل لفادي فرام قائد القوات اللبنانية، وانهيارات عسكرية في الشوف وعاليه، وتهجير عشرات ألوف المسيحيين من الجبل إلى الضواحي الشرقية.

وفي السياق نفسه، دار صراع داخل الكانتون المسيحي وحاول حزب الكتائب إبقاء مفاتيح الكانتون وأجهزته المدنية والعسكرية بيد الرئيس أمين الجميل وأنصاره. فعين فادي فرام، صهر آل الجميل قائداً للقوات اللبنانية. فأمين الجميل لم يكتفِ بسلطته كرئيس للجمهورية، وهي سلطة أثبتت محدوديتها، بل بنى قواه الذاتية في المتن وحول بلدة بكفيا ومؤسسات عدّة تابعة له، كجزيرة أمنية وسياسية وعسكرية.

وظهرت مصائب عدّة دفعة واحدة فتحت العيون على حقائق اجتماعية في المناطق الشرقية التي كانت مزدحمة بالمهجرين المسيحيين من كل مكان: من الشوف وساحله ومن عاليه وبعبداء وزغرتا وبشري. وكان

أبناء هؤلاء المهجّرين يمثلون العناصر العادية من مقاتلين وأفراد في القوات وكانت أوضاعهم وأوضاع ذويهم مزرية. فلم يرتاحوا لأمين الذي كان بعيداً عن قواعد القوّات. كما أنّ الهيئة التنفيذية للقوات اللبنانية قاومت محاولة الجميل توسيع رقعة الدولة في المناطق المسيحية. وزاد الأمر سوءاً أنّ "إسرائيل" واصلت استخدامها لـ"القوات" كأداة ضغط على أمين لحمله على سياسة تناسبها.

وإذ تمسك أمين بدوره كرئيس للجمهورية وسعيه إلى حل لبناني، بدا في نظر الميليشيا المسيحية وأنصارها أنّه تخلّى عنهم. حتى أنّ صوراً وُزعت ضدّه تسميه "بيلاطس" الذي سلّم المسيح للفريسيين، وأخرى تسميه "محمد الأمين" أحد القاب النبيّ العربيّ لأنه تقرب من المسلمين. ويقول جوزف أبو خليل إنّ ما زاد الوضع سوءاً بالنسبة للدولة وبالنسبة للكانتون المسيحيّ عام 1984، أنّ "الجيش اللبناني" الذي أنفق عليه مئات ملايين الدولارات، انهار خلال أيّام بعد "انتفاضة 6 شباط"، والحكم أضحى وفقاً على رئيس الجمهورية بعد استقالة الحكومة واستحالة تأليف الحكومة البديلة... ومن جيش الثلاثين ألف رجل لم يبق على طول الجبهة سوى 2015 رجلاً... وأميركا تتراجع وتنسحب وإسقاط أمين الجميل أصبح من الشعارات الأكثر رواجاً⁵³⁹.

لقد أراد المكتب السياسيّ في حزب الكتائب وخاصة من الذين عاصروا بيار الجميل وأخلصوا له، استعادة وجود الحزب ودعم أمين وشرعية الدولة. خاصة بعدما أصبح الأمر أكثر صعوبة بعد وفاة بيار الجميل، المؤسس، في آب 1984. فوقف رئيس الحزب الجديد إيلي كرامة والمكتب السياسيّ مع أمين في نزاعه مع "القوّات". وإذ قضت هيكلية "القوّات" أن يكون قائدها كتابياً يسميه الحزب، طلب المكتب السياسيّ من فادي فرام، قائد القوّات، تسليم الحزب المبالغ والحسابات المالية التي في حوزته. فنفض ذلك بعد تردّد، لا سيما أنّ الطلب جاء مع اقتراب موعد نهاية مدّة السنتين واحتمال أن لا يرشّحه الحزب "لولاية" أخرى قائداً لـ"القوات".

وفيما كان أعضاء الهيئة التنفيذية يظنون أنّ سمير جعجع وإيلي حبيقة سيكونان المرشحين الرئيسيين لرئاسة الهيئة التنفيذية، في 9 تشرين الأول 1984 سمى الحزب فؤاد أبي ناضر، ابن "أرزة" شقيقة بشير وأمين، قائداً للقوات. فبدأ أنّ الحزب قد استعاد سلطته على "القوّات" مالياً وعسكرياً وسياسياً، وأنّ الطريق أصبحت سالكة ليدعم أمين الجميل والسياسة التي انتهجها، بعدما كان فادي فرام و"القوّات" يعترضان على التسوية في لبنان وعلى دور سورية. ودعماً لخط أمين، سجّل جوزف أبو خليل في مذكراته: "اقتناعي اليوم هو أنّ عهد "الحكم الماروني" ولّى، بل كان ينبغي أن يحسن المسيحيّون الموارد استعمال "الامتيازات" وأن يوظّفوها في تحسين علاقتهم بالمسلمين لكنهم لم يفعلوا"⁵⁴⁰. ويشير أبو خليل إلى لقاءات كتابية - سورية على مستويات عدّة، إحداها في شباط 1985، في وفد ضمّ إلى أبو خليل، رئيس الحزب إيلي كرامة ونائبه جورج سعادة وألفرد ماضي وجوزف الهاشم وجورج عميرة.

ولكن كان ذلك قبل أسابيع من "انتفاضة الشرفيّة" التي كانت ضدّ توجّه أمين وضد سياسة حزب الكتائب لملاقاة سورية. وبرز في قيادة الانتفاضة "القوّاتية" ثلاثيٌّ ضمّ إيلي حبيقة عن الأمن وسمير جعجع عن العسكر

⁵³⁹ جوزف أبو خليل، قصة الموارنة في الحرب، ص. 258.

⁵⁴⁰ جوزف أبو خليل، المصدر نفسه، ص. 319.

وكريم بقرادوني مسؤول الإعلام. وبدأت الإشكالات التي أدت إلى انتفاضة "القوات" عام 1985 عندما طلبت قيادة الكتائب من القوات تسليم الحوض الخامس في مرفأ بيروت للدولة، وإخلاء بيروت الكبرى من الميليشيات، وتسليم الصندوق الوطني للقوات وحاجز البربرة في الشمال لتسهيل مهام الدولة الشرعية. وكان لحاجز البربرة أهميته المالية من جباية "الرسوم المالية" وممارسة الضغط السياسي، وكان سمير جعجع بصفته قائد الشمال في القوات اللبنانية هو الذي يقوم بالجباية على الحاجز.

واستغرقت الأزمة شهوراً حتى انفجرت في آذار 1985، عندما أطلق جعجع بياناً دعا فيه إلى "تصحيح مسيرة الحزب وإعادةه إلى دوره التاريخي الفاعل والرائد". وردّ المكتب السياسي بطرد جعجع من الحزب وأوكل إلى إلي حبيقة المسؤول عن الأمن في "القوات" منع حركة التمرد. فقام رجال حبيقة بالسيطرة على بيروت الشرقية يوم 11 آذار وإقامة حواجز في كسروان، فيما زحفت مواكب جعجع المسلحة ليل اليوم التالي 12 - 13 آذار. ففرش الانقلابيون سيطرتهم من المدفون حتى نفق نهر الكلب.

كان هدف هؤلاء هو الانقلاب على قيادة الحزب وربما إسقاط رئيس الجمهورية أو إخضاعه لشروطهم. فتمكّن "كتائب المتن" الموالون لأمين الجميل بسدّ نفق نهر الكلب بحاجز تراي أوقف الزحف. ولكن فضلت قيادة القوات الموالية للكتائب والمتمثلة بفؤاد أبو ناضر عدم مواجهة الانقلابيين. فسيطرت "قوات" حبيقة على منطقة بعددا والأشرفية في بيروت، وحرش ثابت حي سكن أمين الجميل. وهكذا أعلن المهاجمون قيادة قواتية جديدة لا تخضع للمكتب السياسي حتى انحصرت سلطة الحزب في بيروت والبيت المركزي في حي الصيفي وفي المتن. وعملياً انقسم الكانتون المسيحي إلى ثلاث مناطق نفوذ بين أمين الجميل وحبيقة وجعجع. كان "عزّاب الانتفاضة" رجل الأعمال ميشال المرّ، النائب الأرثوذكسيّ عن المتن الشمالي، والخصم التقليديّ للكتائب منذ الستينيات. لقد قدّم المرّ للانتفاضة مالاّ وأسلحة وذخيرة ومعدات. وبعد فوز الانتفاضة أعلن بقرادوني أنّ "كل أدوات السلطة أصبحت في أيدي القوات اللبنانية"⁵⁴¹ كبديل عن المكتب السياسيّ لحزب الكتائب. وكان مثيراً للدهشة أن تتقلّص رقعة الدولة اللبنانية في المناطق الشرقية بالذات. فأن ينتفض وليد جنبلاط أو نبيه بريّ أو المسلمون عموماً على "الحكم المارونيّ" ممثلاً بالكتائبي أمين الجميل، هو ظاهرة طبيعية في منطق الصراع الطائفي القائم في لبنان منذ تأسيسه حول من يحكم البلد ويسوس شؤونه. لكن حدثت هذه الظاهرة في صفوف الموارنة، الذين كانوا دوماً حماة النظام والمدافعين عنه⁵⁴².

وقال الجميل في تلك الفترة "إن هناك 38 ألف عسكريّ في الجيش اللبناني لا تملك القيادة أي سلطة عليهم. وإنّ أي قوّة من هذا الجيش ترسل إلى الجنوب تنقسم على نفسها في الطريق، هذا إذا فتحت الطريق أمامها وأجيز لها أن تمرّ". حتى وصف أبو خليل الواقع عام 1985 كالتالي: "لقد أضحي لبنان تركيبة عجيبة غريبة. لا هو دولة وحدوية ولا هو دولة فدرالية. وما لـ"إسرائيل" لـ"إسرائيل" وما لسورية لسورية. والباقي موزّع مقاطعات مسيحية ودرزية وشيعية وسنية"⁵⁴³.

⁵⁴¹ جوزف أبو خليل، المصدر نفسه، ص. 329.

⁵⁴² جوزف أبو خليل، المصدر نفسه، ص. 323.

⁵⁴³ جوزف أبو خليل، المصدر نفسه، ص. 345.

أثبتت الأحداث في ما بعد أن تقرب الجميل من دمشق كان موضع حسد الآخرين في الكانتون المسيحي، خاصة بعد فشل اتفاق 17 أيار وعودة الثقل السوري إلى الساحة. وكانت سورية تؤمن بالقوة العسكرية كأداة للعمل السياسي، فكان رفض أمين الجميل عرض الأسد بتدخل عسكري ضد انتفاضة "القوات" عام 1985 لغير مصلحته. حيث راقب السوريون تحول الشارع المسيحي ضد الجميل وفضلوا التعامل مع من يسيطر على الأرض عسكرياً. وفيما كان جعجع يتقرب من أمين الجميل ويشترك معه في تفويض كريم بقرادوني بفتح خطوط على دمشق وينهي مفعول "فصله" عن الحزب، وجد إيلي حبيقة الذي كان أيضاً يتقرب من دمشق والذي كان يتمتع بنفوذ أمني ومخابراتي وقوة عسكرية تأمر به، أن سلوك جعجع وأمين يقطع الطريق على خطه هو مع سورية. فكانت النتيجة تنافساً مسيحياً على من يعطي السوريين أكثر من رفيقه.

لم يمض شهران حتى انتفض حبيقة ساعياً للاستئثار بالسلطة بعدما كان قد اتفق مع جعجع على ترك منصب رئيس الهيئة التنفيذية شاغراً. ففي 9 أيار 1985، انعقدت الهيئة التنفيذية الجديدة واختارت حبيقة رئيساً لها، فبادر هو إلى إذاعة بيان يناقض الطروحات القواتية: "الافتتاح الذي نعلن اليوم هو الخيار أن الخيار اللبناني هو عربي. نقول ذلك عن اقتناع لا عن خوف. ولسورية في هذا الخيار موقع أساسي نظراً إلى الروابط الجغرافية والتاريخية والمصرية". فألغى حبيقة كل موجبات الانتفاضة السابقة وأهدافها (العودة إلى بشير). وسيتبين من تجربة الكانتون المسيحي أن الفدرالية، كما تقسيم لبنان، هي أمور مستحيلة. ذلك أن التنافس داخل الكانتون الواحد والميل نحو الدكتاتورية كانا كفيلاً بإلغاء مفعول أي محاولة تقسيم للبنان. ويقول حبيقة: "الشاشة لا تتسع الا لشخص واحد... يجب أن يكون هناك مسؤول واحد هو رئيس الهيئة التنفيذية وهذا الرئيس هو أنا"⁵⁴⁴. أما عن علاقة حبيقة بـ"إسرائيل" ومجزرة صبرا وشاتيلا فكان رأي دمشق أن "عفا الله عما مضى"، وأضاف عبدالحليم خدام عن إيلي حبيقة: "الشخص ناضج سياسياً وغير متهور".

في 31 تموز 1985، زار حبيقة رئيس الجمهورية السابق سليمان فرنجية في إهدن، فكانت أول زيارة لمسؤول قوّاتي منذ مجزرة إهدن عام 1978. وفي 9 أيلول 1985 زار وفد قوّاتي برئاسة حبيقة دمشق لتتويج أشهر من التحضير. ومن ثمرات الزيارة أن حبيقة تمكّن من نشر نفوذ القوّات إلى زحلة لأول مرة منذ محاولة بشير الجميل الفاشلة عام 1981. وتسلم حبيقة مقرّ "الكتائب" في المدينة والتقى مع شخصيات سياسية ودينية واستقبل وفوداً شعبية من المدينة وجوارها. وفي 26 أيلول بدأ حبيقة مفاوضات مع حركة أمل والتقدمي الاشتراكي حول اتفاق ثلاثي لإنهاء الحرب اللبنانية بحضور خدام الذي أبلغ الأطراف أن "الفشل ممنوع". وكل هذا من دون مشاركة الدولة اللبنانية وخاصة الرئيس أمين الجميل.

تذمر الرأي العام المسيحي من أسلوب حبيقة البوليسي وإدارة المناطق المسيحية بأسلوب استخباري أحصى على الناس أنفاسهم. واعترض سمير جعجع وكريم بقرادوني على نص الاتفاق الثلاثي كما اعترض المكتب السياسي في "الكتائب". وفي حين كان الشارع المسيحي غير مرتاح إلى الخطوة أخذت القيادات السنية على

⁵⁴⁴ جوزف أبو خليل، المصدر نفسه، ص. 352-353.

الاتفاق كونه تسوية تتم بمعزل عن المسلمين السنّة. وفي دمشق في 28 كانون الأول 1985 وقّع إيلي حبيقة ونبيه بريّ ووليد جنبلاط على الاتفاق بحضور شخصيات لبنانيّة وسورية. وبعدها كان الوضع داخل "القوات" يغلي كجوف بركان، لم يخلُ الأمر من معارك متقطّعة بين قوّات جعجع وقوّات حبيقة، وانفجر هذا البركان صباح يوم رأس السنة 1985، عندما نصب كمين مسلّح وسيارات مفخّخة في جسر نهر الملوت شرق بيروت ضد موكب عسكريّ اعتقد رجال جعجع أنّه ضمّ حبيقة نفسه. فقتلوا 3 عناصر و9 مدنيين وتعرّض أسعد شفتري، وكان مسؤولاً عن جهاز الأمن، لمحاولة اغتيال. وانتشرت المعارك في المناطق الشرقيّة، معلنة "الانتفاضة" الثالثة التي كانت اتفاقاً بين أمين الجميلّ وسمير جعجع ضد سلطة حبيقة. وحاولت عناصر حبيقة اقتحام المتن الشماليّ معقل الرئيس الجميلّ يوم 13 كانون الثاني 1986. وجاء الردّ سريعاً حيث شنت مجموعات مشتركة من عناصر جعجع، الذي كان رئيس هيئة الأركان العامة في القوّات وعناصر من الكتائب هجوماً مضاداً على ثكنات ومراكز "جهاز الأمن" التابع لحبيقة، خلّف عشرات القتلى ومئات الجرحى.

وتدخّل الجيش اللبنانيّ ضد حبيقة أيضاً، فسقطت جميع مواقعه في المناطق الشرقيّة، فيما تعرّض مقرّه الرئيسيّ لقصف مركز وشديد، حيث كان برفقته أسعد شفتري والياس المرّ. وكان حبيقة واثقاً بالنفس أثناء القتال ولم يتوقّع الانهيار السريع وجرت اتصالات حاسمة تولاهها ميشال المرّ⁵⁴⁵، فتدخّل السوريّون لدى قائد الجيش ميشال عون، الذي أمر بنقل حبيقة ومن معه إلى مقر وزارة الدفاع اللبنانيّة في اليرزة، في حين التحق المئات من جماعة حبيقة وقيادته بقوّات جعجع وبقي مع حبيقة مئات العناصر المخلصة. كما أنّ حبيقة لم يخسر كلّ شيء، إذ صح رهبانه الإقليميّ على السوريّين، وبمساعدة فريق الحريريّ نقل قيادته إلى باريس أولاً ثم إلى زحلة في البقاع التي أصبحت عاصمة قوّات حبيقة⁵⁴⁶. ففي زحلة أقام 300 من عناصر حبيقة في فندق القادري وفي شقق وابنية استولوا عليها في أنحاء المدينة. وإضافة إلى المساعدات السوريّة، استمرّ تمويل ميشال المرّ ورفيق الحريريّ.

كان الانقلاب الثالث في صفوف القوّات كفيلاً بإسقاط الاتفاق الثلاثيّ بثمان ليس قليلاً، أدّى إلى سقوط 430 قتيلاً و600 جريح في يوم واحد. أمّا أمين الجميلّ فقد اختار الطرق الرسميّة للتعاطي مع الاتفاق، وحوّله إلى الدرس في مجلس الوزراء، فدعا إلى جلسة حكوميّة في 26 كانون الثاني 1986. ولئن لم يعلن الجميلّ الموافقة على الاتفاق مسبقاً لم يرق هذا الأمر لرئيس الحكومة رشيد كرامي فلم تُعقد الجلسة وكانت بداية مرحلة طويلة من المقاطعة وتعطّل الحكومة.

حاول جعجع أن يبني مؤسسات سياسيّة وعسكريّة، فبادر إلى تنظيم الخدمات الاجتماعيّة والأجهزة العسكريّة والأمنيّة والإعلاميّة والإداريّة. إلا أنّ السلم لم يكن متوقّراً داخل الكانتون. فقد قام حبيقة بمحاولات انقلابيّة متتالية ضد جعجع مدعوماً من شعبيّته في مناطق الأشرافية وحي السريان وكرم الزيتون والمنت الجنوبيّ، وفي نسبة لا يستهان بها من القاعدة الأرثوذكسيّة في المناطق الشرقيّة. وبعد سبعة أشهر من هزيمته،

⁵⁴⁵ من سلسلة "سمير جعجع يتذكّر" مع غسان شريل، مجلة الوسط، محفوظة في موقع انترنت "القوّات اللبنانية"، الجزء السابع.

⁵⁴⁶ 9 Robert Hatem, *From Israel to Damascus*, California, Pride International, 1999, Chapter 1

قاد حبيقة انتفاضة رابعة ضد جعجع في 10 آب 1986، بدءاً بحصار مركز قيادة جعجع في المجلس الحربي وثكنة أدونيس في كسروان، بالتنسيق مع عناصر داخل الشرقية. ولكن هذه المحاولة فشلت⁵⁴⁷. وكان حبيقة مصمماً على العودة إلى الكانتون المسيحي وأنه لن يكون مثل "الحنش" (إشارة إلى المسؤول العسكري في ميليشيا "الأحرار" الذي أقصاه بشير الجميل عام 1980). وهكذا بعد أسابيع قام حبيقة بانتفاضة خامسة في 27 أيلول 1986، كانت أكبر محاولاته. وهذه المرة قام باقتحام وجاهي للأشرفية عبر الوسط التجاري ومعبر رأس النبع السوداني، بقوة من 300 عنصر. وبسبب التعاون مع الشارع داخل الأشرفية وتساهل من ضباط في الجيش اللبناني، سيطر رجال حبيقة على مواقع داخل الأشرفية واحتلوا المبنى الجديد لإذاعة صوت لبنان. ولكن سرعان ما انقلب الوضع إذ تدخل الجيش اللبناني وأغلق المعابر بين الشرقية والغربية وبدأ قصف مواقع حبيقة بأمر مباشر من الرئيس الجميل. ثم انتشرت مغاوير الجيش فضربت قوات حبيقة ولم ينجُ من المحاولة سوى 150 عنصراً منهم. وتلت المحاولة عمليات انتقام وتطهير بشعة، حيث طاف رجال جعجع في كل مكان يعتقلون أو يعدمون من شكوا بأنه مع حبيقة حتى في منازلهم وفي المستشفيات.

بعد المحاولتين الانقلابيتين اللتين قام بهما حبيقة، جاء وقت الحساب. فقد انتشر رجال جعجع في زحلة وقاموا بزرع متفجرات وعبوات ناسفة في مواقع عدّة ضد قوات حبيقة حتى تمكن رجال جعجع من إقناع كاهن هو الأب سميح حداد بزرع عبوة زنتها 50 كلغ داخل قاعة في مبنى مطرانية زحلة، حيث كان حبيقة يعقد اجتماعاً مع المطران أندره حداد وإيلي الفرزلي وخليل الهراوي. وما أن بوشر الاجتماع حتى وقع انفجار عنيف أدى إلى إصابة 20 شخصاً بجراح بالغة. وعاجل رجال حبيقة بإنقاذه والآخرين من بين الأنقاض. وما أن تعافى حبيقة من الانفجار حتى بدأ يعدّ حملة الردّ. ولكن تلك كانت الفترة التي برز فيها قائد الجيش العماد ميشال عون ليتحوّل صراع النفوذ على الكانتون المسيحي إلى حرب بين قوات جعجع والجيش اللبناني، في حين اندمج حبيقة تماماً تحت مظلة القوى الموالية لسورية في لبنان.

حرب المخيمات

بدأت حرب "أمل" ضد المخيمات الفلسطينية عام 1985 بعد سلسلة مواجهات عسكرية خلال الأعوام 1979 - 1984. وكانت أمل قد طوّقت مخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة في بيروت وعين الحلوة والمية ومية في صيدا ومخيمات البص والرشيديّة قرب صور.

بعد انسحاب "إسرائيل" عام 1985 من معظم الأراضي التي احتلتها، اتسعت رقعة نفوذ أمل في الجنوب وبيروت والضاحية الجنوبية وباتت المخيمات الفلسطينية تشكّل عائقاً أمامها. فبدأت حرب المخيمات التي

⁵⁴⁷ 20 Robert Hatem, *From Israel to Damascus*, California, Pride International, 1999, Chapter

كان من أسبابها أيضاً تنفيذ السياسة السوريّة المناهضة لياسر عرفات. وقدمت سورية أسلحة ومعدات للحركة.

كما أنّ حرباً أخرى اشتعلت في الفترة نفسها في بيروت الغربيّة بين أمل والحزب التقدمي الاشتراكيّ من ناحية وميليشيا المرابطون التي ورثت أسلحة فلسطينيّة. بدأت المعركة باقتحام ميليشيا الاشتراكيّ معقل المرابطون الذين مثلوا القوّة العسكريّة "السنيّة" الوحيدة في بيروت بعد مغادرة الفلسطينيين، في كورنيش المزرعة واحتلال إذاعة المرابطون "صوت لبنان العربيّ" ومسجد جمال عبدالناصر. ثم دخلت "أمل" المعركة وسيطرت مع "الحزب التقدمي" على مواقع المرابطين وأنهت نفوذهم.

وبعد أسبوع من بدء حرب المخيمات، قال نبيه بريّ في مؤتمر صحافيّ: "إنّ عودة الفوضى الفلسطينيّة إلى الجنوب ممنوعة. لا يحقّ لأحد بعد اليوم أن يحارب حتى آخر جنوبيّ"⁵⁴⁸. ولكن حرب المخيمات انعكست سلباً على أمل، إذ اعتبرها الرأي العام اللبنانيّ والعربيّ "حملة شيعيّة" على الفلسطينيين السنّة، وشد قضية العرب المقدّسة. كما أنّ المخيمات جاورت أحياء لبنانيّة سنّيّة في غرب العاصمة. فكان هناك تخوّف وقلق من تعاضم قوّة الشيعة في بيروت، خاصة بعد مهرجان حاشد في آب 1984 في بيروت الغربيّة، بمناسبة الذكرى السادسة لغياب الصدر، فجزع السنّة والمراقبون من كثافة الحضور وبروز قوّة الشيعة العسكريّة.

وكان مقاتلو أمل في حرب المخيمات صغار السن يفتقدون إلى التدريب فاستطاع الفلسطينيون حصاد مئات المهاجمين بأسلحتهم الفردية. كما صدّ الفلسطينيون الهجمات المتكررة من أيار 1985 وحتى صيف 1986 فلجأت أمل إلى دعم اللواء السادس في الجيش اللبنانيّ، دون أن تحقق انتصارات حاسمة. وأسفرت حرب المخيمات عن مقتل 2500 شخص من الجانبين اللذين وحّدهما حزام البؤس حول بيروت في يوم من الأيام قبل 1975 وذاقوا مرارة العدوان الإسرائيليّ معاً.

كانت حرب المخيمات بداية نهاية نفوذ أمل في بيروت والضاحية الجنوبيّة. ففي العام 1987، بلغ الغضب الشعبيّ في بيروت الغربيّة على أمل وكذلك ابتعادها عن القوى اليساريّة والفلسطينيين، إلى هجوم يساريّ - فلسطينيّ - سنّي لبنانيّ منظمّ ضد مواقعها في بيروت، كاد يتحوّل إلى مجزرة طائفية. ولكن عائلات بيروت السنّيّة والزعامات السنّيّة اعترضت على هذه المواجهة، وأنّ إنهاء هيمنة أمل لا يجب أن يعني عودة ميليشيا "التقدمي" والشيوعيين والفلسطينيين. ولذلك عادت القوات السوريّة إلى بيروت في شباط 1987 فأخلت أمل غرب بيروت وانسحبت إلى الضاحية.

في تلك الفترة كان جسم من نوع آخر يحلّ في وسط الشيعة، أكثر وهجاً وفعالية ونفوذاً من أمل، هو حزب الله.

L'Orient Le Jour, 22 May 1985. ⁵⁴⁸

صعود ميشال عون

في صيف 1988، قلق زعماء الموارنة أن تقع السلطة الفعلية في البلاد بيد رئيس الوزراء المسلم سليم الحص لأنّ البرلمان لم يجتمع لانتخاب رئيس جديد للجمهورية. فاجتمعوا في القصر الجمهوري مساء 22 أيلول، وانتهوا إلى تسمية قائد الجيش ميشال عون رئيساً للوزراء إلى أن تسمح ظروف البرلمان بعقد انتخابات رئاسية.

وكان عون رجلاً طموحاً نشأ بين المسلمين في حي حارة حريك في ضاحية بيروت الجنوبية، ويتمتع بتجربة طويلة وعميقة في الجيش اللبناني، حيث كان التعاطي مع الجنود والضباط من مختلف الديانات شأنًا يوميًا. وكان عون يعتقد أنّ بالإمكان توحيد البلاد إذا أحسن قيادة جيش حسن التدريب بمعدات كافية. وكانت تجربته في التصدي لميليشيا الـ"التقدمي"، بقيادة وليد جنبلاط، وحلفائها من سوريين وفلسطينيين في سوق الغرب تبعث على التفاؤل باحتمالات النجاح. وكان جعج يرى أنّ الحرب في لبنان لم تنته ويجب تدعيم الصمود المسيحي، ولكن ميشال عون أصرّ على استعادة هيبة الدولة. فقد كان عون يعتقد أنّه قادر على بناء سلطة لبنانية مركزية نواتها الجيش لتقليص سلطة قوى الأمر الواقع ومؤمن بالإصلاح.

كان جعجع يدرك أنّ قيام حكومة عسكرية يرأسها عون ليست لمصلحة ميليشيا القوات وأنّ عليه التصرف بسرعة. وهكذا بعد أسبوعين من تسمية عون، اقتحمت قوات جعجع منطقة المتن التي كانت تحميها عناصر كتائبية تابعة لأمين الجميل، حتى أنّ منزل الجميل نفسه تعرّض للحصار يوم 3 تشرين الأول. ولم تمض أسابيع حتى اشتعل صراع عسكري بين "القوات اللبنانية" والجيش في 14 شباط 1989. وتطوّرت الأمور إلى حرب مفتوحة استمرّت حتى 1990. ففي آذار 1989، أعلن عون "حرب التحرير"، حيث كانت الشهور الستة التالية أسوأ مراحل العنف في حرب لبنان، لكن هذه المرة بين الجيش اللبناني من جهة والجيش السوري وحلفائه من جهة ثانية. وردّ السوريون وحلفاؤهم على الجيش بقصف عشوائي عنيف وحصار مريز، حيث قُتل ألف شخص وجُرح عشرون ألفاً.

وبعد فشل عون في حرب التحرير وإقفال المرافئ غير الشرعية ومواجهة ميليشيا جنبلاط، ومنع الجبايات التي مارستها القوات، كُلف الجيش مهام المعابر على المتحف والبرابرة والمونتي فيردي، وأغلق مكاتب القوات التي كانت تحضّر "الضرائب" في الجديدة وجونية.

مواقف عون الصلبة وتحركه السريع واستعماله الفعّال للجيش للمرة الأولى في معركة كبرى، أكسبه شعبية ليس في داخل الكانتون ذي الغالبية المسيحية فحسب بل على مستوى لبنان. حتى أنّ الكثيرين في صفوف الموارنة اعتبروا أنّهم عثروا أخيراً في عون على ضالّتهم أو القديس المفقود الذي سيقودهم بعد مصرع بشير ووفاء كميل شمعون.

في 31 كانون الثاني 1990، انفجر الوضع بين القوات والجيش اللبناني، بعدما اتهم جعجع عون بأنّه يقود "حرب إلغاء" ضد ميليشيا القوات ويهدّد صمود المسيحيين. وتمكّن عون من السيطرة على عين الرمانة والضواحي المسيحية الجنوبية التي كان يتمركز فيها 250 عنصرًا من القوات فسقط عدد كبير منهم قتلى.

ولكن جعجع نجح في السيطرة على ثكنات الجيش في عمشيت وصربا والصفرا وحالات والقاعدة العسكرية في جونبة. ودارت معارك في سن الفيل شرق بيروت وفي القليعات (كسروان). واستولى جعجع على عدد من الثكن شمال نهر الكلب ثم أفرغها من أسلحتها بقيمة 387 مليون دولار.

ثم لتحسين موقعه السياسي، أعلن جعجع في 9 نيسان 1990 موافقته على اتفاق الطائف واستعداده لتسليم مؤسسات الدولة في المناطق الشرقية للحكومة الشرعية وليس للعماد عون. فبدأ جعجع بالتقرب من رئيس الجمهورية الياس الهراوي مطالباً بالتدخل ضد عون⁵⁴⁹. كما أرغمت "حرب الإلغاء" عون على فتح خطوط مع إيلي حبيقة ووليد جنبلاط والسوريين للحصول على المحروقات والذخيرة بعد سقوط مخازن الجيش بيد قوات جعجع. واستغل حبيقة هذا الأمر لجمع المعلومات عن مواقع الجيش اللبناني في بعدا ورومية، وهي معلومات كانت بالغة الأهمية للجيش السوري حيث استعملت للقضاء على عون وقيادته.

في 13 تشرين الأول، وبالاتفاق مع الرئيس الهراوي والحكومة اللبنانية، قام الطيران السوري بالإغارة على قصر بعدا مركز قيادة عون. فغادر عون ولجأ إلى منزل السفير الفرنسي في ضاحية بيروت. وإذ قاوم الجيش اللبناني في مواقع ظهر الوحش والمونتي فيردي والحدث وبيت مري، رد السوريون بعنف ووقعت مجزرة بحق أفراد الجيش اللبناني والضباط، وانتشرت جثث الجنود في مواقع عدة⁵⁵⁰. كما سقط المئات في صفوف المهاجمين من الجيش السوري. وقام حبيقة بنقل زوجة عون وبناته من القصر الجمهوري إلى منزل السفير الفرنسي. ولم يغادر عون منزل السفير الفرنسي الا بعد صدور عفو في 27 آب 1991 سهّل مغادرته لبنان. فأقام في فرنسا ولم يعد إلى لبنان إلا في ربيع 2005.

حرب عون - جعجع أهدت الأذى بجهوزية المسيحيين العسكرية ودفعت قادة المقاومة لا سيما الذين يفضلون لبنان التقليدي، إلى القبول بـ"الصفرة"، أي بأي حل سياسي ينهي الحرب اللبنانية. وبعد إزالة عون، وتحجيم جعجع ومغادرة أمين الجميل إلى المنفى الباريسي، وبعد 8 أيام من العملية ضد عون، تعرّض داني شمعون أمين عام حزب الأحرار وعائلته لعملية تصفية، لم تسلم منها صدفةً إلا صغيرته تراسي، وذلك في 21 تشرين الأول 1990. فكانت نهاية مرحلة وبداية مرحلة طويلة من "إحباط مسيحي" استمرّ حتى ربيع 2005.

وفيما تمتع حبيقة بالرعاية السورية منذ 1985 وحتى اغتياله عام 2002، لم ينل أمين الجميل وميشال عون وسمير جعجع نصيباً من هذه الرعاية. بل دفعوا ثمناً باهظاً لعدم تعاونهم مع النظام الجديد في لبنان. وكانت ثمّة ملاحقات قانونية بحق كلّ منهم. واختار جعجع البقاء في لبنان والاستمرار في قيادة "القوات" بخطّ منفرد، إلى أن دخل السجن عام 1994. وخارج التطوّرات في بيروت والجبل، بقيت زعامة موارد الشمال معقودة لآل فرنجية بعد الحرب، ورثها سليمان طوني فرنجية حفيد رئيس الجمهورية السابق سليمان فرنجية.

وخارج نطاق المقاومة وإلى جانب نبيه بري، برز وليد جنبلاط في لبنان ما بعد الحرب.

⁵⁴⁹ الياس الهراوي، المصدر نفسه، ص.ص. 140-150.

⁵⁵⁰ http://www.syrianprison.com/text_html_en/ImportantDocumentsAndReports/13October1990.htm

انهيار العملة الوطنيّة

في مطلع الثمانينيّات، ظلّ المراقبون أنّ لبنان كوّن مناعة ضد الحرب وسيتعابش مع الأحداث إلى أن يعقل المتقاتلون ويصلون إلى السلام. وكانت الليرة اللبنانيّة رمزاً للتكيف مع الأحداث وللأمل في أن يستعيد لبنان "عصره الذهبي" فور صمت المدافع. ولكن بعد 1982، حتى رمز الأمل هذا انهار ومعه ذهب رجاء الانتعاش السريع، كما كان يحدث بعد كلّ أزمة في لبنان في الخمسينيات والستينيّات.

عوامل عدّة تراكمت منذ 1975 وحتى 1982 أدّت إلى انهيار العملة، ومنها الدمار الماديّ للاقتصاد الذي أصاب البنية التحتيّة والمرافق والمنشآت والمباني وهروب الرساميل والأدمغة والمهارات إلى بلدان أخرى واستمرار أعمال العنف. أمّا الأسباب المباشرة لانهيار العملة في الثمانينيّات فكانت المضاربة ضد الليرة وضعف مصرف لبنان وارتفاع الإنفاق الحكوميّ التضخمي وتراجع الناتج القوميّ وهروب الرساميل وتقصّ تحويلات اللبنانيين إلى ذويهم ومغادرة قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بيروت ومعها أموالها السائلة من الجسم المصرفي اللبناني. وبدءاً من العام 1984، أخذ الدولار منحىً تصاعدياً غير مسبوق فاجأ البلاد وعجّل بتضخم أسعار لا عهدة للبنانيين به منذ الاستقلال. وأصبحت مقدرة مصرف لبنان في التأثير على سلوك سوق القطع محدودة جدّاً ولم يستطع منع الهبوط غير المعوّق لليرة.

كان الدولار منذ 1985، يخرق رقماً قياسيًّا جديداً كلّ شهر أو بضعة أشهر تقريباً. فقفز إلى 6.51 ل.ل. في أوائل 1985 و18 ل.ل. في آخر 1985 و28 ل.ل. في شباط 1986. وخلال أسبوع واحد بلغ حجم تدخّل مصرف لبنان 500 مليون دولار (وهو مبلغ ضخم بمقاييس لبنان) وتمكّن من لجم سعر الدولار فتراجع إلى 19 ل.ل. ولكن كانت الصدمة أنّ السوق امتصّ التدخّل الهائل خلال ثلاثة أسابيع ليعود سلوك الدولار إلى الوتيرة السابقة نفسها. ففي نهاية 1986، وصلت قيمة الدولار في سوق بيروت إلى 87 ل.ل.، مقارنة بـ18 ل.ل. في نهاية 1985. ثم بدأت قفزات خطيرة عام 1987، إذ بدأ العام عند 87 ليرة مقابل الدولار ثم في حزيران 1987، بدأ سوق القطع يشهد قفزات يوميّة في سعر الدولار وصلت إلى مستوى هستيري في تشرين الأول. ففي يوم الخميس أول تشرين الأول 1987، افتتح عند 287.25 ل.ل. وأقفل يوم الجمعة على 500 ل.ل.⁵⁵¹. وهكذا يكون الدولار الأميركيّ قد ارتفع خلال العام 1987 من 87 ل.ل. إلى 455 ل.ل.⁵⁵².

وساهم انتخاب الياس الهراويّ رئيساً للجمهورية عام 1989 والمسعاي لتطبيق اتفاق الطائف بتحسّن في سوق القطع فتراجع سعر الدولار إلى حدود 500 ل.ل. - 600 ل.ل. في الأشهر الأولى من 1990. ولكن غزو العراق للكويت في آب 1990 وامتناع ميشال عون عن التسليم برئاسة الهراويّ والحكومة المنبثقة عن اتفاق الطائف، دفع الدولار مجدّداً إلى مستويات غير مسبوقة، حيث وصل إلى 1250 ل.ل. و1400 ل.ل. لم يكن السلام النسبيّ عام 1990 كافياً؛ إذ كان اقتصاد لبنان في حالة خراب والدولة مفلسة والبلاد بحاجة ماسة إلى تدفّقات كبيرة من الأموال. وبسبب غياب هذه التدفّقات ورغم الحالة الأمنيّة المستقرّة نسبياً،

⁵⁵¹ النهار العربي والدولي، تقرير اقتصادي أسبوعي خلال شهري تشرين الأول وتشرين الثاني 1987.

⁵⁵² عُشّان العيّاش، ص. 101.

كان سعر الدولار مرتفعاً في نيسان 1991 يتداول عند 945 ل.ل. مع تراجع نسبي إلى 892 ل.ل. في صيف 1991 بسبب مساعدات من المملكة العربية السعودية، أحد عرايي اتفاق الطائف، بلغت مئات الملايين من الدولارات⁵⁵³، وعود بالمساعدة من ألمانيا وإيطاليا. ولكن في شباط 1992، احتدمت معارك بين الاحتلال الإسرائيلي والمقاومة اللبنانية في جنوب لبنان، ما هزّ البلاد ووتر الأوضاع. فقفز الدولار إلى 1400 ل.ل. ليستقرّ على 1150 ل.ل. في آذار 1992. ولئن ركبت الحركة الاقتصادية وفشلت حكومة عمر كرامي في إطلاق الإعمار وإنهاض البلاد، عاد ضغط التضخم وأدى إلى انفجار جديد في سوق القطع في نيسان وأيار 1992، إذ وصل الدولار إلى 2600 ل.ل. ودفع التحرك الشعبي حكومة كرامي إلى الاستقالة وإلى وصول رجل الأعمال السعودي اللبناني رفيق الحريري إلى سدة رئاسة مجلس الوزراء. فتراجع الدولار نهاية 1992 إلى 1838 ل.ل. وخلال سنوات قليلة تمكّنت الحكومة ومصرف لبنان من تثبيت النقد عند 1500 ل.ل. وبقيت سياسة التثبيت هي السائدة.

⁵⁵³ "السعودية تمنح لبنان 60 مليون دولار"، جريدة الحياة، 6 نيسان، 1991.

26 | العراق يغزو الكويت

كان إسقاط ميشال عون في لبنان جزءاً من مكافآت ترضية لسورية بعد موافقتها على المشاركة في الحملة الأميركية العربية لتحرير الكويت من الاحتلال العراقي عام 1990، خاصة أن العراق كان يدعم ويسلح حكومة عون المناهضة لسورية.

لقد توهم صدام عام 1988 أن العراق خرج منتصراً من الحرب مع إيران وأخذ يتصرف كزعيم للعرب وحامي بوابتهم الشرقية، وبدأ يضغط على الدول العربية الغنية لمساعدته على زيادة أسعار النفط ومحو ديون العراق. ولكنه استمر أيضاً في برنامج تسلح فلم يقلص من حجم جيش المليون. ولم تنظر إليه الدول العربية على أنه حامي الأمة العربية، بل إنه يهدد الكويت وسورية ويشعل الوضع في لبنان، حيث شاهدوا على التلفزيون عامي 1989 و1990 آثار الأسلحة الميدانية الضخمة التي قدمها العراق للقوات اللبنانية وللعماد عون في لبنان بغية محاربة سورية.

في 17 تموز 1989، وبعد فشله في إجبار الكويت على تخفيض إنتاجها من النفط، أطلق صدام تحذيراً ضدها، واعتبر تصرفها جزءاً من مؤامرة تستهدف شعب العراق لتجويعه⁵⁵⁴. وكانت الكويت تنسق تحركاتها الاقتصادية والديبلوماسية مباشرة مع واشنطن. ففي 22 تشرين الأول 1989، زار مسؤولون عسكريون كويتيون واشنطن واجتمعوا مع الاستخبارات الأميركية واتفق الطرفان على التعاون وعلى ضرورة استغلال الأزمة الاقتصادية في العراق لإزاحة نظام صدام بعدما انتهى دوره بنظر الأميركيين⁵⁵⁵. وفي بداية العام 1990 تعرض صدام لمحاولة اغتيال في وقت ازدادت ضده الحملات الإعلامية الأميركية. فأيقن وهو الذئب المجرب أساليب المخابرات الأميركية في قلب الأنظمة بأن هناك فعلاً مؤامرة ضده. وفي شباط هاجم في حديث تلفزيوني أميركا ووجودها العسكري في الخليج وأن البترول يجب أن يكون بأيدي العرب يقودهم العراق. كلما زادت عزلة العراق الدولية كان العراق يتخوف من اعتداء إسرائيلي بدعم أميركي. إلى درجة أن صدام أقدم في الثاني من نيسان 1990 على إعلان موقف لم يجرؤ عليه زعيم عربي من قبل؛ إذ ظهر في مؤتمر صحافي وأعلن بتحد بأن العراق يملك فعلاً أسلحة دمار شامل والمقدرة على إنتاج أسلحة ذرية، وقال إن الصواريخ العراقية "ستحرق نصف إسرائيل" إذا اعتدت على العراق". فهز هذا الموقف المنطقة وتصدّرت نشرات الأخبار. وانصبت أنظار العالم على العراق، واتهمت واشنطن صدام بأنه يلعب بالنار.

في أيار 1990 أوقفت أميركا تقديم القروض إلى العراق ورفعت الكويت إنتاج النفط مجدداً. فقرّر عندها العراق أن خطر الكويت أصبح مثل خطر "إسرائيل". وكانت الدول العربية تستعدّ لقمة طارئة في بغداد⁵⁵⁶، ووافقت الكويت على الحضور. وفي هذه القمة في 28 أيار 1990، ألقى صدام خطاباً نارياً هاجم فيه الكويت والإمارات لأنهما تنتجان كميات من النفط أكبر من حصة الأوبك. وأن هذه الزيادة تؤدي إلى خسائر فادحة للعراق ما يشكل حرباً اقتصادية تشنها الكويت ضده. فأثار خطاب صدام زعر القادة العرب في القاعة وسعوا إلى ترطيب الأجواء. أما أمير الكويت فلم يتزحزح ولم يبدُ عليه أي تأثر من خطاب صدام. وحاول بعض الزعماء العرب إقناع الكويت التريث في المطالبة بديونها والالتزام بحصتها في الأوبك وعدم الضخ من

Thabit Abdullallah, *Dictatorship, Imperialism, and Chaos: Iraq Since 1989*, Zed Books, London, 2006, pp. 56-61.⁵⁵⁴

Said Aburish, *Saddam*, p. 271.⁵⁵⁵

⁵⁵⁶ كان الاتحاد السوفياتي قد انهار في ذلك العام واستعدت "إسرائيل" لاستقبال مليون يهودي من جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابقة.

حقل الرميلة الحدودي. ولكن ردّ أمير الكويت جاء قوياً لا يتراجع، حيث قال إنّ بلاده لن تخفّض الإنتاج وإنّ للكويت الحق في الضخ من حقل الرميلة وإن على العراق أن يدفع ديونه حتى آخر فلس. وهي مواقف متشدّدة لم تعترف بالحدّ الأدنى من مطالب العراق⁵⁵⁷.

كما فشل اجتماع القمة السريّ في تقريب وجهات النظر. فحدثت مشاورات إضافية لتلبيّن المواقف وفي اليوم التالي وقف أمير الكويت إلى جانب صدام في محاولة لتطبيب الجو واقترح أن يبدأ البلدان مباحثات بدءاً بحل لرسم الحدود واعتراف العراق بالكويت وحدودها وهو لم يفعل منذ 1960. وبعد القمة قبل العراق بحل عربيّ ووظف الجهد لهذا المسعى. ولإبداء حسن النية أرسل صدام وفداً في جولة على الدول العربيّة النفطية لإقناعها بخفض الإنتاج. ولكن الكويت أبقت على سياستها النفطية المتشدّدة ورفضت مقترحات الوفد. فبدأ كلام الأمير لصدام حول ترميم العلاقات وكأنّه لكسب الوقت. وفي الوقت نفسه منعت الكويت الطيران المدنيّ العراقيّ من التحليق في سماءها⁵⁵⁸.

في اجتماع عام لدول الخليج في جدّة يوم 10 تموز، عادت الكويت وتعهّدت بالتزام حصتها في أوبك ولكن لفترة ثلاثة أشهر فقط. فتبخّرت الصورة الإيجابية بالنسبة لمستقبل الاقتصاد العراقيّ وهبطت عملته بنسبة 50 في المئة خلال أيام. ورأى العراقيّون في تصرّفات الكويت الإمارة الصغيرة أنّها لا تكترث لبلادهم وتفعل ما يحلو لها لأذية العراق. وقدمت بغداد شكوى إلى جامعة الدول العربيّة ضد الكويت في 15 تموز، جاء فيها أنّ كلّ خفض في سعر البرميل بقيمة دولار واحد يسبّب خسارة مليار دولار سنوياً للعراق وهو في أوج أزمته الاقتصاديّة. ومضت شهور ولم تتحرّك الجامعة. فأدرك العراق أنّ العرب مغلوبون على أمرهم وأنّ فقط أميركا تملك المفتاح لردع الكويت عن سياستها النفطية وإذا لم تفعل فعلى العراق التصرف بما يضمن مصالحه الوطنيّة. ولجسّ النبض الأميركيّ التقى صدام سفيرة الولايات المتّحدة في بغداد إبريل غلاسبي يوم 25 تموز 1990. وفي اللقاء شكّا صدام من الضخ الزائد للنفط الكويتي بتشجيع من واشنطن وأنّ هذا يرقى إلى حرب اقتصاديّة على العراق. وسأل صدام ماذا فعل العراق ليستحق كلّ هذا العقاب وخاصة أن العلاقات بين بغداد وواشنطن مرّت بمراحل ممتازة. وهنا نطقت غلاسبي بجملة فسرها صدام بأنّها موافقة أميركيّة على نيّاته تجاه الكويت. إذ بعدما استفاض في تفاصيل خلافاته مع الكويت وإضطرار العراق لمعالجة الأمر، قالت غلاسبي "إنّ الولايات المتّحدة لا تتدخّل في الخلافات العربيّة". وهو كلام لديبلوماسيّ كمن لا يريد الخوض في الموضوع. ولكن فسّر صدام قولها على أنّه ضوء أخضر من واشنطن. واطمأن أكثر عندما تسلّم رسالة من الرئيس جورج بوش الأب في 27 تموز يؤكد فيها صداقة البلدين.

ولكن صدام لم يخلد إلى الراحة من الموقف الأميركيّ تماماً؛ إذا كانت واشنطن تعطيه الضوء الأخضر، فما سرّ عدم زحزحة الكويت عن موقفها المتصلّب؟ وما هو مصدر ثقتها بالنفس في وجه تهديده باستعمال القوّة؟ أليس ثمّة تطمين أميركيّ للكويت؟

⁵⁵⁷ مروان اسكندر، غيوم فوق الكويت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1991.

⁵⁵⁸ Charles Tripp, *A History of Iraq*, Cambridge, Cambridge University Press, 2002, pp. 248-253.

غزو الكويت

استمرت الوساطات العربيّة حتى اللحظة الأخيرة قبيل غزو العراق للكويت. إذ دعت السعودية الطرفين إلى اجتماع في جدّة في 31 تموز 1990. وحضرت الاجتماع وفود رفيعة المستوى ضمّت نائب الرئيس العراقيّ عزت إبراهيم وولي العهد الكويتي سعد الجابر الصباح. ورأس الاجتماع ولي العهد السعوديّ عبدالله بن عبد العزيز. وبدأ الاجتماع بعتاب وديّ وغسل القلوب، ولكن عندما بدأ الكلام الجدي انقلب الوضع إلى حرب كلامية مخيفة واتهامات متبادلة. وقيل إنّ لغة بذئثة استعملت في هذا الاجتماع وإنّ التهديدات كانت علنيّة وبشكل غير مسبوق. حتى أنّ الشيخ الكويتي أعطى تحذيراً من ناحيته أيضاً: "لا تهدّدونا.. للكويت أصدقاء أقوىاء". وبعد فشل هذا الاجتماع بأربع وعشرين ساعة، وفي أول آب 1990، دخلت الدبابات العراقيّة الكويت واحتلتها بأربع ساعات⁵⁵⁹. وكان المأزق العراقيّ أنّ العائلة الحاكمة فرّت من الكويت ومعها الشرعيّة الدوليّة التي وقفت إلى جانب أمير الكويت. وبعد أيّام كان أمير الكويت يقف إلى جانب الرئيس بوش الأب في البيت الأبيض وهذد بوش بعظائم الأمور وأنّ عمل العراق لن يمرّ. وسرعان ما استنكر العالم احتلال الكويت وأعتبر العمل العراقيّ خارجاً على القانون الدوليّ.

وأصدر مجلس الأمن القرار 660 الذي ندّد بالغزو وطالب بالانسحاب الفوري وهذد بفرض عقوبات على العراق. وتدخل الملك حسين لدى صدام الذي وعده بانسحاب قريب. وأصدرت موسكو وواشنطن بياناً مشتركاً طالب بانسحاب عراقّي غير مشروط واستعادة سيادة الكويت وفرض حظر على بيع السلاح إلى العراق. وطلبت واشنطن من السعودية وتركيا وقف ضخ النفط العراقيّ عبر أراضيها، وبدأت البارجات الأميركيّة تتحرك نحو الخليج⁵⁶⁰.

وفي خطّ موازٍ حصل اتفاق على لقاء في السعودية في الخامس من آب، يجمع مبارك والملك فهد وصدام والملك حسين بهدف إخراج الجيش العراقيّ من الكويت. وأقنع حسين صدام أن يعلن الانسحاب من الكويت، فيما أكد الملك فهد أنّ السعودية تريد حلاً عربياً ولا تريد تدخلًا أجنبيّاً في الأزمة⁵⁶¹. ولكن قبل الاجتماع ادعى مبارك أنّ صدام قد وعده أنّه لن يقوم بعمل عسكريّ ضد الكويت وهاجم صدام بشدّة لأنّه "كذب عليه" وبدء وصول وحدات عسكريّة مصريّة إلى السعودية لمواجهة العراق. هذا التصعيد المصريّ أقلق العراق وأدّى إلى تراجع صدام عن تعهده لحسين بإعلان الانسحاب. فغضب الملك الأردنيّ من الموقف المصريّ واتهم مبارك أنّ تصريحاته وأفعاله أفشلت المساعي العربيّة. وبعد فشل انعقاد هذه القمة طلبت السعودية العون الأجنبيّ بعدما زاد الوجود العسكريّ العراقيّ داخل الكويت إلى أكثر من مئتي ألف جنديّ. وأعلن الملك فهد أنّ لا حاجة إلى قمة ولن يلتقي صدام الا إذا انسحب العراق من الكويت بدون شرط. وفيما واصل الزعماء

Cordesman, Anthony, *The Iran-Iraq War 1984-1986*, Rosslyn Virginia: Eaton Analytical Assessments Centre, 1986.⁵⁵⁹

Charles Tripp, *A History of Iraq*, Cambridge, Cambridge University Press, 2002, pp. 259-263.⁵⁶⁰

⁵⁶¹ أنطوان مقدسي، حرب الخليج: اختراق الجسد العربي، رياض الريس للكتب والنشر، 1992.

العرب السعي إلى حلّ عربيّ، كان موقف مبارك خارجاً على الإجماع مفضلاً ردع العراق عسكرياً وهو الموقف الأميركيّ نفسه⁵⁶².

وحاول العراق تدارك الأمور فأعلن الاستجابة لنداء الملك حسين بدون قرار قمة. وبدأ الجيش العراقيّ فعلاً الانسحاب من الكويت. فصباح 5 آب انسحب عشرة آلاف جنديّ من الإمارة. واقترح الملك حسين استخدام الجيش الأردنيّ كعازل بين الكويت والعراق لتسهيل انسحاب الجيش العراقيّ. ولكن مبارك رفض اقتراحات حسين فوراً لأنّ المطلوب أميركيّاً وإسرائيلياً هو تدمير العراق ومبارك جعل نفسه جزءاً من هذا المطلوب، ومبادرة الملك حسين تعرقل ذلك.

في السادس من آب 1990، أقنعت مرغريت تاتشر الرئيس بوش الأب باتخاذ موقف قوي من العراق واستعمال القوّة العسكريّة. وفي اليوم التالي وصل ديك تشيني وزير الدفاع الأميركيّ إلى الرياض والتقى الملك فهد وطلب منه قبول قوات أميركيّة في السعوديّة ضد غزو عراقيّ محتمل. فأدرك العراق أنّ عروضه الجديّة بالانسحاب لا تلقى تجاوباً. فأعلن صدام في 8 آب عدم الانسحاب وأنّ الكويت عادت إلى العراق وهي المحافظة رقم 19 في الجمهوريّة العراقيّة.

وانعقدت قمة عربيّة بديلة في القاهرة ترأسها مبارك الذي استقرّه حضور طه ياسين رمضان وطارق عزيز إلى القاهرة لتمثيل العراق. وأثناء الجلسة جدّد الملك حسين اقتراح حلّ عربيّ يؤدي إلى إعادة الأمور، كما كانت عليه قبل أول آب 1990. ولكن مبارك قمع الملك حسين بقوّة. وحاول عرفات اقتراح تشكيل لجنة وساطة فأسكته مبارك أيضاً. فردّ حسين بعنف على مبارك وتشاجرا. ثم أخذ أعضاء الوفدين الكويتي والعراقيّ يتبادلان الشتائم في القاعة وأصيب أمير الكويت بالدوار فنُقل إلى خارج القاعة. وكان الملك حسين عندها قد انفجر غضباً وهاجم الرئيس المصريّ بأنّه تعهّد له قبل الاجتماع بحلّ عربيّ للأزمة، ولكنّه في الحقيقة ينقذ المخططات الأجنبيّة. وظهر الهدف المصريّ من القمة، إذ قام الوفد المصريّ بتقديم ورقة تم تنسيقها مع واشنطن ولم يرها أحد من الوفود العربيّة للتصويت عليها، تقضي بإرسال "قوات عربيّة" للدفاع عن السعوديّة ضد العراق. وبهذه الطريقة يتمّ الحصول على شرعيّة عربيّة غير مباشرة لضرب العراق. فوافقت 12 دولة فقط، ما ناقض شرعة الإجماع في قانون الجامعة العربيّة. ويقول محمد حسنين هيكل⁵⁶³ إنّ مبارك لعب دوراً كبيراً في التمهيد لإرسال قوات أميركيّة على وجه السرعة ضد العراق قبل أن يقوم الشارع العربيّ بتأييد الرئيس العراقيّ. فالرئيس المصريّ لم يبد أي استعداد للإصغاء إلى حلول عربيّة تخرج العراق سليماً، حتى أنّه بعد القمة التقى وفداً أميركيّاً وهاجم الملك حسين واقترحاته التي كادت تؤدي إلى حلّ عربيّ للأزمة يخدم الكويت والعراق معاً.

وصدر قرار مجلس الأمن رقم 661 في 6 آب 1990، فإرضاً لسلسلة عقوبات قاتلة على العراق، أهمّها منعه من تصدير النفط. وكان هذا القرار كارثة على الشعب العراقيّ. ورغم أنّ الحكومة العراقيّة عرفت فوراً الوقع الإنسانيّ للعقوبات على شعب العراق وعمدت إلى إقامة شبكات لتوزيع الأغذية والأدوية والمساعدات، إلا

⁵⁶² بيار سانجر وأريك لوران، حرب الخليج الملف السريّ، 1992، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

⁵⁶³ محمد حسنين هيكل، حرب الخليج وأوهام النصر، شركة المطبوعات، بيروت.

أنها لم تفتن لخطورة القرار 661 ووقعه التدميري الكوارثي على البلاد. لقد رفض العراق التعامل مع القرار الدولي وصمت ست سنوات حتى وافق أخيراً العمل بموجب برنامج النفط مقابل الغذاء. وكانت نتيجة توقف إنتاج النفط خسارة العراق 140 مليار دولار من عائدات النفط وتوقف عمليات الاستثمار في قطاع النفط العراقي.

ومع تحضيرات غربية لضرب العراق، بدأ تحرك الشارع العربي والعالمى ضد الحصار الذي أوقف صادرات النفط وقلص واردات الغذاء التي يحتاج إليها شعب العراق. وفي الوقت نفسه كانت الطائرات العسكرية الأميركية تصل المطارات السعودية معدّل واحدة كلّ عشر دقائق. وفيما تابع العراق سحب جيشه تدريجياً خلال آب وأيلول 1990، وصل حجم الحشد العسكري الحليف في السعودية إلى ثلاثة أرباع المليون جندي. واختلف الوضع عام 1990 عمّا كان عليه عام 1980، إذ لم يعد للعراق أي حليف عربي أو دولي هذه المرة، باستثناء اليمن والأردن والفلسطينيين. وكذلك شكّل انضمام سورية للتحالف الدولي ضد العراق اكتمالاً للصورة. وكان المنطق السوري أنّ العراق هو خصم دمشق التقليدي وقبول سورية هو فقط إخراجها من الكويت وستلقى مباركة أميركية ودولية لوجودها في لبنان والقضاء على حكومة العماد ميشال عون الموالية للعراق، والحصول على مساعدات مالية سعودية وكويتية.

لقد استعمل المال بكثرة لشراء الحلفاء وخصّصت الكويت 22 مليار دولاراً لدفع تكاليف التحرير. كما أنّ السعودية أكّدت لواشنطن استعدادها للمساهمة المالية. وحصلت أميركا على أموال من دول عديدة أخرى كألمانيا واليابان "لإنقاذ العالم من صدام". ودفعت واشنطن مبلغ سبعة مليارات دولار لمصر و10 مليارات لتركيا منها 8 مليارات مساعدات عسكرية. كما أنّ واشنطن والسعودية والكويت وعدت روسيا بمساعدات مالية بلغت 6 مليارات دولار لقاء موافقتها ضد العراق. وقامت الدول الصناعية الكبرى بشطب ديون مصر الخارجية البالغة 10 مليارات دولار، في حين قدّم مجلس التعاون الخليجي معونات مالية لمصر وسورية بلغت 5 مليارات دولار.

حرب الخليج

ضغطت واشنطن على أعضاء مجلس الأمن لاستصدار قرار استعمال القوة ضد العراق. فرشت الصين وأثيوبيا وكولومبيا للتصويت لصالح القرار. وأثناء التصويت رفع السفير اليمني عبدالله الأشتل يده مصوّتاً ضدّ القرار. وما أن خفض يده حتى دنا منه دبلوماسي أميركي وقال له: "اختيارك بالتصويت ضد القرار سيكون الأعلى كلفة لبلدكم". وفي ما بعد قامت الولايات المتحدة ودول أخرى بالغاء مساعدات اقتصادية لليمن، أفقر دولة عربية. ولمزيد من معاقبة اليمن على مواقفه المؤيدة للعراق، قامت العربية السعودية بطرد 800 ألف عامل يمني يعملون في أراضيها منذ عقود، وهي كارثة إنسانية لم تلق أي اهتمام من الإعلام الغربي. بل إنّ الإعلام الغربي جنّد كلّ طاقاته ضد العراق فاستعاد أشباحاً مهملة تعود إلى 10 سنوات سابقة، وذرف دموعاً على

ضحايا صدام وأكراد حلبجا وعلى ضحايا الحرب ضد إيران، رغم أنّ في كلّ سائحة كان للغرب اليد الطولى في السماح بارتكاب الشنائع⁵⁶⁴.

في نهاية تشرين الثاني 1990 أصدر مجلس الأمن القرار 678 القاضي باستعمال كلّ الوسائل ضد العراق ويعطي مهلة حتى 15 كانون الثاني 1991 للانسحاب من الكويت. وعرضت القيادة العراقية الانسحاب من الكويت لقاء عدم التعرّض للقوات المنسحبة. ولكن الولايات المتحدة رفضت كما رفضت وساطات فرنسية وروسية وعربية للسماح للعراق بالانسحاب. كان المطلوب تحجيم العراق والقضاء على قوّته العسكرية. واستمرّ الوضع المتوتّر حتى 15 كانون الثاني 1991. فأضاف العراق كلمة "الله أكبر" على العلم العراقي وجملة "يا عراق يا منقذ العرب" إلى النشيد الوطني. واستعدّ للأسوأ.

ولم يضيّع الأميركيون الوقت، بل بدأوا الحرب يوم 16 كانون الثاني بغارات متتالية على أهداف داخل العراق: القصر الجمهوري، وزارة الدفاع، المصانع البتروكيماوية، الجسور، محطات الطاقة، المطارات، مصافي البترول، محطات التكرير الصحية، مصانع الأغذية، خطوط السكة الحديدية، مصانع النسيج، ومعالم وأبنية ومنشآت مختلفة. ولم يستطع العراق الرّد على هذا الهجوم الساحق ولم يستعمل أسلحة كيميائية مكتفياً بضرب صواريخ سكود ضد "إسرائيل" والسعودية. ولكن هذا الفعل اليتيم لم يغيّر في مسيرة الحرب السريعة التي تشهّنها قوّة جبارة عاتية، تستخدم فيها كميات كثيفة من القصف غير المسبوق ولا حتى في الحرب العالمية الثانية⁵⁶⁵.

لقد استعملت قوات التحالف النابالم واليورانيوم المشع في قصفها واستهدفت مواقع مدنيّة في العراق، كمحطات الكهرباء ومحطات الريّ الزراعيّ والمدارس والمستشفيات، فسقط آلاف الضحايا من المدنيين العراقيين واشتدت الضائقة المعيشية وانقطعت المواد الغذائية الأساسية. ودمّرت الغارات طرقاً حيوية وجسوراً ما أضّر بحياة العراقيين وزاد من مصاعبهم. وأدّى قصف المستشفيات ونقص المواد الطبية إلى موت آلاف المدنيين. وعملت وسائل الإعلام الغربية على حجب حقيقة المعاناة العراقية. كما أنّ غارة على ملجأ في بغداد قتلت 400 مدني لم تلقّ اهتماماً⁵⁶⁶. ولكن العراق أزد الحفاظ على المعنويّات فتكلّم صدام عن حرب "أمّ المعارك" ضد الولايات المتحدة فيما البلاد تتعرّض لدمار مأساويّ وجيش العراق ينهار ويندثر في الصحارى. بلغ عدد الطلعات الجوية منذ 16 كانون الثاني وحتى 24 شباط، موعد الهجوم البري الأميركيّ، 110 آلاف طلعة أنزلت 85 ألف طن من المتفجرات على مدن العراق. فيما كان غلاة الحرب في واشنطن يطالبون بتحويل العراق إلى ملعب فوتبول. وفي هذه الأثناء كان الجيش العراقيّ يعاني من الجوع والتعب والإعياء الشديد، حيث صمدت بعض الوحدات لأيام عدة بدون طعام. وفي حادثة عند الحدود العراقية - السعودية قصف الجيش الأميركيّ لساعات عدّة آلاف القذائف على المواقع العراقية ثم استعمل جرافات عملاقة كانت تقلب الرمال كالجبال العالية على متاريس الجنود العراقيين فتدفنهم أحياء. وصرّح الجنرال الأميركيّ أنّ الجرافات طمرت عميقاً حوالي 8400 جنديّ عراقيّ في هذا الموقع.

William Polk, *Understanding Iraq*, New York, HarperCollins, 2005, pp. 143-145.⁵⁶⁴

⁵⁶⁵ محمد حسين هيك، حرب الخليج أوهم النصر، 1996.

⁵⁶⁶ وهو تكتيك استعملته الصحف الأجنبية أثناء الغزو الإسرائيليّ للبنان، فكان خبر مقتل مئات اللبنانيين يبدأ بنفي الناطق الإسرائيليّ للخبر.

قبل الهجوم البري بأسبوع أذاع مجلس قيادة الثورة قبول العراق بقرار مجلس الأمن 660 القاضي بالانسحاب غير المشروط من الكويت، أي بدون ضمانات كان يطلبها العراق في السابق. ولكن بوش وصف فوراً إعلان العراق بالخادع ولحفظ ماء الوجه أمام الرأي العام العالمي، وافق بوش على منح العراق 48 ساعة للانسحاب وإلا واجه هجوماً برياً ساحقاً. ولكن المصيبة كانت أن مئات الألوف من جنود العراق كانوا في الكويت واحتاج انسحابهم إلى أسابيع. ومع ذلك صدر أمر للقوات العراقية بالانسحاب. فأخذت الوحدات تنسحب بشكل تفهقر كبير وغير منظم. ولم ينتظر الأميركيون 48 ساعة بل باشر الجيش الأمريكي بقوات كبيرة في خرق العراق من داخل الأراضي السعودية، قاطعاً الطريق على معظم القوات العراقية التي وقعت فريسة القصف الجوي والهجوم البري الذي بدأ فعلاً في 24 شباط 1991. مئات الطائرات الأميركية هاجمت القوافل الهاربة من الجو بأسلحة متنوعة من صواريخ وقنابل ضخمة أسرت مئات الألوف في ممر ضيق. وعملت طائرات ال إف 16 والبي 52 قصفاً وتدميراً لمدة أربعين ساعة حتى أمر بوش وقف المجزرة في 28 شباط. وكانت النتيجة أن عشرات الألوف قضاوا حرقاً في آلياتهم. وبعد المجزرة بحق القوات العراقية المنسحبة، بدت الطريق الدولية رقم 80 التي تربط مدينة الكويت بمدينة البصرة مقبرة عملاقة امتدت عشرات الكيلومترات وعلى جانبيها آلاف السيارات والآليات العسكرية المحطمة أو المهجورة. لقد حاول مغادرة الكويت ليس فقط الجيش العراقي بل آلاف المدنيين أيضاً، على متن أكثر من مئتي ألف آلية مدنية وعسكرية من صفوان إلى البصرة وبدون غطاء جوي أو أي دفاعات أرضية وتحت رحمة أساطيل الجو الفتاكة.

ووصف باتريك سيل هزيمة العراق بأن "العالم نسي أن العراق هو دولة عالم ثالث"، وأن العراق لم يستحق واحداً في المئة من القوة التي جردتها الولايات المتحدة عليه: ولكن الإعلام الأمريكي نجح في تصوير الحرب أنها ضد شخص واحد هو صدام حسين في حين كان الهدف تدمير شعب العراق بكامله. أما عن ملايين الضحايا من الحروب التي أعادت العراق إلى العصر الحجري، وعن نهب ثرواته وتدمير منشآته والقضاء على أجياله، فهذه خسائر جانبية كان على العراقيين قبولها "ممنناً لتحريرهم من صدام". بالمقابل لم يبلغ عدد القتلى الأميركيين في حرب تحرير الكويت أكثر من 97 والجرحى 213. ولم يلحظ أحد أن الحرب الأميركية خالفت كل المواثيق الدولية المنظمة للعلاقات بين الدول في زمن الحرب. لقد كان تحرير الكويت أمراً أخلاقياً طبعاً ولكن الأسلوب كان في غاية المبالغة. وحتى بعد خروج العراق من الكويت، دخلت القوات الأميركية أراضيها ووصلت إلى نقطة جنوب مدينة الناصرية فأعلن بوش وقف إطلاق النار في 28 شباط ووقع قادة الجيش العراقي وثيقة الاستسلام في 3 آذار⁵⁶⁷. كان العراق يطالب الكويت قبل الحرب بتأجير جزيرتين على الخليج والامتناع عن استغلال حقل الرميلة العملاق، فجاء قرار الأمم المتحدة لرسم الحدود بين البلدين ملغوماً باقتراح الخبراء البريطانيين. فبدل أن يصدر قرار معتدل ينظر إلى مصالح البلدين، صدر قرار يعطي الكويت أكثر مما طلبت ويدفع بالحدود العراقية بعيداً عن ساحل الخليج. كما أعطيت الكويت السيادة الكاملة على حقل الرميلة⁵⁶⁸.

⁵⁶⁷ Hiro, Dilip, *From Desert Shield to desert Storm*, London, 1992.
⁵⁶⁸ حبيب الرحمن، حرب تحرير الكويت جذورها ومقوماتها، 2000، شركة المطبوعات.

27 | وحدة المسارات؟

سورية ولبنان والأردن ومنظمة التحرير

كان الرئيس الأميركي جورج بوش الأب قد وعد الدول العربية أنه بعد حرب الكويت وضرب العراق، ستعري واشنطن عملية جديدة للسلام بين العرب و"إسرائيل". وفي العام 1991، انطلق مؤتمر مدريد للسلام فانتعشت الآمال أن السلم بين العرب و"إسرائيل" قد بات قريباً وينسيهم مآسي العراق وحروب لبنان وفلسطين⁵⁶⁹.

شارك في المؤتمر ممثلون عن سورية والأردن ولبنان والفلسطينيين ومصر، ولكن تميّز الموقف السوري بالتمسك بالاستراتيجية السورية الجديدة في مواجهة "إسرائيل". وهذه الاستراتيجية التي تضمنت بناء جبهة عسكرية مشرقية تضم سورية ولبنان والأردن والفلسطينيين بعمق عراقي، قيام جبهة سياسية جوهرها "وحدة المسار" التي كانت تعني أن أي كيان مشرقي لن يذهب في صلح منفرد كي لا يضعف الآخرون فيصبح الجميع تحت رحمة "إسرائيل". ولذلك كانت وحدة المسار من وحدة المصير المشترك. وضمن هذه الاستراتيجية فإن سورية والأردن ولبنان والفلسطينيين لـ"إسرائيل" لا تكون فقط عسكرية بل تعني أيضاً منع أي من الشركاء الوقوع في فخ المفاوضات المنفردة مع "إسرائيل"⁵⁷⁰.

سبق لأميركا أن فصلت المسارات حيث قام كيسنجر بتبديد مؤتمر جنيف الذي جمع العرب في موقف واحد وفرض مسارات منفصلة لكل دولة عربية وكان هدفه عقد اتفاقات منفصلة بين مصر و"إسرائيل" أوصلت إلى معاهدة كامب دايفيد. كما أن خطة ريغن للسلام عام 1982 أيضاً تبنت أسلوب كيسنجر وحملت إمكانية جذب الأردن والفلسطينيين إلى محادثات منفصلة، واستثنت سورية، وهو أمر تعارض أيضاً مع مفهوم وحدة المسار. ثم جذبت "إسرائيل" الأردن ومنظمة التحرير في الثمانينيات إلى مشروع "المملكة المتحدة" الذي لم يلاقِ النجاح. ولذلك فمحادثات التسعينيات كانت مهددة أن تأخذ شكل فصل المسارات.

مؤتمر مدريد

في كانون الأول 1989 أعادت سورية علاقاتها مع القاهرة بعد قطيعة 12 عاماً. وفي أيار 1990، قام حسني مبارك بزيارة سورية، فكانت المرة الأولى التي يزور فيها رئيس مصري دمشق منذ آخر لقاء بين الأسد والسادات في تشرين الثاني 1977.

⁵⁶⁹ Rizkallah Hilan, "The effects of economic development in Syria of a just and long lasting peace", in Stanley Fisher, Dani Rodrik and Elias Tuma, *The Economics of Middle East Peace, Views from the Region*, Cambridge, Ma., MIT Press, 1993.

⁵⁷⁰ 5- David Butter, "Syria: building bridges", *Middle East Economic Digest*, vol. 30, no. 23, 7 June 1986, p. 4

Yair Evron, *War and Intervention in Lebanon: The Israeli - Syrian Deterrence Dialogue*, London, Croom Helm, 1987.

ثم تعاون البلدان على تنسيق الردّ العربيّ على غزو العراق للكويت وخاصة في مؤتمر القمة العربيّة العاجل يوم 10 آب 1990 وعلى خلق قوة ردع عربيّة تدافع عن السعودية في حال قرّر العراق غزوها أيضاً. وأرسلت سورية قوّة عسكريّة إلى الحدود السعوديّة - الكويتية والسعوديّة - العراقيّة بلغ حجمها 20 ألف جنديّ. وجنت سورية ثمار مشاركتها في تحرير الكويت، وأعادت علاقاتها مع بريطانيا في تشرين الثاني وحسّنت علاقاتها مع عدد من الدول الغربيّة.

وبعد هزيمة العراق في شباط 1991، بدت أميركا والغرب على استعداد للنظر في ملف الصراع العربيّ الإسرائيليّ والقضيّة الفلسطينيّة. وتوقّع العرب أنّ أميركا بقيادة بوش الأب ستخلق نشاطاً دبلوماسياً لحلّ النزاع وأنّ سورية ومنظمة التحرير ستكونان طرفاً في المفاوضات. ولكن عرفات كان قد وقف إلى جانب العراق في مسألة الكويت. ولذلك كانت منظمة التحرير في حالة ضعف يجعلها معرّضة للضغوط ولقبول حلول قد لا تكون تماماً لصالح الفلسطينيّين⁵⁷¹. كما أنّ هذه الفترة شهدت انهيار الاتحاد السوفياتيّ، حليف العرب القوي الذي كان يوازن الدعم الأميركيّ لـ"إسرائيل" وينافس سياسة واشنطن في الشرق الأوسط. فباتت الدول العربيّة كافة مضطرة للتعاون مع مساعي أميركا.

وفي نيسان 1991 أعلنت سورية شروطها للسلام التي تضمّنت الانسحاب الإسرائيليّ غير المشروط من الأراضي العربيّة حتى خط 4 حزيران 1967 واحترام حقوق الشعب الفلسطينيّ والاعتراف بدور الأمم المتّحدة في مؤتمر السلام. وحضر جيمس بيكر، وزير الخارجية الأميركيّة الذي أخذ مكان جورج شولتز، إلى دمشق في نهاية نيسان ليبدأ جولة مكوكية للتوصل إلى صيغة لمؤتمر دوليّ. ثم أعلن الأسد في 14 تموز ولأول مرّة منذ 1974 عن استعداد سورية لدخول مفاوضات سلام تحت مظلة قراري مجلس الأمن 242 و338. فوافقت "إسرائيل" على المشاركة أيضاً في 4 آب 1991.

مهّدت هذه التفاهات لانعقاد مؤتمر في مدريد في تشرين الأول حضره ممثلو لبنان ومصر وسورية و"إسرائيل" ووفد أردنيّ - فلسطينيّ مشترك بدون ممثلين لمنظمة التحرير. ولكن حكومة "إسرائيل" كانت بقيادة المتطرّف اسحاق شامير الذي شارك مرغماً. فبعد شهور من المفاوضات، رفضت "إسرائيل" في نيسان 1992 الانسحاب من الجولان مقابل معاهدة سلام مع سورية. فأعلن لبنان وسورية مقاطعة المفاوضات بعد خمس جولات.

ثم تبدّل الأمر بعد انتخابات "إسرائيل" في تموز التي نجح فيها حزب العمل، ليخرج شامير المتشدّد ويأتي اسحاق رابين رئيساً للحكومة. وفي آب 1992 لمّح رابين لببكر وزير الخارجية الأميركيّ عن احتمال انسحاب إسرائيليّ كامل من الجولان مقابل سلام كامل مع دمشق. فنجحت واشنطن في إعادة الطرفين إلى جولة سادسة من المفاوضات في واشنطن في 24 ايلول 1992. وبعد شهر ظلّ الجميع أنّ تقدماً قد حصل، الا أنّ الشيطان كمن في التفاصيل التي استغرقت مناقشتها حتى صيف 1993 دون أن تصل إلى اتفاق، بعدما أقدمت "إسرائيل" على غزو محدود لجنوب لبنان في تموز 1993.

As'ad Abu Khalil, "Syria and the Arab Israeli Conflict", *Current History*, vol. 93, 1994, pp. 83 -86.⁵⁷¹

في تلك الأثناء كانت المسارات الأخرى تُحدث تقدماً أسرع من التقدم على المسار السوري. وكان مكمناً الخطأ أن سورية قد تعهدت بأنها ستحترم تقدم المسارين الأردني والفلسطيني حتى على حساب المسار السوري - اللبناني. فكشف هذا التطور في الموقف السوري تراجعاً خطيراً مقارنة بموقف سورية المتشدد سابقاً تجاه منظمة التحرير والأردن قبل 1990. ولكن سورية أصرت بالمقابل على علنية المفاوضات وبذلك تستطيع أن تواجه الوفود العربية في حال قدموا تنازلاً. حتى حصل خرق على المسار الفلسطيني قاده شمعون بيريز وزير خارجية "إسرائيل"، وعُرف بالقناة السرية في أوسلو (عاصمة النرويج).

وقبل أن تقوم سورية بعمل لوقف تهافت المسار الفلسطيني، في 13 أيلول 1993 وقّعت منظمة التحرير على اتفاق اعلان مبادئ عُرف بـ"اتفاق أوسلو" سمح بحكم ذاتي فلسطيني محدود. فأعلنت سورية أنها ضد هذا الاتفاق السري المخادع الذي لا ينسجم مع مبدأ المسارات العلنية التي يمكن لسورية أن تواكبها وترضى عنها أم لا. فاتفق أوسلو خرج من قناة سرية، لـ"إسرائيل" فيها اليد العليا على الفلسطينيين الضعفاء. وإذ لم تتمكن سورية من محاربة اتفاق أوسلو مباشرة كما كان يحصل في السنوات السابقة فهي قامت بدعم الجبهات الفلسطينية المعارضة للاتفاق، كالجبهة الشعبية، للوقوف بوجه عرفات عزاب الاتفاق وخاصة بعدما وقّعه مع رابين في البيت الأبيض.

ثم عادت سورية بعد فترة مقاطعة إلى المفاوضات والتقى الأسد بالرئيس كلنتون في جنيف في 16 كانون الثاني 1994. إلى أن عادت الأمور إلى الجمود وتوقفت المفاوضات مجدداً في 27 شباط بعدما دخل متطرف يهودي يدعى باروخ غولدشتين مسجد الخليل وقتل 30 فلسطينياً. وكانت "إسرائيل" في تلك الفترة تضغط على سورية باستمرار لوقف دعمها للمقاومة في جنوب لبنان ضد الاحتلال الإسرائيلي وتطالبها بقطع إمدادات حزب الله لتثبيت صفاء نيتها في السلام مع "إسرائيل". وحضر وارن كريستوفر، وزير الخارجية الأميركي إلى المنطقة في نيسان لتقريب وجهات النظر. فـ"إسرائيل" تريد جدول الانسحاب من الجولان خلال خمس سنوات، في حين كانت سورية تصر على أن جدول الانسحاب لا يزيد عن 12 إلى 16 شهراً.

ثم عقد الأمور توقيع "إسرائيل" على اتفاق ثانٍ للحكم الذاتي مع منظمة التحرير في أيار 1994 وتوصلها إلى تفاهم على معاهدة سلام مع الأردن في حزيران. فاعتزمت سورية أن اتفاق حكم ذاتي مع الفلسطينيين يضر بوحدة الصف العربي تجاه الحل النهائي للصراع حتى لو كانت المفاوضات تتم بشكل ثنائي بين "إسرائيل" والفلسطينيين. كما انتقدت سورية الاتفاق على المسار الأردني على أنه خطوة إسرائيلية متعمدة أيضاً لمنع التوصل إلى حل شامل للصراع العربي الإسرائيلي.

كان خروج الأردن ومنظمة التحرير حرجاً وصعباً فسرته سورية أن "إسرائيل" خرقت استراتيجيتها المشرقة عبر المفاوضات ودفعت الأردن والفلسطينيين بعيداً عن سورية، ما سيؤدي إلى عزلة سورية وإضعافها تجاه "إسرائيل". وكان هذا هو هدف المفاوضات الحقيقي. وحاول كريستوفر تقريب وجهات النظر بين سورية و"إسرائيل". فزار دمشق في تموز وآب 1994. وقام دنيس روس، المنسق الأميركي للسلام، بطمأنة سورية أن أميركا لا تنظر إلى أن الاتفاقات بين "إسرائيل" والأردن والفلسطينيين تعني عدم إمكان التوصل إلى سلام سوري إسرائيلي. ولكن الوضع الداخلي في "إسرائيل" كان يتجه لمنع رابين من إعادة الجولان إلى سورية، إذ

كانت معارضة الانسحاب من الجولان كانت تأتي من صفوف حزب العمل أيضاً، رغم إبداء سورية نيات حسنة ورغم كلام الأسد غير المسبوق عن سلام كامل وسماع سورية لمئات اليهود السوريين بالهجرة. وزادت مخاوف سورية أن المفاوضات حول الجولان توقفت مجدداً في حين تواصل المسار الأردني، حتى وقّع الملك حسين مع رابين اتفاق سلام في واشنطن في 26 تشرين الأول 1994 برعاية كلنتون.

وكانت الإدارة الأميركية تُدرك أن سورية لم تحقق شيئاً بعد ثلاث سنوات من المفاوضات في حين كان الأردن ومنظمة التحرير يوقعان اتفاقات ثنائية. فقام كلنتون في اليوم التالي لتوقيع الاتفاق الأردني بزيارة إلى دمشق هي الأولى من نوعها لرئيس أميركي منذ زيارة نيكسون عام 1974. ولكن زيارة كلنتون كانت للضغط على الأسد للقبول باتفاق سلام وفق الشروط الإسرائيلية، الآن وقد بات الأردن والفلسطينيون خارج اللعبة ما يضعف الموقف السوري. فلم يوافق الأسد على طلب كلنتون لأنّ العرض الإسرائيلي لا يتضمّن انسحاباً كاملاً من الجولان ولا يتعاطى مع الحل النهائي، الذي يجب أن تُفصح "إسرائيل" نياتها الإقليمية وحدودها بشكل نهائي وتعالج القضية الفلسطينية.

وهكذا مرّ عام كامل حتى عادت سورية و"إسرائيل" إلى طاولة المفاوضات في آذار 1995 عبر سفيريهما في واشنطن. ونجح الطرفان في الاتفاق على مبادئ حول الإجراءات الأمنية وهو ملف "إسرائيل" الأهم (أي الأمن مقابل الأرض)، وأعلن للمرة الأولى موافقة "إسرائيل" على الانسحاب من الجولان. وساهم في إشاعة الجو الإيجابي تصريح بيريز في حزيران "أنّ الجولان هو أرض سورية"، وتصريح الرئيس الإسرائيلي عازر وايزمن أن المفاوضات مع سورية تدور على أساس انسحاب إسرائيل كامل إلى الحدود الدولية. ولذلك تحدّث الأسد علناً في الشهر نفسه عن السلام وأشار لـ "إسرائيل" بالاسم للمرة الأولى في حياته.

ثم التقى قادة الجيشين السوري والإسرائيلي في واشنطن في نهاية حزيران 1995 لبحث الإجراءات الأمنية وتفاصيل الانسحاب. وهنا برزت عراقيل إسرائيلية. فقد أصرت "إسرائيل" على أنها تريد الاحتفاظ بجبل الشيخ حيث بنت قاعدة مراقبة الكترونية، وجادلت أنها تريد الانسحاب فقط إلى حدود فلسطين الانتدابية وليس إلى حدود 1967، ما يُبعد سورية عن بحيرة طبريا وعن منطقة الحمّة. وحاولت سورية ملاقة التعنّت الإسرائيلي، فوافقت في تشرين الأول 1995 على منح "إسرائيل" حق مراقبة الجولان بالأقمار الصناعية ولكن لا أن تمتلك محطات ورادارت في جبل الشيخ بعد الانسحاب. وفجأة حصل ما لم يكن في الحسبان: إذ قام متطرّف يهودي باغتيال اسحاق رابين في القدس في تشرين الثاني 1995، وأصبح شمعون بيريز رئيساً للوزراء. وحتى لا يفقد بيريز زخم العملية التفاوضية أعلن أنّ التوصل إلى اتفاق مع سورية هو في قمة أولوياته. وشرع في تقوية الوفد الإسرائيلي للمفاوضات ورفع مستوى تمثيله وعدد المفاوضين، وعرض توسيع دائرة التفاوض لتشمل الشؤون السياسية والعسكرية. وتعاملت سورية بإيجابية مع بيريز حتى توصل الطرفان إلى إطار الحل. أمام هذا التطور الإيجابي دخلت واشنطن لتزيد الزخم ورعت محادثات في ميريلاند في كانون الأول 1995 استمرت إلى شباط 1996 لوضع نصوص الاتفاقات.

وكان بيريز يعاني من الأمر نفسه الذي عانى منه رابين من قبله وهو المعارضة الكبرى داخل "إسرائيل" للانسحاب وحتى من داخل حزب العمل. ولذلك عندما اقترب الطرفان من توافق حول الحدود، خفّف بيريز

من وتيرة التفاوض وقدّم موعد الانتخابات الإسرائيليّة إلى أيار 1996 على أمل أن يحظى بنتائج تقويّ الدعم الشعبيّ وتقوي حظوظ الاتفاق مع سورية. ولكن خطوات بيريز أزعجت الجانب السوريّ، خاصة أنّه لم يبق من عهد إدارة كلنتون سوى أشهر قليلة فيضعف الزخم. فزار كريستوفر دمشق في شباط 1996 وطمأن الأسد أنّ بيريز ملتزم بالوصول إلى اتفاق وأنّ الانتخابات ستقوي يده ويقدم تنازلات أفضل لسورية، وأنّ مهمّة ما يكفي من الوقت للوصول إلى اتفاق قبل الانتخابات الرئاسيّة الأميركيّة في تشرين الثاني 1996.

ولكن في الشرق الأوسط يجب اقتناص الفرص وعدم إطالة الوقت. ذلك أنّ العوامل شديدة التعقيد والمخاطر لا تسمح لأصحاب اللعبة مسكها كلّها. إذ في شباط وآذار 1996 وقعت سلسلة تفجيرات قامت بها "حركة المقاومة الإسلاميّة" حماس داخل "إسرائيل" أسفرت عن مقتل 50 إسرائيلياً وجرح المئات وأدت إلى تراجع المزاج الإسرائيليّ عن تأييد الانسحاب من الجولان. فقطع بيريز المفاوضات مع سورية إرضاءً للرأي العام الإسرائيليّ الغاضب، رغم النصيحة الأميركيّة بعدم فعل ذلك. ثم رفض الأسد حضور قمة "صانعي السلام" في آذار في شرم الشيخ رغم الضغوط الأميركيّة والمصريّة، والتي انعقدت لدعم موقف "إسرائيل" ضد حزب الله وحماس ودعم حملة بيريز الانتخابيّة. فخرج بيريز من هذه القمة وقد أصبح موقفه أكثر تشدداً تجاه سورية وصرّح أنّه لن يعود إلى المفاوضات ما لم تندد سورية صراحة بالإرهاب وتُقلل مكاتب المنظمات الفلسطينيّة المعارضة للسلام في دمشق وتكف عن دعم حزب الله.

وردت سورية بأنّها تندد دائماً بالإرهاب ولكنها لا تعتبر مقاومة الاحتلال الإسرائيليّ في الأراضي الفلسطينيّة المحتلة وفي جنوب لبنان إرهاباً بل مقاومة مشروعة يكفلها القانون الدوليّ. وسارت الأمور نحو الأسوأ، إذ إنّ بيريز أراد الخروج من عباءة الاعتدال التي اتهمه بها خصومه ليكسب الانتخابات. فشنّ حملة كبرى على لبنان في نيسان 1996 تحت اسم "عناقيد الغضب" بغية ردع حزب الله. ما جعل سورية تراجع حساباتها وتستنّج أنّ مطلب "إسرائيل" من سورية أن تردع حزب الله أو أنها ستقوم هي بذلك كان لتحقيق تفوق إسرائيليّ في لبنان وإضعاف سورية. ومن ثمّ فرض شروط في المفاوضات. ذلك أنّ ضرب حزب الله سينزع ورقة غاية في الأهميّة من يد دمشق ويعطي "إسرائيل" الأمن والاستقرار على حدودها مع لبنان. ولأنّ سورية لا تجرؤ على فتح جبهة في الجولان، فلن تعود "إسرائيل" ساعتئذٍ مضطرة إلى الانسحاب من الأراضي السوريّة ولا من جنوب لبنان طالما كلّ الجبهات باتت هادئة.

ولكن بيريز لم يقطع كلّ الخيوط مع سورية، بل حاول في حملته الانتخابيّة إقناع الرأي العام بفوائد الانسحاب من الجولان لقاء معاهدة سلام مع سورية، في حين كان خصمه الانتخابيّ بنيامين نتانياهو زعيم تكتل ليكود يردّد أنه في حال انتخابه رئيساً للوزراء فلن ينسحب من الجولان. ففاز التكتل اليميني في هذه الانتخابات وأصبح نتانياهو رئيساً للوزراء ما أصاب سورية بالخيبة. وندّدت سورية بالحكومة الإسرائيليّة الجديدة التي اعتبرتها "تكتلاً من الحاخامات والجنرالات والعنصريّين". ثم أعلن نتانياهو في جلسة منح الثقة في الكنيست في حزيران 1996 أنّ "إسرائيل" تقبل بالعودة إلى المفاوضات مع سورية ولكن بدون شروط. وهو يرفض "مبدأ الأرض مقابل السلام" ويستبدله بمبدأ "الأمن مقابل الأمن"، أي لا سلام ولا أرض. وأنّ أساس التفاوض مع سورية سيكون أن تحتفظ "إسرائيل" بكامل الجولان. وعندما حاول وزير الخارجيّة الإسرائيليّ دافيد

ليني أن يخفف من غلواء نتانياهو تجاه سورية بأن بالإمكان ملاقة سورية في وسط الطريق، أنه مكتب نتانياهو فوراً وأعلن أن نتانياهو فقط هو من يحدّد سياسة "إسرائيل".

ثم انعقدت قمة عربية في القاهرة في نهاية حزيران 1996 دعت "إسرائيل" للعودة إلى التفاوض على اساس إعادة الجولان لسورية والسلام الشامل في المنطقة. ولكن نتانياهو ردّ على غصن السلام العربي بتصريح أكثر تطرفاً إذ أعلن أنه حتى لو وافقت سورية على توقيع معاهدة سلام وتطبيع العلاقات فإن "إسرائيل" ستحتاج إلى جيلين على الأقل (50 عاماً) قبل أن تبدأ بالتفكير في الانسحاب من الجولان. فتدخلت واشنطن حيث كان كلنتون لا يزال رئيساً، وأوفد دنيس روس إلى المنطقة في تموز لوقف تدهور المسار السوري. وتجاوبت سورية وأعلنت استعدادها لمتابعة المفاوضات ولكن من النقطة التي انتهت إليها قبل الانتخابات الإسرائيلية. ولكن نتانياهو في زيارته الأولى إلى واشنطن في تموز 1996 رفض الشرط السوري وكرّر أن لا انسحاب من الجولان. ثم أخذت الأمور تتدهور والمفاوضات تصبح شيئاً من الماضي في وقت كان نتانياهو ينتقل من موقف متطرف إلى آخر. فقد دخل بنفسه الأراضي اللبنانية المحتلة في آب وهدّد أن أي هجمات جديدة لحزب الله ضد الجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان ستردّ عليها "إسرائيل" بهجمات على سورية مباشرة. وردّ رئيس الأركان السوري على هذا التحدي أن "سورية لم تُخرج الخيار العسكري أبداً من حساباتها". وإشارة إلى احتمال اشتعال جبهة الجولان حرّكت سورية بعض قواتها من لبنان لدعم الدفاعات غرب دمشق⁵⁷².

تبين بعد شهر، أن نتانياهو الذي يتكلم من موقع التشدد والتحدي أمام الرأي العام في "إسرائيل"، كان أضعف مما كان متوقعاً لأن وضع القوات الإسرائيلية في لبنان كان متدهوراً. إذ إنه وبعد زيارته للشريط الحدودي أعلن فجأة استعداد "إسرائيل" الانسحاب من جنوب لبنان من دون معاهدة أمنية مع لبنان، كما كان يطمح رابين. والمطلوب إسرائيلياً كان فقط أن يقبل لبنان وسورية بتقديم ضمانات أن حزب الله لن يطلق النار على "إسرائيل" بعد الانسحاب، وأن السلطات اللبنانية ستقوم بنزع سلاحه. ولكن الأسد رفض العرض الإسرائيلي الذي اعتبره خدعة تحصل "إسرائيل" بموجبها على تهدئة جبهتها مع لبنان وعلى أمن نسبي مع كل جيرانها، ما يجعل استعادة الجولان مستحيلة. وهكذا راوح الوضع مكانه إلى نهاية 1996.

في تلك الأثناء كانت حكومة نتانياهو تنشط على جبهات أخرى. إذ بعدما انضبطت منظمة التحرير في حكم ذاتي مرحلي في "سلطة وطنية" على أجزاء من الضفة وغزة، أخذت حكومة نتانياهو عام 1997 تضغط على الفلسطينيين للقبول بشروطها لمعاهدة سلام. ولكنها أعلنت في الوقت نفسه عن مشاريع استيطانية كبرى أبرزها في القدس الشرقية، ومررت قانوناً يجعل أي اتفاق على الانسحاب من الجولان مرهوناً بالحصول على ثلثي أصوات الكنيست. فنشرت سورية دبابات في آب 1997 تسلّمتها مؤخراً، على جبهة الجولان فيما واصلت المقاومة في جنوب لبنان هجماتها على قوات الاحتلال الإسرائيلي. ولم تستطع حكومة نتانياهو تحقيق أي تقدّم في المفاوضات مع الفلسطينيين رغم توقيع اتفاق جزئي في اجتماع "واي بلاتنايشن" في أميركا في تشرين الأول 1998.

عندما اقترب موعد الانتخابات الإسرائيلية في 1999 كان مزاج الرأي العام الإسرائيلي قد انقلب مجدداً وبدأ منزعجاً من تطرف حكومة نتانياهو وإبعاده عن محادثات السلام. فأخذ نتانياهو يستعدّ للانتخابات بوجه معتدل وبتوجيه نداءات لسورية بالعودة إلى المفاوضات، أمام تراجع دعم الرأي العام الإسرائيلي له. وكان حزب العمل قد أجرى تغييرات في قياداته وأصبح زعيمه إيهود باراك الذي وضع حملة انتخابية أساسها الانسحاب من لبنان في حال انتخاب حزبه. ففاز باراك بالانتخابات في 17 أيار 1999 وعاد إلى تأكيد التزام "إسرائيل" بالتفاوض مع سورية على الجولان ثم شرع في الانسحاب من لبنان. فرحبت سورية بفوزه وأعلن الأسد في حزيران 1999 أن باراك صادق في رغبته في السلام مع سورية.

وفي خطاب جلسة الثقة في الكنيست في 6 تموز 1999 تكلم باراك عن الانسحاب من الجولان وعن تطبيق قرارات الأمم المتحدة. فأظهرت سورية إشارات إيجابية لإعادة تحريك العملية السلمية وطلبت من المنظمات الفلسطينية في دمشق وقف عملياتها العسكرية وتحديث تقارير أن سورية أبطأت في تسليم شحنات سلاح من إيران إلى حزب الله، ثم أعلن الإعلام السوري عن وقف لإطلاق النار في جنوب لبنان في 20 تموز. وكانت واشنطن قد تدخلت بين دمشق وتل أبيب وقامت وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت بجولة بين سورية و"إسرائيل"، ثم أعلنت أن الولايات المتحدة تؤيد المطالب السورية بانسحاب إسرائيلي كامل من الجولان استناداً إلى كامل ملف المفاوضات منذ حكومة راين. والتقط العالم أنفاسه لأن هذه كانت أفضل الظروف للتوصل لاتفاق بعد عشر سنوات تقريباً من المفاوضات. إلا أن خلافات علنية بدأت تظهر حول ما وعد به راين عن عمق الانسحاب الإسرائيلي (ويسمى "وديعة راين" في رسالته إلى كلنتون): هل وافق راين على الانسحاب إلى حدود 4 حزيران 1967 أو إلى حدود فلسطين الانتدابية فقط؟ فندخل كلنتون حتى وافق الجانبان في 8 كانون الأول 1999 على العودة إلى المفاوضات من النقطة التي انتهت عندها عام 1996.

وأعلن كلنتون أن المفاوضات ستكون هذه المرة سياسية على مستوى رفيع، فبدأت جولة جديدة في واشنطن برعاية كلنتون شارك فيها فاروق الشرع وزير خارجية سورية وإيهود باراك نفسه ممثلاً "إسرائيل". تلتها جولة أخرى في 3 كانون الثاني 2000، في "شبردس تاون" غرب فرجينيا برعاية كلنتون. وشكل الطرفان أربع لجان لشؤون الأمن والحدود والتطبيع والمياه. حتى استطاع كلنتون تقديم إطار اتفاق شامل لكل النقاط الخلافية، فوافق عليه الطرفان. وبعد تردد، اعترف باراك أخيراً في نهاية شباط 2000 أن "إسرائيل" قد وافقت فعلاً على الانسحاب من الجولان حتى قبل "وديعة راين" عام 1994. ثم رمى قنبلته بأن "إسرائيل" ستسحب من طرف واحد من لبنان، وهو ما لم يكن يتصوره أحد بعد 22 عاماً من الاحتلال. وبالفعل صوتت الحكومة الإسرائيلية في مطلع آذار على انسحاب أحادي وعلى إنجاز هذا الانسحاب في 7 تموز 2000.

ولإنهاء نصوص الاتفاقات قبل توقيعها، التقى الأسد كلنتون في جنيف في 26 آذار 2000، حيث عرض عليه هذا الأخير انسحاب "إسرائيل" إلى خطوط 4 حزيران 1967 ما عدا شريطاً رفيعاً من الأرض على بحيرة طبريا لا يتجاوز عشرات الأمتار. واقترح الأسد أن تكون السيادة على ذلك الشريط لسورية والاستعمال لـ "إسرائيل". وحول محطة المراقبة في جبل الشيخ وافق الأسد أن يديرها طرف ثالث لا أن تبقى بيد "إسرائيل". ولم تقبل "إسرائيل" بتعديلات الأسد فتجمدت الأمور عند هذه النقطة. إلى أن انسحبت "إسرائيل" فجأة من جنوب

لبنان في 25 أيار 2000، أي قبل 45 يوماً من الموعد الذي حدّده حكومتها. ثم توفي الأسد في 10 حزيران 2000، فتأجّلت المفاوضات مع "إسرائيل" إلى أجل غير مسمّى.

الأردن خارج الصراع

لم يكن العام 1994 هو تاريخ خروج الأردن من الصراع، بل هو كان خارجه منذ ضرب الحركة الوطنية الأردنية في الخمسينيات وطرده المقاومة الفلسطينية في الحرب الأهلية 1969 - 1971، والتنازل عن الضفة الغربية عام 1988. ولذلك فقد كانت مكافأة الأردن من الغرب و"إسرائيل" أنه تمتع بهدوء واستقرار نسبيين لأكثر من 40 عاماً، سمحا بنمو اقتصادي وسكاني لم تشهده أي من كيانات المشرق الأخرى. وبعد وفاة الملك حسين عام 1999 وهو ينازع المرض، أصبح ابنه عبدالله الثاني ملكاً في 7 شباط 1999، وواصل النهج نفسه ولكن بصوتٍ خافت ودور أصغر على المستوى العربي. وباستثناء حوادث منفردة أبرزها هجومات لتنظيم القاعدة عام 2005. ففي 9 تشرين الثاني من ذلك العام قام تنظيم القاعدة بقيادة أبو مصعب الزرقاوي وهو أردنيّ بتفجير ثلاثة فنادق ما أدّى إلى مصرع 60 شخصاً وجرح 115. وحتى انفجار العالم العربيّ في العامين 2010 و2011 في ما سُمّي "الربيع العربيّ" لم يترك أثراً على الأردن ولم يحصل حراك شعبيّ يستحق الذكر، رغم أن الجماعات الإسلامية داخله هي من الأقوى والأكثر تنظيماً. فقد اكتفى عبدالله الثاني باستبدال رئيس الوزراء وأجرى بعض الإصلاحات في الدستور والقوانين حول الحريات والانتخابات.

لقد سعت سورية إلى وحدة جبهة مشرقية ديبلوماسية تحت شعار وحدة المسار بين سورية ولبنان والأردن والفلسطينيين. ولكن السؤال الذي بقي هو لماذا بقي الأسد وحيداً في تبني هذه الاستراتيجية التفاوضية في حين أن كلّ واحد من شركائه الصغار كان يعتقد أنه يمكن أن يحصل على نتائج أفضل من "إسرائيل" عبر التفاوض بشكل منفرد بعيداً عن سورية؟ وهذا انطبق إلى حدّ ما على الأردن ومنظمة التحرير في حين حافظ لبنان وإلى حد بعيد على وحدة المسار مع سورية، رغم انقسام الرأي داخل لبنان حول العلاقات مع دمشق. وعامل آخر أضعف وحدة المسار هو حساسية الأشقاء الصغار حول استقلاليتهم عن الشقيق الأكبر سورية، ربّما سببه عدم بذل دمشق ما يكفي من الجهد الذهنيّ الموثق والمدعم بالحجة والمنطق والمعلومة لإقناع هؤلاء أنّ تضامن المسارات هو لمصلحة الجميع ويحقّق المردود الأكبر.

28 | حكم الترويكاً

لبنان تحت وصاية سورية - سعودية

بعد إسقاط حكومة ميشال عون وانتهاء الحرب اللبنانية، في خريف 1990 بدأت الحكومة اللبنانية مرحلة الانتقال إلى زمن السلم الأهلي، فقررت إخلاء بيروت الكبرى من الميليشيات.

وإذ استقالت حكومة سليم الحص في كانون الأول 1990 وتسلم رئاسة الحكومة عمر كرامي، ذكر الياس الهراوي أنّ "حكومة المصالحة الوطنية مؤلفة من ثلاثين وزيراً بينهم أمراء الحرب الذين أسندت إليهم حقائب وزراء دولة"⁵⁷³. وفي 28 آذار 1991، أقرّ مجلس الوزراء حل الميليشيات وبسط سلطة الدولة بمقتضى اتفاق الطائف. وتضمن القرار تسليم الأسلحة إلى الجيش وإلغاء وسائل الإعلام غير المرخصة وحل أجهزة الأمن والمخابرات الميليشيوية. وبالمقابل أعدت وزارة العدل مشروع قانون عفو عن جرائم الحرب وإمكان استيعاب عناصر الميليشيات في أجهزة الدولة المختلفة.

وكان الهراوي قد طلب من سمير جعجع "تقديم سلاح القوّات هدية إلى الجيش اللبناني" مقابل مبلغ من المال، فطلب جعجع مبلغاً اعتبره الهراوي خيالياً. فأبلغه أنّه سيسمح للقوّات بشحن سلاحها إلى خارج البلاد. ووافق مجلس الوزراء للقوّات بنقل سلاحها الثقيل عبر مرفأ بيروت. ويذكر الرئيس الياس الهراوي أنّ القوّات صدّرت ما لا يقلّ عن 1500 طنّ من السلاح والذخائر والمعدّات العسكرية.

وكانت الميليشيات الموالية لسورية هي الأكثر التزاماً، بعدما أصبحت دمشق دولة وصاية على لبنان، فيما تردّد جن بلاط وجعجع وأعلنت الميليشيا اليمينية رغبتها في لامركزيّة أمنية وحرس وطني. ثم بدأت ببطء شديد تنفيذ القرار الحكومي. واستمرت بتخريج دفعات جديدة من المقاتلين وفي المحافظة على هيكلية عسكرية وإدارية، فيما تتالت شروطها على الحكومة بضرورة حلّ الميليشيات غير اللبنانية أولاً وتطبيق شروط اتفاق الطائف وانسحاب الجيش السوري، وعودة المهجرّين، الخ.

وكانت النتيجة أنّ لواء المرده الزغرتاوي كان أول من سلّم سلاحه، ولم تسلّم الميليشيا الجنبلاطية كلّ أسلحتها للجيش بل قامت بتسليم جزء منه إلى سورية مباشرة، فيما باعت الميليشيا اليمينية وميليشيات أخرى عبر تجار السلاح جزءاً غير يسير من أسلحتها إلى جهات في دول تدور فيها حروب (كرواتيا وأرمينيا والصومال وجنوب السودان) تمّ تصديرها من لبنان بحراً بموافقة الدولة، كما سبقت الإشارة.

ويقول الرئيس الهراوي إنّ جعجع "أعاد إلى" إسرائيل "السلاح الذي تلقاه منها عبر مرفأ جونيه، وسلمها إياه في مرفأ أشدود القريب من الناقورة"⁵⁷⁴. وحافظ حزب الله على سلاحه، كمقاومة لبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان، فأعلن نقل ترسانات الحزب إلى الجنوب.

ولم تنته الجلسة الحكومية التي أقرت مجموعة الإجراءات حول حل الميليشيات إلا وكان ممثل سمير جعجع، الوزير روجيه ديب، قد انسحب منها، إمعاناً في الإشارة إلى عدم القبول النهائي باتفاق الطائف، فكان قبول القوات بالطائف تكتيكياً لمواجهة عون في الشرقية أكثر منه استراتيجياً. وجعجع، كما ذكر الهراوي، لم يقرأ

⁵⁷³ الياس الهراوي، نفس المصدر، ص. 231.

⁵⁷⁴ الياس الهراوي، المصدر نفسه، ص. 240.

جيداً الواقع المحلي والإقليمي والدولي المحيط بالتسوية اللبنانية، بل كان يعتقد أن قواعد اللعب في لبنان لم تتغير ومن الضروري الاحتفاظ بهيكلية الميليشيا. وحدث أن جفت عام 1990 سائر مصادر الدعم التي تمتعت بها القوات خلال سنوات الحرب، سواء من العراق أو من فرنسا و"إسرائيل" والولايات المتحدة. ففرنسا وقفت وراء ميشال عون والعراق بات يواجه سلسلة حروب مع الولايات المتحدة، و"إسرائيل" تراجعت أمام صلح في لبنان ترعاه الرياض وواشنطن وباريس، والولايات المتحدة لها مصالح عربية وإسلامية عديدة. حتى أن شعبية القوات تقلصت في صفوف المسيحيين بعد أحداث 1989 - 1990.

في أيار 1991، دخل الجيش اللبناني المناطق التي كانت تسيطر عليها الميليشيات المسيحية والدرزية وبعض مناطق الميليشيات الشيعية، ولكن ليس إلى المخيمات الفلسطينية. وبناء على طلب قادة الأحزاب وافق مجلس الوزراء على استيعاب عشرين ألفاً من الميليشيات في الجيش وقوى الأمن الداخلي ومؤسسات الدولة الأخرى. وفيما تقدم 4000 مسلم إلى الدولة لإعادة التأهيل في مؤسساتها لم يزد عدد المسيحيين الذين تقدموا عن بضع مئات. وفي 14 آب 1991، أقر مشروع عفو عام بعدما تحقق انتشار الدولة في سائر المناطق. ولقد تم هذا الأمر بدون مراجعة موضوعية للممارسات والجرائم والانتهاكات السفارة التي ارتكبتها ميليشيات الحرب طيلة 16 عاماً. لم تختف أعمال العنف الميليشياوي عن الساحة اللبنانية بعد 1990 من جرائم اغتيال وتفجير وإطلاق رصاص ومدافع وظهور مسلح وأعمال شغب. كتفجير "كولدج هول" في الجامعة الأميركية عام 1991، وتفجير البيت المركزي لـ "حزب الكتائب" في كانون الأول 1993، وتفجير كنيسة سيدة النجاة في شباط 1994، واطتيال الشيخ نزار الحلبي رئيس "جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية" في آب 1995 (على أيدي جماعة "عصبة الأنصار" الفلسطينية بقيادة أحمد السعدي أبو محجن)، الخ. ذلك أن الميليشيات لم تكن سوى جيوش صغيرة للطوائف وقد عادت إلى حظائرها بعد الحرب اللبنانية استعداداً ليوم جديد.

سجن سمير جعجع

لم يكد سمير جعجع يتحرر من سطوة عون في الشرقية بعد عملية 13 تشرين الأول 1990 التي أنهت حكومة عون، حتى حل مكان الأخير سلطة لبنانية تدين للسوريين ولا تنظر إلى ميليشيا جعجع بعين الرضى. وفي الفترة 1991 - 1993، رفض جعجع مقعداً وزارياً واتهم الدولة بالتبعية المفردة للسوريين. وإذ لم تستقر أحوال البلاد تماماً، وقع انفجار في بيت الكتائب المركزي في الصيفي أثناء انعقاد اجتماع مشترك للمكتب السياسي والمجلس المركزي للحزب في 20 كانون الأول 1993، هز أركان الدولة حول احتمال وقوع "سلسلة عمليات تخريب تهدف إلى ضرب الاستقرار في البلاد". لقد أستدعى الرئيس الهراوي نادر سكر وبيار الزاهر وطلب منهما زيارة سمير جعجع وإبلاغه بخشيته عليه ونصيحته أن يغادر لبنان. ولم يتجاوب جعجع مع النصيحة. وبعد شهر قُتل باسل الأسد، ابن الرئيس السوري ووريثه البارز في حادث سيارة، فقام جعجع على رأس وفد من "القوات" و"هيئة الإنقاذ الكتائبية" بزيارة بلدة القرداحة مسقط رأس آل الأسد في سورية لتقديم التعزية. وإذ استمزج غازي كنعان جعجع الرأي في زيارة يقوم بها لاحقاً لدمشق لطرح القضايا

العلاقة بين سورية والقوات اللبنانية وفتح صفحة جديدة، ردّ جعجع أنّه جاء لتقديم واجب التعزية وأنّ مواقفه وقناعاته لم تتبدّل. وهنا يعلّق الهراوي: "قد تكون مواقف جعجع المتصلبة نابعة من كونه لم ينفك يعتمد على رهاناته الإقليمية والدولية ولم يحسن قراءة التحولات الخارجية... والتطوّرات أثبتت خطأ حساباته"⁵⁷⁵.

لم يمض شهر على زيارة جعجع للقرادحة، حتى وقع انفجار في 27 شباط 1993 داخل كنيسة سيّدة النجاة في زوق مكاييل شمال بيروت، سقط جراءه 20 قتيلًا و60 جريحاً. وإذا استمرّت موجة التفجيرات في مناطق لبنانية مختلفة، استجوب المحقق العدلي 107 أشخاص أوقفوا في حادث الكنيسة واتخذت تدابير أمنية في محيط سكن جعجع. وفي 23 آذار صدرت مذكّرات توقيف بحق تسعة متهمين بينهم سبعة عناصر من القوات، ففرّ بعضهم إلى أستراليا وكندا والولايات المتحدة. وفي 24 آذار سحبت الحكومة رخصة حزب القوات اللبنانية الممنوحة في أيلول 1991، وأعلنت أنّ القوات أصبحت "جمعية منحلّة" أي غير قانونية. وأوقفت النشرات الإخبارية والبرامج والنشاطات السياسيّة في وسائل الإعلام الخاصة بالقوات.

كما أسقط مجلس الوزراء العفو عن مرتكبي الجرائم المتمادية والمتابعة وكلف الجيش الانتشار على الأراضي اللبنانية كلّها⁵⁷⁶. وتوسّع التحقيق فاثّمت القوات أيضاً بجرمة اغتيال داني شمعون عام 1990 ورشيد كرامي عام 1987. وشملت التوقيفات العشرات من عناصر القوات، في حين واصل الكثيرون الفرار إلى خارج البلاد. وفي 21 نيسان 1994 طوّقت الدبابات منزل جعجع في غدراس ليلاً، حيث اعتُقل وتم نقله إلى وزارة الدفاع في اليرزة. وهكذا عندما زارت ستريدا زوجة سمير جعجع الرئيس الهراوي في القصر الجمهوري قائلة إنّها على استعداد لتنفيذ ما كان الهراوي قد نصح به سابقاً، أي سفر سمير جعجع إلى الخارج. قال الهراوي "أحببتها أنّ المسألة لم تبق مسألة سياسيّة بل أصبحت في يد القضاء". مضيفاً أنّه "يوم كانت قضيتّه سياسيّة وفُرت له فرصاً كثيرة منها المشاركة في حكومة الرئيس عمر كرامي، ثم في حكومة الرئيس رشيد الصلح، فرفض في المرّتين. كما نصحته بالمشاركة في الانتخابات فقاطعها. أمّا والقضية أصبحت الآن أمام القضاء، فلم يبق بإمكانني التداخل"⁵⁷⁷.

وبدأت محاكمات طويلة، فصدر الحكم في قضية اغتيال داني شمعون وعائلته في حزيران 1995 وكذلك في قضية مقتل الياس الزايك، قضى بإنزال عقوبة الإعدام بحق جعجع وخفض العقوبة إلى الأشغال الشاقة. فاعترض أتباع جعجع ومحاموه أنّ جعجع دفع ثمن الحرب الأهليّة بمفرده في حين كان قادة الميليشيات الآخرون يتمتعون بالكراسي النيابية والوزارية والنفوذ والثروة. أمّا الحكم في قضية الكنيسة وقضية "العمل على قلب النظام" فقد صدر حكم في تموز 1996 قضى بتبرئة جعجع، ولكنّه قضى أيضاً بإنزال عقوبة السجن بحقه عشر سنوات بسبب "استمراره تحت غطاء الحزب الذي أنشأه في العمل ضمن الهيكلية العسكريّة السابقة للميليشيا وتكوين الفصائل العسكريّة وتدريبها وتخزين السلاح لاستعماله في الوقت المناسب"⁵⁷⁸.

⁵⁷⁵ الياس الهراوي، المصدر نفسه، ص. 366.

⁵⁷⁶ الياس الهراوي، المصدر نفسه، ص. 372-373.

⁵⁷⁷ الياس الهراوي، المصدر نفسه، ص. 378.

⁵⁷⁸ الياس الهراوي، المصدر نفسه، ص. 381-382.

الوضع اللبناني أصبح أسوأ في سنوات ما بعد الحرب مما كان عليه قبل 1975، حيث أصبحت الأحزاب الطائفية على درجة استثنائية من القوة بعد الحرب وباتت الأحزاب اليسارية والعلمانية في خبر كان⁵⁷⁹.

دخول رفيق الحريري

برز في التسعينيات حكم الترويكا المؤلف من ثلاثة أشخاص هم: رئيس الجمهورية الياس الهراوي ورئيس الحكومة رفيق الحريري ورئيس مجلس النواب نبيه بري، يضاف اليهم الركن الرابع وليد جنبلاط. امتدت حقبة الحريري العامة فترة 30 عاماً، من أواخر السبعينيات في القرن العشرين وحتى العام 2005، وانقسمت إلى ثلاث مراحل:

- مرحلة البناء الشخصي من 1968 إلى 1978.
- ومرحلة البروز الهام على الساحة اللبنانية من 1979 إلى 1991.
- ومرحلة الزعيم السياسي السني ورجل لبنان القوي ورئيس مجلس الوزراء من 1992 إلى 1998 ومن 2000 إلى 2004.

طبع الحريري عقد التسعينيات كـ"Mr Lebanon" فطغى مشروعه للإعمار وتعمّم أسلوبه في الحكم، وبرز في أيامه المال كأهم أداة في الممارسة السياسية، استعملها هو كما استعملها غيره. وكان الحريري متمرساً باللعبة الديمقراطية في لبنان، رأس كتلة نيابية هامة وأصبح رئيس وزراء وزعيم طائفة كبرى. ولكنه كان ينفق بسخاء على الحملات الانتخابية وعلى علاقة ممتازة مع أنظمة دكتاتورية وأجهزة استخبارية، وصاحب شركات ومشاريع تجارية حول العالم جعلته عضواً في نادي الشخصيات الثرية العالمية. ولم يكن الحريري خارج لائحة الفساد التي ضربت الجسم اللبناني بشكل غير مسبوق منذ 1990. واستمر بشكل واعٍ في توسيع إمبراطوريته المالية والتجارية أثناء تعاطيه في الشأن العام وتبوّته منصب رئيس الوزراء منذ 1992.

كان الحريري شخصية عالمية على علاقة مباشرة مع أهم الشخصيات، أفادت علاقاته لبنان كثيراً خصوصاً في مواجهة "إسرائيل" في التسعينيات وفي التعاطي مع الأزمة المالية في لبنان عبر مؤتمر باريس. ولكنه كان أيضاً قريباً من الأسرة المالكة في السعودية ومن دار الإفتاء في بيروت، وقف ضد تشريع الزواج المدني الاختياري في لبنان، وموّل بناء مساجد كبرى بالأسلوب السعودي نفسه لنشر الدعوة الدينية. فكان طائفيّاً من موقع السنة في العمق ومؤسس السنة السياسية، كرجل أعمال عرف واقع لبنان واستفاد منه.

يرى الاقتصادي مروان اسكندر أنّ "لا شك أنّ اسم وشخص رفيق الحريري، صاحب التأثير الأكبر في خواطر اللبنانيين منذ بداية الثمانينيات وحتى تاريخه ورئاسته لمجلس الوزراء... فترة إنجاز غالبية مشاريع البنية التحتية وإعادة تأهيل 1280 مدرسة حكومية، حوّلت الانتباه إليه عن صفته كرجل أعمال ناجح على مستوى مدهش ورجل خير أطلق مشروعاً من أكبر مشاريع المعونات التعليمية في القرن العشرين، إلى تقييم ممارسته

⁵⁷⁹ أحمد بيضون، الجمهورية المتقطعة، ص. 58.

السياسيّة... نرکز على رفيق الحريري كرجل أعمال تفاعل مع حاجات اللبنانيين وصاحب مشروع المعونات التعليمية والصحية والاجتماعية الذي لا نظير له في لبنان والشرق الأوسط والعالم الخارجي⁵⁸⁰.
أما نجاح واكيم، النائب في البرلمان، فقد اعتبر أنّ الخير ازداد ولكن عند أهل الحكم في ظل حكومات الحريري، وشخّ عند المواطنين، وأنّ الحريري "قد حوّل الوطن شركة مقاولات له ولشركائه في العمل التجاري أو السياسي وحوّل العمل السياسي سمسة. وما ينطبق عليه ينطبق على أركان السلطة الذين يتبارون في التماثل به والذين معظهم يبدون مدراء نجباء في شركته وليس في حكومته"⁵⁸¹. ويستشهد واكيم بمجلة أميركية بأنّ "فريقاً يقوده الحريري للاستثمار بالاقتصاد يقوّض المصالح الوطنية التي يزعم الحريري أنّه يروّجها، ويوزع هذا الفريق المغنم التجاري عليه وعلى المقربين منه وعلى جهات خارجية... وأن الحريري يدير شؤون البلاد كأنها شركة خاصة به"⁵⁸².

ويرى جورج قرم، وزير المال السابق، أنّ الحريري قد حاول اختصار لبنان ما بعد الحرب في شخصه، بحيث تتحوّل البلاد إلى ملكية شبه خاصة لرجل واحد، فتزول جميع القيم ما عدا قيمة المال والمضاربات العقارية والمالية، وبيع أهم العقارات وأجملها إلى أغنياء الخليج. وأنّ "الحريري نفسه منذ نهاية السبعينيات تبع سياسة نشطة في شراء العقارات لحسابه ولحساب ولي العهد السعودي... هذا الرجل الذي أصبح رئيس وزراء لبنان، ثابر في سنوات الحرب على امتلاك كلّ ما هو للبيع بسعر جيّد: مصارف، شركات تأمين، متاجر كبرى، أراضٍ ممتازة في الأحياء البيروتية الجميلة"⁵⁸³. وهكذا وقبل أن يصل إلى منصب رئاسة الوزارة عام 1992، كان الحريري مفتاحاً للمال الدولي يعدّ من بين الرجال الأكثر ثروة وحضوراً في العالم، متربّعاً عرش إمبراطورية إعلامية ومصرفية، يتجوّل بطائرة خاصة، صديق "intime" للرئيس الفرنسي جاك شيراك، زائر للبابا في روما، تفتح له بسهولة أبواب كبار هذا العالم. لقد امتلك الحريري طائرات عدّة من طراز بوينغ تركن على مدرج مطار بيروت، كان يستعمل هو شخصياً إحداها موديل بوينغ 777، وهي الأكبر والأفخم، ويستعمل أفراد عائلته وأصدقاؤه الطائرات الأخرى⁵⁸⁴.

في 15 عاماً من عمر الجمهورية الثانية في لبنان (1990 - 2005)، كان الحريري رئيس حكومة لفترة 10 سنوات على الأقل. في تلك الفترة أعيد إعمار جزء من وسط بيروت، وإنجاز بعض المشاريع في المناطق خاصة في أمور البنى التحتية، وتحرّر الجنوب من الاحتلال الإسرائيلي، وابتعد لبنان كثيراً عن حروب الثمانينيات ودمارها، واستتبّ الأمن وعاد السياح. وعلى الصعيد الشخصي، أسهم الحريري في تعليم 30 ألف لبنانيّ وقدم خدمات اجتماعية وقام بأعمال خيرية، وحمل مشروعاً إعمارياً لاقى إجماع قوى الأمر الواقع (وإن شاب مشروعه النقد والاعتراض الشديدين وظهرت ضدّه عشرات المطالعات القانونية والدراسات والمؤلفات، لا سيما في ما يتعلّق بشركة سوليدير). وكان الحريري من المشاركين في - أو من مهندسي - مؤتمرات الحوار

⁵⁸⁰ مروان اسكندر، الدور الضائع: لبنان وتحديات القرن الحادي والعشرين، بيروت، دار رياض الرئيس للكتاب والنشر، 2000، ص. 231.

⁵⁸¹ نجاح واكيم، المصدر نفسه، ص. 225.

⁵⁸² نجاح واكيم، المصدر نفسه، ص. 228-229، عن مجلة Inside 22 كانون الثاني 1996.

⁵⁸³ Georges Corm, *Le Liban Contemporain*, Histoire et société, Paris, La Découverte, 2003, p. 226.

⁵⁸⁴ Georges Corm, op. cit., p. 269.

الوطني في جنيف ولوزان والطائف في الثمانينيات، وصاحب دور رئيس في مواجهة العدوان الإسرائيلي في نيسان 1996⁵⁸⁵.

أسس الحريري لحضوره الكبير ببناء حلقات ثلاث، هي الحلقة السعودية والحلقة الفرنسية وحلقة الترويكا اللبنانية. لقد سافر الحريري إلى السعودية عام 1965 حيث دخل عالم المقاولات وأسّس شركة تُعنى بعقود صغيرة في البناء والأشغال العامة Ciconest عام 1969، ثم حقّق أول مليون دولار في حياته في عيد ميلاده الثلاثين (1974)⁵⁸⁶. وعمل في مشاريع البنية التحتية في وقت كانت فيه السعودية تخصّص ميزانيات ضخمة للتنمية والعمران. في تلك الفترة أقام الحريري علاقات مع "بنك المتوسط" في بيروت ومع صاحبه جوزف عبده الخوري. وكان هذا البنك نشطاً في باريس، فساعده الخوري على الاتصال والتعاون مع شركات فرنسية للمقاولات. وأسّس الحريري من هذا التعاون مع الفرنسيين شركة باسم أوجيه في السعودية في بداية 1978. وقام بمشاركة الأمير عبدالعزيز، ابن الأمير فهد، في شركة "أوجيه"، ما وفّر له حماية وتبنيّاً لأشغاله على أعلى المستويات وحصل على الجنسية السعودية. ثم اشترى الحصّة الفرنسية وأصبحت "أوجيه السعودية" ملكاً له بشبكة أعمال في السعودية ولبنان وفرنسا.

برز اسم الحريري عام 1978 في لبنان كمبعوث سعودي يُعطي المنح الدراسية للطلاب ويقيم علاقات مع شخصيات لبنانية ويقوم بأعمال خيرية. وبعد الاجتياح الإسرائيلي عام 1982 عملت شركة "أوجيه لبنان" التي أسّسها على تنظيف الوسط التجاري ورفع الأنقاض تمهيداً للإعمار (ويرى جورج قرم وآخرون أنه بحجّة التنظيف قامت "أوجيه" بعملية ابتدأت في أيلول 1982 واستمرت أشهراً، جرف أسواق بيروت القديمة والأثرية والتي كان بالإمكان ترميم معظمها، ما ألحق الأذى بالتراث اللبناني)⁵⁸⁷ وخاصة في تلك الفترة الحرجة من حرب لبنان). كما شارك الحريري كعضو في الوفد السعودي في مؤتمري جنيف ولوزان للحوار الوطني عامي 1983 و1984، ثم كموفد سعودي يرافق الأمير بندر بن سلطان في زيارات إلى دول عدة عامي 1985 و1986.

وكلف الحريري صديقه فؤاد السنيورة بإدارة بنك المتوسط بعدما كان السنيورة رئيساً للجنة الرقابة على المصارف في لبنان، ثم أصبح السنيورة وزيراً في حكومات الحريري في ما بعد⁵⁸⁸. وجمع الحريري شركاته واستثماراته خارج القطاع المصرفي في شركة واحدة هي "Fradim France" في باريس عام 1986، وتوسّع في جنوب أفريقيا حيث افتتح شركة Cell C لخدمات الخلوي عام 2001. حتى بلغ عدد موظفي وعمال أوجيه في أنحاء العالم أكثر من 30 ألفاً بقيمة أعمالها أكثر من 3 مليارات دولار أميركي، رأس أعمالها في السعودية سعد الحريري ابن رفيق الحريري، ونائب رئيسها نبيل الجسر. ولقد أعلن موقع الشركة على الإنترنت أنها تتبع القانون السعودي، ويظهر جدول هيئة إدارة الشركة نائب رئيس الشركة بهاء الحريري⁵⁸⁹، والمدير العام

⁵⁸⁵ "النهار" 3 تموز 1996.

⁵⁸⁶ René Nabaa, Rafic Hariri Homme d'affaire Premier Ministre, Paris, L'Harmattan, 1999, p. 16.

كتاب زنيه نبعة هو من المراجع الرئيسية لهذا الفصل ولذلك سنكتفي بذكره هنا ما لم يكن اقتباساً لجملته أو فقرة.

⁵⁸⁷ 48 Georges Corm, op. cit., p. 237.

⁵⁸⁸ مروان اسكندر، المصدر نفسه، ص. 237.

⁵⁸⁹ وكان بهاء قد تخرّج من جامعة بوسطن فترع رفيق الحريري بكلفة مبنى كلية الإدارة فأطلقت الجامعة اسم الحريري على المبنى بعد إنجازه.

سعد الحريري، فيما ترك منصب رئيس مجلس الإدارة شاغراً⁵⁹⁰. أقام رفيق الحريري في قصر قريطم في منطقة رأس بيروت، واشترى قصر بشارة الخوري في القنطاري وحوّله إلى ستوديو لتلفزيون المستقبل، واشترى قصر كميل شمعون في السعديات، ومقر سفير بريطانيا الباذخ في بيروت، وأبنية فخمة على شارع فردان ومدرسة الكرمل سان جوزف وفندق فينيسيا وسنتر قازان.

قناعة رفيق الحريري بأن المال يحل أصعب المسائل ويشتري الصداقات وولاء الشارع، جعلته يستعمله، لمساعدات الميليشيات الرئيسية (القوات اللبنانية والحزب التقدمي الاشتراكي وحركة أمل). وكان يبحث دوماً عن حليف في المناطق الشرقية بمساعدة جوني عبود فأسس لعلاقة مع أمين الجميل. ثم بعدما ابتعدت سورية عن الجميل، سعى الحريري إلى صداقة إيلي حبيقة الذي مؤّله بمبلغ 400 ألف دولار في الشهر، ودعم الاتفاق الثلاثي عام 1985. ثم عندما أصبح العماد ميشال عون رئيساً للحكومة، كان الحريري يرسل معونة شهرية قيمتها نصف مليون دولار للجيش توزّع على المحتاجين من العسكر. وكان زاهي البستاني، أبرز مستشاري بشير الجميل، نقطة اتصال الحريري بالقوات. ولم يتغيّر استعمال المال بعد الحرب، حيث يقول جورج قرم إن الأمر كان متداولاً منذ عام 1990، بأنّ مسؤولي الدولة الكبار كانوا يتلقّون مبالغ سخية من مؤسسات الحريري⁵⁹¹.

حكم الترويك

لم يدخل الحريري السلطة فجأة، فقد سبقه وصول رجاله إلى مواقع حساسة. وكانت حكومة عمر كرامي عام 1991 قد عيّنت عدداً من أصدقاء ورجال الحريري في مراكز حساسة في إدارة الدولة، منهم الفضل شلق كرئيس لمجلس الإماء والإعمار (وكان مدير شركة "أوجيه" ثم "مؤسسة الحريري")، وميشال الخوري حاكماً لمصرف لبنان، ومحمد بعاصري رئيساً لهيئة الرقابة على المصارف. كما أقرّت حكومة كرامي قانون الشركة العقارية (سوليدير) كمؤسسة بديلة عن وزارة التصميم. وصدرت مراسيم عدّة لتعديل نظام مجلس الإماء والإعمار "الذي صار دولة ضمن الدولة، وأنّ هذه المراسيم كان وراءها رفيق الحريري ورشاوى رفيق الحريري"⁵⁹².

ويتهم البعض الحريري بدفع أموال إلى جهات نقابية وإعلامية خرجت إلى الشارع لإسقاط عمر كرامي في 6 أيار 1992 وأنّ مصرف لبنان لم يكن بعيداً عن لعب دور في سقوط كرامي. وحتى في موضوع انهيار العملة يعتبر نجاح واكيم أنّ الحريري "لعب الدور الأكبر في عمليّات المضاربة... وحقق ربحاً صافياً خلال الشهرين اللذين سبقا 6 أيار وفي التاريخ عينه... يناهز الـ400 مليون دولار"⁵⁹³.

<http://www.saudioger.com/>⁵⁹⁰

58 Georges Corm, op. cit., p. 2⁵⁹¹

592 نجاح واكيم، المصدر نفسه، ص. 64.

593 نجاح واكيم، المصدر نفسه، ص. 53.

الحريري، الذي كان من مهندسي محاولات إنهاء الحرب في لبنان، أصبح معروفاً لدى الجميع في البلدين حتى قبل انعقاد مؤتمر الطائف عام 1989 في قصر في مدينة الطائف السعودية تولت شركة الحريري تشييده. فقد كان الحريري في عداد الوفد السعودي في مؤتمر جنيف ولوزان عامي 1984 و1985، ورافق وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل إلى دمشق وأنشأ صداقات مع نائب الرئيس عبدالحليم خدام ورئيس أركان الجيش حكمت الشهابي، وكان يزور الرئيس حافظ الأسد بين فينة وأخرى. وفيما رعت حكومة انتقالية برئاسة رشيد الصلح انتخابات برلمان 1992، اتهم الحريري بدفع المال لترشيح عدد من أتباعه على اللوائح المعلّبة والمضمونة في بيروت والمناطق.

عندما سمّت دمشق الحريري رئيساً للحكومة عام 1992، وافقت الطبقة الحاكمة اللبنانية بدون إبطاء، أو حسب تعبير الياس الهراوي، "حين كنّا نتفق في سورية على أمر ما كان التيار يمرّ دون عوائق في لبنان. وبالفعل أكثرية النواب حتى رؤساء الحكومات السابقين طالبوا برفيق الحريري. سليم الحص اعتبر أنّ "مجيء رفيق الحريري منيح في هذه الظروف"، وعمر كرامي قال "لا حول ولا قوة، فليكن رفيق الحريري"..."⁵⁹⁴. ويرى رنيه نبعة (مراسل وكالة الصحافة الفرنسية) أنّ إنعاش الإسلام السنّي في لبنان أصبح مهماً لدى السعودية بعد تدهور موقع الطائفة السنّية أثناء الحرب اللبنانية، وأنّ الحريري كان الشخص المناسب لهذا الدور. ولأنّ الحريري كان يحمل الجنسية السعودية التي تفرض على حاملها أن يتخلّى عن أي جنسيّة أخرى، لكن سهّلت له الأسرة المالكة مهمته بخرق القانون السعودي و"تجميد" جنسيته ليتسنى له أن يصبح رئيساً للحكومة اللبنانية عام 1992، لتبقى مجمّدة طيلة فترة وجوده في الحكم.

وهكذا برزت الترويكا الحاكمة: الحريري رئيس وزراء قوّي وبرّي رئيس مجلس نواب قوّي، يتمتعان بصلاحيات وفق الدستور الجديد الذي أقرّه اتفاق الطائف، والهراوي رئيس الجمهورية وكان الحلقة الأضعف في الترويكا. ثم بدأت الخلافات بين الرؤساء الثلاثة على الحصص. وإذ اطمأن الحريري إلى أنّه يدخل السلطة من موقع القوي، يقول الهراوي: "لم تكن عملية التآليف سهلة إذ استمرت تسعة أيّام أمضيها بين أخذ وردّ مع رئيس الحكومة المكلف بسبب إصراره على توزيع عدد كبير من الأصدقاء والمقربين إليه واستبعاد آخرين لا لسبب الأ لكونهم لا يروقون له". ويضيف الهراوي: "تعيينات الرؤساء والأعضاء في مجالس إدارات اثنتي عشرة مصلحة مستقلة تسببت بأول خلاف بيني وبين رئيس الحكومة... فلاحظت أن تعيينات مجالس الإدارة، وهي البند الأهم في الجلسة وردت في المرتبة التاسعة عشرة. لم أبدأ أيّ ملاحظة وعندما انتهى بتّ البند الثامن عشر قلت إني أعتذر عن عدم متابعتي حضور الجلسة... وبعد انصرافي طرح رئيس الحكومة على التصويت اللائحة الأولى التي كان عرضها عليّ ورفضتها، فأقرت مع تعديل اسمين..."⁵⁹⁵.

انتشرت عبارة "الترويكا" في التسعينيات بمعنى سلبي مرادف لتقاسم المناصب والمغانم وأسلوب عمل غير سليم يشبه أسلوب الحكام السوفيات في روسيا (كلمة "ترويكا" بالروسية تعني "ثلاثة"). وإذ ينفي الهراوي هذا الطابع الأوليغوبولي في الحكم، يسأل: "هل منع عدم لقاء الثلاثة معاً دون حصول رئيس مجلس النواب

⁵⁹⁴ الياس الهراوي، المصدر نفسه، ص. 316.

⁵⁹⁵ الياس الهراوي، المصدر نفسه، ص. 322.

(بري) على القسم الأكبر من الوظائف؟ أعتقد أنه يحصل الآن على أكثر مما كان يحصل عليه في الماضي... الأمر ليس جديداً في لبنان ففي مختلف العهود كان رئيس مجلس النواب يُستشار في تعيينات الموظفين الشيعة، ورئيس الحكومة في الموظفين من الطائفة السنية⁵⁹⁶.

ويقول الهراوي إن التعامل مع الحريري لم يكن سهلاً، "فهو يعتبر أن كل ما يريده يجب أن يتحقق بسهولة ودون عوائق وأن الحريري حاول الإيحاء بأنه هو الحاكم، فأدّى ذلك إلى نقزات إن على صعيد الوزراء أو على صعيد سائر المسؤولين". لقد ضرب الحريري الرقم القياسي في عدد المرات التي لجأ فيها إلى التهديد بالاستقالة إذا لم يتحقق له ما يريد. فيقول الهراوي إنه في أيار 1994، "حرد" الحريري وأعلن اعتكافه دون مزاولة أي نشاط رسمي بسبب خلاف على التعديل الوزاري... إلا أن الحكومة لم تعدل بسبب محاولات رئيس الحكومة التفرد بطرح صيغة التعديل دونما تنسيق مسبق معي ومع رئيس مجلس النواب⁵⁹⁷. وفي 24 آب 1994، في جلسة للحكومة، شنّ عدد من الوزراء هجوماً على الحريري متهمين إيّاه بالهيمنة والتسلط على مجلس الوزراء والتفرد بالقرارات ما أدّى إلى تهميش دورهم حتى داخل وزاراتهم.

ولكن عدا توزيع المناصب، لم يواجه مشروع الحريري أي معارضة تؤدي إلى تعطيله، لا من الياس الهراوي ولا من وليد جنبلاط ونبية بري وحزب الله، ولا من دمشق والدول العربية ولا من فرنسا والاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة. كل هؤلاء منفردين أم مجتمعين استفادوا بدرجات متفاوتة من مشروع الحريري، مالياً أو سياسياً. ويبقى أنه كان مشروعاً يحاول استعادة لبنان الذي سبق الحرب بجميع سيئاته. وهو مشروع لم يكن بإمكان الحريري أن يأتي بغيره، حتى لو شاء ذلك، لأنه مشروع اتفق مع طموحات وغايات الزعماء ورجال الأعمال، والتقى مع رؤية السعودية والغرب. فأنى الحريري ليلعب دوراً محدداً.

بعدما أصبح الحريري رئيساً للحكومة "أصبح مجلس الإعمار والإعمار هو الحكومة الفعلية" ومرتبطة مباشرة برئاسة مجلس الوزراء. وهكذا لم يكن صعباً إطلاق هذا المجلس وثيقة حملت اسم "خطة العام 2000" عام 1991. وكانت كلفة الخطة تُعدّل صعوداً كل فترة من 11.7 مليار دولار عام 1992 إلى 18.5 مليار دولار عام 1995. ووصلت تقديراتها إلى 30 ملياراً عند إنجاز كافة تفاصيل الخطة. وباستثناءات قليلة، لم يتحقق أي من تنبؤات النمو الاقتصادي المرتفع للخطة، حيث راوح نمو الناتج المحلي الفائق 0 إلى 2 في المئة لسنوات عدة، فيما ارتفع الدين العام من ملياري دولار في بداية التسعينيات إلى أكثر من 40 ملياراً عام 2005 و60 ملياراً عام 2011. ولم تُستعد الطبقة الوسطى التي كانت حاضرة في مجتمع ما قبل الحرب اللبنانية، حيث أشار تقرير الأسكوا إلى أن نسبة اللبنانيين دون حافة الفقر قد بلغت 35 في المئة من مجموع السكان. وبلغت نسبة الدين العام عام 2005 إلى الناتج المحلي القائم أكثر من 200 في المئة، وهي من النسب النادرة التي لم تبلغها حتى أفقر دول العالم.

⁵⁹⁶ الياس الهراوي، المصدر نفسه، ص. 267.

⁵⁹⁷ الياس الهراوي، المصدر نفسه، ص. 386.

وإذ تركز الإنفاق العام على بناء الوسط التجاري كواجهة للبنان، أهمل بشكل ذريع موضوع الإنماء المتوازن الموعود في صلب اتفاق الطائف، ولم يُجزأ إلا جزء من مشروع الوسط ومن مشاريع مدن الساحل بنفقات بلغت مليارات الدولارات بأموال مستدانة.

والحقيقة أنه خلال ست سنوات من الجهد وإنفاق بلغ 1.5 مليار دولار، لم تؤهل شركة سوليدير أكثر من عشرة شوارع تطلّ عليها في معظم الأحيان مطاعم ومخازن بوتيك. أما عمليات الردم وخاصة في قطاع سان جورج، الذي يطل عليه الفندق الشهير، فقد كانت كارثة بيئية نفّذتها شركة فرنسيّة بكلفة 400 مليون دولار⁵⁹⁸ وأصبحت "زيتوني باي" للطبقة المخملية. لقد رُبط الوسط التجاري بشبكة طرقات واوتوسترادات وجسور وأنفاق بكلفة 3.4 مليار دولار، مقارنة بحقيقة أن مجموع ما أنفق على المناطق اللبنانية كافة خارج بيروت 700 مليون دولار.

ويشرح جورج قرقم بعض خلفيات مشروع سوليدير منذ العام 1992 بأنه أدّى إلى تحوّل عميق في البنية العقارية والنفسية لمدينة بيروت إضافة إلى شكلها الفيزيائي، وهي تحولات فشلت في تحقيقها عشرون عاماً من الحرب وأعمال العنف، أدّت إلى محو كلّ ماضي البلد وذاكرته التاريخية بمخطط عمران سعودي - أميركيّ في وسط العاصمة. ويؤكد قرقم أنّ لبنان كان قادراً على تمويل إعادة الإعمار بإمكانياته الذاتية من قطاع خاص وعام، ولكن اللجوء إلى مصادر تمويل خارجية اقتضاه ارتباط المشروع بجماعات سعودية قويّة وبشخصيات سياسية لبنانية عليا وبقيادة الميليشيات في لبنان⁵⁹⁹.

وكثر الكلام عن أنّ قسماً قليلاً من الإنفاق العام قد ذهب إلى الإعمار الفعلي فيما ذهب الجزء الأكبر لتسديد كلفة خدمة الدين العام من فوائد ورسوم وحصص السمسرة والفساد يتحمّل مسؤوليتها الأولى الترويكا وأنصارها وشركاؤها السوريون، بعدما تمّ تعطيل مؤسسات الرقابة كالبرلمان ومجلس الوزراء وديوان المحاسبة ومجلس الخدمة المدنية وإلغاء دور المعارضة السياسية والهيمنة على الإعلام وضرب الحركة العمالية.

وبعد انهيار محادثات السلام مع "إسرائيل" عام 1999، واستمرار حرب تحرير الجنوب والفساد، والهدر في الدولة اللبنانية، لم تحقّق الحكومة النهضة الموعودة. وحتى القطاع العقاري تعرّض للركود والتراجع إذ تراكمت 235 ألف شقة سكنية شاغرة منها 106 آلاف في بيروت وضواحيها، تبلغ قيمتها مليارات الدولارات التي وظفت في نشاط ريعيّ خامل.

يقول جورج قرقم إنّ البورجوازية اللبنانية التي خسرت نفوذها القديم أثناء الحرب وجدت في رفيق الحريري الرجل الذي يجسّد أفضل تجسيد أحلامها السياسية والاقتصادية القديمة وأنها من خلاله يمكنها تعويض ما خسرت⁶⁰⁰. وفوق ذلك فقد مثل الحريري عودة الطائفة السنّية بما هي شريكة للموارنة في التجارة والسياسة. فهو رجل أعمال ويحمل الجنسية السعودية، البلد التقليديّ الذي فضّله زعماء الموارنة وتجارهم على غيره من الدول العربية، وصديق رئيس فرنسا، صديقة الموارنة المخلصة، ويحظى بدعم أميركيّ. وفوق ذلك عمل الحريري أثناء الحرب على كسب ودّ القيادات المسيحية خاصة بالمال. ولذلك كان ممكناً للشارع المسيحيّ

⁵⁹⁸ Georges Corm, op. cit., p. 2.

⁵⁹⁹ Georges Corm, Reconstruction de l'état sous tutelle: inquiétudes libanaises, Le Monde Diplomatique, p. 32, janvier 1992.

⁶⁰⁰ Georges Corm, op. cit., p. 22.

وقياداته انتقاد انتخابات برلمان 1992 ومهاجمة دولة الطائف كدولة تبعية وعدم شرعية السلطة، الخ. ولكن الأشخاص أنفسهم باركوا الحريري وحكومته، ومنهم رمون إذه، عميد "حزب الكتلة الوطنية"، الذي كان مقيماً في باريس ولم يتردّد في إبداء إعجابه به في مناسبات عدّة وأمام المؤلف عام 1995. لقد سبق الذكر أنّ ثروة الحريري بلغت مليار دولار في أوائل الثمانينيات، فاستحق أن يذكر في لائحة "مئة أغنى شخص في العالم" في مجلة Forbes الأميركية. ولكنه أثناء توليه رئاسة الحكومة أصبح رابع أغنى رجل سياسي في العالم عام 2002، كما قدّرت المجلة نفسها ثروته بـ4.3 مليارات دولار في لائحة أثرياء العالم للعام 2005، تبيّن أنّ هذا التقدير كان شديد المحافظة، إذ إنّ ورثته توزّعوا مبلغ 16.7 مليار دولار عام 2006 (بعد عام من اغتياله)، ما أثار التساؤلات حول الفرق الهائل بين تخمين 2005 وكيف تضاعف أربع مرات خلال عام واحد. كما أنّ كلّ أفراد عائلته ظهوروا على لائحة فوريس عام 2006، ومنهم هند الحريري التي ورثت بضعة مليارات أيضاً.

المحاصصة والصناديق والمجالس

لقد برزت ظاهرة النائب نجاح واكيم كلاعب "صولو" في زمن الترويكا حيث كانت الجهات التي لا تجرؤ على مواجهة الترويكا علناً تزوّد واكيم بالملفات والمعلومات والفضائح المثيرة. وبعد سلسلة من الاستجابات في البرلمان والمؤتمرات الصحافية التي قام بها في الفترة الممتدة من 1992 وحتى 1998⁶⁰¹، توجّ انتقاداته بكتاب "الأيادي السود". واستقبل الرأي العام الكتاب كوثيقة انتقام ضد سلطة المال التي غطّت لبنان لسنوات عدّة، حيث بيع منه أكثر من مئة ألف نسخة خلال ثلاث سنوات.

يشرح واكيم أنّ "الجمهورية الثانية" شراكة بين الطوائف الكبرى الثلاث، السنة والشيعية والموارنة، اختصرت الترويكا مؤسسات السلطة بأشخاصها، وذلك بشلّ عمل ودور المجلس النيابي ومجلس الوزراء. وأصبح مرور أي قرار أو قانون يرتبط بمدى توافق الترويكا. وأصبحت إدارات الدولة ومؤسساتها جميعاً موزعة بين أعضاء هذه الترويكا، حيث أصبح بإمكان تقاسم الحصص والمغانم "كوتا"، على أساسها تسير أعمال هذه الدولة أو لا تسير. ويقول واكيم: "يذكر اللبنانيون جميعاً تلك الجلسات العاصفة التي كانت تنقل مباشرة على الهواء، والتي طالما ظلّوا قبيل انتهائها أنّها ستطيح الحكومة ورئيسها. ولكنهم سرعان ما يدركون أنّهم لمرة جديدة أمام "المسرحية" عينها التي يتوزّع بطولتها ثلاثي الترويكا عبر بعض الكومبرس في المجلس. وتنتهي دائماً بالمصادقة ولا أحد يعرف من هو الذي رفع يده ومن هو الذي رفع الاثنتين"⁶⁰².

مزج الحريري، كغيره من الشخصيات العامة في لبنان، المنصب العام كرئيس للوزراء بنشاطه الخاص كرجل أعمال، حيث استمر في توسيع شبكة إمبراطوريته التجارية، في وقت احتاجت فيه البلاد إلى طاقته الكاملة والجاهزة كرئيس للوزراء لتنفيذ مشروعه العام لصالح اللبنانيين كلّهم. فإلى جانب أعماله العديدة على

⁶⁰¹ نجاح واكيم، الوهم والأمل، دار الآداب، 2002.

⁶⁰² نجاح واكيم، المصدر نفسه، ص. 76.

الصعيدين العام والخاص، أنشأ الحريريّ عشرات الشركات العقاريّة الخاصة في لبنان منذ أواسط الثمانينيّات وخلال عقد التسعينيات برساميل صغيرة كانت قروضاً من المصارف، خاصة من مصارف يملكها أو على صلة به، تستملك أراضي وأبنية في مختلف المناطق اللبنانيّة.

ومن المساهمين الرئيسيّين في هذه الشركات أفراد من عائلته وعائلات مستشاريه وجوزف مغيزل وسهيل يموت وحسنيّ المجذوب وعصام عرقجيّ ومحمد السمّاك وهديّ كرياكوس ونديم المنلا وزياد عيتانيّ ولور مغيزل وغيرهم⁶⁰³ (ويستعرض واكيم أسماء الأشخاص والشركات عبر عشر صفحات من كتاب "الأيادي السود" ص.ص. 129 - 139).

وفي معرض استفادة الشركات التي يملكها الحريريّ من النفوذ في أجهزة الدولة، يقول واكيم إنّ مصرفين يملكهما الحريريّ هما "بنك المتوسط" و"البنك السعوديّ اللبنانيّ" قد رتبا دفاترهما بشكل لم يظهر أيّ أرباح تستحقّ اقتطاع ضرائب للدولة. حيث صرّح "البنك السعوديّ اللبنانيّ" عن أرباح طفيفة عامي 1988 و1992، فيما لم يظهر "بنك المتوسط" أية أرباح عن 1987 - 1988 و1991 - 1992. وفيما رفضت وزارة الماليّة تصاريح كافة المصارف في لبنان عن أرباحها وأعدت تقويم ميزانياتها وألزمتها بضرائب تفوق عشرات أضعاف ما صرّحت به من أرباح، قبلت الوزارة تصاريح البنكين "السعوديّ اللبنانيّ" و"المتوسط"، رغم أنّهما من المصارف النشطة في لبنان في التسليف والودائع⁶⁰⁴.

في العام 1992 أصبح الحريريّ رئيساً للحكومة ووزيراً للماليّة ووزيراً للاتصالات وعيّن فؤاد السنيورة وزير دولة لشؤون المال، ومحسن دلول وزيراً للدفاع (وربطت دلول بالحريريّ علاقة مصاهرة عبر ابنه نزار دلول ومشاريع مشتركة أبرزها شركات هاتف الخليويّ). وأتى الحريريّ بمستشاره وحامل حافظة توظيفاته في شركة ميريل لينش رياض سلامة حاكماً على مصرف لبنان، وأتى محمد بعاصيريّ رئيساً لهيئة الرقابة على المصارف، وسلّم وزارة العدل لمحاميّه الخاص بهيج طبارة. وتسلّم وزارة الداخليّة ميشال المرّ، الذي تربطه بالحريريّ علاقات متينة ومشاريع أعمال، ووزير الإعلام فريد مكارى (الذي أصبح في ما بعد نائباً لرئيس مجلس النواب)، وهو كان صديقاً للعائلة وموظفاً لدى الحريريّ لسنوات عدّة في شركة أوجيه في السعوديّة. وبعد مكارى أصبح باسم السبع وزيراً للإعلام بعدما كان في فريق الحريريّ أيضاً (وكان يساريّاً سابقاً ومحزراً سابقاً في صحيفة "السفير" اللبنانيّة)، وتسلّم عمر مسقاويّ وزارة النقل. وأصبح للحريريّ نفوذ في وزارة الموارد المائيّة والكهربائيّة التي أصبح إيليّ حبيقة وزيرها كما سبقت الإشارة.

وإذ انتقل مجلس الوزراء إلى التعيينات الإداريّة في بداية 1993، كانت المحاصصة سيّدة الموقف. وكان معظم رجال الحريريّ في الحكم هم من فريق عمله في إمبراطوريّته التجاريّة، يثق بهم ويتكل عليهم. ولمواكبة مشروع إعادة بناء الدولة والبلاد، عُهد إلى 11 مؤسسة عامة موازية للوزارات القيام بأعمال مؤسسات أصليّة ومرتبطة مباشرة برئاسة مجلس الوزراء ما عطل الدور الأصيل لكل وزارة. وإذ قضى توزيع الحقائق الوزاريّة أن يتولّى الحريريّ وفريقه ما يساعد في تنفيذ مشاريعه، أو توزيعه حصصاً ضمن الترويكا، كان تقاسم الإدارات

⁶⁰³ نجاح واكيم، الأيادي السود، ص.ص. 128-129.

⁶⁰⁴ نجاح واكيم، المصدر نفسه، ص. 140.

العامّة وتعيين المدراء العامّين لترسيخ النفوذ السياسيّ المهيمين على الدولة، ابتداءً من أيار 1993، مخالفاً للإجراءات القانونيّة وخارج عمل مجلس الخدمة المدنيّة. حيث كانت "كفاءة" معظم الذين عيّنوا من خارج الملاك والتي حوّلتهم لهذه المناصب إنّما هي مدى ولائهم لأصحاب السلطة مع بعض الاستثناءات. ولم يكن ممكناً إجراء محاصصة عادلة وفي ظلّ قوانين ومؤسسات تضبط الأمور حسب الكفاءة والمساواة للمرشحين. ما وضع الترويكاً أمام خيارين: إما تقاسم طائفيّ متوازن وإما توظيف حسب الكفاءة ما قد يخلّ بالميزان الطائفيّ إذا فاز مرشحو طائفة معيّنة بنسبة أعلى بكثير من مرشحي طائفة أخرى. فكانت الأرجحية للتخصص. وعلى هذا الأساس وبتراضي الجميع، تقلّص دور هيئة التفتيش المركزيّ ومجلس الخدمة المدنيّة، الذي يُبدي رأيه بالمرشحين أو يمتحنهم، وتراجع دور ديوان المحاسبة وغيرها من هيئات الرقابة. ولم يكن هذا الأمر ليتمّ بمشيئة شخص واحد أو جهة واحدة (كما قد يغمز البعض إلى الحريريّ فقط)، بل كان توافق منظومة كاملة من أمراء حرب وتجار. إذ أصبح كلّ وزير يوظّف على هواه وكأنّ الوزارة مزرعة خاصة به يملكها. فاعتمد مثلاً الوزير إليّ حبيقة أسلوب "التكليف" (غير القانونيّ) في تعيينات وظائف وزارة الكهرباء. وإذ اشتكى مجلس الخدمة المدنيّة إلى مجلس الوزراء من ممارسة وزير الكهرباء، أغفلت الحكومة هذه الشكوى لأنّ الكل يمارس هذا الأمر، واستمرّ أسلوب "التكليف". كما كشفت تقارير رقابية عن هيمنة "مستشاري" الوزراء (غير الموظفين) على الإداريّين الرسميّين في الوزارات، بعيداً عن المحاسبة، كما فصل موظفو مكتب الوزير عن العمل البيروقراطيّ البحت.

وعلى الوتيرة نفسها التي لم تكن تسعى إلى بناء دولة مؤسسات بل إلى المحافظة على لبنان كمزرعة، عُطل ديوان المحاسبة عام 1994 بعدما كان يُصدر تقارير عن الممارسات الخاطئة في الدولة. فوضع إنهاء أعمال هذا الديوان حدّاً للشاهد الأكبر على الأخطاء. ففي فترة إعادة الإعمار كان من الطبيعيّ أن يرافق إنفاق مليارات الدولارات مراقبة صارمة على المشاريع وكيفية المناقصات والمزادات على البرامج. فتقويض عمل الرقابة الرسميّة بشكل فاضح هو عمل مشين يدعو إلى القلق الشديد حول تزايد احتمالات السرقة والسمسرة وتمرير الصفقات.

وكان قد سبق لديوان المحاسبة في تقاريره لعامي 1993 و1994 أن حذّر المسؤولين من مغبّة الماضي في سياسة التلّزيم بالتراضي، حيث بلغ عدد الصفقات عام 1993 في الإدارات والمؤسسات العامّة والبلديات 1269 معاملة منها 741 معاملة تمّت بطريقة التراضي من دون اعتماد التلّزيم بموجب المناقصة المفتوحة أو استدراج العروض التي اعتمدت فقط في 500 معاملة قانونيّة. وهكذا أصبح أسلوب "الاتفاق بالتراضي" هو الأساس في المشاريع الحكوميّة.

من ضمن عُرف المحاصصة في ظلّ نظام الطائف، إلى جانب مجلس الإنماء والإعمار الذي كانت رئاسته من نصيب السنّة ورأسه الفضل شلق، كان مجلس الجنوب وصندوقه ووزارة الجنوب للشيعّة، ووزارة المهجرين وصندوق المهجرين للدرّوز وآخرين. والصحيح أنّ هذه المجالس والمشاريع كانت تحمل أهدافاً شريفة تساعد ضحايا الحروب الإسرائيليّة وحروب الجبل في الثمانينيّات وتسعى إلى إعادة إعمار بيروت ومناطق أخرى. ولكنّ المجالس تحوّلت إلى دويلات أو إمارات لها مشيختها الخاصة ورعاياها أو أقرب إلى كنز يتقاسمه

أصحاب النفوذ والمتسلطون. وهكذا نجد أن أصحاب المعالي ومشايخ نهاية القرن يتوزعون هذه المجالس كغيرها من المؤسسات الأخرى وفقاً لسياسة المحاصصة⁶⁰⁵.

وبسبب غياب المحاسبة والمساءلة، باتت المعلومات مجهولة عن مجلس الإنماء والإعمار وهو مؤسسة عامة (عدد موظفيه، رواتبهم، كيف تتم التوظيفات والميزانيات والدراسات). وفي العام 1996، عين الفضل شلق وزيراً للاتصالات السلكية واللاسلكية فصدر مرسوم بتعيين نبيل الجسر رئيساً للمجلس وعضوية بطرس لبيكي وإبراهيم محمد مهدي شمس الدين ونهاد جورج بارودي لمدة خمس سنوات، وسمي ياسر بزّي، شقيق نبيه بزّي، نائباً للجسر (وقيل إن تعيين شقيق نبيه بزّي كان ضمن صفقة بين بزّي والحريزي حول "تلفزيون الجديد" المعادي للحريزي).

وحصل تغيير مشابه في مجلس الجنوب في الفترة نفسه، فاستقال رئيسه حسن يوسف واستبدل بقلان قبلان المسؤول في "حركة أمل". ولم تقل سمعة مجلس الجنوب سوءاً في عهدة "حركة أمل" عما كانت عليه أيام كامل الأسعد، حيث عاد نعت "مجلس الجيوب" إلى التداول، وأن المستفيدين كانوا من المقرّبين من رئيس المجلس ومن "حركة أمل" وليس من المتضررين فعلياً من العدوان الإسرائيلي. وثمة إشارة إلى مبلغ 1.5 مليون دولار سُرقت من الصندوق أثناء رئاسة حسن يوسف ومنع التحقيق في الأمر.

وهناك مؤسسة أخرى هي "الهيئة العليا للإغاثة" التي تأسست عام 1977 وأخذت شكل مؤسسة عامة في التسعينيات. فألحقها الحريزي به مباشرة وسمح لها بالحصول على سلفات خزينة بملايين الدولارات ليصبح لها صندوق له قيمة (قيل إنه كان حساباً خاصاً باسم الحريزي⁶⁰⁶)، وليس عبر وزارة الشؤون الاجتماعيّة صاحبة الصلاحيّة على الهيئة. وأسيء استعمال أموال "هيئة الإغاثة" في مشاريع ليست من اختصاصها، كتحويل مبلغ 14.5 مليون دولار من صندوقها إلى مشروع المدينة الرياضية في بيروت، وملايين أخرى لإعادة بناء سرايا الحكومة في وسط العاصمة (مركز رئيس الوزراء). وإذ وصلت مساعدات لضحايا حرب نيسان 96 ظهر الأمر للرأي العام وكأنّ توزيعها على المتضررين كان هبة شخصيّة من الحريزي، ولم تقل الريبورتاجات التلفزيونيّة أكثر من ذلك.

أما صندوق المهجرّين، رابع هذه المؤسسات وأحدثها، فقد تأسس عام 1991 لإعادة 135 ألف مواطن إلى بيوتهم التي دُمّرت أو أحرقت أو هجّروا منها. فتولّى وليد جنبلاط الوزارة فيما تولّى أنطوان أندراوس مهمة رئيس صندوق المهجرّين. وفي مقال لنقولا ناصيف في جريدة "النهار"، أنّ أموالاً بلغت 800 مليون دولار أنفقت من صندوق المهجرّين في الفترة 1992 إلى 1998، وأنّ جزءاً كبيراً منها ذهب إلى أمور لا علاقة لها بعودة المهجرّين وتعويضهم. ذهب بعضها إلى مشروع "سوليدير" وإخلاءات واستملاك لبناء جسور وأنفاق وأوتوسترادات بمبالغ خيالية استفاد منها أنصار "حزب الله" و"حركة أمل" وعائلات سنيّة بيروتية، وإلى استملاكات في المدينة الرياضية وكذلك لتمويل معارك انتخابيّة في دائرة عاليه (كترشيح أنطوان أندراوس في دائرة عاليه في انتخابات برلمان 1996) وإلى الانتخابات البلدية والاختيارية عام 1998⁶⁰⁷. ولقد نُشرت تفاصيل

⁶⁰⁵ نجاح واكيم، المصدر نفسه، ص. 115.

⁶⁰⁶ نجاح واكيم، المصدر نفسه، ص. 121.

⁶⁰⁷ نقولا ناصيف، النهار، 10 تموز 1998، في نجاح واكيم، المصدر نفسه، ص. 122-123.

عن استملاكات بمبالغ خيالية وصل بعضها إلى ملايين الدولارات، وكانت بعض تفاصيل صندوق المهجرين معرض سجال بين رفيق الحريري ووليد جنبلاط في تلك الفترة، حتى قال سليم الحص: "الهدر المرتكب تحت شعار عودة المهجرين كان كبيراً جداً ولن يعلم حجمه إلا الله والراسخون في العلم من أهل السلطة". وكان الحريري قد عين محمد غزيري رئيساً لبلدية بيروت قبل حدوث الانتخابات البلدية، واختار نقولا سابا محافظاً لقضاء بيروت (وكان موظفاً في شركة الحريري في السعودية التي رأس مجلس إدارتها ابن رفيق الحريري سعد). وإذ عمل المحافظ السابق نايف المعلوف على وضع خطة لتنظيف العاصمة بكلفة 1.5 مليون دولار ورفعها إلى الحريري للموافقة، فوجئ المحافظ بأن مجلس الإعمار تعاقده بعد فترة مع شركة "سوكلين"، التي تخص ميسرة سكر والحريري، بقيمة 4 ملايين دولار، ما فرض على بلدية بيروت دفع المبلغ دون أن يحق لها مراقبة أعمال سوكلين. وتصرفت "سوكلين" بعيداً عن مبدأ المحاسبة واحترام صلاحيات البلدية.

الإمبراطوريات العقارية

انطلقت عملية إعادة إعمار وسط بيروت عام 1991، عندما صوت البرلمان على مشروع إنشاء "الشركة العقارية لإعمار وسط بيروت" (واختصارها الفرنسي "سوليدير"). ويقول واكيم إن الحريري كان وراء المشروع وأنه قدّم رشوة عبر مساعديه إلى بعض النواب لدعم المشروع⁶⁰⁸، وأنه أوعز إلى أكثر من أربعين سياسياً لبنانياً، بينهم نواب في البرلمان، لأخذ قروض بدون فوائد من مصرفي المتوسط والسعودي اللبناني لشراء أسهم في شركة سوليدير. فيستعملون القروض لشراء أسهم في "سوليدير" بسعر 100 دولار للسهم، ثم يبيعونها لاحقاً لهذين المصرفين بسعر أعلى (حدّد بقيمة 170 دولاراً للسهم) فيحققون أرباحاً ثم يعيدون القروض⁶⁰⁹. وإذ كان آلاف اللبنانيين يمتلكون عقارات ومحال وأبنية في وسط بيروت، سيطرت "سوليدير" على مجمل ملكيات هؤلاء عبر إصدار أسهم حدّدت قيمتها شركات تخمين بمعدّل 400 إلى 1200 دولار للمتر الواحد. وخلال فترة قصيرة جداً، وقبل البدء بالإعمار، كان المتر الواحد يُباع بسعر 5 إلى 10 آلاف دولار، دفعها برحابة صدر أصحاب الأموال، ليصبح أصحاب العقارات الأصليين من دون ملك. ولئن كان الحريري وشركاؤه ومستثمرون آخرون مجهولون أصحاب نسب كبيرة من أسهم "سوليدير"، تحوّلت الشركة وبضعة أشخاص إلى أصحاب أهم موقع عقاري في لبنان.

وتعدّى نطاق الوسط ليخترق أحياء شعبية تاريخية لم تكن أبداً ضمن الوسط التجاري، باتجاه الخندق العميق وشارع فرنسا ووادي أبو جميل (حيث هدم مبنى تراثي على رؤوس ساكنيه وقتل 15 شخصاً وجرح ثمانية آخرون)، وصولاً إلى الواجهة البحرية حتى عين المريسة، فألغيت الطريق الساحلية كما جاءت في الخطة الأصلية وألغيت المواقف العامة. وامتدّت عملية الردم داخل البحر إلى 60 هكتاراً بعد أن كان يُفترض أن لا

⁶⁰⁸ نجاح واكيم، المصدر نفسه، ص. 146.

⁶⁰⁹ René Nabaa, op. cit., p. 72.

تزيد عن 20 هكتاراً. وتولّت "سوليدير" كلفة البنية التحتية (200 مليون دولار) مقابل تخلي الدولة عن 50 في المئة من أراضي ردم البحر والبالغة 600 ألف متر مربع، على أن تتحوّل حصّة الدولة من أراضي الردم إلى حدائق وطرق. وضمت "سوليدير" أراضي تابعة لشركة مرفأ بيروت قيمتها 400 مليون دولار من دون أن تدفع شيئاً للدولة.

يقول الرئيس الهراوي في مذكراته إنّه في كانون الأول 1994، وفي جلسة لمجلس الوزراء أثير بند يتعلّق بفندق السان جورج في حي الفنادق والسماح بردم 12 ألف متر مربع من البحر، وتحوّل إلى جدل حاد اشترك فيه الوزراء نقولا فتوش ومحمود أبو حمدان وسليمان طوني فرنجية. ثم قال أبو حمدان: "بدنا نعرف السان جورج لمن؟ هناك من اشترى سبعين في المئة منه". عند هذا الحدّ بدأ الرئيس الحريري الذي تجنّب منذ بداية الجدل الخوض فيه، واحملاً، ثم علت وجهه علائم الانفعال فوقف وخاطبني قائلاً: "فخامة الرئيس، إعتبرني مستقيلاً. أنا أقدم استقالتي وطالع إعلانها بزّاً". ولكن نجح الوزراء في ثني الحريري عن الخطوة وإعادة الهدوء إلى المجلس⁶¹⁰.

لقد غلب على أسلوب الحريري في السياسة والتجارة الطابع الأميركيّ البراغماتي لإنجاز الأمور بسرعة واتخاذ القرارات. ونلاحظ هذا الأسلوب في سلوك أهم الشركات في الولايات المتحدة. ولعل الحريري اكتسب هذا النمط من خلال عمله في السعودية التي بنتها وطوّرتها شركات أميركية واستشارات أميركية (إذ كان أساس المملكة وانطلاقها علاقتها القريبة من الولايات المتحدة).

ويقول واكيم: "إذا استعرضنا خريطة بيروت العقارية لوجدنا أنّها تتحوّل تدريجياً شبه مملكة سياحية اقتصادية يملكها سيّد واحد تقريباً، ومتمولون لا يمتّون إلى بيروت بصلة، مركزها قلب بيروت وأطرافها تمتد في الجهات الأربع: من سوليدير نحو المّتن شمالاً ونحو الجناح جنوباً وعمقاً إلى الشرق، بدأت تتضح ملامح إمبراطورية يقيمها السيّد رفيق الحريري أو عبر شركات عقارية مثال سوليدير ولينور أو عبر امتلاكها شخصياً أو بواسطة مستشاريه أو أقربائه". و"إذا استعرضنا خريطة لبنان الجغرافية، لوجدنا أنّ (أملاك) السيّد رفيق الحريري تمتد من الناقورة جنوباً وحتى جرود عكّار، ومن البحر الذي ردم جزءاً منه وصولاً إلى أعالي جبل الشيخ"⁶¹¹. مروراً بمهريّن وعين دارة وفالوغا وحمانا وبحوارة وبحمدون ورأس المّتن وقرنايل، ثم في البقاع في حدث بعلبك وسفح جبل الشيخ والقرعون وعيتيت ومشغرة، وجنوباً في المرأونية والناقورة وجزين وكفرالوس وشرق صيدا وإقليم الخروب والدامور، وفي كسروان وفقرا والكورة وعكّار.

وتحت اسم عبد اللطيف الشمّاع، رئيس تلفزيون المستقبل السابق، أمكن تعديل وثائق بلدية حول أملاك للدولة في خراج فالوغا وحمانا وعين دارة وبهريّن بلغت مساحتها 30 مليون متر مربع⁶¹². لقد كسر الحريري

⁶¹⁰ الياس الهراوي، ص. 401.

⁶¹¹ نجاح واكيم، المصدر نفسه، ص. 193.

⁶¹² René Nabaa, op. cit., p. 50.

الرقم القياسي في ملكية الأراضي والعقارات والمباني في تاريخ لبنان، حتى بدا أشخاص ملاكون كهزري فرعون نماذج مصغرة لما توصل إليه الحريري، وكل ذلك خلال عشر سنوات.

في العام 1998 قام مراسل الموند فرديريك إدمان بجولة في مناطق لبنانية عدة، وكتب تحت عنوان "إعادة الإعمار حولت لبنان إلى مسخ"، وعن "كارثة وطنية وبيئية تتعلق بالمضاربات العقارية، لها علاقة بتبويض أموال واستغلال السرية المصرفية. الضحية الرئيسية للمضاربات العقارية كان وسط بيروت الذي أصبح صحراء ثقافية، حيث أصبحت الأملاك بأسعار خيالية ومقتصرة على أصحاب المال والسياسيين، في حين لم تتدخل الأونيسكو في وقف التخريب الذي لحق بالأماكن الأثرية. من طرابلس إلى صور، تم اغتصاب الساحل بمشاريع عقارية لم توفر لا التراث الحضاري ولا البيئة التقليدية للطبيعة ولا الأراضي الزراعية. لبنان الساحلي الذي يبلغ طوله 200 كلم بمساحة ضيقة جداً لا تشكل أكثر من 10 في المئة من مساحة لبنان، ولكنها تضم 75 في المئة من السكان، بكثافة سكانية بين الأعلى في العالم - أكثر من 1400 نسمة في الكيلومتر المربع الواحد، في منظر عام لخراب شامل. في حين تثار نشرة السوليدير الفصلية الكلام المصقول عن التجميل"⁶¹³.

خروج الحريري وعودته

كان الحريري منذ صعوده على علاقة ممتازة مع دمشق، مدعوماً ومرعياً من السعودية وفرنسا والولايات المتحدة. أقام علاقات شخصية وممتازة بقيادة سوريين حتى في فترة مبكرة من دخوله الساحة. ويرى هنري إده أن "السوريين أيدوا الحريري يوم لم يكن يتمتع في لبنان، باستثناء مصداقته الشخصية والدعم الظرفي، بأي قاعدة سياسية فعلية، مع علم السوريين بأنه لن يستطيع في مثل هذه الظروف أن يتحرر من أي وصاية. وكانوا يعلمون أيضاً أن عليه أن يعوض عن جنسيته السعودية، وعن قربه من الملك فهد، بخضوع أكبر من الخضوع المطلوب من الرجل السياسي التقليدي في لبنان. هذا فضلاً عن حساب الإفادة المتوقعة لهم من ثروته"⁶¹⁴.

جاء الحريري إلى رئاسة الوزراء مباشرة من عالم الأعمال بدون خبرة نيابية أو وزارية وبدون تجربة في السلطة، فعوض عن ذلك بماله وعلاقاته الواسعة محلياً وإقليمياً ودولياً. حتى أصبح خلال سنوات الرجل الأهم في الساحة اللبنانية، فيما أخذت الطبقة السياسية اللبنانية الصف الثاني. ويقول هنري إده عن الحريري: "صحيح أن الجميع يقرّون بأنّ لديه كفاءات ومؤهلات تسمح له بإنجاز إعادة إعمار البلد ولا سيما إعمار الحجر، ولكنهم يشترطون وضعها في خدمة عمل ديمقراطي شفاف، يتطلع إلى المستقبل ويكون أكثر شمولاً وأكثر إبداعاً. ولا أحد يشك في سحره الشخصي وهيبته وإرادته وديناميته وتجربته في الأشغال الكبرى واتساع صلاته الخارجية. إلا أنّ النظرة الخاطئة التي لديه عن المشكلات اللبنانية الأساسية وجنون العظمة الذي ميز مشاريعه واستخدامه لسلطته المالية، صارت كلّها واضحة للجميع".

⁶¹³ Frédéric Edelman, *Le Monde*, samedi 4 juillet 1998, Une reconstruction chaotique défigure le Liban.

⁶¹⁴ هنري إده، المصدر نفسه، ص. 102-103.

وطالما أنّ تركيبة الدولة اللبنانية سمحت بقيام مؤسسات عامة جبّارة خارج سلطة مجلس الوزراء، فإنّه لم يكن مستغرباً أن يتمتّع سابقاً الرئيس أمين الجميل في عهده بسلطة باهرة إذ "مع مجلس التجارة الخارجية ومجلس الإماء والإعمار ورئيس مجموعة انترا، المعيّنين مباشرة من قبل الرئيس (الجميل) والمخلصين له إخلاصاً تاماً، لم يعد رئيس الجمهورية يخشى لا الحكومة ولا رئيسها". وهذا ما تركز مع الحريري في المؤسسات المتعدّدة، إذ "لم يسبق قط أن حُصرت جميع السلطات في يد رجل واحد، وظلّت السياسة من اختصاص السوريين حصراً. وظنّ الحريري أن تحالفه مع هؤلاء ليس سوى تحالف تكتيكي مؤقت. ولو احتفظ زعماء الميليشيات ببعض الامتيازات، لكنه راهن على المال الموزع بعناية لإبقاء يديه طليقتين"⁶¹⁵.

عام 1998 وقع خيار الأسد على قائد الجيش إميل لحود ليكون رئيس الجمهورية المقبل، كشخصية مارونية تضيف التوازن إلى دولة برز فيها رئيس حكومة سني قوي ورئيس برلمان شيعي قوي. وأرسلت دمشق كلمة السر إلى الحريري ويري في 16 أيلول 1998⁶¹⁶.

لم يرق الأمر للحريري الذي كان معارضاً بشدّة ترشيح لحود. فشكّل فريق عمل لعرقلة انتخاب لحود ضم عدداً من مستشاريه، منهم جوني عبود وزاهي البستاني وباسيل يارد والفضل شلق وفريد مكارى. ويقول واكيم إنّ الحريري أنشأ صندوقاً خاصاً لمواجهة الاستحقاق الرئاسي وإنّ قيمة الحملة ضد انتخاب لحود بلغت مئة مليون دولار لتمويل حملات إعلامية ورشوة وسائل إعلامية وتمويل اتصالات محلية مع سياسيين ورجال دين واتصالات خارجية. ولكن جهود الحريري وآخرين لم تمنع لحود من الوصول إلى سدّة الرئاسة الأولى في جلسة برلمانية صوّت بالإجماع في 15 تشرين الأول.

التنافر بين الحريري ولحود كان حتمياً، إذ لم يكن لدى الأخير القادم من صفوف الجيش أي تعاطف مع رئيس الوزراء "الملياردير" الذي نعته بـ"المقاول الجيد". وصرّح لحود في بداية عهده عام 1998 أنّه سيحارب الفساد والهدر، وأنّه سيستعمل صلاحيّاته حسب دستور الطائف بحذافيرها، على أساس إعادة هيكلة الرئاسة الأولى. كما أنّ لحود أراد أن يرفع شعبيّته في صفوف الطبقة الوسطى والفقراء والموازنة. وأوضح لحود للحريري أنّ عليه أن يقبل بسلطة أقلّ إذا أراد العودة كرئيس للوزراء. وتزامنت تلك الفترة مع صعود بشار الأسد الذي كلّفه والده بشؤون الملف اللبناني الذي أزيح عنه عبدالحميم خدام.

وإذ كان خدام وحكمت الشهابي، وهما سنيان في القيادة السورية، من الرباعي السوري الحليف للحريري، عمل بشار وموالون له في مجلس النواب اللبناني على إبعاد الحريري عن الرئاسة الثانية، فيما تصاعدت النداءات لبدء حملة ضد الفساد الذي استشرى في الدولة اللبنانية في المرحلة السابقة. وكان الفريق الجديد الذي يمثله بشار ومحيطه يرتاب لعلاقات الحريري الوثيقة جداً مع السعودية والولايات المتحدة ولقربه من المواقف الغربية تجاه الصراع العربي الإسرائيلي. وقرأ الحريري ما هو مكتوب على الحائط، خاصة بعدما ترك عدد من النواب الخيار للحدود في تسمية رئيس الوزراء، فانسحب وأصبح سليم الحص رئيساً للوزراء.

⁶¹⁵ هنري إدّه، المصدر نفسه، ص. 104.

⁶¹⁶ السفير، 28 أيلول 1998.

وكانت حكومة الحص تحمل مشروعاً إصلاحياً في الإدارة العامة والمال والاقتصاد وترغب في العمل بدءاً من انطلاقتها في 4 كانون الأول 1998⁶¹⁷. ولم يكن الحص من الشخصيات المحسوبة على الرباعي السوري، بل ضمت حكومته تشكيلة من شخصيات عسافية مستقلة وبعضها من ثوابت الحكومات الحريريّة (ميشال المرّ وسليمان طوني فرنجية ونجيب ميقاتي). وإذ أعلنت حكومة الحص عزمها على وقف الهدر وملاحقة الذين أساءوا أمانة المنصب الرسمي، وقامت، بالتعاون مع رئيس الجمهورية، بفتح بعض الملفات الساخنة كالمحروقات (سبق الإشارة إليه) والخلوي في العام 1999 ولاحقت مهيب عيتاني المدير العام السابق لمرقاً بيروت. وفي 9 تموز 1999، وصل التحقيق إلى نقولا سابا، محافظ بيروت السابق وصاحب علاقات أعمال مع سعد الحريري في السعودية، وإلى بشارة نمور رجل أعمال على علاقة بالحريري في قطاع الفندقية والأوتيلات الفخمة، في قضية استثمار أملاك بحرية على كورنيش بيروت بسبب منحه الموافقة⁶¹⁸، ووصل إلى عبدالمنعم يوسف وآخرين. واعتبر أنصار الحريري أنّ فتح الملفات هو عملية انتقامية من فريق الحريري ونهجه. كما بدأت حكومة الحص تطالب شركتي الخلوي بموجب اتفاق BOT (ابن، شغلّ وسلّم) دفع تعويضات للحكومة بسبب سوء تطبيق الاتفاق.

لم يقف معسكر الحريري وحلفاؤه مكتوفي الأيدي، بل قاموا بحملة ضخمة ضد حكومة الحص وصوروها بأنّها اغتصبت ما ليس لها (أي السلطة)، وهاجموها يومياً في البرلمان والصحف ووسائل الإعلام وعبر المنابر المتعدّدة في لبنان وخارجه⁶¹⁹. ويتحدّث جورج قرم، الذي كان وزيراً للمالية في حكومة الحص، عن الحرب الكلامية التي تعرّض لها شخصياً "وكأنني مغتصب خبيث خطف كرسي وزارة المال من أصحابها الدائمين الشرعيّين"⁶²⁰.

لقد اتحد الحريري ووليد جنبلاط في معارضة برلمانية ضد الحص، وأخذ فريق الحريري جنبلاط ومعهم الرباعي السوريّ التركيز على حكم إميل لحود بأنه نظام أمني. لقد كان الاقتصاد اللبناني يسير في منحى انحداري بدأ منذ 1996 واستمرّ في ظل حكومة الحص وما بعدها، في حين كان الدين العام يواصل صعوده الدراماتيكي والأزمات الاجتماعية تتفاقم مع موجة هجرة في صفوف الشباب غير مسبوقه وبطالة متصاعدة ومزمنة واستقطاب للثروة في أيدي القلة ما ألغى أي أمل قريب في استعادة مكانة الطبقة الوسطى في لبنان. فاستعمل فريق الحريري الوضع الاقتصادي والاجتماعي وقوداً في الحملة ضد الحص ولحود أيضاً.

وما إن أطل العام 2000، ولاح استحقاق الانتخابات النيابية في الأفق، حتى بدأت حرب إعلامية شعواء على الحص وحكومته تضمّنت ربط كل ما أصاب لبنان من مصائب اقتصادية وهجرة وخراب زراعيّ وصناعي وديون وتراجع للديمقراطية، الخ، بحكومة الحص التي كانت في عامها الثاني، متهمّة الحص بأنّه ضعيف تجاه

⁶¹⁷ شربل نخاس، حظوظ اجتناب الأزمة وشروط تخطيها - سيرة تجربة في الإصلاح: مقدمة لوثيقة برنامج العمل للتصحيح المالي حزيران 1999، بيروت، دار النهار، 2003.

⁶¹⁸ René Nabaa, op. cit., p. 48.

⁶¹⁹ أنظر تجربة سليم الحص، للتاريخ والحقيقة تجربة الحكم ما بين 1998 و2000، بيروت، شركة المطبوعات، 2001. وجورج قرم، الفرصة الضائعة في الإصلاح المالي في لبنان، بيروت، شركة المطبوعات، 2001. وسليم الحص، محطات وطنية وقومية، بيروت، شركة المطبوعات، 2002.

⁶²⁰ جورج قرم، الفرصة الضائعة في الإصلاح المالي، ص. 13.

رئيس الجمهورية، لا يدافع عن مصالح الطائفة السنية وصوّرتَه بأنه "مغتصب اختطف كرسي رئاسة الوزراء من صاحبها الشرعي".

وإذ استعدّ الحريري وجنبلاط وحلفاؤهما لانتخابات برلمان 2000، عمل اللواء غازي كنعان، رئيس فرع الأمن والاستطلاع السوري في لبنان وعضو الرباعي السوري الحليف للحريري، على قانون انتخابي للحريري وجنبلاط. وفاز جنبلاط في الجبل⁶²¹، في حين انتصر الحريري في بيروت. وكانت النداءات قد بدأت تتصاعد منذ الانسحاب الإسرائيلي من لبنان في أيار 2000، إلى ضرورة أن ينتهي الوجود والنفوذ السوري في لبنان. ولم يستند فوز الحريري وجنبلاط إلى نقمة شعبية على الرئيسين الحص ولحود بل إلى تدخل غازي كنعان وإلى الفساد. فقد كانت هذه الانتخابات الأكثر فساداً في تاريخ لبنان لشدة استعمال المال السياسي، حيث جرى شراء واسع لأصوات الناخبين. وإذ أنفقت معظم اللوائح الانتخابية أموالاً غير مسبوقة، فاق جهاز الحريري الجميع بإنفاقه مئة مليون دولار لحملة الانتخابية. وفاز الحريري بهامش كبير ضد اللوائح الأخرى فخطف دوائر بيروت الثلاث، في حين فشل رئيس الحكومة سليم الحص فشلاً ذريعاً ولم يستعمل صلاحيته أو نفوذه ليستفيد في الانتخابات. فخرس مقعده وخرج من السلطة.

شبكة الفساد السوريّة اللبنانيّة

في الفترة 1990 - 2005 خضع لبنان لمرحلة حاسمة من تاريخه أطلق عليها المراقبون وبعض مناهضي سورية في لبنان اسم "عهد دولة الوصاية"، ولكن في الحقيقة أن لبنان خضع لنفوذ سعودي - سوري مشترك⁶²². وكان دخول الجيش السوري إلى لبنان قد منح إشعاعاً لدور سورية الإقليمي تجاه لبنان والفلسطينيين والأردن والعراق، وثبت عملياً أن سورية دولة محورية ومركزيّة للصراع. وآمن قادة سورية أنهم يؤدّون واجباً قومياً عربياً لوقف التقاتل الأهلي في لبنان وإنقاذ المقاومة الفلسطينية ومنع خلق وضع يسمح لـ"إسرائيل" بالتدخل في لبنان. ثم تعاطم النفوذ السوري في لبنان من علاقة ببضعة أحزاب وحركات (تنظيمات فلسطينية كالصاعقة وفروع حزب البعث) عام 1969، إلى علاقات بأحزاب لبنانية كبيرة وبشخصيات رئيسية عام 1990، وصولاً إلى أجنحة داخل القوات اللبنانية والكتائب، وكذلك داخل التنظيمات الفلسطينية، ووصولاً إلى عدد كبير من النواب والوزراء والزعماء في لبنان. وأصبح عدد كبير من التنظيمات اللبنانية والفلسطينية يعتمد في إمداداته وقهويله ودعمه الخارجي على سورية أو عبر سورية. وفعلت سورية دورها في لبنان ليس فقط عبر جيشها وأجهزتها بل أيضاً عبر هذه التنظيمات اللبنانية والفلسطينية فكلفتها تنفيذ سياستها في لبنان. كانت نتيجة انتقال سورية من الإدارة الأمنية والدفاعية إلى الإدارة السياسية منذ 1990 سيئة للغاية جعلت النظام السياسي في لبنان ألعوبة ومهزلة للديمقراطية، وسط فساد غير مسبوق استفاد منه كثيرون في سورية ولبنان، فقد كان النظام السياسي اللبناني يعاني من فساد وسوء إدارة واهتراء لعقود عدّة سابقة. ثم أخذ

As'ad AbuKhalil, op. cit.⁶²¹

Naomi Joy Weinberger, *Syrian intervention in Lebanon, The 1975 - 76 Civil War*, New York, Oxford University press, 1986.⁶²²

يتصاعد خطاب لبنانيّ ضد سورية بدأ ضد الوجود العسكريّ ثم امتدّ إلى العمال السوريّين في لبنان ليضمّل كلّ ما هو سوريّ بمنطقٍ عنصريّ فجّ. فطرح غلاة اللبنانيّين أن "السوريّ" (بالمطلق) هو العدو وأنّ العامل السوريّ يسرق العمل من اللبنانيّ وأنّ الجنديّ السوريّ يمثّل احتلالاً وأنّ غازي كنعان رئيس المخابرات السوريّة في لبنان هو رمز الهيمنة الذي تحجّج إلى مكتبه في بلدة عنجر الطبقة الفاسدة اللبنانيّة لكسب ودّه. ولكن سورية لم تتعامل مع لبنان من موقع فهمها حساسياته الداخليّة وتجاهلها لتنوّعه وهشاشته واقعه الطائفيّ والمناطقّي، بل تعاملت من موقع قوميّ عربيّ لم يغتنم فرصة تاريخيّة لكسب ثقة المشكّكين من اللبنانيّين بنياتها والتعاون والاستفادة من خبرات لبنان. كما أنّ الفساد داخل سورية نفسها أغمض أعين المسؤولين في دمشق عن ضلوع الجيش السوريّ ومخبراته في الفساد اللبنانيّ والمفسدين اللبنانيّين.

على مدى سنين طويلة كان رئيس شعبة المخابرات السوريّة في لبنان ومسؤول سورية الأول في لبنان الجنرال غازي كنعان حاكماً على لبنان من مركزه على أطراف بلدة عنجر البقاعية. لقد أصبح كنعان رئيس جهاز الأمن والاستطلاع في لبنان عام 1982 وبقي في هذا المنصب حتى 2001 ثم تسلّمه العميد رستم غزالة الذي كان مسؤولاً سابقاً عن منطقة بيروت. وكان لكنعان دور كبير في فرض الأمن ونشر نفوذ سورية في لبنان وتخفيض حدّة العداوات بين الزعامات اللبنانيّة وفي إطاحة حكومة عون في 13 تشرين الأول 1990. ولكن تحقيق هذه الأمور والتي كانت إجمالاً مفيدة لسورية ولبنان، تطلّب صلاحيّات فوق العادة وممارسات غير مستساغة لكنعان الذي بات صاحب كلمة نافذة في البلاد يعتقل من يشاء ويطلق من يشاء، ويتدخّل ويعرقل أي قرار تتخذه الحكومة اللبنانيّة، ولا تعلق على مشيئته أي شخصيّة لبنانيّة حتى لو كانت رئيس الوزراء أو رئيس الجمهوريّة، إلى درجة أنّه كان يصدر أوامره دون أن يخرج من مكتبه والاكتفاء بالاتصال الهاتفيّ⁶²³.

واستطاع كنعان خلال سنوات قليلة أن يبني علاقات مع أهم الشخصيات والهيئات اللبنانيّة ويخترق أحزاباً وتنظيمات أساسية، بما فيها تلك المعادية لسورية. وعلى سبيل المثال، أصبح إيلي حبيقة قائد القوات اللبنانيّة الذي ارتبط اسمه بمجزرة صبرا وشاتيلا عام 1982، مقرّباً من سورية ثم موالياً لها. لقد خضع رجال لبنان الكبار ومنهم رؤساء جمهوريّة ورؤساء حكومة لطقوس الطاعة لكنعان الذي وصفه البعض بأنّه المفوض السامي أو الحاكم العثمانيّ على لبنان. كما أنّ كنعان كان قائد أوركسترا معارضة ضد عهد أمين الجميل ضمّت وليد جنبلاط وسليمان فرنجية الجدّ ورشيد كرامي ونبيه بريّ، والتي استطاعت إسقاط اتفاق 17 أيار 1983 الذي كان يمهّد لمعاهدة سلام بين لبنان و"إسرائيل". ودعمت سورية عبر كنعان انتفاضة 6 شباط 1984 التي خاضتها قوى جنبلاط وبرّي وحرب الجبل بين الموارنة والدروز عامي 1983 و1984.

⁶²³ "غازي كنعان حاكم لبنان الفعلي السابق: نجا من الاغتيال ومات منتحراً"، في الشرق الأوسط، 13 تشرين الأول 2005. بعد عودته من لبنان عُيّن غازي كنعان مديراً للأمن السياسي في سورية عام 2001، ثم وزيراً للداخلية عام 2003. آخر مقابلة لكنعان كانت في اتصال هاتفي مع إذاعة صوت لبنان أعرب عن حزنه من المسؤولين اللبنانيين وخيبة أمه منهم ونفى اتهامات رشوة تداولتها محطة نيو تي في، وختم المقابلة بقوله هذا آخر تصريح ممكن ان اعطيه. في 12 تشرين الأول 2005 غادر مكتبه في وزارة الداخلية إلى منزله ثم عاد وبعد دقائق عدة سمع صوت طلق ناري وكانت الطلقة من مسدس في فمه.

لقد تدخّلت المخابرات السورية في أي كتب أو مطبوعات تصدر في لبنان أو يستوردها لبنان وراقبت محتويات الصحف ووسائل الإعلام وزرعت شبكة من المخبرين والتنصّت ومراكز اعتقال وسجن داخل لبنان. وكانت أجهزة أمنية سورية عدّة منتشرة في لبنان، فقد كانت "المخابرات العامة" تساعد "المخابرات العسكرية" عبر مكاتب منتشرة في أنحاء لبنان، وتعاون هذان الجهازان في تنظيم العلاقات مع التنظيمات والأحزاب اللبنانية والفلسطينية في لبنان وسورية.

بعد سقوط حكومة عمر كرمي في أيار 1992، كانت سورية مطمئنة من وضعها في لبنان، فطوّرت شراكها مع السعودية بموجب اتفاق الطائف ووافقت على رجل السعودية رفيق الحريري⁶²⁴ رئيساً للوزراء عام 1992. ووصلت سورية إلى تفاهم مع الحريري أن يهتمّ هو بالاقتصاد ويترك السياسة ومن ضمنها السياسة الخارجية والمقاومة وأوضاع المنطقة لسورية ولرئيس الجمهورية (الياس الهراويّ ثم إميل لحود) ولحزب الله. ولكن مع استحقال خروج القوات السوريّة بموجب اتفاق الطائف في أيلول 1992 كانت سورية بحاجة لتجديد شرعيّة وجودها العسكريّ. فأعلنت حكومة الحريريّ موعد إجراء الانتخابات النيابية في لبنان في آب وأيلول 1992. ولاقى هذا الإعلان اعتراضاً واسعاً داخل لبنان وخاصة في أوساط المواردة وكذلك من واشنطن والعواصم الغربية التي رأت أن إجراء انتخابات اثناء وجود الجيش السوريّ سيؤثّر في مصداقية هذه الانتخابات ويُنْتِج برلماناً موالياً لسورية. وبرّرت حكومة الحريريّ قرارها أن الوضع الأمني في لبنان لا يزال هشاً وأن الجيش اللبناني لا يزال قاصراً عن ضبط الأمن اثناء الانتخابات وثمة حاجة للجيش السوريّ ليسانع الحكومة اللبنانية، وأن الحكومة ملتزمة تطبيق بنود الطائف التي دعت إلى انتخابات نيابية في أقرب فرصة حتى تستبدل البرلمان المنتخب عام 1972. ومن ناحيتها أكّدت سورية أن وجود قواتها في لبنان لا يتعارض مع اتفاق الطائف وأن هذا الوجود ضروريّ لدعم الدولة حتى إنجاز الإصلاحات الدستورية. وإذ فشلت القيادات المسيحية اللبنانية في تأجيل الانتخابات، دعت إلى مقاطعتها، فكانت المشاركة ضئيلة جداً. ولكن المقاطعة ألحقت ضرراً بالمسيحيين المناوئين لسورية، إذ رأى بعض المحللين أن قادة المواردة المناهضين لسورية أخطأوا في عدم خوضهم المعركة وحصولهم على مقاعد يستعملونها للمعارضة. ومن ناحية ثانية اعتبر عدد من الزعماء المواردة النفوذ السوريّ أمراً واقعاً بعد الانتخابات وتعاملوا معه.

في تشرين الأوّل 1995 طلب الأسد من الحريريّ أن يمدّد البرلمان اللبناني للرئيس الهراويّ لمُدّة ثلاث سنوات، فصوّت لصالح التمديد 110 نواب من أصل 128. كما أن انتخابات نيابية ثانية جرت صيف 1996 أفرزت برلماناً بأغلبية موالية لسورية بقيادة الحريريّ، وسجّلت المعارضة المسيحية تراجعاً كبيراً في عدد نوابها وسط اتهامات بالتزوير واللعب بالصناديق. وهكذا وضعت سورية يدها على الانتخابات النيابية في لبنان فلم يصل إلى البرلمان أي شخص مناهض لسورية أو مُطالب بخروجها من لبنان في دورات 1992 و1996 و2000.

ومن أساليب قولبة الانتخابات و"دوزنتها" لصالح حلفاء سورية ورجالها في لبنان، تغيير الجغرافيا الانتخابية وعدم الالتزام بتقطيعات اتفاق الطائف، واستصدار قانون تجنيس حصل بموجبه أكثر من 300 ألف شخص

⁶²⁴ الحريري رجل أعمال ثري لبنانيّ يحمل الجنسية السعودية، استعمل المال السياسيّ بكثافة منذ أوائل الثمانينيات فأصبح له أصدقاء ونفوذ مع عدد كبير من الزعماء اللبنانيين وفي دوائر الدولة اللبنانية، ومع بعض رموز السلطة في سورية نفسها.

معظمهم من أصل سوري وبعضهم مقيم دائم في سورية، على الجنسية اللبنانية عام 1996، واستعمال المال السياسي في الانتخاب ومراقبة رجال أمن سوريين لعملية الانتخاب في مراكز التصويت والضغط على المواطنين لوضع ورقة معدة سلفاً بمرشحين اختارتهم المخابرات السورية. وحتى بالنسبة لحلفاء سورية، لم يكن المجال مفتوحاً للمناورة. ففي انتخابات 1996، أعلن حزب الله مشاركته بلوائح مستقلة. ولكن نصر الله استدعي إلى دمشق للتشاور فعاد الحزب عن لائحته المستقلة لأن تركيب لوائح مختلطة في مناطق شعبية الحزب سيساعد حلفاء لسورية على ركوب الموجة والفوز بأصوات مناصري حزب الله⁶²⁵. وفي انتخابات 1996 و 2000 كان اطمئنان سورية إلى نتائجها مرتفعاً إذ لم تنتقد جهة عربية أو غربية تدخل سورية في الانتخابات اللبنانية، باستثناء ممن مهذب لوزارة الخارجية الأميركية على سورية أن لا يفوز عدد كبير من مرشحي حزب الله. وفي آب 1997، تحدث البطريرك صفيح علناً أن سورية تتدخل في كل شيء في لبنان ما يساوم على سيادة لبنان. فرد الرئيس الحريري أن الوجود السوري ضروري لضمان الأمن الداخلي وأن هذا الوجود ينسجم مع اتفاق الطائف. وفي تشرين الأول 1998، اختار الأسد قائد الجيش اللبناني العماد إميل لحود رئيساً للجمهورية رغم معارضة ضمنية من الحريري وحليفه وليد جنبلاط. وخرج الحريري من السلطة فرأس سليم الحص حكومة وحدة وطنية. وفي كانون الأول وقّع البلدان اتفاقاً تجارياً تمهيداً للوحدة الجمركية المقطوعة منذ 1950 والتي حدت أول كانون الثاني 1999 موعداً لبدء العمل بها. وفي العام 1999، وقّع البلدان اتفاقات إضافية في حقول العلاقات الخارجية والتجارة والبيئة.

لقد استطاع تحالف سوري - لبناني على الساحة اللبنانية خلق آلية جعلت الوصاية السورية جزءاً من الستاتيكو اللبناني. فبدلاً من الحديث عن خروج الجيش السوري عام 1992 وُلد أمر واقع جديد في المؤسسات الدستورية اللبنانية عبر التدخل السوري في الانتخابات اللبنانية واختراق الساحة اللبنانية وتعيين الرؤساء والتجديد لهم وتدخل سورية في الشاردة والواردة وفي تعيينات الوزراء والوظائف وأساتذة الجامعات، والتصرف بسياسة لبنان الخارجية بالكامل. وحتى 1999، كان عدد القوات السورية العاملة في لبنان لا يزال يراوح الثلاثين ألفاً وهو الحجم نفسه في عام 1976. وشكا كثيرون أن لبنان لم يُسمح له أن ينهض وينفض جراح حروبه الطويلة وينعم بحسنات الاستقرار وبات شعبه واقتصاده رهينة مثلث سورية - إيران - السعودية ومن وإلى هذه الدول في لبنان. وتقلصت مساحة الديمقراطية وبات طاقم سياسي لبناني واسع في لبنان مرتهناً لسورية، وتواصلت هجرة الكفاءات بغير رجعة وبأعداد مذهلة إلى المغتربات، وخاب أمل الشعب اللبناني في حصول بحبوحه يحتاجها ويصبو إليها. واشتد الفقر وغاب الاستثمار واستمر الاتهام الدولي للبنان وسورية بأنهما ساحتا إرهاب. حتى جاء في بيان المطارنة الموارنة في أيلول 2000 أن سورية "تعطي الأوامر وتعين الزعماء وتنظم الانتخابات البرلمانية وغير البرلمانية وترفع وتنزل من تريد وتتدخل في الإدارة العامة والقضاء والاقتصاد، وتتدخل خاصة في الأمور السياسية".

Elie Abou Aoun and Gary Gambil, "How Syria Orchestrated Lebanon's Elections", *Middle East Intelligence Bulletin*, August 2000.

في التسعينيات ازدهرت التجارة بين لبنان وسورية بفضل استتباب السلم الأهلي وانطلاق ورشة الإعمار في لبنان. ولكنها كانت مرحلة تركزت معها أيضاً شبكة مصالح لبنانية - سورية جمعت رجال سياسة وعسكريين ومخابرات ورجال أعمال اشتركت في عمليات تزوير وتهريب ومخدرات وتقاسم المعونات المالية الخارجية. كما استفاد التجار والصناعاتيون اللبنانيون من غزو البضائع بأسعار تنافسية ومن العمالة السورية الرخيصة نسبياً. وبات وادي البقاع من أهم النقاط المعروفة في العالم لصناعة وتجارة المخدرات منذ 1976. ومنذ الثمانينات قامت أحزاب موالية لسورية وعائلات وعشائر بأعمال صناعة وتجارة المخدرات وتزوير عملات وسرقة سيارات والتهريب التجاري عبر الحدود، الخ. حتى أصبح لبنان مصدر ثروة اقتصادية لقيادات عسكرية وسياسية سورية ولحاشياتها بفضل اقتصاد السوق والسرية المصرفية وطغيان القطاعات الخدمية في لبنان. فعمل سوريون تحت سقف هذه البيئة للاستفادة والشراكة مع لبنانيين.

فرض العسكريون ورجال الأمن السوريون الأتاوات والابتزازات في أماكن وجودهم في لبنان. وتمثلت هذه الممارسات بمبالغ وبضائع عينية دفعها اللبنانيون عنوة على الحواجز السورية او لرجال الأمن والمخابرات السوريين الذين تغلغوا في الشركات والمؤسسات اللبنانية الخاصة والعامة. وكانت تقوم بهذه الممارسات الميليشيات اللبنانية والفلسطينية طيلة سنوات الحرب حتى شملت عناصر الجيش السوري والمخابرات السورية في لبنان⁶²⁶.

لقد خضع الشعب اللبناني لممارسات الحواجز السورية عبر فرض حوات مالية وعينية لعابريها واضطر العابرون إلى دفع مبلغ أو تقديم هدية. ولكن عمليات الابتزاز والسلب التي قام بها رجال المخابرات السورية بدرجة أولى وعناصر الجيش السوري بدرجة أقل في أنحاء لبنان تفوق مبالغها ما جنته الحواجز. وتضمنت عمليات ثابتة رُفها طالت مئة ألف مؤسسة تجارية كبيرة ومتوسطة وصغيرة بمبالغ شهرية تتراوح بين مئة دولار إلى عشرة آلاف دولار، وأحياناً أكثر. وخضعت لهذه اللعبة شركات كبرى ومصارف تجارية. كما أن زيارات رجال الأمن السوريين للمؤسسات الاقتصادية وإلى مدراء وأصحاب المصارف، حيث لا عمل لهم على الإطلاق، كانت تبدأ بشرب فنجان القهوة وتنتهي بالابتزاز. وهي على أي حال ممارسات قامت بها الميليشيات اللبنانية أيضاً في مناطق نفوذها أثناء الحرب.

إن بعض هذه الأعمال كانت مشتركة بين سوريين ولبنانيين تمتعوا بتوزيع المغنم. وعبر السنين، نهب أفراد الجيش والمخابرات السوريين آلاف السيارات من أصحابها وخاصة تلك المرتفعة الثمن أو الحديثة الطراز، فكانت تذهب إلى عسكريين ورسميين سوريين كبار إذا كانت من السيارات الفخمة الحديثة، أو تُعاد إلى أصحابها أحياناً لقاء مبلغ من المال. وهناك مئات الروايات تداولت بعضها وسائل الإعلام عن تفجير محال تجارية وسرقة محتوياتها في المدن وتهريب لبنانيين من الذين يتمتعون بمداخل جيدة لحثهم على تخصيص مبالغ للضباط ومسؤولي الميليشيات، وزيارات رجال الأمن لمؤسسات تجارية ومصرفية يحملون حقائق سامسونيات ويجمعون مغلفات تحوي مبالغ تتراوح بين مئة دولار وبضع مئات شهرياً، أو للحصول على

⁶²⁶ يمكن مراجعة الفصل العاشر من كتاب المؤلف، أمراء الحرب وتجار الهيكل، دار النهار 2007، حول دور الميليشيات اللبنانية.

خدمات مجانية من وجبات طعام في مطاعم فاخرة إلى إقامة في فنادق⁶²⁷. كما استولت القوات السوريّة على مواد بناء ومفروشات وأجهزة إلكترونية وسيارات من شركات ومتاجر لبنانيّة بدون تسديد ثمنها. كما أنّ القوات السوريّة ومخابراتها وضباطها احتلوا أملاكاً من أبنية ومنازل في مناطق لبنانيّة عدّة ما أدّى إلى خسائر لأصحابها لفقدانهم بدل الإيجار أو الاستعمال لمدة 30 سنة، وتهالك هذه الأملاك طيلة هذه الفترة ما اضطر أصحابها إلى هدم ما تبقى منها من أطلال، وإعادة بنائها⁶²⁸.

⁶²⁷ بثّت محطة تلفزيون لبنانية في 17 آذار 2005 مقابلة مع صاحب مطعم قريب من فندق بوريفاج مركز مخابرات الرملة البيضاء عن تناول رجال المخابرات السورية وجبات مجانية في مؤسسته.

⁶²⁸ بثت وسائل الإعلام في الأسبوع الثالث من آذار 2005 مشاهد فيلات ومنازل مهشّمة في المتن والبتون بعدما غادرها الجيش السوري، وحالة فيلا جبران في ضهور الشوير.

29 | حزب الله وتحرير جنوب لبنان

في الثمانينيات ظهر في لبنان حزب الله بعقيدة دينية وسياسة متشددة تجاه "إسرائيل" وجذب الآلاف من الشباب، خاصة في ظروف اجتماعية صعبة حيث كان الجنوب، ولبنان عامة، يرزح تحت آثار كوارثية جراء الغزو الإسرائيلي وتهجير مئات الألوف وحياة الفقر والحرمان وافتقاد أدنى خدمات الدولة الاجتماعية. لعب حزب الله دوراً خدمياً في مناطق سيطرته العسكرية (وهو ما فشلت فيه الحركة الوطنية في أوج أيام سيطرتها في الضاحية والجنوب والبقاع). ونجح الحزب في ضبط الأمن تعدياً وانتهاكاتٍ وسرقات، كما تجنّب في الضاحية أخطاء سنواته الأولى في البقاع عندما رُشّت فتيات لم يتقيّدن بالزي الإسلامي بالأسيد⁶²⁹.

وكان حزب الله زاهداً بالسلطة وتقاليده المحاصصة والفساد المتفشى في الدولة. فبدا على قطيعة مع عالم تخلله الفساد. ثم شارك في "التركيبة" عبر الانتخابات النيابية والبلدية أولاً، ثم عبر الوزارة، ولكنه لم يحمل لواء إصلاح الدولة بشكل جدي. فلم تكن ثمة طروحات جدية حول النظام الاقتصادي ولا مشاركة في شؤون وشجون الطبقة العاملة في لبنان. وإذ عقد مركزه الاستشاري للدراسات والتوثيق مؤتمراً "اقتصادياً" عام 1999⁶³⁰، كان حدثاً منعزلاً لا تشكّل تقاريره رؤية اقتصادية مغايرة يقدمها الحزب ولا نظرة إلى نظام لبنان، فيما يعجز أنصح الناس فيه عن توصيف أي مشروع أو برنامج اقتصادي.

أديرت مؤسسات الحزب التي بها يخترق الصلب الاجتماعي بكفاءة ملحوظة. فإلى "مؤسسة الشهيد"، أنشئت الهيئة الصحية وتلك التربوية والزراعية، فضلاً عن "مؤسسة جهاد البناء". وقُدّر عام 1999 أن 1300 شخص من أبناء الشهداء والأسرى استفادوا من تقديماتها حيث، وقُرت ضمانات دراسية وصحية بقيمة 1650 دولاراً للفرد. واستفاد من مساعدات الحزب 16700 طالب، كما قدّمت منح مالية لـ 6355 طالباً⁶³¹. وضمت الهيئة الصحية خمسة مستشفيات بمئات الأسرة تقلّ تسعيرتها بنسبة الثلث عن مثيلاتها في المستشفيات التجارية الأخرى، وعلى 32 مستوصفاً وعيادة ومدرستين للتمريض. لقد عالجت مراكز استشفاء الحزب أكثر من 111 ألف مريض بين 2001 و2004 ووزعت أدوية وخدمات طبية على 88 مدرسة مع حملات تلقيح متواصلة وحملات ضد الوقاية ضد التدخين والوقاية من الأمراض والدفاع المدني والإسعاف الأولي.

نصر الله يقود التحرير

تعرف اللبنانيون في التسعينيات إلى نسخة مختلفة من حزب الله عندما صعد السيد حسن نصر الله بصفة أمين عام الحزب كوجه جديد لحزب رأوه غامضاً دون وجه في السابق أو على الأقل وجه غاضب مشمئز من أمر ما. وراحت شاشات التلفزة توسّع لنصر الله المساحة، وبرامج الأخبار تخصص دقائق ثمينة من النشرة لمقتطفات من أقواله وخطاباته. وربما باستثناء بشير الجميل قبل عشر سنوات، لم ير لبنان قائداً كحسن نصر

⁶²⁹ فصول من قصة «حزب الله» اللبناني (3)، حازم صاغية، الحياة، 6 كانون الثاني 2005.

⁶³⁰ المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، الأزمة الاقتصادية - الاجتماعية في لبنان - نحو استراتيجية متكاملة لسياسات بديلة، بحوث ومناقشات المؤتمر الاقتصادي، بيروت 13/12 شباط 1999.

⁶³¹ 86 Naim Kassem, Hizbollah - The Story from the Inside, p.

الله في جديته ودقته ودأبه، يملك كاريزما طبيعيتة كان يضيف إليها من تراكم خبرته في القيادة وتعاطيه في الشأن العام. فكان حسن نصر الله قائداً للمقاومة ومحزراً وطنياً للجنوب في التسعينيات⁶³².

وجاءت التجارب اللاحقة لتسجل نجاح نصر الله في امتحان إثر آخر. فتعامله مع الجمهور كان بسيطاً مباشراً أكسبه صورة الصادق والأخلاقي. وباستثناء سيارات الحماية والمرافقين، ما من دليل جديّ على فساد فيه أو في قيادات حزبه المتقشقين الذين لم تتغير بيوتهم ولا عاداتهم. وحتى غير الحزبيين ومَن لديهم تحفظاتهم عن الحزب كالوا للأمين العام المدائح: فهو "لا يكذب علينا"، حتى "إسرائيل" كانت تصدق ما يقوله "حزب الله" طيلة سنوات القتال. وجاءت السنوات تصادق على نيّة نصر الله وسلوكه. فهو قال إنّ عمله الأساسي تحرير الجنوب، وتتوّج إنجازه التاريخي بالعمل المقاوم وبالتحرير عام 2000.

ويحدّد نعيم قاسم صعود المقاومة ممرحلتها الأكثر تأثيراً وجديّة بالفترة التي وصل خلالها نصر الله إلى منصب الأمين العام سنة 1991⁶³³. وإذ يلحظ قاسم بضع عمليات في أواخر الثمانينيات، بدأت المواجهة الحقيقية مع "إسرائيل" عام 1991 واستمرت 10 سنوات. لقد خاض نصر الله حرباً ضروساً ضد الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان كانت أبرز محطاتها "حرب تصفية الحساب" في تموز 1993 و"حرب عناقيد الغضب" (التي أسفرت عن مجزرة قانا المرّوعة) في نيسان 1996. وإذ كانت التسميتان السابقتان أطلقتهما "إسرائيل"، أطلق الحزب على عملية أنصارية في أيلول 1997 تسمية "العصف المأكول". ونجح نصر الله أيضاً في خوض مفاوضات أفرجت عن آلاف المعتقلين اللبنانيين والفلسطينيين والعرب لدى "إسرائيل".

في 16 شباط 1992 كان أمين عام حزب الله عباس الموسوي يرفع إحياء الذكرى السنوية لاستشهاد الشيخ راغب حرب، ثم استقل سيارته وما أن وصل إلى قرية تفاحتا القريبة من الساحل حتى أغارت عليه الطائرات الإسرائيلية وقتلته مع أفراد عائلته. واختار الحزب حسن نصر الله أميناً عاماً. وردّاً على اغتيال الموسوي أطلقت صواريخ كاتيوشا على المستوطنات الإسرائيلية في الجليل ليل 17 شباط. واشتعلت خطوط المواجهة وقام الإسرائيليون باقتحام معبر كفرا - ياطر، فاشتبك معهم المقاومون وصدّوهم. وفي محصلة عام 1992، اعتبر المراقبون أنّ المقاومة حاولت فرض معادلة أنّ أي قصف إسرائيلي على القرى والمدن اللبنانية سيُردّ عليه بقصف المستوطنات الإسرائيلية، أي المعادلة هي مدنيون مقابل مدنيين. ورفضت "إسرائيل" هذه المعادلة. أمّا المحصلة الثانية فكانت أنّ المقاومة صمدت وبرهنت للإسرائيليين أنّ زمن الاقتحام السهل للأراضي اللبنانية قد انتهى.

أما في عام 1993، فقد تصاعدت المقاومة بين عمليات ومواجهات ميدانية وكماثن، أوقعت خسائر بشرية كبيرة في صفوف الإسرائيليين. وهذه المرة حزمت "إسرائيل" أمرها وشنت هجوماً كبيراً صباح 25 تموز 1993، استمرّ سبعة أيام. وهدف الهجوم إلى تدمير البنية التحتية للمقاومة والضغط على الدولة اللبنانية لنزع سلاح "حزب الله". وشمل الهجوم الذي شاركت فيه البحرية الإسرائيلية وسلاح الجو والمدفعية والآليات، الجنوب والبقاع ومخيم نهر البارد قرب طرابلس والناعمة جنوب بيروت، في 1224 عملية قصف جوي وأرضي استعمل

⁶³² وجيه كوثراني، "الفتوى والتكليف الشرعي" سؤال لكل اللبنانيين لا الشيعة وحدهم، النهار، 31 كانون الثاني 2006.

⁶³³ Naim Kassem, Hizbollah - The Story from the Inside, London, Dar Al-Saqi, 2005.

28 ألف قذيفة. وكانت نقطة التحول الجديدة في معركة التحرير هي ما أعلنه نصر الله في مؤتمر صحافي في بعلبك مساء بدء الهجوم: "نعتبر أنفسنا في حالة حرب مفتوحة مع العدو والإجراءات التي سنتخذها للدفاع عن أهلنا في الجنوب والبقاع الغربي لن تلتزم بأي خطوط حمراء يضعها العدو. فقط المقاومة تقرّر حدود الرد"⁶³⁴. وكانت مفاجأة للإسرائيليين ليل 25 - 26 تموز عندما بدأت المقاومة من مواقع عدّة في جنوب لبنان ولمدّة عشر ساعات متواصلة إطلاق مئات صواريخ الكاتيوشا على المستوطنات الإسرائيلية، ما وصفته "وكالة الصحافة الفرنسية" بأنه "ليلة جحيم القذائف... حالة حقيقية من الرعب... سيارات الإسعاف لا تتوقف في مستوطنات الجليل". وفي ما قدّرت استخبارات الجيش الإسرائيلي أنّ المقاومة تمتلك 500 صاروخ كاتيوشا وأنّ هذا العدد سيستهلك سريعاً أمام عملية إسرائيلية مطوّلة، لكن "حزب الله" عام 1993 كان مستعداً بكميات كبيرة من العتاد والذخيرة إلى جانب أنّ رجال المقاومة نفذوا 30 عملية ضد الجيش الإسرائيلي المهاجم. وتوسّطت الولايات المتحدة فعرضت فكرة أن تتوقف المقاومة عن إطلاق الكاتيوشا على المستوطنات مقابل أن تمتنع "إسرائيل" عن استهداف المدنيين. ووافق "حزب الله" على هذا العرض الذي خلق لأول مرّة منذ 1968 نوعاً من تفاهم غير مكتوب حرم "إسرائيل" من ورقة معاقبة المدنيين على أعمال المقاومة وحقق لأول مرّة نوعاً من الأمان النسبي للمدنيين. وهكذا توصل الطرفان إلى "اتفاق تموز" مساء 31 تموز 1993. نجم عن الغزو الإسرائيلي مقتل 140 لبنانياً منهم 13 مقاوماً، وجرح 500 شخص وتهجير 200 ألف مواطن من 120 قرية. في حين ألحق العدوان الدمار الكلي أو الجزئيّ بألاف المنازل والأبنية في جنوب لبنان. وإضافة إلى الاتفاق الشفهي على توازن الرعب (مدنيو لبنان مقابل مدنيي "إسرائيل")، برز الجانب الاجتماعيّ في عمل المقاومة. فما عجزت الدولة وصناديقها عن تنفيذه منذ 1968، قام "حزب الله" عبر مؤسسته "جهاد البناء" بإعادة بناء أو ترميم 4873 منزلاً بعد هجوم تموز 1993. ولم يكن "حزب الله" حتى هذا التاريخ قد حقق الالتفاف الشعبيّ اللبنانيّ على المقاومة واحتضانها. وإشارة إلى افتقاره إلى الدعم الداخليّ أنّ تظاهرة نظّمها الحزب للاحتجاج على "اتفاق أوسلو" يوم 13 أيلول 1993 (بين منظمة التحرير الفلسطينية و"إسرائيل")، خرجت عن الخط المرسوم لها من وزارة الداخلية فتعرّضت لإطلاق نار كثيف من الجيش اللبنانيّ على طريق المطار أسقط 9 أشخاص قتلى (تكراراً لحوادث مماثلة عام 1969). وصمت الحزب على هذه الحادثة.

وفي ما استمرّت العمليّات عامي 1994 و1995، قامت "إسرائيل" بغزو كبير في نيسان 1996. إذ في 20 شباط 1996، أقدم المقاوم علي أشمر بعملية ضد موكب إسرائيليّ في مثلث العديسة - رب ثلاثين في الشريط المحتل. وردّت "إسرائيل" بسلسلة غارات لم تتوقف لأسابيع. ولكن إثر غارة إسرائيلية على قرية ياطر يوم 30 آذار وأخرى على برعشيت يوم 9 نيسان 1996، سقط قتلى مدنيون لبنانيون، ردّت المقاومة بقصف المستوطنات الإسرائيلية.

وهكذا أذن هذا القصف بانطلاق هجوم إسرائيليّ جديد فجر 11 نيسان 1996، بدءاً بغارة على مدينة بعلبك وأخرى على قرية عين بوسوار في إقليم التفاح ثم بهجوم على ثكنة الجيش اللبنانيّ في مدينة صور، وصولاً إلى

10 Naim Kassem, Hizbollah - The Story from the Inside, p. 1⁶³⁴

غارة استهدفت مبنى مجلس شورى "حزب الله" في حارة حريك في ضاحية بيروت الجنوبية، وهي المرة الأولى التي تستهدف فيها "إسرائيل" الضاحية منذ 1982. وفيما اتسع الهجوم وقيل إن لا أفق زمنياً لمُدته وسُمي "عناقيد الغضب"، وغطى مساحات جغرافية في أنحاء لبنان، لم تكتف "إسرائيل" للمدنيين الذين ارتكبت مجازر عدة بحقهم: مجزرة 13 نيسان في قرية سحمر، ومجزرة 14 نيسان في قرية المنصوري، ومجزرة 18 نيسان في قرية النبطية الفوقا. ولكن الحدث الأعظم كان مجزرة قانا عندما قصفت "إسرائيل" مركز القوات الدولية في قرية قانا شرق صور في 18 نيسان وقتل 118 مدنياً وجرح 127 آخرين في منظر يقزّز النفوس.

كانت نتائج عدوان نيسان 1996 كارثة على لبنان، حيث قُتل 250 مدنياً و4 مقاومين وتشرد مئات الألوف من المواطنين ولحق الدمار الجزئي أو الكلي بسبعة آلاف منزل في مناطق مختلفة. ولكن "حزب الله" كان مستعداً هذه المرة لتخفيف آثار العدوان على المدنيين بالاتفاق مع الدولة اللبنانية ومنظمات المجتمع المدني والدفاع المدني وهيئة الإغاثة العليا الحكومية. فاهتم بالذين هجرهم الهجوم الإسرائيلي وقدم لهم السكن والغذاء والأدوية والرعاية الصحية والملابس والمواصلات إلى قراهم بعد انتهاء الأعمال العسكرية.

واختلفت نتائج حرب نيسان 96 عن السابق، إذ أسفرت عن إنجازات للمقاومة لعل أهمها الالتحام الشعبي والرسمي والديني والسياسي في لبنان مع المقاومة على نحو غير مسبوق (على أساس أن هؤلاء يقدمون دمهم لتحرير أرض لبنانية، فمن باب أولى أن يضحى باقي المواطنين أيضاً هكذا لم يحقق قصف "إسرائيل" منشآت الكهرباء أهدافه). فكان لبنان يقاوم بإمكانياته الشعبية والرسمية كافة، ولم يعد يقتصر الأمر على "حزب الله".

وأخذ نصر الله يظهر مراراً على شاشات التلفزة، فيما عبّر لبنان عن تلاحمه مع المقاومة بوحدة وطنية نادرة، إذ التقت كل الأطياف المذهبية والسياسية وتناست كل الخلافات في فندق الكسندر في الأشرية فيما سُمي "إجماع لبناني" على دعم المقاومة". وإذ تحمّس الرأي العام لموضوع المقاومة وضرورة تحرير الجنوب كهماً وطنياً جامع، أعلن نصر الله في 21 أيلول 1998 عن إطلاق "سرايا المقاومة اللبنانية" وبدء عملها في 3 تشرين الثاني. وقامت سرايا المقاومة بـ200 عملية قبل التحرير.

فقدت "إسرائيل" فرصة القضاء على المقاومة بعد فشلها في الهجومات السابقة. ففي 1996 لم تتوقف صواريخ الكاتيوشا باتجاه المستوطنات طيلة 16 يوماً، في حين لم تعد الخطوط اللوجستية التي قصفتها "إسرائيل" ذات قيمة بعدما تموّنت المقاومة بأسلحة وإمدادات وحاجيات تسمح بالصمود لفترة طويلة. وفي الوقت نفسه كان رئيس الوزراء رفيق الحريري ووزير خارجيته فارس بوزير يعملان بجدارة كرأس حربة العمل الدبلوماسي الدولي لمواجهة العدوان. لقد ندّدت الدول الكبرى والرأي العام العالمي بأعمال "إسرائيل" بعد مشاهدة صور مجزرة قانا في تأثيرها في عصر التلفزيون والفضائيات، وصدر قرار من مجلس الأمن يطلب التعويض للبنان. وأسفرت الاتصالات الإقليمية والدولية عن "اتفاق نيسان"، مكتوباً هذه المرة، تدعمه لجنة دولية عضوية خمس دول (الولايات المتحدة وفرنسا ولبنان و"إسرائيل" وسورية). وكان هذا الاتفاق بمثابة اعتراف دولي بحق لبنان في مقاومة الاحتلال "إسرائيل" داخل الأراضي اللبنانية مع تحييد المدنيين من الطرفين.

فتحقق أخيراً "توازن الرعب" الذي كان مفقوداً منذ 1968 وكل هذا بفضل المقاومة، ونفذ الأفرقاء وفقاً لإطلاق النار مساء 27 نيسان 1996.

وبتجريد "إسرائيل" من أسلوب العقاب الجماعي، أخذت تلجأ إلى عمليات داخل المناطق اللبنانية المحرزة وتزرع عبوات ناسفة في القرى والمدن. وكانت آخر عملية ذات حجم كبير تقوم بها "إسرائيل" بجنودها داخل لبنان هي "معركة أنصارية" في 5 أيلول 1997. إذ ليس فقط أن المقاومة كانت تمتلك معلومات مفصلة عن الخطة الإسرائيلية، بل إن رجال المقاومة سمحوا للمجموعة الإسرائيلية بالتقدم باتجاه أهدافها، ثم أردوا 17 إسرائيلياً تناثرت أجسادهم في ساحة المعركة، جمعها المقاومون في أكياس لمبادلتها مقابل أسرى في ما بعد. ولم تتأثر معنويات نصر الله بعدما سقط ابنه هادي في معركة في جبل الرفيع في إقليم التفاح في الشهر نفسه، وسقط معه ستة جنود من الجيش اللبناني بقيادة الضابط جواد عازار، فكان خطاب نصر الله في اليوم نفسه أن قادة المقاومة "لن يوفروا أولادهم بل يفخرون أن هؤلاء يذهبون إلى خطوط المواجهة مرفوعي الرأس"⁶³⁵.

منذ 1998 بدأت الحكومة الإسرائيلية تعلن عن مشروع انسحاب من لبنان تطبيقاً لقرار مجلس الأمن الدولي 425. وفي أول حزيران 1999، انسحبت ميليشيا "الجنوبي" من قضاء جزين لينتشر الجيش الشرعي هناك. ثم أعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي يهود باراك أن "إسرائيل" ستسحب من لبنان بعد اتفاق مع لبنان، ثم خفف الشروط ليصبح انسحاباً بعد اتفاق على جدولة الانسحاب. ثم أعلن باراك أن الانسحاب سيتم في تموز 2000 حتى بدون جدولة أو اتفاق مع لبنان.

ولكن في 24 أيار 2000، استيقظ لبنان على نبأ الانسحاب الإسرائيلي الكامل من الأراضي اللبنانية. وأن الإسرائيليين قد غادروا الأراضي اللبنانية سراً تاركين عناصر ميليشيا "الجنوبي" لمصير مجهول على أيدي المقاومة. وعمّ الخوف سكان الشريط فغادر 7000 لبناني من عناصر الميليشيا وعائلاتهم منازلهم وقراهم ولجأوا إلى "إسرائيل"، فيما استسلم 2000 عنصر لحدي للسلطة اللبنانية (وحتى العام 2005 عاد معظم الذين فرّوا إلى لبنان ولم يبق ممن نزحوا أكثر من ألفي شخص). وزار كوفي أنان أمين عام الأمم المتحدة نصر الله في مبنى مجلس شوري "حزب الله" في حارة حريك في 20 حزيران 2000، كما تعزّزت صورة نصر الله حين شاهده الرأي العام في استقبال الأسرى الذين احتجزتهم "إسرائيل" مستقطباً الضوء فيما وقف إلى جانبه رئيس الجمهورية إميل لحود⁶³⁶.

مع عام التحرير، بلغ عدد ضحايا العدوان الإسرائيلي على لبنان منذ 1968، 23500 قتيل و47 ألف جريح ومئات آلاف المهجّرين، فيما بلغت قيمة الخسائر البشرية والمادية أكثر من 7 مليارات دولار، وقيمة الناتج المحلي الفائت أكثر من 15 ملياراً خلال 32 سنة. وعام 2000، باشرت حكومة سليم الحص بإعداد ملف يطالب "إسرائيل" بالتعويضات المادية نتيجة اعتداءاتها، وصدرت دراسات عن وزارة الخارجية التي أشرف عليها الحص مدعومة من مصرف لبنان قدرّت قيمة التعويضات بأربعين مليار دولار.

⁶³⁵ 21 Naim Kassem, *Hizbollah - The Story from the Inside*, p. 1
⁶³⁶ فصول من قصة "حزب الله" اللبناني (5)، حازم صاغية، الحياة، 8 كانون الثاني 2005.

كان عام 2000 قمة تباهي "حزب الله" والشيعية بمساهماتهم الوطنية الكبرى والانتصار في ما عجز عنه الفلسطينيون سابقاً. وربما كان القليل المعروف من تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي الطويل والذي ارتبط بقيادات مصريّة وفلسطينيّة سبباً آخر للتباهي اللبناني. ذلك أن دخول حزب الله إلى حلبة هذا الصراع دخولاً جدياً بدليل تحرير الجنوب سمح له باستثمار صورة مقاومة إعجازية ساعده في نشرها تعطش جماهيريّ انتشر في العالم العربيّ قوامه رؤية "إسرائيل" تُهزم ولو مرةً أو وفي حال تعذّر ذلك فرؤيتها تضعف على الأقل. فكانت استفتاءات قناة "الجزيرة" الحيّة مثلاً تختار نصر الله في مقدمة الزعماء العرب الأكثر شعبيّة.

الدور السوريّ في التحرير

في سنوات وجودها في لبنان لعبت القوات السوريّة دوراً حاسماً في وقف القتال الأهليّ وتحقيق الأمن في لبنان، وهي مسألة لاقت رضاً واسعاً لدى اللبنانيين في فترات كثيرة. كما كانت لها مساهمات مهمة في دعم المقاومة جنوباً⁶³⁷.

طالبت أكثر من فئة لبنانيّة، خاصة في 1976 وفي 1987 بدخول الجيش السوريّ إلى لبنان⁶³⁸. فيما أضفت قمتا الرياض والقاهرة في نهاية عام 1976 شرعيّة عربيّة للتدخل السوريّ، ما سمح بعودة الحياة إلى طبيعتها بعد "حرب الستين". وبعد نهاية الحرب اللبنانيّة عام 1990، كان ثمة إجماع من واشنطن والفاتيكان والرياض وباريس على شرعيّة الدور السوريّ في لبنان. وساهم الوجود السوريّ في دعم السلم الأهليّ لفترات مديدة خلال الأعوام 1976 - 1990. واستمرّ هذا الدور بعد 1990 بموجب اتفاق الطائف الذي شرّع مساعدة سورية الدولة اللبنانيّة على بناء قواها المسلحة وأجهزتها الأمنيّة ونزع سلاح الميليشيات وفرض الأمن والاستقرار. وسنحت الفرصة في التسعينيات بإعادة بناء الدولة اللبنانيّة نسبياً وتقوية الجيش اللبنانيّ وإعادة بناء صفوفه والبدء بالإعمار منذ 1995. وبات لبنان ومنذ نهاية التسعينيات يتمتع ببنية تحتية جيّدة وقطاع فندقيّ ومؤسسات سياحيّة ومصارف ومعاهد تعليم ومؤسسات أبحاث وشركات إعلاميّة ومستشفيات. وبقي أن يتدفق عليه السياح والزوار والمستثمرون من لبنانيين وعرب وأجانب.

وشارك الجيش السوريّ في الدفاع عن لبنان إبان الغزو الإسرائيليّ عام 1982 فسقط 6000 جنديّ سوري بين قتيل وجريح، وخسرت سورية في تلك الحرب سلاحها الجويّ فوق البقاع وخاضت معارك دبابات ضد الغزو. ثم ساعدت سورية لبنان في تحرير أراضيّه المحتلة في الجنوب في التسعينيات وخاصة عبر دعم المقاومة. وكان تحرير الجنوب الحدث الأبرز، سبقته تطورات إقليميّة خاصة محاولات العراق وإبران إقامة مساحات نفوذ لهما في لبنان على حساب سورية.

⁶³⁷ Nadim Shehadi and Bridget Harney, "Could Salvation come from Syria?", *Politics and the Economy in Lebanon*, Oxford,

Centre for Lebanese Studies, SOAS, 1989; Marius Deeb, *Syria's Terrorist War on Lebanon and the Peace Process*, New York,

Palgrave MacMillan, 2003.

Reuven Avi-Ran, *The Syrian Involvement in Lebanon since 1975*, Boulder, Westview, 1991.⁶³⁸

فتحت المصالحة الشيعية في لبنان صفحة جديدة بين سورية وحزب الله الذي عوّض وجوده عن المقاومة الفلسطينية في لبنان كحليف عسكريّ لسورية. وحاز الحزب على ثقة سورية أعمق من الثقة التي منحها دمشق لنهج عرفات. وكانت "إسرائيل" لا تزال تصرّ على الخطوط الحمر التي تشترط عدم دخول سورية جنوب لبنان، فتغيّر الوضع مع حزب الله الذي انتشر في الجنوب ليلبغ النفوذ السوريّ الحدود الدولية، وأبقت مقاومة حزب الله "إسرائيل" في أحوال المواجهات اليومية، ما شكّل جزءاً من الدفاعات السورية. ذلك أنّ استراتيجية سورية قضت الإبقاء على مقدرة شنّ هجمات من الجنوب لإبقاء الضغط على "إسرائيل" ومنع أي حكومة لبنانية من عقد اتفاق سلام مع "إسرائيل".

ودفعت أجواء المصالحة السوريّة - الإيرانيّة إلى تغييرات جوهرية في هيكلية حزب الله وخياراته. ففي أيار 1991، انتخب مجلس شوري الحزب السيد عباس الموسوي أميناً عاماً بدلاً من صبحي الطفيليّ بتوجّه داخليّ لبنانيّ اختلف عن المرحلة الإيرانيّة المتشدّدة⁶³⁹. وكانت "إسرائيل" قد نجحت في تحييش حكومات الغرب ضد سورية ودعمها للمقاومة في جنوب لبنان، فتوقّف الدعم الغربيّ الذي كانت تتوقّعه الحكومة اللبنانيّة وتدهور الوضع الاقتصاديّ بشكل كبير وانهارت العملة اللبنانيّة. وأخذ رئيس الحكومة عمر كرامي، في معرض دفاعه عن أدائه، يضع اللوم في مجالسه الخاصة على السياسة السوريّة في لبنان، مردّداً أنّه لولا تدخلها ودعمها لحزب الله لكانت مؤسسات التمويل الدوليّة والولايات المتّحدة والغرب قد قدّمت مساعدات تنقذ الاقتصاد اللبنانيّ وتدعم الليرة⁶⁴⁰. ثم سقطت حكومة كرامي في 13 أيار 1992، في الوقت الذي كانت "إسرائيل" تعلن رفضها تطبيق قرار مجلس الأمن 425 ما لم يتوقف حزب الله عن مهاجمة قواتها في جنوب لبنان وعن قصف مستوطناتها بالكاتوشا ردّاً على الغارات وأعمال القصف الإسرائيليّ.

تدهور الوضع جنوباً أقلق سورية من أنّ "إسرائيل" قد تشنّ هجوماً كبيراً على لبنان ردّاً على عمليّات حزب الله، فتظهر سورية كأنّها عاجزة عن تنفيذ تعهداتها بموجب اتفاق الطائف نحو ضبط الأمن والاستقرار في لبنان، ولذلك أبطأت انسحاباتها. ففي العام 1993، تصاعدت المقاومة ضد الإسرائيليين وردّت "إسرائيل" بهجوم كبير صباح 25 تموز 1993، استمرّ سبعة أيام، هدف إلى تدمير البنية التحتيّة للمقاومة والضغط على الحكومة اللبنانيّة لتطلب من سورية نزع سلاح حزب الله. واستمرت عمليّات المقاومة طيلة 1994 و1995، فلامت "إسرائيل" سورية وحملتها المسؤولية ما أثار في مجرى محادثات السلام السوريّة - الإسرائيليّة. ثم تراكمت الأحداث في مطلع 1996 وأدّت إلى عدوان نيسان ومجزرة قانا. وصدر قرار مجلس الأمن يطلب التعويض للبنان وأسفرت الاتصالات الإقليمية والدوليّة عن اتفاق مكتوب هذه المرّة، تدعمه لجنة دوليّة بعضويّة خمس دول (الولايات المتّحدة وفرنسا ولبنان و"إسرائيل" وسورية، وشاركت فرنسا بطلب من دمشق).

Naim Kassem, *Hizbollah - The Story from the Inside*, London, Dar al-Saqi, 2005, p. 108.⁶³⁹

The Middle East and North Africa 2002, p. 964.⁶⁴⁰

30 | تراجع دولة البعث في العراق

بعد حرب الكويت وهزيمة العراق، استمرت الهجمة الأميركية الغربية وأصدر مجلس الأمن في 3 نيسان 1991 القرار 687 الذي حدّد نزع الأسلحة والعقاب الجماعيّ ضد العراق وبدء مرحلة الحصار القاتل. فقد دعا القرار إلى إرسال فرق تفتيش لمنع العراق من تطوير أسلحة الدمار الشامل، مطالباً العراق بدفع مئات المليارات من الدولارات تعويضاً للكويت ودول أخرى.

وأقامت أميركا وفرنسا وبريطانيا مناطق حظر جويّ منعت الحكومة المركزية من استعمال الطيران في الشمال والجنوب، وخلق محميةً للأكراد في الزاوية الشماليّة الشرقيّة من العراق. فكان القرار 687 الحلقة الرئيسيّة التي استعملتها الولايات المتّحدة في ذرائعها كافة للهجوم على العراق في ما بعد (بدعوى "امتلاك العراق أسلحة الدمار الشامل"، أو "تحرير الشعب العراقيّ من حكم صدام"، أو "منع العراق من تهديد جيرانه"). ووعد بوش الأب أنّ العقوبات والحظر لن يُرفعا ما دام صدام في الحكم. وأصبحت الغارات الأميركيّة القاتلة أمراً روتينياً، وغارات كلّ شهر تقريباً.

الحصار والتجويع

في الفترة الممتدة من آب 1990 وحتى أيار 2003، خضع شعب العراق لحصار دوليّ تقوده الولايات المتّحدة إلى أعلى درجات القسوة بذريعة القرارات الدوليّة⁶⁴¹. والحقيقة أنّ العراق ليس أول دولة صدرت قرارات دوليّة بحقّها، إذ أصدر مجلس الأمن عشرات القرارات بحقّ "إسرائيل" حول القضية الفلسطينيّة ولم يُنفذ أيّ منها. ولكنه كان أول دولة في التاريخ تتعرّض لهذا التطبيق الوحشيّ لقرارات مجلس الأمن وإلى هذا المستوى من المغالاة في العقاب. فالحظر الذي شرّعته القرارات الدوليّة تحوّل عقاباً قاتلاً⁶⁴².

أصبح السلاح الأكبر لعقاب العراق هو تدميره تحت ذريعة نزع أسلحة الدمار الشامل الذي من أجله تأسست لجنة خاصة للأمم المتّحدة (أونسكوم) في 18 نيسان 1991. وبمساعدة الوكالة العالميّة للطاقة الذريّة سعت اللجنة إلى البحث عن الأسلحة وتدميرها. وكان في طاقمها علماء أسلحة كيميائية وبيولوجية وديبلوماسيين وخبراء أسلحة من عشرين بلداً، والحجّة أنّ العراق يهدّد جيرانه بهذه الأسلحة ويجب نزعها منه. أما مصير ملايين العراقيين فهذا لم يكن من شأن الأسرة الدوليّة. بل إنّ ما بدأ كانهيار اقتصاديّ عشية نهاية الحرب مع إيران عام 1988، أصبح كارثة إنسانيّة بكل أبعادها بعد نهاية حرب الكويت عام 1991⁶⁴³. في الشهر الأول الذي تلى الغزو العراقيّ للكويت عام 1990 أعلن الصليب الأحمر الدوليّ أنّ الحصار على العراق مناقض للقانون الدوليّ لأنّه يمنع الغذاء والدواء من دخول العراق. فعُدّل مجلس الأمن حدّة القرار 661 القاضي بالعقوبات والحظر الاقتصاديّ، وأعلن "أنّ مجلس الأمن قرّر السماح باستيراد إمدادات محدّدة

Thabit Abdullah, *Dictatorship, Imperialism, and Chaos: Iraq Since 1989*, Zed Books, London, 2006, pp. 71-87.⁶⁴¹

⁶⁴² جيف سيمونز، التنكيل بالعراق العقوبات والقانون والعدالة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 1998.

جيف سيمونز، إستهداف العراق العقوبات والغارات في السياسة الأميركيّة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2003.

ألان ميشال وفابيان فوايه، العراق الخطأ، دار الفارابي، 2001.

Clark, Ramsay, *War Crimes, A Report on U.S. Crimes Against Iraq*, Washington D.C., 1992.⁶⁴³

للاستعمال الطبي، وفي حال الظروف الإنسانية، استيراد المواد الغذائية". وترك مجلس الأمن مسألة تحديد "الظروف الإنسانية" التي يُسمح بموجبها استيراد الغذاء للجنة منبثقة عنه. ورغم أن القرارات الدولية ارتبطت جميعها بمسألة احتلال العراق للكويت، إلا أن الولايات المتحدة لم تكتفِ بخروج الجيش العراقي من الكويت بل قامت وخلال ستة أسابيع في كانون الثاني وشباط 1991 بتدمير البنية التحتية العراقية في طول البلاد وعرضها، وشملت الجسور ومحطات الطاقة والري والصرف الصحي و"أعدت البلاد إلى العصور الوسطى"، كما وعد القادة العسكريون الأميركيون. ووصل الاحتقار الغربي للحياة العربية أن الجنرال نورمان شوارتزكوف عبّر عن كرهه لشعب العراق بالقول "أتمنى أن يتضوروا جوعاً وعطشاً"⁶⁴⁴. وزاد في الطين بلّة أن العراق مُنع من تصدير النفط إلا بكميات ضئيلة، رغم أن النفط مصدر عيشه الأساسي، فبقي وضع الدمار على حاله لأكثر من 15 سنة.

أخذ الشعب العراقي يقنن استعمال الطعام ابتداء من 2 أيلول 1990، رغم أن الرئيس الأميركي بوش صرّح أن "الصراع هو بين العالم أجمع وشخص واحد هو صدام حسين، وليس عندنا أي مشكلة مع الشعب العراقي". وصبّ تصريحه طبعاً في نطاق البروباغندا ضد العراق لأنّ الحرب كانت ضد العراق. ولم يكن الحظر الاقتصادي سوى عقاب غير مبرر للشعب العراقي. إذ لم يكن مبرراً أن اللجوء إلى القوة العسكرية كان دائماً خيار أميركا الأول إذا كانت فعلاً تؤمن أن الحظر سيعطي نتيجة ما. ولكنها في الحقيقة أجازت لنفسها استعمال كل الوسائل المتاحة لإركاك شعب العراق.⁶⁴⁵

لم تخمض عين المجتمع الدولي عن الفقر والجوع والتدهور المعيشي في العراق، بل جمع المراقبون تقارير مفصّلة عن المعاناة. وبعد ستة شهور من نهاية حرب الكويت، اعترفت الأمم المتحدة بالأزمة الإنسانية ومنحت الحكومة العراقية رخصة لشراء الغذاء والدواء بقيمة ملياري دولار قابلة للتجديد ما أصبح يُعرف باسم برنامج النفط - مقابل - الغذاء الذي منح الولايات المتحدة وحلفاءها صلاحيات واسعة في تقرير ما يحق وما لا يحق للعراق استيراده.

حتى أن البرنامج وزّع المبلغ حسب الأوجه التي رآها مناسبة: جزء للمحمية الكردية في الشمال وجزء لتمويل لجنة نزع السلاح التابعة للأمم المتحدة وجزء لتعويض الكويت وجزء لشراء الغذاء وجزء لشراء الأدوية، الخ. وفرض البرنامج على العراق تقديم "مكافأة" لتركيا، التي قدّمت تسهيلات للولايات المتحدة، عبر إجباره ضخ نفطه عبر أراضيها لتجني الأرباح. والحقيقة أن ميزانية اللجنة الدولية استهلكت نسبة كبيرة من عائدات النفط العراقي فقد أقامت شبكة من الموظفين الدوليين والعلماء والديبلوماسيين استهلكوا ملايين الدولارات شهرياً على حساب الشعب العراقي، وصلت رواتب هؤلاء الموظفين الدوليين داخل العراق إلى أكثر من 100 ألف دولار في السنة، في حين تدهور راتب الموظف العراقي في القطاع العام إلى بضعة دولارات في الشهر.

⁶⁴⁴ The Independent, 9 September 1990.

⁶⁴⁵ Charles Tripp, A History of Iraq, Cambridge, Cambridge University Press, 2002, pp. 259-264.

في البدء رفضت حكومة العراق البرنامج لأنه يلغي سيادة العراق على نفطه ويهدّد عيش العراقيين في بلد يستورد نسبة 65 في المئة من غذائه (رغم أنّ أراضيه خصبة وشاسعة) و80 في المئة من أدويته رغم تقدّمه العلميّ في الصناعات الكيماويّة والبيولوجيّة. فسعى العراق إلى تحسين شروط برنامج النفط مقابل الغذاء، ولكن أميركا ومعها بريطانيا رفضتا أيّ تعديل. لقد كان بإمكان أميركا تحسين ظروف الناس بإطلاق حرّيّة استيراد الغذاء والأدوية مع شدّ الحزام على النظام، ولكن أميركا لم تفعل. حتى أنّ مسألة عدم تعامل صدام مع لجنة التفتيش بالدقّة التي تريدها واشنطن أدّى مراراً إلى إصدار قرارات دوليّة جديدة ضد العراق.

وحتىّ أساسيات الحياة بدأت تنعدم من مياه الشفة إلى الكهرباء وعاش العراقيون بدون كهرباء لفترات تتراوح بين 18 و22 ساعة يومياً. وتعطلت معظم وسائل المواصلات العامة من أوتوبيسات وقطارات وعَجَرَ ذوو الدخل المحدود عن التنقل بسبب عدم امتلاكهم للسيارة. وحتى نظام الصحة العامة انهار ومعه تدهورت العناية والاستشفاء، فانهدر معدّل الأطباء إلى عدد السكان حتى أصبح بين الأدنى في العالم (طبيب واحد لكل 40 ألف مواطن). بينما انقطعت الأدوية وخاصة المضادّات الحيويّة (Antibiotics) التي شكّل غيابها تهديداً للحياة.

وخلال عام من نهاية حرب الكويت وصل تأثير الحصار إلى درجة انقطاع الورق، فاستعمل الموظفون الوثائق الحكوميّة القديمة ليكتبوا على القفا الفارغ، ما هدّد مستوى التوثيق في الحكومة. ولكن هذا الأمر لا يقارن بالمرحلة التي تلت سقوط بغداد في نيسان 2003 حيث عمد الأوباش إلى اقتحام الوزارات والأبنية العامة وحرق ملفاتها وتجهيزاتها، وكلّها تمثّل البنية الحيويّة لاستمراريّة دولة العراق بعد الغزو وأنّ النية الأساسيّة كانت تدمير دولة العراق وليس إسقاط النظام.

وطرقت المجاعة أبواب العراقيين في التسعينيات إلى درجات لم يعهدها سابقاً. واكتفت العائلات بنصف كميات الطعام وعانى ملايين الأطفال من ضعف التغذية. وانتشرت الأمراض بسبب انهيار المرافق الصحيّة. ولم تعد هناك جهة تجمع النفايات فغطّت أكوام الزباله الشوارع، وانتشر المتسوّلون وجامعو فضلات المزابل. ولقد درج المثقفون العراقيون على هواية الكتب التي ميّزتهم عن الدول العربيّة الأخرى وأمضوا عمراً في جمع الكتب النادرة واللوحات الثمينة من بيروت والقاهرة وأنحاء العالم وجلبوها إلى منازلهم في العراق. ولكنهم في التسعينيات وجدوا أنفسهم يبيعونها رخيصة ليشترى الطعام والحاجيات الأساسيّة. وبسبب ضآلة كميّة الطعام التي حصلت عليها العائلات العراقيّة من شبكة التوزيع بموجب برنامج النفط مقابل الغذاء، اضطرت إلى شراء الأغذية من الأسواق بأسعار مرتفعة جداً بتلعت 80 في المئة من مداخيل هذه العائلات.

في 14 نيسان 1995، أصدر مجلس الأمن القرار 986 لبرنامج النفط مقابل الغذاء يخوّل العراق بموجبها تصدير كميات من النفط بقيمة ملياري دولار كلّ ستة أشهر لشراء أغذية وأدوية، ولكن تحت إشراف لجنة دوليّة من الأمم المتّحدة. وطبعاً لم تتسلم الحكومة العراقيّة أي مال، بل تمّ إيداع عائدات النفط في حساب مصرفي في بنك باريس في نيويورك. وبعد تردّد دام عاماً كاملاً، وافقت حكومة العراق ووقّعت مذكرة مع

الأمم المتحدة في 20 أيار 1996⁶⁴. ثم سمح مجلس الأمن بزيادة المبلغ كل سنة ابتداء من العام 1998 حتى وصل إلى حدود 10 مليارات دولار في السنة. وعمدت اللجنة المشرفة على البرنامج إلى توزيع المبلغ كالتالي: 53 في المئة لشراء الغذاء والدواء والحاجيات الإنسانية لـ15 محافظة في العراق، 30 في المئة تعويضات للدول المجاورة وخاصة للكويت، 10 في المئة لتغطية نفقات الأمم المتحدة في العراق من لجنة التفتيش إلى لجنة الحظر إلى الهيئات الأخرى، ولبعض عمليات الترميم.

13 في المئة للإمدادات الإنسانية من غذاء ودواء وخدمات للمحافظات الثلاث في الشمال. كما تولى برنامج الغذاء توزيع الغذاء والدواء في الشمال فكان هدفه الرئيسي هو أن تحصل العائلات المحتاجة هناك على 100 في المئة من حاجتها. أما في الجنوب فلم تكن نشاطات البرنامج تغطي أكثر من 20 في المئة من حاجة العائلات. ومن أسباب هذا الوضع أن البرنامج تأسس في البداية لإنعاش الشمال عام 1989، ولذلك اتجهت جميع التبرعات العالمية إلى مناطق الأكراد واستمرت هكذا.

كما أن منظمات الأمم المتحدة لم تكتفِ للاختلاف الشاسع في توزيع السكان بين المحافظات الثلاث في الشمال وباقي المحافظات في الوسط والجنوب، حيث يقطن معظم سكان العراق. وعلى سبيل المثال أن منظمة يونيسيف التي تُعنى برعاية الطفل خصّصت 39 موظفاً لنشاطاتها في الشمال، حيث يقيم 13 في المئة من سكان العراق، و45 موظفاً فقط في الجنوب حيث أغلبية السكان. وهذا الاهتمام الاستثنائي بالشمال والتركيز على مساعدة الأكراد سمح للمنظمات غير الحكومية وبعثات برنامج النفط مقابل الغذاء أن تتجه نحو ترميم البنية التحتية في الشمال بعكس الجنوب الذي يعاني من الإهمال وشحّ المساعدات لعقد كامل.

وما زاد الوضع سوءاً في المحافظات الخاضعة للسلطة المركزية، أن القوات الأميركية والبريطانية قامت بتدمير البنية التحتية العراقية عام 1991 أثناء حرب الخليج، ثم أجهزت على ما تبقى منها في حرب الاستنزاف التي استمرت حتى العام 2003. ومن جراء ذلك دمّرت محطات الماء والطاقة والمرافق العامة. وفي كانون الثاني 1999 دمّرت الطائرات الأميركية محطة طاقة في بغداد فقلّصت من مقدرة الحكومة على إصلاح محطات تكرير المياه. وبسبب الحظر الاقتصادي مُنِع العراق من شراء قطع الغيار وإصلاح البنية التحتية كما مُنِع من استيراد مادة الكلور المعقمة للمياه. وكل هذا التدمير وقع في المحافظات الخمس عشرة ولم يحصل في مناطق الشمال التي لم تقصفها القوات الأميركية والبريطانية ولم تدمر بنيتها التحتية. كما ساعد الطقس المعتدل في الشمال على تحاشي أمراض الأطفال التي انتشرت في الجنوب من جراء تفشي الجراثيم في مجمعات المياه الآسنة والملوثة وغير المكررة نتيجة الطقس الحار.

واللهزلة أن كافة عمليات الأمم المتحدة من رقابة وتفتيش وبرنامج النفط مقابل الغذاء كانت على نفقة العراق فلم تغطّ تكاليفها ميزانية الأمم المتحدة كما هي العادة في ظروف مشابهة في دول أخرى.

وكان ثمة مشكلة أن المنشآت النفطية العراقية كانت عاجزة عن ضخ كميات كبيرة بسبب الحظر الأميركي على قطع الغيار والمعدات لتصليح ما تخرّب من منشآت الضخ والتوزيع وحقول البترول. ذلك أن شروط

William Polk, *Understanding Iraq*, New York, HarperCollins, 2005, pp. 164-166.⁶⁴

برنامج النفط مقابل الغذاء قضت بأن تقدّم حكومة العراق لائحة مشترياتها لمجلس الأمن ومن حق أي من الدول الخمس الكبرى مراجعة اللائحة وتعديلها إذا شاءت وصولاً إلى رفض محتوياتها. فكانت واشنطن ومعها لندن تتسلمان اللائحة وتتأخران في الموافقة أو تشطبان بعض المواد والبضائع. وأحياناً كانت اللائحة مشابهة لسابقتها ويمكن أن تُمنح على موافقة فوريّة، ولكن كانت كلّ مراجعة وموافقة ميريكية تستغرق أربعة شهور أو أكثر.

كان العراق يعيش الجحيم مع كلّ خطوة في تعامله مع أميركا وبريطانيا في لجنة الحظر. ومثال على الصعوبات التي عانى منها العراق، أنّه من أصل 37 لائحة مشتريات في الفترة من أيار 1996 وحتى آذار 1997، حصل العراق على الموافقة على 9 لوائح فقط. كما جرت محاولات أخرى لتخفيف وطأة العقوبات على الشعب العراقي ولكنها لم تتكلّل بالنجاح. وعلى سبيل المثال أصدر مجلس الأمن الدوليّ القرار 1409 في 4 أيار 2002، بإيعاز من الإدارة الأميركيّة وتضمّن "عقوبات ذكيّة" قيل إنّها ستخفف الحصار عن الشعب العراقيّ عبر فسخ المجال لاستيراد البضائع المدنيّة والتركيز على حظر البضائع التي تساهم في صناعة الأسلحة. ولكن هذه العقوبات "الذكيّة" كانت كالأسلحة الذكيّة التي استعملتها الولايات المتّحدة ضد العراق والتي لم تميّز بين هدف مدنيّ وهدف عسكريّ. فكان القرار الجديد مجرد لعب على الكلمات حول تخفيف في حين أنّه قوى من شكيمة الولايات المتّحدة في مواصلة الحصار وبمباركة دوليةّ شاملة هذه المرّة ومشفوعة بقرار من مجلس الأمن. وبمعيار القرار الجديد أصبحت سيارة الإسعاف للمستشفى مزدوجة الاستعمال، لأنّها قد تستعمل في نقل الجنود. وبعد ذلك قدّمت البعثة الأميركيّة لدى الأمم المتّحدة لائحة بمئات الصفحات حول السلع التي تعتبرها الولايات المتّحدة مزدوجة الاستعمال ويجب الحصول على الموافقة المسبقة. وتردّد أعضاء مجلس الأمن فترة قبل توقيع اللائحة الأميركيّة المجرمة التي حرمت العراق من كلّ سلع الحياة الضروريّة تقريباً والتي يشتريها بماله الشرعيّ الذي تحتجزه الأمم المتّحدة.

وكانت نيويورك تايمز⁶⁴⁷ واضحة في أنّ القرار الجديد هدف إلى امتصاص المعارضة الدوليّة الشعبيّة والرسميّة ضد العقوبات المفروضة على العراق وإلى خلق أجواء تمهّد لحرب عسكريّة ضد العراق في حال لم "يتعاون" تماماً مع لجنة التفتيش. ذلك أنّ القرار الجديد أعطى غطاء دبلوماسياً لإدارة جورج بوش الابن لعمل عسكريّ يطيح بصدام حسين. وهكذا في أواسط 2002 كانت الخطط جاهزة لاجتياح العراق. وكما كانت الـ فايننشال تايمز اللندنية أكثر وضوحاً عندما نقلت عن لسان ناطق باسم الحكومة الأميركيّة أنّ القرار الجديد هو مجرد دعاية أو علاقات عامة لنقل اللوم حول الوضع الإنسانيّ المؤلم في العراق من واشنطن إلى نظام صدام حسين وأنّ أميركا تقوم بعمل ما من أجل شعب العراق⁶⁴⁸.

ومن الأمثلة أنّ أميركا منعت شراء 500 سيارة إسعاف طلبها العراق بعد تسلّمه تقرير من منظمة الصحة العالميّة التابعة للأمم المتّحدة يؤكد الحاجة الماسّة والفورية لهذه السيارات. ثم سمحت بشراء 200 سيارة إسعاف بعد ستة أشهر. كما منعت الولايات المتّحدة شراء مواد طبيّة وتعقيم وحُقن لبعض الأمراض ومنعت

New York Times, 15 May, 2002.⁶⁴⁷
Financial Times, 15 May 2002.⁶⁴⁸

حتى أقلام الرصاص التي رأى فيها الأميركيان استعمالاً مزدوجاً. كما منعت لجنة العقوبات طلبات شراء أجهزة كمبيوتر ضرورية للمؤسسات الحكومية لكي ترعى شؤون المواطنين، وقطع غيار للمنشآت الصناعية والحيوية، ومعدات طبية وتجهيزات للمستشفيات وحتى كتب ومجلات، وتقريباً كل ما يحتاجه أي مجتمع ليستمر في البقاء.

في أيار 2002، وفيما كان سفير الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة، جون نيغروبونتي، يبارك القرار 1409 ويصرح أن لا قيود على العراق لاستيراد المواد الإنسانية ويلوم "نظام صدام"، كان الموظفون الأميركيون يحتجزون طلبات عراقية لشراء مواد غذائية وطبية بقيمة 5 مليارات دولار. لقد أشارت تقارير الأمم المتحدة التي اعتمدت على معلومات موظفيها داخل العراق أن شبكة توزيع الغذاء والدواء التي أدارتها الحكومة العراقية كانت متقنة وممتازة وشديدة الفعالية، وكانت تصل إلى كل المواطنين في وقت قياسي. حتى أن مدير برنامج النفط مقابل الغذاء التابع للأمم المتحدة، طون ميات، صرح أن "نظام التوزيع الحكومي العراقي لا مثيل له في العالم ويصل إلى من يجب أن يصل إليه". المشكلة كانت في صعوبة شراء الأغذية والأدوية بسبب القيود والتأخيرات الأميركية في الموافقة على الطلبات العراقية. وحاولت حكومة العراق الصمود في وجه الحظر من خلال شبكات توزيع أقامتها، ولكن الكميات التي كانت توزعها كانت تنحدر باستمرار لم تتجاوز 34 في المئة في أوائل العام 1995. والظلم والعدوان الأميركي لم ينتهيا مع احتلال العراق، إذ إن الغزو الأميركي في آذار 2003، عطّل شبكات التوزيع الحكومية، ووقف الجيش الأميركي منتصراً على 25 مليون مواطن عراقي غاضب جائع تفتك به الأمراض بعد 12 سنة من الحصار.

موت 1.5 مليون عراقي

في التسعينيات بدأ المجتمع العراقي يتفتت، فغابت منظمات المجتمع المدني وعمّ الفساد وركن الشعب إلى مصيره. وبدأ أبناء الطبقة الوسطى في المدن العراقية، رمز العز السابق، يبيعون ممتلكاتهم على الأرصفة لسدّ رمقهم. وعندما أصبحوا لا يجدون ما يبيعونه اضطروا إلى التسوّل. ورغم فيضان التقارير من المنظمات الإنسانية والدولية عن معاناة العراقيين وأدلة عن فشل العقوبات والحصار إلا أن الولايات المتحدة لم تبد شفقة على الناس العاديين ولم تحاول التخفيف عن الشعب. وأكد الحصار للعراقيين أن أميركا هي وراء مصائبهم وجوعهم وليس صدام، وأن أميركا لو شاءت لأشبع الشعب العراقي ومكنته من التركيز على سلبات النظام وليس العكس. فقد كان هدف أميركا القضاء على العراق كدولة وكيان، وإضعافه كشعب وأرض وطبعاً بذريعة شعارات الديمقراطية.

وأشارة إلى تدهور وضع أطفال العراق، فقد كانت نسبة وفيات الأطفال 37 بالألف عام 1989 لكنها تضاعفت إلى 120 بالألف عام 1991 (بزيادة أكثر من ثلاثة أضعاف). كما أكدت أرقام اليونيسيف هذا المنحى، حيث زادت وفيات الأطفال بنسبة 250 في المئة إلى 125 بالألف عام 1998. وذكر تقرير لمنظمة الصحة العالمية

عام 1991 أن النظام الصحي العراقي قد أصبح بدائياً وفي غاية التخلف وبدون أدوية ومعدات ونقص فادح في الأطباء.

وازداد الوضع سوءاً في ما بعد، فأفاد تقرير لليونيسيف (منظمة الأمم المتحدة لشؤون الأطفال) أن مئة ألف طفل عراقي ماتوا عام 1993 بسبب الحصار وانعدام الغذاء والدواء. وأن 5500 مؤسسة تعليمية في العراق تعرضت للدمار والخراب والنهب وباتت بحاجة إلى ترميم وتجهيز ومعدات كي تعود إلى استيعاب ملايين الأطفال. كما تراجع معدّل الأعمار في العراق عشرين عاماً للرجال و11 عاماً للنساء وانتشرت أمراض كالسكري فازدادت إلى الضعف عام 1993، وانتشر مرض الكوليرا حيث سُجّلت آلاف الإصابات الجديدة كل سنة وتضاعفت إصابات التيفوئيد عشرات المرات. ثم انفجرت هذه الأمراض خمسة أضعاف لدى العراقيين فوق سنّ الخمسين عام 2000.

وبسبب غياب حقن المورفين، توفي عدد كبير من المرضى بسبب آلام مبرحة كان توفر المورفين سيخفّفها ولم تستطع المستشفيات معالجة أكثر من 20 في المئة من الحالات. وكلما طلبت الحكومة العراقية أدوية ومعدات طبية كانت لجنة برنامج النفط مقابل الغذاء في نيويورك تماطل شهوراً عدّة للموافقة عليها أو على بعضها. كما أنّ أطباء اليونيسيف ومنظمة الصحة العالمية ومنظمة الغذاء والزراعة الدولية لاحظوا آثار سوء التغذية والمجاعة بأشكال مختلفة في مستشفيات العراق التي زاروها. حيث شاهدوا أطفالاً يزنون نصف ما هو متوقّع بالنسبة لسنتهم، وقد سُطفت وجوههم وأصبحت أضلاعهم عظماً يغلفها الجلد، يعانون من حالات شديدة من الإسهال وأمراض المعدة. ولم يكن هؤلاء الأطفال يشكون من سوء التغذية فقط بل كانوا في حالة احتضار تؤدي إلى موت حتمي، تسمّى في الطب "ماراسموس" أو "انضواء أعضاء الجسم واضمحلالها". ومعظم هؤلاء الأطفال عاشوا على طعام هزيل قوامه الحبوب وخاصة الأرز وحساء خفيف يغلب عليه الماء الملوّث، وخلا هذا الغذاء من فيتامينات ومعادن ومغذيات أساسية عدّة وأدى إلى ضعف في الدم ومضاعفات سلبية.

وكان الوضع أسوأ بكثير خارج بغداد، حيث ظهرت حالات خطيرة في مدن كربلاء والكوفة. كما تبين أنّ 26 في المئة من الكبار (ما فوق 18 عاماً) يعانون من نقص فادح في التغذية مقارنة بنسبة الـ5 في المئة المقبولة دولياً⁶⁴⁹. أما في البصرة التي كانت مركزاً نفطياً هائلاً ومن أغنى مدن العالم فقد كان وضع المستشفيات مأساوياً، حيث الأطفال باتوا شبه هياكل عظمية وبعضهم يأس الأطباء من حالته فترك يموت ببطء وآخرون يعانون من ضعف الدم وسوء التغذية وأمراض التنفس واللوكميا وأمراض الكلية. وفي قاعة مستشفى ثمة 14 جهازاً مخصّصاً لحماية الأطفال معطلاً بسبب فقدان قطع الغيار لتصلحها. أما بنوك الدم في المستشفيات فكانت عبارة عن برّادات منزلية صغيرة الحجم، وغابت أجهزة المصل. ولضالة عدد الملاك، رابط الأهالي حول أسرة مرضاهم لخدمتهم ومساعدتهم⁶⁵⁰.

⁶⁴⁹ "Sanctions, Nutrition and Health in Iraq", Peter L. Pellett, In Armove, Anthony, *Iraq Under Siege*, Cambridge MA, South

End Press, 2002, pp. 185-203

⁶⁵⁰ Kathy Kelly, "The Children of Iraq" in *Iraq Under Siege*, pp. 152-153

كما عانت البصرة من غياب مياه الشفة، حيث كانت الحرارة ترتفع إلى 60 درجة مئوية. وفي هذه الحال يحتاج الإنسان إلى شرب غالون من الماء كل يوم. ولكن العقوبات منعت مادة الكلور المطهرة وأصبحت المياه ملوثة. فهرع الناس لشراء المياه المعبأة. ولكن حتى المياه المعبأة كانت ملوثة إلى درجة كبيرة ومضرة بالصحة. فيما أنابيب ضخ المياه في المدينة صداة علاها الاهتراء تجتاحها مياه المجاري بسبب الثقوب فتتسرب السموم والمواد الملوثة.

في تلك الأثناء كانت لجنة النفط مقابل الغذاء في نيويورك تواصل القضاء على شعب العراق تدعمها البيروقراطية التي تراقب المشتريات العراقية حيث يعيش موظفوها ببجوة في مكاتب وثيرة وإلى جانبهم كافتيريا تقدم أطعمة لذيفة بأسعار متهاودة مدعومة، وخارج مكاتبها علّق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي يؤكّد حق كل إنسان في هذه الدنيا بالحياة الكريمة.

عندما قامت منظمات إنسانية أميركية بنقل مساعدات جمعتها إلى العراق، اعتبرت الإدارة الأميركية تحدياً للحظر فعاقبت هذه المنظمات بغرامات تصل إلى مليون دولار وتهديد بفترات سجن لأعضاء المنظمة تصل إلى 12 سنة⁶⁵¹.

ولم يكن الوضع الصحي في الأرياف بأفضل منه في المناطق الأخرى. فمن مناطق الجنوب المغطاة بغبار اليورانيوم المستنقذ إلى مناطق ريفية ازدهرت فيها أنواع خطيرة من الحشرات المدمرة للبيئة والمزروعات، فكانت الأوضاع الإنسانية متدهورة. إلى درجة أن مسؤولي فاو (منظمة الزراعة والأغذية التابعة للأمم المتحدة FAO - Food and Agriculture Organization) فشلوا في مقاومة نوع من الذباب من فصيلة آكلة لحوم البشر والحيوانات، حيث اكتشف خبراء فاو أن هذا النوع من الذباب لا يهاجم الأبقار والغنم والماعز فقط بل الأطفال أيضاً. فقد تسلل ذباب "سكرو ورم" screw worm إلى أنوف الأطفال ليضع بويضاته، التي ما أن تفقس حتى تتحوّل يرقات تمتصّ الدم داخل الأنف وتتهش في وجه الطفل. حتى يلاحظ الأهل دماء تنزف من أنوف أطفالهم يرافقها خروج يرقات الذبابة. وأظهرت تقارير "الفاو" أن سوء تغذية الأطفال وصل إلى مستوى جعل العراق في أدنى السلم العالمي، يُقارن بوضع الأطفال في أفقر دول العالم.

كان المدافعون عن نظام العقوبات في الحكومة الأميركية والكونغرس والإعلام يقولون إن الحظر الاقتصادي هو عقاب مؤقت وهو أسلوب سلمي فعّال في احتواء نظام العراق. فردّت منظمات المجتمع المدني الأميركية أن العقوبات هي نوع من أنواع الحرب أضرت بالفقراء والمرضى والأطفال والنساء الذين يشكّلون معظم أبناء العراق، وهذا منتهى العنف. فإذا أضيفت إلى العقوبات الغارات العسكرية الأميركية والبريطانية لتبيّن إلى أي حدّ جرى تدمير البنية التحتية الإنسانية في العراق. وباعتراف سائر المنظمات الدولية أصبح الوضع مزرياً للغاية في البنية الصحية والخدمات في أعوام الحصار. كما أعلنت منظمات إنسانية أن الرأي العام الأميركي قد يعتقد أن العقوبات هي أرحم من العمل العسكري وأقلّ كلفة من الناحية الاقتصادية لأمريكا. ولكن الحقيقة أن تطبيق الحظر الجوي والأرضي وفرض نظام العقوبات على العراق وإبقاء قوى عسكرية، كلف الولايات المتحدة مليارات الدولارات.

651 -156 Kathy Kelly, The Children of Iraq in Iraq Under Siege, pp. 15

شعب العراق الذي كان يتمتع بخدمات صحية تضاوي تلك المتوفرة في الدول الصناعية الغنية، بحيث كانت سمعة الأطفال من الظواهر التي كان يعالجها أطباء العراق قبل العقوبات. هذا الشعب أصبح يواجه خطر الموت بأمراض وبائية بسبب تدمير الطائرات الأميركية لمرافق الصرف الصحي وصب المجاري الملوثة في الأنهار والمجمعات المائية. في حين أصبحت مستشفياته من دون كهرباء وأدوية لمعالجة شعب جائع ومريض. فكان الأطفال يشربون المياه العكرة الملوثة ويعانون من سلسلة أمراض مرتبطة بتلوث الماء كالتييفوس وديدان المعدة والأمعاء والكوليرا والتيفوئيد. بالإضافة إلى عوارض ضيق التنفس وانخفاض في السعرات الحرارية التي يحصل عليها الفرد. حتى أشارت تقارير دولية إلى وفاة 50 ألف شخص سنوياً زيادة على المعدلات العادية عام 1989 من أمراض القلب والسكري والعصبي والسرطان والكبد والكليتين. وحتى العام 1997، أحصت مصادر علمية بريطانية عدد ضحايا العقوبات الاقتصادية بـ 1.5 مليون عراقي أكثر من نصفهم دون الخامسة من العمر. ففي تقرير اليونسيف للعام 1999 أكد وفاة 5000 طفل (دون سن الخامسة) شهرياً فوق معدل وفيات الأطفال للعام 1989. السنة الأخيرة قبل الحظر. وحتى في تقريرها في آذار 2002، أعلنت اليونسيف أن 22 في المئة من أطفال العراق يعانون من سوء تغذية مزمن.

لقد تبجحت الولايات المتحدة أن حرب الكويت عام 1991 كانت حرباً نظيفة وأنها استعملت قنابل ذكية. ولكنها كانت في الحقيقة حرباً بيولوجية هدفها القتل الجماعي لشعب العراق. حيث عمدت القوات الأميركية إلى تدمير البنية التحتية المدنية العراقية من محطات تكرير المياه وصرف صحي وكهرباء، ما أدى إلى اجتياح الفيروس والجراثيم والحشرات العراق وإلى قتل مئات الألوف من الأبرياء. وحرمان 22 مليون عراقي عام 1991 من الكهرباء كان مسألة جانبية لم يستحق الاهتمام من المسؤولين الأميركيين ومجلس الأمن. ولم يستطع العراق حتى العام 2003 من ترميم هذه المنشآت، فكان تدميرها سبباً مباشراً لوفاة أكثر من مليون عراقي بالأمراض الناجمة عن التلوث والأوساخ وقلة التعقيم والمياه العكرة. وهو رقم يفوق عدد ضحايا كل الحروب التي خاضها العراق منذ 1980.

كما أن تقريراً للأمم المتحدة عام 1999 تكلم عن شح في المواد الغذائية والسلع الأساسية وسوء التغذية وتدهور في البنية التحتية للمرافق الخدمية الصحية والتربوية والرعاية الاجتماعية، وتسمم وتلوث مرافق المياه وتدمير مراكز التصفية والتحلية وتكرير المجاري والنفايات العضوية والصناعية. كل هذا أدى إلى إيذاء الأطفال والرضع بالدرجة الأولى الذين تعرضوا إلى بيئة غير نظيفة وغير صحية وخاصة في المدن. ولقد قدر برنامج الغذاء الدولي عام 1997 أن مياه الشرب كانت متوفرة فقط بنسبة 50 في المئة عما كانت عليه عام 1990، وتدنّت إلى 33 في المئة عن المستوى السابق في الأرياف.

إن أي شخص يقرأ التقارير والمعلومات سيستنتج فوراً أن الحصار والعقوبات هي جرائم ضد الإنسانية يستحق مرتكبوها المحاكمة. لأن ما حصل في العراق في العقد الذي تلى حرب الخليج كان مجزرة جماعية بحق شعب العراق. وعام 2003، كان مشهداً سورياً أن وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفلد استنكر عرض التلفزيون العراقي لأسرى حرب أميركان أثناء الغزو الأميركي لأن ذلك يُنقص من الحقوق الإنسانية لهؤلاء الجنود ويجرح مشاعرهم، رغم أن الولايات المتحدة لم تترك بنداً في وثائق جنيف ولاهاي والقوانين الدولية

حول حقوق الإنسان وطريقة التعامل مع المدنّيين إلا وخرقته ضد العراق منذ العام 1991⁶⁵². فهذه القوانين الدولية حرّمت قصف المدنّيين في زمن الحرب وحظرت التجويع والعقاب الجماعيّ.

ظلم ذوي القربى

المؤسف أنّ الحكومات العربيّة ومعظمها مواليّ لأميركا لم تلتفت إلى الوضع المأساويّ الإنسانيّ في العراق، بل لعبت دوراً تكاملياً مع الهجوم الأميركيّة بأنّ كرّست إعلامها لغسل أدمغة شعوبها أنّ قضية العراق هي شخص صدام حسين، بينما تقوم الولايات المتّحدة بما هو أسوأ من يوم القيامة ضد شعب العراق وأطفاله. ورغم أنّ وسائل الإعلام والصحف العربيّة في بيروت والقاهرة والخليج كانت تنشر ملخصات تقارير عن عمق المأساة العراقيّة، إلا أنّ ذلك لم يؤدّ إلى أي تحرك على الصعيد الرسميّ الذي لا يمكنه معارضة مشيئة واشنطن. وفي أواسط التسعينيات بدأت الفضائيات العربيّة تعرض صوراً فوتوغرافية وبرامج توثّق بالتفصيل الموت البطيء لشعب العراق. فلم يعد لغزاً ما يحدث داخل العراق بالنسبة للشارع العربيّ واستشاط الناس غضباً في العواصم العربيّة.

استمرّ أسلوب المداهنة بين الحكومات العربيّة، حيث كان معظم الزعماء يسرون في فلك السياسة الأميركيّة وظهر الخداع أنّ حكومة عربيّة لم تصدر بياناً رسمياً عن ظلم العقوبات الدوليّة لأنّ مناهضة السياسة الأميركيّة تجاه العراق هو تهوّر لمن يريد أن يحافظ على عرشه أو كرسيه. وأصبح الشعب العراقيّ الذي أدلته العقوبات يكره أميركا ويرى في تحديّ صدام للحصار عملاً وطنياً. كما قال مواطن عراقيّ ماتت ابنته من المرض لصحيفة أميركيّة (*U.S.A. Today*): "أريد من صدام أن يقف في وجه أميركا لأنّها قطعت عني الماء والكهرباء وقتلت طفلي".

أمّا المعارضة العراقيّة في الخارج، فمع الوقت لم يعد لها دور يُذكر في شؤون العراق، ما عدا عقد مؤتمرات هنا وهناك وإصدار بيانات. فكان خطابها يقتصر على التنديد بالنظام والتكلم عن أهواله فلم تقم حركة عراقية في المنافي والمغتربات ترفع الصوت حول مأساة الحصار والمرض والجوع في الوطن وترفع الدراسات والملفات إلى أعلى المستويات العالميّة وتضع يدها بيد المنظمات غير الحكوميّة المناهضة للحرب في المجتمعات الغربيّة وتضغط على أميركا لرفع الحصار.

وكان أعضاء ومسؤولو لجنة التنقيش الدوليّة في العراق يتجولون بحثاً عن الأسلحة ويشاهدون بأمّ أعينهم حالة المجتمع المتدهورة وفقر البلاد. فلا عجب أنّ دنيس هوليداي منسق نشاطات الأمم المتّحدة في العراق⁶⁵³

⁶⁵² عرضت الإدارة الأميركية يوم 24 تموز/يوليو 2003 صور جثتي عدي وقصي ابني صدام حسين بعدما قتلها الجنود الأميركيون في 22 تموز في الموصل. ورغم فظاظة منظر الجثث إلا أنّ أحداً لم يعترض على نشر هذه الصور.

⁶⁵³ UN Coordinator in Iraq.

استقال من منصبه احتجاجاً على "التدهور الأخلاقي والفكري الذي يحكم سلوك الأمم المتحدة والخارجية الأميركية والخارجية البريطانية والذي يؤدي إلى إفناء شعب العراق".

الإعلام الغربيّ الواسع الانتشار كمحطات التلفزة الأميركية والصحف الكبرى كان إحدى أدوات أميركا والغرب في الحرب الطويلة الأمد على العراق وشعبه. فغطى الإعلام أعمال لجنة التفتيش وكان جيش من المصورين والصحافيين يرافق جولات المفتشين وينشر كل خطوة على أنها عمل خطير يقوم به العراق، فيما كان القتل الجماعيّ الذي نتج عن العقوبات لا يثير أي اهتمام إعلامي غربي. فلم نشاهد على سي أن أن وغيرها ريبورتاجات مصوّرة عن الوضع في المستشفيات والكوارث الإنسانية في مدن العراق وأريافه. وأصبحت أي تغطية إعلامية عن العراق هي حديث عن صدام، حتى بدا للمواطن العادي الأميركي والغربي بأنّ هناك شخصاً واحداً يعيش في العراق اسمه صدام حسين وأنّ أميركا - الساعية إلى الخير والسلام في العالم - تريد احتواءه ليعيش الشعب في بحبوحة النعيم الأميركيّ.

وأصبحت محتويات الصحف اليومية ومحطات التلفزة في بريطانيا وأميركا لا يمكن تمييزها عما يقوله الناطقون باسم البيت الأبيض. حتى أنّ بعض الكتاب الصحفيين كانوا يحمسون الرأي العام ويهيئونه للحرب والعنف. فيكتب توماس فريدمان مراسل نيويورك تايمز أنّ "على أميركا أن تقصف العراق مرّة ثانية وثالثة ورابعة ومراراً، حتى يفهم العراق أنّ أميركا ستستعمل القوة ولن تفاوض ولن تتردد وستتصرف بدون موافقة الأمم المتحدة"⁶⁵⁴.

ويصل جنون فريدمان، الذي تتبارى الصحف العربية في ترجمة مقالاته ونشرها وتقوم الفضائيات بإجراء مقابلات معه وكأنّه من العظماء، إلى حدّ النداء إلى تدمير العراق على أساس أنّ ذلك سيخلص العالم من صدام، فيدعو الطائرات الأميركية إلى العمل: "أضربوا محطة كهرباء في العراق كلّ أسبوع حتى يصل الأمر إلى حدّ أنّ لا أحد يعرف متى يعود نور الكهرباء ومتى ينطفأ فيستنتجون أنّنا نسيطر على الوضع في بلدهم. استغلّوا كلّ تحدّ من صدام لطائراتكم واقصفوا منزل أحد ضباطه"⁶⁵⁵. إنّ ترجمة مقالات هذا المعتوه وإجراء المقابلات معه على التلفزة العربية تجعل الحكام العرب يقومون بواجبهم الإعلاميّ تجاه الريبب الأميركيّ. لقد كانت دعوات فريدمان لقصف محطات الكهرباء نداء لارتكاب جرائم الحرب (وقد سبق وأن قامت "إسرائيل" مراراً بتدمير البنية التحتية وخاصة محطات الكهرباء في لبنان) وكتاباته كافية لإدانته كداعٍ للحرب والعنف والقتل ولم يكن أبداً صحافياً صاحب ضمير مهنيّ. ذلك أنّ تدمير كلّ محطة كهرباء في العراق كان يعني تلف الأطعمة والأدوية لعدم التبريد وتعطيل المستشفيات وتلوّث المياه ما يؤدي إلى المزيد من موت المدنيين والأطفال من الجوع والمرض. ناهيك عن الحرمان من أبسط مقومات الحياة العصرية التي يؤمّنها وجود الكهرباء.

New York Times 24 February 1998.⁶⁵⁴

New York Times, 19 January 1999.⁶⁵⁵

انهيار المجتمع العراقيّ

قضى الحصار الاقتصاديّ على الطبقة الوسطى العراقية ودفع الشعب العراقيّ للعيش في الخوف والمرض والجهل والظلمة لسنوات طويلة. وضاع المواطن فلم يعد يعلم ضد من يوجّه غضبه: ضد نظام بلده الذي أوصله إلى هذا الويل، أم ضد أميركا التي قصفته وشرّده وجوّعته وعطلت كلّ أسباب الحياة في بلده، أم ضد الأنظمة العربيّة التي صمتت عن معاناته أم ضد الشعوب العربيّة المغلوبة على أمرها والتي كانت تعاني من أوضاعها الخاصة في بلادها.

في العام 1980، كان الدخل الفرديّ السنويّ للمواطن العراقيّ 4100 دولار، انخفض إلى 500 دولار عام 1993 وإلى أقلّ من 300 دولار عام 1999. وهاجر من العراق عشرات الآلاف من أصحاب الكفاءات العالية ومن بقي منهم لجأ إلى أعمال إضافية لتدبير معيشتهم، فعمل أطباء ومهندسون ومحامون وأساتذة جامعيون كسائقي تاكسي وسعاة وبائعي خضار، فيما عمل الفقراء مقابل أجور في غاية الوضاعة والاستغلال. وأشار تقرير لمنظمة الصحة العالميّة عام 1996، إلا أنّ أغلبية الشعب العراقيّ تعيش على نصف غذاء ووصلت إلى المجاعة. وأكّد تقرير عن منظمة الأغذية والزراعة الدوليّة أنّ العراقيّين يعيشون على 34 في المئة من النسبة المقبولة من الوحدات الحراريّة لبقاء الإنسان.

كانت واشنطن ولندن تدعيان البراءة من دماء الشعب العراقيّ كلما أُثّرت مسألة العقوبات، أو أنّ صدام لا يتعاون مع لجنة التفتيش. تماماً كما عرض الرئيس بوش على العراق 48 ساعة لإخراج جيشه الكبير من الكويت وإلا واجه الموت، في حين لم تنبس الإدارة الأميركيّة ببنت شفة ضد الاحتلال الإسرائيليّ للأراضي الفلسطينيّة منذ 1967. ففي حالة العراق رأت أميركا أنّ على العراق تنفيذ القرارات الدوليّة فوراً وإلا واجه الدمار. أمّا في حالة "إسرائيل" التي بلغت القرارات الدوليّة التي خالفها خلال نصف قرن أضعاف القرارات الصادرة حول العراق، فإنّ المسألة تحتاج إلى عقود من المفاوضات بين الاحتلال والضحية.

والمهزلة أنّه بنظر أميركا لا يعود عدد الذين يقتلهم القصف أو الأطفال الذين يموتون من الحصار على العراق ذا أهميّة "فالحق ليس على أميركا وبريطانيا بل على العراق الذي رفض عرضنا السخيّ فجلب هذا الويل على نفسه"⁶⁵⁶. ولم يكن الرئيس الأميركيّ بيل كلينتون أفضل من بوش. فقد أكّد أنّ العقوبات الاقتصاديّة ستبقى إلى الأبد أو حتى زوال صدام. وهذا يعارض معايير قرار مجلس الأمن 687 الذي وضع العقوبات بأنها تزول فور التأكد من أنّ العراق خالٍ من أسلحة الدمار الشامل وليس بعد رحيل صدام.

لطالما زعمت أميركا أنّ العراق يشتري ما يكفي من الأدوية، ولكن حكومته تخزّن الكميات ولا توزعها على المستشفيات ومراكز الطبابة والصيدلة. ولكن الأمم المتّحدة راقبت عن كثب عمليّات تسلّم وتخزين وتوزيع الأدوية والأغذية وأتت تقاريرها مناقضة للدعّاء الأميركيّ وأنّ "مسألة تراكم البضائع في العراق وتأخّر عمليّات التوزيع سببه الدمار في البنية التحتيّة وليس سوء نيّة من الحكومة العراقيّة"⁶⁵⁷. وبالنسبة للمعدّات الطبيّة

ZNet 19 December 1999.⁶⁵⁶

⁶⁵⁷ استقال سبونيك في ما بعد احتجاجاً على العقوبات.

والأدوية فالتأخير كان مصدره العراقيّ التي وضعتها لجنة النفط مقابل الغذاء ففرضت على العراق شراء كل شيء من شركات غربيّة تحددها هي. وطالما أنّ الأدوية والأغذية تحتاج في معظمها إلى تبريد دائم في بلد تصل فيه درجات الحرارة إلى 50 درجة مئوية أو أكثر، فإنّ أجهزة التبريد والشاحنات المبرّدة كانت ضروريّة لنقل وحفظ البضائع السريعة العطب، فكانت البضائع الطيبة تصل إلى العراق ولكنّ كثير منها كان ينفق بدون تبريد مثل قفازات الجراحة والمأكولات وأدوية معالجة السرطان. ورغم ذلك منعت اللجنة شراء الشاحنات المكيفة بحجّة أنّ العراق سيستعملها لغايات عسكريّة⁶⁵⁸.

الترميم وإعادة الإعمار احتاجا إلى 100 مليار دولار، ولكن برنامج النفط مقابل الغذاء لم يسمح للعراق الا بتصدير كميات من النفط لا تزيد قيمتها عن بضعة مليارات من الدولارات لشراء مواد غذائية وطبيّة. ولم يكن هدف البرنامج أبداً إعادة نهضة شعب العراق وعودة الصحة والتربية والتعليم إلى أطفاله. ففي آذار 1999 أصدر مجلس القضايا الإنسانيّة التابع لمجلس الأمن تقريراً كشف سوء الحالة في العراق والفشل الذريع لبرنامج النفط مقابل الغذاء، وأنّه كي يتعافى العراق "فإنّ نظام النفط مقابل الغذاء لا ينفذ بل إنّ العراق يحتاج إلى استثمارات فوريّة في قطاعات معيّنة مثل النفط والكهرباء والماء والزراعة والصرف الصحيّ". لقد اعترفت الأمم المتّحدة في نهاية عام 1998 أنّ منشآت النفط العراقيّ باتت في وضع متدهور للغاية وتحتاج إلى ترميم وقطع غيار وتطوير بكلفة تبلغ بضعة مليارات من الدولارات. ولكن الموقف الأميركيّ عارض دوماً أي استثمارات خارجيّة في العراق ريثما يأتي الوقت الذي تستطيع فيه الشركات الأميركيّة من الضلوع بهذه المهمة. وهكذا جمّدت العقوبات الوضع في العراق ونجحت عملياً في منع منافسي أميركا (الاتحاد الأوروبيّ واليابان وروسيا والصين) من تفعيل عقودهم مع العراق كي لا تُحرم أميركا من الاحتياط النفطيّ الهائل. خلال 12 عاماً من الحصار منعت الولايات المتّحدة أي دولة أخرى من دخول العراق والمساهمة في إعادة بنائه، أو الاستثمار في بنيته التحتيّة التي دمّرتها هي. كما منعت العراق من تصدير أي بضائع أخرى باستثناء النفط مقابل الغذاء الذي ضبطته هي بأسلوب مؤذٍ جائر. كما فرضت العقوبات على العراق أن يستعمل المال لاستيراد المواد الغذائيّة المصرّح بها بموجب لوائح البرنامج لا أن يشتريها محلياً فاضطرّ العراق إلى شرائها من شركات في الولايات المتّحدة وبريطانيا ودول أخرى ما حرم المنتجين العراقيين من تصريف بضائعهم.

لقد كتبت مجلة "Foreign Affairs" الأميركيّة أنّ الحرب الأميركيّة ضد العراق أدّت إلى "مقتل مئات الألوف من شعب العراق وإلى حرمان العراق من 140 مليار دولار من عائدات البترول خلال ثماني سنوات وإلى إفقار للمجتمع وتضخّم كبير في أسعار السلع وإلى أزمات اقتصاديّة واجتماعيّة غير مسبوقه ومستويات مأساوية من البطالة في قواه العاملة"⁶⁵⁹. كما ذكرت المجلة رغم أنّها مقرّبة من اليمين الأميركيّ أنّ عدد ضحايا العقوبات من أبناء العراق فاق عدد ضحايا كلّ أسلحة الدمار الشامل التي استعملت في التاريخ.

⁶⁵⁸ نبيل عبد الرحمن حيوي، بغداد تتألم يوميات أسرة عراقية من الصمود إلى السقوط، دار القلم، 2003.
⁶⁵⁹ Foreign Affairs, June 1999.

الاستنزاف

قليلون يعلمون أن الولايات المتحدة وحليفتها بريطانيا شنت حرب استنزاف ضد العراق من آذار 1991 وحتى 19 أيلول 2002، جعلت من أرض العراق مجالاً مفتوحاً للغارات الجوية والصاروخية دمرت منشآت حيوية وقتلت المدنيين. هذه الحرب حرب استمرت 12 عاماً تقريباً، ولكنها أصبحت إماً خيراً منسياً في الإعلام أو تذكيراً للعالم بأن الحرب العسكرية ضد العراق والتي بدأت عام 1991 ما زالت مستمرة. وهي حرب تُضاف إلى حرب العقوبات الاقتصادية التي شرحناها⁶⁶⁰.

في العام 1999، خصص البنتاغون 200 طائرة عسكرية و19 بارجة بحرية و22 ألف جندي لمواصلة الحرب اليومية ضد العراق بتكلفة مليار دولار في السنة. ومن ناحيتها خصصت بريطانيا أيضاً قوة ضاربة مهمة لمشاركة أميركا في هذه الحرب. كما أن القوات الأميركية جواً وبراً وبحراً ضربت العراق بما يفوق 88 ألف طن من المواد المتفجرة خلال شهر شباط وبداية آذار 1991. وهذه الكمية تفوق خمس مرات حجم المواد المتفجرة في القنابل الذرية التي أسقطتها الطائرات الأميركية على هيروشيما وناكازاكي.

إثنان من الصواريخ الأميركية "الذكية" أصابا ملجأً للمدنيين في حي العامرية في بغداد يوم 12 شباط 1991 فقتل 400 شخص حرقاً على الفور، حيث أحدث الصاروخان حريقاً رفع الحرارة داخل الملجأ إلى 900 درجة فهرنهايت. كانت الكهرباء مقطوعة في بغداد هذا اليوم، وانقطاعها أفضل من أن يشاهد العراقيون على التلفزيون نشرة الأخبار من أميركا، حيث سؤال الجنرال كولن باول (أصبح في ما بعد وزيراً للخارجية في عهد بوش الابن)، عن عدد العراقيين الذين قُتلوا في الغارات على العراق فأجاب: "إنه رقم لا يهمني أبداً"⁶⁶¹.

هاجمت حرب الاستنزاف أهدافاً عديدة خلال السنين الأربع الأولى. فهي أقامت منطقة حظر جوي في شمال العراق ومحمية للأكراد. ثم أصبحت المناطق الجوية المحظورة حكراً على الطيران الحربي الأميركي البريطاني بحجة المراقبة، حيث انسحبت فرنسا باكراً. وكانت قرارات إقامة مناطق حظر جوي فوق العراق أحادية الجانب اتخذتها واشنطن ولم يقرها مجلس الأمن ولا أي هيئة دولية أخرى. وفي آب 1992 أقامت الولايات المتحدة وبريطانيا منطقة حظر جوي في جنوب العراق، فأصبحت سماء العراق مجالاً مفتوحاً لطائرات التحالف الأنغلو-سكسوفي التي بدأت تُغير كل فترة على منشآت العراق وتدمرها. وعام 1996 تم تكبير الحظر الجوي حتى غطى معظم العراق باستثناء بغداد. فاستباحت أميركا البلاد لغاراتها شبه اليومية.

استمرت الغارات الأميركية لمدة عشر سنوات بدون توقف. وعلى سبيل المثال في نيسان 1993، استجاب الرئيس الأميركي بيل كلنتون لتقارير غير مؤكدة أن عملاء عراقيين حاولوا اغتيال بوش الأب في الكويت. فأمر كلينتون بحملة في 27 حزيران وأطلقت البحرية الأميركية عشرات الصواريخ من طراز توما هوك على وسط

⁶⁶⁰ Thabit Abdullallah, *Dictatorship, Imperialism, and Chaos: Iraq Since 1989*, Zed Books, London, 2006, pp. 88-91.

⁶⁶¹ Kathy Kelly, "The Children of Iraq 1990-1999", in *Iraq Under Siege*, pp.150-151.

العاصمة العراقية حاملة أطناناً من المواد المتفجرة أودت بحياة العشرات من الضحايا المدنيين. وهنأت وسائل الإعلام الأميركية كلنتون على نجاح هذه الغارة ولم يذكر أحد القتلى العراقيين.

وفي أيلول 1996، شنت الولايات المتحدة هجوماً بالصواريخ على العراق من دون مبرر سوى للتذكير بأن الحرب لا زالت قائمة. وصرح وزير الدفاع الأميركي وليم بيري، أن الهجوم سببه تهديد العراق جيرانه (...).

استعملت الولايات المتحدة القنابل العنقودية على العراق، وكان لها وقع قاتل على أرواح المدنيين لأنها لا تصيب أهدافها بدقة بل تنشر قنابل صغيرة كل واحدة منها بحجم القنبلة اليدوية على مسافة أكبر من ملعب فوتبول كبير، فتنفجر وتقتل في نطاقها، وما لا ينفجر يتحوّل إلى قنبلة موقوتة. لقد طوّرت الولايات المتحدة هذه القنابل وأصبح حجمها ضخماً يصل إلى ألف ليبرة وتحتوي 150 قنبلة صغيرة قوية المفعول تنتشر على مسافات كبيرة كالمطر، وتقذفها الطائرات بمعدّل ست قنابل عنقودية على كل موقع.

لقد أطلقت الطائرات الأميركية والبريطانية على العراق آلاف الأطنان من المواد الملتهبة والمواد الكيماوية السامة التي اختلطت في الهواء والماء والتربة. ما أدى إلى خلق كارثة بيئية ازداد وقعها سوءاً مع الأيام لأن الحكومة العراقية لم تستطع معالجتها بسبب العقوبات. واستمرّ تلوث الهواء حيث بلغت النسبة تسع مرات أعلى من المستوى الذي حدّته منظمة الصحة العالمية كمناخ صحي للإنسان.

استعملت كل من أميركا وبريطانيا قذائف مضادة للدروع شديدة الانفجار، ولكنها مصنوعة من اليورانيوم المستنفذ الذي يُعتبر من أقوى المعادن المستحدثة للاستخدام العسكري، خصوصاً في اختراق المصفحات. ولقد دخل هذا المعدن في الاستعمال العسكري بعدما أكّد العلماء أنه لا يوجد في الطبيعة أسمى منه، إلى درجة أنه أقوى من معدن Tungestin الذي يستعمل في فلذات الضوء الكهربائي. وأثبت الخبراء أن معدن اليورانيوم المستنفذ يحتوي على نسبة عالية من الإشعاع والسموم وأنه يسبّب أعراضاً سرطانية قاتلة مثل اللوكيميا والسرطان الليمفاوي وسرطان الرئة وسرطان العظم والأيدز. ولحظة ارتطام القذيفة المصنّعة من هذا المعدن بهدفها فإنها تحترق وتنشر من حولها جزيئات أوكسيد اليورانيوم السام. وأنّ الغبار المتناثر من الشظايا لا يزول من على البقعة الجغرافية التي استعمل عليها حتى بعد سنوات.

نشرت صحيفة "الإنديبندنت" البريطانية سلسلة مقالات عن استعمال اليورانيوم المستنفذ ضد العراق، أثار غضب المسؤولين البريطانيين. من بينها مقالات للصحافي روبرت فيسك الذي كشف أن إصابات الأطفال بالأمراض السرطانية قد تضاعف أربع مرات منذ العام 1991، بعد تعرّضهم لليورانيوم المستنفذ. ورأى فيسك بأن عينيه الأورام الخبيثة على بطون الأطفال وفي رقابهم. وقدّر فيسك أن الولايات المتحدة وبريطانيا أطلقت عشرات الآلاف من هذه النوعية من القذائف جنوب البصرة في الفصل الأول من العام 1991، ومعظمها سقط في أراضٍ زراعية تغذي مواسمها ملايين العراقيين⁶⁶². ولقد أطلقت القوات البريطانية والأميركية مليون طلقة من اليورانيوم المستنفذ من عيارات مختلفة بلغت زنتها 350 طناً، وتتضمّن 14000 قذيفة من عيار 105 و120 ملم، و940 ألف رصاصة ضخمة من عيار 25 و30 ملم. ما جعل أجزاء واسعة من أرض العراق مغطاة بالمواد المشعّة والغبار النووي.

⁶⁶²The Independent, March 9, 8 May, 16 October, 8 December 1998.

كما كشف فيسك في تقاريره رسائل سرية متبادلة بين مصلحة الطاقة الذرية البريطانية والحكومة البريطانية حول قصف مناطق جنوب البصرة بقذائف اليورانيوم المستنفد. جاء في إحداها: "أطلقت الدبابات الأميركية 5000 قذيفة من اليورانيوم المستنفد وأطلقت الدبابات البريطانية كميات أقل. فيكون مجموع ما أطلقته الدبابات أكثر من 50 ألف ليرة من هذه المادة المشعة. أما الطائرات الأميركية فقد قصفت مناطق جنوب البصرة بكميات تُقدَّر بعشرات الآلاف من قذائف اليورانيوم المستنفد. فإذا استنشق السكان المحليون هذه المادة، يمكن تقدير عدد الإصابات بالمواد المشعة الراديوية التي تبثها مادة اليورانيوم المستنفد بـ500 ألف إصابة بين المواطنين تؤدي إلى موت محقق. إن هذه المادة تنتشر في محيط إطلاقها وليس من الحكمة أن يبقى البشر وعليهم أن يتعدوا لمدة طويلة. والأخطر أن يجمع السكان الشظايا الفارغة ويحضرونها إلى منازلهم". والمرأة الحامل التي تنتشَق غبار اليورانيوم المستنفد فإنها تعرّض جنينها للموت في أحشائها، لأنَّ الغبار يدخل إلى بيت الرحم ويخرّبه. ورغم ذلك فقد استمرَّ الشعب العراقيّ الفقير في الإقامة في تلك المناطق والعيش مما تعطيه الأرض الملوثة من بندورة وبصل وفاكهة وحبوب ومن مزارع الدواجن واللحوم التي تعرّضت لمواد مشعة. ولم يكن مستبعداً أنَّ غبار اليورانيوم المستنفد قد تسرّب أيضاً إلى مجاري المياه والانهار وأنظمة الريّ والصرف الصحيّ⁶⁶³.

ورغم هذه المعلومات الخطيرة، لم تتقدّم أي هيئة عربية أو دولية، ليس فقط للتحقيق في الأمر، وإنما للسعي لتنظيف المنطقة المذكورة في جنوب العراق من الشظايا وتجمّعات الغبار ولا حتى وكالة الطاقة الدولية التي رأسها المصريّ محمد البرادعيّ أثارت هذا الأمر⁶⁶⁴.

لقد كشف العالم الأميركيّ مالكوم هوبر أنَّ الطائرات الأميركية والبريطانية أغارت على 900 موقع عراقيّ لتصنيع الغاز السام من نوعي سارين وتابون، انتشرت محتوياتها في هواء البلاد بعد انفجار المواقع، ولم يُعرف وقعها على الصحة العامة⁶⁶⁵.

بلغت فعالية حرب الاستنزاف القاتلة مرحلة أعلنت فيها الإدارة الأميركية عام 1999 أنّها تواجه "معضلة". ما هي المعضلة؟ أنّها بعد 8 سنوات من الغارات الجوية لم يعد هناك أهداف تستحق القصف في العراق. حيث صرّح مسؤول عسكريّ لـ "الوول ستريت جورنال": "أصبحنا نستهدف بيوت الخلاء الصغيرة!"⁶⁶⁶.

⁶⁶³ The Independent 9 March 1998.

⁶⁶⁴ كان لافتاً أنَّ التصريح الأول الرئيس الذي أطلقه البرادعيّ بعد سقوط بغداد كان أنَّ على إيران أن تتعاون في برنامجها النووي، تمهيداً لفتح معركة إعلامية ودبلوماسية ضد إيران التي كانت الهدف الثاني لبوش بعد العراق.

⁶⁶⁵ الإندبندنت 16 تشرين الأول/أكتوبر 1998.

⁶⁶⁶ وهذا يذكر مناقشة حامية جرت بين بوش ومجلسه الحربي في أيلول/سبتمبر 2001 حول الأهداف الحيوية الموجودة في أفغانستان ليتمّ قصفها. وعندما شرح مساعده أن لا أهداف حيوية تذكر في أفغانستان لنقصفها، ردّ غاضباً: "هل تريدوني أن أستعمل صاروخاً ثمنه مليون دولار لأقصف خيمة بدو بخمسة دولارات". لم يكن هناك تكرار بأنَّ ثمة عائلة أفغانية ربما تحت سقف الخيمة، بل فقط إذا كانت للهدف قيمة حيوية للحرب.

لجان التفتيش جواسيس للعدوان

كان من الممكن أن يتخلص العراق من الحصار والعقوبات وحرب الاستنزاف باكراً وبعد سنة من حرب الكويت. ففي أيلول 1992، أعلن ناطق باسم وكالة الطاقة الذرية الدولية أن العراق أصبح خالياً من أي مواد أو معدات لها علاقة بصنع القنابل النووية، وبهذا يكون قد طبّق قرارات مجلس الأمن بهذا الشأن. ولكن أعضاء اللجنة الأميركيين هاجموا الناطق علناً لأنّ تصريحه يناقض أهداف الولايات المتحدة في القضاء على دولة العراق.

وتكرّر الأمل عام 1994، إذ أعلن رولف أيكوس أنّ مهمة لجنة التفتيش شارفت على الانتهاء وأنّ العراق يكون قد طبّق كلّ القرارات المتعلقة خلال أشهر. وتبناً أيكوس أنّ العقوبات ستكون من الماضي بحلول العام 1995. ولكن في العام 1995 لم تُرفع العقوبات بل صدر قرار مجلس الأمن 986، وعاد المفتشون إلى العمل للتنقيب مجدداً.

وفي أيلول 1997، قدّم العراق سلسلة وثائق جديدة عن برامج التسلّح وأعرب إيكوس وهو سويدي عن قرب نهاية العقوبات ولكنّه تقاعد في تموز 1997، وجاء مكانه الاوسترالي ريتشارد بطلر، فكان رجل أميركا بامتياز وفالاً سيئاً للعراق. وأوّل ما صرّح به أنّه غير معنيّ بما وصل اليه إيكوس وأنّه سيعيد التفتيش. فعمل بطلر على إدامة العقوبات إلى أقصى حدّ ممكن ما يخدم الأهداف الأميركية بشكل لم يره العراق من أي مسؤول دولي سابق. فكان سلوك بطلر وتصريحاته وبياناته تنضح بمنطق عدائيّ سافر وليس بلغة إيكوس القانونية الدبلوماسية أو بأسلوب بليكس في ما بعد. فكان بطلر يردّ بلهجة وقحة لدى سؤاله عما إذا كانت العقوبات سترفع عندما تنتهي عمليّات التفتيش فيقول "العقوبات ستنتهي عندما تنتهي". وكان بطلر يتكلم عن العراق والشعب العراقيّ بقلة أدب، ويحب الأضواء ويظهر مراراً وتكراراً على شاشات التلفزة. وكان بطلر يقدم تقاريره لواشنطن أولاً ثمّ يقدّمها إلى الأمم المتحدة فيخرج الناطق باسم البيت الأبيض إلى الصحافيين ويبدأ فوراً بمهاجمة صدام والعراق. وكان بطلر يتصرّف ويتحدّث وكأنّه خرج من العصر الإمبرياليّ القديم فكان يكره السكان المحليين ويتصرّف وكأنّه سيّد في العراق ويتهم كوفي أنان، الأمين العام للأمم المتحدة الأفريقيّ الأصل، بالتواطؤ مع صدام. وحتى محمد حسنين هيكل المتلونّ المواقف اتهم بطلر أنّ مهمته كانت القضاء على العراق⁶⁶⁷.

ثم أدلت مادلين أولبرايت، وزيرة الخارجية الأميركية بدلوها في آذار 1997، وصرّحت بأن لا نهاية قريبة للحظر الاقتصاديّ على العراق. وحتى لو تألم الشعب العراقيّ فإن قضية البحث عن الأسلحة تستحق هذه التضحية من العراقيين. وسرعان ما اتّضح منطق واشنطن ولندن عام 1997، إذ أصبح رفع العقوبات مرهوناً بسقوط نظام البعث. وأصبح هذا المنطق أكثر وضوحاً في بداية عام 1998، عندما صرّحت مادلين أولبرايت

Richard Butler, *The Greatest Threat: Iraq, Weapons of Mass Destruction and the Crisis of Global Security*, New York: Public Affairs, 2001.

أن واشنطن تتطلع إلى التعامل مع حكومة عراقية جديدة "غير صدام". وقدّمت أميركا مالا إلى المعارضة العراقية وأصدر الكونغرس الأمريكي قانون تحرير العراق.

في تشرين الأول 1997 طلب العراق من المفتشين الأميركيين مغادرة الأراضي العراقية شاكياً أنهم جواسيس للولايات المتحدة و"إسرائيل" ومقدماً أدلة على ذلك. فردّ بطر بأسلوبه الرعاعي أنه "لا يقبل هذه الإهانة ضد موظفيه". ثم تبع ذلك بقرار همايوني خارج القرارات الدولية وخارج صلاحيات مهمة اللجنة بأن قصور الرئاسة العراقية ستخضع أيضاً للتفتيش.

فكان بطر يزيد في هموم العراق ومشاكله وكأنه حاكم إسرائيلي في الضفة الغربية، ويقرر عشوائياً أنه سيفتتح المواقع التي انتهى منها إيكوس ويقدم سلسلة وراء سلسلة من المطالب إلى السلطات العراقية، حتى يطيل في عمر العقوبات إلى ما شاء الله. ولقد كشفت صحيفتا الواشنطن بوست والبوسطن غلوب في شباط 2000 تفاصيل عن مهام شريفة قام بها المفتشون في العراق وأكدّ الاتهام العراقي بأن الولايات المتحدة استعملت المفتشين كجواسيس على العراق نقلوا أسراراً حساسة للبتاغون استعملها في قصف المواقع العراقية، وأعطوا معلومات للمخابرات الإسرائيلية حيث كان أعضاء اللجنة يزورون "إسرائيل" كل فترة لمدها بأسرار العراق. هذه الأعمال كانت تشكّل خطراً كبيراً على أمن العراق كدولة عضو في الأمم المتحدة وفي حالة حرب مع أميركا و"إسرائيل"، فكانت واشنطن هي العدو والحكم والجلاد. والنتيجة كانت أن خبرة اللجنة الدولية في شؤون السلاح والتكنولوجيا الاستقصائية التي كانت تستعملها في خدمة القوات الأميركية التي كانت تستغل المعلومات لتشنّ غارات تدميرية في حرب استنزاف العراق.

وكان ردّ الإدارة الأميركية برئاسة بيل كلينتون قاسياً جداً على طلب العراق مغادرة المفتشين الأميركيين. إذ نددت بخطوة العراق عدم التعامل مع المفتشين وهددت باللجوء إلى القوة وبإصدار عقوبات جديدة وبوقف برنامج النفط مقابل الغذاء. فتراجع العراق وعاد المفتشون. وفي كانون الثاني 1998، أعلن العراق منع سكوت ريتز كبير المفتشين الأميركيين في اللجنة الدولية عن مزاوله مهامه في العراق بسبب عداته الشديد للعراق وعلاقاته بالمخابرات الأميركية وب"إسرائيل". فهذد كلينتون ووزيرة الخارجية مادلين أولبرايت ووزير الدفاع وليم كوهين العراق بعواقب وخيمة. وبدأت الولايات المتحدة وبريطانيا الاستعداد لشنّ هجوم على العراق، وقبل أن تصل الأمور إلى طريق اللارجوع، تدخل كوفي أنان وحاول الوصول إلى حلّ ديبلوماسي والسماح بتفتيش القصور الرئاسية.

ثم سعت واشنطن إلى استصدار قرار جديد من مجلس الأمن يُفسد ما اتفق عليه أنان مع حكومة العراق. فصدر القرار 1154 في 3 آذار 1998 يهدّد العراق "بأوخم النتائج"، وهي لغة تصعيدية خطيرة، في حال عدم تجاوبه مع لجنة التفتيش وأنّ عليه أن يخضع للتفتيش الكامل. وفسرت واشنطن هذا القرار بأنه يسمح لها بالعمل العسكري المنفرد ساعة تشاء. ولكن فرنسا وروسيا والصين عارضت التفسير الأميركي وخاصة ادعاء واشنطن حقها الأوتوماتيكي في استعمال القوة ضد العراق. خاصة أنّ القرار الأصلي رقم 687 الصادر في 3 نيسان 1991 حول التفتيش عن الأسلحة داخل العراق لم يتحدّث أبداً عن لجوء أي دولة عضو في مجلس الأمن أو في الأمم المتحدة إلى القوة لتنفيذ القرار. كما أنّ القرار 687 دعا "إلى شرق أوسط خالٍ من أسلحة

الدمار الشامل"، ما كان يعني ضرورة التزام "إسرائيل" به. ولكن هذه الناحية من القرار 687 اختارت الولايات المتحدة أن تتجاهلها. ومع القرار 1154 عاد العراق إلى الصفر مثل كل مرة خاصة بعد إعلان بطزر في نيسان 1998 أن اللجنة لم تحقق تقدماً بعد.

وفي 17 أيلول 1998، أعلن العراق مجدداً أنه لن يتعاون مع لجنة التفتيش بعد فقدان الأمل من تراجع الولايات المتحدة عن العقوبات المدمرة. فقد شعر المسؤولون العراقيون بخيبة الأمل الشديدة أن لا نهاية للعقوبات مهما فعل العراق لإرضاء الولايات المتحدة. ولكن هذه المرة لم يدع العراق إلى مغادرة المفتشين أو طردهم. بل أن بطزر رئيس اللجنة هو الذي أمر بإخراج المفتشين من العراق بعد مرور مدة من الوقت لم يتعاون أثناءها العراق⁶⁶⁸. وتزامن إعلان العراق عدم التعاون مع لجنة التفتيش مع استقالة كبير المفتشين الأميركيين سكوت ريتز وكشف في 29 أيلول 1998، أنه زار "إسرائيل" مرات عدة وأعطى الموساد معلومات عن العراق، وأن لجنة التفتيش منذ بداية عملها هي وكر للجواسيس على العراق. واتهم ريتز ريتشارد بطزر رئيس اللجنة ومادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأميركية بأنهما عملا على التقليل من أهمية التقدّم الذي كان يحققه المفتشون، حتى لا يبدو للرأي العام العالمي أن العراق اقترب من نهاية أسباب العقوبات. وكان ريتز على حق، فعام 1998 تمكنت اللجنة من إزالة 95 في المئة من الأسلحة العراقية التي تضمنت التخلص من 150 صاروخ سكود بعيد المدى و700 صاروخ كيميائي و28 ألف رأس كيميائي و20 ألف لتر من الغازات السامة و8 آلاف لتر من غاز الأنتراكس المكثف. كما استطاعت اللجنة تفكيك 40 مؤسسة تصنيع حربي في العراق وإقفالها. وطبعاً كل هذا كان في طريق إضعاف العراق كدولة وتقوية "إسرائيل" التي كانت مسلحة بأضعاف ما يملكه العراق.

كما أن ريتز انتقد الكونغرس الأميركي الذي كان يمنح الدعم غير المحدود لتحضيرات الإدارة الأميركية لغزو العراق في نهاية 2002 فقال: "لا أعتقد أن العراق يشكل خطراً على الإدارة الأميركية يستحق الحرب. أنا شاهد من خلال عملي لسنوات عدة كخبير رفيع في لجنة التفتيش عن الأسلحة في العراق أن اللجنة التابعة للأمم المتحدة قد حققت نسبة عالية جداً من النجاح في التخلص من الأسلحة العراقية وبنسبة 90 إلى 95 في المئة. والأكيد أن أعضاء الكونغرس لا يهتمون بهذه الحقائق".

ولم يكن ريتز الوحيد الذي استيقظ ضميره، إذ إن عدداً من مسؤولي الأمم المتحدة أيضاً استقالوا من عملهم في اللجنة بسبب الظلم الكبير الذي كانت توقعه على العراق.

في كانون الأول 1998، جاء تقرير بطزر الثاني الذي يدين العراق بأنه لا يتعاون مع لجنة التحقيق ليزيد الطين بلة. إذ إن الولايات المتحدة وبريطانيا حصلتا على نسخة منه قبل الدول الأعضاء الأخرى في مجلس الأمن ولم تنتظرا لكي يلتقي مجلس الأمن وينظر في التقرير، بل استندتا إلى القرار 1154 وشنتا عملاً عسكرياً واسعاً ضد البلد المشلول. لقد كانت مهمات وعمليات لجان التفتيش الدولية كلها على نفقة العراق تقتطعها اللجنة مباشرة من برنامج النفط مقابل الغذاء.

⁶⁶⁸ في العام 2002 و2003 دأب الرئيس الأميركي جورج بوش الابن ووزراؤه على تكرار مقولة إن العراق قد طرد المفتشين عام 1998، حتى بات الرأي العام يصدق هذا الأمر. ولكن الحقيقة أننا لمفتشين خرجوا بأمر من بطزر.

وتحت اسم "عملية ثعلب الصحراء" (عملاً بمنطق أفلام هوليوود)، بدأت الطائرات سلسلة غارات على العراق يوم 16 كانون الأول 1998 استمرت حتى 20 منه. وكانت هذه العملية الأكبر منذ العام 1991 أصابت صواريخها محطة تصفية النفط في البصرة بتهمة أنّ هذه المحطة يستعملها النظام لتهريب البترول. وأطلقت الولايات المتحدة في هذه العملية 300 صاروخ كروز كلفة كلّ واحد منها مليون دولار. والمهزلة كما ذكرت وسائل إعلام أميركية أنّ الحكومة الأميركية توقفت عن توزيع البطانيات المجانية على الفقراء داخل الولايات المتحدة لأنّ لجنة الكونغرس لم تلاحظ هذا الإنفاق للسنة الجديدة. هذا البرنامج ضروريّ لفقراء الولايات المتحدة كلف 3.5 مليون دولار فقط في السنة، أي أقل من كلفة أربع صواريخ كروز⁶⁶⁹.

المهزلة المؤلمة كانت أنّ الولايات المتحدة كانت وراء محتوى تقرير اللجنة الذي أدان العراق وهي التي تسلمت التقرير وهي التي قرّرت منفردة القيام بعمل عسكريّ بدون الرجوع إلى مجلس الأمن. فهزأت أميركا من القانون الدوليّ ومن شرعة الأمم المتحدة.

وبعد كانون الأول 1998، تزايدت الغارات الأميركية والبريطانية على العراق فأصبحت شبه يومية ولم تعد تنال سوى خبر صغير في الصفحات الداخلية للجرائد أو في زاوية الأخبار الدولية المختصرة التي لا تحتاج إلى عنوان. ووصفت الـ"نيويورك تايمز" هذه الغارات في أحد تقاريرها النادرة جداً عن معاناة العراق وجرائم الإدارة الأميركية: "منذ سنوات تقوم الطائرات الأميركية بقصف العراق بشكل منظم وبدون نقاش عام. وفي الأشهر الثمانية الماضية قام الطيارون الأميركيون والبريطانيون بـ 1100 غارة على 359 هدفاً في العراق. وهذا يعادل ثلاثة أضعاف رقم الهجمات التي وقعت في عملية ثعلب الصحراء في كانون الأول 1998، والتي استمرت أربعة أيام. وبالمقارنة فإنّ طياري الحلفاء شنّوا 1600 غارة في حرب يوغسلافيا التي استمرت 78 يوماً"⁶⁷⁰.

هذه المقارنة كشفت أنّ حرباً فعلية كانت تقوم على العراق وسط صمت دوليّ وتعتيم إعلامي. والغارات استمرت حتى نهاية 2001، عندما قرّرت الولايات المتحدة أن الوقت قد حان لاحتلال العراق⁶⁷¹. وبلغ عدد الطلعات الجوية الأميركية البريطانية خلال عام 1999 ستة آلاف طلعة أي أربعة أضعاف عدد الطلعات أثناء الحرب على يوغسلافيا. كما أطلقت هذه الطائرات 1800 صاروخ ودمرت 450 هدفاً. وفي العام 2000، زاد عدد الغارات على العراق.

وفي تقرير جديد مستقلّ للجنة التفتيش أنسكوم عام 1999 ذكر أنّ المفتشين قد نجحوا إلى حدّ بعيد في العثور على أسلحة الدمار الشامل العراقية وإزالتها وتفكيكها، وبقيت ثمة أمور صغيرة تتعلق ببرنامج الأسلحة البيولوجية. ولكن الحقيقة أنّ في السنوات الخمس التي تلت هذا التقرير (أي حتى صيف 2003) لم يعثر المفتشون على أي سلاح دمار شامل في العراق. ولا حتى الجيش الأميركي استطاع العثور على أي أسلحة دمار

⁶⁶⁹ "Blanket Policy Covers Homeless", Knight Ridder, 25 December 1998.

⁶⁷⁰ نيويورك تايمز 13 آب/أغسطس 1999. في العام 1999 شنّت الولايات المتحدة حرباً على يوغسلافيا أسفرت عن سقوط نظامها ودخول دولة الصرب في فلك السياسة الأميركية.

⁶⁷¹ "We want actual boots on the ground.", in Bob Woodward, *Bush's War*.

شامل بعد سنوات من سقوط بغداد عام 2003. وحتى لو عُثر على أي أسلحة يوماً ما فإنها ستكون قليلة الشأن لا تشكل خطراً على أحد.

في 17 كانون الأول 1999 أصدر مجلس الأمن القرار 1284 بطلب من الولايات المتحدة وبريطانيا يجدد عمليات التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل في العراق ويقدم عرضاً على العراق بتخفيف الحصار إذا وافقت حكومته على مطالب جديدة حول نزع أسلحته. وجاء هذا القرار ملغوماً كغيره من القرارات ضد العراق. فلقد وعد بتخفيف الحصار. ولكنه فرض قيوداً جديدة حول البضائع التي يمكن العراق استيرادها وزاد عدد السلع المحظورة التي اعتبرها الأميركيون مزدوجة الاستعمال. وأسس لجنة دولية جديدة هي لجنة الأمم المتحدة للمراقبة والتفتيش UNMOVIC - United Nations Monitoring and Verification Commission "أموفيك". والأسوأ أن القرار دعا أيضاً إلى عودة الوكالة الدولية للطاقة الذرية للتفتيش بعدما كانت قد أنهت مهمتها قبل سنوات وأعلنت العراق خالياً من أي برنامج تطوير سلاح نووي. ذلك أن الولايات المتحدة ادعت أن العراق قد استغل غياب المفتشين وزوال لجنة أنسكوم كي يعيد بناء بعض برامج التسلح. وفي إزاء هذا الزعم، رد هانز بليكس رئيس أموفيك مراراً أنه مقتنع بأن التصاريح المتكررة للولايات المتحدة وبريطانيا لا أساس لها من الصحة. لقد فقدت الحجج الأميركية حتى ورقة التوت إذ في العام 2002 أصرت الولايات المتحدة على نزع أسلحة عراقية تقليدية بسيطة. وحتى بعد احتلال العراق وقد كشفت وسائل الإعلام في أول حزيران 2003، أن المخابرات البريطانية والأميركية كانت تفبرك القصاص عن الأسلحة العراقية لتبرير الغزو، استمر جورج بوش الابن ورجاله في الحديث عن ضرورة مواصلة البحث عن الأسلحة ولكن لا شيء من هذا القبيل كان صحيحاً.

أميركا نفسها هي أكبر ناشر لأسلحة الدمار الشامل في العالم، ولكن لم ينطبق عليها واحد في المئة مما عاناه العراق. فلقد نشر اتحاد العلماء الذريين في الولايات المتحدة أن واشنطن خزنت 12 ألف رأس نووي ومعدات نووية في 23 بلداً وفي القارات الخمس. كما أن الولايات المتحدة أكبر تاجر سلاح في التاريخ، حيث مدت بالأسلحة الفتاكة أنظمة دكتاتورية استعملتها لقتل شعوبها، ونشرت الجيش الأميركي أو مراكز أمنية في 180 بلداً حول العالم. والولايات المتحدة اعتبرت نفسها فوق القانون الدولي فلم تخضع لقانون الجنايات ولا لشرعة الأمم المتحدة ولا لبروتوكول كيوتو حول حماية البيئة ولا للمنظمة الدولية للطاقة الذرية ولا لقانون البحار ولا لاتفاقيات جنيف حول شروط سلوك الجيوش في زمن الحرب. وأميركا استعملت الأسلحة الذرية وأسلحة الدمار الشامل ضد المدنيين: أكثر من مئة ألف ياباني في هيروشيما وناكازاكي قُتلوا عندما قصفت الطائرات الأميركية المدينتين بالقنابل الذرية، وملايين ماتوا قتلاً بالأسلحة الأميركية في فيتنام وكمبوديا وكوريا في الفترة من 1955 إلى 1975.

كما أن "إسرائيل" الحليفة الأولى للولايات المتحدة في المنطقة خالفت أكثر من 50 قراراً لمجلس الأمن منذ العام 1947 وقتلت مبعوثي الأمم المتحدة واجتاحت أراضي الغير بالقوة وخرقت الاتفاقات الدولية وبنّت ترسانة نووية من 200 صاروخ ذري وطردت شعباً كاملاً من أرضه واستوطنتها. ولكنها معفية تماماً من أي ملاحقة.

وعندما دعت سورية إلى تنفيذ بقية بنود القرار 687 وخلق شرق أوسط خالٍ من أسلحة الدمار الشامل، نهرها دونالد رمسفلد وزير الدفاع الأمريكي وزار كولن باول وزير الخارجية الأمريكي دمشق يهدد ويتوعد الرئيس بشار الأسد أن العالم قد تغير بعدما أصبح الجيش الأمريكي على حدود سورية، يملئ على دمشق شروط الحاكم الجديد للعالم.

31 | صفحة جديدة في سورية؟

فيما كان العراق يعاني الحصار وحرب الاستنزاف والعقوبات، شهد لبنان وسورية تطوّرات إيجابية مهمة، أولها انسحاب "إسرائيل" من جنوب لبنان في أيار 2000 وتسلم بشار الأسد مقاليد الحكم في سورية في تموز 2000 برغبة في تحرير النظام السياسي والاقتصادي وتعزيز الديمقراطية في الداخل عبر "ربيع دمشق".

الانسحاب الإسرائيلي من لبنان لم يكتمل لرفض "إسرائيل" الانسحاب من مزارع شبعا وقرية الغجر. في حين تعثر الإصلاح في سورية لسببين الأول هو الخلاف حول وتيرته، حيث أراده بشار بخطة مدروسة وتراكمية فيما دفع المجتمع المدني والمعارضة السوريّة إلى إصلاح سريع. والسبب الثاني هو أنّ تهديدات خارجية شديدة الخطورة رافقت "ربيع دمشق" ودفعت سورية إلى تحصين استقرارها ودفاعاتها.

بدأت التهديدات منذ نهاية العام 2000 مع انطلاقة الانتفاضة الفلسطينية الثانية ثم تداعيات هجمات 11 أيلول 2001 على نيويورك وواشنطن والغزو الأمريكي للعراق في 2003، ثم اغتيال الحريري في عام 2005. وهذا التزايد في التهديدات الخارجية جعل مواصلة عملية تحرير الاقتصاد وإصلاح النظام السياسي داخل سورية مشوبة بالتردّد والحذر والخوف من أنّ سورية قد تفقد الاستقرار الداخلي في وقت كانت الأولوية هي التعامل مع التهديدات الخارجية. كما أنّ تفتت العراق في 2005 - 2007 وتدهور الوضع الأمني في كلّ من العراق ولبنان خلال هذه الأعوام دفع الرأي العام السوري إلى الالتفاف حول بشار⁶⁷².

توفي حافظ الأسد عن عمر 69 عاماً في 10 حزيران 2000 وبقي حتى وفاته على مبادئ الزعماء العرب من الرعيل الأول الذين خاضوا الحروب الأولى مع "إسرائيل" وعاشوا العصر القومي الذهبي في الخمسينيات والستينيات. وكان وحيداً في موقفه من بين القادة العرب أن يكون العرب أسياداً في بلادهم، وخاصة منذ 1991 وقد مرّ أكثر من 15 عاماً على خروج مصر وعزلتها، وانهزم العراق في حرب الكويت عام 1990، ودخلت منظمة التحرير في مسار طويل مع أميركا قادها إلى مسار أوصلو المذل، وانطلق الأردن في مسار آخر قاده إلى معاهدة وادي عربة مع "إسرائيل" عام 1994، وبات دعم دول جبهة الصمود والتصدي، اليمن وليبيا والجزائر، في خبر كان بعد تخلي هذه الدول عن الشعارات الثورية وابتعادها عن تاريخها النضالي والتحاقها بأميركا. وكان الأسد يرى في هذه العوامل حوافز إضافية لسورية لتبني طاقاتها الذاتية.

وبعد وفاة الأسد، أصبح نائب الرئيس الأول عبدالحليم خدام رئيساً للجمهورية بالوكالة. ثم بدأت عملية انتخاب بشار، وهذا أمر كان ينتظره مؤتمر الحزب العام الذي كان قيد التحضير. فانتخب بشار أميناً عاماً لحزب البعث بالإجماع في 18 حزيران، ورُشح لرئاسة الجمهورية في 20 منه، فوافق مجلس الشعب على الترشيح بعد أسبوع وجرى انتخاب بشار عبر استفتاء شعبي في 11 تموز.

⁶⁷² أشار كريم بقرادوني في كتابه عن عهد لحدود صدمة وصمود (شركة المطبوعات، 2009) إلى أن خطابات بشار العامة في ذلك الوقت كانت تهدف أولاً وقبل كل شيء إلى حشد دعم الشعب السوري من خلال التركيز على المبادئ القومية ومواجهة الأخطار الخارجية وأنه بالتأكيد نجح في هذا.

بشار الأسد رئيساً

وُلد بشار الأسد في 11 أيلول 1965 وتلقّى دراسته في سورية، منها ست سنوات في جامعة دمشق، حيث تخرّج من كلية الطب وعمل في مشفى تشرين العسكريّ من 1988 إلى 1992. ثم ذهب إلى لندن لمدة عامين ليكتسب خبرة في جراحة العيون، وعاد إلى سورية بعد وفاة شقيقه باسل في كانون الثاني 1994⁶⁷³. ونشأ بشار في كنف والده ووسط أعمامه وأولادهم الذين كانوا في مثل سنّه، فأصبحت فترة تجهيزه من 1994 إلى 2000 استمرارية لهذه البيئة فاعتاد على أساليب الحكم وتسلّم ملفات مهمّة. وبعد عودته من لندن خضع لتدريب وتابع الدراسة العسكريّة فتدرّج في الرتب العسكريّة.

وكان حافظ الأسد يقوم بتعديلات هادئة في المراكز الحساسة. فأضعف نفوذ القيادات التي رافقته خلال عقود من حكم سورية، لأنّه يفضّل نكهة الحدائث التي يستطيع ابنه الشاب المتعلّم وزوجته العصريّة أسما الأخرس تقديمها لسورية كما يفضّل أن يبدأ العهد الجديد بصفحة أنظف حول ملفات الفساد. وقدم الأسد ابنه بشار إلى سورية بأنه الأمل وأنّه ذكيّ وفتي وتهمّه شؤون الناس وفي وجدانه أنّ حب التطوّر من حب الوطن. وثابر حافظ الأسد خلال سنوات حتى يحصل بشار الخبرة في بعض الملفات ويمارس ما يستطيعه من هيبة أبيه في الحكم لأنّ سورية بنظر الأب كانت بحاجة إلى قائد قويّ.

ودفع الأسد منافسين محتملين على رئاسة الجمهوريّة إلى التقاعد وأزاح بعض أعمامه الذين قد يتصرفون مع بشار على أنّهم أفضل منه. وبدأ عبدالحليم خدام الشخصية الأبرز في النظام ونائب رئيس الجمهوريّة يخسر نفوذه منذ سلّم الأسد ملف لبنان لبشار عام 1996 وغادر السلطة رئيس الأركان حكمت الشهابيّ عام 1998 ورئيس المخابرات علي دوبا. وخرج آخرون من مناصب وأجهزة عديدة بدون تدمّر. فقد شاخوا وهم في مناصبهم بعدما مارسوا السلطة لعقود، وحققوا ثروات تضمن تقاعدهم. ولم يكونوا في وارد قلب النظام أو الانتقال إلى المعارضة. فنظام الحكم اعتنى وسيعتني بهم وبعائلاتهم، وأبناؤهم سيصلون إلى مناصب، أمّا بناتهم فسيفترزن بشبان من عائلات السلطة. ولذلك لم يقلق بشار من هؤلاء بعد خروجهم من السلطة إذ إنهم بقوا جزءاً أساسياً من تركيب النظام.

في سنوات الأسد الأخيرة، إضافة إلى اهتمامه بملف لبنان، تسلّم بشار مهام خارجيّة، فزار عواصم عربيّة وقصد باريس للقاء جاك شيراك، وليتعرّف على الزعماء ويبرهن لهم مواهبه القيادية كرئيس مستقبليّ لسورية. وكانت مرحلة صعود بشار في النصف الثاني من عقد التسعينيات وفي العامين الأوّلين من عهده توجي بالتفاؤل والإيجابية. فصدرت عشرات المقالات والتقارير الصحافية والديبلوماسية تشيد بالفتى الطموح وبنهضة موعودة لسورية تواكب العصر وتستوعب التكنولوجيا وتحديث القطاع العام وأساليب العمل في

⁶⁷³ منذ إصابته بعوارض مرضية في الثمانينيات، اتخذ حافظ الأسد قراراً بتحضير ابنه البكر باسل ليأخذ مكانه في حال وفاته أو اعتزاله السلطة. وكان باسل قد التحق بمدرسة الضباط وحصل على ترقّيات سريعة حتى أصبح قائداً لأحد ألوية الحرس الجمهوري. ولكنّه قضى في حادث على طريق المرّة السريع نحو مطار دمشق الدولي عندما ارتطمت سيارته بحافة جسر في كانون الثاني 1994. فتحوّلت آمال الأسد إلى ابنه الثاني بشار الذي كان يعدّ لمهنة في طب العيون.

الاقتصاد. ونقلت صحيفة الشرق الأوسط السعودية عن ناطق رسمي سوري قبل أشهر من وفاة الأسد أن "الجميعة سعيد ببشار كرئيس سورية المقبل لأنه متعلم وصاحب مؤهلات عالية تمكّنه من تدعيم الاستقرار ومواصلة التحديث الاقتصادي والاجتماعي والتنمية، وأنه سيواجه التحديات التي تعاني منها سورية بمقدار عالٍ من المسؤولية الوطنية والقومية العربية"⁶⁷⁴. ونشرت مجلة المجلة السعودية أن بشار مثقف ومتواضع ويتكلم الإنكليزية ومُلم بالفرنسية والروسية، طويل القامة، نحيف، شغوف بالقراءة وخاصة الكتب العلمية، نظامي في حياته، عادل، يصادق المثقفين، ويؤمن أن تحسين معيشة السوريين يتكل بشكل أساسي على التكنولوجيا وخاصة المعلوماتية⁶⁷⁵. كما أن مقالات وتصريحات كثيرة ظهرت في مطبوعات أوروبية وأمريكية أشادت ببشار وبجودته وعقدت عليه آمالاً استناداً إلى تصريحاته وأسفاره ولقاءاته وحياته الشخصية، وإلى ما اختبره صحافيون وديبلوماسيون غربيون التقوا وتكلموا عن ذكائه ورؤيته المستقبلية لبلاده ومعرفته بالعقل والمجتمع الغربي، وإقامته في لندن لمدة عامين.

ربيع دمشق

عندما تبوأ بشار الحكم رأى مراقبون أجنبى أن الإصلاح في سورية أصبح مسألة وقت. فالضغط الاجتماعي المعيشي يتزايد والإصلاح مهما أحدث من تغييرات فهو، بعد فترة تحوّل، يبقى أفضل من الاستقرار بقوة النظام الأمنية، وأن عدم فعل شيء هو الخطر الحقيقي على استقرار سورية. وكان الوضع الداخلي السوري يتدهور منذ التسعينيات، وأشار مراقبون وخبراء إلى انتشار الفساد والعراقيل على التجارة وتراجع النشاط الاقتصادي والقيود على الحريات وغياب الكفاءات في القطاع الخاص بسبب أولوية الولاء للنظام السياسي في اختيار موظفي الدولة. ولكن المعضلة أمام الدولة كانت إما إطلاق تغيير وإصلاح غير واضح المعالم يهيئ الطريق لظهور قوى اجتماعية جديدة تطيح النظام، وإما إصلاح تدريجي بطيء قد يواجه صعوبات داخلية، ولكنه يؤمن الاستقرار ويسمح بخطوات مدروسة. فجذب بشار الأسد الأسلوبين، وانطلق "ربيع دمشق" الذي رافقته موجة تهاوّل وانفراج في العامين الأولين من عهد بشار خاصة في مسألة الحريات. وظهر العديد من المنتديات السياسية وبدأ انفتاح اقتصادي خفر وافتتحت فروع للمصارف الأجنبية وسُمح للمواطنين اقتناء حسابات بالعملة الأجنبية وتحسن الوضع المعيشي.

قدّم بشار القسّم الدستوري كرئيس للجمهورية أمام مجلس الشعب في 17 تموز 2000 وألقى كلمة وعد فيها بإنهاض الاقتصاد وإطلاق حريات الرأي العام شرط أن تكون تحت سقف النقد البناء. وتشجع الرأي العام، إذ بعد أيام قدّمت مجموعة من 44 شخصية رسالة مفتوحة إلى بشار نُشرت في 21 تموز تدعوه فيها إلى تحرير النظام السياسي. وأطلق بشار سراح سجناء سياسيين، ما كان موضع ترحيب من قيادة الأخوان في

⁶⁷⁴ الشرق الأوسط، 8 شباط 2000.

⁶⁷⁵ المجلة، 6 حزيران 1999.

المنفى التي طالبت بإطلاق كلّ السجناء وإنهاء قوانين الطوارئ⁶⁷⁶. ولكن نهج بشّار في الإصلاح كان خطوات تدريجية، ليس فقط لصالح الاستقرار بل لأنّ معظم المطالب التي انتهالت عليه كانت تحتاج إلى تغييرات جذرية لأساليب وسياسات متبعة طيلة 40 سنة. والتغيير لا يحصل بسرعة. فعلى سبيل المثال كانت بنية إدارة الدولة بمعظمها تعمل بنهج الستينيات ولا يمكن تغييرها بمجرد تغيير أشخاص في عدد من المواقع يتمتعون بقوة ونفوذ. وواصل بشّار الحملة على الفساد وهي عملية بدأها الأسد الأب عام 1976 ثم أعاد التركيز عليها في أواسط التسعينيات. وطالت الحملة رئيس الوزراء السابق محمود الزعبي الذي فضّل الانتحار على المحاكمة، ومحمد حيدر الذي فر من البلاد وحوكم غيابياً بالسجن 15 عاماً. ولكن المكافحة تعطلت عندما حاولت التصديّ لعدد كبير من النافذين في الحزب والدولة ومن المقربين من النظام والأشخاص التاريخيين في العهد السابق وأفراد عائلاتهم ومن كبار ضباط الجيش والأجهزة الأمنية ورجال أعمال وأبناء عائلات كبرى.

في بداية عهد بشّار تشجعت منظمات المجتمع المدنيّ للعمل العلنيّ في سورية. فبرز رياض سيف عضو مجلس الشعب وأعلن مع ميشال كيلو، السجين السياسيّ السابق، عن تأسيس لجنة أصدقاء المجتمع المدنيّ بهدف إطلاق حزب سياسيّ باسم "حركة السلم الاجتماعيّ". وفي الفترة نفسها صدر بيان وقّعته ألف شخصيّة سورية يدعو الحكومة لإلغاء قانون الطوارئ. فاستجابت الحكومة جزئياً وأعلنت أنّ العمل بقانون الطوارئ مجمّد، ما يعني أنّ السلطات ستغضّ النظر عن أمور كانت ممنوعة سابقاً⁶⁷⁷.

وفي 31 آب 2000، بدأ صلاح سيف سلسلة لقاءات أسبوعيّة تحت اسم "منتدى الحوار الوطنيّ". وفي الندوات التي أقامتها الجمعية السوريّة للعلوم الاقتصادية لم ينجح حتى الوزراء الحاضرين من أسئلة سيف أمام حضور في القاعة كان يصفق بحرارة لسيف⁶⁷⁸. كما تقدّم سيف بطلب تأسيس حزب باسم "حركة السلام المدنيّ"، وفي اجتماع تأسيسيّ ضم 350 شخصاً انتقد سيف "حكم الحزب الواحد وفرض الرقابة على الرأي العام ولجوء النظام إلى حجج القومية العربيّة لتمرير سياسته الاشتراكيّة الفاشلة التي جلبت الأذى للاقتصاد السوريّ"، إلا أنّ السلطة لم تعترض منتدى رياض سيف. ومثّلت الأشخاص الذين شاركوا في هذه اللقاءات كانوا قريبين من البعث.

في أيلول 2000، نشرت 99 شخصيّة أدبية وثقافية سورية منها من هو مقيم في سورية بياناً دعا إلى إلغاء قانون الطوارئ وإطلاق المساجين السياسيين والعفو عن كلّ المنفيين خارج سورية، والسماح بحريّة تأسيس الجمعيات والمنتديات والاعتراف بحريّة التعبير عن الرأي وحرية الصحافة، والتوقف عن المراقبة المخبريّة

⁶⁷⁶ صدر قانون الطوارئ في سورية في 22 كانون الأول 1963 كما صدر مرسوم رقم 6 في 7 تموز 1965 ينص على عقوبة الإعدام لكل من يعارض النظام القائم قولاً وكتابة وعملاً. وقلّصت هذه القوانين والمراسيم من سلطة القضاء وأفسحت المجال للاعتقال العشوائي والسجن من دون محاكمة وإهمال واجب السلطة في البت بقانونية التوقيف وحرمان ذوي المعتقل من معرفة مكان الاعتقال ومراجعتهم وزيارته والدفاع عنه وماهية التهمة ومصر المعتقل وحالته الصحية وسلامته، وضالّة إمكانية الاعتراض على أو الطعن بقرارات الحكومة التي تمارس صلاحية الطوارئ والحكم العرفي ممثلة برئيسها ووزير الداخلية، أو التظلم أمام مرجع قضائي.

⁶⁷⁷ David Lesch, *The New Lion of Damascus: Bashar al-Asad and Modern Syria*, New haven, Yale University Press, 2005.

⁶⁷⁸ *The Guardian*, July 27, 2002.

للمواطنين⁶⁷⁹. ومن بين الموقعين الشاعر أدونيس وصادق جلال العظم وحيدر حيدر ورياض سيف وعارف دليّة. ونشر الموقعون البيان في صحف بيروت وليس في صحف دمشق. ولم تبادر السلطة إلى اعتقال الموقعين على البيان المقيمين في سورية كما كان يحصل في السابق.

سار سيف في موجة التفاؤل فتكلّم علناً عن الحاجة إلى الإصلاح الديمقراطيّ في كلام صريح غير معتاد في سورية، وقال إنّ الدولة بموجب قانون الطوارئ (1963) تمارس القمع على من لا يحترم المحرّمات. وهذه المحرّمات تبدأ بالتعرّض لرئيس الجمهورية وأفراد عائلته وحزب البعث والجيش وأجهزة الأمن وشرعيّة النظام والمواضيع التي تثير النعرات الطائفية أو المواقف المتخاذلة في القضايا العربية وخاصة فلسطين⁶⁸⁰. وفي نهاية 2000 أعلن سيف عن كتلة برلمانية جديدة من 21 نائباً من المستقلين. ولكن الكتلة فرضت نفسها وتعاون أعضاؤها داخل قبة المجلس وخارجه فصدرت عنهم انتقادات لاذعة ومواقف غير معهودة في الحياة السياسية السورية. وعندما هاجم مأمون الحمصيّ الصلاحيّات الاستفرازية التي تتمتع بها أجهزة الدولة الأمنية وطالب أن يكون في سورية جهاز أمنيّ واحد، دافع عنه الرئيس بشار ورفض دعوات لمحاكمته ورافق ذلك إطلاق المزيد من السجناء السياسيين (600 سجين). فرحبت منظمة العفو الدولية بهذا القرار وذكر تقريرها أنّ من أصل آلاف السجناء لم يبق في سورية سوى 900 سجين سياسيّ.

وفي كانون الأول 2000 أمر بشار بإقفال سجن المزة وسجون أخرى سُمعتها سيئة بسبب تعذيب السجناء والمحاكمات العسكرية التي كانت تجري فيها. كما ازدادت حرية التنقل وخاصة السفر إلى الخارج الذي استفاد منه معارضون سياسيون وأطلقت السلطة سراح المزيد من السجناء السياسيين. وفي كانون الثاني 2001، صدر بيان آخر في دمشق هذه المرة وقّعه ألف مثقّف سوري، كوثيقة تأسيسية لـ"لجان إحياء المجتمع المدني". وذهب أبعد من البيان الأول حيث دعا النظام مباشرة إلى إنهاء حكم الحزب الواحد وفسح المجال للحرّيات الصحافيّة وحرية الضمير والتعددية السياسية وتعزيز دور المرأة السورية في المجتمع وإجراء انتخابات نيابية حرة بإشراف جسم قضائيّ مستقل عن السلطة التنفيذية. وكان من بين الموقعين شخصيات من الأخوان المسلمين. وصدر بيان آخر في 2001 وقّعه سبعون محامٍ سوري دعا إلى الإصلاح السياسيّ وإنهاء نظام الطوارئ والسماح بأحزاب مستقلة⁶⁸¹.

ومع حلول 2001 ارتفع عدد المنتديات إلى 21 في مدن سورية، فظهر "المنتدى الثقافيّ لحقوق الإنسان" المقرّب من الحزب الشيوعيّ ومنتدى "المجلس الوطنيّ للحقيقة والعدالة والمصالحة"، كما تأسّس "منتدى الأتاسي" و"منتدى اليسار" حزب العمال العربيّ الثوريّ. وفي أيلول 2000، أعلنت مجموعة من كبار أصحاب الأعمال في سورية عودة الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ للعمل العلنيّ في سورية. ولم تتعرّض السلطة لأيّ من هذه المنتديات حتى بعدما أصبحت منبراً لانتقاد السلطة.

وبعد "بيان الألف" التقى 16 من موقعيه في دمشق وأعلنوا "اجتماعاً تمهيدياً لإحياء المجتمع المدنيّ" لحشد جميع المنتديات ولجان المجتمع المدنيّ في أنحاء سورية لمواجهة المشاكل التي تواجهها البلاد. وفي 3 أيار

⁶⁷⁹ نص بيان الـ99 في صحيفتي النهار والسفير، لبنان، 26 أيلول 2000 وجريدة الحياة 27 أيلول 2000.

⁶⁸⁰ Human Rights Watch, Syria Unmasked, New Haven, CT, 1999, chapter 9.

⁶⁸¹ "سورية: سبعون محامياً ينضمون لقوائم المطالبين بالإصلاحات السياسية والبعث يحذّر من الأفكار المستوردة"، القدس العربي، 2 شباط 2001.

2001، نشرت حركة الأخوان المسلمين من لندن "ميثاق الشرف الوطني للعمل السياسي" لوضع إطار تعاون مع قوى معارضة أخرى وفتح صفحة جديدة مع النظام.

وكانت شعبية بشار تزداد باضطراد وخاصة بعد زواجه من أسماء الأخرس⁶⁸² (سنيّة من حمص) في 18 كانون الثاني 2000. وكانت أسماء صاحبة ذوق رفيع وآراء منفتحة في الشؤون الاجتماعية والثقافية منحت الرئاسة سمة التحرر والعصريّة. وعندما زار الباب يوحنا بولس الثاني سورية في أيار 2001 استقبله بشار وزوجته، وجال البابا في المسجد الأموي في دمشق وقيّم عالياً جو التسامح الديني الذي تتمتع به الأقليات الدينية في سورية وخاصة المسيحيين. ودعم مطلب سورية في استعادة الجولان بعد جولة مع بشار في المناطق المحررة من الجولان، فأثار ذلك غضب "إسرائيل" وزاد من شعبية بشار.

تبلورت في 2001 أربع حركات معارضة: الأخوان المسلمون ومثقفو المجتمع المدني والمعارضة الكرديّة وتجمّعات اغتريبية. كما ازدهرت منظمات المجتمع المدني في سورية. وتزايد التسامح مع الإعلام والنشاط الثقافي وحرية استيراد الكتب والأفلام الأجنبية، بعدما أكد بشار في خطابه الأول أنّ الحاكم يحتاج إلى النقد البناء وإلى وجهات نظر مختلفة ليُتخذ القرار المناسب. ولكنه أشار أيضاً إلى أنّ مسار الإصلاح مؤطّر ويحصل ضمن حدود وأنّ أية حلول يجب أن تُبحث من ضمن التقاليد السوريّة لأنّه "لا يمكننا أن نطبّق ديمقراطية الآخرين على أنفسنا"⁶⁸³. كما أنّ الدولة سمحت في 2000 و2001 للأحزاب العضوة في الجبهة التقدمية إصدار صحف خاصة بها ولكن معظم هذه الأحزاب لم يفعل لأنّ شروطاً رافقت هذا التسامح فبقيت الرقابة الصارمة. ولذلك لم يتغيّر نهج الإعلام في سورية وخاصة أنّ معظم الصحفيين كانوا موظفين في وزارة الإعلام والقطاع العام وأبرز الكتاب هم أعضاء في حزب البعث. ولكن لا يمكن القول أيضاً إنّ هؤلاء كانوا "يضربون بسيف السلطان الذي يعتاشون منه"، بل إنّ معظمهم كان مؤمناً بوطنيّة وصدق ما يكتب، ومتى ووجهوا بمسائل أخلاقية أو عمل معيب داخل سورية ففي معظم الأحوال كان الصحفيون يفضحون هذه الأمور ويسعون إلى نشر الخبر. فيقرأ الناس من حين لآخر فضائح وأخباراً عن الفساد وعن معاقبة المفسدين في سورية.

الخلاص على وتيرة الإصلاح

رغب بشار في الانفتاح وفي تحرير الحياة السياسيّة، ولكنه اشترط أن لا يفلت الأمر ويتحوّل النشاط السياسيّ إلى شلال هادر لا يمكن ضبط حركته وتأثيراته. فقد بلغ عدد المنتديات واللجان العشرات وعدد الشخصيات المنضوية والنشطة فيها المئات بل الألوف وتالتت البيانات المعارضة ما أقلق السلطات وخلق شعوراً بفقدان

⁶⁸² أسماء الأخرس ابنة طبيب سوري مقيم في لندن هو فواز الأخرس المتخصص في أمراض القلب، وسحر العطري. ولدت أسماء في لندن عام 1975 وترعرعت فيها ودرست في إحدى مدارسها وكان أصدقائها ينادونها باسم إيمّا Emma. حصلت على البكالوريوس في الكومبيوتر من كينغز كوليدج التابعة لجامعة لندن عام 1996. تدرّبت على العمل المصرفي في نيويورك مع دويتشه بانك، ثم في مصرف جي بي مورغان. تتقن العربية والإنجليزية والفرنسية والأسبانية. تعرّفت على بشار أثناء إقامته في لندن (1992 - 1994) وزمالاته لوالدها في مستشفى في لندن.

⁶⁸³ الوكالة السورية للأبناء، سانا، 17 تموز 2000.

السيطرة واحتمال الفوضى، وأنَّ هُمةً من يعمل للاستفادة من أجواء الحرية والانفتاح للانقضاء على السلطة وخاصة في التيارات الإسلاميّة.

وإذ بدأ أن تيار التغيير كان متسرّعاً وغير مضبوط، عبّرت الحكومة لبشّار عن قلقها أن الأمور تجري بنحو راديكاليّ وقد تفلت الأمور من يدها إذا استمرت هذه الوتيرة. كانت هُمةً مخاوف حقيقيّة من إصلاح غير مضبوط له عواقب على الوحدة الداخليّة وعلى سورية كقوّة إقليميّة. لقد كانت المعارضة السوريّة منقسمة وموزّعة الميول والأهداف. ففي حين كان توجه رياض سيف ومأمون الحمصيّ كرجلي أعمال هو نحو اقتصاد السوق والنظام الديمقراطيّ الغربيّ، امتدّ طيف المعارضين من اليسار المتشدّد واليساريّ من المثقفين إلى التطرّف الإسلاميّ. وبعض المعارضين كان في السبعين من عمره وبعضهم أمضى معظم حياته خارج سورية ولم يعيش الواقع السوريّ. ولذلك كان محتملاً أن معظم رموز المعارضة في ربيع دمشق لم يكن على وتيرة الرأي العام السوريّ ولم يحظّ بدعم شعبيّ ضد النظام.

لقد فهم الرأي العام في سورية أن البديل عن بشّار لم يكن فعلاً نظاماً ليبرالياً ديمقراطياً غريباً بل كان نظاماً على وتيرة ذلك السائد في الدول العربيّة الموالية لواشنطن كمصر وتونس أو ربما حكم إسلاميّ يضرب الأقليّات. رأى بشّار أن سورية هي النموذج المثاليّ للعرب كمجتمع تعدديّ مستقر، وليس لبنان المجتمع التعدديّ غير المستقر. ففي سورية يعيش العرب والأكراد والأرمن والمسيحيّون والمسلمون والعلويّون والسنة والدروز في سلم أهليّ، وفي ظل القوميّة العربيّة التي ترفض النزاعات الطائفية والإثنية. وبالمقابل فإنّ التشديد على الهويات الجزئيّة الطائفية والإثنية كما هو في لبنان أدّى ويؤدي إلى حروب أهليّة وإلى انهيار الدولة. وعندما أصبح رئيساً للجمهوريةّ واصل سياسة والده في الانفتاح على المتدينين المسلمين، وزاد على ذلك تعاطفه العلني مع حركات المقاومة المناهضة لـ"إسرائيل" والولايات المتّحدة في المنطقة وتعميقه لتحالف سورية مع إيران. فدعم حركات المقاومة الإسلاميّة في العراق ولبنان وفلسطين وساهم في تقرب القوميّين العرب من الإسلاميّين في تموضع جديد يواجه التحديات الخارجيّة. كما واصل بشّار سياسة والده في التخفيف من حدّة علمانيّة البعث. وفي تموز 2003، صدر مرسوم يسمح للعسكريّين بالصلاة في المعسكرات والمراكز العسكريّة، رغم خطر تزايد نفوذ الإسلاميّين في الجيش بعدما أصبحت ممارسة الشعائر علنيّة ومدعومة بالقانون. كما سُمح للطالبات بارتداء الحجاب في المدارس وكثرت المظاهر الدينيّة ومناسباتها في المجتمع. كما قام بشّار بالعمرة وساهمت الدولة ببناء مساجد كبرى وسمحت بتدريس شعائر الدين الإسلاميّ في المدارس. ومع هذه التحوّلات كانت الدولة تأمل أن المؤمن لن يعتبرها عدوّة للإسلام، كما في السبعينيّات والثمانينيّات. وكان خطر هذا التراجع عن العلمانيّة أن نزوحاً بدأ في صفوف الشباب السوريّ من شعارات البعث نحو التدين ما أدّى إلى نتائج شديدة السلبيةّ عندما اندلعت الحرب عام 2011.

وبالمقابل تناقض هذا التراجع أمام التدين مع مسؤوليّة بشّار كرئيس للجمهوريةّ في حفظ المجتمع السوريّ من أي أزمة عرقيّة أو مذهبيّة. و"التراجع أمام التدين كان المقصود به دوماً أمام أغلبيّة إسلاميّة ولا يعني الكثير للأقليّات المسيحيّة أو للدروز مثلاً، بل إن أيقاظ المشاعر الدينيّة الضيقة يُضعف الحس القوميّ العلمانيّ

للدولة. ما خلق محاذير حول الإصلاح الذي أطلقه عهد بشار من عدم الاندفاع السريع نحو ديمقراطية وانتخابات بل كان يجب الإبقاء على قيود علمانية وكوابح هنا وهناك.

وكانت صحيفة السفير قد سألت بشار هذا السؤال: في العراق، كما في فلسطين وفي لبنان وربما في سورية بنسبة أقل، الوجود المسيحي الذي يعد مكوناً أساسياً في هذه المنطقة يتضاءل لأسباب سياسية واقتصادية وربما اجتماعية، هل لديكم تصوّر أو طريقة للحفاظ والإبقاء على هذا الوجود في المنطقة؟". فردّ بشار: الحل هو في العروبة، لأن العروبة هي التي تجمعنا جميعاً⁶⁸⁴.

عندما جاء بشار إلى الحكم لم تكن النخبة السنية الاقتصادية مناصرة صارمة لنظام البعث، بل بالعكس، كانت تخرج بخطاب تصاعديّ معارض ولكن مهذب وكانت تدفع إلى مشاركة في السلطة وتطالب أن يتمّ توسيع دائرة القرار. كما أنّ تحسّن ظروف الطبقة الوسطى في ظل قطاع خاص مزدهر كان يعني تراجع اعتماد أبناء عائلات السنّة على برامج الحكومة ووظائف القطاع العام وشبكات المنفعة في دولة البعث، وبالتالي تحقيق استقلالية اقتصادية خارج رعاية النظام الحاكم. لقد وظّف هؤلاء جزءاً من أرباحهم في القطاع الخاص لخلق معارضة ليبرالية تستطيع تمويل نشاطاتها الثقافية والإعلامية واجتماعاتها ومنتدياتها في الصالونات والقاعات. وكانت هذه التحركات الديناميكية متسارعة أكبر من مقدرة الحكومة على مواكبتها، تخلق واقعاً طبقيّاً جديداً يقبع في ثناياه الواقع المذهبيّ السنيّ.

في "ربيع دمشق" كان ثمة قلق رسمي على الجوهر الاجتماعيّ للبلاد من ترك وتيرة الإصلاح بدون ضوابط حتى لا يتحوّل الواقع السوريّ إلى لعبة أرقام ديمغرافية مذهبية. ذلك أنّ التحوّل السريع كان يقوّي النخب التجارية والصناعية السنية مادياً ومعنوياً وعبر علاقاتها مع الدول العربية السنية الكبيرة كمصر والسعودية والنخبة السنية المدنيّة في لبنان، ما يفتح الباب نحو شهية مطالبة بمشاركة أعمق في الحكم على الخلفية العديدة والقوة الاقتصادية للسنّة.

لم يكن ثمة أيّ ضوابط تمنع أنّ قبول الدولة السريع بمطلب إطلاق الأحزاب وبناتخابات حرّة قد يفتح الباب لأن تتحوّل سورية إلى وضع مشابه للبنان. ذلك أنّ فلتان الانتخابات وتحرّرها من ضوابط مانعة للترشح الطائفيّ والعرقّي، سيسمح بظهور لوائح سنية معتدلة من الطبقة الوسطى، حتى لو جهر أشخاصها بالعلمانية. وأخرى يدعمها إسلاميون ويؤدّي ترشحها إلى فوزها بسبب الأغلبية العديدة للسنّة في سورية ضد لوائح تدعمها الأقليات العلوية والمسيحية والدرزية مجتمعة، حتى لو قدّمت هذه الأقليات نفسها في إطار وطني علمانيّ جامع. وهذا ما كان يحصل في لبنان عند كلّ موسم انتخابي وكان أحد أسباب فشل الأحزاب العلمانية بعد سبعين عاماً من استقلال لبنان. ولهذا فإنّ الأقليات المذهبية في سورية وتلك المنتمية إلى الطبقات الجديدة كانت تنظر إلى مستقبل مختلف غير مأمون العواقب، فتدعم النظام وتخاف من انزلاق مستعجل نحو الديمقراطية والانتخابات بعيداً عن نظام البعث.

لقد استطاعت الدولة السوريّة إخماد الحركة الإسلامية في الثمانينيات، ولكن النعرة الدينية كانت كالنار في الرماد. ذلك أنّ الأخوان المسلمين تراجعوا ولكنهم كانوا موجودين على الساحة ويستقطبون شعبية كبيرة في

⁶⁸⁴ السفير، 22 نيسان 2009.

ظروف ملائمة خاصة في المدن. وكانت مَهْمَة حركة كثيفة في سورية من الريف السنيّ الداعم نسبياً لنظام البعث - بسبب الإصلاح الزراعيّ والتقدميات - إلى المدن وخاصة إلى دمشق وحلب وحمص وحمّاه. وما أحدثه هذا الوفود من تغير في نفوس الوافدين نحو التدين واعتناق أفكار الإسلاميين، خاصة أنّ المدن السوريّة كانت حصناً للحركات الدينيّة من 1940 إلى 1980.

لقد بقيت حركة الأخوان محظورة وتعارض النظام ولو من الخارج بقيادة البنايوني في لندن، في حين ظهرت تنظيمات صغرى كحركة جند الشام قامت ببعض أعمال العنف، كما في حزيران 2006 عندما وقعت معركة بالأسلحة الفردية في جوار وزارة الدفاع في دمشق راح ضحيتها شرطي وأربعة من المهاجمين، وحاولت مجموعة إسلاميّة نسف السفارة الأميركيّة في دمشق في أيلول من العام نفسه فجرت معركة مشابهة بين الأمن السوريّ والمهاجمين منعت ذلك. لقد قام البنايوني بزيارة واشنطن والتقى مسؤولين أميركيين للحصول على الدعم، ما جعله في نظر الرأي العام داخل سورية في شبهة بسبب الانحياز الأميركيّ الدائم لـ"إسرائيل". وكان على سورية أن تأخذ جانب الحذر من الأصوليات الإرهابيّة في العراق ومن فتح الشام وتنظيمات أخرى في شمال لبنان خاضت معارك ضد الدولة اللبنانيّة في جبال الضنيّة ومخيم البارد.

ولم يكن خوف الأقليّات الدينيّة من صعود أفراد من سنّة المدن إلى السلطة لأنّ هؤلاء ينادون بنظام غربيّ ديمقراطيّ، بل خاف المسيحيّون والدروز والعلويّون والمثقفون والعلمانيّون من التيارات المتطرّفة. ذلك أنّ السنّة المعتدلين - كما أشرنا أعلاه - يفتقرون إلى خلفيّة عقائديّة علمانيّة، كتلك الأحزاب المنضوية في الجبهة التقدميّة، وتقتصر آراؤهم كرجال أعمال على شعارات ليبراليّة عامة، سرعان ما يدفعهم جانباً تيار التشدّد وأجواء التدين، فيخفت صوتهم أمام جبروت العقيدة الأخوانيّة أو الوهابيّة. ولذلك خافت الأقليّات من تصاعد حركات إسلاميّة سنّيّة تحوّل البلاد إلى نظام يشبه إيران أو السودان أو السعودية. وفي الحالين فإنّ مَهْمَة مخاطر أن يؤدي التغيير الطبقيّ/المذهبيّ السريع إلى أزمة وعنف، حيث توفّع مراقبون سوريون أنّ "انتخابات حرّة ستخلق مواجهة بين البعث والإسلاميين في سورية، ولكن السؤال هو ماذا سيحدث بعد ذلك". ولذلك كان على الدولة السوريّة واجب الحذر في مسيرة الإصلاحات التي على إيجابياتها قد تؤدي إلى نتائج سلبية إذا لم تتم رعايتها بتؤدة ودرس، مع إبقاء نسبة التفاؤل والالتزام بمشروع الإصلاح وأنّ سورية تستطيع أن تخطو نحو نظام ديمقراطيّ علمانيّ بمسيرة هادئة ولو استغرق النهج الإصلاحيّ فترة من الزمن.

تراجع ربيع دمشق

لم تمسّ الدولة مع دعوات الإصلاحيين المستعجلة حول التعدديّة، بل كانت وجهة نظرها أنّ الفكر القوميّ العربيّ يوحد الشعب في ظل دولة واحدة ويمنع الانقسامات الطائفية والعرقية. وإلا دخلت سورية أزمت أهليّة كما حصل في لبنان والعراق. وكان بشار يتراجع رويداً نحو التريث في عمليّة الإصلاح بعدما دأب مستشاروه على الإشارة إلى تعاضم قوى المعارضة التي فسّرت نهجه الانفتاحيّ على أنّه ضعف في النظام. وأخذ بشار يستنتج أنّ بعض الإصلاحيين ليسوا وطنيين سوريين يسعون إلى خلق سورية قويّة وتحقيق الرفاه

والتطور لشعبها ضمن نهج تصاعديّ يعمل هو عليه منذ صيف 2000. بل جماعات خبيثة تهدّد الكيان وبقاء الوطن وتفتّت المجتمع إلى مذاهب وإثنيات باتصالاتها الخارجية ونداءاتها وإصرارها على تغيير فوري. تنادى أعضاء لجنة إحياء المجتمع المدنيّ وأصدروا بياناً في نيسان 2001 بعنوان "نحو ميثاق وطنيّ اجتماعيّ في سورية: مبادئ وطنية عامة" أخذ بالاعتبار اتهامات السلطة بأنّ هذه اللجان تركّز على انتقاد النظام وتهمل ذكر "إسرائيل" وخطرهما على سورية والعرب. فأعلن الميثاق التزام اللجان بالقضيّة الفلسطينيّة وتحرير الجولان والأراضي العربيّة المحتلة في لبنان وفلسطين وحشد الطاقات لهذا الهدف وصولاً إلى منظومة إقليميّة للدول العربيّة وليس إلى شرق أوسط جديد كما تبشّر الولايات المتّحدة. ولكن في صيف 2001 بدأ وهج الإصلاحيين يخبو إذ اعتُقل مأمون الحمصيّ بتهمة "محاولة تغيير دستور البلاد بوسائل غير شرعية"، واعتقل في طرطوس رياض الترك⁶⁸⁵. وكان الترك قد ألقى كلمة قاسية في 1 أيلول 2001 أمام منتدى الأتاسيّ هاجم فيها حافظ الأسد أنّه كان دكتاتوراً وقرانه بستالين وحمله مسؤوليّة الفساد والركود ومسؤوليّة أحداث حماة عام 1982. ثم أطلق سراحه في نهاية 2002 كبادرة حسن نية أثناء لزيارة جاك شيراك لسورية ولبنان. ثم اعتقل عدد من البارزين في لجان إحياء المجتمع المدنيّ كعارف دليّة ورياض سيف وآخرين. وكان سيف قد أعلن حلّ منتهاه في 21 آذار 2001، ولكنّه أعاد افتتاحه فكان السبب المباشر لاعتقاله في 6 أيلول وانتهى الأمر بعزله من البرلمان ورميه في السجن. وإذ اقتيد سيف بعد جلسة محاكمة في شباط 2002 صرّح بأنّ الحكم هو نيشان على صدره. وكان الفارق في هذه المحاكمات عن العهد السابق أنّ المتهمين دافعوا عن أنفسهم علناً ووكّلوا محامين وأنّ محاميهم تكلموا أمام وسائل الإعلام بحريّة وطالبوا بإطلاقهم. وسُمح لديبلوماسيين أجانب بحضور جلسات المحاكمة العلنيّة. حتى أنّ الصحف نشرت مقالات للمتهمين وأحدها لمأمون الحمصي يردّ على الاتهامات ويدافع عن نفسه. ثم أطلق سراح جميع الموقوفين من لجان المجتمع المدنيّ.

في نيسان 2002 صدرت أحكام سجن بحق سيف والحمصي مع معارضين آخرين لفترة 5 سنوات أمضوا منها أربعاً ثم أطلق سراحهم في كانون الثاني 2006. أمّا مأمون الحمصي فقد غادر سورية. وحُكم عارف دليّة بعشر سنوات في السجن، وتدهورت صحّته فأفرج عنه في 7 أغسطس 2008⁶⁸⁶. ورغم الضغط على المعارضة فإنّ مناخ الإصلاح بقي متسامحاً إلى حدّ ما واستمرّ نشاط المعارضة. ففي أيار 2003 وُجّهت رسالة للرئيس بشّار الأسد وقّعها 300 مثقف ومحام وناشط سياسيّ ناقشوا فيها أنّ الإصلاح لا يتناقض مع توجّهات الدولة وعقيدتها ومصالحها. وأنّ الإصلاحات تقوّي سورية لتواجه أميركا في العراق وتواجه "إسرائيل" في الجولان والأراضي الفلسطينيّة. ولم تمارس الدولة القمع العشوائيّ بل اقتصر في مجال ضيق كإجراء أخير. فعندما شكّل المعارضون جبهة موحّدة عام 2006، لم يكن ردّ فعل الأجهزة الأمنية فجاً

⁶⁸⁵ كان الترك قد سُجن عام 1971 لمعارضته الجبهة التقدميّة وقيادة خالد بكداش، وأطلق سراحه بعد 17 عاماً في 1988، ليصبح من أبرز منتقدي النظام حتى أصبح انتقاده شخصياً طال ليس فقط الرئيس الراحل بل بشار أيضاً.

⁶⁸⁶ "BBC, 7 August 2008, 'Syrian dissident economist freed'".

بل ثمة مساومات وقعت. فمع المعارضة الكردية جرى التفاوض حول حق استعمال اللغة الكردية، ومع المثقفين جرى التفاوض حول حقهم في نشر كتاباتهم والسفر إلى الخارج.

ورغم تراجع وتيرة ربيع دمشق فإن شعبية بشار تواصلت في صفوف الجيل الجديد وفي أوساط أبناء الطبقة الوسطى من سكان المدن الكبرى والمتعلمين من متخرجين وطلاب مدارس وجامعات وانحازوا إلى جانبه بشكل تلقائي أثناء التهديدات الإقليمية التي كانت سورية تواجهها. كما شدتهم شخصيته الفتية والحديثة والغربية إلى حد ما وزوجته المثقفة والأنيقة التي جذبت وسائل الإعلام الغربية (أجرت مقابلة معها محطة سي أن أن الأميركية أثناء الحرب الإسرائيلية على غزة مطلع عام 2009 ونشرت صحف ومجلات صورها العديدة بملابس موضة أوروبية). أما مشهد عائلته الصغيرة التي يعكس الإعلام الرسمي تواضعها، فهو يعني الكثير للسوريين الذين لم يروا حافظ الأسد في أي صورة عائلية قط.

في تلك الأثناء واصل بشار تجديد شباب القيادة السورية ومن ضمنها تقليص مساحة المفسدين، كما أحال المزيد من كبار المسؤولين إلى التقاعد. ففي حزيران 2005 تقاعد مصطفى طلاس وزير الدفاع، وزهير المشاركة نائب رئيس الجمهورية وعبدالحليم خدام نائب رئيس الجمهورية، وعبدالله الأحمر الأمين العام المساعد لحزب البعث، وتقاعد وخرج آخرون. وقلص بشار عدد أعضاء القيادة القطرية للحزب ثم ملأ مقاعد هذه القيادة بعناصر شابة يثق بها. ومكث خدام بعض الوقت بعد تقاعده في سورية ثم غادر إلى باريس⁶⁸⁷ ومن هناك كال اتهامات مذهلة ضد الرئيس بشار والدولة في سورية، ثم تحالف مع مناهضي النظام من معارضين وتنظيمات كردية ومع الأخوان المسلمين الذين يقودهم علي صدرالدين البنايوني، وعمل معهم تحت اسم جبهة الخلاص الوطني التي لم تفلح في عمل شيء ولم تجذب الشعب. إذ إن علاقات هذه الجبهة الوثيقة بواشنطن ودعم الإدارة الأميركية لفئات سورية معارضة بمبلغ 5 ملايين دولار، قد أفقدها الكثير من شرعيتها في أوساط الشعب السوري وأكد اختراق أعداء سورية لحركة الإصلاح. ومع ذلك كانت الحركات أولى تباشير التحضير للحرب عام 2011.

حول الدور الذي صورته القيادة السورية لبشار، كتبت صحيفة تشرين أن "بشار الأسد هو الصوت العربي الأكثر وضوحاً اليوم بتحديد أهداف الأمة العربية ومثلها ومبادئها بشجاعة ومنطق وحكمة، وهو لا يمثل سورية فقط، كدولة عربية وإقليمية هامة، ولكنه يمثل آمال وطموحات ومخاوف الأمة العربية من المحيط إلى الخليج"⁶⁸⁸. وأنه ضمن هذا الإطار تجد سورية دورها الطبيعي في دعم حركات المقاومة في لبنان وفلسطين والعراق وترفض معاهدات السلام المنفردة بين "إسرائيل" وكل من مصر والأردن والفلسطينيين، وليست هي التي تتخلى عن "مصالح الأمة العربية مقابل مصالح قطرية محدودة وتعارض أي معاهدة صلح بين "إسرائيل" والفلسطينيين ولبنان وأي تقارب دول الخليج من "إسرائيل" عبر التجارة والتطبيع الإعلامي.

⁶⁸⁷ أعلن خدام معارضته للنظام في كانون الأول 2005 بعد أن تدهورت علاقته ببشار وبعد انتقاده للسياسة الخارجية السورية لا سيما في لبنان. وأسس عام 2006 جبهة الخلاص الوطني التي تضم معارضين سوريين أبرزهم جماعة الإخوان المسلمين التي أعلنت انسحابها منها غداة العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة نهاية الشهر الأخير من 2008. أصدرت المحكمة العسكرية الجنائية بدمشق بتاريخ 17 آب 2008 حكماً على خدام بالسجن لمدة مختلفة أشدها الأشغال الشاقة المؤبدة مدى الحياة بتهم مختلفة. واتهمته «بالمؤامرة على اغتصاب سلطة سياسية ومدنية وصلاته غير المشروعة مع العدو الصهيوني والنيل من هبة الدولة ومن الشعور القومي، وأشدها دس الدسائس لدى دولة أجنبية لدفعها للعدوان على سورية التي عوقب عليها بالمؤبد». ⁶⁸⁸ صحيفة تشرين، 16 كانون الأول 2002.

كانت أولويات المواطنين السوريين الهم المعيشي - الاقتصادي وانتفاضة الأقصى في فلسطين وأحداث العراق الذي كان يعيش تهديد الغزو الأمريكي. وزاد في الطين بلة التهديد الأمريكي والإسرائيلي شبه الدائم لسورية. ليعود خطاب سورية المحاصرة بقوة إلى أذهان الناس. لقد غضب الشارع السوري - كما في كل الدول العربية - على القمع الوحشي الإسرائيلي للشعب الفلسطيني فنظر بشزرٍ إلى دعوات بعض السوريين إلى ديمقراطية غربية وإسقاط نظام وطني يتمتع بشعبية ويواجه "إسرائيل" والغرب، إزاء تصاعد الحملة الأمريكية والغربية ضد سورية ودعوات بعض السياسيين في لبنان إلى الرئيس بوش ليقرب النظام في دمشق.

32 | أميركا تحتلّ العراق وتحاصر سورية

الغزو الأميركي للعراق كان تخطيطاً وتصميماً سعى أولاً إلى جلب احتياط نفطي كبير تحت سيطرة واشنطن، وثانياً جيوسياسياً تضمّن إزالة العراق كعمق قوميّ لسورية بعدما أُخرجت مصر عام 1979، وثالثاً تأكيد الهيمنة الأميركية في العالم كقوة عظمى وحيدة بعد سقوط الاتحاد السوفياتي⁶⁸⁹.

بمجيء جورج بوش الابن، إلى البيت الأبيض تواصلت التحضيرات لغزو العراق والتي ارتدت وجه السرعة بعد هجمات 11 أيلول 2001 الإرهابية على الولايات المتحدة. فكانت الحرب الإعلامية الأميركية لا تهدأ ضد العراق تكيل لنظامه الاتهامات الباطلة ومنها تقرير وهمي للمخابرات الأميركية زعم أنّ العراق اشترى اليورانيوم المشع من النيجر لاستعماله في صناعة أسلحة الدمار الشامل وأنّ العراق بنى مصانع سرية لإنتاج هذه الأسلحة. ولم تنفع كافة محاولات العراق إحباط خطط واشنطن للغزو، من قبول عودة المفتشين إلى التعاون بدون حدود حتى في مسائل سيادية. ولكن الولايات المتحدة كانت قد بلغت حدّاً من الاستعداد العسكري عام 2002 أصبح معه أيّ تنازل من العراق لا يغيّر شيئاً في الأمر.

في عام 2002 خرجت آلة الحرب الأميركية بادعاء أنّ العراق هو وراء هجمات 11 أيلول 2001 على نيويورك وواشنطن وأنّ الإدارة الأميركية يجب أن "تعاقب صدام" على فعلته هذه حتى لا يفعلها مرة ثانية. فخرج مئات الخبراء والعسكريين والمحليين ومنهم اللبناني فؤاد عجمي يؤكدون هذا الادعاء ويحرضون على غزو العراق ويكررون أنّ صدام هو دكتاتور شرس يقمع شعبه ويشكّل خطراً على جيرانه وكرثة على بلده وهذا الوضع وحده يلزم الأسرة الدولية بالتخلّص منه⁶⁹⁰.

الحرب الأميركية على العراق كانت قد بدأت فعلاً عام 1991، أي قبل عشرة أعوام. وما الغزو عام 2003 الا استكمال لها وليس نتيجة لـ 11 سبتمبر. فقد شنت أميركا أربع حروب متتالية ضد العراق وهذه الحروب هي: حرب الخليج وتدمير البنية التحتية المدنية العراقية، حرب الاستنزاف الطويلة والتي يمكن اختصارها بأنّها تعاون استخباري بين لجان التفتيش الدولية والقوى الأميركية والبريطانية المرابطة في تركيا والخليج لقصف العراق كلّ بضعة أيام ولمدّة 12 سنة. وحرب العقوبات الجماعية التي ابتدأت في آب 1990 وانتهت في أيار 2003، بعدما أعادت العراق إلى العصر الحجري وأفنت حياة مليون و500 ألف عراقي. أمّا الحرب الرابعة فهي الغزو الذي بدأ ليل 19 - 20 آذار 2003.

لقد صرّح بول وولفوفيتز نائب وزير الدفاع الأميركيّ لمجلة "Vanity Fair" الأميركية⁶⁹¹ ما يلي: "الأسباب بيروقراطية، اتفقنا على أنّ تبرير الحرب على العراق سيكون أسلحة الدمار الشامل، لأنه السبب الوحيد الذي يتفق عليه الجميع". وبعد أسبوع من هذا التصريح أي في 4 حزيران 2003 سئل وولفوفيتز لماذا عاملت أميركا قوة نووية مثل كوريا الشمالية معاملة مختلفة عن العراق الذي لم يُعثر فيه على أسلحة دمار شامل. فأجاب: "فلننظر إلى الأمر ببساطة. الفارق الأساسيّ الأهم بين كوريا الشمالية والعراق هو أنّه من الناحية الاقتصادية لم يكن لدينا خيار آخر في العراق: العراق يسبح على بحر من النفط"⁶⁹². خلال سنوات الحصار

Anthony Armove, Iraq: The Logic of Withdrawal, New York, The New Press/Norton, 2006, pp. 1-13.⁶⁸⁹

Slavo Zizek, Iraq: The Borrowed Kettle, London. Verso books, 2004, pp.1-2.⁶⁹⁰

Vanity Fair 28 May 2003.⁶⁹¹

The Guardian, June 5, 2003.⁶⁹²

وصولاً إلى الغزو عام 2003، فقد الشعب العراقي ثقته بالولايات المتحدة وبنياتها تجاه أرض الرافدين، بعدما تركته فريسة العقوبات المدمرة ونظام القمع لأكثر من عقد. وبعد دخول الأميركيين بغداد لم يرحّب الشعب ولم يرَ أحد أن الولايات المتحدة جاءت فعلاً لتحرّر الشعب العراقي⁶⁹³.

الغزو

جاء غزو العراق عام 2003 ضمن سياق برنامج أميركي قديم هو تغيير أنظمة الحكم في دول عدّة⁶⁹⁴. كانت حجة الولايات المتحدة القانونية في غزو العراق هي مخالفته قرار مجلس الأمن 687 وبذلك يحقّ لها تحت البند السابع استعمال القوة لتنفيذ القرار. والحجة الثانية أن العراق يعمل لصناعة أسلحة دمار شامل، والحجة الثالثة أن واشنطن ترغب في إسقاط النظام لأنه دكتاتوريّ ويقمع شعبه. في خطاب "حال الاتحاد" في 29 كانون الثاني 2002، أعلن بوش الإبن أن العراق هو جزء من "محور الشر" الذي ضمّ بنظر واشنطن في ذلك الوقت إيران وكوريا الشمالية، وأن العراق يهدّد أمن الولايات المتحدة لأنه يسعى لحيازة أسلحة دمار شامل، وفق معلومات صحافية⁶⁹⁵، وشرح ديك تشيني: "نحتاج إلى بناء تحالف دولي لغزو العراق وهذا يستغرق بعض الوقت. فإذا بدأنا عملاً فورياً ضد صدام حسين سنخسر المبادرة ولن ينظر إلينا الرأي العام أننا الأخيار كما ينظر الآن"⁶⁹⁶.

وأُتبع بوش خطابه بتوقيع أمر استخباريّ بإنفاق 200 مليون دولار للقيام بأعمال سرّية ضد دولة العراق وتمويل نشاطات المعارضة. وبدأ التغلغل العسكريّ الأميركيّ في العراق في حزيران 2002، وتصاعدت الغارات الجوية ودخلت فرق سي آي إيه خاصة يرافقها ضباط نخبة أميركيّون أراضي العراق في 10 تموز 2002 لتحضير ميادين الغزو وجمع معلومات عن الأماكن التي سيدخلها الجيش الأميركيّ، وتنظيم الميليشيات الكرديّة في الشمال - البشمركة - لتساعد الغزاة. ثم أصدر الكونغرس الأميركيّ قانوناً يُجيز استعمال القوى المسلّحة ضد العراق. في الأيام الستين التي سبقت الحرب سعت الإدارة بكافة الوسائل الدبلوماسية والعسكريّة والاقتصاديّة للحصول على قرار من مجلس الأمن يشرّع الحرب. ولم تكن مواقف فرنسا وروسيا والصين، الأعضاء الدائمون في مجلس الأمن، مبنية على مبادئ أخلاقية وحقوق الشعب العراقيّ، بل على مصالح اقتصاديّة وسياسيّة. فصدر القرار 1441 من مجلس الأمن الدوليّ.

⁶⁹³ ميلان راي، خطة غزو العراق عشرة أسباب لمناهضة الحرب على العراق، دار الكتاب العربي، 2003.
ج. أ. غرين وميشيل راتنر، ضد الحرب في العراق، دار الفكر المعاصر، 2003.
أريك لوران، حرب آل بوش أسرار النزاع التي لا يمكن الاعتراف بها، دار الخيال، 2003.

⁶⁹⁴ 19 نيسان/أبريل 2003.

⁶⁹⁵ Woodward p. 88.

⁶⁹⁶ Woodward p. 91.

وهكذا في ليل 19 - 20 آذار 2003 شنت الولايات المتحدة غارات جوية أسقطت 3000 قنبلة وصاروخ خلال ثلاث ساعات، معلنة حرباً لاحتلال العراق استغرقت 20 يوماً⁶⁹⁷. وخلال الأسبوعين الأولين للحرب ساد واشنطن قلق عميق من سير العمليات خاصة من جراء المقاومة الشرسة جنوباً في أم قصر والفاو وجوار البصرة ومدن الجنوب والمعنويات المرتفعة التي تحلت بها القيادة العراقية. فباتت تصريحات بوش وكبار إدارته تمهد لحرب طويلة في حين استكان الرأي العام الدولي إلى أن المعارك ستستمر حتى آخر الصيف. ولكن الانتصار الأميركي كان مؤكداً بسبب الفارق العظيم في القوة مع العراق الذي فقد الجهوية الحربية والقدرة على الصمود وغاب أي حليف دولي. وحتى في السابع من نيسان وبعد سيطرة الجيش الأميركي على مطار بغداد صدام الدولي، كان كبار وزراء الحكومة العراقية يقولون إن القوات الأميركية ستلقى مقاومة شرسة. وفجأة شاهد العالم في الثامن من نيسان الجيش الأميركي في وسط بغداد وفي التاسع ظهرت لقطات تلفزيونية للجيش الأميركي يقوم بدوريات في الشوارع. سقطت بغداد وأصبح العراق بأكمله لقمة سائغة للغزاة. وشكل هذا النصر الأميركي السريع صدمة قوية للرأي العام العربي والعالم.

لقد نشرت صحيفة سان فرنسيسكو كرونيكل مقابلات مع قادة عسكريين عراقيين كانوا في بغداد في الساعات الأخيرة قبل سقوطها، أظهرت أن من أسباب سقوط بغداد هي عدم رغبة القادة العسكريين العراقيين في القتال وأن بعض الأوامر أربكت القادة العسكريين وأضعفت دفاعات المدينة. فقد اقترح عسكريون اتخاذ مواقع دفاعية في أنحاء العراق كأفضل وسيلة لمواجهة الغزو وعدم خروج الوحدات إلى العراق. ولكن القوات العراقية التي خرجت من العاصمة وقعت ضحية سهلة للطائرات الأميركية التي قضت عليها في مجزرة في منطقة مكشوفة. ولم تكن أوامر إرسال الجيش خارج بغداد الخطأ الوحيد، بل إن خطأً عسكرياً دقيقة حضرتها قيادات الجيش للدفاع عن بغداد لم تنفذ ومنها إقامة خطوط دفاعية حول العاصمة الأول على بعد 150 كلم من وسط بغداد والثاني على بعد 100 كلم والثالث أضيقتها على بعد 50 كلم. وكان لكل خط برامج دفاعية، فكان من ضمن عمليات الخط الأول استدراج القوات الغازية إلى الضواحي وشن حرب عصابات لإنهاكهم واعتماد أسلوب القتال من بيت إلى بيت لإطالة أمد الحرب. ومن ضمن عمليات الخط الثاني في حال سقوط الخط الأول تلغيم الجسور والطرقات ومطار صدام الدولي التي لو تم تنفيذها لأحدثت خسائر فادحة في صفوف الغزاة⁶⁹⁸.

وشرح الضباط أن الجنود كانوا متوترين وتعبين نظراً لعدم توقّفهم عن الانتقال من مكان لآخر وحاجتهم إلى النوم. وقال ضابط في مدينة الكوت جنوب بغداد إن كل وسائل الاتصال مع القيادة في بغداد توقفت كلياً في الثاني من نيسان، فلم يعد ممكناً تنسيق العمليات ومعرفة تطوّر المعارك في أماكن أخرى. وآخر اجتماع للقيادة العسكرية كان قبل سقوط بغداد بيوم واحد فخرج الضباط بقرار عدم مواصلة القتال والذهاب إلى بيوتهم وانفرط عقد القيادة العسكرية العراقية⁶⁹⁹. وربما علمت القوات الأميركية بهذا الانهيار

⁶⁹⁷ نبيل عبد الرحمن حياوي، سقوط بغداد الوقائع الكاملة ليوميات حرب الخليج الثالثة، دار القلم، 2003.

⁶⁹⁸ Jon Lee Anderson, *The Fall of Baghdad*, London, The Penguin Press, 2004.

⁶⁹⁹ الحياطة 26 أيار 2003.

الداخلي في معنويات القيادة العسكرية فقد أشار متحدثون في الإدارة الأميركية إلى حدوث تضعف في قيادة الجيش العراقي في الأسبوع الأول من نيسان. فشنّ الجيش الأميركيّ صبيحة 5 نيسان هجمات قوية ومتكررة على وسط بغداد، حتى سيطر على القصر الجمهوري في 7 نيسان، ووصل إلى معظم ساحات بغداد في 9 نيسان وأكمل احتلال الضواحي في العاشر منه⁷⁰⁰.

ذكرت وسائل إعلام عديدة أنّ الضباط أسأؤوا تقدير حجم قدراتهم واعتقدوا أنّ بغداد عصية ولن يصلها الأميركيون أبداً. وهذا ما أكده لصدام. فتأخروا في التحضير للحرب رغم المؤشرات الخطرة إلى الاستعدادات الأميركية الضخمة المشابهة لغزوها أوروبا في الحرب العالمية الثانية. كما أنّ مستويات التدريب كانت متدنية إلى درجة أنّ قائداً عسكرياً في منطقة الفاو المجاورة للحدود الكويتية تسلّم صواريخ أرض قبل أسبوعين من نشوب الحرب وميّت عشرة أيام على تسلّمها من دون أن يهتم بتدريب جنوده على استعمالها ولم يأمر بتحضيرها وإخراجها من صناديقها. ولذلك قبعت هذه الصواريخ في المخزن ولم تستعمل.

وذكر الكثير عن تغلغل المخابرات الأميركية في صفوف الضباط وشرائها الذمم. كما أنّ التقارير الأميركية أشارت مراراً إلى اتصالات ميدانية للضباط الأميركيين مع الضباط العراقيين واستقدام عسكريين عراقيين سابقين من أوروبا والولايات المتحدة لإقامة اتصال مع ضباط يعرفونهم في الجيش العراقي (أحدهم أخرجته المخابرات الأميركية من الدمارك ونقلته إلى بغداد ليتصل بالضباط). وليس بعيداً أن يكون قد جرى في العراق بعض ما جرى في أفغانستان حيث استعملت المخابرات الأميركية ملايين الدولارات لشراء ولاء كبار العسكريين. ولذلك فإنّ لحقيقة سقوط بغداد وبالتالي العراق جوانب متعدّدة⁷⁰¹.

على امتداد القرن العشرين وحتى اليوم رفض الشعب العراقي الهيمنة الخارجية. فعندما كان يمرّ في مراحل ضعف كان الغزاة يستسهلون غزوه واحتلاله، إلا أنّه سرعان ما كان ينتفض ويقاوم. وهذا ما حصل مع الاحتلال الأميركيّ عام 2003⁷⁰². ومنذ مطلع القرن العشرين شهدت أرض العراق ويلات متواصلة تخلّلتها سنوات هدوء واستقرار سمحت بالازدهار الاقتصادي والاجتماعي في ظل دولة البعث السلطوية. ولقد استغرق صعود العراق عقوداً وبلغ ذروته عام 1980، إلا أنّ التراجع كان سريعاً وبدت آثاره واضحة عام 1982، بعد سنتين من الحرب مع إيران. ثم انقلب التراجع إلى انهيار حقيقي في التسعينيات.

لقد سقط مليون وخمسمئة ألف عراقيّ ضحايا الصراع الداخليّ منذ 1963 حتى كتابة هذه السطور، وسقط عدد مماثل ضحايا الحصار الأميركيّ البريطانيّ خلال 12 سنة، فإذا أضفنا ضحايا الحرب العراقية الإيرانية (1980 - 1988) وضحايا الغزو الأميركيّ (2003)، بلغ عدد القتلى جراء الحروب التي شهدتها العراق أربعة ملايين شخص. وهو رقم لا يتصوّره عقل بالنسبة لعدد سكان العراق.

Anthony Shadid, Night Draws Near: Iraq's People in the Shadow of America's War, new York, Henry Holt and Company, 2006, 51-110.

⁷⁰¹ نصره عبدالله البستي، أمن الخليج من غزو الكويت إلى غزو العراق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2003.

⁷⁰² عبد الرحمن منيف، العراق هوامش من التاريخ والمقاومة، المركز الثقافي العربي، 2003.

وإذا قتلت الحروب 20 في المئة من سكان العراق فقد عانى 20 بالمئة ممن بقي حياً من أهل العراق من الأمراض والجوع، فيما هاجر عشرة في المئة (وربما أكثر) إلى خارج البلاد، وأصاب التشرد 20 في المئة. والبقية عانت بشكل أو بآخر من الحروب والفقر والقمع. وهذه الصورة المقتضبة عن تدمير المجتمع العراقي تعني أن العراق الذي احتلته أميركا عام 2003 كان في كارثة غير مسبوقة لم تُصَب أي مجتمع آخر⁷⁰³.

وإضافة إلى الدمار المادي المباشر والخسائر الاقتصادية الباهظة في الإنتاجية وضياع أجيال من العراقيين، فإن الحرب الأميركية على الشعب العراقي منذ 1990، أسقطت ما يفوق عن 1.8 مليون شخص ودمرت الاقتصاد وأبطلت إنتاجيته وفرضت عليه حصاراً قاتلاً. ولو كانت هناك شرعية دولية عادلة فكانت ستسمح للعراق بطلب تعويضات من الولايات المتحدة قد تصل قيمتها بضع مئات من مليارات الدولارات. ذلك أن الحروب الأميركية من 1990 وحتى 2003 لم تكن شرعية بالمنظار القانوني الدولي كما أنها سُنت بدون تفويض من مجلس الأمن بل بقرار من الكونغرس الأميركي عام 1998 ووفق افتراضات كاذبة وأسباب مفبركة، واستعملت أثناءها أسلحة محرمة وفتاكة.

في أيار 2003 شارك الكاتب العراقي عبد الأمير الركابي في مؤتمر أقامته منظمات مجتمع مدنيّ مناهضة للعوامة ومعارضة للحرب على العراق في جاكرتا. وجاء في مشاركته: "الولايات المتحدة وقفت بصراحة مع الإبقاء على الحصار والعقوبات التي هي الأقسى في التاريخ. وبين الأعوام 1991 و2003 قاسى العراقيون من تلك الحرب المميته أكثر مما قاسوا من سابقتها. فبسبب الجوع ونقص الدواء وسوء التغذية مات خلال العقد المنصرم ما يقرب من مليون ونصف المليون عراقي نسبة الشيوخ والأطفال بينهم غالبية. أما الحرب الأخيرة، فقد خاضتها الولايات المتحدة الأميركية بإصرار معروف وبخرق فاضح للقانون الدولي ولإجماع أمم العالم... من الظاهر بقوة سعي الولايات المتحدة إلى كبح المشروع العراقي، من حيث تدمير المجتمع، وقتل أليّاته الوطنية سواء باستعمال حجة صدام حسين، أو باعتماد أي وسيلة أخرى كما هو حاصل الآن، حيث وضعوا العراقيين تحت استباحة، يستعمل فيها المحتلون أسلحة دمار شامل من نوع فقدان الأمن، والنهب وإشعال الحرائق وتدمير الذاكرة الحضارية والفنية من قطع الكهرباء والاتصالات والماء الصالح للشرب وتدمير المستشفيات والحرمان من الكهرباء وكل ما يمت إلى الحياة العصرية بصلة".

سورية هدف أميركا التالي

قبل الغزو، كانت العلاقات الاقتصادية بين سورية والعراق في أوجها. إذ أعطت الحكومة العراقية لسورية الأولوية كمصدر لاستيراد حاجاتها من السلع بموجب برنامج النفط مقابل الغذاء. فزاد حجم التبادل التجاري بين البلدين عن 5 مليارات دولار من جراء التجارة عبر الحدود والنفط العراقي ومنطقة التجارة الحرة في التبادل الكثيف للبضائع. وعندما أصبح بشّار رئيساً عام 2000، اخترقت سورية الحصار وبدأت كميات النفط العراقية تعبر إلى سورية عبر أنابيب وشاحنات وتستفيد الأخيرة من فارق في السعر بلغ 40 في المئة دون

⁷⁰³ Anthony Armove, Iraq: The Logic of Withdrawal, New York, The New Press/Norton, 2006, pp. 13-30.

السعر العالمي. وواصلت سورية هذا النشاط رغم طلب كولن باول، وزير الخارجية الأميركي، مراراً بوقف التهريب مباشرة من الرئيس بشار. وقد كانت مرحلة خرق الحصار الدولي للعراق الأكثر ربحاً لسورية، حيث بلغت عائداتها من التجارة 8 مليارات دولار. كما أن سورية حققت صفقات تجارية لتصدير سلع تجارية بكميات كبيرة للعراق، بعدما منع الحصار الدولي للعراق من ممارسة سيادته على التجارة الخارجية⁷⁰⁴.

كانت سورية إذاً من الدول الأكثر تضرراً جراء الغزو الأميركي للعراق، وخاصة الخسارة الفورية لكميات النفط العابرة أراضيها بعدما أقفلت القوات الأميركية الحدود في نيسان 2003. كما أن خسارة السوق العراقية للسلع السورية شكّلت ضربة موجعة للاقتصاد السوري الذي اتكّل منذ عقد من الزمن على العلاقات الاقتصادية مع العراق ولبنان، ولكن بدرجة أكبر مع العراق بعد وفاة حافظ الأسد عام 2000، حيث بلغت العائدات السورية من التجارة مع العراق ما يزيد عن ملياري دولار في السنة. وكذلك عائدات هامة من أنبوب النفط الذي يربط الحقول العراقية مرفأً بانباس، والذي أدى إقفاله إلى خسارة هامة للعملات الصعبة. ما دفع سورية إلى تقليص مشترياتها الأجنبية. أضف إلى هذه الخسارة واقع تردي القطاع السياحي وتجمّد حركة الاستثمارات والضغوط الأميركية التي تصاعدت في الأشهر الستة الأولى للعام 2003. فتأزمت الحالة الاقتصادية في سورية كما سبقت الإشارة وأقفلت على سورية السبل شرقاً كما كانت العلاقات متعثرة جنوباً منذ توقيع الأردن معاهدة سلام مع "إسرائيل" ومتعثرة مع منظمة التحرير بسبب اتفاقاتها المرحلية مع "إسرائيل". ليصبح لبنان أكثر أهمية لسورية من أي حقبة مضت.

كانت علاقة سورية مع العراق وعدم انضمامها إلى "الحرب ضد الإرهاب" التي أعلنتها الرئيس الأميركي جورج بوش الابن العاملين الرئيسيين اللذين أوصلا بشار الأسد إلى مرحلة خصام مع واشنطن وحلفائها عام 2003. وكانت قد انقشعت غيوم العلاقات بين سورية والعراق عام 1997 قبل ثلاثة أعوام من عهد بشار الأسد بعد انقطاع دام 18 سنة. فتطوّرت العلاقات الاقتصادية بين البلدين وفتحت الحدود أمام أصحاب الأعمال وأقيمت مراكز تجارية في بغداد ودمشق لتسهيل شحن البضائع. وبعد شهرين من بدء عهد بشار - في آب 2000 - عاد خط السكة الحديد بين حلب والموصل إلى العمل بعد توقفه منذ 1979، وخرقت سورية الحصار الجوي الذي فرضته الولايات المتحدة فسيرت خط طيران مدني بين البلدين وتمّ الاتفاق على إقامة منطقة تجارة حرة وتوقيع عقود كبيرة. وزار طارق عزيز دمشق قادماً بطائرة هي الرحلة الجوية الأولى بين البلدين منذ عام 1991. وكان الرئيس بشار يمتنّ علاقة سورية بالعراق بوتيرة أسرع من تلك التي سلكها والده وعارض بشدّة استمرار نظام العقوبات ضد العراق. وزادت شحنات النفط العراقي إلى سورية بنسب أعلى بكثير من المسموح به في برنامج "النفط مقابل الغذاء"، ما عرض سورية لانتقادات وتهديدات من واشنطن ولندن ودول أخرى. وفي كانون الثاني 2001، أعلن البلدان التوصل إلى اتفاق لشراكة الموارد المائية.

عندما وقعت الهجمات الإرهابية في الولايات المتحدة في 11 أيلول 2001، في يوم ميلاد بشار، ندّدت سورية بالهجوم وشاركت الأميركيين مشاعر الأسى والعزاء. ولكنها لم تنصو في "الحرب على الإرهاب". وكان هذا الموقف بداية اشتعال عواصف صعبة حول سورية في السنوات التي تلت. ففي آذار 2003 احتلت أميركا

⁷⁰⁴ راجع كمال ديب، زلزال في أرض الشقاق العراق 1915 - 2015، دار الفارابي، 2004.

العراق ووصل الجيش الأميركي إلى حدود سورية الشرقية، في وقت أخذت تحيط بسورية حكومات موالية لأميركا في بيروت وعمّان وتل أبيب ورام الله. فلازم القلق والخوف سورية. إذ بعد احتلال العراق، واصل اليمين الأميركي الجديد حملته ضد سورية واعتبر أنّ تحوّل العراق محمية أميركية هو خطوة أولى تليها خطوات ضد دول أخرى. فأخذت كونداليزا رايس تهدّد سورية بأنّ عدم تعاونها مع الولايات المتحدة سيؤدي إلى حلّ مشابه للعملية العراقية. كما أنّ كولن باول التقى بالرئيس بشّار في أيار 2003 وهدّده مباشرة في حال عدم تنفيذ مجموعة من الإملاءات الأميركية. وفي كانون الأول 2003 وقّع بوش على "قانون محاسبة سورية واستعادة سيادة لبنان" بعدما وافق عليه الكونغرس. وجدّدت واشنطن تحذيرها لسورية بوقف دعمها لتنظيمات مسلحة في فلسطين ولبنان والعراق ووقف تدخّلها في شؤون لبنان، وإلا فإنّ واشنطن ستفرض عقوبات.

ولم تستجب سورية لمطالب واشنطن، ففرضت الأخيرة عقوبات قضت بوقف الصادرات الأميركية إلى سورية مستثنية المواد الغذائية والأدوية، ومنعت شركة الخطوط الجوية السوريّة من الهبوط في المطارات الأميركية ومنعت بعض التبادلات المصرفية وخاصة مع بنوك سورية ظنّ الأميركيون أنّ لها علاقة بمدخرات العراق أو أنّها ضالعة في تحويل أموال إلى تنظيمات في الدول المجاورة. ولكن نسبة كبيرة من صادرات سورية ذهبت إلى الاتحاد الأوروبي الذي لم يساير العقوبات الأميركية مقارنة به في المئة فقط إلى الولايات المتحدة. وكانت تقديرات أميركا أنّ أي حرب أميركية مباشرة على سورية ستواجهها سورية بالقوّة والصمود وخاصة أنّها ستجرّ "إسرائيل" إلى الميدان. وفي هذه الحالة سينقلب الموقف العربيّ. وحتى في حال انتصار أميركا احتلالها لسورية ستكون له تداعيات لا حصر لها وسيكون لها وقع على كلّ دول المنطقة خاصة على لبنان و"إسرائيل" والأردن والعراق وتركيا. كما أنّ التجربة الأميركية في العراق أثبتت أنّه لا يمكن لأي دولة مهما عظمت أن تهندس نظاماً سياسياً لبلد تحتله. ولذلك كان طموح واشنطن عام 2004 "تغيير سلوك النظام" والتركيز على سورية في لبنان أولاً.

33 | لبنان في نفق الاغتيالات والفوضى

اغتيال رفيق الحريري

في 14 شباط 2005، وقع انفجار ضخم في حي الفنادق على واجهة بيروت البحرية أودى بحياة رفيق الحريري وعشرين آخرين، وأدى إلى تداعيات كبرى. وسرعان ما اتهمت سورية بالاعتقال، رغم أن فوز رفيق الحريري ووليد جنبلاط وحلفائهما في انتخابات برلمان 2000 وعودته إلى رئاسة مجلس الوزراء كانت أموراً مقبولة لسورية وبدعم سوري. إذ رغم أن الصيت كان لحكم الترويكا في التسعينيات إلا أن الحريري كان رئيس لبنان الفعلي. وكانت سورية سلطة وصاية على لبنان بمشاركة السعودية ومباركة دولية تبدأ في الفاتيكان والرياض وتمّر في باريس وتنتهي في واشنطن والحريري مقرب من السوريين وشريك في سياستهم الإقليمية، زار دمشق في الفترة من 1992 إلى 2004 أكثر من مئة وخمسين مرة. وكان كغيره من الرؤساء والزعماء حلفاء لسورية وولأوهم تحصيل حاصل بالنسبة لدمشق.

وإذ أطلق وليد جنبلاط الشرارة الأولى ضد سورية من خارج الصف الماروني، بدأت خيوط معارضة تتمظهر على الساحة ضمت الحريري وجنبلاط ونواباً مسيحيين والبطريك الماروني. ففي 6 تشرين الثاني 2000 انتقد جنبلاط خلؤ البيان الوزاري لحكومة الحريري من الإشارة إلى إعادة انتشار القوات السورية إلى البقاع بموجب اتفاق الطائف. وأثار موقف جنبلاط حفيظة دمشق ورداً على ذلك، أعلنت السلطات السورية جنبلاط "شخصية غير مرغوب بها في دمشق"⁷⁰⁵. ثم شهد صيف 2001 تقارباً مارونياً درزياً غير مسبوق منذ حرب الجبل عام 1983، بزيارة البطريك صفيّر لجنبلاط وجولته في الشوف. وكان الوضع قد بدأ يتغير عام 2001، حيث نجح التكتل اللبناني المعارض لسورية في استمالة الرأي العام في الشارع السنّي والدرزي لغير مصلحتها. فقد كان بإمكان الشباب المسيحي أن يعبر عن سخطه على الهيمنة السورية، ما لم يكن ممكناً في صفوف الشباب المسلم⁷⁰⁶. ولكن أن يرى الرأي العام، ومنذ العام 2001، أن المسلمين أيضاً باتوا لا يريدون الوصاية السورية على الدولة اللبنانية، فهو تحول خطير.

وفي ما كان بشار الأسد بارداً تجاه الحريري، كان الأخير مرتاحاً منذ أواسط الثمانينيات إلى الرباعي عبدالحليم خدام - غازي كنعان - حكمت الشهابي - علي دوبا. ولم يكن يعبر بشار اهتماماً لدى بروز هذا الأخير على الساحة منذ العام 1995 ثم تسلّمه الملف اللبناني. وكان الأسد الأب قد طلب من الحريري، أثناء زيارات الأخير العديدة إلى دمشق، الاهتمام بنجله بشار، ولكن خدام والشهابي نصحا الحريري بعكس ذلك⁷⁰⁷. أما بشار فلم يكن أسلوب الحريري بمزج السلطة والمال يرقى له. فكان بشار يزور لبنان ويلتقي الهراوي وبزي وسليمان فرنجية، ويهمل الحريري. وقبل وصوله إلى الرئاسة، التقى بشار الحريري في مركز المخابرات السورية في عنجر في 12 أيار 1997 بحضور غازي كنعان المقرب من الحريري، في محاولة للتفاهم معه.

المواقف المناهضة لسورية في لبنان بعدما أصبح بشار رئيساً لم تعرقل علاقات الحريري وجنبلاط بالرباعي السوري، ما أثبت أن المواقف كانت منافقة: أفضل العلاقات مع جهة في الدولة السورية وعداء تام لجهة

⁷⁰⁵ الحياة 7 تشرين الثاني 2000، "دمشق غاضبة من مواقف جنبلاط ونائب بعثي يتهمه بالعمالة ويهدده".

⁷⁰⁶ 74 *Histoire et société*, Paris, La Découverte, 2003, p. 2- Georges Corm, *Le Liban Contemporain*

⁷⁰⁷ مجلة "الشرع" 25 أيلول 2005.

أخرى. فكان الحريري يلتقي حلفاءه السوريين مراراً كما أن جنبلاط استقبل عبدالحليم خدام في المختارة في أيار 2002. ولكن الحريري كان أفطن من جنبلاط بحكم علاقته الواسعة ومنصبه كرئيس للحكومة، فقد اكتشف منذ أصبح لحدود رئيساً للجمهورية أن الرباعي السوري لم يعد نافذاً في الشؤون اللبنانية كما كان في السابق. وكان الحريري يثير مسألة موقعه كزعيم الطائفة السنية وخاصة في إصراره على حماية صلاحياته الدستورية في مواجهة رئيس الجمهورية. فكان يتهم لحدود بأنه يريد العودة إلى "الجمهورية الأولى" والامتيازات المارونية، أي الوضع الذي سبق اتفاق الطائف حيث كان رئيس الجمهورية الماروني يملك صلاحيات تنفيذية كاملة. وكان الوزير السابق ألبير منصور قد فصل صلاحيات رئيس الجمهورية في النظام السابق وقال بأنها كانت بدون حدود، في نظام احتكاري أصبح فيه رئيس الجمهورية شبه دكتاتور⁷⁰⁸. وإذ ارتفع الضغط الدولي الذي قاده الولايات المتحدة على دول المشرق تمهيداً للغزو الأمريكي للعراق، سعت سورية إلى تبريد الساحة اللبنانية وتخفيف جو التوتر بين الحريري ولحدود. كما أن بشار أحدث تغييرات في جهاز الأمن السوري في لبنان في نهاية 2002 في فترة استمر فيها الفساد الذي مثله الرباعي السوري والمافيا اللبنانية السورية. واستبدل بشار غازي كنعان برستم غزالة كمسؤول عن الاستخبارات السورية في لبنان، وعين محمد خلوف مكان غزالة في قطاع بيروت. وإذ اعتبر غزالة عضواً في مافيا الفساد اللبنانية السورية، لاحقته وأشقاءه اتهامات بالقيام بعمليات ابتزاز لـ "بنك المدينة" اللبناني بقيمة 200 مليون دولار، منها 8 ملايين دولار خلال أشهر من تسلمه منصبه عام 2002⁷⁰⁹. أما غازي كنعان حليف الحريري، فقد عاد إلى دمشق حيث أصبح وزيراً للداخلية في تشرين الثاني 2004.

وكان الرئيس بشار قبل العام 2003 واثقاً من تحالفاته المحلية داخل لبنان ومن متانة الدولة اللبنانية، حتى أنه أمر بتقليص القوات السورية من 30 ألفاً إلى 14 ألفاً، وأبعدها خاصة عن المناطق المسيحية. وإذ تحسنت العلاقات بين بغداد ودمشق واستفادت سورية من صادرات العراق النفطية عبر أراضيها، بدأت الولايات المتحدة تشير إلى "الاحتلال السوري للبنان".

وهكذا بعدما كانت إدارة سورية للبنان موضع رضى وتقدير في باريس وواشنطن انقلب الوضع رأساً على عقب. ففي كانون الأول 2003 وقّع الرئيس بوش قانون "محاسبة سورية واستعادة سيادة لبنان". فكانت النتيجة أن تعاون حافظ الأسد مع واشنطن حول الكويت والعراق عام 1990 قد أطلق يده في لبنان، فيما كان انتقاد بشار للغزو الأمريكي ومعارضته له سبباً لانقلاب في المباركة الأميركية لإدارة دمشق للساحة اللبنانية. كانت أميركا تعلن أنها أصيبت بخيبة من سورية بعدما كانت تعول في مباركتها للإدارة السورية للبنان على انقلاب دمشق يوماً ما على حزب الله ونزع سلاحه. وأن هذا اليوم قد استحقّ بنظر واشنطن وبات على سورية التنفيذ. أما فرنسا فقد كانت تسعى منذ بداية رئاسة بشار إلى تفاهم مع دمشق يسمح باحترام الدور الفرنسي ومصالح فرنسا في بيروت، مقابل دعم فرنسا لسورية في المسائل الإقليمية والصراع العربي الإسرائيلي. وكمؤشرات، أقام شيرك استقبال دولة لبشار الأسد ووفد سوري رفيع في قصر الأليزيه

⁷⁰⁸ ألبير منصور، الانقلاب على الطائف، بيروت، دار الجديد، 1993، ص. 46-47، ومقال عماد مرمل، السفير، 22 أيار 2003، "الحريري يرى في لحدود صورة الجمهورية الأولى".

⁷⁰⁹ الحياة 19 أيار 2005، وجريدة السياسة 4 تشرين الأول 2005.

وسامحت فرنسا الديون السوريّة ودعمت بقوة مفاوضات سورية للشراكة مع الاتحاد الأوروبيّ، في وقت كان شيراك، مثل بشار، معارضاً شديداً للغزو الأميركيّ للعراق.

تدهورت الأمور بشكل مريع في 2004، عام الاستحقاق الرئاسيّ في لبنان حيث تنتهي ولاية لحود في تشرين الثاني. لقد رأى بشار ومستشاروه أن من مصلحة سورية في ظل الطرف الإقليميّ التجديد للحود، الموثوق به والمجرب، وصاحب علاقة طيبة مع المقاومة والبعيد عن الفساد، بدلاً من البدء مع مارونيّ آخر قد لا يلتقي مع مصالح سورية. وطغى الوضع في العراق على كلّ ما عداه في العلاقات بين سورية وواشنطن، رغم محاولات دمشق إبداء الرغبة في التعاون في الشؤون الاستخباريّة وأمن الحدود بين سورية والعراق. وفي 27 آب 2004، أهمل بشار التحذيرات الفرنسيّة - الأميركيّة من مغبة التجديد للحود بتمديد ولايته ثلاث سنوات. ومنحت حكومة الحريريّ الموافقة على التعديل الدستوريّ للتجديد واجتمع البرلمان اللبنانيّ وصوّت بأغليّة تعديّل المادة 49 لمرة واحدة للتجديد للحود.

في صيف 2004 اكتشفت كلّ من واشنطن وباريس أنّ استثماراتها لتغيير سياسة الرئيس السوريّ ذهبت هباء. فاتّحد الموقفان حول لبنان رغم الشق الواسع الذي يفصلهما حول العراق. وفي الثاني من أيلول 2004، رعت الولايات المتّحدة وفرنسا قرار مجلس الأمن رقم 1559 الذي دعا إلى انسحاب كلّ القوى الأجنبيّة من لبنان ونزع سلاح ما تبقى من ميليشيات وخاصة الجناح العسكريّ لـ "حزب الله" وإجراء انتخابات رئاسيّة حرّة بدون تدخّل خارجي. وساهم هذا الجو الدوليّ والتجديد للحود في إذكاء نار المعارضة في لبنان، فواصل جنبلاط والبطيرك صفير التنديد بالهيمنة السوريّة، إلى أن استقال الحريريّ من منصبه في 20 تشرين الأول 2004⁷¹⁰. ورغم أنّ الموالاتة اتهمت الحريريّ بأنّه وراء القرار 1559 وأنّه شارك في إعداد نصه مع صديقه جاك شيراك، ولكنّه تجنّب قدر الإمكان المشاركة في المعارضة ضد سورية.

وبرز تكتل معارض واسع شمل تيار المستقبل الذي يقوده الحريريّ والحزب التقدميّ الاشتراكيّ الذي يقوده جنبلاط، ولقاء قرنة شهوان الذي يضمّ شخصيات نيابيّة وسياسيّة مارونيّة يرعاه البطيرك صفير، و"التيار الوطنيّ الحر" الذي يقوده ميشال عون من فرنسا. وعقد هذا التكتل اجتماعاً حاشداً في أوتيل بريستول في بيروت. وكانت مساندة الحريريّ لهذا التكتل، بما يمثله من قوّة ماليّة وسياسيّة على الأرض وما يتمتع به من علاقات إقليميّة ودوليّة، إشارة إلى انقلاب في الموازين اللبنانيّة ضد الوجود السوريّ وضد الرئيس لحود، خاصة قبل استحقاق انتخابات برلمان 2005. وكان الحريريّ يحضّر لهذه الانتخابات ويخطّط لحملة مختلفة وقويّة لكسب أكثرية المقاعد. وفي هذا المسعى اشترى كميات كبيرة من الشارات البرتقالية من فرنسا للتشبهه بربيع أوكرانيا في الانتخابات⁷¹¹. ولكن الحريريّ سعى أيضاً للتقرّب من "حزب الله" وصارح السفير الإيرانيّ في باريس بهذا الأمر.

⁷¹⁰ النهار، 26 شباط 2005.

⁷¹¹ الحياة 21 شباط 2005.

تجوّل الحريريّ دوماً في موكب ضمّ ست سيارات ليموزين مصفّحة وأربعين حارساً مسلّحاً ومجموعة حراسة لقصره، وبلغت كلفة حراسته في بيروت مليوني دولار في السنة يدفعها من جيبه الخاص، وذلك إضافة إلى القوى الأمنية الرسميّة التي تقوم بحمايته ومواكبة تحركاته منذ أصبح رئيساً للحكومة في أكتوبر 1992.⁷¹² لقد سيطر على المناخ العام اللبنانيّ في بداية شباط 2005 جو من الاستقطاب العنيف، وفي 2 شباط 2005، انعقد لقاء بريستول الثالث وصدر بيان يطالب فيه للمرّة الأولى بخروج القوات السوريّة واستخباراتها من لبنان. وفي ظهيرة 14 شباط قطعت محطات التلفزة برامجها لتبث المشهد الرهيب من حي الفنادق قرب أوتيل سان جورج حيث وقع انفجار مدوّ لدى مرور موكب الرئيس الحريريّ. ولبضع ساعات انتشرت صورة الحريريّ متفخّمة على مواقع الإنترنت. عشرات ملايين الدولارات من الحماية والحراسة والحذر لم تمنع أن يقع الحريريّ ضحيّة الاغتيال السياسيّ الذي طالما ضرب لبنان وشخصيّاته الكبرى.

شكل مصرع الحريريّ حدثاً من الأحداث النادرة في الشرق الأوسط التي تخلق تداعيات تشكّل حركة دومينو. إذ إنّ الوضع انفتح على تحولاتٍ محليّة وإقليميّة لا حصر لها في الأشهر التالية. فقد اغتيل بعد الحريريّ النائبان باسل فليحان وجبران تويني والإعلاميّ سمير قصير والأمين العام السابق للحزب الشيعيّ اللبنانيّ جورج حاوي، وتعرّض لمحاولة اغتيال الوزيران مروان حمادة (في خريف 2004) والياس المرّ والإعلاميّة مي شدياق. ووقعت سلسلة تفجيرات استهدفت الأملاك وخاصة في مناطق مسيحيّة. كما سقطت حكومة عمر كرامي الثانية (كما الأولى عام 1992) في الشارع في 28 شباط 2005 بعد سلسلة تظاهرات شعبيّة خرجت احتجاجاً على اغتيال الحريريّ. وكان تتويج هذه التظاهرات مهرجاناً عارماً في 14 آذار، فاق عدد المشاركين فيه المليون نسمة وأطلقت خلاله عبارة "انتفاضة الاستقلال"، أطلقت عليها الخارجيّة الأميركيّة عبارة "ثورة الأرز". وكان قد سبقه انطلاق مهرجان خطابيّ آخر في بيروت يوم 8 آذار بحشودات ضخمة وشعارات لشكر سورية بعد إعلان الرئيس السوريّ قرار خروجها من لبنان. وأظهر المهرجانان أنّ الإجماع غير متوفّر على القضايا الأساسيّة في لبنان. فدخل لبنان نفقاً لن يخرج منه.

وأسفر الاستقطاب الطائفيّ وقوف زعماء السنّة والدروز والموارنة وحلفاؤهم في ناحية (فريق 14 آذار) ضد الوجود السوريّ ومع إكمال الهجوم بإسقاط رئيس الجمهوريّة، وزعماء الشيعة وحلفائهم في ناحية ثانية (فريق 8 آذار) يحافظون على علاقاتهم مع سورية ولا يقاطعون رئيس الجمهوريّة. وجرّت انتخابات برلمانيّة في أيار وحزيران 2005 أسفرت عن أكبر انتصار انتخابيّ لتيّار الحريريّ وحلفائه. وفازت لائحة ابنه سعد الحريريّ بمقاعد بيروت الـ19. وخسر حلفاء سورية التقليديّون، طلال أرسلان وسليمان طوني فرنجية وعمر كرامي وآخرون مقاعدهم. كما خرج سمير جعجع من السجن بعد 11 عاماً ليقود حزب القوآت اللبنانيّة وتكتلاً من 6 نواب، بالتحالف مع تيار الحريريّ وجنبلاط. وعاد الجنرال ميشال عون من فرنسا في 7 أيار ليقود التيار الوطنيّ الحرّ ويفوز بتكتل من 21 نائباً. وكان فوز عون لافتاً في الأقضية المارونيّة. فقد رأى الناس في عون الرجل المسيحيّ الذي يمكن أن يعادل زعماء الدروز والشيعة والسنّة في لبنان بعد الخروج السوريّ. وإذا حاول تحالف الحريريّ - جنبلاط - جعجع فرض الشروط على عون، ابتعد هذا الأخير عنهم وانفتح على

Clara Marlowe, *Time Magazine*, 8 February 1993, Mr Miracle, Everything about Hariri is big.⁷¹²

حلفاء سورية، كسليمان طوني فرنجية وطلال ارسلان والسيد حسن نصر الله، على أساس أن هدف إخراج سورية من لبنان قد تحقق.

وفاز في انتخابات برلمان 2005 أيضاً تحالف حزب الله - حركة أمل بـ35 مقعداً، منها 23 للحزب و12 للحركة. وفي ظل غياب النفوذ السوري المباشر في لبنان، دخل حزب الله الحكومة للمرة الأولى منذ تأسيسه وبات يشكل ثقلًا في السلطة.

في آب 2005، أكمل التكتل المناهض لسورية انقلابه باعتقال السلطة اللبنانية رؤساء الأجهزة الأمنية جميل السيد وريمون عازار ومصطفى حمدان وعلي الحاج، بسبب شبهات عن ضلوعهم في اغتيال الحريري. وحاولت الأكثرية النيابية التي قادها سعد الحريري، إكمال مشوار الانقلاب إلى خاتمته بالضغط لإزاحة رئيس الجمهورية إميل لحود، عبر اتهامه بتروّس نظام أمني متحالف مع القيادة السورية. وكان البديل للأكثرية النيابية هو انتخاب رئيس جمهورية من صف الرابع عشر من آذار. فرفض لحود التنحي وصمد حتى اليوم الأخير من عهده، فيما تعطلت مساعي تغيير رئيس الجمهورية.

وحصلت تطورات جذرية حيث فرضت الإرادة الدولية مدعومة من قرار مجلس الأمن 1559 خروج الجيش السوري وأجهزة المخابرات السورية من لبنان في نيسان 2005. وتوترت العلاقات بين لبنان وسورية فيما تصاعدت الحرب الكلامية وخاصة عبر الإعلام. وفي صيف 2005 أغلقت سورية الحدود أمام حركة الترانزيت اللبناني لأسابيع عدة.

لقد أزال الرئيس السوري نفوذ القادة السوريين الممسكين بالملف اللبناني وما يدره من فوائد على المافيا اللبنانية السورية المشتركة. فبعد إبعاد غازي كنعان من منصبه كرئيس لجهاز الاستخبارات من مركزه في عنجر، وعودته إلى دمشق حيث أصبح وزيراً للداخلية، أعلن في 12 تشرين الأول 2005، نبأ انتحاره. ولم يكن كنعان يؤيد التجديد للحود ولم يكن على علاقة جيدة بفريق الرئيس بشار. كما أزيح علي دوبا. وكان علي دوبا رئيس الاستخبارات العسكرية جزءاً من المافيا اللبنانية السورية حيث أصدر 1500 تصريح عبور لاستعمال الخط العسكري بين لبنان وسورية لتهريب البضائع بقيمة 8000 دولار للتصريح، وتولى ابنه محمد دوبا الأمر من بعده. أمّا حكمت الشهابي فقد اتهم بالفساد وغادر سورية للإقامة في الولايات المتحدة. وانشق عبدالحليم خدام بعدما خسر الكثير من نفوذه، في نهاية 2005 ليستقر في باريس ويطلق اتهامات كبيرة ضد بشار الأسد وقيادته. وردت سورية باتهام خدام وعائلته، وخاصة ابنه جمال بالفساد والإثراء غير المشروع وحركت دعاوى ملاحقته قضائياً بتهم عدة تبدأ بالخيانة العظمى وتنتهي باستيراد المواد السامة. وفيما تصاعدت الاتهامات ضد سورية بتدبير اغتيال الحريري، لم تبرز التحقيقات الدولية أي دليل على ضلوع سوري، فيما برزت سيناريوهات أخرى عن دور الأصوليين السنة أو المخابرات الإسرائيلية أو حزب الله في الأمر.

برز دور باريس وواشنطن على الساحة اللبنانية بشكل غير مسبوق بعد مغادرة سورية، وارتبطت مسألة لبنان بمحورين إقليميين هما محور المقاومة والممانعة ويضم دمشق - طهران - حزب الله - حماس ورئيس الجمهورية إميل لحود. ومحور الاعتدال، وتقوده واشنطن ويضم باريس - الرياض - القاهرة - الرئيس

الفلسطيني محمود عباس - وتكتل الرابع عشر من آذار في لبنان. وصوّر البعض أنّ "لبنان انتقل من وصاية سورية إلى احتلال سعودي - أميركي".

في تلك الأثناء كانت سورية قد خرجت من لبنان وضعف حلفاؤها فيه ليبرز نفوذ واشنطن على الساحة اللبنانية بشكل غير مسبوق، ويسيطر فريق 14 آذار على مقاليد السلطة ويرتدّ في الداخل على حلفاء سورية. ففي أيلول 2005، اعتقلت قوى الأمن رؤساء الأجهزة الأمنية جميل السيد وريمون عازار ومصطفى حمدان وعلي الحاج، باقتراح من تقرير للأمم المتحدة حول اغتيال الحريري. وحاولت قوى 14 آذار إكمال المشوار إلى خاتمته فضغطت بشكل يومي على إميل لحود بحملة "فلّ" ليستقبل ليصير انتخاب بديل يوافق على سياسة هذه القوى. فرفض لحود التنحي وتعطلت مساعي تغيير رئيس الجمهورية. فحلّ الوجوم والجمود على الحياة السياسيّة في مطلع 2006. إلا أنّ الحملة على حلفاء سورية لم تتوقف، فقد أخذت قوى 14 آذار تطالب حزب الله، حليف سورية الرئيسي والأقوى في لبنان، بنزع سلاحه. فدعا نبيه بريّ إلى طاولة حوار انطلقت في آذار 2006 تحت مبدأ السياسة الدفاعيّة وجعل فريق 14 آذار نزع سلاح حزب الله أولويّة على طاولة حوار.

باتت سورية تنظر إلى لبنان على أنّه أصبح مصدر خطر على أمنها القوميّ ومركز تأمر إسرائيليّ - غربيّ - أميركيّ غير مسبوق. ولم ترتح دمشق لحكومة فؤاد السنيورة ولتجمّع 14 آذار وأصبحت تتعامل بجديّة مع احتمال توجّه لبنان نحو اتفاق مع "إسرائيل" وخاصة في ظل النفوذ الغربيّ والأميريّ الهائل في بيروت.

34 | لبنان أمام غزو إسرائيليّ جديد
وشبه حرب أهليّة

في تموز 2006 سُنت "إسرائيل" حرباً جديدة على لبنان وغرق لبنان في أزمة داخلية جديدة كادت تنفجر حرباً أهلية واسعة في أيار 2008.

حرب تموز على لبنان

بعد انسحاب "إسرائيل" من لبنان بقيت مسائل عدّة معلّقة. إذ استمر الاحتلال الإسرائيلي لقرية الغجر ومساحات متفرّقة على طول الحدود بسبب إقامة أسلاك شائكة متداخلة مع الأراضي اللبنانية. كما أنّ "إسرائيل" أبقت أسرى لبنانيين لديها بدون حق وواصلت اختراق حرمة السيادة اللبنانية برّاً وبحراً وجوّاً. وخلال العام 2005، قام حزب الله بمحاولات عدّة لاختطاف جنود إسرائيليين قرب مزارع شبعا وقرية الغجر لمبادلتهم بأسرى لبنانيين، حتى أصابه النجاح صبيحة 12 تموز 2006. في ذلك اليوم أطلق حزب الله صواريخ عدّة على مواقع عسكرية إسرائيلية عبر الحدود لتوجيه الأنظار، وفي الوقت نفسه هاجمت مجموعة مقاومة دورية إسرائيلية بالمتفجرات والصواريخ المضادة للدبابات، ما أسفر عن مقتل ثلاثة جنود وجرح اثنين وأسر جنديين. وردّت "إسرائيل" بإرسال قوة إنقاذ خلال ساعة ولكن دبابة ميركافا أصابت لغماً أرضياً كبيراً ما أسفر عن مقتل أفراد طاقمها الأربعة. كما قُتل جندي آخر وجرح إثنان من نيران مدافع هاون أطلقتها المقاومة. وفي اليوم نفسه أطلق حزب الله تسمية "الوعد الصادق" على عملية أسر الجنديين بعدما كان نصر الله قد وعد مدة خلال العام والنصف السابقة بأسر جنود إسرائيليين لمبادلتهم بأربعة أسرى لبنانيين تحتجزهم "إسرائيل". وحذّر نصر الله من "أنّ أي عملية عسكرية لن تعيد الجنود الإسرائيليين إلا من خلال طريقة واحدة وهي المفاوضات غير المباشرة لتبادل الأسرى"، كما أعلن أنّ من أهداف العملية تخفيف الضغط عن غزّة المحاصرة. فكانت هذه الحادثة الحجّة الرئيسية لـ "إسرائيل" لشنّ حرب ساحقة على الأراضي اللبنانية كافة فاقت حرب 1982 بشراستها وكثافتها التدميرية.

التطوّرات في لبنان وفلسطين رافقت الحرب الإسرائيلية على لبنان لضرب المقاومة فيه وإكمال الطوق على سورية وإركام ما تبقى من صمود المشرق. إذ مباشرة بعد العملية ومنذ صباح 12 تموز بدأت "إسرائيل" سلسلة هجمات على لبنان بالمدافع الميدانية والطيران، مستهدفة جسوراً وطرق فقتلت 44 مدنياً لبنانياً في اليوم الأول. وهدّد رئيس الأركان الإسرائيلي دان حالوتس، أنّه "إذا لم يتم إرجاع الجنود، فسنزجع عقارب الساعة في لبنان 20 سنة إلى الوراء". وهكذا ارتسمت معالم مواجهة في المنطقة بين "معسكر الاعتدال" يضمّ بشكل رئيسي مصر والسعودية والولايات المتحدة و"إسرائيل" وفريق الرابع عشر من آذار في لبنان والسلطة الفلسطينية في رام الله، و"معسكر الممانعة" ويشمل بشكل رئيسي سورية وإيران ومعها "حماس" و"حزب الله" والتنظيمات المقاومة.

في اليوم الأول هدّدت الحكومة الإسرائيلية بالردّ "بقوة وقسوة" على عملية "حزب الله" وحملت "الحكومة اللبنانية مسؤولية الأعمال التي جرت على أرضها"، وأوضح عسكريون إسرائيليون أنّ الأساس الاستراتيجي وراء الهجوم على لبنان سيكون خلق فتنة بين الشعب اللبناني وأنصار "حزب الله" تدفع ثمنها الطبقة السياسية

والاقتصادية في بيروت. وعاجل رئيس الوزراء اللبناني فؤاد السنيورة إلى نفي أي علم له بالهجوم في مزارع شبعا وانه لا يوافق عليه. وأكد اجتماع طارئ للحكومة اللبنانية موقف السنيورة هذا. فصدر في 16 تموز بيان آخر عن الحكومة الإسرائيلية أن الحرب ليست ضد الحكومة اللبنانية بل إن "هناك عناصر إرهابية بقيادة نصر الله وجماعته قد جعلت من لبنان رهينة وخلقت جيوباً إرهابية برعاية سورية وإيران".

رداً على هجومات "إسرائيل" في اليوم الأول، أعلن حزب الله حالة تأهب عسكرية شاملة، في حين ظن القادة العسكريون الإسرائيليون أن الحرب ستكون قصيرة وسرعان ما ستنفذ ترسانة صواريخ المقاومة التي قدّرتها "إسرائيل" بـ13000 صاروخ. إلا أن الحرب استمرت 33 يوماً وسط ضغط عربي ودولي على حكومة أولمرت لمواصلتها حتى ينكسر "حزب الله".

وتبين أن الحزب يملك قوة قتالية مدربة ومسلحة ومنظمة تبلغ بضعة آلاف من المقاتلين وترسانة أسلحة حديثة من سورية وإيران وروسيا والصين، منها صواريخ الفجر 3 ورعد 1. ولم يشارك الجيش اللبناني في الحرب مباشرة، ولكن قيادته حدّرت "إسرائيل" من مغبة الغزو البري وأثناء الحرب أطلقت قوات الجيش نيران المضادات الأرضية على الطائرات الإسرائيلية. واعتمدت سورية في دعمها لحزب الله استراتيجية قتالية جديدة تجاه "إسرائيل". ذلك أن "إسرائيل" دأبت في حروبها السابقة على التدمير الكامل لقدرات خصمها بما فيها البنية التحتية المدنية دون قتال على الأرض وقبل أي غزو بري وبواسطة طائرات حربية تطير على علو مرتفع. ولكن نقطة ضعف "إسرائيل" أنها كانت تخاف من قصف يطال أراضيها ومدنها. ولذلك قام حزب الله بتوجيه ضربات عدّة على أهداف داخل "إسرائيل" وذلك لأول مرة منذ نشوء دولة "إسرائيل" عام 1948. لقد اعتبر نصر الله الغارات الإسرائيلية الكثيفة بمثابة إعلان حرب، وأن حزبه كان يرغب أن يبقى الصراع عسكرياً ولكن "إسرائيل" تهاجم المدن اللبنانية وتقتل المدنيين وتدمر المنشآت وتستهدف البنية التحتية اللبنانية، وأن المقاومة ستردّ. ودعا نصر الله عرب مدينة حيفا إلى الفرار، ثم أخذت المقاومة تطلق الصواريخ على شمال "إسرائيل" لأسابيع عدّة بشكل يومي. واضطر مليون إسرائيلي للاختباء في الملاجئ فيما فرّ 250 ألفاً من المدنيين من شمال "إسرائيل".

صبيحة 13 تموز قصفت الطائرات الحربية الإسرائيلية مدارج مطار بيروت الدولي ما أدى إلى إغلاقه وتحويل الرحلات المقبلة إلى مطار لارنكا في قبرص. وفرضت البحرية الإسرائيلية حصاراً على الموانئ اللبنانية وسيطر سلاح الجو الإسرائيلي تماماً على الأجواء اللبنانية. وقصفت "إسرائيل" الطريق الدولي بين بيروت ودمشق وشنت سلسلة هجمات جوية على مواقع صواريخ المقاومة. ورد "حزب الله" بصواريخ على حيفا. وفي 14 تموز أغارت "إسرائيل" على مراكز قيادية للمقاومة في ضاحية بيروت الجنوبية، ولذلك في مساء ذلك اليوم قال نصر الله "إن" "إسرائيل" تريد حارباً مفتوحة، ونحن نتجه إلى حرب مفتوحة". وإثر ارتكاب مجزرة دموية خاطب المشاهدين: "أنظروا إلى البحر إنها تشتعل وستغرق" ويقصد المدمرة الإسرائيلية الأحدث ساعر 5. في ذلك الوقت كانت السفن الحربية الإسرائيلية تجوب سواحل لبنان وتقصّف بعض المواقع، فأصاب صاروخ للمقاومة إحداها أثناء كلمة نصر الله.

وفي 15 تموز كرّرت "إسرائيل" هجماتها على الضاحية، فدمّرت مركز قيادة "حزب الله" في حارة حريك، وكذلك العديد من مكاتب ومنازل كبار مسؤوليه، وهاجمت جواً المزيد من المواقع اللبنانية، ثم عادت السفن البحرية الإسرائيلية وقصفت منارة بيروت والموانئ اللبنانية الأربعة. وواصلت المقاومة عملياتها الميدانية على الحدود، والقصف المدفعي على "إسرائيل" فأصاب هجوم صاروخي محطة السكك الحديدية في حيفا التي كانت هدفاً استراتيجياً لما تحويه من مرافق ذات قيمة استراتيجية مثل أحواض بناء السفن ومصافي النفط ومرافق النقل والقواعد العسكرية. وكانت "إسرائيل" تواصل قصفها وغاراتها في أنحاء لبنان محدثة الإصابات في صفوف المدنيين. ففي 30 تموز أغارت الطائرات الإسرائيلية على مبنى سكني في قانا ما أسفر عن مقتل 28 مدنياً أكثر من نصفهم من الأطفال.

تركزت الحرب الإسرائيلية بشكل رئيسي على سلاح الطيران والقصف البعيد المدى، فلم يحصل غزو بري طيلة ثلاثة أسابيع. أمّا محاولات الاقتحام الصغيرة التي كانت تتم بين 17 تموز و3 آب، فقد تصدّت لها المقاومة، ومنها محاولة تسلّل في 23 تموز في مارون الراس، ومحاولة اقتحام مدينة بنت جبيل في 24 تموز التي واجهت مقاومة شديدة قتلت جنوداً إسرائيليين ودمّرت دبابات وأسقطت طائرة مروحية إسرائيلية. كما جرت مواجهة كبيرة في بنت جبيل يوم 26 تموز تخلّلتها مواجهات من مسافات قريبة جداً بين الطرفين. وكان من بين القتلى قائد المجموعة الإسرائيلية، ما اضطر القوات المهاجمة للانسحاب من بنت جبيل في 29 تموز. ثم حاولت "إسرائيل" النفاذ من مكان لآخر فحاولت اقتحام عيتا الشعب في 31 تموز وتصدّت لها المقاومة أيضاً، فأعلن الجيش الإسرائيلي عن مقتل 3 وجرح 25 من جنوده في عيتا الشعب في 1 آب.

في 3 آب أعلن نصر الله أنّ ضرب "إسرائيل" لبيروت سيعادله قصف المقاومة لتل أبيب. وفي 4 آب استهدفت "إسرائيل" الضاحية الجنوبية مجدداً، وهاجمت طائراتها بلدة القاع شمال البقاع فقتلت 33 مدنياً وأطلق "حزب الله" صواريخ على مدينة الخضيره داخل "إسرائيل". وفي 5 آب أغارت "إسرائيل" على مدينة صور فقتلت 27 شخصاً. وفي 6 آب قُتل 12 جندياً إسرائيلياً في كفرجلعادي قرب الحدود اللبنانية كانوا يتهيأون لدخول لبنان، وقُصف ميناء حيفا. وفي 7 آب أغارت "إسرائيل" لأول مرّة على ضاحية الشياح في بيروت ودمّرت المباني السكنية ما أسفر عن مقتل 50 لبنانياً على الأقل. وكانت خسائر "إسرائيل" في الميدان تزداد كلّ يوم. إذ في 9 آب فقط قُتل 25 جندياً وجرح عدد مماثل في جنوب لبنان. وأخيراً حزمت "إسرائيل" أمرها وقرّرت بدء الغزو البري في 12 آب بهدف الوصول إلى مجرى نهر الليطاني عبر أقرب نقطة من الحدود وهي بلدة الخيام. ولكن يوم الهجوم كان فالاً سيئاً إذ قُتل ما مجموعه 24 جندياً إسرائيلياً وجرح أكثر من 100 في المواجهات الميدانية كما أسقط "حزب الله" مروحية بصاروخ "وعد". وأكدت "إسرائيل" فقدان عدد من الدبابات ولم تنجح في السيطرة على بلدة الخيام. ثم حاولت القوات الإسرائيلية التقدّم نحو وادي السلوقي يوم 13 آب بالدبابات والمشاة، وهو اليوم الذي توصل فيه مجلس الأمن إلى قرار لوقف الحرب، فتوقف القتال يوم 14 آب.

على الصعيد السياسي كانت حكومة "إسرائيل" ومنذ صباح 12 تموز قد حملت الحكومة اللبنانية مسؤولية عملية "حزب الله" نظراً لفشل لبنان في تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم 1559 القاضي بنزع سلاح الميليشيات.

ولكن السنيورة نفى مسؤولية الدولة اللبنانية عن هجمات المقاومة مؤكداً أن حكومته لم توافق عليها. وفي الوقت نفسه هاجم السنيورة "إسرائيل" صاحبة التاريخ الطويل في تجاهل قرارات الأمم المتحدة، ووعده بالسعي لى قيادة "حزب الله" لوقف التصعيد في محاولة لوقف الهجوم الإسرائيلي. ولكنه وجه كلاماً أسمى ضد المقاومة فقال إنه لا يمكن أن تكون هناك دولة ذات سيادة لبنان في ظل سلاح الجماعات المسلحة. أما الرئيس إميل لحود فقد ندد بهجمات "إسرائيل" يوم 12 تموز وأكد دعمه لـ "حزب الله"، مشيراً إلى دور المقاومة في إنهاء الاحتلال الإسرائيلي عام 2000. وهكذا أخذت المواقف السياسية في لبنان وجهين متناقضين تماماً بين مؤيدين لـ "حزب الله" وبين مناهضين له في تجمع 14 آذار. وعلى سبيل المثال فقد صرح أمين الجميل أن "حزب الله قام بأعمال من جانب واحد، ولكن تداعيات أعماله تؤثر على البلد بأكمله"، ليصت في ما أعلنه الرئيس السنيورة.

عمل السنيورة منذ اليوم الأول على وقف لإطلاق النار ولكن الجهد لم يثمر إلا في 7 آب عن خطة لوقف الحرب من 7 نقاط. وفي 11 آب وافق مجلس الأمن بالإجماع على القرار 1701 لوقف المعارك دون إعلان وقف إطلاق النار. فقبله "حزب الله" والحكومة اللبنانية في 12 آب وقبلته "إسرائيل" في 13 آب، على أن يبدأ مفعوله الساعة 08:00 يوم 14 آب.

ولكن "إسرائيل" أبقت على حصارها البحري والجوي على لبنان ما أبقي مطار بيروت مقفلاً حتى 8 أيلول. ونشر الجيش اللبناني 15000 جنديّ تدعمهم قوة من اليونيفيل بـ 12000 جنديّ في مناطق إلى جنوب نهر الليطاني. وفي أيلول أيضاً أكدت حكومة السنيورة أنه لا يمكنها نزع سلاح "حزب الله" بالقوة ولن تُقدم على هذا الأمر. فيما أخذ "حزب الله" يعيد بناء قدراته وتأهيل مواقعه على الحدود. وبعد خمسة أسابيع من نهاية الحرب، في 22 أيلول، شارك 800 ألف شخص في ضاحية بيروت في احتفال جماهيري أسمى "مهرجان الانتصار" ألقى فيه نصر الله كلمة معلناً النصر.

الخسائر الإسرائيلية

أثناء الحرب، أطلق حزب الله أكثر من 4000 صاروخ بمعدل أكثر من 100 صاروخ في اليوم الواحد، مستهدفاً مدن حيفا والخضيرة والناصرة وطبريا ونهاريا وصفد والعفولة وكريات شمونة وبيسان وكرميثيل وعكا ومعالوت - ترشيحا وعشرات المستوطنات. وخاض الحزب حرب عصابات ضد الجيش الإسرائيلي من مواقع محصنة جيداً ومن مناطق مبنية في جنوب لبنان. كما هاجمت وحدات صغيرة مسلحة تسليحاً جيداً القوات الإسرائيلية المهاجمة وأربكتها واستخدمت صواريخ متطورة مضادة للدبابات أعطيت ودمرت 52 دبابة ميركافا وقصفت مباني هوت على قوات إسرائيلية تحتمي بداخلها.

وذكر الجيش الإسرائيلي ووزارة الخارجية الإسرائيلية أن عدد قتلى الجيش الإسرائيلي هو 121 والجرحى 628 كما قُتل 43 مدنياً إسرائيلياً وأصيب 4262 مدنياً.

ووفقاً لهيومن رايتس ووتش فإنّ ضالّة عدد القتلى المدنيين الإسرائيليّين يعود إلى توافر نظم الإنذار والملاجئ في شمال "إسرائيل" والإجلاء المبكر لأكثر من 350 ألف شخص (ويمكن أن يُقال إنّ الاستعدادات المدنية من ملاجئ ونظام إنذار وإجلاء لم تكن كافية في جنوب لبنان). وأحدثت صواريخ "حزب الله" العديد من حرائق الغابات شمال "إسرائيل" غطت 16500 دونم من الأراضي، بما في ذلك الغابات والمراعي. وقدّر الصندوق القومي اليهودي أنّ الأمر سيستغرق 50 سنة لإعادة تأهيل الغابات وموّهها. وبلغت قيمة الخسائر الاقتصادية الإسرائيليّة 3.5 مليار دولار.

في عام 2008، انتقد إيهود باراك الذي أصبح وزيراً للدفاع بدل عمير بيرتس أثناء حرب تموز، الأداء الإسرائيليّ لأنّ "إسرائيل" فشلت في نزع سلاح "حزب الله" الذي "عاد الآن إلى الجنوب وأصبح أقوى من أي وقت مضى، مجهزاً بكمية صواريخ أكثر مما كان عليه قبل صيف 2006". وخلصت مجلة الـ "إيكونومست" البريطانيّة إلى أنّ "حزب الله" صمد في أرضه بعد هذه الحرب وأثبت على نحو فعّال جدارته العسكريّة معتبرة بقاءه بحد ذاته نصراً عسكرياً وسياسياً. وأشارت المجلة المحافظة إلى أنّه ورغم الغارات الإسرائيليّة وسقوط مدنيين فإنّ "حزب الله" حافظ على دفاعاته واستمرّ بشنّ هجمات صاروخية على "إسرائيل" لفترة طويلة. وكذلك قام عناصره بمعاكبة الحملة البرية للجيش الإسرائيليّ بقتل جنوده وتدمير دباباته.

لقد أصيب مراقبون وخبراء عسكريّون غربيّون بخيبة غير مسبوقة من سوء أداء الجيش الإسرائيليّ ومن عدم تمكّنه من التقدّم على الأرض كيلومترات قليلة رغم الفارق الهائل في ميزان القوى مع "حزب الله". وعزوا السبب الرئيسيّ لضعف الجيش الإسرائيليّ إلى أنّ رئيس هيئة الأركان العامة دان حالوتس كان مفرط الثقة بالقوة الجويّة، في حين أضاعت القيادة العسكريّة سنوات طويلة في عمليّات قمعيّة صغيرة في الضفة الغربيّة وغزّة ضد الفلسطينيين على حساب التدريب لعمليّات قتاليّة رئيسيّة لم تخضها "إسرائيل" منذ 1982. أما دائرة البحوث في الكونغرس الأميركيّ فقد ذكرت أنّ الحرب قد أضعفت القدرات العسكريّة لـ "حزب الله" بشكل كبير، ولكنّ لأنّها لم تجتث الحزب فإنّ إمكاناته على المدى الطويل لشنّ حرب عصابات لا تزال سليمة. وأنّ قادة "حزب الله" تمكّنوا من إعلان "الانتصار" ببساطة لأنّ الحرب لم تحسم وجود حزبهم". وحتى بوش الابن الذي هاجم في أيلول 2006 ادعاءات قادة حزب الله عن النصر واستهجن كيف يمكنهم ادّعاء الفوز وقد أخلوا موافعهم في جنوب لبنان، عاد في مذكراته المنشورة عام 2010 وانتقد "إسرائيل" بأنّها ضيّعت الفرصة، وهاجم خطة جيشها العسكريّة التي اقتصرت لشهر كامل على حملات قصف امتدّت إلى العمق اللبنانيّ ولكنّ "قيمتها العسكريّة كان مشكوكاً فيها".

شهدت الشهور التي تلت الحرب اضطراباً كبيراً في القيادة الإسرائيليّة السياسيّة والعسكريّة، مع موجة استقالات رفيعة المستوى شملت رئيس الأركان دان حالوتس وضغوطاً لاستقالة العديد من الوزراء ورئيس الوزراء إيهود اولمرت. وظهر تقرير لجنة فينوغراند عن الحرب فانتقد أولمرت بشدّة واتهمه "بالفشل الحاد في ممارسة الحكم والمسؤوليّة والحذر". وهاجم السنيورة تقرير فينوغراند لأنّه أغفل ذكر التدمير الذي أحدثته "إسرائيل" في لبنان خلال فترة وجيزة وأغفل ذكر الضحايا في لبنان.

الخسائر اللبنانية

فيما ازدهرت شعبية حزب الله في العالم العربي حيث أعجب المواطنون العرب بالمقاومة اللبنانية لكونها الفريق الوحيد الذي يقاتل ضد "إسرائيل"، كان الموقف الرسمي لمعظم الدول العربية ضد المقاومة التي اعتبرتها ميليشيا خطيرة تنفذ سياسات إيران وسورية في لبنان. أما على الصعيد العالمي، فقد تعالت الانتقادات الشعبية لتدمير "إسرائيل" البنية التحتية اللبنانية وقتل المدنيين ومخاطر تصعيد الأزمة.

على مستوى معظم الحكومات العربية والغربية فقد كانت وعلى مدى أسابيع تؤيد الحرب وتقدم الدعم لـ"إسرائيل". فكانت حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا وأستراليا وكندا تدعم "إسرائيل" بأن حربها على لبنان جاءت ضمن حق الدفاع عن النفس. وقامت الولايات المتحدة بتعجيل شحن القنابل الموجهة بدقة، وأعلن بوش الابن أن هذه الحرب هي "جزء من الحرب على الإرهاب". وصوت الكونغرس الأمريكي بأغلبية ساحقة لدعم "إسرائيل".

وعلى الصعيد الإقليمي، اقتصر دعم حزب الله على سورية بالدرجة الأولى وعلى إيران واليمن، في حين أصدرت جامعة الدول العربية ومصر والأردن بيانات تنتقد "حزب الله" وتعلن دعم حكومة السنيورة. وعندما حملت السعودية "حزب الله" المسؤولية الكاملة وهاجمت تهووره وأنه يستحق ما يحصل، انطلقت بيانات رسمية من مصر والأردن والكويت والعراق والسلطة الفلسطينية (محمود عباس) والإمارات والبحرين تتفق مع موقف السعودية أن تصرفات حزب الله "متهورة وغير متوقعة وغير مناسبة وغير مسؤولة".

لقد سخر مناهضو حزب الله في الداخل من فريق الرابع عشر من آذار من أنه "إذا كان هذا نصراً فكيف تكون الهزيمة؟"، في وقت كانت أغلبية اللبنانيين تظن أن الحروب مع "إسرائيل" قد انتهت إلى غير رجعة عام 2000 وأنه حان للبلد أن يرتاح. كما صرح نصر الله في 27 آب قائلاً: "لو كنا نعرف أن أسر الجنود سيؤدي إلى الحرب، فنحن بالتأكيد لم نكن سنقوم بالعملية".

خلال الحرب قامت طائرات "إسرائيل" بـ12000 طلعة وأطلقت بحريتها 2500 قذيفة، وقصف الجيش الإسرائيلي لبنان بأكثر من مئة ألف قذيفة مدفعية وملايين القنابل العنقودية. فنجم عن كل هذه الصواريخ دمار أجزاء كبيرة من البنية التحتية اللبنانية بما في ذلك 640 كلم من الطرقات و73 جسراً بما فيها جسر المعاملتين في جونبة، و31 هدفاً كبيراً مثل مطار بيروت وموانئ ومحطات مياه ومحطات معالجة مياه المجاري ومرافق كهربائية و25 محطة وقود و900 مؤسسة اقتصادية و350 مدرسة ومستشفيات.

كما دمرت "إسرائيل" 15 ألف منزل وألحقت الضرر بأكثر من 130 ألف منزل. وتركزت الحرب أيضاً على قواعد "حزب الله" ومراكز قيادته وبعض ثكنات ومراكز الجيش اللبناني مما تسبب بخسائر كبيرة في صفوف المقاومة والجيش. وأدت الحرب إلى نكسة اقتصادية ضخمة للبنان حيث انخفض النمو من 6 في المئة إلى 2 في المئة. وبلغت قيمة الخسائر المباشرة وغير المباشرة 5 مليارات دولار (أي 22 في المئة من الناتج المحلي الإجمالي).

جاء في تقرير الهيئة العليا للإغاثة في لبنان أن عدد القتلى من اللبنانيين هو 1191. واستند تقرير الهيئة إلى وزارة الصحة وتقارير الشرطة اللبنانية وأجهزة الدولة المختلفة. كما قدّر تقرير الهيئة عدد الجرحى اللبنانيين بـ4409، منهم 15 في المئة أصيبوا بإعاقات دائمة. كما أنّ القنابل العنقودية غير المنفجرة التي خلّفها "إسرائيل" في أراضي الجنوب، حصدت خلال عامين من انتهاء الحرب أكثر من 100 شخص وجرحت 500. وأفادت تقارير دولية عدّة أن الغالبية العظمى من اللبنانيين الذين قُتلوا كانوا من المدنيين. وذكر تقرير لهيومن رايتس ووتش (صدر في 6 أيلول 2007) أنّ معظم القتلى من المدنيين في لبنان نتج عن "الضربات الجوية الإسرائيلية العشوائية"، وأنّ الطائرات الإسرائيلية استهدفت سيارات تقلّ مدنيّين فارّين. وقدّر تقرير لليونيسيف أن 30 في المئة من اللبنانيين الذين قُتلوا هم من الأطفال دون سن 13.

وذكر "حزب الله" مصرع 250 من مقاتليه في الحرب، في حين ادّعت "إسرائيل" أنّ قواتها قتلت 600 من عناصر الحزب. ورغم أنّ الجيش اللبناني لم يشارك في القتال، فقد سقط له 46 جندياً وجرح مئة آخرون جراء الغارات الجوية. لقد أطلقت "إسرائيل" 4.6 مليون قنبلة عنقودية على عشرات البلدات والقرى في جنوب لبنان في 962 هجوماً، ومعظم هذه القنابل أُطلق في الأيام الثلاثة الأخيرة للحرب حتى بعدما أصبح مؤكداً أن وقف إطلاق النار أصبح وحيماً. ولم ينفجر أكثر من مليون قنبلة صغيرة، فغطّت أراضي الجنوب وجعلتها سهولاً للموت بألغام لا زالت تنفجر وتقتل وتشوّه المدنيين بعد سنوات من الحرب.

وكانت الطائرات الإسرائيلية في 13 و15 تموز قد أغارت على محطة الجيّة لتوليد الكهرباء التي تبعد 30 كلم عن بيروت. ولكن في 10 آب، شنت غارة أخرى كبيرة على المحطة، ما أدّى إلى كارثة تسرب نفطيّ حيث تدفقت كميات ضخمة من النفط قُدّرت بنحو 15 ألف طن على الساحل اللبناني وامتدّت شرق البحر المتوسط منتشرة على بعد 10 كلم من الساحل ومحدثة بقعة غطت 170 كيلومتراً من سواحل لبنان وسورية ومهددة تركيا وقبرص. أمّا الكميات التي لم تتسرب (25 ألف طن) فقد احترقت في خزاناتها، ما خلق سحابة سامة انهمرت أمطاراً نפטية فوق لبنان. وقدّرت الأمم المتحدة تكلفة التنظيف الأولي بـ64 مليون دولار. كما تسبّب القصف الإسرائيليّ بأضرار كبيرة لمواقع التراث العالميّ في لبنان، فلحقت الأضرار مقبرة رومانية في صور وانهارت لوحة جدارية قديمة في جبيل، ولحقت أضرار ببرج قديم وتضرّرت مواقع أثرية في بنت جبيل ومعبد باخوس في بعلبك.

ورغم الخسائر فإنّ الحرب لم تنته على خير داخل لبنان. إذ إنّها عمّقت الفجوة بين فريقي 8 و14 آذار حول سلاح "حزب الله"، عندما أخذ الانقسام اللبنانيّ منحى طائفيّاً تجاه "حزب الله". فقد التفتّ حول المقاومة الأغلبية الشيعية بشكل غير مسبوق بسبب الحرب التي اعتبرتها وجودية، في حين ناهضته أغلبية السنّة. أمّا بالنسبة للمسيحيّين فقد كان التيار الوطنيّ الذي يرأسه ميشال عون قد وقّع مذكرة تفاهم مع "حزب الله" في 6 شباط 2006 ووقف إلى جانب الحزب في الحرب، في حين كانت القوات والكتائب وجماعات وشخصيات مسيحية صغرى في صفوف الرابع عشر من آذار مع تيار المستقبل. إذأ، كان الرأي العام المسيحيّ منقسماً بين 8 آذار و14 آذار، ما أخرج إلى العلن الخلاف السنّي - الشيعي، وكثّر الحديث عن فتنة داخل الإسلام في بداية 2007.

كان الجوّ اللبنانيّ يعيش حرباً باردة داخلية وجاءت حرب تموز وما أفرزته من مواقف جعلت التعايش اللبنانيّ الضحية الأكبر إذ تأدّت كثيراً علاقات الطوائف وتدهور الجو السياسيّ، باستثناء الدعم الذي قدّمه التيار العونيّ وتوفير السكن للعائلات الشيعية الفارّة من المعارك. وبعد صمت المدافع، اتهم "حزب الله" قيادات في 14 آذار بأنّها تواطأت مع العدوان، ولمّح نصر الله إلى أنّ ثمة معلومات خطيرة قد تراكمت لدى حزبه عن مواقف شخصيات لبنانية باركت العدوان وحرضت على إطالة الحرب. واعتبر نصر الله "طلباً من فلان أن يتم احتلال بنت جبيل أو تدمير حزب الله أو ألا تتوقف الحرب إلا بشروط..... هذا تحريض! هنالك من يحرض عدو لبنان على قتل وقصف وتدمير لبنان وجزء من شعب لبنان وجزء من مقاومته وجيشه! هذا موضوع مختلف"⁷¹³.

لبنان نحو حرب داخلية

منذ صيف 2004 وحتى مطلع 2008 كان لبنان يسير بشكل مضطرب نحو حرب أهلية جديدة، وبات الاستقطاب الطائفيّ يرتدي طابعاً ليس مذهبياً فحسب، بل جغرافياً مناطقياً لترتسم معالم الفدرالية الجديدة. وبعد حرب تموز 2006 ومع حلول عام 2007، بدا لبنان معرّضاً للتفكك بعد تعطل الحكومة والبرلمان ومقاطعة فريق الرابع عشر من آذار لرئيس الجمهورية إميل لحود، في ظل أكثر الأزمات حدّة في تاريخ الكيان اللبنانيّ، إذ تحوّل لبنان جزراً طائفية معزولة لا يربطها إلا رباط واهٍ.

توغّل الكيان اللبنانيّ في أزمامته في القرن العشرين حول جماعته الطائفية إلى أجسام جغرافية. قس على ذلك اكتساب أفضية جنوب لبنان وشمال البقاع هوية ديمغرافية شيعية، وبعض أفضية جبل لبنان هوية ديمغرافية مارونية وبعضها الآخر درزية. وكذا تمركز المسلمين السنة في مدن الساحل، طرابلس وبيروت وصيدا، وفي الأرياف السنية في عكار والبقاع الغربيّ وإقليم الخروب. ومع ارتفاع أسهم المسلمين - الجماعتين الشيعية والسنية - من حيث استقطاب الموارد الاقتصادية والمالية والعسكرية والكادرات المتعلّمة والحجم الديمغرافيّ الأكبر، تمخّضت الجماعتان عن نخبة طرقت باب النفوذ السياسيّ وراء حصّة أكبر في النظام الذي يدير البلد وضمانات لأمنها ووجودها. فكانت تظهر خضات بعضها مصيريّ وكبير، وخاصة بعد انتهاء الحرب اللبنانية عام 1990 والتراجع الكبير الذي أصاب دور المارونية السياسيةّ، لتبدأ الأزمة المقيمة خاصة منذ 1998 وهي الصراع العائليّ بين زعماء السنّة وزعماء الشيعة.

والخلاصة أنّه كلّما تحرّكت الطوائف المعسّكرة كان لبنان يشهد أزمة أو حرباً، ثم يبرز عقد جديد بين زعماء الطوائف، أو "وفاق" أو تسوية تعيد رسم خريطة النظام. فالحرب التي ابتدأت عام 1975 أذنت بانتهاء المارونية السياسيةّ ك"طائفة ملكة" وانهارت الدولة عام 1976. وأدّى تموضع السنّة والشيعة منذ 1998، وسط انقسام المسيحيين بين الفئتين المسلمتين، إلى أحداث عنف وقتال أوصلت لبنان إلى تسوية الدوحة في أيار 2008.

⁷¹³ كلمة السيد حسن نصرالله في 19 آذار 2011.

جذور الحرب المتجددة

كانت سورية تضبط وتيرة السياسة اللبنانية الداخلية، ولكن بعد خروجها عام 2005 من مهمة إدارة لبنان، انطلق صراع السنة والشيعة على الدولة وموارد السلطة. وفاقم هذا الصراع أن السعودية وإيران أيّدتا الطرف الطائفي لكل منهما. وتبين أن اتفاق الطائف كان وهمياً يقول بأنه بعدما تنازل الموارنة للمسلمين لمصلحة إدارة البلاد فتكون مناصفة بين مسلمين ومسيحيين، تبين بعد خروج سورية أن لبنان أقلّيات طائفية عديدة تحكمها مصالح جزئية غير وطنية. وتبين أيضاً أن لبنان ليس مجموعتين دينيتين، مسلمين ومسيحيين، كما صوّره اتفاق الطائف. وأن الشريك المسلم الموعود الذي تأمل المسيحيون منه خيراً في الطائف، انفصم إلى شريكين متنافسين سنة وشيعة.

ولم تتوقف الأمور عند ظهور شريكين مسلمين بل إن السنة والشيعة باتوا القوتين الرئيسيتين في البلاد في التسعينيات، وأخذ كل منهم يتقرب من المسيحيين.

وهكذا في 2005 وُلد تحالف ضمّ الدرزية السياسية بقيادة وليد جنبلاط والسنية السياسية بقيادة رفيق الحريري مع قوى مارونية عدّة (التيار الوطني الحر والقوات اللبنانية وحزب الكتائب). أما الشيعة (حزب الله وحركة أمل) فكان معهم حلفاء صغار نسبياً هم أصدقاء سورية في لبنان. ولكن بعد اغتيال رفيق الحريري في شباط 2005 وانتخابات أيار 2005، انقسم المسيحيون بين قوى استمرت في التحالف الدرزي - السنّي، وقوى ذهبت إلى تحالف مع الشيعة حتى خرجت طرائف أن ثمة مسيحيين سنة ومسيحيين شيعة. ولم يتحسن الوضع في لبنان بل تواصل عدم الاستقرار، لأنّ هذا التوزيع للقوى عمّق صراع السنة والشيعة، فبلغ العنف مستوى متقدماً في لبنان بعد سلسلة اغتالات عام 2005 وبعد حرب إسرائيلية في 2006، ليفتح عام 2007 على عنف تجلّى في إحدى جولاته صداماً بين الطلاب في جامعة بيروت العربية يوم 23 كانون الثاني أسفر عن 4 قتلى و20 جريحاً.

واندلعت أعمال عنف متفرقة وسط تظاهرات واعتصامات قامت بها المعارضة التي يقودها حزب الله والتيار العوني للضغط على حكومة السنيورة لتستقيل. فكان كل اصطدام في الشارع يتحوّل عراكاً طائفيّاً يهدّد بالانزلاق إلى حرب أهلية⁷¹⁴.

وفي مطلع 2008 تمحورت الأزمة حول اختيار رئيس جديد للجمهورية وحول تشكيل الحكومة وحول برنامجها والقانون الانتخابي. ولكن السبب الأساسي والجوهرية الذي عطّل الحل وسط تشابكات الأطراف المحلية مع التدخل الخارجي القوي هو تركيز تيار المستقبل ومعه قوى الرابع عشر من آذار على نزع سلاح المقاومة بعدما فشلت "إسرائيل" في ذلك. ولم يتراجع هذا الأمر كبند وحيد على أجندة عمل قوى الرابع عشر من آذار منذ 2005 وفي السنوات التالية.

⁷¹⁴ "حزب الله والأزمة اللبنانية"، 10 تشرين الأول، 2007. International Crisis Group, no. 69.

حوادث أيار 2008

اتخذت الأمور منحىً تصاعدياً خطيراً في 6 أيار 2008 عندما اتخذت حكومة السنيورة قرارين الأول هو إقالة مدير جهاز أمن المطار والثاني تحويل شبكة اتصالات حزب الله السلكية إلى القضاء. وكان الاتحاد العمالي العام قد دعا إلى إضراب عام في اليوم التالي، فأيد الدعوة حزب الله وحركة أمل، فيما دعت نقابات وغرف تجارة مقرّبة من الحريريّ وجنبلاط وحلفائهما من المسيحيّين إلى عدم الالتزام بالإضراب العمالي. فلم تلتزم مناطق سنيّة في صيدا وطرابلس وإقليم الخروب بالإضراب كما لم يلتزم قطاع المصارف الذي يسيطر عليه المسيحيّون المقربون من الحريريّ وحلفائه.

وإذ كانت قوى الثامن من آذار تخطط لتظاهرة ضخمة تمّز في بيروت، ألغيت التظاهرة واستبدلت بعصيان مدني نجح في إقفال مطار بيروت وطرق العاصمة الرئسيّة. وفي أعقاب مؤتمر صحافي لحسن نصر الله بعد ظهر 7 أيار، تحوّل الاحتجاج فجأة إلى عمليّة عسكريّة مخططة للسيطرة على غرب بيروت. واندلعت اشتباكات بين تحالف ضم حزب الله وأمل والحزب السوري القومي الاجتماعيّ من جهة بمواجهة مقاتلين سنّة معظمهم إما تابع لتيار المستقبل أو تم تسليحه على عجل من منطقة عكار وغيرها. فتمكّن التحالف من الانتصار على خصومه خلال ساعات واحتلّ مناطق بيروت الغربيّة وطوق سرايا الحكومة ومنازل سعد الحريريّ ووليد جنبلاط وقياديين في قوى 14 آذار. فاضطر تيار المستقبل لإغلاق وسائل إعلامه التي هوجمت أيضاً حيث نُهب جريدته وقُصفت مكاتب التلفزيون في حي الروشة.

ورغم انضباطية حزب الله إلا أنّ تصرفات المقاتلين (ذكر تقرير للمجموعة الدوليّة للأزمات أنّهم كانوا من "حركة أمل) أخذت بشكل واضح طابعاً مذهبياً مهيناً للسنّة، حيث اعتدوا على المدنّيين وحطّموا السيارات والمتاجر وتلفظوا بشتائم ضد السنّة وعلّقوا صور بشار الأسد. وامتدت المعارك في الجبل الدرزيّ وفي طرابلس بين باب التبانة السنيّ وجبل محسن العلويّ وفي البقاع بين سنّة وشيعة، وفي عكار حيث ارتكب أنصار تيار المستقبل مجزرة بحق عناصر الحزب السوري القومي الاجتماعيّ ومكاتبه في بلدة حلبا.

استيقظ لبنان يوم 8 أيار 2008 وقد بات حزب الله في وضع المسيطر على الأرض في بيروت الغربيّة. حيث وصف كثير من مشايخ السنّة ما حصل بأنه "نكسة" فيما اعتبر المفتي محمد رشيد قباني عمل حزب الله بأنه احتلال. وشجّب الكثيرون من السياسيّين السنّة "الانقلاب العسكريّ" الذي قام به حزب الله. فيما دأبت محطات تلفزة على التحريض الطائفيّ، لا سيما محطة العربيّة التي أبقت مانشيت "انقلاب حزب الله" في أسفل الشاشة لأيام عدّة. وأخذ الإعلام يتهم حزب الله أنه ميليشيا شيعيّة مستعدّ للدفاع عن مكاسب طائفية أكثر منه مقاومة تدافع عن المصالح الوطنيّة.

ولكن رهان قوى 14 آذار أنّ الحزب سينحدر في انزلاق مذهبيّ وتصبح معركة بين سنّة وشيعة لم يتحقق، وانتهت الأمور عند هذا الحد. وفي 9 أيار أعلن نصر الله أنّ حزبه سيدافع عن سلاح المقاومة بالسلاح، فتبيّن أنّ حماية سلاح المقاومة هو همّه الرئسيّ وليس إقصاء حكومة السنيورة بالقوة (وكان مسؤول في قوى الثامن من آذار قد شرح خلفيات الوضع في تقرير للمجموعة الدوليّة للأزمات وعن سبب عدم الاستيلاء على

السلطة بأن المشكلة "ليست في الاستيلاء على الحكم ولكن في ما يلي ذلك، وما يمكن أن يحدث في مجتمع تعدديّ كלבنا، حيث ستقف جميع الطوائف ضدنا إذا حاولنا الاستيلاء على الحكم بالقوة".

وإذ أصرت حكومة السنيورة ووراءها قوى 14 آذار على عدم تلبية مطالب حزب الله، افتتحت جبهات عسكرية في الجبل مع ميليشيا جنبلاط وفي طرابلس وعكار والبقاع. ولكن لم يتدخل أي طرف خارجي عربي أو أميركي ضد "حزب الله" كما توقعته قوى 14 آذار، حيث خرجت تقارير أن مصر ستبعث سلاحاً وجنوداً لمساندة هذه القوى أو أن ثمة إنزالاً غربياً أو عربياً جنوب بيروت لقطع الطريق على حزب الله، الخ. إلى أن تراجعت الحكومة عن القرارات التي كانت سبب نزول قوات حزب الله إلى الشارع. وبدا تيار المستقبل التنظيم السنيّ الرئيسيّ في البلاد بقيادة سعد الحريريّ مربكاً ومصدوماً.

ويقول تقرير "المجموعة الدولية للأزمات" أن شعوراً عارماً بالغضب ساد الأوساط السنيّة تجاه قياداتها، وأن سعد الحريريّ قد تعرّض لنقد لاذع من كثير من مؤيديه حيث أشاروا إلى أنه كان قد وعد بحماية بيروت ولم يف بهذا الوعد، وأنّ قوّة تيار المستقبل في بيروت لم تتجاوز 1500 عنصر في أحسن الأحوال، ومعظمهم بأسلحة فردية أو مسدّسات وبعضهم حارس في شركات الحريريّ ولا يعرف شيئاً عن حرب الميليشيات، في حين كان بإمكان ميليشيات 8 آذار إغراق بيروت بألاف المقاتلين لو شاءت.

وانطلقت دعوات لتعزيز قدرات السنتّة العسكريّة، ومواقف أخرى أكثر تشدّداً ساهمت في صعود غير مسبوق لحركات أصوليّة سنيّة خاصة في طرابلس وفي أوساط المخيمات الفلسطينية وفي القرى السنيّة في البقاع وعكار. كما بدت علامات الإحباط والانزهاض على وليد جنبلاط، الزعيم الرئيسيّ للدروز، وعلى حلفاء المستقبل الآخرين. وتعرّض الجيش اللبنانيّ لانتقاد شديد من قبل تحالف 14 آذار الحاكم ومن الكثير من المواطنين السنّة⁷¹⁵ لعدم تصديهِ لميليشيات 8 آذار. ولكن الجيش كان يخشى أن يؤدي تدخله إلى تمزّق صفوفه.

وحتى تموز 2008، كانت الاشتباكات لا تزال تندلع في البقاع وطرابلس، فيما تعمّقت الهوة بين جمهور السنّة والشيعّة، وبدا أنّ الشارع المسيحيّ في الفريقين لا شأن له بهذه المواجهة التي ارتدت طابعاً مذهبياً بين سنّة وشيعّة، وهما الطرفان الأقوى على الساحة المحليّة.

ودليل على الضعف المسيحيّ عامّةً، أنّ السنّة والشيعّة كان بإمكانهم أن يتقاتلوا من موقع قوّة وهم مطمئنون على وضعهم ووجودهم بسبب حضورهم المحليّ بكل تجلّياته وعلى الدعم الإقليميّ والدوليّ (أميركا والسعوديّة ومصر وسورية وإيران).

ولكن زمن دخول أطراف مسيحيّة في مواجهة عسكريّة داخلية قد ولي. بل إنّ المسيحيّين وقفوا إما مع حلف سياسيّ يراعاه السنّة أو حلف سياسيّ يراعاه الشيعّة، وكانوا مجرد متفرّجين على المعارك في أيار 2008. وكان محرّجاً أنّ الزعماء المسيحيّين كانوا في طليعة التصريحات التي أنكرت أن يكون ما يحصل هو صراع مذهبيّ بين المسلمين، بل كانوا يلونونه بما يطمئن وجدانهم، فيستهجنون عندما يذكر مقال أو تصريح أو تحليل أن الرابع عشر من آذار هو فريق السنّة، وأن الثامن من آذار هو فريق الشيعّة، بل يؤكّدون أنها تجمعات وطنيّة عابرة للطوائف مع أنّها ليست كذلك.

⁷¹⁵ لبنان: حزب الله يوجّه سلاحه إلى الداخل"، 15 أيار 2008، no. 23، International Crisis Group.

لقد ذكر تقرير المجموعة الدولية للأزمات أن "كثيرين من المسيحيين يؤيدون عون بغضاً منهم لعائلة الحريري". ويلاحظ أحد مناصري عون أنه رغم الأحداث في بيروت الغربية فإن المسيحيين يحتاجون لضم الصفوف مع حزب الله لضمان عدم وقوع لبنان تحت سيطرة الجماعات السنية الموالية للسعودية.. ويعتقدون أن تيار المستقبل يريد أسلمة البلاد"⁷¹⁶. وبالمقابل اعتبر الموالون لسمر جعجع أن حزب الله يسعى إلى هيمنة إيران وعودة السوريين إلى احتلال لبنان، وأنه تجب المحافظة على التحالف مع الحريري وجنبلاط في تجمع الرابع عشر من آذار الذي يحظى بدعم عربي ودولي واسع. ولكن الحقيقة أن إحدى محصلات انتهاء المارونية السياسية عام 1989 كان تفككاً إسلامياً عنوانه الصراع السني - الشيعي على الدولة اللبنانية. وكما يقول جهاد الزين: "إنها مشكلة النظام السياسي بكامله. فلا تستطيع أن تطالب المسيحيين بإبقاء التنوع السياسي داخلهم، في وقت تمارس فيه الطائفيّات السياسيّة الثلاث الأخرى لدى الشيعة والدروز والسنة أقصى "ازدهارها". والعكس صحيح. ففي ظل ازدهار "الطائفيّات الأخرى" يصبح التنوع في نظر الجمهور المسيحي عنواناً للتبعية الطائفيّة"⁷¹⁷.

في 20 أيار رعت قطر اتفاقاً أوصل إلى انتخاب قائد الجيش العماد ميشال سليمان رئيساً للجمهورية بعد أيام وإلى تقسيم جغرافي جديد للدوائر الانتخابية. ثم أعادت انتخابات 2009 تكتل الرابع عشر من آذار بأغلبية ضئيلة سمحت لسعد الحريري ترؤس الحكومة لأول مرة. ولكن هذا لم يدم طويلاً إذ إن سعد الحريري استغرق شهراً عدة لكي يشكل الحكومة ويقدم البيان الوزاري ثم حكم بضعة شهور قبل أن يسقط بالتصويت في الشهر الأول من 2011. ومع بدء سلسلة حروب وأزمات في دول عربية في غاية الأهمية لمصير لبنان وخاصة في سورية، لم تستطع حكومة نجيب ميقاتي الانطلاق بحيوية وعزم، بل راوحت مكانها أمام مسعى دائم من قوى الرابع عشر من آذار لتعطيل أي عمل تنوي القيام به. وإذ دعمت قوى الرابع عشر من آذار القوى المناهضة للدولة السورية، دخل حزب الله الحرب السورية في صيف 2012.

وهكذا أطل العام 2014 وقد تعطلت مؤسسات الدولة اللبنانية من مجلس الوزراء إلى البرلمان إلى موقع رئاسة الجمهورية الذي شغل بانتهاء ولاية الرئيس سليمان في أيار من ذلك العام. وتعرقلت الأمور بين سعي إلى انتخابات برلمانية جديدة تُظهر أغلبية يمكنها أن تنتخب رئيساً وبين أن ينتخب رئيس جديد للجمهورية عام 2014 محسوباً على الشيعة وإما رئيساً محسوباً على السنة. لقد أوصل الزعماء وحيثان المال الفاسدون البلاد إلى الطريق المسدود وهو ما يجيدون فعله دائماً في تاريخ لبنان المعاصر.

⁷¹⁶ "لبنان: حزب الله يوجّه سلاحه إلى الداخل"، 15 أيار 2008، International Crisis Group, no. 23، ص. 5.

⁷¹⁷ "النضج الفدرالي للبرلمانية اللبنانية"، جهاد الزين.

35 | فلسطين تقاوم الحرب والحصار

“إسرائيل” تعيد احتلال الضفة

منذ تبوُّه سدة الرئاسة، أعلن بشار عن رغبة سورية في إعادة فتح المفاوضات مع “إسرائيل”. ولكن سياسة “إسرائيل” على الأرض منعت ذلك. إذ بعد أسبوع من إعلان بشار قبوله بالعودة إلى التفاوض، فشلت المحادثات التي كان الرئيس كليتتون يرعاها في كامب دايفيد بين عرفات وإيهود باراك والتي كانت ستعطي الفلسطينيين أقل بكثير مما كانوا يتوقعونه (10 في المئة من مساحة فلسطين ومنع عودة اللاجئين وعدم ضمان مصادر المياه وعدم الانسحاب من القدس الشرقية، الخ)، رغم أن عدد السكان الفلسطينيين بلغ 5 ملايين نسمة في فلسطين التاريخية (مليون داخل “إسرائيل” في حدود 1948 و2.5 مليون في الضفة و1.5 مليون في غزة) إضافة إلى مليوني فلسطيني في مخيمات اللاجئين في لبنان وسورية وفي المهاجر. ونددت سورية بنتيجة المفاوضات التي رعاها كليتتون بين عرفات وباراك وحذرت من أن يأس الفلسطينيين قد يجبر إلى انتفاضة جديدة. ثم نددت سورية بتصريحات الرئيس كليتتون حول وعده بنقل سفارة الولايات المتحدة من تل أبيب إلى القدس الذي يشترع الاحتلال الإسرائيلي للقدس الشرقية. ثم رمت سورية بثقلها وراء انتفاضة الأقصى التي اشتعلت في آخر أيلول 2000. وخاضت سورية حرباً دبلوماسية لدعم الانتفاضة ودعت مصر والأردن إلى قطع العلاقات مع “إسرائيل” وإنهاء معاهدات السلام ومحاكمة حكام “إسرائيل” على جرائمهم في لبنان وفلسطين وتفعيل المقاطعة العربية (يقع مكتب مقاطعة “إسرائيل” في دمشق). وتعدت احتمالات عودة المفاوضات بين سورية و”إسرائيل” مع فوز حكومة متطرفة في انتخابات “إسرائيل” في شباط 2001 يرأسها آرييل شارون، مسبب انتفاضة الأقصى. واستغل شارون هجمات 11 أيلول 2001 في أميركا فعجل بخطوات عسكرية للقضاء على انتفاضة الأقصى وطيلة ربيع 2002 هاجم الجيش الإسرائيلي المناطق الفلسطينية وارتكب المجازر وقوض السلطة الفلسطينية وحاصر ياسر عرفات في مكتبه في رام الله. وكانت إدارة بوش الابن تتخذ موقفاً شديداً للعداء للسلطة الفلسطينية و ضد القضية الفلسطينية إجمالاً منذ مطلع 2001 فأدارت ظهرها على قيادة ياسر عرفات بعدما أبدى تمناً في قبول الفتات الذي قدّمته “إسرائيل” كحل. وأصر بوش على إبعاد عرفات وبات يكرز بشكل أسبوعي أن على عرفات الرحيل والإتيان بقائد جديد. وكان قد ظهر في تلك الفترة مروان البرغوثي قائد كتائب الأقصى (فتح) كبديل لعرفات ولكن “إسرائيل” اعتقلته وأصدرت عليه حكماً بالسجن المؤبد. حتى رضخ عرفات لسلسلة شروط مدّلة من “إسرائيل” وبوش لتفك “إسرائيل” الحصار عن مكتبه، ومن الشروط تخليه عن رئاسة الحكومة الفلسطينية لصالح محمود عباس المرضي عنه إسرائيلياً وأميركياً ففعل ذلك عام 2003. ولكن بوش لم يكف بل أخذ يسخر من عرفات طيلة 2003 و2004 مطالباً بإبعاده تماماً رغم شعبيته الفائقة في الأوساط الفلسطينية وكرمز للقضية الفلسطينية في الدول العربية. وفجأة في 25 تشرين الأول 2004 تعرّض عرفات لحال تسمّم وتقيؤ، ونُقل إلى مستشفى في باريس حيث وقع في كوما يوم 3 تشرين الثاني وتوفي في 11 تشرين الثاني.

وكانت "إسرائيل" تواصل تقويض كيان السلطة الوطنية الفلسطينية وتمنع عودتها كما كانت، إلا أنها فشلت في تطويق قطاع غزة. وفي تشرين الثاني 2005 أعلنت "إسرائيل" انسحابها من غزة بسبب صعوبة احتلالها المباشر ولكنها أبقّت حصاراً محكماً برّاً وبحراً وجوّاً.

وضغطت واشنطن لإجراء انتخابات فلسطينية تأتي بسلطة جديدة وحكومة منتخبة ديمقراطياً. فرض الفلسطينيون وجرت انتخابات ديمقراطية أشرف عليها عدد كبير من المراقبين الغربيين في كانون الثاني 2006، أسفرت عن فوز لائحة التغيير والإصلاح لحركة حماس بـ74 مقعداً من أصل 132 ما أهلها لتشكيل الحكومة الفلسطينية. ولكن هذا التغيير الديمقراطي لم يؤدّ إلى النتيجة التي سعت إليها الولايات المتحدة والحكومة الإسرائيلية. فقد ظنوا أنّ الانتخابات ستُبعد عرفات ورجاله وتأتي بحكومة طيعة تمشي مع ما يقرّرونه لمستقبل الشعب الفلسطيني. وفهمت حماس هذه الأجواء فوافقت على حكومة وحدة وطنية مع حركة فتح في شباط برئاسة إسماعيل هنية. ولكن "إسرائيل" رفضت التعامل مع هذه الحكومة وقاطعتها وحجبت عنها أموال الضرائب الفلسطينية التي تجنيها "إسرائيل" من المناطق المحتلة. فاصطفّ خلف الموقف الإسرائيليّ الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة ومُنعت المساعدات عن السلطة الفلسطينية. حتى أنّ واشنطن طلبت استرجاع أموال المساعدات. وقوطعت حكومة هنية وإداراتها.

إعادة احتلال الضفة وصدود غزة

كانت "إسرائيل" تتردد في فتح جبهة في جنوب لبنان بعد خروجها منه عام 2000، ولكنها كانت تطلق لقواتها العنان على غزة في الإغارة الجوية وفي اغتيال قيادات حماس ونصب خطوط تماس عسكرية على القطاع وهجمات بالدبابات وقصف مدفعي عنيف على مدن غزة وقراها. وكل هذه الأعمال كانت تحصد مئات القتلى والجرحى، فكانت حماس وتنظيمات أخرى تطلق صواريخ محلية الصنع أو قصيرة المدى على أهداف قريبة داخل "إسرائيل". وفي 25 حزيران 2006 قامت مجموعة من حماس باجتياز الحدود ومهاجمة موقع عسكري إسرائيليّ فقتلت جنديين إسرائيليين وجرحت ثلاثة آخرين واعتقلت جندياً، هو جلعاد شاليط ونقلته إلى مخبأ سرّي داخل غزة. ثم أعلنت حماس في اليوم التالي عن استعدادها للتفاوض لإطلاق شاليط مقابل إطلاق سراح أسرى فلسطينيين. وردّت "إسرائيل" في 28 حزيران بعملية عسكرية كبرى ودخلت قواتها مدينة خان يونس.

بعد حرب تموز 2006 الإسرائيلية على لبنان والتي سبق ذكرها، وفيما التهي لبنان بمصائبه الداخلية عام 2007 وميني حرب أهلية في ربيع وصيف 2008، كانت "إسرائيل" تواصل تنفيذ خطط جاهزة ضد الشعب الفلسطيني. ففي كانون الأول 2008 شنت "إسرائيل" حرباً صاعقة مدمرة على قطاع غزة المكتظ بالسكان استمرت 22 يوماً. وجاءت الحرب بعد عامين من التصعيد العسكري في غزة حيث كان الفلسطينيون يطلقون صواريخ ضعيفة وقصيرة المدى على جنوب "إسرائيل" وكانت "إسرائيل" تشنّ غارات جوية قاتلة وعمليات تغلغل بريّ واغتيال لقادة حماس وقادة التنظيمات الأخرى.

بدأت حرب غزة يوم 27 كانون الأول 2008 بسلسلة غارات جوية وقصف مدفعي بري وبحري تلاها غزو بري في 3 كانون الثاني 2009. وانتهت الحرب في 18 كانون الثاني.

لقد عاشت مناطق السلطة الفلسطينية شهوراً صعبة عام 2006 ليس فقط اقتصادياً بل بسبب تدهور العلاقات بين حماس وفتح وسرعان ما انفجر الوضع الداخلي حيث نشبت معارك عدة في الضفة وغزة انتهت بانتصار حاسم لحماس في القطاع في 14 حزيران 2007 في حين سيطرت فتح على الضفة. ما دفع الرئيس الفلسطيني محمود عباس إلى إعلان حال الطوارئ وحل حكومة اسماعيل هنية وكلف سلام فياض بتشكيل حكومة جديدة بدون حماس، فأصبح ثمة حكومتان فلسطينيتان واحدة لحماس في غزة وثانية لفتح في الضفة. وعمدت "إسرائيل" إلى فرض حصار صارم على القطاع ما خلق وضعاً إنسانياً في غاية الصعوبة فارتفعت البطالة إلى 75% من اليد العاملة وتدهور الوضع الصحي والغذائي والمعيشي، وسط فرض مصر المتحالفة مع "إسرائيل" الحصار على غزة من جانبها ومقاطعتها لحكومة هنية.

وجاءت حرب غزة في منتصف 2008 بعد ستة شهور من اتفاقية هدنة في 19 حزيران 2008 بين حكومة حماس و"إسرائيل". وقضت الهدنة أن توقف حماس هجمات الصواريخ على "إسرائيل" وتفرض الهدوء داخل القطاع مقابل أن توقف "إسرائيل" غاراتها وتوغلاتها البرية. ولكن "إسرائيل" ربطت رفع الحظر على القطاع بمدى التزام حماس بالهدنة ووضع حد لتراكم الأسلحة والإفراج عن شاليط الجندي الإسرائيلي المعتقل لدى حماس. من ناحيتها اكتفت حماس بالإعلان عن وقف إطلاق الصواريخ وضبط الفصائل. فبدأت الهدنة ضعيفة من أساسها وبدون بنود تنفيذية على الأرض وخالية من أي أفق سياسي. ولذلك تدهورت الأمور من قصف مدفعي من غزة وغارات جوية وقصف مدفعي إسرائيلي على غزة استمر طيلة الصيف والخريف. وفي 4 تشرين الثاني 2008، شنت "إسرائيل" هجوماً كبيراً على غزة فدمرت أنفاقاً على الحدود. ثم دخل الجيش الإسرائيلي القطاع وتوغّل مسافات أكبر من توغلات سابقة. فاندلعت معارك برية. وأغار طائرات إسرائيلية على مواقع داخل غزة وعلى مخيم اللاجئين في البريج. وأدى هذا العدوان إلى سقوط عشرات القتلى والجرحى الفلسطينيين. واعتبرته حماس انتهاكاً فادحاً للهدنة فأطلقت 35 صاروخاً على جنوب "إسرائيل"، وتصاعدت في الأيام التالية الهجمات الصاروخية على مدن "إسرائيل" القريبة من غزة إلى مستويات ما قبل الهدنة ودارت اشتباكات على طول الحدود قُتل خلالها 11 فلسطينياً. فخلال 10 أيام أطلقت "إسرائيل" آلاف القذائف على القطاع فيما بلغ عدد ما أطلقتها الفصائل الفلسطينية خلال الفترة نفسها 200 صاروخ قسام وقذيفة هاون⁷¹⁸.

وواصلت "إسرائيل" غاراتها وانتهاكاتها بشكل يومي ما دفع حكومة حماس في 18 كانون الأول، أي قبل يوم من انتهاء الهدنة، إلى الإعلان عن أنها غير معنية بمواصلة وقف إطلاق النار. وأطلقت في ذلك اليوم 20 صاروخاً على جنوب "إسرائيل". ولكن في 23 كانون الأول أعلن محمود الزهار القيادي في حماس موافقة الحركة على تجديد الهدنة شرط امتناع "إسرائيل" عن القيام بأي عملية عسكرية في قطاع غزة وإبقاء المعابر

Paola Caridi, *Hamas: From Resistance to Government*, Jerusalem, The Palestinian Academic Society for the Study of⁷¹⁸ International Affairs PASSIA, 2010.

مفتوحة. والتزمت حماس بوقف إطلاق نار لمدة 24 ساعة لتثبيت الهدنة⁷¹⁹. ولكن "إسرائيل" استأنفت غاراتها في 24 كانون الأول وسقط قتلى وجرحى فلسطينيون ووقعت اشتباكات على حدود القطاع فقتل عناصر من حماس. وردت حماس بإطلاق 87 صاروخاً على جنوب "إسرائيل".

ويوم عيد الميلاد، 25 كانون الأول، أعلنت "إسرائيل" عن هجوم واسع النطاق وأطلق رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت تحذيراً في مقابلة مع محطة العربية السعودية: "أنا أقول لهم الآن، توقّفوا فنحن أقوى". وبعد مقابلة أولمرت أعلن وزير الدفاع إيهود باراك عن "نفاذ صبر" إسرائيل⁷²⁰. في صباح 27 كانون الأول، أطلقت "إسرائيل" موجة غارات جوية بمقاتلات أف 16 ومروحيات الأباتشي على مئة موقع في غزة وفق بنك أهداف. ثم بعد نصف ساعة أغارت موجة ثانية من 60 طائرة دمّرت ستين هدفاً فلسطينياً إضافياً. أصابت هاتان الموجهتان مقار حماس ومكاتب حكومية و24 مركز شرطة، وأحدثت دماراً هائلاً. فسقط مئات القتلى والجرحى الفلسطينيين منهم 40 شاباً في حفل تخرج طلبة مدرسة الشرطة. وكانت حصيلة هذا اليوم سقوط ما لا يقل عن 230 فلسطينياً وأكثر من 700 جريح، ليصبح "مذبحة السبت الأسود" لغزة.

في دمشق أعلن ممثلو حركة حماس والجهاد الإسلامي والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومنظمة الصاعقة وجبهة النضال الشعبي والحزب الشيوعي الثوري وحركة فتح وحركة فتح - الانتفاضة وعدد من الفصائل الفلسطينية الأخرى عن تأليف حلف عسكري في قطاع غزة لمواجهة العدوان. وأصدروا بياناً مشتركاً رفض "أي ترتيبات أمنية مع" إسرائيل⁷²¹ تؤثر على المقاومة الفلسطينية وحققها المشروع في النضال ضد الاحتلال، ورفضوا مقترحات عربية ودولية لإرسال قوات دولية إلى غزة مطالبين بإنهاء الحصار وفتح كل معابر غزة. استمرت الغارات الجوية الإسرائيلية على قطاع غزة مستهدفة الأبنية السكنية وملحقة أضراراً بالغة بالبنية التحتية الفلسطينية. حتى فرغت "إسرائيل" من أهداف تضربها داخل القطاع وعمدت إلى ضرب أبنية كانت ضربتها من قبل، وقصفت منشآت طبية وتربوية ومكاتب الأمم المتحدة. ومن ناحيتها كُتفت حماس ضرباتها الصاروخية وقذائف الهاون على جنوب "إسرائيل" ووسّعت نطاقها لتصل إلى مدن رئيسية كبئر السبع وأشدود للمرة الأولى. واستخدمت "إسرائيل" صواريخ زنة كل منها 2 طن لتدمير المباني والأنفاق، ألحقتها بصواريخ زنة 500 كلغ لتدمير الملاجئ والمستودعات تحت الأبنية. واستعملت "إسرائيل" أيضاً أسلحة متطورة جديدة وأخرى موجهة بالليزر كما استعملت الطائرات 39 قنبلة جي بي يو الصغيرة القطر والشديدة الانفجار لأول مرة، واستخدمت أيضاً أسطول مروحيات كوبرا وطائرات بدون طيار تطلق صواريخ "Spike".

بلغ مجموع الغارات الإسرائيلية على غزة 2360 خلال شهر كانون الأول، وذلك على شعب أعزل من السلاح، لا يجد أي ملاذ آمن أو ملجأ. ما جعل حرب غزة واحدة من الصراعات النادرة التي لم يجد فيها المدنيون مكاناً للفرار. وقامت سفن "إسرائيل" الحربية بقصف بلدات ومدن القطاع ودمّرت مكتب رئيس الوزراء إسماعيل هنية مستخدمة صواريخ إعصار وصواريخ أرض - أرض، وصواريخ "سبايك" المتطورة.

في 3 كانون الثاني 2009، بدأت "إسرائيل" غزوها البري للقطاع بقصف مدفعي شامل فتغلغلت قواتها واحتلت التلال المطلّة على مدينة غزة. واستخدمت القوات المهاجمة دبابات وجرافات عملاقة مدرّعة. وفي

⁷¹⁹ صحيفة الأهرام 23 كانون الأول 2008.

شمال القطاع دخل الجيش الإسرائيليّ مدنيّتي بيت لاهيا وبيت حانون في 4 كانون الثاني ما شطر القطاع نصفين وحوصرت مدينة غزة، حيث يقيم مليون شخص. كما انتشرت الدبابات والقوات الإسرائيليّة حول كلّ مدن القطاع في وقت هرع مئات الآلاف من المدنيّين لمغادرة منازلهم وسط دوي المدافع وسقوط الصواريخ ولجأوا إلى الأحياء الداخليّة. الا أن الصمود كان عنوان الحرب. فقد تعرقل الزحف الإسرائيليّ على مدينة غزة يوم 5 كانون الثاني بفضل تصدّي المقاتلين الفلسطينيين. فمضى أسبوعان إضافيان من الدمار والقتل والخراب في مدينة غزة حيث تفوق 800 ألف مدني فلسطيني في الأحياء الداخليّة، فشابه الوضع كثيراً معركة بيروت عام 1982⁷²⁰.

في 17 كانون الثاني 2009 أعلن إيهود أولمرت وقف إطلاق النار وأنّ "إسرائيل" قد حقّقت أهدافها العسكريّة. ولكن ردّت حماس بأنّها لا تلتزم بوقف إطلاق النار الا إذا أوقفت "إسرائيل" العدوان تماماً وأنهت كلّ وجود إسرائيليّ داخل القطاع. ثم صدر بيان في اليوم التالي باسم حماس والتنظيمات الفلسطينيّة يعلن هدنة أسبوع ويطلب بـ"انسحاب قوات العدو من قطاع غزة في غضون هذا الأسبوع وفتح المعابر كافة لدخول المساعدات الإنسانيّة والغذاء والضروريّات الأخرى لشعبنا في قطاع غزة". فالتزمت "إسرائيل" بالهدنة الفلسطينيّة وانسحبت من قطاع غزة في 21 كانون الثاني. ولكنّ حصارها استمرّ كما في السابق.

استخدمت "إسرائيل" في حربها على غزة ذخائر الفسفور الأبيض، حيث أفادت مستشفيات غزة عن مئات المصابين بحروق الفسفور وحتى المستشفيات ومقر الأونروا تعرّضت لقتائف الفسفور الإسرائيليّة. وفي 25 آذار 2009، نشرت هيومن رايتس ووتش تقريراً بعنوان مطر النار عن استخدام "إسرائيل" للمجرم للفسفور الأبيض في غزة إضافة إلى أسلحة أخرى غير مشروعة. وقال أطباء أوروبيّون عملوا في غزة وخبير عسكريّ من هيومن رايتس ووتش استناداً إلى طبيعة الجروح والأوصاف أنّ "إسرائيل" استخدمت أسلحة "الدايم" المحظورة.

وخلصت منظمة العفو الدوليّة استناداً إلى بيانات جمعها مندوبو المنظمة في غزة وحالات وثّقتها منظمات غير حكوميّة، أن الرقم الإجمالي للقتلى الفلسطينيين كان 1417، منهم 300 طفل و115 امرأة و85 رجلاً مسنّاً و200 تقل أعمارهم عن سنّ 50 من المدنيّين العزل الذين لم يشاركوا في القتال⁷²¹. في حين سقط 13 إسرائيليّاً معظمهم جنود في المعارك. ووفقاً لهيومان رايتس ووتش فقد وضعت "إسرائيل" 800 ألف مدني فلسطيني تحت القصف المدفعيّ اليوميّ. وأدّى الفارق الصارخ في عدد القتلى والجرحى الفلسطينيين إلى اتهام "إسرائيل" بارتكاب مجازر في حرب أحادية الجانب ضد شعب أعزل. وفي أيلول 2009، أصدرت بعثة الأمم المتّحدة الخاصة برئاسة القاضي ريتشارد غولدستون تقريراً اتهم الجيش الإسرائيليّ بارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية وأوصت بتقديم المسؤولين عنها إلى العدالة⁷²².

⁷²⁰ أنظر الفصل 22 من هذا الكتاب.

⁷²¹ ذكرت منظمة الصحة العالميّة مقتل 16 وجرح 22 من العاملين في المجال الصحيّ ومقتل خمسة من موظفيها وإصابة 11 موظفاً. وأفاد برنامج الأغذية العالميّ مقتل أحد المتعاقدين معه وإصابة إثنتين.

⁷²² الأمم المتّحدة، حقوق الإنسان في فلسطين والأراضي العربيّة الأخرى المحتملة: تقرير تقضي الحقائق بعثة الأمم المتّحدة في نزاع غزة، 15 أيلول 2009، 457 صفحة.

بلغت قيمة خسائر قطاع غزة المادية بـ 2 مليار دولار، حيث لحق الدمار 4000 مبنى و600 - 700 مصنع وورشة عمل ومؤسسات تجارية و24 مسجداً و31 مركز شرطة ومبنى حكومياً و10 محطات للمياه وخطوط الصرف الصحي. وذكر تقرير منظمة الصحة العالمية تضرر 34 مرفقاً صحياً (منها 8 مستشفيات و26 عيادة). وذكر تقرير مكتب الشؤون الإنسانية في الأمم المتحدة تضرر أكثر من 50 مرفقاً تابعاً للأمم المتحدة. وكشف تقرير للأمم المتحدة عن إحداث حفر ضخمة في الطرق والجسور على مسافة 167 كيلومتراً و714 حفرة ضخمة في الأرض المفتوحة أو المزروعة على مساحة أرض تقدر بـ 2100 هكتار ودمار وحرق 187 مبنى هوت - هاوس على مساحة تقدر بـ 8 هكتاراً، واستهدفت جرافات ودبابات "إسرائيل" والقصف بالفسفور مساحة 2232 هكتاراً من أراضي غزة.

وشهد القطاع زيادة في الأوبئة والمشاكل الصحية بعد الحرب وارتفاعاً في نسبة الأطفال الذين ولدوا مع تشوهات جسدية وفي حالات سرطان الدم وذلك بسبب تعرّض المصابين لليورانيوم المنضب. وذكر أطباء نرويجيون أنهم وجدوا يورانيوم منضباً ومواد مشعة وسامة على أجساد ضحايا وقدم محامون تقارير معاينة التربة في غزة كشفت أن ثمة 75 طناً من اليورانيوم المنضب منتشرة في أراضي غزة.

بعد الحرب، أفادت الأمم المتحدة عن مقتل 12 شخصاً وجرح 27 في قطاع غزة بالذخائر غير المنفجرة. ووفق تقرير منظمة الصحة العالمية تبين أن نسبة 48 في المئة من 122 مبنى صحياً تمت معاينتها قد تضررت أو دمرت، وتعرّض 15 من أصل 27 مستشفى و41 مركزاً للرعاية الصحية لأضرار ولحقت أضرار جزئية أو دمرت 29 سيارة إسعاف. وكانت المعابر الإسرائيلية والمصرية تمنع إخلاء المرضى والمصابين الذين يحتاجون للرعاية الطارئة والمتخصصة. ومنذ 30 كانون الأول وحتى 22 كانون الثاني سمحت مصر إخلاء 608 جرحى عبر معبر رفح، في حين لم يسمح معبر إيرتس الإسرائيلي عبور أكثر من 30 جريحاً.

والأسوأ أن 80 في المئة من سكان القطاع أصبحوا في عوز يعتمدون على المساعدات الإنسانية وخاصة بعد إقدام "إسرائيل" على قصف مقر الأمم المتحدة (الأونروا) حيث أحرقت أطناناً من المواد الغذائية والطبية التي كانت الأونروا تقدمها لـ 750 ألف لاجئ فلسطيني في مخيمات غزة. وأعلن الصليب الأحمر الدولي أن وضع غزة "لا يُطاق" في وقت كانت "إسرائيل" تمنع استيراد المواد الغذائية والسلع الضرورية بعد وقف إطلاق النار. ووفقاً لبرنامج الأغذية العالمي في الأمم المتحدة للأغذية والزراعة ومعلومات من مسؤولين فلسطينيين، خربت الحرب 60 في المئة من قطاعي الصناعة والزراعة وأحدثت أضراراً واسعة في مصادر المياه ومزارع الهوتهاوس والأراضي الزراعية. وتركت الحرب أكثر من نصف مليون فلسطيني في غزة بلا مأوى بسبب التدمير الواسع النطاق للمنشآت السكنية والتجارية والبنية التحتية. ووفقاً لصناعتين فلسطينيين فإن 219 مصنعاً قد دمر.

وذكرت دراسة لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي أن 14 ألف منزل وشقة و68 مبنى حكومياً و31 مكتباً للمنظمات غير الحكومية تدمرت إما كلياً أو جزئياً. ونتيجة لذلك، فإن كمية تقدر بـ 600 ألف طن من الركام والأنقاض تجب إزالتها. وكانت "إسرائيل" منذ مطلع 2007 قد منعت دخول مواد البناء إلى غزة ما أثر سلباً على

مشاريع الأمم المتحدة ولا سيما في الأونروا وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي وأجل أكثر من 100 مليون دولار في مشاريع البناء بسبب نقص المواد.

أدانت أربعة وثلاثون دولة الحرب الإسرائيلية على غزة وقطعت بعضها العلاقات مع "إسرائيل". ووقفت سورية وإيران وليبيا وكوريا الشمالية وحزب الله في لبنان إلى جانب حماس وأعلنت تأييدها للشعب الفلسطيني وحقه في المقاومة. وكان الموقف المصري مخزياً إذ مارست القاهرة دوراً مشابهاً لدورها أثناء حرب تموز 2006 على لبنان. فضغطت على حماس لا على "إسرائيل" وشددت الحصار على القطاع ووقّرت الوجبات والمواد الغذائية للجيش الإسرائيلي أثناء العملية. وعندما قامت تظاهرات في مصر مناهضة لـ"إسرائيل" قمعتها الشرطة بقسوة. وبعد الحرب استجابت مصر لطلب "إسرائيل" فأُنجزت بنهاية 2009 بناء جدار من الصلب تحت الأرض على طول حدودها مع قطاع غزة وفرضت حصاراً بحرياً وقيوداً صارمة على الحركة الحدودية وبشروط مثذلة عند معبر رفح.

كما كان موقف السلطة الفلسطينية برئاسة محمود عباس من حرب غزة مخزياً أيضاً إلى حد أن وثائق وتسجيلات صوتية كشفتها قناة الجزيرة في مطلع 2011 أظهرت تواطؤ كبار المسؤولين الفلسطينيين مع "إسرائيل" وإصرارهم على العملية ضد حماس وأن الكثير من أعمال الاغتيال الدقيقة كانت بفضل معلومات قدمتها أجهزة السلطة للإسرائيليين. وفي أعقاب الحرب، ألغت السلطة الفلسطينية تمويل الرعاية الطبية للفلسطينيين في المستشفيات الإسرائيلية حتى أولئك الذين يحتاجون إلى رعاية معقدة لا تتوفر في الضفة وغزة.

حول تقييم أداء المقاومة، استطاعت المقاومة الفلسطينية في غزة وقف الزحف الإسرائيلي يوم 4 كانون الثاني 2009 ما أُنذر بتحويلها معركة طويلة الأمد. كما وسّعت حماس مدى صواريخها من 16 كيلومتراً إلى 40 كيلومتراً باستخدام صواريخ قسام محسنة محلية الصنع وصواريخ غراد أدت إلى مقتل وجرح عدد من الإسرائيليين وأحدثت خسائر مادية داخل "إسرائيل". ولكن الوقع النفسي للصواريخ - والذي غدته حكومة "إسرائيل" نفسها - كان أقوى بكثير، حيث طالت الصواريخ الفلسطينية البدائية مناطق اشدود وبئر السبع وغديرا ما وضع 700 ألف من سكان جنوب "إسرائيل" في مداها ودفع 40 في المئة من سكان عسقلان إلى الفرار.⁷²³

وحتى لو حققت "إسرائيل" نصراً عسكرياً، فقد لحق سمعتها الدولية ضرر فادح. بعدما أجبرت مناظر القتل والدمار الوحشي والتظاهرات الشعبية في الغرب الحكومات على مراجعة العلاقات الاقتصادية مع "إسرائيل" وخاصة في مجال تجارة الأسلحة والتدقيق في انتهاكات "إسرائيل" لقوانين دولية. كما بدأت حملات غير مسبوقة لمقاطعة "إسرائيل" ثقافياً وشعبياً في أوروبا وأمريكا.

⁷²³ ساهمت في إطلاق الصواريخ على جنوب "إسرائيل" "كتائب عز الدين القسام" لحركة حماس و"كتائب شهداء الأقصى" (التابعة لحركة فتح) و"كتائب أبو علي مصطفى" و"سرايا القدس" و"المجالس الشعبية المقاومة".

سرعان ما تبين أن النصر الإسرائيلي انتهى مفعوله إذ إنَّ الوضع عاد تدريجياً إلى ما كان عليه قبل الحرب: إطلاق صواريخ وقذائف هاون من قطاع غزة وغارات جوية إسرائيلية. فبدا أن كلَّ هذه الحرب كانت عبثية بدون نتيجة تذكر سوى القتل المجاني.

وليس من قبيل المصادفة أنَّ "إسرائيل" وسَّعت أعمالها العسكرية بشكل غير مسبوق يوم فوز أوباما في 4 تشرين الثاني 2008، إلا أنَّ رسالة أميركية ذهبت إلى حكومة أولمرت أنَّ أوباما يريد أن يبدأ عهده بدون أن يجد حرباً على يديه فأعلنت "إسرائيل" وقف إطلاق النار في 17 كانون الثاني 2009، أي قبل ثلاثة أيام من دخول أوباما البيت الأبيض. وخاصة أنَّ معركة مدينة غزة بدت طويلة قد تستمر شهوراً وبدون أمل في كسبها ضد رجال المقاومة الفلسطينية الذين كانوا يقاتلون بيتاً بيتاً.

وخلال 2009 رفضت حماس مطالب اللجنة الرباعية الدولية الاعتراف بـ"إسرائيل" وقبول اتفاقات السلام والتخلي عن العنف مقابل اعتراف دوليِّ بها. ولذلك واصل المجتمع الدوليَّ عزل حماس فيما بقيت سورية وإيران سندها الأكبر. وأعلنت "إسرائيل" أنَّها لن ترفع الحصار. وستشنَّ "إسرائيل" حرباً جديدة على غزة وحركة حماس عام 2012 بعد اندلاع الحرب السوريَّة، رغم أنَّ حماس تموضعت خارج محور المقاومة وضد سورية ومع أنظمة الخليج.

الحرب الثانية على غزة

بعدها اشتعلت الحرب الكونية على سورية عام 2011 ظنَّت "إسرائيل" ان انشغال سورية في حربها سيترك لها الساحة الفلسطينية مفتوحة. ففي 14 تشرين الثاني 2012، شنَّت "إسرائيل" حرباً ثانية ضدَّ قطاع غزة واغتالت القائد العام لكتائب القسام أحمد الجعبري وقادة ميدانيين. ولكن "إسرائيل" فوجئت أنَّ غزة قاومت بدعم وأسلحة من سورية، وتمكَّنت ليس فقط من إطلاق صواريخ كما في 2008 بل ولأول مرَّة أقفلت صواريخ المقاومة مطار بن غوريون في تل أبيب وأطلقت صواريخ على القدس الغربية، حيث الكنيسة وعلى تل أبيب ومدن أخرى. وكل ذلك بفضل الأسلحة السوريَّة والإيرانية. فصمدت غزة وأجبرت "إسرائيل" على وقف الحرب.

وكانت حرب غزة الثانية عام 2012 غريبة وغامضة. لأنَّ "إسرائيل" تمكَّنت من اغتيال القادة العسكريين في حماس والجهاد الإسلامي في غزة لأهميتهم الاستراتيجية لسورية وحزب الله، ولقربهم من مصادر السلاح ومن المقاومة على الأرض في غزة والضفة. ولكن "إسرائيل" لم تغتال قادة سياسيين مثل إسماعيل هنية وخالد مشعل وغيرهما. ورغم تسليم سورية لغزة، فقادة حماس السياسيين اتخذوا مواقف مراوغة ومرتهنة، حيث كان شكرهم لسورية بعد حرب غزة الثانية إما مكتوماً أو غائباً.

واستهدفت "إسرائيل" المخيمات الفلسطينية داخل سورية وأكبرها مخيم اليرموك على طرف دمشق للقضاء على حلفاء سورية داخل المخيم لصالح تنظيمات أصولية سلفية وأخوانية. لقد عاش الفلسطينيون في سورية كمواطنين ورأى مشاهدو الفضائيات مخيم اليرموك بأبنيته السكنية الحديثة وبنيته التحتية، لا يختلف بشيء عن باقي دمشق وهو مخيم فقط بالاسم، مقارنة بمخيمات البؤس والشقاء والصحف في المخيمات الفلسطينية في لبنان.

تموضع حماس في تشكيلة الأخوان الإقليمية وتقرّبها من تركيا وقطر وصعود تنظيمات فلسطينية أصولية في مخيم اليرموك أحدث انقساماً في المخيم. ثم أن تنظيمات أصولية فلسطينية وضعت نفسها في مقدمة الجماعات المسلحة في سورية. ومنذ تشرين الأول 2011 أخذت تكثف وجودها المسلح في اليرموك وأسست "لواء العاصفة". وفي تشرين الثاني 2012، وبتوقيت رافق حرب غزة الثانية، اخترقت جماعات مسلحة مخيم اليرموك تساعدها تنظيمات أصولية فلسطينية، ما فجر مأساة إنسانية كبيرة لمئات آلاف الفلسطينيين ودفع أكثر من مئة ألف من سكان المخيم إلى الهرب في كانون الأول 2012.

في 8 تموز 2014، شنت "إسرائيل" حرباً جديدة على غزة برّاً وبحراً وجواً، استمرت هذه المرة 51 يوماً وأسفرت عن مقتل 2200 فلسطيني أغلبيتهم الساحقة من المدنيين بينهم 500 طفل. أثناء هذه الحرب دمّرت "إسرائيل" عشرة آلاف منزل وأجبرت 300 ألف مواطن على النزوح وفق تقارير الأمم المتحدة. وكان بالإمكان تفادي هذه المأساة بحق شعب غزة ولكن انشغال الدول العربية بتدمير سورية والتراجع الرسمي العربي عن دعم قضية فلسطين ثم الإنفاق بسخاء على حرب اليمن، أفسح المجال لـ "إسرائيل" بارتكاب المجازر المتتالية ضد فلسطين. ومع ذلك لم تقهر "إسرائيل" بقواتها الساحقة إرادة غزة التي قاومت ثم استعدت لمعركة جديدة⁷²⁴.

Max Blumenthal, *Ruin and Resistance in Gaza: The 51 Day War*, New York, Nation Books, 2015.⁷²⁴

36 | المقاومة والتحرير في العراق

في السنين التي تلت الغزو الأميركي لم يستطع العراق أن يعالج أموره الاقتصادية بنفسه في ظل ناتج محليّ قائم ضئيل وديون بلغت 150 مليار دولار، وتعويضات عليه سدادها لدول أخرى بقيمة 300 مليار دولار وفاتورة إعمار تراوحت بين 150 و300 مليار دولار. وفي 23 أيار 2003 صوت مجلس الأمن على رفع العقوبات عن العراق ما سمح بإطلاق مرحلة إعمار. ولكن البلاد غرقت في شبه حرب أهلية وعمليات مقاومة ضد الاحتلال استمرّت بضع سنوات ولم تنته مع انتهاء الاحتلال.

إلى جانب عدم الاستقرار والوضع الأمني المتفجر انطلقت مرحلة إعمار ومشاريع استفادت منها شركات أميركية. إذ إن قرارات مشاريع إعادة الإعمار وتأهيل البنية التحتية تمت بالتوافق بين الإدارة الأميركية والشركات الأميركية وحكومة العراق وإدارة الاحتلال التي سبقتها في بغداد⁷²⁵. وقُدّرت تكاليف السنة الأولى لفترة ما بعد الغزو بسبعة مليارات دولار، اقتصرت على تسديد تكاليف إدارة الاحتلال وبدء مشاريع أهمها إعادة تشغيل قطاع النفط. وطالما أن الولايات المتحدة أصبحت الدولة التي تدير العراق كقابلة قانونية للاقتصاد الجديد، فقد تولّت الإنفاق من مصدرين: أموال الدولة العراقية التي عُثر منها على 4 مليارات دولار في ربيع 2003، وعائدات النفط الدورية. وقُدّرت مداخيل النفط وفق الكميات المهزّبة من النفط بـ20 مليار دولار منها 7 مليارات للفترة الممتدة من 1997 إلى 2001. ودفعت إدارة الاحتلال رواتب طارئة لـ1.5 مليون موظف ومتقاعد في القطاع العام العراقي اقتطعتها من الأموال العراقية المجمّدة في الولايات المتحدة، حيث نقل الجيش الأميركي مبلغ 600 مليون دولار نقداً بالطائرة إلى بغداد.

ولكن مخصّصات الموظفين كانت سبتلح الاحتياط العراقيّ المجمّد خلال شهر ولن يبقى مال للاستثمارات التي تستفيد منها الشركات الأميركية. فكان تخفيف نفقات الموظفين العراقيين جزءاً من خطة أميركية لتدمير الدولة العراقية، إذ أعلن بول بريمر الحاكم الأميركي في 18 أيار 2003، حل مؤسسات ووزارات عراقية عدّة وتسريح أفراد الجيش العراقيّ وموظفي وزارة الإعلام ووزارة الداخلية والدفاع وإغلاق مراكز مختلف أجهزة الأمن وحلّ الأجهزة العسكرية وكل الأدوات الهجومية ودوائر حكومية أخرى ومحاكم أمن الدولة. وأدى هذا القرار إلى قطع أرزاق أكثر من نصف مليون عراقيّ يعيلون بضعة ملايين مواطن. ولم تقدّم الإدارة الأميركية للعراق سوى راتب آخر شهر كتعويض لنهاية الخدمة للأفراد المسرحين. كما حوّل قرار بريمر ممتلكات المؤسسات التي أصابها الحلّ إلى سلطة الاحتلال الأميركية، وعلّق التجنيد في الجيش العراقيّ الذي حلّه الأميركيون أيضاً مع وعد أن باب التجنيد سيُفتح من جديد.

وضعت الإدارة الأميركية لائحة مشاريع بنية تحتية تصل كلفتها 5.2 مليار دولار. وفي أعمال موازية للتأهيل كانت ثمة مسؤوليات فرض الأمن وعمليات الإغاثة تطلّبت جهوداً ضخمة إذ إن المطلوب كان أربعمئة ألف جنديّ، فيما لم يتجاوز حجم القوات الأميركية 150 ألفاً، ما دفع في غياب أي جيش عراقيّ إلى استعمال شركات أمنية ومرنزة أميركية على حساب مالية العراق. ولذلك فإنّ الأمن كان هشاً في أحسن الأحوال ما أضعف موضوع الإغاثة. إذ أدى تدهور الوضع الأمني إلى إعاقة الإعمار وعرقلة عمليات الإغاثة، وتعرّضت طوابير

Thabit Abdullah, *Dictatorship, Imperialism, and Chaos: Iraq Since 1989*, Zed Books, London, 2006, pp. 101-107.⁷²⁵

الإغاثة وأطقم البعثات الطبية للكمان والسطو، في حين تعرّضت أنابيب النفط للتخريب ما قلّص فرص الاستفادة من نقل النفط إلى الأسواق الخارجية لتأمين مصادر المال الضروريّ لإعادة الإعمار وتمويل الإغاثة.

الموارد البشرية

حتى قبل العام 1980، كان العراق على وشك التوصل إلى بناء صناعة أسلحة ذرية، لولا ملاحقة "إسرائيل" لعلمائه (كاغتيال عالم ذرة مصريّ يعمل للعراق في باريس وتفجير باخرة تحمل مواد ذرية للعراق، ونسف الطائرات الإسرائيلية المفاعلات الذرية العراقية عام 1981). هؤلاء العلماء كانوا على لوائح أميركية طالما سعت إلى إخراجهم من العراق بحجة استجوابهم بواسطة خبراء التفتيش. هذه الطاقة البشرية المعرفية والتقنية المتطورة ما زالت في العراق حتى في غياب المواد والمنتجات الحربية.

في العام 2003 كان ثمة مليوني عراقيّ خارج العراق بينهم عشرات الآلاف من الكادرات العلمية والثقافية، وخيرة أبناء البلد من اليد العاملة الخبيرة، من أطباء ومهندسين وخبراء نفط وعلماء. ولقد عاد كثيرون إلى بلادهم للمساهمة في إعادة الإعمار فبناء العراق الجديد لن يحتاج فعلاً إلى أي اتكال على الخارج أو على الشركات الأميركية كما أوحى قرارات الاحتلال الأميركيّ البريطانيّ للعراق. وعلى سبيل المثال، أقام ألفا طبيب عراقيّ في بريطانيا وآلاف غيرهم في أوروبا والمغرب. ويمكن اعتبار أكبر ثروة سلّمت من الحروب هي الرأسمال البشريّ العراقيّ من كوادر متحمّسة ومتعلّمة وخبيرة لخدمة بلادها واتخاذ القرارات الصحيحة لإدارة المشاريع العمرانية والتنمية. ولقد تكلمت الصحافة الغربية مراراً عن مستوى المتعلّمين العراقيين وذكائهم ما شكّل حالة نادرة في مدح الإعلام الأجنبيّ لذكاء العرب.

العامل البشريّ في اقتصاد التراكم المعرفيّ هو أئمن رأسمال يمكن أن يملكه أي بلد في القرن الحادي والعشرين. ولقد وظّف العراق في السابق الكثير في التربية والتعليم، حتى أصبح شباب العراق من بين أفضل الشعوب المؤهّلة. وحتى أثناء الحرب العراقية الإيرانية (1980 - 1988)، حافظت الحكومة على مستويات تعليم عالية مُعترف بها دولياً إلى درجة أنّ العراق حصل على جائزة الأونيسكو في الإبداع في منهجية التعليم والقضاء على الأمية، وأنّ جامعات الولايات المتحدة وكندا وأوروبا كانت تقبل المتخرّجين من المراحل الثانوية من العراق بسبب مستوى استعدادهم للتحصّل العالي في مؤسسات الغرب. ودأبت حكومات العراق على بناء المدارس والمعاهد والجامعات ومؤسسات التدريب المهنيّ. كما درّبت الحكومة المعلمين ومنحت الكتب المدرسية مجاناً للتلاميذ إضافة إلى الدفاتر والأقلام وعدّة الدرس وكتب جديدة للمواد الدراسية كلّ سنة. كما وُزعت إدارات المدارس الابتدائية والروضة الحليب والفيتامين وزيت السمك على الأطفال. واستمرّ هذا المستوى طيلة فترة الثمانينيات، ولكنه بدأ بالانحدار منذ بدء الحصار عام 1990.

ومثلما قاوم الشعب الفلسطينيّ بتمسّكه بتعليم أولاده وكما حصل في الحرب في لبنان حيث كانت رغبة التحصيل العلميّ أقوى من أي ظرف قاهر، حافظت العائلات العراقية على عزيمة التعلّم مهما كان الثمن. فكانت ظروف القطاع التربويّ المزرية تدمّر البنية التحتية للثروة البشرية في العراق، ومع ذلك واصلت

الهيئات التعليمية الجهد لتعليم الأجيال. وفيما كان معلّم المدرسة في العراق في ظل نظام البعث إنساناً هاماً ومحترماً يقدّره مجتمعه وتكافئه الحكومة براتب جيّد بلغ ما يعادل 450 دولاراً أميركياً في الشهر زائد العلاوات والمنافع والجائزة السنوية التي سمحت له بشراء عقار لبني بيتاً، تدهور وضعه منذ التسعينيات وبات دخله من التعليم لا يزيد عن بضعة دولارات في الشهر بالعملة العراقية، وفقد كلّ الحوافز وبات يعمل في أشغال وضيفة ليعزّز مدخوله.

حال القطاع التربويّ في العراق عشية الغزو الأميركيّ كان مأساة ووفق تقرير اليونسيف أنّ النظام التعليمي العراقيّ لم يخضع لتقييم دوليّ منذ العام 1989. وبرنامج النفط مقابل الغذاء لم يخصّص سوى واحد في المئة للقطاع التربويّ. وأمام شحّ الأموال وغياب الاستثمار في المدارس والمؤسسات التعليمية وندرة المواد التعليمية من كتب ودفاتر وأدوات، إضافة إلى تدهور المنشآت والأبنية، فإنّ جيلاً كاملاً من أطفال العراق حرّم من تلقّي التلقين الأكاديميّ الذي يتمتع به أيّ طفل في العالم وهذا مخالف للشرعة الدولية لحقوق الطفل ما يجعل مطبقي نظام العقوبات مجرمين من المنظار القانوني. واحتاج الوضع التربويّ الصعب إلى إنفاق هائل وسنوات عديدة ليعود إلى ما كان عليه قبل العام 1990. فهناك مسائل بناء وترميم البنية التحتية التربوية من معاهد ومدارس وجامعات ومستوصفات وشركات إمداد، وكتب وقرطاسيات وهيئات تعليمية وإدارية ومناهج تعليم ومختبرات ولوازم لا حصر لها.

من ناحية أخرى بقيت نسبة البطالة تراوح بين 18 في المئة و30 في المئة، حسب القطاع الاقتصاديّ لأنّ الشركات الأجنبية احتكرت الوظائف لعمالها وخبرائها الذين حضروا من خارج العراق.

وإضافة إلى الصعوبات أعلاه فقد كانت ثمة كارثة إنسانية حاضرة، وهي العناية بأكثر من 2.4 مليون مهجر عراقيّ داخل البلاد اضطرتهم ظروف الحرب والاحتلال والقتال الداخليّ إلى مغادرة ديارهم. وهؤلاء احتاجوا إلى المسكن والغذاء والماء والكهرباء والملابس والحاجيات للأسر ومدارس للأولاد وعمل للبالغين وإلى ما هنالك من تفاصيل الحياة اليومية. في أزمة إسكان المهجرين أقام 58 في المئة منهم في شقق مؤجرة و18 في المئة ضيوفاً عند ذويهم أو أصدقائهم و24 في المئة في أبنية عامة كالمدارس. وأضيف إلى هؤلاء، مأساة مليوني عراقيّ معظمهم لجأ إلى الدول المجاورة وخاصة في سورية وبعضهم في لبنان والأردن والمغرب. ولم يعن ذلك أنّ بقيّة سكان العراق أصبحوا على ما يُرام في السنوات التي تلت الغزو. فقد دلت تقارير صحية عراقية ودولية أنّ حوالي أربعة ملايين عراقيّ يشكون من سوء التغذية و25 في المئة من أطفال العراق عانوا من الجوع بشكل مزمن وثلاثي الأطفال حرّموا من توفّر دائم لمياه الشفة. ولم تصل مشاريع وأموال إعادة الإعمار إلى كلّ مناطق العراق وبالتساوي في حين تأخّر وصولها عن بعض المناطق ما اضطّر العراقيين إلى تدبّر أمورهم والاتكال على مصادر محلية لتوفير الماء والكهرباء وترميم المنازل والمدارس قدر المستطاع. كما أنّ الكادرات الطبية واليد العاملة في القطاع الصحيّ هاجرت بكثافة من العراق وخاصة إلى سورية والأردن. ومنذ 2008، قرّرت وزارة الصحة العراقية تويّي مهام إعادة إعمار وتأهيل القطاع الصحيّ بنفسها خارج إرادة الاحتلال والمنظمات الأجنبية ومن منطلق أولوية الدولة العراقية. ورغم أنّ الطبابة والاستشفاء كانا حقاً دستورياً في العراق وأنّ نظام البعث حاول رغم عقود الحروب والحصار الحفاظ على المستوى نفسه

إلا أن نسبة الاستشفاء خارج الضمان ومن جيب المواطن زادت من 30 في المئة قبل الغزو والاحتلال الأميركي عام 2003 إلى أكثر من 70 في المئة أثناء الاحتلال. ثم بدأت هذه النسبة تتراجع في السنوات الأخيرة مع عودة تأهيل القطاع الصحي العام حتى لو استمرت مستشفيات وعيادات خاصة في العمل.⁷²⁶

الشركات الأميركية

منحت سلطات الاحتلال عقوداً كثيرة لإعادة الإعمار لشركات أميركية وشركات دول شاركت في الغزو بشكل أو بآخر ومنعت العقود عن شركات في دول عارضت الغزو. إلا أن دولاً كروسيا والصين وفرنسا احتجت لدى واشنطن ومارست ضغوطاً مختلفة حتى حصلت على بعض العقود أيضاً. وكان للبننتاغون، وزارة الدفاع الأميركية، القرار الحاسم في منح العقود الكبرى فكان يفضل منحها لشركات قريبة من البيت الأبيض والإدارة الأميركية وأجواء اليمين الأميركي المحافظ. ومنها شركة هالبرتون التي كان يعمل بها ديك تشيني نائب بوش. ورافق الفساد تنفيذ شركات كهذه لعقودها في العراق. وعلى سبيل المثال كسبت شركة هالبرتون عقوداً بقيمة مليارات الدولارات، ورغم ذلك فإنها كانت تلاحق بالفواتير كما كشفت تقارير محاسبة وطلبت مبالغ أكبر من المتعارف عليه لقاء خدماتها وبضائعها. ففي مبيعاتها لمشتقات النفط للجيش الأميركي في العراق ظهر في الفواتير أنها رفعت السعر عن المتعارف عليه بقيمة 61 مليون دولار، وهكذا دواليك. كما احتكرت الشركات الأميركية والأجنبية مشاريع كان بإمكان العراقيين أن يقوموا بها أو جلبت عمالاً وموظفين في حين قبعت خيرة اليد العاملة العراقية بدون عمل ما أجاج حقد العراقيين ضد الاحتلال الذي امتصّ خيرات بلادهم. كما كشفت تقارير عن اختفاء مبلغ 9 مليارات دولار من صندوق إعادة إعمار العراق الذي كان بعهدة الاحتلال الأميركي. وحتى تقرير مدقق حكومي أميركي هو ستيرت بوبن للعام 2005 كشف "غشاً وتزويراً وتلاعباً وضياعاً" في الطريقة التي كان الاحتلال الأميركي يدير بها مليارات الدولارات من أموال الحكومة العراقية⁷²⁷. وذكر في تقريره أن من أصل 136 مشروع مراكز مياه ونظافة عامة في العراق تبين أن 49 منها فقط كان في طور التنفيذ رغم أن الأموال للمشاريع الـ 87 الباقية قد خصّصت ووزعت⁷²⁸.

وكانت الدلائل حول فشل الأميركيين في تأهيل سريع للاقتصاد العراقي تراكم ما اضطر الإدارة الأميركية إلى خفض التوقعات المتفائلة. ففي آب 2005 أعلن مسؤول في الخارجية الأميركية "أن أكبر التوقعات المثيرة للخيبة هي المقدرة على بناء اقتصاد عراقي مستقر. فنحن لسنا قرييين من هذا الهدف أبداً؛ القطاع الصناعي الذي كانت تديره الدولة العراقية ومرافق الكهرباء والمياه كلها تعمل دون المستويات التي كانت فيها عندما دخلنا هناك"⁷²⁹. ورافق عمليات إعادة الإعمار سوء الإدارة والهدر وسرقة المال والمعدات والتلاعب بالفواتير وعدم شفافية الشركات الأميركية والأجنبية مع الحكومة العراقية، إضافة إلى عمليات المقاومة والجماعة

Anthony Shadid, *Night Draws Near: Iraq's People in the Shadow of America's War*, new York, Henry Holt and Company, ⁷²⁶

2006, pp. 197-244

. *New York Times* 25 January 2006⁷²⁷

New York Times, April 2007.⁷²⁸

.14 August 2005 *Washington Post*⁷²⁹

المسلّحة التي كانت تشنّ هجومات على ورش عمل الشركات الأجنبية ومواقع مشاريعها. كما أنّ وقع الإنفاق كان بطيئاً للغاية بدون سبب سوى سوء إدارة الصندوق. فكانت الوزارات العراقية ومؤسسات الدولة العراقية تنتظر أسابيع وشهور موافقة إدارة الصندوق الأميركيّة على صرف الأموال وإطلاقها ليستخدمها العراقيون.

جمهورية ما بعد البعث

شهد العراق مرحلة صعود قياسية في القرن العشرين رفعت من دولة ريفية متخلّفة خرجت من الحرب العالمية الأولى إلى دولة جبارة يحسب لها حساب عام 1975. إذ بسبب كثرة التحدّيات غرق العراق في عشر سنوات من الفوضى حتى استطاع تحقيق الاستقرار النسبي ابتداءً من 1968 فأُنجز نظام البعث وثبات جبارة في بناء الجمهورية العراقية التي استمرّت حتى 2003.

عانت الجمهورية الأولى (1958 - 2003) من نقص في التطوّر الديمقراطيّ وبناء المؤسسات ومن عشوائية التخطيط الاقتصاديّ. ولكن رغم هذه النواقص إلا أنّ الفترة الممتدة من تموز 1968 وحتى أيلول 1980، على علّاتها، كانت عصر العراق المعاصر بامتياز، إذ ارتفعت معدلات الدخل ونسبة المتعلّمين وتحسّنت إلى درجة كبيرة البنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية وبرز العراق كدولة عربية محورية. ثم بدأت فترة الحروب عام 1980 ومن ضمنها الغزو الأميركيّ الذي تلاه احتلال مقيت حتى نهاية 2011.

والعراق يحاول بناء دولة جديدة وُلدت من رحم الغزو والاحتلال وما زالت تفاصيلها تتكوّن بعد زوال الاحتلال. وحتى منذ الأشهر الأولى للاحتلال، عملت الفعاليات العراقية على استنهاض المجتمع المدنيّ وإعادة تكوين السلطة. وكانت أهمية هذه الفعاليات أنّ مشاركتها في السلطة كانت ضعيفة أو شبه معدومة على مدى 45 عاماً، ومنها قوى يسارية ومحافظة وجماعات إثنية ومذهبية - شيعية وكردية وشخصيات مستقلة وتنظيمات شيوعية. والكثير من الفئات التي كانت مكتومة في ظل دولة البعث عادت منذ 2003 ليلعب دوراً حاسماً في مستقبل العراق⁷³⁰. ورغم أنّ الاحتلال الأميركيّ ألغى حزب البعث وفكّ دولته إلا أنّه عجز عن القضاء على القاعدة الحزبية البعثية وعلى أنصار البعث والعشائر التي دعمته وجماعات المقاومة التي عملت مع هذا الحزب أثناء سنوات الاحتلال. ولقد أثبتت الأحداث أنّ الوضع العراقيّ كان كثير التعقيد إلى درجة أنّ أميركا لم تنجح في تثبيت سلطة عراقية تسير بمشيئتها تماماً بل أصيبت بالصدمة منذ الشهر الأول للاحتلال.

كثرت الحركات والأحزاب التي ظهرت في العراق منذ 2003. بعضها تأسّس داخل العراق والبعض الآخر وُلد في المنافي برعاية أميركية أو خارجية. وهذه الناحية بالغة الأهمية وخاصة بعدما سعت الولايات المتّحدة بعد احتلالها للعراق إلى تعيين رموز المعارضة التي حضر معظمها من المنفى.

لقد آمن معظم المعارضين من الخارج أنّهم لعبوا دوراً جوهرياً في التخلّص من نظام البعث وأنّ الفضل في سقوط النظام لا يعود للغزو الأميركيّ وحده بل إنّ جهودهم قد عجّلت بسقوطه. ولقد عوّل معارضو الخارج

⁷³⁰ علي الشمرازي، صراع الأضداد المعارضة العراقية بعد حرب الخليج، دار الحكمة لندن، 2002.

الذين أصبحوا داخل العراق بفضل الغزو على عودة ثلاثة ملايين عراقي ممن لا ينتسبون إلى أحزاب وحركات داخل العراق والذين عاشوا في الخارج وتعرفوا على حركات المعارضة في المنفى وعمل بعضهم في صفوفها، وبالتالي سوف يكونون سنداً لها في الداخل. ولكن الإدارة الأميركية في العراق لم تأخذ بمصالح هؤلاء المعارضين الا بمقدار ما كانوا يقدمون لها من خدمات، لأن هدفها كان استعمارياً صافياً وهو القضاء على الدولة العراقية سواء بناها البعث أم غيره والتي لم تفتح اقتصادها ونفطها لتعبت بهما الشركات الغربية ولم تساوّم حول الصراع العربي الإسرائيلي.

ولذلك كان مهماً للأميركيين القضاء على دولة البعث حتى لا يعود العراق كما كان. ففي أيار عمّد الأميركيون إلى إغلاق وزارات ومؤسسات حكومية عدّة وصرّفوا القوات المسلّحة. ففقد مئات الألوف وظائفهم ومواقعهم وخسروا مصدر رزقهم لأن الدولة العراقية كانت مصدر عيش 40 في المئة من الشعب العراقي. كما حظر الاحتلال الأميركي حزب البعث واعتبره غير شرعي، الأمر الذي حرم آلاف آخرين من الإطار المؤسسي لحياتهم. ولم يهنا للمعارضين العائدين العيش ولو لهنيهة حتى يجنوا حصاد عملهم لسنوات عدّة ضد النظام من خارج البلاد. ذلك أنهم أصبحوا في جبهة واحدة مع الاحتلال بوجه شعب عراقي غاضب ضد الاحتلال الغربي الذي أذاقه الموت طيلة 13 سنة من الحصار والغارات. وكانت الفعاليات التي عادت إلى الساحة تروّج أنّ الغزو الأميركي حقق الأهداف الوطنية للعراق وأن سقوط البعث مناسبة لا بدّ من تخليدها⁷³¹. كما قالوا إنّ ما حدث في العراق هو أمر جيّد مهما كانت الوسيلة لتحقيقه (أي الغزو)، والأمر الجيّد كان إسقاط الحكم الدكتاتوري وإنهاء العقوبات الدوليّة. وإلا استمرّ الأسوأ وهو نظام صدام حسين والعقوبات الدوليّة القاتلة. وفي هذا الإطار طلبت تلك الفعاليات من الرأي العام العراقي أن ينظر إلى الغزو على أنّه حرّر الشعب العراقي وأنّ "الوجود" الأميركي هو مؤقت وعلى الشعب العراقي الآن بقيادة المعارضات العائدة أن يقيم حكومة ديمقراطيّة.

كما انتقد بعض المعارضين العائدين ووقوف بعض العرب ضد الغزو الأميركي، يدعمهم في ذلك الإعلام العربيّ حيث ذكرت صحيفة الحياة أنّ "بعض العراقيين ينتقد بشدّة العرب الذين قالوا قبل الحرب إنهم مع الشعب العراقيّ ولذلك فإنهم ضد الحرب. ففي رأي الكثير من العراقيين هذا هراء. إذ ليس ممكناً أن يكون أي فرد مع شعب العراق إذا أراد له الاستمرار في العيش تحت سوط ذلك النظام. ولم يكن ممكناً خلاص الشعب العراقيّ من قبضة النظام إلا بإطاحته، ولم تكن ممكنة إطاحته الا بقوة خارجيّة كان لا بد أن تكون الولايات المتّحدة لأنّ أحداً في المنطقة لم يكن يجرؤ على ذلك. باختصار، فإنّ الحرب في العراق واحتلاله المؤقت في مرحلة انتقاليّة إلى تسلّم شعبه تقرير مصيره وحكومته، حدث إيجابي للعراق"⁷³².

⁷³¹ عبّر أحمد الجلبي رئيس المؤتمر الوطني وكتعان مكينة أكاديمي عراقي مقيم في الولايات المتحدة ومؤلف كتاب "جمهورية الخوف" عن رضاهما الكامل بنتائج الحرب الأميركية، فيما عبّر الجلبي عن شكره للمساعدة الأميركية في "تحرير العراق".
⁷³² الحياة 30 أيار 2003.

فدرالية إثنية مذهبية

انقسم الرأي العام العراقي بين مَنْ قال إن أميركا حَقَّقَت للشعب العراقي ما لم يستطع تحقيقه وستساعد في بناء البلاد وتحقيق الديمقراطية. ورأى البعض الآخر أن الولايات المتحدة حاصرت العراق منذ 1991 وجوّعت شعبه وأذلته ثم غزته واحتلته، وهي تطمع بثروة العراق واتخذت من نظام البعث حجة ومطية وأن احتلالها للعراق هو نموذج الإمبريالية الجديدة المتعاونة مع الصهيونية والتي لا بدّ من مقاومتها بقوة السلاح.

ثبتت صحة الرأي الثاني سريعاً ففي أيار 2003 حصلت الولايات المتحدة على دعم مجلس الأمن عبر القرار 1483 الذي شرعن الاحتلال، تماماً كما شرعت عصبة الأمم مؤامرة سايكس بيكو وباركت الاحتلال البريطاني الفرنسي لدول المشرق. ثم بدأت واشنطن مرحلة تطبيق مخطط وهو إقامة فدرالية أساسها الأعراف والديانات. فنشطت المعارضة المتعددة في الإكثار من الكلام عن صيغة الدولة العراقية الجديدة وكان السيناريو الأسوأ هو تقسيم العراق إلى دويلات على النمط الذي تبعته أميركا في يوغسلافيا عام 1995، أو قيام فدرالية تلعب فيها واشنطن الدور الأهم تؤدّي في حالة العراق إلى الشذمة وتؤكد تفوق النموذج الإسرائيلي في خلق كيانات أساسها الدين والعرق وهكذا يتحقّق حلم "إسرائيل" في فكفكة دولة العراق العظيمة ويلغي تفوق العراق السكاني (25 مليون نسمة) ليصبح مجموعة دويلات كلّ منها يضمّ بضعة ملايين، ويكتم نهضة العراق الاقتصادية والعلمية ويضع حدّاً لموقعه الجغرافي.

وفي هذا السيناريو يتعمّم الستاتيكي الأميركي على سائر المشرق في دول عدة عدد سكان كلّ منها قليل وبقدرات عسكرية معدومة لا تشكّل خطراً على "إسرائيل". فلا يعود العراق إلى أحلام دور بروسيا العرب ويتمّ تفجير سورية من الداخل ويتمّ تقسيم ما تقسّم في اتفاقية سايكس بيكو عام 1916.

أراد الأميركيون عراقاً ذا نظام فدرالي يشبه تجربة الولايات المتحدة نفسها، فيحافظ على التقسيم الإداري في 18 محافظة ومع الوقت يتحوّل إلى مجموعة أقاليم فدرالية تتمتع بمجالس محلية مُنتخبة، وتصبح بغداد ولاية مركزية وتمثّل في الحكومة المركزية الطوائف والأعراف. ولكن من المشاكل التي واجهت التقسيم هو عدم صفاء الأقاليم عرقياً ودينياً؛ فشمال العراق فيه منطقة كردية ولكن فيه أيضاً مناطق كبرى من عرب وتركمان وأقليات. وفي المنطقة الوسطى وخاصة بغداد ثمة ملايين من العرب الشيعة وبعض الكرد. والصعوبة الثانية أن فعاليات الأكراد فقط هي التي وافقت على أو سعت للتقسيم والفدرلة. وكان الحزبان الكرديان قد قدّما صيغة فدرالية للعراق توسّع الحكم الذاتي لمناطق الأكراد رغم أن أقصى ما يمكن أن تقبل به الأطراف العراقية هو صيغة حكم إدارية تمنح حكماً ذاتياً للأكراد. وهذا أقل مما منحه لهم نظام البعث منذ السبعينيات.

في بداية حزيران 2003 أعلن جورج بوش "رؤيته" لمستقبل العراق أثناء زيارته للقيادة الأميركية في قاعدة السيلية في قطر وأن أميركا لن تخرج من العراق قبل بناء "نظام ديمقراطي يحميه الاستقرار والأمن والسلام". وسعت الولايات المتحدة إلى عقد مؤتمر عام في بغداد يجمع كافة القوى الفاعلة على الساحة العراقية

ويؤسس لدستور عراقيّ جديد. ولكن الضغوط المتواصلة للفعاليات الشيعة وخاصة آية الله علي السيستاني من أجل انتخابات مبكرة، والضغط العالميّ لانتخابات مبكرة، دفع واشنطن إلى التراجع وإسناد الدور السياسيّ الداخليّ لحكومة انتقاليّة. ولكن الاحتلال عمل على الأرض لخلق بيئة مؤاتية لحكم عراقيّ تابع لأميركا بدءاً بتعيين موظفين في بغداد والمحافظات بميول سياسيّة معيّنة ومنهم محافظون ورؤساء مجالس بلدية وأعضاء مجالس محليّة وذلك لعرقلة انتخاب أشخاص وجماعات مناهضة للاحتلال وتحجيم نفوذ رجال دين وزعماء معادون لأميركا. فلم تسر الأمور بمشيئة أميركا لأنّ الأشخاص الذين عينهم الاحتلال كان بينهم فاسدون وسارقون وعديمو الوجدان.

وكان زلماي خليل زاده، مستشار الرئيس بوش الإبن لشؤون الشرق الأوسط، قد أعلن مشروعاً لإقامة إدارة عسكريّة أميركيّة في العراق تضمن بقاء القوات الأميركيّة لسنوات عدّة. ولكن المقاومة أجبرت الأميركيين على التخلي عن هذا المشروع. ومنذ صيف 2003 أخذ الأميركيون يؤكّدون وأحياناً بشكل أسبوعيّ أنّ هدفهم لن يكون احتلالاً مديداً وأنهم سينقلون السلطة إلى حكومة عراقيةّ منتخبة بشكل ديمقراطيّ. وفي تشرين الثاني 2003، أعلن الحاكم الأميركيّ بول بريمر عن مشروع نقل السيادة جزئياً لحكومة عراقيةّ انتقاليّة في حزيران 2004. وفعلاً في 28 حزيران 2004، وبعد 15 شهراً من الاحتلال، وقّع بريمر وثيقة نقلت بعض السيادة إلى مجلس حكم انتقاليّ. ثم أعلن الأميركيون عن مشروع معاهدة أمنيّة مع الحكومة العراقيّة الجديدة على أن تبقى السلطة العسكريّة بأيديهم ريثما يتمّ بناء جيش عراقيّ. ولكن رفضت الحكومة العراقيّة توقيع أي معاهدة أمنيّة مع أميركا.

لقد كانت واشنطن تعلن ظاهرياً أنّها مع المحافظة على وحدة العراق استجابة للدول العربيّة و"دول الجوار" (أي إيران وتركيا)، في وقت كان مشروعها الفدراليّ واقعاً على الأرض في الدستور الجديد على أساس تقسيم طائفيّ - عرقيّ، بدءاً بإقليم كردستان العراق. والوضع الأمنيّ في كردستان العراق لم يكن مستقرّاً بعدما شرعت المنظمات الكرديّة مباشرة بعد الاحتلال عام 2003 في طرد مواطنين عراقيين من أصول عربيّة، وفلت الأمن حيث استغلّت جماعات كرديّة الغزو وسطت على الأملاك الخاصة والعامة وسرقت البضائع والسيارات وآثاث المنازل ونقلتها إلى مناطق كرديّة. حتى طالب جلال الطالباني بمنع تحويل مدينة السليمانية التي يسيطر عليها حزبه إلى مجمع ضخّم للسيارات والآليات المسروقة من أنحاء العراق.

حكومة انتقاليّة

لم تكن الديمقراطية هدفاً للولايات المتّحدة، لأنّ ذلك قد يوصل حكومة عراقية لا تريد أن تتعامل مع واشنطن ولا تريد أن تعطي الأولويّة للشركات الأميركيّة في العقود الاقتصاديّة. ولذلك عملت إدارة الاحتلال على بناء شبكة علاقات واسعة مع الأطراف العراقيّة ودعمت فئات لتصل إلى السلطة وتبقى وقيّة لأميركا. وهذه الترتيبات تخلق آلية داخل الوزارات العراقيّة لحماية مصالح الولايات المتّحدة. في 16 أيار 2003 تراجع الأميركيون عن نيّتهم تسليم السلطة لمجلس حكم انتقاليّ عراقيّ واستعاضوا عن ذلك بمشروع قرار لمجلس

الأمن الدولي يمنح الولايات المتحدة وبريطانيا سلطات واسعة في حكم العراق ويرفع الحصار الاقتصادي عن العراق. فظهرت مشاعر الخيبة لدى فئات عراقية أيدت الغزو الأميركي كعلماء الشيعة وجمال الطالباني رئيس الاتحاد الوطني الكردستاني. فقد عينت واشنطن إدارة مدنية للعراق برئاسة موظف أميركي وأعلنت هذه الإدارة تأجيل تشكيل حكومة عراقية حتى العام 2005 على الأقل. وفي 13 تموز 2003 تعين مجلس حكم انتقالي عراقي برعاية الاحتلال برئاسة الأميركي بول بريمر. فصدر قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1500 في 14 آب 2003 يرخّب بقيام مجلس الحكم الانتقالي ويصفه أنه خطوة هامة نحو إقامة حكومة عراقية تتمتع بالسيادة⁷³³.

قرارات مجلس الحكم برئاسة علاوي ومقدرتها على سنّ القوانين كانت مرتبهة لسلطة الاحتلال. ومثل المجلس القوى الثماني الرئيسية في البلاد مع شخصيات مستقلة وكان أول سلطة تنفيذية عراقية منذ سقوط نظام البعث. أما الأحزاب الثمانية الرئيسية في مجلس الحكم فكانت: المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وحزب الدعوة الإسلامية والحزب الديمقراطي الكردستاني والحزب الوطني الكردستاني والحزب الإسلامي العراقي وتجمع الديمقراطيين المستقلين وحركة الوفاق الوطني والمؤتمر الوطني العراقي. وضمّ المجلس 25 عضواً منهم 15 مثلوا القوى السياسية و10 مثلوا مستقلين وشخصيات. وكان من أعضاء المجلس الزعيمان الكرديان مسعود البرزاني وجمال الطالباني ومن السنة العرب نصير الجادرجي وعدنان الباجه جه، ومن الشيعة العرب أحمد الجبلي وعبد العزيز الحكيم وإياد علاوي وإبراهيم الجعفري. والتقى هذا المجلس في 13 تموز 2003 بحضور بريمر وممثل بريطانيا جون ساورز والممثل الخاص للأمم المتحدة لشؤون العراق سيرجيو فييرا دي ميلو.

وكانت صلاحيات المجلس محدودة جداً لا تزيد عن التصويت على الميزانية وتشكيل لجنة دستورية مؤلفة من 10 أعضاء لإعداد الدستور، في حين بقيت كل الصلاحيات ومنها تعيين الوزراء وقوى الأمن والمخصصات المالية والشؤون السيادية بأيدي الاحتلال. ولم تكن القوى الممثلة في المجلس على وفاق حول كل المواقف بسبب تعدد الانتماءات وراوحت البيئة السياسية بين إسلاميين متشددين من السنة والشيعة وشيوعيين وليبراليين وقوميين أكراد وتركمانيين ومسيحيين؛ الأمر الذي جعل العام 2003 مرحلة شدّ وجذب بين الأطراف العراقية. فالتنظيمان الكرديان الرئيسيان دعوا بشدة إلى الفيدرالية أساساً للدستور. فيما دعا آخرون إلى إقامة دولة إسلامية على النمط الإيراني، وفضلت أطراف أخرى إقامة نظام حكم تكنوقراطي، ودعا الحزب الإسلامي العراقي والاتحاد الإسلامي الكردستاني إلى إقامة نظام حكم إسلامي يعتمد الشورى.

ورغم أن المجلس اختار إبراهيم الجعفري العضو البارز في حزب الدعوة رئيساً، إلا أن معتدلين من تجمع الديمقراطيين المستقلين ومن حركة الوفاق الوطني وسياسيين أكراداً لم يؤيدوا هذا الاختيار. كما كان ثمة اعتراضات على أحمد الجبلي لأنه بالغ في تأييده العلني للغزو الأميركي واحتلال العراق وتطرّفه بالدعوة إلى عدم إقامة علاقات بين العراق وأقطار عربية معينة في حين كان موقف الأطراف الأخرى بانفتاح على كل الدول العربية.

⁷³³Thabit Abdullah, *Dictatorship, Imperialism, and Chaos: Iraq Since 1989*, Zed Books, London, 2006, pp. 107-118.

وأخيراً خضعت سلطة الاحتلال لضغوط القوى الممثلة في المجلس ولضربات المقاومة، فأعلنت عن حكومة عراقية من 25 وزيراً ضمّت 13 وزيراً من العرب الشيعة وخمسة من العرب السنة وخمسة من الأكراد إضافة إلى تركماني واحد ومسيحي واحد. وتولى المؤتمر الوطني العراقي بزعامة الجلبي وزارة المالية، وأعطيت وزارة الخارجية للحزب الديمقراطي الكردستاني ووزارة الثقافة إلى الحزب الشيوعي، بينما ذهبت وزارة الداخلية إلى حركة الوفاق الوطني بزعامة إياد علاوي⁷³⁴. ولم تنشأ وزارتان للدفاع والإعلام. لقد أفضلت هجمات المقاومة العراقية طموح أميركا بإطالة أمد احتلالها لكي ترتب البيت العراقي على ذوقها، إذ في 15 تشرين الثاني 2003، أعلن بريمر أن حكومة انتقالية عراقية ستسلم الحكم في حزيران 2004 وتشرف على وضع دستور مؤقت وتمهد للانتخابات وأوكل للجنة برئاسة جلال الطالباني مهمة تأليف حكومة انتقالية. وفي آذار 2004 وُضع دستور مرحلي حدّد مهام قيام مجلس وطني مُنتخب في مدّة أقصاها كانون الثاني 2005. كما صدر القرار 1546 عن مجلس الأمن الدولي بالإجماع يدعو إلى "إنهاء الاحتلال ووضع المسؤولية والسلطة الكاملة لإدارة شؤون العراق بيد حكومة انتقالية عراقية سيّدة ومستقلة بحلول 30 حزيران 2004". وفي 28 حزيران 2004 تمّ تحويل بعض السلطات إلى حكومة انتقالية برئاسة إياد علاوي.

الدستور

في كانون الثاني 2005 جرت انتخابات بموجب الدستور المؤقت لـ 275 نائباً كانت مهمتهم الأولى وضع دستور دائم والقيام بمهام تشريع سنّ القوانين، واستمرّ عمل البرلمان المؤقت إلى حين بدء العمل بالدستور الدائم وانتخاب برلمان جديد.

أسفرت هذه الانتخابات عن ظهور عدد كبير من الأحزاب بانتماءات متعدّدة بعضها وطني عراقي وبعضها قومي عربي وعقائدي علماني أو ليبرالي وبعضها الآخر ديني إسلامي أو مذهبي (سني وشيعي) أو إثني (كردي وتركماني وأشوري). كما حصلت تحالفات في الانتخابات وفق لوائح وكتل برلمانية. واعتبر حزب البعث الاشتراكي العربي قطر العراق محظوراً. وحقق التحالف العراقي الموحد الذي يدعمه آية الله علي السيستاني نجاحاً باهراً بفاز بنسبة 48 في المئة من الأصوات في حين فاز التحالف الوطني الديمقراطي الكردستاني بالمرتبة الثانية بنسبة 26 في المئة من الأصوات وفازت القائمة العراقية بقيادة إياد علاوي بنسبة 14 في المئة من الأصوات. وعلى أساس النسبية فاز 12 حزباً ولائحة بمقاعد في البرلمان الانتقالي.

⁷³⁴ كان إياد علاوي عضواً في القيادة القطرية لحزب البعث، إلا أنه غادر إلى بيروت عام 1971 ثم إلى لندن لإكمال دراسته. وفي عام 1973 انتخب مسؤولاً لحزب البعث في أوروبا الغربية وبعض بلدان الخليج العربي، إلى أن استقال عام 1975. أسس تنظيمًا سرّيًا ضمّ تحسين معله وهاني الفكيكي واللواء الركن حسن النقيب والعقيد سليم شاكر والمقدم الطبيب صلاح شبيب، وأعلن عن التنظيم في بيروت عام 1990 باسم حركة الوفاق الوطني العراقي التي أصبح أميناً عاماً لها. اختير عام 2003 عضواً في مجلس الحكم ومن حزيران/يونيو 2004 إلى نيسان/أبريل 2005 رأس حكومة مؤقتة لتخلف مجلس الحكم. ورأس كتلة القائمة العراقية في مجلس النواب وهي تحالف مجموعة من الأحزاب منها حركة الوفاق الوطني والحزب الشيوعي ومجموعة من الشخصيات السياسية.

ولكن هذه الانتخابات التي جرت في ظل الاحتلال الأميركي واجهت مقاطعة حادة من السنة العرب ما أفقد نتائجها الشرعية الشعبية، حيث كانت نسبة المشاركة 2 في المئة من الناخبين في محافظة الأنبار ذات الأغلبية السنية العربية. كما شنت الجماعات المسلحة والمقاومة أكثر من مئة هجوم على مراكز الانتخاب في بغداد وأنحاء العراق منها تسع عمليات انتحارية وسيارات مفخخة وقذائف صاروخية. واستمرت حكومة علاوي إلى نيسان 2005. ثم انتخب البرلمان إبراهيم الجعفري رئيساً للوزراء وجمال الطالبي رئيساً للجمهورية. وكان الجعفري مرشحاً باسم التحالف العراقي الموحد (الذي ضم حزب الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق). وولدت حكومة جديدة في 6 نيسان 2005.

موضوع الفدرالية كان في صلب مفاوضات الأطراف العراقية حول الدستور الجديد عام 2005 رغم اتفاق الجميع على الابتعاد عن التقسيم. ولكن مشروع الفدرلة وجد طريقه إلى التنفيذ وأصبح شأناً دستورياً. واستسلم الأطراف في صياغة الدستور لمزاج الأكراد وتحول منطقتهم إلى إقليم شبه دولة داخل عراق فدرالي. ولذلك خرج الدستور ضعيفاً ذا مضمون طائفي عرقي يعتبر العراق فدرالية ولا يذكر الهوية العربية. وهو بالفعل ما خططت و عملت له الإدارة الأميركية ومراكز اليمين الجديد في واشنطن. وتم الاعتراف بإقليم كردستان العراق ضم محافظات أربيل ودهوك والسليمانية ويتمتع بحكومة محلية له ميليشيا شبه نظامية. وأقر الدستور انتخابات منفصلة للأقاليم الثلاثة الشيعية والسنية والكردية في حال ولادتها عن الانتخابات الوطنية العراقية، كما جرت انتخابات محلية على مستوى المحافظات في كانون الثاني 2009.

عُرف الدستور الجديد العراق بأنه دولة إسلامية، ديمقراطية، فدرالية برلمانية، وأن هيكليّة الدولة تتضمن سلطات تنفيذية (مجلس الوزراء ورئيس جمهورية ومعه مجلس رئاسة) وتشريعية (برلمان أو مجلس ممثلي الشعب ومجلس اتحادي) وقضائية (مجلس القضاء الأعلى، المحكمة العليا، محكمة التمييز، دائرة المدعي العام، ومفوضية الرقابة القضائية ومحاكم فدرالية تخضع لقوانين ومحكمة مركزية للنظر في الجرائم الكبرى) إضافة إلى لجان ومفوضيات عديدة بعضها خاضع للمساءلة البرلمانية (المفوضية العليا لحقوق الإنسان، المفوضية المستقلة العليا للانتخابات، ومفوضية لرقابة القطاع العام). إضافة إلى هذه الهيئات، يُضاف المصرف المركزي العراقي والمجلس الأعلى للرقابة المالية، ومجلس الإعلام والاتصالات ومجلس الإغاثة ومؤسسة الشهداء (مرتبطة بمجلس الوزراء) ومجلس الإدارة العامة الفدرالية المعني بشؤون موظفي القطاع العام من تعيينات وترقيات وتشريعات.

في 15 تشرين الأول 2005 جرى استفتاء شعبي على الدستور الجديد وبلغت نسبة المشاركة 63 في المئة. ووافق 82 في المئة من المشاركين في الاستفتاء على الدستور. ولكن هذا الرقم أخفى فارقاً كبيراً في المشاركة بين محافظة وأخرى. فبينما كانت الموافقة طاغية في صفوف الشيعة والأكراد، كان الرفض طاغياً في صفوف العرب السنة، حيث وصلت نسبة الرفض 82 في المئة في محافظة صلاح الدين و55 في المئة في نينوى الأنبار 97 في المئة، وهي محافظات بأغلبية عربية سنية. ثم جرت انتخابات جديدة بموجب الدستور الجديد في 15 كانون الأول 2005، بقانون النسبية وبكوتا نسائية بلغت 25 في المئة من مجمل المقاعد. وانتخب البرلمان جمال الطالبي رئيساً للجمهورية ونوري المالكي رئيساً للحكومة الذي شكّل حكومة ائتلافية.

في 10 أيار 2007 طلب البرلمان العراقي من الولايات المتحدة أن تتقدم بجدول لسحب قواتها من العراق. ذلك أن قرار مجلس الأمن في أيار 2003 حدّد أن الانتداب الأميركي - البريطاني على العراق ينتهي في 31 آب 2008 ولن يكون بعد ذلك أي عذر لأي قوى أجنبية أن تبقى فيه، ولكي لا يتبخّر حلم السيطرة الاقتصادية الأميركية على خيرات البلاد مع معاهدة عسكرية تجعل من العراق محمية، أخذت الإدارة الأميركية تمارس ضغوطاً متواصلة على الحكومة العراقية قبل أشهر من انتهاء الانتداب لكي توقع "تحالفاً استراتيجياً بين بلدين سيّدين" (وليس معاهدة لأنّ المعاهدة تتطلب موافقة الكونغرس الأميركي) ما يمنح القوات الأميركية حريّات واسعة داخل العراق لشن هجمات والقيام بعمليات عسكرية. فرفض الجانب العراقي⁷³⁵.

وفي آذار 2010 جرت انتخابات برلمانية جديدة لـ325 مقعداً أسفرت عن فوز جزئيّ للقائمة التي يقودها إياد علاوي بـ91 نائباً، تلاها تحالف دولة القانون بقيادة نوري المالكي بـ89 نائباً. وكما حصل في لبنان، فقد أذى الوضع التقسيمي للمجتمع العراقي والاصطفاف السياسي إلى تأخير العملية الديمقراطية. فلم يفتتح البرلمان الجديد إلا في 14 حزيران 2010 ولم يتمّ الاتفاق على حكومة حتى 11 تشرين الثاني من العام نفسه. وأسفرت المفاوضات عن بقاء رئيس الجمهورية جلال الطالباني في منصبه وأصبح نور المالكي رئيساً للوزراء وتمّت تسمية إياد علاوي رئيساً لمجلس أمن جديد. وبدأت واشنطن نقل المسؤوليات الأمنية إلى القوات العراقية والشرطة بموجب اتفاق أمنيّ (Status of Forces Agreement) مع الحكومة العراقية التي ألزمت أميركا ببدء الانسحاب من المدن العراقية خلال فترة زمنيّة تكتمل في حزيران 2009 على أن تنسحب انسحاباً كاملاً مع حلول شهر كانون الأول 2011. يعني أن الحكومة العراقية منحت أميركا سنوات عدّة لسحب قواتها بشكل مريح في حين منحت الولايات المتحدة الجيش العراقي في الكويت عام 1991 48 ساعة لينسحب ثم انقضت عليه أثناء انسحابه العشوائي كما أشرنا ودمّرت.

في حزيران 2009 انسحب الجيش الأميركي من شوارع بغداد وتواصل الانسحاب حتى أعلنت القيادة الأميركية إنهاء عملياتها العسكرية في العراق في 31 آب 2010 كما أعلنت النهاية الرسمية لحرب العراق في 15 كانون الأول 2011 فغادر آخر جنديّ أميركيّ أرض العراق يوم 18 كانون الأول (حدّد الاتفاق أن يتمّ الانسحاب قبل عيد الميلاد في 25 كانون الأول 2011). واحتفل العراق بنهاية الاحتلال الأميركيّ في عيد رأس سنة 2011 في استعراض عسكريّ، إلا أنّ النفوذ الأميركيّ استمر بوسائل أخرى أهمها ارتهان فعاليات وقوى عراقية لواشنطن.

المقاومة العراقية

في 4 أيار 2003 أعلن الرئيس الأميركيّ جورج بوش نهاية العمليات العسكرية الرئيسيّة في العراق في كلمة متلفزة ألقاها من على متن حاملة الطائرات "إبراهام لنكولن" وخلفه يافطة كُتب عليها Mission Accomplished (المهمة تمّت). وكالعادة عملت وسائل الإعلام الأميركيّة على تزوير الحقائق ونشر الأكاذيب، فصوّرت الوضع في العراق على أنّه مؤيد للاحتلال وأنّ الشعب العراقيّ فرح جداً بالجيش الأميركيّ. وكانت

⁷³⁵The Independent, 6 June 2008.

أطراف المعارضة العراقية الخارجية قد صوّرت للإدارة الأميركية أنّ العراقيين سيستقبلون الاحتلال بالورود والقبل ولكنّ أيّ من هذا لم يحصل بتاتاً. بل كانت أعمال القتل والنهب والعنف تحصل في كلّ مكان في الأسابيع الأولى للاحتلال. كما نُهبت مؤسسات الدولة ومكاتب الوزارات ومحتويات المتحف الوطني العراقي الذي فُقدت منه 170 ألف تحفة لا تقدر بثمن. وعاشت مدن رئيسية كبغداد في الظلام بعد انقطاع التيار الكهربائي كما انقطع الهاتف والمياه.

بدأت المقاومة العراقية ضد الاحتلال الأميركي منذ اليوم الأول لسقوط بغداد واتخذت شكلاً تصاعدياً وضمت فئات عراقية ظنّت في السابق أنّ أي حكم آخر غير نظام البعث هو أفضل. إلى أن ذاقت المرّة من الأميركيين⁷³⁶. قسّم الاحتلال العراق إلى أربع مناطق: منطقة شمالية الموصل - كركوك ومنطقة وسطى بغداد - تكريت ومنطقة جنوبية وسطى كربلاء ومنطقة جنوبية البصرة. وتولى الأميركيون السيطرة على المنطقتين الشماليّة والوسطى في حين تولّت بولندا وبريطانيا قيادة المناطق الجنوبية.

لقد تصرّف الأميركيون في الأشهر الأولى لحكمهم المباشر للعراق بإهانة متعمّدة للعراق بدءاً بتفكيك الدولة العراقية التي هي ملك للشعب العراقي وليست مشاعاً خاصاً لصدّام حسين، وبقلة اكتراث للواقع البشري لشعب عانى من الكوارث والويلات لأكثر من عشرين سنة بسبب الحصار والحروب الأميركية. كما أحسّ الناس بإهانة إضافية عندما عين الاحتلال حاكماً أميركياً على العراق هو بول بريمر ممثّم بصلاحيات واسعة شبيهة بصلاحيات صدّام ومتخذاً قصر صدّام في بغداد مقرّاً له.

حتى أنّ بريمر وليس شخصاً عراقياً هو الذي مثل العراق في المنتدى الاقتصادي العالمي في الأردن يرافقه جون تايلر نائب وزير التجارة الأميركي، وليس وزير عراقي. كما سعت واشنطن إلى نهب العراق أثناء الاحتلال وإفادة الشركات الأميركية بعقود في العراق تقرّها سلطات الاحتلال نفسها وليس جهة رسمية عراقية. وفي السنوات الثلاث التي تلت الغزو، عينت الإدارة الأميركية ثلاثة حاكّمين أميركيين على العراق هم جاي غاردنر (نيسان - أيار 2003) وبول بريمر (أيار 2003 إلى 19 نيسان 2004) ونيغروبونتي (نيسان 2004 حتى صيف 2005). وقام بريمر بحلّ حزب البعث بقرار اتخذّه في 16 أيار 2003. ورغم أنّ أعضاء البعث وأنصاره قدّروا بالمليين، إلا أنّ الاستخبارات الأميركية عملت على حرمان هؤلاء من الحقوق المدنية. إلا أنّ ارتباط ثلث الشعب العراقي بروابط عشائرية سبقت الانتماء الحزبيّ عوض حرمان البعثيين من حقوقهم المدنية لأنّ العشائر وخاصة في المثلث السنيّ تعاطفت معهم. وإضافة إلى حظر الحزب، عمدت سلطة الاحتلال إلى تجريد 23 ألف بعثي من الوظيفة العامة، كما أعلنت حلّ الجيش العراقي والأجهزة الأمنية ما حرم مئات ألاف العراقيين من فرص العمل.

وفي نيسان 2003 انقسم العراقيون حول معنى سقوط نظام البعث والموقف من الاحتلال الأميركي:
1. قسم استفاد مباشرة أو مداورة من النظام السابق ومعظمه شريف عمل في القطاع العام وأخلص لبلادهم. فكان تضرّره مباشراً من الغزو ورأى ضرورة في شنّ مقاومة فورية لتحرير العراق من الاحتلال. بعد الغزو وبعد سنوات من الحصار والحروب فرغ العراق من معظم رأسماله البشري. أمّا من بقي في البلاد فقد كانت

Zaki Chehab, *Inside the Resistance: Reporting from Iraq's Danger Zone*, New York, Nation Books, p. xvii.⁷³⁶

الإدارة العامة والحزب أفضل ماوى لتحصيل العيش. ولذلك عندما شرع الأميركيون في تفكيك الدولة العراقية دون اكتراث لمصير الناس وخطر قطع الأرزاق، وجد كثيرون البديل في حمل السلاح ضدّ قوات الاحتلال لأنّ مصالحهم الشخصية تضرّرت⁷³⁷.

2. وقسم عارض النظام السابق كالشيعة والأكراد والأقليات والطبقة الوسطى السنّة العربيّة والإقطاعيّة السنّة العربيّة (والتي حالفت النظام الملكيّ قبل 1958) والحزب الشيوعيّ العراقيّ وبعض القوى القوميّة العربيّة. وهذه الفئات مجتمعة لم تتضرّر مباشرة من الغزو الأميركيّ وإن دفعت ثمن الحروب والحصار وقمع النظام خلال عقود طويلة. ولذلك رأت هذه الفئات ضرورة فسخ المجال لقيام حكومة وطنية وأنّ الأميركيين سيغادرون طواعيّة خلال زمن قصير. وأيدت هذه الفئات مساعي المجلس الانتقاليّ الذي انتمى أعضاؤه إلى مجموعات ضمن هذا القسم (الحزبان الكرديّان وحزب الدعوة وشخصيات مستقلة ومجموعة أحمد الجليبي، الخ). ولكن خلال فترة زمنيّة بسيطة أغلبيّة الشعب العراقيّ رفضت بقاء الاحتلال.

ورغم النصائح من جهات أميركيّة وغربيّة لواشنطن بتقصير فترة الاحتلال ونقل السلطة إلى حكومة عراقية ضمن ستة شهور، إلا أنّ الأميركيين رغبوا في إطالة فترة احتلالهم ولم يكتروا ببناء حكومة عراقية بسرعة، كما فشلوا فشلاً ذريعاً في إعادة الإعمار وإنعاش المجتمع. هذا الوضع دفع فئات عديدة في العراق إلى مقاومة الاحتلال الغربيّ بشتى الوسائل، بعضها سلميّ عن طريق التظاهر وبعضها عسكريّ⁷³⁸. وكتب باتريك سيل في حينه أنّه ما لم تخرج أميركا طواعيّة وخلال فترة معقولة، فإنّ مقاومة عراقية مشروعة بموجب المادة 51 من شرعة الأمم المتّحدة التي تعترف بحق الدفاع عن النفس ضد عدوان خارجيّ ستبدأ. كما أكّدت الفقرة الرابعة من المادة الأولى في البروتوكول الاضائيّ لاتفاقيّة جنيف الرابعة بـ"حق مقاومة أي هيمنة أو احتلال أجنبيّ في إطار حق تقرير المصير".

لقد أصابت نشوة الولايات المتّحدة بعدما سيطر جيشها على بغداد وضواحيها، فازدهرت أحلام السيطرة على البترول العراقيّ والإشراف على خصصته بما يضمن الأرباح لشركاتها والاستفادة من أموال إعادة الإعمار لكي تتسلّمها شركات أميركيّة. وقلل باتريك سيل من فرص نجاح الولايات المتّحدة في تحقيق مآربها لأنّ الشعب العراقيّ وطنيّ حريص على إعادة بناء بلاده وإعادة مكانتها كدولة عربيّة كبرى بعد ما عانته من حروب وعقوبات⁷³⁹. فكانت تباشير المقاومة الرّدّة الأولى على الاحتلال.

لم تدم نشوة الانتصار الأميركيّ. إذ منذ الأسبوع الأول من نيسان 2003 شرع الشعب العراقيّ في مقاومة الاحتلال وبات مقتل وجرح الجنود الأميركيين والبريطانيين وتدمير أليّاتهم العسكريّة في بغداد وجوارها وفي البصرة حدثاً عادياً. ومنذ بداية حزيران 2003 شهد فصل الصيف تصاعد أعمال المقاومة حتى أصبحت شأنًا يوميّاً طيلة تسع سنوات. وسرعان ما ظهر الجزع والتردّد على الأميركيين الذين صُدّموا بالمقاومة وبرفض الشعب وجودهم. وكان خوف الاحتلال بادياً إلى درجة أنّ بعض العراقيين ظنّ في نهاية 2003 أنّ الاحتلال سينسحب ويعود نظام البعث بقيادة صدام المتخفّي داخل العراق. ولكن قلّل من هذا الاحتمال وقوع صدام

Zaki Chehab, *Inside the Resistance*, p. 129.⁷³⁷

Zaki Chehab, *Inside the Resistance*, p. 69.⁷³⁸

⁷³⁹ الحياة 30 أيار 2003.

في قبضة الجنود الأميركيين في نهاية العام. فبدت طريق المقاومة طويلة وكان نفس الأميركيين طويلاً أيضاً استعدا استحضار قوى أجنبية وإضافية ومرتزة تعمل في "شركات أمنية".

وإضافة إلى عمليات المقاومة، وقعت سلسلة انفجارات دموية في بغداد والنجف، كان أولها في السابع من آب على السفارة الأردنية أسفر عن سقوط 11 قتيلاً وعشرات الجرحى. ثم انفجار في مركز الأمم المتحدة في بغداد في 19 آب أسفر عن مقتل 23 شخصاً بينهم سرجيو فييرا دي ميلو، مسؤول الأمم المتحدة في العراق. فانفجار ضخم أمام مقام الإمام علي في النجف يوم 29 آب 2003 أسفر عن مقتل 130 شخصاً بينهم السيد محمد باقر الحكيم، زعيم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق. ولتخريب محاولات الاحتلال إعادة عجلة الإنتاج النفطية للاستفادة من عائدات النفط قام رجال المقاومة بتفجير محطات تكرير النفط وخطوط الأنابيب. فقد سعت الولايات المتحدة إلى زيادة الإنتاج إلى 5 ملايين برميل في اليوم، ولكن عملياً لم يتجاوز الإنتاج عام 2004 عن 2.2 مليون برميل يومياً ثم انخفض عام 2005 إلى 2.1 برميل يومياً.

وبعد أن فرض الاحتلال حلّ الجيش العراقيّ عمداً عدد كبير من الضباط والعناصر إلى الانتظام في إطار المقاومة العراقية والمساهمة في عمليات تراوحت بين عمليات قنص ضد الاحتلال إلى عمليات انتحارية على نقاط التفتيش وكماثن وقصف. حتى وصل عدد قتلى القوات الأميركية إلى أكثر من 120 شهرياً وعدد الجرحى المئات. وفرضت المقاومة على الأميركيين احترام الشعب العراقيّ وعدم أذيته المجانية كما أجبرت المقاومة في لبنان الاحتلال الإسرائيليّ. ففي البدء تعامل الاحتلال بعنجهية واستبداد مع الناس حيث كان الجنود الأميركيون والمرتزة يطلقون رصاص رشاشاتهم على المواطنين حتى لو كانوا في تظاهرات سلمية ضد الاحتلال⁷⁴⁰. ولكن مع مرور الوقت بات الاحتلال أكثر حذراً في القتل المجانيّ. وفي حادثة دالة فتح الجنود البريطانيون في جنوب العراق النار على تظاهرة فقتلوا أربعة عراقيين. ورداً على هذه الجريمة قتل رجال المقاومة ستة جنود إنكليز.

في 17 حزيران 2003 أعلن الجنرال الأميركيّ جون أبي زيد أنّ "ما يحصل في العراق هو حرب غوار كلاسيكية ضد قواتنا". واعترف بول وولفوفيتز نائب وزير الدفاع أمام لجنة الكونغرس في 18 حزيران بهذا الواقع أنّ "حرب غوار ضدنا في العراق ولكننا ننوي الفوز بها". ولذلك بدأت سلسلة عمليات أميركية كبرى على مناطق انتشار المقاومة بدءاً بعملية الفلوجة. بدأت عملية الفلوجة في 5 نيسان 2004 واستمرت حتى 22 منه. ولكنّ القوات الأميركية تدعمها قوى مرتزة من الشركات الأمنية الخاصة لم تفلح في السيطرة عليها رغم استعمال الدبابات والطائرات ضد رجال المقاومة المسلّحين تسليحاً خفيفاً واضطر الجيش الأميركيّ للانسحاب. ولحفظ ماء الوجه سلّم الأميركيون مواقعهم لجنرال عراقيّ سابق، مع علمهم أنّ العناصر التي تتبعه قد تكون إلى جانب المقاومة. وكما كان يحصل في لبنان إبّان الاعتداءات الإسرائيلية، قصف الأميركيون مراكز عبادة ومدارس ومستشفيات ومؤسسات عامة ومنازل في الفلوجة أثناء الحملة بحجة ضرب المقاومة. وانتشرت اللافتات في شوارع الفلوجة تعلنها أوّل مدينة محررة انتصرت على الولايات المتحدة. وانطلقت الهتافات تحيي المقاومة البطلة.

⁷⁴⁰Thabit Abdullah, *Dictatorship, Imperialism, and Chaos: Iraq Since 1989*, Zed Books, London, 2006, pp. 97-101.

بعد انتهاء العملية طوّقت القوات الأميركية الفلوجة بإقامة سواتر ترابية لسدّ الطرقات الرئيسية ولم تستثن الأحياء السكنية من قصفها حيث أدّت غارة جوية على المدينة إلى مقتل 22 مواطناً معظمهم من النساء والأطفال يوم 19 حزيران 2004. وكان موقف إياد علاوي، الذي ساعد الاحتلال في مراحل عدّة قبل الغزو وأصبح رئيس مجلس الحكم، مخزياً حيث ندّد بالمقاومين ودعا المدينة إلى تسليمهم وإلا ستواجه القصف الجوي الأميركي، ما ذكّر بحروب "إسرائيل" على غزة في منتصف عام 2008 وموقف السلطة الفلسطينية. ولم يكن حال الاحتلال أفضل في جنوب البلاد. ففي 26 شباط قتل صاروخ أميركي على بلدة اسكندرية العراقية 53 شخصاً.

وقامت جماعة مقتدى الصدر بتظاهرات وأعمال احتجاج ونصبت كميناً للاحتلال في مدينة الصدر في بغداد أسفر عن مصرع ثمانية جنود أميركيين⁷⁴¹. وفتح جنود الاحتلال النار على المتظاهرين مراراً وقتلوا العشرات واعتقلوا المئات. وأعلن الصدر الانتفاض ضد الاحتلال الغربي في أنحاء العراق. وفي الأيام التالية اندلعت اشتباكات بين السكان وقوات الاحتلال في مدن جنوب العراق وخاصة في كربلاء والكوت والناصرية والبصرة. عندها أعلنت سلطات الاحتلال أنها ستعتقل مقتدى الصدر بتهمة قتل الشيخ عبدالمجيد الخويّ المتعاون مع الاحتلال، فتصاعدت التظاهرات والمواجهات ضد الأميركيين والإنكليز. وفي الوقت عينه عمّم الصدر على أتباعه في ميليشيا "جيش المهدي" أن لا ينسّقوا نشاطاتهم بعد اليوم مع جيش الاحتلال وأن يهاجموا القوات الغربية. فاستطاعت الميليشيا السيطرة على عدد من مدن الجنوب يعاضدها السكان والشرطة وقوى الأمن العراقية⁷⁴².

واستطاع "جيش المهدي" بعد معارك مع الاحتلال أن يسيطر على معظم مدن الجنوب. وعلى سبيل المثال، فرّت الكتيبة الأوكرانية من الكوت بعد تعرّضها لقذائف مدفعية كثيفة، في حين انسحبت الكتيبة الإيطالية ولجأ عناصرها إلى الناصرية، كما احتلّ جيش المهدي مقرّ المحافظ في البصرة، وتمّ حصار الكتيبتين البولندية والبغارية في كربلاء. فاضطرت القوات الأميركية إلى إرسال مجموعات دعم في عدد من مدن الجنوب باستثناء النجف والكوفة. ثم حاصر الأميركيون النجف بـ2500 جندي بهدف جلب الصدر "حيّاً أو ميتاً". وبعد أسابيع، وإزاء جمود الوضع، حزم الأميركيون أمرهم وقرروا اقتحام النجف في أيار 2004. بدأت معركة النجف بغارات أميركية على المساجد والمقامات التاريخية، واستعمل الأميركيون قصفاً مدفعية ودبابات وأسلحة ثقيلة في معارك دارت في أحياء شعبية. ما سبّب خراباً كبيراً وقتل وجرح الكثير من الناس.

كما اشتعلت معارك خارج الكوفة، واستطاعت ميليشيا جيش المهدي من السيطرة على قاعدة الكتيبة الإيطالية في الناصرية. ورغم أن الاحتلال ادعا أن مقتدى الصدر لا يتمتّع بشعبية ودعم كبيرين، إلا أن خروج مئات الألوف لنصرته واشتداد وطيس المعارك بين تنظيمه وجيوش الاحتلال وحرص كبار رجال الدين الشيعة على عدم لومه في شيء، دحض الدعاوى الأميركية. وأظهر استفتاء شعبي في أواسط أيار أن ثلثي الشعب العراقي من كلّ الفئات الدينية يؤيد انتفاضة مقتدى الصدر.

Anthony Shadid, *Night Draws Near: Iraq's People in the Shadow of America's War*, new York, Henry Holt and Company,⁷⁴¹

2006, pp. 350-390.

Zaki Chehab, *Inside the Resistance*, p. 149-179.⁷⁴²

وإذ هدأ الوضع نسبياً، دعا الصدر في آب 2004 إلى انتفاضة ثانية ضد الاحتلال. فتحرّكت ميليشيا المهدي في مدينة الصدر في بغداد وفي النجف، وقام الأميركيون بقمع المهديين في النجف مجدداً وفق خطة موضوعة سابقاً استعملوا فيها طائرات الهليكوبتر. فأدّت أساليب القمع السريع إلى مقتل وجرح المئات من جيش المهدي الذي تراجع أمام الزحف الأميركي في النجف إلى أن وصل الأميركيون إلى محيط مقام الإمام علي الذي اتخذته مقتدى الصدر مركزاً لقيادته. عندئذٍ قرّر المهديون المواجهة فدارت معركة دامية. وجرى اتفاق على تحييد المقام وخروج الصدرين، فتّمت السيطرة للأميركيين على النجف. وفي أيلول 2004 تراجعت حدّة العنف في حي "مدينة الصدر" في بغداد حيث سلّم المهديون أسلحتهم. وفي تلك الفترة عُثر على مدفن كبير في الرمادي وداخله 350 جثة من أبناء المدينة وأتهم الأميركيون بهذه المجزرة.

ومنذ العام الأول للاحتلال، انتشرت عمليّات الخطف على شكل واسع في أنحاء العراق وخاصة ضد الأجانب. وأعلنت منظمتا التوحيد والجهاد الإسلاميّ المسؤوليّة عن الكثير من هذه العمليّات. وفي تشرين الأول 2004 أعلنت هذه الجماعة تغيير اسمها إلى "تنظيم القاعدة في العراق" بقيادة فلسطيني أردني يدعى أبو مصعب الزرقاوي. فمارست قطع رؤوس المخطوفين وإعدامهم بطلاقات في الرأس. كما أنّ عدداً من المخطوفين تم إطلاق سراحه لقاء فدية. وطالت عمليّات الخطف عراقيين في مناصب رفيعة أو يملكون المال.

صُدّم الاحتلال الأميركيّ بانتفاضات الفلوجة وبغداد والجنوب، فطلب الجنرال أبي زيد في نيسان 2004 إرسال قوى أميركيّة إضافيّة على وجه السرعة، خاصة أنّ عدداً كبيراً من قوى الأمن العراقيّ قد ترك مواقعه والتحق بالمقاومين.

حرب العصابات كانت كافية لمنع الاحتلال من إحراز تقدّم سريع للهيمنة على العراق. ولم تكن المقاومة تتمتع بشعبية واسعة في السنوات الأولى للاحتلال لأنّ عمليّاتها وردود الفعل الأميركيّة العنيفة من حصار وقصف وتعذيب وتنكيل خلقت حالة من اللااستقرار دفعت العراقيّين إلى قبول الوجود الأميركيّ إلى حين تأمين الاستقرار وبعدها يجب أن يخرجوا. في حين كانت المقاومة تريد انسحاباً أميركيّاً فوراً وتسعى من عمليّاتها إلى تحقيق هذا الهدف⁷⁴³. كما أنّ الدول العربيّة المهمة كالسعودية ومصر، ومعها دول الخليج والمغرب، كانت إلى جانب الاحتلال الأميركيّ، في حين منعت الدول العربيّة التظاهرات لنصرة الشعب العراقيّ. ولم يقف إلى جانب المقاومة العراقيّة من الدول العربيّة رسمياً سوى سورية وفعاليات لبنانية وفلسطينيّة رغم أنّ وضعها كان صعباً، بينما معظم الدول الأخرى إنّما ساهمت في الغزو بطريقة أو بأخرى كما فعلت في حرب الكويت عام 1991.

لقد عمدت فئات مسلّحة إلى حرق وتفجير منشآت نفطيّة في شمال العراق وخاصة في نواحي كركوك والموصل حتى لا يستتب الأمر لنهب الثروة النفطيّة ولبعثرة جهود الاحتلال في فرض الأمن. فردّ الأميركيون بحملات قمع واسعة شملت بلدات وقرى عديدة أدّت إلى مقتل آلاف العراقيّين وأسر وجرح عشرات الآلاف. وعرقلت المقاومة مسألة إعادة الإعمار التي خطّطت لها الدوائر الأميركيّة، فأصبح القضاء على المقاومة الشغل الشاغل

Anthony Arnove, *Iraq: The Logic of Withdrawal*, New York, The New Press/Norton, 2006, pp. 55-64.⁷⁴³

لقوات الاحتلال، إذ أصرت الولايات المتحدة على إنهاء المقاومة واستخدمت وجود المقاومة ذريعة لإبطاء الحل السياسي وإعادة السلطة الوطنية إلى البلاد.

في سنواتها الأولى اقتصرت عضوية المقاومين على مناهضي الاحتلال وحزب البعث وامتطوعين عرب وآخرين. وتركزت عمليات المقاومة ضد جيوش الاحتلال وضد العراقيين المتعاونين معهم. وإذ كانت أعنف العمليات وأكثرها في "المثلث السني" شمال غرب بغداد، استغل الأميركيون الوضع الديمغرافي المذهبي والعرقى لإثارة النعرات وتآليب العراقيين ضد بعضهم البعض. كما أن أعمال المقاومة العراقية اعترتها عمليات قامت بها حركات أصولية مسلحة، واختلط هدف تحرير العراق بهدف منع قيام أي سلطة عراقية متعاونة مع الأميركيين يكون فيها للشيعية والأكراد نفوذ كبير. ما جعل زعزعة السلم الأهلي هدفاً في نشاط بعض هذه الجماعات لأنها كانت تمنح الاستقرار وقيام دولة جديدة على أيدي الأميركيين.

السيناريو الأميركي المتفائل الذي طالما رذده بوش ورمسفلد وكوندليزا رايس وكولن باول خلال صيف 2003 افترض فترة زمنية تبرد معها المقاومة ويتوصل الأميركيون إلى صيغة لخطة عمل مع الفعاليات العراقية تضع جدولاً زمنياً لتسليم السلطة إلى عراقيين متعاونين معهم في مجالات الاقتصاد والجيش والسياسة الخارجية. أما السيناريو المتشائم فافتراض استمرار انعدام القانون وسيطرة الفوضى والنهب والغوغاء إلى جانب أعمال المقاومة لسنوات طويلة. ويبدو أن سنوات الاحتلال التسع كانت بين السيناريوين أي فوضى أمنية ومقاومة جنباً إلى جنب مع مراحل تثبيت النظام السياسي الجديد. لقد فرضت المقاومة على الاحتلال صيغة حرق المراحل. فبعدما عيّنت أميركا سلطة احتلال عام 2003 وظنت أن هذا الأمر سيستمر لسنوات، أُجبرت سريعاً على نقل بعض السلطات إلى حكومة عراقية انتقالية في حزيران 2004 ثم إلى حكومة عراقية منتخبة في تشرين الأول 2005.

ولم تكن المقاومة منظمة. فقد كان عدوها قوات الاحتلال وأي أجنبي أو عربي أو عراقي يتعاون معها من قريب أو بعيد. ولكن استهداف عراقيين كان عشوائياً أحياناً بتعميم تهمة العمالة على جماعات بأسرها ما أسبغ بعداً طائفيّاً على العمليات. كما دخلت على الخط عصابات متطرفة كانت تقتل الكثير من الخلق من منطلق طائفي. فحلت الفوضى وانتشرت العصابات الإرهابية المسلحة تنشر الموت والخراب في كل مكان وتؤجج النزاع الطائفي بين السنة والشيعية وتهاجم وتدمر المقار الدينية ولا تستثني الجماعات الأقلوية وخاصة المسيحية فتفجر كنائسها وتقتل أفرادها ورموزها. وحتى الأقليات الدينية كالأزيدية والماندائية تعرضت للأعمال الإجرامية. وطيلة سنوات الاحتلال غرق العراق في بحر من الجرائم من قتل وتخريب وخطف ونهب وتفجيرات وسيارات مفخخة وقصف صاروخي ومعارك بالأسلحة الرشاشة.

لقد اكتشفت الولايات المتحدة أنها لن تستطيع ضبط الوضع ومواجهة كل أعمال العنف التي كانت تقع جنباً إلى جنب مع نشاطات المقاومة العراقية. وبدأت بزيادة حجم قواتها على الأرض، فشلت فشلاً ذريعاً لأن الوضع الأمني لم يتحسن الا نسبياً. وشنّ الاحتلال عمليات عسكرية كبرى هي أقرب إلى غزو ضد مناطق سقطت بأيدي المقاومة. ولكن هذه العمليات على طريقة فيتنام بين جيش أميركي وقوى فييت كونغ على الأرض لم تُثمر كثيراً إلى حد أن في معركتي الكوفة والبصرة لم يحسم الأمر الا بحل سياسي فرض على الأميركيين

الانسحاب. وفي الواقع إن أيّ تقدّم نحو الاستقرار لم يحصل الا بعد نقل الكثير من السلطات إلى حكومة عراقية، تحت ضربات المقاومة العراقية التي لم تتوقف. وخلال أربع سنوات كانت المقاومة قد نجحت في إقناع الولايات المتحدة أنها عاجزة عن السيطرة على الأرض وعن إطالة الاحتلال.

مراحل المقاومة

مباشرة بعد الاحتلال، بدأ قادة البعث وبعض أجهزة الدولة السابقة من الجيش والأمن ينتظمون في جبهة مقاومة واسعة ضد الاحتلال وخاصة في الفلوجة وكركوك والموصل. وفي محاولة لفرض السيطرة، قامت قوات الاحتلال بحملات واسعة لضرب رموز نظام البعث السابق، وبعمليات للبحث عن قياداته السياسيّة والحزبيّة والعسكريّة فاعتقلت أو قتلت أكثر من 200 قيادي⁷⁴⁴. ومع حلول خريف 2003 اتّسع نطاق جماعات المقاومة ليشمل قوى أطلقت على نفسها تسمية "الجهاديين" وكذلك قوى شيعة في المدن الكبرى من بغداد إلى البصرة.

استعملت المقاومة العراقية في مرحلتها الأولى أسلوب الكمائن المسلّحة والهجمات الانتحاريّة والسيارات المفخّخة ضد قوى الاحتلال ونقاط التفتيش والحواجز ومدركات الهمفي. وسرعان ما تطوّر عمل المقاومة في تشرين الثاني 2003 فباتت تستعمل الصواريخ ومنها المحمولة على الكتف ونجحت في إسقاط طائرات هليكوبتر أميركيّة وأخرى ميدانيّة لضرب قواعد الاحتلال ومراكز المتعاونين معه من العراقيين. وفي ربيع 2004، بعد عام من الاحتلال، استنتج الأميركيون أنّ المقاومة لم تتراجع أو تستكين والأمن لم يستتب. فقرّر الجيش الأميركيّ شنّ حملة على المقاومة وخاصة في الفلوجة وحملة أخرى على النجف. وتزامنت حملة الفلوجة بعدما افتضح أنّ الولايات المتحدة تتكل على مرتزقة من جنسيات مختلفة تحت غطاء شركات أمنية ومنها شركة Blackwater USA. فقد قتل المقاومون عناصر من هذه الشركة في الفلوجة، ما اعتبرته قوات الاحتلال فتيلاً لشنّ هجوم واسع بغية القضاء على بؤر المقاومة. ولكنهم فوجئوا أنّ مقاومة الفلوجة كانت خصماً شرساً استطاعت قتل 40 جندياً أميركياً وجرح 300 من المهاجمين. وغضب الأميركيون من أنّ التمشيط الأرضي لم ينفع، فانتقموا من المدينة وقاموا بإعدامات ميدانيّة وقتلوا الناس في بيوتها وفي الشوارع، حتى فاق عدد القتلى من المواطنين العراقيين المئات والجرحى بالآلاف.

⁷⁴⁴ عثر الأميركيون على صدام حسين في 13 كانون الأول 2003. وفي العام 2006 أصدرت محكمة عراقية حكم الإعدام بحقه فأعدم شقاً في 30 كانون الأول 2006. ثم صدرت أحكام مماثلة بحق مجموعة من قادة النظام السابق، منهم برزان حسن رئيس جهاز أمني سابق وأخ صدام غير الشقيق، وعواد حامد البندر رئيس المحكمة الثوريّة السابق وطه ياسين رمضان نائب رئيس الجمهورية. فأعدموا جميعاً في الأشهر الأولى من عام 2007 بتهمة جرائم ضد الإنسانية. ثم جرت محاكمة "مجزرة الأنفال" التي وقعت عام 1988 أثناء الحرب العراقية الإيرانية وتخلّلتها استعمال الأسلحة الكيماويّة ضد المواطنين الكرد. فصدرت أحكام ضد سلطان هاشم أحمد الطي وزير الدفاع السابق وحسين رشيد محمد نائب الرئيس ونقذ الحكم في 24 حزيران 2007. وحوكم علي حسن المجيد (ابن عم صدام) ليس لدوره في عملية الأنفال فقط بل في قمع ثورة الشيعة في جنوب العراق عام 1991 وفي اغتيال السيد محمد الصدر عام 1999. وأعدم في 25 كانون الثاني 2010.

وأخذت الحكومة العراقية الانتقالية تطالب بوقف الحملة الأميركية الا أنّ الحملة استمرت سعياً إلى تحقيق إنجاز ميدانيّ يحفظ ماء الوجه للجيش الأميركيّ. ولكن أيّ إنجاز لم يحصل وأقصى ما توصل إليه الجيش الأميركيّ في الفلوجة هو هدنة باتفاق هزيل توافق فيه المقاومة على وقف إطلاق النار ما يسمح للأميركيين بالانسحاب. وتصاعدت عمليّات المقاومة في أيار وحزيران 2004 بشكل لم يعتده الأميركيون. حتى أنّ القوى العراقية التي أولجت بأمن الفلوجة تفرّقت عناصرها وعادت المدينة إلى سيطرة المقاومة.

أما في المناطق الشيعية في جنوب البلاد، فقد توجّهت أيضاً حملات أميركية كبيرة لتأديب المقاومين وفرض السيطرة. وكانت المقاومة تحقّق انتصارات ميدانية سريعة ضد وحدات تابعة لإسبانيا والسلفادور وبولندا، خاصة في النجف والكويت، ما تطلّب نقل قوات أميركية لدعم تلك الوحدات. كما عجزت القوى البريطانية عن إثبات وجودها في البصرة، فقد خافت من المقاومة وخفّفت الدوريات وتجنّبت الظهور أمام العراقيين.

أجبرت المقاومة العراقية الأميركيين بعد عام من الاحتلال على الموافقة على نقل السلطة إلى العراقيين وصدر قرار مجلس الأمن رقم 1546 في حزيران 2004 بنقل السيادة جزئياً لحكومة تصريف أعمال عراقية. وحتى في بغداد تمكّنت ميليشيا "جيش المهدي" من السيطرة على بضعة أحياء من العاصمة وعجز الاحتلال عن منعها. وقام أنصار الصدر بتسيير تظاهرات شعبية ضخمة تندّد بالاحتلال وتطالب بخروج الأميركيين. وكما في الفلوجة لم يحسم الأميركيون الوضع في النجف بل توصلوا إلى هدنة عبر مكتب السيستاني في آب. وانتفاضة الصدر كانت السبب في إفشال خطة الأميركيين بتنصيب أحمد الجبليّ رئيساً للحكومة الانتقالية، فاستُبدل بإياد علاوي. وحاولت حكومة علاوي تثبيت سلطتها على الأرض بموجب صلاحيّات محدودة من قوى الاحتلال، فحاولت بسط الأمن على المدن الرئيسية ومحطات النفط. ولكن ضعف الجيش العراقيّ وتضعف أجهزة الأمن العراقية واستمرار أعمال المقاومة وشح المال في الخزينة أفضل طموح حكومة علاوي في تحقيق إنجازات.

ومع قدوم خريف 2004، تبيّن أنّ العراق تحوّل أربع مناطق نفوذ: إقليم حكم ذاتي للأكراد في الشمال الشرقيّ. حكومة عراقية انتقالية في بغداد بإشراف أميركيّ. جيش احتلال أميركيّ مباشر منتشر في المدن الرئيسية وفي قواعد، إضافة إلى وحدات رمزية من دول أجنبية أخرى. وحركات مقاومة تسيطر على مناطق تفرض عليها أمنها الذاتيّ. وحتى في المدن الكبرى بات للمقاومة بؤر نفوذ - أحياء وشوارع - جنباً إلى جنب مع قوى الاحتلال وقوى الحكومة الانتقالية. ورغم تهديد علاوي بأنه سيسحق المقاومة ويُنهيها بمساعدة الأميركيين الا أنّ الوضع على الأرض فرض على الحكومة التفاوض مع المقاومة في كلّ حين.

والجدير بالذكر أنّ الخسائر البشرية للاحتلال أثناء الغزو في ربيع 2003 لم تزد عن 132 قتيلًا، في حين استطاعت المقاومة العراقية قتل 5000 جنديّ أميركيّ ومتعدّد الجنسيّة. في معركة الفلوجة هذه اعترف الأميركيون بمصرع 92 جندياً أميركياً وجرح خمسمئة. ولكي يحفظوا معنويات جيشهم ذكر الأميركيون أنّ قواتهم قتلت ألفي مقاوم عراقيّ. ولكن مصادر إعلامية قالت إنّ معظم قوى المقاومة كانت قد غادرت المدينة قبل دخول الأميركيين وإنّ معظم من قتلهم الأميركيون كانوا من المدنيّين. وبثّت وسائل الإعلام مشاهد

جنود أميركيين يقتلون مدنيين عراقيين عزّل بدم بارد أو يدخلون منازل فيها نساء وأطفال ويفتحون نيران أسلحتهم دون التأكد من في داخلها.

وفي هجوم أميركيّ على مدينة الموصل في تشرين الأول 2004، وقعت معركة كبيرة بين المقاومة والجيش الأميركيّ مدعوماً من ميليشيا البشمرا الكردية. فاستطاعت المقاومة قتل عدد كبير من الجنود الأميركيين هناك أيضاً والصمود. فلم يمض العام 2004 حتى غيّر الأميركيون استراتيجيتهم العسكرية وقرروا تحاشي مواجهة المقاومة في عمليات ميدانية واسعة بل عمدوا إلى التركيز على تدريب الجيش العراقي ليقوم هو بلجم المقاومة فيقتل عراقيون عراقيين، فيما تخفّف قوى الاحتلال من ظهورها العلني وتتجمّع في قواعد ومعسكرات. وأمر القائد الأميركيّ الجنرال جورج كيسي قوى التحالف الغربيّ في العراق أن تضع ثقلها في تأهيل قوى عراقية نظامية تقوم هي بمكافحة المقاومة.

وأمل الأميركيون أنّ إجراء انتخابات برلمانية سيخفّف من شعور الشعب العراقيّ بأنّه واقع تحت الاحتلال. وبعد الانتخابات العراقية في 30 كانون الثاني 2005 وقيام حكومة، تراجع مستوى العنف لأشهر عدّة وانخفضت عمليات المقاومة من 70 في اليوم إلى 30 عملية. ولكن المقاومة لم تصبر طويلاً لأنّ الأميركيين اكتفوا بالانتخابات واستغلوا الهدوء النسبيّ ولم يعلنوا عن أي خطة للانسحاب، فعدت وتيرة المقاومة إلى التصاعد وكان شهر أيار 2005 الأكثر عنفاً منذ الغزو. ثم شنت سلطة الاحتلال حملة الربيع أسمتها "عملية Matador" (أي مصارع الثيران) في المناطق ذات الكثافة العربية السنية غرب وشمال غرب بغداد بعدما ازداد دخول المتطوعين العرب والأسلحة والمساعدات من سورية إلى العراق. وساهمت مشاركة متطوعين عرب وقدم أسلحة في اشتداد عود المقاومة العراقية في تلك المنطقة إذ كثرت عمليات المقاومة من تفجير وقصف صاروخي ومعارك في المدن استعمل أثناءها المقاومون معاطف واقية للرصاص وأظهروا قدرات قتالية محترفة. وكانت النتيجة مصرع 79 جندياً أميركياً وجرح مئات المارينز مقابل مقتل 125 من المقاومين.

استغرق تأليف حكومة عراقية جديدة معظم العام 2006 ورافق ذلك استمرار عمليات المقاومة وهجومات إرهابية على أهداف مدنية على أساس مذهبيّ بين سنة وشيعة. وكان العنف الطائفيّ يتعاظم ما أضفى صبغة الحرب الأهلية على أحداث العراق. وكانت فرق إعدام تجوب أحياء المدن الرئيسية وتقتحم البيوت وتقتل المدنيين على أساس مذهبيّ، حيث قُتل 7000 شخص خلال الأشهر الثلاثة الأولى من 2006، منهم 1313 في شهر آذار، في حين قتلت العمليات الانتحارية ما مجموعه 500 مدنيّ منهم 173 في آذار. وأكثر من نصف القتلى المدنيين في هذه الأشهر الثلاثة كانوا في بغداد نفسها، في حين ناهز عدد القتلى المدنيين في بغداد خلال شهر نيسان 2006 عدد 1100 شخص، حتى تحوّل العراق مستنقع عنف بدون أفق، ومسؤولية أميركا في حفظ الأمن تبخّرت. وإذا كان الأميركيون قد غرقوا في مستنقع العراق فإنّ البريطانيين فضّلوا الخروج السريع متى كان ذلك ممكناً. ففي 12 تموز 2006 سلّموا محافظة المثنى للحكومة العراقية. وهي المرة الأولى التي ينسحب فيها الاحتلال من أرض عراقية منذ 2003 كما كانت "إسرائيل" تنسحب تحت ضغط المقاومة في جنوب لبنان من مناطق مختلفة تدريجياً. ورافق الانسحاب البريطانيّ إعلان السفير الأميركيّ في بغداد زلماي

خليل زاده ومعهِ الجنرال كيسي أنّ انسحابات مشابهة ستم من محافظات أخرى كلّما سمحت الظروف الميدانية ذلك. فاحتفلت الحكومة العراقية بهذا الإنجاز الأول على طريق التحرير. وبعد أسبوع، أي في 20 تموز 2006، سلّمت قوى الاحتلال للحكومة العراقية قاعدة 101st Airborne Division Main Command Post في محافظة نينوى. وتلى ذلك انسحاب 1200 جندي بريطاني من قاعدة قرب العمارة في محافظة ميسان في الجنوب وذلك في 24 آب 2006. وكانت القاعدة البريطانية هدفاً دائماً لعمليات المقاومة التي أجبرت البريطانيين على الانسحاب من المحافظة وتسليمها للحكومة العراقية. وإذ وصف مقتدى الصدر الانسحاب من ميسان بأنها لم تكن بمشيئة الاحتلال "بل كانت عملية طرد للمحتل.. ويجب أن نحتفل بهذه المناسبة". تجاوب معه سكان العمارة وهاجم 5000 شخص، منهم مقاومون مسلّحون، القاعدة البريطانية، فحطّموا القاعدة رمز الاحتلال الذي أفقرهم وأذلهم. ثم سيطر على الموقع 450 جندياً عراقياً.

ورغم زعم القيادة الأميركية أنّ الوضع يتجه نحو الهدوء، فإنّ المعارك والتفجيرات في أنحاء العراق تواصلت طيلة صيف وخريف 2006 واجهها الاحتلال بعمليات تمهيط واسعة وخاصة ضد المناطق ذات الأغلبية العربية السنّة وضد الميليشيات الشيعية. وفي تلك الأثناء تعرّضت بغداد لموجة سيارات مفخخة قتلت مئات المدنيين في تشرين الثاني. ووصل عدد عمليات العنف داخل بغداد المئات خلال شهر واحد. كما حدثت أعمال مقاومة وحوادث عنف طائفي في معظم مناطق العراق خلال تشرين الثاني، في الصويرة والعمارة والمقدادية وتل عفار والموصل وبعقوبه ولطيفية جنوب بغداد.

ومن نماذج التفجيرات كان الهجوم على مقام الإمام العسكريّ في سامراء في 23 شباط 2006 وهو من أهم مراكز الشيعة ورموزهم الدينية وذلك لإثارة غضب الشيعة ودفع البلاد نحو التناحر الطائفي. وأتهم بهذا العمل "تنظيم القاعدة" وجماعة سنّة هي "مجاهدو مجلس الشورى"⁷⁴⁵. وبالمقابل ظهرت تنظيمات مسلّحة شيعية متعاونة مع الأميركيين وتتمتع بعلاقات ونفوذ داخل الحكومة العراقية وقامت بهجمات على مراكز سنّة والجماعات السنّة المعادية لها. وهكذا انحدر العراق في آتون عنف طائفي حيث تقوم فئات مقاومة أو جماعات دينية بهجمات على قوى الاحتلال أو على السلطة العراقية من قوى أمن وشرطة ومكاتب، وكذلك على رموز الشيعة ومساجدهم ومدارسهم ومؤسساتهم، فتردّ عليها قوى السلطة أو جنود احتلال أو الفئات المسلّحة الشيعية بهجمات مضادة وانتقامية. وأحياناً كانت فرق اغتيال شيعية تجوب الشوارع باحثة عن أشخاص سنّة لقتلهم. وهكذا خلال العام 2006 كان العراق يعيش عملياً حرباً أهلية مفتوحة استعملت فيها الصواريخ والقصف المدفعي في أحياء مختلطة داخل بغداد وسواها⁷⁴⁶.

استمرت سلطات الاحتلال في تسليم المراكز والمسؤوليات إلى الجانب العراقي. ففي 2 أيلول 2006 سلّم الأميركيون سجن أبو غريب السيئ السمعة والذي شهد أعمال تعذيب بشعة وقتلاً مجانياً للأسرى العراقيين ومن جنسيات مختلفة على أيدي الأميركيين. وفي 7 أيلول تسلّم العراق لواء قيادة القوات البحرية والجوية

⁷⁴⁵ في تشرين الأول 2006 صدر بيان عن هذه الجماعة بتغيير اسمها إلى "الدولة الإسلامية في العراق".

⁷⁴⁶ Anthony Arno, Iraq: The Logic of Withdrawal, New York, The New Press/Norton, 2006, pp. 85-100.

التي كانت رمزية على أي حال وقيادة اللواء الثامن في الجيش العراقي في جنوب البلاد. ومن نتائج هذا التسليم أن صلاحية الاحتلال في إصدار الأوامر مباشرة إلى القوات الحكومية العراقية أصبحت بيد نوري المالكي رئيس الوزراء ووزير الدفاع وبيد القيادة العسكرية العراقية. أما الألوية العراقية التسعة الأخرى فقد بقيت تحت أمره الأميركيين، حتى جرى تسليمها تدريجياً.

في 11 أيلول 2006 كشف تقرير سري أعده مسؤول المخابرات في المارينز، الكولونيل بيتر دفنل، أن محافظة الأنبار قد سقطت تماماً بأيدي المقاومة وأن قوات الاحتلال فقدت السيطرة عليها. ويضيف التقرير الذي نشرت أجزاء منه صحيفة واشنطن بوست: "ليس هناك أي وجود لأي مؤسسة حكومية عراقية في الأنبار ما خلق فراغاً ملؤه جماعة القاعدة التي تمثل القوة السياسية الرئيسية في الأنبار"⁷⁴⁷. ومهما يكن من دقة مضمون هذا التقرير فقد درجت تقارير الاحتلال والإعلام الغربي على نعت مجموعات المقاومة بأنها إما إرهابية أو أنها من تنظيم القاعدة. وعمدت أميركا إلى تمويل وتدريب وتسليح جماعات مسلحة موالية لها تحت تسميات مختلفة وخاصة جماعات "الصحة". ولذلك استغل الأميركيون تعميم فكرة أن الأنبار تعمرها الفوضى وتسيطر عليها القاعدة ودعموا قبائل عراقية في الرمادي تحت اسم "تنظيم الصحة في الأنبار". وحارب هذا التنظيم إلى جانب الأميركيين في خريف 2006 ومكّنهم من إعادة السيطرة على أجزاء من الأنبار. ولكن هذا التكتيك لم يحسن من الوضع الكلي للاحتلال بدليل أنه أجبر على تسليم محافظتين إضافيتين للحكومة العراقية. ففي 21 أيلول انسحبت القوات الإيطالية من محافظة ذي قار وفي 20 كانون الأول انسحبت القوات الأميركية من محافظة النجف. فتسلم الجيش العراقي هاتين المحافظتين.

ومقارنة بالنظام البعثي الذي حافظ على بعض أوجه الحداثة في ما يتعلق بالثقافة وحقوق المرأة، فقد فرضت التنظيمات المسلحة من الجانبين أجواء رعب وحالة قمعية على المرأة العراقية منذ بدء الاحتلال الأميركي. حيث قامت عصابات مسلحة بقتل النساء واغتصابهن وتفجير أماكن تجمعهن ونواديهن. وحتى داخل العائلات، أخذ الرجال في التشدد نحو النساء. فارتفعت معدلات العنف الأسري إلى درجات غير مألوفة في المجتمع العراقي وترحم الكثيرون على "أيام صدام". واخترق تطبيق الشريعة الإسلامية أوجه تنظيم الحياة في البلاد فيما أصبح ركناً في الدستور الجديد عبر المادة 41 التي فاقمت من تدهور وضع المرأة وجعلتها عرضة للأذى. هذه التعقيدات كانت أكبر من أن يستوعبها الاحتلال الأميركي بعنجهيته السطحية بعدما وعد بنقل العراق إلى الديمقراطية الغربية.

وصدرت آراء غربية في تلك الفترة تضع اللوم في تدهور الوضع الأمني والاجتماعي على العراقيين بمنطق "كما تكونون يوئى عليكم". ومنطق هذه الآراء قال: ماذا كان الأميركيون فاعلين إذا لم يرغب العراقيون في أن يتحولوا نحو القيم الغربية؟ وقيل أيضاً إن نظاماً شبيهاً بالذي طبّقه البعث وخاصة في عهد صدام هو ما يحتاجه العراق. وهذا ما ردده مراراً توماس فريدمان في مقالاته في نيويورك تايمز.

ولكن كان هذا افتراء على شعب العراق الذي دمّره الأميركيون خلال عشرين عاماً من الحصار والحروب.

⁷⁴⁷The Washington Post, September 2006.

فقد ظهرت ثمّة قوى عديدة في المجتمع العراقيّ تحت الاحتلال تدفع باتجاه الدولة المدنيّة وحقوق المرأة. كما ظهرت جمعيات مدنيّة تدافع عن حقوق الإنسان وافتتحت مراكز لحماية المرأة ومأوى للمرأة التي تتعرّض للعنف الأسري منها منظمة حرية المرأة في العراق.

اعتبر عدد من المراقبين أنّ سوء فهم الإدارة الأميركيّة للواقع العراقيّ بمزيجه الإثني والدينيّ وتطوّره التاريخيّ وتراثه الثقافيّ وواقعه الاجتماعيّ وتاريخ الأقليّات في مناطقه المتعدّدة السبب الرئيسيّ في فشل الاحتلال وإعادة خلق دولة بديلة عن النظام السابق وتحول ادعاءات الإدارة الأميركيّة عن مقدرتها في نشر الديمقراطية إلى وهم أو سراب⁷⁴⁸.

في الأشهر الأولى من 2007 كبرت جماعات الصحوة التي تدعم الاحتلال الأميركيّ الذي عاود احتلال الرمادي ومدن هيت والحديثة والرطبة والقائم وكلها مدن قريبة من الحدود السوريّة. وفي الصيف تركّز النشاط الأميركيّ على إعادة السيطرة على محافظة الأنبار واحتلال الفلوجة والكرمة مرّة أخرى. وعندما اكتملت سيطرة الاحتلال على الأنبار جاء الرئيس بوش بنفسه إلى الأنبار في آب 2007 للمشاركة "بالانتصار" في احتفال شاركت فيه الصحوة. وهنأ بوش الشيخ ستار ومشايخ القبائل شخصياً.

وكانت الإدارة الأميركيّة كعادتها في بلدان أخرى تسعى إلى جعل العراق سوقاً لمصانع الأسلحة الأميركيّة. وتحت ستار تأهيل الجيش العراقيّ والقوى الأمنيّة، كانت مبيعات الأسلحة الأميركيّة للعراق تزدهر حتى أصبح العراق من أفضل أسواق شركات الأسلحة الأميركيّة، واستبدلت الكثير من القطع الاشتراكيّة الصنع حتى السلاح الفرديّ الكلاشنيكوف والذي استعمله العراق لأكثر من خمسين عاماً استبدل بأسلحة فردية أميركيّة. ومن ضمن المشتريات عام 2008 طائرات هليكوبتر بقيمة 2.4 مليار دولار ودبابات ومدركات وطائرات شحن ومعدّات أخرى بقيمة 10 مليار دولار، إضافة إلى صفقة لـ36 طائرة فانتوم. وفي صيف 2008 عقدت الحكومة العراقيّة عقداً لشراء 400 آليّة مدرعة ومعدّات أخرى بقيمة 3 مليارات دولار وست طائرات نقل C-130 بقيمة 1.5 مليار. حتى أصبح العراق الزبون الأول للأسلحة الأميركيّة حيث بلغت مشترياته من الأسلحة الأميركيّة 12.5 مليار دولار عام 2008 باستثناء صفقة الطائرات المقاتلة، أي 37 في المئة من مجموع سائر مبيعات الأسلحة الأميركيّة أي 34 ملياراً في ذلك العام.

الكمال التحرير

رغم تزايد قوّة الجيش الأميركيّ ومضاعفة الوجود العسكريّ الأميركيّ منذ مطلع 2007 وظهور جماعات الصحوة، فإنّ عمليّات المقاومة تواصلت عامي 2008 و2009، بل تصاعدت، حتى أنّها شنت هجوماً بالصواريخ على وسط بغداد في أيلول 2009 في اليوم الذي كان فيه جون بايدن نائب الرئيس الأميركيّ يزور العراق ويلتقي رئيس الوزراء نوري المالكي. ورغم ادعاء بايدن أنّه جاء في "مهمة استماع" إلا أنّه جلب معه

⁷⁴⁸ Roland Benedikter, *Sustainable Democratization of Iraq*.

ملفات في غاية الأهمية يريد الرئيس الجديد باراك أوباما أن يطمئن عليها بعدما وعد بالانسحاب الكامل من العراق في حملته الانتخابية. شملت الملفات الأميركية مصالح الاستثمارات الأميركية والغربية في الاقتصاد العراقي وخاصة في قطاع النفط والملف الأمني والمصالحة السياسية داخل العراق. ثم وسع بايدن اجتماعاته مع شخصيات عراقية في بغداد وطار إلى كردستان لاجتماعات مماثلة. ثم عاد إلى بغداد وكرّر التزام واشنطن سحب كامل وحداتها القتالية ثم الانسحاب الكامل.

في أوج سنوات الاحتلال، وصل العدد الرسمي للقوات الأميركية في العراق عام 2006 إلى 146 ألفاً. وفي 18 آب 2010 انسحبت الوحدات القتالية الأميركية من العراق فيما بقيت قوى عسكرية أميركية أخرى إضافة إلى عناصر المرتزقة تحت غطاء الشركات الأمنية الأميركية. وسمح هذا الانسحاب لأوباما أن يعلن في 31 آب 2010 نهاية "عملية حرية العراق" وأطلق تسمية "فجر جديد" على ما تبقى من العمليات الأميركية في العراق.

ضحايا الاحتلال الأميركي

يظهر الجدول أدناه أن ثمّة تباعداً كبيراً في تقدير عدد ضحايا الاحتلال الأميركي (2003 - 2011).

عدد القتلى في العراق أثناء الاحتلال

المصدر	الضحايا	الفترة الزمنية
لوائح استفتاء الصحة العائلية العراقية على عشرة آلاف عائلة عراقية	151 ألفاً	آذار 2003 إلى حزيران 2006
استقصاء Lancet survey	601 ألف	آذار 2003 إلى حزيران 2006
Opinion Research Business survey	مليون و33 ألفاً	من آذار 2003 إلى آب 2007
حصيلة تقارير وكالة الأسوشييتد برس	111 ألفاً	من آذار 2003 إلى نيسان 2009
المشروع العراقي لإحصاء عدد الضحايا Iraq Body Count project	113 ألفاً في مواجهات عسكرية و151 ألفاً ضحايا مدنيين ومقاومين.	من آذار 2003 إلى تشرين الأول 2011
وثائق دبلوماسية أميركية سرّ بها ويكي ليكس	109 آلاف قتيل منهم 66 ألف مدني.	من كانون الثاني 2004 إلى كانون الأول 2009

أما في حال القتلى والجرحى من العسكريين العراقيين، فكانت أرقام القتلى والجرحى في صفوف الجيش العراقي وقوى الأمن تُجمع بواسطة تقارير ميدانية وفي ملفات الشرطة وقوى الأمن عن ضحايا التفجيرات وبواسطة ملخصات من منظمات مدنية ودولية وإعلامية عن الانفجارات والعمليات العسكرية وعبر بيانات تنشرها قوات الاحتلال. وفي حال القتلى العراقيين من المدنيين والمقاومين فقد كانت معظم التقارير العسكرية والإعلامية والطبية تذكر عدد القتلى فقط وتهمل عدد الجرحى الذي كان دوماً بالملئات.

لقد قُدرت دراسة ميدانية أميركية عدد القتلى العراقيين في حرب العراق بمليون و33 ألفاً⁷⁴⁹، منهم 48 في المئة ماتوا قتلاً بالرصاص و20 في المئة في التفجيرات وخاصة بالسيارات المفخخة و9 في المئة من الغارات الجوية و6 في المئة إصابات جانبية في المعارك و6 في المئة من ألغام وعبوات في الطرق خارج المدن. ووفق معهد بروكنغز الأميركي، بلغ عدد قتلى الشرطة العراقية من حزيران 2003 وحتى 31 كانون الأول 2010 17 ألف شرطي تقريباً⁷⁵⁰. في حين قُدر عدد قتلى عناصر المقاومة العراقية بـ26 ألف شهيد من حزيران 2003 وحتى 30 أيلول 2011. ووفق تقارير متعددة رسمية وإعلامية ودولية فقد بلغ عدد قتلى الجنود الأميركيين في العراق من 2003 إلى 28 أيار 2010، 4404 عسكريين وعدد قتلى جنود قوى التحالف من جنسيات غير أميركية حوالي 400 عسكري نصفهم بريطانيون يليهم بولنديون وإيطاليون ثم أرقام أقل من عشرين دولة أخرى⁷⁵¹. أما القتلى من المرتزقة الذين أدخلهم الأميركيون باسم شركات أمن خاصة أميركية فقد بلغ عددهم 1500 شخص، منهم 250 يحملون الجنسية الأميركية والباقيون من 40 جنسية مختلفة، والجرحى حوالي 11 ألفاً وذلك في الفترة من آذار 2003 وحتى حزيران 2011. وحُدّد تقرير نشرته صحيفة Los Angeles Times عام 2007 عدد عناصر هذه الشركات الخاصة العاملة في العراق لخدمة القوات الأميركية بـ182 ألفاً، منهم 118 ألف عراقي و21 ألف أميركي و43 ألفاً من جنسيات مختلفة⁷⁵².

في 7 آذار 2010 جرت انتخابات برلمانية عامة في العراق وفي 18 آب 2010 حققت المقاومة النصر الكامل وأعلنت الولايات المتحدة انتهاء عملياتها واكتمال انسحاب المجموعات الأميركية المقاتلة من العراق.

⁷⁴⁹ . Opinion Research Business (ORB) poll conducted August 12–19, 2007

⁷⁵⁰ .The Iraq Index of the Brookings Institution, December 31, 2010

⁷⁵¹ Australia, Azerbaijan, Bulgaria, Czech Republic, Denmark, El Salvador, Estonia, Fiji, Georgia, Hungary, Italy, Kazakhstan,

Latvia, Netherlands, Poland, Portugal, Romania, Slovakia, South Korea, Spain, Thailand, Ukraine, United Kingdom.

⁷⁵² Los Angeles Times, July 4, 2007.

37 | سورية تجابه حرباً كونية

في الفترة الممتدة من العام 2000 إلى 2009، لم تكف القوى الاستعمارية يدها عن المشرق بعد هزيمتها على أيدي المقاومة في العراق وعدم تحقيق أهداف حروبها ضد المقاومة في فلسطين ولبنان. ذلك أن التدخل الخارجي لم يترك المشرق وشأنه، بل أرسل عام 2011 إلى سورية إرهابيين من 81 دولة مدعومين من الولايات المتحدة وتركيا و"إسرائيل"، ودول عربية أبرزها السعودية وقطر⁷⁵³.

الحرب كانت لتدمير سورية وتصفية حلفائها المقاومين في لبنان وفلسطين والعراق، وهي جزء من سلسلة الحروب المستمرة منذ عقود ضد المشرق.

ما بدأ في صيف 2004 في لبنان تواصل في صيف 2006 بحرب تموز وفي غزة في نهاية 2008، ومهد لضرب سورية مباشرة عام 2011. فقد كانت الدوائر الأميركية تحضّر لخلق العصبية الجهادية الدولية للقتال في سورية. ومخطط ضرب سورية وتدميرها ليس إبن ساعته بل هو هدف دائم يحاول أعداؤها تنفيذه منذ الخمسينيات. وما الحرب السورية عام 2011 إلا حلقة في سجال طويل. ولقد استمرت عناصر قوة سورية عندما تسلّم الحكم الرئيس بشار الأسد رغم ما واجهته البلاد من أعاصير شديدة أوصلتها إلى أزمة مدعومة دولياً وإقليمياً كانت أصعب مئة مرة من كل ما سبق من تحديات.

وكانت قد انطلقت تظاهرات في أنحاء سورية في آذار 2011 تدعو إلى الإصلاح وبدأت الحكومة السورية تستجيب للمطالب والشعارات التي رُفعت عبر سلسلة قرارات إصلاحية. وفي الوقت نفسه قامت قوى الشرطة بقدر الإمكان بضبط الأمن. كما صبّت قرارات الإصلاح هذه حتى لو تعرّضت للانتقاد بأنها جاءت متأخرة، في الاتجاه المناسب. ولكن العسكرية المتنامية للأزمة والمدعومة خارجياً لم تسمح لمسيرة الإصلاح وخاصة بعد حزيران 2011 بأن تلقى الاهتمام الإعلامي الكافي خارج سورية وتنمو وتكسب ترحيب المواطنين. وسيتبين من مسلسل أحداث الحرب السورية أنه رغم أولوية التصدي للغزو الخارجي الذي لبس أوجهاً عدّة، فإن مسار الإصلاح الداخلي كان دائماً يتواصل.

كانت الحرب السورية مغلفةً بأكبر حملة تضليل إعلامية وتشويه معلومات منذ بزغ عصر وسائل إعلام الجماهيرية mass media، حتى فاقت هذه الحملة ما فعلته أجهزة البروباغندا الغربية في الحرب الباردة من 1949 إلى 1989. ومارس الإعلام العربي والغربي حرباً على سورية شبيهة بتلك التي شنتها سابقاً على العراق. وهي حملة نفسية لإقناع القاصي والداني أنّ الحشد الكونيّ ضد سورية هو لإنهاء رجل واحد هو الرئيس بشار الأسد. ولكن درس العراق يقول لنا إنّ الدولة العراقية هي التي دُمرت بكامل مؤسساتها وجيشها وبرامجها الصحية والاجتماعية ومدارسها وجامعاتها وبنيتها التحتية ومحطاتها الكهربائية وطرقها

American sources used for this chapter: Wesley Clark, *Winning Modern Wars: Iraq, Terrorism, and the American Empire*,⁷⁵³ New York, 2004. *The Wall Street Journal*, "Interview with Syrian President Bashar al-Assad", January 31, 2011; Eyal Zisser, *Commanding Syria: Bashar al-Asad and the First years in Power*, London, I. B. Tauris, 2007; World Bank, *World Development Indicators*; Alan George, *Syria Neither Bread Nor Freedom*, London, Zed Books, 2003; David Lesch, *The New Lion of Damascus: Bashar al-Asad and Modern Syria*, New Haven, Yale University Press, 2005; Tony Cartalucci, Nile Bowie, *Subverting Syria: How CIA Contra Gangs and NGO's Manufacture, Mislabeled and Market Mass Murder*, Progressive Press, United States, 2012; Syria: The Fall of the House of Assad, David W. Lesch; Democracy in Syria, Joshua Landis.

ومطاراتها ومدنها واقتصادها، واستعمل صدام حسين حجة. والعراق لم يتعاف حتى كتابة هذه السطور (2018). ولذلك صور الإعلام المعادي الحرب السورية التي بدأت في صيف 2011 على أنها حول إزاحة رئيس الجمهورية. ومع أن إزاحة الرئيس هي أمنية أعداء سورية فعلاً، إلا أن اختصار الحرب بهذا الشكل يقع ضمن أساليب الحرب النفسية. فوثيرة تنفيذ الحروب على دول كثيرة لأنها لم تنفذ مشيئة واشنطن، تتضمن التركيز الإعلامي على قادة تلك الدول. وينتهي الأمر بتدمير هذه الدول على رؤوس الناس وتجويعهم وإفقارهم⁷⁵⁴.

ظهرت في الحرب السورية جماعات لا حصر لها ويجب التمييز بين تلك الوطنية والتي تتعاطى الشأن السياسي وتحمل رأياً وموقفاً يستحق الاحترام، وبين عصابات مرتزقة مسلحة زرعت البلاد قتلاً ودماراً. أما الجماعات المسلحة فأفكارها الإرهابية والتكفيرية ومصادر تمويلها وتسليحها لا تخولها حمل لقب المعارضة المخلصة - أي المخلصة للوطن والشعب. وحتى لو دأبت وسائل الإعلام المناهضة لسورية ومنذ صيف 2011 على نسب وقائع ميدانية إلى "جيش حرّ" و"جبهة نصرّة" و"داعش"، الخ، فإن الدلائل تشير إلى أن المجموعات المسلحة بلغت العشرات. فلنترك التسميات ولنقل إن هذه جماعة قطر وتركيا وتلك جماعة السعودية وهؤلاء جماعة "إسرائيل"، الخ. فالحرب الكونية على سورية هي صراع إقليمي دولي لا علاقة له بالدمقرطة، وكان على السوريين في الموالاة والمعارضة أن يدركوا ذلك ويتعاونوا على رأب الصدع الداخلي بسرعة حتى لو تأخروا في ذلك. فالشعب السوري دفع ثمن الحرب والاقتصاد السوري وأصابته أزمة عميقة، فتذوق السوريون ما خبره اللبانيون بالأمس، أن الحرب تعني أن يخرج الإنسان من بيته، يتهجّر في بلده، يموت ويتعرّض للأذى والإهانة جسدياً ومعنوياً، ويصبح سلعة للمساومة بين الدول، ويتدمر اقتصاده وتصبح مدنه قاعاً صافصافاً. والحرب على سورية هي أيضاً تكملة للصراع السوري - الإسرائيلي. فسورية ومنذ نشطت العصابات الصهيونية في فلسطين في الثلاثينيات ومنذ عام 1948 وحتى اليوم، هي الدولة العربية الأكثر التصاقاً بالقضية الفلسطينية، التي بسببها شهدت سورية انقلابات وخاضت حروباً وخصّصت موازنات وسخّرت قدرات الوطن على مدى عقود. حتى أن سورية غيرت استراتيجيتها منذ اتفاق كامب دايفيد وخروج مصر من الصراع وقررت أن تكون هي دولة المواجهة الرئيسية بوجه المشروع الصهيوني في المشرق. وكانت جولات حربية عدّة بين سورية و"إسرائيل" وفي لبنان وفي فلسطين. ولم تتأخّر "إسرائيل" في اغتنام الفرص لأذى سورية وضربها من الداخل وتمويل المعارضين والمشاركة في المؤامرات الخارجية وبعضها مع دول خليجية في مراحل تاريخية منذ الستينيات.

European sources used for this chapter: Richard Labévière, Talal El-Atrache, Alain Chouet, *Quand la Syrie s'éveillera*, Paris,⁷⁵⁴

Librairie Académique Perrin, 2011; O. Carré et G. Michaud, *Les Frères Musulmans 1928- 1982*, Paris, 1983; Raymond Hinnebusch, *The State and the Political Economy of Reform in Syria*; Inside Syria: The Backstory of Their Civil War and What the World Can Expect, by Reese Erlich, Noam Chomsky; Syria: Descent Into The Abyss: An unforgettable anthology of contemporary reportage, Patrick Cockburn, Robert Fisk, Kim Sengupta; Syria under Bashar al-Asad: Modernisation and the Limits of Change, Volker Perthes.

وللحدث السوري جوانب اقتصادية دولية وما يشق عن ذلك من حروب النفط والغاز والعملة، عكسته مواقف الأطراف الإقليمية والدولية وأدوارها وتأثيرات حرب سورية على بلدان المنطقة. فالدول التي لعبت دوراً في الحدث السوري شملت إمارات الخليج والسعودية والأردن وروسيا وتركيا وإيران ودول الغرب وخاصة فرنسا والولايات المتحدة.

استهداف سورية

في 2011 فتح الحلف الجهنمي الأمريكي - التركي - الفرنسي - السعودي - القطري أبواب الجحيم على سورية فسلب عليها عصابات مجرمة مسلحة وقوى إرهابية، وجلب عصابات مسلحة تكفيرية - وهو اسم code للأخوان المسلمين وللوهابية السلفية ومنها القاعدة وليدتها - عبر تركيا والأردن ولبنان والعراق لقتل السوريين.

منذ آذار 2011 بدأ المسلحون في مدينة درعا يطلقون الرصاص على المتظاهرين الأبرياء وعلى الشرطة على السواء، ثم يقومون بتفجير أبنية حتى وصلوا إلى ارتكاب مجازر بحق المدنيين خلال أشهر قليلة. وفي كل مرة كان الإعلام المعادي يلقي اللوم على الدولة السورية، تساعده في الكذب حملة غير مسبوقة من الترويج عبر جهاز إعلامي ضخم وعالمي من آلاف المطبوعات والمواقع ومحطات التلفزة والإذاعة. وفي الناحية الديبلوماسية، كانت جماعات خارج البلاد تقول إنها تمثل الشعب السوري وتجمع وتصدر البيانات المنمقة وتختلق لنفسها وجهاً مدينياً مقبولاً للرأي العام الغربي (كأن تكون امرأة سورية في واجهة التغطية الإعلامية أو شخصية سورية مسيحية أو شخصية سورية مثقفة يعرفها الغرب). وهذه الجماعات والشخصيات في الخارج مؤلتها ووجهت تحركاتها ولقنتها دورها أجهزة استخبارات فرنسية وغربية ومؤسسات أميركية. وأصبحت الدوحة واسطنبول والرياض مراكز استقطاب الجماعات والشخصيات ولحشد المترتبة ومطابخ لإعداد بنك المعلومات عما يجب استهدافه وتدميره داخل سورية، فيما تلعب واشنطن دور قائد الأوركسترا. كان دور الإعلام ترويج الكذبة الكبرى أن ثمة ثورة من أجل الديمقراطية في سورية تجري الآن، دون أن يُذكر أن رأس حربة هذه الثورة في الميدان العسكري هم وحوش بشرية كاسرة ومغتصبو نساء وحملة سواطير وقاتلو أطفال وآكلو أكباد السوريين.

نشر الجنرال الأمريكي ويسلي كلارك الذي قاد قوات حلف الناتو ضد صربيا عام 1999 كتاباً عام 2003 بعنوان كيفية كسب الحروب الحديثة. حيث يذكر إن قائمة دول وضعها دونالد رامسفيلد ونائبه بول وولفوفيتز عام 2003 بهدف تغيير أنظمتها تضمنت كيانات المشرق - العراق وسورية ولبنان - إضافة إلى ليبيا والسودان والصومال وإيران. أما الأردن فقد وقع تماماً في المحور المعادي. وميز الكتاب بين دول تحتاج إلى غزو - كالعراق - ودول تحتاج إلى تفكيك من الداخل ويصعب غزوها كلبان وسورية، حيث ذكر كلارك أن وثيقة رامسفيلد وضعت "إخراج سورية من لبنان" كمرحلة أولى يليها استهداف "قوى معادية لـ"إسرائيل" كحزب الله وحماس". وهكذا بدأت الحرب على سورية منذ زعزت لبنان واغتيال الحريري عام 2005 ثم ضرب

الحركات المقاومة التي تدعمها سورية في لبنان وفلسطين، ثم بدء الغزو الفعلي لسورية في صيف 2011. ولكن الوضع اختلف في حال سورية لأنّ دمشق صمدت وأرغمت واشنطن والناطو على التراجع. فقد قاومت سورية حتى شعرت واشنطن أنّ تحقيق هدف القضاء على سورية كان أبعد منالاً مما توقّعت الدراسات والخطط وودعت تركيا والسعودية وقطر و"إسرائيل".

ابحث عن "إسرائيل"

دور "إسرائيل" أساسي في الحرب على سورية بدءاً بدعمها غير المحدود للمعارضة السوريّة الخارجيّة، مباشرة عبر الأجهزة الإسرائيليّة وعبر اللوبي الصهيونيّ في الولايات المتّحدة وأوروبا. ومروراً بالعدوان الإسرائيليّ العسكريّ المباشر على أهداف سورية لمؤازرة التنظيمات الإرهابيّة على الأرض والتوجيه العسكريّ والدعم اللوجستيّ وضرب قواعد الصواريخ في المناطق الجنوبيّة والوسطى من سورية وإسقاط طائرات حربيّة سورية، وصولاً إلى عمليّات اغتيال. وكانت لـ"إسرائيل" يد في كافة المعارك الدائرة في سورية، وحتى وراء الكواليس في المشاركة في كتابة تصريحات معارضة الخارج وتوجيه الإعلام والفضائيّات والعمل اللوجستيّ وتجنيد إسلاميين من فلسطينيّ 48 وإسرائيليين يجيدون اللغة العربيّة ولا يفتنون الأنظار للمشاركة في المعارك.

تعدّدت غرف العمليّات التي ضمتّ الضباط الإسرائيليين والأميركيين والفرنسيين والسعوديين والقطريين والأتراك والتي توزّعت بين عمّان في الأردن وأنقرة وحدود سورية الشماليّة. واستغلّت "إسرائيل" الوضع السوريّ للقيام باغتيال كفاءات علميّة وطيارين سوريّين. وهي سياسة اتبعتها "إسرائيل" مع العراق ولا زالت تمارسها حتى اليوم هناك وتجاه إيران وتجاه البارزين من مفكرين وعلماء فلسطينيين.

الهدف الرئيسيّ لـ"إسرائيل" كان دوماً ومنذ الخمسينيّات ضرب سورية لأنّ ذلك يحرم المقاومة في لبنان من عمقها القوميّ والاستراتيجيّ ويضعف المقاومة في فلسطين كما يضعف العراق ويهدّد كيان لبنان الهش وخاصة التمدّن البيروتي، في حال قامت سلطة تكفيريّة في دمشق تريد أن تجعل من لبنان إمارة ظلاميّة. فالصراع السوريّ - الإسرائيليّ بدأ قبل 80 عاماً والقضيّة الفلسطينيّة تحتل موقع الصدارة في وجدان السوريّين. وسورية منذ معاهدة كامب دايفيد عام 1979 حرصت على بناء جبهة مشرقيّة وإرساء توازن استراتيجيّ بعدما أصبح الصراع العربيّ - الإسرائيليّ مقتصرّاً عليها، وأصبح معظم الدول العربيّة صديقاً مباشراً أو غير مباشر لـ"إسرائيل".

السوريّون يعلمون تماماً سعي "إسرائيل" الدائم لتفتيت سورية والعراق ولبنان ومصر إلى كيانات مذهبيّة عرقيّة متناحرة تسهل لها السيطرة عليها وتأليبها على بعضها البعض، ويبرّر منحها الهويّة الدينيّة العنصريّة كدولة يهوديّة. كما تبيّن للسوريين باكراً أنّ "إسرائيل" لا تعلن حدوداً جغرافيّة بسبب طبيعتها التوسعيّة، بل تريد جمع يهود العالم في الأرض العربيّة من النيل إلى الفرات. وبقي الشعب السوريّ متعلّقاً بفلسطين لأنّ

الصراع مع "إسرائيل" وجودي لا حدودي. فسورية فقط من بين الدول العربية محكومة بهذا الصراع الذي يهدد وجودها كله، رأت قياداتها أن صمودها في وجه "إسرائيل" يمثل سدّ الدفاع عن الأمة. في عهد بشار الأسد، لم تنكفئ سورية عن واجب الصراع ضمن استراتيجية مواجهة حلم "إسرائيل" الكبرى. فقد استمرت هذه الاستراتيجية في عهد بشار الأسد، الذي شهد عقده الأول أعمالاً قام بها أعداء سورية لحرمانها من عمقها المشرقي الطبيعي.

لقد فاقت ممارسات العصابات التكفيرية ضد أبناء الشعب السوري والجيش السوري توقعات وأحلام "إسرائيل". حتى أن مجموع ما قتله هؤلاء من أفراد الجيش السوري وقوى الأمن وأبناء الشعب في سورية بلغ أضعاف مضاعفة كلّ شهداء سورية في ثمانين عاماً من الصراع مع "إسرائيل". وكانت المهزلة أن رموز المعارضة الخارجية كانت تطل من شاشات الإعلام الإسرائيلي، وأن مقاتلي الجماعات المسلحة يتخذون من "إسرائيل" مراكز استشفاء ونقاهاة وتدريب يزورهم رئيس حكومة "إسرائيل" بنيامين نتنياهو في المستشفى كأبيهم العطوف.

من حراك شعبيّ إلى عدوان خارجيّ منظم

التدهور الاجتماعي والاقتصادي والعجز في موازين الديمقراطية كانت أسباباً كافية لانتفاضة الشعب السوري ولكنها لا تكفي لتبرير الحرب. كما يجب التذكير أن سياسة سورية الداخلية كانت أفضل نسبياً من دول عربية ادّعت أنها إنما تساعد السوريين لتصبح بلادهم مثل سويسرا، وذلك بعد تدمير سورية طبعاً. فيما هذه الدول لا علاقة لها بالديمقراطية بتاتاً. بل هي دول ذات أنظمة دكتاتورية سائرة في فلك النيوليبرالية العالمية ومعها تركيا. وهذه الدول ركبت موجة "الربيع العربي" لضرب الدول العربية الوطنية.

كان عامي 2009 و2010 الهدوء الذي سبق العاصفة إذ كان الوضع الداخلي السوري يراوح مكانه مع استمرار الفساد والقيود على الحريات وهجرة الكفاءات. ولم تعد المعضلة بين إطلاق عملية تغيير كبرى أو إصلاح تدريجيّ يؤمن الاستقرار بخطوات مدروسة. بل كان ثمة احتمال ثالث أقوى وأخطر وهو أن يستغلّ الخارج الوضع الداخليّ المعقّد لتفجير سورية وتفكيكها كدولة ومجتمع.

وتقصير دولة البعث ليس تبريراً لأن تتجمهر المعارضة الخارجية والدول التي تدعمها والجماعات المسلحة القادمة من ثمانين دولة لتدمير الوطن السوري. فعلم هؤلاء كان مشيناً، ألغى محاولات سورية إيجاد حلول لمشاكلها الداخلية وجعل أولوية حكومتها التصدي للموت والدمار الآتي من خارج الحدود. بل إن الحراك الشعبيّ كاد يسير نحو انتصاره الطبيعيّ في دفع نظام الحكم نحو المزيد من الحريات والدمقرطة في الأشهر الأولى من 2011 عندما كانت الدولة تلبّي وتعطي. غير أن المعارضة الخارجية والدول التي تديرها أمعن في تدمير سورية وأكدت أنها لن تتوقف إلا بعد الحصول على كل شيء، ليصبح شعار "إسقاط النظام" و"إزاحة رئيس الجمهورية" عقاباً بشعاً لكل مواطن سوري - أكان "مع النظام" أو "ضد النظام" - وتدميراً لكل حجر في سورية.

والخلاصة أن سورية كادت تنجح في عملية الإصلاح ولكن حرباً شُنت عليها بدعم وتمويل وتسليح وتجنيد الدكتاتوريات العربية التي رأت أنه يجب تغيير نظام سورية السياسي ليكون تابعاً ذليلاً، دون الأخذ بالاعتبار التفاصيل الداخلية. لقد تراكمت المؤثرات والدلائل عن مكيدة عربية ودولية لإضعاف سورية وتغيير نظامها الوطني. ومارس هذا الخارج الضخ والتحرير وأوفد مجموعات مندسة حملت السلاح واختطفت نداءات المطالب الإصلاحية المخلصة. وأخذت قنوات فضائية كالجريدة والعربية تُذكي نار الأزمة، وظهر دجالون كُثروا على شاشات التلفزة ومنهم مشايخ يدعون "السوريين إلى الثورة" وحمل السلاح ضد دولتهم.

في شباط 2011، تناقلت شبكات التواصل الاجتماعي دعوات إلى "يوم غضب" في سورية. ولكن أي تظاهرات كبرى لم تنطلق باستثناء تظاهرة في مدينة الحسكة البعيدة في الشمال الشرقي. ومنذ 15 آذار تزايدت وتيرة التظاهرات في مناطق عدة، إحداها ضمت 150 متظاهراً في دمشق، كما تجمّع مائتا شخص أمام وزارة الداخلية في دمشق يطالبون بإطلاق سجناء الرأي.

أصبحت درعا نقطة مركزية في حراك متنامٍ، حيث خرجت تظاهرات وصلت ذروتها يوم 25 آذار عندما خرج مئة ألف متظاهر. كما خرجت تظاهرات في حمص وبانياس وحلب ودمشق واللاذقية. وشابت الحراك منذ بدايته أعمال عنف وعصيان. فقد بلغ مجموع القتلى يوم 25 آذار الـ70 والمعتقلين بالآلاف، فضج الإعلام العربي والأجنبي بسقوط ضحايا مدنيين. إلا أن هذا الإعلام لم يشر إلى حقيقة أن مسلحين بأعداد كبيرة قد انتشروا أيضاً في درعا وأطلقوا الرصاص على قوى الأمن بغية قتلهم منذ اليوم الأول.

في الأسبوع الرابع من آذار اتسعت التظاهرات والاشتباكات بين قوات الأمن والمتظاهرين، وانتشرت الأسلحة في صفوف المتظاهرين فيما أخذت السلطات تكتشف "مجموعات مسلحة تسعى لتخريب سورية". فقد وقعت مجزرة في منتصف آذار بين درعا والبلد ودرعا المحطة حيث قتل المسلحون عناصر شرطة في قافلة سيارات، وقيل إن عدد قتلى قوى الأمن في هذا الكمين راوح بين 20 و40 قتيلاً.

ورغم تفاقم الوضع الأمني فإن الدولة السورية كانت تميز دوماً بين المدنيين ومطالبهم وبين العصابات المسلحة. فهي تجاوزت مع مطالب المتظاهرين وباشرت فوراً سلسلة إصلاحات سياسية واجتماعية. ففي 27 آذار أعلنت المستشارية الرئاسية بثينة شعبان قرار رفع قانون الطوارئ الساري منذ 1963. وفي اليوم التالي خرجت تظاهرات مليونية في دمشق مؤيدة للدولة السورية، وقيل الرئيس بشار الأسد في اليوم ذاته استقالة حكومة العطري كجزء من خطوات لملاقاة المتظاهرين بإصلاحات.

وتواصلت التظاهرات في نيسان ولكن بقي الحراك الأكبر خارج دمشق، حيث خرجت مسيرات في بانياس والحسكة ودرعا ودير الزور وحماة، واجهتها قوى الأمن بقنابل مسيلة للدموع وخراطيم المياه والعصي، وأحياناً بالرصاص الحي، ما أسفر عن مقتل وجرح مدنيين. وهكذا لم يمض أسبوع إلا وكانت تخرج تظاهرات شعبية فينتهي الأسبوع يوم الجمعة بمسيرات لها اسم معين وُقِّتت مع خروج الناس من مساجد مركزية في وسط مدن وبلدات سورية. وحتى أيلول 2011 غاب تحرك المعارضات والجماعات المسلحة عن دمشق وحلب، وكان هذا مؤشراً لدعم سكان هاتين المدينتين للدولة. حتى أن ساحات المدينتين شهدت مهرجانات شعبية كبرى بلغ بعضها المليون دعماً لبشار وللدولة السورية.

استمرت الدولة السوريّة بتسريع عجلة الإصلاح. ففي 3 نيسان 2011 كلّف بشار الأسد تشكيل حكومة سورية جديدة ومنح مئتي ألف كردي الجنسية السوريّة وأعفى محافظ حمص من مهامه. فقدّمت الحكومة الجديدة سلسلة إصلاحات وتغييرات قانونيّة باتجاه الانفتاح، وأعفت محافظ درعا المتهم بالفساد من منصبه وخفّضت سنوات الخدمة العسكريّة، والتزمت بخفض الضرائب وإطلاق السجناء السياسيين ورفع رواتب موظفي القطاع العام وزيادة فرص العمل، ومنحت المزيد من الحريات الصحافيّة. وقدّمت الدولة تنازلات لصالح التيارات الإسلاميّة فسمحت للمعلمات بارتداء النقاب وأقفلت الكازينو الوحيد في البلاد.

وفي 14 نيسان، أعلن الرئيس بشار الإفراج عن كلّ الموقوفين بالأحداث الأخيرة ممّن لم يرتكبوا جرمًا. ووقّع مرسوماً في 21 نيسان 2011 وضع نهاية لقانون الطوارئ وألغى محكمة أمن الدولة. ثم تواصلت القرارات الإيجابيّة. ففي 31 أيار وأول حزيران أصدر الرئيس بشار عفواً عاماً عن الجرائم المرتكبة قبل 31 أيار، وقراراً بتشكيل هيئة للحوار مع المعارضة مع برنامج زمني. وفي حزيران كلّف الرئيس بشار رياض حجاب بتشكيل حكومة سورية جديدة خلفاً لحكومة عادل سفر، شملت بعض وجوه معارضة الداخل كقذافي جميل وعلي حيدر. وبدل تلقّف هذه الخطوات وتشجيع الدولة على تقديم المزيد وقبول مبدأ الحوار المحترم، فسّرت جماعات معارضة خارجية الإصلاحات على أنّها دليل ضعف الدولة السوريّة وقرب انهيارها. وأصدرت بيانات مذهلة أقلّها يدعو "لإسقاط النظام السوري واستقالة بشار الأسد الفوريّة"، في وقت كانت هذه الجماعات تحسب أنّ ما حدث في القاهرة وتونس سيتكرّر.

قامت الحكومة السوريّة بسلسلة إجراءات بعضها أمميّ وقمعيّ وبعضها الآخر إصلاحيّ ومتجاوب. ولكن الوضع لم يهدأ. بل كان ممنوعاً أن يهدأ. وفي 20 حزيران 2011، تحدّث بشار عن مؤامرة تستهدف البلاد ونّبّه الدول المعادية إلى أنّ "لا تطوير وإصلاح من دون استقرار". ولكنّه واصل اتخاذ خطوات إيجابيّة: - ففي اليوم التالي أصدر مرسوماً بمنح عفو عام عن الجرائم المرتكبة قبل 20 حزيران. - وفي 25 و26 تموز، أقرت الحكومة مشروع قانون تأسيس الأحزاب وصيغة نهائيّة لمشروع قانون الانتخابات. - وفي آب صدر مرسوم خاص بحريّة الإعلام. - وفي نهاية أيلول 2011 أعلن وزير الخارجيّة وليد المعلم التزام سورية بالعمل على إجراء إصلاحات مبنية على الحوار. - وأكد الرئيس بشار مجدداً في تشرين الأول عزمه على الإصلاح وإنهاء المظاهر المسلّحة، وأصدر قراراً بتشكيل لجنة وطنيّة لإعداد مشروع دستور جديد. ثم أصدر في 15 كانون الثاني 2011 مرسوماً رئاسياً يمنح عفواً عاماً عن الجرائم المرتكبة على خلفية الأحداث التي وقعت منذ 15 آذار 2011 حتى تاريخ صدور المرسوم.

وفي 12 شباط 2012 تسلّم بشار مسوّدّة مشروع الدستور الجديد الذي يلغي النص المتعلّق بقيادة حزب البعث للدولة والوطن. وجرى استفتاء شعبيّ على مشروع الدستور وأعلن وزير الداخليّة أنّ نسبة المشاركين بالاستفتاء بلغت 57,4 في المئة ممن يحق لهم الاقتراع، وأنّ 89,4 في المئة من الذين اقتنعوا وافقوا على هذا الدستور. ونُشر الدستور الجديد في الجريدة الرسميّة ليعتبر نافذاً. وحدّد بشار 7 أيار موعداً لإجراء انتخابات برلمانيّة في سورية، فاعتبرت الولايات المتّحدة تنظيم انتخابات بسورية وسط العنف "مثيراً للسخرية"،

وواشنطن على أي حال كانت تهاجم أي خطوة تقوم بها سورية لممارسة سيادتها وإصلاح نفسها، فيما تدعم واشنطن الذين يحملون السواطير لقتل الناس.

وفي أيار 2012 أصدر بشار عفواً عاماً عن العقوبات بقانوني خدمة العلم والعقوبات العسكرية وأعلنت اللجنة العليا للانتخابات النتائج الرسمية للانتخابات. ثم صدر عفو عام في تشرين الأول 2012 عن الجرائم المرتكبة قبل تاريخ القرار.

هذه الإصلاحات التي خرجت بوتيرة سريعة زمنياً قياساً إلى السنوات السابقة والتي مثلت تغييراً غير مسبوق في تاريخ سورية يلاقي أهداف المتظاهرين، لم تؤدّ إلى تهدئة الوضع كما هو متوقع بل زادت شهية معارضي الخارج والدول التي تدعمهم بأن الإصلاحات هي تنازل ودليل ضعف ويجب دفع الحراك إلى نهايته لإسقاط النظام. فكان الحراك يستمر ويتصاعد وصولاً إلى المطالبة برحيل بشار الأسد. ثم أخذ المتظاهرون يهاجمون قوى الأمن ويحطّمون صور بشار الأسد وحافظ الأسد ورموز الحكم في البلاد.

ظهور الجماعات المسلّحة

في حزيران 2011 اتضح وجود شبكة عسكرية كبيرة معادية في البلاد فاجأت الكثيرين باستعداداتها وعمقها. لقد بلغ عدد المسلّحين الآلاف وينتمون إلى من الأخوان المسلمين وتنظيمات أخرى مرتزقة عبرت الحدود من العراق وتركيا ولبنان والأردن. وجاء تمويل وتدريب وتسليح هذه الجماعات من دول عدّة كانت تستعدّ منذ سنوات طويلة لتفجير سورية من الداخل وكانت آلية بدء استعمالها هي ركوب الحراك الشعبي المدني. واتصفت الجماعات المسلّحة بتنوّعها وانعدام وحدة الرؤية والأهداف لدى قياداتها، وأعلنت الحكومة السوريّة أنّ الدولة تميّز بين الحق المشروع للشعب بالتظاهر والإصلاح، وأولئك الذين يخوضون معارك ضد القوى النظاميّة الذين اعتبرتهم الحكومة "جماعات إرهابيّة مسلّحة".

ثم انفجرت أعمال عنف في درعا يوم 25 نيسان 2011. ولمواجهة هذا التطور تدفقت قوى الأمن إلى المدن الرئيسيّة في سورية وأقامت الحواجز بين المدن وعند الطرقات الاستراتيجية. لقد فوجئت الدولة السوريّة بالعسكرة السريعة، إذ كانت خطواتها وحتى حزيران 2011 ضمن خطوات الإصلاح من جهة وقمع المسيرات التي تجاوزت القانون واعتدت على قوى الأمن من جهة أخرى. ولكن الأزمة دخلت منعطفاً خطيراً يوم الإثنين 6 حزيران 2011 عندما أعلن عن مصرع 120 من عناصر الشرطة في هجوم شنه مئات المسلّحين على مراكز أمنية ومقار حكوميّة في مدينة جسر الشغور، المدينة السوريّة الأقرب إلى الحدود التركية والتي سيطر عليها المسلّحون في الشمال. لقد قام المسلّحون بالتمثيل بجثث الشرطة وبإلقاء بعضها على ضفاف نهر العاصي وترويع سكان المنطقة. ثم قامت مجموعات مسلّحة بإزالة حواجز حدوديّة مع تركيا وسيطرت على قرى وسرقت خمسة أطنان من الديناميت. فهذّدت الحكومة أنّ "الدولة ستتعامل بحزم وقوة ولن يتمّ السكوت عن أي هجوم مسلّح" وأعلن وزير الإعلام أنّ الجيش قد تحرك إلى تلك المنطقة.

أمام الأخطار الداهمة بعد هجوم جسر الشغور وبعد تفاقم المظاهر المسلحة، عمدت السلطة إلى عزل بؤر التوتّر في أنحاء البلاد لضبطها وإنهائها. ومنذ 2011 اتخذ المعارضون المساجد والساحات العامة مراكز لهم ثم انتشروا في مناطق عدّة، وبشكل متسارع وفجائي، أخذت تنفّش على الساحة السوريّة جماعات مقاتلة ومدربة ومجهزة تتمتع بخطوط لوجستية وخطوط دعم عبر لبنان وتركيا والأردن.

كان واضحاً أنّ الأمر لم يكن وليد ساعته بل ثمرة سنوات من الاستعداد. كما أخذت جماعات إرهابية دينية كالقاعدة تتدفّق بكثرة من العراق وعبر لبنان تحت اسم جبهة النصرة. ما احتاج إلى انتشار أكبر لقوى الأمن. واتخذ الصراع خاصة في حمص المجاورة للحدود اللبنانية طابعاً طائفيّاً على أسس مذهبية بين سنّة وعلويين، وتردّدت في أحياء مدينة حمص المختلطة مقولة "مسيحيّ ع بيروت وعلويّ ع التابوت". وغدّى نار هذه الفتنة الوضع الهش في لبنان حيث خضعت مناطق قريبة من حمص هي طرابلس وعمار لهيمنة جماعات مناهضة لسورية وبات شمال لبنان مركز نقاط لوجستية للجماعات المقاتلة في سورية من مستشفيات ومعدات وتدريبات وأسلحة وتجهيزات ومؤن.

اعتبرت السلطات السوريّة أنّ من تحاربهم هم جماعات مسلحة إرهابية تحمل أجندة عمل أخوانية ووهابية تدعمها الرجعية العربيّة و"إسرائيل" والاستعمار الغربيّ. من ناحيتها، عمدت الدول والقوى المناهضة إلى استعمال نعت "الشيخة" على الذين يقاثلون إلى جانب السلطة و"كتائب أسد" على الجيش السوريّ والقوى النظامية.

بعد عام من الأزمة غابت شعارات العام الأول السلميّة ولامحها المدنيّة واختفت علائم انتفاضة شعبيّة وتظاهرات وخفت صوت المعارضة المدنيّة العلمانيّة وتبيّن أن شخصياتها من قشّ زرعها دول أجنبيّة وتكلّمت عن الديمقراطية للتمويه الإعلاميّ ثم اختفت. لقد رفعت المعارضات الخارجية والجماعات المسلحة علم الانفصال الذي يعود إلى العام 1961 بدل العلم السوريّ الوطنيّ، دلالة على نيّات دفينّة لدى هؤلاء بيع سورية للخارج لقاء المال والمنصب. فالعلم الذي حملوه وروّجت له الفضائيات العربيّة والغربيّة المعادية لسورية إنّما خلقه الانتداب الفرنسيّ واستمرّ لبضع سنوات، حتى اتخذت سورية علمها الحالي عام 1958 وهو علم الوحدة بين سورية ومصر في ظل الجمهورية العربيّة المتّحدة. والمعالم أنّ مملكتي السعودية والأردن كانتا وراء حركة الانفصال عام 1961 ويومها رفع الانفصاليّون أيضاً علم الانتداب. ولقد عادت السعودية إلى أعمال التخريب نفسها ضد سورية منذ 2011 فرفع عملاؤها أيضاً علم الانفصال دلالة مقتهم للعروبة.

غطّت سماء سورية غيمةً سوداء من التطرّف والتكفير الأعمى. فكانت الجماعات المسلحة ميليشيات متنقّلة في حرب شوارع، وداعموها العرب والأجانب لم يكتروا للضحايا السوريّين أو لتدمير سورية وتخريبها. ومقارنة بالجيش الرسميّ السوريّ الذي احتاج إلى تحرك منظمّ ضد المسلّحين وانطلق من مراكز ثابتة، فقد حصّن المسلّحون أنفسهم في مناطق مزدحمة بالسكان لا يمكن للجيش السوريّ استعادتها دون تعريض المواطنين للخطر. فكانت بعض الأحياء تحتاج إلى أسابيع للتطهير، وما أن تنتهي العمليّة ويغادر الجيش حتى يعود المسلّحون إليها. وهذا ما حصل مثلاً في معرّة النعمان التي احتاج الجيش السوريّ إلى ثلاثة أشهر لتطهيرها.

وبعد مغادرته، أعلن المسلّحون أنّهم أعادوا السيطرة عليها خلال خمس ساعات. وكذلك في الرستن قرب حمص التي تجددت فيها المعارك في 29 كانون الثاني 2012 وتمكّن المسلّحون من السيطرة عليها في 5 شباط 2013. فغيّرت الدولة تكتيكها الميدانيّ وقامت بتسليح لجان شعبية كلّ منها في منطقتها، بينما تفرّغ الجيش للمعارك الاستراتيجيةّ في القلمون وحلب مثلاً. فكانت معادلة اللجان الشعبيةّ مقابل المجموعات المسلّحة أكثر فعالية. ثم دخل حزب الله الحرب في ما بعد والذي امتلك خبرة في حرب الشوارع.

الحرب الدبلوماسية

كانت الحكومة السوريّة توافق على كلّ المبادرات العربيّة والدوليّة والأمميّة لحل الأزمة، في حين كانت المعارضة الخارجيّة والجماعات المسلّحة على الأرض ترفض بإصرار هذه المبادرات، تدعمها الولايات المتّحدة الأميركيّة والسعوديّة وقطر وتركيا وفرنسا وباقي الدول الأعضاء في حلف الناتو.

لم يمض سوى شهرين على بداية الأزمة عام 2011 حتى تبلورت مواقف الغرب ضد الدولة السوريّة، وساهمت دول عربيّة معروفة في إذكاء نار الحرب. ووقف إلى جانب الدولة السوريّة بشكل رئيسيّ إيران ودول البريكس لا سيما روسيا والصين وعمق شعبيّ في العراق ولبنان وفلسطين. وعندما اندلعت الأزمة كانت الدول العربيّة السائرة في الركب الأميركيّ قد سيطرت على جامعة الدول العربيّة وعلى رئاستها وأمانتها العامة. ونجحت في خلق وضع دبلوماسيّ أدّى إلى قرارٍ من مجلس الأمن الدوليّ استعمله الناتو لضرب ليبيا. فاتخذ الرئيس بشار الأسد في 2 آب 2011 موقفاً صارماً من أنّ "أيّ عمل عسكريّ ضدّ سورية ستكون تداعياته أكبر من أن يتحمّلها الغرب" و"أنّ سورية هي عقدة الغرب وأنّ التنازلات التي يطلبها الغرب لن تحصل".

ولئن لم تسر روسيا في مجلس الأمن مجدداً، لجأ هؤلاء العرب وتركيا إلى تجميد عضويّة سورية في الجامعة العربيّة وفي منظمة المؤتمر الإسلاميّ التي يرأسها التركي أكمل الدين إحسان أوغلو. وركّزت حربهم الدبلوماسية في ما بعد للحصول على شرعيّة دوليّة للجماعات السوريّة المعارضة في الخارج وعلى حشد دعم دوليّ لهجوم كبير على سورية، ولكنّ جهودهم وأموالهم ذهبت هباءً لأنّ سورية صمدت.

بعدما فشلت الدول العربيّة المناهضة لسورية في استصدار قرار دوليّ في نهاية 2011، وافقت مكرهة على إرسال بعثة مراقبين عربيّة. ولكن الموافقة كانت جزءاً من لعبتهم الدبلوماسية ليُدعوا أمام الرأي العام العربيّ والعالميّ أنّهم لا يمانعون في حل الأزمة. وفي الحقيقة كانت هذه الدول والجماعات المعارضة في الخارج والجماعات المسلّحة في الداخل تفعل ما بوسعها لإفشال بعثات المراقبين.

ثم جاءت تسمية كوفي أنان مبعوثاً مشتركاً للجامعة العربيّة والأمم المتّحدة، فواجه السلبيةّ نفسها من الدول العربيّة والجماعات المعارضة والمسلّحة، فاستقال. ذلك أنّ أيّ حل دبلوماسيّ للأزمة لا يؤدي بنظر هؤلاء إلى إسقاط الدولة السوريّة بالقوة كان مرفوضاً. وعندما كادت الجهود تؤدي إلى ولادة مبادرة سلميّة للحل تخطو خطوات عمليّة، كانت المعارضة الخارجيّة والجماعات المسلّحة والدول المناهضة لسورية تضع أمامها العراقيل وتجاهلها بالرفض.

استقبلت الحكومة السوريّة مراقبي الجامعة العربيّة ثم مراقبي الأمم المتّحدة وكذلك أي مراقبين يريدون زيارة سورية، وسمحت لهم بالانتشار في الأراضي السوريّة. وكانت النتيجة أن هؤلاء تعرّضوا للقتل والتفجير من قبل الجماعات المسلّحة كي يغادروا سورية ويُنهوا مهمّاتهم. ولم تستنكر القوى الخارجيّة قيام المسلّحين بقتل المراقبين وتعطيل أعمالهم، بل هم برّروا قتل المراقبين بسلسلة تصريحات أطلقها زعماء التكتل العربيّ والغربيّ تؤكد مسبقاً فشل المبادرات السلميّة حتى وهي في طور الولادة.

هاجمت العواصم المعادية لسورية اتفاق جنيف حول سورية ودعت إلى إسقاط الدولة السوريّة وغزوها تحت البند السابع. وفي كلّ مرّة كانت هذه العواصم تسعى إلى قرار أممي، كان مجلس الأمن يجري مداولات تستمر أسابيع ثم تعرّض روسيا والصين فيُصدر بياناً محايداً. فتسعى الدول المناهضة لسورية مجدداً لاستصدار قرار، لتستعمل روسيا والصين الفيتو.

هاجمت واشنطن سورية منذ منتصف آذار 2011 بإدانة قمع المتظاهرين والمطالبة بإصلاحات. ثم أضافت عقوبات جديدة على سورية، وجابت وزيرة الخارجيّة الأميركيّة هيلاري كلنتون العواصم تحشد للحرب الدبلوماسية على سورية، وتعمل على منع سورية من استعمال قواها المسلّحة ضد الجماعات التكفيرية. وبعثت كلنتون رسالة لسورية مفادها "وجوب عودة الجنود السوريّين لثكناتهم فوراً"، بلهجة الكابوي. ودعمت الولايات المتّحدة الجماعات المسلّحة، وأعلنت كلنتون في أيلول 2011 أن واشنطن تمنح مبالغ "لمساعدة الشعب السوري". ولم تستح واشنطن من دعم هؤلاء رغم أن التقارير الاستخباريّة الأميركيّة كانت تؤكد أن الإرهاب هو السائد في أوساطهم وأنّ سواطيرهم تطال الأقليات وتقتل كلّ السوريّين. ولم يخفّ زخم الحرب الدبلوماسية الأميركيّة والفرنسيّة التي أنشأت تكتلاً دولياً ضد سورية، أصبح المنبر الأساسيّ للحرب الدبلوماسية ونواته واشنطن وباريس وأنقرة ولندن والرياض والدوحة و60 دولة أخرى. كما أنشأت أيضاً هيئة باسم "أصدقاء الشعب السوري". وكانت هذه الهيئة تعقد مؤتمرات وتصدر بيانات تعترف مثلاً بـ"المجلس الوطنيّ السوريّ" وتعرّض على المزيد من القتال في سورية.

الدور التركيّ

تركيّا، عضوة حلف الناتو وحليفة "إسرائيل" والدولة غير العربيّة، أرادت أن تصبح "مربط خيل السنّة العرب" كما كانت السلطنة العثمانيّة من قبل. فبدأت حملات ترويح دعائيّ لنفسها وادّعت نصرة فلسطين، لأنّ أنقرة تعرف أنّ ذلك يجلب عاطفة الشعب العربيّ. ولكنّ تركيا كانت تكذب، فهي حافظت على علاقات وثيقة بـ"إسرائيل" وأميركا، وكدولة عضو في الناتو دورها الأساس هو مواجهة روسيا حليفة سورية. وهي اكتفت بمواقف كلامية من "إسرائيل" كما فعل الزعماء العرب وبعض ساسة لبنان في الإعلام والمؤتمرات ثم التظاهر بالغضب من أعمال "إسرائيل"، دون أن يرافق كلّ ذلك أي إجراء عمليّ.

لعبت تركيا دوراً منسجماً مع سياسة أميركا والغرب، وتزعمتها جماعات دينية حيث سيطرت على تركيا حكومة أخوانية عقيدتها مهادنة "إسرائيل" وتبادل السفارات معها والاندماج في النيوليبرالية الغربية. وكانت تركيا تدفع لتغيير النظام السياسي في بعض الدول العربية مستندة إلى إرثها في المنطقة عندما كانت اسطنبول عاصمة إمبراطورية عثمانية. وكثر الترويج لتركيا في السنوات التي سبقت الحرب السورية كمحطة للإسلام. وأخذ زعماء عرب ومنهم سعوديون ولبنانيون وفلسطينيون يزورونها ويقدمون الولاء. وباتت اسطنبول قبلة المعارضة السورية، حيث تعقد مؤتمراتها وتقيم قواعد عسكرية حدودية للمسلحين. حتى أن تسميات "مجلس اسطنبول" و"ائتلاف اسطنبول" أطلقت بدون حياء على المعارضة السورية الخارجية.

ومنذ ربيع 2011 أخذ رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان ورئيس الجمهورية عبدالله غول ووزير الخارجية أحمد داوود أوغلو يستعملون لغة غير معتادة في قسوتها ضد سورية. كل هذا العداء جاء من دولة كانت تسعى سورية معها منذ 1997 لأن تصبح حليفة للعرب ضد التهديد الإسرائيلي. تركيا التي وعدت بصفر مشاكل مع جيرانها صبت جهداً غير مسبوق للقضاء على سورية الدولة العربية المحورية. فكان موقف تركيا مستغرباً خاصة أنها قدمت نفسها كصديق حميم لسورية، لتتقلب وتضغط بشكل شبه يومي لمغادرة الرئيس السوري.

أثناء الحرب السورية أصبحت أنقرة مركزاً للجماعات المناهضة للحكم في سورية وتحولت حدودها مع سورية إلى جبهة مفتوحة وشكلت طرفاً في ثلاثي ضم قطر والسعودية، قدم الأسلحة والمعدات للجماعات المسلحة ودعم كبيراً على كافة الأصعدة الإعلامية والديبلوماسية والنشاط شبه اليومي لكبار ساسة هذه الدول. فكان زعماء هذه الدول يصرون باستمرار أن "النظام سيسقط خلال أيام". ويتردد صدى ذلك أميركياً ليصرح جيفري فلتمان أنه "ما لم ينتخ الأسد فإن سورية ستدمر". وفي آب 2011 أعلن أردوغان أن "صبر تركيا قد نفذ". كما صعدت تركيا ودول الخليج وأوروبا لهجتها ضد دمشق وخرج داود أوغلو بتصريح قال فيه إنه لن يتصل بالرئيس السوري بعد اليوم. وفي 30 تشرين الثاني 2011 أعلن أوغلو قطع العلاقات التركية - السورية ووقف التعاملات المالية.

كان لتركيا إذاً الدور الرئيسي في الحرب على سورية ودور حاضن لـ "الجيش الحر" والمليشيات الأخرى حيث قدمت حكومتها الدعم العسكري والميداني واللوجستي للمليشيات وقدمت تسهيلات لإقامة مراكز قيادات مجموعات مسلحة وغرف عملياتها في لواء الإسكندرون السوري السليب القريب من حلب ومن إدلب، وفي مناطق حدودية في جوار مدن نصيبين وعينتاب ومرعش. فكانت المليشيات تتسلل من تركيا وتشن هجمات على مدن وقرى سورية، مستغلة الحماية التركية. ثم ضيقت تركيا مجالها الجوي أمام الطائرات المتجهة من سورية واعتزت سفناً في طريقها إلى سورية. وأجبرت المقاتلات التركية طائرات ركاب سورية قادمة من موسكو على الهبوط بأنقرة. وحرّضت تركيا لقيام منطقة عازلة في شمال سورية وفرض حظر جوي يقوم به حلف الناتو. فكانت تصريحات أردوغان تدعو الغرب لأخذ هذه الإجراءات بشكل أسبوعي وإلى "فتح ممرات إنسانية" وهو "كود" اجترحته الديبلوماسية الفرنسية لدخول فرق غربية بداعي التدخل الإنساني لتحتل مواقع استراتيجية داخل سورية. وأعلن أردوغان تكراراً أن "بلاده تبحث إقامة منطقة عازلة على الحدود مع

سورية".

ومنذ تشرين الأول 2012، أخذ الجيش التركي يقصف أهدافاً داخل سورية، ويتذرّع بسقوط قذائف داخل تركيا ليقصف مواقع عسكرية داخل سورية. وانطلقت سلسلة تصريحات لكبار القادة الغربيين يعلنون دعمهم لتركيا ضد "التهديد السوري". وأصدر حلف الناتو بياناً ضد سورية. اجتهدت الدبلوماسية السورية لمواجهة التهديد التركي، فصرّح بشار الأسد أنّ سورية ليست عدوة لتركيا بل مشكلتها هي مع حكومة أردوغان فقط. ومنعت سورية تحليق الطيران التركي فوق أراضيها. ومنذ مطلع 2013، أصبحت أكاذيب "تهديد سورية لتركيا" و"استعمال سورية للسلاح الكيماوي" حجة لاحتمال غزو الناتو لسورية أو ضربة أميركية.

لقد أدّت أعمال تركيا ضد سورية إلى تشرد ملايين المواطنين في مدن شمال سورية وخاصة من مدينة حلب، كما فرّت أعداد كبيرة من أرمن سورية إلى أرمينيا ولبنان ودول أخرى. وحاولت تركيا استمالة التركمان والشركس ولكن هؤلاء تمسكوا بهويتهم السورية. كما حمل تدخل تركيا في سورية محاذير عرقية، حيث شعرت الأقليات الإثنية بالخطر وخاصة الأكراد والأرمن الذين عانوا الأمرين داخل تركيا نفسها لأجيال عدة.

الحقيقة كانت أنّ الحكومة التركية لعبت الدور الذي رسمته لها الولايات المتحدة كعضو صغير في حلف شمال الأطلسي، ما سمح لها بتنغيص عيش سورية والعراق. فانتفخت تركيا زهواً مزيفاً على أنّها جبار إقليمي وهدّدت سورية مراراً، ودعمت "إسرائيل" - ولا تزال - ضد حقوق الشعب الفلسطيني، واقتحمت شمال العراق مراراً كما فعلت "إسرائيل" في جنوب لبنان. وقامت تركيا ظلاماً وعدواناً باستغلال مياه الفرات وحجبتها عن العراق بنسب لا تراعي القانون الدولي حول الأنهر العابرة للبلدان. فعانى أهل العراق من شح المياه. وفي مطلع 2014 حاولت تركيا وفشلت اقتحام سورية من بوابة بلدة كسب السورية لفتح ثغرة على ساحل اللاذقية. ولم توفّر تركيا أسلوباً متوحشاً في أذية سورية. ففي ربيع 2014، قطعت تركيا مياه نهر الفرات، ما أُنذر بكارثة كبرى وانخفض منسوب المياه في "بحيرة الأسد" التي تخزّن مياه الفرات نحو ستة أمتار، وحرّم ملايين السوريين من مياه الشفة. ومضاعفات الاعتداء التركي أدّت إلى انخفاض مستوى المياه التي تغذي ريف حلب الشرقي ما حرم سبعة ملايين سوري من المياه. كذلك توقف سد تشرين عن تلقي أي قطرة ماء، وبالتالي توقفت عنفات التوليد الكهربائي فيه، ما يعني خفض كمية الكهرباء لحلب وريفها. أما في الرقة، فقد باتت الجهة الشماليّة من بحيرة الأسد خارج الخدمة، ما هدّد بعطش مليوني سوري.

جماعات المعارضة السوريّة

أبّ من قوى المعارضة سواء في الداخل أو في الخارج لم يقتنّ ميليشيا خاصة به منذ اشتعال الحرب السوريّة عام 2011 باستثناء جماعة الأخوان المسلمين التي حملت السلاح منذ ستينيات القرن العشرين وشكّلت العمود الفقري العسكريّ لمعارضة الخارج وللجماعات المسلّحة في الداخل طيلة عقود. وفيما دعمت أغلبيّة معارضي الخارج خيار عسكرة الأزمة والتدخل الغربيّ، بل حرّضت على ضرب سورية، التزم بعض أطراف

المعارضة سلمية الحراك، وجنح البعض نحو الحوار الوطني واعتبر كل من يحمل السلاح ضد الدولة خائناً للوطن.

منذ عام 2011 لم تُعد عضوية جماعة الأخوان المسلمين تقتصر على سورين فقط بل بات أخوان سورية جزءاً من تنظيم عالمي ضمّ الوهابية وشبكة القاعدة، يتمتعون بشبكات تمويل وتعبئة وتسليح وعلاقات واسعة ودعم عربي وتري وغربي واسع، لا سيما من الولايات المتحدة. ولذلك فعمق علاقة الأخوان بالخارج وتورطهم في الحرب على سورية، منح الدولة السورية الحق بالدفاع عن شعبها وسيادتها ضد فئة سعت نهائياً جهاراً في عقيدتها ومنذ 80 عاماً إلى اليوم، إلى تدمير الدولة المدنية السورية وإقامة دولة رجعية دينية تعتبر أعضاء ومانصري الأحزاب العلمانية السورية كالبعث والشيوعي والقومي كفرة، والأقليات الدينية هراطقة. ادعاء الأخوان تمثيلهم لسنة سورية لم يكن دقيقاً، وتصريحاتهم وما يُطلقون على شبكات التواصل الاجتماعي وكأنهم ينطقون بلسان سنة سورية ضد أقلية حاكمة، أقل دقة. إذ إن سنة سورية هم سوريون أولاً ويفضّلون الحياة العصرية المدنية ويقفون إلى جانب دولتهم ويرفضون نماذج الخليج والسعودية الغربية عنهم وعن تراثهم السياسي والحضاري. والنسبة العظمى من سنة سورية تريد السلام والاستقرار في بلادها، وتمسك بسلطة القانون وليس ما جلبته جبهة النصرة وداعش.

قبل الحرب عمل الأخوان والتنظيمات الإسلامية المشابهة على تثبيت أقدامهم داخل المدارس والجامعات السورية، وكان هدفهم تنظيم جيل جديد من المجاهدين ضد الدولة. ولم يكن هدف هذه الجماعات مطلبياً أو إصلاحياً، وهم باتوا صريحين علناً مع اشتعال الحرب، بأن الهدف هو تسلّم الحكم بالكامل، لا أكثر ولا أقل، وبقوة السلاح والإرهاب. إذ رغم أن حكومات سورية متتالية منذ السبعينيات حتى اليوم عكفت على تطبيق إجراءات لتحسين الوضع الاقتصادي والاجتماعي للمواطنين، ورفعت رواتب موظفي الدولة والقطاع العام وشنت حملة ضد الفساد والمفسدين بمعاونة وسائل الإعلام، ورعت الانفتاح السياسي والتعددية الحزبية وإلغاء قانون الطوارئ، الخ. إلا أن كل هذه الإجراءات لم تقنع الأخوان بوقف مسلسل التفجيرات والاعتقالات الذي سبق الأزمة الراهنة منذ 1964 وخاصة في 1979 - 1982 ثم في السنوات الأولى من عهد بشار الأسد. إذ إن علاج الوضع الداخلي لا يعينهم، ورفاهية المواطن السوري آخر همومهم، بل أرادوا وداعميهم الخارجيين، وخاصة الولايات المتحدة، تدمير سورية.

جاءت نسبة كبيرة من تمويل الجماعات الإسلامية المسلحة من الخليج والسعودية. كما أيدت الإسلاميين جماعاتٌ سعوديةٌ وخليجية كثيرة. فكان الأخوان مدججين بالسلاح ويتمتعون بالمال والدعم الإعلامي والسياسي، مدرّبين ومجهّزين. ومنذ 2011 بات دور السعودية والخليج في تخريب سورية أكبر مئة مرة من السابق. ودأبت وسائل إعلامية أوروبية وأميركية وأجهزة مخابرات غربية على دعم حرب الإسلاميين في سورية والترويج لأرائهم. وهاجمت هذه الأجهزة دولة البعث طيلة تلك السنوات. أمّا محاباة الكتاب والإعلاميين الفرنسيين للأخوان والتي برزت بكثرة منذ 2011، فإن جذورها بدأت في السبعينيات. ومن الأمثلة دور الباحث الفرنسي ميشال سورا في كتابه عام 1984 عن أحداث سورية في السبعينيات والثمانينيات وهو كتاب متعاطف مع جماعة الأخوان يصف معركة حماة بالمجزرة، ويصف السلطة في سورية بأنها وجه الدولة القمعية

البولييسية. وهكذا كان يروج كتّاب وصحافيون عرب وأجانب ومعهم معارضون سوريون منذ تلك الفترة لتشويه سمعة سورية. مع أن بعضهم استقبلته سورية بالترحاب وساهمت في نفقاته ليتنقل في البلاد ويتكلم إلى من يشاء من معارضين ليعود إلى بلاده وفي رأسه نيات سوداء.

قبل 2011 قامت جماعة الأخوان بقيادة البنايوني المقيم في لندن ومعهم تنظيمات صغرى كحركة جند الشام بأعمال إرهابية داخل سورية. وعلى سبيل المثال في حزيران 2006 وقعت معركة بالأسلحة الفردية بجوار وزارة الدفاع في دمشق، كما حاولت مجموعة تكفيرية نفس السفارة الأميركية في دمشق في أيلول من العام نفسه وجرت معركة بين الأمن السوري والمهاجمين. ولقد قام البنايوني بزيارة واشنطن والتقى مسؤولين أميركيين للحصول على الدعم واكتساب صفة ليبرالية. وكان على سورية أن تأخذ جانب الحذر من الأصوليات الإرهابية التي فرّخها الاحتلال الأميركي في العراق ومن فتح الشام وتنظيمات أخرى في شمال لبنان خاضت معارك ضد الدولة اللبنانية والجيش اللبناني منذ 2001، ولكنها لم تفعل.

لقد سعت الدول العربية والأجنبية المناهضة لسورية إلى خلق تكتلات خارجية بوجه مدني ما سمح لجماعة الأخوان التستر خلفها وادعاء الديمقراطية والدولة المدنية. ولكن في الواقع، تبين أن أسماء تنظيمات وأحزاب وشخصيات عديدة انضوت في تكتلات معارضة الخارج لم تلعب دوراً يذكر بل بقي الأخوان والتكفيريون هم المحرك الرئيسي. إذ برزت في أحداث الحرب تشكيلات سياسية عديدة بدفع من الدول الداعمة لها أو لرغبة قياداتها في توحيد الجهود. وأهم هذه التشكيلات "المجلس الوطني السوري" و"الائتلاف الوطني السوري" و"هيئة التنسيق الوطنية".

"هيئة التنسيق الوطنية لقوى التغيير الديمقراطي"

رأس هذه الهيئة حسن عبدالعظيم ونائبه عارف دليلة وكانت جزءين: هيئة داخلية، وهيئة خارجية رأسها هيثم المناع من فرنسا. وتألّفت الهيئة من أحزاب سياسية وشخصيات مستقلة، تأسست في بلدة حلبون في ريف دمشق في 6 تشرين الأول 2011. واختلفت عن "المجلس الوطني" في معارضتها لكل أشكال التدخل الخارجي والتأكيد على "سلمية الثورة ونبذ العسكرة". وهدفت الهيئة "إلى إسقاط النظام بكل رموزه" من أجل "بناء نظام ديمقراطي وتعزيز الوحدة الوطنية".

تألّفت هيئة التنسيق من أحزاب عدّة هي: حزب الاتحاد السرياني، حزب الاتحاد الاشتراكي العربي الديمقراطي، حزب العمل الشيوعي السوري، حزب البعث الديمقراطي العربي الاشتراكي، تجمع اليسار الماركسي، حركة معاً من أجل سورية حرة ديمقراطية، الحزب اليساري الكردي في سورية، حزب الاتحاد الديمقراطي، الحزب الديمقراطي الكردي في سورية، الحزب الديمقراطي الكردي السوري، وحركة الاشتراكيين العرب. وأيدت الهيئة مشاركة أعضاء من الحكم في المرحلة الانتقالية في سورية وفق سيناريوات الحل السياسي، وشددت على أن الإطاحة بالحكومة السورية بالقوة إمّا تقود إلى الفوضى. وقال حسن عبد العظيم "نرفض التدخل الأجنبي ونعتقد أنه لا يقل خطورة عن الاستبداد ونرفض الإثنين معاً". وتعتقد هيئة التنسيق أن بعض قادة "المجلس

الوطنيّ" يخضع للأخوان، وقال هيثم المنّاع: "إن المجلس الوطنيّ هو مجموعة محترفين لا ينتمون إلى قوى سياسية معروفة". ووصف معارضة "مجموعة اسطنبول" بـ"نادي واشنطن" وأشار إلى التمويل الأميركيّ والخليجيّ.

"المجلس الوطنيّ السوريّ"

أُعلن عن تأسيس "المجلس الوطنيّ السوريّ" في اسطنبول في 2 تشرين الأول 2011 وهدفه الإطاحة بالحكومة السوريّة بالقوة ورفض الحوار معها. ودعا في ميثاقه إلى الحفاظ على حقوق الإنسان واستقلال القضاء وحرية الإعلام والديمقراطيّة والتعدديّة السياسيّة. ولكن الخلافات كانت دائمة داخل هذا المجلس الذي ضمّ الأخوان المسلمين والجيش الحرّ وتنظيمات سياسيّة وقيادات من معارضة الخارج ومنظمات مجتمع مدنيّ وجماعات مسلّحة أخرى. وعمّق الخلاف داخل المجلس بروز جوانب مذهبيّة وإثنية وخاصة حول الأكراد والأرمن والمسيحيّين وغياب أي خطة عمليّة للتعامل مع الطائفة العلويّة الأكبر في سورية بعد السّنة.

رأس هذا المجلس برهان غليون لكنه استقال بعد أشهر في 23 أيّار 2012 بعد خلافه مع "الأخوان". ومن أمثلة الخلاف أنّ غليون لم يحدّد الغزو الخارجيّ لسورية - بعكس الأخوان الذين غضبوا منه وهدّده الشيخ عدنان العرعور بقطع لسانه. كما زار غليون موسكو وعاد منها ليوحي أنّه يتبنّى الحل الروسي. وأثناء فترة رئاسته القصيرة أضع غليون الكثير من رصيده الأكاديمي، وساوّم في مواقفه التي كانت تصبّ في السابق في إطار الوطنيّة والعلمنة. كما أنّه أعلن في مقابلة مع وال ستريت جورنال أنّه بعد تسلّم المعارضة الحكم في سورية يُفضّل استرجاع الجولان "عبر المفاوضات مع "إسرائيل" (...) ويؤيّد إزالة أسلحة سورية الاستراتيجية وسيقطع علاقات سورية مع إيران وحزب الله. ولقد تساءل كثيرون مقابل ماذا كلّ هذه التنازلات وكيف نحمي سورية إذن؟ كما وعد غليون في المقابلة أنّ البرلمان السوريّ الجديد سينظر في تطبيق الشريعة الإسلاميّة التي قد تعكس أغليبيّة أعضاء البرلمان في المستقبل من المسلمين. وهذه المواقف حرفياً هي مواقف السعوديّة ودول الخليج وتركيا وكل من سار في ركاب النيولبراليّة الأميركيّة من أخوان وغيرهم.

بعد استقالة غليون، انتخبت الأمانة العامة للمجلس عبد الباسط سيدا - الأستاذ الجامعي في السويد - رئيساً للمجلس في 9 حزيران 2012، وهو ناشط كردي من الحسكة. فوَقّر سيدا للمجلس وجهاً مدنيّاً أوروبياً كرديّاً، فاستطاع الأخوان والتكفيريّون أن يدّعوا أنّ "الأكراد معنا". ثم غادر سيدا منصبه بعد خمسة أشهر فانتخب المجلس في الدوحة (قطر) في 9 تشرين الثاني 2012، جورج صبرا رئيساً، ما وُقّر "وجهاً مسيحيّاً" للأخوان بهدف التسويق الإعلاميّ في أميركا والغرب بأنهم يقبلون رئيساً مسيحيّاً. ولكن الأخوان عيّنوا محمد فاروق طيفور نائباً لصبرا كي يحصي حركاته ويشير عليه ما يقول. وطيفور هذا من قياديي الأخوان ورأس جماعات مسلّحة داخل سورية. كما أحاطوا صبرا بقيادات أخوانيّة ما مَيّع منصبه كثيراً وبقي له أن يجري المقابلات ويطلق التصريحات وحسب.

رأى مراقبون أنّ "المجلس الوطني السوري" هو من مطابخ المخابرات الفرنسية والتركية والأميركية. وأنّ قطر مؤلّت نواحيه اللوجستية في حين مؤلّ مؤتمر المجلس الذي انعقد في مدينة أنطاليا في تركيا رجال أعمال سوريّون معارضون من آل سنقر حسب صحيفة الغارديان، وأنّ رؤساء المجلس الثلاثة المتعاقبين (غليون وسيدا وصبرا) استعملوا كوجوه ليبرالية للتسويق لتحالف سياسي يعرفون أصلاً أنّه واجهة تجميل للأخوان وغطاء للإسلام السياسي. فكانوا أداة بيد الأخوان أعطوهم وجهاً علمانياً ثم كردياً ثم مسيحياً، فانتهى الرؤساء الثلاثة إلى مدافعين عن "جبهة النصرة" وبرّروا قتلها للمسيحيين والأقليات وهاجموا من يعارض الحكم باسم شرع الإسلام. والمفارقة أنّ جورج صبرا كان أكثرهم تبنياً لمواقف الأخوان، ليس بالكامل بل بنسبة 110 في المئة، أي أكثر مما يطلبون. لأنّ تصريحاته تميّزت بناريتها وتطرفها وعدم اتزانها، رغم موقعه كرئيسٍ لتحالف يريد أصحابه تسلّم السلطة في سورية.

"الائتلاف الوطني السوري"

في ظل غياب تطور عسكري ميدانيّ مهم في 2011 و2012، لم يحقّق "المجلس الوطني" إنجازات ملموسة سياسية ولم يقترب من تسلّم السلطة في سورية. وبقي منقسماً على ذاته. فضغطت الدول الداعمة لحرص صفوف المعارضة الخارجية مجدداً. وبعد فوز باراك أوباما بفترة رئاسة ثانية في 7 تشرين الأول 2012، رعت قطر والولايات المتحدة مؤمراً للمعارضات الخارجية في قطر في الأسبوع الثاني من تشرين الثاني 2012. وتوصل المؤتمرون إلى تشكيل جبهة واسعة كان روبرت فورد سفير أميركا السابق في سورية أبرز منظميها، حيث حضر الاجتماع وقدم لوائح الأسماء التي توافق عليها واشنطن كعضوة في الائتلاف. وفي نهاية المؤتمر أُعلن قيام "الائتلاف الوطني السوري للقوى الثورية والمعارضة" وعندها لم يعد ثمة حاجة لوجه مدني طالما أنّ الحرب قد اتضحت داخل سورية بين جماعات التكفير والدولة. فانتخب المؤتمرون الداعية الأخواني أحمد معاذ الخطيب رئيساً للائتلاف، إضافة إلى رياض سيف وسهير الأتاسي نائبين للرئيس ورجل الأعمال مصطفى صباغ أميناً عاماً. وكانت هيكلية الائتلاف الجديد وعضويته تعكس رؤية هؤلاء حول تركيبة البرلمان السوري والحكومة السورية في المستقبل إذا تسلّموا السلطة.

بدأت الدول الداعمة للجماعات المسلّحة بالاعتراف بالائتلاف كـ"ممثل شرعيّ للشعب السوري"، وأولها فرنسا حيث استقبل فرنسوا هولاند أحمد معاذ الخطيب بحفاوة في باريس وأعلن موافقة فرنسا على تعيين منذر ماخوس سفيراً للائتلاف لديها. وأصدرت الولايات المتحدة بياناً هنّأت فيه بتشكيل الائتلاف، وأنّ واشنطن "تتطلّع إلى دعم الائتلاف الوطني في خط طريقه نحو نهاية حكم الأسد الدموي، وبداية مستقبل سالم وعادل وديمقراطيّ يستحقه كلّ السوريين". وفي 12 تشرين الثاني، اعترفت دول مجلس التعاون الخليجيّ (السعودية وقطر والبحرين والإمارات العربية المتحدة والكويت وعمان) بالائتلاف وسحبت اعترافها بالحكومة السورية. وانضمت إليها بعد ساعات، مصر التي سيطر على حكمها الأخوان في ذلك الوقت، وليبيا وتونس ودول عربية أخرى باستثناء الجزائر والعراق ولبنان. وخرج الاتحاد الأوروبي بيان يعتبر "الائتلاف الوطني السوري" ممثلاً

شرعياً للشعب السوري في 10 كانون الأول 2012. أما واشنطن فبعد إدراجها "جبهة النصرة" في لائحة المنظمات الإرهابية في 11 كانون الأول، أعلن أوباما في 12 كانون الأول 2012 اعتراف أميركا بـ"الائتلاف الوطني السوري".

إضافة إلى التشكيلات السياسية المتعددة التي ذكرناها، ظهرت على الساحة السورية ميليشيات مسلحة كان أبرزها في العامين الأولين الجيش الحر، ثم جبهة النصرة منذ خريف 2011 وبعدها الدولة الإسلامية في العراق والشام - داعش و"الجبهة الإسلامية" منذ 2012، إضافة إلى عشرات الجماعات تحت مسميات شتى وفق المنطقة الجغرافية ومصادر الدعم الخارجي، منها "أحفاد الرسول" (تابع لحركة "حماس" الفلسطينية) و"أنصار الشريعة" و"أنصار الله" و"لواء الفاروق".

الجماعات المسلحة

الصبغة الطاغية لكل الجماعات المسلحة في سورية - بما فيها ميليشيا الجيش الحر - كانت الإسلام السياسي الذي صبّ أولاً وأخيراً في نطاق جماعات الأخوان والتكفيرية السلفية. فلم تختلف الجماعات المسلحة في سورية عن تلك العاملة في العراق وعن تنظيم القاعدة. فبعد حراك شعبي طالب بالحرية في 2011، انتهى الأمر بـ"الثوار" المسلحين إلى قناعة راسخة بأن "الحرية مطلبٌ فاسد، فديننا دين عبودية لله. لا للمدنية أو العلمانية... نعم لتحكيم شرع الله".

ومن ناحية أخرى لم تظهر في حرب سورية أي مجموعة مسلحة تابعة لحزب سياسي أو تيار ليبرالي أو يساري. إذ لم تكن عشرات التنظيمات والشخصيات في "الائتلاف" سوى ستار للهجمة التكفيرية. وعلى سبيل المثال، فبرهان غليون وجورج صبرا وميشال كيلو وغيرهم كثيرون ابتعدوا عن الأضواء بعد شهور من بدء الأحداث ولم يكن لديهم أي نفوذ أو رأي، حتى على مسلح واحد على الأرض. وقس على ذلك عشرات غيرهم ممن كانوا زينة تجميلية للحرب البشعة على سورية.

لقد دخل سورية آلاف المرتزقة تحت مسميات "جبهة النصرة" و"غرباء الشام" و"أحرار الشام" و"داعش"، ضمت عناصر من تونس وليبيا ولبنان والعراق والسعودية ودول الخليج والشيشان وفلسطينيين ومن جنسيات أخرى أبرزها من دول أوروبية كفرنسا وألمانيا وكذلك من الولايات المتحدة.

حتى أنّ المعلومات والأرقام الرسمية كانت تصدر عن دول غريبة أنّ مئات وآلافاً من مواطنيها هم مقاتلون في سورية. وفي الحقيقة أنّ هذه الدول جمعاء لم تكن لتتحرك ملة عبر حدودها إلا وتعلم بها مسبقاً. فيكف بمقاتلين مدربين ومسلحين يحملون جوازاتها ورحلتهم إلى سورية منظمة ومدروسة وبدون موارد. فليست صور المرء وجوه موظفي الجمارك والمطارات ومسؤولي الأمن والجيش في تركيا وهم يرون آلاف المرتزقة يمرّون ويتصرفون وكأنهم في بيتهم، في حين كانت تركيا سابقاً دولة محترمة تريد دخول الاتحاد الأوروبي.

ورأوح عدد المسلحين في أنحاء سورية بين 75 ألفاً في مطلع 2013 ووصلوا في ذروتهم إلى مئتي ألف. وكانت نسبة 85 في المئة منهم نظمتهم ودفعت أجورهم كمرتزقة تنظيمات أخوانية وسلفية و15 في المئة متطوعون

محلّيون. وكان ثقل هذه الجماعات المسلّحة متمركزاً حول العاصمة دمشق والغوطة، أي نحو 30 إلى 50 الفاً، لأنّ القامّين بالحرب أعطوا الأولوية لإسقاط دمشق. وبالدرجة الثانية مدن سورية الوسطى وخاصة الخط الموازي لأوتوستراد حمص - حلب، لأنّ القامّين بالحرب عوّلوا على السيطرة على مدينة حمص ليقطعوا الجنوب عن الشمال. ففي منطقة حمص أصبحت منطقة عكّار في شمال لبنان امتداداً للمعارك، حيث دخل سورية عبر لبنان أكثر من 17 ألف مسلّح من لبنانيين وفلسطينيين وجنسيّات مختلفة معظمها من السعودية والخليج.

ولكن الضغط العسكريّ الحقيقيّ والخطير كان من حدود تركيا لقرّبتها من مدينة حلب، حيث توافد ألوف المسلّحين وخاصة الجيش الحر، مدعومين من الجيش التركيّ. كما دخلت عناصر تكفيرية وأبرزها داعش من العراق إلى مناطق تمتد من دير الزور إلى القامشلي. فكانت نواة الحرب فعلاً لسنوات طويلة هي مدينة حلب والشريط الحدودي مع تركيا.

مصادر التسليح والإمدادات

دعمت الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا الجماعات المسلّحة بالأسلحة والعتاد وصواريخ ستنغر وأجهزة الكترونية ومعلومات عسكرية دقيقة حصلت عليها بالأقمار الصناعية وأدوية ومساعدات طبية وتجهيزات ميدانية. وأي من هذه المساعدات العسكرية وغيرها لم تكن لتكون متوقّرة بدون رضى تلك الدول ودعمها وتمويلها المباشر وغير المباشر. وكانت الجهات التي تحارب الدولة السورية على الأرض ومن الخارج تقدّم الدليل تلو الآخر حول ولائها للأعداء. إذ عندما ازدادت وتيرة التهديد الأميركيّ بالقيام بغارات على سورية على خلفية أزمة السلاح الكيميائيّ في آب وأيلول 2013، وقفت الجماعات المسلّحة وجماعة الائتلاف موقف المؤيّد لها والمرحّب بها والمحرّض عليها. كما أنّ بعض أطراف وشخصيات معارضة سورية قامت بالتحريض على التدخل الخارجيّ العسكريّ على طريقة حلف الناتو في ليبيا عام 2011. وكانت حالة إحباط هؤلاء ومعهم السعودية وتركيا كبيرة عندما عدلت أميركا عن توجيه ضربتها.

في أي بلد في العالم، إنّ هذه التصرفات والتحريض على عدوان خارجي تأتي في باب الخيانة العظمى وعقوبتها الإعدام.

إضافة إلى الدعم العسكريّ واللوجستي ونقل المسلّحين من بلدان عدّة جواً وبراً وبحراً للقتال في سورية، حيث قامت القواعد العسكرية البريطانية في قبرص بالتنصّت ومراقبة تحركات وعمليات الجيش السوريّ، لتبعثها أولاً بأول إلى المخابرات التركية التي نقلتها بدورها إلى "الجيش الحر" والجماعات المسلّحة. كما نشطت المخابرات الأميركية في المناطق الحدودية بين سورية وتركيا وفي أوساط الجماعات المسلّحة تعدّ تقارير عن استعداد وجهوزية هذه الجماعات وأنواع السلاح المطلوب، مقدّمة اقتراحات للإدارة الأميركية عمّن يستحق التسليح والتمويل والتدريب. وهي نشاطات برعت بها هذه الأجهزة في أزمات عدّة حول العالم من أفغانستان إلى أفريقيا وأميركا اللاتينية والوسطى. ونشط عرب ومنهم لبنانيون أعضاء في البرلمان اللبناني وفي

مناصب رسمية لبنانية في شراء السلاح في أوروبا وإدارة غرف عمليات لاستقبال الإمدادات العسكرية وتوزيعها من تركيا.

وكانت واشنطن تحتاج إلى تقييمات ميدانية دورية عن إنجازات متوقعة للجماعات المسلحة حتى تعرف كيفية التعامل مع روسيا والدول الأخرى في اللقاءات الثنائية وفي المؤتمرات. فعندما كانت الجماعات المسلحة تعلن عن "انتصارات ميدانية" كانت الإدارة الأميركية تصعد مواقفها وتتصلب في المحادثات وتطلق تصريحات قاسية ضد سورية. وكانت الدول العربية وفرنسا وبريطانيا وغيرها من الدول، تتلقف الإشارة الأميركية وتقوم هي أيضاً بالتصعيد، وهكذا دواليك. يلي ذلك تصعيد من الفضائيات بمقابلات وتصريحات وتقارير أكثرها مفبرك.

ورغم كل هذا التحضير والدعم الخارجي، إلا أن الانسجام والتواصل بين هذه المجموعات كان غائباً. وتوقع المراقبون أن المواجهات القاتلة بين هذه الجماعات سيكون التطور الطبيعي. فبدأت ومنذ 2012 اشتباكات بين "جبهة النصرة" وجماعة "لواء التوحيد" في حلب وريفها بعد خلافات على توزيع المغنم والمسروقات، ونزاع حول إدارة مناطق ريفية حلبية وإدلبية. ثم تطور الأمر إلى معارك مفتوحة بين داعش وجبهة النصرة والجيش الحر وتنظيمات الأخرى سقط جرائها آلاف القتلى والجرحى، خاصة في شمال البلاد وشرقها. وكان ثمة ميليشيات تقف إلى جانب الدولة السورية أطلقت عليها الفضائيات المناهضة لسورية لقب "الشيحة"، كما أطلقت هذه الفضائيات بدون حياء اسم "كتائب أسد" على الجيش السوري الرسمي. وروجت أن الميليشيات المؤيدة للجيش السوري هي علوية، ولكن مراسلين أجانب أكدوا أن أنصار الجيش من السوريين ضموا الكثير من الشبان السنة برزوا خاصة في مدينة حلب وضواحيها وفي معارك حمص والرستن ومعرة النعمان. كما كان شبان ينظمون أنفسهم في قرى وبلدات للدفاع عن بيوتهم ضد المسلحين ومنهم كثيرون في قرى وبلدات مسيحية، وبرزت فصائل من أحزاب علمانية وقومية كالحزب السوري القومي الاجتماعي. فشاء الإعلام المعادي أن يكون كل هؤلاء "شيحة". بالمقابل، أطلقت الفضائيات العربية تسميات إيجابية وملطفة على الجماعات المسلحة المناهضة للدولة السورية فأبرزت أخبارها وأجرت المقابلات مع أمرائها.

موجة العدوان الأولى

في العام 2011 كان الجيش الحر أبرز القوى المسلحة في الموجة الأولى من العدوان على سورية. ففي 29 تموز 2011 ظهر شريط مصور على شبكات التواصل الاجتماعي لرجال في زي عسكري يقولون إنهم منشقون عن الجيش السوري ويعلنون تأسيس "الجيش السوري الحر"، دعوا الجنود والضباط في الجيش السوري للانشقاق. ثم خرجت تقارير غير مؤكدة أن أعداداً إضافية من الجيش السوري قد انشقت، وأن آلاف المتطوعين أخذوا ينتسبون إلى "الجيش الحر". إلا أن الأيام كشفت أن الفارين من الجيش السوري كان عددهم محدوداً توجهوا إلى قراهم أو اختبأوا لدى أقربائهم، ولم ينخرطوا في صفوف الجماعات المسلحة.

وثبت أن "الجيش الحر" لم يكن جيشاً ولم يكن حرّاً. صحيح أن مئات العسكريين قد انشقوا عن صفوف الجيش والقوى الرسمية، ولكن القول إن عدد هؤلاء قد ناهز عشرة آلاف لم يكن صحيحاً. حتى أن بعض الفضائيات أخذ يتكلم عن 25 ألف جندي منشق عام 2011، رغم أن كامل عدد "الجيش الحر" في العام الأول لم يتجاوز الخمسة آلاف. وحتى المراسلين الأجانب الذين رافقوا عمليات "الجيش الحر" اكتشفوا أن معظم عناصره كانوا من المدنيين المسلّحين وليسوا من العسكريين، ونادراً ما التقى هؤلاء المراسلون عنصراً أو قائداً ميدانياً "للجيش الحر" قال إنه جنديّ سوريّ أو ضابط منشق من الجيش السوريّ. وحتى عندما كانت تحصل انشقاقات فإن الجنود والضباط الفارين كانوا يأتون إلى "الجيش الحر" بأسلحة فردية أو بدون أسلحة فردية، ولكن الأکید ليس مع دبابات ومدافع وآليات. ولذلك لم يعد "الجيش الحر" كونه ميليشيا تخوض حرب شوارع كالتنظيمات المسلّحة الأخرى.

كما كان واضحاً من أسماء ألوية وكتائب "الجيش الحر" أنه لم يرقم على أسس وطنية تجذب السوريّين، بل كانت خلفيته مذهبية فاضحة، كـ"لواء الإسلام" في دمشق وريفها و"لواء التوحيد" في حلب وريفها، وكتيبة "الأمويّين" و"الزبير بن العوام" و"الخطّاب" و"كتيبة أحمد بن حنبل" وكتيبة "أنصار السنة" و"كتيبة الله أكبر" في مدينة البوكمال، و"كتيبة طيور أباييل" في حلب و"كتيبة معاوية بن أبي سفيان" في دمشق و"كتيبة أبو عبيدة بن الجراح" في ريف دمشق و"كتيبة العمري" في درعا، وهكذا.

لقد كشفت الصحف الغربية أن الجيش الحر كان بدون قيادة موحّدة وأنه ليس تنظيمياً بهيكليّة واضحة. إذ كانت مجموعات مسلّحة عدّة تستعمل اسم "الجيش الحر" وتصدر بيانات بهذا الاسم وتدعي أن اقتحامها لتلك البلدة أو الضاحية هي من أعمال "الجيش الحر". كما كشفت تقارير مراسلين أجانب أن معظم من التقوهم كانوا سابقاً في الميدان وقبل أشهر من الإعلان عن "الجيش الحر". فكانوا ينشطون تحت أسماء مختلفة ثم جاءتهم التعليمات بأن يصبحوا جيشاً حرّاً. ودأبت تركيا، حيث اتخذ "الجيش الحر" مقراً له، الاحتفال بوصول هذا الضابط السوريّ المنشق أو ذاك عبر وسائل الإعلام على أنه نصر إضافي للثورة. ولكن حقيقة الأمر أنه خلال عام ونصف من الأزمة لم يحدث انشقاق عسكريّ من الجيش السوريّ ذا أهميّة تذكر، ولا تأثرت وحدات القتال النظامية أو مقدرات الجيش السوريّ، مقارنة بتجارب تاريخية في سورية عندما كان يرافق الانقلابات إعلان ثكنات بكاملها مع عسكرها وآلياتها وأسلحتها الخروج على النظام واحتلال المدينة التي تقع بها.

تصدّر "الجيش الحر" نشرات الأخبار في 2011 و2012 لقيامه بكمائن مسلّحة لقوافل عسكرية حكومية أو بزرع عبوات ناسفة لتفجير باصات وآليات للجيش وقوى الأمن وأحياناً أخذ رهائن. ولدى نصب الكمائن غالباً كانت أول خطوة للمسلّحين هي قتل ضباط الدوريات لتشجيع الجنود على الانضمام إليهم بموت قائدهم. كما أعلن "الجيش الحر" مراراً نسفه محطات توليد كهرباء وخطوط السكة الحديدية ومرافق ماء وكهرباء وأبنية رسمية.

قدرات "الجيش الحر" وصلت ذروتها في أواسط 2012 إذ بلغ عديد أفرادها 20 ألفاً، رغم أن أرقاماً مبالغية خرجت من حين لآخر أحدها في تصريح لقائد لواء "أحرار سورية" في "الجيش الحر" المدعو علي بلو وفيه أن

عدد أفراد الجيش الحرّ بلغ مئتي ألف مقاتل". وقلل من مصداقية هذه الأرقام أنّ الدول الداعمة "للجيش الحر" - خاصة في الخليج والسعودية - وبعد فشله المتكرّر وجّهت جهودها لدعم قوى أخرى متحمّسة بدافع دينيّ وتحت مظلة "أخوان سورية" الفضفاضة، ومسمّيات "جبهة النصرة" وألوية إسلامية وهابية مختلفة، والتي اعتبرها علي بلو حليفاً ميدانياً بقوله إنّ "مقاتلي جبهة النصرة معنا على الجبهة". وذكر تقرير للمخابرات الفرنسيّة أنّ مقاتلي "جبهة النصرة" جذورهم قاعدية وأخوانية وأنّ أغلبيتهم من جنسيّات غير سورية جاءوا لينزروا في دمشق وليس لنصرة الشعب السوريّ.

موجة العدوان الثانية

كانت جبهة النصرة أبرز جماعة في موجة العدوان الثانية، ظهرت 2011، ولكنها طغت على الجماعات الأخرى بما فيها الجيش الحر عام 2012.

في تموز 2011 ضرب تنظيم القاعدة في قلب دمشق في أيلول وسقط 4 قتلى و14 جريحاً في انفجارين استهدفا هيئة الأركان العامة. والقاعدة هي جماعة أصولية مسلّحة بزعامة أبو محمد الجولاني، أوفدها تنظيم القاعدة في العراق المعروف باسم الدولة الإسلامية في العراق. وارتكبت هذه الجماعة أعمالاً غير مسبوقه كتفجير أحياء مكتظة بالسكان وقطع الرؤوس بالسيف والتعرّض للأقليات الدينية وإعلان إمارات إسلامية هنا وهناك، وتكفير الجميع بمن فيهم السنّة الذين لا يسرون على هواهم المتطرّف. ورغم عملها في محافظة إدلب وفي شمال سورية منذ تموز 2011، فإنّ القاعدة أعلنت عن نفسها رسمياً في 24 كانون الثاني 2012، "بشرى للأمة الإسلامية بتشكيل جبهة النصرة لأهل الشام من مجاهدي الشام في ساحات الجهاد"، بلسان أميرها أبو محمد الجولاني، وهو السوريّ الوحيد تقريباً من المجموعة الأساسيّة التي وفدت من العراق. وفي 12 شباط، دعا أيمن الظواهري عناصر القاعدة من أصقاع الأرض لأن "ينفروا" إلى سورية. فبدأت "الهجرة الجهادية" لترشد النصرة بمئات المقاتلين.

وباتت جبهة النصرة الأكثر تنظيمياً والأسرع انتشاراً في سورية، حيث انتشرت في مناطق امتدت على مسافة 200 كلم من الحدود الشماليّة مع تركيا وحتى الحدود اللبنانيّة. وتميّز مقاتلوها بالتدريب ونوعيّة السلاح، فضلاً عن إمكانيّات ماليّة هي أضعاف ما كان لدى الجماعات الأخرى. ما دلّ على حجم القوى الدوليّة التي مؤّلت هذا التنظيم والمعارضات السوريّة التي وقفت وراءه. ورغم وفود قيادته من العراق، فإنّ التأسيس الصحيح لـ"جبهة النصرة" كان في تركيا بإشراف قيادة الأخوان المسلمين وفي مجلس عسكريّ رأسه فاروق طيفور - نائب المراقب العام للأخوان محمد رياض الشقفة. واعتُبر طيفور الزعيم الفعليّ للجماعة في سورية وكان من قيادات معركة حماة عام 1982 ضمن تنظيم "الطليعة المقاتلة" وجزء من التنظيم العسكريّ للأخوان. وكان الشقفة قد تولى قيادة الأخوان بعد تنحيّ علي صدرالدين البيانوني في آب 2010. ثم تولى طيفور القيادة العسكريّة بعدما بدا الشقفة ضعيفاً في المجالين السياسيّ والقياديّ. تلقى مقاتلو "النصرة" الأوامر والتعليمات مباشرة من مكتب طيفور في اسطنبول ومن غرفة عمليّات دوليّة

أقيمت على الحدود التركية - السورية ضباطاً فرنسيين وأميركيين وقطريين وأتراكاً، كشفت عنها أسبوعية "Le Canard Enchaîné" الفرنسية. ولقد أشرنا إلى مواكبة استخباريّة غربيّة واسعة للمقاتلين شملت أجهزة تنصّت ومراقبة وأقماراً اصطناعيّة، ضمن استراتيجيّة كبرى تقود المسلّحين حتى إلى أماكن تبعد عشرات ومئات الكيلومترات عن المدن، حيث تقع منشآت عسكريّة سورية ومطارات وقواعد بهدف تدميرها ونهبها وسرقة أسلحتها لتسليمها لتركيا وقوات الناتو. وأي من هذه العمليّات التخريبيّة لم يكن يصبّ في إطار ثورة شعبيّة ديمقراطيّة.

وظهر ولاء "النصرة" الأخواني عندما طلب أبو بكر البغدادي بوصفه القائد العام للقاعدة في العراق إلى أمير "النصرة" أبو محمد الجولاني وهو أدنى منه مرتبة، نسف فندق في تركيا أثناء اجتماع لرموز معارضة سورية. فرفض الجولاني لأنّ العمليّة تناقض ولاء النصرة للأخوان وتغلق أبواب تركيا في وجهها، أي وقف تدفق المال والسلاح.

ثم رفض الجولاني أوامر البغدادي مراراً فأعلن البغدادي في نيسان 2013 توحيد "دولة العراق الإسلاميّة" و"جبهة النصرة" في تنظيم واحد باسم "الدولة الإسلاميّة في العراق والشام" (داعش). فرفض الجولاني الانصياع ورفع الأمر إلى "أمير الجهاد العالمي" أيمن الظواهريّ الذي أفتى ببقاء "النصرة" في سورية و"الدولة" في العراق. ولكن البغدادي لم يوافق على التسوية واعتبر الجولاني "خائناً متخاذلاً". وانتقل الخلاف إلى صراع بين أمراء القاعدة تحوّل اشتباكات في سورية خلّفت مئات القتلى.

لقد عمد الإعلام المناهض إلى التعتيم على علاقة جبهة النصرة القاعدية الهوى والانتماء بأخوان سورية في وقت كانت قيادة الأخوان تحت أضواء الإعلام في تحركاتها العربيّة والدوليّة، وبحاجة ماسة إلى مسحة مدنيّة مسالمة أمام الرأي العام الغربيّ، فتضع جورج صبرا في المقدمة ولكن طيفور وراءه مباشرة ليكون المحرك الحقيقيّ.

ارتكاب عناصر جبهة النصرة أعمالاً بشعة هو أسلوب معروف مسبقاً لدى الأخوان لأنّ هدفهم المعلن منذ 30 عاماً هو "تنفيذ مذبحه بآل الأسد وبرموز النظام وبحزب البعث" وبسلسلة طويلة من الأعداء، انتقاماً لعقود من الصراع والقتال الذي تعرّضوا له. وكانوا يريدون فرض هيبة الأخوان وسلطتهم بسرعة في المدن والقرى التي يسيطر عليها مسلّحوهم، ما برّر القتل المجانيّ الذي غطى بدمايته شاشات التلفزة وصفحات التواصل الاجتماعيّ. وكان مفيداً كتكتيك ذرّ الرماد في العيون حول "جبهة النصرة" ليُبعد عن قيادة الأخوان عبء تحمل مسؤوليّة التخريب والجرائم بحق الشعب السوريّ. خصوصاً أنّ الأخوان كانوا يمتّون النفس أنّهم عندما يتسلمون الحكم في سورية إذا سقطت دولة البعث، سيستثمرون إنجازات "النصرة" والمليشيات التكفيرية ويستبدلون اسمها باسم آخر أكثر قبولاً يشبه اسم "الجيش السوري الحرّ" الملطّف.

عندما تظاهرت واشنطن بأنها تُدرج "جبهة النصرة" على "لائحة الإرهاب" في خريف 2012 خرجت أبوة الأخوان لهذه الجبهة إلى العلن. إذ تدافع قادة الأخوان وقادة "الجيش الحر" وجماعات سياسيّة منضوية في الائتلاف السوريّ للاستنكار والاعتراض على القرار الأميركيّ. وصدر بيان عن رئيس "المجلس الوطنيّ" جورج صبرا يعارض وضع "جبهة النصرة" على "لائحة الإرهاب" وأصدر رئيس "الائتلاف الوطنيّ" أحمد معاذ

الخطيب بياناً شديد اللهجة ضد القرار الأميركيّ فضلاً عن تصريحات كبار قادة الجماعة المستنكرين والمعترضين على هذا القرار. وحتى الحكومة الفرنسيّة دخلت الحملة ضد القرار الأميركيّ وأدعت أنّ "لا أهميّة للتكفيريين في الحرب الدائرة في سورية".

قضى الاتفاق بين واشنطن والأخوان أن تدعمهم أميركا لوصولهم إلى السلطة في دول "الربيع" والحصول على أموال اقتصادية وعسكريّة وأمنيّة. وبالمقابل عليهم أن يتقرّبوا من "إسرائيل" ويدخلوا بنشاط في النيوليبراليّة الاقتصادية العالميّة ومشاريعها وعقودها في المنطقة. إلا أنّ أميركا كانت تروّضهم من حين لآخر لضبطهم في مشاريعها وتأميرهم بالتصعيد عسكريّاً وسياسيّاً. وعلى سبيل المثال عندما تطلب أميركا أن يبذلوا مزيداً من الجهد، كان مسلّحوهم يندفعون في الاستشراس وكان "الائتلاف السوريّ" يتّجه نحو المزيد من التطرّف والتصلّب والارتماء في أحضان دول وجماعات وأشخاص تريد سورية أرضاً للجهاد لا أكثر ولا أقل. وإذا حصل جنيف 2 وبدأ أنّ المصلحة السوريّة العليا قضت بالحوار، كان الأميركيّ بالكواليس يحصي أنفاس من جاء ليمثل المعارضة، فيعود إلى الخط الأكثر تشدّداً.

عندما دخلت النصرة محافظة حمص واتّخذت من القصير مركزاً لها، دعت الجماعة المسلّحة هناك إلى مبايعة التنظيم. ولم تجد النصرة قبولاً في بداية الأمر، إذ إن أغلبيّة المسلّحين كانوا منضويين في الجيش الحر، إلى أن نفّذت النصرة أكبر عمليّة انتحاريّة في تاريخ سورية في 23 كانون الثاني 2013 حيث اجتاحت شاحنة مجهزة بعشرين طنّاً من المتفجرات ثكنة المشتل العسكريّة في القصير. فارتفعت أعداد المنضويين في صفوف النصرة، تحصّنوا في قرى القلمون لاحقاً، وشاركوا في معركة القلمون ضد الجيش السوريّ وحزب الله.

المسلّحون يدمرون البلاد ويقتلون الشعب

في مطلع الأحداث الأمنيّة عام 2011، قتلت الجماعات المسلّحة عدداً كبيراً من رجال الشرطة وقوى الأمن وعناصر الجيش، وجعلت الوضع الأمنيّ والمعيشيّ والاقتصاديّ للمواطنين في غاية الصعوبة. وتخلّلت الأعوام الخمسة تفجيرات قاتلة ارتكبتها الجماعات المسلّحة في مناطق أهلة بالسكان وأحياناً في فترات الصباح آخرها عند كتابة هذه السطور في مدينتي جبلة وطرطوس في 23 أيار 2016، أو على مواقع عسكريّة للدولة وعلى مؤسسات عامة ومرافق كهرباء وماء ونفط ومراكز حزب البعث والتنظيمات الشعبيّة، إضافة إلى قصف صاروخيّ أو مدافع هاون.

لقد نزحت أغلبيّة الذين هربوا من سورية إلى لبنان والأردن والعراق وتركيا. وبعضهم وصل إلى مصر وليبيا وتونس، وأقليّة صغرى وصلت الدول الأوروبيّة والولايات المتّحدة، وهي دول بخلت كثيراً على استقبال وعون اللاجئين السوريّين رغم ادعاء الغرب حرصه على حقوق الإنسان ودعمه للديمقراطيّة.

في العامين الأولين لجأ إلى لبنان أكثر من مليون سوري وإلى الأردن 600 ألف، وتركيا 700 ألف، والعراق 300 ألف، ومصر 150 ألفاً وليبيا 120 ألفاً. أمّا النزوح الأكبر فكان داخليّاً حيث ترك سبعة ملايين مواطن سوري بيوتهم ومدنهم أو قراهم ولجأوا إلى أماكن أخرى داخل سورية. إلا أنّ استمرار الحرب وخاصة على الجبهة

التركية دفع عدد النازحين إلى تركيا إلى أكثر من ثلاثة ملايين ما شكّل عبئاً وكارثة بشرية على حكومة أردوغان التي وقعت في شر أعمالها.

وفي تقرير المركز السوري لبحوث السياسات بالتعاون مع وكالة الأونروا والبرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، تعرّضت خريطة توزّع السكان في سورية "لإعادة تشكّل جذرية"، حيث غادر سورية ثلاثة ملايين مواطن وعدد الذين تركوا أماكن إقامتهم المعتاد ناهز نصف السكان. أي أنّ 12 مليون سوري تركوا أماكن سكنهم المعتاد بسبب الحرب. كذلك فإن 63 في المئة من اللاجئين الفلسطينيين وعددهم قبل الأزمة 540 ألف نسمة، غادروا منازلهم، منهم 75 ألفاً تركوا البلاد كلاجئين، و270 ألفاً نزحوا داخل سورية. وأوضح التقرير ملامح الكارثة الاجتماعية بأنّ الإفقار أصاب ثلاثة أرباع السوريين في نهاية 2013، وعانى أكثر من نصف السكان من الفقر الشديد، أي لم يستطيعوا تأمين الحد الأدنى من احتياجاتهم الأساسية. وكان الوضع أكثر سوءاً في المناطق المحاصرة والساخنة، حيث انتشر الجوع وسوء التغذية.

ثم ارتفع عدد الوفيات ليرواح 260 ألف قتيل مع مطلع عام 2016 وعدد الجرحى نصف مليون شخص⁷⁵⁵. إضافة إلى التدهور الحاد في التعليم والصحة ومصادر الدخل. وبالنسبة للضحايا، فإنّ نصف قتلى الحرب السورية كانوا من القوى النظامية أو من الجماعات المسلحة والباقي من المدنيين.

وإضافة إلى القتلى والجرحى والمهجرين، تكبّدت سورية خسائر اقتصادية فادحة. حيث قدر المؤلف خسائر سورية الاقتصادية في العامين الأولين من الأزمة بسبعين مليار دولار. وهو رقم تضاعف في نهاية العام الرابع إلى أكثر من 200 مليار دولار، وفق تقدير مراكز أبحاث مستقلة، ما يعادل أكثر من ثلاثة أضعاف الناتج القومي الذي سبق الأزمة عام 2010.

إزاء التهديد الوجودي للدولة والوطن، دفعت السلطات السورية بالجيش إلى المناطق المهذّدة وفق خريطة توزّع الجماعات المسلحة. ودرست قيادة الجيش الميدان في المحافظات المختلفة وتأكّدت أنّ شريان حياة الجماعات المسلحة هو خطوط لوجستية حدودية تربطها بتركيا خاصة وأيضاً بلبنان والأردن، حيث يسهل التّدخل الخارجي. فوسّع الجيش نطاق عملياته في المناطق القريبة من حدود لبنان وتركيا في خريف 2011 وطوّق مدن الرستن وتلبيسة وجسر الشغور ومعرة النعمان ومدن أخرى في مناطق شاسعة امتدت من حدود لبنان الشمالية وحتى حدود تركيا. ومنذ آب 2011 تمكّن الجيش السوري من وضع حدّ لتمدّد هذه الجماعات المسلحة في مدن الشمال وطردها من مدينة اللاذقية الساحلية. ثم جرت مواجهة عسكرية بين الجيش السوري و"الجيش الحرّ" في مدينة الرستن جوار حمص. وكان "الجيش الحرّ" قد أعلن سيطرته على الرستن في أواسط أيلول 2011، إلى أن شنّ الجيش السوري هجوماً في 27 أيلول 2011 استمرّ أربعة أيام وطردها الجماعات المسلحة منها. وكشفت معركة الرستن مدى عمق استعدادات المسلّحين بمعدات وأساليب ومعلومات، حيث أوقعوا خسائر في صفوف الجيش السوري ودّمروا آليات عسكرية ولكنهم هُزموا.

ومنذ تشرين الأول 2011 اشتعلت معارك في جبل الزاوية في محافظة إدلب ومدينتي بنيش وحاس، وفي معرة النعمان ومناطق مجاورة للحدود التركية ومعارك في مناطق أخرى في محافظة حمص ومحافظة درعا

<http://assafir.com/Article/1/400888>⁷⁵⁵

المحاذية للأردن. وبعد معركة الرستن تراجعت توقعات "السقوط السريع للنظام" وتراجع وعد تركيا للغرب وعرب الخليج أن مدن شمال سورية ستسقط بسرعة ليصبح سهلاً إقامة منطقة "محررة" مثل بنغازي. ووصل تراجع توقعات السقوط السريع في خريف 2011، إلى درجة أن قائد "الجيش الحر" رياض الأسعد اضطر هو نفسه إلى مغادرة الأراضي السورية واللجوء إلى الجانب التركي من الحدود.

ثم كانت معركة مدينة حمص التي انتصر فيها الجيش حدثاً مفصلياً دفع الدول الداعمة للجماعات المسلحة إلى مراجعة حساباتها والاستنتاج أن أزمة سورية ستكون طويلة وأن "إسقاط النظام" ليس مسألة سهلة، كما وعدت المعارضة الخارجية وتركيا والدول العربية التي تدعمها أميركا وحلف الناتو. فبعد سبعة أيام من القصف في مطلع تشرين الثاني 2011، اقتحم الجيش السوري حمص ودارت معارك طاحنة مع "الجيش الحر" وجماعات مسلحة أخرى من حي إلى حي. وكانت الفضائيات العربية والمحطات الأميركية توابك المعركة وتسمي حمص "مدينة الثورة". واستمرت المعارك في حمص أسابيع عدّة وأصبحت في وسائل الإعلام الخليجي والغربي "ستالينغراد سورية ستحسم مصير النظام". وظهر في معارك حمص ضباط ومخابرات عربية وتركية وفرنسية وألمانية وبريطانية وبلجيكية تساعد الجماعات المسلحة التي أعلنت سيطرتها على ثلثي المدينة واتخذت حي بابا عمرو مركزاً لها.

وفي 3 شباط 2012 بدأت القوات الحكومية هجوماً واسع النطاق عبر نقاط عدّة في حمص واستطاعت بعد أسابيع من استعادة السيطرة عليها وتطويق بابا عمرو، المعقل الرئيسي للمسلحين. وإذ سار الوضع الميداني نحو سقوط بابا عمرو وهزيمة المسلحين ذرف قادة أوروبا والولايات المتحدة الأميركية دموع تماسيح كثيرة على ما سمّوه "مجزرة في حمص"، رغم أنها كانت مواجهة عسكرية بامتياز. ما كشف عمق تورط هذه الدول في معركة حمص وإيلاءها أهمية فائقة لإسقاط هذه المدينة بأيدي المسلحين.

وفي 1 آذار 2012 أعلن "الجيش الحر" انسحاباً تكتيكياً من بابا عمرو بسبب نقص السلاح". وبحلول 9 آذار 2012 سقط ليس فقط حي بابا عمرو بل وكرم الزيتون. وأعدت القوى النظامية السيطرة وحضر الرئيس الأسد شخصياً وتفقد حي بابا عمرو. ثم بقيت جيوب صغيرة معزولة إلى أن توفّر اتفاق ميداني في أيار 2014 سمح لبقية المسلحين بالانسحاب واستعادة الدولة كامل المدينة.

في صيف 2012 حصلت انشقاقات عن الدولة السورية فسرها الإعلام العربي والغربي أنها بدايات الانهيار: ففي 11 تموز انشق السفير السوري في العراق نواف فارس وفي 17 تموز فرّ العميد مناف طلاس - الإبن المدلل لدولة البعث وعضو النواة الفاسدة للحرس القديم - إلى باريس، وفي 25 تموز انشق سفير سورية في الإمارات عبد اللطيف الدبّاغ، كما انشق الملحق الأمني في السفارة السورية في سلطنة عمان. وفي 30 تموز استقال القائم بالأعمال في السفارة السورية في لندن. ولكن الانشقاقات وصلت ذروتها في 6 آب 2012 عندما انشق رئيس الوزراء رياض حجاب. ثم لم يحصل أي انشقاق بعد ذلك وحتى كتابة هذه السطور في منتصف 2016. وبعد فرار حجاب كلف الرئيس الأسد عمر غلاونجي بتسيير أعمال الحكومة مؤقتاً، ثم في 9 آب 2012 كلف وائل الحلقي برئاسة حكومة جديدة استمرت سنوات عدّة.

في 18 تموز 2012 وقع انفجار ضخم قتل وزراء وقياديين في الدولة السوريّة، ما شجّع رياض الأسعد قائد "الجيش الحر" إلى الإعلان "أن رأس الأسد هو الهدف المقبل". كما تجرّأ وزراء الخارجية العرب في اجتماع عقده في 23 تموز أن يعرضوا "تأمين مخرج آمن للرئيس السوريّ بشار الأسد". وفي 30 تموز اقترح "الجيش الحر" مجلس حكم في سورية من شخصيات مدنية وعسكرية لمرحلة الانتقاليّة "بعد ذهاب بشار الأسد". ولكن عندما عرض المعارض هيثم المالح تشكيل "هيئة مجلس أمناء الثورة" تحضيراً لحكومة انتقاليّة، اعتبر "المجلس الوطنيّ السوريّ" فكرته متسرّعة تضعف المعارضة.

الحرب الدبلوماسية الدوليّة لم يرافقتها نجاح عسكريّ ميدانيّ كبير كما كانت تتوقّع الولايات المتّحدة. إذ إنّ الجماعات المسلّحة خسرت كافة المعارك ولم تتعدّ سيطرتها عن عدد من المدن الصغرى والمساحات الريفيّة ما خيّب آمال داعمها الإقليميّين والدوليّين في حسم أي معركة كبرى. وكان لافتاً في 2012 و2013 أنّ الجيش السوريّ بمساعدة حزب الله قد نجح في تطهير محافظة دمشق من المسلّحين وخاصة المناطق المتاخمة للحدود اللبنانيّة. وبدلاً من أن تهتزّ الدولة، أخذت الحرب مجرى آخر هو تصميم الحكومة السوريّة على قلب الطاولة على الجماعات المسلّحة. وهكذا انقلبت الأمور قبل انقضاء شهر تموز 2012، إذ لم تفلح "معركة دمشق" التي أعلنها المسلّحون في تحقيق أهدافها، بل تمكّنت القوات الحكوميّة من دحر الهجوم واستعادة المناطق التي سيطرت عليها الجماعات المسلّحة وقتلت أعداداً كبيرة منهم، ففرّ الباقون إلى ريف دمشق. وهنا تحوّل اهتمام القوى الخارجيّة إلى إشعال "معركة حلب" لأخذها مكسباً للجماعات المسلّحة ما يسهّل للدول الداعمة للجماعات المسلّحة التفاوض مع الصين وروسيا ثم فرض حظر جويّ.

ولكن في حلب أيضاً وبعد تقارير إعلاميّة مثيرة تولّت بثّها الفضائيات العربيّة والأجنبيّة المناهضة لسورية وتصريحات حاسمة حول "قرب سقوط المدينة"، فشلت هذه الجماعات وفي مقدمها "الجيش الحرّ" - الذي تمتع حينها بأفضل خدمات لوجستية لقرب حلب من الحدود التركية - من أخذ المدينة. ومنذ 4 آب 2012 بدأ الجيش السوريّ "معركة تحرير حلب من الإرهابيّين" وأعلن خلال أيام أنّه سيطر بشكل كامل على حي صلاح الدين معقل المسلّحين الرئيسيّ في المدينة، في حين استمرّت المعارك لمصلحة الجيش في أطراف المدينة ومنها تحرير جوار سجن حلب. فانعكس فشل "الجيش الحر" وبقية الجماعات المسلّحة في إسقاط دمشق وحلب سلباً على علاقتهم بتركيا والدول الداعمة لهم.

وتراجعت أسهم "الجيش الحر" لصالح الميليشيات الإسلاميّة الجهاديّة - داعش والنصرة - وأصبحت داعش منذ صيف 2014 التهديد الرئيسيّ شمال البلاد.

دخول حزب الله

لبضعة أسابيع بعد اندلاع الأزمة السوريّة عام 2011، تردّد حزب الله في اتخاذ موقف منها. ذلك أنّ قيادته توهّلت أمام الحدث السوريّ بعدما خرجت تظاهرات ووقعت اغتاليات وتفجيرات في دمشق وانشقّ بعض المسؤولين السوريّين، وردّد الإعلام المعادي على مدار الساعة مقولة "الشعب يريد إسقاط النظام". وكانت

بعض أوساط الحزب تعتقد أنه إذا كانت الدولة السوريّة ستسقط فعلاً جراء عمل ثوريّ، فلا يجوز أن يظهر الحزب، خاصة في خضمّ "ربيع عربيّ"، أنه يدعم نظاماً أياً إلى السقوط في ظل أجواء لبنان المتفجّرة، حيث سيُفسّر دعمه للرئيس الأسد في إطار طائفيّ. كما عمدت جهات لتضليل الحزب وفق ما قال أمينه العام السيد حسن نصر الله إن "بعض الأصدقاء المشركين قالوا لنا لماذا أنتم قلقون من إسقاط النظام؟ نحن نتعهّد لكم أن النظام الجديد سيدعم المقاومة ويوصل لكم السلاح والذخيرة".

انتظر حزب الله عشرة أسابيع قبل إعلان موقف واضح، حيث شرح السيد نصر الله أهميّة سورية وموقعها بالنسبة للمقاومة والصراع العربيّ الإسرائيليّ. ودعا الشعب السوريّ إلى الحفاظ على بلده وسلوك طريق الحوار للوصول إلى الإصلاحات المطلوبة. فكان يتخذ خطأً وسطاً بين الدولة السوريّة وما اعتقد أنه معارضة. ولم يدخل الحزب الميدان إلى جانب الدولة السوريّة إلا بعدما اكتشف أن القوى التي تقاثلها تدين بولائها للأعداء وتهذّد دمشق كحجر أساس في قوة المقاومة. ذلك أن الحرب شملت نصف مشروع المقاومة برمتها، حيث صوّب الضخ الإعلاميّ الخارجيّ باكراً على حزب الله. وصدرت تصريحات من قيادات معارضة سورية تصبّ لصالح "إسرائيل" وتعد بقطع العلاقة مع حركات المقاومة. وتبيّن أن هذه القيادات هي أدوات تديرها دول عربيّة وأجنبيّة وتشرف واشنطن على تنظيم صفوفها.

لقد ارتفعت النبرة الطائفية لقيادات معارضة سورية ولقيادات ميليشياوية سورية سواء في الجيش الحرّ أو في الجماعات التكفيرية، ضد حزب الله. فقد كان ثمة بند إجباريّ على معارضة الخارج هو إعلان عداؤها للحالة المقاومة في المشرق. ولقد استعجلت المعارضة السوريّة باكراً عام 2011 بزجّ اسم حزب الله في معركتها ضد الدولة السوريّة إذ لم تكن من الذكاء لتحاول التودّد إليه تكتيكياً لتحييده. بل اعتقدت أن "سقوط النظام كان مسألة أسابيع" ولا داعي للتظاهر بالمودّة، لأنّ مصير الحزب مرتبط بالنظام وسيرحل الإثنان معاً.

وحتى داخل لبنان استعجل مناهضو حزب الله في تجمّع 14 آذار إعلان العداء للسافر غير المسبوق لحزب الله لأنّ نهايته كما حسبوا باتت قريبة - وهو كان شعورهم نفسه في حرب تموز 2006. لقد رفع فريق 14 آذار من عيار تهديده للحزب عبر حملة إعلامية يومية عالية النبرة حول موقف الحزب من الحرب السوريّة. وواصل هذا الفريق نعت سلاح المقاومة بأنّه مصدر خطر على اللبنانيين.

وبرزت من إعلام الدول العربيّة وخاصة دول الخليج مفردات مذهبية ضد داعمي سورية وحلفائها لكي يُستدرج الجميع إلى فتنة طائفية بين سنّة وشيعة. وأصبحت الفتنة مطلباً رئيسياً عند الدول الراعية للحزب على سورية، فرُفِع شعار "حرب أهل السنّة" و"مظلومية السنّة" لشدّ العصبيّة المذهبية وخلق أرضية عداوية ضد حزب الله.

كان صحيحاً أن حزب الله دخل حرب سورية للمرّة الأولى لسبب مذهبيّ عندما جرت سلسلة من الاعتداءات الطائفية الطابع داخل سورية. فقد اعتدت الجماعات المسلّحة على مقدسات دينية شيعية في سورية وفتحت معركة تطهير مذهبيّ في قرى سورية مجاورة لقضاء الهرمل وكثّفت نشاطها الحدوديّ مع لبنان وأرسلت سيارات مفخخة إلى مناطق ذات كثافة شيعية داخل لبنان وقامت بعمليات خطف مثيرة استهدفت لبنانيين

شيعة داخل سورية. ولذلك أخذ حزب الله ينشر عناصره قرب مقام السيدة زينب في دمشق ومواقع أخرى. ولكن عندما ثم أخذت الجماعات المسلحة تضغط لمواجهة عسكرية مباشرة مع حزب الله وتريد دخول لبنان، فهم أنه يُستهدف كمقاومة وتحول مفهوم مشاركة حزب الله ليصبح جزءاً من المعسكر الداعم لصمود سورية.

بعدما انتشرت الفوضى على الحدود اللبنانية - السورية أخذت الجماعات المسلحة تحاصر مناطق انتشار مراكز المقاومة اللوجستية من مخازن ومعسكرات في البقاع وجنوب لبنان، لدخول لبنان وتحويله ساحة "جهادية" تمتد من العراق عبر سورية ثم إلى قرية عرسال وقضاء عكار ومدينة طرابلس. فقد ظهرت عملياً إمارة لتنظيم القاعدة وحلفائها على طول الحدود اللبنانية الشرقية، وبدأت آخذة في التوسع، مرتكبة الجرائم في قرى لبنانية هي في صلب الحاضنة الشعبية للمقاومة.

في منطقة القلمون السورية المتاخمة للبنان، لم يتوقف المسلحون عن قضم المناطق والمواقع الحدودية. فتعاظم خطر المسلحين في منطقة القصير السورية القريبة، ثم صار الدفاع عن قرى حوض نهر العاصي السورية جغرافياً والمختلطة بسكانها اللبنانيين والسوريين بشرياً، واجباً لحزب الله بعدما بدأ تهجير السكان لربط مدينة القصير بعمار اللبنانية. وعملياً أزال المسلحون الحدود بين لبنان وسورية بأكملها تقريباً وأقاموا لهم مواقع داخل الأراضي اللبنانية كما في جرود عرسال. وكان المسلحون ينتشرون وفق برنامج ميداني يرسد مواقع المقاومة ومعسكرات تدريبها وطرقها وهو عمل لا يمكن أن يقوم به إلا من يعمل لـ"إسرائيل".

مجال المعارك الرئيسية التي خاضها حزب الله شملت في القصير والقلمون والغوطة وذلك، لأنها كانت مصدر موجة تفجيرات انتحارية اجتاحت مناطق ذات أغلبية شيعية داخل لبنان بسيارات مفخخة آتية من سورية من القصير ويبرود خاصة. وبعد إبعاد هذا الخطر امتدت رقعة انتشار الحزب العسكرية في ربيع 2013 من تلكلخ شمالاً إلى تخوم طريق دمشق - بيروت جنوباً، وهي مناطق خضعت لمدة عامين بشكل شبه تام لسيطرة الجماعات المسلحة. إذ كانت مدينة القصير حلقة عقد المناطق المتاخمة التي كانت الجماعات المسلحة تهيئها كمنصة لإعادة السيطرة على مدينة حمص بعد عودتها إلى كنف الشرعية عام 2012، وقطع الطريق على دمشق. وكانت القصير أيضاً قاعدة خلفية لإمداد الغوطين بالسلح والمقاتلين. ومثلت مساحة منطقة القلمون الجزء الأكبر من الشريط الحدودي الكبير لأنها تمتد من جنوب مدينة القصير إلى تخوم مدينة دمشق.

وعلى هذه الخلفية وبهدف كسر الشريط الحدودي الذي أنشأه المسلحون، فتح الجيش السوري وحزب الله معركة مدينة القصير وريفها. والانتصار الحاسم الذي حققه الجيش السوري وحزب الله هناك في حزيران كان مفصلياً. حتى أن حالة هستيريا انتابت الدول الراحية للحرب. فقد كانت ضربة قاسية للجماعات المسلحة التي أصيبت بصدمة، فتعطل عملها لفترة. وإذ حقق الجيش السوري وحزب الله تقدماً في غوطي دمشق الشرقية والغربية وفي ريف حلب واستعاد الجيش مدينة يبرود، فتح المسلحون معارك جانبية كمهاجمة قرية معلولا المسيحية في ريف دمشق وقرية صدّد ومهين في ريف حمص الجنوبي. إلا أن الجيش السوري وحزب

الله خاضا معارك ضارية أدت إلى طرد المسلحين من صدد ومهين وقارة ودير عطية والنبك في القلمون. حتى أصبحت طريق دمشق حمص آمنةً.

وفي منتصف 2013 حاولت الجماعات المسلّحة بمساعدة تركيا اقتحام مناطق سورية في بلدة كَسَب الشماليّة ولم تنجح. في حين تراجعت تماماً احتمالات اقتحام هذه الجماعات لمدينتي دمشق وحلب، حيث أيد معظم السكان الدولة لأنّهم يفضّلون الاستقرار والحلّ السلمي. وكان الإعلام المعادي يمارس التهويل بشأن معارك القلمون، والتكفيريون يحاولون الضغط بتفخيخ سيارات وإرسالها إلى لبنان لقتل المدنيّين، وإطلاق صواريخ نحو قرى البقاع الشماليّ. ولكن الحسم العسكريّ في منطقة القلمون وإقفال الحدود اللبنايّة السوريّة على المسلّحين كان كاملاً وسريعاً (في ريف حمص وقلعة الحصن مثلاً). ومن منطقة نعمات السوريّة قرب الهرمل، إلى معابر التهريب المتصلة بجرود عرسال، إلى الجراجير والسحل فمزارع رما ثم يبرود ورأس العين، قبل فليطا ورأس المعرة، وصولاً إلى رنكوس، كان الانكسار النفسيّ للمسلّحين أسرع من هزيمتهم.

وبحلول نيسان 2014 ومع عودة الجيش السوريّ إلى معظم المدن والمحافظات، بات حوالي 18 مليون مواطن سوري، أي 80 في المئة من السكان الصامدين داخل البلاد، يقطنون في المناطق الخاضعة للدولة. فيما بقيت مناطق معزولة في ريف حلب وريف إدلب ومناطق شرق البلاد في الجزيرة ودير الزور تحت سيطرة الجماعات المسلّحة تدعمها تركيا والولايات المتّحدة مباشرة.

لقد تبدّلت المعادلات الميدانيّة فانقلبت من تطويق المسلّحين للعاصمة في العام الأول من الحرب إلى تطويق الجيش السوريّ للمسلّحين ودفعهم إلى جزر مقطّعة جغرافياً. وعادت كلّ حمص إلى كنف الدولة وانصرف الاهتمام إلى فكّ الحصار عن حلب وعزل المسلّحين في ريف حلب الشماليّ والتوجّه نحو استعادة مدينة الرقّة. فأصبحت الحدود اللبنايّة هي الأولى التي صُبطت بين سورية ودولة مجاورة وترهّلت كثيراً طاقة الأردن على التأثير في مسار الحرب جنوباً، فانتهى الرهان على إسقاط الدولة السوريّة وتكرّس القبول الضمنيّ لدى معظم أعداء سورية بحتميّة الحلّ السياسيّ.

ولكن واشنطن كانت لا تزال تمارس التكتيك لأنّ هدفها الاستراتيجيّ كان ولا يزال إضعاف سورية وضربها. وسنرى كيف انتقلت إلى مرحلة جديدة عندما دفعت بجحافل داعش.

محاولات وقف الحرب

قامت روسيا بخطوات دبلوماسية داعمة لسورية بشكل يوميّ تقريباً. فمنذ الأسابيع الأولى من الأزمة تحدّثت موسكو عن قوى خارجية تغذّي العنف في سورية بهدف زعزعة استقرار المنطقة. وفي كانون الأول 2011 قدّمت روسيا مشروع قرار لمجلس الأمن يطالب بالوقف الفوريّ للعنف في سورية ويدعو إلى حلّ سياسيّ، فرفضته أميركا وحلفاؤها الغربيّون. وفي مطلع 2012 وقد عاد جوّ التصعيد والتوتر، رسا أسطول روسيّ في القاعدة البحريّة في طرطوس. وكانت سورية طيلة فترة الأحداث على تواصل دائم مع موسكو، حليفها الأساسيّة إلى جانب إيران. وقامت روسيا مراراً برعاية حوار سوري - سوري وأبقت الصلة مع المعارضة

السوريّة في الخارج ومع الدول العربيّة المناهضة لسورية. وفي 9 آذار 2012 عارضت روسيا مشروع قرار أميركيّ حول سورية أمام مجلس الأمن وصفته بأنّه غير متوازن. وفي 6 حزيران 2012 دعا "المجلس الوطنيّ السوريّ" مجلس الأمن إلى اتخاذ قرار تحت الفصل السابع "لردع النظام". ولكن لافروف تصدّى للأمر وأعلن أنّ روسيا ستمنع صدور أي تفويض من الامم المتّحدة للتدخّل الخارجيّ في سورية. وبعدها أفضلت الدول العربيّة بعثة المراقبة العربيّة التي كانت هي من أرسلها، وبعدها اصطدمت بالفيتو الروسي - الصيني ضد أي قرار لمجلس الأمن يؤذي سورية، وافقت على تسمية كوفي أنان مبعوثاً خاصاً للسعي لوقف إطلاق النار والتوصّل إلى حل سلمي. ولكن هذه الدول مارست الطعن مهمة أنان في الإعلام وبسلسلة تصريحات كانت تذهل المراقبين بكتافتها وتطرّف مضمونها. وحتى عندما نجح أنان في التوصل إلى وقف مؤقّت لإطلاق النار في نيسان 2012، استمرّ تحريض تلك الدول وعقدت اجتماعات متلاحقة تحت غطاء جامعة الدول العربيّة وغطاء "مؤتمر أصدقاء سورية"، ومعظم بياناتها بشّر بمزيد من الدمار لسورية ويرفض الحل السياسيّ.

في آذار 2012 التقى أنان الرئيس السوريّ في دمشق وقدم له مقترحات. والتزم بشّر بدعم سورية لأيّ جهد صادق للحل وأعلن أنان أن سورية قبلت خطته لحل الأزمة. ولم تبال الدول الراعية للحرب بجهود أنان بل تجددت مساعيها لاستصدار قرار من مجلس الأمن. فاعترضتها روسيا مجدداً. ففي نيسان 2012 قدّم أنان تقريراً دعا فيه إلى عمليّة سياسيّة وحوار بين الحكومة والمعارضة والتزمت الحكومة السوريّة بالعمل لوقف العنف وإيصال المساعدات للمناطق المنكوبة. وأعلن أنان سعيه للحصول على التزام مماثل من المعارضة السوريّة لوقف العنف. فهدأ الوضع مؤقتاً ولكن بعد أيام عادت الحرب إلى وتيرتها السابقة لأنّ الضغط الدبلوماسيّ العربيّ والغربيّ كان بحاجة إلى عنف لمواكبة مداوات مجلس الأمن حول سورية، فأمر المسلّحين بمواصلة القتال.

ثم أنّ مجلس الأمن تبنى مشروع قرار لنشر مراقبين دوليين وافقت عليه روسيا والصين. ولكن قطر والسعودية والدول الأخرى لم تتعامل بجديّة معه. وفي نيسان 2012 دان اجتماع لوزراء الخارجية العرب "استمرار عمليّات القتل واستهداف المدنيين في سورية" وكلف نبيل العربيّ الأمين العام للجامعة العربيّة عقد مؤتمر للمعارضة السوريّة. ثم قامت محاولات لإفشال بعثة المراقبين. وفي أيار 2012 عندما أعلن أنان من دمشق أنّه سيطرح جدولاً للحوار الوطنيّ، تحرّك أعداء سورية لمنع هذا الحوار وعقد وزراء الخارجية العرب اجتماعاً دعا "لوضع سقف زمني لمهمة كوفي أنان في سورية" بدلاً من دعم مهمته وإفساح المجال لتتجح. إذ إنّ حياة وموت الشعب السوريّ كان آخر ما يفكر به هؤلاء. إذ في 9 أيار تعرّض الوفد الأمميّ لتفجير أوقع 8 إصابات. وصرّح رئيس بعثة المراقبين الدوليين روبرت مود "أنّ العنف ضد المراقبين والصحافيين والعناصر الأمنيّة التابعة للمراقبين لم يتوقف". وفي 15 أيار، فجر المسلّحون سيارة للمراقبين في إدلب. وفي 20 أيار انطلقت حملة إعلاميّة ودبلوماسية منظمّة في الفضائيات العربيّة وفي تصريحات رسميّة سعوديّة وقطريّة لطرده البعثة الأمميّة من سورية وتفشيلها، رافق ذلك انفجار عبوة ناسفة على بعد 150 متراً من موكب رئيس البعثة روبرت مود.

وفي 30 أيار 2012 قرّرت أميركا والدول الغربية وتركيا طرد الدبلوماسيين السوريين لديها. فردّ بشار الأسد أن بلاده تواجه حرباً حقيقية من الخارج وأن لا تساهل أو تسامح مع الإرهاب. وجدّد استعداد سورية للحوار مع أطراف المعارضة التي لا تطالب بالتدخل الخارجي. ثم طردت سورية سفراء أميركا وفرنسا وبريطانيا وتركيا وسويسرا وإيطاليا وإسبانيا وبلجيكا وألمانيا وكندا عملاً بمبدأ المعاملة بالمثل.

عندما فشل كوفي أنان في تقريب وجهات النظر وانسحبت بعثة الأمم المتحدة من سورية، تداعت الدول الكبرى إلى جنيف لعقد مؤتمر ينظر في الأزمة السورية. وتوصلت "مجموعة العمل الدولية في شأن سورية" في 30 حزيران 2012 إلى "خطة مرحلية لنقل السلطة في سورية"، دعت إلى تشكيل حكومة وحدة وطنية وعدم عسكرة النزاع وألزمت المعارضة بتسمية ممثلين للعمل على تنفيذ الخطة الانتقالية والبدء بحوار وطني شامل. وبقيت النقطة العالقة إصرار الدول الداعمة للجماعات المسلحة على ضرورة تسليم الرئيس بشار الأسد منصبه لحكومة انتقالية، في حين رفضت روسيا هذا الشرط. وكانت معارضة الخارج شديدة التطرف في مواقفها، فرفضت اتفاق جنيف بقوة وأعلنت عدم استعدادها للتفاوض مع الرئيس بشار الأسد أو "أي شخص من نظامه". ولكن كان طريفاً في 6 كانون الثاني 2013 أن هذه المعارضة انتقدت خطاب بشار الأسد حول خريطة الحل على أنه خرج على اتفاق جنيف الذي كانت ترفضه. وحتى في مؤتمر جنيف 2 عام 2014 لم تقدّم معارضة الخارج أي مشروع حل عقلائي. إذ إنّها لم تتعد قيد أملة عن مطلب وحيد هو تسليمها السلطة بشكل دكتاتوري.

لقد رمى اتفاق جنيف في حزيران 2012 إلى إيجاد حل جذري للأزمة، حيث أكد المؤتمر "أنّ السوريين أنفسهم هم المعنيون بإيجاد حل لأزمته، ولا يمكن فرض أي حل عليهم من الخارج" احتراماً لسيادة سورية. ورفضت روسيا إضافة أي بند يدعو الرئيس بشار الأسد إلى التنحي، مشددة على أهمية وقف العنف وبدء التفاوض بين الحكومة والمعارضة. ولكن بعد الإعلان عن اتفاق جنيف تبين أنّ التكتل العربي - الغربي شارك في صياغته فعلاً، ولكنه لم يكن ينوي تطبيقه. فلم ينشف حبر الاتفاق حتى تواصل عمل الجماعات المسلحة على الأرض كضغط متواصل لتدخل عسكري خارجي كبير، استفادت منه فرنسا لعقد اجتماع أصدقاء سورية في 6 تموز 2012، حيث دعا مجلس الأمن للقيام بتحريك أقوى تجاه سورية. فيما أخذ الرئيس الفرنسي الجديد فرنسوا هولاند يطلق تصريحات متكررة عن ضرورة التدخل "لأنّ دول جوار سورية خائفة"، إشارة إلى تركيا بوابة التدخل الخارجي الرئيسية. ثم دفعت فرنسا مجدداً مشروع قرار في مجلس الأمن لا يأخذ اتفاق جنيف بعين الاعتبار. ولكن عندما طُرح المشروع الفرنسي على مجلس الأمن في 19 تموز 2012 صوتت روسيا والصين ضده. تلت ذلك دعوة روسيا والصين إلى حل متوازن يسمح بإنهاء العنف وإلى تحوّل سلمي داخل سورية. ورغم هذه الأجواء وبعد ثلاثة أسابيع من اتفاق جنيف، التقى الرئيس الأسد كوفي أنان مجدداً وعبر عن دعمه للحل السياسي، مؤكداً أن العقوبات لن تغرّ موقف سورية مهما اشتدت، واتهم الولايات المتحدة بدعم العصابات المسلحة لزعة أمن سورية. وعرض أنان مشروعاً معدلاً للحل على الرئيس السوري لمناقشته مع المعارضة الخارجية. وكالعادة لم يكتفِ "المجلس الوطني السوري" بصيغة أنان لأنّها لا تتضمّن ذهاب

الرئيس السوري. وفي شهر آب اعتبر الرئيس بشار "أن سورية تواجه معركة يتوقف عليها مصير الشعب والأمة" وأن سورية تواجه معركة إقليمية وعالمية وتحتاج للوقت لحسمها. تواصلت الحملة الدولية في آب 2012. إذ بعدما فشل أعداء سورية في مجلس الأمن ذهبوا إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة حيث نفوذهم أكبر ولا يوجد فيتو. وهناك وافقت الجمعية العامة على مشروع قرار عربي بشأن سورية بدعم 133 دولة. كما صوت وزراء خارجية "منظمة التعاون الإسلامي" على تعليق عضوية سورية. وفي أيلول 2012، أوقفت مصر التي سيطرت على حكومتها جماعة الأخوان بث القنوات الفضائية السورية بعد حجبتها عن القمر الصناعي نايل سات.

في 2 آب 2012، قدم كوفي أنان استقالته، وحل مكانه الأخضر الإبراهيمي مبعوثاً جديداً. فحضر الإبراهيمي إلى دمشق والتقى الرئيس بشار الذي أكد مجدداً التزام سورية بالتعاون مع أي جهود صادقة لحل الأزمة. وفي 21 تشرين الأول التقى الرئيس السوري الإبراهيمي مرة أخرى وشدّد على وجوب أن تقوم أي مبادرة أو عملية سياسية على مبدأ وقف الإرهاب. ثم حقّق الإبراهيمي نجاحاً متواضعاً إذ أعلن في 24 تشرين الأول عن وقف مؤقت لإطلاق النار. ولكن مساعيه لم تؤدّ إلى نتيجة. إذ كان يدفع لمرحلة انتقالية توقف الحرب وتؤدي إلى تغيير يُرضي كلّ الأطراف. وكان من طبيعة مهمته أن يُصغي أيضاً للقوى الخارجية ويحمل اقتراحاتها. ففي كانون الأول 2012 نقل اقتراحات فرنسية لم تُرقّ لدمشق، لأنها تضمّنت تنازلات تشمل إلغاء دور بشار لصالح ائتلاف حكوميّ غامض التركيب. كما رفضت المعارضة الخارجية كلّ مقترحات الإبراهيمي حتى قبل أن يصل إليها أي نص. إذ كان شرطها الأول والأخير تنحي بشار الأسد. وتلقّى الإبراهيمي نصيبه من شتائم واتهامات هذه المعارضة، حيث صرّح ناطق باسم "الجيش الحر" أن "المعارضة السورية والجيش الحر يرفضان بشكل مطلق كلّ ما يصدر عن مبعوث الأمم المتحدة الأخضر الإبراهيمي من تصريحات"، ويعتبرانه في خانة النظام وأنّ "الجيش الحر رفض اللقاء معه"، وأنّ مواقف الإبراهيمي "تعتبر من وجهة نظرنا تدخلاً في الشأن السوري وليست مواقف وسيط"، وأنّ "الحل الوحيد في المرحلة المقبلة هو الحل العسكري"، لأنّ "الثورة باتت قادرة على فرض نفسها على أرض الواقع".

ولم يكن هذا الادعاء صحيحاً، إذ طيلة 2013 تحققت إنجازات ميدانية للجيش السوري، فتحرّكت مجدداً بورصة وهمية لتسوية دولية. فاستمرّ الائتلاف السوري في رهانه على الحسم العسكري، معللاً أنّه "لا يقبل بأي تسوية، بل بحلّ يقضي برحيل الرئيس السوري بشار الأسد". فبقي رهانه هذا حتى بعد جنيف 2. ثم أخذ التكتّل المعادي طيلة 2013 يحيك ملف الأسلحة الكيماوية كحجّة لدخول قوات الناتو سورية. وردّت الخارجية السورية أنّ الحكومة لم ولن تستخدم أسلحة كيماوية تحت أي ظرف. وتواصل التحريض الإعلامي لاستغلال هذا الملف الوهمي كمنصة للتدخل *casus belli*. ولم يبال أعداء سورية بتطمينات حكومتها. إذ أعلن الناتو نشر بطاريات صواريخ باتريوت في تركيا وأكّدت دول غربية عزمها على المشاركة في حال نشوب نزاع. وتساعد الأمر في صيف 2013 عندما ربّنت تركيا عملية خاصة في ريف دمشق سقط جوارها ضحايا مدنيون وبدا فيها أنّ الكيماوي قد استعمل. ووصل الأمر في آب 2013 إلى تهديد أميركيّ بضرب سورية.

فكانت أسابيع عصبية حبست أنفاس الرأي العام العالمي. إلى أن عدلت واشنطن عن الأمر في أيلول خوفاً من ردّ الفعل السوري، وسط غضب تركي وسعودي عارم.

لقد فشلت الجماعات المسلحة في السيطرة حتى على مدينة سورية رئيسية واحدة وتراجعت أميركا عن التدخل العسكري حتى ظهر احتمال وهمي أنّ حرب سورية قد انتهت وبقي تحفيف مصادر المال والسلاح وتصفية جيوب المسلحين. لقد أمل كثيرون أنّ واشنطن ستغيّر موقفها نحو دمشق، ولكن الموقف الأميركي لم يتراجع ولن يتراجع ولم يمكن أن تكون أيّ هدنة في الحرب سوى تكتيك مؤقت وليس استراتيجياً. وتفسير تكتيك التهذئة الأميركي من حين لآخر هو أنّ أميركا ليست قوة خارقة وأنّ قرارها ليس كالقدر الذي لا يُردّ. بل يمكن أن تفشل هي أيضاً. وأن الشعوب التي تريد قهرها ستقاومها. ولذلك فهي تتظاهر بالديبلوماسية حيناً وبأنّ المنطق السلمي قد عاد إلى البيت الأبيض حيناً آخر. وكل ذلك للقيام بالمراجعة والتقاط النفس والعودة في يوم آخر لمزيد من التدمير الممنهج لسورية. وهذا التكتيك انعكس إيجاباً على سورية، لأنّ الولايات المتحدة لم تعد تريد أن "يسقط النظام" في دمشق بأيدي متطرفين وتكفيريين، من دون أن يعني ذلك تغييراً في استراتيجية واشنطن بأنّها ستعود لسحق سورية وابتلاعها في يوم آخر.

سورية العصية والقوية هي التي أقنعت بصمودها وعدم ترددها في الميدان الولايات المتحدة بإلغاء "الضربة الجوية" التي رُتب لها ملف الكيماوي جيداً لتبريرها. ولم تكن حسنة أو مئة من واشنطن أن تصرف النظر عن الضربة. والموقف الأميركي تغير مؤقتاً فقط لأنّ المخابرات الغربية قد خلصت إلى نتيجة أنّ الدولة السورية لا تزال قوية وتحافظ بمعظم قواها الاستراتيجية إذا أُجبرت على خوض حرب إقليمية واسعة. كما أنّ أيّ مجازفة للتدخل عبر تركيا سيجرّ الناتو إلى حرب واسعة وربما إلى مواجهة مع روسيا وإيران.

وأساس موقف أميركا المترث والتكتيكي، هو أنّها هي التي تدير اللعبة وتحرك البيادق وهي لم تخرج بنداء واضح لوقف الحرب في سورية بعد إلغاء الضربة، كما لم تُوعز لفرنسا وتركيا وقطر والسعودية بأنّ اللعبة قد انتهت. بل خففت الوتيرة ثم أشعلتها لتحافظ على المشروع الأصلي وهو مواصلة تدمير سورية وإضعافها حتى لو استغرق ذلك عقداً أو عقدين من الزمن، كما فعلت في العراق من 1991 إلى 2011. وسرعان ما عاد البيت الأبيض والإدارة إلى مواصلة الضخّ والتحريض والدعوة إلى المزيد من الحرب على سورية.

تنظيم داعش

هو تنظيم مسلح إرهابي، فرع لتنظيم القاعدة في العراق، يتبنى "الفكر" السلفي الجهادي لإعادة "الخلافة الإسلامية وتطبيق الشريعة". انتشر في العراق وسورية براية سوداء عليها أحرف عربية مميزة. وجذور انطلاقه تعود إلى العراق عام 2006 بعد مصرع مؤسسه أمير القاعدة أبو مصعب الزرقاوي. فقام تنظيم "الدولة" بعمليات إرهابية داخل العراق حتى قُتل أميره أبو عمر البغدادي في نيسان 2010 ليصبح أبو بكر البغدادي زعيماً له. فأمر هذا الأخير بسلسلة أعمال إرهابية في العراق استهدفت البنك المركزي ووزارة العدل، واقتحام

سجني أبو غريب والحوت. وتبني داعش عملية تفجير السفارة الإيرانية في بيروت وسيطر على أجزاء من مدينة الفلوجة العراقية وانتشر في المحافظات ذات الأغلبية السنية في العراق. أما في سورية فبعد الخلاف الدموي مع النصرة، انتشر داعش في محافظات الرقة وحلب ودير الزور، وبدرجة أقل في ريف حمص وحماة والحسكة وإدلب. وكان من أكثر التنظيمات همجية في القتل والتفجير وإعدام الجنود السوريين بالجملة حتى بعد تسليم أنفسهم كما في ريف حلب في تموز 2013. كما تبين أن داعش امتلك معدات وأسلحة تشمل دبابات وصواريخ وسيارات مصفحة ورباعية الدفع وأسلحة متنوعة جلبها من العراق، ليحارب الجيش السوري وحزب الله وأيضاً ميليشيا الجيش الحر وجبهة النصرة. في العام 2014 وفيما الحرب الكونية مستمرة ضد سورية، ضج الإعلام العربي والعالم بتوسع تنظيم "داعش" الإرهابي وانتشاره كالنار في الهشيم في العراق وخاصة في الموصل، وامتداده إلى شمال شرق سورية. ولم يكن هذا التنظيم ببعيداً خرج من القمقم، بل هو ظهر هناك منذ الغزو الأنغلو أميركي للعراق، كجزء من التنظيمات السلفية التي رعتها الولايات المتحدة بتمويل سعودي منذ أيام أفغانستان وحتى اليوم، والتي ظهرت تحت مسميات عدة أبرزها طالبان هناك ثم تنظيم القاعدة منذ 2001.

خاتمة |

صمود المشرق

لسورية تاريخ عريق يعود آلاف السنين، وُلدت فيها إمبراطوريات وديانات وحضارات. رموزها تربط الماضي بالحاضر، ومدنها يسكنها السوريون بشكل متواصل منذ آلاف السنين. وبعض ما يحدث في سورية منذ 2011 مرتبط بتاريخها الطويل. ذلك أن تمسك شعبها بالمدنية وابتعاده عن التطرف الديني والإثني يعني أنها ستربح الرهان في أزمتها الحاضرة وتعود إلى السلام والحرية.

وإذا كان ثمة ما يميّز سورية في مسيرة الحضارة البشرية فهو أن الإنسان أقام على أرضها منذ أقدم العصور وأسس مدنية أعطت العالم الحرف والموسيقى والأدب والفلسفة والديانات السماوية. ولأنها كذلك، فإن سورية قاومت الهمجية الوافدة وتمسكت بمدنيتها وحداثتها، رافضة الإذعان، ومعلنة أنها - كما قال مؤخراً عنها خبراء الغرب والشرق - دولة الاستقلال والسيادة الفريدة من نوعها في القرن الحادي والعشرين. سورية هذه، بلد الحضارة والثقافة ومهد المدينة، عاشت منذ صيف 2011 أحداثاً تدمي القلوب، ناهز عدد ضحاياها 300 ألف قتيل ونصف مليون جريح، وفاق عدد المهجرين داخلها وفي الدول المجاورة أربعة ملايين مواطن وأصاب الأذى الفادح مدنها السبع الكبرى التي كانت تُعرف بحق أنها جواهر الشرق ورمز العراقة والقدم.

ولا مبالغة في أن سورية تقع في منطقة مرصودة ومستهدفة منذ مئتي عام. فليس صدفة أن تستمر مراكز القرار في العالم منذ أوائل القرن العشرين على إطلاق تسميات جغرافية غير تاريخية لكل شعوب المنطقة العربية: من "شرق أدنى" إلى "شرق أوسط" وأخيراً "الشرق الأوسط وشمال أفريقيا" Middle East and North Africa MENA، طامسين بذلك عن سابق تصوّر وتصميم أي شخصية وطنية أو هوية عربية. وكأن بلاد العرب هي مجرد مساحات اقتصادية ومشاع عسكري واستراتيجي تتلاعب به أهواء ومصالح القوى الإقليمية والعالمية وليست كياناً ثقافياً وحضارياً. بل إن تاريخ سورية يدل على مقدرة هذا البلد على النهوض مجدداً ليعود لاعباً رئيسياً في المنطقة.

والمفارقة أن "إسرائيل" وأميركا والغرب نظروا إلى المشرق - وخاصة سورية وفلسطين ولبنان والعراق - كعدو واحد يحاربونه بالجملة، فيما لا يزال التقصير عن التعاون هو السائد في كيانات المشرق والخلافات هي التي تحدّد العلاقات بين الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين والعراقيين

الجدول التالي يقدم معلومات حيوية عن المشرق مع العلم أنه يستثني مساحات أصبحت ضمن بلدانٍ مجاورة (الإسكندرون وكيليكيا في تركيا والأحواز في إيران) ويستثني المهاجرين طوعاً أو قسراً من فلسطين والعراق ولبنان وسورية والذين يفوق عددهم الملايين. فنلاحظ مثلاً أن الناتج المحلي يناهز 900 مليار دولار وهو مصاف الدول الصناعية الغربية وعدد السكان 77 مليوناً والمساحة تناهز 750 ألف كلم مربع وهي مساحة متواضعة مقارنة بالدول المجاورة، إيران وتركيا والسعودية ومصر.

البلد	المساحة (ألف كلم مربع)	عدد السكان (مليون نسمة)	الناتج المحلي (مليار دولار)
العراق	435.24	37.2	597.0
سورية	185.18	18.43	36.0
الأردن	89.34	9.5	86.1
فلسطين	27.00	6.0	40.0
لبنان	10.45	6.0	85.2
المجموع	747.2	77.1	866.8

مصدر: البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وموقع الـ"سي آي إيه" لسنوات عدّة.

نبذة ذاتية عن المؤلف:

الدكتور كمال ديب كاتب وأستاذ جامعي

- كاتب لبناني كندي متخصص في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وله أكثر من 500 بحث ومقال في صحف ومطبوعات دورية متخصصة بالعربية والانكليزية والفرنسية، وصاحب أكثر من 20 كتاب منها: سورية في التاريخ - تاريخ لبنان الثقافي - يوسف بيدس امبراطورية انترا - روجيه تميز امبراطورية انترا - موجز تاريخ العراق - لعنة فايين وحروب الغاز.
- عضو جمعية الخبراء الاقتصاديين في كيبك وجمعية الخبراء الاقتصاديين الكنديين ولجنة مشروع "متروبوليس" الدولي لشؤون الهجرة والتعددية
- دكتور في البرنامج الاقتصادي لجامعتي أوتاوا وكارلتون وماجستير في الاقتصاد النظري من جامعة أوتاوا وماجستير في التنمية الدولية من معهد نورمان باترسون للدراسات العليا في أوتاوا
- حائز دبلوم دراسات عليا في التنمية الاقتصادية من معهد التعاون الدولي في جامعة أوتاوا ولسانس في الاقتصاد التطبيقي من جامعة أوتاو وبكالوريوس في اللغة الألمانية وآدابها، جامعة أوتاوا
- يجيد 4 لغات كتابة وقراءة وتكلماً: الانكليزية والفرنسية والعربية والألمانية ومبتدئ في اللغتين الايطالية والاسبانية.
- يهتم بالسلم الأهلي في لبنان وبالخطوات نحو دولة مدنية ونظام رعاية اجتماعية في لبنان وباحث في شؤون العراق وسورية وفلسطين والخليج.